

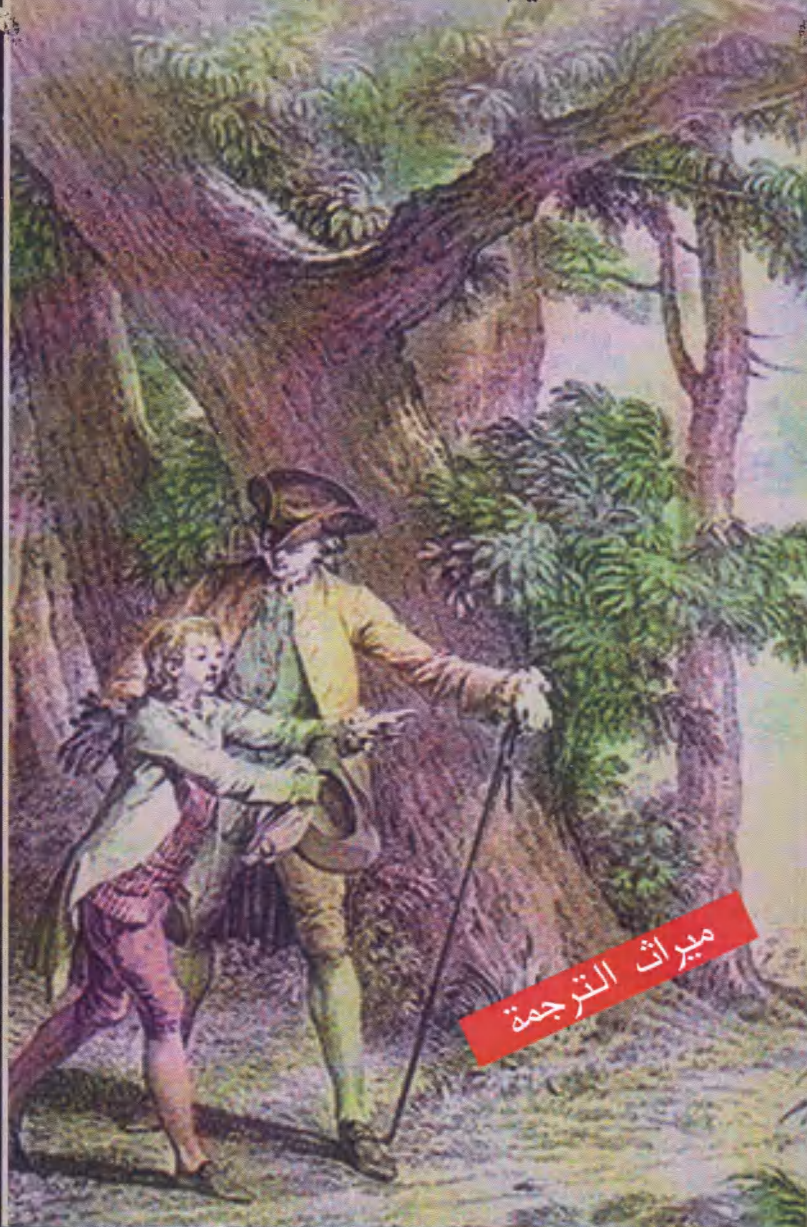
مكتبة
القراء العرب

جان جاك روسو

إميل أو التربية

ترجمة: عادل زعيتر

تقديم: محمود كامل الناقبة



ميراث الترجمة

1953



سفر جليل لعلم بارز من أعلام الفكر العالمى يكشف عن مهابة
التربية وجلالها، وهو معين لكل القائمين على عملية التنمية البشرية من
مخططين ومنفذين ومقومين ومشاركين، ولكل الدارسين والباحثين
الأكاديميين فى ميدان التربية. وينطلق مؤلفه من تطور راسخ لديه،
وهو الطبيعة الفطرية للإنسان، وكيف أن التأثير بضغوط المجتمع مفسد
لهذه الطبيعة.

إميل أو التربية

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1953
- إميل أو التربية
- جان جاك روسو
- عادل زعيتر
- محمود كامل الناقة
- اللغة: الفرنسية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Émile ou de l'Éducation
Par: Jean Jacques Rousseau

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

إميل أو التربية

تأليف: جان جاك روسو

ترجمة: عادل زعيتر

تقديم: محمود كامل الناقطة



2015

بطاقة الفهرسة	
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية	
إدارة الشئون الفنية	
روس، جان جاك ١٧١٢ - ١٧٧٨	
إميل أو التربية / تأليف: جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر،	
تقديم: محمود كامل الناقه؛	
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥	
؟؟؟؟ ص، ٢٤ سم	
١ - التربية	
(أ) زعيتر، عادل (مترجم)	
(ب) الناقه، محمود كامل (تقديم)	
(ج) العنوان	
٣٧٠	
رقم الإيداع: ٢٠١١ / ٢٠٥٢٨	
للتقييم الدولي: 4 - 864 - 704 - 977 - 978 - I.S.B.N	
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية	

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

يتطلع كل أب وكل أم إلى تربية أبنائهم تطلع الآمل، ويسعون إلى هذا الأمر كالسعى نحو تحقيق حلم وإنجاز رسالة، كما يجتهد كل مرب بأى صفة أن يحقق الأهداف التربوية التى يخطو باجتهاد نحوها وإنجازها، بل ويحرص كل من يعمل فى ميدان التنمية البشرية على إحداث هذه التنمية بشكل جيد ومتقن، وهم جميعا فى حاجة إلى رؤى مختلفة، وآراء متعددة، ومبادئ نافذة، ومراجع شاملة تعينهم على تحقيق آمالهم وأحلامهم وإنجاز رسالتهم وأهدافهم ومن ثم إحداث تنمية بشرية لمجتمعاتهم، وليس أفضل من أن نقدم لهم كتابا عمدة فى هذا الميدان، مر على نشره ما يربو على ثلاثة قرون من الزمان، ولكنه يظل حديث الركبان حتى الآن، فمؤلفه علم يرفرف فى سماء الفكر العالمى والفلسفة الاجتماعية العميقة والرأى الناظر، وهو نجم من نجوم إحدى الثورات العالمية التى أثرت فى حركة الأمم والشعوب وما زالت تؤثر، ذلكم هو كتاب الفيلسوف والمفكر الفرنسى جان جاك روسو (إميل أو التربية).

إنه لحرى بكل مرب أن يقرأ هذا الكتاب بصرف النظر عن أن الكثير مما جاء فى هذا الكتاب قد يثير النقاش والحوار والجدل والاتفاق والاختلاف ، بل وقد يثير اتهامات عديدة لمؤلفه. إنه سفر يكشف عن مهابة التربية وجلالها ، هو معين يردده ويستمد منه العون كل القائمين على عملية التنمية البشرية من مخططين ومنفذين ومقومين ومشاركين ومساهمين ومستفيدين، بل كل الدارسين والباحثين والأكاديميين المعنيين بهذا الأمر.

هو مرجع موسوعى متعدد الأبعاد لكل مشغل بالتربية والتنمية البشرية ولكل باحث فيها ومتخصص فى أبعادها المختلفة. هو مرجع أكاديمى لكل محترف فى ميدان التربية والتنمية البشرية.

ولقد ظل هذا الكتاب مع هذا العمر المديد مصدراً لكتابات عديدة ودراسات وبحوث تربوية ونفسية وثقافية كثيرة، منها المؤيد ومنها المعارض، ومنها الناقد ومنها العارض، ومنها المستخلص المجدد، ومنها المعدل المطور، وتم هذا بلغات عديدة ونظرات متباينة، ولم تنقطع هذه الكتابات حتى الوقت الحاضر المعاصر، كما تلاقى رأى هذا الكتاب ونظرياته وفلسفته ومبادئه مع رؤى ومبادئ أخرى لتشكل فى النهاية مناظير تربوية ونفسية عامة سادت التفكير التربوى شرقاً وغرباً لفترات طويلة، ورغم من يرى أن النظرة إلى الكتاب الآن تجعله يأخذ مكانه فى متحف الفكر التربوى النفسى الفلسفى إلا أنه يظل مثيراً للفكر مولداً للرؤى داعياً للإعجاب، لأنه ومنذ أن نشر يظل مصدراً من مصادر التنوير التربوى والنفسى، ومرجعاً للعديد من النظريات التربوية التى يحتاج لمن يستخرجها وينسجها ويحدد معالمها ويضع أسسها ويرسم تصورات وسيناريوهات تطبقها، مصداق ذلك ما فعله روسو مع إميل فى هذا الكتاب.

وينطلق روسو فى كتابه من منظور راسخ لديه يؤسس عليه تربية إميل وهو الطبيعة الفطرية للإنسان، فهو يولد على الفطرة نقياً كالصفحة البيضاء دون شوائب، وهو بهذا لديه استعداد لأن يكون كذلك لأن طبيعته هكذا، وهى طبيعة بعيدة عما يحدثه المجتمع فيها من فساد، فمغادرة الإنسان لهذه الطبيعة ومعايشته للمجتمع وتأثره بضغطه تفسد هذه الطبيعة وتلوثها، فهو فى التربية الطبيعية يتناول ثماراً ناضجة طازجة لم يتدخل المجتمع فى إثمارها، كما أنه ثمرة ينبغى أن تتضج فى بينتها الطبيعية هواء وشمساً وتربة وماء، مكتشفاً منطلقاً متحرراً من قيد التعليم النظامى فينمو ويتنفس بشكل طبيعى، وكأن روسو يقول لنا: أطلقوا صغارنا من معتقلاتهم.

وعندما ينطلق روسو من الطبيعة الفطرية للإنسان فإنه يوجهنا إلى أنها طبيعة يتطلب الأمر دراستها وفهمها وتأملها وتحديد ملامحها وخصائصها وكل ما يتصل بماهيتها وجوهرها حتى تنطلق التربية من هذا الفهم الحقيقي لهذه الطبيعة.

هذه النظرة التي أقام عليها روسو تربية إميل تتادى بإبعاد الطفل في طفولته المبكرة عن المضامين الثقيلة والمجردة المتصلة بالمجتمع والدين والأخلاق، والتي لا تأخذ في اهتمامها تلك المنطلقات الأساسية للتعليم الجيد المتمثلة في الاندهاش والتساؤل والعطش إلى المعرفة، كما تتادى باعتماد التربية على النشاط واللعب المنظم والسماح للأطفال بأن يكونوا أطفالاً، ويمارسوا النشاط الحر المحبب لهم بما ينمى لديهم الإبداع والفضول الطبيعي.

كما أنها تقرر التعلم المستمر الذي لا ينقطع بعمل أو مهنة أو زواج، فهذه الأمور ينبغي اعتبارها بدايات جديدة للتعلم وليست نهايات لتعلم سابق.

ولعل مما يمكن استنتاجه من هذه النظرة كمبادئ تربوية ما يلي:

- اتخاذ الأناة والتدرج والتفاهم والبعد عن العقاب أسلوباً لتعليم الأطفال إيماناً ببراءة الطفل وأنه يولد بفطرة سليمة وطبيعة خيرة.
- ترك الطفل يتحمل مسئولية تعلمه بنفسه فتتمو لديه مهارات التفكير واكتشاف المفاهيم والحقائق ذاتياً .
- تجاوب المعلم مع اهتمامات الطفل ليتعلم ما يرغب في تعلمه وليس ما يرغب الكبار، ومن ثم ينبغي أن تكون ميوله وحاجاته ومتطلباته وآماله وطموحاته أساس تعلمه.
- اتصاف المواقف التعليمية بالتشويق والإثارة، وهذا يتطلب أن نتيح هذه المواقف للطفل الحرية في الحركة والنشاط والتفاعل والممارسة، حيث يتعلم من الطبيعة ما يحتاج إليه لينشأ وفق قوانين الطبيعة.

كما يمكن أن نرى فى ضوء هذه النظرة وأبعادها المتعددة وانعكاساتها أن التربية عند روسو مراحل تتسق مع مراحل النمو الطبيعى، ومن ثم فالنمو عنده تطور وتطور لإمكانات البشر، وهو بهذا يتسق وطبيعة التطور التى تتطلب التدرج انتقالا واتساعا وعمقا، فهو يتناول طفولة مبكرة، وطفولة متأخرة، وبقاعة وشبابا، وفتيانا وفتيات، وهو فى كل ذلك يجعل لكل طور فلسفته ومنظوره وطبيعته، فيتربى الطفل فى ظل أمر ما أولاً، ثم ينمو فى ظل أمر آخر ثانياً، وهكذا تتسق هذه الأمور مع طبيعة كل طور وكل مرحلة.

خلاصة القول : إن روسو فى كتابه تناول موضوع التربية من منظور أن تكون هذه التربية عملية طبيعية تحفظ على الطفل نقاءه مع انتقاله من مرحلة إلى أخرى.

ولقد أثار هذا الكتاب جدلاً حول : هل هو كتاب يدخل بمحتواه دائرة الفكر التربوى المنظم أم لا؟ ورغم إنكار البعض لكونه كتاباً تربوياً بالمعنى المنهجى للتربية فإن هذا الإنكار لا يستند إلى مبررات تصمد أمام المناقشة الموضوعية، ذلك أن روسو لم يكتب كتابه هذا فى ضوء تراث تربوى سابق حافل بالنظريات، وإنما جاب عالم تربية (إميل) بطريقة من يسبح فى محيط يلتبس شواطئه ويحاول النزول إلى أعماقه، مسجلاً هذه الرحلة لمن يريد أن يقرأها ويتأملها وينسج منها نظريات تربوية، ذلك أن روسو كان يؤمن بأن تربية المواطن الصالح قضية تستحق أن يؤلف فيها وحولها هذا الكتاب الضخم، ولقد جاء هذا المعنى على لسانه فى مقدمة الكتاب حيث يقول: لم أكتب حول أفكار الآخرين، بل عن أفكارى، ولا ينبغي أن أرى كما يرى الآخرون، وهذا ما ألام عليه منذ زمن طويل، ولكن هل أستطيع أن أمنح نفسى عينيّن آخرين، أو أنتحل أفكاراً أخرى؟ كلا، وإنما أستطيع ألا ألترم آرائى، وألا أعتقد أننى أكثر حكمة من جميع الناس، كما أننى أستطيع أن

أرتاب من شعورى لا أن أغيره، وهذا كل ما أستطيع فعله، وهذا ما أفعله، وإذا حدث أحيانا أن اتخذت لهجة جازمة فليس هذا لتفرض على القارئ، وإنما لأخاطبه كما أفكر، ولم أعرض فى قالب من الشك ما لا أشك فيه" وكأنما يقول روسو : اقرعوا كتابيه عليكم تجدون فيه ما يمكن أن يسهم فى التربية باعتبارها علم حياة طيبة.

ويعد هذا الكتاب فى رأى كثير من التربويين من أمتع ما ألف فى التربية على الإطلاق، حيث يقول مترجمه "وسيبقى هذا الكتاب معتمدا لدى جهازة التربية والتعليم، يعملون عليه، ويهتدون به فى ظروفهم التعليمية ومذاهبهم التهذيبية- وليس من المبالغة أن يقال: إن علماء التربية فى العصر الحاضر مدينون له فى أساليبهم، وإن التربية الحديثة من آثاره".

ولعل مما يشدنا لقراءة هذا الكتاب، وييسر هذه القراءة ويجعلها شائقة أن روسو قد نسجه نسجا أدبيا روائيا أخذ شكل فصول لرواية سيكولوجية جعل بطلها الطفل "إميل" الذى يدير حوله وبه رؤيته التربوية.

والسؤال الرئيسى الذى يبرز فى هذا السياق ولا يمكن إغفاله فى تقديم كتاب (إميل) للمفكر والفيلسوف الاجتماعى التربوى جان جاك روسو هو:

ما التربية؟

الحديث عن تربية الأبناء هو حديث -إذا صح التعبير- عن صناعة ثقيلة، بل حديث عن الصناعة الثقيلة فى حياة البشر، فهى أصلاً صناعة البشر، ومن ثم صناعة التنمية بكل معانيها وأبعادها وأنواعها ومكوناتها، ولن نكون مغالين عندما نقول إنها صناعة الحياة، ونقصد بالحياة فى هذا السياق المعنى الذى يتسق وطبيعة ومفهوم "التربية" ألا وهو صناعة الحياة الطيبة أى حياة الجودة.

ولعل هذا المعنى الأخير يدعونا إلى برهنته والتدليل عليه والاستشهاد، حيث نقول: إن كل شيء على وجه البسيطة التي نعيش عليها هو -بقدره الله وإرادته- نتاج عقل بشري أى نتاج كل بشري، فإذا جادت عملية تربية هذا العقل أى الإنسان فى كله جاد كل شيء على وجه الأرض، ومن ثم جادت الحياة، فكان جودة التربية هى جودة الحياة.

والإقرار بأن جودة التربية هى جودة الحياة، يؤكد أن التربية إذن صناعة ثقيلة، القائمون عليها بشر، ومحتواها بشري، ومخرجها بشري، ومن هنا فصناعها عديدون يوجدون فى حياة الطفل، منذ كان طفلاً وحتى يصير شاباً يافعاً، فهم الأب والأم والأسرة، وهؤلاء يمثلون المؤسسة الرئيسة فى هذه الصناعة، ثم الطبيعة والأقران والنوادي وتجمعات النشاط ودور العبادة والثقافة والفنون، إلى غير ذلك، وكلها مؤسسات تشترك فى هذه الصناعة وترفدها. هذه المؤسسات فى اشتراكها ومشاركتها فى صناعة التربية، ومن ثم صناعة البشر إنما تؤكد أهمية القوى البشرية تلك التى تجعل للوجود حياة، والمجتمع أى مجتمع إنما يستند فى بنيته الأساسية هيكلاً ومحتوى على مصدرين أساسيين هما الموارد الطبيعية والموارد البشرية، فهذان المصدران يمثلان جناحاً للتنمية، إلا أن أهمية الموارد البشرية أى الطاقات البشرية تفوق أهمية الموارد الطبيعية، ذلك أن الموارد الطبيعية التى وهبها الله لنا لا تمثل إلا طاقة خامدة لن نحركها ونستغلها ونفعلها وتنميها وتستثمرها إلا الطاقة البشرية، التى هى المادة الخام، وفى الوقت نفسه المنتج العظيم لصناعة التربية، ولذا فالطاقات البشرية هى الأساس فى التنمية؛ لأنها تمثل مصدراً ومورداً، وفى الوقت نفسه تمثل أساليب ووسائل استغلال الموارد الطبيعية وتنميتها.

إن فالترية هى القلب النابض فى جسم التنمية البشرية، ومن ثم فى جسم أى أمة، فهى التى تجدد الدم فى عروق الأمة وشرابيتها، وأى اضطراب فى هذا

القلب هو اضطراب وضعف لجسم التنمية، ومن ثم لجسم الأمة وعقلها وروحها، وما الأمة وما التنمية إلا شخصية تربت وتعلمت وتقف وأنتجت، ومن ثم فالاستثمار في التربية والتعليم هو أكثر الاستثمارات عائداً، حيث تبوأ صناعة البشر قمة الهرم بصفقتها أهم الصناعات في عصر المعلومات، بل تظل أهم الصناعات في كل العصور سابقة ولاحقة.

إن التسليم بأن التربية - والتعليم جزء منها- هي أدوات للتنمية البشرية ومن ثم أدوات لكل التتميات، يحتم علينا أن نسلم أيضاً بأن التنمية القائمة على الجودة الشاملة - وهي حتمية عصرية لا مفر منها- لا بد أن تبدأ بالإنسان، ذلك لأن أى جودة شاملة لا بد أن تكون - كما سبق أن أشرنا- منتج عقل وجهد إنسانيين، ومن ثم ما لم تتوافر الجودة الشاملة في هذا الإنسان انعدمت في غيره، سواء أكان هذا الغير منتجاً مادياً (شيئاً) أم منتجاً بشرياً إنسانياً. ولعل هذا المنظور يقرر ضرورة أن تستوفي التربية في الإنسان الشروط والمواصفات القياسية للجودة الشاملة عقلاً وأداءً ووجداناً باعتبار أن هذا الإنسان - وهو منتج تربوى- نقطة البداية والوسط والنهاية في إحداث التنمية ومن ثم الحياة بمعناها الإنسانى، فهو الكنز المكنون الذى يجعله المفكرون مصدر القوة على هذه المسكونة من حيث إن أساس التنمية لم يعد فى باطن الأرض ولا فى رأس المال، وإنما فى عيون عقل هذا الإنسان، وسمو روحه، وومضات إبداعه ونبضات فكره.

وتبدأ التربية - بكل هذه المعانى- بالطفل غرساً لها، هذا الطفل أى الإنسان الذى وضع أحد المفكرين صورة تشرحية لإمكانية عقله فقال: "يملك كل تلميذ فيما بين أذنيه ما يساوى "كمبيوتر" بثلاثة بلايين دولار. هذه الأبطال الثلاثة القلوب الكهروكيميائية عبارة عن جهاز يعتمد على الجليكوز عند ٢٥ واتاً، ويحتوى على ما بين ١٠ - ١٠٠ بليون عنصر منطقى تسمى الخلايا العصبية، وتعمل بمعدل ١٠

سيكلات (أى دورات) فى اللحظة، وتحتوى خلاياه العصبية على ٥٠ بليون جهاز استقبال مكبر، يستقبل مائة ألف من الأفكار المترابطة من الخلايا الأخرى" (*).

إن قدرة هذا الجهاز - أى العقل البشرى - على تخزين المعلومات تمكنه فى أثناء الحياة من تخزين عدد من البلايين لا نهاية له من المعارف والمعلومات متفوقا بذلك على أعظم كمبيوتر اخترعه الإنسان" ، سبحان الله جلّت قدرته.

مع مثل هذا العقل بكل هذه القدرات، ومع مثل هذا الإعجاز الذى منحه الله للبشر نساءل: كيف يمكن أن ندخل بالتربية الصحيحة لصاحب هذا العقل المعجز!!!

وتصبح الإجابة عن مثل هذا التساؤل قضية شديدة الأهمية، عظيمة الأثر، الحاجة إليها ضرورية، والاحتياج إليها كبير فى ظل ظروف وشروط راهنة تجعلنا نترقب تلك الإجابة عطشى، وننتظرها مثلثفين، فها هى العملية التربوية الآن قد أصبحت يتيمًا بلا راع، وفرضا بلا مؤد، وشرينا جفت فيه الدماء، بل تحولت إلى جسم افتقد طبيبه فأصابه الهزال، أى أن صناعتنا الثقيلة ضعفت فلا منتج يستحق التقدير، ولا بشر يحوز مقومات الجودة، ولا حياة إنسانية تستقيم.

لقد فارقت الأسرة مسؤولياتها التربوية، وعادت مشغولة بأمور توفير المقومات الدنيا لحياتها، فالأم تعمل، والأب يكافح، والأبناء يعانون الافتقار إلى الدفء الأسرى وحنان الأمومة وتوجيه الأب، تخلت الأسرة عن التربية، ورفعت أيديها عن رسالتها فى بناء البشر وهم فى نطاقها أطفالها، حتى الأسرة التى لم تتخل عن هذه الرسالة أصبحت تؤذيها دون معرفة بطرقها ووسائلها وأساليبها وفنياتها، ودون إدراك لطبيعتها، وهى فى هذه الحال أحوج ما تكون لأن تعرف، ولأن تعلم من أين تعرف.

(*) Bear, Stafford. Designing Freedom. CBC. Massy lectures (1973), Toronto, Candian Broadcasting corporation publications (1974).

كما فارقت المؤسسة التربوية الثانية وهى المدرسة أهم واجباتها، وأقدس أهدافها وهى التربية، وانكفأت على عملية تعليم وتعلم تلقينية ضيقة قد تنمى العقل قليلاً، ولكنها تعجز عن تربية الكل الإنسانى بالمفهوم القيمى التتموى.

وبانفراط عقد التربية فى هاتين المؤسستين الرئيسيتين انفطرت حبات العقد كلها مما أشرنا إليه من مؤسسات التربية، وأصبح الحال فى حاجة إلى عودة إلى المراجع الفلسفية التربوية لا لنعثر فيها على طريقة تربوية محددة، أو أساليب وفتيات معتمدة لهذه العملية، ولكن لنستمد منها تنويراً وتنوراً نهتدى ونستعيد به كيان هذه العملية التى أبرزنا قيمتها فى سطور سابقة.

ولعل من أبرز هذه المراجع هذا الكتاب الذى تحدثنا عنه وهو (إميل أو التربية) كتاب الفيلسوف الاجتماعى التربوى جان جاك روسو، والذى يفرض هذا السياق أن نعطي لمحة سريعة وموجزة عن أجزائه ومراحله.

يشتمل الكتاب على خمسة أجزاء على النحو التالى:

الجزء الأول: ويتناول فيه روسو تربية الطفل (إميل) فيما بين السنة الأولى والخامسة من عمره تربية جسمية تستهدف تقوية هذا الجسم، والابتعاد به عن الخبرات المعرفية والأخلاقية أى التربية العقلية، والاستجابة لميوله وحاجاته ومتطلباته التى تشبع عادة، وفى مثل هذه المرحلة، من خلال النشاط والحركة واللعب والخروج إلى الطبيعة ومعايشتها.

الجزء الثانى: ويعرض فيه المرحلة الثانية من تربية (إميل) والتى تبدأ من سن الخامسة إلى سن الثانية عشرة، وهى استمرار للتربية الجسمية التى تستهدف تقوية الجسم والاعتناء بأعضائه وحواسه ليقوى على الاتصال بالعالم الخارجى، ويتحمل خبرات جديدة، على أن يتم ذلك من خلال المعاشة المباشرة للطبيعة،

وقضاء وقت طويل فى أحضانها، وإتاحة الفرصة أمامه ليستجيب لهذه الطبيعة وفقا لطبيعته هو ليس وفقا لما نريد، مكتسبا من خلال ذلك القدرة على الوصول إلى استنتاجات جديدة فى ضوء ما لديه من خبرات فنتركه يقيس ويزن ويخطط ويجرب، ومن ثم يكون اكتساب الطفل لخبراته من خلال الاحتكاك بالطبيعة أفضل من القراءة، ومن خلال المباشرة بنفسه وليس من خلال المربي الذى لا يبدأ عمله مع الطفل إلا من سن الثانية عشرة .

الجزء الثالث: وينتقل فيه روسو إلى المرحلة الثالثة من تربية (إميل) وهى من سن الثانية عشرة وحتى الخامسة عشرة، وتبدأ فيها التربية العقلية التقنية التى تخففت منها المرحلتان السابقتان، وفى هذه المرحلة يكون الطفل قد نضج جسديا وعقليا بما يمكنه من تعلم العلوم المختلفة، وذلك عن طريق قيام المربي بتلقيه الحقائق بالإلهام من خلال مظاهر الطبيعة المختلفة، والسماح له بقراءة بعض الكتب المناسبة لقدراته، وهنا يرى روسو أن الميادين المعرفية المناسبة لأن تقدم لإميل فى هذه المرحلة هى العلوم الطبيعية والفلك والجغرافيا والرياضيات لمساعدته على تعلم مهنة ينكسب منها.

الجزء الرابع: ويخصصه روسو للمرحلة الرابعة من تربية (إميل) والتى تمتد من سن الخامسة عشرة إلى سن العشرين، حيث تتجه تربية إميل إلى التربية الخلقية والدينية التى يكون إدراكه قد نضج للتعامل معها، باعتباره شابا يافعا يتلمس بها الخير. وفى هذه المرحلة تتسع دائرة الشاب للتعامل مع المجتمع ومع البشرية أى التواصل مع الآخرين.

الجزء الخامس: وينتقل فيه روسو إلى مرحلة جديدة من تربية (إميل) حيث يلتقى إميل بالفتاة (صوفى) التى يعالج هذا الجزء تربيتها على أساس من مستقبلها مع زوجها لا على أساس تعلمها العلوم، لأنه يرى أن تعلم المرأة مفسدة للحياة

الزوجية، ولقد أدت تربيته وتربية إميل إلى جعلهما أهلاً للزواج، ولكنهما لا يتزوجان إلا بعد أن يقوموا برحلة تستغرق عامين، يجوبان فيهما دولاً مختلفة، ويتعرفان على أنظمتها الاجتماعية وعلى شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم.

هذه مقدمة تمثل سباحة فكرية سريعة وموجزة جابت كتاباً في التربية له منزلته في الفكر التربوي والفلسفي، ولصاحبه مكانة عالمية مفكراً وفيلسوفاً، علماً بذلك نكون قد فتحنا نافذة جديدة لقراءة ممتعة ومفيدة.

محمود كامل الناقة



جان جاك روسو

(١)

مقدمة المترجم

أَقْدَمُ تَرْجَمَةَ « إميل أو التريبة » لجان جاك رُوسُو . . .

ذهب ابنُ جِنِيفَ البَاسُ ، رُوسُو ، إلى باريسَ سنة ١٧٤١ ، وكان في التاسعة والعشرين من سِنِيهِ ، وذلك بعد أعوامٍ من الشقاء قضاها متنقلاً بين مُدُنٍ وأريافٍ من سويسرة وإيطالية وفرنسة جاداً في كَسْبِ عيشه ، وفي باريس يَنْزِلُ بِفُنْدُقِ سانِ كِنتانِ الحَقِيرِ حيث يَقَعُ نَظَرُهُ على خادمةِ الفُنْدُقِ الريفية الساذجة ، تِرِيرِزِ لُوفاسُورِ ، التي كان الناسُ يَسْخَرُونَ بها لِبَلَاهَتِها ، وَيَرِيقُ لها رُوسُو قِيَّةً خِذُّها رَفيقةً له عن حُبِّ وعاطفة ، ويغادران الفُنْدُقَ وتُدومُ حَيَاتُهُما معاً سِتّاً وعشرين سنة .

والحقُّ أن تِرِيرِزَ كانت كثيرة الغباوة ، وكانت لا تُحَسِّنُ شَيْئاً من القراءة والكتابة ، ومع ذلك كان رُوسُو كثيرَ الإعجاب بها ناظراً إليها بعينِ الحُبِّ راضياً بجمالها وحُسْنِ صوتها متجاوزاً عن عيوبها وفقْرِها مُغْضِياً عما يَفْصِلُها عنها من عبقريةٍ ونُبُوغٍ ، وقد دامت حاله هذه نحوها اثنتي عشرة سنة . وَتَغَيَّرَ حُبُّ تِرِيرِزَ له مع الزمن ، وصارت لا تبالى به ولا تُفَسِّرُ فيه وطلبت منه الفِراقَ قبل موته بتسع سنين ، فقد وَلَدَتْ له خمسة أولاد ، وسَلَّمَهُم إلى ملجأ اللَقَطَاءِ ، وذلك من غير أن يَتْرُكَ ما يدلُّ على أصلهم في المستقبل ، وَيَمْتَنِرُ رُوسُو عن ذلك بفقره واضطراره إلى كَسْبِ عيشه بِكَدِّهِ ، وإن كان يَهْدِفُ في الحقيقة إلى الحياة الحرة الطليقة التي لا تَشْغَلُ باله بَوْلَدَ ،

وفى ذلك من الابتعاد عن الإنسانية والمروءة والشعور بالواجب ما لا يخفى ، وقد أراد رُوشو أن يكفّر عن هذه الخطيئة التى لا تُغتفر بوضع كتاب « إميل أو التربية » العظيم الشأن ، وقد ذكر رُوشو فى « اعترافاته » أنه صرّح رسمياً بزواجه بتريز بعد معاشرته إياها ربّع قرن ، وقد صرّفها بذلك عن طلبها الفراق ، فظلت رفيقة له إلى أن مات ، وإن لازمها الغمّ والألم حزنًا على أطفالها أولئك .

ذهب رُوشو إلى باريس كما قلنا ، وفى هذه المدينة قضى حياةً عسيرة ، فقد كان يتعمّش من استنساخ القطع الموسيقية فيها مع قبوله فى ردها المجتمع الراقى ، ثم يذهب إلى البندقية سكرتيراً لسفير فرنسا ، ثم يعود إلى باريس ويرتبط بأواصر الصداقة فى ديدرو الذى كان من رجال الشعب أيضاً فيقضى حياةً شاقةً مثله فى باريس .

وبينا كان ذلك حال رُوشو فى سنة ١٧٤٩ ، وقد كان ابناً للسابع والثلاثين من عمره ، نشرت أكاديمية دييجون إعلان مسابقة فى موضوع : « هل أدّى تقدم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو إلى إصلاحها ؟ » ، وكان صديقه ديدرو فى سجن قنسن وقتئذٍ بسبب « رسالته عن العنى » ، فاطلع على ذلك الإعلان حين ذهابه إلى زيارته ، فعنّ له وهو فى الطريق أن يشترك فى المسابقة ، ويكلّم ديدرو فى الأمر فيشير عليه بالتزام جانب إفساد العلوم والفنون للأخلاق لما فى هذا من طرافة وتوجيه نظير ، ولما ينطوى التزام جانب إصلاحهما للأخلاق من ابتذال .

ويفعل رُوشو ذهنه ، ويجمع قواه ، ويكتب فى الموضوع ، ويُقيم

الدليل على أن العلوم والفنون أفسدت الأخلاق وأوجبت شقاء الإنسان ،
ويدعى أن الترف والحضارة من نتائج العلوم والفنون وأنها علةُ فساد الأخلاق ،
فقال بالرجوع إلى الحال الطبيعية .

وكتب رؤسُو رسالته تلك بقلمٍ حارٍّ وعاطفةٍ جارفة ، فجاءت مبتكرةً
في مجتمعٍ بَلَغَ الغاية من المدنية مخالفةً لِمَا عليه الجمهور ، فقال رؤسُو بها
الجائزة ، ويُعدُّ رؤسُو في رسالته تلك كالحامى الذى يلتزم طرفاً واحداً في
المرافعات فيضُعبُ تصديقَ حِدَّتِهِ في تمثيل دوره ، ولذلك تَتَجَلَّى رسالته
تلك في كونها مفتاحاً لنشوء رؤسُو الذهنيِّ وفي كونها مرحلةً مؤديةً إلى
« العُقد الاجتماعي » و « إميل أو التربية » .

وَيَذِيعُ صِيتُ رؤسُو بتلك الرسالة بعد خُمُولِ ذِكْرِ ، ويُعْجَبُ بها
كُتَّابٌ وَيَحْمِلُ عليها آخرون ، ويحيب رؤسُو عن النقد المُوَجَّهَ إليه بأنه
لم يُرد الرجوع بالناس إلى الوراء ، وإنما أراد العَوْدَ إلى الفضائل والابتعاد
عن الترف والريائيل وسيادة المساواة بين الأنام .

وفي سنة ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجُون مسابقةً أخرى عنوانها : « ما أصلُ
التفاوت بين الناس ، وهل أجازهُ القانونُ الطبيعيُّ ؟ » ، ويشترك رؤسُو في
المسابقة ، ولكنه لم يَنَلِ الجائزة لشدة حَمْلِهِ على الاستبداد ، وفي هذه الرسالة
يَسْتَخْصِنُ رؤسُو حالاً من الممجيّة متوسطةً بين الحال الطبيعية والحال
الاجتماعية يحافظ الناسُ بها على البساطة ومنافع الطبيعة وتَسُوْدُ فيها المساواة .

وفي سنة ١٧٥٥ نَشَرَ رؤسُو رسالةً « الاقتصاد السياسي » ، فرأى أن
الدولةَ هيئةً تَهْدَفُ إلى سعادة جميع أعضائها ، وجعل جميعَ وِجْهاتِ نظره في

الجباية تابعا لهذا الهدف ، وذهب إلى أن الكاليات وحدها هي ما يجب أن يكون تابعا للضرائب ، وإلى وجوب فرض ضرائب فادحة على أمور الترف ، وإلى عدم وضع ضريبة على الحاجيات كالقمح والملح .

ومن مطالعة كتاب « الاقتصاد السياسي » يُرى أن رُوسو كاد يبلغ به مرحلة النضج في آرائه السياسية ، فكان هذا مبشرا بكتاب « العقد الاجتماعي » وكتاب « إميل أو التربية » اللذين ظهرا سنة ١٧٦٢ .

حمل رُوسو « في العقد الاجتماعي » على الرق والتفاوت وناضل عن حقوق الإنسان ، وقال إن هدف كل نظام اجتماعي وسياسي هو حفظ حقوق كل فرد ، وإن الشعب وحده هو صاحب السيادة ، وكان يهدف إلى النظام الجمهوري ، فتحقق هذا النظام بالثورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين اتخذ « العقد الاجتماعي » إنجيل هذه الثورة .

ولم يقل رُوسو بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة ، ويقوم مذهبه على كون الإنسان صالحا بطبيعته محبا للعدل والنظام ، فأفسده المجتمع وجعله بئسا ، والمجتمع سيئ لأنه لا يساوي بين الناس والمنافع ، والملك جائر لأنه مقتطع من الملك الشائع الذي يجب أن يكون خاصا بالإنسانية وحدها فيجب أن يُقضى على المجتمع إذن ، وأن يُرجع إلى الطبيعة ، وهناك يتفق الناس بعقد اجتماعي على إقامة مجتمع يرضى به الجميع ، فيقيمون بذلك حكومة تمنح للجميع ذات الحقوق فتقوم سيادة الشعب مقام سيادة الملك ، وتنظم الثروة والتربية والديانة .

وفي كتاب « إميل » ظهر رُوسو الفيلسوف المرئي بجانب رُوسو الفيلسوف

الاجتماعي ، ويُعدُّ رُوسُو بهذا الكتاب مؤسسَ التربية الحديثة ، فيه ألقى دروساً مُمتعةً في تربية الأطفال ومذاهب التربية والفضيلة والحياة الزوجية ، وقد نال كتابُ « إميل » من بُعدِ الصيت ما أصبح معه مُعَوَّلَ علماء التربية ، وما عُدَّ معه إنجيلَ التعليم والتربية ، حتى إن الفيلسوف الألمانيَّ الكبير ، كُنت ، تأثرَ به كثيراً ، وكُنْتُ حينما أخذ يطالعه أبني مفادرة منزله إلى نُزهته اليومية قبل الفراغ من قراءته ، وكُنْتُ من تَعَلَّم تَمَسُّكه بنزهته تلك وعدمِ عدوله عنها إلَّا لأمرٍ جَلَل .

لقد عانى رُوسُو من ألوان الشقاء ما يُعاني أنفسُ الناس ، وقد أتاح له بؤسُه حياةً زاخرةً بالتجربة والاختبار ، ولكن عبقريةً مثلَ رُوسُو إذا ما جَرَّب واختبر نفَذَ في الحقائق نفوذًا لا يَتيسَّر لغيره من البشر إلا نادراً ، ويكون العبقرى أبلغَ تمييزاً إذا ما اقترنَ تقلبيه الأمور بما يَتَفَقُّ له من اطلاع واسع على كُتب غيره ، فبذلك يَمزُجُ ما جَرَّب بما قرأ مَزْجاً عجيباً فَيُبْرِزُ ما تَمَّ له على شكلٍ كامل الجِدَّة والإبداع ، وهذا ما حَدَثَ لِرُوسُو .

- أَبْصَرَ رُوسُو أن الإنسان يُولَدُ صالحاً خالصاً من المساوىء ، فلا يُحوِّله عن صلاحه إلَّا الإنسانُ الذي يعيش معه والبيئةُ التي تكتنفه ، فقام هَدَفُه على إنقاذ الإنسان من بُورَتِهِ ، وهذا لا يكون إلا بالعمل الذي يَحُلُّ به معضلاتِ الحياة فَيَدشُّعُرُ بالحياة التي يَقْضِيها كاملةً ، وهذا لا يتمُّ إلا بالتربية .

ففي « إميل أو التربية » أَوْضَحَ رُوسُو كيف يُنشَأُ الولدُ تنشئةً طَبِيعِيَّةً منذُ نُموِّه أظفاره حتى العشرين من سِنِيهِ قَيَصِيرُ صالحاً للزواج ، وهو قد وَقَفَ أجزاء الكتاب الأربعة الأولى على هذا الغرض كما وقف الجزء الخامس منه على

تنشئة الزوجة التي تصلح أن تكون شريكة له في الحياة فيستعدُّ بها وتستعدُّ به .
 وإن ما انطوى عليه كتابُ « إميل » من آراء عملية ونظرية انتهى
 إليها رُوسُو باختباره أثرَ به في عالم التربية مثلَ تأثيره في الثورة الفرنسية
 وعالم السياسة بكتابه « العقد الاجتماعي » ، وفي كتاب « إميل » ثار
 رُوسُو على مناهج التعليم القديمة وأساليب التربية العتيقة وبشَّرَ بمذهبٍ
 جديدٍ في التهذيب تبشيراً عُدَّ به رائدَ التربية الحديثة وقائدها ، فعدَّا
 « إميلُ » مناراً لمن يُريدُ أن يكون مُربيّاً ومصدراً لا يَنْضُبُ له مَعِينٌ
 لمن يَرْغَبُ أن يَضْرِبَ بسهمٍ وافٍ في ميدان التهذيب والتعليم على اختلاف
 مراحلها ، ابتدائيةً كانت هذه المراحل أو ثانويةً أو عالية ، لافترقَ في
 ذلك بين شرقِ الأرض وغربها .

ولا تَقُلْ إن الكتابَ وُضِعَ منذ نحو قرنٍ ، وهو خاصٌّ بالزمن الذي
 أُلِّفَ فيه ، فرُوسُو من العباقرة الذين يَنْفُذون ببيصائرهم حُجُبَ المستقبل ،
 وكتابُ « إميل » أُلِّفَ للأجيال التي تأتي بعد مؤلِّفه ، وسيَبْقَى مُفْتَعِداً
 لدى جهاذة التعليم والتربية يُعَوِّلون عليه ويهتدون به في طُرُقهم التعليمية
 ومذاهبهم التهذيبية ، وليس من المبالغة أن يقال إنه خيرُ كتابٍ ظَهَرَ حتى
 الآن في موضوعه ، وإن علماء التربية في العصر الحاضر مَدِينُونَ له في
 أساليبهم ، وإن التربية الحديثة من آثاره .

حقاً لم يَقُمْ كتابُ في التربية مقامَ « إميل » لإمام التربية والاجتماع
 رُوسُو ، وقد تُرْجِمَ هذا السِّقْرُ الخالدُ الجليلُ غيرَ مرة إلى معظم اللغات
 الأوروبية منذ وضعه ، وأصلُ الكتابِ صعبُ العبارة كثيرُ الإيهام والغموض

في مجموعه ، فأرجو أن أكون قد وفّقتُ لإزالة كثيرٍ من تعقيدِهِ في ترجّحتي هذه مع التزامي حرّفيّة النقل ، كما أرجو أن يقتطف العربُ من فوائده التعليمية والتّهذيبيّة التي لا حصرَ لها مثلما اقتطفَت أممُ العالمِ كلّها .

عادل زعيتر

« نابلس »

(٢)

الترجمة

مُقدِّمة المؤلف

بُدِئَ بهذه المجموعة من التأملات والملاحظات الخالية من الترتيب ،
ومن النَّسَقِ تقريباً ، إرضاءً لأمِّ صالحة تُعَرِّفُ أن تُفَكِّرَ ، ولم أُرِدْ في
البُداءِ غيرَ وضعِ رسالةٍ مؤلفة من بضع صَفَحات ، ويجتذِبني موضوعي على
الرغم مني فتَعَدُّوْهُ هذه الرسالة ، من غير أن يُحَسَّ ، مؤلفاً بالغ الضخامة
بما يشتمل عليه لا رَيْبَ ، ولكن بالغ الصَّغر بالنسبة إلى المادة التي يتناولها ،
وقد تَرَدَّدْتُ زمناً طويلاً في نشره ، وقد جعلني أشعر حين العمل فيه ،
غالباً ، بأنه لا يَكُنْفِي أن تُكْتَسَبَ كَرَارِيسُ قليلة لإمكان تأليفِ كتابٍ ،
وأرى ، بعد جهودٍ غيرِ مُجْدِيَةٍ بذلتها في سبيل تقويمه ، أن الواجب يقضي
بتقديمه كما هو ، مُقَدَّرًا أن من المهمِّ تحويلَ الانتباهِ العامِّ إلى هذه الناحية ،
وأن أفكارى إذا ما كانت فاسدةً لم أُضِغْ وقتي تماماً عند إبرازي ما يوجب
أفكاراً صالحةً ، ولا ينبغي للرجل الذي يُبْلَقُ ، من عُزْلته ، إلى الجمهور
أوراقه بلا مَدَحٍ أو مَكافَحٍ أن يخشى قبولَ أغاليطه من غير تمحيصٍ عند
رَآلِهِ ، حتى عند عدم علمه بما يُفَكِّرُ فيها أو يقال عنها .

وسأتكلم قليلاً عن أهمية التربية الصالحة ، ولن أقيفَ عند إثباتي كونَ
التربيةِ المعتادةِ فاسدةً ، فقد قام بهذا ألفُ رجلٍ قَبْلِي ، ولا أَرْغَبُ ،
مطلقاً ، في شَحْنِ كتابي بأمورٍ يَعْرِفُها جميعُ الناسِ ، وكلُّ ما أَلَحِظُ هو
أنه لم يَخْرُجْ منذ أمدٍ بعيدٍ غيرُ صُراخٍ ضِدَّ السِّفْهائِ القائمِ ، وذلك من

غير أن يَعْنُ لأحدٍ اقترح ما هو أصلح ، وَيَنْزَعُ أدبُ عصرنا وعرفانه إلى الهدم أكثر من البناء بمراحل ، وَيُلْتَزَمُ جانبُ اللومِ بلهجة أستاذٍ ، ولا بُدَّ في الاقتراح من اتخاذِ سبيلٍ آخرٍ أقلَّ مطابقةً لَزَهْوِ الفيلسوف ، ولا يزالُ مُذْسِيًّا فَنُّ تكوينِ الرجالِ الذي هو أولُ جميعِ المنافعِ مع كثرة الكتب التي ليس لها غرضٌ غيرُ النَّفْعِ العامِّ كما يُقال ، وَبَقِيَ موضوعي تامَّ الجِدَّةِ بعد كتاب لوك ، وأخشى كثيراً أن يَبْقَى هكذا بعد كتابي أيضاً .

ولا تُعرَفُ الطفولةُ مطلقاً ، وإذا ما اتَّبِعَ فاسدُ الأفكارِ عنها وُقِعَ في الضلالِ كما أُوغِلَ في السَّيْرِ ، وَيَسْتَمْسِكُ أَحْكُمُ الكتابِ بما يجب أن يَعْلَمَهُ الرجالُ غيرَ ناظرين إلى ما يُمكن الأولاد أن يَتَعَلَّمُوهُ ، وهم يَبْحَثُونَ عن الرجل في الولد دائماً غيرَ مفكرين في أمر الولد قبل أن يكون رجلاً ، وهذه الدراسةُ أكثرُ ما أَعْكِفُ عليه ، حتى إذا ما كان جميعُ منهاجِي وهيمًا زائفاً أمكنت الاستفادةُ من ملاحظاتي دائماً ، أَجَلْ ، قد أكون سيئَ البصرِ كثيراً فيما يجب أن يُصْنَعَ ، ولكنني أعتقد أنني أبصرتُ جيداً ما يجب أن يُتَنَاولَ من موضوع ، وابدأوا ، إِذَنْ ، بدراسة تلاميذك أحسنَ من قَبْلُ ، وذلك لأنكم لا تَعْرِفُونَهُمْ مطلقاً لا رَيْبَ ، وإذا ما قرأتم هذا الكتابَ بهذه النظرة حقاً لم تكن مطالعتكم إياه خاليةً من فائدةٍ لكم كما أعتقد .

وإذا نُظِرَ إلى ما يُدْعَى بالقِسْمِ المِنهاجِيِّ ، الذي ليس سوى سَيْرِ الطبيعة ، وَجِدَ أنه أكثرُ ما يَتَّبِعُهُ به القارئُ ، ولا مِرَاءَ في أنني سأهاجمُ من هذه الناحية ، وقد يكون هذا على حَقِّي ، وَسَيُظَنُّ أن رؤى حالمٍ تطالع

أكثر من مطالعة رسالة في التربية ، وما يُصنَّع ؟ لم أكتب حول أفكار الآخرين ، بل عن أفكارى ، ولا أرى كبقية الرجال مطلقاً ، وهذا ما ألام عليه منذ زمنٍ طويل ، ولكن هل أستطيع أن أمتنع نفسى عنيْن آخرين أو أن أتحدل أفكاراً أخرى ؟ كلا ، وإنما أستطيع ألا ألزِمَ آرائى وألا أعتدَّ أنى أكثرُ حكمةً من جميع الناس ، وإنما أستطيع أن أرتاب من شعورى ، لا أن أُغيِّره ، وهذا كلُّ ما أستطيع فعله ، وهذا ما أفعله ، وإذا حَدَثَ أحياناً أن اتخذتُ لهجةً جازمةً فليس هذا لتفرضَ على القارئ ، وإنما لأخاطبه كما أفكر ، ولم أعرضُ فى قارى من الشكِّ ما لا أشكُّ فيه من ناحيتى مطلقاً ؟ أقولُ ما يُمِرُّ فى ذهنى تماماً .

وإنى إذ أعرضُ إحساسى طليقاً ، وقلماً أقصِدُ به إلزاماً ، أضيف إليه ما لدى من أسبابٍ دائماً ، وذلك حتى تُوزَنَ هذه الأسبابُ فيُحكَمَ فى أمرى ، ولكننى ، وإن كنت لا أريدُ الإصرارَ على الدفاع عن أفكارى ، لا أجندنى أقلَّ التزاماً لمرضها ، وذلك لأن المبادئ التى أكون بها على رأىٍ مخالف لرأى الآخرين ليست خَلِيَّةً ، وهى من المبادئ التى يجب أن يُعرَفَ ما تنطوى عليه من صحةٍ وفسادٍ والتى تُوجبُ سعادةَ الجنس البشرى أو شقاءه .

وما فتىء الناس يقولون لى : « اقترح ما يُمكن فعله » ، وهذا كما لو كان يقال لى : « اقترح فِعلَ ما يُفَعَل ، أو اقترح ، على الأقلِّ ، خيراً يزدوجُ والشرُّ القائم » ، فمُشروعٌ مثلُ هذا يكون ، فى بعض الموضوعات ، أعرقَ فى الوهم من مشروعاتى بدرجات ، وذلك لأن الخيرَ

يَفْسُدُ في هذا الازدواج ولا يُشْفَى الشَّرُّ ، وَكُنْتُ أَفْضَلُ اتِّبَاعِ الْمِنْهَاجِ الْقَائِمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَى اتِّحَالِ مِنْهَاجِ نَصَفِ صَالِحٍ ، لِمَا يَكُونُ بِهِ قَلِيلُ تَنَاقُضٍ فِي الرَّجُلِ ، وَلِمَا لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ أَنْ يَهْدِفَ بِهِ إِلَى غَرَضَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَيَا أَيُّهَا الْآبَاءُ وَالْأُمَهَاتُ ، إِنْ مَا يُمَكِّنُ فَعَلَهُ هُوَ مَا تَرِيدُونَ فَعَلَهُ ، أَفَعَلَى أَنْ أَعْتَمِدَ عَلَى إِرَادَتِكُمْ ؟

وَفِي كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَشَارِيعِ يُنْظَرُ إِلَى أَمْرَيْنِ بَعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ : يُنْظَرُ إِلَى صِلَاحِ الْمَشْرُوعِ الْمَطْلُوقِ أَوَّلًا ، وَسَهُولَةِ التَّنْفِيزِ ثَانِيًا .
وَفِي الْأَمْرِ الْأَوَّلِ يَكْفِي لِإِمْكَانِ قَبُولِ الْمَشْرُوعِ ، وَسَهُولَةِ فَعَلِهِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ ، أَنْ يَكُونَ مَا فِيهِ مِنْ صِلَاحٍ ضِمْنَ طَبِيعَةِ الشَّيْءِ ، فَعِنَّا ، مَثَلًا ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ التَّرْبِيَةُ الْمَقْتَرَحَةُ مُنَاسِبَةً لِلْإِنْسَانِ مُلَائِمَةً لِلْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ .

وَيَتَوَقَّفُ الْأَمْرُ الثَّانِي عَلَى مَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مِنْ صَلَاتٍ وَاقِعَةٍ ، مِنْ صَلَاتٍ عَارِضَةٍ لِلشَّيْءِ ، مِنْ صَلَاتٍ غَيْرِ ضَرُورِيَةٍ مُطْلَقًا مِنْ حَيْثُ النَتِيجَةُ ، فَيُمْكِنُ أَنْ تَتَغَيَّرَ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، وَهَكَذَا فَإِنْ تَرْبِيَةً مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْمَلَ بِهَا فِي سُوَيْسِرَةٍ وَأَلَّا تُتَّخَذَ فِي فَرَسَةٍ ، وَإِنْ تَرْبِيَةً أُخْرَى يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صَالِحَةً لِلْبُرْجَوَازِيَةِ ، وَإِنْ تَرْبِيَةً غَيْرَهَا تَضِلُّحٌ لِلْإِشْرَافِ ، وَتَتَوَقَّفُ سَهُولَةُ التَّنْفِيزِ ، تَقْرِيبًا ، عَلَى أَلْفِ حَالٍ يَتَعَذَّرُ تَعْيِينُهَا بِغَيْرِ تَطْبِيقٍ خَاصٍّ لِلْمِنْهَاجِ عَلَى هَذَا الْبَلَدِ أَوْ ذَاكَ ، وَعَلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ أَوْ تِلْكَ ، وَالْوَاقِعُ أَنْ جَمِيعَ هَذِهِ التَّطْبِيقَاتِ غَيْرُ جَوْهَرِيَةٍ فِي مَوْضُوعِي فَلَا تَدْخُلُ ضِمْنَ مَشْرُوعِي ، وَيَسْتَطِيعُ آخَرُونَ أَنْ يُعْنَوْا بِهَا إِذَا مَا أَرَادُوا ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْبِلَادُ أَوْ الدُّوَلَةُ الَّتِي يَضَعُهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَضْبَ عَيْنِهِ ، وَيَكْفِينِي ،

في كلِّ مكانٍ يُؤلَّدُ فيه رجالٌ، أن يُصنَّعَ منهم ما أُقترح ، فإذا صُنِعَ
منهم ما أُقترحُ صُنِعَ أفضلُ ما يكون لهم ولغيرهم ، وإذا لم أفِ بهذا
العهد كان هذا خطأً مني لا ريبَ ، ولكنني إذا ما وقَّيْتُ به كان من
الخطأ أيضاً أن أُطالبَ بأكثرَ من هذا ، وذلك لأنني لا أعدُّ بغير هذا .

الجزء الأول

كلُّ شيءٍ يَصْنَعُهُ خَالِقُ الْبَرَايَا حَسَنٌ ، وكلُّ شيءٍ يَفْسُدُ بَيْنَ يَدَيِ
 الْإِنْسَانِ ، فَالْإِنْسَانُ يُلْزِمُ أَرْضًا بِإِنْمَاءِ غَلَّاتِ أَرْضٍ أُخْرَى ، وَالْإِنْسَانُ
 يُلْزِمُ شَجَرَةً بِحَمْلِ ثَمَارِ شَجَرَةٍ أُخْرَى ، وَهُوَ يَخْلُطُ بَيْنَ الْأَقَالِيمِ وَالْعُنَاصِرِ
 وَالْفُصُولِ ، وَهُوَ يَنْتَرُ كَلْبَهُ وَفَرَسَهُ وَعَبْدَهُ ، وَهُوَ يُخَرِّبُ كُلَّ شَيْءٍ وَيُسَوِّهُ ،
 وَهُوَ يُجَبِّئُ الْقُبْحَ وَالْمُسُوحَ ، وَهُوَ لَا يَرِيدُ شَيْئًا كَمَا صَنَعَتْهُ الطَّبِيعَةُ ، حَتَّى
 الْإِنْسَانُ ، فَيَجِبُ تَرْوِيضُهُ لِنَفْسِهِ كَالْفَرَسِ الرَّكُوبِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُكَفِّفَ
 عَلَى نَهْجِهِ كَشَجَرَةٍ فِي حَدِيقَتِهِ .

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَسَارَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَا هُوَ أَسْوَأُ أَيْضًا ، فَلَا يَرِيدُ نَوْعُنَا أَنْ
 يُصَوَّرَ نَصْفَ تَصْوِيرِ ، وَالْإِنْسَانُ ، فِي الْحَالِ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ
 بَعْدَئِذٍ ، يَبْدُو أَكْثَرَ مِنَ الْجَمِيعِ شَوْهًا إِذَا مَا تَرِكَ وَشَأْنُهُ بَيْنَ الْآخَرِينَ ،
 فَالْمُبْتَسِرَاتُ* وَالسُّلْطَةُ وَالضَّرُورَةُ وَالْقُدُورَةُ وَجَمِيعُ النُّظُمِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الَّتِي تَفَرَّقُ
 فِيهَا تَخْنُقُ الطَّبِيعَةُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَضَعَ شَيْئًا فِي مَكَانِهَا ، وَهِيَ تَفْدُو فِيهِ
 كَالشَّجِيرَةِ الَّتِي تُنْبِتُهَا الْمَصَادِقَةُ فِي وَسْطِ طَرِيقٍ فَلَا يَلْبِثُ الْمَارُّونَ أَنْ يَهْلِكُوهَا
 بِصَدْمِهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَحَنَوِهَا نَحْوَ كُلِّ نَاحِيَةٍ .

فَالْيَكِ أَوْجَهُ حَدِيثِي أَيْتَهَا الْأُمُّ الْحَنُونُ الْبَصِيرَةُ^(١) الَّتِي تَعْرِفُ أَنْ تَبْتَعِدَ

(١) التَّربِيَةُ الْأُولَى هِيَ أَكْثَرُ مَا يَهْمُ، وَلَا جِدَالَ فِي كَوْنِ هَذِهِ التَّربِيَةِ الْأُولَى خَاصَةً بِالنِّسَاءِ، وَلَوْ أَرَادَ
 خَالِقُ الطَّبِيعَةِ أَنْ تَكُونَ خَاصَةً بِالرِّجَالِ لَأَنَمَّ عَلَيْهِمُ بِاللِّبَنِ لِتَفْذِيَةِ الْأَوْلَادِ ، وَفِي كُلِّ وَقْتٍ، إِذَنْ، خَاطَبُوا
 النِّسَاءَ فِي رِسَالَتِكُمْ مِنَ التَّربِيَةِ تَفْضِيلًا، وَذَلِكَ أَنَّهُنَّ ، فَضْلًا مِنْ كَوْنِهِنَّ مَلْزَمَاتٍ بِالسَّهْرِ عَلَيْهِمْ عَنْ كُتُبٍ =

عن الشارع وأن تصون الشَّجيرة الناشئة من صَدَم الآراء البشرية ! وتعهدي
الفرس الحديث ورويه قبل أن يموت ، فستكون ثماره مدار سعادتك
ذات يوم ، وأقيمي مُبَكَّرَةً نِطَاقًا حَوْلَ روح ابنك ، أَجَلٌ ، يُمَكِّنُ
آخِرَ أَنْ يَرْزُمَ الدَّائِرَةَ ، ولكنه يجب عليك وحدك أن تَضَعِي
الحاجزَ^(١) .

وتُكَيِّفُ النباتات بالزراعة ، ويُكَيِّفُ الناس بالتربية ، وإذا كان
الإنسان يولد طويلًا قويًا فإنه لا فائدة له من قامته وقوته حتى يتعلم الانتفاع
بهما ، وهما يكونان وبالاً عليه عند مَنْع الآخرين من الإسراع إلى

== أكثر من الرجال ، وفضلا عن كونهم أكثر عملا فيهم ، يكثرن للنجاح أكثر من أكثر الرجال
بمراحل ما وجد معظم الأراذل تحت رحمة أولادهم تقريبا ، وما جعلهن هؤلاء الأولاد يشعرون شعورا قويا
في الخير والشر نتيجة الأسلوب الذي نشأهم عليه ، وإذا أن القوانين كثيرة العناية بالأموال قليلة العناية
بالأشخاص دائما ، وذلك عن هدف إلى الأمن لا إلى الفضيلة ، فإنها لا تمنح الأمهات سلطانا كافيا ،
ومع ذلك فإنهن أثبتت حالا من الآباء ، وأصبحت واجبا ، وإن رعايتهن أشد خطرا في حسن انتظام الأسرة ،
وإنهن أشد تعلقا بالأولاد على العموم ، أجل ، توجد أحوال يعذر فيها الولد ، نوعا ما ، إذا ما قصر في
احترام أبيه ، ولكن الولد في أي حال إذا كان من فساد الطبع ما يقصر معه في احترام أمه التي حملته في
بطنها وغذته بلبنها وغفلت عن نفسها في سنوات للعناية به وجب الإسراع في خنق هذا الشق كقول لا يستحق
الحياة ، وتلك الأمهات أولادهم كما يقال ، وهن يخطئن في هذا لا ريب ، ولكنهن أقل خطأ منكم أنتم
الذين يفسدونهم ، وتريد الأم أن يكون ولدها سعيدا منذ الآن ، وهي على حق ، وهي إذا ما أعطت في
الوسائل وجب تنويرها ، وماعند الآباء من طمع وبخل واستبداد وبصيرة زائفة وإهمال وغلظة أشد شوقا على
الأولاد مرة من حنان الأمهات الأعشى ، ومع ذلك يجب إيضاح المعنى الذي أطلقه على اسم الأم ، وهذا
ما أصنعه فيما بعد .

(١) لقد وكد لي أن مسيو فورمه اعتقد أنني أردت الكلام عن والدي هنا ، فذكر هذا في كتاب ،
فهذا استهزاء شديد بي أو بمسيو فورمه .

مساعدته^(١) ، وهو إذا ما وُكِّل إلى نفسه مات بؤساً قبل أن يَعْرِفَ احتياجاته ، وُزِنَتْ لِحَالِ الطفولة ، ولا يُبْصَرُ أن النوع البشرى يَهْلِك إذا لم يبدأ الإنسان بأن يكون طفلاً .

نحن نُولَدُ ضعفاءً ، ونحن محتاجون إلى القوة ، ونحن إذ نُولَدُ خالين من كلِّ هذا فإننا نحتاج إلى العَوْنِ ، ونحن إذ نُولَدُ بُلْهًا فإننا نحتاج إلى الإدراك ، وكلُّ ما ليس لدينا عند ولادتنا ، وكلُّ ما نحتاج إليه ، إذ كان عظيمًا فإننا نناله بالتربية .

وتأتينا هذه التربية من الطبيعة أو من الناس أو من الأشياء ، ونشوء خصائصنا وأعضائنا نشوءاً باطنياً هو تربية الطبيعة ، وما نتعلمه من أعمال هذا النشوء هو تربية الناس ، وما نكتسبه بتجربتنا الخاصة مما يحيط بنا هو تربية الأشياء .

إذن ، صُوِّرَ كلُّ واحدٍ منا بثلاثة أنواعٍ من المعلمين ، والتلميذ الذي يتباين فيه مختلفُ دروسهم يُعَدُّ سيئاً التهذيب ، ولا يكون مطابقاً لنفسه مطلقاً ، والتلميذ الذي تَقَعُ فيه كُلُّها على عين النِّقَاطِ وتَهْدِفُ إلى نَفْسِ الأغراض بسير وحدَه نحو غايته ويعيش وَفْقَ هذا ، ويُعَدُّ حَسَنَ التهذيب . والواقعُ أن تربية الطبيعة ، من بين هذه التربيَاتِ المختلفة الثلاث ، لا تتوقف علينا مطلقاً ، وأن تربية الأشياء لا تتوقف علينا إلا من بعض النواحي ، وأن تربية الناس وحدَها هي التي نهيمن عليها حقاً ، ومع ذلك

(١) بما أنه مشابه لم ظاهراً ، ولكن من غير كلام ومن غير أفكار يعبر عنها بالكلام ، فإنه لا يستطيع إطلاعهم على احتياجاته إلى مساعدتهم ، ولا شيء فيه يوسى إليهم باحتياجه هذا .

فإن سيطرتنا عليها ليست سوى افتراض ، وإلا فن ذا الذى يستطيع أن
يأمل توجيه أقوال جميع من يحيطون بالولد وأفعالم توجيهًا تامًا ؟
وعند ما تُعدُّ التربية فنًا يكون نجاحها ، إذن ، متعذرًا تقريبًا مادام
التضافر الضرورى لنجاحها لا يتوقف على أحد ، وكلُّ ما يُمكن بذله من
جُهدٍ هو أن يُقْتَرَب من الهدف بعضَ الاقتراب ، ولكن لا بُدَّ من
الحظِّ لبلوغه .

وما هذا الهدف ؟ هذا هو هدف الطبيعة ، وهذا ما يُثَبَّتُ ، وإلى
التربية التى لا سلطان لنا عليها يجب أن تُوجَّه التريتان الأخريان مادام
تضافرُ التريبات الثلاث أمرًا ضروريًا لكاملها ، ولكن قد يكون لكلمة
الطبيعة هذه معنى بالغُ الإيهام ، فلنَعْمَلْ على تعيينه هنا .

والطبيعةُ ليست سوى العادة^(١) كما يقال لنا ، وما معنى هذا ؟ ألا يُوجَدُ
من العادات ما يُؤَلَّفُ كَرَهًا فلا يُطْفِئُ الطبيعةَ مطلقًا ؟ ومن هذا عادةُ
النباتات التى تُحْمَلُ على اتجاهٍ أَفْقِيٍّ ، والنباتُ إذا أُطْلِقَ حافظ على
الميل الذى أُكْرِهَ على اتخاذه ، غير أن النُسْغَ لم يُغَيَّرْ ، قَطُّ ، اتجاهه
الأولَ لهذا السبب ، والنباتُ إذا داوم على النموَّ عاد تَمَدُّدُهُ عَمُودِيًّا ، وَقُلْ
مِثْلَ هذا عن مَيُولِ الناس ، فالإنسان إذا ما بَقِيَ على الحال عينه أمكن

(١) يؤكد لنا مسيو فورمه أن هذا لا يقال تمامًا ، ومع ذلك يلرح ل أن هذا قيل فى الشرط الآق
الذى أعزم على الجواب عنه ، وهو :

« ليست الطبيعة غير العادة إذا ما صدقتنى »

ويعرض مسيو فورمه ، الذى لا يريد ازدهاء أمثاله ، متواضعًا ، قياس دماغه على أنه قياس
الإدراك البشرى .

احتفاظه بمُؤله الناشئة عن العادة والتي هي أقلُّ الأمور طبعيةً عندنا ، ولكن الوَضْعَ إذا ما تَبَدَّل انقطعت العادة وعاد الطبيعيُّ ، والتربيةُ ليست غيرَ عادةٍ في الحقيقة ، أولاً يُوجدُ من الناس مَنْ يَنْسَوْنَ تربيَتَهُمْ وَيَحْسُرُونَهَا وآخرون مَنْ يَحْفَظُونُ بِهَا كما هو الواقع ؟ وما مصدر هذا الاختلاف ؟ إذا ما وَجَبَ قَصْرُ اسم الطبيعة على العادات الملائمة للطبيعة أمكن انقاء هذه البلبلة.

ونحنُ نُولَدُ ذوى إحساس ، ولا ننفكُ بعد ولادتنا نتأثر على وجوهٍ مختلفة بالأشياء التي تحيط بنا ، فإذا ما صِرْنَا شاعرين بإحساساتنا وُطِنَتْ نفوسنا على طلب الأشياء التي تؤدي إليها أو تَجَنَّبُهَا ، وذلك وَفْقَ كونها مُسْتَحَبَّةٌ أو مُستَكْرَهَةٌ أولاً ، ثم وَفْقَ ما نَجِدُ من مطابقة أو تباين بيننا وبين هذه الأشياء ، وأخيراً وَفْقَ الحُكْمِ الذى نَحْمِلُهُ عن ذلك حَوْلَ فكرة السعادة أو الكمال التي يُوجِى العقلُ بها إلينا ، وتَتَّسِعُ هذه الأحوال وتَثْبُتُ كلما غَدَوْنَا أَكْثَرَ إحساساً ومعرفةً ، ولكنها إِذْ تُقْتَسَرُ بعاداتنا فإنها تَفْسُدُ بمبتسراتنا زُهاءً ، وهى ، قبل هذا الفساد ، تكون ما أُسَمِّيهِ الطبيعةَ فينا .

ويجب رَدُّ كلِّ شَيْءٍ إلى هذه الأحوال الابتدائية إِذَنْ ، وهذا ممكنٌ لو كانت تربيَاتنا الثلاثُ مختلفةً فقط ، ولكن ما العملُ إذا كانت متناقضةً ، إذا كان الرجلُ يُرَبَّى من أَجْلِ الآخرين بدلاً من أَجْلِ نفسه ؟ فهناك يكون الاتفاقُ مستحيلاً ، وَإِذْ لا بُدَّ من مكافئة الطبيعة أو التَّطْمُ الاجتماعية فلا بُدَّ من الخِيَارِ بين صُنْعِ رجلٍ أو مواطنٍ ، وذلك لأنه لا يُمكنُ صُنْعُ هذا وذلك معاً .

وكلُّ مجتمعٍ جزئىٍّ يميل إلى الانفصال عن المجتمع الكبير إذا كان

ضيقة حسن الاتحاد ، وكل مواطن قاسٍ على الأجانب ، فالأجانب ليسوا سوى أناس ، ولا يُعدّون شيئاً في نظره^(١) ، ولا مقرّ من هذا العيب ، ولكنه واهٍ ، والمهمُّ أن يكون المرء صالحاً نحو من يعيش معهم ، وكان الإِسْطَرطِيُّ طامعاً بجيلاً ظالماً في الخارج ، ولكن النزاهة والإنصاف والاتفاق كانت سائدة داخل أسواره ، واحذروا أولئك المواطنين العالميين الذين يُغربون في كتبهم بحثاً عن الواجبات التي يزدرون القيام بها فيما حولهم ، فمثل هؤلاء الفلاسفة يُحِبُّون التترلُّيعفوا من حُبِّ جيرانهم .

ويعيش الإنسان الطبيعيُّ من أجل نفسه ، وهو وحدةٌ عددية ، وهو كلٌّ مطلقٌ ، فلا علاقة له بغير نفسه أو شبيهه ، وليس الإنسان المذنيُّ غير وحدةٍ كسريةٍ تتوقف على المخرَج وتكون قيمتها في علاقتها بالكلِّ ، أى بالهيئة الاجتماعية ، والنظمُ الاجتماعية الصالحة هي التي تعرّف أحسن من سواها إفسادَ الإنسان وتجريده من كيانه المطلق لتمنحه كياناً نسبياً وذاتيةً ضمنَ الوحدة المشتركة ، فيعود كلُّ فردٍ لا يعتقد معه أنه واحدٌ ، بل جزءٌ من الوحدة ، ويعود معه غيرُ مُحسٍّ في غيرِ المجموع ، ولم يكن المواطنُ في رومة كايوس أو لوسْيوس ، بل كان رومانياً ، حتى إنه كان يُحِبُّ الوطن أكثر من نفسه ، وكان رِيْفُولُوس يدّعي أنه قرطاجيٌّ ما صار مآلَ سادته ، وهو كأجنبيٍّ كان يَرْفِضُ تَبَوُّأَ مقعده في سِنَات رومة ، فوجب أن يأمره قرطاجيٌّ بذلك ، وقد اشتاط غيظاً عندما أريد إيقادُ حياته ، وقد فاز فعاد ظافراً ليموت

(١) وهكذا فإن حروب الجمهوريات أقمى من حروب الملكيات ، ولكن حرب الملوك إذا كانت معتدلة فإن سلمهم هائلة ، فالأفضل أن يكون المرء عدواً لهم من أن يكون من رعاياهم .

شَرَّ مَوْتَةٍ ، وَيُلُوحُ لِي أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ شَبَهُ كَبِيرٍ بَيْنَ رِيغُولُوسَ وَمَنْ نَعْرِفُ مِنْ الرِّجَالِ .

وَيَقْدَمُ الْإِسْپَارْتِيُّ بِبِدَارِيَّتُ نَفْسِهِ لِيُقْبَلَ فِي مَجْلَسِ الثَّلَاثِيَّةِ فَيُرْفَضَ ، وَيَنْصَرَفُ مَسْرُورًا كَثِيرًا لَوْجُودِ ثَلَاثِيَّةِ رَجُلٍ فِي إِسْپَارْتَةِ أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَأَفْرِضُهُ مُخْلِصًا فِيمَا أَظْهَرَ ، وَيَوْجَدُ مَا يَحْمِلُ عَلَى اعْتِقَادِ الْأَمْرِ كَهَذَا ، فَذَاكَ هُوَ الْمَوَاطِنُ . وَكَانَ لَامْرَأَةٍ إِسْپَارْتِيَّةٍ خَمْسَةُ أَبْنَاءَ فِي الْجَيْشِ ، وَكَانَتْ تَنْتَظِرُ أَنْبَاءَ عَنِ الْمَعْرَكَةِ ، وَيَقْدُ إِيْلُوتِي* ، وَتَسْأَلُهُ عَنْهَا وَهِيَ تَرْتَجِفُ :

— أَبْنَاؤُكَ الْخَمْسَةُ قُتِلُوا .

— هَلْ سَأَلْتُكَ عَنْ هَذَا أَيُّهَا الْعَبْدُ الْوَعْدُ ؟

— لَقَدْ انْتَصَرْنَا .

وَتَهْرَعُ الْأُمُّ إِلَى الْمَعْبِدِ لِتَحْمَدَ الْآلِهَةَ ، فَهَذِهِ هِيَ الْمَوَاطِنَةُ .

وَمَنْ يَوَدُّ أَنْ يَحْتَفِظَ فِي النِّظَامِ الْمَدَنِيِّ بِصِدَارَةِ مَشَاعِرِ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَا يَرِيدُ ، فَهُوَ إِذْ يَنْقَاضُ نَفْسُهُ دَائِمًا مُتَرَجِّحًا بَيْنَ مُيُولِهِ وَوَاجِبَاتِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكُونَ رَجُلًا وَلَا مَوَاطِنًا ، وَلَنْ يَكُونَ صَالِحًا لِنَفْسِهِ وَلَا لِلْآخَرِينَ ، وَإِنَّمَا يَكُونَ وَاحِدًا مِنْ رِجَالِ أَيَّامِنَا ، وَإِنَّمَا يَكُونَ فَرَنْسِيًّا ، إِنْكَلِيزِيًّا ، بُرْجُوزِيًّا ، وَلَنْ يَكُونَ هَذَا شَيْئًا .

وَعَلَى مَنْ يَوَدُّ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا ، عَلَى مَنْ يَوَدُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِيَّاهُ ، وَاحِدًا دَائِمًا ، أَنْ يَفْعَلَ كَمَا يَقُولُ ، أَنْ يُقَرَّرَ السَّبِيلُ الَّذِي يَسْلُكُهُ ، أَنْ يَتَّخِذَهُ حَازِمًا وَأَنْ يَتَّبِعَهُ دَائِمًا ، وَأَنْتَظِرُ دَلَالَتِي عَلَى نَادِرَةِ الزَّمَانِ هَذَا لِأَعْرِفَ هَلْ

* الإيلوتى : اسم كان يطلق على المعبد فى إسبارطة .

هو رجلٌ أو مواطن ، أو لأعرف ما يَصْنَع ليكون هذا وذاك معاً .
وينشأ عن هذه الأغراض المتباينة شكلان للنظام مختلفان ، أحدهما عامٌ
مشترك والآخر خاصٌ أهليٌّ .

وإذا أردتم أن تعرّفوا ما التربية العامة فاقروا جُهورية أفلاطون ، فهي
ليست كتاباً في السياسة مطلقاً ، خلافاً لمن يَحْكُمون في الكتب بعُنوانها ،
وهي أجملُ رسالةٍ وُضِعَتْ عن التربية .

وإذا أريد بُعْثُ أوهامٍ إلى البلد ذَكَرَ نظام أفلاطون ، ولو لم يَصْنَع
ليُكُوْرَغُ غيرَ تدوين نظامه كتابةً لوجدته أشدَّ وهماً ، فأفلاطون لم يفعل
غيرَ تصفية قلب الإنسان ، وقد أفسده ليُكُوْرَغُ .

وعاد النظامُ العامُّ غيرَ موجودٍ ، وعاد لا يُمكن أن يكون موجوداً ، وذلك
لأنه عاد لا يُمكن وجودُ مواطنين حيث عاد لا يُمكن وجودُ وطن ، ويجب
نَحْوُ كلمتي الوطن والمواطن من اللغات الحديثة ، وأعرِف سببَ هذا ،
ولكني لا أريد قوله ، فليس هذا من موضوعي مطلقاً .

ولا أعدُّ نظاماً عاماً تلك المؤسسات المضحكة التي تُسمَّى كليات^(١) ، وكذلك
لا أعدُّ التربية الدارجة منه ، وذلك لأن هذه التربية إذ تنزَع إلى غايتين
متباينتين ، لا تُدْرِكُهُما ، وهي لا تَصْلُح لغير صُنْع رجالٍ مُرائين مُظهريين ،
دائماً ، أنهم يعيشون في سبيل الآخرين مع أنهم لا يَفْكُرُون في غير أنفسهم ،
والواقعُ أن هذه البيانات ، إذ كانت شائعة بين جميع الناس ، لا تَخْدَع أحداً ،

(١) يوجد في كثير من المدارس ، ولا سيما جامعة باريس ، أساتذة أجهم وأقدرهم كثيراً ، فأعتقد
قدرتهم البالغة على تربية الناشئة لو لم يحملوا على اتباع العادة القائمة ، وأستهض أحدهم لنشر مشروع
الإصلاح الذي فكر فيه ، وقد يحاول أخيراً أن يشق من الداء بأن يرى أن له ذِواء .

وهي لا تعدّو كونها جهوداً ضائعة .

وينشأ عن هذه التناقضات ما نشعر به في أنفسنا بلا انقطاع ، ونحن إذ نقادُ بالطبيعة وبالرجال على طرق متباينة ، ونحن إذ كنا ملزمين بأن نُوزّع بين هذه العوامل المختلفة فإننا ننسج فيها مِرْكَبًا لا يسوقنا إلى إحدى الغائتين أو إلى الأخرى ، ونحن إذ كنا مكافحين مذبذبين في جميع مجرى حياتنا فإننا نختمها من غير أن نستطيع مطابقة أنفسنا ومن غير أن نكون ناعمين لأنفسنا وللآخرين .

وأخيراً تبقى التربية الأهلية أو تربية الطبيعة ، ولكن ما يكون أمرُ رجلٍ نشأ لنفسه فقط نحو الآخرين ؟ لو أمسكنا جَمْعُ الفرضين المقترحين في واحد بأن تُزال متناقضاتُ الرجل لأزِيلَ عائقٌ كبيرٌ من سعادته ، ويجب للحكم في الرجل أن يرى كاملَ التكوين ، فتلاحظ ميوله ويُبصر تقدمه ويُتبع سيره ، وانخلاصة أن من الواجب معرفة الإنسان الطبيعي ، وأعتقد أنه يسارُ بضعُ خطواتٍ في هذه الأبحاث بعد قراءة هذا الكتاب .

وما علينا أن نفعل لتكوين هذا الرجل النادر ؟ كثيراً ، لارِيب ، أى أن يحال دون صنْع شيء ، وإذا ما وجبت معاكسة الريح وجب الرّوْغُ يَمْنَى ويُسرَى ، ولكن البحر إذا كان هائجاً وأريد البقاء في المكان وجب إلقاء المِرْساة ، واحذر ، أيها الرّبّان الشاب ، أن يملصَ قَلْسُكَ * أو أن يُجرَّ مِرْسَاتُكَ وأن يزوْغَ مركبك قبل أن تعرف ذلك .

وفي النظام الاجتماعي ، حيث جميعُ المواضع مُعَيَّنة ، يجب أن يُربّى

الرجل لموضعه ، فإذا خرّج من موضعه فردّ نُشئُ لهذا الموضع عاد لا يكون صالحاً لشيء ، ولا تكون التربية نافعة إلا عند مطابقة الطالع لإلهام الأبوين ، وتكون التربية ضارّة للطالب في جميع الأحوال الأخرى ولو بسبب ما تمنّحه من مُبتسرات ، وفي مصر ، حيث كان الابن مُلزماً بانتحال حال أبيه ، كان للتربية غرض ثابت على الأقل ، وأما عندنا ، حيث المراتب وحدها قائمة ، وحيث الناس يُفَيِّرُونَهَا بلا انقطاع ، فإنه لا أحد يَعْرِفُ أنه يَعْمَلُ ضِدَّ ابنه بِنَشِئَتِهِ على مرتبته .

والناس في النظام الطبيعي إِذْ كانوا كلُّهم متساوين فإن حال الإنسان هو إلهامهم المشترك ، فمن تَحَسَّنَ تربيته لا يستطيع أن يصنع سوءاً فيما يُرَدُّ إليه ، ولا يهمني كثيراً أن يميل تلميذى إلى الجيش أو الكنيسة أو الفقه ، والطبيعة تَدْعُوهُ إلى الحياة البشرية قبل إلهام الأبوين ، والحياة هي المهنة التي أريد أن أعلمه إياها ، وهو إذا ما تَخَرَّجَ علىّ لن يكون ، كما أضنُّ ، قاضياً ولا جندياً ولا قسيساً ، بل يكون رجلاً أولاً ، وكلُّ ما يجب أن يَكُونَهُ الرجلُ يَتَعَلَّمُهُ عند الاقتضاء بسرعة كما يكون عليه ، ومن العبث أن يَحْمِلَهُ النصيب على تغيير موضعه ، فهو يكون في مكانه دائماً ، « فقد علمتُ بأمرِك أيها النصيب وحملتُ على اعتقالك ، وقد سَدَدْتُ عليك جميع المسالك التي تستطيع أن تَزَلِّقَ منها إلى » .

وحال الإنسان هو ما يقوم عليه بحثنا ، وعندى أن الذى يكون بيننا أحسنَ علماً باحتمال خير هذه الحياة وشرّها يكون أحسنَ تنشئةً ، ومن ثمّ تقوم التربية الحقيقية على التمارين أكثر مما على التعاليم ، ونبدأ بتعليم أنفسنا بأن

نبدأ بالحياة ، وتبدأ تربيتنا معنا ، ومُرَضِعُنَا هِيَ معلمتنا الأولى ، وكان لكلمة التربية عند القدماء معنى غيرُ الذي عُدْنَا لا نُطْلِقُهُ عليها ، فهي تَعْنِي الغِذاء ، ويقول قَارُونُ : « إِنْ القَابِلَةُ تَتَلَقَّى والمُرْضِعُ تُنْشِئُ والمُهْدَبُ يَفْتَقُ الذَّهْنَ والأُسْتَاذُ يَعْلَمُ » ، وهكذا تكون التربية والتهذيب والتعليم ثلاثة أمورٍ مختلفةٍ في موضوعها اختلافَ الحاضنة والمُهْدَبِ والأُسْتَاذِ ، غير أن هذا التفريق غير مُبْتَغَى ، فلا يَنْبَغِي للولد أن يَتَّبِعَ غيرَ دليلٍ واحد .

ويجب ، إِذَنْ ، تعميمُ مقاصدنا ، وأن يُرَى الرجلُ المجرَدُ في تلميذنا ، الرجلُ المَعْرَضُ لجميعِ عوارض الحياة البشرية ، وإذا كان الناس يولدون مرتبطين في أرض بلدي ، وإذا كان عينُ الفصل يَدُومُ في جميع السنة ، وإذا كان كلُّ واحدٍ يَبْلُغُ من تَعَلُّقه بنصيبه ما لا يَقْدِرُ معه على تغييره مطلقاً ، فإن العادة القائمة تكون صالحة من بعض النواحي ، وإِذْ أن الولد الذي يُنْشَأُ على حرفته لا يَخْرُجُ منها مطلقاً فإنه لا يُمْكِنُ أن يكون عُرْضَةً لمخازيرِ حرفةٍ أخرى ، ولكنه إذا ما نُظِرَ إلى تَقَلُّبِ الأمور البشرية ، وإلى روح هذا العصر المضطربة القَلْبَةِ التي تَقْلِبُ كلَّ شَيْءٍ في كلِّ جيلٍ ، فهل من الممكن أن يُتَصَوَّرَ مِنْهَاجٌ أُخْرَقُ من تنشئة ولده لا يَخْرُجُ به من غرفته مطلقاً ، ويجب معه أن يُحَاطَ بِخَدْمِهِ دائماً ؟ فإذا ما وَطِئَ هذا الشَّقُّ الأرضَ خُطوةً ، أو تَزَلَّ درجةً ، هَلَكَ ، فليس هذا تعليمه احتمالَ الألم ، بل تدريبه على الشعور به .

ولا يُفَكِّرُ الإنسان في غير حِفْظِ ولده ، وليس هذا كافياً ، فيجب تعليمه حفظَ نفسه رجلاً ، واحتمالَ ضَرَبَاتِ القَدَرِ ، ومجاورةِ العُسْرِ والمَيْسَرِ ، والعيشَ في جليد أيسلاندة وعلى صخرة مالطة المحرقة ، ومن العبث أن تتخذوا من الاحتياطات ما لا يموت معه ، فلا بُدَّ من موته مع

ذلك ، وإذا لم يكن موته نتيجة عنايتكم فلأن هذه العناية أخطأت غرضها ،
 والمسئلة هي أن يُعَلِّمَ ما يُحَالُ به دون موته أقل من جعله يحيا ، وليست الحياةُ
 تَنَفُّسًا ، بل سَيْرًا ، بل استعمال لأعضائنا وحواسنا وخصائصنا وجميع أجزاء
 كياننا استعمالاً نَشْعُرُ معه بوجودنا ، وليس الرجل الذي عاش أكثر من غيره
 هو الأكثر عدداً للسنين ، بل الذي شَعَرَ بالحياة أكثر من سواه ، وقد
 يُدْفَن الرجل ابناً للمئة مع عدده ميتاً منذ ولادته ، وكان أصلح له أن يكون
 قد مات شاباً لو عاش حتى هذا الدور على الأقل .

وتقوم جميع حكمتنا على مُبْتَسِرَاتٍ دَنِيَّةٍ ، وليست جميع عاداتنا غير
 تسخير وعُسْر وقَسْر ، ويُولَد الرجل المدنى ويحيا ويموت في العبودية ، وذلك
 أنه يُخَاطُ في قِطَاطٍ عندما يُولَد ، وأنه يُسَمَّرُ في تابوت إذا مات ، وأنه
 يُقَيَّدُ بنَظْمِنَا ما حافظ على وجهه بشرى .

ويقال إن كثيراً من القوالب يَرْعُنْ أَنهن بَدَلَكِهِنَّ رؤوس الأطفال
 المولودين حديثاً يَمْنَحُهَا شكلاً أكثر ملاءمة فيُسَمَّحُ بذلك ! ولذا تكون
 رؤوسنا سيئة التصوير على الوجه الذي يُكُونُهَا به صانع وجودنا ، فيجب
 تَكْيِيفُهَا من قِبَلِ القوالب خارجاً ومن قِبَلِ الفلاسفة داخلاً ، ولذا يكون الكرايبُ
 أَسْعَدَ حالاً منا .

« لم يَكُنْ الولد يَخْرُجُ من بطن أمه ، ولم يَكُنْ يَتَمَتَّعُ بحرية الحركة وَيَمُدُّ
 أعضائه ، حتى يُعْطَى قيوداً جديدة ، فهو يُقْمَطُ وَيُضْجَعُ مُثَبَّتَ الرَّأْسِ مُدَدَّ
 الساقين مُدَلَّى الذراعين بجانب الجسم ، وهو يحاط بالتيآضات والعصائب من
 كلِّ نوعٍ إحاطة لا تَسْمَحُ له بتغيير وَضْعِهِ ، وهو يكون سميذاً إذا لم يُشَدَّ شَدًّا

يمنعه من التنفس وإذا حَدَّثَ من الحَذَرِ ما يُضْجَعُ معه على الجانبِ حتى يُمكنَ السائلَ الذى يجرى من فيه أن يسقط من تلقاء نفسه ! وذلك لأنه لا يكون لديه من حرية إدارة الرأس ما يسهل به جريانه .

ويحتاج المولودُ حديثاً إلى مدِّ أعضائه وتحرّيكها إنقاذاً لها من الحَذَرِ الذى يستمرُّ زمناً طويلاً عن جَمْعِها ضمن لِقَافَةٍ ، أَجَلٌ ، إنها تَمُدُّ ، ولكنها تَمْنَعُ من الحركة ، حتى إن الرأسَ يُقَيَّدُ بِكُمَّةٍ* ، فيلوح أنه يُحْشَى ظهوره ذا حياة . وهكذا فإن اندفاع أجزاء البدن الداخلية التى تميل إلى التَمَوُّ يَجِدُ عائقاً منيعاً للحركات الضرورية ، ولا ينفكُّ الولدُ يأتى جهوداً غير مُجْدِيَةٍ تستنفد قواه أو تؤخِّرُ تقدمها ، وقد كان فى السَّلى** أَقْلٌ ضيقاً وعُسراً وضغطاً مما ضَمَّنَ بَيَاضاته ، ولا أرى ماذا رَبيع من ولادته .

ولا يُؤَدِّى الجلود والقَشرُ الأذان مُتَمَسِّكُ أعضائه الولدَ بهما إلى غير عَوَقِ دَوْرَةِ الدم والأخلاط ومنع الولد من التَقَوُّى والنموِّ وإلى غير الإضرار بِبِنْيَتِهِ ، ويكونُ الناسُ ، فى جميع الأمكنة التى لا تُتَّخَذُ فيها هذه الاحتياطات الطائشة مطلقاً ، طَوَّالاً أقوياء حَسَنِي التَنَاسُبِ ، وتكون البلاد التى يُقْمَطُ فيها الأولادُ بلاداً يَكْثُرُ فيها الحُدْبُ والعُرْجُ والقُلُجُ*** والقُفْدُ**** وجميعُ أنواعِ الشَّوه من الناس ، وَيُبَادَرُ إلى تشويه الأجسام بِضَغْطِها خَشِيَةً أن تُشَوِّهَ بالحركات الطليقة ، وهى تُجْعَلُ شُلاً لِيُحَالَ دون خَبَلِها***** !

* الكمة : القلنسوة المدورة . ** السلى : جلدة يكون ضمنها الولد فى بطن أمه .

*** الفلج : جمع الأفلاج وهو الذى تباعد ما بين قدميه أو يديه .

**** القفد : جمع الأفقد وهو المسترخى العتق .

***** الخبل : فساد الأعضاء .

ألا يُؤثر القسْرُ البالغُ هذه الدرجة من القسوة في مزاجهم كما يؤثر في بُنيتهم ؟ يقوم إحساسهم الأول على شعورٍ بالألم والغمِّ ، ولا يجِدُون غيرَ عوائقٍ في جميع ما يحتاجون إليه من حركات ، وهم إذ يكونون أشقى من الجاني الموثق بالقيود فإنهم يَبْذُلون جهوداً على غير جدوى ، فيَغْضَبُون ويَصْرُخُون ، ألا تَرَوْنَ أن أصواتهم الأولى دموع ؟ أعتقد هذا جيداً ، وذلك أنكم تَصُدُّونهم منذ ولادتهم ، والقيودُ هي أولى العطايا التي يَتَلَقَّونها منكم ، والأوجاعُ هي أولُ ما يَبْتَلُون من معاملات ، والصوتُ هو كلُّ ما عندهم من أمرٍ حرٍّ ، فكيف لا يستعملونه إعراباً عن توجُّعهم ؟ أَجَلْ ، إنهم يَصْرُخُون من الألم الذي تُوجِبُونه فيهم ، ولو قَيَّدْتُم مثلهم لكان صُراخكم أشدَّ من صُراخهم .

وما مصدرُ هذه العادة المخالفة للصواب والمُضادَّة للطبيعة ؟ لم تُرد الأمهاتُ إرضاعَ أولادهن منذ ازدرائهن واجبهن الأول ، فوجب تفويضُ أمرهم إلى نساء مرتزقات يجِدْنَ أنفسهن أمهاتٍ لأولادٍ غرباء غير مرتبطاتٍ فيهم بروابط الطبيعة فلا يحاولن غيرَ دَفْعِ التعب عنهن ، وتقضى الضرورة بتعهد ولدٍ طليق ، ولكن هذا الولد إذا ما كان موثقاً جيداً أُلْقِيَ في زاوية من غير أن يُبَالَى بعويله ، وما أهيةُ هلاكِ الرضيع أو بقاءه عليلاً في بقية أيامه ما قَدَّ الدليل على إهمال المُرْضِع وما دام الرضيعُ لا يَكْسِرُ ساقه أو ذراعَه ؟ تُحَفِّظُ أعضاؤه على حساب بدنه ، وتُبْرَأُ المُرْضِعُ مهما وَقَعَ .

وهل تَعْرِفُ هؤلاء الأمهاتُ الناعمات ، اللاتي تَخَلَّصْنَ من أولادهن فَرِحَاتٍ مُسَلِّمَاتٍ أَنْفَسَهُن إلى ملاهى المدينة ، ما يعامل به الولد في قِمَاطِه

في القرية ؟ إذا ما طرأ على المُرَضِّع أقلُّ عملٍ علَّقَ الولدُ في مِنبَرٍ كَصُرَّةِ ثياب ، وبَيْنَمَا تقوم المُرَضِّع بأعمالها من غير استعجال يَبْقَى الطفلُ التَّعَسُّ مصلوباً هكذا ، وكانت وجوه جميع من وُجِدُوا في هذا الوضع بنفسجية اللون ، وإذ كان الصدرُ المضغوطُ على هذا الوجه لا يَدْعُ الدمَ يَسْرِي فَإِنَّ الدمَ يَصْعَدُ في الرَّأْسِ ، ويُعَدُّ الولدُ للتوجُّعِ هادئاً جداً ما خَلا من القدرة على الصُّرَاح ، وأَجْهَلُ مقدارِ الساعات التي يستطيع الولد أن يبقى بها في هذه الحال من غير أن يَفْقِدَ حياته ، ولكنني أَشْكُ في دوام هذا زمناً طويلاً ، وأرى أن هذا من أعظم منافع القِباط .

وَيُرْعَمُ أن الأولاد إذا ما كانوا طُلُقَاءً أُمْكِنَ أن يتخذوا أوضاعاً سيئة وأن ينتحلوا من الحركات ما يُمَكِّنُ أن يُؤْذِيَ حَسَنَ تكوينِ أعضائهم ، فهذا هو برهان فارغٌ من براهين حكمتنا الفاسدة التي لا تُؤَيِّدُهَا أية تجربة كانت ، ولا يُرَى بين جَمْعِ الأولاد الذين هم في أُمِّهِ أَرْضَنَ مِنَّا ، فَيُرَضَّعُونَ مع حرية جامعة لأعضائهم ، واحداً يَضُرُّ نفسه أو يَحْبُلُهَا ، وهم لا يُمَكِّنُ أن يَمْنَحُوا حركاتهم من القوة ما يجعلها خَطِرَةً ، وهم إذا ما اتخذوا وضعاً عنيفاً أُنْذِرهم الألمُ بضرورة تغييره حالاً .

ولَمَّا يَبِينُ لَنَا أن نَضَعَ في القِباط صغارَ كلابنا وسنانيرنا ، فهل يُرَى أنه أصابها سوء من هذا الإهمال ؟ أوافق على أن الأولاد أَكْثَرُ ثِقَلًا ، ولكنهم أَشَدُّ ضَعْفًا بهذه النسبة ، وكيف يَحْبُلُونَ إذا ما كادوا يتحركون ؟ إذا ما أُلْقُوا على ظهورهم ماتوا على هذا الوضع ، كالسُّلْحَفَاءِ ، عاجزين عن التقلب مطلقاً .

وإذ لم يَرْضَ النساء بانقطاعهن عن إرضاع أولادهن فإنهن ينقطعن عن الرغبة في عمل هذا، والنتيجة أمره طبيعي، وذلك أن الأمومة إذ كانت عبئاً ثقيلاً فإنه يُوجَدُ في الحال من الوسائل ما يُتَخَلَّصُ به منها تماماً، ومِرَادُ إتيان عمل غير مُجْدٍ استئنافاً له دائماً، فيُحوَّلُ التَّوَقُّنُ إلى تكثير النوع بما يَصُرُّه، فإذا أُضيفت هذه العادة إلى أسباب نقص السكان الأخرى أُنبِئْنَا بمصير أوربة القريب. ولن يُعَمَّ ما توجه من العلوم والفنون والفلسفة والطبائع أن يجعل منها بَلَقَعاً، فتُعَمَّرُ بالضواري، ولا تكون بهذا قد استبدلت سكاناً بسكان كثيراً.

وقد لاحظتُ، في بعض الأحيان، حيلة صُغَرِيَّاتِ النساء اللاتي يتظاهرن بالرغبة في إرضاع أولادهن، وذلك أنهن يَفْعَلْنَ ما يُحَمِّلُنَ به على العدول عن هذا المراد بتدخل الأزواج والأطباء^(١) ولا سيما الأمهات، وذلك أن الزوج الذي يكون من الجرأة ما يوافق معه على إرضاع الأم لولدها يَهْلِكُ، وأن من يودُّ أن يتخلَّى عنها يَمُدُّ قَاتِلًا، فعلى الأزواج الفطن أن يَضْحَكُوا بالحبِّ الأبوى من أجل السلام، ومن حسن الحظَّ أن يوجد في الأرياف نساء أكثر عِفَافاً من نساكنكم! وأحسنُ حظاً من ذلك أن يكون الوقتُ الذي يَظُنُّرُ به هؤلاء غير مُعَدٍّ لآخرين سواكم.

ولا مراء في واجب النساء، ولكنه يجادل، عند ازدرائهن لهذا الواجب، في هل يتساوى لدى الأولاد أن يُرَضَّعُوا من لبنهن أو من لبنٍ

(١) ما افلك تحالف النساء والأطباء يبدو لي أدعى غرائب باريس إلى الضحك، فبالنساء ينال الأطباء شهرتهم، وبالأطباء يركب النساء هواهن، وبهذا يسهل إدراك ما يجب أن يتصف به الطبيب بباريس من براعة ليصير مشهوراً.

آخر ، فهذه مسألة يقضى فيها الأطباء وَفَقَ رَغْبَةُ النِّسَاءِ ، وأما أنا فأرى أنه يَجْدُرُ بالولد أن يمتصَّ لبنَ مُرْضِعٍ ذاتِ صِحَّةٍ ، لا لبنَ أُمٍّ فاسدة ، إذا كان عليه أن يخشى شراً جديداً من عَيْنِ الدَّمِ الذى صُوِّرَ منه .

ولكن هل يجب أن يُنْظَرَ إلى المسئلة من الناحية البدنية فقط ؟ وهل الولدُ أقلُّ احتياجاً إلى عناية أُمٍّ مما إلى نديها ؟ يُمكنُ نساءُ أُخَرَ ، وحيواناتٍ أيضاً ، أن تعطيه اللبنَ الذى تَبَخَّلَ به عليه ، ولكن لا شئ يقوم مقام عطف الأمِّ ، وتُعَدُّ الأمُّ التى أرضعت الولدَ من نَدَى أُخْرَى بدلاً من نديها أُمًّا فاسدة ، فكيف تَكُونُ مرضعاً صالحة ؟ يمكنها أن تكون هكذا ، ولكن على مهلٍ ، ويجب أن تُفَيِّرَ العادةَ الطَّبيعةَ ، ويكون لدى الولد السَّيِّئِ الرِّعاية من الوقت ما يَهْلِكُ فيه مئة مرة قبل أن يكون لدى مُرْضِعِهِ حنانُ الأمِّ .

وينشأ عن هذا الخير نفسه محذورٌ يكفى وحده لأن يَنْزِعَ من كلِّ امرأةٍ جِزَاءَ إِرْضَاعِ ولدها من قِبَلِ امرأةٍ أُخْرَى ، وذلك هو اقسامُ حقوقِ الأمِّ وإن شئت قلَّ نَقَلَ هذه الحقوق ، وذلك أن ترى المرأةَ ولدها يُحِبُّ امرأةً أُخْرَى كما يحبُّها وأكثَرُ مما يحبُّها ، وذلك أن تَشْعُرَ بأن العطف الذى يَحْفَظُهُ لأمه الخاصة هو لطفٌ وبأن العطف الذى يَحْمِلُهُ لأمه المُنْتَحَلَةِ هو واجبٌ ، وذلك ألا أُلْزِمُ بِحُبِّ ابنٍ حيث وجدتُ عنايةَ أُمٍّ ؟

ويقوم الوجه الذى يعالج به هذا المحذورُ على تلقينِ الأولادِ ازدياءَ مَرَاضِعِهِمْ بأن يعاملُنَ كخادماتٍ حَقِيقَاتٍ ، فإذا ما أكَمَّانَ خِدْمَتَهُنَّ اسْتُخْلِصَ الولدُ ، أو سُرِّحَتِ المُرْضِعُ ، وتَرَدَّدَ المُرْضِعُ من رُؤْيَةِ الرضيعِ بسوءِ استقبالها ،

فإذا مضت بضع سنين عاد لا يراها وعاد لا يعرفها ، ونَفَرَتْ نَفْسُهَا أُمُّ الَّتِي تَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَقُومُ مَقَامَهَا وَتَتَلَفَّى إِهْمَالَهَا بِغِلْظَتِهَا ، فَهِيَ تُعَوِّدُ الرَضِيعَ الْفَاسِدَ إِنْكَارَ الْجِيلِ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ مِنْهُ ابْنًا عَطُوفًا ، وَهِيَ تُعَلِّمُهُ أَنْ يَزْدَرِيَ ، ذَاتَ يَوْمٍ ، تِلْكَ الَّتِي وَلَدَتْهُ كَازِدْرَانِهِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ مِنْ لَبَنِهَا .

وَمَا أَكْثَرَ مَا أُوكِّدُ هَذِهِ النِّقْطَةَ لَوْ كَانَتْ أَقْلٌ ثَنِيظًا فِي تَكَرُّارِ مَوْضُوعَاتٍ مَفِيدَةٍ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى ! يَتَوَقَّفُ هَذَا عَلَى أُمُورٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُظَنُّ ، أَوْ تَرِيدُونَ رَدَّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى وَاجِبَاتِهِ الْأُولَى ؟ اِبْدَعُوا بِالْأُمَهَاتِ ، فَسَتَحَارُونَ مِنَ التَّحَوُّلَاتِ الَّتِي تُحْدِثُونَهَا ، وَكُلُّ يَأْتِي مِنْ هَذَا الْفَسَادِ الْأَوَّلِ بِالتَّعَاقِبِ ، وَيَفْسُدُ جَمِيعُ النِّظَامِ الْخَلْقِيِّ ، وَيَنْطَفِئُ الطَّبِيعِيُّ فِي جَمِيعِ الْأَفْتَدَةِ ، وَيَتَّخِذُ دَاخِلُ الْبُيُوتِ شَكْلًا أَقْلَ حَيَاةٍ ، وَيَعُودُ مَنَظَرُ الْأُسْرَةِ النَّاشِئَةِ الْمُؤَثَّرُ غَيْرَ جَامِعٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، غَيْرَ فَارِضٍ رِعَايَةً لِلْغُرَبَاءِ ، وَيَقِلُّ احْتِرَامُ الْأُمِّ الَّتِي لَا يُرَى أَوْلَادُهَا ، وَلَا يَكُونُ فِي الْأُسْرِ مَقَرٌّ مُطْلَقًا ، وَتَعُودُ الْعَادَةُ غَيْرَ مُقَوِّيةٍ لِرُوَاطِطِ الدَّمِ ، وَيَعُودُ الْآبَاءُ وَالْأُمَهَاتُ وَالْأَوْلَادُ وَالْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ غَيْرَ مُوجُودِينَ ، وَلَا يَكَادُ الْجَمِيعُ يَتَعَاشَرُونَ ، فَكَيْفَ يَتَحَابُّونَ ؟ وَيَعُودُ كُلُّ وَاحِدٍ لَا يُفَكِّرُ فِي غَيْرِ نَفْسِهِ ، وَمَتَى عَادَ الْبَيْتُ لَا يَكُونُ غَيْرَ مَكَانٍ كَثِيبٍ لِلْعَزَلَةِ وَجِبَ الْبَحْثُ عَنِ الْمَسْرَةِ فِي مَكَانٍ آخَرَ .

وَلَكِنْ لِنَتَفَضَّلِ الْأُمَهَاتُ بِإِرْضَاعِ أَوْلَادِهِنَّ ، وَهَنَالِكَ تَصْلُحُ الْأَخْلَاقُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا ، وَتَذَنِّبِهَا مَشَاعِرُ الطَّبِيعَةِ فِي الْقُلُوبِ ، وَتُعَمَّرُ الدَّوْلَةُ ثَانِيَةً ، وَتَجْمَعُ هَذِهِ النِّقْطَةُ الْأُولَى ، هَذِهِ النِّقْطَةُ الْوَحِيدَةُ ، كُلُّ شَيْءٍ ، فِجَازِيَّةٌ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ هِيَ أَحْسَنُ تَرْيَاقٍ لِلْعَيْبِ ، وَيَنْدُو ضَجِيجُ الْأَوْلَادِ الَّذِي يُظَنُّ

أنه مزعجٌ أمراً مستحباً ، وهو يَحْمَلُ الأب والأم أكثرَ لزوماً ، وَيَجْعَلُ أحدهما أكثرَ قيمةً لدى الآخر ، وَيَشْدُو الرابطةَ الزوجيةَ بينهما ، ومتى كانت الأسرةُ حيةً ذاتَ نشاطٍ صارت رعايةُ المنزل أعزَّ عملٍ تقوم به المرأةُ وأحلى لهوٍ يتتبع به الزوج ، وهكذا ينشأ عن تقويم سوء واحدٍ كهذا إصلاحٌ عامٌّ حالاً ، فلا تَلَبَّثُ الطبيعةُ أن تستردَّ جميعَ حقوقها ، ومتى عاد النساءُ يَكُنَّ أمهاتٍ مرةً لم يُعَمِّ الرجال أن يكونوا آباءً وأزواجاً .

كلامٌ فارغٌ ! لا يَرُدُّ حتى سَأَمٌ مَلَأَ العالمَ إلى تلك مطلقاً ، فقد انقطع النساءُ عن كونهنَّ أمهاتٍ ، وعُذُن لا يَكُنْ هكذا ، وصِرْنَ لا يُرِدْنَ هذا ، ومتى أَرَدْنَهُ لم يَكُنَّ يَقْدِرْنَ عليه ، واليوم إذا قامت العادةُ الماكسةُ ناهض كلُّ منهن معارضةً جميع اللأئي يقتربن منها متحالفاتٍ ضِدَّ مثالٍ لم يُعْطِه بعضهن ولم يرغب الأخريات في اتباعه .

ومع ذلك يوجد ، أحياناً ، فَتَيَاتٌ ذواتُ صلاحٍ طبعيٍّ يَجْرُونَ ، من هذه الناحية ، على اقتحام ما لِهَوَى جنسهنَّ وضوضائه من سلطانٍ ، فَيَقْبَلْنَ ، عن إقدامٍ نَقِيٍّ ، بهذا الواجب البالغ الحلاوة الذي تَقْرِضُهُ الطبيعةُ عليهن ، وهل يُمَكِّن أن يزيد عددُهن عن جاذبيةِ المحاسن المقدَّرة لِمَنْ يُقْبَلْنَ عليها ؟ أَسْتَنْدُ إلى نتائج ناشئةٍ عن أبسط استدلالٍ ، وإلى ملاحظاتٍ لم أَرْتُ تكذيباً لها قطُّ ، فأُبَشِّرُ هؤلاء الأمهاتِ الفاضلات بولعٍ مكينٍ ثابتٍ من قِبَلِ أزواجهن ، وبعطفٍ بَنَوِيٍّ حقيقيٍّ من قِبَلِ أولادهن ، وب تقديرٍ واحترامٍ من قِبَلِ الجُهور ، وبِنَفَاسٍ سعيدٍ بلا مكروهٍ ولا سوء عاقبةٍ ، وبصحةٍ قويةٍ متينةٍ ، ثم بنعمةِ رؤيتهنَّ بناتهنَّ يَفْتَدِينَ بهن ذات يوم ،

فَيُورِذْنَهُنَّ قُدُوءَ لِبْنَاتٍ أُخْرَيَاتٍ .

لَا وَلَدَ ، لَا أُمَّ ، فَالْوَجِبَاتُ بَيْنَهُمَا مُتَبَادَلَةٌ ، وَإِذَا مَا تَحَمَّ الْقِيَامُ بِهَا مِنْ طَرَفٍ قِيَامًا سَيِّئًا أَهْمَلَهَا الطَّرَفُ الْآخَرَ ، وَيَجِبُ أَنْ يَحْتَرَمَ الْوَلَدُ أُمَّهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ وَجُوبَ هَذَا ، وَإِذَا لَمْ يُقَوِّ حَنَانَ الدَّمِ بِالْعَادَةِ وَالْبَعَايَةِ خَدَّ فِي السِّنِّينِ الْأُولَى وَمَاتَ الْقَلْبُ قَبْلَ أَنْ يُوَلَدَ ، وَهَكَذَا نَخْرُجُ عَنِ الطَّبِيعَةِ مِنْذُ الْخُطَوَاتِ الْأُولَى .

وَكَذَلِكَ يُخْرَجُ مِنْهَا عَنْ طَرِيقٍ مُعَاكِسٍ ، وَذَلِكَ عِنْدَ مَا تُفْرِطُ الْأُمُّ فِي الْعَنَاءِ بَدَلًا مِنْ إِهْمَالِهَا ، وَذَلِكَ عِنْدَ مَا تَجَمَّلُ مِنْ وَلَدِهَا مَعْبُودًا لَهَا ، وَذَلِكَ عِنْدَ مَا تَبْلُغُ مِنْ زِيَادَةِ ضَعْفِهِ وَإِنْمَائِهِ مَا تَحُولُ مَعَهُ دُونَ شَعُورِهِ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا إِذَا تَرَجَّوْا إِنْقَاذَهُ مِنْ سُنَنِ الطَّبِيعَةِ تُبْعِدُ عَنْهُ مَا شَقَّ مِنَ التَّجَارِبِ غَيْرَ مُفَكِّرَةٍ فِي مَقْدَارِ مَا تَجْمَعُ مِنْ حَوَادِثَ وَأَخْطَارٍ تَقَعُ عَلَى رَأْسِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فِي مَقَابِلِ مَعَاسِيرَ قَلِيلَةٍ تَقِيهِ مِنْهَا لَوْ قَتِ قَصِيرٌ ، وَغَيْرَ مُفَكِّرَةٍ فِي مَقْدَارِ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ حَذَرٍ جَافٍ إِطَالَةَ ضَعْفِ الطُّفُولَةِ تَحْتَ مَتَاعِبِ إِنْسَانٍ نَامٍ ، وَتَقُولُ الْقِصَّةُ إِنْ تَبَيَّنَتْ أَرَادَتْ جَعَلَ ابْنَهَا غَيْرَ قَابِلٍ لِلجَّرْحِ فَفَطَسَتْهُ فِي مَاءِ سِنِيكُسٍ ، وَهَذَا الرَّمْزُ رَائِعٌ وَاضِحٌ ، وَعَكْسُ هَذَا مَا يَصْنَعُ الْأُمّهَاتُ الْجَافِيَّاتُ اللَّائِي أَتَكَلَّمْنَ عَنْهُنَّ ، فَهِنَّ إِذَا يَفْتَمِرْنَ أَوْلَادَهُنَّ فِي التَّرَفِ يُعَدِّدْنَ لَهُنَّ لِلْأَلَمِ ، وَهِنَّ يَفْتَحْنَ مَسَامِيَهُنَّ لِكُلِّ ضَرَرٍ لَا يَقُوتُهُنَّ أَنْ يَذْهَبُوا فَرِيستَهُ عِنْدَ مَا يَكْبُرُونَ .

وَلَا تَحْظُوا الطَّبِيعَةَ ، وَاتَّبِعُوا الطَّرِيقَ الَّتِي تَرْتُمُّهَا لَكُمْ ، فَهِيَ تُرَمِّنُ الْأَوْلَادَ دَائِمًا ، وَهِيَ تُقَوِّى مَزَاجَهُمْ بِمِخْنٍ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ ، وَهِيَ تَعَلِّمُهُمْ

ما الألم وما التعب باكراً ، وتؤدي الأسنان التي تَطْلُع إلى الحُتَّى فيهم ، ويؤدي المنصُّ الحادُّ إلى تَشَنُّجاتٍ فيهم ، ويختنقون بالسعال الطويل ، وتؤديهم الدَّيدان ، وتُفسِد الأَخْلاطُ دَمَهُمْ ، وتَنخُّ فيه خَنازِرُ شتى فتوجب بُشوراً خَطِرةً ، ويُعدُّ دَوْرُ الطفولة دَوْرَ المرض والخطر تقريباً ، وبِهَلِك نصفُ الأولاد قبل بلوغهم الثامنة من سِنِيهِمْ ، ومتى تمت التجارب اكتسب الولدُ قُوًى ، ومتى استطاع الولد أن ينتفع بالحياة كان مبدؤها أكثرَ ضماناً .

هذه هي قاعدةُ الطبيعة ، فَلِمَ تعاكسونها ؟ ألا تَرَوْنَ أنكم بتفكيركم في إصلاحها تَقْضُونَ على عملها وتَحُولُونَ دون فعل عنايتها ؟ وعندكم أن ما يُصَنَعُ في الخارج مماثلاً لِمَا تَصْنَعُ في الداخل ينطوى على مضاعفة الخطر ، وأن اجتنابها ينطوى على العكس ، أى على إزاحة الخطر ، وتدلُّ التجربة على أن نسبةَ موت الأولاد الذين يُنْشَأُونَ تَنْشِئَةً رَفَاهٍ أعظمُ من نسبة موت غيرهم ، ويكون الخطرُ في استعمال قُوَاهُمْ أَقلَّ من مداراتها على ألاَّ يُجَاوَزَ معدَّلُ طاقتها ، فَرَّئُوهم ، إِذَنْ ، على الإصابات التي سيعانونها يوماً ما ، وعودوا أجسامهم احتمالَ تقلباتِ الفصول والجِواء والعناصر والصبر على الجوع والعطش والتعب ، واغْطِسُوهم في ماء سَتِيكْس ، ويُلقَى الجسمُ ما يُرادُّ من عادته بلا خَطرٍ قبل أن يكتسب عادته ، ولكن الجسم إذا ما نال صلابته صار كلُّ تغييرٍ فيه أمراً خَطِراً ، فالولدُ يُطَبِّقُ من التحولات أكثرَ مما يُطَبِّقُ الرجل ، وذلك أن ألياف الولد إذ كانت لينَةً مَرَّةً فإنها تكتسب ما تُعْطَاهُ من تَنَبُّجٍ بلا جُهد ، وأن ألياف الرجل إذ كانت أَشدَّ تصلباً فإنها لا تُغَيِّرُ التَّنَبُّجَ الذي اكتسبته إلاَّ بعنف ، ولِذَا يُمكن جعلُ الولد

عُصْبِيًّا من غير أن تعرّض للخطر حياته وصحته ، حتى إنه لو وُجِدَ مِثْلُ هذا الخطر وجب ألاَّ يُؤَبَّهَ له ، وبما أن هذه الأخطار ملازمةٌ للحياة البشرية أفلا يُوجَدُ ما هو أفضلُ من مواجهتها في وقتٍ توجب فيه أقلُّ ما يُمكن من ضرر ؟

ويصبح الولد أكثرَ قيمةً كلما تقدّم في السنّ ، وذلك أنه يضاف إلى قيمة شخصه قيمةُ العناية التي مُنِحَها ، ويضاف إلى ضياع حياته ما فيه من شعورٍ بالموت ، ففي المستقبل على الخصوص ، إذن ، يجب أن يُفَكَّرَ عند السّهر على سلامته ، وضدّ أمراض الشباب ما يجب تسليحه قبل وصوله إليه ، فإذا كان ثمن الحياة يزيد حتى السنّ التي تصبح فيها نافعةً فما أشدّ الحاجة في وقايته من بعض أمراض الطفولة زيادةً لهذه الأمراض في سنّ الرشد ! وهل هذه هي دروس المعلم ؟

قدّر على الإنسان أن يألَمَ في جميع الأزمنة ، حتى إن العناية بسلامته مرتبطةٌ في الألم ، ومن سعادته أنه لا يَعْرِفُ في طفولته غيرَ الأمراض البدنية ، هذه الأمراض التي هي أقلُّ من الأخرى قسوةً والمأ ، والتي يندُر أن تدفعنا إلى ترك الحياة ! فالإنسان لا يَقْتُلُ نفسه نتيجةً لآلام النّقرس مطلقاً ، ولا يُوجَدُ غيرُ آلام النفس ما يؤدي إلى اليأس ، ونحن نتوجّع لنصيب الطفولة ، ونصيّنا هو ما يجب أن نتوجّع له ، فأعظمُ أمراضنا تصدُرُ عنا .

والولد إذا ما وُلِدَ صاح ، وتمرّ طفولته الأولى في البكاء ، والولد يُهزّز أو يلاطف تارةً ليسكّن ، ويهدّد أو يضرب تارةً أخرى ليسكّن ،

ونحن إما أن نفعل ما يروقه ، وإما أن نطالبه بما يروقنا ، وإما أن نخضع لأهوائه ، وإما أن نخضعه لأهوائنا ، ولا وسط ، أى إما أن يلتقى أوامر وإما أن يتلقى أوامر ، وهكذا فإن أفكاره الأولى أفكار سيطرة أو أفكار عبودية ، والولد يأمر قبل أن يعرف الكلام ، والولد يطيع قبل أن يستطيع العمل ، والولد يجازى أحياناً قبل أن يتمكن معرفة ذنوبه ، وإن شئت قل قبل أن يقدر على اقترافها ، وهكذا فإنه يصب في قلبه الفتي من الإحساسات ، باكراً ، ما يعزى إلى الطبيعة فيما بعد ، وإنه يتوَجَّع من كونه شريراً بعد أن بُذِلَ جهدٌ في جعله على هذه الحال .

وهكذا يقضى الولد ست سنين ، أو سبع سنين ، بين أيدي النساء اللاتي هن ضحية هوهن وهواه ، والولد بعد أن يعلم هذا وذاك ، أى بعد أن تشحن ذاكرته بكلمات لا يستطيع فهمها أو بأمرٍ ليست صالحة له قطعاً ، والولد بعد أن يُطْفَأَ الطبيعيُّ فيه بشهوات مُحدثة ، يوضع هذا الموجودُ المصنوع بين يدي معلم يتم إتمام البذور المصنوعة التي يَجِدُها مُكوَّنةً فيه سابقاً فيعلمه كلَّ شيء خلا معرفة نفسه ، خلا الانتفاع بنفسه ، خلا علم السلوك ونيل السعادة ، وأخيراً عندما يلتقى في العالم هذا الولد العبد والطاغية ، والمملوء علماً والمَجْرَدُ من الإدراك ، والضعيفُ جسماً وروحاً ، دالاً على عجزه وزهوه وجميع عيوبه ، يُوجب رثاء لبؤس الناس وفسادهم ، ونحن على خطأ في هذا ، فذاك رجلُ أهوائنا ، ويكون رجلُ الطبيعة على خلاف ذلك .

أو تريدون ، إذن ، أن يحافظ على شكله الأصلي ؟ حافظوا على هذا

الشكل منذ ولادته ، فإذا جاء إلى الدنيا فاقْبِضُوا عليه ، ولا تتركوه حتى يصبح رجالاً ، ولن تَنْجَحُوا بغير هذا مطلقاً . وكما أن المُرْضِع الحقيقية هي الأم فإن المعلم الحقيقي هو الأب ، وليتفقا في نظام واجباتهما كما في مناهجهما ، وَلِيَتَضَافَرَا على هذا ، فهو يكون أفضل تنشئةً على يدِ أبٍ عاقلٍ محدودٍ مما على يدِ أمهر معلمٍ العالم ، وذلك لأن قيام الغيرة مقام النبوغ أحسنُ من قيام النبوغ مقام الغيرة .

ولكن الأشغال والوظائف والواجبات . . . آه ! الواجبات ! واجبُ الأبِ آخرُ الواجبات لا ريب^(١) ! لا نَعْجَبُ من استخفافه بتنشئة الولد بعد أن نرى استخفاف زوجته بإرضاع هذا الذي هو ثمرةُ قرانها ، لا تُوجَدُ صورةٌ أدعى إلى الفتون من صورة الأسرة ، ولكنَّ خطأ ناقصاً يُشَوِّهُ جميع الخطوط الأخرى ، وإذا كانت الأمُّ من قلة الصحة ما لا تكون معه مرضعاً فإن الأب من كثرة الأعمال ما لا يكون معه معلماً ، ويَجِدُ الأولادُ البُعْداء المُوَزَّعون في المدارس الداخلية والأديار والسكليات حُبَّ المنزل الأبوي في مكان آخر ، أو الأحرى أن يقال إنهم يَرْجِعُونَ إلى هذا المنزل حاملين عادةَ عدم الارتباط في شيء ، ولا يكاد الإخوة والأخوات يتعاشرون ،

(١) متى قرئ في بلوتارك أن الرقيب كانتون ، الذي حكم في رومة بجاء كبير ، قام بتنشئة ابنه من المهذ بعناية يترك معها كل شيء ليكون حاضراً عند ما تهزه المَرْضِع ، أي الأم ، أو ترفعه ، ومتى قرئ في سويتون أن أغسطس ، هذا السيد للعالم الذي فتحه وأداره بنفسه ، كان يعلم حَفَدَتِهِ الكتابة والسباحة ومبادئ العلوم بنفسه ويحملهم حوله دائماً ، لم يَتَأَكَّ عن الضحك من هؤلاء البسطاء الصغار من الناس الذين كانوا يتلهون بمثل هذه الترهات في ذلك الزمن والذين هم من الذكاء المحدود ، لا ريب ، ما لا يقدرُونَ معه على القيام بشؤون عظامنا الزماننا الكبيرة .

ومتى اجتمع هؤلاء كلهم في احتفال أمكن أن يكونوا مهذبين نحو بعضهم بعضاً متعاملين تعامل الغرباء ، ومتى عاد لا يكون بين الأقرباء ألفة ، ومتى عاد مجتمع الأسرة لا يُنم بلطف الحياة ، نُشد سبي الأخلاق ليقوم مقام ذلك ، وأين الرجل الذي يكون من البلاهة ما لا يرى معه سلسلة جميع هذا ؟

والأب إذا ما أَسَل أولاداً وغذَّاهم لم يأت بهذا غير ثلث عمله ، وهو مدينٌ لرجالٍ لنوعه ورجالٍ سبَّلى الألفة للمجتمع وبمواطنين للدولة ، ويُعدُّ مذنباً كلُّ رجلٍ يستطيع تأدية هذا الدين الثلاثي ولا يصنع ، وقد يكون أشدَّ ذنباً إذا أدَّاه نصف تأدية ، ومن لم يَقْدِر على القيام بواجبات الأب لم يَحِقَّ له أن يكون أباً على الإطلاق ، ولا يُوجد فقر ولا عمل ولا حياة يُغني الأب من إعاشة أولاده وتنشئتهم بنفسه ، فيا أيها القراء ! يمكنكم أن تُصدَّقوني ، وذلك أنني أنبي كل من يَحْمِلُ حُباً أبوياً فيهِمِلُ هذه الواجبات البالغة القداسة بأنه سيُكي بكاء مرّاً زمناً طويلاً لِمَا اقترف من إهم ، ولن يجِدَ في هذا ما يُسليه أبداً .

ولكن ما يصنع هذا الرجلُ الغني ، هذا الرَّبُّ للأسرة الشَّغَال المضطَّر ، على زعمه ، إلى إهمال أولاده ؟

هو يؤدي أجراً إلى رجلٍ آخر ليقوم مقامه في هذه العناية المُلقاة على عاتقه ، فيا أيها الروح المطمأن ! أو تعتقد أنك تُنعم على ابنك بأبٍ آخر بالمال ؟ لا تُخادع نفسك مطلقاً ، فليس معلماً ذاك الذي تعطيه إياه ، بل أجيراً لا يَلْبَث أن يَجْعَلَ منه خادماً مثله .

وَيُبْرَهَن كَثِيرًا حَوْلَ صِفَاتِ الْمُرَبِّيِّ الصَّالِحِ ، وَأَوَّلَى الصِّفَاتِ الَّتِي أَطَالِبُهُ بِهَا هِيَ الَّتِي يُقَدَّرُهَا فِيهِ كَثِيرُونَ غَيْرِي ، وَهِيَ أَلَّا يَكُونَ رَجُلًا يُبَاعَ مُطْلَقًا ، وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنَ الْمِهْنِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي لَا تُمَارَسُ بِالْمَالِ إِلَّا لِنَبْدُو غَيْرَ أَهْلِ فِي الْقِيَامِ بِهَا ، كَمِهْنَةِ رَجُلِ الْحَرْبِ وَمِهْنَةِ الْمُرَبِّيِّ .

« وَمَنْ يُنَشِّئُ^١ وَلَدِي إِذَنْ ؟ » .

« أَنْتِ كَمَا قُلْتِ لَكَ » .

« لَا أَسْتَطِيعُ هَذَا » .

« لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا ؟ ... فَاجْعَلِي لِنَفْسِكَ صَدِيقًا إِذَنْ ، وَلَا أَرَى

وَسِيلَةً أُخْرَى » .

مُرَبِّيٍّ ! يَا لَهُ مِنْ رُوحٍ عَالٍ ! ... حَقًّا أَنْ تَكُونِ الرَّجُلَ يَسْتَلْزِمُ وَجُودَ أَبِي أَوْ مِنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْ رَجُلٍ ، فَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ الَّذِي يُفَوِّضُونَهُ إِلَى مَرْتَقَةٍ بِسَكُونٍ .

وَكَلَّمَا فُكِّرْتُ فِي ذَلِكَ شُعِرَ بِمَصَاعِبَ جَدِيدَةٍ ، وَمِمَّا يَجِبُ وَقُوعُهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَبِّيُّ قَدْ نَشَأَ مِنْ أَجْلِ تَلْمِيذِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ خَدَمُهُ قَدْ نَشَأُوا مِنْ أَجْلِ سَيِّدِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَنْ يَدُنُّونَ مِنْهُ قَدْ تَلَقَّوْا مِنَ الْإِنْطِبَاعَاتِ مَا يُوَصِّلُونَهُ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُنْقَلَ مِنْ تَرْبِيَةٍ إِلَى تَرْبِيَةٍ حَتَّى يُرْتَقَى إِلَى حَيْثُ لَا أَدْرِي ، وَكَيْفَ تُنْحَسِنُ^٢ تَنْشِئَةً وَلَدٍ مِنْ قَبْلِ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نَشَأَ تَنْشِئَةً حَسَنَةً ؟

وَهَلْ يَعْرِفُ وَجُودَ هَذَا الرَّجُلِ النَّادِرِ ؟ أَجْهَلُ هَذَا ، وَمَنْ يَعْرِفُ فِي أَرْمَنَةِ الْإِنْطِطَاطِ هَذِهِ دَرَجَةَ الْفَضِيلَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَبْلُغَهَا رُوحُ الْإِنْسَانِ ؟

ولكن لنفرض أن هذا النادر قد وُجد ، فسئلى ما يجب أن يكونه عند النظر إلى ما يجب أن يفعل ، وكل ما أعتقد أنني أرى مُقَدَّمًا هو أن الأب الذى يُحسُّ ما يُكلِّفه الربُّ الصالح يميلُ إلى الاستغناء عنه ، وذلك أنه يلاقى من المشقة فى الحصول عليه ما هو أعظم من أن يكونه بنفسه ، أو يريد أن يصبح صديقًا ؟ فليَنشئُ ابنه ليكونه ، وها هو ذا قد أُعفى من البحث عنه فى مكان آخر ما دامت الطبيعة قد قامت بنصف العمل .

ووجد رجلٌ لا أعرفُ غيرَ مرتبته كان قد عَرَضَ على أن أربِّي ابنه ، وقد حبانى بشرفٍ كبير لا ريب ، ولكن يجب أن يَرْضَى عن حَذَرى بدلًا من أن يتوجَّع من رفضى ، وذلك أنني لو كنتُ قد رَضِيتُ بما عَرَضَ فضَلَلْتُ فى منهاجى لكنتُ التربيةُ ناقصةً ، وأنتى لو وُقِّتُ لكان هذا شرًّا من ذاك لِمَا يَقَعُ من إنكار ابنه للقبه وعزوفه عن أن يكون أميرًا .

وأجِدُنِي كثيرَ الإدراك لأهمية واجبات الربى ، وأجِدُنِي كثيرَ الشعور بقُصُورى ، فلا أقبلُ مثل هذا العمل مهما كان مقام الذى بعرضه على ، حتى إنه لا يكون لعامل الصداقة عندى غيرُ سبب جديد للرفض ، وأعتقد أن أناسًا قليلين سيقومون بمثل هذا العرض على بعد قراءة هذا الكتاب ، فأرجو ممن يُمكن أن يكون من هؤلاء ألاَّ يُحمِّلَ نفسه هذا العناء على غير جدوى ، وما حدث أن قُتُّ بتجربةٍ كافية فى هذه المهنة سابقًا ، وذلك لِأَسْتَنِيحَ أنى غيرُ أهلٍ لها وأن أحوالى تُعَفِّينى منها حتى عند استعداى لها ، وقد رأيتُ لِمَا على أن أقوم بهذا التصريح العام تجاه من

يَبْدُون أَنَّهُمْ يَبْخُلُونَ عَلَىٰ بِمَقْدَارٍ مِنَ التَّقْدِيرِ مَا يَعْتَقِدُونَ مَعَهُ إِخْلَاصِي
وعزى في مقاصدى .

وإذا كنت غير قادرٍ على القيام بأنفع الأعمال فإننى أجروُ ، على الأقل ،
على محاولة القيام بالأسهل ، وذلك أنتى أسير على غرار أناسٍ كثيرين غيرى فلا
أَقْبِضُ على العمل ، بل على القلم ، وأنتى أجدُ في قول ما يجب بدلاً من فعله .
وأعلمُ أن المؤلف ، فى مشروعاتٍ مماثلةٍ لذلك ، يكون على رِسْلِهِ دائماً فى
مناهجٍ يُعْنَى من وَضْعِهَا مَوْضِعَ العمل فيُنْزِرُ من غير جُهدٍ كثيراً من المبادئ
الرائعة التى يتعذر اتباعها ، حتى إن ما يقول بإمكان العمل به يبقى مهملًا عند
عدم بيان وجو تطبيقه ، وذلك عن نقصٍ فى التفصيل والأمثلة .

وأكونُ ، إذنُ ، قد التزمتُ جانبَ اتخاذِ تلميذٍ خيالىٍ مفترضاً السنَّ
والصحةَ والمعارفَ وجميعَ الأهليات المناسبة لثريته وقيادته منذ ولادته إلى الحين
الذى يصبح فيه رجلاً لا يحتاج إلى دليلٍ غير نفسه ، ويبدو لى هذا المنهاجُ
نافعاً فى منع المؤلف الذى يَحْذَرُهُ من الضلال فى رؤى ، وذلك أنه إذا ما ابتعد
عن التعامل المعتاد لم يكن عليه غيرُ اختبارِ منهاجه فى تلميذه ، فلم يَلْبَثْ أن
يَعْلَمَ ، أو يَعْلَمَ القارىءُ نيابةً عنه ، هل يَنْتَبِعُ تقدمَ الصبى وسيرَ القلب
البشرى سيراً طبيعياً .

وهذا ما حاولتُ صنعه فى جميع المشاكل التى تَمْرِضُ ، وقد اقتصرتُ على
وضع المبادئ التى تُشْعِرُ بالحقيقة ، وذلك صَوْنًا للكتاب من التضخيم على غير
جدوى ، وأما القواعدُ التى يُمكنُ أن تحتاج إلى دليلٍ فقد طَبَّقْتُها على إميل
أو على أمثلةٍ أخرى مُثَبَّتًا بالتفصيل الواسع كيف يُمكنُ العملُ بما أقرَّرُ ،

وهذا هو المشروع الذي أريد اتباعه على الأقلّ تاركاً الحكم في توفيقى إلى القارىء .
ومن ثمّ ترى أنّى تكلمت قليلاً عن إميل في البداية ، وذلك لأن مبادئ
الأولى في التربية ، وإن كانت تختلف عما هو مُقرّر ، هى من الوضوح ما يصعب
على كلّ رجلٍ حصيفٍ أن يرفض معه موافقته عليها ، ولكننى كلما تقدّمتُ عاد
تلميذى ، الذى وُجّه إلى غير ما وُجّه إليه . تلاميذك ، لا يكون ولدًا عاديًا ،
فوجب اتخاذُ نظامٍ خاصٍ به ، وهناك يكثرُ ظهوره على المسرح ، حتى إذا
كُنّا حولَ آخر الأوقات لم أغفلُ عنه طرفة عين ، وذلك إلى أن يَفدُوَ غير
محتاجٍ إلّا فى أقلّ شيءٍ مهما قال فى ذلك .

ولا أتكلّم هنا عن صفات المربّي الصالح ، فأنا أفترضها ، وأفترض
اتّصافَ نفسى بجميع هذه الصفات ، ومن مطالعة هذا الكتاب يرى مقدارُ
ما أخبؤ به نفسى من سخاء .

وأخالفُ الرأى الشائعَ فأقول إنه يجب أن يكون مربّي الولد شابًا ، وأن
يكون من الشباب ما يكونه الرجلُ الحكيمُ أيضًا ، وأودُّ لو يكون المربّي ولدًا
إذا أمكن هذا ، فيصبح رفيقَ تلميذه ومحلّ ثقته مقاسمًا لهوّه ، ولا نجدُ بين
الصِّبَا والكهولة من الأمور المشتركة الكافية ما يجعلُ بينهما محبةً متينةً حقًا ،
أجلّ ، إن الاولاد يصانعون الشيبَ أحيانًا ، ولكنهم لا يُحِبُّونهم مطلقًا .
ويُطلَبُ أن يكون المربّي قد قام بتربيةٍ ، وهذا كثير ، فالرجلُ عَيْنُهُ
لا يستطيع أن يقوم بتربية واحدة ، فإذا وجب قيامه بتريتين لينجح
فبأى حقٍّ توتّى الأولى ؟

وكما كَثُرَت التربيةُ عُرفَ أحسنُ ما يُصنَعُ ، ولكنه يُعْجَزُ عن فعله ،

وَمَنْ أَحْسَنَ الْقِيَامَ بِهَذَا الْعَمَلِ ذَاتَ مَرَّةٍ فَشَمَّرَ بِجَمِيعِ مَشَاقِّهِ لَمْ يَحَاولَ قَطُّ
إِلْزَامَ نَفْسِهِ بِهِ ثَانِيَةً ، وَإِذَا كَانَ قِيَامُهُ بِهِ سَيِّئًا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ظَهَرَ هَذَا
مُبْتَسِرًا سَيِّئًا لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ .

وَأَسَلَّمُ بِأَنَّ رِقَابَةَ الْوَلَدِ أَرْبَعَ سِنِينَ تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ تَسْيِيرِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ
سَنَةً ، وَأَنْتُمْ تَأْتُونَ بِمَرْبٍّ لَا بَنِيكُمْ بَعْدَ أَنْ يَتِمَّ تَكْوِينُهُ ، وَأَمَّا أَنَا فَأُرِيدُ أَنْ
يَكُونَ لَهُ مَرْبٌّ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ ، وَيُمْكِنُ صَاحِبَكُمْ أَنْ يُفَيِّرَ تَلْمِيزًا فِي كُلِّ خَمْسِ
سِنِينَ ، وَأَمَّا صَاحِبِي فَلَنْ يَكُونَ لَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَأَنْتُمْ تَمَيِّزُونَ الْمُؤَدَّبَ مِنَ
الْمُرَبِّيِّ ، فَهَذِهِ حِمَاقَةٌ أُخْرَى ! أَوْ تَمَيِّزُونَ التَّلْمِيزَ مِنَ الطَّالِبِ ؟ لَا يُوجَدُ غَيْرُ
عِلْمٍ يُعَلِّمُهُ الْأَوْلَادَ ، وَهُوَ عِلْمُ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِ ، وَهَذَا الْعِلْمُ وَاحِدٌ لَا يَنْقَسِمُ
عَلَى الرِّغْمِ مِمَّا قَالَهُ إِكْزَرِيْنُفُونُ عَنْ تَرْبِيَةِ الْفُرْسِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَدْعُو مُعَلِّمَ
هَذَا الْعِلْمِ مَرِييًّا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أَدْعُوهُ مُؤَدِّبًا مَا دَامَ الْمَهْمُ عَنْدهُ فِي التَّسْيِيرِ أَكْثَرَ
مِمَّا فِي التَّهْذِيبِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُنْعِمَ بِتَعَالِيمٍ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى لُقْيَانِهَا .
وَإِذَا مَا وَجَبَ اخْتِيَارُ الْمُرَبِّيِّ بَعْنَايَةٍ فَائِقَةٍ أُبَيِّحُ لَهُ اخْتِيَارُ تَلْمِيزِهِ أَيْضًا ،
وَلَا سِيَّامًا عِنْدَ تَوَقُّفِ الْأَمْرِ عَلَى تَقْدِيمِ تَمْوِذَجٍ ، وَلَا يُمْكِنُ هَذَا الْاخْتِيَارَ أَنْ يَقَعَ
عَلَى عِبْقَرِيَةِ الْوَلَدِ أَوْ سَجِيَّتِهِ مَا دَامَ هَذَا لَا يُعْرَفُ فِي غَيْرِ نِهَايَةِ الْعَمَلِ ،
وَمَا دُمْتُ أُقَبِّلُهُ قَبْلَ وَلَادَتِهِ ، وَمَتَى أُمَكِّنِي الْاخْتِيَارُ لَمْ أَتَّخِذْ غَيْرَ رُوحٍ عَادِيٍّ
كَمَا أَفْتَرِضُ تَلْمِيزِي ، فَلَا احتِيَاجَ إِلَى غَيْرِ تَنْشِئَةِ رِجَالٍ عَامِينَ ، وَتَرْبِيَةِ هَؤُلَاءِ
وَحَدِّهَا هِيَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَصْلُحَ مِثَالًا لِمِثَالِهِمْ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيُتَشَاوَنُ عَلَى
مَا فِيهَا مِنْ ذَلِكَ .

وَلَيْسَ الْبَلَدُ خَلِيًّا تَجَاهَ تَقَافَةِ النَّاسِ ، وَهُمْ لَا يَكُونُونَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُوا

في غير الأقاليم المعتدلة ، ويكون الضرر ظاهراً في الأقاليم المتناهية ، وليس الإنسان مغروساً كالشجرة في بلدٍ حتى يقيم به دائماً ، ويلزم الذي يذهب من أحد الأقاليم ليصل إلى الآخر بمضاعفة الطريق التي يسلكها من يذهب من الحدِّ المتوسط ليصل إلى ذات الحدِّ .

وإذا ما جاب الأقصيين ساكنُ البلد المعتدل بالتعاقب كانت فائدته واضحةً أيضاً ، وذلك لأنه ، وإن كان يتغير كلما ذهب من الأقصى إلى الأقصى ، يكون أقلُّ ابتعاداً عن كيانه الطبيعيِّ بما لا يزيد على النصف مع ذلك ، أجلُّ ، إن الفرنسيَّ يعيش في غِنيَّة وفي لاپونية ، غير أن الزنجيَّ لا يعيش مثله في تورُنيا ولا يعيش الساموئيدى مثله في ينين ، ويظهر أن نظام الدماغ أقلُّ كمالاً في الأقصيين ، فليس عند الزنوج ، ولا عند اللاپون ، إدراكُ الأوربيين ، ولو أردتُ ، إذن ، كَوْن تلميذٍ ساكناً للأرض لأخذته إلى مِنطقةٍ معتدلة ، كفرنسة ، مفضلاً إياها على سواها .

والناس في الشمال يستهلكون كثيراً على أرضٍ جديبة ، والناس في الجنوب يستهلكون قليلاً على أرضٍ خصيبة ، فتشأ عن هذا فرقٌ جديدٌ يجعل أولئك أهلَ جدِّ ويجعل هؤلاء أهلَ تأمل ، ويعرضُ المجتمع علينا في عين السكان صورةً هذه الفروق بين الفقراء والأغنياء ، فالفقراء يسكنون الأرض الجديبة ، والأغنياء يسكنون الأرض الخصيبة .

ولا يحتاج الفقير إلى تربية ، فتربيةُ حاله أمرٌ قسرى ، ولا يقدر على نيل غيرها ، وعلى العكس تكون التربية التي يتلقاها الغنيُّ من حاله هي أقلُّ ما يناسبه شخصاً ومجتمعاً ، وهذا إلى أن التربية الطبيعية يجب أن تجعل الرجل

صالحاً لجميع الأحوال البشرية ، والواقع أن تنشئة الفقير ليكون غنياً أقلُّ صواباً من تنشئة الغنى ليكون فقيراً ، وذلك لأنه إذا نُظِرَ إلى نسبة عدد الحالين وُجِدَ أن من افترقوا أكثرُ ممن اغتنوا ، ولنُخْتَرَ غنياً إذن ، فبذلك نطمئن إلى تكويننا رجالاً زيادةً بدلاً من إمكان تحويل فقيرٍ إلى رجلٍ بفعل نفسه . ولذاتِ السبب لا يَفيظُنِي كَوْنُ إميلَ أصيلاً ، فسيكون هذا ، دائماً ، ضحيةً مُنْتَزَعاً من المُبْتَسَر .

إميلُ يتيمٌ ، وليس من المهمَّ وجودُ أبٍ له أو أمٍّ ، فبما أنه فوّضَ إليَّ أن أقوم بواجباتهما فإنني أخلفُهما في جميع حقوقهما ، أجلٌ ، إن عليه أن يُكرِّمَ والديه ، ولكن ليس عليه أن يُطِيعَ غيري ، وهذا هو شرطُى الأول ، بل شرطُى الوحيد .

ويجب أن أضيف إليه ما ليس غيرَ تكملةٍ له ، وهو ألا يفترق أحداً عن الآخر إلا باتفاقنا نحن الاثنين ، وهذه الفقرة الشرطية أمرٌ جوهريٌّ ، حتى إنني أودُّ أن يَبْلُغَ التلميذُ والرَبِّيُّ من اتحادهما ما يكون معه نصيبُ أيامهما أمراً مشتركاً بينهما دائماً ، وما إذا ما أبصرا انفصالهما في الابتعاد ، وما إذا ما أدركا الساعة التي يجب أن تجمل أحدهما غريباً عن الآخر ، دلَّ هذا على أن حالهما كان هكذا ، وكلُّ منهما يقوم بمنهاجه الصغير على حدة ، وما حين يوجَّهان ذهنهما إلى الوقت الذي يكونان فيه غيرَ متحدّين لا يَبْقِيَانِ معاً إلا كَرَهًا ، ولا يَعُدُّ التلميذُ معلمه إلا رَمَزَ الصَّبَا وآفته ، ولا يَعُدُّ المعلمُ تلميذه إلا عبئاً ثقیلاً يَتَحَرَّقُ شوقاً إلى إلقائه عن عاتقه ، وَيَطْمَحُ بصرُ كلِّ منهما ، متفقاً ، إلى الوقت الذي يتخلَّص فيه من الآخر ، وبما

أنه لا يوجد بينهما حُبٌّ حقيقىٌّ فإنه يكون عند أحدهما قليلٌ انتباه ويكون عند الآخر قليلٌ انقياد .

لكنهما إذا ما أبصرا أنهما مُلزَمان بقضاء أيامهما معاً عُنِيًا بتحاجبهما وصار كلٌّ منهما عزيزاً على الآخر ، ولا يَسْتَحِجِ التلميذ ، مطلقاً ، من اتباعه فى صباه مَنْ يكون صديقه إذا ما كَبِرَ ، ويُعْنَى المربى برعاية من لا بُدَّ من اقتطاف ثمرته ، ويُعَدُّ كلُّ فضلٍ يُحْبُو به تلميذه أساساً يضعه نفعا لأيام مَشِيئِهِ .

وَيَفْتَرِضُ هذا العقد الذى وُضِعَ مقدِّماً ولادةً مُوقَّعةً وولداً حسنَ التكوين قوياً سليماً ، وليس للأب خيارٌ مطلقاً ، ولا ينبغي أن يأتى تفضيلاً فى الأسرة التى أنعم الله بها عليه ، فجميعُ أولادِهِ أولادٌ له على السواء ، وعليه أن يُبْدِىَ نحوهم ذاتَ العناية وذاتَ الحنان ، وهم سواءٌ أكانوا مُتَعَدِّينَ أم لا ، وهم سواءٌ أكانوا ضعفاءً أم أقوياء ، يُعَدُّ كلُّ واحدٍ منهم وديعةً يسأله المُعْطِى عنها ، فالزواجُ عقدٌ مع الطبيعة كما بين الزوجين .

ولكنه يجب على كلٍّ من يَفْرِضُ على نفسه واجباً ، لم تَفْرِضْهُ الطبيعةُ عليه قَطُّ ، أن يكون قابضاً على وسائل القيام به مقدِّماً ، وإلا كان مسؤولاً حتى عن الذى لم يستطع فعله ، ومن يَتَوَلَّى أمرَ تلميذٍ عليلٍ مِسْتَقَامٌ يُحوِّلُ عمله كمرَبٍّ إلى عملٍ مُمرَّضٍ ، وهو يُنْفِقُ فى العناية بحياةٍ غيرِ نافعةٍ وقتاً كان يُعِدُّه لرفع قيمتها ، وهو يُعْرِضُ نفسه لمواجهةٍ أُمِّ شديدةِ الحزن تلومه ذات يوم على موت ابنٍ مُلزَمٍ بحفظه لها زمناً طويلاً .

ولن أَتَوَلَّى أُمِّ ولدٍ مِسْتَقَامٍ مُمرَّاضٍ ولو عاش ثمانين حَوَلاً ، ولا أَرغبُ مطلقاً فى تلميذٍ غيرِ نافعٍ لنفسه وللآخرين دائماً ، فى هذا التلميذ الذى يُعْنَى

بنفسه حصراً ، فيسئ جسمه إلى تربية الروح ، وما أصنع بإشفاق عليه عنايتي
 سُدَى إن لم يكن مضاعفة خُسْرِ المجتمع ونَزَعَ رَجُلَيْنِ مِنْهُ فِي سَبِيلِ وَاحِدٍ ؟
 إِذَا مَا تَوَلَّى أَمْرَ هَذَا الْعَلِيلِ آخِرُ مَكَانٍ وَاقَفْتُ عَلَى هَذَا وَرَضِيتُ عَنْ حَسَنَتِهِ ،
 وَلَكِنِّي لَمْ أُبَسِّرْ لِهَذَا ، فَلَا أَعْرِفُ ، مُطْلَقاً ، أَنْ أَعْلَمَ الْحَيَاةَ لِمَنْ لَا يُفَكِّرُ
 فِي غَيْرِ مَنْعِ مَوْتِ نَفْسِهِ .

وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْجِسْمُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يُطِيعُ مَعَهُ الرُّوحَ ، فَعَلَى الْخِدَامِ الصَّالِحِ
 أَنْ يَكُونَ عَضَلِيّاً ، وَأَعْرِفُ أَنَّ النَّهْمَ يُحَرِّكُ الشَّهَوَاتِ ، فَهُوَ يَنْهَكُ الْبَدْنَ مَعَ
 الزَّمَنِ ، وَأَعْرِفُ أَنَّ التَّقَشُّفَ وَالصُّومَ يُؤْذِيَانِ ، فِي الْغَالِبِ ، إِلَى ذَاتِ النَّاتِجَةِ لِلْسَّبَبِ
 الْمَعَاكِسِ ، وَكَلَّمَا كَانَ الْبَدْنُ ضَعِيفاً هَيَّئَنَ ، وَكَلَّمَا كَانَ قَوِيّاً أَطَاعَ ، وَتَقِيمُ جَمِيعِ
 الشَّهَوَاتِ الْحَسِيَةِ فِي الْأَجْسَامِ الْمُخَنَّثَةِ ، وَهِيَ تَزِيدُ هِيَاجاً عِنْدَ أَقَلِّ قَضَاءِهَا .

وَالْجِسْمُ الْوَاهِنُ يُضْعِفُ الرُّوحَ ، وَمَنْ ثَمَّ كَانَ سُلْطَانُ الطَّبِّ الَّذِي هُوَ فَنٌّ
 أَشَدَّ ضَرراً عَلَى النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَشْفِيهَا ، وَأَمَّا أَنَا
 فَلَا أَعْرِفُ أَيْ الْأَمْرَاضِ يَشْفِينَا مِنْهَا الْأَطْبَاءُ ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَنَّهُمْ يُعْطُونَنَا
 مَا هُوَ شَدِيدُ الشُّؤْمِ مِنْهَا ، يُعْطُونَنَا النَّذَالَةَ وَالْجُبْنَ وَسُرْعَةَ التَّصَدِيقِ وَالْفَرْعَ
 مِنَ الْمَوْتِ ، وَهُمْ إِذَا مَا شَفَوْا الْبَدْنَ قَتَلُوا الشَّجَاعَةَ ، وَمَا يَهْمُنَا أَنْ يُسَيِّرُوا
 جُنُتًا ؟ فَإِلَى الرِّجَالِ نَحْتَاجُ ، وَلَا نَرَى صُدُورَ رِجَالٍ عَنْهُمْ .

وَالطَّبِّ مُؤْضَةٌ* يَبْنِي ، وَهُوَ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَهُ ، فَهُوَ لَهْوُ ذَوِي الْبَطَالَةِ
 وَالْفَرَاغِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَا يَصْنَعُونَ بِوَقْتِهِمْ فَيَقْضُونَهُ فِي حِفْظِ حَيَاتِهِمْ ، وَلَوْ
 كَانَ هَؤُلَاءِ مِنَ الشَّقَاءِ مَا يُؤَلَّدُونَ مَعَهُ خَالِدِينَ لَكَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بُؤْساً لِمَا

لا يكون للحياة التي لا يَخْشَوْنَ ضَيَاعَهَا أَىْ ثَمَنٍ عِنْدَهُمْ ، وَبِحَتَاجِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ إِلَى أَطْبَاءٍ يُهَدِّدُونَهُمْ عَنِ مَلَكِيٍّ فَيُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ بِاللَّذَةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُونَ بِهَا ، وَهِيَ أَلَّا يَمُوتُوا .

وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَتَبَسَّطَ هُنَا حَوْلَ بُطْلَانِ الطَّبِّ فَلَا يَقُومُ مَوْضُوعِي عَلَى غَيْرِ النَّظَرِ إِلَيْهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأَدْبِيَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْنَعُ نَفْسِي مِنْ كَوْنِ النَّاسِ يَأْتُونَ حَوْلَ عَادَتِهِ مِنَ السَّفْسَطَاتِ مَا يَأْتُونَ حَوْلَ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِيقَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَفْتَرِضُونَ ، دَائِمًا ، أَنَّ الْمَرِيضَ إِذَا مَا عُولِجَ شُفِيَ وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ إِذَا مَا نُشِدَتْ وَجِدَتْ ، وَهُمْ لَا يَرَوْنَ وَجُوبَ الْمَقَابَلَةِ بَيْنَ نَفْعِ شِفَاءٍ يُوقَفُ لَهُ الطَّبُّ وَمَوْتِ مِثْلِهِ مَرِيضٍ يَقْتُلُهُمْ ، كَمَا لَا يَرَوْنَ وَجُوبَ الْمَقَابَلَةِ بَيْنَ نَفْعِ حَقِيقَةٍ يُهْتَدَى إِلَيْهَا وَضَرَرِ الضَّلَالَاتِ الَّتِي تَقَعُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ ، أَجَلٌ ، إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يُتَقَفُّ وَالطَّبَّ الَّذِي يَشْفِي صَالِحَانِ كَثِيرًا لَا رَيْبَ ، غَيْرَ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يُخَادِعُ وَالطَّبَّ الَّذِي يَقْتُلُ شَرَّانِ ، فَعَلَّمُونَا أَنْ تَمَيِّزَ بَيْنَهُمَا إِذَنْ ، وَهَذِهِ هِيَ عُقْدَةُ الْمَسْئَلَةِ ، وَلَوْ كُنَّا نَعْرِفُ جَهْلَ الْحَقِيقَةِ مَا خُدِعْنَا بِالْكَاذِبِ مطلقًا ، وَلَوْ كُنَّا نَعْرِفُ الرِّغْبَةَ عَنِ الشِّفَاءِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الطَّبِيعَةِ مَا قُتِلْنَا عَلَى يَدِ الطَّبِيبِ مطلقًا ، وَيَعُدُّ هَذَانِ الْاِمْتِنَاعَانِ أَمْرَيْنِ حَكِيمَيْنِ ، فَمِثْلُهُمَا غَنَمٌ لَا مِرَاءَ ، وَلَا أُمَارَى ، إِذَنْ ، فِي كَوْنِ الطَّبِّ نَافِعًا لِبَعْضِ النَّاسِ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ إِنَّهُ شَوْمٌ عَلَى الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ .

وَسَيَقَالُ لِي ، كَمَا يُفَعَّلُ دَائِمًا ، إِنَّ الذَّنْبَ ذَنْبُ الطَّبِيبِ ، وَلَكِنِ الطَّبَّ مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَلِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ ، حَسَنًا ، وَلَكِنِ لِيَأْتِ الطَّبُّ بِمَا لَا طَبِيبٍ إِذَنْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا إِذَا أَتَيَا مَعًا كَانَ مَا يُخْشَى مَعَهُ خَطَأُ الْمُتَفَنِّينِ مِثْلَهُ مَرَّةٍ

أكثر من الأمل في عون الفن .

وليس هذا الفن الكاذب ، الذى وُضِعَ لأمراض الروح أكثر مما لأمراض البدن ، أعظم فائدة لإحداها مما للأخرى ، وهو أقل شفاءً لأمراضنا من إلقائه خوفها فينا ، وهو أقل تأخيراً للموت من إشعارنا به مقدماً ، وهو يؤهن الحياة بدلاً من إطالتها ، وهو إذا ما أطلها كان هذا ضرراً بالنوع مادام ينتزعنا من المجتمع بما يفرضه علينا من عناية ومادام ينتزعنا من واجباتنا بما يُلقيه فينا من فزع ، ومعرفة الأخطار هى التى تجعلنا نخافها ، ومن يعتقد أنه لا يُجرح لم يخش شيئاً ، وقد نزع الشاعرُ مزية الشجاعة من أشيل بتسليحه ضدَّ الخطر ، فكلُّ واحد يصبح أشيلاً إذا ما اتفق له هذا التسليح .

وإذا أردتم وجودَ رجال ذوى شجاعة حقيقية فابحثوا عنهم فى الأماكن التى لا يوجد فيها أطباء مطلقاً ، فى الأماكن التى تُجهلُ فيها نتائج الأمراض فلا يحلم فيها بالموت مطلقاً ، ومن الطبيعى أن يَألم الإنسان دائماً وأن يموت هادئاً ، والأطباء بوصفاتهم والفلاسفة بتعاليمهم والكهنة بإنذاراتهم هم الذين يُذلُّون القلب ويخيفونه من الموت .

ولأعطى تلميذاً غير محتاج إلى جميع هؤلاء الناس ، وإلاً رفضته ، ولا أريد أن يُفسدَ آخرون على مطلقاً ، وأريد أن أنشئه وحدى ، وإلاً لا أتدخل فى أمره ، ويقضى الحكيمُ لوكُ قسماً من حياته فى دراسة الطب فيوصى بشدة إلا يعالج الأولاد بأدوية مطلقاً ، لا عن حذرٍ ولا عن ضعفٍ خفيف ، وأذهب إلى ما هو أبعدُ من هذا فأصرِّح ، أنا الذى لم

يَدْعُ أطباء لنفسه قَطُّ ، بأننى لن أَدْعُوَ طبيباً لإميل ، مالم تكن حياته فى خطر واضح ، وذلك لأنه لا يستطيع أن يصنع له ، حينئذٍ ، ما هو شرٌّ من قتله .

وأعرف جيداً أن الطبيب لن يَفُعلَ عن الاستفادة من هذه المُهلة ، فإذا مات الولد فإنه يكون قد دُعِيَ بعد الأوان ، وإذا ما نجا فإنه يُعدُّ منقذاً له ، وليُكتبَ الفوزُ للطبيب هكذا ، ولكنْ لتكنْ دعوته عند الرَّمقِ الأخير على الخصوص .

وكما أن الولد لا يَعْرِفُ أن يَشْفِي نفسه يَعْرِفُ أن يكون مريضاً ، ويقوم هذا الفنُّ مقامَ الآخر ، ويُكتبُ له النجاحُ ، غالباً ، أكثرَ من ذاك بدرجات ، وهذا هو فنُّ الطبيعة ، ومتى كان الحيوان مريضاً أَلِمَ هادئاً والترمَّ جانبَ الصمت ، والواقعُ أننا لا نرى كالإنسان حيواناً يَضْنَى ، وما أكثرَ ما قَتَلَ الْجَزَعُ وَالْفَزَعُ وَالْهَلَعُ ، والأدويةُ خاصةً ، أناساً كان يُنبِئُ عليهم مرضهم فيشفيهم الزمنُ وحده ! وسيقال لى إن الحيوانات ، إذ كانت تعيش على وجهٍ أشدَّ ملاءمةً للطبيعة ، وجب أن تكون أقلَّ عُرضَةً للأمراض منا ، والآن هذا هو طرازُ الحياة الذى أريدُ أن أُحبِّو به تلميذى حَضراً ، فليَنْتَفِعْ به إذن .

وحفظُ الصحة وحده هو فصلُ الطبِّ المفيدُ ، ثم إن حفظُ الصحة فضيلةٌ أكثرُ منه علماً ، والاعتدالُ والعملُ هما طبيبا الإنسان الحقيقيان ، فالعملُ يَشْحَذُ شهوته والاعتدالُ يَحُولُ دون إساءة استعمالها .

وليس على من يودُّ معرفة أى النظمِ أنفعَ للحياة والصحة غيرُ معرفةِ

أى النظم تَعْمَلُ به الشعوب التى تتمتع بأحسن صحة فتكون أشد قوة وأطول حياة ، وإذا كانت المشاهدات العامة تدلُّ على أن عادة الطب لا تمنحُ الناسَ صحةً أكثرَ ثباتاً وحياةً أعظمَ طولاً كان هذا الفنُّ ضاراً لعدم فائدته مادام يُنْفِقُ الزمانَ والناسَ والأشياءَ فيما هو خسرٌ محضٌ ، ويجب ألا يُقْتَصَرُ على طرح الوقت الذى أنفقَ فى حفظ الحياة ، لافى التمتع بها ، فهذا الوقت إذا ما أنفقَ فى تعذيب أنفسنا كان شراً من تبديده ، أى كان سلبياً ، فيقضى الإنصاف فى الحساب بأن يُطرحَ مما بَقِيَ لنا ، ويُعدُّ الإنسان الذى عاش عَشْرَ سنين بلا طيب أنه عاش لنفسه ولغيره أكثر من الذى عاش ثلاثين سنةً ضحيةً الأطباء ، وبما أننى جَرَّبْتُ كلاً الأمرين فإننى أكون أحقُّ من سواى فى استخراج النتيجة .

هذه هى الأسباب التى تجعلنى لا أرغبُ فى غير تليذٍ عُصْلِيٍّ سليم ، وهذه هى مبادئ التى تهْدِفُ إلى بقائه هكذا ، ولا أقف عند إثباتى مطوَّلاً فائدة الأعمال اليدوية والتمرينات البدنية تقويةً للبنية والصحة ، فهذا أمرٌ لا يجادل فيه أحدٌ ، وذلك أن أمثلة أطول الحَيَوات تُستخرج كلها تقريباً من الرجال الذين قاموا بتمارين أكثر من غيرهم واحتملوا نصَباً وعملاً^(١)

(١) إليك مثالا اقتبسته من صحف إنكليزية فلم يسمي غير إيراده لتضمينه تأملات تتصل بموضوعي « ولد المسيح بتريك أوزيل سنة ١٦٤٧ ، فتزوج للمرة السابعة سنة ١٧٦٠ ، وقد استخدم فى كتيبة الفرسان فى السنة السابعة عشرة من عهد شارل الثانى ، كما استخدم فى كئائب شتى حتى سنة ١٧٤٠ حين سرح ، وقد اشترك فى جميع معارك الملك وليام والدوك ملبورو ، ولم يحدث أن شرب هذا الرجل غير الجعة العادية ، ولا تغذى بالخضر دائماً ، ولم يأكل لحماً فى غير بعض الولائم التى كان يقيمها لأسرته ، ومن عادته أن كان ينام ، ويفيق مع الشمس ، لم تمنعه واجباته من ذلك ، وهو الآن فى الثالثة عشرة بعد المئة من سنه ، وهو حسن السبع حسن الصحة ويمشى بلا عصا ، وهو لا يبتق عطلا من العمل ساعة على الرغم من سنه ، وهو يذهب فى جميع أيام الأحد إلى الكنيسة ومعه أولاده وحفدته وحفدة أولاده » .

أَكْثَرَ مِنْ سَوَامٍ ، وَلَنْ أَفْصَلَ مُطَوَّلًا مَا أُنْخِذُ مِنْ عُنَايَةِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَحْدَهُ ، فَسِيرُى أَنَّهُ دَاخِلٌ ضِمْنَ عَمَلِي ، فَيَكْفِي الْبَصْرُ بِرُوحِهِ حَتَّى يُسْتَفْتَى عَنْ الْقِيَامِ بِإِيضَاحٍ آخِرٍ .

وَمَعَ الْحَيَاةِ تَبْدَأُ الْاِحْتِيَاجَاتُ ، وَلَا بُدَّ لِلْمَوْلُودِ حَدِيثًا مِنْ مُرْضِعٍ ، وَإِذَا مَا وَافَقَتْ الْأُمُّ عَلَى الْقِيَامِ بِوَاجِبِهَا كَانَ هَذَا خَيْرًا ، وَتُعْطَى تَعْلِيمَاتُهَا خَطَأً ، وَذَلِكَ لِأَنَّ لَهُذِهِ الْفَائِدَةَ نَقَلَهَا ، فَهِيَ تُنَمِّسُكَ الْمُرَبِّيَ بَعِيدًا بَعْضَ الْبَعْدِ مِنْ تَلْمِيْزِهِ ، بَيِّنَ أَنَّ هُنَاكَ مَا يَتَحَمَّلُ عَلَى الْاِعْتِقَادِ أَنَّ مَصْلَحَةَ الْوَلَدِ وَاحْتِرَامَ مِنْ تَرِيدُ أَنْ تُسَلِّمَ الْأُمُّ إِلَيْهِ وَدِيْعَةً غَالِيَةً جَدًّا يَجْعَلُهَا مُنْتَبِهَةً إِلَى آرَاءِ الْعِلْمِ ، وَمَنْ الْمُحَقِّقُ أَنَّ جَمِيعَ مَا تَرِيدُ فِعْلَهُ تَفْعَلُهُ بِأَحْسَنَ مِمَّا يَفْعَلُهُ سِوَاهَا ، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مُرْضِعٍ غَرِيبَةٍ فَلْنَبْدَأْ بِحُسْنِ اخْتِيَارِهَا .

وَمَنْ تَعَسَّ الْأَغْنِيَاءُ أَنْ يَخَادَعُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَلْ يُعْجَبُ مِنْ سَوْءِ حُكْمِهِمْ فِي النَّاسِ ؟ إِنْ التَّرَوَاتِ هِيَ الَّتِي تُفْسِدُهُمْ ، وَهَمَّ أَوَّلُ مَنْ يَشْعُرُ ، عَنْ رَجُوعٍ عَادِلٍ ، بَعِيْبُ الْآلَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا ، وَكُلُّ شَيْءٍ سَيِّئِ الصَّنْعِ عِنْدَهُمْ ، خِلَا مَا يَصْنَعُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَهَمَّ لَا يَصْنَعُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ تَقْرِيْبًا ، فَإِذَا وَجِبَ الْبَحْثُ عَنْ مُرْضِعٍ تَرَكَوْا هَذَا لِلْمَوْلَدِ ، وَمَا يُسْفِرُ عَنْ هَذَا ؟ إِنْ أَصْلَحَ مُرْضِعٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنْ يُوْدَى إِلَيْهَا دَائِمًا ، وَلِذَا لَا أَذْهَبُ لَاسْتِشَارَةِ مُوَلَّدٍ بَحْثًا عَنْ مُرْضِعٍ لِإِمِيلٍ ، وَإِنَّمَا أُعْنَى بِاخْتِيَارِهَا بِنَفْسِي ، أَجَلٌ ، قَدْ لَا أُبْرِهِنُ حَوَالَهَا بِرَهْنَةِ الْجِرَّاحِ ، وَلَكِنِّي أَسِيرُ عَنْ إِخْلَاصٍ فَأَكُونُ أَقْلًا زَلَلًا بَغِيْرَتِي مِمَّا بَطْمَعُهُ .

وَلَيْسَ هَذَا الْاِخْتِيَارُ سِرًّا كَبِيرًا مُطْلَقًا ، فَقَوَاعِدُهُ مَعْرُوفَةٌ ، وَلَكِنِّي

لا أعرف هل من الواجب بذلُ شيء من الانتباه حولُ عمر اللبن وصفته ،
فَاللبنُ الجديدُ مائِيٌّ ، ويجب أن يكون مُكَيَّنًا تقريبًا للتخلُّص من بقية العَقِي*
الكثيف في أمعاء المولود حديثًا ، وَيَتَخَرَّرُ اللبنُ شيئًا فشيئًا فيتألف منه غذاء
أكثرُ جُوداً لدى الولد الذي يصبح أقوى على هضمه ، وليس من العبث ،
لَارِيَبَ ، أن تُغَيَّرَ الطَبِيعَةُ في الإناث من كُلِّ نوعٍ كثافةَ اللبنِ وَفَقْ
عمر الرَضِيع .

إِذَنْ ، لا بُدَّ للمولود حديثًا من مُرَضِعٍ وَضَعْتَ حديثًا ، وأعرفُ أن هذا
صعبٌ ، ولكنه إذا ما خُرج من النظام الطبيعيِّ اعترضت المصاعبُ في سبيل
كُلِّ ما هو حسنُ الصَّنْع ، وصُنْعُ السوء هو السبيلُ الوحيدُ السهلُ ، وهو
ما يُخْتَارُ أيضًا .

ويجب أن تكون المرضعُ سالمةً قلباً وبدناً ، ويُمكن عدم اعتدالِ الميُول
أن يُفسِدَ اللبنَ كما يُمكن عدم اعتدالِ الأمِرجة ، وهذا إلى أن الاقتصار على
الناحية البدنية في ذلك يَعْنِي رؤيةَ نصف الموضوع فقط ، وقد يكون اللبنُ
صالحاً والمرضعُ فاسدًا ، فانلُحَّ الصالحُ أمرٌ جوهريٌّ كالزجاج الصالح ، وإذا ما
أُخِذَت امرأةٌ فاسدةٌ فَإِنِّي لا أقول إن رضيعها يكتسب عيوبها ، وإنما أقول
إنه يعانيها ، أو ليست ملزمةً نحوه ، مع لبنها ، بالعناية التي تستلزم غيرةً وصبراً
ورفقاً ونظافةً ؟ إذا ما كانت نهمةً مَبْطِئَةً لم تَلَبَثْ أن تُفسِدَ لبنها ، وإذا ما

* العَقِي : شيء لزج أسود يخرج من بطن المولود قبل أن يأكل .

كانت مهمةً أو غضوباً فما يكون تحت رحمتها حالُ نَعْسٍ مسكين لا يمكنه الدفاعُ عن نفسه أو شكاية أمره ؟ لا يصلحُ الخبثاء لصالح .

ويكون اختيارُ المُرْضِع عن عدم وجودِ مربيةٍ للرضيعِ غيرها من الأهمية كوجوب عدمِ وجودِ معلمٍ له غيرِ مربيه ، وكانت هذه عادةَ القدماء الذين هم أقلُّ برهنةً وأكثرُ حكمةً منا ، فما كانت للمَرَّاضِعُ ، بعد رِضَاعَةِ الأولاد من جنسهن ، ليركبنهن ، وهذا هو السببُ في كون معظم النَجِيَّات في رواياتهن التمثيلية من المراضع ، ومن المتعذر أن يكون الولد الذي تتعاقبه أيدي مختلفةٌ حسنَ التنشئة ، فهو يقوم عند كلِّ تغييرٍ بقياساتٍ خفيةٍ تؤدي في كلِّ حين إلى تقليل احترامه لمن يُرَبُّونه ، وإلى نقصِ سلطانهم عليه من حيث النتيجةُ ، وإذا ما فُكِّرَ مرةً في وجودِ أناسٍ كبارٍ لا يفوقون الأولادَ عقلاً زال كلُّ ما للسنِّ من سلطانٍ وحَبِطَتِ التربيةُ ، ولا يجوز أن يَعْرِفَ الولدُ من يَسْمُو أباه وأُمَّه ، أو مُرْضِعَهُ ومربيه عند عدم وجودهما ، حتى إن هذين الاثنين أمرٌ كثير ، ولكنه لافترٍ من هذا التقسيم ، وكلُّ ما يُمكنُ صنعه لتلافيه هو أن يكون الجنسان اللذان يربيانه من الاتفاق ما يكونان معه واحداً بالنسبة إليه .

ويجب أن تعيش المُرْضِعُ بما هو أيسرُ بعضِ اليُسْر ، فتتناول من الأغذية ما هو أكثرُ إقانةً إلى درجةٍ ما ، ولكن على ألا يُغيَّرَ طرازُ العيش تغييراً تاماً ، وذلك لأن التغييرَ السريعَ الجامعَ أشدُّ خطراً على الصحة دائماً ولو كان من الأدنى إلى الأحسن ، وما فائدة حملها على تغيير نظامها المعتاد ما دام قد ترَكها ، أو جعلها ، سليمةً صحيحةً البنية ؟

وتأكل القرويات قليل اللحم وكثير خضري خلافاً لنساء المدن ، ويظهر أن هذا النظام النباتي أعظم نفعاً من ضرره لمن ولأولادهن ، وهن إذا ما كان لمن رضع من البرجوازية أعطين سلاتق مع اللحم اعتقاداً بأن المرق والحساء يجعلان أضلع كيلوس وأغزر لبن فيهن ، ولا أرى هذا الرأي مطلقاً ، فقد علمتنا التجارب أن الأولاد الذين يرضعون على هذا الوجه يكونون عرضةً للمفص والدود أكثر من الآخرين .

وليس في ذلك ما يُثيرُ العجب مطلقاً ، مادامت المادة الحيوانية تزدهم دوداً عند التعفن ، وهذا ما لا يطرأ على المادة النباتية هكذا ، ويُعدُّ اللبن مادة نباتية وإن كان يُهيأ في جسم الحيوان^(١) ، ويبدلُ تحليله على هذا ، وذلك أنه يتحول بسهولة إلى حامض ، وهو يُسفر ، كالتبانات ، عن ملح متعادل بعيداً من إبرازه أى أثر من القلويات الطيارة التي تنشأ عن المواد الحيوانية . ولبن الأنثى من أكالة الأعشاب أحلى من لبن آكلة اللحوم وأكثر ملاءمة للصحة ، وهو إذ يتألف من مادة مماثلة لخلاصتها فإنه يكون أحسن محافظة لطبيعته وأقل عرضة للتعفن ، وإذا نظرنا إلى السمية وجد ، كما يعلم كل واحد ، أن المواد النشوية تُنتج دماً أكثر مما يُنتج اللحم ، ولذا وجب أن تُنتج لبناً أكثر مما يُنتج ، ولا أرى أن الولد الذي لا يُفطم عاجلاً ، والذي لا يُفطم إلا مع أغذية نباتية ، والذي لا تعيش مُرضعه إلا من النبات ، يكون عرضةً للدود مطلقاً .

(١) تأكل النساء خبزاً وخضراً وألباناً ، وتأكل إناث الكلاب والحرة من ذلك أيضاً ، وكذلك الذئبات ترى ، وهذه هي العصارة النباتية في لبنها ، وبقي علينا أن نبحث في لبن الأنواع التي لا يمكن أن تتغذى بغير اللحم على الإطلاق إذا وجد منها ، وهذا ما أشك فيه .

ومن الممكن أن تُسفر الأغذية النباتية عن لبن أكثر حُوضةً ، ولكنى بعيداً كثيراً من عدّ اللبن الحَمْضِيّ غذاءً غيرَ صحّيٍّ ، وذلك أنك تجدُ أمّا بأسرها على أحسن حالٍ مع أنها لا تفتدى بغيره وأن الوعاء الماصّ محضُ خداعٍ كما يلوح ، وتوجد أمزجةٌ لا يلائمها اللبن مطلقاً ، ولا تجد ماصّاً يجعله أمراً محتملاً ، وتوجد أخرى تحتمله بلا ماصات ، ويُنخسُ اللبنُ الرائبُ أو الخائر ، وهذه حماقةٌ ، وذلك أن اللبن يَرُوبُ في المعدة دائماً ، وهكذا فإنه يَغْدُو غذاءً قوياً للأولاد وصغار الحيوان ، وهو إذا لم يَرُبْ مَضَى من غير أن يُغذّيهم^(١) ، ومن العبث مَذَقُ* اللبن على ألف وجه واستعمالُ ألفِ ماصٍ ، فمن يشرب اللبن يَهْضُمُ الجُبْنَ ، وهذه قاعدةٌ لا استثناء لها ، وتُعَدُّ المعدةُ من حُسْنِ التكوين لتخثير اللبن ما تؤخذ الرّوبةُ معه من كَرَشِ العِجَلِ .

ولذلك أرى أنه يكفي إعطاء المراضع غذاءهن المعتاد على أن يكون وافراً وأحسنَ اختياراً بدلاً من تغييره ، ولا تكون الخُضْرُ عَسِرةَ الهضم عن طبيعةٍ غذائية ، بل تعليلها بالتوابل هو الذى يجعلها وخيمةً ، فأصلحوا قواعد طهيائكم واجتنبوا القلّى ، وأبعدوا الزبدة والملح والألبان من النار ، ودَعُوا خُضَرَكم تُطَبِّخُ بالماء ، ولا تُعَلِّقُوها بالتوابل إلا عند إحضارها إلى المائدة ساخنةً ، وهناك لا تُزَعِّجُ المُرْضِعُ بالخُضَر ، وهناك تُزَوِّدها الخُضَر بلبنٍ وافرٍ ومن نوعٍ جيدٍ^(٢) ، وإذا ما عُرِفَ أن الطعام النباتيّ أصلحُ طعامٍ للولد فكيف

(١) يجب استخراج العصارات التى تغذيها من الأغذية الجامدة وإن كانت مائعة ، فالرجل العامل الذى لا يعيش إلا من الحساء يضئ بسرعة ، وهو يكون باللبن أحسن صحة لأن اللبن يختر .

(٢) على من يود أن يناقش فى فوائد النظام الفيثاغورى ومضاره أن يراجع رسائل الدكتور كوشى وخصمه الدكتور بيانكى حول هذا الموضوع المهم .

* مذاق اللبن : مزجه بالماء .

يكون الطعام الحيواني أصلح طعام للرُضع ؟ ينطوى هذا على تناقض .

ويؤثرُ الهواء في بُنية الأولاد في السنين الأولى من حياتهم على الخصوص ،
فالهواء في جِلدٍ رقيق ناعم يَنْفُذُ من جميع المسام فيؤثر في هذه الأجسام
الناشئة تأثيراً قوياً ويترك فيها من الآثار ما لا يزول أبداً ، ولذلك فإنني
لست من القائلين بأن تؤخذ قرويةٌ من قربتها حبساً لها في غرفةٍ بالمدينة وحلاً
لها على إرضاع الولد في منزله ، وإنما أفضّل أن يُرسل الولد إلى الأرياف
ليستنشِقَ فيها هواءً صالحاً على تنشّقه هواء المدينة الوخيم ، وهو يقتبس
حال أمه الجديدة ويسكن منزلها الريفي ويتبعه مربّيه هنالك ، وسيذُكرُ
القارئ جيداً أن هذا المربي ليس رجلاً مأجوراً ، بل صديقٌ للأب ، وسيقال
لي ما يُصنع إذا كان هذا الصديقُ غير موجود ، أو كان هذا الانتقالُ غير
سهل ، أو إن ما تُشيرُ به غيرُ يسير ؟ ... لقد قلتُ لكم أن تفعلوا
ما تفعلون ، فلا ضرورةً إلى نصيحةٍ في هذا .

ولم يُخلَقِ الناس ليكدّسوا كقرية النمل في المدن ، بل لينتشروا في
الأرض التي يجب عليهم أن يزرعوها ، وهم كلما احتشدوا فسدوا ، وتعدّ
عاهاتُ الجسم وآفاتُ الروح نتيجةً لازمةً لهذا الازدحام البالغ ، والإنسانُ أقلُّ
الحيوانات قدرةً على العيش قطعاً ، والناسُ إذا ما تجمّعوا كالضأن هلكوا
سريعاً ، ونفسُ الإنسان مُبيدٌ لأمثاله ، وهذا صحيحٌ حقيقةً ومجازاً .

والمدنُ هوةٌ النوع البشري ، فإذا ما انقضت بضعة أجيال هلكت
العروق أو انحطت ، فيجب تجديدُها ، والأريافُ هي التي تؤدي إلى هذا
التجديد ، ولذا أرسلوا أولادكم ليتجددوا بأنفسهم ويستردّوا بين الحقول ما يُفقد

من قوة في الأماكن الوبيلة الزاخرة بالسكان ، ويُسرِع النساء الحوامل اللاتي هن في الأرياف إلى منازلهن في المدن حتى يَضَعْنَ ، مع أن العكس هو ما يجب أن يَفْعَلَنَّهُ ، ولا سيما اللاتي يُرِدْنَ إرضاع أولادهن ، وعليهن أن يَأْسِفْنَ أَقْلًا مما يتصورن ، فالملاذ في المُقَام الأقرب إلى طبيعة النوع ، والملاذ المرتبطة في واجبات الطبيعة ، لم تَلَبَثْ أن تَنَزِعَ منهن كلَّ مالا يلائمها من ذوق .

وأول ما يُصَنَع في الولد بعد أن يُوضَعَ هو أن يُفَسَّلَ بماء فاتر ممزوج بالخر عادةً ، ويُلَوَّح لى أن هذه الخر الإضافية غيرُ ضرورية ، فبأن الطبيعة لا تنتج شيئاً مختمراً فإنه لا يوجد ما يَحْمِلُ على الاعتقاد بأن استعمال سائلٍ مصنوع يهْمُ حياة مخلوقاتها .

ولَمَعَيْنِ العلة يكون هذا الاحتياطُ لتفتير الماء غيرَ ضروريَ أيضاً ، والواقعُ أن أمماً كثيرة تَفْسِلُ المواليد حديثاً في الأنهار أو في البحر بلا تكلف ، بَيِّدَ أن أولادنا المُنْعَمِينَ قبل أن يُولَدُوا ، عن تَرْفِ الآباء والأمهات ، يأتون حين ولادتهم بِبُنْيَةٍ فاسدة مُقَدِّمًا ، فلا ينبغي أن تُعَرَّضَ في البداية لجميع التجارب التي تُعوِّدُ بها إلى الصحة ، ولا يُمكن أن يُرَدَّ الأولاد إلى القوة الابتدائية إلا بالتدريج ، وابتدءوا ، إذن ، باتباع العادة في بدء الأمر ، ولا تبتعدوا عنها إلا مقداراً فقداراً ، واغسلوا الأولاد غالباً ، فقذارتهم تدلُّ على ضرورة الفسل ، وإذا ما اقتَصِرَ على مَسْحِهِمْ خُدُشُوا ، ولكنهم كلما اشتدوا تَقَصَّتْ فتور الماء حتى تتمكنوا في نهاية الأمر من غَسْلِهِم بالماء البارد ، وبالماء الجامد أيضاً ، سواء أفي الصيف أم في الشتاء ، ويقضي اجتنابُ

الخطر بأن يَقَعَ هذا النقصُ على مَهْلٍ وبالتعاقبِ وعلى وجهٍ غيرِ محسوسٍ ، ويمكنُ استخدامُ ميزان الحرارة لقياسه تماماً

وعادةُ الاستحمامِ هذه إذا ما استقرتِ وجب ألا تُقَطعَ ، ويُقتضى أن يُحْتَفَظَ بها مَدَى الحياة ، ولا أُعَدُّها بجانب النظافة والصحة الحاضرة فقط ، بل أُعَدُّها ، أيضاً ، احترازاً نافعاً لجمل العضل أكثر مرونةً ولجعل هذه العضلَ تواجه مختلفَ درجات الحرارة والبرودة بلا جهدٍ ولا خطرٍ ، وأودُّ ، للوصول إلى هذا ، أن يُتَعَوَّدَ ، مع النشوء ، وبالتدرج ، الاغتسالُ في المياه الحارة ضِمنَ جميع الدرجات المحتملة أحياناً ، وفي المياه الباردة ضِمنَ جميع الدرجات الممكنة غالباً ، وهكذا فإننا بعد أن نتعود احتمالَ مختلفِ درجاتِ حرارة الماء الذي هو سائلٌ أشدُّ كثافةً ، فيَمَسُّنا في أكثر ما يُمكن من التَّقَاطُوعِ ونَعْظُمُ إبلافتنا له ، نَعْدُو غيرَ متأثرين بدرجات الهواء .

وإذا ما خَرَجَ الولدُ من أغشيته وتَنَفَّسَ فلا تَسْمَحُوا بِمَحْصَرِهِ في أُخْرَى بما هو أوثَقُ ، فلا كُمةَ ولا لفائفَ ولا قُمَطَ ، بل خَزَائِمُ متدلّية واسعة تدعُ جميعَ أعضائه طليقةً ، فلا تكون من الثَقْلِ ما تَعُوقُ معه حركاته ، ولا من الدَّفْعِ ما تَحُولُ معه دون شعوره بتأثير الهواء^(١) ، وضَعُوهُ في مهدٍ كبيرٍ^(٢) محشوّ مُشَاقَّةً*

(١) يفص الأولاد في المدن نتيجة إمساحهم محصورين مسربين ، وعلى من يقرّبون بأمر تربيتهم أن يعرفوا أن الهواء البارد يقويهم بدلا من أن يضرهم وأن الهواء الحار يضعفهم ويوقهم في الحمى ويقتلهم .

(٢) قلت « مهداً » مستحلا هذه الكلمة الدارجة لعدم وجود غيرها ، وذلك مع اعتقادي أنه ليس من الضروري ، مطلقاً ، أن يهدده الأولاد لما تنطوي هذه العادة عليه من إضرارهم غالباً .

• المشاقّة : ما سقط من الكتان ونحوه بعد مشقه بالمشفقة ، والمشفقة شيء كالشط لمشق الكتان ونحوه حتى يخلص خالصه وتبقى مشاقته .

حيث يستطيع أن يهتز بسهولة وبلا خطر ، وهو إذا ما أخذ يتقوى فدعوه يزحف في الغرفة وينشر أعضائه الصغيرة وييسطها ، وهناك تروّنه يشتد يوماً بعد يوم ، ولو قابلتم بينه وبين ولدٍ من لداته مُقَمَّط جيداً لعجبتُم من اختلاف نشوئهما^(١) .

ولا بُدَّ من توقُّع اعتراضاتٍ كبيرة من قِبَل المراضع اللاتي يَحِذْن الولدَ المُقَيَّد أَقْلَ إعتاباً من الولد الذي يجب أن يُرَقَّب بلا انقطاع ، وذلك إلى أن قذارته تكون أكثر ظهوراً في ثوبٍ مكشوف ، فيجب أن يُنظَّف دائماً ، والواقعُ أن العادة دليلٌ لا يُرَدُّ في بعض البلدان على حسب أفراد جميع الطبقات .

ولا تُبَرِّهتوا مع المراضع مطلقاً ، وأمرُوا ، ورَوُّا التنفيذ ، ولا تدَّخروا

(١) « كان القدماء من أهل بيرو يتركون ذرعان الأولاد طليقة في قباط فضفاض ، فإذا ما أخرجوهم منه وضعمهم طلقاء في حفرة مجهزة بنسائج حيث ينزلونهم حتى نصف الجسم ، وهكذا فإن ذرعان الأولاد تكون طليقة ويستطيعون تحريك رؤوسهم وحنا أجسادهم كما يريدون من غير أن يسقطوا ويؤذوا أنفسهم ، وإذا ما استطاعوا أن يتقدسوا خطرة عرض الثدي عليهم من بعيد كعظم حلالهم على المشي ، ويكون صغار الزنوج ، أحياناً ، في وضع أكثر مشقة للرضاعة ، وذلك أنهم يشتعلون على إحدى وركي الأم بركبهم وأيديهم ، وهم يبلغون من شدها ما يلتصقون بها معه من غير استماعة بذراعيها ، وهم يسكنون الثدي بأيديهم فيمتصونه باستمرار ومن غير زعج وسقوط ، وعلى الرغم من مختلف الحركات التي تأتيها الأم وهي تشتغل في تلك الأثناء على حسب عاداتها ، ويبدأ هؤلاء الأولاد بالمشي منذ الشهر الثاني ، وإن شئت فقل بالزحف على الركب والأيدي ، وهم يكتسبون بهذا التمرين فيما بعد سهولة في الركض السريع ، وهم على هذا الوضع ، كما لو كانوا يمدون على أرجلهم » ، (التاريخ الطبيعى ، جزء ٤ ، ملزمة ١٢ ، صفحة ١٩٢) .

وكان يمكن مسير دو بوفون أن يضيف إلى هذه الأمثلة مثال إنكلترة حيث عادة القباط الوحشية المخالفة للصواب تزول يوماً بعد يوم ، وانظر أيضاً إلى « رحلة إلى سيام » للربير ، وإلى « رحلة إلى كندا » لمسيولاو ، إلخ . ، وكان يمكنني أن أملا عشرين صفحة مستشهداً لو كنت محتاجاً إلى إثبات ذلك بالوقائع .

وسعاً في تبسيط العناية التي تَقْرِضُونَهَا عملاً ، وَلَيْمَ لا تشاطرونها ؟ لا تَرَى في الأغذية المعتادة ، حيث لا يُنْظَرُ إلى غير البدن ، أهميةً للبقية مطلقاً إذا ما عاش الولد ولم يَهْلِكْ قَطُّ ، وأما هنا ، حيث التربيةُ تبدأ مع الحياة ، فإن الولد ، حينما يُولَد ، يكون تلميذاً للطبيعة ، لا للمربي ، ولا يَصْنَعُ المربي ، إذ يَخْضَعُ لهذا المعلم الأول ، غيرَ الدرسِ ومنعِ مخالفةِ مناحيه ، وهو يَرْقُبُ الرضيع ويلاحظه وَيَتَتَبِعُهُ ، وهو يَرْصُدُ منتبهاً أولَ وميضٍ من إدراكه الضعيف ، كما يَرْصُدُ المسلمون دقيقةَ ظهورِ الهلال .

ونُولَدُ قادرين على التعلم ، ولكن غيرَ عارفين شيئاً ، غيرَ عالمين شيئاً ، وإذا تكون الروح مقيدةً بأعضاء ناقصةٍ نصفٍ مُكوّنةٍ فإنها لا تكون شاعرةً حتى بوجودها الخاص ، وتكون حركاتُ المولود حديثاً وصَرَخاته معلولاتٍ آليّةٍ مُحَضّاً خاليةً من المعرفة والإرادة .

ولنفرض أن ولداً كانت له حين ولادته قامةٌ رجلٍ وقوته وأنه خَرَجَ من بطن أمه تامّ المدّة كما خَرَجَ بِلَاسٍ من دماغِ جُوبيتر ، فهذا الرجلُ الولد يكون كاملَ البلاهة ، يكون نُصباً متحركاً وتمثالاً جامداً فاقدَ الحسِّ تقريباً ، فلا يَرَى شيئاً ، ولا يَسْمَعُ شيئاً ، ولا يَعْرِفُ أحداً ، ولا يستطيع أن يُدِيرَ عينيه نحو من يحتاج إلى رؤيته ، ولا يُدْرِكُ شيئاً خارجَ نفسه فضلاً عن أنه لا يأتي بشيء إلى عضو الإحساس الذي يُشْعِرُهُ به ، ولا تَكُونُ الألوان في عينيه مطلقاً ، ولا تكون الأصوات في أذنيه مطلقاً ، ولا تكون الأجسام التي يَمَسُّها على جسمه ، حتى إنه لا يَعْلَمُ أن له جسماً منها ، وتكون ملاسةُ يديه في دماغه ، وتجتمع جميع إحساساته في نقطة واحدة ، ولا يكون موجوداً في غير مركز الحواسِّ ،

ولا يكون له غيرُ فكرةٍ واحدةٍ ، غيرُ فكرةِ الذاتِ التي يَرُدُّ إليها جميعَ إحساساته ، وتكون هذه الفكرةُ ، أو الشعورُ ، كلَّ ما لديه أكثرَ من ولدٍ عاديٍّ .

ولا يَعْرِفُ هذا الرجلُ ، المُكَوَّنُ دفعةً واحدةً ، أن يقفَ على رجله أيضاً ، ولا بُدَّ له من مرورِ زمنٍ طويلٍ حتى يتعلم الوقوفَ معتدلاً ، ومن المحتمل ألا يحاول هذا قَرَوَا هذا الجسمَ الكبيرَ القويَّ المُصْطَلَبِيَّ يبقى حيث هو كالحجر ، أو يَزَحَفُ وَيَحْبُو كالجرز .

وهو يَشُرُّ بما في الحاجات من زَعَجٍ من غير أن يَعْرِفَها ومن غير أن يتمثل أية وسيلة لقضاءها ، ولا يُوجدُ أيُّ اتصالٍ مباشرٍ بين عَضَلِ المعدة وعَضَلِ الذراعين والساقين يَدْفَعُهُ ، حتى عند إحاطته بالأغذية ، إلى التقدم خُطوةً لِيَدْنُوَ من هذه الأغذية أو لِيَمْدَّ يده إليها ليتناولها ، وبما أن بدنه كان على أتمِّ نُموِّه ، وبما أن أعضائه كانت على أكل نشوئها ، فلا يكون فيها ، من حيث النتيجةُ ، ما في الأولاد من تَبَرُّمٍ وحركة دائمة ، فإنه قد يموت جوعاً قبل أن يتحرك طلباً لقوته ، ومهما يكن من تأمُّلٍ قليلٍ حول نظام معارفنا وتقدمها فإنه لا يمكن أن يُنْكَرَ أن هذه ، تقريباً ، هي حالُ الجهل والبله الطبيعيةُ في الإنسان قبل أن يتعلم شيئاً من التجربة أو من أمثاله .

وَنُعْرِفُ ، إذن ، أو يُمكن أن نُعرِفَ ، النقطةَ الأولى التي يَنْتَظِقُ منها كلُّ واحدٍ منا لِيَتَلَفَّحَ درجةَ الإدراك العامة ، ولكنَّ مَنْ ذا الذي يَعْرِفُ الحدَّ الآخرَ ؟ يتقدم كل واحدٍ ، تقريباً ، وَفَقَ ذِكانه وذوقه واحتياجاته ومواهبه وغيرته وما يُتاح له من فُرْصٍ لممارستها ، ولا أعْرِفُ فيلسوفاً بَلَغَ

من الجراءة ما يقول معه : هذا هو الحدُّ الذى يمكن الإنسان أن يصل إليه فلا يستطيع مجاوزته ، ونجهل ما تسمح طبيعتنا أن نكونه ، ولم يقس أحد منا ما يمكن أن يكون بين إنسان وآخر من فرق ، وأية نفس ضعيفة لم يمنعها الفكر الآتى ولم يخامر زهوها أحياناً ، وهو : ما مقدار ما صنعت وما مقدار ما يمكننى أن أصنع ، ولم يسير نظيرى إلى ما هو أبعد مما أسير ؟

وأقول مكرراً إن تربية الإنسان تبدأ عند ولادته ، وإنه يتعلم قبل أن يتكلم أو يفهم ، وتسبق التجربة الدروس ، ويكتسب الإنسان كثيراً قبل أن يعرف مرضعه ، ومما يلقي الحيرة فينا معارف أجلف الناس إذا ما تعقبنا تقدمه من ساعة ولادته حتى الساعة التى انتهى إليها ، وإذا ما قسمنا جميع علم الإنسان إلى قسمين فقلنا إن أحدهما مشترك بين جميع الناس وإن الآخر خاص بالعلماء وجدنا أن هذا صغير جداً بالنسبة إلى الآخر ، ولكننا لا نفكر في المكتسبات العامة مطلقاً ، وذلك لأنها تتم من غير أن تخطر ببال وتقع قبل سن التمييز ، وذلك إلى أن المعرفة لا تلاحظ إلا بفروقها وأن المقادير العامة لا يُفطن إليها كما فى المعادلات الجبرية .

حتى إن الحيوانات تكتسب كثيراً ، والحيوانات حواس ، فيجب أن نعرف كيف تستعملها ، ولها احتياجات ، فيجب أن نعرف كيف تقضيها ، ويجب أن نعلم كيف تأكل وتمشى وتطير ، ولا تستطيع ذوات الأربع التى تقف على قوائمها منذ ولادتها أن تمشى لهذا السبب ، ويرى عند خطواتها الأولى أن هذه تجارب يُعوزها الثبات ، ولا نعرف النمران* التى تملص

* النمران : جمع النمر ، وهى فراخ المصافير .

من أقفاصها أن تطير مطلقاً ، لأنها لم تَطِرْ قط ، ويتعلم كل ذى حياة وحس ، ولو كانت للنباتات حركة تقدمية لوجب أن تكون ذات حواس وأن تنال معارف وإلا لَهَكَتْ الأنواع من قُوَرها .

وإحساسات الأولاد الأولى عاطفية صِرْفاً ، فهم لا يُذَرِّكون غير اللذة والألم ، وهم ، إذ كانوا لا يستطيعون أن يمشوا أو يُنْصَكُوا ، يحتاجون إلى كبير وقت حتى يتم لهم من الإحساس التصويرى بالتدريج ما يُبْدِي لهم الأشياء خارج أنفسهم ، ولكن ريثما تنبسط هذه الأشياء وتبتعد عن عيونهم وتتخذ أبعاداً وصوراً بالنسبة إليهم ، يأخذ رَجْعُ الإحساسات العاطفية في إخضاعهم لسلطان العادة ، وترى عيونهم تتوجّه إلى النور بلا انقطاع ، فإذا جاءهم منحرفاً اتجهت نحوه اتجاهاً غير محسوس ، ولذا يجب أن يُنْذَبَ إلى مقابلة وجوههم للضياء حتى لا يصبحوا حُولاً أولاً يَتَعَوَّدُوا النظر عن عُرْضٍ ، ويجب ، أيضاً ، أن يتعودوا الظلام باكراً ، وإلا بَكُوا وصاحوا فَوْزَ وجودهم في الظلماء ، ويصبح الغذاء والنوم ، عند قياسهما بالضبط ، أمرين ضروريين في فواصل منتظمة ، ولا تَلَبَثُ الرغبة أن تأتي من العادة ، لا من الحاجة ، وإن شئت فقل إن العادة تُضَيِّفُ احتياجاً جديداً إلى الحاجة الطبيعية ، فهذا ما يجب تداركه .

والعادة الوحيدة التي يجب أن يُسَمَحَ بها للولد هي ألا يَأْلَفَ أية عادة كانت ، وألا يُحْمَلَ على ذراع أكثر من الأخرى ، وألا يُعَوَّدَ مَدَّةً يده أكثر من الثانية فينتفع بها غالباً ، وألا يريد الأكل والنوم والعمل في الساعات عينها ، وألا يُطَبَّقَ عدم البقاء وحده ليلاً أو نهائراً ، وأُعِدُّوا من

بعيدٍ عَهْدَ حرّيته واستعمالِ قواه تاركين العادةَ الطبيعيةَ لبدنه جاعلين إياه في حالٍ يكون بها سيدَ نفسه وَيَعْمَلُ في كُلِّ أمرٍ وَفَقَ إرادته عند ما يُصْبِحُ صاحبَ عزمٍ .

ومتى أخذ الولدُ يُمَيِّزُ بعضَ الأشياءِ من بعضٍ كان من المهمِّ أن يُحَسِّنَ الاختيارَ ، ومن الطبيعيِّ أن تَقِفَ نظره جميعُ الأمورِ الجديدةِ ، وهو يَبْلُغُ من الشعورِ بضعفِ نفسه ما يَحْشَى معه جميعَ ما لا يَعْرِفُ ، وما يَكُونُ من عادةِ رؤيةِ الأمورِ الجديدةِ من غيرِ سوءِ تأثيرٍ يُبَدِّدُ هذا الخوفَ ، وَمَنْ يُنْشَأُ من الأولادِ في المنازلِ النظيفةِ ، حيث لا يكادون العنكبوتَ مطلقاً ، يخافون العنكبوتَ فيلازمهم هذا الخوفُ في كِبَرِهِم غالباً ، ولم أَرَ ، قطُّ ، فلاحاً ، رجلاً كان أو امرأةً أو ولداً ، يخافُ العنكبوتَ .

ولمَ لا تَبْدَأُ تربيةَ الولدِ قبل أن يتكلمَ وَيَفْهَمَ ، إذنْ ، مادام اختيارُهُ الوحيدُ للأشياءِ التي تُعْرَضُ عليه يَجْعَلُهُ هَيَّاباً أو شجاعاً ؟ أودُّ تعويدهَ رؤيةَ الأشياءِ الجديدةِ والحيواناتِ البشعةِ الكريهةِ الغريبةِ ، ولكن بالتدريجِ ومن بعيدٍ ، حتى يَأْلَفَهَا ، فيتصرفَ فيها تَصَرُّفَ الآخرينِ ، وإذا ما أبصرَ في صباه ، من غيرِ دُغْرِ ، ضفادعَ وأفاعىَ ومَرَّاطِينِ فإنه يُبْصِرُ في كِبَرِهِ أىَّ حيوانٍ كان من غيرِ نفورٍ ، ولا يَبْتَنِي ما يَشْمِزُّ منه فيما يَرَى كلَّ يومٍ . ويخافُ جميعُ الأولادِ الوجوهَ المستعارةَ ، وأبداً يראה إميلَ وجهاً مستعاراً مليحاً ، ثم يَضَعُ بعضهم هذا القِنَاعَ على وجهه أمامه ، فأَضْحَكَ وَيَضْحَكُ جميعُ الناسِ ، وَيَضْحَكُ الولدُ كالآخرينِ ، وأَعُوذُهُ الوجوهَ المستعارةَ الأقلَّ ملاحظةً مقداراً فقداراً ، ثم أَعُوذُهُ الوجوهَ الكريهةَ في آخر الأمرِ ، وإذا ما

راعىتُ تدرّجى وأحسنْتُ ما راعىتُ فإنه يضحك من القناع الأخير ضحكته من الأول بعيداً من الذعر ، وإذا ما حَدَثَ هذا عُدْتُ لا أخشى خوْفَه من الوجوه المستعارة .

ولمّا ودّعَ هِكْتُورُ أندرومّاكَ ذِعَرَ أَسْتِيَا نَكْسُ من الريش الذى كان يَتَمَوَّجُ فوق خُوْذَةِ أبيه فأنكر أباه وارتمى على صدر مُرْضِعِهِ وهو يبكى وانزع من أمه ابتسامةً ممزوجةً بالدموع ، وما كان يجب أن يُصْنَعَ لإيقاظه من هذا الفزع ؟ أن يُصْنَعَ ما قَعَلَ هِكْتُورُ فتوضعَ الخُوْذَةُ على الأرض ويلأطفَ الولد ، ولا يُوقَفُ عند هذا الحدِّ فى وقتٍ أكثرَ هدوءاً ، بل يُقْتَرَبُ من الخُوْذَةِ ويلأعب الريش ، ويحمل الولدُ على ملامسته ، ثم تتناول المُرْضِعُ الخُوْذَةَ وتضمُّها على رأسها وهى تَضَحْكُ ، لو كانت يدُ المرأة تجرُّوْ على مَسٍّ أسلحة هكتور .

وإذا ما وَجَبَ تمرينُ إِمِيلَ على صوتِ سلاحٍ نارى أشعلتُ باروداً فى طَبَنَجَةٍ ، فَيَسْرُهُ هذا اللَّهَبُ المفاجى العابر ، هذا النوعُ من البرق ، وأكرّر الأمرَ عينه يبارودٍ أكثرَ من ذلك ، وإلى الطبنجة أضيف بالتدريج حَشَوَةً صغيرة بلا وَبَرٍ ، ثم أضيف حَشَوَةً أكبرَ من تلك ، وأخيراً أعوده طَلَقَاتِ البندقية والأسهمِ النارية والمدافع وأفزع الانفجارات .

وقد لاحظتُ أن من النادر خوفَ الأولاد من الرعد ما لم يكن قَصْفُهُ هائلاً مؤذياً لحاسة السمع حقاً ، وهم لا يأتهم هذا الفزع إلا حين يَفْلَمُونَ أن الرعد يجرح أو يقتل أحياناً ، ومتى بدأ العقل يُبْقِي الرُعبَ فيهم

فاجعلوا العادة تُسَكِّن رَوْعَهُمْ ، وَيُجَمِّلُ الرَّجُلُ وَالْوَلَدُ شَجَاعَيْنِ تَجَاهَ كُلِّ شَيْءٍ بِتَدْرِجٍ بَطِيءٍ مَعَ الْحَذَرِ .

وفي بدء الحياة ، حين تكون الذاكرةُ وَالْمُخَيَّلَةُ مُعْطَلَتَيْنِ ، لَا يَنْتَبِهَ الْوَلَدُ إِلَى غَيْرِ مَا يُوَثِّرُ فِي حَوَاسِهِ فَعَلًا ، وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الْإِحْسَاسَاتِ أُولَى مَوَادِّ مَعَارِفِهِ فَإِنَّ عَرَضَهَا عَلَيْهِ بِنِظَامٍ مَلَأْتُهُ بِإِعْدَادِ ذَاكِرَتِهِ لِتَقْدِيمِهَا ضَمْنَ ذَاتِ النِّظَامِ إِلَى إِدْرَاكِهِ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّهُ لَا يَبَالِي بِغَيْرِ إِحْسَاسَاتِهِ فَإِنَّهُ يَكْفِي أَنْ يُبْرَى بِجَلَاءِ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْإِحْسَاسَاتِ وَالْعَوَامِلِ الَّتِي تُحْدِثُهَا مِنْ ارْتِبَاطٍ ، وَهُوَ يَرِيدُ لَمْسَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يَرِيدُ اسْتِعْمَالَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا تَقَاوَمُوا هَذَا الْكَثْرَ مطلقًا ، لِيَا يُوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ تَخْرُجٍ ضَرُورِيٍّ جَدًّا ، وَهَكَذَا يَتَعَلَّمُ الشُّعُورَ بِحَرَارَةِ الْأَجْسَامِ وَبَرُودَتِهَا وَخَشَوَتِهَا وَنُعُومَتِهَا ، وَثِقَلَهَا وَخِفَتَهَا وَالْحُكْمَ فِي حُجَّتِهَا وَصُورَتِهَا وَجَمِيعِ خَوَاصِهَا الْحُسُوسَةِ ، وَذَلِكَ بِالنَّظَرِ وَالْمَسِّ^(١) وَالسَّمْعِ ، وَلَا سِيَّامَا قِيَاسُهُ النَّظَرَ عَلَى الْمَسِّ وَتَقْدِيرُهُ بِالْعَيْنِ مَا يُحِسُّهُ بِأَصَابِعِهِ .

وَلَيْسَ بِغَيْرِ الْحَرَكَةِ مَا نَعْرِفُ وَجُودَ أُمُورٍ لَمْ تَكُنْ إِيَّانَا ، وَلَيْسَ بِغَيْرِ حَرَكَتِنَا الْخَاصَةِ مَا نَكْتَسِبُ فِكْرَةَ الْإِنْسَاعِ ، وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَكُنْ لَدَى الْوَلَدِ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِلَا تَمْيِيزٍ لِيُمَسِّكَ الشَّيْءَ الَّذِي يَمَسُّهُ أَوِ الشَّيْءَ الْبَعِيدَ مِنْهُ مِثْلَ خُطْوَةٍ ، وَيَبْدُو لَكُمْ هَذَا الْجُهْدُ الَّذِي يَبْذُلُهُ دَلِيلًا عَلَى

(١) حاسة الشم هي آخر ما ينمو من الحواس في الأولاد ، فالأولاد لا يحسون الروائح الطيبة ولا الروائح الكريهة حتى الثانية ، أو الثالثة ، من سنينهم كما يلوح ، ويشابه الأولاد من هذه الناحية ما يلاحظ في حيوانات كثيرة من عدم الاكتراث أو عدم الإحساس .

السلطان ، أماً يُصْدِرُهُ إِلَى الشَّيْءِ حَتَّى يَدْنُو ، أَوْ يُصْدِرُهُ إِلَيْكُمْ حَتَّى تَأْتُوا بِهِ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ هَكَذَا ، وَالْأَمْرُ هُوَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يُبَصِّرُهَا فِي دِمَاغِهِ فِي الْبُدَاةِ ، ثُمَّ عَلَى عَيْنِيهِ ، يَرَاهَا الْآنَ فِي طَرْفِ ذِرَاعِيهِ ، وَلَا يَتَصَوَّرُ اتِّسَاعاً غَيْرَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ، وَاعْنُوا ، إِذَنْ ، بَأَنَّ تَجُولُوا بِهِ غَالِباً ، وَأَنْ تَنْقُلُوهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ ، وَأَنْ تُشْعِرُوهُ بِتَغْيِيرِ الْمَكَانِ لَكِي يَتَعَلَّمَ الْحُكْمَ فِي الْمَسَافَاتِ ، وَمَتَى أَخَذَ يَعْرِفُهَا وَجِبَ تَغْيِيرُ الْمَنْهَاجِ وَعَدَمُ تَحْمَلِهِ عَلَى غَيْرِ مَا يَرُوقُكُمْ ، لَا كَمَا يَرُوقُهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَادَ لَا يُخَدِّعُ بِالْحَسِّ غَيْرَ جَهْدُهُ الْعَلَّةَ ، وَهَذَا التَّغْيِيرُ جَدِيرٌ بِالاعتْبَارِ ، وَيَتَطَلَّبُ إِيضاحاً .

إِنَّ الْإِشَارَاتِ تُعَبَّرُ عَنْ اضْطِرَابِ الْحَاجَاتِ عِنْدَمَا يَكُونُ عَوْنُ الْآخَرِينَ ضَرْوَرِيّاً لِقَضَائِهَا ، وَمِنْ هُنَا يَجِيءُ صُرَاخُ الْأَوْلَادِ ، وَيَبْكِي الْأَوْلَادُ كَثِيراً ، وَهَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ، وَبِمَا أَنَّ جَمِيعَ إِحْسَاسَاتِهِمْ عَاطْفِيَّةٌ فَإِنَّهَا إِذَا مَا كَانَتْ مُقْبُولَةً تَمْتَعُوا بِهَا صَامِتِينَ ، وَإِذَا مَا كَانَتْ شَاقَّةً أَبْذَوْهَا بَلْفَتِهِمْ وَطَلَبُوا تَسْلِيَةً ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُمْ عِنْدَمَا يَسْتَقِظُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْبَقَاءَ فِي حَالٍ مِنْ عَدَمِ الْمَبَالَاةِ تَقْرِيباً ، فَهَمَّ إِمَّا أَنْ يَنَامُوا أَوْ أَنْ يَشْعُرُوا .

وَجَمِيعُ لُغَاتِنَا أَعْمَالُ فَنِّ ، وَقَدْ بُحِثَ طَوِيلًا عَنْ وَجُودِ لُغَةٍ طَبِيعِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَ جَمِيعِ النَّاسِ ، وَلَا رَيْبَ فِي وَجُودِ لُغَةٍ مِنْ هَذَا الطَّرَازِ ، وَهَذِهِ هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا الْأَوْلَادُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا الْكَلَامَ ، أَجَلٌ ، إِنْ هَذِهِ اللُّغَةُ لَيْسَتْ ذَاتَ مَفَاصِلَ ، غَيْرَ أَنَّهَا ذَاتُ نَبَرَاتٍ ، غَيْرَ أَنَّهَا طَنَانَةٌ بَيِّنَةٌ ، وَمَا هُوَ وَاقِعٌ مِنْ اسْتِعْمَالِ لُغَاتِنَا يَجْمِلُنَا عَلَى إِهْمَالِهَا إِهْمَالًا نَنْسَاهَا بِهِ تَمَامًا ،

ولندرس الأولاد ، ولا نلبث ان نتعلمها بجانبهم ثانية ، ويُعدّ المراضعُ
معلمات لنا في هذه اللغة ، فهنَّ يسمعن جميع ما يقول رضعهنَّ ، وهنَّ
يُحببنهنَّ ، وتقعُ بينهن وبينهم محاورات متساوقة كثيراً ، ومهما تكن الكلمات
التي يَنطِقنَ بها فإنه لا طائل تحت هذه الكلمات قطعاً ، فليس معنى
الكلمة هو الذي يسمعون ، بل النبرة التي تلازمها .

وإلى لغة الصوت تضاف لغة الإشارة التي لا تُعدّ أقلَّ مضاءً ،
وليست هذه الإشارة في أيدي الأولاد الضعيفة ، بل على وجوههم ،
ومن موجبات العجب مقدار ما يبدؤ على هذه الوجوه غير النامية من
تعبير في ذلك الدور ، فلاحظهم تتغير بين ثانية وأخرى بسرعة لا يمكن
تصورها ، ففيها تبصرون الابتسامة والرغبة والرغبة تظهر وتمر كالبرق ،
وفي كل مرة تظنون أنكم ترون وجهاً آخر ، ولعمري أن عضل وجوههم
أكثر تحوُّلاً من عضل وجوهنا ، وبالمقابلة لا تنطقُ عيونهم الكافية
بشيء تقريباً ، وهذا ما يجب أن يكون عليه نوع حركاتهم في سنٍّ لا يوجد
فيها غيرُ احتياجات بدنية ما دام التعبير عن الإحساسات يكون في القُطوب
وما دام التعبير عن المشاعر يكون في النظرات .

وبما أن حال الإنسان الأولى تقوم على العناء والضعف فإن أصواته
الأولى تكون أصوات عويل وبكاء ، ويشعر الولد باحتياجاته ، ولا يستطيع
قضاءها ، فيلتبس عَوْن سواه بالصراخ ، وهو إذا ما جاع أو عطش بكى
وهو إذا ما بردَ أو صار متحروراً بكى ، وهو إذا ما احتاج إلى الحركة
وأمنك ساكناً بكى ، وهو إذا ما أراد النوم وحرك بكى ، وهو كلما

قلَّ وجهُ راحته طلب تبديله ، وليس لديه غيرُ لغةٍ واحدة ، وذلك أنه ليس عنده غيرُ نوعٍ واحد من انحراف المزاج ، وذلك أنه لا يُفَرِّقُ بين مختلف انفعالات الأعضاء عن عدم كمالها ، لجميع الأمراض لا تُحَدِّثُ فيه غير إحساسٍ واحد بالألم .

وتنشأ أولى صِلات الإنسان بجميع ما يحيط به عن تلك الدموع التي يُظَنُّ أنها لا تستحقُّ انتباهكم إلا قليلاً ، فهنا تُطَرِّقُ الحَلَقَةُ الأولى من تلك السلسلة الطويلة التي يتألف منها النظامُ الاجتماعيُّ .

وَيَنِمُّ بكاء الولد على اضطرابه ، يَنِمُّ على احتياجٍ فيه لا يستطيعُ قضاءه ، وَيُرَقَّبُ هذا الاحتياجُ وَيُبْحَثُ عنه ويوجد وَيَتَلَا فَيُ ، وهو إذا لم يُوجَدْ ، أو إذا لم يُمكنْ تلافيه ، دامت الدموعُ وزُعِجَ منها ، فَيَدَارِي الولدُ إسكاتاً له ويَهْدَدُ ، وَيُرَتِّمُ له لينام ، وهو إذا ما عانَدَ وفَرَّغَ الصبرُ هُدَّدَ وضربتَه المَرَّاضِعُ الشَّرِساتُ أحياناً ، فإيا لهذه الدروس القريبة عند دخوله الحياة ! ولن أنسى ما رأيتُ من ضَرْبِ المُرْضِعِ لأحد هؤلاء البَكَائِينَ المزعجين ، وكان يَسْكُتُ من فَوْزِهِ ، فأظنُّ أنه أخيف ، فأقول في نفسي : « إن هذه نفسٌ ذليلة لا يُنال منها شيءٌ بغير العنف » ، وكنت مخطئاً في هذا ، فكان هذا التَّعَسُّ يُحْتَنَقُ غيظاً ولا يستطيعُ أن يتنفس ، فأراه بنفسجى اللون ، وتمضى دقيقةٌ ، فتَخْرُجُ منه صيحاتٌ حادةٌ ، فتتجلى في نَبَرَاتِهِ جميعُ علائم غيظ ذلك العُمرِ وغضبه ويأسه ، وقد خَشِيتُ أن تَفِيضَ روحه في أثناء هذا الهيجان ، ومتى شَكَّكْتُ في كونِ حِسِّ العدل والظلم غريزياً في قلب الإنسان كان في ذاك المثال وحده ما يُقْنَعُنِي ، ولا رَيْبَ عندي في أن

جَذْوَةٌ من النار إذا ما سَقَطَتْ مصادفةً على يد ذلك الولد كانت ذات وقعٍ أَقْلَ من تلك الضربة الخفيفة التي أُنْزِلَتْ عليه ، ولكن مع نيةٍ بَيِّنَةٍ للإساءة إليه .

وَيَتَطَلَّبُ هذا الميلُ في الأولاد إلى الحِدَّةِ والغضب والهياج مداراةً متناهيةً ، ويرى بُوَيْرُ هَافٍ أن مُعْظَمَ أمراضهم من فصيلة التَّشَنُّجَاتِ ، وذلك لأن الرأس إذ كان في الأولاد أضخمَ مما في البالغين نسبةً ، ولأن الجهاز العصبيّ إذ كان في أولئك أكثرَ امتداداً مما في هؤلاء ، فإن النوع العصبيّ في الأولاد يكون أشدَّ استعداداً للغضب ، فاعنوا كثيراً في أن تُقْصُوا عنهم الخدمَ الذين يزعمونهم ويهيجونهم ويُفْرِغُونَ صَبْرَهُمْ ، فهؤلاء أشدُّ خطراً وشوْماً عليهم مئةَ مرةٍ من مضارِّ الهواء والفصول ، ولا يُصْبِحُ الأولاد عُنْدَآ ولا غَضَاباً ، ويكونون أحسنَ صحّةً ، ماداموا لا يجدون مقاومةً في غير الأشياء ، لا في العزائم مطلقاً ، وهذا من جملة الأسباب في أن أولاد الشعب ، إذ كانوا أكثرَ حريةً واستقلالاً ، يَبْدُونَ ، على العموم ، أَقْلَ سَقَمًا ، وأقلَّ ضَعْفًا ، وأشدَّ قوَّةً ، من أولئك الذين يُزَعَمُ أنهم أحسنُ تربيةً بما كسبهم دائماً ، ولكن لِيُذَكَّرْ دائماً وجودُ فَرْقٍ بين إطاعتهم ومعاكستهم .

ودموعُ الأولاد الأولى تَصْرُعاتٌ ، ولا تلبث أن تصيرَ أوامرَ إذا لم يُحْتَرَزْ منها ، ويبدأ الأولاد بأن يُعَاوَنُوا ، وَيَنْتَهَوْنَ بأن يُخْدَمُوا ، وهكذا ينشأ عن ضعفهم في بدء الأمر شعورُ انقيادهم ، ثم تنشأ فكرةُ السيطرة والسلطان ، ولكن بما أن هذه الفكرة أَقْلُ هياجاً باحتياجاتهم مما يَخْدِمُنَا فإنه يُبْدَأُ هنا بالشعور بالنتائج الأدبية التي ليس سببها المباشر في الطبيعة ،

وهكذا يُرى السببُ ، منذ هذا الدّور الأول ، في وجوب تمييز المقصِد الخفيّ الذي يُملي الحركة أو العويل .

ومتى مدّ الولدُ يدهَ بجهدٍ من غير أن يقول شيئاً اعتقدَ أنه يَبْلُغُ الشيءَ لعدم تقديره المسافة ، وهو مخطئٌ في ذلك ، ولكن الولد إذا ما تَوَجَّعَ وصَرَخَ مادّاً يده عاد لا يُعدُّ مخطئاً في أمر المسافة ، وإنما يأمرُ الشيءَ بالاقتراب ، أو يأمرُكم بأن تجلبوه إليه ، وانحِلوه في الحال الأولى إلى الشيء رويداً رويداً وبخطأ صغيرة ، ولا تبدؤا في الحال الثانية أنكم تَسْمَعُونَ صِيحَاتِهِ ، فكلما صَرَخَ وَجَبَ أن يقلَّ استماعكم له ، ويجدُرُ أن يُعوِّدَ باكراً عدمَ أمرِ الناس لأنه ليس سيّداً لهم ، وعدمَ أمرِ الأشياء لأنها لا تَسْمَعُهُ مطلقاً ، وهكذا يجدُرُ أن يؤتى بالولد إلى الشيء ، إذا ما رَغِبَ في شيء يَراه ويراد إعطاؤه إياه ، أكثر من أن يؤتى بالشيء إلى الولد ، فهو يستنبط من هذه العادة نتيجةً ملائمةً لِسَنِّه ، ولا توجدُ وسيلةٌ أخرى لتلقينه إياها .

وكان رئيسُ الدير سان بيير يدعُو الرجالَ أولاداً كبيراً ، وبالمقابلة كان يُمكن أن يُسمّى الأولادُ رجالاً صغاراً ، ولهذا القضايا حقيقتها كالأحكام ، وهي تحتاج إلى إيضاح كالمبادئ ، ولكن هُوَ بَرّ ، عندما دعا الشريرَ ولداً قوياً ، قال شيئاً متناقضاً على الإطلاق ، فكلُّ شرٍّ يأتي من الضعف ، وليس الولد شريراً إلا لأنه ضعيف ، واجعلوا الولد قوياً يُصبح صالحاً ، وذلك أن الذي يَقْدِرُ على كلِّ شيء لا يَصْنَعُ الشرَّ مطلقاً ، وإذا نُظِرَ إلى جميع صفات الله القادر وَجِدَ الصلاحُ من صفاته التي يَصْنَعُ تصوّره بغيرها ،

وإذا نُظِرَ إلى جميع الأمم التي عَرَفَت المبدأين وَجِدَ أنها تَعُدُّ الشرَّ دون الخير ، وإلاَّ لَأَنْتَ بقضية مُحَالَةٍ ، وانظروا إلى عقيدة الرسولِ السَّافِيهِ فيما بعد .

والعقلُ وحده هو الذي يُعَلِّمُنَا معرفة الخير والشرِّ ، ومع أن الشعور الذي يَجْعَلُنَا نُحِبُّ إنسانًا ونَكْرَهُ الآخرَ مستقلٌّ عن العقل فإنه لا يُمكن أن يَنْمُوَ بغيره إِذَنْ ، ونحن نَصْنَعُ الخير والشرَّ ، قبل سنِّ الرُّشد ، من غير أن نَعْرِفَ ذلك ، ولا يُوجَدُ فَضْلٌ في أفعالنا مطلقًا وإن وَجِدَ ، أحيانًا ، في شعورنا بأفعال الآخرين الذين لهم صلة بنا ، ويُوَدُّ الولدُ أن يُحِلَّ بكلِّ ما يَرَى ، فهو يَكْسِرُ ويَحْطُمُ كلَّ ما يستطيع أن يَصِلَ إليه ، وهو يُنْسِكُ الطائرَ كما يُنْسِكُ الحجرَ ، وهو يَحْنُقُهُ من غير أن يَعْرِفَ ما يَعْمَلُ .

ولِمَ هذا ؟ أوَّلاً ، إن الفلسفة تُسَوِّغُ ذلك بالعيوب الطبيعية ، تُسَوِّغُهُ بالزهو وروح السيطرة وحبُّ الذات وسوء الخلق ، وقد تُضَيِّفُ الفلسفةُ إلى هذا كَوْنُ شعور الولد بضعفه يجعلُه حريصاً على إتيانه أعمالَ قوَّةٍ فَيُثَبِّتُ لنفسه قدرته الخاصة ، ولكن انظروا إلى هذا الشيخ العاجز المَحْطَمُ الذي رُدَّ إلى ضَعْفِ الطفولةِ ضمن دائرة الحياة البشرية تَجِدُوا أنه لم يَبْقَ ساكناً هادئاً فقط ، بل يُوَدُّ أن يَبْقَى كلُّ شيءٍ حَوْلَهُ ساكناً هادئاً أيضاً ، فأقلُّ تفسيرٍ يُزِنُّجُهُ وَيُقَلِّقُهُ ، وهو يريد أن تَسْوَدَّ دَعَةُ عامة ، وكيف يُسْفِرُ عَيْنُ العَجْزِ المضافِ إلى الأهواءِ عَيْنَهَا عن نتائج كثيرة الاختلاف في الدَّورَيْنِ إذا لم يتغير السببُ الأَصْلِيُّ ؟ وأين يُمكن أن يُنَبِّحَ عن اختلاف الأسبابِ

هذا إذا لم يَكُنْ في الحال البدنية للاثنين ؟ يَنُمُو المبدأ الفَعَالُ المشترك بين الاثنين في أحدهما وينطفئ في الآخر ، وَيَتَصَوَّرُ أحدهما ويتلاشى الآخر ، وَيَتَجَهَّ أحدهما إلى الحياة ويتجه الآخر إلى الموت ، وَتَتَجَمُّعُ الفاعلية الخائرة في قلب الشيخ ، وَتَكُونُ الفاعلية الغزيرة في قلب الولد وتمتدُّ إلى الخارج ، وهو يَشْمُرُ بمقدارٍ من الحياة يَكْفِي لِإِنْعَاشِ جميع من يحيطون به ، ولا طائل في أن يَفْعَلَ أو يُبْطِلَ ، ويكفي أن يُغَيِّرَ حالَ الأمور ، فكلُّ تغييرٍ عملٌ ، وإذا ما لاح أكثر ميلًا إلى الهدم لم يكن هذا عن شَرٍّ قَطُّ ، بل عن كَوْنِ العمل المَصَوَّرِ بطيئًا دائمًا ، وعن كَوْنِ العملِ الهادم أحسنَ ملاءمةً لنشاطه لأنه أكثرُ سرعةً .

وبينا يُنعم صانعُ الطبيعة على الأولاد بهذا المبدأ الفَعَالِ يُفَنِّي بأن يكون أقلُّ ضررًا ، وذلك بتركه لهم قوةً قليلةً لاستعماله ، ولكنهم عند ما يَقْدِرُونَ على عَدِّ الناس الذين يحيطون بهم آلاتٍ يُسَيِّرُونَهَا فإنهم يستخدمونهم في تنفيذ رغبتهم والعِوَضِ من ضعفهم ، وهكذا يَغْدُونَ مرعجين باغين متجبرين أشرارًا جامحين ، وينشأ التقدم ، الذي لا يأتي من روح السيطرة الطبيعي ، عن الذي يَمْنَحُهُمْ إياه ، وذلك أنه لا يتطلبُ طويلَ تجربةٍ أن يَشْمَرَ بمقدار اللذة في العمل بأيدي الآخرين وفي عدم الحاجة إلى غير تحريك اللسان لتسيير العالم .

وإذا ما كَبُرَ الولد اكتسب قوةً وأصبح أقلَّ قَلَقًا واضطرابًا وأكثرَ استقلالًا ، وهكذا يتوازن الروح والبدن ، ولا نطالبنا الطبيعة بأكثرَ من الحركة الضرورية لبقائنا ، بَيِّدَ أن الرغبة في القيادة لا تزول مع الحاجة التي

نشأت عنها ، فالسلطانُ يُوقِظُ حبَّ الذاتِ وبصانعه ، والعادةُ تُقَوِّيه ، وهكذا يَعْقُبُ الهوى الحاجةَ ، وهكذا تكونُ لِمُبْتَسِرَاتِ الرَّأْيِ جذورها الأولى .

وإذا ما عُرِفَ المبدأُ مرةً اتضحت لنا النقطةُ التي تُتْرَكُ منها طريقُ الطبيعة ، فلنُبَصِّرَ ما يجبُ أن يُصَنَعَ للبقاء عندها .

ويَتَعَمَّدُ الأولادُ من أن يكونوا ذوى قوةٍ بالغة ، حتى إنه ليس عندهم من القوة ما يَكْفِي لما تطالبهم به الطبيعة ، ولذاً يجب أن يُتْرَكَ لهم استعمالُ جميعِ القُوَى التي تُنْعِمُ الطبيعةُ بها عليهم ، فلا يُمَكِّنُهُم أن يُسَيِّثُوا استعمالها ، وهذا هو المبدأ الأول .

ويجب أن يساعِدُوا ، وأن يُتَدَارَكَ ما يُعْوِزُهُم من المعرفة أو القوة في كلِّ احتياجٍ بدنيٍّ ، وهذا هو المبدأ الثاني .

ويجب أن يُقْتَصَرَ ، في العَمَلِ الذي يُمَدُّون به ، على النافعِ الحقيقيِّ ، من غير أن يُكَلِّبَ داعي الهوى أو الرغبة بلا سبب ، وذلك لأن الهوى لا يُزَعِّجهم مطلقاً إذا لم يُحْدِثْ ، فالهوى ليس من الطبيعة ، وهذا هو المبدأ الثالث .

ويجب أن تُدْرَسَ لغتهم وإشاراتهم بعناية ، وذلك لكي يُفَرَّقَ ، في رَغَبَاتِهِمْ ، في سِنِّ لا يَعْرِفُونَ أن يخادِعوا فيها ، بين ما يَصْنُدُّ عن الطبيعة مباشرةً وما يَصْنُدُّ عن الرَّأْيِ ، وهذا هو المبدأ الرابع .

وتَقْوُمُ رُوحُ هذه المبادئُ على مَنَحِ الأولادِ حريةً حَقِيقَةً كثيرةً وقليلَ سلطانٍ ، وأن يُتْرَكَ لهم كبيرُ مجالٍ للعمل بأنفسهم وقليلُ تَطَلُّبٍ من

الآخرين ، وهكذا يتعودون ، باكراً ، أن يَقْصِرُوا رَغْبَاتِهِمْ على قُوَاهُمْ ، فيقلُّ شعورُهم بجَرمَانِهِمْ ما لا يكون ضِمنَ طاقَتِهِمْ .

وهذا ، إِذَنْ ، سببٌ جَدِيدٌ بالغُ الأهمية لترك أجسام الأولاد وأعضائِهِمْ طليقةً تماماً ، وذلك على أن يُبْعَدُوا من الخطر والسقوط وأن يُرَدَّ عن أيديهِمْ كلُّ ما يُضَكِّن أن يؤذيهِمْ .

ولامراء في أن الولد الطليق البدن والذراعين يكون أقلُّ بكاءً من الولد المشدودِ ضِمنَ قِاط ، ولا يَبْكِي الولد الذي لا يَعْرِفُ غيرَ احتياجات البدن ما لم يَتَوَجَّعْ ، وينطوى هذا على فائدة عظيمة ، وذلك لأنه يُعَلِّمُ بذلك متى يحتاج إلى العَوْنِ تماماً ، فلا يُتَأَخَّرُ ثانيةً عن منحه إياه جُهْدَ الاستِطاعة ، ولكنكم إذا لم تستطيعوا تسكينه فاقْبُوا هادئين غيرَ مدارين إياه تسكيناً له ، فلا تَشْفِيهِ ملاطفَتُكم من مَفْصِهِ ، ومع ذلك فإنه سَيَذْكُرُ ما يَحْبِبُ أن يُصْنَعَ لِيَصَانَعْ ، وهو إذا عَرَفَ أن يَحْمِلَكم على المبالاة به مرةً وَفَقَ ما يُرِيدُ أصبح سيدكم ، وضاع كلُّ شيء .

ويكون الأولادُ أقلُّ بكاءً إذا قَلَّتْ معاكستهم في حركاتِهِمْ ، وهم إذا ما قلَّ القلقُ من دموعهم قلَّ الألم من حملهم على السكوت ، وهم إذا ما قلَّ تهديدهم أو مداراتهم غالباً غَدُوا أقلَّ جُبْنًا أو عناداً وظلُّوا أحسنَ وضعاً في عالم الطبيعة ، وتَحَدَّثُ الفُتُوخُ في الأولاد ببيكائِهِمْ أقلَّ مما بالمبادرة إلى تسكينِهِمْ ، ودليلي على ذلك كونُ الأولاد المُهْمَلِينَ أقلَّ عُزْضةً للفتق من غيرِهِمْ ، ومع ذلك تَجِدُنِي بعيداً جداً من كلِّ رغبةٍ في إهْلَاهُمْ ، وعلى العكس أرى أن يُجَابُوا إلى رَغْبَتِهِمْ قبل أن يُعَبَّرُوا عنها ، وألَّا تُعَلِّمَ

احتياجاتهم بصراخهم ، ولكننى لا أريد أن يُبتعد عن الفطنة في العناية بهم ، ولِمَ يَكُونُ من الخطأ بكأؤهم ماداموا يَرَوْنَ دموعهم صالحة لنيل كثير من الأمور ؟ إذا ما عَلِمُوا أى ثمن يكون لسكوتهم احترزوا من تبديده ، وهم يَبْلُغُونَ من الغُلُوِّ في استغلاله ما لا يُوَدِّى ثمنه معه في نهاية الأمر ، وهناك يَجِدُونَ وَيَصْنَعُونَ ويسكتون عن بكاء بلا جَدْوَى .

وليست دموعُ الولدِ غيرِ المقيد ولا المريض والذي لا يُعَوِّزُهُ شىء ، ليست دموعُ هذا الولدِ ، غيرَ دموعِ عادةٍ وعناد ، وليست هذه الدموع من عمل الطبيعة ، بل من عمل المُرْضِعِ التى لا تطيق ما توجهه من إزعاج فتزِيدُهُ ، وذلك أنه لا يَخْطُرُ ببالها كَوْنُ الولدِ إذا ما أُسْكِتَ اليومَ حُرْضَ على البكاء غداً بما هو أكثر من ذلك .

والوسيلةُ الوحيدة للشفاء من هذه العادة أو منعها هو أن يُتَغافل عنها ، ولا يَوَدُّ أحدٌ ، حتى الأولادُ ، بذلَ جُهدٍ على غير جَدْوَى ، أَجَلٌ ، إنهم يُصِرُّون على محاولاتهم ، ولكنكم إذا كنتم أكثرَ عناداً منهم فترتْ همَّتُهم ولم يَعُودُوا إلى ذلك مطلقاً ، وهكذا تُوقِرُ عليهم دموعُهم ويُعَوِّدون عدمَ سكَبِ شىء منها ما لم يَحْمِلْهم الألمُ على ذلك .

ثم إنهم إذا ما بَكَوْا عن هَوَى أو عن عنادٍ كانت الوسيلة الوثيقة لمنعهم من الاستمرار على هذا أن يُبْلَهُوا بشىء مستحبٍ مؤثِّرٍ يَنْسَوْنَ به أنهم يريدون البكاء ، ويُجِيدُ معظمُ المَرَّاضِعِ هذا الفنَّ الذى إذا ما أَحْسِنَ استعماله كان مفيداً جداً ، ولكن من المهمِّ إلى الغاية ألاَّ يَشْعُرَ الولدُ بِنَيْتَةِ إلهائه وأن يَتَلَهَّى من غير أن يَفْتَقِدَ أنه يُفَكِّرُ فيه ، وهذا ما يَبْدُو

فيه جميعُ المراضعِ غيرَ ماهرات .

وَيُقَطَّمُ جميعُ الأولادِ باكراً ، ويُشارُ إلى الوقتِ الذى يجبُ أن يُقَطَّمُوا فيه بِثَبَّتِ الأسنانَ ، ويكونُ هذا الثَّبْتُ شاقاً أليماً على العموم ، وهناك يَحْمِلُ الولدُ إلى فمه ، متواتراً وبغريزةٍ آليةٍ ، جميعَ ما يُمَسِّكُ لِيَمَضُّعَهُ ، ويُرَى أن العملَ يَسْهُلُ بإعطائه جسماً صلباً كأُلهِيَّةٍ ، وذلك كالعلاجِ أو سن الذئب ، واعتقدُ أن هذا خطأً ، فالأجسامُ الصُّلبة إذا ما وضعتُ على اللِّثاتِ كان من البعيد أن تُلِينَهَا ، وإنما تَجْعَلُهَا جاسئةً وتُصَلِّبُهَا وتُعِدُّ تَمَرُّقاً أَشَدَّ مشقةً وأعظمَ ألماً ، وَلَتَتَّخِذِ الغريزةُ مثلاً دائماً ، فلا تُرى الجِراحُ ممارسةً أسنانها النابتة على الحصى أو على الحديد أو على العظام ، وإنما تمارسها على الخشب أو الجلد أو الرِّثاث وغيرها من الموادِّ اللينة التى تنحنى والتى تنطبع عليها السِّنُّ .

ولا نستطيع أن نكون بُسْطاءً فى شيء ، حتى حَوْلَ الأولادِ ، وبالأجهزة غيرِ النافعة والضارة كالجَلَّاجِلِ الفضية والذهبية والمرَّجانية ، وكالبِلُّورِ ذى الوجوه واللَّعَبِ من أىِّ ثمنٍ أو أىِّ نوعٍ كان ! لا شيء من جميعِ هذا ، فلا جَلَّاجِلَ ولا لَعَبَ ، فله فى أغصانِ الشجرِ الصغيرة مع أثمارها وأوراقها ، وله فى رأسِ الخَشْخَاشِ الذى يَسْمَعُ فيه طنينَ الحُبِّ ، وله فى عِرْقِ الشُّوسِ الذى يستطيع أن يَمِصَّهُ وَيَمَضُّعَهُ ، أُلْهِيَّةٌ كما فى تلك الأشياءِ الفاخرة ، وذلك مع عدم اشتغالها على تعويده النفائسَ منذ ولادته .

ومن المَعْرِفِ به كونُ الحَسَاءِ غِذاءً غيرَ صحِّىٍّ كثيراً ، وينشأ عن اللبنِ المغلىِّ والدقيقِ غيرِ المطبوخِ دَرَنٌ ، ولا يلائمان معدتنا ، ويكون

الدقيقُ في الحساء أقلّ نَضْجًا مما في الخبز، فضلًا عن عدم اختباره، ويُلَوِّح
 لى أن الخبزَ المتوقع في ماء وزُبْدَةٍ وقِشْدَةٍ الأَرَزُّ أَفْضَلُ من ذاك، وإذا
 كان لا بُدَّ من صُنْعِ حَسَاءٍ كان من الملائمِ تحميصُ قليلٍ من الدقيقِ مقدَّمًا،
 وفي بلدٍ يُصَنِّعُ من الدقيقِ المُحَمَّصِ هكذا حَسَاءٌ لذيذٌ جدًّا، صَحِيٌّ جدًّا،
 وكذلك مَرَقُ اللحمِ والتَّرِيدُ غِذَاءٌ متوسط، فلا ينبغي اتخاذهما إِلَّا قليلًا
 ما أمكن، ومن المهمّ أن يتعود الأولادُ المضغ في البُداءة، وهذه هي
 الوسيلة الحقيقية لتسهيل نَبْتِ الأسنان، فتي أخذ الأولادُ يَبْلَعُونَ سَهَلَتِ
 الهضمَ غُصَارَةً اللَّعَابِ الممزوجةُ بالأغذية.

وسأجعلهم يَمَضُّغُونَ الفواكهَ الجافةَ وَكِسَرَ الخبزِ إِذَنْ، وسأعطيهم،
 كألعوبة، أصابعَ صغيرةً من الخبزِ الناشفِ أو بَسْكَوْتًا مشابهًا لخبزِ بِيْمُونْتِ
 فيسَمَّى غريبًا في هذا البلد، ويتلعون قليلًا من هذا الخبز في آخر الأمر عن
 كثرة ما يُلَانُ منه في أفواههم، وتَنَبُّتُ أسنانهم، ويُفْطَمُ الولدُ من غير
 أن يُشْعَرَ بذلك، وتُوجَدُ للفلاحين مِمْدُ صالحة عادةٌ فيُفْطَمُونَ بلا ضوضاء.
 وبَسْمَعِ الأولادُ الكلامَ منذ ولادتهم، ولا يخاطَبُ الأولاد قبل أن
 يَذَرِكُوا ما يقال لهم فقط، بل قبل أن يستطيعوا ردَّ الأصوات التي يَسْمَعُونَهَا،
 ولا تَقُومُ الأعضاء، التي لا تزال خَدِرَةً، بتقليد الأصوات التي تُنَمَلَى عليها
 إلا بالتدريج، حتى إنه ليس من الثابت أن تَقَرَّعَ هذه الأصواتُ آذَانَهُمْ
 كما تَقَرَّعُ آذَانَنَا بجلاء، ولا أَلُومُ الرُّضِيعَ على إلهاء الولد بأغانٍ وَنَبْرَاتٍ
 مَرِحَةٍ مُنَوَّعة، ولكنني أكره أن تُزَجَّجَ بطائفةٍ من الكلام الفارغ لا يفقه
 منها غيرَ ما تَضَعُهُ فيها من نَعَم، وكلُّ ما أودَّ هو أن تكون المفاصلُ

الأولى التى يُسمِّها نفيسة سهلة واضحة مُكرَّرة غالباً وأن تكون الكلمات التى تُعبَّرُ عنها دالة على أشياء محسوسة يُمكن أن تكون أول ما تُعرَض على الولد، وتبدأ السهولة المشوِّمة فى استعمال الكلمات، التى لا ندركها، باكراً أكثر مما نظن ، ويَسْمَع الطالب وهو فى الصف هَذَر معلمه كما كان يَسْمَعُ ثرثرة مُرضِعه وهو فى القمط، ويَلُوح لى أن من حُسْن التربية تركه جاهلاً فى كلا الحالين .

ومتى أُريدَ الاكتراثُ لتكوين لغة الأولاد وكلامهم الأول أنت التأملاتُ جملةً ، ومهما يكن من أمرٍ فإن الأولاد يتعلمون الكلامَ على نَمَطٍ واحدٍ دائماً ، وهنا تكون جميع النظريات الفلسفية غيرَ نافعةٍ إلى أبعد حدٍّ .

وذلك ، أولاً ، أن لهم نحواً ملائماً لِعُمُرِهِم ذا إعرابٍ وقواعدٍ أعمّ مما فى نحونا ، وإذا ما أُنْعِمَ النظرُ فى ذلك دُهْشَ من دِقَّتِهِم فى بعض المشابهات الكثيرة الانتظام مع ما فيها من نقص كبير ، والتى لا تكون نائيةً إلّا لُجْفاءُها أو لأن العادة لا تُقَرِّها ، ومنذ قليلٍ سمعتُ ولداً يَنْهَرُهُ أبوه لقوله : « Mon père-irai-je-t-y? » ، والواقعُ أن هذا الولد اتَّبَعَ القياسَ بأوثقَ مما يَنْتَبِعُ نحوِيُونَا ، وذلك أنه يُقال له : « Va - s - y » ، فلم لا يقول : « Irai - je - t - y? » ، فضلاً عن ذلك فانظُرُوا مبلغَ المهارة التى يَتَجَنَّبُ بها التقاء حرفى الة فى « irai - je - y? » أو « y - irai - je? » ، وهل من خطأٍ الولد أن كُنّا على غير صوابٍ فى تَزْعُنَا من الجملة ظرفَ « y » القاطعَ لأننا لم نَعْرِفْ ما نَصْنَعُ به ؟ إن من الخذلانة التى لا نطاق ، ومن العناية الفارغة ، أن يُصْلَحَ فى الأولاد جميعُ الأغاليط الصغيرة المخالفة

للعادة والتي تُصَحِّح مع الزمن من تلقاء نفسها ، فليكن كلامكم صحيحاً أمامهم دائماً ، واجعلوهم لا يُسَرُّون بأحد سرورهم بكم ، ثم ثَقُوا بأن لسانهم يُقَوِّمُ وفق لسانكم على وجه غير محسوس ومن غير أن تقوموا بإصلاح في ذلك نحوهم . ولكنه يُوجَدُ شَرٌّ أبلغ من ذاك لا يسهل اجتنابه ، وذلك أنه يُعَجِّلُ كثيراً في حَمَلِ الأولاد على الكلام ، كأنه يُخَشَى ألا يتعلموه بأنفسهم ، وذلك الاستعجالُ الطائشُ يؤدي مباشرة إلى نتيجة مخالفة للمطلوب ، وذلك أنهم يتكلمون بذلك مؤخراً على وجه أشدَّ اختلاطاً ، وذلك أن العناية المتناهية التي تُبَذَلُ حَوْلَ كُلِّ ما يقولون تُعْفِيهم من الكلام بوضوح ، وذلك بما أنهم لا يكادون يفتحون أفواههم فإن كثيراً منهم يحتفظ ، مدى حياته ، بعبير في اللفظ وبنطقي مختلطٍ يجمعهم أعياء تقريباً .

وقد عِشْتُ كثيراً بين القَرَوِيِّين فلم أسمع ، قطُّ ، واحداً من رجالهم أو نساءهم أو بناتهم أو بنينهم يَلْتَفِعُ ، ومن أين يأتي هذا ؟ أَفَكُونَتْ أعضاء القَرَوِيِّين على غير تكوين أعضائنا ؟ كلا ، وإنما دُرِّبَتْ على وجه آخر ، وتوجد أمام نافذتي أرضٌ يجتمع فيها أولاد المحلِّ لِيَلْعَبُوا ، وأميز ما يقولون تماماً على ما بيني وبينهم من مسافة ، فأستخرج منها ، في الغالب ، مذكراتٍ صالحةً لهذا الكتاب ، وفي كلِّ يومٍ تَخْدَعُنِي أَذُنِي حَوْلَ سِنِّهِمْ ، وذلك أنني أسمع أصواتَ أولادٍ في العاشر من عمرهم ، وأنظر ، وأرى ، قَوَامَ أولادٍ ، وملامحَ أولادٍ ، تَتَرَجَّحُ سِنِّهِمْ بين الثالثة والرابعة ، ولا أَقْصِرُ تَجَرِّبَتِي على نفسي ، وأُسْتَطْلِعُ رَأْيَ الزائرين لي من أهل المدن في ذلك ، فأجدهم على ذات الخطأ .

وينشأ هذا عن كَوْنِ أولاد المدن ، المترجحة أعمارهم بين الخامس والسادس ،
والذين يُنشأون في الغرفة وتحت جناح مربية ، لا يحتاجون إلى غير الهَمِّمة
لِئْسَمُوا ، فإذا ما حَرَكَوا شفاههم وَجِدَتْ مشقة في الاستماع إليهم ،
وَيَلْتَمِنُونَ كلماتٍ يُرَدِّدونها ترديداً سيئاً ، فيتنبأ عينُ الأشخاص ، الذين
يكونون حَوْلهم في كلِّ وقت ، بما يريدون أن يقولوا ، لا بما يقولون .

والأمرُ غيرُ ذلك في الأرياف ، فالقروية لا تكون حَوْلَ ولدها بلا
انقطاع ، فيضطرُّ هذا الولد أن يتعلم قول ما يُريدُ واضحاً عالياً جداً ، ويكون
الأولادُ في الأرياف متفرقين بعيدين من الأب والأم والأولاد الآخرين
فيَدْرِبون أنفسهم على أن يُسمَعوا من مسافةٍ بعيدة وعلى قياس الصوت
بالفاصلة التي تفصلهم عن يريدون إسماعهم ، وهذا هو الوجه الذي يُعلَّمون
به النطق حقاً ، لا أن يُتَغَمَّعوا ببعض الحروف الصوتية في أذن مربيةٍ يَقْطِى ،
وما يَحْدُثُ أن ابن القروي إذا ما سُئِلَ أمْكَنَ منعُ الحياء إياه من الجواب ،
غير أن ما يقول يقوله واضحاً ، وذلك بدلاً من أن تقوم الخادمة مقامَ
المترجم لابن المدينة ، ولولا هذا ما أَدْرِكُ شَيْءاً مما يُتَمَتَّم بين أسنانه ^(١) .

وإذا ما كَبِرَ البنون وجب أن يُقَوِّمُوا هذا النقص في المدارس ،
وإذا ما كَبِرَ البنات وجب أن يُقَوِّمَنَّهُ في الأديار ، والحقُّ أن كلا
الفريقين يتكلم ، على العموم ، بأوضح من كلام مَنْ يُنشأون في بيتٍ

(١) ليس هذا بلا استثناء ، ففى الغالب أن أقل الأولاد إسماعاً في البداية يصبحون أكثر الأولاد
إزعاجاً فيما بعد ، أى عندما يأخذون في رفع الصوت ، ولكن الأمر إذا ما قضى بالدخول في الجزئيات لم
أنته من الكلام ، فعل كل قارئ حسييف أن يرى أن الزائد والناقص المشتقين من سوء استعمال واحد
يصححان بمنهاجي على السواء ، وأجد أنه لا يمكن فصل أحد المبدأين الآتين عن الآخر ، هما : « حب
التناهي غلط ، وغير الأمور الوسط » ، ومن المبدأ الثاني ينشأ الأول بحكم الضرورة .

الأب ، ولكن الذي يَمْنَعُهُمْ من اكتساب نطقٍ خالصٍ كنطق القرويين هو ضرورةُ تعلُّمِ أمورٍ كثيرةٍ على ظهر القلب ، وتلاوةٍ ما تَعَلَّمُوا عن ظهر القلب ، وذلك لأنهم إذا ما دَرَسُوا تَعَوَّدُوا اللَّثَنَةَ وتهاونوا بالنطق وأساءوا اللفظ ، ولأنهم إذا ما تَلَوُوا عن ظهر القلب أتوا ما هو أسوأ من ذاك ، وهم في ذلك يَتَلَمَّسُونَ الكلمات بجهدٍ ، وهم في ذلك يَمِطُّون المقاطع وَيَمَطِّلُونَهَا ، وليس من الممكن ألا يُبْجَلَج في الكلام أيضاً إذا ما تَرَجَّرَتِ الذَّاكِرَةُ ، وهكذا تُكْتَسَبُ عيوبُ النطق وتدوم ، وسيُرى فيما بعد أن إميل لا يَكْتَسِبُ هذه العيوبَ ، أو أنه لا يَكْتَسِبُها عن ذاتِ العِللِ على الأقل .

وَأَسْلَمَ بأن الشعب والقرويين يَنْزِلُونَ إلى طرفٍ متناهٍ آخر ، وأنهم يتكلمون بما هو أعلى مما يجب دائماً تقريباً ، وأنهم إذا ما كانوا دقيقين النطق كانت مفاصلهم شديدةً جافيةً ، وأنهم كثيرون النبرات ، وأنهم سَيِّئُو الاختيار لأنفاظهم ، إلخ .

يَبْدُو أن هذا التناهي يَبْدُو لِي ، أولاً ، أقلَّ عيباً بمراحل من ذاك مادام قانونُ الكلام الأولُ هو الإسماع ، وما دام أعظمُ خطأ يُصْنَعُ هو أن يَقَعَ الكلام من غير أن يُسْمَعَ ، ومن يَفَاخِرُ بعدمِ وجودِ نَبَرَاتٍ له يَعْنِي أنه يَفَاخِرُ بتجريدِ الجُمْلِ من طلاوتها وطاقتها ، فالنَّبَرَاتُ روحُ الكلام ، وهي تُنْعِمُ على الكلام بالإحساس والصحة ، والنَّبَرَاتُ أقلُّ كذباً من الكلام ، وقد يكون هذا سببَ خَشْيَةِ الناسِ إياها كثيراً ، وتنشأ عادة التَهَكُّمِ بالناس من غير أن يَشْعُرُوا عن عادة قولهم كلَّ شَيْءٍ على وتيرة واحدة ، وإذا ما حُرِّمَتِ النَّبَرَاتُ عَقَبَتْهَا طُرُزُ اللَّطَقِ مضحكةٌ مُمَوَّهَةٌ عابرةٌ كالتى تلاحظُ لدى شبان البلاط ،

وهذا التَّصَنُّعُ في الكلام والوضع يَجْعَلُ وصولَ الفرنسيِّ كَريمًا مُنفَرًّا لدى الأُمِّ الأُخْرَى ، وفي هَيْئَتِهِ ، لا في كَلامِهِ ، ما يَضَعُ النَّبَرَاتِ ، وهذا ما لا يَكُونُ وَسِيلَةً جَذْبٍ إِلَيْهِ .

ولا تُعَدُّ شَيْئًا جَمِيعُ هذه المَنَاتِ في الكلام التي يُخَشَى اكتسابُ الأولادِ لها ، فإن السَّهْلَ جدًّا مَنعُ وقوعِها أو إصلاحِها ، ولكن الخطأَ الذي يَكْتَسِبُونَهُ لا يُضْلَحُ أبَدًا بِجَمَلِ كَلامِهِم مُبْهِمًا غامضًا جافلاً ، وَبِنَقْدِ لَهجَتِهِم نَقْدًا مُسْتَمَرًّا ، وَبِنَقْيَةِ جَمِيعِ أَلفاظِهِمْ ، ولا يُسْمَعُ الرَّجُلُ وهو على رَأْسِ فَرَقَةٍ إِذَا ما تَعَلَّمَ الكلامَ في رِداهِ الاستقبالَ فَقَطْ ، وَقُلٌّ مِثْلُ هذا عن وَضْعِهِ تِجَاهَ شَعْبٍ ناثِرٍ ، فَعَلِمُوا الأولادَ أَنْ يَخاطَبُوا الرِّجالَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهم سَيَمْرِفُونُ مَخاطِبَةَ النِّساءِ عِنْدَ الاقْتِضاءِ .

قَوْمُوا بِتَرْبِيَةِ أولادِكُمْ في الأَرِيافِ بِكُلِّ ما في الرِّيفَةِ من خَشُونَةٍ ، فَهناكَ يَكْتَسِبُونَ صَوْتًا أَكْثَرَ رَنِينًا ، وَهناكَ لا يَنالُونَ ، مَطْلَقًا ، لَجَلَجَلَةَ أولادِ المَدَنِ المَبْهَمَةِ ، وَكَذلكَ لا يَنالُونَ تَعْبِيرَاتِ القَرِيَةِ ولا لَهجَتِها ، أو إِنْهم يَفْقِدُونِها بِسَهولَةٍ عِنْدَ ما يَمْتَنِعُها المَعْلَمُ ، الَّذِي يَعِيشُ مَعَهُمْ مِنْذُ ولادَتِهِمْ وَالَّذِي يَعِيشُ هَناكَ حَضْرًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، أو يَمُتَحُو بِتَقْوِيمِ لِسَانِهِ ، أَثَرُ لِسَانِ القَرَوِيِّينَ ، وَسَيَتَكَلَّمُ إِمِيلُ فَرَنسِيَّةً أَصْفَى مِنْ كُلِّ ما أَعْلَمُ ، وَلَكِنَّهُ سَيَتَكَلَّمُها بِأَجْلَى ما لَدَيَّ ، وَسَيَنْطِقُ بِها نُطْقًا أَحْسَنَ ما عِنْدِي .

ولا يَنْبَغِي لِلوَلَدِ الَّذِي يَحاولُ الكلامَ أَنْ يَسْمَعَ غَيْرَ الكَلِمَاتِ التي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْرِكَها ، ولا أَنْ يَقولَ غَيْرَ الكَلِمَاتِ التي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلْفِظَها ، وما يَبْذُلُ مِنْ جُهودٍ في هذا السَّبِيلِ يَحْمِلُهُ على تَكَرُّرِ عَيْنِ المَقْطَعِ كما لو كان
(٧)

يُمرّن نفسه على النطق به أطقاً أكثر جلاءً ، وهو إذا أخذ يتلخّج فلا تزجّجوا أنفسكم كثيراً في اكتشاف ما يقول ، ويُعدّ الزعم بأن يُسمّع دائماً ضرباً من السيطرة التي لا يجوز للولد أن يمارس شيئاً منها ، واقتصروا على تدارك ما هو ضروريٌ بدقّةٍ بالغة ، ودعوه يحاول جعلكم تُدركون الباقي ، وأقلّ من ذلك ضرورة الإسراع في مطالبته بأن يتكلّم ، فهو سيُعرف الكلام من تلقاء نفسه كلما شعر بفائدته .

وما يلاحظُ ، حقّاً ، كَوْنُ الذين يبدعون بالكلام متأخرين لا يتكلمون بوضوح كالآخرين ، ولكن تكلمهم متأخرين لا يعني بقاء صوته مرتبكاً ، وعلى العكس تجد أن ولادتهم بصوتٍ مرتبكٍ سبب تأخرهم في الكلام ، وإلا فلم يتكلمون متأخرين عن الآخرين ؟ أو كانت فرصة الكلام لديهم أقلّ مما عند غيرهم ، أم إنهم يُحرّضون عليه أقلّ مما يُحرّض عليه سواهم ؟ فالواقعُ خلافُ ذلك ، أي إن ما يوجب هذا التأخير من همٍّ فور الشعور به يؤدي إلى مضاعفة الجِدِّ في تحلّهم على اللجّلة أكثر من تحلّ مَنْ لفظوا باكراً ، ويُمكن هذا التهافت الخاطي أن يساعد على جعل كلامهم مختلطاً مع أن غيره أقلّ من تلك تجعل لديهم وقتاً يكون فيه كلامهم أكمل من ذلك .

وليس لدى الأولاد الذين يُحرّضون كثيراً على الكلام من الوقت ما يتعلمون فيه حُسْنَ النطق ولا حُسْنَ تصوّر ما يُحمّلون على قوله ، وذلك بدلاً من أن يُتركوأ وشأنهم فيُدربوا أنفسهم في البداة على أسهل المقاطع في النطق ، وهم إذ يُضيفون بالتدريج معنى يُدرك من حركاتهم فإنهم

يُعْطُونَ كَلَامَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّوْا كَلَامَكُمْ ، وهم بهذه الوسيلة لَا يَتَلَقَّوْنَ كَلَامَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمُوهَا ، وهم إِذْ لم يُحْثُوا عَلَى اسْتِعْمَالِهَا قَطُّ فَإِنَّهُمْ يُحْسِنُونَ مِلَاحَظَةَ الْمَعْنَى الَّتِي تُطْلِقُونَهَا عَلَيْهَا ، وهم إِذَا مَا اسْتَفَيْقَوْهَا اتَّحَلَوْهَا .

وَلَا يَقُومُ أَعْظَمُ سُوءٍ فِي اسْتِعْجَالِ الْأَوْلَادِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا قَبْلَ الْأَوَانِ عَلَى خُلُوءِ مَقَالِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَلَامِهِمُ الْأَوَّلِيَّ الَّتِي يَتَلَفَّظُونَ بِهَا مِنَ الْمَعْنَى لَدَيْهِمْ ، بَلْ عَلَى وَجُودِ مَعْنَى آخَرَ لَهَا عِنْدَهُمْ غَيْرِ الَّذِي يَكُونُ لَهَا عِنْدَنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ نُدْرِكَ ذَلِكَ ، فَهَمُ إِذْ يَبْدُونَ أَنَّهُمْ يَجِيبُونَنَا جَوَابًا بِالْبَلِّغِ الصَّحَةِ يُخَاطَبُونَنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْرِكُونَا وَمِنْ غَيْرِ أَنْ نُدْرِكَهُمْ ، وَهَذِهِ الْمُتَلَبِّسَاتُ ، عَادَةً ، هِيَ مَصْدَرُ الْحَبِيرةِ الَّتِي يُبَلِّغُنَا كَلَامَهُمْ فِيهَا أحيانًا ، وَذَلِكَ لِمَا نَعَزُّوْهُ إِلَيْهِ مِنْ أَفْكَارٍ لَمْ يَقْصِدُوهَا بِهِ قَطُّ ، وَيُظْهَرُ لِي أَنَّ عَدَمَ انْتِبَاهِنَا هَذَا إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْكَلِمَاتِ لَدَى الْأَوْلَادِ عِلَّةُ أَغْلِيظِهِمُ الْأَوَّلِيَّ ، وَتَوَثَّرَ هَذِهِ الْأَغْلِيظُ ، حَتَّى بَعْدَ أَنْ يُشَفَّوْا مِنْهَا ، فِي طَرَازِ تَفْكِيرِهِمْ فِي بَقِيَّةِ حَيَاتِهِمْ ، وَسَيَكُونُ لَدَى أَكْثَرُ مِنْ فُرْصَةٍ لِإِبْضَاحِ هَذَا بِالْأَمْثَلَةِ .

وَضَيِّقُوا ، إِذَنْ ، نِطاقَ مَجْمُوعَةِ كَلِمَاتِ الْوَلَدِ مَا أَمَكْنَ ، وَذَلِكَ لِلضَّرَرِ الْكَبِيرِ فِي حَيَاتِهِ كَلِمَاتٍ أَكْثَرَ مِنَ الْأَفْكَارِ وَلِمَعْرِفَتِهِ قَوْلَ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِمَّا يُفَكِّرُ فِيهِ مِنْهَا ، وَعِنْدِي أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ فِي كَوْنِ الْقَرَوِينِ أَثَقَبَ فِكْرًا مِنْ أَهْلِ الْمَدَنِ هُوَ أَنَّ مُعْجَمَهُمْ أَقْلُ اتِّسَاعًا ، أَجَلُ ، إِنَّهُمْ أَقْلُ أَفْكَارًا ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يُجِيدُونَ الْمَقَابَلَةَ بَيْنَهَا كَثِيرًا .

وَيَتِمُّ تَقْدِمُ الْوَلَدِ فِي شَتَّى الطَّرِيقِ دَفْعَةً وَاحِدَةً تَقْرِيبيًا ، وَيَتَعَلَّمُ الْوَلَدُ الْكَلَامَ وَالْأَكْلَ وَاللَّشَى فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَقْرِيبيًا ، وَهَذَا هُوَ دَوْرُ حَيَاتِهِ

الأول حقاً ، ولا يَكُونُ قبل ذلك أكثر مما كان عليه في بطن أمه لَمَّا
ليس لديه من شعورٍ وفكرٍ ، وهو لا يكاد يكون ذا إحساس ، حتى إنه
لا يَشْعُرُ بوجوده الخاصّ :
« فهو يعيش ، ولا يَشْعُرُ بحياته » — أوفيد .

الجزء الثاني

هنا دَوْرُ الحياة الثاني ، هنا الدور الذي تنتهي عنده الطفولة « enfance » ، وذلك لأن الكلمتين « infans » و « puer » ليستا مترادفتين ، فالأولى مُدْمَجَةٌ في الثانية ، وهي تعني « الذي لا يستطيع الكلام » ، ومن ثَمَّ يأتي وجود « puerum infantem » في فالير مَكْسِيم ، ولكنني أداوم على استعمال هذه الكلمة وَفْقَ اصطلاح لفتنا ، وذلك حتى العُمُر الذي يوجَدُ له أسماءٌ أخرى .

ومتى أخذ الأطفال يتكلمون قَلَّ بكأولهم ، وهذا التقدمُ طَبِيعِيٌّ ، وتقوم لغةٌ مقامَ لغةٍ ، وإذا ما استطاعوا أن يقولوا بالكلام إنهم يَأْمُونُ فَلِمَ يقولون الكلامَ مع صُرَاخٍ إذا لم يكن الألم من الشَّدة ما لا يَقْدِرُ الكلامُ معه أن يُعَبِّرَ عنه ؟ وإذا ما استمروا على البكاء هنالك كان هذا ذنبَ مَنْ يحيطون بهم ، وإذا قال إميلُ مرةً « أَتَوَجَّعُ » وجب وجودُ آلامٍ شديدة تَحْمِلُهُ على البكاء .

وإذا كان الولدُ سريعَ الانفعال سريعَ التأثر ، وإذا ما أخذ يَصْرُخُ عن طبيعةٍ وبلا سبب ، جَمَلَتْ هذه الصَّرَخَاتِ غيرَ مجديةٍ غيرَ ذاتِ فعلٍ مُسْتَنْزِفًا اليَنبُوعَ من فَوْرِي ، ولا أذهب إليه ما دام يَبْكِي ، وأُهرَعُ إليه حالا عند ما يَسْكُتُ ، ولا تَلَبِّثُ طريقةً دعوته إياي أن تَقُومَ على الصمت أو إلقاء صَرْخَةٍ واحدة على الأكثر ، ويُذَرِكُ الأولادُ معنى الإشارات بنتائجها الحسية ، ولا يُوجَدُ لدى الأولاد معنى آخر ، ومن النادر أن يَبْكِي

الولد إذا كان وحده مها بَلَغَ من إيلام نفسه ، وذلك ما لم يأْمُلْ سَماعه .
وهو إذا ما سَقَطَ ، وهو إذا ما وَرَمَ رأسه ، وهو إذا ما أذَمَى أنْفَه ،
وهو إذا ما قَطَعَ أصابعه ، بقيتُ ساكناً ، ولو لدَقِيَّةٍ واحدةٍ على الأقل ،
بدلاً من أن أسرع إليه مذعوراً ، فأما وقد وقع الأذى فإن الضرورة تَقْضِي
بأن يُعَامِنَهُ ، ولن يَنْفَعَ هَرَعِي لغير زيادة دُغْرِهِ وانفعاله ، وفي الأساس أن
الفَزَعُ يؤْلِمُ أَكْثَرَ من الضَّرْبِ عند الجَرْحِ ، وأَوْفَرُ له هذا المَذَابُ
المُبَرِّحُ على الأقل ، وما لا ريبَ فيه أنه يَحْكُمُ في ضرره كما يَرَى من
حُكْمِي فيه ، وذلك أنه إذا رَأَى أَهْرَعُ إِلَيْهِ جَزُوعًا فَلُسْلِيهِ وَأَتَوَجَّعَ له
أَيَقِنَ ضِيَاعَ نفسه ، وأنه إذا رَأَى محافظاً على اعتدال دمي استردَّ اعتدالَ
دمه من فَوْزِهِ واعتقد شفاؤه من الضرر عندما يُصْبِحُ غيرَ شاعرٍ به ، وفي
هذا الدَّوْرَ يَتَلَقَّى دروسَ الشجاعة الأولى ، فهو إذا ما احتمل الآلام
الخفيفةَ بلا وَجَلٍ تَعَلَّمَ احتمالَ عظيمها بالتدريج .

ولا أزعج نفسي بأن أُنْعِمَ إميلَ من إيذاء نفسه ، وما يَفِيطُنِي كثيراً
أَلَّا يُوْذِيَ نفسه مطلقاً ، وأن يَكْبُرَ من غير أن يَعْرِفَ الألمَ ، والألمُ أولُ
شيءٍ يجب أن يتعلمه ، وهو أعظمُ ما يحتاج إلى معرفته ، وَيَظْهَرُ أن الأولاد
ليسوا صِغاراً ضِعَافاً إِلَّا لتلقِيهِم هذه الدروسَ المهمة بلا خطر ، ولا يَكْبُرُ
الولدُ ساقَه بسقوطه ، ولا يَكْبُرُ ذراعَه بأن يَضْرِبُهَا بالمصا ، وإذا ما قَبَضَ
الولدُ على سِكِّينٍ لم يَكْبُرْ عليها ولم يُعْمِنِ في جَرْحِ نفسه ، ولا أَعْرِفُ
أنه رُبِّي وَلَدُهُ تَرْكُ وشأنه قَتْلُ نفسه أو عَطْلُهَا أو أصابها بأذى كبير ما لم
يكن قد عُرِضَ للخطر ، عن عدم فِطْنَةٍ ، في أَمَاكِنَ مرتفعةٍ ، أو حَوْلَ

النار وحده ، أو جُعِلَتْ أَسْلَحَةٌ خَطِرَةٌ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِهِ ، وما يقالُ عن تلك الأجهزة التي تُجَمَّعُ حَوْلَ الولد لتسليحه بجميع الأدوات ضِدَّ الأَلمِ ، حتى إذا ما كَبُرَ ظَلَّ تحت رحمة بلا شجاعة ولا تجربة ، وظَنَّ أَنَّهُ هالِك عند أول وَخْزَةٍ وَأُغْمِيَ عليه عند أول قَطْرَةٍ يشاهدها من دمه ؟

ويؤدى هَؤُسُنا القائمُ على التلقين والخذلقة إلى تعليم الأولاد دائماً ما يُمكن أن يتعلَّموه بأنفسهم أحسنَ من ذلك ، وإلى إغفال ما نستطيع أن نُعلِّمَهُمْ إِيَّاه وحدنا ، وهل يوجد ما هو أسخفُ من جُهْدٍ يُبْذَلُ في تعليمهم المشى كأنه رُئِيَ وَلَدٌ لم يقدر على المشى عند كِبَرِهِ عن إِهْمال مُرْضِعِهِ ؟ وعلى العكس ما أَكْثَرَ الذين رُئِيَ أَنَّهُمْ سَيَّئُوا المشى مَدَى حياتهم لسوء ما عَلَّمُوا من مَشْيٍ !

ولن يكون لإِمْبِلَ فُلَنْسِيَّةٌ واقيةٌ ولا درَاجَةٌ ولا عَرَبَةٌ ولا بَرِيمٌ إِسْنادٌ ، أو إنه إذا أَخَذَ يَعْرِفَ وَضَعَ قَدَمِ أَمَامَ الأُخْرَى ، على الأقل ، لم يُمَسِّكْ في غير الأماكن المرسوفة وَحِلَّ على مجاوزتها بسرعة^(١) ، ولْيُؤْتِ به في كلِّ يومٍ إلى مَرَجٍ بَدَلًا من أن يُحْفَظَ آسِنًا في غُرْفَةٍ خائفةٍ ، والخيرُ في عَذْوِهِ وَلَعِبِهِ وسقوطه كلِّ يومٍ مئةَ مرةٍ هنالك ، فهو لا يَلْبَثُ أن يتعلَّم النهوضَ من ذلك ، وتُصْلِحُ نَعْمَى الحارية كثيراً من القُرُوح ، وسيُصاب تلميذى برُضُوضٍ في الغالب ، وسيبقى مسروراً مُقابِلَةً ، وإذا كان تلاميذك أَقْلَ رَضًا بَدَّوْا خائِبِينَ مُقَيَّدِينَ حُزْنًا دائماً ، وأَشْكُ في كَوْنِ الغُفْمِ بجانبهم .

(١) لا شيء أَدْعَى إلى السخرية وسوء الفِئان من مشية أولئك الذين أَكْثَرَ من سوتهم بَرِيمِ إِسْناد

في صفرهم ، وهذه من الملاحظات التي عدت مبتذلة لصراها ، والتي هي صائبة من عدة وجوه .

وتَقْدُمُ آخِرُ يَمَحُلُ العَوِيلَ للأولادِ أَقْلَ ضرورةً ، وذلك هو
تَقْدُمُ قُوَّتِهِمْ ، فالأولادُ كلما زادوا قُوَّةً نَقَصَ التَّجَاوُحُ إلى الآخرين ، ومع
القُوَّةِ يَنمو إدراكُ الولدِ الذي يَصْغُرُهم في حالٍ يوجَّهونها به ، وبهذا الدور الثاني
تبدأ حياة الفرد ضَبْطًا ، وهناك يَشْعُرُ بنفسه ، وتُذَبِّبُ الذَّاكِرَةُ شعورَ الذاتِ
في جميع أوقات حياته ، وهو يُصْبِحُ واحدًا حقًا ، وهو يُصْبِحُ عَيْنَهُ ، أى
أهلاً للسعادة أو الشقاء نتيجةً ، ولذا يَحْسُنُ أن يُبْدَأَ بِمَدَّةٍ موجوداً أدبياً .
ومع أنه يُعَيَّنُ ، تقريباً ، أطولُ حَدِّ للحياة البشرية وما يكون من
الاحتمالات للدنو من هذا الحدِّ في كلِّ جيلٍ فإنه لا شيء يُشَكُّ فيه أكثرُ
من مَدَى حياة كلِّ إنسانٍ على انفراد ، والذين يَبْلُغُونَ ذلك الحدَّ الأطولَ
قليلٌ ، وأعظمُ أخطار الحياة في بَدْئِهَا ، وكما قُلَّ ما وَقَعَ من حياةٍ وَجَبَ
أن يكون الأملُ قليلاً فيما يَبْقَى منها ، ولا يكاد يَصِلُ نصفُ الأولادِ
الذين يُولَدُونَ إلى سِنِّ المراهقة ، ومن المحتمل ألا يَبْلُغَ تَلْمِذُكُمْ سِنَّ
الرجل .

وما يَجِبُ أن يُفَكَّرَ فيه ، إِذَنْ ، حَوْلَ تلك التربية القاسية التي
تُضَحَّى بالحاضر في سبيل مستقبلٍ غيرِ مُعَيَّنٍ والتي تُثْقِلُ الولدَ بقيودٍ من
كلِّ نوعٍ وتَبْدَأُ بِجَعْلِهِ شَقِيًّا حتى يُعَدَّ في المستقبل البعيد لسعادةٍ مرعومة
يُوجَدُ ما يَحْمِلُ على الاعتقاد بأنه لن يَتَمَتَّعَ بِهَا أبداً ؟ وإني ، حتى عند
افتراضى كونَ هذه التربية صائبةً ، كيف لا أنظر بعين الغيظ إلى هؤلاء
التعساء المساكين الخاضعين لنيرٍ لا يُطَاق والمَدِينِينَ بالأشغال الدائمة كالحكوم
عليهم بالإيمان ، مع أنه ليس من الثابت كونُ هذه العناية الكبيرة نافعةً

على الإطلاق ؟ وتمضي سنّ المسرّة بين الدموع والعقوبات والتهديدات والعبودية ،
ويُعَذِّبُ التّعسُّ نفعاً له ، ولا يُبْصِرُ الموتُ الذي يُدْعَى ، ومن ذا الذي
يُمْسِكُهُ بين هذا الجهاز الكئيب ، ومن يَعْرِفُ عددَ الأولاد الذين يَهْلِكُونَ
ضحيةً لحكمة الأب أو المعلم الطائشة ؟ والأولادُ ، إذ يكونون من الشُعْدَاءِ
يافلاتهم من جَوْرها ، يكون نفقهم الوحيد من الشرور التي تُصِيبُهُمْ بها
هو أن يَمُوتُوا من غير أن يأسفوا على حياةٍ لم يَعْرِفُوا منها سوى الآلام .

ويا أيها الرجال كونوا إنسانيين ، وهذا هو واجبكم الأول ، كونوا
إنسانيين في جميع الأحوال وفي جميع الأعمار وفي كلِّ ما ليس غريباً عن
الإنسان ، وأيةُ حكمةٍ تكون لديكم خارجَ الإنسانية ؟ أحيّوا الطفولة ، واسْمَحُوا
بألعابها ، وابتهجوا بمسرّاتها ، وافرّحوا بغريزتها المحبوبة ، ومن منكم لم
يأسفْ ، أحياناً ، على ذلك العُمر حيث يكون الضحك على الشَّفاء وتكون
النفس مطمئنة ؟ ولمَ تريدون أن تنزعوا من هؤلاء الأبرياء الصغار بهجةَ
زمنٍ بالغِ القصرِ يُفْلِتُ منهم وخيراً بالغِ القيمة لا يُمَكِّثُهُمْ إساءةُ استعماله ؟
ولمَ تريدون أن تملأوا بالكرب والآلام تلك السنين الأولى البالغة السرعة
والتي لا يُمكن أن تعود إليهم كما أنها لن ترجع إليكم ؟ أو تعرّفون
الساعة التي ينتظر الموتُ فيها أولادكم أيها الآباء ؟ لا تُعِدُّوا لأنفسكم حَسَرَاتٍ
بنزاعكم منهم ما أنعمت الطبيعةُ عليهم به من أوقَاتٍ ، واصنعوا ما يتمتعون
معه بلذة الحياة عندما يُمَكِّثُهُمْ أن يشعروا بها ، وافعلوا ما لا يَمُوتون معه
بلا تذوّق للحياة عندما يدعُوهم الرّبُّ إليه .

وما أكثر ما سيرتفع ضِدِّي من أصوات ! أسمع من بعيدٍ صيحاتٍ

تلك الحكمة الكاذبة التي تُلقينا خارج أنفسنا دائماً ، والتي لا تُعَدُّ الحاضر شيئاً مذكوراً دائماً ، والتي تَتَّبِع ، بلا توانٍ ، مستقبلاً كلما سَيرَ إلى الأمام ، وذلك نقلاً لنا من مكاننا إلى حيث لا نكون أبداً .

وسيكون جوابكم أن هذا دورُ إصلاح غرائز الإنسان السيئة ، وأن الآلام في الطفولة تكون أقلَّ ما يُمكن حسّاً فيجب أن تُزَاد اقتصاداً بها في سِنِّ الرشد ، ولكن مَنْ قال لكم إن جميع هذا النظام تحت تصرفكم وإن ضرَّ جميع هذه التعليمات التي تُثْقِلُون بها روحَ الولد الضعيفة لا يكون أكثرَ من نَفْعِها ذاتَ يومٍ ؟ وَمَنْ يُوَكِّدُ لكم أنكم تَقْتَصِدُون شيئاً بأحزانٍ تَفْعُرُونه بها ؟ وَلِمَ تَتَّبِعُون عليه بشُروءٍ أكثرَ مما تَحْتَمِلُ حالُه من غير أن تَعْلَمُوا أن هذه الشرور الحاضرة لا تَقِيهِ شرورَ المستقبل ؟ وكيف تُثَبِّتُون لى أن هذه الليول السيئة التي تَزْعُمُونَ شفاءً منها لا تأتيه من عنايتكم السخيفة أكثرَ من صدورها عن الطبيعة ؟ وبإله من احترازٍ مشؤوم ذاك الذي يَجْعَلُ الإنسانَ نَعْساً في الحاضر رجاءَ جَعْلِهِ سعيداً ذاتَ يومٍ سواء أقام هذا الرجاء على أساسٍ صالح أم على أساس طالح ! إذا كان هؤلاء للمفكرون الخطئون يَخْطِطُونَ بين التحلل والحرية ، وبين الولد الذي يُجْعَلُ سعيداً والوالد الذي يُدَلَّلُ ، فلنُعَلِّمَهُم أن يُفَرِّقُوا بين الأمرين .

ولا نَنسَ ما يَلاُئِمُ حالنا لكيلا نَسِيرَ وراء الأوهام ، وللإنسانية مكانها في نظام الأمور ، وللطفولة مكانها في نظام الحياة الإنسانية ، فيجب أن يُنظَرَ إلى الإنسان في الإنسان ، وأن يُنظَرَ إلى الطفل في الطفل ، فَوَضِعْ كُلَّ واحدٍ في محلِّه ، وثبِّتْهُ فيه ، وتنظِّمِ الأهواء البشرية وَفْقَ كيان الإنسان ،

هو كلُّ ما نستطيع فعله لسعادته ، وأما البقية فتتوقف على أسباب خارجة عن نطاق قدرتنا .

ولا نعرف ما السعادة المطلقة ولا الشقاء المطلق ، وكلُّ شيء مختلط في هذه الحياة ، ولا يُذاق فيها حسٌّ خالصٌ ، ولا يُنبَق فيها على حالٍ واحدةٍ في وقتين ، وترى عواطفَ نفوسنا وتحولاتِ أبداننا دأمة القلب ، ويكون الخيرُ والشرُّ مشتركين بيننا ، ولكن على مقاديرَ مختلفةٍ ، وأسعدُ الناس من يكون أقلَّ توجُّعًا بالآلام ، وأشقى الناس من يكون أقلَّ شعورًا بالملاذِّ ، ويقوم النصيبُ المشتركُ بين الجميع على وجود آلامٍ أكثرَ من الملاذِّ دائماً ، ولا تكون سعادةُ الإنسان في هذه الدنيا ، إذن ، غيرَ حالٍ سليمة ، فيجب أن تُقاسَ بالمقدار الأقلَّ للشرور التي يقاسيها .

وكلُّ شعورٍ بالآلم لا يُمكن فصلُه عن الرغبة في الخلاص منه ، وكلُّ رغبةٍ تفترض حِرْماناً ، وكلُّ حِرْمانٍ يُشعر به أليمٌ ، ولذا يقوم بؤسنا على تفاوتِ رَغباتنا وطاقتنا ، ويمدُّ كلُّ ذى إحساسٍ تنساوى رَغباته وطاقاته سعيداً على الإطلاق .

وعلى أىَّ شيءٍ تقوم ، إذن ، حكمةُ الإنسان وسبيلُ السعادة الحقيقية ؟ لا تقوم على تقليلِ رَغباتنا ضَبْطاً ، وذلك لأنها إذا كانت دون قدرتنا ظلَّ قسمٌ من طاقتنا مُعطَلاً ولم تتمتعَ بجميع وجودنا ، وكذلك لا تقوم على توسيعِ مدى طاقتنا ، وذلك لأن رَغباتنا إذا ما اتسع مداها على أعظم نسبة أصبحنا على أعظم بؤس ، وإنما تقوم على تقليلِ الفرق بين الرَغبات والطاقات ، وعلى جعلِ القوة والإرادة متساويتين ، وهنالك فقط ، حين

تكون جميعُ قواه عاملةً ، تبقى النفس مطمئنةً ويَجِدُ الإنسان نفسه على حالها الحسن .

وهكذا فإن الطبيعة ، التي جعلت كلَّ شيء على أحسن ما يكون ، قد أنشأته أولاً ، وهي لم تُنعم عليه حالاً بغير الرغائب الضرورية لبقائه ، وبغير الطاقات الكافية لقضائها ، وأما جميعُ الأخرى فقد وضعها في أساس نفسه احتياطاً حتى يَنموَ بها عند الحاجة ، وليس في غير هذه الحال الابتدائية ما يلتقى توازنُ القدرة والرغبة ، وما لا يكون الإنسانُ شقيّاً ، وحينما تخرج طاقاته من حَيَازِ القدرة إلى حَيَازِ الفعل فإن الخيال الذي هو أكثرُها عملاً ينتبه ويتقدّمها ، والخيالُ هو الذي يوسّعُ فينا نطاقَ الممكنات في الخير أو في الشرِّ ، وهو الذي يُحرِّك الرغائبَ ويُفدّيها من حيث النتيجةُ رجاءَ قضائها ، غير أن الغرض الذي يُلوحُّ في البُداءة تحت اليد يَفِرُّ بأسرع مما يُمكن تعقبه ، وهو إذا ما ظُنَّ بلوغه تحوّل وظهر بعيداً أمامنا ، ونحن نعوُدُ غير مُدركين للبلد الذي طُفنا فيه فلا نَمْتدُّ به ، ويعظم ما يبقى أمامنا لنَجوَبه ويتّسع بلا انقطاع ، وهكذا يَضنّي الإنسان من غير أن يَصِلَ إلى الحدِّ ، وكلما دَنَوْنَا من اللذة ابتعدت السعادة عنا .

والإنسانُ ، على العكس ، كلما بَقِيَ قريباً من حاله الطبيعية كان الفرق بين طاقاته ورغباته قليلاً ، وقلَّ ابتعاده عن السعادة نتيجةً ، وهو لا يكون أقلَّ شقاءً ، مطلقاً ، إلّا إذا ظهر خالياً من كلِّ شيء ، وذلك لأن الشقاء لا يقوم على الحرمان من الأشياء ، بل في الاحتياجات التي تُشعرُ بها .
وللعالم الحقيقيّ حدوده ، ولا حدودَ للعالم الخياليّ ، وإذا كنا لا نستطيع

توسيع إحداها فإن علينا أن نُضَيِّقَ الأخرى ، وذلك لأنه ينشأ عن الفرق بينهما وحده جميع الآلام التي نجعلنا نَعْسَاءَ حَقًّا ، وإذا عَدَوْتَ القوة والصحة وحُسْنِ الحِسِّ وجدتَ جميع محاسن الحياة مشكلةً رأي ، وإذا عَدَوْتَ آلامَ الجسم ووَخَزَ الضمير وجدتَ جميع أوجاعنا خياليةً ، وسيقال لى إن هذا المبدأ عامٌّ ، وأوافق على هذا ، غير أن تطبيقه العمليَّ غيرُ عامٍّ ، والعملُ وحده هو ما نبالى به هنا .

وإذا ما قيل إن الإنسان ضعيفٌ فما يُقصدُ بهذا ؟ تدلُّ كلمةُ الضعيف هذه على نسبةٍ ، تدلُّ على نسبة الموجود الذى تُطَبَّقُ عليه ، ويُمدُّ موجوداً قوياً مَنْ تَزِيدُ قوته على احتياجاته ولو كان حشرةً أو دودةً ، ويُمدُّ موجوداً ضعيفاً مَنْ تَزِيدُ احتياجاته على قوته ولو كان فيلاً أو أسداً أو فاتحاً أو بطلاً أو إلهاً ، وكان المَلَكُ العاصى الذى أنكر طبيعته أضعفَ من الفانى السعيد الذى يمشى مطمئناً وَفَقَ طبيعته ، ويكون الإنسان قوياً جداً إذا مارَصِيَّ بما هو عليه ، ويكون ضعيفاً جداً إذا ما أراد أن يَعْلُوَ الإنسانيةَ ، ولذا لا تَظَنُّوا أنكم تزيدون قُوَّتَكُمْ بزيادة طاقاتكم ، وعلى العكس تُقَلِّلُونَهَا إذا ما زاد زهوكم ، وَلَنَقِسْ قُطْرَ دائرتنا ، وَلَنَبْقَ فى المركز كالحشرة فى وسط نسيجها ، وسنكون من الكفاية ما تقضى معه حاجتنا ، ولا يكون لدينا من الأسباب ما تتوجَّع معه من ضعفنا ، وذلك لأننا لن نَشْعُرَ به مطلقاً .

ويُوجدُ لدى جميع الحيوانات من الطاقات ما هو ضرورىُّ لبقائها ضبطاً ، والإنسانُ وحده هو الذى لديه زوائدُ منها ، أليس من الغريب أن يكون هذا الزائدُ سببَ شقائه ؟ ذراعُ الإنسان فى كلِّ بليٍّ أئمنُ من ذاته ، ولو

كان الإنسان من الحكمة ما لا يأبه معه لهذا الزائد لحاز الضروري دائماً لِمَا لا يكون عنده ما هو أكثر ، وكان فافورِنُ يقول إن الاحتياجاتِ العظيمة تنشأ عن الأموال العظيمة ، وإن أقومَ وسيلةً لَنَيْلِ الإنسان ما يريد في الغالب هو أن يتَخَلَّى عما يكون لديه ، ونُحوَلُ سعادتنا إلى شقاء بعمِلنا في سبيل زيادة هذه السعادة ، وكلُّ إنسانٍ لا يريد غيرَ الحياةِ بحيا سعيداً ، ويكون صالحاً نتيجةً ، وذلك : أين يكون نفعه في كونه طالحاً ؟

ولو كنا خالدين لَبَدَوْنَا بأنسين جداً ، أَجَلٌ ، إن من الشاقِّ على الإنسان أن يموت لا رَيْبَ ، ولكن من القَذْبِ أَلَّا يَرْجُوَ الحياةَ دائماً ، وأن تَحْتَمِ حياةٌ أَصْلَحُ من التي عليها آلامَ هذه الحياة ، ولو غُرِضَ علينا الخلودُ في هذه الدنيا فمن منا يَرْضَى ^(١) بهذا الحاضر الكئيب ؟ وأى سبيل وأملٍ وسُلْوانٍ يَبْقَى لنا ضِدَّ شِدَائِدِ النصيبِ ومظالمِ الناس ؟ إن الجاهل الذي لا يُبْصِرُ شيئاً يَشْعُرُ قليلاً بَشَمِ الحياة ولا يخاف أن يَفْقِدَها ، وينظر المُنَوَّرُ إلى الأمور بتقدير كبير ، مُفَضِّلاً لها على ذلك ، ولا يوجد غيرُ نصف المعرفة والحكمة الزائفة ما يُورِثُنا أسوأ الشرور عن مَدِّ أَبْصَارنا حتى الموت ، لا إلى ما وراءه ، وليست ضرورة الموت لدى الحكيم غيرَ سببٍ لاحتِمالِ آلام الحياة ، ولو لم يَعْلَمْ أنه سَيَفْقِدُها ذاتَ حينٍ لكانَ حفظها ثَقِيلاً كثيراً عليه .

وتنشأ أمراضنا الأدبية عن المَبْتَسِرَاتِ عدا الإِجْرامِ الذي يتوقف علينا ، وأما أمراضنا البدنية فَتَتَهَادَمُ أو تَقْضَى علينا ، ويُعَدُّ الوقتُ أو الموت دواءً

(١) ليذكر أننى أتكلّم هنا عن الذين يدركون ، لا عن جميع الناس .

لنا ، ولكنَّ أَلْمَنَا يَكْثُرُ بنسبة ما نَعْرِفُ من قلة احتماله ، ونحن نكابد من العذاب في سبيل الشفاء من أمراضنا ما هو أكثر من احتمالنا لها ، وعِشْ كما تقتضيه الطبيعة ، وكن صابراً ، واطرُدِ الأطباء ، أَجَلْ ، إنك لا تجتنب الموت ، بَيِّدْ أنك لن تُحِسَّه غيرَ مرةٍ واحدة ، وذلك على حين يَحْمِلُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ إلى خيالك المرتبك ، وذلك على حين تَرَى مِهْنَتَهُم الكاذبة تَنْزِعُ مِنْكَ تَمَتُّعَكَ بِأَيامك بدلاً من إطالتها ، وسأُسال دائماً عن الخبير الحقيقي الذي ناله الناس من هذه الصنعة ، أَجَلْ ، إن بعض من تَشْفِيهِم كانوا يموتون ، ولكن الملايين ممن تقتلهم كانوا يَبْقَوْنَ أحياء ، فيأبى الإنسان كُنْ عاقلاً ولا تشترك في هذا الاقتراع حيث يوجد كثير من الحُظُوظِ ضِدَّكَ ، وَأَلَمْ مَيِّتاً أو سليماً ، ولكن عِشْ حتى سَاعَتِكَ الأخيرة على الخصوص .

وليس كلُّ شَيْءٍ غيرَ حَاقِقٍ وَمُنَاقِضَةٍ في النُّظْمِ البشرية ، وَيَكْثُرُ اكترائنا للحياة كلما خَسِرْتَ شيئاً من قيمتها ، ويأسف الشَّيْبُ عليها أكثر من الشبان ، فهم لا يريدون أن يَفْقِدُوا التوايل التي أَعَدَّوها للتمتع بها ، ومن القسوة بمكان أن يَمُوتَ الإنسان في الستين من سِنِيهِ قبل أن يبدأ الحياة ، وَيُتَمَقَّدُ أن الإنسان وَلَوْ ببقائه ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يُرَى أن هذا الوَلَعُ ، كما تَشْعُرُ به ، جزءٌ عظيمٌ من عَمَلِ الناس ، ولا يبالى الإنسان ببقائه عن طبيعةٍ إِلَّا إذا كانت وسائله ضِمنَ قدرته ، فتى أفلتت منه هذه الوسائلُ خِلالَ بَالِهِ ومات من غير أن يضيق صدره على غير جَدْوَى ، ومن الطبيعة يَأْتِينَا أَوَّلُ دُسْتُورٍ للتسليم ، والوحوشُ ، كالبهائم ، يكافحون

الموتَ قليلاً ، وهم يَضْرِبُونَ عليه من غير تَذَكُّرٍ تقريباً ، ويُقْضَى على هذا الدُّسْتور ، وينشأ عن العقل دُسْتورٌ آخر ، وَقَلٌّ من يَعْرِفُونَ هذا ، وليس هذا التسليم المصنوع من الكمال كالأول مطلقاً .

الْحَذَرُ ! الحذرُ الذي يَحْمِلُنَا بلا انقطاع إلى ما وراء أنفسنا والذي يَضَعُنَا ، في الغالب ، حيثُ لا نَصِلُ مطلقاً ، وهذا هو منبعُ جميع أَوْسُنَا الحَقِيقِ ، ياله من هَوَسٍ يساور موجوداً زائلاً كالإنسان يَنْظُرُ دائماً بعيداً إلى مستقبلٍ يَنْدُرُ بحجته كثيراً مُهْمِلاً حاضراً لا يَشْكُ فيه ! يالذاك الهَوَسُ الذي يَزِيدُ شَوْماً مع العُمُر بلا انقطاع ، فَيَفْضِلُ الشَّيْبُ الحاذرون التَّبَصُّرون البخله دائماً أن يُحَرِّمُوا الضروريَّ اليوم على أن يُعَوِّزَهُم الزائد في المئة من سِنِّيهِمْ ! وهكذا فَإِنَّا نَتَعَلَّقُ بكلِّ شيء ، نَنْشَبُ في كلِّ شيء ، فَيَشْغَلُ كلُّ واحدٍ منا بالآزمنة والأمكنة والناس والأشياء وبكلِّ ما هو كائنٌ وَيَكُونُ ، وَيَعُودُ شَخْصُنَا لا يكون غيرَ أَقَلِّ جزءٍ من ذاتنا ، أَى إن كلَّ واحدٍ منا يَنْتَبِسطُ على الأرضِ بِأَسْرِهَا وَيُصْبِحُ متأثراً بِجَمِيعِ ما هو واقع على هذا السطح الواسع ، وهل من العجيب أن تزيد مصائبنا في جميع النِّقَاطِ حيثُ يُمَكِّنُ جَرَحُنَا ؟ وما أَكْثَرَ الأُمراء الذين يَحْزَنُونَ كثيراً على ضَيَاعِ بَلَدٍ لم يَرَوْهُ قَطُّ ، وما أَكْثَرَ التجارَ الذين يكفي أن يصابوا في الهند لِيُحْمَلُوا على الصُّرَاخِ بباريس !

وهل الطبيعةُ هي التي تَحْمِلُ الناسَ إلى ما هو أبعدُ من أنفسهم على ذلك الوجه ؟ وهل الطبيعةُ هي التي تريد أن يَعْلَمَ كلُّ واحدٍ مصيره من الآخرين ، وأن يكون آخرَ من يَعْلَمُهُ ، وأن يَمُوتَ سعيداً أو شقيماً من غير

أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ مُطْلَقًا ؟ أَرَى رَجُلًا نَاضِرًا مَسْرُورًا قَوِيًّا حَسَنَ
الصِّحَّةِ ، وَيُوجِى حُضُورَهُ بِالْفَرَحِ ، وَتَذُلُّ عَيْنَاهُ عَلَى الْقَنَاعَةِ وَالْهَنَاءِ ، وَيَحْمِلُ
مَعَهُ صُورَةَ السَّعَادَةِ ، وَيَأْتِيهِ كِتَابٌ مَعَ الْبَرِيدِ ، وَيَنْظُرُ الرَّجُلُ السَّعِيدُ إِلَيْهِ ،
وَيَجِدُهُ مُوجَّهًا إِلَيْهِ ، وَيَفْتَحُهُ ، وَيَقْرُوهُ ، وَتَتَغَيَّرُ مَلَامِحُهُ حَالًا ، وَيُتَمَتِّعُ ،
وَيَسْقُطُ خَائِرًا ، وَيُفِيقُ ، وَيَبْكِي ، وَيَنُوحُ ، وَيَبْنُ ، وَيَنْتَفِ شَعْرَهُ ،
وَيَمْلَأُ الْجَوْ صُرَاخًا ، فَيُلَوِّحُ أَنَّهُ أُصِيبَ بِتَشَنُّجَاتٍ هَائِلَةٍ ، إِذَنْ ، مَا دَهَاكَ
بِهَذِهِ الْوَرَقَةِ أَيُّهَا الْأَحَقُّ ؟ أَيُّ عَضْوٍ بُتِرَ مِنْكَ ؟ أَيُّ جُنَايَةٍ كُحِلَتْ عَلَيْهَا ؟
ثُمَّ مَاذَا تَغَيَّرَ فِيكَ حَتَّى غَدَوْتَ فِي الْحَالِ الَّتِي أَرَاكَ عَلَيْهَا ؟

لَوْ ضَاعَ الْكِتَابُ ، أَوَّلَقْتَهُ فِي النَّارِ يَدًا مُحْسِنَةً ، لَكَانَ نَصِيبُ هَذَا
الْقَائِي ، السَّعِيدِ وَالشَّقِيقِ مَعًا ، مَعْضِلَةً عَجِيبَةً كَمَا يُلَوِّحُ لِي ، سَتَقُولُونَ إِنْ
شَقَاءَهُ حَقِيقٌ ، حَسَنًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يَشْعُرُ بِهِ ، وَأَيْنَ كَانَ إِذَنْ ؟ كَانَتْ
سَعَادَتُهُ خَيَالِيَّةً ، وَأَسْلَمَ بِذَلِكَ ، وَعَادَتْ صِحَّتُهُ وَبَهْجَتُهُ وَهَنَاءَتُهُ وَقَنَاعَتُهُ النَّفْسِيَّةُ
لَا تَكُونُ غَيْرَ أَحْلَامٍ ، وَعَدْنَا لَا نَكُونُ فِي مَكَانِنَا ، وَعُدْنَا نَكُونُ فِي غَيْرِ
مَكَانِنَا ، وَمَا فَائِدَةُ الْخَوْفِ مِنَ الْمَوْتِ مَا دَامَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْعَلُ الْحَيَاةَ ثَمِينَةً
مُسْتَقَرًّا بِنَا ؟

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ! شَدَّ حَيَاتَكَ فِي بَاطْنِكَ تَعْدُ غَيْرَ تَعْسٍ ، وَابْقَ فِي الْمَكَانِ
الَّذِي عَيَّنَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَكَ فِي سُلْسَلَةِ الْمَوْجُودَاتِ لَا يَقْدِرُ شَيْءٌ عَلَى إِخْرَاجِكَ
مِنْهُ ، وَلَا تَقَاوِمُ سُنَّةَ الضَّرُورَةِ ، وَلَا تَسْتَنْفِدْ ، رَاغِبًا فِي هَذِهِ الْمَقَاوِمَةِ ، مِنْ
الْقُوَى الَّتِي لَمْ تُعْطِكَ الطَّبِيعَةُ إِيَّاهَا مُطْلَقًا تَمْدِيدًا لِحَيَاتِكَ أَوْ إِطَالَةً لَهَا ، وَلَكِنْ
فِي سَبِيلِ بَقَائِهَا كَمَا يَرُوقُ الطَّبِيعَةُ وَبِقَدَرِ مَا يَرُوقُهَا ، وَلَا تَمْتَدُّ حَرِيَّتُكَ

وقدرتُك إِلَّا ضِمْنَ طاقاتك الطبيعية ، لا إلى ما وراء ذلك ، وليس جميعُ ما يَبْقَى غيرَ عبوديةٍ ووهْمٍ وخِداعٍ ، حتى إن السيطرة رِقٌّ إذا ما استندت إلى الرأى العامِّ ، وذلك لتوقفك على مُبتَسراتٍ من تسيطر عليهم بالمُبتَسرات ، ويجب لقيادتهم كما يَرُوقُك أن تَقوَدَ نفسك كما يَرُوقهم ، وليس عليهم إِلَّا أن يُغَيِّرُوا طِرازَ تفكيرهم حتى تُحمَلَ على تغيير طراز سَيْرِكَ قسراً ، وليس على من يَدُنُونُ منك إِلَّا أن يَعْرِفُوا السيطرة على آراء الشعب الذى تعتقد أنك تسيطر عليه ، أو آراء نَدَمائِكَ الذين يسيطرون عليك ، أو آراء أُمَرتِكَ أو أَسَرِّهم ، حتى يَبْلُغُوا ذلك ، وَيُسَيِّرَكَ هؤلاء الوزراء والندماء والكهان والجنود والخدم والمُجَبَّان ، حتى العُلَمَان ، ولو كان عندك مِثْلُ عبقرية تِمِسْتُوكل^(١) ، وذلك كولدٍ بين أجواقك ، ومهما تأت من عَمَلٍ فَإِنَّ سلطانك الحقيقى لا يمتدُّ إلى ما هو أبعد من طاقاتك الحقيقية ، ومتى وَجَبَ أن ترى بعيون غيرك وَجَبَ أن تريد بعزائمهم ، وتقولُ مُبَاهِياً : إن شعوبى رعاياى ، وَلَيْكُنْ ذلك ، ولكن مَنْ أنت ؟ إنك تابعٌ لوزرائك ، وَمَنْ هم وزراءُك من ناحيتهم ؟ إنهم تابعون لكَتَبَتِهِمْ وخليلاتهم وخدمةُ خُدَّامِهِمْ ، وَخُذُوا كُلَّ شَيْءٍ ، واغتصبوا كُلَّ شَيْءٍ ، ثم ابدُّوا المالَ ذات اليمين وذات الشمال ، وأقيموا المِذْفعيات ، وانصِبُوا المشانقَ والدواليب ، وضعُوا القوانين

(١) كان تِمِسْتُوكل يقول لأصدقائه : « إن هذا الغلام الصغير الذى ترون هو حكم بلاد اليونان ، وذلك لأنه يسيطر على أمه ، ولأن أمه تسيطر على ، ولأننى أسيطر على أهل أثينة ، ولأن الأثينيين يسيطرون على الأغارقة » ، وى ! ما أكثر صفار القادة الذين يوجدون فى الإمبراطوريات العظيمة غالباً ! وذلك إذا ما نزل من الأمير حتى اليد الأولى التى تدير الأمور خفية .

والمراسيم ، وضاعفوا العيون والجنود والجلادين والسجون والقيود ، فما نفعكم
بجميع هذا ؟ لن تكونوا بهذا أحسن خدمة وأقل استرقاقاً وانخداعاً وأكثر
استبداداً ، وستقبلون دائماً : سنريد ، وستفعلون دائماً ما يريد الآخرون .

والوحيد الذى يُعْمَلُ لإرادته هو الذى لا يحتاج ، لإعمالها ، إلى وَضْعِ ذراعَيْ غيره
فى طرف ذراعيه ، ومن ثَمَّ يَرَى أن الحرية ، لا السلطان ، هى الخير الأول ، ولا
يريد الرجلُ الحرُّ حقاً غير ما يستطيع ، وهو يَضَعُ ما يَرُوقه ، وهذا هو مَبْدئُ
الأساسى ، ولِيُطَبَّقَ على الطفولة لِيَرَى أن جميع قواعد التربية تَصْدُرُ عنه .

والمجتمعُ جَعَلَ الإنسانَ أَكْثَرَ ضعفاً ، لا لِنَزْعِهِ منه ماله من حَقِّ
على قواه الخاصة ، بل لجعلها غير كافيةٍ له على الخصوص ، وهذا هو السببُ
فى كون رغائبه تَزِيدُ مع ضعفه ، وهذا هو الذى يُوْجِدُ ضعفَ الطفولة قياساً
بِسِنِّ الرجل ، وإذا كان الرجلُ موجوداً قوياً ، وإذا كان الولدُ موجوداً
ضعيفاً ، فليس ذلك لأن الأول ذو قوة أَكْثَرَ إطلاقاً من الثانى ، بل لأن
الأول يستطيع أن يَكْفِيَ نفسه طبيعةً ، ولأن الآخر لا يستطيع هذا ، ولذا
وَجَبَ أن يكون الرجل أَكْثَرَ عزائمه وأن يكون الولدُ أَكْثَرَ أهواءه ،
وبهذه الكلمة أَقْصِدُ جميعَ الرغائب التى ليست احتياجاتٍ حقيقيةً ، والتى
لا يُمكنُ قضاؤها إلا بمساعدة الآخرين .

وقد ذكرتُ سببَ حال الضعف هذا ، وتتلافاه الطبيعة بتَعَلُّقِ الآباءِ
والأمهات ، ولكن قد يكون لهذا التعلق شَطَطُهُ وعِيُهُ ومساوئه ، وَيَنْقُلُ
الآباءُ الذين يعيشون فى الحال المدنية ولَدَهُمُ إليها قبل الأوان ، وهم حين يُنْعَمُونَ
عليه باحتياجاتٍ أَكْثَرَ مما لديه لا يُخَفِّقُونَ ضعفه ، بل يزيّدونه ، وهم يزيّدونه ،

أيضاً ، بمطالبتة بما لا تطالبه الطبيعة به ، وذلك بإخضاعهم لمزامتهم ما عنده من قوَى قليلةٍ خادمةٍ لمزامته ، وذلك بتحويلهم إلى عبوديةٍ ما بين الطرفين من تابعةٍ متقابلةٍ حيث يُمَسِّكه ضعفه وحيثُ يُمَسِّكهما تعلقهما .

ويعرِفُ الرجلُ العاقلُ أن يَبْقَى في مكانه ، ولكن الولد الذي لا يعرف مكانه لا يستطيع أن يحافظ عليه ، ولديه ألفُ مَنَفَذٍ للخروج منه ، ويجب على من لم سيطرةً عليه أن يُمَسِّكوه فيه ، وليس هذا عملاً سهلاً ، ويجب ألا يكون حيواناً أو إنساناً ، بل ولداً ، ويجب أن يَشْعُرَ بضعفه ، لا أن يُعَانِيَه ، ويجب أن يكون تابعاً ، لا طائماً ، ويجب أن يَطْلُبَ ، لا أن يأمر ، وهو لا يَخْضَعُ للآخرين إلا بسبب احتياجاته ، ولأنهم أحسنُ منه اطلاعاً على ما هو نافعٌ له وعلى ما يُمكن أن يساعد على بقائه أو يضرُّ ، ولا يَحِقُّ لأحدٍ ، حتى للأب ، أن يأمر الولدَ بصنع ما لا يَنْفَعُهُ مطلقاً .

وكانت سعادةُ الأولاد والرجال تقوم على تمتعهم بحريتهم ، وذلك قبل أن تُفْسِدَ مُبْتَسِرَاتُ الإنسان ونُظْمُهُ غرائزنا الطبيعية ، غير أن الحرية في الأولاد حُدِّدَتْ بضعفهم ، ويُعَدُّ سعيداً كلُّ مَنْ يَصْنَعُ ما يشاء إذا كَفَى نفسه بنفسه ، وهذا هو وَضْعُ الرجل الذي يعيش في الحال الطبيعية ، ولا يُعَدُّ سعيداً كلُّ مَنْ يَصْنَعُ ما يشاء إذا ما زادت احتياجاته على طاقته ، وهذا هو وَضْعُ الولد الذي يعيش في ذات الحال ، حتى إن الأولاد لا يتمتعون في الحال الطبيعية إلا بحريةٍ ناقصةٍ مشابهة للحرية التي يتمتع بها الرجال في الحال المدنية ، وبما أن كلَّ واحدٍ منا يَعُودُ غيرَ قادرٍ على الاستغناء عن الآخرين فإنه يصبح ضعيفاً بأنساً من هذه الناحية ، وقد خَلَقْنَا لنكون رجالاً

فَفَمَسْتَنَا الْقَوَانِينُ وَالْمَجْتَمَعَاتُ فِي الطُّفُولَةِ ثَانِيَةً ، وَبَعْدُ الْأَغْنِيَاءُ وَالْعِظَاءُ وَالْمُلُوكُ كُلُّهُمْ أَوْلَادًا أَبْصَرُوا أَنَّنَا نَبَادِرُ إِلَى تَخْفِيفِ بُؤْسِهِمْ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْ هَذَا غُرُورًا صَبِيانِيًّا ، وَقَدْ كَانُوا يَبْدُونُ فُخْرًا مِنْ عُنَايَةٍ لَا تُبْدَلُ لَهُمْ لَوْ كَانُوا رِجَالًا نَاضِجِينَ .

وهذه اعتباراتٌ مهمة ، وهى تَصْلُحُ لِحُلِّ جَمِيعِ التَّنَاقُضَاتِ فِي النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَيُوجَدُ لِلْعِلَاقَاتِ نَوْعَانِ ، عِلَاقَةُ الْأَشْيَاءِ الَّتِى هِىَ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَعِلَاقَةُ النَّاسِ الَّتِى هِىَ مِنَ الْمَجْتَمَعِ ، وَبِمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ لِعِلَاقَةِ الْأَشْيَاءِ أَيْةٌ خُلُقِيَّةٌ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ الْحُرِّيَّةَ مُطْلَقًا ، وَهِيَ لَا تُوْجِدُ عِيُوبًا مُطْلَقًا ، وَبِمَا أَنَّ عِلَاقَةَ النَّاسِ مُخْتَلِطَةٌ ^(١) فَإِنَّهَا تُوجِدُهَا جَمِيعًا ، وَهِيَ تُفْسِدُ السَّيِّدَ وَالْعَبْدَ مُقَابَلَةً ، وَإِذَا كَانَ يُوْجَدُ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يُدَاوِى بِهِ هَذَا الشَّرُّ فِي الْمَجْتَمَعِ قَامَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِبْدَالِ الْقَانُونِ بِالْإِنْسَانِ وَعَلَى تَجْهِيْزِ الْعَزَائِمِ الْعَامَّةِ بِقُوَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ تَعْلُو عَمَلَ كُلِّ إِرَادَةٍ خَاصَّةٍ ، وَلَوْ أُمَكَّنَ قَوَانِينُ الْأُمَمِ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَا لِقَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ مِنْ صِلَابَةٍ لَا تَسْتَطِيعُ أَيْةٌ قُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ أَنْ تَقْهَرَهَا لِصَارَتْ عِلَاقَةُ النَّاسِ عِلَاقَةُ الْأَشْيَاءِ ، وَجُمِعَ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ جَمِيعُ مَنَافِعِ الْحَالِ الطَّبِيعِيِّ وَالْحَالِ الْمَدْنِيِّ ، وَأُضِيفَتْ إِلَى الْحُرِّيَّةِ الَّتِى تَحْفَظُ الْإِنْسَانَ خَالِيًا مِنَ الْعِيُوبِ خُلُقِيَّةٌ تَرْفَعُهُ إِلَى الْفَضِيلَةِ .

وَاحْتَفِظُوا بِالْوَلَدِ تَابِعًا لِلْأَشْيَاءِ تَكُونُوا قَدْ اتَّبَعْتُمْ نِظَامَ الطَّبِيعَةِ فِي تَقَدُّمِ تَرْبِيَّتِهِ ، وَلَا تَعْتَرِضُوا عَزَائِمَهُ غَيْرَ الصَّائِبَةِ بِغَيْرِ الْمَوَانِعِ الْمَادِيَةِ أَوْ الْعُقُوبَاتِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ نَفْسِهَا ، وَالَّتِى يَذْكُرُهَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، وَذَلِكَ مَعَ الْاِكْتِفَاءِ بِمَنْعِهِ مِنْ صُنْعِ الْخَطَا ، وَمَعَ عَدَمِ تَحْرِيمِ الْخَطَا عَلَيْهِ ، وَالتَّجَرُّبَةِ ، أَوْ

(١) أَثْبَتَ فِي كِتَابِي « مَبَادِئُ الْحَقُوقِ السِّيَاسِيَّةِ » أَنَّهُ لَا يُوْجَدُ أَىْ إِرَادَةٍ خَاصَّةٍ يُمْكِنُ تَنْظِيمُهَا

عدمُ القدرة ، وحدّما هي ما يجب أن يقوم مقام القانون عنده ، ولا تُطوّه ما يَرُغَب فيه لأنه طَلَبه ، بل لاحتياجه إليه ، ولا ينبغي أن يَعْرِفَ ما الطاعةُ عند ما يسير ، ولا الاستبدادُ عند ما يُعْمَل من أجله ، وليشعرُ بحريته في أفعاله وفي أفعالكم على السواء ، وعَوّضوه من القوة التي تُعَوِّزه ، وذلك بالمقدار الذي يحتاج إليه ليكون حُرّاً ، لا ليكون جَبَّاراً ، حتى إذا تناول خِدَمكم على استحياء تاق إلى الزمن الذي يستغنى فيه عنها ويكون له شرف خدمة نفسه بنفسه .

والطبيعة في تقوية البدن وإيمانه من الوسائل ما لا تجوز مقاومته ، ولا يَجُوزُ أن يُكْرَه الولدُ على البقاء إذا ما أراد الذهاب ، ولا على الذهاب إذا ما أراد البقاء ، وإذا كانت إرادة الأولاد لم تَقْسُدْ بخطأ منا لم يريدوا شيئاً بلا طائل ، ويجب أن يَفْهَرُوا وأن يَرْكُضُوا وأن يَضْرُخُوا متى شاءوا ، وجميع حركاتهم من احتياجات بُنيتهم التي تحاول أن تشتدّ ، ولكن يجب أن يُحذَر مما يَرُغَبُون فيه من غير أن يَقْدِرُوا على صنعه بأنفسهم ، ومما يُلْزَم الآخرون بصنعه لهم ، وهناك يجب أن يُفَرَّقَ بناية بين الاحتياج الحقيقي الذي هو احتياجٌ طبيعيّ ، واحتياج الهوى الذي يأخذ في الظهور ، أو الاحتياج الذي لا ينشأ إلا عن فيض العيش ، وهو ما تكلمتُ عنه .

وكنتُ قد قلتُ ما يجب أن يُصَنعَ عند ما يَبْكِي الولد لينال هذا أو ذاك ، وإنما أضيف إلى ذلك أنه إذا ما استطاع أن يَطْلُبَ بالقول ما يَرُغَبُ فيه فدَعَمَ طلبه بالبكاء نيلاً له بسرعة أو تَغْلُباً على رَفَضٍ وَجَبَ أن يُضَنَّ عليه به حتماً ، وإذا كان الاحتياجُ هو الذي حَمَلَه على الكلام وجب أن

تَعْرِفُوا ذَلِكَ وَأَنْ تُلَبُّوا طَلِبَهُ حَالاً ، وَلَكِنْ الْإِذْعَانُ لِدُمُوعِهِ فِي أَمْرِ مَا
يَتَضَمَّنُ تَحْرِيفاً لَهُ عَلَى سَكْبِهَا ، يَنْطَوِي عَلَى تَعْلِيهِ أَنْ يَشْكَّ فِي حُسْنِ
مَقْصَدِكُمْ ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى الْاِعْتِقَادِ بِأَنْ لِلْإِزْعَاجِ مِنَ التَّأْثِيرِ فِيكُمْ مَا لَيْسَ لِلِاسْتِعْطَافِ ،
وَهُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَكُونَ خَبِثاً إِذَا لَمْ يَعْتَقِدْ صِلَاحَكُمْ ، وَهُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَكُونَ
عَنِيداً إِذَا اعْتَقَدَ ضَعْفَكُمْ ، فَالرَّأْيُ أَنْ يُنْمَحَ عِنْدَ أَوَّلِ إِشَارَةٍ مَالَا يَرَادُ رَفْضُهُ ،
وَلَا تُسْرِفُوا فِي الرِّفْضِ مُطْلَقاً ، وَلَكِنْ لَا تَنْقُضُوا رَفْضَكُمْ عِنْدَ وَقُوعِهِ .

واحترزوا ، على الخصوص ، من مَنَحِ الْوَلَدِ صِغَةً فَارِغَةً فِي الْكِيَاةِ

يَتَخَذُهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ كَكَلَامٍ سَحَرِيٍّ لِإِخْضَاعِ مَنْ يَحِيطُونَ بِهِ لِإِرَادَتِهِ فَيُنَالُ
مَا يَرْوُقُهُ مِنْ قُوَّهِ ، وَلَا يُقْصَرُ فِي تَرْبِيَةِ الْأَغْنِيَاءِ الْقَائِمَةِ عَلَى التَّصْنَعِ أَنْ
يُجْعَلُوا مُتَعَاظِمِينَ مَعَ تَأْدِيبٍ ، وَذَلِكَ بِفَرَضِ تَعْبِيرَاتٍ يَسْتَعْمِلُونَهَا فَلَا يَجْرُؤُ
أَحَدٌ عَلَى مَقَاوِمَتِهِمْ مَعَهَا ، وَلَيْسَ لِأَوْلَادِهِمْ لَهْجَةٌ الضَّارِعِينَ وَلَا أَوْضَاعُهُمْ ،
وَهُمْ مُتَعَاظِمُونَ عِنْدَمَا يَرْجُونَ كَمَا يَكُونُونَ عِنْدَمَا يَأْمُرُونَ ، بَلْ يَكُونُونَ
أَكْثَرَ تَعَاظِماً عِنْدَ الرِّجَاءِ مِمَّا عِنْدَ الْأَمْرِ ، كَمَا لَوْ كَانُوا أَكْثَرَ يَقِيناً بِأَنْ
يُطَاعُوا ، وَأَوَّلُ مَا يُرَى أَنْ كَلِمَةً : « إِذَا مَا طَابَ لَكَ » تَعْنِي « يَطِيبُ
لِي » ، وَأَنْ كَلِمَةً : « أَرْجُوكَ » تَعْنِي « أَمْرُكَ » ، وَيَالِهَا مِنْ كِيَاةٍ لَا تُؤْدِي
عِنْدَهُمْ إِلَى غَيْرِ تَغْيِيرِ مَعْنَى الْكَلِمَاتِ وَإِلَى عَدَمِ الْقَوْلِ بِغَيْرِ هَيْئَةٍ ! وَأَمَّا أَنَا ،
الَّذِي يَخْشَى أَنْ يَكُونَ إِمِيلٌ مُتَكَبِّراً أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ غَلِيظاً ، فَأَفْضَلُ أَنْ
يَقُولَ عِنْدَ الرِّجَاءِ : « اصْنَعْ هَذَا » عَلَى الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ : « أَرْجُوكَ » ، فَلَسْتُ
أَبَالِي بِالتَّعْبِيرِ الَّذِي يَسْتَعْمَلُهُ ، بَلْ بِالْمَعْنَى الَّتِي يَنْطَوِي عَلَيْهَا .

وَيُوجَدُ إِفْرَاطٌ فِي الشَّدَّةِ وَإِفْرَاطٌ فِي التَّسَاهُلِ ، فَيَجِبُ اجْتِنَابُ الْأَمْرَيْنِ

على السواء ، فإذا ماتركتم الأولاد يتألمون عَرَضْتُمْ صحتهم وحياتهم للخطر ، وجعلتموهم تعساء ، وإذا ما بذلتم جهداً كبيراً في وقايتهم من كل سوء أعددتهم لأعظم المصائب ، وجعلتموهم قُصفاً دقيق الإحساس ، وأخرجتموهم من حال الرجل التي سيكونون عليها ذات يوم على الرغم منكم ، وأنتم ، إذ لم تُعرِّضوهم لبعض مضار الطبيعة ، تكونون سبب المضار التي لم تُصِبْهم بها ، وستقولون لي إنني أقعُ في مثل حال الآباء الأردِياء الذين لُتْمَهم على تضحيتهم بسعادة الأولاد ناظرين إلى زمنٍ بعيدٍ يُمكن ألا يكون .

كلاً ، وذلك أن الحرية التي أُخْبُو بها تلميذى تُعوِّضه من الشاقِّ الخفيفة التي أدَّعه مُعرَّضاً لها ، وأرى أولاداً صغاراً يَلْعَبُونَ على الثلج مُزَرَّقَى الوجه مُقرَّسين ، ولا يكادون يُجَرِّكون أصابعهم برِّداً ، وليس عليهم إلا أن يذهبوا لِيُدْفَنُوا أنفسهم ، فلا يَفْعَلُونَ هذا مطلقاً ، وإذا ما أُكْرِهوا على هذا شَعَرُوا بأن ضَفَطَهم أشدُّ وَطْناً مثلاً مرةً من شدة البرد الذي يُحْسِنُون ، ومن أىِّ شىء تتَوَجَّعون إذن ؟ أو أَجْعَلُ ولدكم تَعِساً بعدم تعريضه إياه للمضار التي يريد معاناتها ؟ أَصْنَعُ الخيرَ له في الوقت الحاضر بتركه حُرّاً ، وَأصْنَعُ الخيرَ له في المستقبل بتسليحه ضدَّ الشرور التي يجب أن يقاسمها ، وهل يتردَّد ثانیةً في الاختيار لو خیر . بين أن يكون تلميذى وتلميذكم ؟

أَوْتَنْظَنون وجودَ إنسانٍ يَمِجدُ سعادةً حقیقیةً خارجَ جِیلته ؟ أَو لا ينطوى كلُّ سعىٍ في وقاية الإنسان من جميع شرور نوعه على إخراج له من جِیلته أيضاً ؟ أَجَلْ ، إن طبيعته تقوم على مكابذته الشرور الصغيرة

لِيَشْعُرَ بِالْخَيْرِ الْكَبِيرَةِ ، وَلَوْ صَحَّ الْجِسْمُ كَثِيرًا لَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ ، وَمَنْ
لَمْ يَعْرِفِ الْأَلَمَ لَمْ يَعْرِفِ حَنَانَ الْإِنْسَانِ وَلَا حِلَاوَةَ الرَّحْمَةِ ، فَلَا يُجَرِّكُ
فُؤَادَهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَكُونُ أُنَيْسًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بَيْنَ أَمثَالِهِ غُلُولًا .

أَوْ تَعْرِفُونَ أَضْمَنَ وَسِيلَةٍ لِّجَلِّ وَلَدِكُمْ نَعْسًا ؟ أَنْ تَعُوِّدَهُ نَيْلَ كُلِّ
شَيْءٍ ، وَذَلِكَ أَنْ رَغَبَاتِهِ تَزِيدَ بِلَا انْقِطَاعٍ مَعَ سَهُولَةِ قَضَائِهَا ، وَيُنَازِمُكُمْ
عَدَمُ الْقُدْرَةِ بِأَنْ تَرْفُضُوا عَلَى الرِّغْمِ مِنْكُمْ عَاجِلًا كَانَ هَذَا أَوْ آجِلًا ،
وَيُورِثُهُ هَذَا الرِّفْضُ غَيْرَ الْعِتَادِ أَلَمًا أَشَدَّ مِنْ حَرَمَانِهِ مَا يَرِيدُ ، وَالْعَصَا
الَّتِي تُمَتِّعُكُمْ هِيَ أَوَّلُ مَا يَرِيدُ ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَرِيدَ سَاعَتَكُمْ ، ثُمَّ يَرِيدُ
الطَّيْرَ الَّذِي يَطِيرُ ، ثُمَّ يَرِيدُ النَّجْمَ السَّاطِعَ ، ثُمَّ يَرِيدُ كُلَّ مَا يَرَى ، وَكَيْفَ
تَرْضُونَهُ إِذَا لَمْ تَكُونُوا إِلَهًا ؟

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيَّةِ أَنْ يَعُدَّ مَا لَهُ كُلُّ مَا هُوَ دَاخِلٌ
ضِمْنِ قُدْرَتِهِ ، وَمِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ يَكُونُ مَبْدَأُ هُوْبَرٍ صَحِيحًا إِلَى حَدٍّ مَا ،
وَذَلِكَ أَنْ تُكَثِّرُوا مَعَ الرِّغَائِبِ وَسَائِلَ قَضَائِهَا حَتَّى يَصْبَحَ كُلُّ وَاحِدٍ سَيِّدَ
الْجَمِيعِ ، وَلِذَلِكَ يَظُنُّ الْوَلَدُ أَنَّهُ مَالِكُ الدُّنْيَا لِمَا لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُ الْإِرَادَةِ ،
وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ كَعَبِيدٍ لَهُ ، وَهُوَ ، عِنْدَ مَا يُضَنُّ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ
عَنْ اضْطِرَارٍّ ، يَعُدُّ هَذَا الرِّفْضَ ضَرْبًا مِنَ التَّمَرُّدِ لِمَا يَمْتَقِدُ إِمْكَانَ كُلِّ شَيْءٍ
إِذَا أَمَرَ ، وَهُوَ ، إِذَا مَا أُدْلِيَ لَهُ بِأَسْبَابٍ عَنْ ذَلِكَ فِي دَوْرٍ مِنَ الْعُمُرِ يَعْجِزُ فِيهِ
عَنِ التَّمْيِيزِ ، لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ عِنْدَهُ غَيْرَ ذَرَائِعَ ، فَيَرَى سُوءَ الْقَصْدِ فِي كُلِّ
مَكَانٍ ، وَهُوَ ، إِذَا كَانَ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِحَسْرَةٍ مِنَ الْجَوْرِ الزَّعُومِ ، فَإِنَّهُ
يَحْتَقِدُ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ ، وَيَشْتَاطُ غَيْظًا مِنْ كُلِّ مَعَارِضَةٍ عَنْ عَدَمِ شُعُورٍ بِالْجَمِيلِ .

وكيف أنصور ولداً يكون سعيداً بعد أن يكون موثلاً للغيبط وفريسةً لأشدّ الأهواء فعلاً ؟ هو سعيدٌ ! هو مستبدٌ ، هو أشدّ العبيد نذالةً وأكثرُ المخلوقات شقاءً ، ولقد شاهدت أولاداً يُربّون على هذا الوجه ، ويريدون تدميرَ المنزل بصدمة كتيفٍ ، وأن يُعطوا الذئك الذى يروّون على بُرج الأجراس ، وأن تُوقَفَ كتيبةٌ وهى تسير لِيَسْمَعُوا الطُّبُولَ أطولَ وقتٍ ممكن ، وأنهم يَشْقَوْنَ الهواءَ بُصْرَاحهم غيرَ مُنْصِتِينَ لأحدٍ إذا ما أُبْطِئَ فى الإذعان لهم ، وكلُّ يَسْعَى لاسترضائهم ، ولكن على غيرِ جدوى ، فرغائبهم تشتدُّ بسهولةٍ تئيلِ الشئ ، وهم يُبْصِرُونَ على المستحيلات ، ولا يَجِدُونَ غيرَ المعارضات والموانع والمهموم والآلام فى كلِّ مكان ، وهم يَقْضُونَ الأيامَ فى الصُّراخ والتوجع مُزْجِجِينَ دائماً عُنْدَاءَ دائماً غَضَاباً دائماً ، وهل هم سعداء هنالك ؟ لا ينشأ عن الضعف والهيمنة غيرُ الحماقة والبؤس إذا ما اجتمعوا ، وأحدُ الولدين المُدَلَّلَيْنِ يَضْرِبُ المائدة بالسَّوْط ، وَيَضْرِبُ الآخرُ البحرَ به ، ولا بُدَّ لهما من الضرب بالسَّوْط والعصا قبل أن يعيشا راضيين .

وإذا كانت مبادئ السيطرة والطمعان هذه تَجْعَلُهُمْ نَعْسَاءَ منذ طفولتهم فما يكون الحال إذا ما كَبُرُوا وأخذت صلاتهم بالآخرين تَطُولُ وتَكْثُرُ؟ وهم إذ تَعَوَّدُوا رؤيةَ كلِّ شئ يَنْتَنِي أمامهم فما أشدَّ ما يَدْهَشُون ، عند دخولهم العالم ، من مقاومة كلِّ شئ لهم ومن حِسِّهم أنهم مسحقون بأثقال هذا العالم الذى كانوا يَظُنُّون أنهم يُحَرِّكُونَهُ كما يشاءون !

ولا تأتيتهم أوضاعهم العاتية وعُجْبُهُم الصبْيَانِيُّ بغير الخزي والازدراء والتهمك ، وهم يَشْرَبُونَ الإهاناتِ كالماء ، ولا تَلَبَّثُ التجاربُ القاسية أن

تَعْلَمُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَتَرَفُونَ حَالَهُمْ وَلَا قُوَاهُمْ ، وَهُمْ إِذْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَطْلُتُونَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَتَصُدُّهُمْ عَوَاقِبُ كَثِيرَةٍ غَيْرُ مَعْتَادَةٍ ، وَيُذِلُّهُمْ احْتِقَارُ كَثِيرٍ ، وَيُضَيِّحُونَ أَخْسَاءَ جِبْنَاءِ صَاغِرِينَ ، وَيَسْقُطُونَ إِلَى مَا هُوَ أَقْلٌ مِنْ مَسْتَوَاهُمْ بِنِسْبَةِ مَا كَانُوا قَدْ عَمَلُوهُ .

وَلَنَعُدَّ إِلَى الْقَاعِدَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ، فَالطَّبِيعَةُ قَدْ خَلَقَتْ الْأَوْلَادَ لِيُحَبِّتُوا ، وَيَسَاعَدُوا ، وَلَكِنْ هَلْ صَنَعْتَهُمْ لِيُطَاعُوا وَيُخَافُوا ؟ وَهَلْ مَنَحْتَهُمْ وَقَاراً وَجَفَاءً وَصَوْتاً شَدِيداً مَتَوَعِّداً حَتَّى يَكُونُوا مَرْهُومِينَ ؟ أَعْرِفُ أَنَّ زَيْدَ الْأَسَدِ يُرْعَبُ الْحَيَوَانَاتِ وَأَنَّهَا تَرْتَمِدُ عِنْدَمَا تُبْصَرُ لُبْدَتُهُ ، وَلَكِنْ هَلْ شَوَّهَدَ مَنْظَرُ شَائِئٍ كَرِيهٍ مُثِيرٍ لِلشُّخْرِيَّةِ كَنْظَرُ جَمْعٍ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ قَاضِي الْقَضَا ، لَا بَسِينَ حُلَّاهُمْ الرِّسْمِيَّةِ ، رَاكِعِينَ أَمَامَ وَلَدٍ فِي الْقِيَاطِ ، خَاطِبِينَ فِيهِ بِفَتْحِ الْكَلَامِ ، فَلَا يُجِيبُهُمْ بغيرِ الْعَوِيلِ وَاللَّعَابِ ؟

وَإِذَا نُظِرَ إِلَى الطِّفْلِ نَفْسَهَا فَهَلْ يَوْجَدُ فِي الْعَالَمِ مَنْ هُوَ أَوْفَعُ مِنَ الْوَلَدِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ بؤْساً وَأَدْعَى مِنْهُ إِلَى رَحْمَةٍ مَنْ يَحِيطُونَ بِهِ وَأَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى الشَّفَقَةِ وَالْعَنَاءِ وَالْحَمَايَةِ ؟ أَلَا يَلُوحُ أَنَّهُ لَا يُبْدَى وَجْهًا بِالْغِ الْوَدَاعَةِ ، وَمُظْهِراً بِالْغِ التَّائِيهِ ، إِلَّا لِيَسَالِيَ بِضَعْفِهِ جَمِيعُ مَنْ يَدْنُونَ مِنْهُ وَيَبَادِرُوا إِلَى مَسَاعَدَتِهِ ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ ، إِذَنْ ، أَكْثَرُ إِيْلَاماً وَأَعْظَمُ مُخَالَفَةً لِنِظَامِ الْأُمُورِ مِنْ أَنْ يُرَى وَلَدٌ مُتَجَبِّراً عِنْدَ بَأْمَرِ جَمِيعِ مَنْ هُمْ حَوْلَهُ مُتَحَلِّلاً بِوَقَاحَةٍ لَهْجَةٍ السَّيِّدِ نَحْوِ الَّذِينَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ تَرْكِهِ لِيَهْلِكَ ؟

وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَرَى ، مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، أَنَّ ضَعْفَ الدَّوْرِ الْأَوَّلِ يُقَيِّدُ الْأَوْلَادَ عَلَى وَجْهِ كَثِيرَةٍ ، وَأَنَّ مِنَ الْقِسْوَةِ الْبَالِغَةِ أَنْ يُضَافَ إِلَى

هذا القَهْرُ قَسْرُ أهوائنا ، وذلك بأن تُنَزَعَ منهم حريةٌ محدودةٌ جداً ، فلا يستطيعون أن يسيئوا استعمالها إلا قليلاً جداً ، حريةٌ ضيقةٌ لا يفيدهم ، ولا يفيدنا ، نَزْعُها منهم إلا قليلاً جداً ؟ وإذا كان لا يوجد شيءٌ يستحقُّ الهزوءَ أكثرَ من ولدٍ متكبرٍ فإنه لا يوجد شيءٌ يستحقُّ الرحمةَ أكثرَ من ولدٍ جَزُوعٍ ، وتبدأ العبوديةُ المدنيةُ بسنِّ الرشد ، فلم تُسَبَقْ بالعبوديةِ الخاصةِ ؟ ولتُدْعَ حيناً من الحياةِ خالياً من هذا النيرِ الذي لم تقرِّضه الطبيعةُ علينا ، ولتتركْ للطفولةِ ممارسةَ الحريةِ الطبيعيةِ التي تُبْعِدُها ، بعضَ الزمنِ ، من العيوبِ الملازمةِ للعبوديةِ ، وليأتِ ، إذنْ ، هؤلاء المَأمُونُ الأشداءُ وهؤلاء الآباءُ المعبَّدونُ لأولادهم مع اعتراضاتهم الطائشةِ وليتعلَّموا مِنْهاجَ الطبيعةِ مرةً قبل أن يفاخروا بمناهجهم .

وأعود إلى العمل ، وكنتُ قد قلتُ إنه لا ينبغي لولدكم أن ينال شيئاً لأنه يطلبه ، بل لاحتياجه إليه ^(١) ، ولا ينبغي له أن يفعل شيئاً عن طاعةٍ ، بل عن ضرورةٍ فقط ، وهكذا فإن كلمتي الطاعة والأمر يجب أن تزولا من مُعْجَمِهِ ، وأكثرُ من ذلك محورُ كلمتي الواجب والالتزام منه ، ولكن يجب أن يكون فيه مكانٌ واسعٌ لكلمات القوة والضرورة والعجز والقَسْر ، ولا يُمكن أن تكون قبل سنِّ الرشد فكرةٌ عن الموجودات المعنوية والصَّلات

(١) يجب أن يشعر بأن اللذة حاجة أحياناً كما أن الألم ضرورة غالباً ، ولا يبرجد ، إذن ، غير رغبة واحدة للأولاد لا يجوز أن يجابروا إليها مطلقاً ، وهى أن يطاعوا ، ولذا يجب أن ينتبه ، على الخصوص ، إلى السبب الذى يحملهم على الطلب ، وذلك فى جميع ما يطلبون ، وامنحهم ، ما أمكن ، جميع ما يروقهم حقيقة ، ورفضوا ، دائماً ، كل ما يطلبون عن هوى أو عن حب للسيطرة .

الاجتماعية ، ويجب ، إذن ، أن يُجْتَنَبَ ، ما أمكن ، استعمالُ الكلمات التي تُعَبِّرُ عنها ، وذلك خَشْيَةً أن يُعَلِّقَ الولد على هذه الكلمات ، في بدء الأمر ، أفكاراً فاسدة لا يُعرَفُ ، أو يُسْتَطَاعُ ، القضاء عليها مطلقاً ، وأولُ فكرٍ فاسدٍ يَدْخُلُ رأسه هو بَذْرَةُ الخطأ والعيب ، وهذه هي أولُ خُطْوَةٍ يجب أن يُفْتَنَبَ إليها على الخصوص ، واصنعُوا ما تَقِفُ معه جميعُ أفكاره عند حَدِّ الإحساسات ما دام غير متأثرٍ بسوى الأفكار الحسية ، واصنعُوا ما لا يَشْمُرُ معه بغير العالم الحسِّيِّ فيما حَوَّلَهُ ، وإن لم تَفْعَلُوا ذلك فاعلمُوا أنه لن يستمع إليكم مطلقاً ، أو أنه سَيَجْعَلُ من العالم الأدبيِّ ، الذي تكلِّمُونَهُ عنه ، مبادئٍ وهميةً لن تَمُحُوها من حياته .

وكانت البرهنةُ مع الأولاد أعظمَ مبدأٍ لِلْوَكْ ، وهذا المبدأ أكثرُ المبادئ حُظْوَةً في الزمن الحاضر ، ومع ذلك فإن نجاحه لا يَصْاحُ سبباً لجملة مَوْضِعَ اعتبار كما يلوح لى ، وذلك لأننى أرى أنه لا يوجدُ مَنْ هو أحقُّ من أولئك الأولاد الذين يُبْرَهَنُ معهم كثيراً ، والعقلُ ، الذى ليس غيرَ مُرَكَّبٍ من بقية خصائص الإنسان ، هو أصعبُ ما يَنُمُو من الخصائص وأكثَرُها بطوياً في النشوء ، ثم يُرادُ الانتفاعُ به في إيمانها ! وأروعُ أعمال التربية الصالحة هو تنشئةُ إنسانٍ عاقلٍ ، ثم يُزَعَمُ تنشئةُ الولدِ بالعقل ! هذا بَدْءٌ من الآخر ، هذا عملٌ لآلةِ العمل ، ولو كان الأولاد يُدْرَكُونَ ما العقلُ ما احتاجوا لتربيةٍ ، ولكنهم إذا ما خُوطِبُوا منذ طفولتهم بلغةٍ لا يفهمونها على الإطلاق عُوِّدُوا الاكتفاء بكلمات ، وتحقيقَ كلِّ ما يقال لهم ، وظنَّهم أنهم حكماة كعلميهم ، وأن يكونوا عُنْداء مجادلين ، فلا يُنْأَلُ

بغير عوامل الطمع ما يُظَنُّ أنه يُنال منهم بعوامل عقلية ، بغير عوامل الطمع أو الخوف أو الزهو التي يُضطرُّ إلى إضافتها إلى تلك العوامل .
وإليك الصيغة التي يُمكن أن تُردَّ إليها تقريباً جميع دروس الأخلاق التي تُدلِّق على الأولاد والتي يُمكن أن تُدلِّق عليهم :

المعلم : لا يجوز فعلُ هذا .

الولد : ولمَ لا يجوز فعلُ هذا ؟

المعلم : لأنه خطأ .

الولد : خطأ ! ما الخطأ ؟

المعلم : ما تُمنعُ منه .

الولد : ما الخطأ فيما أُصنعُ فأُمنعُ منه ؟

المعلم : ستعاقبُ على عصيانك .

الولد : سأفعله بما لا يُعرَفُ عنه شيء .

المعلم : سأزُقُّبك .

الولد : سأتوارى .

المعلم : سنسألك عما كنت تفعل .

الولد : سأكذب .

المعلم : لا ينبغي أن تكذب .

الولد : لمَ لا ينبغي أن أكذب .

المعلم : لأن هذا خطأ ، إلخ .

تلك هي الدائرة التي لا مفرَّ منها ، فإذا ما خرجتم منها عاد الولدُ

لا يبي ما تقولون ، أو ليست هذه دروساً مفيدةً جداً ؟ إن من فضولي الكبير أن أعرف ما يمكن أن يوضع في مكان هذه المحاضرة ، حتى إن لوك نفسه كان يرتبك في هذا لا ريب ، وليس من عمل الولد أن يعرف الخطأ والصواب وأن يدرك سبب واجبات الإنسان .

وتريد الطبيعة أن يكون الأولاد أولاداً قبل أن يكونوا رجالاً ، وإذا أردنا أن نُحِلَّ بهذا النظام اقتطفنا ثمراتٍ بدريّةٍ خاليةً من النضج والطعم فلا نُعَمِّمُ أن تُفسد ، وبذلك يكون لدينا أساتذةٌ أحداثٌ وأولادٌ شبوخ ، وللطفولة وجوهٌ بصريّةٌ وتفكيرٌ وشعورٌ خاصةٌ بها ، ولا شيء أقلُّ صواباً من أن نريد أن نستبدل بها ما عندنا ، وأفضلُ المطالبة بأن يبلُغ الولد من الطولِ خمسَ أقدامٍ على أن يكون حصيفاً في العاشرة من سِنِّه ، وما نفعُ العقل له في هذه السنِّ حقاً ؟ إن العقلَ رادعُ القوة ، ولا يحتاج الولد إلى هذا الرادع .

وأنتم ، حين تحاولون إقناعَ تلاميذكم بواجب الطاعة ، تُضَيِّفُونَ القوةَ والتهديد إلى هذا الإقناع المزعوم ، أو تأتون بما هو شرٌّ من هذا ، أي بالمدارة والوعود ، وهكذا يُجذَّب الأولاد بالمصلحة أو يُجبرُونَ بالقوة فيتظاهرون بالقناعة بفعل العقل ، وهم يَرَوْنَ جيداً أن الطاعة نافعةٌ لهم وأن العصيان ضارٌّ بهم فَوَرَّ ما تَشْعُرُونَ بهذا أو ذاك ، ولكن بما أنكم لا تطلبون منهم شيئاً غيرَ مستكرهٍ لديهم ، وبما أن من الأمور الشائقة دائماً أن تُنفَّذَ إرادةُ الآخرين ، فإنهم يَتَسَرَّوْنَ تنفيذاً لإرادتهم الخاصة قانعين بأنهم يصنعون خيراً إذا ما جُهِلَ عدمُ إطاعتهم ، ولكن مع اعترافهم بأنهم يصنعون سوءاً

إذا ما كُشِفَ أمرُهم ، وهذا خوفاً من أعظمِ شَرٍّ ، وبما أن عاملَ الواجب فوق عُمرهم فإنه لا يوجد في العالمَ رجلٌ قادرٌ على جعلهم يَشْعُرُونَ به حقاً ، غير أن خوفَ العقابِ وأملَ العفو واللِّجَاجِ وصعوبةَ الجوابِ أمورٌ تؤدي إلى انتزاعِ جميع الاعترافات التي تُطَلَّبُ منهم ، ويُعْتَقَدُ أنهم يُفْنَعُونَ عندما يُسْأَمُونَ أو يُرْهَبُونَ .

وما ينشأ عن ذلك ؟ أولاً ، إنكم ، بفرضكم عليهم واجباً لا يُدْرِكُونه ، تُنْفَرُونهم من سيطرتكم ، وتَصُدُّونهم عن محبتكم ، وتُعَلِّمُونهم أن يكونوا مُدَاجِنِ مُخَادِعِينَ كاذِبِينَ نيلاً للجوائز أو اجتناباً للعقوبات ، وأخيراً ، بتعويدكم إيَّاهم أن يَسْتَرُوا ، دائماً ، عاملاً خفياً تحت عامل ظاهر ، تمنحونهم بأنفسكم وسيلةً مخالتكم بلا انقطاع ، وحرمانكم معرفة أخلاقهم الحقيقية ، ودفعَ كلامٍ فارغٍ إليكم وإلى غيركم في الوقت المناسب ، وتقولون إن القوانين ، وإن كانت تُقَيِّدُ الشعورَ ، تقوم بعين القسْرِ نحو من بَلَّغُوا أَشَدَّهُمْ ، وأوافق على هذا ، ولكن مَنْ هم هؤلاء الرجال إن لم يكونوا أولاداً أفسدتهم التربية ؟ هذا ما يجب اجتنابه ضبطاً ، فاستعملوا القوةَ مع الأولاد والعقلَ مع الرجال ، هذا هو النظامُ الطبيعيُّ ، ولا يحتاج الحكيمُ إلى قوانين .

وعاملوا تلميذكم على حسب سِنِّه ، وَضَعُوهُ في مكانه منذ البُداءِ ، وأَمْسِكُوهُ فيه جيداً ، فلا يحاولَ الخروجَ منه ، وهناك يمارس أهمَّ الدروس قبل أن يَعْرِفَ ما الحكمة ، ولا تُلقُوا إليه أيَّ أمرٍ في أيِّ شيء على الإطلاق ، حتى إنه لا ينبغي أن تدعوه يَتَمَثَّلُ وجودَ زَعَمٍ لكم بأيِّ سلطانٍ عليه ، وَلْيَعْلَمْ ، فقط ، أنه ضعيفٌ وأنكم أقوياء ، وأن وضعه ووضعكم

يوجبان وجوده تحت رحمتكم بحكم الضرورة ، ولْيَذَرِكْ هذا وَلْيَغْرِفْهُ وَلْيَشْعُرْ به ، وَلْيَشْعُرْ بِأَكْرَأَ بَأْسِ النَّيْرِ الشَّدِيدِ الَّذِي فَرَضَتْهُ الطَّبِيعَةُ عَلَى الْإِنْسَانِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ الْمَتَكَبِّرُ ، لْيَشْعُرْ بِنَيْرِ الزَّرُورَةِ الثَّقِيلِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ مَتْنَاهُ أَيْ يَنْحَنِي تَحْتَهُ ، وَلْيُبَيِّنْ هذه الزَّرُورَةَ فِي الْأَشْيَاءِ ، لَا فِي هَوَى النَّاسِ ^(١) ، وَلْتَكُنِ الْقُوَّةُ ، لَا السَّلْطَةُ ، هِيَ الزَّاجِرَ الَّذِي يُنْسِكُهُ ، وَلَا تَحْظَرُوا عَلَيْهِ مَا يَجِبُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْهُ ، بَلْ امْتَنِعُوا مِنْ فَعْلِهِ بِلا إِضْاحٍ وَلَا بَرَهَانٍ ، وَمَا تَمْنَحُونَهُ إِيَّاهُ امْتَنَحُوهُ عِنْدَ أَوَّلِ كَلِمَةٍ مِنْهُ ، امْتَنَحُوهُ بِلا تَوْشُّلٍ مِنْهُ وَلَا رَجَاءٍ وَبِلا شُرُوطٍ ، امْتَنَحُوهُ إِيَّاهُ طَيِّبِي الْخُلَاطِرِ ، وَلَا تَرَفِضُوا بِلا اِمْتِنَاعٍ ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ رَفْضٍ مِنْكُمْ لَا يُنْقَضُ ، وَأَلَّا يَهْزَكُمُ أَيُّ إِزْعَاجٍ كَانَ ، وَلَيْسَ كُلُّ قَوْلٍ « لَا » مِنْكُمْ جِدَارًا مِنْ قُلُوزٍ * حَتَّى إِذَا مَا حَاوَلَ الْوَلَدُ أَنْ يُقَوِّضَهُ خَمْسَ مَرَاتٍ ، أَوْ سِتَّ مَرَاتٍ ، ارْتَدَّ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى مِثْلِ هَذَا قَطُّ .

وهكذا تجعلونه صبوراً معتدلاً مُسَلِّماً هَادِئاً ، حَتَّى عِنْدَ عَدَمِ نَيْلِهِ مَا أَرَادَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَمِلَ صَابِراً زُرُورَةَ الْأُمُورِ ، لَا سُوءَ قَصْدِ الْآخَرِينَ ، وَتَعُدُّ الْكَلِمَةَ : « عَادَ لَا يُوجَدُ مِنْهُ » جَوَاباً لَمْ يَمَانِدْهُ وَلَدٌ قَطُّ مَا لَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّهُ يَنْطَوِي عَلَى كَذِبٍ ، وَلَا وَسَطَ هُنَا مُطْلَقاً ، فَإِذَا أَلَّا تَطْلُبُوا مِنْهُ شَيْئاً ، وَإِذَا أَنْ تَحْمِلُوهُ عَلَى أُنْمٍ طَاعَةٍ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، وَتَقُومُ أَسْوَأُ تَرْبِيَةٍ عَلَى تَرْكِهِ مَتَرَجِّحاً بَيْنَ عِزَائِكُمْ وَعِزَائِهِ ، وَعَلَى جِدَالٍ

(١) اَيْعَلَمْ أَنَّ الْوَلَدَ يَعِدُ مِنَ الْأَهْوَاءِ كُلِّ إِرَادَةٍ مُخَالَفَةً لِإِرَادَتِهِ ، وَلَا يَعْرِفُ سَبَباً لَهَا ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْوَلَدَ لَا يَذَرِكُ سَبَباً لِأَيِّ شَيْءٍ لَا يَلْذُمُ أَهْوَاءَهُ .

• الْقُلُوزُ : النَّحَاسُ الَّذِي لَا يَعْمَلُ فِيهِ الْحَدِيدُ .

دائم يقع بينكم وبينه حَوْلَ مَنْ يكون منكم سيداً ، وأفضلُ مئةَ مرة أن يخرج من هذا سيداً دائماً .

ومن الغرابة بمكان أنه لم يُتَمَثَّلْ ، منذ أخذ الناس يُفَكِّرُونَ في تربية الأولاد ، طريقَ لقيادتهم غيرُ المنافسة والفيرة والحسد والزهو والطمع والجبن الدنيّ وأخطرِ الأهواء وأسرعها اختاراً وأصلحها لإفساد النفس حتى قبل أن يتم نشوه البدن ، وتُفَرَسُ نقيصةٌ في صميم فؤادهم عند كلِّ درسٍ باكر يُراد إدخاله إلى رؤوسهم ؛ وقد بَلَغَ بعض المعلمين من السخافة ما يروون معه أنهم يأتون بالمعائب يجعلهم الأولاد أشراراً لِيَعْلَمُوهم ما الصلاح ، ثم يقولون لنا برصانة : « هو ذا الرجل » ، « أجل » ، هو ذا الرجل الذي صنعتوه .

وقد اختيرت جميعُ الوسائل عدا واحدة ، عدا الوسيلة التي يُمكن أن يُكتَبَ لها النجاح ، وهي الحريةُ الحسنةُ التنظيم ، ولا يجوز أن تقوموا بتربية ولدٍ إذا لم تعرفوا أن تسوقوه إلى حيث تريدون بدساتير الممكن والمحال وحدها ، فبما أن دائرة الممكن والمحال مجبولةٌ لديه على السواء فإنها توسع حوله وتضيّق كما يراد ، ويُقيّدُ ويُساقُ ويُمنسك بقيد الضرورة وحدها من غير أن يتذمّر ، ويُجْعَلُ مرناً سِلْسِلَ القِياد بقوة الأشياء من غير أن يُتاح لأيّ عيبٍ من الفرص ما يَنبُت معه فيه ، وذلك لأن الشّهوات لا تنتعش ما دامت غيرَ ذاتِ فعلٍ .

ولا تُلْقُوا أيّ درسٍ شَفَوِيٍّ على تلميذكم ، ولا يجوز أن يتلقّى من الدروس غيرَ التجريبية ، ولا تُقرّضوا عليه أيّ نوع من العقوبات ، وذلك

لأنه لا يَعْرِفُ ما فَعَلَ الخَطَا ، ولا تَحْدِثُوه على طلب العفو مطلقاً ، وذلك لأنه لا يَعْرِفُ أن يَسِيءَ إليكم ، وبما أنه خالٍ من كلِّ خُلُقِيَّةٍ في أفعاله فإنه لا يستطيع أن يَصْنَعَ ما هو سَيِّئٌ خُلُقِيًّا ، فيستحقَّ عِقَاباً أو عِتَاباً .

وأرى القارئ المذعور يَحْكُمُ في هذا الولد بأولاد زماننا ، وهو مخطئٌ في هذا ، وذلك أن ما تُنْسِكُون به تلاميذكم من مضايقةٍ دائمةٍ يُحَرِّكُ فَعَالِيَتِهِمْ ، وأنه كلما ضُيِّقَ عليهم تحت أعينكم بَدَّوْا أكثرَ طيشاً حينما يُفْلِتُونَ ، فيجب أن يُعَوِّضُوا من الضغط الشديد الذي تجملونهم فيه ، ويأتى اثنان من طلاب المدينة من التَّلَفِ في بلدٍ أكثرَ مما يأتىه شبابُ قريةٍ بأسرها ، واخْبِسُوا حَضَرِيًّا صَغِيرًا وَقَرَوِيًّا صَغِيرًا في غرفةٍ تَجِدُوا الأولَ مُنْكَسًا منهوكًا قبل أن يتحرك الثاني من مكانه ، ولمَ هذا إذا لم يكن أحد الاثنين يُسْرِعُ إلى العَبَثِ بوقتِ التَّحَلُّلِ ، على حين لا يُهْرَعُ الآخرُ ، الطَّمَنُ إلى حرَبته دائماً ، إلى ابتذالها مطلقاً ؟ ومع ذلك فإن أولاد القَرَوِيَّينِ يُدَارَوْنَ وَيُنَاوَوْنَ غالباً فلا يزالون بعيدين من الحال التي أريد أن يُنْكَسَكُوا فيها .

ولتَنْصَحْ قاعدةً ثابتةً قائلَةً إن حركات الطبيعة الأولى مستقيمةٌ دائماً ، فلا يوجد في القلب البشريُّ فساداً أصلياً ، ولا يوجد فيه عيبٌ لا يُمكن أن يقال كيف دخله ومن أين أتاه ، ويقوم الهوى الطبيعيُّ الوحيدُ في الإنسان على حبِّ الذاتِ أو الأثرةِ بأوسعِ معنَى ، وحبُّ الذاتِ هذا صالحٌ نافعٌ بنفسه وبالنسبةِ إلينا ، وبما أنه ليس للولد علاقةٌ ضروريةٌ بالآخرين مطلقاً فإنه يُعَدُّ خَلِيًّا طَبِيعَةً من هذه الناحية ، وهو لا يُصْبِحُ صالحاً أو طالحاً

إلا بتطبيق حبِّ الذات وما يعطاه من صلات ، ومن اللهم ، إذن ، ألا يصنع الولد شيئاً لأنه سَمِعَ ورأى ، ألا يصنع شيئاً بالنسبة إلى الآخرين ، ولكن أن يصنع ما تطلب منه الطبيعة ، وهناك لا يصنع غير الخير ، وذلك إلى أن يولد العقل الذي هو دليلُ حبِّ الذات .

ولا أقصد بذلك أنه لا يصنع سوءاً ، وأنه لا يجرح نفسه أبداً ، وأنه لا يكسر أماناً واقعاً تحت يده ، ويمكنه أن يصنع كثيراً من السوء من غير أن يأتي سوءاً ، وذلك لأن فعل الضرر يتوقف على نية الأذى ، وليس لديه مثل هذه النية مطلقاً ، وهو إذا ما بدأ سيئ النية ضاع وغداً شريراً بلا وسيلة تقريباً .

ومن الأمور ما يعلِّمه الطمع شيئاً ، ولا يعلِّمه العقل هكذا ، ومن المناسب أن يُفصى عن الأولاد ، إذا ما تركوا أحراراً تماماً في ممارسة طيشهم ، كل ما يجعل حريتهم تُكلفُ غالباً ، فلا يُجعل تحت أيديهم شيء ثمين سريع العطب ، وليكن مسكنهم مُجهزاً بأثاث غليظ متين ، فلا يكون فيه مَرَايا ولا أوانٍ صينية ولا أدوات من النفائس ، وأما إميل الذي أُرِيه في الأرياف فلن تشتمل غرفته على شيء يميزها من غرفة قروي ، وما فائدة تزيينها بعناية مادام لا ينبغي أن يَبْقَى فيها إلا قليلاً ؟ ولكنني مخطئ ، فسيزيئها بنفسه ، وسنرى كيف يكون هذا عما قليل .

ومع ما تبذلون من حذر ، إذا حدث أن أخذت الولد بعض الخل ، كان يكسر وعاء نافماً ، فلا تعاقبه عن إهال منكم ولا تنهره مطلقاً ، ولا تسمعه كلمة تأنيب ، ولا تدعوه يُبصِرُ أنه أوردكم غمّاً ، واتخذوا من

الوضع ما يُشعرُ بأن الوعاء قد كُسِرَ من تلقاء نفسه ، ثم اعتقدوا أنكم تصنعون كثيراً إذا ما استطعتم ألا تقولوا شيئاً .

أَوْاجِسُ هُنا أن أَعْرِضَ أعظمَ قواعدِ التربية وأهمّها وأكثرها نفعاً ؟ ليس هذا كسباً لوقت ، بل ضياعٌ له ، ويأياها القارئون من الناس ، اغفروا لى بدعى ، لأبدّ من البدع عند إتمام النظر ، ومهما تقولوا فإننى أفضّل أن أكون رجلاً بدعٍ على أن أكون رجلاً مبتسراتٍ ، وأشدُّ أَدوار الحياة خطراً هو ما يقعُ بين الولادة والثانية عشرة من السنّ ، ففى هذا الدور تنبّت الأضاليلُ والعيوب من غير أن يكون من الأدوات فى اليد ما يُقضى معه عليها ، ومتى أتت الأداة كانت الجذور من التأصل ما لا يمكن معه استئصالها ، أجلّ ، لو قفَزَ الأولاد من الثدى إلى سِنِّ الرشد بعتة لا يمكن أن تكون التربية التى يُعطونها ملائمةً لهم ، غير أن النشوء الطيعى يَقضى بمنحهم تربيةً تختلف عن هذه تماماً ، ومن الواجب ألا يُزعجَ الذهنُ قبلُ نُمُو قابلياته ، وذلك أنه إذا ما كان أعْمى لم يستطع أن يرى الشعلة التى تقدمونها إليه ، ولا أن يتدبّع فى حقل الأفكار الواسع طريقاً بلغ العقلُ من ضعفِ رَسمها ما لا تكاد أحسنُ العيون معه أن تُبصرها .

ويجب أن تكون التربية الأولى سلبيةً فقط ، فلا تقوم على تعليم الفضيلة والحقيقه مطلقاً ، بل على وقاية القلب من العيب وروح الخطأ ، وإذا كنتم قادرين على عدم صنع شيء وعدم تركه يصنع شيئاً ، وإذا كنتم قادرين على قيادة تلميذكم إلى سِنِّ الثانية عشرة سليماً عُضلياً من غير أن يستطيع التفريق بين يده اليمنى ويده اليسرى ، فإن قوة الإدراك فيه تنفتح للعنل ،

وهو ، إذ يكون خالياً من المُبتسرات والعادات ، فإنه لا يكون فيه ما يقاوم
أثرَ رعايتكم ، وهو لا يَلْبَثُ أن يصير بين أيديكم أحكم الناس ، وأنتم ،
إذ تَبْدُون بعدم صنع شيء تكونون قد أتيتم بترية ذات إعجاز .

وقاوموا العادة تَحْسِنُوا صُنْماً دائماً تقريباً ، وبما أنه لا يُرَادُ أن يُجْهَلَ من
الولد ولدٌ ، بل أستاذٌ ، فإن الآباء والمعلمين لم يَرَوْا من العجلة قَطُّ أن يُعْزَرَ
وَيُصْلَحَ وَيُعْتَفَ ويدارَى وَيُهَدَّدَ وَيُوْعَدَ وَيُعَلِّمَ وَيُنَظَّرَ ، وافعلوا خيراً مما يفعلون ،
وكونوا على صواب ، ولا تُبَرِّهِنُوا مع تلميذكم ، على الإطلاق ، سَخلاً له
على استحسان ما لا يَرُوقه على الخصوص ، وذلك لأن سَوَقَ العقل في كلِّ
وقتٍ ، هكذا ، إلى الأمور المستكرهة لا يؤدي إلى غير عَدِّ العقل مُمِلّاً
وسقوطِ حُظُوته باكرآ في نفسٍ لم تَبْلُغ من الحال ما تُدْرِك معه أمره ، ودَرَبُوا
بَدَنَهُ وأعضائه وحواسه وقواه ، ولكن دَعُوا ذهنه خلياً لأطول مدة ممكنة ،
واخشَوْا جميعَ المشاعر السابقة للحُكم في تقديرها ، واحْجُزُوا الانطباعاتِ
الغريبة وقِفُوا وحُولُوا دون وقوع الضرر ، ولا تستعجلوا الخيرَ مطلقاً ، وذلك
لأنه ليس هكذا إلا عند إلقاء العقل نوراً عليه ، وعدُّوا كلَّ تأجيلٍ فائدةً ،
فن النعم الكبير أن يُتَقَدَّمَ إلى الحدِّ من غير أن يُخْسَرَ شيء ، ودَعُوا
الوَلُودِيَّةَ تَنْضَجُ في الأولاد ، وأخيراً ، هل يكون بعضُ الدروس نافعا لهم ؟
احترزوا من إعطائه اليوم إذا كان تأخيره إلى الغد لا يُسفر عن خطر .

ويُوجَدُ اعتبارُ آخرٍ يؤيِّدُ فائدةَ هذا للنهاج ، وهو مِثْلُ الولد الخاصِّ
الذي يجب أن يُعرَفَ جيداً لِيُعَلِّمَ أيُّ نظامٍ خَلَقِيَّ يلائمه ، فلكلِّ نفسٍ
جِبِلَّتُها الخاصة التي يجب أن يُحْكَمَ في أمر النفس وَفَقَّها ، والهمُّ في نجاح

كلَّ عناية أن تقوم على هذه الجميلة دون غيرها ، ويا أيها الرجال من ذوى البصائر ارقبوا الطبيعة طويلاً وأنعموا النظر فى تلميذكم قبل أن تقولوا كلمة له ، ودعوا بذرة سجيته تبدؤ طليقة ، ولا تلجئوه إلى أى أمر حتى ترؤه على حقيقته ، أو تظنون أنه يُضَيِّع دَوَرَ الحرية هذا ؟ كلاً ، سَيُنْتَفِعُ به على أحسن حال ، وذلك لأنكم ستعلمون عدمَ إنفاقِ ثانية إذا كان الوقتُ ثميناً ، وذلك بدلاً من كونكم إذا ما بدأتم بالعمل قبل أن تعرفوا ما يجبُ أن يُفعل قام عملكم على المصادفة ، وأمكن أن تُخدعوا ، ووجب أن تُعيدوا رَسَمَ الخطأ ، وستكونون أكثرَ ابتعاداً عن الهدف كلما زادت سرعتكم فى الوصول إليه ، ولا تفعلوا ، إذنْ ، كالبخيل الذى يَحْسُرُ كثيراً لكَيْلًا يَحْسُرَ شيئاً ، وَضَحُوا فى الدور الأول بزمانٍ ستستردونه مع الرِّبَا فى دورِ آتٍ من العُمُر ، وذلك كالطبيب الحكيم الذى لا يُعْطِى الوَصَفَاتِ بِطَيْشٍ عند أول نظرة ، والذى يَدْرُسُ مزاجَ المريض قبل أن يَفْرِضَ علاجاً ، أَجَلْ ، إنه يبدأ بمداواته متأخراً ، ولكنه يَشْفِيه ، على حين يَقْتُلُهُ الطبيبُ المستعجلُ كثيراً .

ولكن أين نَضَعُ هذا الولدَ لننشئته مثلَ موجودٍ فاقدِ الحِسِّ كتمثالِ آلِي ؟ أُنْمِسِكُهُ فى كُرَّةِ القمر أم فى جزيرةٍ قَفَرٍ ؟ أَوْ نُقْصِيهِ عن جميع البشر ؟ أفلا يكون له فى العالم ، باستمرارٍ ، مظهرُ أهواءِ الآخرين ومثالهم ؟ أفلا يرى أولاداً من لِدَانِهِ مطلقاً ؟ أفلا يرى أبويه وجيرانه ومرضعَه ومرِيتَه وخادمَه ، حتى مؤدِّبَه الذى لن يكون مَلَكاً مع ذلك كله ؟

هذا الاعتراضُ قوىٌّ متين ، ولكن هل قلتُ لكم إن التربية الطبيعية

عملٌ سهلٌ ؟ ويا أيها الناس ! هل أَعَدُّ مذنباً إذا كنتم قد جعلتم صعباً كُلَّ ما هو صالح ؟ أَسْعُرُ بهذه المصاعب ، وأعترف بها ، وهي مما لا يذَلُّ على ما يحتمل ، ولكن مما لا مِرَاء فيه دائماً أننا بسعيننا في اجتنابها نَتَجَنَّبُها إلى حَدٍّ ما ، وأُبَدِّي ما يجب أن يحاول للوصول إلى الهدف ، ولا أقول إن من الممكن بلوغه ، وإنما أقول إن الذي يَدْنُو منه أكثر من سواه يكون أحسنَ توفيقاً .

واذْكُرُوا أنه يجب على من يحاول تكوين رجلٍ أن يكون قبل ذلك رجلاً ، فيظهر مثلاً يُحْتَدَى ، ويَبْدَأ يكون الولدُ خالياً من المعرفة بعدُ يُوجدُ من الوقت ما يَعدُّ فيه كلُّ ما يَدْنِيه من حالٍ لا تقع عيناه فيها على غير الأشياء التي يلائمه أن ينظر إليها ، وكونوا محترمين لدى جميع الناس ، وابدءوا بأن تكونوا مُحِبِّين إليهم حتى يحاول كلُّ واحدٍ أن يَرْضِيَكُمْ ، ولن تكونوا سادة الولد إذا لم تكونوا رقباء على جميع من يحيطون به ، ولن يَكْفِيَ هذا السلطان إذا لم يَقُمْ على تقدير الفضيلة ، ولا يقوم الأمرُ على إ اتفاق ما في الكيس وتوزيع المال ذات اليمين وذات الشمال ، فلم أَرَقُطْ أن المال حَبَبَ إنساناً ، ولا يَنْبَغِي الظهورُ بمظهر البخيل الجافى ، ولا التوجُّعُ من بؤسٍ يُمكن تخفيفه ، ومن العَبَث أن تفتحوا خزانكم إذا لم تفتحوا قلوبكم ، فستظلُّ قلوبُ غيركم مُقْفَلَةً ، ويجب أن تُعْطُوا وقتكم وعنايتكم ومودتكم وأنفسكم ، وذلك لأنه مهما يكن ما تستطيعون فعله لا يَشْعُرُ بأن مالكم هو شخصكم مطلقاً ، ويوجدُ من دلائل النفع وحسن الالتفات ما يكون له أثرٌ أعظمُ من ذلك ، وما يكون أفيدُ من جميع العطايا في الحقيقة ، وما أكثر

التمسَاء والمرضى الذين يحتاجون إلى الترويح أكثر مما إلى الصدقات !
وما أكثر المضطهدين الذين تنفعهم الحماية أكثر من المال ! وأصلحو بين
المتحصنين ، وحولوا دُونَ رفع القضايا ، وأحمِلُوا الأولادَ على الواجب والآباء
على الإغضاء ، ويسرُّوا أمرَ الأنكحة السعيدة ، وامنعوا المظالم ، واستغلوا
وابذلوا ثقةَ أبوى تلميذكم نفعاً للضعيف الذى تُمسِكُ عنه العدالةُ والذى
يُرْهقه القوى ، وصرَّحوا عالياً بأنكم مُحمَّاةُ البائسين ، وكونوا منصفين
راحين محسنين ، ولا تقتصروا على الصدقة ، بل اصنعوا المعروف ، فأعمالُ
الرأفة تُفرِّجُ من الموموم أكثرَ مما يُفرِّجُ المال ، وأحيُوا الآخرين يُحبُّوكم ،
واخذِمُوهم يخدموكم ، وكونوا إخوةً لهم يَكُونُوا أولاداً لكم .

وهذا أيضاً من الأسباب التى تجعلنى أريد تربيةَ إسبلَ فى الأرياف
بعيداً من سيفلة الخدم الذين هم أخطأ الناس بعد معلمهم ، بعيداً من عادات
المدن السود التى يجعلها ما تُستَر بها من طلاء فاتنة مُعدية للأولاد ، وذلك
بدلاً من نقائص القرويين الخالية من المفريات ، والموصوفة بالغلظة فيسهل
رفضها أكثر من أن يُفوى بها إذا لم تقضِ المصلحة بتقليدها .

وفى القرية يكون المرَبِّى كثيرَ السيطرة على الأشياء التى يريد عَرَضُها على الولد ،
وفى القرية يكون لسمِّعته وأقواله ومثاله من السلطان ما لا يُمكن أن يكون
فى المدُن ، وبما أن المرَبِّى فى القرية يكون نافعاً لجميع الناس فإن كلَّ واحدٍ
يبادر إلى إرضائه وتثيل تقديره ، وإلى الظهور للتلميذ كما يودُّ المعلمُ أن
يكون عليه فى الحقيقة ، وإذا لم يُصلَحُ العيبُ فى القرية اجتَنِبَ العارُ على
الأقلِّ ، وهذا هو كلُّ ما نحتاج إليه فى موضوعنا .

وانتهوا عن لؤم الآخرين على ذنوب اقترفتموها ، فالأولاد يُفسدون بسوء يرون أكثر من سوء تُعلمون ، وأنتم ، إذ تكونون مُعْتَفِينَ دائماً ، خُلُقِينَ دائماً ، متحذلقين دائماً ، من أجل فكرة تُظنونهم إياها معتقدين صلاحها ، تُظنونهم عشرين فكرة أخرى لا قيمة لها ، وأنتم ، إذ تكونون مُقَعَمِينَ بما يدور في رؤوسكم ، لا تُبصرون ما تؤدون إليه من نتيجة في رؤوسهم ، أو تظنون أنه لا يوجد بين سيل الكلام الذي تُمروهم به بلا انقطاع كلامٌ يسيئون قَهْمَهُ ؟ أفترون أنهم لا يُفَسِّرون إيضاحاتكم المطوّلة على شاكلتهم فلا يجدون فيها من المواد ما يجعلون منه جهازاً يدركونه ثم يعارضونكم به في الوقت المناسب ؟

وأنصتوا لصبيٍّ صغيرٍ فَرِغَ من درسه منذ قليل ، ودَعُوهُ يَهْذِرُ وَيَسْأَلُ وَيَهْذِي على هَيْئَتِهِ ، تَذْهَبُوا من الشكل الغريب الذي اتخذته براهينكم في ذهنه ، فهو يَخْلُطُ بين كلِّ شيء ، وهو يَقْلِبُ كلَّ شيء ، وهو يُجْزِئُكم ، وهو يُجْزِئُكم أحياناً باعتراضاتٍ غيرٍ منتظرة ، وهو يَحْمِلُكم على السكوت أو على إسكاته ، وما يُمكن أن يكون تفكيره في أمر هذا السكوت من قِبَل رجلٍ يحبُّ الكلام كثيراً ؟ قُلْ السلام على التربية إذا ما نال هذه الفائدة وسَمَرَ بها ، فكلُّ شيء يَضِيع منذ تلك الدقيقة ، فهو يَعُودُ غيرِ طالبٍ أن يتعلَّم ، وإنما يحاول أن يَصُدَّكم .

ويا أيها المعلمون الغيُّرُ ، كونوا بَسْطَاءَ رُصْنَاءَ فُطُنًا ، فلا تُفْذِّبُوا في السَّيْر ما لم يكن هذا لِمَنْعِ سَيْرِ الآخرين ، وسأقول مُكَرَّرًا ، دائماً ، أَقْصُوا درساً صالحاً ، إذا أمكن ، خشية إلقاء دَرَسٍ سيِّئٍ ، واحذروا في

هذه الدنيا ، التي جَعَلَت الطبيعةُ منها أولَ فِرْدَوْسٍ للإنسان ، أن تمارسوا وظيفةَ الغاوى قاصدين مَنَحَ الولد البريء معرفةَ الخير والشرِّ ، وبما أنكم لا تستطيعون أن تَحُولُوا دون تَلَقُّي الولد أمثلةً من الخارج فاقصِرُوا جميعَ حَذَرِكُمْ على طبع هذه الأمثلة في ذهنه على الصورة التي تلائمه .

وتؤدى الأهواء الصائلةُ إلى أثر كبير في الولد الذي يشاهدها ، وذلك لأنها دلائلٌ محسوسةٌ تَقِفُ نظره وتَحْمِلُهُ على الانتباه إليها ، وَيَبْلُغُ الغضبُ في حِمِّيَّاه من الضجيج ما يَتَعَدَّرُ معه ألا يُدْرِك إذا كان تحت البصر ، ولا محلٌّ للسؤال عن كون هذا فرصةً لدى المعلم يُلقَى بها درساً جيلاً ، وى ! لا درسَ جميل ، لا شيء ، لا كلمة واحدة ، دَعُوا الولدَ يَأْتِ ، ولا يُعْرَزُ الولدُ أن يسألكم عن دَهَشٍ من المنظر ، والجوابُ بسيطٌ ، وهو يُسْتَخْرَج من ذات الأمور التي تَقِفُ حواسه ، هو يَرَى وَجْهاً ملتبهاً وعينين مشتعلتين وحركةً متوعدةً وَيَسْمَعُ صُراخاً ، وكلُّ شيء يدلُّ على اضطراب البدن ، وقولوا له بوقارٍ ومن غير غموض : « إن هذا الرجل المسكين مريضٌ ، إنه يعاني نوبةً حُمى » ، وَيُمْكِنُكُمْ أَنْ تَفْتَنُوا هذه الفرصة فتَقْطُوه بكلمات قليلة فكرةً عن الأمراض ونتائجها ، وذلك لأن هذا من الطبيعة أيضاً ، وذلك لأن هذا من قيود الضرورة التي يجب أن يَشْعُرَ بخضوعه لها .

وهل من الممكن عند هذه الفكرة ، التي ليست خاطئةً ، ألا يساوره باكراً نفورٌ من الاستسلام للأهواء الشديدة التي سَيَعِدُّها أمراضاً ؟ ألا زون أنه يكون لفكرٍ كهذا يُعْطَى في الوقت المناسب من الأثر البالغ ما يكون لأدعى مواعظ الأخلاق إلى السأم ؟ ولكن أَبْصِرُوا في المستقبل نتائج الفكرة

الآتية وهى : ها أنتم أولاء مآذونون ، وذلك عندما تُلزَمون ، فى معالجة ولدٍ عاصٍ كولدٍ مريض ، وفى حَصْرِهِ ضِمْنَ غِرفته ، وعلى سِريره عند الاقتضاء ، وفى إلزامه بِحِمِيَّةٍ ، وفى تخويفه من نقائصه الناشئة ، وفى جَمْلِهَا كَرِيهَةٍ مُرْعَبَةٍ ، وذلك من غير أن يَعدَّ عقوبةً ما قد تضطرون إلى اتخاذه من شِدَّةٍ لشفائه من ذلك ، وإذا حَدَّثَ لكم أن خَرَجْتُمْ فى ساعةٍ حِدَّةٍ من برودة دمكم واعتدالكم الذى يجب عليكم أن تقيموا عليه دراستكم فلا تحاولوا أن تُخَفُّوا عنه خطأكم ، ولكن قولوا له بصراحةٍ ولزم مع خَفَضِ جَنَاحٍ : « لقد آذيتنى يا صديقى » .

ثم إن من المهمَّ ألا تُثَارَ أمام الولد جميعُ السَّذَاجَاتِ التى قد تنشأ فيه عن بساطة الأفكار التى غُدِّيَ بها ، ولا أن تُذَكَّرَ على وَجْهِه يُمكن معه أن يَذكرَها ، ومن الممكن أن تُفْسِدَ قَهْقَهَةٌ واحدةَ عملٍ ستة أشهر ، وأن تُحْدِثَ من الضرر ما لا يُمكن تلافيه مدى الحياة ، ولا أستطيع أن أقول مكرراً إن من يودُّ أن يسودَّ الولد أن يكون سيدَ نفسه ، وأنتمَلُ إميلَ الصغيرَ عند اشتداد شِجارٍ بين جارين متقدمًا نحو أكثرهما هياجًا قائلاً له بَتَحَنٍّ : « أنت مريضٌ يا جار ، وأنا حزينٌ من أجلك كثيراً » ، ولا ريبَ فى أن هذا الاحتداد لا يبقى بلا أثرٍ فى الحضور ، وفى المتنازعين ، وإنى ، من غير ضحكٍ ولا تعزيرٍ ولا مدحٍ ، آتى به طوعاً أو كَرْهًا قبل أن يستطیع إدراكَ ذاك الأثر ، أو قبل أن يُفَكِّرَ فيه عَلَى الأقل ، وأبادر إلى إلهائه بأمورٍ أخرى تُنْسِيهِ ذلك سريعاً .

وليس من مقاصدى أن أدخل باب التفصيل مطلقاً ، وإنما أرى أن

أَعْرِضُ الْمُبَادِئَ الْعَامَةَ وَأَنْ أُرِدَّ أَمْثَلًا فِي الْأَحْوَالِ الصَّعْبَةِ ، وَأَجِدُ أَنْ مِنَ الْمَتَعَذِّرِ فِي سِوَاءِ الْجَمْعِ أَنْ يُؤْتَى بَوْلَدٍ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ سِنِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْطَى فِكْرَةٌ عَنْ صِلَاتِ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ وَعَنْ خُلُقِيَّةِ الْأَعْمَالِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَيَكْفِي أَنْ يُسَمَّى فِي تَلْقِينِهِ هَذِهِ الْمَعَارِفَ فِي آخِرِ وَقْتٍ مَا أَمَكُنْ ، فَتَمَى أَصْبَحَتْ لَا مَمَرًا مِنْهَا قُصِّرَتْ عَلَى النِّعَمِ الْحَاضِرِ لِكَيْلَا يَعْتَقِدَ أَنَّهُ سَيَدُ الْجَمِيعِ أَوْ لَثَلَا يُؤْذِي الْآخَرِينَ بَلَا تَرَدُّدٍ وَعَنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ ، أَجَلْ ، تُوجَدُ طِبَائِعُ كَيِّفَةٍ هَادِنَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُؤْتَى بِهَا إِلَى بَعِيدٍ ، وَبَلَا خَطَرٍ ، فِي بَرَاءَتِهَا الْأُولَى ، وَلَكِنَّهُ يُوجَدُ أَيْضًا مِنَ السَّجَايَا الصَّالِحَةِ مَا يَنْمُو جَفَاؤُهَا بَاكِرًا ، فَيَجِبُ أَنْ يُجْعَلَ مِنْهَا رَجَالٌ عَلَى عَجَلٍ ، حَتَّى لَا تَقْضِيَ الْضَرُورَةُ بِتَقْيِيدِهَا .

وَتَكُونُ وَاجِبَاتُنَا الْأُولَى نَحْوَ أَنْفُسِنَا ، وَتَجْمَعُ مَشَاعِرُنَا الْإِبْتِدَائِيَّةَ فِي أَنْفُسِنَا ، وَتَهْدِفُ جَمِيعُ حَرَكَاتِنَا إِلَى بَقَائِنَا وَرِفَاهِيَّتِنَا فِي الْبُدَاءَةِ ، وَهَكَذَا نَأْنِ شُعُورُنَا الْأَوَّلَ بِالْعَدْلِ لَا يَأْتِينَا مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْوَ الْآخَرِينَ ، بَلْ مِنَ الْوَاجِبِ نَحْوَ أَنْفُسِنَا ، وَهَذَا يَنَاقِضُ أَنْوَاعَ التَّرْبِيَةِ الشَّائِعَةِ الَّتِي تُحَدِّثُ الْأَوْلَادَ عَنْ وَاجِبَاتِهِمْ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ، لَا عَنْ حَقُوقِهِمْ مُطْلَقًا ، فَتُكَلِّمُهُمْ بِعَكْسِ مَا يَجِبُ ، أَيْ بِمَا لَا يُدْرِكُونَ وَبِمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ .

إِذَنْ ، لَوْ قُدِّرَ لِي أَنْ أُسَيِّرَ وَلَدًا كَمَا أَفْتَرِضُ لَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « إِنْ الْوَلَدُ لَا يَهْجُمُ عَلَى أَحَدٍ ^(١) ، بَلْ يَهْجُمُ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، وَلَا يَلْبَثُ الْوَلَدُ

(١) لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَحَ لِلْوَلَدِ بِأَنْ يَمَارِسَ الْكِبَارَ ، وَلَا مِنْهُمْ مَسَاوُونَ لَهُ ، كَمَا يَمَارِسُ مِنْهُمْ «دَفْعَهُ» وَإِذَا مَا أَقْدَمَ عَلَى ضَرْبِ شَخْصٍ ضَرْبًا جَدِيدًا ، وَلَوْ كَانَ تَخَادُمَهُ ، وَلَوْ كَانَ الْجِلَادَ ، فَدَعَا الْمُتَعَذِّرَ عَلَيْهِ يَرُدُّ الضَّرْبَاتِ إِلَيْهِ مَعَ الرِّبَا ، حَتَّى لَا يَمُودَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ أَبَدًا ، وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الرِّبَابِ الْغَافِلَاتِ مِنْ يَثْرُنُ عِنَادِ الْوَلَدِ وَيَحْرُسُهُ عَلَى الضَّرْبِ وَيَدَعُهُ يَضْرِبُهُنَّ فَيَضْحَكُنَّ مِنْ ضَرْبَاتِهِ الضَّعِيفَةِ غَيْرِ مَفْكِرَاتٍ فِي كَوْنِ =

أن يتعلّم بالتجربة. احترام من هو أكبر منه سناً وأشدّ قوةً ، يبيد أن الأشياء لا تدافع عن نفسها بنفسها ، ولذا يجب أن تقوم الفكرة الأولى التي يُعطّاها على الملكية أكثر مما على الحرية ، وهو لا بدّ من أن يكون مالكاً لشيء حتى تكون عنده هذه الفكرة « ، ولا فائدة من ذكر ثيابه وأمتعته ولُصْبِهِ له ، فهو ، وإن كان يتصرف في هذه الأشياء ، لا يعرف سبب تملكها لها ولا كيف تملكها ، ولا طائل في أن يُقال له إنه مَلِكُها لأنه أُعْطِيَهَا ، وذلك لأنه لا بدّ من العطاء لتويع التملك ، وهذا ، إذن ، تملك سابقٌ لتملكه ، وهذا هو مبدأ التملك الذي يراد إيضاحه له ، وهذا من غير حساب لكون العطاء عقداً ، ولكون الولد لا يستطيع أن يعرف ما القدُّ أيضاً^(١) ، فيا أيها القراء ، أرجو منكم أن تلاحظوا في هذا المثال ، وفي مئة مثالٍ آخر ، كيف أنه يُعتقَد ، مع ذلك ، حسنُ تعليم الأولاد بشحن رؤوسهم بكلمات لا معنى لها عند ما تكون في متناولهم . ولذلك يجب الرجوع إلى أصل التملك ، وذلك لوجوب صدور الفكرة الأولى عنه ، وإذا ما عاش الولد في الأرياف فاز ببعض المعارف عن الأعمال الحقلية ، ولا يستلزم هذا غيرَ عيونٍ وفراغ ، وهما يتفقان للولد ، ونحن في كلِّ دورٍ ، ولا سيما دورُ الطفولة ، نُريد الإبداع والتقليد والإنتاج وإبداء علامات القوة والنشاط ، وهو لا يكاد يرى حرثَ الحديقة وبذرَ الخضر ونبتها

« هذه الضربات هي ضربات قاتلة في نية الهائج الصغير ، وفي كون الصغير إذا أراد الضرب في صفه أراد القتل في كبره .

(١) هذا هو السبب في كون معظم الأولاد يريئون استرداد ما يعطون ، وأنهم يبتكون عند ما لا يراد رد ذلك إليهم ، وما كان هذا ليحدث لهم لو تمثّلوا ما العطاء ، وهذاك يكونون أشد حذراً حينما يعطون .

ونموّها مرتين حتى يريد العمل في الحداثق من ناحيته .
 ولا أعارضُ رغبةَ الولد ، مطلقاً ، بالمبادئ المقرّرة آتفاً ، وإنما أؤيدها ،
 وأقاسمه مثيله ، وأعمل معه ، لا من أجل بهجته ، بل من أجل بهجتي ،
 وهو يظنُّ هذا على الأقلّ ، وأصبحُ عامله البستانيّ ، وأخرثُ الأرضَ له
 ريشماً بصيرُ ذا ذراعين ، وهو يحوز الأرضَ برزعه فولاً ، ولا ريبَ في
 أن هذه الحيازة أقدسُ ، وأدعى إلى الاحترام ، من حيازة نونيس بلّبوّا
 لأمرينة باسم ملك إسبانية ، وذلك حين نصّب علمه على سواحل بحر
 الجنوب .

ويؤنّي لسقي الفول كلَّ يومٍ ويرى نبتته بفرح كثير ، وأزيدُ هذا
 الفرح بقولي له : « هذا مالك » ، وهناك أشرح له معنى « مالك » ،
 فأشعره بأنه وضع هناك وقته وعمله وتعبه ثم شخصه ، وبأنه يوجدُ في
 هذه الأرض شيء من نفسه يُمكنه أن يدعى به تجاه جميع العالم ، وذلك
 كاستطاعته أن يسحب ذراعه من يد رجل آخر يريد إمساكها على
 الرغم منه .

ويصل ذات يومٍ مُسرِعاً حاملاً مرشّته ، فيأله من منظر ! ويأله من
 ألم ! فقد قُلِعَ جميعُ الفول ، وقد قُلِبَت جميعُ الأرض ، ولا يكاد الموضعُ
 يُعرَف ، وى ! ما دهمى على وأثرى وثمره عنايتي وعرقى ؟ من ذا الذى
 سآبنى مالى ؟ من ذا الذى أخذ فولى ؟ ويثورُ هذا الفؤادُ النقيّ ، وبأبى
 أولُ شعورٍ بالظلم لسكب مرارته الشجيّة ، وتسيل الدموع كالجدول ، ويمتلأ
 الولدُ الحزينُ بعويله وصراخه الهواء ، ويشاطرُ الولدُ أله غيظه ، ويتلمّسُ ،
 (١٠)

وَيُسْتَعْلَمُ ، وَيُدَقَّقُ فِي الْأَمْرِ ، وَأَخِيرًا يُعْلَمُ أَنَّ الْبِسْتَانِيَّ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذِهِ الضَّرْبَةَ ، فَيُخَضَّرُ .

وَلَكِنْ ، هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ بَعِيدُونَ مِنَ الصَّوَابِ ، فَقَدْ عَلِمَ الْبِسْتَانِيُّ بِمَا يُشْتَكَّى مِنْهُ وَأَخَذَ يَتَوَجَّعُ بِأَشَدِّ مَا تَتَوَجَّعُ .

مَاذَا ! أَنْتُمْ الَّذِينَ أَفْسَدُوا عَمَلِي يَا سَادَتِي ! فَقَدْ زَرَعْتُ شَمَامًا مَالِطِيًّا كُنْتُ قَدْ أُعْطِيتُ حَبِّهِ مِثْلَ كَنْزٍ فَرَجَوْتُ أَنْ أَطْعِمَكُمْ مِنْهُ عِنْدَ مَا يَنْضَجُ ، وَلَكِنَّكُمْ أَهْلَكْتُمْ شَمَامِي النَّابِتَ الَّذِي لَا أَعْوَضُ مِنْهُ زَارِعِينَ فَوَلَّكُمُ الْهَزِيلَ ، وَقَدْ اقْتَرَقْتُمْ خَطَأً لَا يُتَلَاَفَى نَحْوِي ، وَقَدْ حَرَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لَذَّةَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّمَامِ الْفَاخِرِ .

جَانِ جَاكِ : عَفْوًا ، يَا رُوبِرْتُ الْبَائِسُ ، لَقَدْ وَضَعْتَ هُنَاكَ عَمَلَكِ وَتَعَبَكِ ، وَأَرَى جَيِّدًا أَنَّنَا أَخْطَأْنَا إِذْ أَفْسَدْنَا صَنْعَكَ ، وَلَكِنَّا سَنَأْتِي بِبَذْرِ مِنْ مَالِطَةٍ ، وَلَنْ تَحْزُنْتَ أَرْضًا قَبْلَ أَنْ نَعْرِفَ هَلْ وَضَعَ أَحَدٌ يَدَهُ عَلَيْهَا قَبْلَنَا .

رُوبِرْتُ : وَيْ ! حَسَنًا يَا سَادَتِي ، يُمَكِّنْكُمْ أَنْ تَسْتَرِيحُوا إِذَنْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَادَ لَا يَوْجَدُ مِنَ الْأَرْضِ مَا هُوَ بُورٌ ، وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَخْرُتُ الْأَرْضَ الَّتِي أَصْلَحَهَا أَبِي ، وَكُلُّهُ يَعْمَلُ عَيْنَ الشَّيْءِ مِنْ نَاحِيَتِهِ ، وَجَمِيعُ الْأَرْضِينَ الَّتِي تَرَوْنَ مَمْلُوكَةٌ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ .

إِمِيل : إِذَنْ ، يَوْجَدُ فِي الْغَالِبِ ، يَا مَسِيو رُوبِرْتُ ، بَذْرُ شَمَامٍ مَفْقُودٌ ؟

رُوبِرْتُ : عَفْوًا يَا أَخِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَأْتِينَا مِنْ صَفَارِ السَّادَةِ مَنْ

بالغوا مثل طيشك في الغالب ، فلا أحد يمس حديقة جاره ، وكل يخدم عمل الآخرين حتى يطمئن إلى عمله .

إميل : ولكن لا حديقة لي مطلقاً .

روبرت : وما أهمية ذلك ؟ إذا ما أفسدت حديقتي لم أدعك تنزعه فيها مطلقاً ، وذلك لأنني لا أريد أن أخسر تعبي كما ترى .

جان جاك : ألا يمكن عرض تسوية على روبرت الصالح ؟ فليعطاني أنا وصديقي الصغير ، قطعة من حديقته لزراعها على أن يكون له نصف الغلة . روبرت : أعطيك إياها بلا شرط ، ولكن اذكروا أنني أذهب لقلب فولكا إذا ما لستما شامئاً .

ويرى ، من هذه المحاولة في إدخال المعارف الابتدائية إلى ذهن الأولاد ، كيف أن مبدأ التملك يرجع بحكم الطبيعة إلى حق المالك الأول بالعمل ، وهذا واضح صريح بسيط ، وهو في متناول الولد دائماً ، ولا يوجد من هناك حتى حق التملك والمعاوضات غير خطوة واحدة ، فإذا تمت وجب الوقوف بلا زيادة .

ومما يرى ، أيضاً ، أن إيضاحاً أدرجه في صفحتين من الكتابة هنا سيكون عمل عام في التطبيق ، وذلك لأنه لا يمكن أن يتقدم في ميدان الأفكار الخلقية على مهل بالغ ولا أن يسار بخطاً راسخه كثيراً ، وبإشباب المعلمين فكروا في هذا المثال كما أرجوكم ، واذكروا أن دروسكم في كل أمر يجب أن تكون أعمالاً أكثر منها أقوالاً ، وذلك لأن الأولاد ينسون بسهولة ما يقولون وما يقال لهم ، لا الذي يصنعون ولا ما يصنع لهم .

ودروس كهذه مما يجب إعطاؤه عاجلاً أو آجلاً كما قلت ، وذلك وفق ما تقتضيه طبيعة التلميذ الهادئة أو المعزّية من تعجيل أو تأجيل للحاجة إليها ، وطريق استعمالها هو من الواضح ما هو بادر لكلّ ذى عينين ، ولكن لتأتّ بمثل آخر لكيلا نهمل شيئاً مهماً في الأمور الصعبة .

ويُتلف ولدكم الشكس كلّ شيء يمسّه ، فلا تفضّبوا من هذا مطلقاً ، وإنما اجعلوا كل ما يستطيع إتلافه في مكان لا تصل يده إليه ، وهو يكسر الأمتعة التي يستعملها ، فلا تسرعوا في إعطائه بدلاً منها مطلقاً ، ودعوه يشعر بأذى الحرمان ، وهو يكسر زجاج نوافذ غرفته ، فدعوا الريح تلطمه ليلَ نهار غير مبالين بزكاه ، فلأن يصاب بالزكام خير من أن يكون مجنوناً ، ولا تشكّوا من إزعاجه لكم ، ولكن دعوه يكون أول من يشعر به ، وأخيراً تحمّلون على إصلاح زجاج النوافذ من غير أن تقولوا شيئاً ، وإذا ما عاد إلى الكسر فغيروا الأسلوب ، وقولوا له بحفاء ، ولكن من غير غضب : « إن النوافذ لي ، وهي قد وُضعت هنالك بجهد مني ، فأريد أن أصونها » ، ثم اخبسوه في مكان مظلم خالٍ من النوافذ ، ويبدأ بالصراخ والهياج عند هذه الطريقة الجديدة ، ولا يُضغى إليه أحد ، ولا يلبث أن يتعب ويُغيّر لهجته ، ويتوجع ، ويئن ، ويحضّر خادم ، ويرجو العاصي منه أن ينقذه ، ويقول الخادم له من غير اعتذار عن عدم تلبية طلبه : « لنوافذ زجاج يجب أن أحافظ عليه » ، وينصرف ، وأخيراً ، بعد أن يَمَكُث الولدُ عدّة ساعات هنالك ، أي زمناً يكفي لسأله وانطباع ذلك في ذهنه ، يقترح عليه أحد الناس بأن يعرض عليكم عهداً يُعيدون

به حرّيته ولا يعود إلى كسر زجاج النوافذ ، ولا يَطْلُبُ ما هو أحسنُ من هذا ، وَيُرْسِلُ مَنْ يَرْجُو مِنْكُمْ أَنْ تَأْتُوا لرؤيته ، وتحيئون ، ويُقدِّمُ إليكم عهدَه ، وتوافقون عليه من فوزكم قائلين له : « هذه فكرةٌ حسنةٌ جداً ، ولكلانا كَسْبٌ فيها ، وَلِمَ لَمْ تُبْدِها باكرًا ؟ » ، وَتَقْبَلُونَهُ فَرِحِينَ غيرَ مطالبين إياه بتأييدٍ لوعده أو تأكيدٍ ، وتأتون به إلى غرفته حالاً عَادِينَ هذا العهدَ مقدساً مَصُونًا كما لو وُكِّدَ بِيمينٍ ، وتَرَوْنَ أَيْ فِكْرَ يَنال بهذه الطريقة عن الوفاء بالعهود وفائدتها ؟ أكون مخطئًا إذا وُجِدَ في العالم ولدٌ واحدٌ ، غيرُ فاسدٍ سابقًا ، يستطيع المقاومة فيُقدِّمُ على كسرِ زجاجِ نافذةٍ قَصْدًا ، وَتَتَّبِعُوا سلسلةَ جميع هذا ، ولم يُبْصِرِ الخبيثُ الصغيرُ أنه ، بإحداثه حُفْرَةَ لَزَرعِ فوله ، كان يَحْفِرُ حُجَيْرَةَ مظلمةً لَا يُعْتَمُّ علمه أن يَحْبِسَهُ فيها^(١) .

ونحن الآن في العالمِ الخُلُقِيِّ ، وهاهو ذا البابُ مفتوحٌ للعيب ، ويُولَدُ الخُلداعُ والكذب مع العهود والواجبات ، ويرَادُ كتمان ما وَجَبَ أَلَّا يُصْنَعَ منذ إمكان صنع ما يجب ألا يُصْنَعَ ، ومتى قضت المصلحة بالوعد أمكن

(١) وفضلًا عن ذلك فإن هذا الواجب في محافظة الولد على عهوده لا يرسخ في روح الولد بفعل فائدته ، ولا يلبث الحس الباطني أن ينفو فيقرضه عليه كقانون للفسير ، كبدٍ غريزي لا ينتظر نفعه غير المعارف التي يطبق عليها ، ولم يرسم هذا الخط الأول بيد الناس ، بل نقش في قلوبنا من قبل صانع كل عدل ، وأزيلوا قانون العهود الابتدائي والالتزام الذي يفرضه تجلوا كل شيء في المجتمع البشري وهيأ باطلا ، ومن لم يحافظ على وعده إلا عن منفعة له فإنه لا يكون مرتبطًا فيه بأكثر مما لو كان لم يعط وعدًا قط ، أو إنه يكون في القدرة على نقضه كالمغامرين الذين لا يترشون في الاستفادة من تفوتهم إلا ليرقبوا الدقيفة التي يزيدون فيها كسبهم ، وهذا المبدأ من الأهمية بمكان عظيم ، وهو يستحق كل تعمق ، وذلك لأن الإنسان يأخذ في مناقضة نفسه هنا .

مصلحةً أعظمَ منها أنْ تَحْمِلَ على نقض الوعد ، ولا تكاد المسئلة تقوم على نقضه بلا عقاب ، فالوسيلةُ طبيعية ، وذلك أنه يُكْتَتَمُ أو يُلْجَأُ إلى الكَذِبِ ، ونحن إذْ لم نستطع منع العيب فإتينا نكون في وَضْعٍ من يعاقب العيب كما ترى ، وهذه هي أبْوَسُ الحياة البشرية التي تبدأ مع زَلَّاتها .

وقد قلتُ ما فيه الكفاية لإثباتي عدمَ وجوبِ فرضِ العقاب على الأولاد للعقاب ، وإنما لينالوه كنتيجةً طبيعية لسوء ما يفعلون ، وهكذا فإنكم لا ترفعون عقيرتكم في وَجْه الكَذِبِ مطلقاً ، ولا تجازونهم على كذبهم ضبطاً ، ولكنكم تَصُبُّونَ على رؤوسهم جميع نتائج الكذب عند ما يكذبون ، كما لو كنا لا نُصَدِّقُ عند قولنا الحقَّ ، وكنا نُنْهَمُّ بِشَرِّ لم نفعله قطُّ ، على الرغم من دفاعنا ، ولكن لنوضح معنى الكذب عند الأولاد .

ويوجد للكذب نوعان : فالنوعُ الأول يقوم على الوقائع في الماضي ، ويقوم النوعُ الثاني على الحق في المستقبل ، ويحدث النوعُ الأول عند إنكارِ فعلٍ ما فُعل أو تأكيد فعلٍ لم يُفعل ، أى أن يحدث ، على العموم ، وعن علمٍ ، خلافَ حقيقة الأمور ، ويحدث النوع الثاني عند ما يُوعَدُ بما يُقصدُ عدمُ القيام به ، أى أن تُبدى ، على العموم ، نيةً مخالفةً لما في النفس ، ويُمكن نوعي الكذب هذين أن يجتمعا في واحدٍ ^(١) أحياناً ، ولكني أنظر إليهما هنا بما ينطويان عليه من اختلاف .

ومن يَشْعُرُ باحتياجٍ إلى مساعدة الآخرين ، ولم ينفك يَشْعُرُ بعطفهم ،

(١) وذلك كحال المذنب المتهم بإحدى القبائح فيدافع عن نفسه بقوله إنه رجل صالح ، فهو

بهذا يكذب في الوقائع وفي الحق .

لا تكون لديه مصلحة في مخادعتهم ، وهو ، على العكس ، ذو مصلحة ملووسة في رؤيتهم الأمور كما هي ، وذلك خشية أن يُخدعوا فيصيبه ضرر ، ولذا فإن من الواضح أن الكذب في الوقائع غير طبيعي في الأولاد ، وإنما دستور الطاعة هو الذي يؤدي إلى ضرورة الكذب ، وذلك لأن الطاعة ، إذ كانت شاقةً يُتَخَلَّصُ منها خفيةً ما أمكن ، ولأن المصلحة الحاضرة في اجتناب العقاب والعتاب تفوق المصلحة البعيدة في قول الحق ، ولم يكذبكم ولدكم في التربية الطبيعية الحرة إذن ؟ وما لديه ما يكتم عنكم ؟ أنتم لا تلومونه مطلقاً ، أنتم لا تعاقبونه على شيء ، ولا تطلبونه بشيء ، فلم لا يقول لكم جميع ما صنع بسذاجة كما يقول لرفيقه الصغير ؟ لا يمكن أن يرى في هذا الاعتراف خطراً أكبر مما في عدمه .

والكذب عن حق أقل قرباً إلى الطبيعة ما دام الوعد بالعمل أو الامتناع عن العمل من الأفعال العهدية الخارجة عن حال الطبيعة والمخالفة للحرية ، وذلك فضلاً عن كون عهود الأولاد باطلةً بنفسها نظراً إلى أن بصرهم المحدود لا يمكن أن يمتد إلى ما وراء الحاضر ، فلا يعرفون ما يفعلون إذا ما ألزموا أنفسهم بأمر ، ولا يكاد الولد يكذب إذا ما ألزم نفسه ، وذلك أنه لا يفكر في غير التخلص من ورطة في الساعة الحاضرة فتساوى عنده جميع الوسائل التي لا يكون لها أثر حاضر ، وهو إذا ما وعدَ لزمنٍ قادم لم يعد شيئاً ، وما كان خياله الذي لا يزال راقداً ليَعْرِفَ أن يمدَّ وجوده إلى زمنين مختلفين مطلقاً ، فإذا ما استطاع اجتناب السوط أو نيل قرض من السكر بأن يمدَّ بإلقاء نفسه من النافذة غداً وعدَّ بذلك من فوزه ، وهذا هو السبب

في كون القوانين لم تلتفت إلى عهود الأولاد ، وإذا حَدَّث أن طالبهم الآباء والمعلمون بأن يَفُؤا بعهودهم وشَدَّدوا كان هذا مقصوداً على ما يجب أن يفعله الولد ولو لم يَعِدْ به .

وبما أن الولد لا يَعْرِف ما يَفْعَلُ حينما يُلْزَم نفسه فإنه لا يستطيع أن يَكْذِب حينما يُلْزَم نفسه إِذَنْ ، وليس الأمرُ هكذا عند عدم وفائه بعهده ، وهذا ضَرْبٌ من الكذب سارٍ على ما قَبْلَهُ ، وذلك أنه يَذْكُرُ جيداً أنه قام بهذا العهد ، ولكن الذي لا يُبْصِر هو أهمية الوفاء به ، وهو إذ كان لا يستطيع أن يُبْصِرَ المستقبلَ فإنه لا يستطيع أن يُبْصِرَ نتائج الأمور ، وهو إذا ما أُخِلَّ بالتزاماته لم يَصْنَعْ شيئاً مخالفاً لداعى سِتِّهِ .

ومن ثَمَّ يَرَى أن كذب الأولاد من عمل للملمين ، وأن الرغبة في تعليمهم قولَ الصدق ليست شيئاً آخرَ غيرَ تعليمهم الكذب ، ولا تَجِدُون في غيركم أن تُنظِّمُوا أمورهم وترَقِّبُوهم وتَعْلَمُوهم من الوسائل ما يَكْفِي للنجاح ، وتريدون أن تكونوا ذرى نفوذٍ طريفٍ في نفوسهم ببادئ لا أساسَ لها وبقواعد خالية من الصواب ، وتُفَضِّلُون أن يَعْرِفُوا دروسهم وأن يَكْذِبُوا على أن يَنْبَقُوا جاهلين وصادقين .

وأما نحن ، الذين لا يُلْقَوْنَ على تلاميذهم غيرَ دروسٍ علمية ، والذين يُفَضِّلُون كونهم صالحين على أن يكونوا علميين ، فإننا لا نطالبهم بالصدق مطلقاً خشية أن يَكْشَوْه ، ولا نَحْمِلُهُمْ على الوعد بشيء يحاولون عدم الإيفاء به ، وإذا وَقَعَ ضررٌ في غِيَابِي لا أعْرِفُ فاعله احتزرتُ من اتهام إميل أو من قولي له :

« أنت فعلتَ هذا ؟ » ^(١) ، وذلك لأننى ما أضنعُ بهذا غيرَ تعليمه إنكار ذلك ؟ وإذا كان طبعه الصعبُ يَحْمِلُنِي على وضع عهدٍ معه فإننى أتخذُ من التدابير ما يودى إلى صدور اقتراح ذلك عنه ، لا عنى مطلقاً ، وهو إذا ما ألزم نفسه كانت لديه مصلحةٌ حاضرةٌ ملموسةٌ في القيام بعهده ، وهو إذا ما أخلَّ به جلب هذا الكذبُ له من الأضرار ما يُبْصِرُ ظهوره من نظام الأمور نفسه ، لا من انتقام مُرَبِّيهِ ، ولكننى ، إذ أبتعد عن ضرورة الالتجاء إلى مثل هذه الوسائل الجافية ، أكاد أطمئن إلى أن إميل سَيَعْلَمُ مؤخراً ما الكذب ، وهو إذ يَعْلَمُهُ يمتريه دَهْشٌ من عدم استطاعته أن يتصور وجودَ فائدةٍ في الكذب ، ومن الواضح جداً أننى كلما جعلتُ هناءته مستقلةً عن إرادة الآخرين وأحكامهم قطعتُ عنه كلَّ منفعةٍ في الكذب .

وإذا لم نَتَعَجَّلِ التعليمَ لم نَتَعَجَّلِ في السؤال مطلقاً ، ولم نطالب بشيء في غير الوقت المناسب ، وهناك يتكوّن الولد بما لا يَفْسُدُ معه أبداً ، ولكن المعلم إذا كان من الطيش ما لا يَعْرِفُ معه كيف يقوم بعمله فيحمل تلميذه على الوعد بهذا أو ذاك بلا تمييز ولا خيارٍ ولا قياس فإن الولد ، الذى يكون قد أَمَلَتْهُ هذه الوعودُ وأثقلتْ ، يَهْمِلُهَا وينساها ويزدريها في آخر الأمر ، وهو إذ يَعُدُّهَا صِيغَةً فارغةً فإنه يَتَلَهَّى بِصُنْعِهَا ونَقْصِهَا ، فإذا أردتم أن يكون مخلصاً في الإيفاء بوعوده فكونوا فطناً في مطالبته بها .

(١) لا شيء أبعد من الصواب ك هذه الأسئلة ، ولا سيما عندما يكون الولد مدنياً ، وذلك أنه إذا اعتقد أنكم تعرفون ما صنع أبصر أنكم تنصبون له شركاً ، ولا تخلو هذه الفكرة التى تساوره من أن تقلقه ضدكم ، وهو إذا لم يعتقد ذلك قال في نفسه : « لم أبرح بذنبى ؟ » ، وهكذا تكون هذه المحاولة الأولى في الكذب نتيجة سؤلكم العائش .

وما أتيتُ من تفصيلِ حَوَلِ الكذبِ يُمكنُ أن يطبَّقَ ، من نواحٍ كثيرة ، على جميع الواجبات الأخرى التي لا تُفَرِّضُ على الأولاد إلا لتكون بغيضةً غيرَ عمليةٍ لديهم ، وهم يُحْمَلُونَ على حبِّ جميع العيوب ليُظَهَرَ بِمُظَهَرِ الواعظ لهم بالفضيلة ، وهم يُعْطَوْنَها بمنعمهم من حيازتها ، وإذا أُريدَ جعلهم أتقياءً أُتِيَ بهم إلى الكنيسة ليُحْمَلُوا على الذنَّة بالصلوات ، فيُلْجَأُوا إلى ابتغاء السعادة في عدم دعوة الرَّبِّ ، وهم ، لكي يُوحَى إليهم بحبِّ الخير ، يُلْزَمُونَ بإعطاء الصدقة كما لو كنتم تزدرون إعطاءها بأنفسكم ، حسنًا ! فالعلمُ لا الولدُ ، هو الذي يجب أن يُعْطَى ، ومهما بَلَغَ المعلمُ من حُبِّهِ لتلميذه وَجَبَ أن يَنَازِعَهُ هذا الشرف ، أى يجب أن يَحْمِلَهُ على الحكم بأن من هو في سِنِّهِ ليس أهلاً لذلك ، وذلك لأن الصدقة عملُ رجلٍ يَعْرِفُ قيمةَ ما يُعْطَى وحاجةَ الناس إليها ، ولا يُمكنُ الولدُ ، الذي لا يَعْرِفُ شيئاً من هذا ، أن يكون ذا مزيةٍ في العطاء ، وذلك أنه يُعْطَى عن غير خيرٍ ولا حسنة ، وهو يكون على استحياء في العطاء تقريباً عند ما يعتقد ، مستنداً إلى مثاله ومثاليكم ، أنه لا يوجد غيرُ الأولاد من يُعْطَى ، وأنه لا صدقةَ بعد أن يَكْبُرُوا .

واعلموا أن الولد لا يُحْمَلُ على إعطاء شيءٍ غير ما يَجْهَلُ قيمته ، أى غيرِ قِطْعٍ معدنيةٍ يَحْمِلُها في جيبه فلا تَنْفَعُهُ في غيرِ هذا ، ويُفَضَّلُ الولد إعطاء مئة دينارٍ على قطعةٍ من الحلوى ، ولكن حَرَّضُوا هذا الموزعَ المُبَدِّرَ على إعطاء الأشياء العزيزة عليه كُلِّبَةٍ ومُكَلِّبَةٍ وِعَدَانِهِ لِنَعْلَمَ من فَوَرِنَا هل جعلتموه كريماً .

وَتُوجَدُ تجربةٌ أخرى لذلك أيضاً ، وهي أن يُبَادَرَ إلى إعادة ما أُعْطِيَ

الولد ، وذلك أن يُعوّد إعطاء كل ما يَعْلَم جيداً أنه يَعُود إليه ، ولم أرَ في الأولاد ، قط ، غير هذين النوعين من الكرم ، وهما : أن يُعطوا ما هو غير صالح لشيء عندهم ، أو أن يُعطوا ما يعتقدون أنه يُعاد إليهم ، ويقول لوك : « اصنعوا ما يَقْنَعُون معه ، عن تجربة ، بأن الأكثر سخاء هو الأكبر حصّة دائماً » ، وهذا ينطوي على جمل الولد سخياً ظاهراً وبخياً حقيقةً ، وإلى ذلك يُضيف لوك قوله : « وهكذا يَأْلَف الأولاد عادة الكرم » ، أجل ، كرم مُربٍ يقوم على إعطاء بِيَضّة نيلاً لبقرة ، ولكن قُلّ السلام على العادة إذا ما قام الأمر على عطاء حقيقى ، وإذا ما كُفّ عن الإعادة كُفّ عن العطاء حالاً ، ويجب أن يُنْتَبَه إلى عادة الروح أكثر مما إلى عادة الأيدي ، وتشابه هذه جميع الفضائل الأخرى التي يتعودها الأولاد ، وفي سبيل وِعْظِهِم بهذه الفضائل المتينة يُفَتِّى شبابهم في الغم ! فيالها من تربية حكيمة .

ويا أيها الأساتذة ، دَعُوا الرِّثاء ، وَكُونُوا فُضلاءً صالحين ، فُتُنَقِّشْ أَمْثَلَكُمْ في ذاكرة تلاميذك رَيْنَمَا يُمْسِكُهَا أن تَدْخُلَ في قلوبهم ، وَأَفْضَلُ أن أقوم بأعمال البرِّ أمام تلميذى على المبادرة بمطالبتة بها ، وأن أنزِعَ منه حتى وسيلة اقتدائه بي فيها كَشَرَفٍ خاصٍ بِسِنِّهِ ، وذلك أن من المهم ألا يتعوّد عَدَدَ واجبات الرجال كواجبات الأولاد فقط ، وإذا ما رَأَى أن أساعد الفقراء وسألني عن ذلك أَجِبْتُهُ بعد حينٍ بما يَأْتِي^(١) : « عند ما أَرَادَ الفقراء ، يا صديقي ،

(١) لي لم أني لا أحل مسائله متى يريد ، بل متى أريد ، وإلا جعلت نفسي خاضعاً لرغباته ، وضعت نفسي في أخطر موضع من التبعية يمكن أن يقع فيه مؤدب نحو تلميذه .

وجود أغنياء وَعَدَّ الأغنياء بإطعام جميع من ليس لديهم ما يعيشون به سواء أبعالمهم أم بعملهم ، وَرَدُّ التلميذُ بقوله : « إِذَنْ ، أَنْتِ وَعَدْتِ بهذا » ، ويقول المعلم : « أَجَلْ ، لستُ صاحبَ المال الذي يَمُرُّ من يدي إِلَّا بشرطٍ متعلقٍ بتملكه .. » .

وبعد أن يَعْيَى وَلَدٌ غيرُ إميلَ هذا الكلامَ ، وقد رأينا كيف يُمكن جعلُ الولدِ في حالٍ يَعْيِيهِ فيه ، سيحاول الاقتداءَ بي ، وسيسيرُ مثلَ رجلٍ غنيٍّ ، وفي هذه الحال سَأَمْنَعُ وقوعَ هذا مع تَبَاهٍ ، فَأَفْضَلُ أن يَخْتَلِسَ مني امتيازِي وأن يَسْتَرِ في العطاء ، وهذا خِتَالٌ من قبله ، وَأَغْضَى عن هذا وحده . وَأَعْرِفُ أن جميع هذه الفضائل عن اقتداء هي فضائلُ قَرْدٍ ، وأن العملَ الصالحَ لا يكون صالحاً خَلْقِيّاً إِلَّا إذا صُنِعَ هكذا ، لا لأن الآخرين يصنعونه ، وأما في السَّنِّ التي لا يَشْمُرُ القلبُ فيها بشيء بَعْدُ فيجب حملُ الأولاد على تقليد الأعمال التي يُرَادُ تعويدُهم إياها ريثما يستطيعون صنعها عن تمييز الخير وَحُبِّهِ ، والإنسانُ مُقلِّدٌ ، والحيوانُ مُقلِّدٌ أيضاً ، وَحُبُّ التقليدِ من عمل الطبيعة الحسنةِ التنظيمِ ، ولكنه يَنْحَطُّ في المجتمع إلى عيب ، وَيُقَلِّدُ القردُ الرجلَ الذي يَخْشَى ، ولا يقلدُ الحيواناتِ التي يَزْدَرِي ، وهو يرى حسناً ما يصنعه موجودٌ خَيْرٌ منه ، وعلى العكس يُقَلِّدُ مُهَرَّجُونَا ، على أنواعهم ، كلُّ ما هو جميلٌ حَطّاً له ، تحويلاً له إلى مهزاة ، وهم يحاولون بشعورهم السافل مساواة من هم أفضلُ منهم ، أو يَسْعَوْنَ أن يُقَلِّدُوا مَنْ يُعْجَبُونَ بِهِمْ ، ويتجلى ذوقُهم الفاسد في اختيار النماذج ، وهم يَقْضُّونَ أن يُمَوِّهوا على الآخرين ، أو أن يَحْمِلُوا على الهُتَافِ لنبوغهم ، على أن يكونوا أحسنَ حالاً أو أكثرَ حكمةً ، وَتَجِدُ

أساس التقليد بيننا في رغبتنا أن ننقل إلى خارج أنفسنا ، وإذا ما كُتِبَ لي التوفيق لم تساور إميل هذه الرغبة لا ريب ، ويجب ، إذن ، أن تمتنع عن الخير الظاهر الذي يمكن أن تؤدي إليه .

وتَقَصُّوا قواعد تربيتم تَجِدُوهَا كُلُّهَا مُخَالِفَةً للصواب ، ولا سيما ما هو خاصٌّ منها بالفضائل والأخلاق ، ويقوم درسُ الأخلاق الوحيدُ الذي يلائم الولدَ ، والذي هو أهمُّ ما في أدوار الحياة ، على عدم إساءة أحد ، حتى إن متبداً صنَّع المعروف خَطِرٌ فاسدٌ متناقض إذا لم يكن تابِعاً لذلك ، ومن ذا الذي لا يَصْنَعُ المعروف ؟ جميعُ الناس يصنعونه ، يَصْنَعُهُ الشَّرِيرُ كغفيره ، وإنما يَجْعَلُ إنساناً سعيداً على حساب مئة بئس ، ومن هنا تأتي مصائبنا كُلُّهَا ، وجميعُ أرفع الفضائل سلبيةٌ ، وهي أصعبُها أيضاً ، وذلك لخلوها من كلِّ افتخار ، ولأنها فوق تلك الرغبة ، الكثيرةِ الخلاوة على قلب الإنسان ، في جعل إنسانٍ آخرَ راضياً عنا ، وى ! يا لِلْمَعْرُوفِ الذي يصنعه الواحد نحو أمثاله ، عند وجود هذا الواحد ، بعدم إيذائهم ! وأىُّ رباطة جأشٍ ، وأىُّ متانة خلُقٍ ، يحتاج إليهما في هذا السبيل ! وليس في الحديث حَوْلَ هذا المبدأ ، بل في محاولة تطبيقه ، ما يُشْعِرُ بمقدار ما يقتضيه النجاحُ به من همةٍ ومشقة^(١) .

(١) يتضمن مبدأ عدم الإضرار بأحد مطلقاً أعظم استقلال ممكن عن المجتمع البشرى ، وذلك لأن نفع الواحد في الحال الاجتماعية يعنى ضرر الآخر بحكم الضرورة ، وهذه النسبة هي من جوهر الأمور ، ولا شيء يستطيع تبديلها ، وليبحث على نور هذا المبدأ في أى الرجلين أصلح من الآخر : آل رجل الاجتماعى أم الرجل المعتزل ؟ ويقول مؤلف مشهور إنه لا يوجد غير الشرير من يكون وحده ، وأما أنا فأقول إنه لا يوجد غير الصالح من يكون وحده ، وإذا كانت هذه القضية أقل صلاحاً للحكم فإنها أكثر حقيقة من الأولى وأعظم صواباً منها ، وإذا كان الشرير معتزلاً فأى شر يأتيه ؟ فى المجتمع ينصب حياته ضرراً بالآخرين ، وإذا أريد قلب هذا البرهان على رجل الخير فإننى أجيب عن هذا بالنص الخاص بهذا التعليق .

وتلك بعضُ آراء طفيفة عن الاحتياطات التي أردتُ أن يُمنَح الأولادُ بها من المعارف ما لا يُمكن أن يُحبَس عنهم أحياناً من غير أن يُعرَّضوا هم أو غيرهم للضرر ، وأن يَأْتَفُوا من العادات ، على الخصوص ، ما يَصْغُبُ إصلاحه فيما بعد ، ولكنْ لِنَتَقَ بأن من النادر أن تَبْدُو هذه الضرورة للأولاد التي نَشْتُو كما يجب ، وذلك لأن من المتعذر أن يصبحوا أَعْقَةً أشراراً كاذبين جَشِعِينَ إذا لم يُبَذَر في قلوبهم من النقائص ما يَجْعَلُهُمْ هكذا ، وهكذا فإن ما قلته حَوْلَ هذه النقطة يَخْلُجُ للشواذَّ أَكْثَرَ مما للقواعد ، غير أن هذه الشواذَّ تكون كثيرة الوقوع بنسبة ما تَكْثُرُ الفُرَصُ لدى الأولاد للخروج من حالمهم وتعوّدهم نقائص الرجال ، وتَقْضِي الضرورة بأن يكون عند من يُنْشَأُونَ بين الناس من المعارف المَعْجَلَةُ أَكْثَرُ ممن يُنْشَأُونَ في العزلة ، وَلِذَا تَفْضَلُ هذه التريية الاعترالية ولو لم تُؤَدَّ إلى غير منح الأولاد وقتاً يَنْضَجُونَ فيه .

وللشواذَّ نوعٌ آخرٌ تخالِفُ به ذلك النوعَ خاصٌّ بمن هم من يُمْنِي الطبيعة من يَعْلُونَ مستوى عُمرهم ، فكما أنه يُوجَدُ رجالٌ لا يَخْرُجُونَ من الوُودِيَةِ يُوجَدُ من الرجال من لا يَمُرُّون منها مطلقاً ، لأنهم يُولَدُونَ رجالاً تقريباً ، والْحَرَجُ في كون هذا الشاذَّ الأخير نادراً جداً ، وفي صعوبة معرفته ، وذلك أن كلَّ أَمٍّ تَتَصَوَّرُ إمكانَ كونِ الولدِ نادرةَ الزمان فلا يُخَامِرُها شكٌّ في كون ولدها هكذا ، وذلك أن الأمهاتِ يَفْعَلْنَ أَكْثَرَ من ذاك ، فهن يَحْسُبْنَ من العلامِ الخارقة للعادة ما يدلُّ على النظام المعتاد ، كالنشاط والحِدَّة والطيش والسذاجة المُلْهِية ، أى ما يَعدُّ أحسنَ دليلٍ على أن الولدَ ليس سوى ولد ،

وهل من العجيب أن ينشأ لقلا مَوْفَّقٌ ، مصادفةً ، عن يُجْمَلِ عَلَى الكلام كثيراً وَيُسَمَّحُ له بقول كلِّ شيء من غير أن يضايق باعتباره ولا لِيَأْقَه ؟ هو يكون في عدم إصابته الهدف كالمُنَجَّم الذي يَأْتِي ألفَ أَكْذوبةٍ من غير أن يخبر بأمرٍ حَقِيقِيٍّ مرةً واحدةً ، وكان هنري الرابع يقول إنهم يأتون من الأَكاذيب الكثيرة ما يقولون الصدق معه في نهاية الأمر ، وليس على من يريد أن يَجِدَ بعضَ الكلمات الصالحة إلا أن يقول كثيراً من التَرَهَّاتِ ، واللهُ يُحَفِّظُ من السوء جميعَ من يكونون على الموضحة * فلا يكون لديهم من المؤهلات ما يُعَيِّدون به غيرُ هذا .

وَيُمْكِنُ أَسْطَحَ الأفكار أن تَهْبِطَ في دماغ الأولاد ، وإن شئت فقل إن أروع الكلمات يُمَكِّنُ أن تَخْرُجَ من أفواههم ، وذلك كوجود أئمن الأملاس في أيديهم ، وذلك من غير أن يدلَّ هذا على كون الأفكار والأملاس مُلْكاً لهم ، فلا مُلْكَ حَقِيقِيٍّ لِمَنْ هم في هذه السَّنِّ أَيَّاً كانوا ، وليست الأمور التي يُحَدِّثُنا عنها الولد في نظر هذا الولد مثلاً ما عندنا ، ولا يَقْرِنُ الولد بها من الأفكار ما يَقْرِنُ ، ولا يكون لهذه الأفكار في رأسه ، إذا ما وُجِدَ منها ، أيُّ ترتيبٍ ولا ارتباطٍ ولا ثباتٍ ولا رسوخٍ في جميع ما يُفَكِّرُ ، وإذا ما أُنْعِمَ النظر في نادرتم الزعم وجدتم له في بعض الأحيان نابضاً بالغ ، النشاط وروحاً كماعاً يَخْرُجُ السحاب ، وَيَبْدُو هذا الرُّوحُ لكم ، في الغالب ، متوانياً نادياً كأنه محاطٌ بِضَبَابٍ كَثِيفٍ ، فتارةً يَسْبِقُكم وتارةً يبقى ساكناً ، وتقولون ثانيةً إنه عبقرىٌ ، وتقولون بعد ثانيةٍ إنه غبيٌّ ، وتخطئون دائماً ،

وذلك أنه ولد، وذلك أنه قرّخ نسر يشقُّ الهواء لِيَسْقُطَ في وَكْرِهِ بعد ثانية .
 إِذَنْ ، عَامِلُوهُ وَفَقَّ سِنُّهُ عَلَى الرِّغْمِ مِنَ الظَّوَاهِرِ ، وَخَشَوْا أَنْ تَسْتَنْفِدُوا
 قُوَاهُ قَاصِدِينَ تَمَرِنَهَا كَثِيرًا ، وَإِذَا مَا حَمَى هَذَا الدِّمَاغُ الْقَتِي ، وَإِذَا مَا
 أَبْصَرْتُمْ أَنَّهُ أَخَذَ يَفُورُ فَدَعَاوُهُ يَثُورُ طَلِيقًا ، وَلَكِنْ لَا تَهَيَّجُوهُ مَطْلَقًا خَشِيَةً
 أَنْ يَتَصَاعَدَ كُلُّهُ ، وَمَتَى أَخَذَتْ الْغَازَاتُ الْأُولَى تَتَبَخَّرُ فَامْسَكُوا الْأُخْرَى
 وَاضْغَطُوهَا ، وَذَلِكَ حَتَّى يَتَحَوَّلَ الْجَمِيعُ ، مَعَ السِّنِّينَ ، إِلَى حَرَارَةٍ مُنْعِمَةٍ
 وَقُوَّةٍ حَقِيقَةٍ ، وَإِلَّا أَضَعْتُمْ وَقَتَكُمْ وَقَضَيْتُمْ عَلَى عَمَلِكُمْ الْخَاصَّ ، وَإِنْكُمْ بَعْدَ أَنْ
 تَسْكُرُوا بِجَمِيعِ هَذِهِ الْغَازَاتِ الْمَلْتَهَبَةِ بِلَا فِطْنَةٍ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ غَيْرُ ثَقُلٍ
 بِلَا حَوْلٍ .

وَيَنْشَأُ ذَوُو الطَّيِّشِ مِنَ الْأَوْلَادِ رِجَالًا عَادِيَيْنَ ، وَلَا أُعْرِفُ مِلَاحَظَةً أَعْمَ
 مِنْ هَذِهِ وَلَا أَعْظَمَ ثَبُوتًا ، وَلَا شَيْءَ أَصْعَبُ فِي الْوُلُودِيَّةِ مِنْ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ
 الْعِبَاوَةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْعِبَاوَةِ الظَّاهِرَةِ الْخَادِعَةِ الَّتِي هِيَ إِعْلَانُ النُّفُوسِ الْقَوِيَّةِ ، وَمِمَّا
 يَبْدُو غَرِيبًا أَوَّلَ وَهْلَةٍ أَنْ يَكُونَ لِلْحَدِّثِينَ الْمُتَنَاهِيَيْنَ عَلَانُومٌ بِاللُّغَةِ الْمَشَابِهَةِ ، وَهَذَا
 مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فَرْقٍ بَيْنَ مَنْ يَكُونَ
 ذَا نَبُوغٍ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَكُونَ يَقُومُ ، فِي دَوْرِ الْعُمُرِ الَّذِي لَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ
 أَيْ فِكْرٌ حَقِيقِيٌّ ، عَلَى كَوْنِ الْأَخِيرِ لَا يَتَقَبَّلُ غَيْرَ أَفْكَارٍ فَاسِدَةٍ وَعَلَى كَوْنِ
 الْأَوَّلِ لَا يَتَقَبَّلُ أَيْ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ لِمَا لَمْ يَجِدْ سَوَاهَا ، وَلِذَا فَهُوَ
 يَشَابَهُ النَّبِيَّ مَنْ حَيْثُ كَوْنُ النَّبِيِّ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى شَيْءٍ ، وَكَوْنُهُ ، أَيْ الْأَوَّلُ ،
 لَا يَلَامُهُ أَيْ شَيْءٌ ، وَيَتَوَقَّفُ الْفَارِقُ الْوَحِيدُ ، الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَمَيِّزَ أَحَدَهُمَا مِنَ
 الْآخَرِ ، عَلَى الْمَصَادِفَةِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْرِضَ عَلَى الْأَخِيرِ أَفْكَارًا تَكُونُ

في متناوله على حين يكون الأول هو إياه في كل مكان ، وكان الفتى كاتون يشابه ، وهو ولد ، بليداً في المنزل ، وقد كان صموئلاً عنيداً ، وهذا هو كلُّ الرأى الذى كان يُحْمَلُ عنه ، وليس في غير غرفة استقبال سيلاً ما استطاع عمُّه أن يَعْرِفَ حقيقة أمره ، ولو لم يَدْخُلْ هذه الغرفة ، قَطُّ ، لَمَدَّ شَرِساً حتى سنَّ الرُّشد ، ولو لم يَظْهَرْ قيصِرُ ، قَطُّ ، لَمَدَّ صاحبَ أوهامٍ دائماً كاتونُ هذا ، كاتونُ نفسه ، الذى نَفَذَ إلى عبقريته المشؤومة وأبصر جميعَ خِطَطِهِ من بعيد ، وبالكثرة ما يُعَرِّضُ له من خطأ أولئك الذى يَحْكُمُونَ في أمر الأولاد على عَجَلٍ ! فهم أولادٌ أكثرُ منهم غالباً ، ومن أبصرتُ في سِنِّ متقدمةٍ بعضَ التقدم رجلٌ شرفنى بصداقته ، عُدَّ في أُسرته وبين أصدقائه محدودَ الذكاء ، فهذا الرأسُ الممتاز كان يَنْضِجُ نَضِجاً صامتاً ، وَيَبْدُو فيلسوفاً بفتة ، ولا رَيْبُ عندى في أن الأعقاب ستعطيه مكاناً كريماً ممتازاً بين أحسن مفكرى عصره وأعمقهم في ما بعد الطبيعة .

واحترموا الولودية ، ولا تستعجلوا الحكمَ فيها مطلقاً ، خيراً كان هذا الحكمُ أَوْشَرًا ، ودَعُوا الشواذَّ تدلُّ على نفسها ، وتُثَبِّتْ نَفْسَهَا ، وتَوَكَّدْ نَفْسَهَا ، زمنًا طويلاً قبلَ أن تُتَّخَذَ لها مناهجُ خاصةٌ ، ودَعُوا الطبيعةَ تَعْمَلُ طويلاً قبلَ أن تُعْمَلُوا بالعمل بدلاً منها ، وذلك لكيلا تماكسوا أعمالها ، وأنتم تقولون إنكم تَعْرِفُونَ ثمن الوقت ولا تريدون ضياعَ شيءٍ منه مطلقاً ، وأنتم لا تَرَوْنَ أن ضياعه مع سوء استعمال أكثر من ضياعه مع عدم صنْعِ شيء ، وأن الولد السيِّء التعليم أقلُّ حكمةً من الولد الذى لا يُعَلِّمُ شيئاً ، ومما يُذْعِرُكم أن تَرَوْه يَسْتَنْفِدُ سِنِيهِ الأولى في عدم عمل شيء ،

ماذا ! أليس من السعادة أن يَثْبَ وَيَلْعَب وَيَعْدُو اليومَ كُلَّهُ ؟ لن يكون في حياته كثيرَ الأشغال بمثل هذا القدار ، وأفلاطون ، في جُهوريته التي يُعْتَقَدُ أنها بالغة الصَّرامة ، لا يُرَبِّي الأولاد إلَّا في الأعياد والألعاب والأغاني والملاهي ، ويَظْهَرُ أنه صَنَعَ كُلَّ شَيْءٍ حينما أجاد في تعليمهم البهجة ، وقد قال سِينِيكا عند ما تكلم عن الشبيبة الرومانية : « إنها قَائِمَةٌ دَائِمًا ، ولم تُعَلِّمْ من الأمور ما تتلقاه وهي قاعدة » ، وهل أصبحت أقلَّ قِيسَةً عند ما بلغت سنَّ الرُّجُولَةِ ؟ أَوْتَخَشُّونَ ، إِذَنْ ، هذه البِطَالَةُ المزعومة ؟ وما تقولون عن رجلٍ لا يريد أن ينام ليتمتع بجميع الحياة ؟ تقولون : « إن هذا الرجلَ أَحَقُّ » ، فهو لا يستفيد من الوقت ، وهو يَحْرِمُ نفسه قِسْمًا منه ، وهو يَرْكُضُ نحو الموت يفراره من النوم » ، واعلموا ، إِذَنْ ، أن الأمر هنا هو هو ، فالوَلُودِيَّةُ هي نوم العقل .

وسهولة التعلم الظاهرة سببُ خسران الأولاد ، ولا تُرَى هذه السهولة نفسها دليلًا على أنهم لا يتعلمون شيئًا ، ويشابه دماغهم الأملسُ الصَّغِيرُ المرأةَ في انعكاس ما يُمرَّضُ عليه من الأشياء ، ولكن لا شيءَ يَبْقَى ، ولا شيءَ يَنْفُذُ ، والولدُ يحفظ الألفاظَ ، والألفاظُ تَنْعَكِسُ ، ويُدْرِكها سامعوه ، وهو وحده لا يدركها .

ومع أن العقل والذاكرة خاصيتان مختلفتان جوهرًا فإن إحدى هاتين الخاصيتين لا تَنُمُو إلَّا مع الأخرى في الحقيقة ، ولا يتلقى الولد أفكارًا قبل سنِّ الرشد ، وإنما يتلقى صورًا ، ويتجلى الفرقُ بين الأمرين في كَوْنِ الصُّورِ ليست غيرَ الواحٍ مطلقةٍ للأشياء الحسية وفي كَوْنِ الأفكارِ مفاهيمَ

للأشياء تُعَيَّنُ بما بينها من علاقات ، وقد تكون الصورة وحدها في الذهن الذي يشملها ، وأما كلُّ فكر فيفترض أفكاراً أخرى ، ومتى تصوّرنا أبصرنا فقط ، ومتى فكّرنا قابلنا ، وإحساساتنا منفصلةٌ تحضاً ، على حين تضدُّر جميع إدراكاتنا أو أفكارنا عن مبدأٍ فاعلٍ يميّز ، وسنثبت هذا فيما بعد . وأقول إذن : بما أن الأولاد غيرُ قادرين على التمييز فإنهم لا يتصفون بذاكرته حقيقة على الإطلاق ، وهم يحفظون أصواتاً وصوراً وإحساساتٍ ، ومن النادر أن يحفظوا أفكاراً ، وأندرُ من هذا حفظهم ما بين الأفكار من ارتباط ، وإذا ما اعترضَ علىَّ بأنهم يتعلمون بعض مبادئ الهندسة ظناً إقامة الدليل ضدى ، مع أن الدليل يقام تأييداً لى ، وذلك أنه يظهر من البعيد جداً معرفة الأولاد أن يستدلوا بأنفسهم ، حتى إنهم لا يعرفون استدلالات الآخرين ، وذلك أنكم إذا ما تنبَّعتم هؤلاء المهندسين الصغار في منهاجهم أبصرتهم من قوَرِك أنهم لم يحفظوا غير الانطباع التامّ للشكل ولحدود الدليل ، ولا يستطيعون الوقوف أمام أقلِّ اعتراضٍ جديد ، وإذا ما قلّبتُم الشكل لم يستطيعوا فعلَ شيء ، وليست ذاكرتهم نفسها أكل من خصائصهم الأخرى ، وذلك إما يجب دائماً من تعلُّمهم في كبرهم ما تعلموا كلماته من الأشياء في صِغَرِهِمْ .

ومع ذلك تجبِّدنى بعيداً من التفكير في كَوْن الأولاد خالين من أى نوعٍ من الاستدلال^(١) ، وعلى العكس أراهم يُجيدون الاستدلالَ في كلِّ ما يعرفون

(١) لقد لاحظت مرة عند الكتابة أن من المتعذر في سفر مبلول أن يطلق عين المعاني على عين الكلمات دائماً ، ولا تجد لغة بالغة من الفنى ما تجهز معه بالفاظ وتعبيرات وجل ما يمكن أن يهتور =

وفي كلِّ ما يطابق مصلحتهم الحاضرة والمحسوسة ، ولكن الوهم يدور حول معارفهم بأن يُعزَى إليهم ما لا يمكنهم إدراكه ، وكذلك يؤهم عند ما يُراد جعلهم منتبهين إلى اعتبارات لا يدركونها بأيِّ وجهٍ كان ، كصلة آتية لهم وكعاداتهم حينما ينفدون رجالاً ، وكاحترام ينالونه عند ما يصيرون كباراً ، أى أمور لا معنى لها على الإطلاق لدى هؤلاء الخالين من كلِّ بصيرة ، والواقع أن جميع دراسات هؤلاء المخلوقات التعماء البائسين القسرية تهذف إلى أغراض غريبة عن نفوسهم تماماً ، ويُمكنكم أن تحكموا فيما يستطيعون أن يُعبروها من انتباه .

وَيَمِيلُ المعلمون ، الذين يَعْرِضُونَ علينا ، في جهازٍ كبير ، ما يُلقُونَ على تلاميذهم من معارف ، إلى استعمال لغةٍ أخرى ، ومع ذلك فإنه يُرى من سلوكهم الخاص أنهم يُفكِّرون مثلما أفكَّر ، وذلك : ما يعلمونهم في نهاية الأمر ؟ يعلمونهم كلمات ، وكلماتٍ أيضاً ، وكلماتٍ دائماً ، وتراهم يحترزون ، بين مختلف العلوم التي يُبَاهُونَ بتعليمهم إياها ، من اختيار ما يكون نافعاً لهم حقاً ، وذلك لأنه يكون علوم الأشياء ، وهذا ما لا يُوقَّعون فيه ، وإنما يُكْتَبُ لهم التوفيق في العلوم التي يَلُوح أنها تُعرَف إذا ما عُرِفَت ألفاظها كالأشعر والجغرافية

= أنكارنا من تغيير ، أجل ، إن طريقة تعريف جميع الألفاظ ، وقيام التعريف مقام المعرفة دائماً ، أمر جليل ، غير أنه ليس علياً ، وذلك لأنه كيف تجنب الدائرة ؟ وقد تكون التعاريف صالحة إذا لم تستعمل ألفاظ لوضعها ، وترافق قائداً ، مع ذلك ، بأن أوضح ممكن حتى عند فقر لغتنا ، لا بإطلاق عين المعاني على عين الألفاظ ، بل بأن يقع في كل مرة تستعمل فيها كل كلمة تعيين المعنى الذي يطلق عليها تعييناً كانياً بالقرينة التي تطابقها ، وأن يتخذ كل دور تستعمل فيه هذه الكلمة تعريفاً لها ، وقد قات تارة إن الأولاد عاجزون عن الاستدلال كما عزوت إليهم الاستدلال بشئ من الدقة تارة أخرى ، ولا أراي مناقضاً للنفس في أفكارى ، ولكنى لا أستطيع أن أنكر مناقضتى لنفسى في كلماتي غالباً .

والتقويم واللغات ، إلخ . ، أى الدراسات الكثيرة البُعْد من الإنسان ، ولا سيما الولدُ ، فيكون من العجيب أن يُوجَدَ شَيْءٌ منها يُمكن أن يكون نافِعاً له في حياته ولو مرةً واحدة .

وستُدهشون من عَدْدِي درسَ اللغات بين أباطيل التربية ، ولكن ليذُكَّرُ أننى لا أتكلَّم هنا عن غير دروس الدَّوْر الأول من العمر ، ومهما يُمكن أن يقال فإننى لا أعتقد وجودَ ولدٍ استطاع أن يتعلم لغتين ، حقاً ، قبل بلوغه الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من سِنِّيه ، ما لم يكن من النوابع .

وأوافقُ على أن درس اللغات إذا لم يكن غيرَ درسِ الكلمات ، أى دَرَسِ الرموز والأصوات التى تُعبَّرُ عنها ، فإن هذا الدرس يُمكن أن يلائم الأولاد ، غير أن اللغات إذا ما غيَّرت الرموزَ عدَّلت الأفكارَ التى تُعبَّرُ عنها أيضاً ، وتتألف الأذهانُ من اللغات ، وتتخذ الأفكارُ صبغةَ اللَهجات ، والعقلُ وحدَه مشتركٌ بين الجميع ، وللروح فى كلِّ لغةٍ شكله الخاصُّ ، ويُمكن هذا الفرقَ أن يكونَ علةَ الأخلاق القومية أو معلولها من بعض الوجوه ، والذى يَلُوح مؤيِّداً لهذا الظنُّ هو أن اللغة لدى جميع أمم العالم تَتَّبِعُ تقلُّباتِ الطبائع وأنها تَبْقَى أو تتغيرُ مثلها .

والاستعمالُ يَمْنَحُ الولدَ أحدَ هذه الأشكال المختلفة ، وهذا الشكلُ وحدَه هو الذى يحافظُ عليه حتى سِنِّ الرشد ، ويجب ، لكى يكون لديه شكلان ، أن يَعْرِفَ مقابلةَ ما بين الأفكار ، وكيف يقابل بينها وهو لا يكاد يكون فى حالٍ يُدْرِكها فيه ؟ ويُمكن أن يكون لكلِّ شَيْءٍ ألفُ إشارةٍ مختلفة عنده ، غير أنه لا يكون لكلِّ فكرٍ سوى شكل واحد ، وهو لا يستطيع أن يتعلم ،

إِذْنٌ ، غيرَ لغة واحدة ، وهو ، مع ذلك ، يتعلم عِدَّةَ لغات كما يقال لى ، فأنسَكَرُ ذلك . وقد رأيتُ من هؤلاء الصغار النادرين مَنْ يعتقدون أنهم يتكلمون خمسَ لغاتٍ أو ستَّ لغات ، وقد سمعتُهم يتكلمون الألمانية ، متعاقباً ، بالألفاظِ لاتينية والألفاظِ فرنسية والألفاظِ إيطالية ، وكانوا يستعملون من المعاجم ، فى الحقيقة ، ما يترجَّحُ بين خمسة وستة ، ولكنهم كانوا لا يتكلمون بغير الألمانية دائماً ، والخلاصةُ أنكم إذا ما أعطيتُم الأولادَ مترادفاتٍ كثيرةً كما تَوَدُّونَ غَيْرَ تَمَّ الألفاظَ ، لا اللغةَ ، وهم لن يَعْرِفُوا غيرَ واحدة .

وَيُفَضَّلُ تمرينُهم على اللغات الميتة التى لا يوجد فيها من الحكم ما لا يُمكن رَدُّه ، وبما أن استعمالَ هذه اللغات المعتادَ قد زال منذ زمنٍ طويلٍ فإنه يُكْتَفَى باتِّباع ما هو مسطورٌ فى الكتب ، فيُسمَّى الكلام ، وإذا كانت هذه يونانية المعلمين ولا تينيتهم فما يقال عن يونانية الأولاد ولا تينيتهم ؟ لم يكادوا يحفظون على ظهر القلب مبادئهما التى لا يفقهون منها شيئاً على الإطلاق حتى يؤخذَ فى تعليمهم ترجمةَ مقالةٍ فرنسية بكلمات لاتينية ، ثم إنهم إذا ما تقدَّمُوا أَكْثَرَ من قبل حُلُّوا على وَصْلٍ ما بين جُملٍ من شيشرون نثراً وأبياتٍ من فرجيلَ نظماً ، وهنالك يظنون أنهم يتكلمون اللاتينية ، ومن يأتى لمناقضتهم ؟

ولا تُعدُّ الرموزُ المُمَثِّلَةُ شيئاً بغير فكرة الأشياء المُمَثَّلَةِ ، مهما كانت دراسة ذلك ، ومع ذلك فإن الولد يُقَصِّرُ على هذه الرموز دائماً ، وذلك من غير أن يُسْتَطَاعَ حَمْلُهُ على إدراك أىِّ من الأشياء التى تُمَثِّلُها ، وإذا ما رُئِيَ تعليمُهُ وَصَفَ الأرض لم يُعَلِّمْ غيرَ معرفة الخرائط ، فيُعَلِّمُ أسماء المدن والبلاد والأنهار التى لا يَتَصَوَّرُ وجودَها على غير الورق حيث يُدَلُّ عليها ، وأذكرُ أننى رأيتُ فى مكانٍ ما

جِغْرَافِيَّةً تَبْدَأُ هَكَذَا : « مَا الْعَالَمُ ؟ الْعَالَمُ كُرَةٌ مِنَ الْقُوَى » ، فَهَذِهِ هِيَ جِغْرَافِيَّةُ
الْأَوْلَادِ تَمَامًا ، وَأَفْرِضُ عُدَمَ وَجُودِ وَلَدٍ وَاحِدٍ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ سِنِّيهِ قَادِرٍ ، بَعْدَ
دِرَاسَةِ سَنَتَيْنِ لِلْكَرَّةِ وَالْفَلَكَ ، عَلَى السَّيْرِ مِنْ بَارِيسَ إِلَى سَانِ دِنِي مُسْتَنْدًا إِلَى
الْقَوَاعِدِ الَّتِي أُعْطِيَهَا ، وَأَفْرِضُ عُدَمَ وَجُودِ وَلَدٍ يَسْتَنْدُ إِلَى خَرِيطَةِ حَدِيقَةِ أَبِيهِ
فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّبَعَ الْعَطَافَاتِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضِلَّ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْأَسَانِدَةُ الَّذِينَ
يَعْرِفُونَ أَنْ يُسَمُّوا مَوَاضِعَ يَكِينٍ وَأَصْبَهَانَ وَالْمَكْسِيكَ وَجَمِيعَ بِلَادِ الْأَرْضِ .

وَقَدْ يُقَالُ لِي إِنْ مِنَ الْمُنَاسِبِ شَغْلَ الْأَوْلَادِ بِدُرُوسٍ لَا تَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِ عَيُونٍ ،
وَهَذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَوْ وُجِدَ مِنَ الدَّرُوسِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِ عَيُونٍ ، وَلَكِنِّي
لَا أَعْرِفُ مِثْلَ هَذِهِ الدَّرُوسِ مُطْلَقًا .

وَيُحْمَلُونَ عَلَى دَرَسِ التَّارِيخِ عَنْ خَطَأٍ أَدْعَى إِلَى السَّخَرِيَةِ أَيْضًا ، وَيُظَنُّ أَنْ
التَّارِيخَ يَقَعُ ضِمْنَ مَتَنَاوِلِهِمْ لِأَنَّهُ لَيْسَ سِوَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ ، وَلَكِنْ مَا يَقْصَدُ
بِكَلِمَةِ الْوَقَائِعِ ؟ وَهَلْ يُعْتَقَدُ أَنَّ الصَّلَاتِ الَّتِي تُتَمَيَّنُ الْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ سَهْلَةُ الْإِدْرَاكِ
كَثِيرًا وَأَنَّ الْأَفْكَارَ عَنْهَا تَتَكُونُ فِي رُوحِ الْأَوْلَادِ بِلَا عَنَاءٍ ؟ وَهَلْ يُعْتَقَدُ أَنَّ
مَعْرِفَةَ الْحَوَادِثِ الْحَقِيقِيَّةِ مُنْفَصِلَةٌ عَنْ عِلَالِهَا وَمَعْلُولَاتِهَا ، وَأَنَّ التَّارِيخِيَّ يَبْلُغُ مِنْ قَلَّةِ
تَعَلُّقِهِ بِالْخُلُقِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْرِفَ أَحَدَهُمَا مَعَ الْآخَرِ ؟ وَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَرَوْنَ
فِي أَعْمَالِ النَّاسِ غَيْرَ الْحَرَكَاتِ الْخَارِجِيَّةِ وَالْمَادِيَةِ الصَّرْفَةِ فَمَا تَتَعَلَّمُونَ فِي التَّارِيخِ ؟
لَا شَيْءَ مُطْلَقًا ، وَلَا تَتَأَلَوْنَ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ الْعَاطِلِ مِنْ كُلِّ إِمْتِنَاعٍ لَذَّةً أَوْ مَعْرِفَةً ،
وَإِذَا أَرَدْتُمْ تَقْدِيرَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ بِصَلَاتِهَا الْأَدْبِيَّةِ فَحَاوِلُوا جَعْلَ هَذِهِ الصَّلَاتِ مَفْهُومَةً
لَدَى تَلَامِيذِكُمْ ، وَهَنَالِكَ تَرَوْنَ هَلِ التَّارِيخُ مَلَأْتُمْ لِسَنَّهُمْ .

وَيَا أَيُّهَا الْقُرَاءُ ، اذْكُرُوا دَائِمًا أَنَّ الَّذِي يَخَاطِبُكُمْ لَيْسَ عَالِمًا وَلَا فِيلَسُوفًا ، بَلْ

رجلٌ بسيطٌ صديقٌ للحقيقة ، غيرٌ منسبٍ إلى فريقٍ أو إلى مذهب ، معتزلٌ يعاشر الناس قليلاً ، نادرُ الفرص في ابتلاله بمبتسراتهم ، كبيرُ التأمل فيما يَقِفُ نظره عند مصاحبتهم ، وتقومُ براهينى على المبادئ أقلَّ مما على الوقائع ، وأعتقد أننى لا أجد طريقاً في تقديم الوقائع إليكم أفضلَ من أن أورد بعض الأمثلة ، غالباً ، عن الملاحظات التى توجى إلى براهينى .

كنت قد ذهبت إلى الأرياف لأقضى فيها بضعة أيامٍ عند ربّة أسرةٍ سالحةٍ كثيرةِ العناية بأولادها وتربيتهم ، وبينما كنت ، ذات صباح ، حاضراً دروسَ أكبرهم سناً تناول معلمه ، الذى جدّ في تعليمه التاريخ القديم ، سيرة الإسكندر ووقع على حكاية الطبيب فيليب المعروفة التى رُسِمَتْ في صورةٍ والتى تستحقُّ العناية لا ريب ، ويأتى العلم ، الذى هو رجلٌ فاضلٌ ، بمِدّة تأملاتٍ عن شجاعة الإسكندر لم تَرَفُنِي قطُّ فاجتنبتُ مناهضتها لكيلا أسىء إلى اعتباره في نفس تلميذه ، فلما كنا حَوْلَ المائدة لم يُقَصِّرْ في جمل الصبيّ الصغير يثرثر كثيراً على الطريقة الفرنسية ، وما كان من حُمَيّا سنّه الطبيعى ومن انتظار هُتافٍ مُقرَّرٍ كان يَحْفَزه إلى إبداء ألف سخافة مع صدور بعض كلماتٍ موفّقة من خلال ذلك في الحين بعد الحين يُذِنِى ما سواه ، وأخيراً تأتى قصّة الطبيب فيليب فيدّ كرّها بوضوحٍ بالغٍ وطلاوةٍ كثيرة ، ويُتحدّث فيما قال الولدُ بعد دفع ضريبة الثناء المعتادة التى كانت تطالب بها الأمُّ وينتظرها الابن ، وقد صَبَتْ الأكرثية لومها على تهوّر الإسكندر ، وقد جَارَى بعضهم المعلمَ في الإعجاب بمزّمه وبسالته ، فحملنى هذا على إدراكى عدمِ رؤية أحدٍ من الحضور موضعَ الجلال الحقيقى في هذه

القصة ، وأما أنا فقد قلتُ لهم إننى أرى أنه إذا وُجِدَ فى عمل الإسكندر أقلُّ شجاعةً وأقلُّ حَزْمٍ لم يكن هذا غيرَ هَوَس ، وهنالك وافق الجميع على أن هذا كان هوساً ، وقد هَمَمْتُ بالجواب وحييتُ ، وكان يوجد بجانبى امرأةٌ لم تنبِس بكلمةٍ فالت إلى أذنى وقالت لى هَمْساً : « انكُتْ يا جان جاك ، فهم لن يَفْهَمُوا أمرَكَ » ، وقد نظرتُ إليها وعَمِلْتُ بنصيحتها وأمسكتُ عن الكلام .

وساورنى شكٌ حَوْلَ كثيرٍ من الدلائل التى لم يَدْرِ كَيْفَها الأستاذُ الغلام من تاريخِ أجداد سَرْدَه ، فأمسكته بعد الغداء من يده ، وطُفْتُ معه فى الحديقة ، فوجدتُ ، بعد السؤال من غيرِ إزعاجٍ ، أنه كان يُعْجَبُ أَكْثَرَ من كلِّ شخصٍ بشجاعة الإسكندر التى أثْنَى عليها إلى الغاية ، ولكنْ أَتَقَلُّونَ أَيْنَ كان يَرى هذه الشجاعة ؟ كان يَحْدِثُها ، حَصْراً ، فى الإقدام على اجتراحه شراباً سيئ الطعم دَفْعَةً واحدةً ، بلا تردُّدٍ ومن غير أن يُبْدِيَ أَقْلَ اشْمُزاز ، وكان الولدُ المسكين قد أُعْطِيَ منذ خمسةَ عشرَ يوماً دواءً فلم يتناوله إلا بمشقةٍ لا حَدَّ لها ، ولا يزال أثرُ طعمه الكريه فى الفم ، وما كان الموت والسمُّ لِيَمُرَّ فى ذهنه إلا كإحساساتٍ كريهة ، وما كان لِيَتَمَثَّلَ غيرَ السَّنَا سَماً آخر ، ومع ذلك يجب أن يُعرَفَ أن حَزْمَ البطل كان ذا أثرٍ عظيمٍ فى فؤاده الفقى . وأنه عَزَمَ أن يكون إسكندراً عند وجوبِ اجتراحه أولَ دواءٍ ، وإنى من غير دخولٍ فى إيضاحاتٍ تتجاوز متناوله لارِيب أيدته فى مناحيه الحميدة ، وعُدْتُ ضاحكاً فى نفسى من حكمة الأبوين والمعلمين الذين يُفَكِّرون فى تعليم الأولاد التاريخ .

أَجَلْ ، إن من السهل أن تُوضَعَ في أفواههم ألفاظُ كالمُلوكة والأباطرة والحروب والفتوح والثورات والقوانين ، ولكن المسئلة إذا ما دارت حَوْلَ رَبِطِ أفكارٍ واضحةٍ بهذه الكلمات بدّت هذه الإيضاحاتُ مختلفةً كُلَّ الاختلاف عن حديثنا مع البستانيّ رُوِيَتْ .

وسيَسْأَلُ بعضُ القراء المُستَئين من « اسكُتْ يا جان جاك » ، كما أبصرُ ، عما أُجِدُّ ، أخيراً ، من رَوْعَةٍ في عمل الإسكندر ، فيا أيها التّعساء ! إذا ما وَجَبَ قولُ ذلك لكم فكيف تُدْرِكونه ؟ ذلك أن الإسكندر كان يؤمن بالفضيلة ، ذلك أنه كان يؤمن بعقله ، ذلك أنه كان يؤمن بحياته ، ذلك أن نفسه الكبيرة صُنِعَتْ للإيمان بذلك ، وى ! يا لَكُون هذا الدواء المُجْتَرَعِ مِنْهُ إيمانٌ رائعة ! كلاً ، لم يَصْنَعْ إنسانٌ ما هو أرفع من ذلك ، إذا ما وُجِدَ إسكندرُ عَصْرِيّ فَلأَدَلَّ على أنه قَوَّامٌ بمثل تلك المآثر .

إذا لم يُوجَدْ عِلْمٌ للكلمات قَطُّ لم يُوجَدْ درسٌ للأولاد خاصٌ قَطُّ ، وإذا لم تكن لهم أفكارٌ حقيقيةٌ لم تكن لهم ذاكرةٌ حقيقيةٌ قَطُّ ، وذلك لأننى لا أدعو هكذا ذاكرةً لا تحفظ غيرَ الإحساسات ، وما نفعُ تسجيلِ جدولٍ من الرموز التى لا تدلُّ على شيءٍ لديهم ؟ ألا تُعلِّمُ الرموز بتعلُّم الأشياء ؟ ولم يُحْمَلُونَ مَشَقَّةَ تعليمهم إياها مرتين على غير جدوى ؟ ومع ذلك فيا للمُبْتَسِرَاتِ الخطيرة التى يُبْدَأُ بتلقينهم إياها حين يُحْمَلُونَ على عدّهم من العِلْمِ كلماتٍ لا معنى لها عندهم ! وَيَقِلُّ تمييزُ الولد بالكلمة الأولى التى يَقْنَعُ بها وبالشئ الأول الذى يتعلمه من الآخرين غيرَ مُطَّلِعٍ على فائدته بنفسه ، ولا بدَّ له

من بهرٍ أبصار الأغبياء قبل أن يُسَوَّضَ من هذا النقصان^(١) .
 كلاً ، إذا كانت الطبيعة تُنعمُ على دماغ الولد بتلك المرونة التي تجعله
 صالحاً لتقبُّل جميع أنواع الانطباعات فليس ذلك لتُنقش عليه أسماء الملوك
 وتواريخُ وألفاظُ للأشعرِ وكرةٌ وجغرافيةٌ وجميعُ تلك الكلمات التي لا معنى
 لها عند من هو في سنِّه ، والتي لا فائدةَ فيها لجميع الناس من أيِّ عُمرٍ
 كانوا ، فترَهَقُ بها ولوديته الكئيبةُ العقيم ، بل تُرَسِّم عليه باكراً ، وبحروف
 لا تُنمَحى ، جميع الأفكار التي يُمكنه أن يتشابهها والتي هي نافسةٌ له ، وجميعُ
 الأفكار التي تلائم سعادته فيجب أن تُنيرَ له السبيل في جميع واجباته ذات
 يوم ، فيتخذها نبراساً يهتدى به في أثناء حياته هدايةً مناسبةً لكيانه
 وخصائصه .

ومن غير درّسٍ في الكتب ، لا يَظَلُّ نوعُ الذاكرة الذي يحوزه الولد
 مُعْطَلاً لهذا السبب ، فتَقِفُ نظره كلُّ ما يرى وكلُّ ما يَسْمَعُ ويَذْكُرُه ،
 وهو يُبْمِكُ سَجِلاً في نفسه لأعمال الناس وأقوالهم ، ويُعَدُّ جميع ما يحيط به
 كتاباً يُغْنِي فيه ذاكرته بلا انقطاعٍ من غير أن يُفَسِّك في هذا ، وذلك
 ريثما يُمكنُ قوةَ التمييز فيه أن تنتفع به ، وعلى اختيار هذه الأشياء ، وعلى

(١) أمر معظم العلماء في ذلك كالآلداد ، وينشأ العلم الواسع عن كثرة في الأفكار أقل ما عن
 كثرة في الصور ، وتحفظ التواريخ والأعلام والأماكن وجميع الأشياء المنفردة في ذاكرة الرموز ، ومن
 النادر أن يذكر بعض هذه الأشياء من غير أن يرى في الوقت نفسه ظاهراً للصفحة التي تقرأ فيها أو باطنها ،
 أو تبصر الصورة التي رُئيت عليها أول مرة ، وهذا ما كان عليه العلم الدارج في القرون الأخيرة تقريباً ،
 وأما تعلم في عصرنا فشيء آخر ، فعاد لا يدرس ولا يلاحظ ، بل يتعلم به ، ويُعطى ، برصانته ، أحلام بعض
 الليالي السيئة على أنها من الفلسفة ، وسيتقال لي إنني أعلم أيضاً ، وأوافق على هذا ، غير أن ما لا يحترز الآخرون
 من صنعه أقدمه على أنه أحلام ، تاركاً للقارئ أن يبحث عن وجود شيء لديهم مفيد لذوى الانتباه أو لا .

الاعتناء بأن يُعَرَّض عليه دائماً ما يستطيع أن يَعْرِفَه ، وعلى إخفاء ما يجب أن يُجِهله ، يَتَوَقَّفُ الفنُّ الحَقِيقُ في تَعَهُّدِ هذه الخاصِّية الأولى ، وبهذا يجب أن يُسَعَى في تكوين مستودعٍ للمعارف فيه نافعٌ لتربيته في أثناء شبابه ونافعٌ لسلوكه في جميع الأوقات ، والحقيقةُ أن هذا المِناهج لا يَصْنَعُ صِغاراً نادريين ، ولا يوجب التمتعَ المربيات والمعلمين ، وإنما يُكَوِّنُ رجالاً بصيرين أقوياء سالمين بدناً وإدراكاً من غير أن يكونوا موضعَ إعجابٍ صِغاراً ومع ظهورهم مدارَ افتخارٍ كِباراً .

ولن يتعلَّم إميلُ شيئاً على ظهر القلب ، حتى الأمثالَ ، حتى أمثالَ لافونتين ، مهما بلغت من البساطة والجمال ، وذلك لأن ألفاظ الأمثال ليست أكثرَ أمثالاً من كون ألفاظ التاريخ تاريخاً ، وكيف يُبْلَغُ من القمى ما تُسمَّى الأمثالُ معه كتابَ أخلاقٍ للأولاد من غير أن يُفَسَّرَ في كَوْنِ المثلِ الخلقِيِّ يُضِلُّهم حين يُسَلِّمهم ، وفي كونهم يَدْعُونَ الحقيقةَ تَفَرُّ حين يُفْتَنُونَ بالكذب ، وفي كَوْنِ ما يُصْنَعُ لجعل المعارفِ مُسْتَحَبَّةً لديهم يَحُولُ دون استفادتهم منها ؟ أَجَلْ ، تستطيع الأمثالُ أن تُنَقِّفَ الرجالَ ، ولكن يجب أن تقال الحقيقةُ للأولاد عاريةً ، حتى إذا ما سَتِرتَ بغطاءٍ لم يَصْغُبَ عليهم أن يَكْشِفُوهُ .

وَيُعَلِّمُ الأولادُ أمثالَ لافونتين ، ولا تَحِيدُ واحداً منهم يدركها ، ولو أدركوها لكان الأمرُ أسوأ مما هو عليه ، وذلك لأن مبادئ الأخلاق من كثرة الاختلاط فيها ومن عدم تناسبها مع عُمرهم ما تَحْمِلُهُمْ به على الرذيلة أكثرَ مما على الفضيلة ، وستقولون إن ما تأتى هو من البِدَع ، وَلَيْكُنْ

يَدْعَا ، وَلَكِنْ لَنَنْظُرَ هَلْ يَنْطَوِي عَلَى حَقَائِقِ .
أقول إن الولد لا يَفْهَمُ الأمثالَ التي يُعَلِّمُهَا مطلقاً ، وذلك لأنه مهما
يُبْذَلُ من جُهدٍ لتبسيطها فإن المعارف التي يراد استخراجها منها توجب إدخال
أفكارٍ إليه لا يستطيع وَغَبِهَا ، على حين تَرَى الشكلَ الشَّعْرِيَّ الذي يَجْعَلُهَا
أيسرَ تذكُّراً يَجْعَلُهَا أيسرَ تَصَوُّراً ، وهكذا تُشْرَى المَلاحَعة على حساب
الوضوح ، وإنا من غير أن نورد هذا الحَشْدَ من الأمثال التي لا تنطوي على
وُضوحٍ ولا على فائدة للأولاد ، والتي يُعَلِّمُونَهَا مع الأخرى على غير هدى
لاختلاطها بها ، نرى أن نقتصر عَلَى الأمثال التي يَلُوح أن المؤلف قد
وضعها من أَجْلِ الأولاد .

لا أَعْرِفُ في جميع مجموعة لافُونْتِن غيرَ خمسة أمثالٍ أو ستة أمثالٍ
سَطَمَتِ البساطة الصَّبِيَّانِيَّةَ منها سَطُوعاً عظيماً ، وأوردُ من هذه الأمثال
الخمسة أو الستة أوْلَاهَا^(١) ، وذلك لأن أدبَ هذا المثل أكثرُ ملاءمةً لكلِّ
عُمْرٍ ، ولأنه أحسنُ ما يُدْرِكُ الأولاد ، ولأنه ألدُّ ما يتعلَّمون ، ثم لأنه
المثلُ الذي وَضَعَهُ المؤلِّفُ عَلَى رأس كتابه عن تفضيلٍ ، ونحن إذ نفترض
له هَدَفَ كونه مفهوماً لدى الأولاد رائقاً عندهم مثقفاً لهم نَعْدُهُ أثرَ المؤلفِ
الرائعِ حقاً ، فَلْيُسْمَحْ لي أن أَتَتَبَعَهُ وأُفَصِّه في كلماتٍ قليلةٍ إِذَنْ .

(١) هذا هو المثل الثاني ، لا الأول ، كما لاحظته ميسو فورمه .

الغرابُ والثعلبُ

مَثَلٌ

« الأستاذُ الغرابُ على شجرةٍ واقعٌ »

« الأستاذُ ! » ما معنى هذه الكلمة بنفسها ؟ وما معناها أمام اسم-

علمٍ ؟ وما معناها هنا ؟

وما الغراب ؟

وما « على شجرةٍ واقعٌ » ؟ لا يقال « على شجرةٍ واقعٌ » ، بل يقال « واقعٌ على شجرةٍ » ومن ثمَّ يجب أن يُحدَّث عن التقديم والتأخير في الشعر ، ويجب أن يفرَّق بين النثر والنظم .

« يُمَسِّكُ في مِنقاره جُبْنَةً »

أى نوعٍ من الجُبْنَةِ ؟ أهى جُبْنَةٌ سويسريةٌ ، أم جُبْنَةٌ بريَّةٌ ، أم جُبْنَةٌ هولنديةٌ ؟ وإذا كان الولد لم يرَ الغُرْبَانَ قَطُّ فما فائدة الكلام عنها ؟ وإذا كان قد رآها فكيف يَتَصَوَّرُ إمساكها جُبْنًا في منقارها ؟ لنَضُنِّعْ صَوْرًا عن الطبيعة دائماً .

« الأستاذُ الثعلبُ بالرائحةِ أَغْرَى »

أستاذٌ آخر ! ولكنَّ هذا لقبٌ ملائمٌ له ، هو أستاذٌ دَرَبٌ في حِيلِ مهنته ، ويجب أن يُحدَّث عن الثعلب ، وأن يفرَّق بين الثعلب الحقيقيِّ وثَمَلِ الأمثالِ الاتِّفَاقِ .

« أَغْرَى » ، هذه كلمةٌ غيرُ مستعملةٍ ، فيجب إيضاحها ، ويجب أن

يقال إنه عاد لا يُنتفع بها في غير النظم ، وسيسأل الولد عن السبب في أنه يتكلم في النظم على خلاف ما في النثر ، وما يكون جوابكم ؟
 « أغريَ برائحة جُبنة ! » ، لا بدَّ من أن تكون هذه الجُبنة التي يُنسكها غرابٌ واقعٌ على شجرة ذات رائحة قوية حتى يشمها ثعلبٌ في غابةٍ أو في وِجَارِهِ ! أهكذا تُدرِّبون تلميذكم على روح النقد الصحيح الذي يأبى كلَّ شيء غير الأدلة الصائبة ، والذي يُمازُ به بين الصدق والكذب في قصص الآخرين ؟

« هو يخاطبه بهذه اللغة تقريباً : »

« هذه اللغة ! » ، أنتكلم الثعالبُ إذن ؟ أنتكلم بعين اللغة التي تتكلم بها الغربان ؟ أعملُ ذهنك أيها المعلم الأريب ، وزنُ جوابك قبل إلقائه ، فهو أهمُّ مما تظنُّ .

« عمٌ صباحاً يا سيدى الغراب ! »

« سيدى ! » ، هذا لقبٌ يرى الولدُ تحويله إلى هزوء حتى قبل أن يعرف أنه لقبُ تكريم ، وإذا ما قيل « صاحبُ السيادة الغراب » كان للتائلين شؤونٌ أخرى قبل إيضاح كلمة « صاحب » هذه .

« يا لحُسْنِكَ ، يا لجمالِكَ كما أرى ! »

حشوٌ ، تطويلٌ غيرُ مفيد ، يرى الولدُ تكرارَ عينِ الشيء بألفاظٍ أخرى فيتعلم الكلامَ بتوانٍ ، وإذا قلتم إن هذا التطويل هو فنُّ المؤلف ، وإنه من مُحَيَّلةِ الثعلب الذي يرى فيضَ الثناء بالكلام فإن هذا الاعتذار يكون صالحاً تجاهي ، لا نحوَ تلميذى .

« ومن غير كذبٍ لو كان تغريدك »

« من غير كذبٍ ! » ، إذن ، يَكْذِبُ الناسُ أحياناً ، وما يكون حالُ الولدِ إذا ما عَلِمَ منكم أن الثعلبَ لا يقول « من غير كذبٍ » إلا لأنه يَكْذِبُ .
« يلائم ريشك »

« يلائم ! » ، ما معنى هذه الكلمة ؟ عَلَّمُوا الولدَ أن يقابل بين صفاتٍ مختلفة كالصوت والريش لترَوُا مقدار ما يُدْرِكُ أمرَكم .
« لكنتَ أبا هَوَلٍ هذه الغاب »

« أبو الهَوَلِ ! » ، ما أبو الهَوَلِ ؟ هكذا نُقَذَفُ في القرون الخالية الكاذبة ، نُقَذَفُ في أساطير الأقدمين .

« أهلُ هذه الغاب ! » ، يا له من كلامٍ حَجَازِيٍّ ! إن المَصَانِعَ يَسْمُو بلسانه وَيُكْتَرُ من رَفَعِ شأنه حتى يَجْعَلَهُ أعظمَ فتنةً ، وهل يُدْرِكُ الولدُ هذه الدقة ؟ وهل يَعْلَمُ ، أو يستطيع أن يَعْلَمُ ، ما الأسلوب الرفيع وما الأسلوبُ الوضيع ؟

« فطار قلبُ الغراب من الفرح عند هذه الكلمات »
لا بُدَّ من تجربةٍ أشدَّ الإحساسات للشعور بهذه التعابير التي تُضْرَبُ بها الأمثال .

« ولكي يُظهِرَ صوته الجميل »

ولا يَغِبُ عن بالكم وجوبُ معرفةِ الولدِ لِمَا يَقْصُدُ بصوتِ الغراب الجميل حتى يُدْرِكَ هذا السَّطْرَ وبقيةَ التَّمَثَلِ .

« ويفتح مِنقاره الكبيرَ ويدَّعُ غنيمته تقع »

وهذا السَّطَرُ يقضى بالعجب ، ويوحى انسجامه بصورةٍ ، وأبصر منقاراً كبيراً كريهاً فاغراً ، وأسمع وقوعَ الجُبنة من بين الفصون ، غير أن إدراك هذا النوع من الجمال بعيدٌ من الأولاد .

« ويقبض عليها الثعلبُ ويقول : سيدي الصالح »
وهكذا يتحول الصالح إلى بلاهةٍ إذَنْ ، ولا رَيْبَ في أنه لا يُضَيِّعُ وقتٌ في تعليم الأولاد .

« واعلموا أن كلَّ مصانع »

مثلٌ عامٌ ، لا دَخَلَ للولد فيه .

« يعيش على حساب من يستمع إليه »

لا يُوجَدُ ولدٌ في العاشرة من سِنِّهِ يُدْرِكُ هذا السطر .

« ويُعَدِّلُ هذا الدرسُ جُبنةً لا ريب »

ويمكن فهمُ هذا ، ومعناه حسنٌ جدّاً ، ومع ذلك فإن من النادر وجودَ أولادٍ يَقْدِرُونَ على مقابلة ما بين الدرس والجُبنة فلا يُفَضِّلُونَ الجُبنةَ على الدرس ، ولذا يجب أن يُحْمَلُوا على إدراكِ كَوْنِ هذا الحديثِ لا يَعْدُو حَدَّ الهُزْوِ ، وبالأدقَّة فيه !

« ويعتري الغرابُ خجلٌ ويضطرب »

حَشَوُ آخرُ في الكلام ، غير أن هذا لا معذرةً عليه .

« ويخلفُ ، ولكن بعد الأوان ، بأنه لن يؤخذ بمثل ذلك »

« يخلفُ ! » ، فأىُّ معلمٍ يَبْلُغُ من المحاقة ما يَشْرَحُ معه للولد

معنى اليمين ؟

وتلك تفاصيل كثيرة ، ومع ذلك فهي أقل مما يجب في تحليل جميع الأفكار التي يشتمل عليها هذا المثل وفي ردّها إلى الأفكار البسيطة الابتدائية التي تدخل في تركيب كل واحد منها ، ولكن من ذا الذي يعتدّ احتياجه إلى هذا التحليل حتى يحل نفسه مفهوماً لدى الأولاد ؟ لا نجد واحداً منا فيلسوفاً بدرجة الكفاية حتى يضع نفسه في مكان الولد ، ولننتقل الآن إلى علم الأخلاق .

وأسأل : هل يجب أن يُعَلِّم الأولاد البالغون من العمر عشر سنين وجود رجال يصانعون ويكذبون نفعاً لهم ؟ كان يُمكن أن يُعلِّموا ، على الأكثر ، وجود ساخرين يهزّون بصغار الأولاد ويتهكّمون بزهورهم الباطل سرّاً ، ولكن الجبنّة تُفسد الجميع ، وهم يُعلِّمون عدم تركها تنقّط من منقارهم أقلّ من جعلها تنقّط من منقار آخر ، وهذا مبدئي الثاني ، وهو ليس أقلّ أهمية من الأول .

وتدبّعوا الأولاد وهم يتعلّمون أمثالهم تروا أنهم يأتون عكس مقاصد المؤلف تقريباً عند ما يصبحون قادرين على تطبيقها ، وأنهم يميّأون إلى حُبّ عيّيب يستفيدون به من نقائص الآخرين بدلاً من ملاحظة نقيصة يُراد شفاؤهم أو وقايتهم منها ، ويضحك الأولاد من الغراب في المثل السابق ، ولكنهم يعظفون على الثعلب جميعاً ، وتروون ضرب الزيز * لهم مثلاً في القصة التالية ، كلا ، وإنما النملة هي ما يختارون ، فلا يُحبّب الاستخزاء مطلقاً ، وهم يتخذون الدور الرئيس دائماً ، وهذا هو اختيار الأثرة ، وهذا اختيار طبيعي

* الزيز : دويبة تغير وتقف طويلاً على الشجر ولها صرير كأنها تقول « زيز » ، نسبيت به .

جدًّا ، ويا لهذا الدرس الفظيع للولد كما هو الواقع ! إن أشنعَ جميع الجفّة ولدٌ طمّاعٌ قاسٍ يَعْرِفُ ما يُطَلَّبُ منه وما يَرِفُضُ ، وتَصْنَعُ النملةُ أَكْثَرَ من هذا ، فهي تَعَلِّمُهُ أَنْ يَهْزَأَ عندما يَرِفُضُ .

وفي جميع الأمثال ، حيث يكون الأسد من أسطع الممثلين كما هي العادة ، لم يَنْتِ الولدُ أَنْ ينتحل وضعَ الأسد على الإطلاق ، فإذا ما كان على رأس قِسْمَةٍ صَرَفَ همه في الاستيلاء على الجميع مقتدياً بمثاله ، ولكن الولد يَغْدُو بعوضةً عندما تَغْلِبُ الأسدُ لاختلاف الوضع ، فيتعلم أن يقتل بِالْمِنْخَسِ ذاتَ يومٍ مَنْ لم يَجْزُؤْ على مهاجمتهم بقدمٍ ثابتة .

ومن مثل الذئب النحيل والكلب السمين يتعلم درسَ تَحَلُّلٍ بدلاً من درسٍ في الاعتدال يُزْعَمُ أنه يُنَلِّقُ عليه ، ولن أنسى أنني شاهدت ابنةً صغيرةً تنبكي كثيراً لما كان من إحزانها بهذا المثل الذي أُلْقِيَ عليها كدرسٍ في الطاعة دائماً ، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ سببَ بكائها ، وقد عُرِفَ مؤخراً ، وذلك أن هذه البنتَ المسكينة كانت تَضَجُّرُ من سلسلتها ، وكانت تَشْعُرُ بأن السلسلة تَحْكُ جِيدها ، فتبكي لأنها ليست ذئبة .

وهكذا فإن أدب المثل الأول المذكور هو للولد درسُ خِدَاعٍ دَنِيٍّ جدًّا ، وإن أدب المثل الثاني درسُ قسوةٍ ، وإن أدب المثل الثالث درسُ ظُلْمٍ ، وإن أدب المثل الرابع درسُ قَدَحٍ ، وإن أدب المثل الخامس درسُ تَمَرُّدٍ ، ولا يلائم هذا الدرسُ الأخير تلاميذَكم كما أنه غيرُ نافعٍ لتلميذِي ، وإذا ما أقيمت عليهم تعاليمٌ متناقضة فأيةُ ثمرةٍ تنتظرون من رعايتكم ؟ ولكن من المحتمل أن يكون جميعُ هذا الأدب الذي ينفعني في الاعتراض على هذه الأمثال يُجَهِّزُ

بأسبابٍ تَعْدِلُ تلكَ للمحافظة عليها ، ويجب أن يوجد في المجتمع أدبٌ قَوِيٌّ
وأدبٌ فعليٌّ ، ولا يتشابه الأدبان مطلقاً ، ويكون الأولُ في كتاب الوعظ
الدينيّ حيث يُتْرَكُ ، ويكون الثاني في أمثال لافونتن للأولاد وفي قصصه
للأمهات ، ويكفي هذا المؤلف للجميع .

ولنتفقْ يا مسيولافونتن ، فأما أنا فأعِدُّ بأن أقرأكَ مختاراً ، وأن أُحِبَّكَ ،
وأن أريدَ مواردَ أمثالك ، وذلك لأنني أرجو ألاَّ أخدعَ حَوْلَ موضوعها ،
وأما تلميذي فدعني ألاَّ أتركه يدرسُ أيَّ واحدٍ منها قبل إثباتك لي أن
من الصالح له أن يتعلَّم أموراً لن يَفقهَ منها غيرَ الربع ، وأنه لن يُخدعَ فيما
يُمْكِن أن يُدركَ منها ، وأنه لن يَقْلِبَ الوَضْعَ فيقلِّد الخبيث بدلاً من
إصلاح غِثِّه .

وإني ، إذ أنزع دروسَ الأولاد على هذا الوجه ، أنزعُ وسائلَ أكبر
بؤسٍ فيهم ، أي الكتبَ ، فالمطالعةُ هي آفةُ الولودية ، وتكاد تكون الشغلَ
الوحيد الذي يُمْكِن أن يوجَد لها ، ولا يكاد إميلُ يَعْرِفُ ما الكتابُ عند
بلوغه الثانيةَ عشرةَ من سِنِيهِ ، وسيقال لي إن من الواجب أن يكون عارفاً
القراءةَ على الأقلِّ ، وأوافق على هذا ، وإنما يجب أن يَعْرِفَ القراءةَ
عند ما تكون نافعةً له ، وهي لا تكون صالحةً لغير ضَجَرِهِ حتى ذلك الحين .

وإذا كان لا ينبغي أن يطالب الأولاد بشيء عن طاعةٍ فإنه يَنْجُمُ عن
هذا أنهم لا يَقْدِرُونَ أن يتعلَّموا شيئاً لا يَشْعُرُونَ بفائدته الراهنة الحاضرة ،
سواءً للهو أو للخير ، وإلاَّ فما الذي يَحْمِلُهُمْ على تعلُّمه ؟ إن فنَّ مخاطبة
الغائبين وسماعهم ، وإن فنَّ نَقْلِ مشاعرنا وعزائمتنا ورغائبنا إليهم بلا وسيطٍ ،

وهم بعيدون ، هو فنٌ يُمكن أن تُجمل فائدته محسوسة في كلِّ عمرٍ ، وبأية معجزةٍ أصبح هذا الفن ، العظيمُ الفائدة والكثيرُ الامتاع ، وبالأعلى على الولودية ؟ ذلك لأنها تُنكره على التزامه على الرغم منها ، ولأنه يُجمل قَيْدَ استعمالٍ لا تفقه منه شيئاً ، وليس الولدُ من الفضول القوي ما يُصلح معه الآلة التي يُعذَّب بها ، ولكن اجعلوها هذه الآلة خادمةً للهوهِ تروِّه يلازمها من فؤره وعلى الرغم منكم .

ويقوم ضجيجٌ حَوَّلَ البحث عن أصلح المناهج في تعليم القراءة ، وتُختَرع مقاطعُ وبطاقاتٌ ، وتُصنَّع من غرفة الولد قاعةٌ طباعة ، ويريد لوك أن يُعلِّموا القراءة بالترُّد ، يلهذا الاختراع الرائع ! يالموضع الرثاء فيه ! توجد طريقةٌ أفضل من جميع ذلك ، تُوجدُ طريقةٌ أُغفِلت على العموم ، وهي الرغبة في التعلم ، فامنحوا الولدَ هذه الرغبة ، ثم دَعُوا مقاطعكم وتردكم هنالك ، يَصْلُحْ له كلُّ منهاج .

والمصلحةُ الحاضرة هي الدافع الكبير ، وهي التي تأتي بنا إلى بعيدٍ سالمين ، ويتناول إميلُ من أبيه أو أمه أو أقربائه أو أصدقائه ، أحياناً ، بطاقاتٍ دعوةٍ إلى غداءٍ أو زهرةٍ أو سفرةٍ على الماء ليَشْهَدَ احتفالاً عاماً ، وتكون هذه البطاقاتُ قصيرةً جليةً سهلةً حسنة الخطِّ ، ولا بُدَّ من وجود واحدٍ ليقراها له ، ولا يكون هذا موجوداً في الوقت الذي يُطلَب فيه ، أو إنه لا يَرِدُ إلى الولد معروفاً كان قد حَبَّاه به أمس ، وهكذا يَمْضِي الوقت وتَضِيعُ الفرصة ، وأخيراً تُقرأ له البطاقة ، ولكن بعد الأوان ، وَيْ ! يا ليتَه كان يَعْرِفُ القراءة ! ويتناول بطاقاتٍ أخرى ، يا لها من بطاقات قصيرة ! يا لاهتمامه بالموضوع ! ويحاول قراءتها ، ويَجِدُ مساعدةً

تارة وإعراضاً تارة أخرى ، وَيَبْذُلُ وَسْعَهُ ، وأخيراً يَفُكُّ نصفَ البطاقة ، وَيَرَى أنه مَدْعُوٌّ لتناول قِشْدَةٍ غَدًا . . . ولا يَعْرِفُ أين ، ولا مع مَنْ . . . وبإلحاح المجهود الذى يَبْذُلُ لقراءة البقية ! ولا أَعْتَقِدُ احتياجَ إميلَ إلى مقاطع ، وهل أتكلم الآن عن الكتابة ؟ كلا ، أَخْجَلُ من التلَهَّى بهذه التُرَّهاتِ فى رسالةٍ عن التربية .

وأضيف الكلمة الآتية التى تشتمل على مبدأ مهم ، وذلك أنه يُنَالُ بسرعةٍ فائقة ، وعن يقين ، ما لا يُسْتَعْجَلُ نَيْلُهُ ، وأَجِدُنِي واثقاً ، تقريباً ، بأن إميل سَيَعْرِفُ القراءةَ والكتابةَ تماماً قبل بلوغه العاشرة من سِنِّهِ ، وذلك لأن مما لا يَهْمُنُنِي كثيراً أن يَعْرِفَ ذلك قبل الخامسَ عشرَ من عُمرِهِ ، ولكننى أَفْضَلُ ألاَّ يَعْرِفَ القراءةَ على ابتياع هذا العرفان على حساب كلِّ ما يُمكن أن يجعله مفيداً ، وما فائدة القراءة له إذا ما كَرِهَهَا دائماً ؟ « يجب أن يُنْتَبَهَ ، على الخصوص ، إلى كون الدروس ، التى لا يزال راغباً عنها ، غيرَ مكروهةٍ لديه ، وألاَّ يُعْبَدَ منها هذا النفورُ ، عند ظهوره ، بعد انقضاء الوقت الذى كان فيه أمياً » - كَنْتِيلْيَان .

وكلاً أُصْرَزْتُ على منهاجى غيرِ الفَعَّالِ شَعَرْتُ بِاشتدادِ الاعتراضاتِ ، وإذا لم يتعلم تلميذكم منكم شيئاً تَعَلَّمَ من الآخرين ، وإذا لم تَدَحْضُوا الخطأَ بالحقيقة تعلم الأكاذيب ، وسيَتَلَقَى المبتسراتِ ، التى تَحْشَوْنَ إعطاءه إيها ، من جميع مَنْ يحيطون به ، وستَدْخُلُ بجميع حواسِّهِ ، فَتُفْسِدُ عقلَهُ حتى قبل أن يَنْمُو ، أو إن ذهنه ، الذى أَحْمَدُ بعدم النشاط ، يَفْرُقُ فى المادة ، فعدمُ تَعَوُّدِ التفكيرِ فى الوُجُودِية يَنْزِعُ منها هذه الخاصية فى بقية العمر .

وَيُخَيَّلُ إِلَى أُنْتِ قادِرٌ على الجوابِ عن هذا بسهولةٍ ، ولكن لِمَ الأَجوبةُ دائماً ؟ فإذا كان منهاجى يَجِبُ عن الاعتراضاتِ بنفسه عَدَّ صالحاً ، وإن لم

يُجِبُّ لَمْ يُسَاوِ شَيْئًا ، وَأَوَّاصِلُ .

وإذا ما اتخذتم الخِطَّةَ التي أخذتُ في رسمها فاتبعتم قواعدَ مخالفةٍ رأسًا للقواعد القائمة ، وإذا لم تَسِيرُوا بعيداً بذهن تليذكم ، وإذا لم تُضِلُّوهُ بلا انقطاعٍ في أَقَالِيمٍ أُخْرَى وقرونٍ أُخْرَى ، عند أَقاصى الأرض ، حتى السماوات ، وَعَمِلْتُمْ عَلَى حِفْظِهِ لِنَفْسِهِ دَائِمًا مُنْتَبِهًا إِلَى كُلِّ مَا يَمَسُّهُ مُبَاشَرَةً ، وَجَدْتُمُوهُ قَادِرًا عَلَى الإدراك والتذكُّر ، وعلى التعقل أيضاً ، فهذا هو نظام الطبيعة ، وكلما أصبح الشخص فَعَالًا اكتسب تمييزاً مناسباً لقواه ، وليس بنير القوة التابعة للقوة المحتاج إليها لبقائه ما تَنَمُّوْهُ فِيهِ خاصيةُ التفكير الصالحةُ لاستعمال ما يفيض من هذه القوة في شؤون أُخْرَى ، ومتى أردتم تَعَهَّدَ ذكاء تليذكم فَتَعَهَّدُوا القُوَى التي يجب أن يهيمن عليها هذا الذكاء ، وَدَرَّبُوا جِسْمَهُ بِلا انقطاع ، واجعلوه عُسْلِيًّا صحيحًا حتى تجعلوه حَكِيمًا عَاقِلًا ، وَلْيَعْمَلْ ، وَلْيَسْعَ ، وَلْيَعُدْ وَلْيَصْرُخْ ، وليكن دائم الحركة ، وَلْيُضَيِّحْ رِجْلًا عَنْ قُوَّةٍ حَتَّى يَكْبُوتَهُ عَنْ عقلٍ من قُوَّهِهِ .

حقاً أنكم تَحَبِّلُونَهُ بهذا الأسلوب إذا ما وَجَّهْتُمُوهُ فقلتم له دائماً : اذْهَبْ ، تَعَالَى ، ائْتِنِى ، افْعَلْ هَذَا ، وَلَا تَفْعَلْ ذَلِكَ ، وإذا كنتم تُدِيرُونَ بِرَأْسِكُمْ يَدَيْهِ عَادَ رَأْسُهُ لَا يَكُونُ نَافِعًا لَدَيْهِ ، وَلَكِنْ اذْكَرُوا مَا اشترطناه ، وهو : أنكم إذا لم تكونوا غير متحذلقين فلا تُجْهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِقِرَاءَةِ كِتَابِي .

ومن الخطأ الذى يُرْتَبَى لَهُ أَنْ يُتَصَوَّرَ أَنَّ تَمْرِينَ الْبَدَنِ يَضُرُّ أَعْمَالَ

الروح ، كأنه لا ينبغي لهذين الأمرين أن يسيرا متفقين ، وأنه لا يجوز لأحدهما أن يوجّه الآخر !

ومن الناس صنفان تُمَرّن أبدانُهُما دائماً ، ولا يُفَكّران إلّا قليلاً ، لا رَبِّبَ ، في تَعَهّد أذهانهما ، وهما : الفلاحون والمتوحشون ، فأما الأولون فهم غِلَظٌ أَفْظَاطٌ أَغْيَاءُ ، وأما الآخرون فَيُعَرَفُونَ بِحِدّةِ الحواسِّ ودقة الأذهان ، ولا تَجِدُ ، على العموم ، من هو أثقل من الفلاح ، ولا من هو أدقُّ من الوحش ، ومن أين يأتي هذا الفرق ؟ فالأولُ ، إذ يَقَعُ ما يؤمر به دائماً ، أو يرى ما مَرّن عليه أبوه ، أو ما فعله بنفسه منذ صباه ، لا يسير إلّا عن نَمَطيّةٍ ، وهو ، إذ لا يأتي بغير أعمالٍ واحدة في جميع حياته الآلية تقريباً ، تقوم العادة والطاعة عنده مقامَ العقل .

وغيرُ هذا حالُ الوحش ، فبما أنه غيرُ مرتبطٍ في مكان ، ولا يُفَرَضُ عليه شغلٌ ، ولا يُطِيع أحداً ، وليس له قانونٌ غيرُ إرادته ، فإنه مضطّرٌّ إلى التعقل في أعمال حياته ، وهو لا يأتي بحركةٍ ، ولا يقوم بخطوةٍ ، من غير أن يُبْصِرَ نتائجَها مقدماً ، وهكذا فإنه كلما تَمَرّنَ بدنًا تَنَوَّرَ روحاً ، وَيَنْمُوَ بأسه وعقله معاً ، ويساعد كلٌّ منهما على نشوء الآخر .

وَلْتَرِ ، أيها المعلمُ الفاضل ، أيُّ تَلَامِيذِنَا يشابه الوحشَ وأيُّهما يشابه الفلاح ، فأما تلميذُكم الخاضعُ في كلِّ شئٍ لسلطانِ مُرْشِدٍ دائماً فإنه لا يصنع شيئاً بلا أمرٍ ، وهو لا يَجْزُو على الأكل إذا جاع ، وعلى الضحك إذا فَرِحَ ، وعلى البكاء إذا تَرَحَّحَ ، وعلى تقديم يده قبل الأخرى ، وعلى تحريك رجلٍ ، إلّا كما يؤمر ، وهو لن يَجْزُو على النفس إلّا وَفَقَ قواعدهم ،

ولمَ تريدون أن يُفَكِّرَ ما دتم تفكرون في كلِّ أمرٍ بدلاً منه ؟ وما حاجته إلى بصيرةٍ ما دام معتمداً على بصيرتكم ؟ وهو ، إذ يراكم تقومون بحفظه وراحته ، يشعُر بأنه في غِنَى عن القيام بهذه الرعاية ، ويستند تمييزه إلى تمييزكم ، ويصنع بلا تأملٍ كلِّ ما لا تنهونه عنه علماً بأنه يفعلُه بلا خطر ، وما حاجته إلى تعلُّمِ علائمِ المطر ما عَرَفَ أنكم تنظرون إلى السماء بدلاً منه ؟ وما حاجته إلى تنظيمِ نزته ما دام لا يخشى أن تُضيعُوا عليه وقتَ الغداء ؟ وبأكلٍ إذا لم تمنعوه من الأكل ، فإذا منعتموه منه لم يأكل ، وهو لا يسمع نصائحَ معدته ، ويسمع نصائحكم ، ومن العبث أن تُلينُوا بدنَه بعدمِ الحركة ، فلن تجعلوه مرناً في إدراكه ، وعلى العكس نُزيلون حُظْوَةَ العقل في نفسه بجعله يستعملُ ما لديه من عقلٍ قليل في أمورٍ تبدو له أكثرَ ما يكونَ عدمَ فائدةٍ ، وهو ، إذ لا يرى وجهَ صلاحِ العقلِ مطلقاً ، يحكمُ بعدمِ صلاحِ العقلِ لشيءٍ ، ويصدُرُ أسوأ ما يصاب به من سوءِ التعقلِ عن العودِ إلى ذاتِ السوءِ ، ويقع هذا غالباً من غير أن يخطر بباله ، ويعود مثلُ هذا الخطرِ الشامل لا يخفيه .

ومع ذلك فإنكم تَجِدُون له ذِهناً ، هو له ذهنٌ للهِذَرِ مع النساءِ وفقِ اللهجة التي تكلمتُ عنها ، ولكنه إذا ما حاقَ به خطرٌ ، ووجبَ عليه اتخاذُ قرارٍ في أحوالٍ صعبةٍ ، وجدتموه أشدَّ غباوةً وبلاهةً ، مثلاً مرةً ، من ابنِ أغلظِ قروى .

وأما تليذى ، أو تليذُ الطبيعة على الأصحِّ ، فهو ، إذ يتدرب ، باكراً ، على كفاية نفسه بنفسه ما أمكن ، لا يتعوّد الالتجاء إلى الآخرين

بلا انقطاع ، وأقل من هذا عَرْضُهُ كَبِيرَ معرفته عليهم ، وهو يَمَيِّزُ وَيُبَيِّنُ ، وَيَتَمَقَّلُ ، بدلاً من ذلك ، في كلِّ ما هو خاصٌّ به مباشرةً ، وهو لا يُثَرِّثُ ، وهو يَفْعَلُ ، وهو لا يَعْرِفُ كلمةً عن كلِّ ما يقع في العالم ، وإنما يَعْرِفُ جيداً أن يُحَسِّنَ صَنَعَ ما يلائمه ، وبما أنه دائمُ الحركة فإنه مُلْزَمٌ بملاحظة أمورٍ كثيرة ومعرفَةٍ كثيرٍ من النتائج ، وهو ينال تجربةً عظيمةً مُبَكِّراً ، وهو يَتَلَقَّى دروسه من الطبيعة ، لا من الناس ، ويزيدُ ما يتعلَّمُ صلاحاً بنسبة ما لا يَرَى في أيِّ مكانٍ كان من عَزَمٍ على تعليمه ، وهكذا فإن جسمه وروحه يَتَمَرَّنان معاً ، وبما أنه يَسِيرُ وَفْقَ فكره دائماً ، لا وَفْقَ فكرٍ غيره ، فإنه يُوَحِّدُ بين عملين توحيداً مستمراً ، وهو كلما صار قوياً عُصْلِيّاً صار رصيناً بصيراً ، وهذه هي الوسيلةُ في أن يُحَاكَزَ ، ذاتَ يومٍ ، ما يُعْتَقَدُ أنه مناقضٌ ، أى ما يَجْمَعُهُ جميعُ العظماء ، تقريباً ، من قوة البدن وقوة الروح وعقل الحكيم وبأس المصارع .

ويا أيها العالم الشاب ، أوصيك بفنٍّ صعبٍ ، وهو أن تَحْكُمَ بلا تعاليمٍ وأن تَصْنَعَ كلَّ شيءٍ بعدمِ صُنْعِ شيءٍ ، وأُعْتَرَفُ بأن هذا الفنَّ ليس من مقتضيات سِنِّكَ ، فليس صالحاً لتألُّقِ مواهبك في البُدْءِ ، ولا لإظهارِ مقدرتك لدى الآباء ، ولكنه وحده مؤدِّي إلى النجاح ، ولن تَصِلَ إلى صُنْعِ حكماء مطلقاً ما لم تَصْنَعْ في بدءِ الأمرِ جُفَّاراً ، وكانت هذه تربيةُ الإِسْپَارْطِينِ القائمةَ عَلَى البدءِ بتعليمهم سرقةَ غَدائهم بدلاً من إلصاقهم بالكتب ، وهل كان الإِسْپَارْطِيُون غِلَاطاً عندما يَكْبُرُونَ ؟ ومن ذا الذي لا يَعْرِفُ قُوَّتَهُم في الجوابِ عَلَى البدْيةِ ؟ وهم ، إذ خَلِقُوا لَيَنْفِلُوا ، كانوا

يَسْتَحِقُّونَ أَعْدَاءَهُمْ فِي الْحُرُوبِ عَلَى أَنْوَاعِهَا ، فَيَخْشَى الْإِنْسَانُ الْمَهَازِيرَ كَلَامَهُمْ
كَمَا يَخْشَوْنَ ضَرَبَاتِهِمْ .

وَالْعَلَمُ فِي التَّرِيَّاتِ الْأَعْظَمِ رِعَايَةً يَقُودُ وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسِيطِرُ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ
الْوَلَدَ هُوَ الَّذِي يَهْيِمُ ، فَهُوَ يَنْتَفِعُ بِمَا تَطْلُبُونَ مِنْهُ لِيُنَالَ مِنْكُمْ مَا يَرُوقُهُ ،
وَهُوَ يَعْرِفُ ، دَائِمًا ، أَنَّ يَحْمِلَكُمْ عَلَى إِنْفَاقِ سَاعَةٍ دَوَامٍ مَعَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ
مِلَاطَفَةٍ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَعَاهِدَتِهِ فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ ، وَتَنْقَلِبُ هَذِهِ الْمَعَاهِدَاتُ ،
الَّتِي تَقْتَرِحُونَهَا عَلَى شَاكِلَتِكُمْ فَيُنْفِذُهَا عَلَى شَاكِلَتِهِ ، إِلَى مَا يَلَائِمُ أَهْوَاءَهُ ،
وَلَا سِيَّامَا حِينَ تَكُونُونَ مِنْ ضَعْفِ الرَّأْيِ مَا تَضَعُونَ مَعَهُ مِنَ الشَّرُوطِ نَفْعًا لَهُ
مَا يَثْبِقُ بِأَنَّهُ يَنَالُهُ سِوَاهُ أَقَامَ بِالْشَّرْطِ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِ مُقَابَلَةً أَمْ لَمْ يَقُمْ ،
وَيَقْرَأُ الْوَلَدُ فِي ذَهْنِ الْعَلَمِ ، عَادَةً ، أَكْثَرَ مِمَّا يَقْرَأُ الْعَلَمُ فِي قَلْبِ الْوَلَدِ
بِمَرَاكِحِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ هَكَذَا ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ حِذْقٍ يَسْتَعْمَلُهُ
الْوَلَدُ الْمُلقَى حَبْلُهُ عَلَى غَارِبِهِ فِي سَبِيلِ حِفْظِ نَفْسِهِ يَسْتَعْمَلُهُ لِإِنْقَازِ حَرِيَّتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ
مِنْ قِيُودِ طَاغِيَّتِهِ ، عَلَى حِينٍ يَجِدُ هَذَا الطَّاغِيَّةَ ، الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ مُلِحَّةً
لَدَيْهِ فِي اكْتِنَاهِ الْآخِرِ ، أَنَّ مِنَ الْمَوَافِقِ لِحَسَابِهِ ، أحيانًا ، أَنْ يَتْرَكَ لَهُ
كَسَلَهُ وَزَهْوَهُ .

وَأَسْلُكُوا طَرِيقًا مُعَاكِسَةً مَعَ تَلْمِذِكُمْ ، وَلْيَعْتَقِدْ أَنَّهُ السَّيِّدُ دَائِمًا مَعَ أَنَّ
السِّيَادَةَ لَكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، فَلَا يَوْجَدُ انْقِيَادًا أَتَمَّ مِنْ انْقِيَادِ الَّذِي يَحَافِظُ عَلَى
الْحَرِيَّةِ ظَاهِرًا ، فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ تُقَهَّرُ الْإِرَادَةُ نَفْسُهَا ، أَلَا يَكُونُ الْوَلَدُ
لِلْمُسْكِينِ ، الَّذِي لَا يَعْرِفُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ شَيْئًا وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا ، تَحْتَ رَحْمَتِكُمْ ؟
أَلَا تَتَصَرَّفُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَا يَحْبِطُ بِهِ ؟ أَلَسْتُمُ السَّيِّدَ الَّذِي يُكَيِّفُهُ

كَمَا يَرُوقُهُ ؟ أَلَا تَكُونُ أَعْمَالُهُ وَأَلْعَابُهُ وَمَلَأْدُهُ وَأَتْعَابُهُ أُمُورًا فِي يَدِكُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ ؟ أَجَلٌ ، لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ غَيْرَ مَا يَرِيدُ ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَرِيدَ غَيْرَ مَا تَرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ خُطْوَةً لَمْ تَكُونُوا قَدْ أَبْصَرْتُمُوهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْتَحَ فَاهُ لِقَوْلٍ لَا تَعْرِفُونَهُ .

وَهُنَاكَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَقُومَ بِتَمَرِّنَاتٍ بَدْنِيَّةٍ تَتَطَلَّبُهَا شَيْئُهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْبَلَ ذَهَنُهُ ، وَهُنَاكَ تَرَوْنَهُ يَقْصِرُ هَمَّهُ عَلَى انْتِفَاعِهِ مِنْ كُلِّ مَا يَحِيطُ بِهِ بِمَا هُوَ أَفِيدُ لِرَاحَتِهِ الْحَاضِرَةِ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَشْحَذَ حِيلَتَهُ لِاجْتِنَابِ سُلْطَانٍ ثَقِيلٍ ، وَهُنَاكَ يَعْتَرِكُمْ الدَّهْشُ مِنْ دَقَّةِ وَسَائِلِهِ فِي امْتِلَاكِ كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ الْوَصُولَ إِلَيْهِ ، وَفِي التَّمَتُّعِ بِالْأَشْيَاءِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِرَأْيٍ حَقًّا .

وَإِذَا مَا تَرَكْتُمُوهُ سَيَدَ رَغَائِبِهِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ لَمْ تُثْبِرُوا أَهْوَاءَهُ مُطْلَقًا ، وَإِذَا لَمْ يُصْنَعْ غَيْرُ مَا يَلَامُهُ لَمْ يُصْنَعْ مِنْ فَوْرِهِ غَيْرَ مَا يَجُوزُ أَنْ يُصْنَعَ ، وَمَعَ أَنْ جِسْمُهُ دَائِمٌ الْحَرَكَةِ ، مَا تَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِمَصَالِحِهِ الْحَاضِرَةِ الْحَسُوسَةِ ، فَإِنَّكُمْ سَرَوْنُ أَنْ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ عَقْلٍ يَنْمُو بِأَحْسَنَ كَثِيرًا ، وَعَلَى وَجْهِ أَكْثَرِ مَلَامَةٍ لَهُ ، مِنْ دُرُوسِ نَظَرِيَّةٍ صِرْفَةٍ .

وَهَكَذَا ، إِذَا لَا يَرَاكُمْ تَبَالُغُونَ فِي مَقَاوِمَتِهِ ، وَإِذَا لَا يَرْتَابُ مِنْكُمْ مُطْلَقًا ، وَإِذَا لَا يَكُونُ لَدَيْهِ شَيْءٌ يَكْتُمُهُ عَنْكُمْ ، لَا يَخَادِعُكُمْ وَلَا يَكْذِبُ عَلَيْكُمْ مُطْلَقًا ، وَإِنَّمَا يَبْدُو كَمَا هُوَ بَلَا وَجَلٍ ، وَبِمَكِينَتِكُمْ أَنْ تَدْرُسُوهُ عَلَى مَهْلٍ ، وَأَنْ تَحِيطُوهُ بِمَجْمِيعِ الدُّرُوسِ الَّتِي تَرِيدُونَ إِلْقَاءَهَا عَلَيْهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْطُرَ بِيَالِهِ تَلَقُّى أَىِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُطْلَقًا .

وَكَذَلِكَ لَنْ يَرْقُبَ مَسَالِكُكُمْ بَيْنَ فُضُولٍ غَيْرِ ، وَلَنْ يَتَلَذَّذَ سِرًّا

بَقِيدِ خَطِيئَةٍ لَكُمْ ، وهذا الأذى الذى تتلافاه عظيمٌ جدًّا ، وذلك أن من أول ما يُعْنَى به الأولادُ هو اكتشاف نواحي الضعف فيمن يهيمون عليهم كما قلت ذلك ، ويَحْمِلُ هذا الميلُ إلى الخُبْثِ ، ولكنه لا ينشأ عنه ، وإنما ينشأ عن الحاجة إلى اجتناب سلطانِ يزعمهم ، وبما أن الأولاد مُنْقَلُونَ بالنَّيرِ الذى يُفَرِّضُ عليهم فإنهم يحاولون خَلْعَهُ عنهم ، وما يَجِدُونَ من عيوبٍ فى المعلمين يُزَوِّدُهُم بوسائلٍ صالحةٍ لذلك ، ومع ذلك فإن من العادة أن يلاحظ الناسُ من خلال نقائصهم وأن يُسَرَّ بِاكتشافها عندهم ، ومن الواضح ، أيضاً ، أن يُسَدَّ هذا المنبعُ للعيوب فى قلب إميل ، وإذا لم يكن لإميل أى نَفْعٍ فى اكتشاف عيوبٍ لى فإنه لا يبحث عنها فى ، كما أنه لا يحاول كشفَ عيوب الآخرين إلا نادراً .

وتَلُوح هذه الأفعالُ كُلُّهَا صعبةً ، وذلك لأنها لا تَحْطُرُ على الببال ، ولكنها مما لا يَحْجُوزُ أن يكون هكذا فى الأساس ، ولى الحقُّ بأن أفترض لكم من المعارف الضرورية ما تزاولون معه المهنة التى اخترتم ، ويجب أن يُفْتَرَضَ لكم علمٌ بالسَّيَرِ الطَّبِيعِيِّ للقلب البشرى ، وأنكم تَعْرِفُونَ درسَ الإنسان والفرد ، وأنكم تَعْرِفُونَ مُقَدِّمًا ما تَخَضَعُ له إرادةُ تلميذكم من جميع الموضوعات التى تَلَامُّ سِتَّهُ وتَضَعُونَهَا أمام عينيه ، وهل من غير الواقع أن تَتِمَّ حَيَاةُ الإنسان للأدوات ومعرفته استعمالها جيداً على أنه سيدُ العمل ؟

وستعترضون بأهواء الولد ، ولستم على صوابٍ فى هذا ، فليس هَوَى الأولاد من عمل الطبيعة مطلقاً ، وإنما هو نتيجةُ نظام سيء ، وذلك أن يكونوا قد أطاعوا أو أمروا ، وقد قلت مئة مرة إنه كان لا ينبغي أن يقع هذا ولا

ذاك ، ولذا لا يكون لدى تلميذكم من الأهواء غير ما تكونون قد علّمتموه ،
ومن العدل أن تنالوا جزاء ما اقترقم ، ولكنكم مستقون : كيف يُعالج ذلك ؟
هذا ممكن ، أيضاً ، بأصلح سلوكٍ وبصبرٍ كثير .

كان قد عُهِدَ إليّ ، لبضعة أسابيع ، في أمرٍ ولدٍ لم يُعوّد تنفيذَ رغائبه
قط ، بل عُوّدَ حَمَلُ جميع الناس على تنفيذها أيضاً ، ومن ثمّ كان هذا
الولدُ جُوحاً ، ويريد ، منذ اليوم الأول ، أن يمتحن مجاراتي له ، فيَنهَضُ في
منتصف الليل ، ويَنبُتُ كنتُ غارقاً في نومي يَثْبُ من سريره ويتناول مَبْدَلَه
ويناديني ، وأنَهَضُ ، وأشعلُ الشمعةَ ، ولا يريد أكثر من هذا ، ويمضي
رُبْعَ ساعةٍ ويَنمُسُ ويَضْجَعُ ثانيةً قائماً باختباره ، ويعود إلى ذلك بعد يومين
وينال عينَ النجاح ، وذلك من غير أن يَبْدُوَ عليّ أقلُّ علامةٍ على عدم
الصبر ، ويُقَبِّلُنِي عند اضطجاعه ثانيةً ، وأقول له بهدوء : « أَحَسَّتْ جِدّاً
يا صديقي الصغير ، ولكن لا تَعُدْ إلى هذا » ، وتثير هذه الكلمة فُضُولَه ،
ويَوَدُّ في الغد أن يَرَى قليلاً كيف أُجْرُو على مخالفته ، فلا يَفوته أن يَنهَضُ
في ذات الساعة وأن يناديني ، وأسأله عما يريد ، ويقول لي إنه لم يستطع
أن ينام ، وأجيب بكلمة « يا خسارة » ، وأسكتُ ، ويرجو أن أشعل الشمعة
وأسأل : « لأيّ شيء ؟ » ، وأسكت ، ويرُجمه هذا الإيجاز ، ويَتَمَسَّسُ
القَدَاحَ في الظلام ، ويحاول إخراج النار منه ، ولا أستطيع منع نفسي من
الضحك عند سماعي ضَرْبَه لأصابه ، ويَعْتَقِدُ ، أخيراً ، أنه لا يَقْدِرُ على الزَّئِدِ ،
فيأتي بالقَدَاحَةِ إلى سريري ، فأقول له إنني لم أطلبها ، وأقْلِبُ ظهري ، وهناك
يَذْرَعُ العُرفةَ طائشاً صارخاً مغنياً صاحباً خابطاً نفسه على المنضدة والكراسي

بَصَرَاتٍ عُيِّنَ كَثِيرًا بَأَن تَكُونُ مُعْتَدِلَةً ، مَعَ صِيَاحٍ شَدِيدٍ أَمَلًا أَن يَقْلُقَنِي ،
وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى غَيْرِ جِدْوَى ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ ، وَإِن كَانَ مُسْتَعِدًّا لِلْهِجَاجِ
وَالْغَضَبِ ، غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لِاعْتِدَالِ الدَّمِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَزَمَ عَلَى قَهْرِ صَبْرِي بِعُنَايَةِ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ نَجَاحِهِ فِي
الِاسْتِمْرَارِ عَلَى ضَوْضَائِهِ مَا كِدْتُ أَتَمَيَّزُ مَعَهُ مِنَ الْغَيْظِ ، وَقَدْ أَبْصَرْتُ
أَنِّي أَفِيدُ كُلَّ أَمْرٍ بِانْفِجَارٍ غَيْرٍ مُنَاسِبٍ ، وَأَرَى سُلُوكَ سَبِيلٍ أُخْرَى ،
وَأَنْهَضُ مِنْ غَيْرِ أَن أُنْطِقَ بِكَلِمَةٍ ، وَأَذْهَبُ إِلَى الْقَدَاحَةِ فَلَا أُجِدُّهَا ، وَأَسْأَلُهُ
عَنْهَا ، وَيُعْطِينِي إِيَّاهَا فَرِحًا لَا تَنْتَصَرُهُ عَلَىَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، وَأَقْدَحَ بِالزَّوْدِ ،
وَأَشَقَلَ الشَّمْعَةَ ، وَأَمْسَكَ الْوَلَدَ مِنْ يَدِهِ ، وَأَسِيرُ بِهِ هَادِنًا إِلَى غُرْفَةٍ مُلَاصِقَةٍ
ذَاتِ مَصَارِيحَ مُحْكَمَةِ الْإِغْلَاقِ حَيْثُ لَا يَوْجَدُ شَيْءٌ يُكْسِرُ ، وَأَتَرُكُهُ فِيهَا
بِلَا نُورٍ ، ثُمَّ أَغْلِقُ الْبَابَ عَلَيْهِ بِالْمِفْتَاحِ ، وَأَعُودُ لِأَنَامٍ غَيْرِ مُخَاطَبٍ إِيَّاهُ بِكَلِمَةٍ ،
وَلَا نَسْأَلُ عَنْ شِدَّةِ مَا كَانَ هُنَاكَ مِنْ ضَجَّةٍ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا الَّذِي
كَنتُ أَتَنْظَرُ ، وَلَمْ أَهْتِزَّ ، وَيَسْكُنُ الضَّجِيجُ مُؤَخَّرًا ، وَأَسْتَمِعُ ، وَأُدْرِكُ أَنَّهُ
اسْتِقَامَ ، وَيَهْدَأُ بَالِي ، وَأَدْخُلُ الْغُرْفَةَ صَبَاحًا ، وَأَجِدُّ الْعَاصِيَ الصَّغِيرَ
ضَاجِعًا عَلَى مَتَكٍ نَائِمًا نَوْمًا عَمِيقًا كَانَ فِي أَشَدِّ الْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ بَعْدَ
ذَلِكَ الْعَنَاءِ .

وَلَا يَقِفُ الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّ تَعْلَمُ قَضَاءَ الْوَلَدِ
ثَلَاثِي اللَّيْلَةِ خَارِجَ فِرَاشِهِ ، وَيُقَضَّى عَلَى الْعَمَلِ حَالًا ، وَيَبْدُو الْوَلَدُ مِثْلَ
هَالِكٍ ، وَالْوَلَدُ ، إِذْ يَرَى الْفُرْصَةَ صَالِحَةً لِلِانْتِقَامِ ، يَزْعُمُ أَنَّهُ مَرِيضٌ غَيْرَ
مُبْصِرٍ أَنَّهُ لَا يَكْسِبُ مِنْ وِرَاءِ هَذَا شَيْئًا ، وَيُذْعِنُ الطَّيِّبُ ، وَمِنْ سَوْءِ

حَظَّ الْأُمُّ أَنْ كَانَ هَذَا الطَّبِيبُ مَا جَنَّا أُرَادَ أَنْ يَتَلَهَّى بِذُعْرَهَا فَعَمِلَ عَلَى زِيَادَتِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ لِي هَمْسًا : « دَعْنِي أَعْمَلْ ، فَأَعِدْكَ بِأَنْ يُشْفَى الْوَلَدُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ مُرَادٍ مَرَّضِهِ » ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْوَلَدَ أُوصِيَ بِالْحِمَاةِ وَالنَّزَامِ الْغُرْفَةِ ، وَفُوضَ أَمْرُهُ إِلَى الصِّدِّيقِ ، وَمِنْ حَسْرَتِي أَنْ رَأَيْتُ هَذِهِ الْأُمَّ الْمُسْكِينَةَ فَرِيسَةً خِدَاعٍ جَمِيعٍ مِنْ يَحِيطُونَ بِهَا خِلَا نَفْسِي ، وَأَنْ كُنْتُ مَوْضِعَ حَقْدِهَا لِأَنْتَى لَمْ أُخَادِعْهَا قَطُّ .

وَتَقُولُ لِي ، بَعْدَ كَوْنٍ شَدِيدٍ ، إِنَّ ابْنَهَا غَلَامٌ أُمْلُودٌ* ، وَإِنَّهُ الْوَارِثُ الْوَحِيدُ لِأُسْرَتِهِ ، وَإِنْ مِنْ الْوَاجِبِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهِ بِأَيِّ ثَمَنٍ كَانَ ، وَإِنَّهَا لَا تَرِيدُ أَنْ يَمَّاكُسَ ، وَأَوَاقِفُهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنَهَا تَعْنِي بِمَا كَسَتْهُ أَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَأَرَى أَنَّ أَعَامِلَ الْأُمِّ بِمَثَلِ مَا عَامَلَتْ الْوَلَدَ ، فَأَقُولُ لَهَا بَقْتُورُ : « سِيدَتِي ، لَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُرَبِّي الْوَارِثَ مُطْلَقًا ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا أَنْبَى لَا أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ هَذَا ، فَيُمْكِنُكَ أَنْ تُرَبِّي أُمُورَكَ وَفَقَّ هَذَا » ، وَقَدْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى لَأَيَّامٍ أُخَرَ أَيْضًا ، فَهَذَا الْأَبُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَكَتَبْتُ الْأُمَّ إِلَى الْعَلَمِ لِيُعَجِّلَ رَجُوعَهُ ، وَأَبْصَرَ الْوَلَدُ أَنَّهُ لَا يَكْسِبُ شَيْئًا مِنْ مَنَعِ نَوْمِي وَمِنْ اتِّحَالِهِ الْمَرَضَ فَوَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى النَّوْمِ وَعَلَى الظُّهُورِ حَسَنَ الصُّحَّةِ أَيْضًا .

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ مَقْدَارُ مَا كَانَ الْعَلَمُ التَّعَسُّ خَاضِعًا لَهُ مِنْ أَهْوَاءِ الطَّاعِيَةِ الصَّغِيرِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّرِيَةَ كَانَتْ تَتَمُّ عَلَى عَيْنِي الْأُمِّ الَّتِي لَا يُطِيقُ أَنْ يُعْصِيَ الْوَارِثُ فِي شَيْءٍ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِيَأْخُذَهُ مَعَهُ كَلِمًا

أراد الخروج ، أو أن يتبعه على الأرجح ، وفي هذا كان الولد يختار الساعة التي يكون معامه مشغولاً فيها ، وقد أراد أن يتخذ نحوى ذات السلطان وأن ينتقم نهاراً من الراحة الملزَم بأن يتركها لي ليلاً ، وقد رضيتُ بجميع هذا فَرِحاً وأخذت أبدى مخلصاً ما يساورني من حُبُورٍ بجمعه مسروراً ، ولما دار الأمرُ حَوْلَ شفائه من هواه بعد هذا انتحلتُ وجهاً آخر .

وأولُ ما وجب فعله أن يُوضَعَ في موضع الخطيء ، ولم يَكُنْ هذا صعباً ، وبما أنتى كنت أعْرِفُ أن الأولاد لا يَحْمِلُونَ بغير الحاضر فقد سَهَّلَ عَلَى أن أُؤَثِّرَ فيه بِتَبَصُّرِي ، فَأَعْنَى بأن أهَيُّ له في المنزل لَهْوَاً كنت أعْرِفُ ملائمته لذوقه إلى الغاية ، فإذا رأيته غارقاً به اقترحتُ التيامَ بنزهةٍ قصيرة ، ولم يَقْبَلْ ، وَأَصِرُّ ، ولا يَسْتَمِيعُ لي ، وعلى أن أذعن ، وَيُقَيِّدَ علامة الإذعان في نفسه باعتناء .

ويأتى دَوْرِي في الغد ، ويسأم من شغله كما كنت أنتظر ، وعلى العكس أَظْهَرُ كثيرَ الشغل ، وكان هذا كافياً لِيَقَرَّرَ ، ولم يَتَوَانَ في انتزاعي من عملي لآتي به إلى نُزْهَةٍ بأسرع ما يمكن ، فَرَفَضْتُ ، وَأَصِرُّ ، وأقول له : « كلاً ، فقد تَعَلَّمْتُ من تنفيذ رغبتك أن أُنْفِذَ رغبتى ، ولا أريد الخروج » ، ويجب بِشِدْقٍ : « حسناً ، سأخرج وحدى » ، وأقول : « كما تريد » ، وأعود إلى عملي .

ويُنْبَس ثيابه ، ويضطرب بالله قليلاً من إغضائي عنه وعدم اتِّباعي إياه ، فلما استعدَّ للخروج أتى لتحتي كَحْيَتُهُ ، ويحاول أن يُخَوِّفَنِي بقصة أسفاره التي سيقوم بها ، فَيَظُنُّ من يَسْمَعُهُ أنه ذاهبٌ إلى أقاصى الدنيا ، (١٢)

وَأَتَمَنَى لَهُ رَحَلَةً طَيِّبَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ أُحَرِّكَ سَاكِنًا ، وَبِتَضَاعُفِ ارْتِبَاكِهِ ،
 وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَظْهَرَ الْحَزْمَ ، وَقَالَ لَخَادِمِهِ أَنْ يَتَّبِعَهُ عِنْدَمَا هُمْ بِالْخُرُوجِ ،
 وَكَانَ الْخَادِمُ قَدْ حُذِّرَ فَاعْتَذَرَ بِعَدَمِ مُسَاعَدَةِ الْوَقْتِ وَبِأَنَّهُ قَائِمٌ بِأُمُورٍ فَيَجِبُ
 أَنْ يُطِيعَنِي قَبْلَ أَنْ يُطِيعَهُ ، وَيَعْتَرِي الْوَلَدَ دَهْشٌ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، وَكَيْفَ
 يَتَّصِرُ تَرْكُهُ يَخْرُجُ وَحْدَهُ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَهْمُ النَّاسِ وَيَرَى حِرْصَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ عَلَى سَلَامَتِهِ ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَخَذَ يَشْعُرُ بِضَعْفِهِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ يَكُونُ
 وَحِيدًا بَيْنَ أَنْاسٍ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَيُبْصِرُ مُقَدِّمًا مَا يَنْتَظَرُهُ مِنْ أخطارٍ ، وَلَا
 يَزَالُ أَرْزُهُ بِشَتْدٍ بَعْنَادِهِ وَحْدَهُ ، وَيَنْزِلُ مِنَ الدَّرَجِ عَلَى مَهْلٍ وَبِلا مَثِيلٍ ،
 وَيَدْخُلُ الشَّارِعَ آخِرًا سَالِيًا بَعْضَ السَّلْوَانِ عَنِ الضَّرِّ الَّذِي قَدْ يَمَسُّهُ بِأَمَلِهِ
 فِي جَعْلِي مَسْئُولًا .

وَذَلِكَ مَا كُنْتُ أَتَنْتَظِرُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ مُعَدًّا مُقَدِّمًا ، وَكُنْتُ مُجَهِّزًا
 بِمُوَافَقَةِ الْأُتْبِ ، كَأَنَّ الْأَمْرَ ضَرَبُ مِنَ الْمُنَاطَرِ الْعَامَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَقْدَمُ بِضَعْفِ
 خُطُواتٍ حَتَّى صَارَ يَسْمَعُ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ أَقْوَالَ مُخْتَلِفَةً حَوْلَهُ ، وَمِنْ
 ذَلِكَ : « أَيْنَ يَذْهَبُ وَحْدَهُ هَذَا الْجَارُ السَّيِّدُ الظَّرِيفُ ؟ سَيَضِيعُ ، سَأُطَلِّبُ
 مِنْهُ أَنْ يَجِيءَ عِنْدَنَا ، اخْذَرِي يَا جَارَةَ ، أَلَا تَرَيْنَ أَنَّهُ فَاجِرٌ صَغِيرٌ طُرِدَ مِنْ
 مَنْ بَيْتِ أَبِيهِ لِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَشَيْءٍ ؟ لَا يَجُوزُ إِوَاكِهِ الْفَجْرَةُ ، وَلْيَذْهَبْ إِلَى
 حَيْثُ يَشَاءُ ، حَسَنًا ، وَلْيَحْفَظْهُ اللَّهُ ! فَمَا يَغِيظُنِي أَنْ يَصَابَ بِسَوْءٍ » ،
 وَيَتَقَدَّمُ قَلِيلًا فَيَلَاقِي أَوْلَادًا طَائِشِينَ مِنْ لِدَاتِهِ تَقْرِيبًا فَيَزْعَجُونَهُ وَيَهْزُونُ بِهِ ،
 وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ وَجَدَ مَا يَضَاقِقُهُ ، وَهُوَ ، إِذْ كَانَ وَحِيدًا بِلا حِمَايَةٍ ، رَأَى نَفْسَهُ

أَلْعُوبَةَ جَمِيعِ النَّاسِ وَأَحْسَ بَكْنِيرٍ مِنَ الْخَيْرَةِ أَنْ عَقْدَةَ كَتَفِهِ وَزُخْرَفَهُ الذَّهَبِيَّ لَا يَجْلُبُونَ إِلَيْهِ احْتِرَامًا .

ومع ذلك فقد عهدتُ إلى أحد أصدقائي ، الذين كان لا يَعْرِفُهُمْ مطلقاً ، أن يَرْقُبَهُ ، فكان يَتَّبِعُهُ خُطْوَةً خُطْوَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى ذَلِكَ ، وكان يدنو منه عند الاقتضاء ، وكان هذا الدَّوْرُ ، المُشَابَهُ لِدَوْرِ سِبْرِيغَانِي فِي بُرْسُونِيَاك يَتَطَلَّبُ رَجُلًا وافرَ العقل ، فقام به الصديق خَيْرَ قِيَامٍ ، وذلك أَنَّهُ لم يجعل الولدَ أَوْجَلَ جُزْوعًا بَتَلْقِينِهِ ذُعْرًا كَبِيرًا ، وإنما أَشْعَرَهُ بِعَدَمِ تَبَصُّرِهِ فِي عَمَلِهِ الشَّاقِّ ، فلما مَضَى نِصْفُ سَاعَةٍ أَتَانِي بِهِ كَيْنًا خَزِيًّا غَيْرَ مَجْتَرِيٍّ عَلَى رَفْعِ عَيْنِيهِ .

وَتُكْمَلُ بِلَيْتُهُ فِي رِحْلَتِهِ حِينَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْبَيْتِ تَمَامًا ، فَقَدْ نَزَلَ أَبُوهُ لِلخُرُوجِ فَلَقِيَهُ عَلَى الدَّرَجِ ، وكان عليه أَنْ يُخْبِرَ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي أَتَى مِنْهُ ، وَعَنْ سَبَبِ عَدَمِ وَجُودِي مَعَهُ ^(١) ، وَوَدَّ الْوَلَدُ الْمُسْكِينَ لَوْ يَكُونُ تَحْتَ الْأَرْضِ مِثْلَ قَدَمٍ ، وَلَمْ يَتَلَّهْ الْأَبُ بِأَنْ يُوجِّهَ إِلَيْهِ لَوْمًا شَدِيدًا ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ بِجَفَاءٍ لَمْ أَكُنْ لَأَنْتَظِرَهُ : « إِذَا أَرَدْتَ الْخُرُوجَ وَحَدِّثْكَ أُمُكُنْكَ فَعَلُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ بِمَا أَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى عَاصِيًا فِي مَنْزِلِي ، كَمَا تَصْنَعُ ، فَحَذَّرِ أَنْ تَعُودَ » .

وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ اسْتَقْبَلْتُهُ غَيْرَ لَأْنَمٍ وَلَا سَاخِرٍ ، وَلَكِنْ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الرَّصَانَةِ ، وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَتَى بِهِ لِلزَّهْةِ فِي الْيَوْمِ نَفْسَهُ خَشِيَةً أَنْ يَدُورَ فِي

(١) لا خطر في مثل هذه الحال من أن يطالب الولد بقول الصدق ، وذلك لأنه يعرف عجزه عن كتمانهِ ، ولأنه ، إذا ما جرؤ على الكذب ، لم يلبث أن يدان .

خَلَدَهُ أَنْ كُلَّ مَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ لَعِبٍ ، وَمَا طَابَ لِي كَثِيرًا أَنْ رَأَيْتُهُ فِي غَدٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَمُرُّ مَعِي ، كَأَنَّهُ فِي مَوْكَبِ نَصْرِ ، أَمَامَ مَنْ سَخِرُوا مِنْهُ أَمْسِرَ حِينَمَا كَانَ وَحْدَهُ ، وَهَكَذَا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تُذَكِّرُوا أَنَّهُ عَادَ لَا يَتَوَعَّدُنِي بِالْخُرُوجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مَعِي .

فَهِذِهِ الْوَسَائِلُ وَمَا مِثْلُهَا وَفُتَّتْ فِي الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا مَعَهُ أَنْ أَجْعَلَهُ يَفْعَلُ كُلَّ مَا أُرِيدُ ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَمُرَهُ بِشَيْءٍ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَصُدَّهُ عَنْ شَيْءٍ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْظِمَهُ بِشَيْءٍ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَحُثَّهُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَضْجِرَهُ بِدُرُوسٍ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَبْدُو رَاضِيًا إِذَا تَكَلَّمْتُ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُذَعِّرُ إِذَا مَا التَزَمْتُ جَانِبَ الصَّمْتِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ الْأُمُورِ لَيْسَ صَوَابًا ، وَأَنَّ الدَّرْسَ يَأْتِي مِنْ ذَاتِ الشَّيْءِ دَائِمًا ، وَلَكِنْ دَعْنَا نَرْجِعَ إِلَى الْمَوْضُوعِ .

وَهَذِهِ التَّرِينَاتُ الْمُتَّصِلَةُ ، الْمَتْرُوكَةُ لِتَوْجِيهِ الطَّبِيعَةِ وَحْدَهُ ، إِذْ تُقَوَّى الْجِسْمَ ، لَا تُؤْدِي إِلَى عَدَمِ حَبْلِ الرُّوحِ فَقَطْ ، بَلْ ، عَلَى الْعَكْسِ ، تُكَوِّنُ فِينَا ، أَيْضًا ، نَوْعَ الْعَقْلِ الْوَحِيدِ الَّذِي يَتَقَبَّلُهُ الدَّورُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعُمُرِ وَالَّذِي هُوَ الْأَزْمَ مَا يَكُونُ فِي أَيِّ دَوْرٍ مِنْ أَدْوَارِ الْعُمُرِ ، وَهِيَ تَعَلَّمْنَا كَيْفَ نُحْسِنُ اسْتِمْعَالَ قُوَانَا كَمَا تَعَلَّمْنَا مَا بَيْنَ أَجْسَامِنَا وَالْأَجْسَامِ الْحَيَاطَةِ بِنَا مِنْ صَلَةٍ ، وَهِيَ تَعَلَّمْنَا اسْتِمْعَالَ الْوَسَائِلِ الطَّبِيعِيَةِ الْوَاقِعَةِ فِي مُتَنَاقُلِنَا وَالْمَلَائِمَةِ لِأَعْضَائِنَا ، وَهَلْ تَوْجِدُ رُغْوَةً كَرُغْوَةِ الْوَلَدِ الَّذِي يُنْشَأُ فِي الْغُرْفَةِ عَلَى عَيْنَيْ أُمِّهِ دَائِمًا فَيَجْهَلُ مَا الثَّقَلُ وَمَا الْمَقَامَةُ وَيُرِيدُ قَلْعَ شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ أَوْ رَفْعَ صَخْرَةٍ ؟ وَقَدْ أَرَدْتُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ خَرَجْتُ فِيهَا مِنْ جَنِيْفٍ أَنْ أَلْحَقَ حِصَانًا رَاكضًا ، وَقَدْ رَمَيْتُ

حجارةً على جبل ساليث البعيد منى فرسخين ، فكنتُ موضعَ سُخرية أولاد القرية عادّين إيتاي من البُله ، وفي العام الثامن عشر من العمرُ يُعَلِّم ما العتلةُ في الفلسفة ، ولا يوجدُ قَرَوِيٌّ صغيرٌ بالغ من العمر اثنتى عشرة سنة لا يَعْرِف استعمالَ العتلة أحسن مما يَعْرِفُ الميكانيُّ الأولُ في الأكاديمية ، وما يتلقاه التلاميذُ بينهم في ساحة المدرسة أفيدُ مئة مرةٍ مما يقال لهم في حجرة الدرس . وانظروا إلى سِنَوْرٍ داخلٍ غرفةً للمرة الأولى ، فهو يزور ، ويُبَصِّر ، ويَشْمُ ، ولا يَبْقَى دقيقةً واحدة مستقرًا ، وهو لا يَزْكُنُ إلى شيء قبل أن يَفْحَصَ كلَّ شيءٍ وَيَعْرِفَ كلَّ شيءٍ ، وهذا ما يَفْعَلُ الولدُ الذى يبدأ بالمشي فيَدْخُلُ ساحةَ العالم على هذا الوجه ، ويقوم الفرقُ الوحيد على أنه يضاف في الملاحظة إلى حاسة البصر ، المشتركة بين الولد والسَّوْر ، ما حَبَّتْ الطبيعة به ، الأول من يدين ، وما حَبَّتْ به الثانى من حاسة شَمٍّ نفاذة ، وهذا الاستعدادُ ، الذى يُحَسِّنُ تَعَهُّدَهُ أو يُسَاء ، هو الذى يَجْعَلُ الأولادَ ماهرين أو غِلاظًا ، متناقِلين أو نِشاطًا ، طائشين أو فُطُنًا .

وبما أن حركاتِ الإنسان الطبيعية الأولى تقوم على قياسه بجميع ما يحيط به وعلى الشعور ، فى كلِّ شيء يُدْرِكُ ، بجميع الخواصِّ الحساسة التى يُمْكِنُ أن تناسبه ، فإن درسه الأول يكون ضَرْبًا من الفِزياء التجريبية الملائمة لبقائه فيُحوَّل عنه بدروسٍ نظرية قبل أن يَعْرِفَ مكانه فى هذا العالم ، وبينما يُمْكِنُ أعضائه الدقيقة المَرِنَة أن تطابق الأجسام التى يجب أن تؤثر فيها ، وبينما تكون حواسُّه سالمةً من الأوهام ، يكون هذا زمنَ تمرين الأعضاء والحواسِّ على الوظائف الخاصة بهما ، يكون هذا دَوْرَ تَعَلُّمنا معرفة العلاقاتِ

الحسوسة بيننا وبين الأشياء ، وبما أن كلَّ شيء داخلٍ ضمنَ الإدراك البشرى يأتية من الحواس فإنَّ عقلَ الإنسانِ الأولَ هو عقلٌ حسيٌّ ، وهذا هو العقلُ الذي يَصْلُحُ أساساً للعقل الذهنى ، أى إنَّ أسانذتنا الأولين فى الفلسفة هى أرجلنا وأيدينا وعيوننا ، ولا ينطوى استبدالُ الكتب بجمع هذا على تعليمنا التعقل ، بل يعكسنا انتحالَ عقلِ الآخرين ، بل يُعلِّمنا كثرة الاعتقاد وقلة المعرفة .

ويجب لممارسة صَنَعَةٍ أن يُبدَأَ بإحراز وسائلها ، ويجب للقدرة على استعمال هذه الوسائل استعمالاً نافعاً أن تكون من اللتانة ما تُقاوم معه الاستعمال ، ويجب لتعلُّم التفكير أن تُدَرَّبَ ، إذنْ ، أعضاءنا وحواسنا وأطرافنا التى هى وسائلُ عقلنا ، ويجب للانتفاع بأقصى ما يُمكن من هذه الوسائل أن يكون الجسم الذى يُزَوَّدُ بها عُصْبِيَّاً سالماً ، وهكذا فإن من البعيد أن يتكون عقل الإنسان مستقلاً عن الجسم ، وحسنُ تكوين الجسم هو الذى يعمل أعمالَ الذهن سهلةً صحيحةً .

وإنى ، حين أدلُّ على الوجه الذى يجب أن يُنفَقَ فيه فراغُ الوَلُودية الطويلُ ، أُلجُّ بابَ التفصيل الذى يلوح أنه موضعُ هزوه ، وسيقال لى إنَّ الدروس التى تقع تحت سلطان نقدك الخاصِّ ، فتقتصر على تعليم ما لا يحتاج إليه أحدٌ ، دروسٌ مضحكة ! ولم يُقَصِّ الوقت فى تعليم يأتى من نفسه ولا يُكَلِّفُ تَعَباً ولا رعاية ؟ وأىُّ ولدٍ بالغ من العمر اثنى عشر عاماً لا يَعْرِفُ جميعَ ما تريد تعليمَ تلميذك إياه فضلاً عما يكون مُعَلِّمُه قد عَلمَه إياه ؟

أنتم مخطئون يا سادتي ، فأننا أعلمُ تلميذى صنعةً طويلةً جداً ، شاقةً جداً ، صنعةً لا يحوزها تلاميذُكم لا ريب ، صنعةً كونه جاهلاً ، وذلك لأن علم من يعتقد أنه يعرف ما يعرف فقط يُردُّ إلى شيء قليل ، وأنتم تُلقون علماء ، حسناً ، وأما أنا فأعنى بالوسيلة الصالحة لا اكتسابه ، ويُروى أن أهل البندقية أطلعوا سفيرَ إسبانية على كنوز القديس مُرقس ، وكان هذا في احتفالٍ عظيم ، فقصر مجاملته على قوله وهو ينظر إلى ما تحت المنأضد : « هنا لا يوجد جذرٌ » ، فلا أرى مُعلماً يعرض معرفة تلميذه من غير أن أُحاولَ قولَ مثلِ هذا له .

ويعزُّو جميعُ من يُنعمون النظر في طراز حياة القدماء إلى التمرينات الرياضية تلك القوة في الجسم والذهن التي تميزُهم من المعاصرين بأوضح ما يمكن ، ويدلُّ الوجه الذى يدَّعم مُؤنثين به هذا الرأى على أنه كان متأثراً به كثيراً فيعودُ إليه بلا انقطاع وعلى ألف طَرزٍ ، وهو ، إذ يتكلم عن تربية الولد ، يقول : « يجبُ لتقوية روحه أن تُقوى عضلاته ، وهو يُعودُ الألم حين يُعودُ العمل ، ولا بدُّ من تدريبيه على خُسونة الرياضة البدنية حتى يألفَ عُنفَ الانحلاع وشدةَ المنص وقسوةَ جميع الأمراض » ، وعلى ما بين الحكيم لوك والصالح رولان والعالم فلورى والمتحذلق كروزا من اختلافٍ كبير في شتى المسائل تجدُّهم جميعاً متفقين في مسألة تمرين أبدان الأولاد وحدها ، وهذا هو أصوبُ ما فى تعاليمهم ، وهذا هو أكثرُ الأمور إهمالاً ، وسيكون هكذا دائماً ، وكنتُ قد تكلمت عن أهميته بدرجة الكفاية ، وبما أنه لا يُمكن أن يُبينَ حَولَ ذلك من الأسباب والقواعد ما هو

أفضلُ مما وَرَدَ في كتاب لوك فَإِنِّي أقنع بِإحالة القارىءِ إليه بعد أن أبيع
لنفسى إضافةً بعض الملاحظات إلى ملاحظاته .

ويجب أن تكون الأعضاء في الجسم النامى طليقةً سهلةً الحركة في
الثياب ، فلا يَنْبَغِي أن يضايقَ شَيْءٌ حركتها ولا يُنْمُوها ، فلا ضَيْقَ ، ولا
لاصقَ بالبدن ، ولا رُبُطَ ، ويُعدُّ اللباسُ الفرنسىُّ المُتَمَبُّ للرجال وغيرُ
الصحيِّ لهم ضارًّا بالأولاد على الخصوص ، وتَضُرُّى* الأخلاطُ الراكدة التي
يُوقِفُ دَوْرانها بسكونٍ يزيد بالحياة المتوانية الحضرية ، فتَفْقَنُ الأخلاطُ
وتَسَبَّبُ داء الحُفْرِ الذى يَزِيدُ انتشاره كلَّ يوم بيننا مع أنه مجهولٌ ، تقريباً ،
لدى القدماء الذين كانوا يَتَّقُونَهُ بطراز لُبْسهم وأسلوب معيشتهم ، ولا يَتَلَفَى
لباسُ الفرسان هذا المحذور ، بل يزيده ، وإذا ما أُريدَ به إنقاذُ الأولاد
من بعض الرُّبُطِ ضَغَطهم بدناً ضَغْطاً كلياً ، وأفضلُ ما يُصَنَعُ في هذا
السبيل هو أن يُتْرَكوا لابسِينَ سُرَّةً لأطولِ وقتٍ ممكن ، ثم أن يُعطَوْا ثوباً
فَضْفاً من غير أن يُغْنَى بتجسيم قَواهم ، لِمَا يُوْدَى إليه هذا من تشويهِهم
على وَجِهٍ آخر ، وتنشأ جميعُ عيوبهم بدناً وروحاً عن ذاتِ العلة تقريباً ،
ويُراد جعلُهم رجالاً قبل الأوان .

ويُوجَدُ من الألوان ما هو مُشْرِقٌ وما هو قاتمٌ ، ويُفَضَّلُ الأولادُ
الألوانَ الأولى ، وهى تلائمهم أيضاً ، ولا أذرى ما السببُ في عدم أخذ
الملاءمة الطبيعية في هذا بعين الاعتبار ، ولكن بما أنهم يُرَجَّحون النسيج
الفاخر فإن هذا يعنى استهواء النفائس لأفئدتهم وميلهم إلى جميع مناحى الزَّيِّ ،

ولم يأتهم هذا الذوق من أنفسهم لا ريب ، ومن المتعذر بيان مقدار ما لاختيار الثياب وعوامل هذا الاختيار من تأثير في التربية ، وليس الأمهات العنق وحدهن من يعدن أولادهن بالخراف مكافأة لهم ، بل يرى ، أيضاً ، معلمون من الحقيق يهددون تلاميذهم بشوب أكثر خشونة وأعظم بساطة عقاباً لهم ، وذلك كأن يقولوا لهم : « إذا لم تكونوا أحسن درساً ، وإذا لم تكونوا أكثر اعتناء بثيابكم ، فإنكم ستحملون على لبس ثياب كثياب هذا الفلاح الصغير » ، وتعديل هذا قولهم للتلاميذ : « اعلموا أن الإنسان ليس شيئاً بغير ثيابه ، وأن قيمتكم بما تلبسون » ، وهل يعجب من تأثير أولادنا بهذه الدروس الصائبة ، ومن كونهم لا يقدرّون غير الزخرف ، ومن كونهم لا يرون الزينة في غير المظهر ؟

وإذا ما وجب أن أردّ إلى الصواب ولداً بالغاً هذا المقدار من الدلال صرّفت همي في جعل آخر ثيابه أكثر ما يكون إزعاجاً ، فتضايقه دائماً ، وتضعفه دائماً ، وترهبكه على ألف وجه دائماً ، وصرفت همي في هزمي الحرية والبهجة أمام بهائه ، فإذا أراد أن يشترك في ألعاب أولاد آخرين أكثر بساطة في اللبس كفوا كلهم عن اللعب ، وتواروا كلهم من فوزهم ، وأخيراً أبلغ من إملاله أبهته وإشباعه من زهوه ، وأخيراً أبلغ من جعله عبداً لثوبه الذهبي ، ما أجمل من هذا وذاك معه بلية حياته ، فيرى أن أسود سجن مظلم أقل هولاً من عدة زينته ، فأول ما يتمناه الولد أن يطيب عيشاً ويكون حرّاً ما دام لم يجعل عبداً لمبتسراتنا ، وتعد الثياب الأكثر بساطة والأعظم إراحة والأقل تعبيداً له أتمن ما يكون عنده دائماً .

وَتُوجَدُ للجسم عادةً ملائمةٌ للتمرينات ، وتوجد له عادةً أكثرُ ملائمةً لعدم الحركة ، وبما أن هذه تَدَعُ للأخلاط سبيلاً سهلاً نَمَطيّاً فإن من الواجب أن تَضْمَنَ البدنَ من تقلبات الجو ، وبما أن الأخرى تجمله ينتقل بلا انقطاع من الحركة إلى الراحة ، ومن الحرارة إلى البرودة ، فإن من الواجب أن نُعوِّده عينَ التقلبات ، ومن ثمَّ يَجِبُ أن يَلْبَسَ سكانُ المنازلِ وأهلُ المُدنِ ثياباً دفيئةً في كلِّ وقتٍ حفظاً للبدنِ ضِمنَ درجةٍ من الحرِّ متساويةٍ واحدةٍ ، تقريباً ، في جميعِ الفصولِ والساعات ، وأما الذين يأتون ويذهبون في الرِّيحِ وتحت الشمسِ والمطرِ ، وأما الذين يسيرون كثيراً ويقضون معظمَ أوقاتهم في العراءِ ، فيجب أن يَلْبَسُوا ثياباً خفيفةً دائماً ، وذلك ليتعودوا جميعَ تقلباتِ الجوِّ وجميعِ درجاتِ الحرِّ ، دائماً ، من غير أن يُعْنَتُوا ، فأنصحُ هؤلاءِ وأولئكِ بالألّا يُغيِّروا ثيابهم وَفَقَ الفصولِ ، وسيكون هذا عادةً إميلَ الدائمةِ ، ولا أَقْصِدُ بهذا أن يَلْبَسَ ثيابَ الشتاءِ في الصيفِ كالخَصْرِيِّينَ ، بل أَقْصِدُ أن يَلْبَسَ ثيابَ الصيفِ في الشتاءِ كالمُعَمَّالِ ، وكانت هذه عادةُ السَّيْرِ نِيوْتُنْ مدى حياته ، وقد عاش ثمانين سنة .

وقليلُ كسوةٍ للرأس ، أو لا كسوةٍ للرأس ، في جميعِ الفصولِ ، وكان قدماءُ المصريين حاسري الرأسِ دائماً ، وكان الفُرسُ يَسْتَرُونَ رؤوسهم بتيجانٍ ضَخْمَةٍ ، واليوم يَسْتَرُ الفُرسُ رؤوسهم بعمائمٍ كبيرةٍ يَجْعَلُ جوُّ البلادِ استعمالها ضرورياً كما يَرَى شارِدان ، وقد ذكرتُ في كتابٍ آخرٍ ما أناه هِيرُودُتُس من تفريقٍ في ميدان القتال بين جاجمِ الفرسِ وجاجمِ المصريين ، ولذا ، فبما أن من المهمِّ أن تكون عظامُ الرأسِ أشدَّ صلابةً وأعظمَ

كثافة وأقل عَطَبًا وأندر منافذ لتسليح الدماغ ضدَّ الجروح فضلاً عن الزَّكام والنَّزلات وجميع مؤثرات الهواء ، فعوّدوا أولادكم أن يَبْقُوا حاسري الرأس في الصيف والشتاء والنهار والليل دائماً ، وإذا كنتم تودّون نظافة شعرهم وانتظامه فتريدون غطاءً له في الليل فليكن هذا قلنسوة رقيقة ذات شقوقٍ مشابهة للشبكة التي يَلْفُ البَشْكُنْسُ بها شعورهم ، وأغرف جيداً أن مُعْظَمَ الأمهات اللائي وقفت ملاحظة شازدان أنظارهم أكثر مما وقفتها براهيني سيقتقدن أنهن يَجِدْنَ جَوْ فارسي في كلِّ مكان ، ولكنني لم أختَر تلميذي الأوربي لأجعل منه آسيويًا .

وعلى العموم يُلبَسُ الأولادُ ثياباً كثيرة ، ولا سيما في الدور الأول من عُمرهم ، مع أنه يجب أن يُعوّدوا البردَ أكثر من أن يُعوّدوا الحرَّ ، فالبردُ لا يؤذيهم مطلقاً إذا ما عرّضوا له باكراً ، ولكن بما أن نسيج جلدهم لَيِّنٌ جداً رَخْوٌ جداً ، فيساعد العرق على السَّيل بكثرة ، فإنه يُسَلِّمُهُم ، بالحرَّ المتناهي ، إلى ضَيِّ لا مَقَرَّ منه ، ولنَعْلَم ، أيضاً ، أنه يَهْلِكُ به في شهر أغسطس أكثر مما في أيِّ شهر آخر ، ثم إنه يَظْهَر من الثابت ، عند المقابلة بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب ، أن الإنسان يصير عُضْلِيًّا بِشِدَّة البرد أكثر مما بِشِدَّة الحرِّ ، ولكن كلما كَبُرَ الولد واشتدت أليافه عَوَّدوه احتمال شعاع الشمس مقداراً فقديراً ، وهو إذا ما تدرَّج في هذا السبيل جعلتموه يُطِيقُ قَيْظَ المنطقة الحارة بلا خطر .

وبينا يُتَحَفَّنُ لوكُ بمبادئ صائبة ذات فُحُولَةٍ تراه يَقَعُ في متناقضاتٍ لا تُنْتَظَرُ من مفكرٍ مُدَقِّقٍ مثله ، فهذا الرجل الذي يَوَدُّ اغتسال الأولاد

فى الماء القارس صيفاً لا يريد أن يشربوا ماءً بارداً ، ولا أن يناموا على الأرض فى أمكنة رطبية^(١) ، إذا ما كانوا دفينين ، ولكن بما أنه يؤدُّ أن ينفذ الماء أحدىة الأولاد فى جميع الأوقات فهل يكون نفوذ الماء إليها أقلّ مقداراً عند ما يكون دفيناً ؟ أفلا يمكن أن يجعل له ، من حيث نسبة البدن إلى الرجلين ، عين الاستقراء الذى أتى به من حيث نسبة الرجلين إلى اليدين ، ومن حيث نسبة البدن إلى الوجه ؟ وأقول له إذا كنت تريد أن يكون كلُّ الإنسان وجهاً فليَم تلومنى إذا ما أردت أن يكون كلُّ رجلين ؟

وهو ، لكى يحول دون شرب الأولاد عند ما يكونون دفينين ، أوصى بأن يأكلوا مقدماً كسرة خبز قبل أن يشربوا ، فمن الغرابية بمكان إعطاه الولد ما يأكل عند ما يكون ظمئاً وأفضل أن يُعطى ما يشرب عند ما يكون جائعاً ، ولا أقنع ، مطلقاً ، بأن تكون شهواتنا الأولى مُختلة كثيراً فلا يمكن قضاؤها من غير أن نعرض أنفسنا للخطر ، ولو كان الأمر هكذا لهلك الجنس البشرى مئة مرة قبل أن يُعرف ما يجب أن يُفعل لبقائه . وأريد أن يُعطى إميل ما يشرب فى كلِّ مرة يعطش فيها ، أريد أن يُعطى ماء قراحاً من غير إعداد ، حتى من غير أن يُفتّر ، ولو كان غارقاً فى عرقه ، ولو فى صميم الشتاء ، وكلُّ ما أوصى بمراعاته هو أن يُمَارَ نوع الماء ، فإذا كان ماء نهر فقدّموه إليه كما هو حالاً ، أى كما أُخرج من النهر ، وإذا كان ماء ينبوع فدعوه فى الهواء بعض الوقت قبل أن

(١) كان صغار الفلاحين كانوا يختارون الأرض الجافة ليجلسوا عليها أو ليناموا عليها ، وكأنه سمع أن رطوبة الأرض قد أضرتهم ، ولو ألقينا السمع إلى الأطباء لاعتقدنا أن جميع الهيج من الكسحاح بفعل الرئية .

يَشْرَبُهُ ، وذلك أن الأنهار في الفصول الحارّة تكون حارّة ، وأن هذا ليس حالّ الينابيع التي لم تَمَسَّ الهواء ، فيجب الانتظارُ حتى تنال حرارة الجوِّ ، وعلى العكس يكون ماء الينبوع أقلَّ خطراً في الشتاء من ماء النهر من هذه الناحية ، ولكنه ليس من الطبيعيِّ ، ولا المألوفِ ، أن يُعْرِقَ في الشتاء ، ولا سيما في العراء ، وذلك لأن الهواء البارد ، إذ يَلِطُ الجِلْدَ بلا انقطاع ، يَرُدُّ العرق إلى الداخل ويَحُولُ دون انفتاح المسامِّ بما فيه الكفاية حتى يَمْنَحَهُ ممراً حُرّاً ، والواقعُ أنني لا أَقْصِدُ أن يتدرب إميلُ شتاءً بجانب النار ، بل في سواء الأرياف بين الجليلد ، ولنَتْرُكْ إميلَ يَشْرَبُ متى عَطِشَ ما دام لا يَذْفَأُ بغير كُرَاتٍ ثَلْجِيَّةٍ وَالرَّمْيِ بها ، وَلْيَدَاوِمْ على التدرب بعد أن يَشْرَبَ ، ولا نَحْشَ صدورَ أيِّ عارضٍ عن هذا ، وإذا ما أخذ يُعْرِقُ عن تمرينٍ ما فَعَطِشْ فَلْيَشْرَبْ ماءً بارداً حتى في ذلك الوقت ، وإنما اجملوه يسير إلى بعيدٍ بِخَطِّ قَصِيرَةٍ باحثاً عن الماء ، ففي قَرَرٍ كهذا الذي أَفْتَرَضَ يكون قد بَرَدَ عرقه حين وصوله إلى مكان الشرب بلا خطر ، وعليكم أن تتخذوا هذه الاحتياطاتِ من غير أن يَشْعُرَ بها على الخصوص ، فعندي أن يَمْرُضَ أحياناً أَفْضَلُ من أن يَنْتَبِهَ إلى صحته دائماً .

ويحتاج الأولاد إلى نوم طويلٍ لِمَا يقومون به من تمرينٍ متناهٍ ، ويَعُدُّ أحد الأمرين مُلَطِّفًا لِلآخِرِ ، ويدلُّ هذا على احتياجهم إليهما ، والليلُ هو وقت الراحة ، وقد عَيَّنَتُهُ الطبيعة ، ومن الملاحظات الثابتة أن يكون النومُ أعظمَ هدوءاً وأكثرَ دَعَةً حين تكون الشمسُ تحت الأفق ، وأنَّ الهواءَ النَّقِيُّ بأشعتها لا يَضْبُطُ حواسنًا في مثل هذا السكون العظيم ، وهكذا

فإن أنفع العادات للصحة أن يقع النهوض والنوم مع الشمس لا ريب ، ومن ثم كان احتياج الإنسان والحيوان في أقاليمنا إلى النوم في الشتاء مدة أطول مما في الصيف على العموم ، غير أن الحياة المدنية ليست بسيطة طبيعية سالمة من التقلبات والعوارض بما فيه الكفاية حتى يعود الإنسان تلك النمطية فتجعل ضرورة له ، وبملا شك فيه وجوب الخضوع لقواعد ، ولكن أولى هذه القواعد هي أن يستطاع نقضها بلا خطر عند ما تقضى الضرورة بذلك ، وإذا لا تترفوا تلميذكم على غير بصيرة بدوام نوم هادئ لا يقطع مطلقاً ، نعم ، أسلموه في البداية إلى قانون الطبيعة دون مراعاة لغيره ، ولكن لا تنسوا وجوب كونه فوق هذا القانون بينما ، فيستطيع أن ينام متأخراً ، وأن ينهض صباحاً ، وأن يوقظ بغتة ، وأن يقضى الليالي واقفاً ، من غير أن يُزعج ، وليبدأ بذلك باكراً ، وليسلك السبيل رويداً وعلى درجات ، للملاءمة تلك الأحوال التي تُقوضه إذا ما حبل على الخضوع لها بعد تمام تكوينه .

ومن المهم أن يعود النوم على فراش غير مُريح في بدء الأمر ، فتكون هذه وسيلة عدم عده أية سرير سيئاً ، وإذا تحولت الحياة القاسية إلى عادة زادت الإحساسات المستحبة على العموم ، وتعد الحياة الناعمة مالا حده له من الإحساسات المستكرهه على العموم ، ولا يجيد من ينشأون في الترف الكثير نومهم على غير الريش الناعم ، ويجيد من تعودوا النوم على الألواح رقادهم في كل مكان ، فلا يوجد فراش خشن لمن ينام عندما يضحج . ومن شأن الفراش الوثير ، حيث يُفأص في الريش والزغب ، أن

يُذِيبَ البدنَ وَيَحُلِّه ، وَتَذْفَأُ الْكُلَيْتَانِ اللَّتَانِ يُشْتَمَلُ عَلَيْهِمَا اشْتِمَالًا حَارًّا ،
وَمِنْ نَمِّ تَنْشَأُ الْحَصَاةُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ فِي الْغَالِبِ ، كَمَا يَنْشَأُ مَزَاجٌ
لَطِيفٌ يُفَذِّيهَا جَمِيعًا لَا رَيْبَ .

وَأَحْسَنُ فِرَاشٍ هُوَ مَا يَوْجِبُ أَحْسَنَ نَوْمٍ ، وَهَذَا مَا أُعِدَّهُ مَعَ إِمِيلَ
نَهَارًا ، وَلَسْنَا مَحْتَاجِينَ أَنْ يُجَلِّبَ إِلَيْنَا بَعِيدٍ مِنْ فَارَسٍ لَصْنَعِ فِرَاشٍ لَنَا ،
وَنَحْنُ نَنْقُلُ فِرَاشَنَا حِينَ نَحْرُثُ الْأَرْضَ .

وَأَعْرِفُ ، عَنْ تَجْرِبَةٍ ، أَنَّ الْوَلَدَ إِذَا كَانَ ذَا صِحَّةٍ جُعِلَ يَنَامُ وَيَسْتَيْقِظُ
كَمَا يُرَادُّ تَقْرِيْبًا ، وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ ضَاجِعًا وَيُزْعِجُ خَادِمَتَهُ بِثَرْتِهِ فَقَالَتْ
لَهُ : « نَمِّ » كَانَ هَذَا كَمَا لَوْ قَالَتْ لَهُ : « شَفِيتَ » عِنْدَ مَا يَكُونُ مَرِيضًا ،
وَأَصَحُّ طَرِيقَةٍ لِحَمْلِهِ عَلَى النَّوْمِ هُوَ أَنْ يُسَامَ ، فَهُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنَامَ إِذَا مَا
كَلِمَتُهُ بِمَا يُكْرَهُ بِهِ عَلَى السَّكُوتِ ، وَتَكُونُ الْمَوَاعِظُ نَافِعَةً فِي بَعْضِ الْأُمُورِ
دَائِمًا ، وَمِنْ النَّافِعِ أَنْ تَعِظُوهُ مَا هَذِهِ تَمُوه ، وَلَكِنِّكُمْ إِذَا مَا اسْتَعْمَلْتُمْ هَذَا
النَّوْمَ لَيْلًا فَاحْذَرُوا اسْتِعْمَالَهُ نَهَارًا .

وَأَوْقِظُ إِمِيلَ أحيانًا ، وَذَلِكَ عَنْ خَشْيَةِ تَعَوُّدِهِ النَّوْمَ زَمَنًا طَوِيلًا أَقَلَّ
مِمَّا عَنْ تَعَوُّدِهِ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى اسْتِيقَاضَهُ فجأةً ، وَذَلِكَ إِلَى أَنْتَى أَكُونَ
قَلِيلَ اسْتِعْدَادٍ لَوْظِيفَتِي إِذَا لَمْ أَسْتَطِعْ حَمْلَهُ عَلَى الْاسْتِيقَاضِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ
وَعَلَى النَّهْوضِ كَمَا أُرِيدُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَقُولَ لَهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً .

وَإِذَا لَمْ يَنْمَ نَوْمًا كَافِيًا جَعَلْتُهُ يُبْصِرُ صَبَاحًا مُبِلًا مِنَ الْغَدِ ، فَيَعْدُ
كَنَبًا كُلَّ مَا يَتْرَكُهُ لِلنَّوْمِ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِذَا مَا نَامَ كَثِيرًا أَظْهَرْتُ لَهُ عِنْدَ مَا يَصْحُو
لَهُوَ يَرُوقُهُ ، وَإِذَا أُرِدْتُ أَنْ يُفِيقَ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ قُلْتُ لَهُ : « سَأَذْهَبُ

في الساعة السادسة من الغد لأصطاد سمكاً ، وسأتنزه في المكان الفلاني ، أفتريد أن تكون معي ؟ » ، ويوافق ، ويرجو مني أن أوقظه ، وأعدّ أولاً أعدّ وفق الحاجة ، فإذا ما أفاق متأخراً وجدني ذاهباً ، ومن البلية ألاّ يقدر من فوره أن يفيق من تلقاء نفسه .

ثم إذا حدث أن ولداً بليداً مال إلى الصّري في الكسل ، وهذا نادرٌ ، فلا يجوز أن يسلم إلى هذا الليل حيث يحمّد نشاطه تماماً ، وإنما يجب اتخاذ بعض المحرّضات لإيقاظه ، ومما يدرك جيداً أنه لا ينبغي أن يحمل على السير بالقوة ، بل أن يحرك ببعض المفريات التي تحمله عليه ، وإلى الغايين يسوقنا هذا المفري المختار من نظام الطبيعة .

ولا أنصور شيئاً لا يستطيع ، مع شيء من اللباقة ، أن يلقن الأولاد الذوق ، حتى الحق ، وذلك من غير زهو ولا منافسة ولا حسد ، فيكفي لذلك نشاطهم وروح المحاكاة فيهم ، ولا سيما مراحهم الطبيعي ، هذه الوسيلة التي لا يشك في القبض عليها ، والتي لم تخطر ببال معلم قط ، وذلك أنهم في جميع الألعاب التي ألقنوا بأنها ليست غير ألعاب يمتثلون ، بلا توجع ، حتى مع الضحك ، ما كانوا لا يمتثلونه من غير أن يسكبوا سيولاً من الدموع ، ويعدّ الصوم الطويل واللكم والحرق والتعب على أنواعه لهو صغار الهتج ، وهذا دليل على أن اللام نفسه من الفتون ما يمكن أن ينزع كرهه ، ولكن لا يستطيع جميع المعلمين طبخ هذا الطعام ، كما أن جميع التلاميذ لا يذوقونه من غير انقباض ، وهذا بدع ، فإذا لم أحترز نهت في الشواذ .

ولا يَفْنَى احتمالُه كَوْنِ الإنسانِ عبداً للألم ولأمراضِ نوعِهِ وللعوارضِ
ولأخطارِ الحياةِ ، وللموتِ أخيراً ، وكلما عُوِّدَ الإنسانُ جميعَ هذه الأفكارِ
شَفِيَّ من الإحساسِ المزعِجِ الذى يضيفُ إلى السَّوءِ عَدَمَ الصَّبْرِ على احتمالِهِ ،
وكلما جُعِلَ الإنسانُ يألفَ ما يُمكنُ أَنْ يُصِيبَهُ من الأوصابِ نُزِعَتْ مِنْهُ
زُبَانَى العِرابَةِ كما قالَ مُونْتَيْنِ ، فَيَعْدُو روحُهُ ميتاً سالماً من الجُرُوحِ ،
ويصيرُ جِسْمُهُ دِرْعاً تَقِيهِ جَمِيعَ السَّهَامِ التى يُمكنُ أَنْ تَكُونَ قَاتِلَةً ، حتى
إِنْ دُنُوَ الموتِ إِذْ لم يَكُنِ الموتَ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ لا يَكَادُ يُشْعَرُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ هَكَذَا ،
فهو لَنْ يَمُوتَ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا لا غَيْرَ ، وَعَنهُ قالَ مُونْتَيْنِ نَفْسُهُ
كما قالَ عَنْ مَلِكٍ مَرَّاكُشَ : « لَمْ يَمُدَّ إِنْسَانٌ حَيَاتَهُ بَعِيدًا فِي الْمَوْتِ » ،
وَيَعْدُّ الثَّبَاتُ وَالْحَزْمُ ، كِبْقِيَةِ الْفَضَائِلِ ، مَدَارَ تَخْرُجِ الْوَلَدِ ، وَلَكِنِ الْأَوْلَادُ
لا يَتَعَلَّمُونَ هَذِهِ الْفَضَائِلَ بَتَعَلُّمِ أَسْمَائِهَا ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّمُونَهَا بِحَمَلِهِمْ عَلَى ذَوَائِقِهَا
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرُوا .

ولكننى إِذْ أَتَكَلَّمُ عَنِ الْمَوْتِ أَسْأَلُ : مَا السَّبِيلُ الَّتِى أَسْلُكُ مَعَ تَلْمِيزِى
تَجَاهَ خَطَرَ الْجُدَرَى ؟ أَيْلَقَّحُ بِهِ صَغِيرًا أَمْ نَنْتَظِرُ إِصَابَتَهُ بِهِ إِصَابَةً طَبِيعِيَّةً ؟
إِنْ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ أَكْثَرُ مَلَاءَمَةً لِعَادَتِنَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ حَيَاتَهُ فِي وَقْتِ
تَكُونُ فِيهِ عَظِيمَةُ الْقِيَمَةِ ، وَذَلِكَ عَلَى حَسَابِ خَطَرِ يَحْمِقُ بِحَيَاتِهِ عِنْدَ مَا
تَكُونُ أَقْلَ قِيَمَةً ، وَذَلِكَ إِذَا مَا جَازَ لَنَا اسْتِعْمَالُ كَلِمَةِ الْخَطَرِ نَحْوَ تَلْقِيحِ
أُحْسِنِ صُنْعَهُ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِى فَأَكْثَرُ مَلَاءَمَةً لِمِبَادِنَا الْعَامَةِ ، وَذَلِكَ أَنْ يُتْرَكَ
لِلطَّبِيعَةِ اتِّخَاذُ مَا تَوَدُّ اتِّخَاذَهُ وَحْدَهَا ، فَإِذَا مَا تَدَخَّلَ الْإِنْسَانُ فِي ذَلِكَ تَرَكْتَ

الطبيعة ذلك من فوزها ، وترى رجل الطبيعة مستعداً دائماً ، ولندعه يُلقح من قبل هذا السيد الذى يختار الوقت المناسب أحسن مما نختار .

ولا تستبظوا من ذلك أننى نأقّم على التلقيح ، وذلك أن الأسباب التى أغنى بها تلميذى منه سيئة الملاءمة لتلاميذكم ، وأعدّهم ترييتكم لعدم الإفلات من الجُدريّ حينما يكونون عُرضة لهجومه ، فإذا تركتموه يأتى مصادفةً هلكوا به على ما يحتمل ، ومما أرى فى مختلف البلدان أن مقاومة التلقيح تزيد بنسبة ما يصبح فيها ضرورياً ، ويسهل إدراك هذا ، وأكاد أترفع عن معالجة هذه المسئلة من أجل إميل ، وهو إما أن يُلقح ، وإما ألاّ يُلقح ، على حسب الأزمنة والأمكنة والأحوال ، وهذا ما لا يُكترث له بالنسبة إليه تقريباً ، وبيان الأمر أنه إذا ما أتحف بالجُدريّ كان هنالك ما يُبصرُ به مرضه ويُعرفُ مقدماً ، وهذا شيء ، ولكنه إذا ما أُصيب به إصابةً طبيعية يكون قد حُفِظَ من الطيب ، وهذا هو الأصلح .

وتُفَضِّلُ التربية الحاجة ، التى لا تميل إلى غير تمييزها من الشعب من يتلقونها ، دائماً ، أغلى تعليم على التعليم المعتاد ، ولو كان هذا الأخير أكثر فائدة ، ومن ذلك أن الفتيان الذين عُنِيََ بترييتهم يتعلمون ركوب الخيل لفلاء هذا كثيراً ، ولكنك لا تجد واحداً منهم يتعلّم السباحة ، تقريباً ، لعدم تكليفها شيئاً ، ولأن الصانع يستطيع أن يسبح كائى إنسان كان ، ومع ذلك فإن المسافر يركب الفرس من غير سابق تعليم ويستقر على ظهرها وينتفع بها لحاجته بما فيه الكفاية ، وأما فى الماء فإن الإنسان

يَفَرِّقُ إِذَا لَمْ يَسْبَحْ ، وَلَا تَكُونُ السَّباحَةُ بلا تعليم ، ثم إن الإنسان لَا يُبْكِرُهُ عَلَى رُكُوبِ الحِيلِ إِذَا كَانَ يَخْشَى الهَلَاكَ ، عَلَى حِينٍ لَا يَتَّقِيُ الإنسانُ بِاجْتِنَابِ خَطَرٍ يُعَرِّضُ لَهُ غَالِبًا كَالْفَرَقِ ، وَسَيَكُونُ إِمِيلُ فِي المَاءِ كَمَا عَلَى الأَرْضِ ، وَلَيْمَ لَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى العَيْشِ فِي جَمِيعِ العُنَاصِرِ ؟ أَجْعَلُ مِنْهُ نَسْرًا إِذَا مَا اسْتَطَعْتُ تَعْلِيمَهُ الطَّيْرَانَ فِي المَوَاءِ ، وَأَجْعَلُ مِنْهُ سَمْنَدَرًا* إِذَا اسْتَطَاعَ احْتِمَالَ النَارِ .

وَيَخْشَى أَنْ يَفَرِّقَ الولدُ حِينَ تَعْلِيمِهِ السَّباحَةَ ، وَيَقَعُ الوزرُ عَلَيْكُمْ دَائِمًا سِوَاءَ أَغْرَقَ حِينَ تَعْلِيمِهِ السَّباحَةَ أَمْ لَعَدَمِ تَعْلِيمِهِ إِيَّاهَا ، وَالْفُرُورُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا مَغَامِرِينَ ، وَلَا نَكُونُ هَكَذَا إِذَا لَمْ يَرَنَا أَحَدٌ ، وَلَنْ يَكُونَ إِمِيلُ هَكَذَا وَلَوْ رَأَى جَمِيعَ النَّاسِ ، وَبِمَا أَنَّ التَّمْرِينَ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْخَطَرِ فَإِنَّهُ سَيَتَعَلَّمُ فِي قَنَاةِ حَدِيقَةِ أَبِيهِ عُبُورَ الدَّرْدَنِيلِ ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يُتَّعَوَّدَ الْخَطَرُ أَيْضًا لِكَيْ يُتَعَلَّمَ عَدَمُ الْانْزِعَاجِ بِهِ ، وَهَذَا قِسْمُ جَوْهَرِيٍّ مِنْ التَّخْرِجِ الَّذِي تَكَلَّمْتُ عَنْهُ مِنْذُ قَلِيلٍ ، وَبِمَا أَنِّي أَكُونُ مُنْتَبِهًا ، فَضَلًّا عَنْ ذَلِكَ ، إِلَى المَقَابَلَةِ بَيْنِ الْخَطَرِ وَقُوَّاهُ ، مَعَ مَشَاطِرَتِهِ هَذَا الْخَطَرِ ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَا أَخْشَى مَعَهُ غَفْلَتِي مَا دُمْتُ أَنْظُمُ أَمْرَ حِفْظِهِ وَفَقَّ تَنْظِيمِي حِفْظَ نَفْسِي .

والولد أصغر من الرجل ، وليس عند الولد ما عند الرجل من قوة وعقل ، ولكنه يَرَى وَيَسْمَعُ مِثْلَهُ أَوْ يَكَادُ ، وَلَهُ مِثْلُ ذَوْقِهِ حِسًّا وَإِنْ كَانَ هَذَا الذَّوْقُ أَقْلَ دَقَّةً ، وَهُوَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّوَانِحِ مِثْلَهُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ذَاتُ اللَّذَةِ ، وَالْحَوَاسُّ هِيَ أَوْلَى

* السمندر أو السمندر : دابة تعيش في الماء وعلى اليابسة ، وقيل إنها تفرز مادة تطفى النار ، ولذلك قالوا إنها لا تحترق .

الخصائص التي تتكون فينا وتكُمّل ، ولذا فهي أول ما يجب تعهّده ، وهي الوحيدة التي تُنتهى ، أو التي تكون أكثر ما يُهمَل .

ولا يعنى تدريب الحواس استعمالها فقط ، بل يعنى ، أيضاً ، تعلّم حسن الحكم بها ، ، بل يعنى تعلّم الشعور بها ، فنحن لا نعلّم اللمس ولا الرؤية ولا السماع إلا كما تعلّمنا .

ويوجد من التمرينات ما هو طبيعى آلى صرف ، فيصلح لجعل الجسم عضلياً من غير تحسين للفكر ، أجل ، إن السباحة والقدوّ والثوب وسوّط الخُذُروف وقذف الحجارة أمورٌ حسنةٌ جدّاً ، ولكن ألا يوجد لدينا غير الذُّرعان والسيقان ؟ أليس عندنا عيونٌ وآذان ؟ وهل هذه الأعضاء غير ذاتِ نفعٍ في استعمال الأولى ؟ إذن ، لا تقتصروا على تدريب القوّى ، بل درّبوا جميع الحواس التي تُوجِّهها أيضاً ، وانتفعوا بكل ما يُمكن من الحواس ، ثم حقّقوا تأثير كل منها بالأخرى ، وقيسوا واحسّبوا وزنوا وقابلوا ، ولا تستعملوا القوة إلا بعد أن تُقدِّروا المقاومة ، وليقيم تقديركم للمعامل على سبّقه للوسائل دائماً ، وأغرّوا الولد بالألّا يقوم بيهود ناقصة أو زائدة ، وإذا ما عوّدموه أن يُبصّر نتيجة جميع حركاته على هذا الوجه فيقوم بالتجربة زلاته أفلا يكون من الواضح ظهوره حصيفاً كلما سار ؟

وإذا ما وجبت إزاحة كتلة فتناول عتلة طويلة أنفق حركة كثيرة ، وإذا ما تناولها قصيرة لم تكن لديه قوة كافية ، فيمكن التجربة أن تعلّمه اختيار القضيبي الضروري تماماً ، وليست هذه الحكمة فوق مستوى عمره إذن ، وإذا ما وجب حمل ثقل وأراد أن يكون وزيناً بمقدار ما يستطيع أن يرفع ولم يحاول أن يشول أكثر مما يقدر أفلا يضطر إلى تقدير الثقل بالنظر ؟ وإذا أراد أن

يقابل بين كتل من ذات المادة مختلفة الحجم أو أن يختار بين كتل من ذات الحجم مختلفة المواد أفلا يجب أن يمارس المقابلة بين أوزانها المعينة؟ لقد رأيت فتى حسن التربية لم يرد أن يعرف إلا بعد التجربة كَوْن الدلو المملوءة نَشَارَةً من خشب البلوط أَقْلَ ثِقَلًا من عين الدلو المملوءة ماء .

ولا نسيطر على استعمال جميع حواسنا بالتساوى ، ومن هذه الحواس حاسة اللمس التي لا يُعْطَل عملها في أثناء اليَقَظَة مطلقًا ، وهي شاملةٌ لسطح بدنتنا بأكمله ، وذلك لحارس دائم يُخَبِّرُنَا بكلِّ ما يُمكن أن يؤذيه ، وهذه الحاسة أيضًا هي التي تنال بها ، طوعًا أو كَرْهًا ، وبأسرع ما يُمكن ، ما يؤدِّي إليه ذلك التمرين المتصل من تجربة ، وهذه الحاسة هي ، من حيث النتيجة أَقْلُ ما يحتاج إلى تدريب خاص ، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن للعميان حاسة لمسٍ أَصْدَق مما لدينا وأدق ، وذلك لأنهم ، إذ كانوا عاطلين من باصرة مرشدة لهم ، يُضْطَرُّون إلى تعلُّمهم بحاسة اللمس حصرًا آراءً نَكْسِبُهَا بِالْأُخْرَى أيضًا ، ولم لا نَتَمَرَّنْ ، إذن ، على المشي في الظلام مثلهم ، فنَعْرِفَ الأجسام التي يمكن أن نَبْلُغَهَا ، ونَحْكَمَ في الأشياء التي تحيط بنا ، ونصنع ليلاً ، وبلا ضياء ، جميع ما يصنعون نهارًا وبلا عيون ؟ إننا نكون في وَضْعٍ أَفْضَلَ مما يكونون ما سَطَعَتِ الشَّمْسُ ، فإذا ما جَنَّ اللَّيْلُ ساروا أدلاء لنا من ناحيتهم ، فنحن عُيٌّ نِصْفَ حَيَاتِنَا ، وذلك مع الفارق القائل إن العُيَّ الحقيقيين يَعْرِفُونَ ما يَصْنَعُونَ دائماً ، وإننا لا نَجْرُؤُ على التقدم خُطوةً في سواء الليل ، ومستقولون لي : لدينا نورٌ ، ماذا ! آلاتٌ دائماً ! وَمَنْ يُجِيبُ بِأَنَّهَا سَتَتَبِعُكُمْ

في كلِّ مكان عند الضرورة؟ وأما أنا فأفَضُّ أن تكون لإميل عينان في بنائه *
على أن تكونا له في دُكَّان الشَّعاع .

وإذا كنتم ضِمنَ بناءٍ في وَسَطِ الليل فصَفَّقُوا يديكم لتُدْرِكُوا من رنين
المكان كَوْنَهُ كبيراً أو صغيراً وهل أنتم في سوائه أو في زاويةٍ منه ، وبما أن
الهواء يكون أقلَّ استدارةً وأكثرَ ترديداً على مسافة نصف قَدَمٍ من الجدار
فإنه يَبْدُو ذا أثرٍ من نوعٍ آخرٍ في الوجه ، وقِفُوا في مكانٍ ، ودُورُوا بالتعاقب
إلى جميع الجهات ، لتدلكم رِيحٌ خفيفةٌ على وجود بابٍ ، وإذا كنتم في
سفينةٍ عَرَفْتُمْ من النَّمَطِ الذي تَلَطِّمُ الرِّيحُ به وجوهكم هل يُسِيرُكم
مجرى النهر بسرعةٍ أو ببطءٍ ، وذلك فضلاً عن الجهة التي تَسِيرُونَ إليها ،
ولا تَتِمُّ هذه الملاحظات ، وما إليها من مئات الملاحظات الماثلة الأخرى ،
إلاَّ ليلاً ، فهما بُذِلَ من انتباهٍ حَوْلَها نهائياً ساعدتنا الباصرة عليها أو صرفتُنا
عنها فَتَفَلَّتْ مِنَّا ، ومع هذا لا توجد هنا يدٌ ولا عصا أيضاً ، وما أكثرَ
المعارفَ البَصَرِيَّةَ التي يُمكن أن تُكْتَسَبَ باللمس من غير أن يُلْمَسَ شيءٌ !
كثيرُ ألعابٍ في الليل ، وهذا الرأيُ أهمُّ مما يلوح بمراحل ، ومن
الطبيعيُّ أن يُخِيفَ الليلُ الرجالَ وبعضَ الحيوانات^(١) ، وقليلٌ من الناس
مَنْ يُفَفِّونَ من هذه الضريبة بالعقل والمعارف والدهن والشجاعة ، وقد
رأيتُ مفكرين وملحدين وفلاسفةً وجنوداً يكونون في النهار من الشجعان ،
فإذا ما أُرْخِيَ الليلُ سُدُولَهُ ارتجفوا كالنساء عند حَفِيفِ ورقةٍ شجرٍ ، ويُعْزَى
هذا الذعرُ إلى أحاديث المَرَّاضِعِ ، وهذا خطأ ، فلذلك سببٌ طبيعيُّ ،

(١) يكون هذا الخوف واضحاً عند كسوف الشمس كسوفاً كلياً .

• البنان أطراف الأصابع .

وما هذا السبب ؟ هو الذى يَجْمَعُ الصُّمَّ حَذَرِينَ والقَوْمَ خُرَافِينَ ، هو
جهلُ الأشياء التى تحيط بنا وجهلُ ما يقع حَوْلَنَا^(١) ، وبما أننى تَعَوَّدْتُ

(١) إليك أيضاً سبباً آخر أوضحه فيلسوف استشهدت بكتابه كثيراً ووردت مناهل بصائره
الواسعة غالباً :

« إذا ما قفست بعض الأحوال الخاصة بعدم تكويننا فكرة صادقة عن المسافة فلم نستطع أن نحكم في
الأشياء إلا باتساع ما تصوره في أعيننا من زاوية أو رسم تطرق الخطأ إلينا حول حجم هذه الأشياء لا بحالة ،
فكل واحد يعرف بالتجربة أننا ، حين السفر ليلاً ، نحسب العليقة القريبة شجرة عظيمة بعيدة ، وأننا
نحسب الشجرة العظيمة البعيدة عليقة قريبة ، وكذلك إذا لم نعرف الأشياء بشكلها ولم نستطع أن نكون
فكرة عن المسافة بهذه الوسيلة تطرق الخطأ إلينا حتماً ، فإذا ما مرت ذبابة بسرعة على يد بضغ خطوات
من أعيننا بدت لنا في هذه الحالة طيراً على مسافة بعيدة ، وإذا وجد حصان بلا حركة في وسط حقول
وكان متخذاً من الوضع ما يشابه وضع الضأن مثلاً لم يبد لنا غير كبش ما دمنا لا نعرف أنه حصان ، ولكننا
إذا ما عرفناه ظهر لنا في الحال ضحناً كالحصان وصحناً حكناً الأول من فورنا .

« وفي كل مرة تجدنا ليلاً في أماكن مجهولة حيث لا نستطيع أن نحكم في المسافة ، وحيث لا نستطيع أن
نعرف شكل الأشياء بسبب الظلام ، حاق بنا خطر الوقوع في الخطأ في كل ثانية حول الأحكام التى تصدرها
عن الأشياء التى تبدو لنا ، ومن هنا يأتي الهول أو ذلك الخوف الباطنى الذى يلقيه ظلام الليل في جميع الناس
تقريباً ، وعلى هذا تقوم ظاهرة الأشباح والأشكال الضخمة الهائلة التى يروى كثير من الناس أنهم رأوها ،
وهم يجادلون عن هذا ، عادة ، بأن هذه الأشكال كانت في خيالهم ، ومع ذلك فإن من الممكن أن كانت
هذه الأشكال في أعينهم وأن كانوا قد رأوا في الحقيقة ما يقرلون إنهم أبصروا ، وذلك لأن ما يحدث ،
قطعاً ، أنه في كل مرة لا يمكن أن يحكم في الشيء إلا بالزاوية التى يكونها الشيء في العين يضخم هذا الشيء
المجهول ويمظم كلما اقترب منه ، فإذا ما بدا في البداة الناظر الذى لا يستطيع أن يعرف ما يرى ولا أن
يحكم في المسافة التى يراه عليها ، وإذا ما ظهر في البداة ، كما أقول ، عالياً بضغ أقدام مع بعده عشرين
أو ثلاثين خطوة ، لاح عالياً أقداماً كثيرة عند ما يصير بعيداً خطوات قليلة ، وهذا ما يجب أن يدهشه
ويخيفه إلى أن يمس الشيء أو يعرفه ، وذلك أنه في الثانية التى يعرف فيها الحقيقة يتضاءل من فوره ذلك
الشيء الذى كان يبدو له ضخماً ، ويعود لا يظهر له منه غير حجمه الحقيقى ، ولكنه إذا ما فر أو لم
يجرؤ أن يدنو كان من الثابت أنه لا يكون لديه من الأفكار عن ذلك الشيء غير الصورة التى كرهها في
العين وأبصر بها في الحقيقة شكلاً ضخماً هائلاً حججاً وهيئة ، ولذا تقوم مبهترات الأشباح على الطبيعة ،
ولا تترقف هذه الظواهرات على الخيال وحده خلافاً لما يعتقد الفلاسفة » ، (بونون ، التاريخ الطبيعى
جزء ٦ ، صفحة ٢٢) .

وقد حاولت في المتن أن أثبت أنها وليدة الخيال قسماً في كل وقت ، وأما من حيث السبب الموضح في =

أن أبصر الأشياء من بعيدٍ وأن أرى تأثيرها مقدّمًا ، وذلك من غير أن أشاهد شيئًا مما يحيط بي ، فكيف لا أفترض ألفَ موجودٍ وألفَ حركةٍ تقدّرُ أن تؤذيني فيتعذر عليّ أن أضمن نفسي تجاهها؟ ومن العبث أن أعلم أني في أمان حيث أكون ، ولست أعرف هذا المأمنَ ما لم أره فعلاً ، ولديّ ، إذنً ، سببُ خوفٍ دائمٍ مما ليس عندي في وضح النهار ، والواقعُ أنني أعرفُ أن الجسم الغريب لا يستطيع أن يؤثر في جسمي من غير أن يُخبرَ عن نفسه بصوتٍ ما ، وما أكثر ما تكون أذني مُرهفةً بلا انقطاع ! وإذا ما حدث صوتٌ خفيف لا أستطيع إدراكَ سببه ، حفزَني مصلحةُ بقائي إلى افتراضٍ في بدء الأمر أكثر ما يُمكن أن يحمِلني إلى الحذر ، ومن ثمّ كلّ ما يمكن أن يُخيفني .

ولا أجدني مطمئنًا إذا لم أسمع شيئًا على الإطلاق ، وذلك لأن من الممكن أن أفتاج في آخر الأمر عند عدم وجود صوتٍ ، ويحبُّ أن أفترض الأمور كما كانت سابقًا ، وكما يجب أن تكون أيضًا ، وأن أرى ما لا أرى ، وهكذا فإنني إذ أُغْمِلُ خيالي عن اضطرابٍ أعود غيرَ سيدٍ له من قواري ، ولا ينفعُ ما أكون قد صنعتُ تسكينًا لروعي لغير زيادةٍ دُغري ، وإذا ما سمعتُ صوتًا سمعتُ لصوصًا ، وإذا لم أسمع شيئًا رأيتُ أشباحًا ، وما

== النص المكتسب فإن من الواضح أن عادة السير ليلا تعلمنا أن نفرق بين تلك الظاهرات التي تقتبسها الأشياء المنظورة في الظلام من تشابه الأشكال واختلاف المسافات ، وذلك لأن الهواء إذا كان من النور ما نبصر معه رسوم الأشياء ، وذلك مع وجود هواء كثير معترض في البعد الكبير ، كانت رؤيتنا لهذه الرسوم أقل وضوحاً عند كون الشيء أكثر بعداً منا ، وهذا ما يكتفي لوقائتنا بقوة العادة من الخطأ الذي يوضحه بوفون هنا ، ومهما تفضلوا من إيضاح فإن منهاجى مؤثر دائماً ، وهو الذي تؤيده التجربة تماماً .

يُوحى به حُبُّ البقاء من حَذَرٍ لا يُبْلَغُ في غيرِ عواملِ الخوفِ ، وليس كلُّ ما يُطَمِّئُنِي في غيرِ عَقْلِي ، وغيرُ هذا ما تخاطبُنِي به الغريزةُ التي هي أقوى من العقلِ ، وما فائدةُ التفكيرِ في عدمِ وجودِ شيءٍ يُخَشَى ما دام لا يُوجَدُ ما يُعْمَلُ إذ ذاك ؟

ويدلُّ سببُ الداءِ الموجودِ على الدواءِ ، وتَقْتُلُ العادةُ الخيالَ في كلِّ شيءٍ ، والأشياءُ الجديدةُ وحدها هي التي تَوْقِظُهُ ، والذاكرةُ ، لا الخيالُ ، هي التي تَعْمَلُ في ما يُرَى كلَّ يومٍ ، وهذا هو سببُ المثلِ القائلِ : « لا ينشأُ الهوى عن العادة » ، وذلك لأنَّ الأهواءَ لا تشتعلُ بغيرِ الخيالِ ، ولذا لا ينبغي اتِّخَاذُ العقلِ دليلاً مع مَنْ تريدون شفاءه من هَوْلِ الظلامِ ، وجِئُوا به إلى الظلامِ غالباً ، وثَقُّوا بأنَّ جميعَ براهينِ الفلسفةِ لا تَعْدِلُ هذه العادةُ ، ولا يَدُورُ رأسُ المُتَفَكِّرينَ على السُّطُوحِ مطلقاً ، ولا يخافُ في الظلامِ مَنْ يتعودُ أن يكون فيه .

وإليك ، إذنْ ، فائدةٌ أخرى من ألعابِ الليلِ مضافةٌ إلى الأولى ، ولكن إذا أريدَ نجاحُ هذه الألعابِ لم يُوصَ بهِجتها كثيراً ، ولا شيءٌ كَثِيبٌ كالظلامِ ، ولا تَحْبِسُوا ولدَكُمْ في سجنِ مظلمٍ ، وليَضْحَكِ حينَ دخوله في الظلامِ ، وليَضْحَكِ قبلَ خروجه منه ، وذلك لِتَحُولِ فكرةِ اللهو الذي يَتَرَكُ والذي يَجِدُ دُونَ الخيالاتِ الوهمية التي يُمكنُ أن تساوره .

ويوجدُ للحياةُ حَدٌّ يَرْجِعُ الإنسانَ إلى الوراءِ إذا ما تَخَطَّاهُ ، وأشعرُ بأنِّي جاوزتُ هذا الحدَّ ، ولذا أَسْتَأْنِفُ عملاً آخرَ ، وما تنطوي عليه الكهولةُ التي تُشْعِرُنِي بنفسها من فراغٍ يَرْسُمُ لي راجعاً زَمَنَ السَّنِ الأولى

العَذْبَ ، وإني ، حين أَشِيبُ ، أعود ولداً ، وأذكر ، مختاراً ، ما صنعتُ
ابنًا للعاشرة أكثر من ذكرى ما صنعتُ ابناً للثلاثين ، ويا أيها القراء
اغفروا لي ، إذنٌ ، استنباطي الأمثلة من نفسي أحياناً ، وذلك لأن حُسْنَ
وَضْعِ هذا الكتاب يقتضى صنْعى له طَيِّبَ الخاطر .

وقد كنت في الأرياف نزيلَ قَسٍّ اسمه مسيو كَنْرِسيه ، وكان يرافقني
ابنُ خالٍ لي أغنى مني ، فكان يعامل مثلَ وارثٍ علي حين لم أكنُ
غيرَ يتيمٍ فقيرٍ لِبُعْدِي من أبي ، وكان ابنُ خالي الأكبر بِرنارد يُثِيرُ
الْمَجَبَّ بِجُبْنِهِ ، ولا سيما في الليل ، وقد بلغت من الهزوء بِجُبْنِهِ ما أراد
معه مسيو كَنْرِسيه ، الذي ضاق ذَرْعاً بِتَبَجُّجِي ، أن يختبر شجاعتي ،
فناولني مِفْتَاحَ الكنيسة في ليلة من ليالي الخريف السُّود ، وطلب مني أن
أذهب للبحث عن الكتاب المقدس في المذبح حيث تَرَكَه ، وقد أضاف إلى
ذلك من الكلام المثير للهمة ما جعل أمرَ تأخري متعذراً .

وأذهبُ بلا قِنْدِيل ، ولو أخذته معي لكان الوضعُ أسوأ مما عليه
كما يحتمل ، وكان عليَّ أن أُمَرَّ من المقبرة ، فجاوزتها بحزمٍ ، وذلك لأنه
لم يكن ليساورني هَوْلٌ ليليٍّ ما دمتُ في القراء .

وأفتحُ البابَ ، وأسمعُ في القَبَّةِ صَدَى مشابهاً لأصواتٍ ، فيأخذ في
زلزلةٍ حَزَمِي الرومانيِّ ، وأريد الدخولَ بعد فتح الباب ، ولكنني لم أؤكد
أَتَقَدِّم بضعَ خُطواتٍ حتى وَقَفْتُ ، وذلك أنني إذ أَبْصَرْتُ الظلامَ الدامسَ ،
الذي كان يَسُودُ هذا المكانَ الواسعَ ، استحوذَ عليَّ هَوْلٌ وَقَفَ شعري ،
وأتقهقر ، وأُخْرِجُ ، وألوذُ بالفرار مرتجئاً تماماً ، وأجدُ في صَحْنِ الكنيسة

كَنَائِيًّا اسْمُهُ سُلْطَان ، وَتَلَقَّى مَلَامَسَاتِهِ الْخَفِيفَةَ سَكِينَةً فِي قَلْبِي ، وَأَخْجَلَ مِنْ خَوْفِي ، وَأَرْجِعُ مُحَاوَلًا جَلَبَ سُلْطَانٍ مَعِي ، وَلَمْ يُرِدْ سُلْطَانُ اتِّبَاعِي ، وَأُجَاوِزَ الْبَابَ فَجَاءَهُ ، وَأَدْخَلَ الْكَنِيسَةَ ، وَلَمْ أَكْذْ أَدْخُلْهَا حَتَّى اعْتَرَانِي الْخَوْفُ ثَانِيَةً ، ، وَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْخَوْفُ مِنَ الشَّدَّةِ مَا فَقَدْتُ مَعَهُ صَوَابِي ، وَمَعَ أَنَّ الْمَذْمُوحَ كَانَ عَنْ يَمِينِي ، وَمَعَ أَنَّي عَرَفْتُ ذَلِكَ جَيِّدًا ، فَقَدْ انْفَلَتَ مِنْ غَيْرِ وَغَيٍّ وَبَحِثْتُ عَنْهُ فِي الشَّمَالِ وَقَتًا طَوِيلًا ، وَقَدْ ارْتَبَكْتُ بَيْنَ الْمَقَاعِدِ ، وَعَذْتُ لَا أُعْرِفُ أَيْنَ أَنَا ، وَبِمَا أَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجِدَ الْمَنْبَرَ وَلَا الْبَابَ فَقَدْ اضْطَرَبْتُ اضْطِرَابًا لَا يَوْصَفُ ، وَأَبْصَرُ الْبَابَ أَخِيرًا ، وَأَهْمُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْكَنِيسَةِ ، وَأَبْتَعِدُ عَنْهَا كَمَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، عَازِمًا عَلَى عَدَمِ دُخُولِهَا وَحْدِي فِي غَيْرِ النَّهَارِ .

وَأَعُودُ حَتَّى الْمَنْزِلِ ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ مُسْتَعِدًّا لِلدُّخُولِ إِذْ تَبَيَّنْتُ صَوْتَ مَسِيو لَنْبَرِسِيهِ وَهُوَ يُقَهِّقُهُ ، وَأَعْدُّ قَهْقَهَتَهُ مُوجَّهَةً إِلَى مُقَدِّمًا ، وَيَرَبُّسْكِنِي أَنْ أَرَى نَفْسِي عُرْضَةً لَهَا ، فَاتَرَدَّدَ فِي فَتْحِ الْبَابِ ، وَأَسْمَعُ الْآنَسَةَ لَنْبَرِسِيهِ فِي تِلْكَ الْأَنْثَاءِ وَهِيَ تَقُولُ لِلْخَادِمَةِ أَنْ تَأْخُذَ الْمَصْبَاحَ عَنْ قَلْقٍ نَحْوِي ، وَيَسْتَعِدُّ مَسِيو لَنْبَرِسِيهِ لِلْبَحْثِ عَنِّي عَلَى أَنْ يَرِافِقَهُ ابْنُ خَالِي الْجَسُورُ الَّذِي لَنْ يُقَصِّرَ فِي مَنْحِهِ جَمِيعَ فَخْرِ السَّرِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَتَزُولُ جَمِيعُ مَخَاوِفِي بَغْتَةً ، وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي غَيْرُ الْخَوْفِ مِنْ أَنْ أَبَاغَتْ هَارِبًا ، وَأَرْكُضُ ، وَأَطِيرُ إِلَى الْكَنِيسَةِ ، وَأَصِلُ إِلَى الْمَنْبَرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَضِلَّ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَتَرَدَّدَ ، وَأَرْتَقِيهِ ، وَأَتَنَاوَلُ الْكِتَابَ الْقُدْسَ ، وَأَثْبُ مِنْهُ ، وَأَكُونُ بَعْدَ ثَلَاثِ قَفْزَاتٍ خَارِجَ الْكَنِيسَةِ الَّتِي نَسِيتُ حَتَّى إِغْلَاقِ بَابِهَا ، وَأَدْخَلَ الْعَرَفَةَ

صَيِّقَ النَّفْسِ وَأَطْرَحَ الْكِتَابَ الْمَقْدَسَ عَلَى الْمِنْبَذَةِ دَهْشًا ، وَلَكِنْ خَافَقًا
فَرَحًا بِإِنْجَازِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْمُسَاعَدَةِ الْمَقْتَرَحَةِ نَحْوِي .
وَسَأَلْتُ هَلْ أَقَدَّمُ هَذَا الْحَادِثَ مَثَالًا يُحْتَذَى وَمَثَلًا عَلَى مَا أُطَالِبُ بِهِ
مِنْ بَهْجَةٍ فِي هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ التَّمْرِينَاتِ ، كَلَّا ، وَإِنَّمَا أَقَدَّمْتُهُ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ
لَا شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَكِّنَ رَوْعَ خَائِفٍ مِنْ أَشْبَاحِ اللَّيْلِ غَيْرُ سَمَاعِهِ فِي
غُرْفَةٍ مَجَاوِرَةِ أَحِبَّابٍ يَضْحَكُونَ وَيَتَسَامَرُونَ هَادِثِينَ ، وَأُرِيدُ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ
يَتَلَهَّى الْعِلْمُ مَعَ تَلْمِيزِهِ وَحْدَهُ ، أَنْ يُجْمَعَ فِي اللَّيَالِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْلَادِ الطَّيِّبِ
الزَّاجِ ، وَأَلَّا يُرْسَلُوا مُتَفَرِّقِينَ فِي الْبُدَاةِ ، بَلْ يُرْسَلُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُجْتَمِعِينَ ،
وَأَلَّا يَجَازِفَ بِإِرْسَالِ أَيٍّْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُنْفَرِدًا ، حَتَّى يُطْمَأَنَّ مُقَدِّمًا بِأَنَّهُ
لَا يَكُونُ خَائِفًا كَثِيرًا .

وَلَا أَنْصُورُ شَيْئًا أَبْهَجَ ، وَلَا أَنْفَعَ ، مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْعَابِ نَازِلًا إِلَى
قَلَّةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ تَنْظِيمُهَا مِنْ مَهَارَةٍ ، وَاقِيمُ فِي بَهْوٍ كَبِيرٍ مِثْلَ رَتِيهِ مُؤَلَّفٍ
مِنْ لَوْحَاتٍ وَمُتَكِّكَاتٍ وَكَرَاسٍ وَحَوَاجِزٍ ، وَأَضْعُ فِي مُنْعَرَجَاتِ هَذَا التَّيِّهِ
الْعُقْدِ ، وَبَيْنَ ثَمَانِي عُلْبٍ ، أَوْ عَشْرِ عُلْبٍ ، مُقَلَّدَةً ، عُلْبَةً حَقِيقِيَّةً مُشَابِهَةً
لَهَا تَقْرِيبًا ، مَمْلُوءَةً مُلَبَّسًا ، وَأُعَيِّنُ بِكَلَامٍ وَاضِحٍ ، وَلَكِنْ مَعَ الْإِيجَازِ ،
مَكَانَ الْعُلْبَةِ الصَّحِيحَةِ ، وَأُعْطِي أَنَاثًا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوْلَادِ انْتِبَاهًا^(١) وَأَقَلَّ
مِنْهُمْ طَلِيشًا مِنَ الدَّلَائِلِ مَا يَكْفِي لتمييزها ، ثُمَّ أَجْعَلُ صَفَارَ الْمَتَابَرِينَ يَضْرِبُونَ
الْقِرْعَةَ فَأُرْسِلُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ تَلُوَ الْآخَرَ حَتَّى تَوْجَدَ الْعُلْبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، وَذَلِكَ
مَعَ زِيَادَةِ صَعُوبَةِ الْعَمَلِ بِنِسْبَةِ مَهَارَتِهِمْ .

(١) يَقْضَى تَدْرِيبُ انْتِبَاهِهِمْ بِأَلَّا تَقُولُوا لَهُمْ غَيْرَ أُمُورٍ يَكُونُ مِنْ مَصْلَحَتِهِمُ الْوَاضِحَةِ الْخَاضِرَةِ أَنْ
يَدْرِكُهَا جَيِّدًا ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَطْوِيلٍ وَلَفْظٍ زَائِدٍ وَإِهْامٍ وَغَبُوضٍ فِي قَوْلِكُمْ .

وَتَصَوَّرُوا هِرْكَوْلًا صَغِيرًا يَصِلُ حَامِلًا عِلْبَةً بِيَدِهِ فَخُورًا بِسَرِيَّتِهِ ،
وَتُوضَعُ الْعِلْبَةُ عَلَى الْمِنْضَدَةِ ، وَتُفْتَحُ بِاحْتِفَالٍ كَبِيرٍ ، وَهنا أَتَمَعَ قَهْقَهَاتٍ
وَسُخْرِيَّاتٍ صَادِرَةً عَنِ الْعُصْبَةِ الْفَرِحَةِ إِذْ رَأَتْ ، بَدَلًا مِنَ الْمَلْبَسِ ،
جَمَلَانًا وَحَلَزُونًا وَفَحْمًا وَبَلُوطًا وَلِفْتًا وَمَوَادَّ مِمَّا لَمْ تُرَى مِنْ قَبْلُ عَلَى أَشْنَةِ
أَوْ قَطَنِ ، وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى تَعْلَقُ عَلَى جِدَارِ غُرْفَةٍ مُكَلَّسَةٍ حَدِيثًا لُعبَةً
وَمِنْقُولَاتٍ صَغِيرَةٍ أُخْرَى فَيُطَلَّبُ مِنَ الْأَوْلَادِ أَنْ يُحْضِرُوهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْسُوهَا
الْجِدَارَ ، وَلَا يَكَادُ الْجَالِبُ لَهَا يَدْخُلُ حَتَّى يُرَى إِخْلَالُهُ بِالْشَرِطِ إِمَّا يَنْهِي
عَلَى سُوءِ تَصْرِفِهِ طَرَفُ قُبْعَتِهِ الْمَبْيَضُ وَطَرَفُ حِذَائِهِ وَذَيْلُ ثَوْبِهِ وَكُمُّهُ ،
وَيُعَدُّ هَذَا كَافِيًا ، وَأَكْثَرُ مِنْ كَافٍ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، لِإِدْرَاكِ رُوحِ هَذِهِ
الْأَلْعَابِ ، وَإِذَا كُنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا تَقْرَءُوا
كِتَابِي مُطْلَقًا .

وَأَيُّ تَفَوُّقٍ فِي اللَّيْلِ لَا يَتَّفِقُ لِمَنْ نَشَى هَكَذَا عَلَى الرِّجَالِ الْآخَرِينَ ؟
فَبِمَا أَنَّ رِجْلَيْهِ تَعُودَتَا أَنْ تَرَسَخَ فِي الظَّلَامِ ، وَبِمَا أَنَّ يَدَيْهِ تَمَرَّتَا عَلَى لَمْسِ
جَمِيعِ الْأَجْسَامِ الْجَاوِرَةِ بِسَهْوَةٍ ، فَإِنَّهَا تَقُودُهُ فِي أَحْلَاكِ ظَلَامٍ بِلا مَشَقَّةٍ ،
وَبِمَا أَنَّ خَيَالَهُ مَمْلُوءٌ بِالْعَابِ فَتَنَائِهِ اللَّيْلِيَّةِ فَإِنَّ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى
أُمُورٍ خَفِيفَةٍ ، وَإِذَا مَا اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَسْمَعُ قَهْقَهَاتٍ كَانَتْ هَذِهِ قَهْقَهَاتِ أَصْحَابِهِ
الْقَدَمَاءِ بَدَلًا مِنَ قَهْقَهَاتِ الْجِنِّ ، وَإِذَا مَا تَمَثَّلَ مُجْلِسًا كَانَ هَذَا غُرْفَةً
مَعْلَمَةً ، لَا يَجْتَمِعُ سَحَرَةٌ فِي اللَّيْلِ مُطْلَقًا ، وَلَنْ يَكُونَ اللَّيْلُ شَيْئًا كَرِيهًا
عِنْدَهُ مَا ذَكَرَهُ بِأَفْكَارٍ سَارَّةٍ ، فَيُجِيبُهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَخْشَاهُ ، وَهُوَ يَسْتَعِدُّ
فِي كُلِّ سَاعَةٍ عِنْدَ كُلِّ حَمَلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ ، سِوَاكَ أَنْ كَانَ وَحْدَهُ أَمْ مَعَ كِتَابَتِهِ ،

وهو يَدْخُلُ مُعْسَكَرَ شَاوُلَ وَيَجُولُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضِلَّ ، وَهُوَ يَصِلُ إِلَى خِيَمَةِ الْمَلِكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَوْقِظَ أَحَدًا ، وَهُوَ يَعُودُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ ، وَاقْصِدُوهُ بِلَا وَجَلٍ عِنْدَمَا يَجِبُ سَلْبُ حُصْنِ رِيْزُوسَ ، فَمِنْ الصَّعْبِ أَنْ تَجِدُوا رَجُلًا مِثْلَ أُولَئِكَ بَيْنَ مَنْ نَشْتُو عَلَى وَجْهِ آخَرِ .

وَقَدْ شَاهَدْتُ أَنْاسًا يَرِيدُونَ بِالْمُفَاجَأَاتِ أَنْ يَعُودُوا أَوْلَادَهُمْ أَلَّا يَخَافُوا شَيْئًا فِي اللَّيْلِ ، وَهَذَا الْمُنْهَاجُ سَيِّئٌ جَدًّا ، وَهُوَ يُوْذِي ، فِي الْحَقِيقَةِ ، إِلَى عَكْسِ مَا يُبْتَغَى عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَنْفَعُ لِمَنْ جَمَلَهُمْ أَكْثَرَ جُبْنًا دَائِمًا ، وَمَا كَانَ الْعَقْلُ وَلَا الْعَادَةُ ، لِيَسْتَطِيعَا تَسْكِينَ الرَّوْعِ حَوْلَ خَطَرٍ حَاضِرٍ لَا يُعْرَفُ مَدَاهُ وَلَا نَوْعُهُ ، كَمَا أَنَّهُمَا لَا يَسْتَطِيعَانِ تَسْكِينَ الرَّوْعِ حَوْلَ وَجَلٍ مِنَ الْمُفَاجَأَاتِ الَّتِي تُبْتَلَى فِي الْغَالِبِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَيْفَ يُطْمَئِنُّ إِلَى وَقَايَةِ تَلْمِيذِكُمْ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَارِضِ ؟ وَهَذَا أَصْلَحُ رَأْيٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْطَاهُ حَوْلَ ذَلِكَ مُقَدِّمًا كَمَا يَلُوحُ لِي ، فَأَقُولُ لِإِمِيلَ : « هُنَاكَ تَكُونُ فِي وَضْعِ الْمُدَافِعِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَدِي لَا يَدْعُكَ تَحْكُمُ فِي هَلْ يَرِيدُ أَنْ يُوْذِيَكَ أَوْ يُخَيِّفَكَ ، وَبِمَا أَنَّ لَهُ هَذَا الْوَضْعَ الْمَلَامُ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ مَلَاذًا حَتَّى فِي الْفِرَارِ ، فَأَقْبِضْ بِجُرْأَةٍ ، إِذَنْ ، عَلَى مَنْ يَبَاغِتُكَ لَيْلًا ، إِنْسَانًا كَانَ أَوْ حَيَوَانًا ، وَاضْغَطْهُ وَقْفْهُ بِمَا لَدَيْكَ مِنْ قُوَّةٍ ، وَإِذَا مَا انْتَفَضَ لِلْمَقَاوِمَةِ فَاضْرِبْ بِلَا هَوَاةٍ ، وَلَا تَتَرُكْهُ يَذْهَبُ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ مَنْ هُوَ مِمَّا قَالَ أَوْ قَتَلَ ، وَمَنْ الْحَتْمُ أَنْ تَعْرِفَ بِالِاسْتِضَاحِ عَدَمَ وَجُودِ شَيْءٍ تَخْشَاهُ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي مُعَامَلَةِ الْمُجَانِّ مِمَّا يَحُولُ دُونَ رَجْوِهِمْ إِلَى ذَلِكَ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ » .

وَمَعَ أَنَّ حَاسَةَ اللَّسِّ أَكْثَرُ حَوَاسِنَا دَوَامَ تَمَرِينٍ ، فَإِنْ أَحْكَمَهَا تَطَلُّ ،

مع ذلك ، أكثر نقصاً وأشدَّ غِلْظَةً من أية حاسة أخرى كما قلتُ ، وذلك لأننا ندخل في استعمالها عادةً البصر دائماً ، ولأن العين ، إذ تبلغُ الشيء بأسرع مما تبلغُهُ اليد ، فإن النفس تستغنى عنها في الحكم ، وبالمقابلة تجددُ أحكامَ اللمس أعظمَ صحةً ، لأنها أكثرُ ما يكون اقتصاراً ، فيما أنها لا تمتدُّ إلى أبعد مما تمتدُّ إليه أيدينا فإنها تُقوِّم طيش الحواسِّ الأخرى التي تتناول من بعيدِ أشياء لا تكاد تُحسُّها ، وذلك بدلاً من حاسة اللمس التي تشعُر جيداً بكلِّ ما تُحسُّه ، ونحن إذ نُضِيفُ قوَّةَ العَضَلِ إلى فِعْلِ الأعصاب كما يَروُقنا فإننا نُوَحِّدُ ، بإحساسٍ يَقَعُ في وقت واحد ، بين حكم حرارة الجوِّ والأجرام والأشكال وحكم الثَقَلِ والصلابة ، وهكذا فإن حاسة اللمس إذ كانت بين جميع الحواسِّ أحسنَ ما يُخْبِرُنَا بما يُمكن الأجسام الغريبة أن تؤثرَ في جسمنا فإن عاداتها أكثرُ العادات شيوعاً ، وهي أسرعُ ما يَمْنَحُنَا من المعارف الضرورية لبقائنا .

وإذا كانت حاسة اللمس تقوم مقام حاسة البصر فلم لا يُمكنُها ، كذلك ، أن تقوم مقام حاسة السمع إلى حدٍّ ما ، ما دامت الأصوات تُثيرُ في الأجسام الطَّنَّانة اهتزازاتٍ تُحسُّ عند اللمس ؟ إذا ما وُضِعَتْ يَدُ على كَمَانٍ جبير أمكن أن يُمَازَ ، من غير استعانةٍ بالعيون وبالأذان ووفقَ الوجه الذي يَهْتَزُّ به الخشبُ ويَرْتَجُّ ، كونُ الصوت الذي يُصدر ثقيلًا أو حادًا ، وكونه ناشئًا عن الزير * أو عن القرار ، وإذا ما مرَّت الحواسُّ على هذه الفروق لم أشكَّ في كوننا نُصْبِحُ مع الزمن من الشعور بحيث نَسْمَعُ بالأصابع لحنًا كاملاً ،

والواقعُ أن من الواضح ، عند افتراض هذا ، إمكان مخاطبة الصَّمِّ بالموسيقا بسهولة، وذلك لأن الألحان والأزمان إذ لم تكن أقلَّ تأثراً بالتراكيب المنتظمة من الفواصل والأصوات فإن من الممكن أن تتخذ كعناصر للكلام .

ويُوجدُ من التمرينات ما تكِلُّ به حاسة اللمس ، ويجعلها أكثرَ عياءً ، وعلى العكس يوجد من التمرينات ما تُشعَّدُ به ويجعلها أكثرَ دقةً ولطافةً، وتُضيفُ الأولى كثيراً من الحركة والقوة إلى انطباع الأجسام الصلبة الدائم فتجعل الجلدَ قاسياً جاسياً ، وتَنزِعُ منه الإحساسَ الطبيعي ، وتُغيِّرُ الثانيةُ هذا الإحساسَ بلمسٍ خفيفٍ كثير فيكتسب الذهن ، المُنتَبِه دائماً إلى الانطباعات المُكرَّرة بلا انقطاع ، سهولة الحكم في جميع تحوُّلاتها ، ويُسمَرُ بهذا الفرق في جميع الآلات الموسيقية ، وذلك أن لَمَسَ الكمانِ الجهير والكمانِ الأجر ، حتى الكمانِ ، لَمَساً شديداً أليماً إذ يجعل الأصابعَ أكثرَ مرونةً فإنه يُصلَّبُ أطرافها ، ويجعلها البيَّانُ مرَّةً حساسةً في الوقت نفسه ، وبهذا يُفضَّلُ البيَّانُ .

ومن المهم أن يجسَّأ الجلدُ أمام مؤثرات الهواء فيستطيع مقاومة تقلباته ، وذلك لأن الجلدَ يحفظ بقيةَ الجسم ، وإذا عدَّوتَ هذا وجدتني لا أريد أن تجسَّأ اليد بأن يفرطَ في تمرينها على ذات الأعمال بلُومٍ ، ولا أن يصير جلدُها عَظَميةً تقريباً فتفقدُ الحسَّ اللطيف الذي يُعرَفُ به ما تمرُّ عليه من الأجسام والذي يجعلنا نرتجف في الظلام بمختلف الوجوه أحياناً وعلى حسب نوع اللمس .

ولم يلزَم تلميذى بأن يجعل تحت قدميه جلدَ بَقَرٍ دائماً ؟ وأى أذى

يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقَهُ إِذَا مَا اسْتَعْمَلَ جِلْدَهُ الْخَاصَّ نَعْلًا لَهُ ؟ وَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ رِقَّةَ الْجِلْدِ فِي هَذَا الْقِسْمِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ نَافِعَةً لَشَيْءٍ مُطْلَقًا وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ ضَارَةً كَثِيرًا غَالِبًا ، وَمَا حَدَثَ فِي وَسْطِ الشِّتَاءِ أَنْ اسْتَيْقِظَ أَهْلُ جَنِيْفٍ فِي مَدِينَتِهِمْ هَذِهِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِفَعْلِ الْعَدُوِّ ، فَوَجَدُوا بِنَادِقِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَجِدُوا أَحْذِيَّتَهُمْ ، وَمَنْ يَقُولُ إِنْ جَنِيْفٌ كَانَتْ لَا تَصْبِحُ قَبْضَةُ الْعَدُوِّ لَوْ كَانَ أَهْلُهَا لَا يَعْرِفُونَ أَنْ يَسِيرُوا حَفَاةً ؟

وَلْنُجَهِّزَ الْإِنْسَانَ ، دَائِمًا ، ضِدَّ الْحَوَادِثِ الْمَفَاجِئَةِ ، وَلْيَرْكُضْ إِمِيلُ حَافِيًا فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَفِي جَمِيعِ الْفُصُولِ ، وَذَلِكَ فِي الْغُرْفَةِ وَعَلَى الدَّرَجِ وَفِي الْحَدِيقَةِ ، وَسَاقِلُدَّهُ بَدَلًا مِنْ تَوْبِيخِهِ ، وَإِنَّمَا سَاعُنِي بِإِبْعَادِ الزَّجَاجِ ، ثُمَّ لِيَتَعَلَّمْ اتِّخَاذَ جَمِيعِ الْخُطَوَاتِ الَّتِي تُسَهِّلُ نُشُوءَ الْبَدَنِ ، وَاتِّخَاذَ وَضْعٍ سَهْلٍ مُتَيْنِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَلِيَتَعَلَّمَ الْوُتُوبَ بَعِيدًا عَالِيًا ، وَلِيَتَعَلَّمَ الصُّعُودَ فِي الشَّجَرِ وَتَسَوُّرَ الْجِدُرِ ، وَلِيَجِدْ تَوَازِنَهُ دَائِمًا ، وَلِتَكُنْ جَمِيعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكِّنَاتِهِ مُنْتَظِمَةً وَفَقَ قَوَائِنِ تَوَازِنِ الْقُوَى الْمُتَعَادِلَةِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوضِحَ عِلْمُ تَوَازِنِ الْأَجْسَامِ تِلْكَ الْقَوَائِنَ لَهُ ، وَيَجِبُ أَنْ يَشْعُرَ بِأَنَّهُ فِي وَضْعٍ حَسَنٍ أَوْ سَيِّئٍ مِنْ حَيْثُ الْوَجْهُ الَّذِي يَضَعُ رِجْلَهُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْحَالِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا جِسْمُهُ عَلَى سَاقِهِ ، وَلِلْوَضْعِ الْوَطِيدِ رَوْعَتُهُ دَائِمًا ، وَتَعَدُّ أَمْتَنُ الْهَيْئَاتِ أَظْرَفُهَا ، وَلَوْ كُنْتُ مُعَلِّمٌ رَقْصٍ مَا أَتَيْتُ جَمِيعَ قِرْدِيَّاتِ مَارْسِلِ^(١) لِللَّامَةِ لِلْبَلَدِ الَّذِي جَعَلَهَا فِيهِ ، وَلَكِنِّي آتِي بِتَلْمِذِي إِلَى أَسْفَلِ

(١) مُعَلِّمُ رَقْصٍ مَشْهُورٌ بِبَارِيسَ كَانَ يَعْرِفُ جَمَاعَتَهُ جَيِّدًا فَيَأْتِي مَا هُوَ أَرْعَنُ بِالْحِيلَةِ ، فَيَمْلِكُ عَلَى فَنِّهِ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ مَا يَحْبِلُ مَعَهُ أَكْبَرُ تَقْدِيرِهِ فِي الْأَسَاسِ ، وَإِنْ كَانَ يَرَى مَضْحَكًا ، وَالْيَوْمَ لَا يَزَالُ يَرَى فِي فَنِّ آخِرٍ مِثْلَ هَزْلِ جَامِعٍ بَيْنَ الْمَهْمِ وَالْأَرْعَنِ فَيَلَاقِي مِنَ التَّنْجَاحِ مَا لَيْسَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَكُونُ هَذَا الْأَسْلُوبُ فِي مَأْمَنِ بَفَرْنَسَةِ دَائِمًا ، وَلَا حَظَّ فِيهَا لِلنَّبِوْغِ الْحَقِيقِيِّ الْأَكْثَرِ بِسَاطَةِ وَالْأَقْلَ خَدَاعًا مُطْلَقًا ، وَيَعِدُ الْحَيَاءُ فِيهَا أَفْضَلُ الْأَغْنِيَاءِ .

صخرة بدلاً من شغلِهِ بَقَفَرَاتٍ إِلَى الأبد ، فهناك أَظْهَرَ لَهُ الوَضْعَ الَّذِي يَتَّخِذُ ، وكيف يكون حالُ بدنِهِ ورأسِهِ ، وأى الحركات يَأْتِي ، والنمطَ الَّذِي يَضَعُ بِهِ رِجْلَهُ تَارَةً وَيَدَهُ تَارَةً أُخْرَى لِلسَّيْرِ سَيْرًا خَفِيفًا فِي الدَّرُوبِ الوَعِرَةِ الصَّعْبَةِ الْمُتَعَبَةِ ، وللوثوبِ مِنْ نَقْطَةٍ إِلَى أُخْرَى صَاعِدًا وَنَازِلًا ، فَأَجْعَلُهُ يُبَارِي أَيْلًا لَا رَاقِصًا فِي الأُيُوتِ .

وعلى نسبة ما تَجْمَعُ حَاسَةُ اللمس أَعْمَالَهَا حَوْلَ الإنسان تُوسَّعُ حَاسَةُ البصر أَعْمَالَهَا بَعِيدَةً مِنْهُ ، وهذا ما يَجْعَلُ هَذِهِ الحَاسَةَ خَادِعَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ الإنسانَ يَشْتَمِلُ عَلَى نِصْفِ أَقْفِهِ فِي لَمَحَةٍ بِصَرٍ ، وكيف لَا يَتَطَرَّقُ الخَطَأُ حَوْلَ وَاحِدٍ مِنْ جَمْعِ هَذِهِ الإحْساسَاتِ الحَادِثَةِ فِي وَاقْتٍ وَاحِدٍ وَحَوْلَ مَا تُثِيرُ مِنْ آرَاءٍ ؟ وَهَكَذَا فَإِنَّ حَاسَةَ البصرِ أَكْثَرُ حَوَاسِنَا خَطَأً ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا أَوْسَعُ الحَوَاسِّ مَدًى ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا ، إِذْ تَسْبِقُ الحَوَاسِّ الأُخْرَى بِمِساوِفَ ، تَكُونُ أَعْمَالُهَا عَاجِلَةً جِدًّا مُتَّسِعَةً جِدًّا ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنَّ تُقَوِّمَ بِتِلْكَ الحَوَاسِّ ، وَذَلِكَ إِلَى أَنَّ الوَهْمَ حَوْلَ المَنْظُورَاتِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِلوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ المِيسَاحَةِ وَقِيَاسِ مَا بَيْنَ أَجْزَائِهَا ، وَلَوْلَا الظَّوَاهِرُ الخَادِعَةُ مَا رَأَيْنَا شَيْئًا فِي البُعْدِ ، وَلَوْلَا تَسْلُسُ الحَقِيقِ وَالضِّيَاءِ مَا اسْتَطَعْنَا تَقْدِيرَ آيَةِ مَسَافَةٍ كَانَتْ ، وَإِنْ شَتَّ قَلَّ إِنْ المَسَافَةَ لَا يَكُونُ لَهَا وَجُودٌ عِنْدَنَا ، وَلَوْ بَدَّتْ لَنَا إِحْدَى الشَّجَرَتَيْنِ المِساوِيَتَيْنِ ، البَعِيدَةُ مِنْهَا مِثْلَ خُطْوَةٍ ، كَبِيرَةٍ جَلِيَّةٍ كَالشَّجَرَةِ الأُخْرَى البَعِيدَةِ عَشْرَ خُطُواتٍ لَوَضَعْنَاهَا بِجَانِبِ هَذِهِ ، وَلَوْ كُنَّا نُبْصِرُ جَمِيعَ أَبْصَادِ الأَشْيَاءِ وَفَقَّ قِيَاسُهَا الحَقِيقِيَّ مَا رَأَيْنَا آيَةَ مَسَافَةٍ كَانَتْ ، وَلَبَدَأَ الجَمِيعُ عَلَى عَيُونِنَا .

وَلَا يَوْجَدُ ، لِلْحُكْمِ فِي حِجْمِ الأَشْيَاءِ وَمَسَافَتِهَا ، غَيْرُ قِيَاسٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

فُتَحَتِ الزاوية التي تُحَدِّثُهَا في عيوننا ، وبما أن هذه الفُتْحَة معلولٌ بسيطٌ لعلّةٍ مركبةٍ فإن ما تُثِيرُهُ من حُكْمٍ فينا يَدْعُ كُلَّ علّةٍ خاصةٍ غيرَ معينةٍ ، أو يَفْدُو خاطئاً بحكم الضرورة ، وذلك لأنه كيف يُمَازُ بالعَيْنِ المجرّدة كَوْنُ الزاوية التي يَبْدُو الشيء بها أصغرَ من الآخر هي إياها لأن هذا الشيء الأول معلولٌ أصغرُ لها ، أو لأنه أكثرُ بُعْداً ؟

ويجب أن يُتَبَعَ هنا منهاجٌ مبينٌ للسابق إذَنْ ، وذلك أن يُجْعَلَ عَضْوُ البصر خاضعاً لعضو اللبس بدلاً من تبسيط الإحساس وتضعيفه وتحقيقه بإحساسٍ آخرٍ دائماً ومن ثَمَّ أن تُزَجَرَ صَوْلَةُ الحاسة الأولى بآثاد الحاسة الثانية وانتظائهما ، وبما أننا لم نُخَضِّع أنفسنا لهذه العادة فإن قياساتنا بالتقدير تكون مختلفةً جداً ، وليس لنا بلمحة البصر أيُّ دِقَّةٍ للحكم في الارتفاع والطول والعمق والمسافات ، وَيَبْدُو الدليلُ على أن الخطأ بالعادة أشدُّ مما بالحاسة في كَوْنِ المهندسين والمسّاحين والمعماريين والبنّائين والمصورّين ، على العموم ، ذَوِي لَمَحَةٍ أَحْكَمَ كثيراً مما لدينا ، وفي كونهم يُقَدِّرُونَ قياساتِ الانساع بِاتِّقَانٍ أعْظَمَ مما نقوم به ، وذلك لأن مهنتهم إذ تَمَنُّهُمْ في ذلك من التجربة ما نُهْمِلُ اكتسابه فإنهم يُزِيلُونَ الالتباسَ من الزاوية بالظواهر التي تلازمها والتي تُعَيِّنُ في أعينهم ما بين سَبَبِيَّ هذه الزاوية من نسبةٍ معينةٍ دقيقاً .

وَيَسْهُلُ على الأولاد أن يَنَالُوا ، دائماً ، كُلَّ ما يَمَنُّحُ الجسمَ حركةً من غير أن يُضَاقَ ، وَيُوجَدُ أَلْفُ وسيلةٍ تَخْفِزُهُمْ إلى قياس المسافات ومعرفة تقديرها ، وها هي ذى شجرةٍ كَرَزٍ عاليةٍ جداً ، فما نَصْنَعُ لاقْطَافِ

الكَرَز؟ وهل يَصْلُحُ سَلْمُ النَّبَرِ* لهذا؟ وما هو ذا جدولٌ عريضٌ جِدًّا ، فكيف يُعْبَرُ؟ وهل يُوضَعُ لوحٌ من الحَوْشِ على ضِفَّتَيْهِ؟ وإذا أردنا أن نصطاد من نوافذنا سمكًا في خنادق القلعة فكم يَجِبُ أن يكون عددُ باعات قَصَبَتنا؟ وإذا أردتُ وَضْعَ أرجوحةٍ بين هاتين الشجرتين فهل يكفيني جبلٌ طوله اثنتا عشرةَ قَدَمًا؟ ويقال لى إن غرفتنا فى المنزل الآخر ستكون خمسًا وعشرين قدمًا مربعةً ، فهل تَظُنُّونَ أنها تلائمنا ، وهل تكون أكبر من هذه؟ ونحن نلتهب جوعًا ، فى أى القريتين هاتين ننال غداءً بأسرع ما يُمكن؟ إلخ .

وكان يرادُ أن يُدَرَّبَ على الركض ولدٌ مِكسالٌ بطيء غير راضٍ بهذا التمرين أو ذاك ، وإن كان يُعَدُّ للجندية ، ومما حَدَّثَ أن أَفْنَعَ ، ولا أدرى كيف ، بأنه لا يُطَلَبُ ممن هو من طبقته أن يفعل شيئًا ولا أن يَعْلَمَ شيئًا ، وبأن شرفه يقوم مقام الذُّرْعان والسِّيقان كما يقوم مقام جميع أنواع اللزايا ، فلا تكاد تكفى حتى حيلةُ شِيرُونٍ لتجعل من مثل هذا الشريف أشيلاً ذا رِجْلٍ خفيفة ، وكان الأمرُ يَزِيدُ صعوبةً بِعَزْمِي على عدم أمره بشيء ، وقد تَنَزَّلْتُ عن حقوقى فى التحريض والوعد والوعيد والمباراة وَحُبِّ الظهور ، وكيف أجعله يريد العدو من غير أن أقول له شيئًا؟ إن العدو بنفسى وسيلةٌ مضمونةٌ قليلًا وذاتٌ محذور ، ثم إنه كان من المطلوب أن أستخرج من ذلك التمرين معارفَ له أيضًا ، وذلك تعويدًا لأعمال الآلة وأعمال الرأى أن تَسِيرًا جنبًا إلى جنبٍ دائمًا ، وإليك ما سَلَكْتُ أنا الذى يتكلم فى هذا المثال :

* النَّبَر : بيت التاجر الذى تنفد فيه الغلال والمتاع .

كنتُ حين أذهبُ للنزهة معه في أوقات العصر أضع في جيبى ، أحياناً ،
 قطعتين من الحلوى التى يُحِبُّ كثيراً ، وكان كلُّ منا يأكل واحدةً منهما
 حين النزهة ^(١) ، ثم نعود مسرورين ، وبما أبصر ، ذات يومٍ ، وجودُ
 ثلاثِ قطعٍ معى ، وكان يُمكنه أن يأكل ستاً منها من غير أن يُزعج ،
 ويُسرِع في أكل قطعتيه ليطلبَ منى الثالثة ، وأقول له : كلاً ، إننى
 سأكلها ، أو نقسمها بيننا ، ولكننى أفضّل أن يتنازعا ذاك الغلامان
 الصغيران فينالها الفائزُ فى تسابقهما عدواً ، وأناديهما ، وأريهما قطعة الحلوى ،
 وأعرض عليهما الشرط ، ولم يطلبها ما هو خيرٌ من هذا ، وتوضعُ الحلوى
 على حجرٍ كبير اتُخذَ هدفاً ، وتعيّن المسافة ، ونذهب لتجلىس ، وتعطى
 الإشارة ، وينطلقُ الغلامان الصغيران ، ويَقْبِضُ الفائزُ على الحلوى ويأكلها
 بلا رحمةٍ على مرأى من الخسور والمغلوب .

وكانت هذه الألهوةُ خيراً من الحلوى ، ولكنها لم تؤثر في بدء الأمر
 ولم تأت بنتيجة ، ولم أياس ، ولم أستعجل ، فتعليمُ الأولاد مهنةٌ تقضى بإضاعة
 الوقت كسباً منه ، ونداوم على نزهتنا ، وتؤخذ ثلاثُ قطعٍ من الحلوى
 غالباً ، وتؤخذ أربع قطعٍ منها أحياناً ، ويكون معنا فى الحين بعد الحين
 قطعة واحدة أو قطعتان للعدائين ، وإذا لم تكن الجائزةُ كبيرةً لم يكن من
 يتنازعونها من ذوى الطمع ، وإنما كان الفائزُ بها محلّ ثناء واحتفال ، وكان
 كلُّ شىء يتمُّ بأبهةٍ ، وكنت أجعل المسافة أطول مما هى عليه وأشرك

(١) النزهة الريفية كما يرى بعد قليل ، وأما النزه العامة فى المدن فهى تقصر الولد من الجنسين ،
 ففى هذه النزهة يصير الأولاد مختلفين ومحل نظر ، وفى الكسبرغ والتويلرى ، ولا سيما الباله رويال ،
 تقتبس شبيبة باريس الرائعة ذلك الوضع الماكن الوقع الذى يجعلها موضع سخرية وهزوء وازدراء فى جميع أوربة .

فيها كثيراً من المتبارين توسيعاً لنطاق العدو وزيادةً في الإمتاع ، ولا يكاد المتبارون يَبْدَوْنَ بالسباق حتى يَقِفَ المارُّون لمشاهدتهم ، وكان يُشجِّعُهُم الهُتَافُ والصُّراخ والتصفيق ، وكنتُ ، في بعض الأحيان ، أرى الصبيَّ يهتَزُّ وَيَنْهَضُ وَيَصْرُخُ عند ما يكاد أحدُ المتبارين يَبْلُغَ الآخر أو يَسْبِقَهُ ، فكانت هذه ألعاباً أَلْنِيَّةً بالنسبة إليه .

ومع ذلك فإن المتبارين كانوا يستعملون الخِدَاعَ أحياناً ، فيتحاجزون تبادلاً ، أو يُسْقِطُ بعضهم بعضاً ، أو يَدْفَعُ الواحدُ منهم في طريق الآخر حَصَباً ، فَيُجَهِّزُنِي هذا بسببِ لفصلِ بعضهم عن بعض ، ولجعلهم ينطلقون من أماكن مختلفةٍ على أبعادٍ متساوية من الَهْدَفِ ، وسترون علةَ هذا الحَذَرِ عما قليل ، وذلك لأنني سأعالج هذا الأمرَ المهمَّ مفصلاً .

وَيَسْأَلُ السيدُ الشريف من أن يَرَى على عيني منه دائماً حَلَاوَى تُحَرِّكُ شهوتهَ ، فيدور في خَلَدِهِ ، أخيراً ، أن حُسْنَ المَدْوِ يُمكن أن يكون صالحاً لشيء ما ، وهو ، إذ يَرَى لنفسه ساقين أيضاً ، يأخذ في اختبار نفسه سِرّاً ، وأحترزُ من رؤية شيء ، ولكن مع إدراكي أن خِطَّتِي نَجَحَتْ ، ولما اعتقد أنه ذو قوةٍ كافيةٍ ، وهذا ما أَبصرتهُ ، تظاهر بإزعاجي في سبيل حيازته قطعةَ الحَلْوَى الباقية ، وأَرَفِضُ ، وَبِصْرُ ، وأخيراً يقول لي بلهجة الغاضب : « حسنًا ! ضَعُها على الحجر ، وَعَيِّنِ المِيدَانِ ، وَسَتَرِي » ، وأقول له ضاحكاً : « حسنًا ! هل يستطيع الشريف أن يَرَكُضَ ؟ سَتَشْتَدُّ فيك شهوةُ الطعام من غير أن تنال ما تَقْضِيها به » ، وَيُنْخَزُ بِسُخْرِي قِيْذُلُ جُهْدِهِ ، وينال الجائزة بسهولةٍ لِمَا كان من جملي هذا السباقَ قصيراً

وإقصائي منه أحسنَ عَدَاءٍ ، وليس من الصعب أن يُتَصَوَّرَ ، بعد هذه الخُطوة الأولى ، كيف سَهِّلَ عليَّ أن أَسْتَكِدَّةَ* ، ولسرعانَ ما بَلَغَ من الوَلَعِ بهذا التمرين ما صار يَطْمَئِنُّ معه تقريباً إلى الفوز على الأولاد الآخرين من غير محاباةٍ مهما كان السباقُ طويلاً .

وأظفَرُ بهذا النصر ، فينشأ عنه من النتائج ما لم يَحْطُرُ بيالي ، وكان يفوز بالجائزة على نُذْرَةٍ ، فيأكلها وحده دائماً تقريباً ، وذلك كما كان يصنع منافسوه ، ولكنه لما تَعَوَّدَ النصرَ أصبح كريماً وصار يقاسم المغلوبين إياها ، وهذا ما زَوَّدني بملاحظةٍ أدبية عَرَفْتُ بها مبدأ الكرم الحقيقي .

وعلى ما كان من استمرارى على تعيين الحدود فى مختلف الأماكن حيث يجب أن ينطلق كلُّ واحدٍ معاً ، كنت أجعلُ المسافاتِ متفاوتةً من غير أن يَشْعُرُ ، وبهذا كان يَلْحَقُ ضررٌ يَبِيْنٌ بالذى يجب عليه أن يسيرَ أكثرَ من الآخر وصولاً إلى الهدف نفسه ، ولكننى مع تَرَكِّ الخِيَارِ لتلميذى كان هذا التلميذ لا يَعْرِفُ الانتفاعَ به ، وذلك أنه كان يُفَضِّلُ أَجَلَ الطَّرُقِ غيرَ مبالٍ بالمسافة دائماً ، وذلك مع بَصَرى خيارَه بسهولةٍ فكنتُ أسيطرُ تقريباً على فَوْزِهِ بالحُلُوى ، أو خُسْرِهِ لها ، كما أُريدُ ، وكانت لهذه الشَّطْرَةِ فائدةٌ لأكثرَ من غايةٍ ، ولكنى بما أن مَقْصِدِى قام على إدراكه الفرقَ فقد سَمِعْتُ أن أجعلَ هذا الفرقَ ظاهراً لديه ، ولكنه ، وإن كان بليداً عند الهدوء ، كان كثيرَ النشاط فى ألعابه بالغِ الثقةِ بى ، فأبْدُلُ كلَّ عناءٍ لجعله يُدْرِكُ أننى أغشُهُ فى اللعب ، وأخيراً أبلغُ غايَتى على الرغم من طَيْشِهِ ، فيَكْلُمُنِي

* استكده : طلب منه الاستناد فى العمل .

على ذلك ، وأقول : « من أيّ شيء تشكّو؟ أمِنْ أَجْلِ هبةٍ أريدُ حُسْنَ وَضْعِهَا وأنا صاحبُ شروطها ؟ ومن ذا الذي يُكْرِهُك على العدوّ ؟ وهل وعدتُكَ بأن أجعلَ الأشياءَ متساويةً ؟ ألم يكن لك الخيار ؟ التزم أقصرها ، فلا شيء يمنَعُكَ من ذلك ، وكيف لا ترى أنك أنت الذي أُحايي ، وأن التفاوت الذي تتذمّر منه قد جُمِلَ نفعاً لك لو كنت تعرّف أن تستفيد منه ؟ » ، والأمرُ واضحٌ ، وقد أدركه ، وقد وجب أن ينظر إليه عن كَتَبٍ ليختار ، وأولُ ما أريدُ هو أن يمدّ الخطواتِ ، غير أن مقياسَ خُطواتِ الولدِ بطيءٌ قابلٌ للخطأ ، ثم إنني رأيتُ أن أكثرَ السِّبَاقَاتِ في اليوم الواحد ، وبما أن اللّهُوَ أصبح نوعاً من الوَلَعِ فقد أُسِفَ الولد على إضفاق الوقت المُعدِّ للعدوّ في قياسِ الأشياء ، والواقعُ أن نشاط الوَلَدِيَّةِ يأتي مثلَ هذا البطء ، ولذا فقد دُرّب الولدُ على حسن البصر والإصابة في تقدير المسافة بالنظر ، وبِذَا لم أَجدُ كبيرَ مشقةٍ في توسيع هذا التمييز وتغذيته ، وأخيراً كان له بيضة أشهر في التجاربِ والأغاليطِ المُصحَّحة من تقدير الأبعاد بالرؤية ما كنتُ إذا وَضَعْتُ معه بالفكر قطعةً من الحَلْوَى على شيء بعيد أظهر في تعيين مسافتها بلمحةٍ تعيناً دقيقاً ما يَظْهَرُ بسلسلةِ المسّاحِ تقريباً .

وبما أن البصر هو أقلُّ ما يمكن فَضْلُهُ من الحواسِّ عن أحكام الذهن فإنه لا بُدَّ من انقضاء زمنٍ طويل لتعلّم الرؤية ، ولا بُدَّ من زمنٍ طويل يُقضى في المقابلة بين حاسة البصر وحاسة اللمس تعويداً لأولى هاتين الحاستين أن تجعلنا ذوى صلةٍ صادقةٍ بالصُّور والمسافات ، ولولا حاسةُ اللمس ،

ولولا الحركة التدريجية ، ما كانت أنفذُ عيون العالم لتمنحنا أى فكرٍ عن الاتساع ، ولا يجب أن يكون العالم كله غير نقطةٍ عند المَحَار ، وما كان العالم لِيَبْدُو أكبرَ من ذلك ولو أنبأتُ هذا المَحَارَ نفسٌ بشريةً بذلك ، وليس بغير قوةِ المشى واللمس والعدِّ والقياس ما نتعلم تقديرَ أبعاد الأشياء ، ولكن إذا ما قِسْنَا دائماً واعتمدت الحاسةُ على الآلة لم تَقْرُ هذه الحاسةُ بسدادٍ ، وكذلك لا يَجُوزُ أن ينتقل الولد من القياس إلى التقدير دفعةً واحدة ، وإنما يجب في البُداء أن يداوم على المقابلة بين الأجزاء عند ما لا يستطيع أن يقابل دفعةً واحدة ، وذلك بأن يستبدل الكُورَ التقديريةَ بالكُورِ الصحيحة ، فيتعودُ تطبيقَ القياس بالعين وحدّها بدلاً من تطبيقه باليد دائماً ، وأودُّ ، مع ذلك ، أن يُحَقِّقَ عَمَلِيَّانِهِ الأولى بالقياسات الحقيقية حتى يُصَحِّحَ أغاليطه ، وأن يَتَعَلَّمَ ، عند بقاء ظاهرٍ خادعٍ في الحاسة ، نصحيحه بتمييزٍ أصْلَحَ من ذاك ، ويوجد من المقاييس الطبيعية ما هو واحدٌ في جميع الأمكنة كقدَم الإنسان وطول ذراعيه وقامته ، وإذا ما قَدَّرَ الولدُ ارتفاعَ طبقةٍ من البناء أمكنه الانتفاعُ بمعلمه قياساً ، وإذا ما قَدَّرَ ارتفاعَ بُرْجٍ جَرَسٍ أمكن أن يَفْقِسَهُ بالبيوت ، وإذا أراد أن يَعْرِفَ فِراسِخَ الطريق عدَّ ساعاتِ السَّيْرِ ، ولكن على أن يَصْنَعَ جميعَ هذا بنفسه ، لا أن يُصْنَعَ له شيءٌ منه .

ولا يُمْكِنُ تعلُّمُ تمييزِ اتساع الأجسام وحجميها جيد قبل أن يُتَعَلَّمَ في الوقت نفسه معرفةُ أشكالِها ، حتى تقليدُها ، وذلك لأن هذا التقليد لا يتوقف ، من حيث الأساسُ ، على غير قوانين المناظر ، ولأنه لا يُمْكِنُ

تقديرُ الاتساعِ بظواهره من غير أن يُشعرَ بهذه القوانينِ بعضَ الشعور ،
ويحاولُ جميعُ الأولاد ، الذين هم كثيرٌ التقليد ، أن يرُسّمُوا ، وأريدُ أن
يُكَبِّ إميلُ على هذا الفنِّ ، لا للفنِّ نفسه ضَبْطاً ، بل لتقويمِ باصرته
وجَعْلِ يده مَرِنَةً ، وليس من المهمِّ ، على العموم ، أن يمارِسَ هذا أو
ذاك ، وذلك على أن يكتسبَ بهذه الممارسةَ بصيرةَ الحسِّ وحسنَ عادةِ
البدن ، ولذا فإنني أحترزُ كثيراً من تعيينِ معلمٍ رسمٍ له لا يَحْكُمُ له على غير
تقليدِ مُقلِّداتٍ ، ولا يَجْعَلُهُ يرُسِّمُ من غيرِ الرُّسومِ ، وأقصدُ بذلك ألا يكونَ
له غيرُ الطبيعةِ أستاذٌ ، وغيرُ الأشياءِ نموذجٌ ، وأريدُ أن يكونَ الأصلُ
نفسه تحت عينيه ، لا الورقةُ التي تَعْرِضُه ، كما أريدُ أن يرُسِّمَ بالقلمِ الرصاصيِّ
بيتاً عن بيتٍ وشجرةً عن شجرةٍ ورجلاً عن رجلٍ حتى يتعودَ ملاحظةَ
الأشياءِ وظواهرها جيداً ، لأن يَمُدَّ من التقليدِ الحقيقيِّ ما هو زائفٌ اتفاقاً
من التقليداتِ ، وسأحوِّله ، أيضاً ، عن رسمِ شيءٍ اعتماداً على الذاكرةِ عند
عدم وجودِ الموادِ ، وذلك إلى حين انطباعِ صورها في مُخَيِّلته انطباعاً صحيحاً
عن ملاحظاتٍ متتابعةٍ ، وذلك خشيةَ فَقْدِهِ معرفةَ النَّسَبِ وذوقَ محاسنِ
الطبيعةِ عن استبداله بحقيقةِ الأشياءِ صُوراً غريبةً وهميةً .

وأعْرِفُ جيداً أنه سَيُسَيِّدُ الرسمَ على هذا الوجهَ زمناً طويلاً قبل أن
يَصْنَعَ ما تَسَهَّلُ معرفتهُ ، وأنه سَيَتَأَخَّرُ في اقتباسِ رشاقةِ الخطوطِ ورسمِ
المصوِّرين الخفيفِ ، ومن المحتمل ألا ينالَ ، على الإطلاق ، ما عند المصوِّرِ
من بصريِّ في الأشياءِ المائلةِ وحسنِ ذوقٍ في الرسمِ ، وهو ، بالمقابلة ، سينالُ
بَصَراً أكثرَ إصابةً ويداً أكثرَ إحكاماً ، ومعرفةً لما بين الحيواناتِ

والنباتات والأجسام الطبيعية من نِسَبٍ حقيقية في الحجم والصورة ، وتجربة سريعة في أثر المناظر ، وهذا ما أردتُ صنعه تماماً ، ولم أُهْدِف إلى معرفته تقليد الأشياء كعلمه بها ، فأفْضَلُ أن يُرَيِّنِي نباتَ الأَقْنَثَةِ على إجادته رسم أوراقِ تاجِ لَعْمُودٍ .

ثم إنني لا أَرْغُمُ أن لتلميذى وحدَه لهُوَ في هذا التمرين وغيره ، بل أريد أن أجعله أكثرَ طِيباً له أيضاً ، وذلك بأن أقاسمه إياه دائماً ، ولا أريد أن يكون له منافسٌ غيرى مطلقاً ، ولكنني أكونُ له منافساً بلا مَهْلٍ ولا خَطَرٍ ، وهذا ما يَحْمِلُهُ على الاكتراث لأشغاله من غير أن يُثِيرَ حسداً بيننا ، وسأتناول القلمَ الرصاصىَّ على مثاله ، وسأستعمله في بدء الأمر استعمالاً سيئاً كما يصنع ، وسأكونُ مثلاً أَيْلَ ، فلا أُجِدُّنى غيرَ ردىءِ الرسم ، وسأبدأُ برسم رَجُلٍ كما يَرْسُمُ الخَدَمُ على الجُدْرَانِ ، فأَجْعَلُ خطأً لكلِّ ذراعٍ وخطأً لكلِّ ساقٍ ، وأَجْعَلُ أصابعَ أضخمَ من الذراع ، وسيُذَرِكُ كلُّ منا عدمَ التناسب هذا بعد زمنٍ ، وسنلاحظُ أن للساقِ ثِخَنًا ، وأن هذا الثَّخَنَ ليس واحداً في كلِّ موضعٍ ، وأن للذراع طُولاً معيناً بالنسبة إلى الجسم ، إلخ . ، وسأسيرُ في هذا التدرج بجانب تلميذى ، أو إنني أَسْبِقُهُ قليلاً حتى يَسْهُلَ عليه أن يَصِلَ إلىَّ دائماً وأن يتقدمنى غالباً ، وستكون لدينا أصابعٌ وأرياشٌ ، وسنحاول تقليدَ ألوانِ الأشياءِ ومظهرِها وصورتِها ، وسنلوِّنُ ، وسنزيِّنُ ، وسنسىءُ التصويرَ ، ولكننا لن نَنقُطَ عن تَرَصُّدِ الطبيعة في تصويرنا الردىءِ ، ولن نَصْنَعَ شيئاً غيرَ واقعٍ تحتَ عَيْنَيَّ هذا الأستاذ .

وكنا في هَمٍّ من أجل زخارف غرفتنا ، وها هي ذى واقعة الآن تحت

أيدينا ، وسنضعُ رسومنا ضمنَ أطرٍ ، وسنطبقها بزجاجٍ جميلٍ لكيلا يمتسها أحدٌ ، فإذا رآها كلُّ واحدٍ منا باقيةً على الحال التي وضعناها فيها وجدَّ من المصلحة ألاَّ يُهملَ رسومُه ، وأرتبها حوْلَ الغرفة ترتيباً منتظماً ، ويدلُّ كلُّ رسمٍ مكرَّرٍ عشرين مرةً ، أو ثلاثين مرةً ، على تقدُّمِ الواضعِ في كلِّ نسخةٍ تقدُّماً يترجَّحُ بين الحين الذي كان البيتُ فيه مُربَّعاً غيرَ مُهندَمٍ والحين الذي كان فيه مقدَّمُ البناءِ ومظهرُه الجانبيُّ وظلالُه على أصحِّ ما يكون ، ولا يَقُوْتُ هذا التدرُّجُ أن يعْرِضَ علينا ، بلا انقطاع ، ألواحاً مُمتعةً لنا جالبةً لأبصار الآخرين ، وأن يُحرِّكَ تنافسنا دائماً ، وأضعُ للأولى من هذه الرسومِ ولأغلاظها أطرأً على جانب من اللَّمَّعَانِ والتمويه بالذهبِ إمعاناً في إظهارها ، ولكن التقليد عند ما يصبح أكثرَ دقَّةً ويكون الرسمُ حسناً حقاً فإنني لا أضعُ له غيرَ إطارٍ بسيطٍ جدًّا ، فهو يعودُ غيرَ محتاجٍ إلى زُخْرُفٍ غيرِ زُخْرُفِ نفسه ، فمن الخسر أن يشاطرَ الوشْيُ ما يستحقُّه الشْيُ من انتباه ، وهكذا يتوقُّ كلُّ واحدٍ منا إلى فخرِ الإطارِ غيرِ المدبَّجِ ، ومتى أراد أحدنا ازدراءَ رَسْمِ الآخرِ حَكَمَ عليه بإطارٍ مُموَّهٍ بالذهبِ ، ومن المحتمل أن تذهب هذه الأطرُ المذهَّبةُ مثلاً بيننا ذات يومٍ ، فنقضي العجبَ من وجودِ أناسٍ كثيرين يدُلُّون على حقيقتهم بوضعهم أنفسهم ضمنَ أطرٍ على هذا الوجه .

وقد قلتُ إن علم الهندسة ليس في متناول الأولاد ، ولكن هذا ذنبنا ، ونحن لانشعرُ بأن منهاجهم غيرُ منهاجنا مطلقاً ، وبأن ما يُصْبِحُ فنَّ برهنَةٍ لنا لا ينبغي أن يكون لهم غيرُ فنِّ الرؤية ، وأفضلُ لنا أن نتخذ منهاجهم

من أن نمنحهم منهاجنا ، وذلك لأن أسلوبنا في تعليم علم الهندسة هو عمل خيال كما هو عمل برهنة ، فتمت بسطت قضية وَجَبَ تَخِيلُ دليلاً ، أى أن توجد القضية المعروفة مُقَدِّمًا فيجب أن تكون هذه القضية نتيجة لها ، وأن يُختار هذه النتيجة من بين جميع النتائج التي يمكن استخراجها من ذات القضية . وهكذا فإن أدقَّ المبرهنين يبقى ضيقَ النطاق إذا لم يكن مُستنبطًا ، وما ينشأ عن ذلك ؟ ينشأ عن ذلك إملاء البراهين علينا بدلاً من حملنا على اكتشافها ، وكون العلم يُبرهن من أجلنا بدلاً من تعليمنا البرهنة ، فلا يُمرّن غير ذاكرتنا .

واصنعوا صوراً مُتَقَنَةً ، ورتّبوها ، ووضّعوا بعضها فوق بعض ، وافحصوا ما بينها من نسب ، تجددوا جميع علم الهندسة الابتدائية سائراً من ملاحظة إلى أخرى ، وذلك من غير سؤال ولا تعريفات ولا مسائل ولا أى شكل برهاني آخر غير التنفيذ البسيط ، وأما أنا فلا أزعم أنني أعلم إميل الهندسة مطلقاً ، وإميل هو الذى يُعلمنى إياها ، وأبحث عن النسب ويَجِدُها ، وذلك لأننى أبحث عنها على وجهٍ أخفّزُه به إلى اكتشافها ، ومن ذلك أننى ، بدلاً من استخدام بيكار لرسم دائرة ، أرسُمها بقلم رصاصٍ فى طرفٍ خيطٍ دائريٍّ حول قطب ، وإذا أردتُ ، بعد ذلك ، أن أقابل بين أنصاف قطر الدائرة ضحك إميل منى وأرانى أن عين الخيط المشدود دائماً لا يمكن أن يرسم مسافات متفاوتة .

وإذا أردتُ قياسَ زاوية ذاتِ ستين درجةً رسمتُ من رأس هذه الزاوية دائرةً بكاملها ، لا قوساً ، وذلك لأنه لا ينبغي أن يُضمّن الأولاد

شئ ، وأجدُ أن جزء الدائرة الواقع بين ضلعي الزاوية هو سدُسُ الدائرة ، وأرسمُ من ذاتِ الرأس ، بعد ذلك ، دائرةً أكبرَ من تلك وأجدُ أن هذه القوسَ الثانية هي سدُسُ دائرتها أيضاً ، وأرسمُ دائرةً ثالثةً مشتركةً المركزِ وأقومُ عليها بذاتِ التجربة ، وأداومُ على عين الاختبار في دوائرَ جديدةً إلى أن يفتأظ إميلُ من غباوتي فيخبرني بأن كلَّ قوسٍ ، صغيرةٍ أو كبيرةٍ ، تشتمل عليها ذاتُ الزاوية تكون الجزء السادس من دائرتها ، إلخ . ، وهانحن أولاء نستعمل المِنَقَلَة الهندسية عما قليل .

وترسُمُ دائرةً لإثبات كون الزاويتين المتجاورتين مساويتين لزاويتين قائمتين ، وأما أنا فأصنع ، على العكس ، ما يلاحظُ إميلُ به هذا في الدائرة أولاً ، ثم أقول له : « إذا ما أزلنا الدائرة وتركنا الخطوطَ المستقيمة فهل تبدّل الزاويتان حجمهما ، إلخ . ؟ » .

وتُهمَلُ الدقةُ في الأشكال لافتراضها ، ويُغْنَى بالإثبات ، وعلى العكس لا نبالي بالإثبات ، وسيكون أهمُّ شيء عندنا أن نرسمُ خطوطاً مستقيمةً جيداً دقيقةً جيداً متساويةً جيداً ، وأن نصنعُ مُربّعاً كاملاً جيداً ، وأن نُحِطَّطَ دائرةً حسنة الاستدارة ، وسندرسُ الشكلَ بجميع خاصيّاته المحسوسة تحقيقاً لدقته ، وسيُتيسرُ لنا هذا فرصةً اكتشافِ خصائصَ جديدةٍ كلِّ يوم ، وسنُشْنِي نصفَ الدائرة من القطر ، وسنُشْنِي نصفَ المربع من الزاويتين المتقابلتين ، وسنقابل بين الشكلين لئرى أيهما أدقُّ أطرافاً ومن ثمَّ أتقنُ صنعاً ، وسنتباحث حَوْلَ وجود هذه المساواة في التقسيم في السُطْحَاتِ المتوازية الأضلاع والمربعات المنحرفة ، إلخ . ، دائماً ، أو لا ، وسنحاول ،

أحياناً ، أن تُبصر نجاح التجربة قبل القيام بها ، وسنسى في اكتشاف الأسباب ، إلخ .

وليس علم الهندسة عند تلميذى غير حسن استخدام المسطرة والبيكار ، ولا ينبغي له أن يخلط بينه وبين الرسم حيث لا يستعمل من هاتين الآلتين هذه ولا تلك ، فسيُفَقَل على المسطرة والبيكار بالمفتاح ، ولن يؤذَن له في استعمالهما إلا نادراً ولوقت قصير ، وذلك لكيلا يعود إساءة التصوير ، ولكننا نستطيع أن نحمل أشكالنا في نُزَهِنا أحياناً لتكلم عما صنعناه وعما نريد صنعه .

ولن أنسى أنى شاهدتُ قَتَى في تَورِين عُلَم في صِبَاه ما بين الاستدارات والشطّوح من نِسَبٍ ، وذلك بأن يُتْرَكَ له كلَّ يوم أن يختار من الأشكال الهندسية ما تساوت استداراته طولاً ، وقد استنفذ هذا النهم الصغير فنَّ أرشميدس ليجِدَ الشكل الذى كان يُوجَدُ فيه أكثر ما يؤكَل .

ومتى أطار الولدُ طَيَّارَةً ورقٍ مرَّ عَيْنَهُ وذراعَهُ على الإحكام ، ومتى ساط خذُرُوفاً زاد قُوَّتَهُ باستعمالها ، ولكن من غير أن يتعلَّم شيئاً ، وقد سألتُ ، في بعض المرات ، عن السبب في أنه لم يُعَرِّض على الأولاد من الألعاب القائمة على البراعة كالتي يقوم بها الرجال ، كالتنيس والصَّوْلُجَانِ والبليارد والنَّيْل والكُرَّة وآلاتِ الطرب ، وقد أُجِبتُ بأن بعض هذه الألعاب فوق قُوَّاهم ، وبأن أعضائهم وحواسهم ليست من النموِّ ما تقوم معه ببعضها الآخر ، وأجِدُ هذه الأسبابَ واهيةً ، فليس للولد قامةُ الرجل ولكنه يلبس مثل ثوبه ، ولا أعنى أن يَلْعَب بِقُضباننا بلياراً بالغاً من

الارتفاع ثلاثَ أقدام ، ولا أقصدُ أن يلعب بالكُرّة في ملاعبنا ، أو أن تحمّل يده الصغيرة مِضْرَباً من مضاربنا ، وإنما أريد أن يلعب في رَذَهِة تضمّن نوافذها ، فلا يستعمل في البُداء غيرَ كراتٍ رَخْوَةٍ ، وتكون مضاربُه الأولى من خشب ، ثم من رَقٍّ ، ثم من وترٍ من الأمعاء مشدودٍ بنسبة تقدّمه ، وتفضّلون الطيارة الورقية لأنها أقلُّ إعياءاً ولا تنطوى على خطر ، ولستم على حقٍّ في هذين السببين ، فالطيارة الورقية من ألعاب النساء ، ولكنك لا تجدُ من النساء مَنْ لم تفرّ من كُرّة متحركة ، ولا ينبغي لللودهنّ البيض أن تخشُن بالرضّ ، ولا تنتظر وجوههم جروحاً ، وأما نحن الذين خلقوا ليكونوا أقوىاء فهل نكون هكذا بلا مشقة ؟ وأيّ دافعٍ نقدر عليه إذا لم نهاجم قطُّ ؟ يقوم الناسُ دائماً بألعابٍ لا ينطوى الخطأُ فيها على خطر ، ولا تؤذِي الطيارة التي تستقط أحداً ، ولكن لا شيء يجعل الذُرْعانَ كَيْفَةً كحفظ الرأس ، ولا شيء يجملُ البصرَ صائباً كضمان العيون ، وألعابُ كالوثوب من طرف رَذَهِة إلى طرفها الآخر وكتقدير نَطْلَةٍ كُرّة لا تزال في الهواء وإعادتها بيدٍ قويّة وطيدة أقلُّ ملاءمةً للرجل من صلاحيتها لتكوينه .

ويقال إن ألياف الولد رَخْوَةٌ جدّاً ، وهي أقلُّ قوّة مما لدى الرجل ، ولكنها أكثرُ مرونةً ، وذراعُ الولد ضعيفٌ ، ولكنها ذراعٌ في آخر الأمر ، ويجب أن يُصنّع بها ، مع حفظ النسبة ، كلُّ ما يُصنّع بآلةٍ ماثلةٍ أخرى ، ولا يوجدُ للأولاد في أيديهم أيُّ حَذَقٍ كان ، ولذا فإنني أريد منحهم إياه ، وليس عند الرجل القليلِ التدريب أكثرُ مما عندهم ، ولا نستطيع أن نعرِف

عادة أعضاءنا قبل استعمالها ، ولا يوجد غير تجربة طويلة واحدة نتعلم بها الانتفاع بأنفسنا ، وهذه التجربة هي الدرس الحقيقي الذي لا يمكننا أن نقبل عليه باكراً .

وكل ما يُصنع ممكن صنعه ، والواقع أنه لا شيء أكثر شيوعاً من أن يُرى أولادٌ مَهْرَةٌ رَشَقٌ حائزون في أعضائهم عينَ الرَشَاقَةِ التي يُمكن أن تكون في الرجل ، ويشاهد في جميع الأسواق ، تقريباً ، من الأولاد مَنْ يَرْتَجِحُونَ وَيَمْشُونَ على أيديهم وَيَقْفِزُونَ وَيَرْقُصُونَ على الحبل ، وما أكثر السنين التي اجتذبت فيها كتائبُ من الأولاد ، برقصاتهم الرمزية ، جوعاً من حُضَارِ الكُمِيزَةِ الإيطالية ! ومن ذا الذي لم يَسْمَعْ في ألمانية وإيطالية حديثاً عن كتيبة التمثيل بالإشارات لنيكوليني الشهير ؟ وهل لاحظ أحدٌ في هؤلاء الأولاد حركاتٍ أَقْلَ نشوءاً وأوضاعاً أَقْلَ ظرافةً وآذاناً أَقْلَ سَدَاداً ورقصاً أَقْلَ خفةً مما في الراقصين الكاملين التدريب ؟ ولتكن الأصابعُ ثَخينةً قصيرةً قليلةً الحركة في البداية ، ولتكن الأيدي سمينةً قليلةً القدرة على الإمساك ، فهل يَمْنَعُ هذا أولاداً كثيرين من الكتابة أو الرسم في سنٍ لا يَعْرِفُ آخرون فيها إمساكَ القلمِ الرصاصي ؟ ولا تزال باريسُ بأسرها تذكرُ أَمْرَ البُنْيَةِ الإنكليزية التي كانت تأتي بالعجائب على اليَمِيان^(١) ، وقد رأيتُ في منزل حاكمٍ ابناً له بالغاً من العمر ثمانين سنين كان يُوضَع على المائدة فيَبْدُو كالتمثال بين الأطباق فيَعْرِفُ على كَمَانٍ يَعْدِلُ حجمه تقريباً ، وَيَقْضِي حتى المتفنون العجب من إيقاعه .

(١) أني غلام في السابع من عمره ما هو أدعى إلى العجب بعد ذلك الحين .

وُثِّبَتْ هذه الأمثلةُ ومثلهُ ألفِ مثالٍ مماثل أن ما يُعزَى إلى الأولاد من عدم أهليةٍ مفروضةٍ في تمريناتنا أمرٌ خياليٌّ كما يُلوح لي ، وأن النجاح إذا لم يُكْتَبْ لهم في بعضها كان هذا نتيجةَ عدمِ تدريبهم على ذلك مطلقاً . وسيقال لي إنني أقعُ هنا ، من حيث البدنُ ، فيما أنجي باللائمة عليه من خطأٍ في تثقيف ذهن الأولاد قبل الأوان ، والفرقُ عظيمٌ جدًّا ، وذلك لأن أحدَ هذين التّقديمين ليس غيرَ ظاهرٍ مع أن الآخرَ حقيقيٌّ ، وقد أثبتُّ أنهم غيرُ حائزين للذهن الذي يُلوح أنهم حازوه ، مع أنهم يفعلون جميعَ ما يَظْهَرُ أنهم فاعلوه ، ثم إن من الواجب أن يذكّر دائماً أنه لا يجوز أن يكون جميعُ هذا غيرَ ما تطالبهم به الطبيعةُ من تسهيلِ الحركات وتوجيهها طَوْعاً ، غيرَ فنِّ تحويلِ أَلْهُوَاتِهِمْ إلى ما هو أحلى منها ، وذلك من غير أن يحوّلوا أيُّ ضَغْطٍ إلى عملٍ ، وذلك مع السؤال أخيراً : أيُّ شيء لا يَتَلَهَّوْنَ به فلم أَقْدِرْ أن أجعله موضعَ مَعْرِفَةٍ لهم ؟ حتى إنني عند عدم استطاعتي صُنْعَ هذا لا يكون تقدمهم في المعرفة مهماً كثيراً في الزمن الراهن ما داموا يَتَلَهَّوْنَ بلا ضرر ويقضون أوقاتهم مَرِحِينَ ، وذلك بدلاً من أنه إذا ما قضت الضرورةُ أن يتعلموا هذا أو ذاك عند كلِّ مناسبة كان من المتعذر بلوغُ هذا أو ذاك من غير إكراه وكَدَرٍ وضَجَرٍ .

وما قلته عن الحاستين اللتين لهما من الاستعمال ما هو أَدْوَمُ وأتمُّ يُمْكِنُ أن يَتَّخَذَ مثلاً للوجه الذي تمارَس به الحواسُ الأخرى ، وتَسْرِي الباصرةُ واللامسةُ على الأجسام الساكنة والأجسام المتحركة على السواء ، ولكن بما أنه لا يوجد غيرُ اهتزاز الهواء ما يَقْدِرُ على التأثير في حاسة السمع فإنه

لا يوجد غيرُ الجسم المتحرك ما يُحدثُ ضوضاءً وصوتاً ، فإذا كان كلُّ شيء ساكناً لم نَسْمَعْ شيئاً مطلقاً ، وفي الليل ، حيث لا تتحرك إلّا بمقدار ما تروقنا الحركة ، لا نخشى ، إذن ، غيرَ الأجسام التي تتحرك ، فمن المهم أن تكون لنا آذانٌ مرهفةٌ ، فنستطيع أن نَحْكُم ، بالإحساس الذي يقرِّعنا ، في كَوْنِ الجسم الذي يُوجبه كبيراً أو صغيراً ، بعيداً أو قريباً ، وفي كَوْنِ اهتزازِه عنيفاً أو ضعيفاً ، ويكون الهواء المهتزُّ عُرْضةً لانعكاساتٍ تُردِّده ، وهذه الانعكاساتُ ، إذ تُحدثُ أصداً ، تُكرِّرُ الإحساسَ وتجعلنا نَسْمَعُ الجسمَ الصَّخَّابَ أو الرَّنَّانَ في مكانٍ غيرِ المكان الذي يكون فيه ، وإذا ما وَضَعْنَا الأذن على الأرض في سهلٍ أو وادٍ سَمِعْنَا صوتَ رجالٍ أو خَطَوَ خَيْلٍ أبعدَ كثيراً مما يكون لو بَقِينَا واقفين .

وكما أننا قابلنا بين الباصرة واللامسة كان من الحسن أن نقابل بين الباصرة وحاسة السمع ، وأن نرى أيُّ الأثرين يَصِلُ بأسرع من الآخر إلى عُضْوِه إذا ما صَدَرَا عن ذات الجسم معاً ، ومتى رأينا نارَ مِدْفَعٍ أمكننا اتقاء الضربة ، ولكن متى سَمِعْنَا صوتَه عاد لا يكون من الوقت ما يُمكن ذلك معه ، فالفذيفةُ تكون قد وَصَلَتْ ، ومن الممكن أن يُحْكَم في المسافة عند وقوع الرِّعْد بفترة الزمن الذي ينتفضي بين البريق والهزيم ، فاصنعوا ما يَعْرِفُ الولدُ به جميعَ هذه التجارب ، وليأتِ من التجارب ما يكون في متناولِه ، وليجد الأخرى باستقراءه ، بَيْدَ أنني أفضل مثلاً مرةً جهله لها على أن تقولوها له .

ولدينا عُضْوٌ يُجَاوِبُ حاسةَ السمع ، أي عُضْوُ الصوت ، وليس لدينا من

الأعضاء ما يُجَاوِبُ حاسةَ البصر ، فلا تُزِدُّ الألوان كما تُزِدُّ الأصوات ، ثم إن هذه وسيلةٌ لَتَعَهَّدِ حاسةَ السَّمْعِ بتمرين العضو الفاعل والعضو المنفعل مبادلةً .

والإنسان ثلاثة أنواعٍ من الأصوات ، وهى : الصوت المتكلم أو الناطق ، والصوتُ المغننى أو المطرب ، والصوتُ العاطفى أو المعبّر ، ويصلح هذا الأخيرُ لساناً للأهواء مُحَرِّكاً للشَّذْوِ والكلام ، وللولد هذه الأنواعُ الثلاثةُ من الصوت كما للرجل ، وذلك من غير أن يَعْرِفَ مَزْجَ ما بينها ، وللولد ما عندنا من الضَّحِكِ والصُّراخِ والتوجُّعِ والنداءِ والأنينِ ، ولكنه لا يَعْرِفُ أن يَمَزُجَ بين هذه الإمالات والصوتين الآخرين ، وليست الموسيقى الكاملةُ غيرَ التى تُوَلَّفُ بأحسنِ ما يُمكن بين هذه الأصوات الثلاثة ، وَيَعْجِزُ الأولاد عن هذه الموسيقى ، وليس لغنائهم روحٌ مطلقاً ، وكذلك فى الصوت المتكلم لا تَجِدُ للسانهم نَبَرَاتٍ ، وهم يَضْرُخُونَ ، ولكن لا يَنْبِرُونَ ، وكما أنه لا يوجد فى كلامهم نَبْرَةٌ إلا نادراً يَنْدُرُ وجود قوةٍ فى صوتهم ، وسيكون كلامُ تَلْمِيزِنَا أكثرَ توحيداً وأعظمَ بساطةً أيضاً ، وذلك لأن أهواءه لا تَمَزُجُ لسانها بلسانه عن عدم تَنَبُّهِه ، وَلِذَا لا تَحْمِلُوهُ على تلاوة أدوارٍ ، عن ظَهْرِ القلب ، من مأساةٍ أو كَمِديَّةٍ ، ولا تَرْغَبُوا فى تعليمه الإنشاد ، فلا بُدَّ له من حِسِّ بالغٍ حتى يُنْعِمَ بصوتٍ على أمورٍ لا يَدْرِكها ، وَبِنَبْرَةٍ على مشاعرٍ لا يَحِسُّها مطلقاً .

وعَلَّموه الكلامَ بسيطاً واضحاً ، واللفظَ جليلاً جيداً ، والنطقَ مُحْكَمًا بعيداً من التكلف ، وعَلَّموه معرفةَ الحركاتِ النحويةِ وَوَضْعَ الكلماتِ فى

مواضعها ، وأن يُخْرِجَ من الأصوات ما يَكُنِي للسمع دائماً ، لا أن يُخْرِجَ منها أعلى مما يجب ، أى أن يجتنب هذا العيب الشائع بين الأولاد الذين نُشِتُوا في المدارس ، فلا يَجُوزُ وجودُ ما هو زائدٌ في أىِّ شيءٍ كان .

وكذلك في الغناء اجعلوا صوته مُحْكَمًا سَهْلًا لَيْتًا ذا رَنين ، فتكون أذنه مُرَهَفَةً في الوزن والانسجام لا غير ، ولا تلائم الموسيقى التقليدية والتقليدية سنّه ، حتى إننى لا أريد أن يُفَتَّى بالكلام ، وهو إذا ما أراد أن يُفَتَّى حاولتُ أن أصح له أغاني مقصودة ملائمة لعمره بسيطةً بسيطةً أفكاره .

وتروُن أنى قليلُ العَجَلَةِ في تعليمه قراءة الخطّ ، وليس غير ذلك أمرى في تعليمه قراءة الموسيقى ، فلنُبْعِدُ من دماغه كلَّ انتباهٍ شاقٍّ ، ولا نستعجل تثبيتِ الإشاراتِ الاصطلاحية في ذهنه ، وأُعرِفُ بأن لهذا صعوبة كما يُلوح ، وذلك لأن معرفة المُجَسَّدَاتِ إذا لم تَبْدُ في البَدْءِ أكثرَ لزومًا لمعرفة الغناء من معرفة الحروف لمعرفة الكلام فإنه يوجد ، مع ذلك ، ذلك الفرقُ القائلُ إننا نُردّدُ أفكارنا الخاصة بالكلام وإننا لا نُردّدُ غيرَ أفكار الآخرين بالغناء ، والواقعُ أنه لا بُدَّ من قراءتها لترديدها .

ولكنَّ أولَ ما يقال إنها تُسمَعُ قبل أن تُقرأ وإن الغناء يُردّدُ في الأذن بأصْدَقَ ما في العين ، ثم إنه لا يَكُنِي ترديدُ الموسيقى لمعرفة جيداً ، بل يجب تأليفها ، ويجب تعلُّمُ الأمرين معاً ، وإن لم يَحْدُثْ هذا لم تُعرَفِ الموسيقى قطّ ، وفي البَدْءِ مرّوا مُوسِيقِيكُمْ الصغِيرَ على وَضْعِ عباراتٍ منتظمةٍ حسنة الإيقاع ، ثم مرّنوه على رَبْطِ ما بينها بلحنٍ بسيطٍ جيّدًا ، وأخيراً مرّنوه

على تعيين ما بينها من علائق مختلفة بترقيم صحيح ، وهذا يكون بمُحسن اختيار
المَحَاطِّ والسَّكَنَاتِ ، وإياكم والنِّسَاءَ الغريبَ على الخصوص ، وإياكم
والشَّجَوِيَّاتِ والتعابير ، فاللَّحْنُ الشَّادِي البسيطُ دائماً ، واللحنُ المشتقُّ
من أوتار النِّغَمِ الجوهريَّةِ دائماً ، يَبْلُغُ من الدلالة على أداته دائماً ما يُشعرُ
به ويُصاحبُ بلا مشقة ، وذلك أن تدريبَ صوت الولد وأذنه يُوجبان عدمَ
غِنائه بنير البيان مطلقاً .

وَيَتَطَلَّبُ تعيينُ الألحان جيداً أن تُلفَظَ واضحةً حين النطق بها ، ومن
ثم أنت عادةُ التنغيم ببعض المقاطع ، ويتطلب تمييز الدَّرَجَاتِ إطلاقَ أسماء
على هذه الدرجات وعلى حدودها المختلفة الثابتة ، ومن هنا جاءت أسماء الفواصل ،
كما جاءت ، أيضاً ، حروف الأبجدية التي تُمازُ بها مفاتيحُ البيانِ ومُجسِّدات
السُّلَمِ ، ويُعيَّن G و A ألحاناً ثابتة تُرَدَّدُ ، دائماً ، بعين المفاتيح ، وغيرُ
ذلك أمرُ ut و La ، فأما ut فهو ، على الدوام ، أساسُ السُّلَمِ الأكبر ،
أو وسيطُ السُّلَمِ الأصغر ، وأما La فهو ، على الدوام ، أساسُ السُّلَمِ الأصغر ،
أو المُجسِّدَةُ السادسةُ للسُّلَمِ الأكبر ، وهكذا فإن الحروف تَميزُ الحدودَ الثابتة
لنِسَبِ منهاجنا للموسيقى ، وإن المقاطع تَميزُ الحدودَ المتناظرة لِمَا تشابه من
النَّسَبِ في مختلف الألحان ، وتَميزُ الحروفُ مفاتيحَ البيان ، وتَميزُ المقاطع
درجاتِ السُّلَمِ ، وقد خلطَ مُوسِيقِيُو فرنسة بين هذه الفروق خلطاً غريباً ،
فلم يُفرِّقوا بين معنى المقاطع ومعنى الحروف ، وهم ، إذ ضاعفوا إشاراتِ المفاتيح
على غير جَدْوَى ، لم يدَّعُوا من ذلك قطُّ ما يُعبِّرُ به عن أوتار الألحان ،
وهكذا فإن ut و G عندهم شيءٌ واحد ، وليس الأمرُ هكذا ، ولا يجوز

أن يكون هكذا ، وإلاّ فما يكون استعمال C ؟ وكذلك فإنّ طريقتهم في التنغيم كثيرة الصعوبة من غير أن تكون لها أية فائدة ، ومن غير أن تحمّل للذهن أية فكرة واضحة ، ما أمكن أن يدلّ المقطعان ut و mi على الثالث الأكبر أو الثالث الأصغر أو الثالث الزائد أو الثالث الناقص ، وبإله من نصيب عجيب أن يكون هذا البلدُ العالميُّ الذي توضع فيه أروع كتب الموسيقى عين البلد الذي يبدؤ أصعب ما تُعلّم فيه ضبطاً !

ولنتّبع مع تلميذنا طريقاً أكثر بساطةً وأشدّ وضوحاً ، فلا يكون له غير سُلمين ذواتيّ نسبٍ واحدةٍ بينهما دائماً ، فيشار إليهما بعين المقاطع دائماً ، وسواء أغنّى أم عزّف على آلةٍ كان الرأى أن يعرّف إقامة سُلمه على كلّ واحدٍ من الألحان الاثني عشر التي يُمكنه الانتفاع بها أساساً ، وسواء ألحّن على D أم على C أم على G ، إلخ . ، كان الرأى أن تكون النهاية La أو ut وفق السُّلم ، وهكذا فإنه يُذكر مقصّدكم دائماً ، وستكون نسبُ السُّلم الجوهريّة للغناء والعزف كما ينبغي حاضرة في ذهنه دائماً وسيكون إنجازُه أكثر وضوحاً وتقدُّمه أكثر سرعةً ، ولا يُوجد ما هو أغرب مما يدعوه الفرنسيون بالتنغيم الطبيعيّ ، وذلك لقيامه على إقصاء ما ينطوى عليه الشيء من أفكارٍ واستبدالنا بها أفكاراً غريبةً لا تؤدي إلى غير الإغواء ، ولا شيء أقرب إلى الطبيعة من التنغيم عن تغيير في اللحن عند تغيير السُّلم ، ولقد تكلمتُ عن الموسيقى بما يزيد على الكفاية ، فعلموها كما تشاءون ، ولكن على ألاّ تعدّو حدّ الألّهوة على الإطلاق .

وها نحن أولاء قد اطمعنا جيداً على حال الأجسام الفريية عن جسمنا

وعلى وزنها وشكلها ولونها ومثاتها وجسامتها ومساقها وحرارتها وسكونها وحركتها ، وقد عَرَفْنَا أَيُّ الأجسام يلائمنا أن نَذْنُوْ مِنْهُ أو نبتعد عنه ، وذلك على الوجه الذى يجب علينا أن نتخذ به من الوَضْع لِكسْر مقاومتها ، أو لإبدائها نحوه من المقاومة ، ما نَقِي به أنفسنا من أذاه ، ولكن هذا ليس كافياً ، فَبَدَنُنَا يَضُنِّي بِلا انقطاع ، فيحتاج إلى تجديدٍ دائماً ، وعلى ما لدينا من قدرةٍ على تغييرنا موادَّ أخرى فى عنصرنا الخاصِّ ، فإن خيارنا ليس من الأمور التى لا يُؤْبَهُ لها ، وليس كلُّ شَيْءٍ غِذاءٌ عند الإنسان ، ولا يوجد بين ما يُمْكِن أن يكون غِذاءً من الموادِّ ما يلائمه على السواء ، وذلك على حَسَبِ تركيب عِرْقِهِ ، وعلى حسب الإقليم الذى يعيش فيه ، وعلى حسب مزاجه الخاصِّ ، وعلى حسب طراز حياته الذى يقتضيه حاله .

ولو وجب ، لاختيار الأغذية التى تلائمنا ، أن ننتظر تعلیم التجربة إيانا أن نَعْرِفَهَا وأن نَتَخَيَّرَهَا لَهْلِكُنَا جاعين أو مسمومين ، غير أن اللطيف الأعلى الذى جَعَلَ من لَذَّةِ الموجودات الحساسة وسيلةً بقاءها قد أنبأنا بما يَرُوق حاسة ذوقنا ما يلائم مَعِدَّتَنَا ، ومن الطبعيِّ ألاَّ يوجد للإنسان طيبٌ أضمنُ من شهوة الطعام الخاصة فيه ، ولا أَشْكُ فى أن الإنسان فى حالته الابتدائية كان يَجِدُ فى أَلذِّ الأَطعمة أَكْثَرَهَا نفعاً للصحة .

ويوجد ما هو أَكْثَرُ من ذاك ، وذلك أن صانع البرايا لم يَقْضِ ما جَعَلَ فينا من احتياجاتٍ فقط ، بل قَضَى ما جَعَلَنَاهُ لأنفسنا أيضاً ، وهو ، لِكى نَضَعَ الرغبةَ بجانب الحاجة ، قد جَعَلَ طُغْمُونًا تتغير وتفسدُ مع طُرُز

حياتنا ، وكلما ابتعدنا عن حال الطبيعة فَقَدْنَا طُعْمَونا الطبيعية ، وإن شئتَ قُلْ
إن العادة تَجْمَلُ لنا طبيعةً ثانية نَبْلُغُ من إقامتها مقامَ الأولى ما لا تَجِدُ معه
أحدًا منا بِعَرَفٍ غَيْرِها .

ومن ثَمَّ يَرَى أن أقرب الطُعْمِ إلى الطبيعة هي التي يجب أن تكون
أكثرَها بساطةً ، وذلك لأنها أسهلُ ما يَتَحَوَّلُ ، وذلك بدلًا من أن
تتخذ شكلًا لا يَتَغَيَّرُ أبدًا بما يكون من شَحْذِها وإثارتِها بأهوائنا ، والإنسانُ
الذي لم يَتَكَيَّفْ ببلدٍ بَعْدُ يَتَحَلَّلُ عاداتِ أيِّ بلدٍ كان بلا مشقة ، ولكن
الإنسان الذي هو من بلدٍ لا يَعُودُ ابنًا لبلدٍ آخر .

ويَلُوح لي هذا صحيحًا بالنسبة إلى جميع الحواسِّ ، وأكثرُ من هذا
أيضًا عند تطبيقه على حاسة الذوق حَصْرًا ، واللبنُ هو غذاؤنا الأول ،
ولا نَعُودُ الطُعْمَ القوية إلا بالتدريج ، وَتَكَرَّرُها نفوسنا في البُداءة ،
وكانت ولائِمُ الأولين^(١) تقوم على الفواكه والخضَر والأعشاب ، وأخيرًا على
بعض اللحوم المشوية بلا تابلٍ ولا مِلْحٍ ، وَقَطَّبَ الهمجىُّ عند ما شَرِبَ
الخمرَ لأول مرة ورماها ، حتى إنه إذا وُجِدَ بيننا مَنْ عاش حتى العشرين
من عُمره من غير أن يذوق السوائل المختمرة عاد لا يستطيعُ تَعَوُّدَها ، ونكون
كلُّنا من الزاهدين في الخمر إذا لم تُقَدِّم إلينا في صِبَانا ، ثم إن طُعْمَنا كلما
كانت بسيطةً بَدَتْ عامةً ، وتَقَعُ أعمُّ كَرَاهِيَاتِنَا على الأطعمة المركبة ، وهل
شاهدتم أحدًا يَكْرَهُ الماءَ والخبزَ ؟ هذا هو أثرُ الطبيعة ، وهذا هو نظامُنا
إذن ، وَلَنَحْفَظْ للولد ذوقَه الفطريَّ ما أمكن ، وليكن غذاؤه عاديًا بسيطًا ،

(١) انظر إلى أركادية بورزانياس ، وانظر ، أيضًا ، إلى قطعة بلوتارك المنقولة فيما بعد .

ولا تَعْتَدْ حاسة ذوقه غيرَ الطَّعْمِ المَعْلَلَةِ قليلاً ، ولا نَدَّعِهِ يكون ذا ذَوْقٍ نَمَطِيٍّ حَصْرًا .

ولا أبحث هنا في هل هذا الطرازُ من العيش أصلحُ للصحة أو لا ، فلا أنظر إلى الأمر من هذه الناحية ، وإنما يكفيني أن أعْرِفَ ، لتفضيله ، أنه أكثرُ ما يلائم الطبيعة وأنه أسهل ما يتكيف مع جميع الطُرُزِ الأخرى ، ويَظْهَرُ لِي أن من غير الصواب ذهابَ بعضهم إلى وجوب تعويد الأولاد أطعمةً يتناولونها إذا ما كَبُرُوا ، ولمَ يكون غذاؤهم هو إياه على حين يختلف طراز عيشهم كثيراً ؟ يحتاج الرجلُ الذي نهكه العملُ والهمومُ والمشاقُّ إلى أطعمةٍ عُصَّارِيَةٍ تَحْمِلُ نشاطاً جديداً إلى دماغه ، ويحتاج الولد الذي يَلْهُو وَيَنُمُو جسمه إلى طعام وافر يورثه كثيراً من الكِيلُوس ، ثم إن الرجل الناحي يكون قد قَرَّرَ مهنته وشُغله ومنزله ، ومن ذا الذي يستطيع أن يطمئن إلى ما يَحْبَبُهُ القدر للولد ؟ ومهما يكن من أمرٍ فلا نُعْطِه من الطَّبَّاعِ المعينة ما يكلفه كثيراً إذا ما أراد تغييره عند الضرورة ، ولا نَعْمَلْ ما يموت معه جوعاً في البلدان الأخرى إذا لم يَجُزَّ وراءه طاهياً فرنسياً في كلِّ مكان ، أو أن يقول ، ذاتَ يومٍ ، إن الإنسان لا يستطيع أن يأكل في غير فرنسا ، وهذا مَدْحٌ مبْهَجٌ جاء عَرَضاً ، وأما أنا فأقول ، على العكس ، إنه لا يوجد غيرُ الفرنسيين من لا يعرفون الأكلَ ما وَجَبَ وجودُ فنٍّ خاصٍّ تَجَمَّلُ الأطعمةُ به سالحةً للأكلِ عندم .

والذائقةُ ، بين مختلف حواسنا ، هي أكثرُ ما يؤثرُ فينا على العموم ، وذلك أن مما نكثرُ له أكثرَ من سواه هو أن نَحْكَمَ جيداً في الموادِّ

التي يجب أن تكون جزءاً من جوهرنا أكثر من أن تكونه المواد التي لا تعدُّو حَدًّا اكتنافنا ، ويوجدُ ألف شيء لا تكثرت له اللامسةُ والسامعةُ والباصرةُ ، ولكنك لا تجد شيئاً لا تأبه له الذائقة .

ثم إن فعل هذه الحاسة بدنيٌّ ماديٌّ تماماً ، وهي الوحيدةُ التي لا تخاطب الخيالَ بشيء ، أو التي هي أقلُّ ما يَدْخُلُ الخيالُ في إحساساته ، وذلك على حين يَدْمَعُ التقليدُ والخيالُ أثرَ الحواسِّ الأخرى بطابعٍ أدبيٍّ غالباً ، وكذلك تؤثرُ حاسةُ الذوق تأثيراً فائزاً في الأفتدة الرقيقة الشَّهَاءة والطبايعِ الهاوية الحساسة حقاً ، مع أن الحواسِّ الأخرى تُحرِّكُها بسهولةٍ على العموم ، ومع أنه يَلُوح وَضْعُ الذائقة دون الحواسِّ الأخرى ، وَيُجْعَلُ التَّيْلُ الذي يُسَلِّمُنَا إليها أدعى إلى الازدراء ، فَإِنِّي ، على العكس ، أُصِلُّ إلى النتيجة القائلة إن أصلح وسيلة للسيطرة على الأولاد هو أن يُجَلِّبُوا بأفواههم ، وَيُفَضِّلُ عاملُ الشرِّه على عامل الزهو خاصةً ، وذلك من حيث كونُ الأولِ شهوةَ الطعام الطبيعيةَ التابعة للذائقة رأساً ، ومن حيث كونُ الثاني من عمل الرأي التابع لهوى الناس ولضروب سوء الاستعمال ، والشرِّه هو هَوَى الصِّبَا ، ولا يَقيِفُ أمام هَوَى آخر ، ويتوارى عند أقلِّ منافسة ، وَيْ ! صَدَّقُوا قولي إن الولد لا يُعْتَمُّ أن ينقطع عن التفكير فيما يأكل ، ومتى شُغِلَ قلبه كثيراً عادت ذائقته لا تَشْغَلُهُ مطلقاً ، ومتى كَبُرَ وَجَدَ ألفَ إحساسٍ صائِلٍ يَحُلُّ محلَّ شرِّهه ، فلا يؤدي إلى غير إثارة زهوه ، وذلك لأن هذا الهَوَى الأخير وحده يزود من الآخرِ حتى يَبْتَلِعَهَا جميعاً ، ومما بحثُ فيه أحياناً أمرُ هؤلاء الذين يُعْمَنُونَ بالأطعمه النفيسة ، فلا يَحْلُمُونَ ، عند ما يستيقظون ،

بغير ما يأكلون في نهارهم ، ومنهم من وصفَ وليمةً بأدقِّ مما صنَّعَ بُولِيبُ
عن إحدى المعارك ، وقد وجدتُ أن جميعَ هؤلاء الرجال المزعومين لم يكونوا
غيرَ أولادٍ في الأربعين من عُمرهم خالين من النشاط عاطلين من الثبات ،
« فلسنا سوى رجالٍ مساكين » ، والشَّرُّهُ هو عيبُ القلوب الضعيفة ،
وتكون روحُ الشَّرِّهِ في ذائقته ، وهو لم يُخلَقْ إلا لياكل ، وهو من الغباوة
والمعجز ما تكون المائدةُ معه مكانه الوحيد وما تكون الأطباقُ معه محلَّ
تفكيره الوحيد ، وَلَنَدَعُ له هذا العملَ غيرَ أسفين ، فهذا خيرٌ له ولنا .

ومن ضيقِ الذهن أن يُخَشَى تأصلُ الشَّرِّهِ في وليدٍ قادرٍ على القيام
بشيء ما ، ففي الولودية لا يُفَكَّرُ في غير ما يؤكل ، وفي دَوْرِ الشباب
يَعُودُ الولدُ غيرَ مفكِّرٍ في ذلك ، وكلُّ طعامٍ صالحٍ عندنا ، ولدينا أمورٌ
كثيرةٌ أخرى تُغْنِي بها ، ولا أريد ، مع ذلك ، استعمالَ دافعٍ وضيعٍ على
غيرِ رصانة ، ولا أن تَدْعُوا بقطعةٍ لذينة شرفَ صنْعِ عملٍ جميل ، ولكن
إذا كانت الولودية لعباً ولها فقط ، أو وجب أن تكون هكذا ، فإنني
لا أرى السببَ في عدم وجود جوائزٍ ماديةٍ ومحسوسةٍ للتمرينات البدنية
الصَّرفَةِ ، وإذا ما أَبْصَرَ ما يُوْرِقُ صغيرٌ سَلَّةً على رأس شجرةٍ فأسقطها بضربة
مِقْلَاعٍ أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من ذلك فيتناول فُطُوراً فاحراً
تعويضاً له من القوة التي يكون قد استعملها نَيْلاً لها^(١) ؟ وإذا ما استطاع
شابٌ إسبارطىٌّ أن يتسرب في مطبخٍ بمهارةٍ متمثلاً خطرَ مثقٍ جلدةٍ ،

(١) ترك المايورقيون هذه العادة منذ قرون كثيرة ، وقد كانت سبب شهرة رانش المقلع

بينهم في حينها .

فَسَرَقَ مِنْهُ جَرَوْ ثَعْلَبٍ حَيًّا وَمَضَى بِهِ فِي ثَوْبِهِ مُحْتَمِلًا خَذَشَهُ وَعَصَّهُ
وإِدْمَاءَهُ ، تَارِكًا إِيَّاهُ يُمَرِّقُ أَحْشَاءَهُ خَشْيَةً حَيَاتِهِ مِنْ مَفْاجَأَةٍ ، وَذَلِكَ مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَزُورِيَ مَا بَيْنَ حَاجِبِيهِ أَوْ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتًا ، أَفَلَا يَكُونُ مِنَ الْإِنْصَافِ
أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ فَرِيستِهِ أَخِيرًا فَيَأْكُلَهَا بَعْدَ أَنْ أُكِلَ ؟ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ
الْوَجِبَةُ الْفَاحِشَةُ مَكْفَاةً ، وَلَكِنْ لِمَ لَا تَكُونُ نَتِيجَةُ جُودٍ بُذِلَتْ فَوْزًا
بِهَا ؟ لَا يَمُدُّ إِمِيلُ قِطْعَةً الْحَلَاوِي الَّتِي وَضَعْتُهَا عَلَى الْحَجَرِ جَائِزَةً عَذْوِهِ جِيدًا ،
وإنَّمَا يَعْرِفُ أَنْ الْوَسِيلَةَ الْوَحِيدَةَ لِحِيَازَةِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ هُوَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا
قَبْلَ غَيْرِهِ .

وَلَا يَنَاقِضُ هَذَا الْمَبَادِئُ الَّتِي قَدَّمْتُهَا مِنْذُ هُنَيْدَةٍ حَوْلَ بَسَاطَةِ الْأَطْعَمَةِ ،
وَذَلِكَ لِأَنَّ مَدَارَةَ شَهْوَةِ الطَّعَامِ فِي الْأَوْلَادِ لَا تَعْنِي تَهْيِيجَ حَسَّاسِيَّتِهِمْ ،
بَلْ تَعْنِي قَضَاءَهَا فَقَطْ ، وَهَذَا مَا يُنَالُ بِأَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ شِوْعًا بَيْنَ النَّاسِ
إِذَا لَمْ يُعْمَلْ فِي تَرْفِيقِ ذَوْقِهِمْ ، وَنَعْدُ شَهْوَةَ طَعَامِهِمُ الدَّائِمَةَ الَّتِي تُهَيِّجُهَا
ضَرُورَةُ النَّمُوِّ تَتَبِيلًا ثَابِتًا يَقُومُ فِيهِمْ مَقَامَ غَيْرِهِ مِنْ تَتَبِيلٍ كَثِيرٍ ، وَمَا يَكُونُ
مِنْ فَوَاكِهَ وَأَلْبَانٍ وَقِطْعٍ مِنَ الْحَلَاوِي أَدَقَّ مِنَ الْخُبْزِ الْإِعْتِيَادِي قَلِيلًا ،
وَلَا سِيَّاهُ تَوْزِيعَ جَمِيعِ هَذَا بِاعْتِدَالٍ ، أُمُورٌ تَسَاقُ بِهَا جِيُوشٌ مِنْ
الْأَوْلَادِ إِلَى أَقْصَى الْعَالَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُمْتَنَحُوا ذَوْقًا لِلْأَطْعَمَةِ الْقَوِيَّةِ ، وَمِنْ
غَيْرِ أَنْ يَجَازَفَ بِإِضَاعِافِ ذَائِقَتِهِمْ .

وَمِنْ الْأَدَلَةِ عَلَى كَوْنِ ذَوْقِ اللَّحْمِ غَيْرَ طَبِيعِيِّ لِلْإِنْسَانِ عَدَمُ اكْتِرَافِ
الْأَوْلَادِ لِهَذَا الطَّعَامِ وَإِجْمَاعُهُمْ عَلَى تَفْضِيلِ الْأَغْذِيَةِ النَّبَاتِيَّةِ كَالْأَلْبَانِ وَالْحَلَاوِي
وَالْفَوَاكِهِ ، إلخ . ، وَكُلُّ الْأَهْمِيَّةِ فِي عَدَمِ إِفْسَادِ هَذَا الذَّوْقِ الْفَطْرِيِّ ، وَفِي

عدم جعل الأولاد من الضواري مطلقاً ، وإذا لم يَكُنْ هذا من أجل صحتهم فليكن من أجل طباغهم ، وذلك لأنه مهما يكن من وجه لتفسير الاختبار فإن من الثابت كون كبار أكلة اللحوم أقسى من غيرهم وأجنى على العموم ، وهذه المشاهدة صادقة في كل زمان ومكان ، فبربرية الإنكليز أمرٌ معروف^(١) ، وعلى العكس يُعدُّ الغورُ أكثر الناس حِلماً^(٢) ، وجميعُ الهَمَجِ قساةٌ ، ولا تخمِلُهُم طباغهم على أن يكونوا هكذا مطلقاً ، وتأثيرهم قسوتهم من أطعمتهم ، وهم يذهبون إلى الحرب كما يذهبون إلى الصيد ، ويعاملون الناس كالذئبة ، حتى إن الجزَّارين لا تُقبلُ شهادتهم في إنكلترة ، وكذلك الجزَّاحون^(٣) ، وتقسو قلوبُ أعظم الأشرار بشرب الدم اقتراحاً للقتل ، ويجعلُ أوميرسُ من السُّكُوبِ ، الذين هم أكلةُ اللحم ، أناساً فُطَمَاءَ ، ويجعلُ من اللوثوفاج* قومًا لُطَمَاءَ بَلغُوا من الأُنس ما ينسى الإنسان ، إذا ما عاملهم ، بلده معه ليعيش بينهم .

قال بلوتارك : « تسألني عن سبب امتناع فيثاغورس عن أكل لحم الحيوان ، ولكنني أعودُ فأسألك ، من ناحيتي ، عن مقدار الشجاعة التي

(١) أعرف أن الإنكليز يباهون كثيراً بإنسانيتهم وحسن مزاج قومهم الذين يدعونهم « الأمة

ذات الطبيعة الطيبة » ، ومن العبث أن يملأوا هذا جهدهم ، فلا أحد غيرهم يكرر زعمهم .

(٢) يمد البانيان الذين يمتنعون عن تناول كل نوع من اللحم بأشد ما عليه الغور حلاماً مثل

هؤلاء تقريباً ، ولكن بما أن أخلاقهم أقل صفاء وديانتهم أقل صواباً فإنهم ليسوا مثاهم صلاحاً .

(٣) أشار أحد مترجمي هذا الكتاب من الإنكليز إلى غلطي هنا ، وكلاهما صححه ، فشهادة

الجزازين والجراحين مقبولة ، غير أن الجزازين لا يقبلون كحلفين أو أعضاء في القضايا الجنائية مع

أنه يسمح للجراحين أن يكونوا هكذا .

• هم أكلة النبق .

وَجَبَ وجودُها عند أول إنسانٍ قَرَّبَ من فمه لحمَ حيوانٍ مذبوحٍ وكَسَرَ عظمَ حيوانٍ يَقْضِي أَجَلَهُ ، وأَخْضَرَ أمامه أجسامَ أموات ، أى جُثثًا ، والنَّهَمَ فى مَعِدته أعضاء كانت قُبِيلَ ذلك تَنْفُو وتَخُور وتَسِير وتَنْظُر ، وكيف استطاعت يده أن تَطْمَن بِسِكِّينٍ قَلْبَ موجودٍ حَسَّاس ؟ وكيف استطاعت عيناه أن تحتل منظرَ القتل ؟ وكيف استطاع أن يشاهد ذَبْحَ حيوانٍ مسكينٍ أُعْزِلَ وَسَلَخَهُ وتَقْطِيعَهُ ؟ وكيف استطاع أن يُطِيقَ مَرَأى لحومٍ مُخْتَلِجَةٍ ؟ وكيف لم يَقْبِ من رائحتها ؟ وكيف لم يَتَقَرَّزْ ولم يَشْمُزْ ولم يَأْنَفْ عند ما أخذ يُقَلِّبُ أدرانَ هذه الجُرُوحِ وَيُزِيلُ الدَّمَ الأسودَ الخائر الذى كان يُفْطِّها ؟

« كانت الجلود المسلوخة ممدودةً على الأرض ، وكانت اللحوم تَعِجُ على السَّفُودِ* ، ولم يستطع الرجلُ أن يأكلها من غير أن يرتعش ، وَيَسْمَعَ أنينها فى بطنه .

« ذلك ما وجب أن يكون قد تَخَيَّلَهُ وأَحَسَّهُ فى المرة الأولى التى قَهَرَ فيها الطبيعة إعداداً لهذه الوجبة الفظيعة ، فى المرة الأولى التى كان له فيها جُوعُ حيوانٍ حَتَّى فأراد أن يَفْتَدِيَ بِحيوانٍ لا يزال يَزْعَى فقال كيف يجب أن تُذَخَّ الشاةُ التى كانت تَلْحَسُ يديه ، فمن أولئك الذين بدَّءوا هذه الولاثم الجافية ما يجب أن يَدْهَشَ ، لا من الذين يتركونها ، ثم إنه كان يُمكن أولئك الأوائل أن يُسَوِّغُوا وحشيتهم بمعاذير تُعَوِّزُ وحشيتنا ، فيجعلنا عدمُ وجودها برابرةً أكثرَ منهم مثةً مرة .

* السفود : حديدة يشوى عليها اللحم .

« أَيْ أَحِبَّاءَ الْآلِهَةِ مِنَ النَّاسِ ! سَيَقُولُ لَنَا أُولَئِكَ الْأَوَائِلُ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ :
قَابِلُوا بَيْنَ الْأَزْمَنَةِ ، وَانظُرُوا مَقْدَارَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ سَمَادَةٍ وَمَقْدَارَ مَا كُنَّا
عَلَيْهِ مِنْ بُؤْسٍ ! لَقَدْ كَانَتِ الْأَرْضُ الَّتِي تَكُونَتْ حَدِيثًا وَالْهَوَاءُ الْمَشْحُونُ
بِالْأَبْجَرَةِ غَيْرَ طَائِعِينَ لِنِظَامِ الْفُصُولِ بَعْدُ ، وَكَانَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ التَّقَلُّبُ يُخَرِّبُ
ضِيْفَانَهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، فَتَفْغُرُ الْعُدْرَانُ وَالْبَحِيرَاتُ وَالْمَنَاقِعُ الْعَمِيقَةُ ثَلَاثَةَ
أَرْبَاعِ وَجْهِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ الرَّبْعُ الْآخَرُ مُسْتَوْرًا بِالْأَدْغَالِ وَالْغَابَاتِ غَيْرِ الْمَثْمَرَةِ ،
وَكَانَتِ الْأَرْضُ لَا تُنْتِجُ أَيْةَ ثَمَرَاتٍ صَالِحَةٍ ، وَلَمْ تَكُنْ لِدُنْيَا أَيْةَ آلَةٍ لِلْحِرَاثَةِ ،
وَكُنَّا نَجْهَلُ قَنَ الْإِتِّفَاعِ بِهَا ، وَمَا كَانَ وَقْتُ الْحَصَادِ لِتَأْتِي مَنْ لَمْ يَبْذُرُوا
شَيْئًا قَطُّ ، وَهَكَذَا كَانَ الْجُوعُ لَا يَتْرَكُنَا مُطْلَقًا ، وَكَانَ الطُّحْلُبُ وَالْقِشْرِ
طَعَامَنَا الْعَادِيَّ فِي الشِّتَاءِ وَكَانَ بَعْضُ جُذُورِ الْعِكْرِشِ وَالْخَلْنَجِ طَعَامَ مَادَبِّ
عُنْدَانَا ، وَكَانَ النَّاسُ ، إِذَا مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَجِدُوا زُؤَانًا وَجَوْزًا أَوْ بَلُوطًا ،
يَرْقُصُونَ طَرَبًا حَوْلَ سِنْدِيَانَةٍ أَوْ زَانَةٍ عَلَى صَوْتِ بَعْضِ الْأَغَانِي الْغَلِيظَةِ ،
دَاعِينَ الْأَرْضَ مُرْضِعَهُمْ وَأُمَّهُمْ ، وَهَنَالِكَ كَانَ مِهْرَجَانُهُمُ الْوَحِيدُ ، وَتِلْكَ
كَانَتِ أَلْعَابُهُمُ الْوَحِيدَةُ ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ غَيْرَ الْمُرْ
وَتَعَبٍ وَشَقَاءٍ .

« وَأَخِيرًا ، عِنْدَ عَدَمِ تَقْدِيمِ الْأَرْضِ الْجُرْدَاءِ الْعَارِيَةِ شَيْئًا إِلَيْنَا ، كُنَّا
نُضْطَرُّ إِلَى مَخَالَفَةِ الطَّبِيعَةِ فِي سَبِيلِ بَقَائِنَا ، فَنَأْكُلُ رَفَقَاءَ شِقَاتِنَا خَشِيَّةَ الْهَلَاكِ
مَعَهُمْ ، وَلَكِنْ مِنْ ذَا الَّذِي يُكْرِهُكُمْ عَلَى سَفْكِ السَّمَاءِ أَيُّهَا الرِّجَالُ الْقُسَاةُ ؟
انْظُرُوا إِلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي تَذْفُقُ حَوْلَكُمْ ، وَإِلَى مَقْدَارِ مَا تُنْتِجُ الْأَرْضُ مِنْ
ثَمَرَاتٍ ، وَإِلَى مَا تُعْطِيكُمْ الْحَقُولُ وَالْكُرُومُ إِيَّاهُ مِنْ ثَرَوَاتٍ ، وَإِلَى

الحيوانات التى تُقدِّمُ إليكم ألباناً لتغذيتكم وجزراً لإلباسكم ! وما تَطْلُبُونَ منها زيادةً على ذلك ؟ وأى سَوْرَةٍ غَضَبٍ تَحْمِلُكُمْ على اِقْتِرَافِ كثيرٍ من التفتيل مع أنكم مُشْبِعُونَ بالأموال طافحون بالأرزاق ؟ ولِمَ تَكْذِبُونَ على أُمَّكُمْ الأَرْضِ مُتَمِّمين إياها بالعجز عن إطعامكم ؟ ولِمَ تُذَنِّبون تجاه سِيرِسَ الواضعة للقوانين المقدسة وتجاه باخوسَ الظريف المُفَرِّجَ عن الناس ، وذلك كما لو كانت هباتهما الوافرة غيرَ كافية لبقاء الجنس البشرى ؟ وكيف يَسْمَحُ لكم فلبكم بأن تَخْلُطُوا ثَمَارَهَا الحُلْوَةَ بعظامٍ على موائدكم ، وأن تَشْرَبُوا مع اللبن دَمَ الحيوان الذى يعطيكم إياه ؟ أَجَلْ ، إن الثُّمُورَ والأسود ، التى تُطْلِقُونَ عليها اسمَ الضَّوَارَى ، تَتَّبِعُ غَرِيزَتَهَا كَرَهَا ، فَتَقْتُلُ الحيواناتِ الأخرى لتعيش ، ولكنكم ، وأنتم أوحشُ منها مئةَ مرةٍ ، تكافحون الغريزةَ بلا ضرورةٍ انهماكاً فى ملاذِّكم الجافية ، وليست الحيواناتُ التى تأكلون من النوع الذى يأكلُ الأخرى ، وأنتم لا تأكلون الضواري ، بل تقلدونها ، وأنتم لا تَبْدُونَ جِيعاً إلا تجاه الحيوانات البريئة الوديدة التى لا تؤذى أحداً والتى ترتبط فيكم وتنفمكم فتفترسونها مكافأةً لها على خِدْمَتِهَا .

« أيها القاتل خلافاً للطبيعة ! إذا ما أَصْرَرْتَ على زعمك أن الطبيعة صَنَعَتْكَ لتفترس أمثالك من الموجودات ذاتِ اللحم والعظم ، والحَسَّاسَةِ الحيةِ مثلك ، فاقْضِ ، إِذَنْ ، على ما تُوحى به إليك من مقتِ لتلك الأطعمة الكريهة ، واقتُل الحيواناتِ بنفسك ، أى بيديك كما أقول ، أى بلا آلاتٍ حديدية ولا سَوَاطِيرَ ، ومَزَقْهَا بأظفارك كما تَصْنَعُ الأسود

والدَّيْبَةُ ، وَعَصَّ هَذِهِ الْبَقْرَةَ وَقَطَّعَهَا إِرْبًا إِرْبًا ، وَأَنْشَبَ أَظْفَارَكَ فِي جِلْدِهَا ، وَكُلَّ هَذَا الْحَمْلَ حَيًّا وَالتَّهْمَ لَحْمَهُ دَفِئًا ، وَاشْرَبَ رُوحَهُ مَعَ دَمِهِ ، أَنْتَ تَرْتَعَشُ ! أَنْتَ لَا تَجْرُؤُ أَنْ تُحْسَّ لِحَا حَيًّا يَرْتَجِفُ بَيْنَ أَسْنَانِكَ ! أَيُّهَا الْإِنْسَانُ السَّيِّئُ ! أَنْتَ تَبْدَأُ بِقَتْلِ الْحَيَوَانِ ، ثُمَّ تَأْكُلُهُ ، كَأَنَّكَ تَجْعَلُهُ يَمُوتُ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا يَكْفِي هَذَا ، إِنَّكَ لَا تَزَالُ تَشْمِزُ مِنَ اللَّحْمِ الْمَيِّتِ ، وَلَا تُطِيقُهُ أَمْعَاؤُكَ ، فَيَجِبُ أَنْ يُحَوَّلَ بِالنَّارِ ، أَيْ أَنْ يُسَلَقَ وَيُسْوَى وَيُعَلَّلَ بِالتَّوَابِلِ الَّتِي يُنْكَرُ بِهَا ، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْ جَزَائِرِينَ وَطُهَاةٍ وَشَوَّائِينَ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِمَّنْ يَنْزِعُونَ مِنْكَ مَقْتَ الْقَتْلِ وَيُعَوِّدُونَكَ أَجْسَامًا مَيِّتَةً حَتَّى تُخَدَّعَ حَاسَةُ الذَّوْقِ بِهَذَا التَّنْكِيرِ فَلَا تَلْفِظُ مَا هُوَ غَرِيبٌ عَنْهَا مُطْلَقًا ، مُتَذَوِّقَةً مَعَ اللَّذَّةِ جُدًّا يَشْقُ عَلَى الْعَيْنِ حَتَّى مَنْظَرُهَا .

وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الْقِطْعَةَ غَرِيبَةٌ عَنْ مَوْضِعِي فَإِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ مَقَاوِمَهُ مَا سَاوَرَنِي مِنْ إِغْرَاءٍ بِنَقْلِهَا ، وَأُظَنُّ أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْقُرَاءِ مِنْ يُنْكَرُ عَلَى هَذَا .

ثُمَّ مِمَّا يَكُنُّ مِنْ نِظَامٍ تَمْنَحُونَ الْأَوْلَادَ إِيَّاهُ ، وَلَكِنْ مَعَ تَعْوِيدِهِمُ الْأَطْعِمَةَ الشَّائِعَةَ الْبَسِيطَةَ فَقَطْ ، فَدَعُوهُمْ يَأْكُلُونَهَا ، وَدَعُوهُمْ يَمْدُونُ وَيَلْعَبُونَ كَمَا يَرُوقُهُمْ ، ثُمَّ ثَقُّوا بِأَنَّهُمْ لَنْ يَأْكُلُوا كَثِيرًا ، وَلَنْ تَكُونَ عِنْدَهُمْ تَحَمُّمٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ إِذَا مَا أَجْعَمْتَهُمْ نِصْفَ الْوَقْتِ فَوَجِدُوا وَسِيلَةً يُفْلِتُونَ بِهَا مِنْ رِقَابَتِكُمْ عَوَّضُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوَّةٍ ، فَيَأْكُلُونَ حَتَّى الطَّفَاحِ ، حَتَّى الْإِنْفِزَارِ ، وَلَا تَجَاوِزُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ حَدَّهَا فِينَا إِلَّا لِأَنَّا نَرِيدُ مِنْحَهَا قَوَاعِدَ غَيْرَ قَوَاعِدِ الطَّبِيعَةِ ، وَذَلِكَ مَعَ دَوَامِنَا عَلَى التَّرْتِيبِ .

والتعيين والزيادة والنقصان ، فلا نَصْنَعُ شيئاً إلاّ والميزانُ في يدنا ، ولكن هذا الميزان تابعٌ لأهوائنا لا لِمَعِدَتِنَا ، وأَعُوذُ إلى أمثلي دائماً ، وترى خزائن الفواكه والخبز مفتوحةً عند القَرَوِيِّين ، ولا يَعْرِفُ رجالهم ، ولا أولادهم ، ما التَّخَمُّ .

وإذا حَدَّثَ أن كان الولدُ أَكُولاً على الخصوص ، وهذا ما يتمذر وقوعه عند اتباع منهاجى على ما أعتقد ، فإنه يَسْهَلُ شَغْلُهُ بِالْهُوَاتِ مَلَأَمَةٍ لذوقه ، فَيُنْتَهَى إلى نَهْكِه بِخَوَاءٍ من غير أن يَشْعُرَ ، وكيف يَفُوتُ جميعَ المعلمين مثل هذه الوسائل الثابتة السهلة جداً ؟ وروى هيرودتس أن مجاعةً كبيرةً ضربت أطنابها بين اللوديين فَعَنَّا لهم أن يَحْتَرِعُوا من الألعاب وغيرِها من التسلّيات ما عَوَّضُوا أنفسهم به من الجوع ، فَقَضَوْا أياماً بكاملها من غير أن يُفَكِّرُوا فى الأكل^(١) ، ومن المحتمل أن قرأ معلومكم الفضلاء هذا الفصل من غير أن يَرَوْا ما يُمكن تطبيقه منه على الأولاد ، وقد يقول لى بعضهم إن الولد لا يَتْرُكُ غَداءه طَوْعاً فى سبيل دَرَسه ، فيا أيها المعلمون ، إنكم على صواب ، فلم أَفَكِرْ فى هذه الألهوة .

ونسبة الشائمة إلى الذائقة كنسبة الباصرة إلى اللامسة ، فهى تَسْبِقُها ، وهى تُخْبِرُها بالوجه الذى يجب أن تتأثر به من هذه المادة أو تلك ، وهى

(١) تجد قدماء المؤرخين حافلين بآراء يمكن الانتفاع بها ، ولو كان ما يعرضونه من الوقائع غير صحيح ، ولكننا لا نعرف اقتباس أى فائدة حقيقية من التاريخ ، فالتقد الدقيق يستغرق كل شيء ، كان من المهم جداً أن تكون الوقائع صحيحة حتى يكون من الممكن استخراج درس نافع منها ، فعمل العقلاء أن يعدوا التاريخ نسيجاً من الأفاصيل التى نرى الناحية الخلقية منها كثيرة الملامة للقلب الإنسانى .

تُرْعِبُهَا فِيهَا أَوْ تَبْعِدُهَا مِنْهَا ، وَذَلِكَ وَفْقَ الانْطِبَاعِ الَّذِي يُتَلَقَّى عَنْهَا مَقْدَمًا ،
وَمَا قِيلَ لِي إِنْ لِلْهَمَجِ شَامَّةٌ تَتَأَثَّرُ عَلَى غَيْرِ مَا تَتَأَثَّرُ بِهِ شَامَّتُنَا ، فَيَحْكُمُونَ
عَلَى خِلَافِ مَا نَحْكُمُ فِي الرَوَائِحِ الطَّيِّبَةِ وَالرَوَائِحِ الْكَرِيهِةِ ، وَأَعْتَقَدُ صَحَّةَ هَذَا ،
وَذَلِكَ أَنَّ الرَوَائِحَ فِي نَفْسِهَا أَحَاسِيسٌ ضَعِيفَةٌ ، وَهِيَ تَهْزُ الْخِيَالَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ
تَهْزُ الْحَاسَّةَ ، وَهِيَ لَا تَوْثِّرُ بِمَا تَمَنِّحُ بِمَقْدَارِ تَأْثِيرِهَا بِمَا تَجْعَلُهُ يُنْتَظَرُ ، وَإِذَا مَا
سَلَّمَ بِهَذَا وَجِدَ أَنَّ أَذْوَاقَ فَرِيقٍ إِذْ تَخْتَلِفُ بِطَرَازِ عَيْشِهِ عَنْ أَذْوَاقِ الْفَرِيقِ
الْآخَرِ فَإِنَّهُ وَجِبَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُ أَحْكَامًا فِي الْأَطْعِمَةِ تَخْتَلِفُ عَنْ أَحْكَامِ
هَذَا اخْتِلَافًا كَبِيرًا ، وَمِنْ مِمِّ فِي الرَوَائِحِ الَّتِي تُنْسَبُ بِهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ
التَّعْرِىَّ يَتَلَذَّذُ بِشَمِّ مُعْسَكِرٍ نَيْنٍ بِحِصَانٍ مَيْتٍ تَلَذَّذَ الصَّائِدُ عِنْدَنَا بِحَجَلَةٍ
نَصْفِ عَفْنَةٍ .

وَكَأَنَّ إِحْسَاسَاتِنَا الْبَطَّالَةَ مُطَيَّبَةً بِأَزْهَارِ حَدِيقَةٍ فَيَجِبُ أَلَّا يَشْعُرَ بِهَا
مَنْ يَمْتَشُونَ كَثِيرًا حَتَّى يَرْغَبُوا فِي النَّزْهَةِ ، وَمَنْ لَا يَمْكُونُ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ
حَتَّى تَكُونَ لَدَيْهِمْ شَهْوَةُ السَّكُونِ ، وَمَا كَانَ الْجِيَاعُ دَائِمًا لِيَجِدُوا لَذَّةَ
بَعْطُورٍ لَا تَنِيُّ عَلَى مَا يُؤْكَلُ مَطْلَقًا .

وَالشَّامَّةُ هِيَ حَاسَةُ الْخِيَالِ ، وَهِيَ ، إِذْ تَمْنَحُ الْأَعْصَابَ قُوَّةً بَالِغَةَ الشَّدَةِ ،
تَوْثِّرُ فِي الدِّمَاغِ كَثِيرًا لَا رَيْبَ ، وَلِذَا فَإِنَّهَا تُوقِظُ الْمَزَاجَ لَوْقَتِ وَتَهْكُهُ لَزِمَ
طَوِيلَ ، وَلِلشَّامَّةِ فِي الْحُبِّ نَتَائِجٌ لَا تُشْكِرُ ، وَلَيْسَ الْعِطْرُ النَّاعِمُ فِي
غُرْفَةِ الزَّيْنَةِ شَرَكًا ضَعِيفًا بِمَقْدَارِ مَا يُظَنُّ ، وَلَا أَعْرِفُ هَلْ يَجِبُ أَنْ يُبَارَكَ
أَوْ يُرْتَى لِلرَّجُلِ الْعَاقِلِ وَالْقَلِيلِ الْإِنْفِعَالِ الَّذِي لَا تَجْعَلُهُ رَائِحَةُ الزَّهْرِ عَلَى
صَدْرِ خَلِيلَتِهِ يَخْتَلِجُ مَطْلَقًا .

ولا ينبغي لحاسة الشم أن تكون ، إذن ، بالغة الفعل في الدور الأول من العمر حيث لا تُحرِّك الخيال غير أهواء قليلة بعد فلا يتقبَّل تهيجاً ، وحيث لا يكون هنالك من التجربة الكافية ما يُبَصِّرُ معه ، بحاسة مقدماً ، أمرٌ نَعِدُنَا به حاسة أخرى ، وقد أَيْدَتِ المِشَاهِدَةُ هذه النتيجة تأييداً تاماً ، ومن المُحَقَّقِ أن حاسة الشم كَلِيلَةٌ بليدة ، تقريباً ، عند مُعْظَمِ الأولاد ، لا عن كون الإحساس غير دقيق في الأولاد كما في الرجال ، أو أكثر مما عندهم على ما يحتمل ، بل عن كونهم لا يضيفون إليه أى فكر آخر فلا يسهل تأثرهم بحسٍّ لَذِيٍّ أو أَلْمٍ ، فيكونون أقلَّ منا افتتاناً أو تأذياً بذلك ، وإني ، مع عدم خروجي عن ذات الطريقة ، ومن غير رجوعٍ إلى علم التشريح المقارن بين الجنسين ، أعتقدُ سهولةَ معرفةِ السببِ في كون النساء أشدَّ تأثراً بالروائح من الرجال على العموم .

ويقال إن متوحشى كَنَدَةَ يُعْمِنُونَ في جعل شامتهم دقيقةً إلى الغاية منذ دَوْرِ الصَّبَا فيستغنون معه عن استخدام الكلاب في الصيد مع وجود كلابٍ عندهم ، قائمين مقام الكلاب في ذلك بأنفسهم ، وَيُخَيِّلُ إلى ، كما هو الواقعُ ، أن الأولاد إذا ما نُشِّئُوا على شَمِّ غَدائِهِمْ كما يَشُمُّ الكلبُ الطريدةَ أُمَكْنَ إحكامُ شامتهم بما يَبْلُغُونَ معه هذه الدرجة ، ولكنني لا أرى ، في الأساس ، إمكانَ الحُصُولِ على عادةٍ كثيرة الفائدة من هذه الحاسة ما لم يَكُنْ ذلك لإطلاعهم على صِلَاتِهَا بحاسة الذوق ، وقد عُنِيَتِ الطَبِيعَةُ بِمَحْمِلِنَا على معرفة هذه الصَّلَاتِ ، فجعلتْ عملَ هذه الحاسة الأخيرة غيرَ منفصلٍ عن عملِ الأخرى ، وذلك بِجَمْلِهَا عضويهما متجاورين ، وَوَضَعِيهَا في الفم

اتصالاً مباشراً بين الاثنين ، فلا نَذوقُ شيئاً من غير أن نَشَمَّهُ ، وإنما أريدُ عدمَ إفساد هذه الصلات الطبيعية خَدْعاً للولد ، كأن يُخْفَى طَعْمُ العلاج بطيبٍ طَيِّبٍ ، وبيانُ الأمر هو أن الحاستين من الاختلاف ما لا يُسَاهِ معه استعمالهما ، وبما أن الحاسةَ الأشدَّ فعلاً تبتلعَ عملَ الأخرى فإن العلاج لا يُتَنَاوَلُ بأقلِّ من ذاك تَقَرُّزاً ، ويمتدُّ هذا التَقَرُّزُ إلى جميع الإحساسات التي تَقَرُّعُ في الوقت نفسه ، ويستدعى الخيالُ عند أضعفِ إحساسٍ إحساساً آخر ، ويعودُ أعذبُ عِطْرِ رائحةٍ كريهةٍ عنده ، وهكذا فإن احتياطاتنا الطائشة تَزِيدُ مقدارَ الإحساسات المستكرهة على حساب الإحساسات المستعذبة .

وَبَقِيَ عَلَىَّ أن أنكلم في الأبواب الآتية عن تَعَهُّدِ حاسةٍ سادسةٍ تُدعى الحاسة العامة ، لأنها تنشأ عن استعمال الحواسِّ الأخرى استعمالاً منتظماً أكثر من كونها مشتركةً بين جميع الناس ، فتدُلُّنا على طبيعة الأشياء بتزاحم ظواهر تلك الحواسِّ ، ومن ثمَّ لا يوجد لهذه الحاسة السادسة عضوٌ خاصٌّ مطلقاً ، ولا تقيم هذه الحاسةُ بغير الدماغ ، وتُسَمَّى أحاسيسُها ، الباطنيةُ مَحْضاً ، إدراكاتٍ أو أفكاراً ، ويقاسُ مَدَى معارفنا بعدد هذه الأفكار ، وَيَصْدُرُ سَدَادُ الرأى عن صفائها وجلالها ، وما يُدعى العقلُ البشرى قائمٌ على فنِّ المقابلة بينها ، وهكذا فإن ما أُسميه العقلَ الحساسَ أو الصَّبَوِيَّ يقوم على تكوين أفكارٍ بسيطةٍ عن تزاحم كثير من الإحساسات ، وهكذا فإن ما أُسميه العقلَ الذهنيَّ أو البشرى يقوم على تكوين أفكارٍ مركبةٍ عن تزاحم كثير من الأفكار البسيطة .

وإني حين أفترض أن مِنهاجى هو مِنهاجُ الطبيعة ، وأنى لم أخطئ في

تطيقه ، فإننا نكون قد أتينا بتلميذنا ، من خلال بلد الإحساسات ، حتى حدود العقل الصَّبَوِيّ ، وتَكُونُ الخطوة الأولى التي نَجَازُ بها هذه الحدودَ خُطوةَ رجل ، ولكن دَعْنَا نُلْقِ نظرةً على الميدان الذي طَفْنَا فيه قبل الدخول في هذا الميدان الجديد ، ولكلِّ عُمُرٍ ، وإن شئت فقلْ لكلِّ دَوْرٍ في الحياة ، كآله الملائم ، نَضِجُهُ الخاصُّ به ، ونَسْمَعُ حديثاً عن الرجل النامي في الغالب ، ولكن لننظر إلى الولد النامي ، فسيكون هذا المنظرُ أَكْثَرَ جِدَّةً علينا ، ولا يكون أقلَّ قبولاً على ما يحتمل .

وَمُعَدَّةُ حياةِ المخلوقات المتناهية من الهزال والضيق ما لا تَهْزُنَا معه مطلقاً عندما لا نرى غيرَ ما هو كائن ، والأوهامُ هي التي تَزِينُ الأشياءَ الحقيقية ، وإذا كان الخيال لا يُضَيِّفُ قُتُوناً إلى ما يَقِفُ نظرنا فإن اللذة الجذبية التي تَتَفَقُّ لَنَا تقتصر على المَضْو ، وتَدَعُ القَوَادِ فَاثِراً ، أَجَلْ ، إن الأرض التي تَزِينُ بكنوز الخريف تَعْرِضُ نُرْوَةً تُعْجَبُ بها العين ، بَيِّدَ أن هذا الإعجابَ غيرُ مؤثِّرٍ مطلقاً ، وهو يَصْدُرُ عن التأمل أَكْثَرَ من صدوره عن الإحساس ، وفي الربيع لا يستر الأريافَ العارية شَيْءٌ بَعْدُ تقريباً ، ولا تُقَدِّمُ الغابُ من الظلِّ شيئاً ، ولا يَبْدُو من الخُضرة غيرُ النَّبْتِ ، ويتأثر القلبُ بمنظرها ، فنحن ، إذ نرى بعثَ الطبيعة هكذا ، نَشْعُرُ باتعاشنا ، ويحيط بنا خيالُ اللذة ، وتكون صواحبُ الشهوة هُولا ، وتكون الدموعُ القَذْبَةُ هذه ، على أطراف أجفانتنا ، ولكن منظر القِطَافِ ، مهما كان حياً نشيطاً لطيفاً ، لا يُسِيلُ عَبرَةً .

ولِمَ هذا الاختلاف ؟ وذلك لأن الخيال يُضَيِّفُ إلى منظر الربيع منظرَ

الفصول التي تَعْقِبُهُ ، وَيَضُمُّ إلى هذه البراعم التي تراها العينُ أزهاراً وثمراتٍ وظلالاً ، وأسراراً يُمكن أن تستتر تحتها ، ويَجْمَعُ في نقطةٍ واحدةٍ أزماناً تتعاقب ، ويُبَصِّرُ الأشياءَ كما تكون أكثر مما يريد ، ولأنها يتوقف عليه اختيارُها ، وعلى العكس لا يُبَصِّرُ في الخريف غير ما يكون ، وإذا ما أُريدَ بلوغُ الربيعِ وَقَفْنَا الشتاء ، وَيَزُولُ الخيالُ المُجَمَّدُ على النتائج والجليد .

وهذا هو مصدر الفتون الذي يَكُونُ عند تأمل صِبا جميل مُفَضَّلَ عَلَى كمالِ سِنِّ الرُّشد ، ومتى يَطِيبُ لنا أن نَرَى رجلاً ؟ ذلك عند ما تَحْمِلُنَا ذكري أفعاله على العَوْدِ إلى حياته وتجديد شبابه في أعيننا من حيث النتيجة ، وإذا ما أُلْزِمْنَا باعتباره كما هو ، أو بافتراض ما سيكون في مَشْيِيهِ ، فإن فكرة الطبيعة المائلة إلى الزوال تَقْضِي على جميع سرورنا ، فلا شيء يَسُرُّ في رؤية رجل يسير بخطأ كبيرة نحو قبره ، وتَجْعَلُ صورة الموت كلَّ شيء قبيحاً .

ولكنني إذا ما تَمَثَّلْتُ ولداً يترجَّحُ عُمرُهُ بين العاشرة والثانية عشرة ، سليماً قوياً حسنَ التكوين بالنسبة إلى سِنِّهِ ، لم يُوحِ إليَّ بفكرة غير سارة نظراً إلى الحاضر أو المستقبل ، فأراه قَوَّاراً حاراً ذا حيوية ، أراه بلا همٍّ قاضم وبلا احترازٍ طويل شاقٍّ ، أراه مُتَفَرِّغاً لحاضره ، ممتعاً بعافية تامة يَبْدُو أنها تريد أن تَمْتَدَّ إلى خارج نطاقه ، وأَتَنَوَّرُهُ في عُمرٍ آخرٍ مُدْرَباً لحواسه وذهنه وقواه التي تَنَمُّو فيه يوماً بعد يوم فيُقيم في كلِّ ساعة دليلاً عليها ، وأَتَأَمَّلُهُ ولداً فيرُوقني ، وأَتَصَوِّرُهُ رجلاً فيرُوقني أكثر من ذاك ،

ويلوح أن دمه الحامى يُلهب دمي ، فأعتقد أنني أحيا حياته وأن نشاطه يُجدّد شبابي .

وتدق الساعة ، ويا له من تحوّل ! تُفبر عينه من فوره ، ويَزول سروره لحينه ، وداعاً أيها الفرح ، وداعاً يا ألعاب المرح ، ويُمسكه رجلٌ شديد غضوبٌ من يده ، ويقول له بوقار : « لنذهب أيها السيد » ، ويذهب به ، وأُبصرُ كتباً في الغرفة التي يَدْخلانها ، كتباً ! يا له من أثاثٍ كثيب نظراً إلى سنّه ! وينقاد الولد المسكين ، ويُلقِي نظرةً أسفٍ على كلّ ما يحيط به ، وبسكت ، وينصرف ، وتنفخ عيناه دموعاً لا يَجْرؤُ على سكّنها ، ويَضْخُم قلبه زفّراتٍ لا يَجْرؤُ على إظهارها .

وأنت الذي ليس لديه مثلُ ذلك ما يُخشَى ، وأنت الذي ليس لديه دورٌ من الحياة يُعدُّ وقتَ ضيقٍ وسأم ، وأنت الذي يستقبل النهار بلا جَزَعٍ والليل بلا هَلَعٍ ، وأنت الذي لا يُعدُّ الساعات إلاّ بمسرّاته ، تعال يا تلميذ السعيد الحبيب ، لنَتَعَزَّى بحضورك عن ذهاب ذلك التمسّ ، تعال ، هو يصلُّ ، وأشعرُ عند دُنُوّه بهزّة فرحٍ يشاطرنى إياها ، هذا هو صديقه وصاحبه ، هذا هو رفيقُ ألعابه الذي يجتمع إليه ، ومما لا مرّاء فيه أنه حين يراني لا يبقِ زمناً طويلاً من غير أن يلهو ، وليس أحدنا تابِعاً للآخر مطلقاً ، ولكننا نتفق دائماً ، ولا نكون مع أحدٍ سعداء كما نكون عليه ممّا .

وبَيْنَ مُحَيَّاه وشكله وقوامه على الطمأنينة والرضا ، ويُطْفَحُ وجهه حمةً ، وتدلُّ خطاه الثابتة على القوة ، ولا يُوجدُ في سَخْنَتِهِ الرقيقة بلا تفهٍ شيءٌ

من التأثت ، فالريحُ والشمسُ طَبَعَتَاها بطابع الرجولة المُكْرَم ، وتأخذ عضلاته ، التي لا تزال مستديرةً ، في الإشارة إلى أسارير وجهه ناشئ ، ويظهرُ على عينيه ، اللتين لم تُلهِيهما نارُ هوى بعدُ ، صفاؤهما الأصليُّ على الأقل ، ما داما لم يُظْلِمَا بأحزانٍ طويلة ، وما دامت لم تُخَطِّطْ خديته دموعٌ لا حدَّ لها ، وأبْصِرُوا في حركاته السريعة ، ولكن مع المصاء ، رشاقةً سيَّه ، ومثانةً الاستقلال ، وتجربةَ التمارين الكثيرة ، أَجَلَ ، إن له وجهًا طليقًا وثابًا ، ولكن من غير صفاقةٍ ولا خيلاء ، ولا يَقَعُ وجهه ، الذي لم يَلْصُقْ بالكتب ، على مَعِدَتِهِ مطلقًا ، ولا يحتاج إلى أن يقال له : « اِرْفَعْ رَأْسَكَ » ، ولم يَحْمِلْه الخجلُ ولا الوجَلُ على خَفْضِ رأسه قَطُّ . ولنَجْعَلَ له مكانًا في وسط المجلس ، وافْحَصُوهُ أيها السادة ، واسألوه بكلِّ ارتياح ، ولا تَخْشَوْا لَجَاجَهُ ولا هَذَرَهُ ولا أسئلته الطائشة ، ولا تخافوا تَغْلِبَهُ عليكم ، ولا زعمه أن يَشْفَلَكُمْ بنفسه فلا تَقْدِرُوا على التخلص منه . وكذلك لا تنتظروا منه أحاديثَ حُلُوةٍ ، ولا أن يخاطبكم بشيء أُثْلِيهِ عليه ، ولا تنتظروا منه غيرَ الحقيقة الساذجة البسيطة الخالية من التزييق والتكلف والزَّهو ، وَسَيُحَدِّثُكُمْ عن سوء ما صَنَعَ أو عن سوء يَرَى أن يَصْنَع ، ولكن بصراحةٍ كالتي تُبْدَى عن خيرٍ يُصْنَع ، وذلك من غير أن يرتبك حَوْلَ ما يكون لقوله من أثرٍ فيكم ، فسيَتَخَذُ من البساطة في الكلام ما يُدْكَرُ بأول عهده .

وَنُحِبُّ أن نَتَوَسَّم الخَيْرَ في الأولاد ، ومما يُثِيرُ الأسفَ دائمًا تلك الغباوات التي تَصْدُرُ لِقَلْبٍ ، دائمًا تقريبًا ، آمالًا يُرْغَبُ في استنباطها من عبارة

موقفة تجرى على لسانهم مصادفةً ، وإذا حدث ، ولكن على نُذْرَةٍ ، أن ألقى تلميذى مثل هذه الآمال فإنه لا يَصْدُر عنه ما يوجب الأسف مطلقاً ، وذلك لأنه لا يَنْطِق بكلمة باطلة مطلقاً ، ولا يَضُنّى بثُرّة يَعْلَم أنها لا تُسْمَع مطلقاً ، وأفكاره محدودةٌ ، ولكنها واضحةٌ ، وهو إذا لم يَعْرِف شيئاً من الاستظهار فإنه يَعْرِف كثيراً عن تجربة ، وهو إذا كان أقلّ اقتداراً من ولد آخر على القراءة في كتبنا فإنه أحسن مطالعةً في كتاب الطبيعة ، وليس ذهنه في لسانه ، بل في رأسه ، وهو أقلّ ذا كَرَّة منه حكماً ، وهو لا يَعْرِف أن يتكلم غير لغة واحدة ، ولكنه يُدْرِك ما يقول ، وهو إذا لم يكن كالآخرين حَسَنَ قولٍ فإنه يَفُوقهم حَسَنَ فعلٍ .

وهو لا يَعْرِف ما النَّمْطِيَّةُ* ولا العُرْفُ ولا العادة ، وما صَنَعه أُمسٍ لا يُوَثَّرُ فيما يَصْنَعُ اليوم^(١) مطلقاً ، وهو لا يَتَّبِع صِيغَةً مطلقاً ، وهو لا يُذَعِّن لَمَرْجِعٍ ولا لِمِثَالٍ مطلقاً ، وهو لا يَعْمَل ولا يقول غير ما يلائمه ، وهكذا فلا تنتظروا منه كلاماً أُمْلِيَّ عليه ولا أوضاعاً دُرِسَتْ له ، وإنما انتظروا منه ، دائماً ، تعبيراً صادقاً عن أفكاره وسلوكاً ناشئاً عن مُبُولِهِ .

وتَجِدُون له عدداً قليلاً من المبادئ الخَلْقِيَّة الخاصة بحاله الحاضرة ، ولا

(١) تنشأ جاذبية المادة عن كسل الإنسان الطبيعي ، ويزيد هذا الكسل بتعاطيه ، فن السهل البالغ صنع المصنوع ، وذلك بما أن السبيل تكون مبهدة فإن سلوكها يكون سهلاً جداً ، وكذلك فإن من الممكن أن يلاحظ كون سلطان المادة عظيم إلى الغاية على الشيب والكسالى ، وكونه ضعيفاً إلى الغاية على الشبيبة وذوى النشاط ، وهذا النظام غير صالح لسرى أصحاب النفوس الضعيفة ، وهو يضمفها يوماً بعد يوم ، والمادة الوحيدة النافعة للأولاد هى الخضوع لضرورة الأمور بلا مشقة ، والمادة الوحيدة النافعة للرجال هى الخضوع للقل بلا مشقة ، وكل عادة غير هذه نقيصة .

تَجِدُونَ له مبدأً خاصاً بحال الناس ، وما فائدة هذه المبادئ للولد ما دام غيرَ عَضْوٍ عامل في المجتمع ؟ إذا ما كلمتموه عن الحرية والتملك ، وعن العهد أيضاً ، أمكنه أن يَعْرِفَ حتى هذا الحدّ ، وهو يَعْرِفُ السببَ في أن الذي له هو له ، والسببَ في أن الذي ليس له هو ليس له ، فإذا عدا هذا عاد لا يَعْرِفُ شيئاً ، وإذا ما كلمتموه عن الواجب والطاعة لم يَعْرِفْ ما تَقْصِدُونَ أن تقولوا ، وإذا ما أمرتموه أن يَصْنَعَ شيئاً لم يَصْنَعْ إليكم ، ولكنكم إذا قلتم له : « ائْتَمِلْ لى هذا المعروف أَرُدَّهُ إليك في الوقت المناسب » بَادَرَ من فوره إلى إرضائكم ، وذلك لأنه لا يَطْلُبُ ما هو أفضلُ من بَسْطِ سلطانه ، ومن حصوله منكم على حقوقٍ يَعْرِفُ أنها لا تُتَمَكَّ ، حتى إن من المحتمل ألا يأسف على مكانٍ يُخَرَزُ ، أو على حسابٍ يُقَدَّم ، أو على مبلغٍ يُطْلَبُ ، ولكنه إذا ما ساوره هذا الباعثُ الأخير خَرَجَ عن دائرة الطبيعة ، وأعوزكم إغلاقُ جميع أبواب الغرور مقدماً .

ويحتاج ، من ناحيته ، إلى مساعدة ، وهو يطلبها من أول من يصادف بلا تفريق ، هو يَطْلُبُها من الملك أو خادمه ، فجميعُ الناس متساوون في نظره ، وتَرَوْنَ من الالهجة التي يَطْلُبُ بها أنه يَشْعُرُ بعدم وجود أحدٍ مَدِينٍ له بشيء ، وهو يَعْرِفُ أنه يَطْلُبُ فضلاً ، وهو يَعْرِفُ ، أيضاً ، أن الإنسانية تأمرُ بأن يُجَابَ إلى ما يسأل ، وَيَكُونُ كلامه بسيطاً موجزاً ، وَيَنِمُّ صوته ونظراته وحركته على مخلوقٍ تعود القبولَ والرفضَ على السواء ، وليس هذا ما ينطوى عليه خضوعُ العبد من صغار وذلة ، ولا لهجةُ السيد المتجبر ، وإنما هو اعتمادُ متواضعٍ على نظيره ، وإنما هو حِلْمٌ كريمٌ مؤثّرٌ ناشئٌ عن موجودٍ

حُرٍّ ، ولكنه حَسَّاسٌ خافضٌ جناحٍ يَطْلُبُ العَوْنَ من موجودٍ حُرٍّ ، ولكنه قويٌّ محسنٌ ، وإذا منحتموه ما يَطْلُبُ لم يَشْكُرْ لكم ، وإنما يَشْعُرُ بأنه عَقَدَ دَيْنًا ، وإذا رَفَضْتُمْ ما يطلب لم يَأْلَمْ ولم يُلْجِفْ قَطُّ ، فهو يَعْرِفُ أن هذا غيرُ مُجْدٍ ، وهو لن يقول في نفسه : « لقد رَفِضَ طلبِي » ، بل يَقُولُ : « لم يَكُنْ هذا ممكنًا » ، والأمرُ كما قلتُ : إنه لا ينبغي أن يُشَارَكَ على الضرورة المُسَلَّم بها .

ودَعُوهُ طليقًا وحده ، وارْقُبُوهُ وهو يَسِيرُ من غير أن تقولوا له شيئًا ، وروا ما يَصْنَعُ وكيف يَتَأَهَّبُ لما يَصْنَعُ ، وبما أنه لا يحتاج إلى إقناع نفسه بأنه حُرٌّ فإنه لا يفعل شيئًا عن طَيْشٍ مطلقًا ، وإنما يَأْتِي عملَ سلطانٍ على نفسه ، أو لا يَعْلَمُ أنه سيدُ نفسه دائمًا ؟ وهو نشيطٌ رَشِيقٌ خَفِيفٌ ، وَتَجِدُ في حركاته كُلِّ ما ينطوي عليه عُمره من حيوية ، ولكنك لا تَرَى له من الحركات ما لا يَهْدَفُ إلى غاية ، ومهما يُرَدُّ أن يَقَعْلَ فإنه لن يحاول فِعْلَ ما يَفُوقُ طاقته ، وذلك لأنه اختبر قُوَاهُ وَعَرَفَ ما هي ، وستكون وسائله صالحةً لمقاصده دائمًا ، ومن النادر أن يَعمَلَ قبل أن يطمئن إلى النجاح ، وستكون له عينٌ بصيرةٌ يَقْطِئُ ، ولن يتصدى للآخرين حتى يسألهم بغاوةٍ عن جميع ما يرى ، ولكنه يَدَقُّ فيما يَرَى بنفسه وَيَبْذُلُ جهدًا لِيَصِلَ قبل السؤال إلى ما يريد أن يَعْلَمَ ، وهو إذا ما وَقَعَ في ورطةٍ طارئةٍ كان ارتباكًا بها أقلُّ من ارتباك الآخرين ، وإذا ما وُجِدَ خطرٌ قَلَّ دُعْرُهُ أيضًا ، وبما أن خياله يَطْلُ مُعْطَلًا أيضًا ، ولم يَصْنَعْ شَيْءًا لإثارتِهِ ، فإنه لا يَرَى غيرَ ما هو واقعٌ ولا يُقَدِّرُ الأخطار إلا بمقدارها محافظًا على اعتدالِ دمه دائمًا ،

وَتَبْلُغُ الضَّرُورَةُ مِنْ شِدَّةِ الْوَطْأَةِ عَلَيْهِ مَا لَا يَقَاوِمُهَا مَعَهُ أَيْضًا ، وَهُوَ يَحْمِلُ
نِيرَهَا مِنْذُ وَلَادَتِهِ ، وَهُوَ يَتَعَوَّدُهَا ، فَيَكُونُ مُسْتَعِدًّا لِكُلِّ شَيْءٍ فِي
كُلِّ وَقْتٍ .

وَسِوَا ذَلِكَ عَلَيْهِ أَعْمَلُ أَمْ تَلَهَّى يَتَسَاوَى هَذَانِ الْأَمْرَانِ عِنْدَهُ ، فَالْعَابَةُ
أَعْمَالُهُ ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا لَدَيْهِ ، وَهُوَ يَضَعُ فِي كُلِّ مَا يَصْنَعُ مَا يُفْرِي
بِالْمَرَحِ كَمَا يَضَعُ مِنَ الْحَرِيَةِ مَا يَرُوقُ مُبْدِيًا مِيلَ ذَهْنِهِ وَمَدَى مَعَارِفِهِ ،
أَلَيْسَ مِنْ مَنَاطِرِ هَذَا الْعُمُرِ السَّاحِرَةِ الْحُلُوةِ أَنْ يُرَى وَلَدٌ ظَرِيفٌ حَادٌّ
الْبَصَرِ مَرِحَ النَّظَرَ ذُو مَلَامَحٍ تَدُلُّ عَلَى الرِّضَا وَالصَّفَاءِ ، وَذُو وَجْهِ طَلِيقٍ
بَاسِمٍ ، يَأْتِي أَكْثَرَ الْأُمُورِ جِدِّيَّةً وَهُوَ يَلْعَبُ ، أَوْ يَأْتِي أَكْثَرَ الْأَلْعَابِ
لَعْفًا وَهُوَ يَعْمَلُ ؟

أَوْ تَرِيدُونَ الْآنَ أَنْ تَحْكُمُوا فِيهِ بِالْقِيَاسِ ؟ اجْعَلُوهُ بَيْنَ أَوْلَادِ
آخَرِينَ ، وَدَعُوهُ لِنَفْسِهِ ، فَلَا تَلَبُّثُوا أَنْ تَرَوْا أَيُّهُمْ أَحْسَنُ تَقْوِيمًا حَقًّا
وَأَيُّهُمْ أَكْثَرُ اقْتِرَابًا مِنْ كَمَالِ سِنِّهِ ، وَلَا أَحَدَ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْمَدِينَةِ أَمَّهَرُ مِنْهُ ،
وَلَكِنَّهُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ آخَرَ ، وَهُوَ إِذَا مَا وُجِدَ بَيْنَ الْفَتَيَانِ الْفَلَاحِينَ
سَاوَاهُم قُوَّةً وَفَاقَهُمْ مَهَارَةً ، وَهُوَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الَّتِي تَكُونُ فِي مَتَنَاوِلِ دَوَرِ
الصَّبَا يَظْهَرُ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيعِهِمْ حُكْمًا وَتَعْقَلًا وَبَصِيرَةً ، وَإِذَا مَا دَارَ الْأَمْرُ
حَوْلَ الْعَمَلِ وَالْقَدْوِ وَالْوُثُوبِ وَزَعْرَعَةِ الْأَجْسَامِ وَرَفْعِ الْأَجْرَامِ وَتَقْدِيرِ
الْمَسَافَاتِ وَاخْتِرَاعِ الْأَلْعَابِ وَنَثِيلِ الْجَوَائِزِ قِيلَ إِنَّ الطَّبِيعَةَ خَاضِعَةٌ لِأَوَامِرِهِ
مَا سَهَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعًا لِإِرَادَتِهِ ، فَهُوَ قَدْ صُنِعَ لِقِيَادَةِ
أَمْثَالِهِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ نُبُوْعٍ وَاخْتِبَارٍ يَقُومُ مَقَامَ الْحَقِّ

والسيادة ، ومهما يكن الرِّداء الذى يرتديه والاسم الذى يَحْمِلُهُ فلا أهمية لهما ، فسَيُكْتَبُ لَهُ السَّبْقُ فى كلِّ مكان ، وسيكون رئيساً للآخرين حيثما كان ، وهم سيشعرون بأنه أفضلُ منهم دائماً ، وهو سيكون السيد من غير أن يريدَ القيادة ، وهم سيطيعون من حيث لا يدرون .

وهو قد بَلَغَ ذروة النكال من دَوْرِ الصبا ، وهو قد قَضَى حياةَ وَلَدٍ ، وهو لم يَشْتَرِ كِلالَهُ على حساب سعادته ، وعلى العكس قد تسابقت هذه الأمور انقياداً له ، وهو إذ نال كلَّ ما لِسَنَّهُ من عقلٍ كان سعيداً حُرّاً بمقدار ما تَسَمَّحَ به بِنِيَّتُهُ ، وإذا ما أتى الموتُ الحاصدُ فَقَطَعَ به زهرة آمالنا لم نَبْكِ حياتَهُ ولا موته ممّا قَطُّ ، ولم نُلْهِبِ آلامنا عن تذَكُّرنا آلاماً أورثناه إياها ، وإنما نقول : « ولقد تَمَتَّعَ بصباه على الأقلِّ » ، ولم نَنزِعْ منه شيئاً أنعمت الطبيعة به عليه .

وأكبرُ محذور فى هذه التريية هو كونُها لا تُقَدَّرُ من غير ذوى البصائر ، وكونُ الولد الذى يُنشَأُ بتلك العناية البالغة لا يَبْدُو فى عيون العوامِّ غيرَ خَشِنٍ ، والمعلمُ يُفَكِّرُ فى مصلحة الولد أقلَّ مما يُفَكِّرُ مصلحة الخاصة ، وهو يُعْنَى بإثباته أنه لا يُضِيعُ وَقْتَهُ ، وأنه يستحقُّ الأجر الذى يُعْطَاهُ ، وهو يزُوِّدُهُ بمحصولٍ سَهْلٍ عَرَضُهُ ممكنٌ إظهارُهُ متى يُرَادُ ، وليس المهمُّ فى فائدة ما يُعَلِّمُهُ إياه ، بل فى سهولة تَبَيُّنِهِ ، وهو يَشْحَنُ ذا كَرَمِهِ بمئة حَشْوٍ يَرَكُمُهُ فيها بلا انتخاب ولا تمييز ، ومتى وَجَبَ امتحانُ الولد حُمِلَ على تَشْرِيرِ بضاعته ، وهو إذا ما عَرَضَها حاز قَبُولاً ، ثم يَطْوِي رِزْمَتَهُ ، ويَذْهَبُ ، وأما تلميذى فليس غنياً بهذا المقدار ، وليست عنده رِزْمَةٌ يَذْشُرُها مطلقاً ،

وليس عنده ما يعرض غير نفسه ، والواقع أن الولد ، كالرجل ، لا يعرف في دقيقة واحدة ، وأين هم الراصدون الذين يمكنهم إدراك خصائصه أول وهلة ؟ أجل ، قد يوجد مثل هؤلاء ، غير أنهم قليلون ، ولا تكاد تجد واحداً منهم بين كل مئة ألف أب .

وإذا ما كثرت الأسئلة تبرم منها جميع الناس ، ولا سيما الأولاد ورفضوها ، وذلك أنه لا تكاد تَمُضِي بضعة دقائق حتى يكون انتباههم قد كل ، وعادوا لا يلقون السمع إلى ما يسألهم عنه سؤول عنيد ، وعادوا لا يجيبون إلا عن غير تبصر ، ويمد هذا الأسلوب في امتحانهم حدّ لقيأ غير نافع ، وفي الغالب تمد الكلمة العابرة أفضل من الكلام المطول في الدلالة على إحساسهم وإدراكهم ، ولكن ليختار من كون الكلمة قد أُمليت أو أُلقيت عَرَضاً ، ولا بد للرجل من أن يكون صائب الحكم حتى يحسن تقدير حكم الولد .

وقد سمعتُ المرحوم اللورد هايد يقول إن صديقاً له عاد من إيطاليا بعد غياب ثلاثة أعوام ، فأراد فحص ابنه البالغ من العمر ما بين التاسع والعاشر ، ويذهب ، ذات مساء ، هو وابنه ومعلمه للنزهة في القراء حيث يلهمو الطلبة بقيادة طيارات ، وبيننا كان الأب ماراً قال لابنه : « أين الطيارة التي تُلقي هذا الظل ؟ » ، فقال الولد من غير تردد ولا رفع رأس : « على الطريق العام » ، ويقول اللورد هايد مُعقّباً : « حقاً أن الطريق العام كان بيننا وبين الشمس » ، ويُقبل الأب ابنه عند سماع هذه الكلمة ، ويُنهى فحصه وينصرف من غير أن يقول شيئاً ، فلما كان الغد أرسل إلى

المعلم شهادةً يُجْرِي عليه بها وظيفةً مَدَى العُمُر فَضْلاً عن رواتبه .
يا لذلك الأب من رجلٍ ! ويا للولد الذي وَعَدَ به ! إن السؤال
ملائمٌ لعُمُر الولد ضيقاً ، والجوابُ بسيطٌ تماماً ، ولكن انظرْ إلى ما يَفْتَرِضُ
من بصيرةٍ في قوة التمييز عند الولد ! هذا هو الوجه الذي رَدَّ به تلميذُ أرسطو
جِمَاحَ ذلك الحصان الشهير الذي لم يستطع أن يُروِّضه فارسٌ .

الجزء الثالث

إن جميع مجرى الحياة حتى المراهقة هو دَوْرُ ضَعْفٍ ، ومع ذلك تُوجَدُ نقطة في أثناء دَوْرِ العُمُرِ الأولِ هذا يُجَاوِزُ فيها تَقَدُّمُ القُوَى تقدمَ الحاجات فيصير الحيوانُ النامي ، الذي لا يزال ضعيفاً على الإطلاق ، قوياً نسبةً ، وبما أن احتياجاته لم تَنَمُ كُلُّهَا بَعْدُ فَإِنْ قُوَاهُ الحاضرة تُزِي على الكفاية قضاءَ لِمَا لديه ، ويكون ضعيفاً إلى الغاية كرجلٍ ، وَيَكُونُ قوياً إلى الغاية كولد .

ومن أين يأتي ضعفُ الرجل ؟ يأتي من التفاوت بين قُوَّتِهِ ورَغْبَاتِهِ ، وأهواؤنا هي التي تَجْعَلُنَا ضعفاءً ، وذلك لأن قضاءها يتطلب من القُوَى ما هو أكثرُ مما تُعْطِي الطبيعةُ ، وإذا ما نَقَصَتْ الرَغْبَاتِ بَدَوْتُمْ كَأَنَّكُمْ زِدْتُمْ القُوَى ، وَمَنْ يَقْدِرُ أَكْثَرَ مِمَّا يَرْغَبُ تَكُنْ عنده قوةٌ احتياطية ، وَيُعَدُّ قوياً جداً لَارِيْبَ ، وهذا هو دَوْرُ الرُّوْدِيَةِ الثالثِ ، وهو الذي أَتَكَلَّمُ عنه الآن ، وأداوم على تسميته وَلُودِيَّةً لعدم وجود كلمة خاصة أُعْبِرُ بها عنه ، وذلك لأن هذه السنَّ تَدْنُو من المراهقة من غير أن تَصِلَ إلى البُلُوغِ .

وَتَنُمُو قُوَى الولد البالغ من العمر اثنتي عشرة سنةً أو ثلاث عشرة سنةً بِأَسْرَعٍ مِمَّا تَنُمُو به احتياجاته ، ولا يزال أقوى الأهواء وأعنفها غيرَ معروف ، ولا يزال نُموُّه البدني ناقصاً منتظراً نداء الإرادة كما يَلُوح ،

ولا تؤثر فيه تقلبات الهواء والفصول إلا قليلاً ، وهو يقاومها بلا عناء ،
وتقوم حرارته الناشئة مقام الثياب ، وتقوم شهوة طعامه مقام تحليل غذائه
بالتوابل ، وكل ما يمكن أن يُقَيِّتَ صالح لِسِنِّه ، وهو إذا ما أدركه
النَّعاسُ استلقى على الأرض ونام ، وهو يَجِدُ حَوْلَهُ كُلَّ ما يحتاج إليه ،
ولا يؤلِّه أيُّ احتياج خياليٍّ ، ولا عَمَلٍ لرأى الآخرين فيه ، ولا تبتعد رَغَبَاتُهُ
عن مَدَى ذراعيه ، ولا يستطيع أن يَكْفِيَ نفسه بنفسه فقط ، بل لديه
من القُوَى ما يمتدُّ إلى ما وراء احتياجه أيضاً ، وهذا هو دورُ حياته
الوحيد الذي تَزِيدُ قُوَّتُهُ على احتياجه .

وأشعرُ بالاعتراض قبل وقوعه ، ولن يقال لي إن للولد من الاحتياجات
ما هو أكثر مما أُعْطِيه ، ولكنه سَيُنْكِر ما أعزوه إليه من القوة ، ولن
يُفَكِّرَ في أنني أتكلَّم عن تلميذِي ، لا عن تلك الدُمَى المتَنَفِّلة التي
تطوف بين غرفةٍ وغرفةٍ والتي تُقَلِّبُ صُنْدُوقًا وتَحْمِلُ أَثْقَالًا من المَقَوَى ،
وسيقال لي إن قوة الرجل لا تَظْهَرُ في غير دَوَرِ الرُّجُوة ، وإن الأرواح
الحَيَوية ، التي تُعَدُّ في أوعية مَلَأَمة وتنتشر في جميع البدن ، يُمكنُها
وحدها أن تَمْنَحَ العضلات ثباتًا ونشاطًا وقوةً ونايضًا ، أي ما تنشأ عنه
طاقةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، وهذه هي فلسفة الحُجْرَةِ ، وأما أنا فأدعو إلى التجربة ،
وأرى في أريافكم فِتْيَانًا كِبَارًا يَحْرُثُونَ وَيَقْلِبُونَ الأَرْضَ وَيُمْسِكُونَ المِحْرَاثَ
وَيَمْلَأُونَ بِرَمِيلٍ خَرٍ وَيُسَوِّقُونَ عَرَبَةً كَأَبَائِهِمْ ، فَيُحَسِّبُونَ رَجَالًا لو لم يَمِمْ
صَوْتُهُمْ عليهم ، حتى في مُدُننا ترى أولاداً من الهمال والحدَّادين والقُيُونِ
والبياطرة بالعَيْنِ مثلَ قوة المعلمين تقريباً ، فلا يَقْلُونَ عنهم حِذْقًا إذا ما

دُرِّبُوا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، وَإِذَا وُجِدَ فَرْقٌ ، وَهُوَ مَا لَا أَنْكِرُهُ ، فَأَقُولُ مُكْرَّرًا إِنَّهُ أَقَلُّ كَثِيرًا مِمَّا بَيْنَ رَغَبَاتِ الرَّجُلِ الْفَائِزَةِ وَرَغَبَاتِ الْوَلَدِ الْمَحْدُودَةِ ، ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ قَاصِرًا هُنَا عَلَى الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ فَقَطْ ، بَلْ يَتَنَاوَلُ ، خَاصَّةً ، أَيْضًا ، قُوَّةَ الذَّهْنِ وَاسْتِعْدَادَ الذَّهْنِ الَّذِي يُغْنِي عَنْهَا أَوِ الَّذِي يُوْجِبُهَا .

وهذه الفاصلةُ ، الَّتِي يَقْدِرُ الْفَرْدُ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَرْغَبُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَوْرَ قُوَّتِهِ الْكُبْرَى الْمُطْلَقَةِ ، هِيَ دَوْرُ قُوَّتِهِ الْكُبْرَى النَّسَبِيَّةِ ، وَهِيَ أَثْمَنُ دَوْرٍ فِي حَيَاتِهِ ، وَهِيَ الدَّوْرُ الَّذِي لَا يَأْتِي غَيْرَ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ الدَّوْرُ الْقَصِيرُ جَدًّا ، وَهِيَ الدَّوْرُ الَّذِي يَبْدُو بِالْغَيْبِ الْقِصَرِ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى أَهْمِيَّةِ اسْتِخْدَامِهِ جَيِّدًا كَمَا يُرَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ .

وَمَا يَصْنَعُ ، إِذَنْ ، بِهَذَا الزَّائِدِ مِنَ الْخِصَائِصِ وَالْقُوَى الَّتِي يَحْوِزُ كَثِيرًا مِنْهَا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ وَالَّتِي تَفُوتُهُ فِي دَوْرٍ آخَرَ مِنَ الْعُمُرِ ؟ هُوَ سَيَسْعَى فِي اسْتِخْدَامِهَا فِي أُمُورٍ يُمَكِّنُهُ الْاسْتِفَادَةُ مِنْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، أَيْ إِنَّهُ يُبَلِّغِي الزَّائِدَ مِنْ وَجُودِهِ الْحَاضِرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، أَيْ إِنْ الْوَلَدَ الْعُضْلُجِيَّ سَيَدْخِرُ لِلرَّجُلِ الضَّعِيفِ ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَضَعَهُ مَا يَخْزُنُ فِي صِنَادِيقٍ يُمَكِّنُ أَنْ تُسْرِقَ مِنْهُ ، وَلَا فِي أَنْبَارٍ خَارِجَةٍ عَنْهُ ، وَفِي ذِرَاعَيْهِ وَفِي رَأْسِهِ وَفِي نَفْسِهِ مَا يَضَعُ الَّذِي يَكْسِبُ تَمَلُّكَ لَهُ حَقًّا ، وَهَذَا هُوَ ، إِذَنْ ، وَقْتُ الْعَمَلِ وَالْعِرْفَانِ وَالدَّرْسِ ، وَلاَحْظُوا أَنِّي لَسْتُ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الْاِخْتِيَارِ مُتَحَكِّمًا ، بَلِ الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ .

وَاللَّذَكَاءُ الْبَشَرِيَّ حُدُودُهُ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ ،

حتى إنه لا يستطيع أن يَعْرِفَ تمامًا ما يَعْرِفُهُ الآخرون من شيء قليل ،
وبما أن ما يناقض القضية الباطلة حقيقةً فإن عدد الحقائق لا يَنْفَدُ كعدد
الأباطيل ، ولذا يوجد اختيارٌ في الأمور التي يجب أن نُعَلِّمَ كما في الزمن
الصالح لتعلُّمها ، ومن المعارف الواقعة في متناولنا ما هو باطل وما هو غيرُ
نافع وما يُفِيدُ في تَغْذِيَةِ زَهِوِ الحائِزِ لها ، وعددُ المعارف القليلُ الذي يساعد
على رَفَاهِيَّتِنَا حقًّا هو الجديرُ وحده بتَحَرُّي الرجل العاقل ، ومن ثَمَّ بَتَحَرُّي
الولد الذي يُرَادُ جعلُهُ هكذا ، ولا يقوم الأمرُ على معرفة ما هو كائن ،
بل على معرفة ما هو نافعٌ فقط .

ومن ذلك العدد القليل أيضًا يَجِبُ ، هنا ، أن تُخْرَجَ الحقائقُ التي
يتطلب فهمُها قوَّةَ إدراكٍ تامةٍ التكوين ، أن تُخْرَجَ الحقائقُ التي تفترض
معرفةَ صِلاتِ الإنسان فلا يستطيع الولدُ اكتسابها ، أن تُخْرَجَ الحقائقُ
التي تَحْمِلُ الذهنَ غيرَ المُجَرَّبِ على التفكيرِ الفاسدِ في موضوعاتٍ أخرى ،
وإن كانت تلك الحقائقُ صحيحةً في نفسها .

وها نحن أولاء قد قُصِرْنَا على دائرةٍ صغيرةٍ بالنسبة إلى وجود الأشياء ،
ولكن هذه الدائرة تؤلِّفُ دائرةً واسعةً بالنسبة إلى ذهن الولد ! ويا ظُلُمَاتِ
الإدراكِ البشريِّ ، أية يدٍ مغامرةٍ كانت من الجرأة ما مَسَّتْ معه حِجَابُكَ ؟
ويا للهْوَي التي أرى حَفَرَهَا بعلومنا الباطلة حَوْلَ هذا الفتى التَّعْسِ ! وارتَجِفْ
أنت الذي يَقُودُهُ من هذه الطُّرُقِ الخَطِيرةِ ، والذي يَرْفَعُ أمامَ عينيه ستارَ
الطبيعة المقدس ، وَلَيْسَكُنْ رأسُهُ ورأسُكَ أولَ ما تَطْمَنُّنُ إليه ، واخْشَ أَنْ
يُصَابَ هذا أو ذاك بالذُّوَارِ أو أَنْ يصابا معًا على ما يَحْتَمِلُ ، وخَفْ سِخْرَ

الباطل المموه وفُتُونْ أُنْجَرَة الزهو، واذْ كُرْ، واذْ كُرْ دائماً، أن الجهل لا يؤذى أبداً، وأن الشؤم في الضلال، وأن الإنسان لا يَصِلُ بما لا يَعْرِف بل يَصِلُ بما يعتقد أنه يَعْرِف .

وقد يصَاحُ تقدُّمه في الهندسة دليلاً لكم وقياساً صحيحاً عندكم على نُموِّ ذكائه، ولكنه إذا ما استطاع أن يَمِيَزَ النافع من غير النافع وَجَبَ اتِّخَاذُ كثيرٍ من الحَذَرِ والبراءة جَذْباً له إلى الدروس النظرية، وإذا ما أردتم، مثلاً، أن يَبْحَثَ عن وسطٍ مناسبٍ بين خَطِّينِ فاصنعوا ما يجب أن يَجِدَ معه مُرَبَّعاً مساوياً لمُثَلَّثٍ ما، وإذا ما طُلِبَ وَسَطَانِ مناسبان وَجَبَ أن يُحْمَلَ، أولاً، على الأكثرِثِ لمضاعفة المُكَّعِبِ، إلخ.، وروا كيف تَدْنُو بالتدرُّج من المبادئ الخلقية التي تَمِيَزُ الخَيْرَ من الشَّرِّ، ولم تَعْرِفْ حتى الآن غيرَ قانونِ الضرورة، والآن نُعْنَى بما هو مفيدٌ، وسننتهي إلى ما هو ملائمٌ حَسَنٌ عما قليل .

وَتُحَرِّكْ عَيْنُ الغريزة مختلفَ خصائص الإنسان، وَيَقْبِ نَشَاطُ البدن الذي يحاول أن يَنْمُو نَشَاطُ الذهن الذي يحاول أن يتعلَّم، وليس الأولاد في البُدَاءَةِ غيرَ قَلِقِينَ، ثم يكونون محبين للاطلاع، ويُعَدُّ هذا الفُضُولُ الحسنُ التوجيهُ مُحَرِّكُ العُمُرِ الذي بلغناه، وَلُنْفَرِّقْ دائماً بين الميلِ التي تَصْدُرُ عن الطبيعة والميلِ التي تَصْدُرُ عن رأى الناس، ويوجدُ شَوْقٌ إلى المعرفة ليس له أساسٌ غيرُ الرغبة في الظهور بمظهر المتعلم، ويوجدُ شَوْقٌ آخَرُ إلى المعرفة ينشأ عن حبِّ اطلاعٍ طبعيٍّ في الإنسان حَوْلَ كُلِّ ما يُمكن أن يَهِمَّه عن قُرْبٍ أو بُعْدٍ، وما يكون من رغبةٍ غريزية في

الرَّفَاهِ وَمَنْ تَعَذَّرَ إِشْبَاعَ هَذِهِ الرِّغْبَةِ تَمَامًا يَخْفِزُهُ إِلَى الْبَحْثِ بِلا انْقِطَاعٍ عَنْ
وَسَائِلَ جَدِيدَةٍ تُعَيِّنُ عَلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا هُوَ أَصْلُ الْفُضُولِ الْأَوَّلُ ، وَهَذَا
هُوَ الْأَصْلُ الطَّبِيعِيُّ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مَعَ أَنْ نَشِوَهُ يَأْتِي عَلَى نِسْبَةِ أَهْوَانِنَا
وَمَعَارِفِنَا ، وَلَنَتَمَثَّلَنَّ فِيلَسُوفًا نُقِيَّ إِلَى جَزِيرَةٍ قَفَرٍ مَعَ آلَاتٍ وَكُتُبٍ عَالَمًا
أَنَّهُ سَيَقْضَى فِيهَا بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ وَحِيدًا ، فَلَنْ يُزْعِجَ هَذَا الْفِيلَسُوفُ نَفْسَهُ بِمُعَالَجَةِ
نِظَامِ الْعَالَمِ وَسُنَنِ الْجَازِيَةِ وَحِسَابِ التَّفَاضُلِ ، وَمَنْ الْمَحْتَمَلُ إِلَّا يَفْتَحَ كِتَابًا
وَاحِدًا مَدَى حَيَاتِهِ ، وَلَكِنْ مَعَ عَدَمِ الْاسْتِنْكَافِ عَنْ رِيَادِ جَزِيرَتِهِ حَتَّى
آخِرِ زَاوِيَةٍ مِنْهَا مَهْمَا كَانَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ كَبِيرَةً ، وَلَنُحَذِفَ مِنْ دُرُوسِنَا
الْأَوَّلَى ، إِذَنْ ، مَعَارِفَ لَيْسَ تَدَوُّقُهَا طَبِيعِيًّا لَدَى الْإِنْسَانِ ، وَلَنَقْتَصِرَ عَلَى
الْمَعَارِفِ الَّتِي تَحْمِلُنَا الْغَرِيزَةُ عَلَى الْبَحْثِ عَنْهَا .

وَالْأَرْضُ هِيَ جَزِيرَةُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ، وَالشَّمْسُ هِيَ أَكْثَرُ مَا يَقِفُ
نَظَرَنَا ، وَإِذَا مَا أَخَذْنَا نَبْتَعِدُ عَنْ أَنْفُسِنَا وَجَبَّ أَنْ يَقَعَ انْتِبَاهُنَا عَلَى هَذِهِ
وَتِلْكَ ، وَهَكَذَا فَإِنْ فِلَسُفَةُ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الْوَحْشِيَّةِ تَقْرِبًا تَدَوُّرُ حَضَرٍ حَوْلَ
تَقْسِيَمَاتٍ خَيَالِيَّةٍ عَنِ الْأَرْضِ وَحَوْلَ أُلُوهِيَةِ الشَّمْسِ .

وَقَدْ يَقَالُ : يَا لَهُ مِنْ ابْتِعَادٍ ! لَقَدْ كُنَّا نَعَالِجُ مِنْذُ هُنَيْهَةٍ مَا يَمَسُّنَا ،
مَا يُحِيطُ بِنَا مُبَاشَرَةً ، وَهَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ نَجُوبِ الْأَرْضِ وَنَقْفِزُ إِلَى أَقَاصِي
الْعَالَمِ بَفْتَةٍ ! إِنْ هَذَا الْإِبْتِعَادُ نَتِيجَةُ تَقَدُّمِ قُوَانَا وَمَثَلِ ذَهْنِنَا ، وَإِنْ
اِكْتِرَائِنَا لِبَقَائِنَا فِي حَالَةٍ ضَعْفِنَا وَنَقْضِنَا يَحْضُرُنَا ضِيقُ أَنْفُسِنَا ، وَإِنْ رَغْبَتِنَا
فِي تَوْسِيعِ كِيَانِنَا فِي حَالَةٍ قَدْرَتِنَا وَقُوَّتِنَا تَحْمِلُنَا إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَتَدْفَعُنَا إِلَى
الْوُثُوبِ إِلَى أَبَدٍ مَا يُمَكِّنُنَا ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ الْعَالَمَ الذِّهْنِيَّ لَا يَزَالُ مُجْهُولًا

لدينا فإن فكرنا لا يذهب إلى ما هو أبعد من عيوننا ، ولا يمتد إدراكنا إلا ضمن المسافة التي يقيس .

ولنحول إحساسنا إلى أفكار ، ولكن لا نقفز بفتة من الأشياء المحسوسة إلى الأشياء الذهنية ، فبالأولى نصل إلى الثانية ، ودع الحواس أدلاء أعمال ذهن الأولى دائماً ، فلا كتاب غير العالم ، ولا تعليم غير الأعمال ، والولد الذي يقرأ لا يفكر ، وهو لا يفعل غير القراءة ، وهو لا يتعلم ، بل يحفظ كلمات .

واجعلوا تلميذكم مُنتهباً لحادثات الطبيعة ، فليسرعان ما تجملونه مجيئاً للاطلاع ، ولكن تغذية فضوله لا تقضي بالمبادرة إلى إشباعه مطلقاً ، وضعوا الأسئلة ضمن متناوله ، ودعوه يحلها ، ولا ينبغي أن يعرف شيئاً عن كونكم قد أطلعتموه عليه ، بل عن كونه قد أدركه بنفسه ، ولا ينبغي أن يتعلم العلم ، بل يجب أن يكتشفه ، وإذا أقمتم السلطان مقام العقل في ذهنه عاد لا يتعقل وصار أعمى رأى الآخرين .

وتريدون أن يتعلم هذا الولد الجغرافية ، وتحضرون له كرات وخرائط ، ويألهامن آلات ! ولم جميع هذه الرسوم ؟ ولم لا تبدون بإراءته الشيء نفسه حتى يعرف الشيء الذي تحدثونه عنه على الأقل ؟

وفي مساء جميل يذهب للنزهة في مكان ملائم حيث يرى غياب الشمس عند الأفق الواسع ، وحيث تلاحظ الأشياء التي تجعل مكان غيابها سهلاً معرفته ، وفي الغد يراد تنسم الهواء العليل فيزجج إلى عين المكان قبل طلوع الشمس ، ويُبصر من بعيد أنها تؤذن نفسها بما تلقى من خطوط نارية

سابقة لها ، ويزيد الحريقُ ، ويظهرُ الشرقُ مضطرباً لهيباً ، وعلى نورِ ذلك ينتظرُ الكوكبُ طويلاً قبلَ أن يطلع ، ويُظنُّ في كلِّ ثانيةٍ أنه يرى ظهوره ، ويشاهدُ أخيراً ، وذلك أن نقطةً تنطلقُ كالبرق فتَمْلأُ جميعَ الفضاء من نورِها ، ويمتلي حجابُ الظلام ويسقط ، ويعرف الإنسانُ منزله ويجدُه مُزداناً ، وقد اكتسبت الخُضرُ في الليل قوةً جديدةً فلما أضاءها النهارُ الناشءُ أبدتها الأشعةُ الأولى مستورةً بشبكةٍ لامعةٍ من الندى تعكسُ على العين نوراً وألواناً ، وتجتمع الطيورُ مواكبَ وتُحيي ربَّ الحياة متفقةً ، ولا طيرَ يسكتُ في ذاك الحين ، وعلى ما يكون من ضعف تفريدها يمدُّ أبطأً وأحلى مما في بقية النهار ، فهو يَنيمُ على انتباهٍ من النوم ساكنٍ وانٍ ، وتحملُ توافقُ جميعِ هذه الأمور إلى الحواسِّ أثراً من النضارة يَلُوحُ نفوذُه حتى الروح ، وهناك يتجلى فتونُ نصف ساعةٍ لا يستطيع الإنسانُ مقاومتَه ، وذلك منظرٌ عظيمٌ جداً ، رائعٌ جداً ، لطيفٌ جداً ، فلا يَقْدِرُ الإنسانُ أن يشاهده من غير أن يهتزَّ فؤاده .

ويقضيُّ العلمُ حماسةً ، فيريد أن يشاطره الولدُ إياها ، ويعتقد أنه يحركُ الولدَ بجمله ينتبه للإحساسات التي حرَّكته بنفسه ، ويألفها من حفاقة صِرفة ! إن بهاء منظر الطبيعة هو في قلب الإنسان ، ويجبُ أن يُشعرَ به ليُرى ، أجل ، إن الولدَ يُبصرُ الأشياء ، ولكنه لا يستطيع أن يُبصرَ ما يربطُ بينها من صِلاتٍ ، ولكنه لا يستطيع أن يُدركَ ما في ائتلافها من انسجامٍ لطيف ، ولا بدَّ له من تجربةٍ لم يكتسبها قطُّ ، ولا بدَّ له من مشاعرٍ لم يُحسَّها قطُّ ، وذلك ليُشعرَ بالآثر المركَّب الذي ينشأ عن جميعِ هذه

الإحساسات معاً ، وهو إذا لم يَجِبْ سهوً جديباً زمناً طويلاً ، وهو إذا لم تَكُ رجليه رمالاً مُخْرِقَةً ، وهو إذا لم يَضْفَظْ انعكاسُ الصخور التي لَفَحَتْها الشمسُ انعكاساً خائفاً ، فكيف يَسْتَطِيبُ الهواءُ العليلَ في صباحِ جميلٍ ؟ وكيف تُفَتِّنُ حواسُه بعِطْرِ الأزهارِ وسِحْرِ الخُضَرِ وبيخارِ الندى الرطيبِ وبالمِشْيَةِ الخفيفةِ اللطيفةِ على الأرضِ المُخَصَّرةِ ؟ وكيف يُوجِبُ فيه تعريْدُ الطيورِ هَوًى شهوةً إذا كان جاهلاً لحركاتِ الغرامِ واللذةِ بَعْدُ ؟ وبأَيِّ هَفِيفٍ يَرَى ظهورَ نهارٍ بالغٍ تلكَ الروعةِ إذا لم يستطع خياله أن يَصوِّرَ له ما يُمْكِنُ أَنْ يَنَلَّاهُ ؟ وأخيراً كيف يَرِقُّ لجمالِ منظرِ الطبيعةِ إذا كان يَجْهَلُ اليدَ التي عُنِيَتْ بزخرفتها ؟

ولا تُوجِّهُوا إلى الولدِ من الكلامِ ما لا يستطيع أن يَفْهَمَ ، فلا وصفَ ولا بلاغةَ ، ولا مجازَ ، ولا شعرَ ، فليس الآنَ وقتُ الإحساسِ والذوقِ ، وداوموا عَلَى الوضوحِ والبساطةِ وأن تكونوا فاترينَ ، عالِمينَ أن زمنَ اتِّخَاذِ لغةٍ أخرى لا يَأْتِي إلا بأكراً .

وهو إذ يُنشَأُ على روحِ مبادئنا وعلى استنباطِ جميعِ وسائله من نفسه ، وهو إذ لا يستعين بالآخرين إلا بعد أن يَدْرِكَ عدمَ كفايته ، فإنه يَفْتَحُ طويلاً كلَّ موضوعٍ جديدٍ يراه ملتزماً جانبَ الصمتِ ، ويكون مُفَكِّراً لا سَوْلاً ، واكتفوا بِعَرَضِ الأشياءِ عليه في الوقتِ المناسبِ ، ثم إذا ما أَبْصَرْتُمْ حُبَّ الاطلاعِ فيه قائماً بما فيه الكفاية فضعوا له من الأسئلةِ المُختصرةِ ما يَحُلُّه .

وفي هذه الأثناء ، وبعد أن تُنْعِمُوا النظرَ معه في الشمسِ البازغةِ ، وبعد أن تَجْعَلُوهُ يلاحظُ الجبالَ والأشياءَ المجاورةَ الأخرى من ذاتِ الجهةِ ،

وبعد أن تدعوه يتكلم حول ذلك بلا تعبٍ اشكثوا لبضع دقائق كرجلٍ
ساجدٍ في الخيال ، ثم قولوا له : « إنني أفكرُ في أمر الشمس التي غرّبت
أمس مساءً هناك ، والتي طلّعت اليوم صباحاً هناك ، فكيف يُمكن وقوعُ
هذا ؟ » ، ولا تُضيفوا شيئاً إلى ذلك ، وإذا ما وُضِعَ لكم أسئلةٌ فلا تُجيبوه عنها
مطلقاً ، وإنما كلّموه عن شيءٍ آخر ، ودعوه وشأنه واثقين بأنه سيفكرُ في ذلك .

ويجب ، لكي يتعود الولدُ الانتباهَ ، ولكي تَقِفَ نظره بعضُ الحقائق
المحسوسة ، أن تترك له هذه الحقيقةُ بضعة أيامٍ من القلق قبل اكتشافها ،
وهو إذا لم يتمثلها على هذا الوجه بما فيه الكفاية كان هنالك من الوسائل
ما يجعلها أكثر بروزاً أيضاً ، وهذه الوسيلة هي إعادة السؤال ، وهو إذا
كان لا يعرف كيف تأتي الشمس من مغربها إلى مشرقها فإنه يعرف كيف
تأتي من مشرقها إلى مغربها على الأقل ، وعينه وحدها تُطالعانه على ذلك ،
فأوضحوا السؤال الأول بالآخر إذن ، وهنالك إما أن يكون تلميذكم من
النبوة المطلقة ، وإما أن يكون التشابه من الوضوح البالغ ، ما يُمكن معه
أن يفوته ذلك ، وهذا هو درسه الأول في علم الفلك .

وبما أننا نسيرُ في كلِّ وقتٍ على مهلٍ من فكرٍ محسوسٍ إلى فكرٍ
محسوسٍ ، وبما أن إبلافتنا أحدَ الفكرين يتطلب زمناً طويلاً قبل انتقالنا
إلى الآخر ، وبما أننا لانُكرِه تلميذنا على الانتباه مطلقاً ، فإنه لا بدّ من
انقضاء وقت طويلٍ على هذا الدرس الأول في معرفة مجرى الشمس وشكلِ
الأرض ، ولكن بما أن حركاتِ الأجرام السماوية الظاهرة كلها تابعةٌ لذات
اللبدا ، وبما أن الرصدَ الأول يؤدي إلى جميع الأرصاد الأخرى ، فإنه يُحتاجُ

إلى أقلَّ جُهدٍ ، وإن كان يُحتاج إلى أكثر وقتٍ ، للوصول من الدورة اليومية إلى حساب الكسوف والخسوف ، وذلك مما للوصول إلى إدراك الليل والنهار إدراكًا حسنًا .

وإذ أن الشمس تدورُ حَوْلَ الأرض فإنه يرسمُ دائرةً ، ولا بُدَّ لكل دائرة من مركز ، وهذا ما عَلَّمناه سابقًا ، ولا يُمكنُ رؤيةُ هذا المركز لأنه في وسط الأرض ، ولكنه يُمكنُ تعيين نقطتين متقابلتين على السطح ، ويُعدُّ العُودُ المارُّ من النُّقاط الثلاث والممتدُّ حتى السماء من الناحيتين محورَ الأرض ومحورَ حركةِ الشمس اليومية ، وإذا ما دار الخُذروفُ المستدير على رأسه مِثْلَ السماء الدائرة على محورها ، ومِثْلَ طَرَفا الخُذروفِ القطبيين ، ويسرُّ الولدُ أن يَعْرِفَ أحدهما ، وأدله عليه بذنب الدُّبِّ الأصغر ، وهذا من لهوِ الليل ، وتُوَلَّفُ الكواكبُ بالتدرُّج ، ومن ممَّ ينشأ أولُ ذوقٍ في معرفة السَّيَّارات والبرُوج .

ولقد رأينا طلوعَ الشمس في منتصف الصيف ، وسنرى طلوعَها في عيد الميلاد أو في يومٍ جميلٍ آخرَ من أيام الشتاء ، وذلك لأننا لسنا كُسالَى كما هو معلوم ، ولأننا نَحْسِبُ اقْتِحَامَ البرد من الألعاب ، وأُغْنَى بالقيام بهذا الرِّصْدِ الثاني في عين المكان الذي قفنا فيه بالرَّصْدِ الأول ، وإذا ما أُبْدِيَ شيء من البراعة في إعداد المعاينة لم يَفْتُ هذا أو ذاك أن يَهْتِفَ قائلًا : « وى ! وى ! يا له من منظرٍ فَكِه ! عادت الشمسُ لا تَطْلُعُ من عين المكان ! هنا دلائلنا السابقة ، والآن تَطْلُعُ هنالك ، إلخ . ، إذن ، يوجد شَرَقُ صيفٍ وشرقُ شتاء ، إلخ . » ، ويا أيها العلم الشاب ، أنت على

الطريق ، فيجب أن تكون هذه الأمثلة كافية لتعليم الكرة بوضوح ،
ولا تخاذ الأرض للأرض والشمس للشمس .

وعلى العموم لا تستبدل الرمز بالشئ مطلقاً ، إلا إذا تعذر عليك إراءته ،
وذلك لأن الرمز يستغرق انتباه الولد ويُنسيه الشئ المُمَثَّل .

وتبدؤ لى الكرة الأرميائية* آلة سيئة التركيب رديئة النسب ، وما
تشتمل عليه من دوائر مختلطة وصُور غريبة مرسومة يَمْنَحُها صبغة سحرية
تخافها نفوس الأولاد ، والأرض فيها صغيرة جداً ، والدوائر فيها كبيرة جداً ،
كثيرة جداً ، وبعضها ، كدوائر السمّت مثلاً ، لا يُجْدِي نفعاً تاماً ، وكل
دائرة فيها أوسع من الأرض ، ولها بشخن المقوى صلابة توحى بأنها
مطارق دائرية موجودة حقاً ، فمتى قلتم للولد إنها دوائر خيالية لم يعرف
ما يرى ، وعاد لا يسمع شيئاً .

ولا نعرف أن نضع أنفسنا في مكان الأولاد مطلقاً ، ولا ننفذ أفكارهم ،
ونعيرهم أفكارنا ، وفي كل وقت نتبع براهيننا الخاصة بسلاسل من
الحقائق فلا نتركهم في رؤوسهم سوى تزهات وأضاليل .

ويمادّل حوّل اختيار التحليل أو التركيب في دراسة العلوم ، ولكن
لا يُحتَاج إلى الاختيار دائماً ، فما يحدث أحياناً إمكان التحليل والتركيب
في المباحث عينها وإمكان إرشاد الولد بالمنهاج التعليمي مع اعتقاده أنه
لا يصنع غير التحليل ، وهناك إذ يتخذ هذا وذلك فإنه ينتفع ببراهينهما

* La sphère armillaire ، وهي مجموعة دوائر من معدن أو خشب أو مقوى تمثل حركات
الأجرام السماوية ، وفي مركزها كرة تمثل الأرض .

مقابلةً ، وهو إذْ يذهب من النقطتين المتقابلتين معاً ، وذلك من غير أن يُفَكِّرَ في سلوكه عينَ الطريق ، فإنه يُدَّهَشُ من التقائهما ، ويكون هذا الدَّهَشُ مُنْتَمِئاً جِداً ، ومن ذلك أننى أريد تناول الجغرافية من هذين الحَدِيثَيْنِ وأن أُضيف إلى درس تحولات الكُرَّةِ الأرضية قياسَ أجزائها بادئاً من المكان الذى بُسَكَنَ ، قَبْلِنَا يَدْرُسُ الولدُ الكُرَّةَ وينتقل إلى السماوات على هذا الوجه أعيدُوه إلى تقسيم الأرض ودُّلُّوه إلى مَوْطنه قبل كلِّ شئٍ . وستكون نقطتاه الأوليان في الجغرافية مدينته التى يقيم بها ومنزل أبيه في الرِّيف ، ثم الأماكن المتوسطة ، ثم الأنهار المجاورة ، ثم منظر الشمس وكيفية الانجاء ، وهذه هى نقطة الالتقاء ، وليُصْنَعِ الخريطة بنفسه ، ولتكن الخريطة بسيطةً جِداً ، وليَكُنْ أولَ ما تشتمل عليه موضعان يُضِيفُ إليهما مواضع أخرى مقداراً فقداراً . وذلك كلما عَرَفَ مسافئها ومراكزها أو قَدَّرَها ، وتُذَكِّرُكُونِ أىُّ فائدةٍ قد حَبَوْنَاهُ بها مقدماً يجعلنا ييكاراً في عينيه .

ومع ذلك فإن مما لا مراة فيه وجوبَ إرشاده قليلاً ، ولكن قليلاً جِداً ، وذلك غير أن يَشْعُرَ ، فإذا ما أخطأ فدَعُوهُ وخطأه ، ولا تُضْلِحُوا خطأه مطلقاً ، وانتظروا صامتين حتى يراه ويُضْلِحَ بنفسه ، أو انتظروا ، على الأكثر ، فُرْصَةً ملائمةً تاتون فيها من الأعمال ما يَشْعُرُ معه بِخَطْئِهِ ، وهو إذا لم يُخْطِئْ قَطُّ لم تَكْمُلْ معرفته ، وهو ، فضلاً عن ذلك ، لا يحتاج إلى معرفة طُغْرِافية البلد معرفةً تامةً ، بل يحتاج إلى وسيلة الاطلاع عليها ، وليس من المهمِّ كثيراً أن يَجْمَعَ في رأسه خرائطٌ ، وذلك على أن يَتِمَثَّلَ جيداً ما يُمَثِّلُهُ ، وعلى أن يكون لديه فكرٌ واضحٌ عن الفنِّ النافع في (١٩)

وَضَعُهَا ، وَانْظُرُوا إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ مَعْرِفَةِ تَلَامِيذِكُمْ وَجَهْلِ تَلْمِذِي ! هُمْ يَعْزِفُونَ الْخِرَاطَ ، وَهُوَ يَضَعُهَا ، وَهَذِهِ زَخَارِفُ جَدِيدَةٌ يُزَيِّنُ بِهَا غُرْفَتَهُ .

وَإِذَا كَرُّوا دَائِمًا عَدَمَ قِيَامِ رُوحٍ مِنْهَا جِي عَلَى تَعْلِيمِ الْوَلَدِ أُمُورًا كَثِيرَةً ، بَلْ عَلَى عَدَمِ إِدْخَالِي فِي دِمَاغِهِ غَيْرِ أَفْكَارٍ صَائِبَةٍ وَاضِحَةٍ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمَهْمِ أَلَّا يَعْزِفَ شَيْئًا ، وَلَكِنْ عَلَى أَلَّا يَخْطِئَ ، وَلَا أَضْعُ فِي رَأْسِهِ حَقَائِقَ إِلَّا لَصِيَابَتَهُ مِنَ الْخَطَا الَّذِي يَتَعَلَّمُ وَضَعَهُ فِي مَكَانِهَا ، وَيَأْتِيهِ الصَّوَابُ وَالتَّمْيِيزُ بِيَطْوٍ ، وَتُسْرِعُ الْمُتَبَسِّرَاتُ إِلَيْهِ جَلَّةً ، وَالْمُبْتَسِرَاتُ هِيَ الَّتِي تَجِبُ وَقَاتُهُ مِنْهَا ، وَلَكِنَّكُمْ إِذَا نَظَرْتُمْ إِلَى الْعِلْمِ نَفْسِهِ خُضْتُمْ بَحْرًا لَا قَعَرَ لَهُ وَلَا سَاحِلَ ، خُضْتُمْ بَحْرًا مَمْلُوءًا صَخْرًا لَا عَوْدَ مِنْهُ مَطْلَقًا ، وَإِذَا مَا رَأَيْتُمْ رَجُلًا مُؤَلِّمًا بِالْمَعَارِفِ يَدْعُ نَفْسَهُ تُغْوَى بِفُتُونِهَا ، فَيَعْدُو وَرَاءَ وَاحِدَةٍ بَعْدَ الْأُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَطِيعَ الْوُقُوفَ ، اعْتَقَدْتُ أَنَّنِي أَرَى وَلَدًا عَلَى الشَّاطِئِ يَجْمَعُ صَدَقًا فَيَأْخُذُ فِي حَمَلِهَا ، ثُمَّ يُعْرِى بِمَا لَا يَزَالُ يَرَى فَيُلْقِي مَا حَمَلَ ثُمَّ يَعُودُ فَيَأْخُذُهُ حَتَّى يُنْقَلَّ بِكَثْرَةِ مَا نَالَ فَلَا يَعْزِفُ كَيْفَ يَخْتَارُ فَيَرْمِي جَمِيعَ مَا حَازَ وَيَرْجِعُ فَارِغًا .

وَكَانَ الزَّمَنُ طَوِيلًا فِي الدَّوْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَمْرِ ، فَلَمْ نَحَاوِلْ غَيْرَ إِضَاعَتِهِ خَشْيَةً سَوْءِ اسْتِمَالِهِ ، وَالْأَمْرُ هُنَا عَكْسُ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا مَا يَكْفِي لَصْنَعِ مَا يَكُونُ نَافِعًا ، وَفَكَّرُوا فِي اقْتِرَابِ الْأَهْوَاءِ ، وَفِي أَنَّهَا إِذَا مَا قَرَعَتِ الْبَابَ عَادَ تَلْمِيزُكُمْ لَا يَنْتَبِهَ لَغَيْرِهَا ، وَيَكُونُ دَوْرُ الذِّكَاةِ الْهَادِي مِنَ الْقَصْرِ مَا يَمُرُّ مَعَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَيَكُونُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَادَاتِ الضَّرُورِيَةِ مَا يُعَدُّ مِنَ الْحَاقَةِ أَنْ يُرَادَ مَعَهُ كَوْنُهُ كَافِيًا لَجَمْلِ الْوَلَدِ عَالِمًا ، وَلَا يَعْزِفُكُمْ أَنْ تُعَلِّمُوهُ الْعُلُومَ ، بَلْ أَنْ تَمْنَحُوهُ مِنَ الذَّوْقِ مَا يُجِبُّهَا مَعَهُ وَمِنَ الْمُنَاجِجِ مَا يَتَعَلَّمُ بِهِ

عندما يُصبح هذا الذوقُ أحسنَ نشوءاً ، ولا ريبَ في أن هذا مبدأً أساسياً لكلِّ تربيةٍ صالحةٍ .

وهذا أيضاً وقتُ تعويده ، بالتدرّج ، إنعامَ النظر في عين الموضوع ، ولكن ليس القسْرُ ، بل اللذةُ أو الرغبةُ ، ما يجبُ أن يؤديَ إلى هذا الانتباه ، ويجب أن يُفنى كثيراً بالألّا يُرْهقه الانتباه مطلقاً وبالألّا يُفْرِط فيه حتى السّأم ، فارقبوا الأمرَ دائماً إذنً ، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فدَعُوا كلَّ شيءٍ قبل أن يَسْأَمَ . وذلك لأن مقدارَ ما يتعلَّم ليس من الأهمية بمقدار عدم جعله يَتَعَلَّم على الرغم منه .

وإذا سألكم بنفسه فأجيبوه بمقدار ما يجب لتغذية حُبِّ الاطلاع فيه ، لا لإشباعه ، وإذا ما أَبْصَرْتُمْ أنه لا يسأل لِيَتَعَلَّم ، بل يَهْذِرُ بآرهاكم بأسئلةٍ سخيفة ، فَهَقُّوا من قُوْرِكُمْ واثقين بأنه عاد لا يَكْتَرِث للسؤال عن الشيء ، ولكن ليستعبدكم لاستنطاقاته ، ولذا يجب أن يكون التفاتكم إلى الباعث الذي يَحْمِلُهُ على الكلام أكثر مما إلى الكلمات التي يَنْطِقُ بها ، ولا يَلْبَثُ هذا التحذير ، الذي كان أقلَّ لزوماً حتى الآن ، أن يصبح بالغَ الأهمية حينما يأخذ الولد في التعقل .

وتُوجَدُ سلسلةٌ من الحقائق العامة ترتبط جميع العلوم بها في مبادئ شاملةٍ وتَنَمُّو بالتعاقب ، وهذه السلسلة هي مِنْهاجُ الفلاسفة ، وليس بها ما تُعْنَى به الآن ، وإنما يُوجَدُ مِنْهاجٌ مختلفٌ آخرٌ يُمكنُ كلَّ موضوعٍ خاصٍّ أن يستدعى به موضوعاً آخرَ قَسِيماً على ما يليه دائماً ، وهَلُمَّ جَرّاً ، وهذا النظامُ الذي يُغَدِّى ، بفضولٍ مستمرٍّ ، ما يطلب الجميعُ من انتباهٍ هو

النظام الذى يتبعه معظم الناس ، ولا سيما النظامُ اللازمُ للأولاد ، ونحن ،
إذ نقصد أن نضع خرائطنا ، يجبُ أن نرسم دوائرَ لنصفِ النهار ، وما
يكون من نقطتى تقاطعٍ بين ظلالِ الصباحِ والمساءِ المتساويةِ يُعطى فلكياً
فى الثالثة عشرة من سِنِيهِ دائرة نصفِ نهارٍ رائعةٌ ، بيدَ أن دوائرَ نصفِ
النهارِ هذه تزول ، ولا بدُّ من انقضاء وقتٍ حتى تُرسمَ ، وهى تقضى
بالعملِ فى عين المكان دائماً ، وما يُبدل من كثيرِ عنايةٍ وجهْدٍ بُورِئِهِ
سأماً فى نهاية الأمر ، وقد أبصرنا هذا ، فنتلافاه مقدماً .

وها أنا ذا داخلٌ دائرةَ الجزئياتِ المطوّلةِ الدقيقةِ ، وأسمعُ تدبّرَكم
أيها القراء ، فأتحمسه ، ولا أريد أن أساير مَلَائِكَمِ مطلقاً ، فأضحي
بأنفعِ قِسْمٍ من هذا الكتاب ، وتخرّبوا على إسهابى لتخرّبى على شكواكم .
وما لاحظتُ أنا وتلميذى ، منذ زمن طويل ، أن بعض الموادِّ ،
كالعنبرِ والزجاجِ والشع ، تجتذب التَّنَّ إذا ما دُليكت ، وأن موادَّ أخرى
لا تجتذبه ، وما وجدنا مصادفةً مادةً لها خاصيةٌ أغربُ من تلك ، وهى
أن تجتذب من مسافةٍ ، ومن غير ذلك ، بُرادةَ الحديدِ وسُقاطاته ، وما
أكثر الوقتَ الذى أثارَت فيه هذه الخاصيةُ لهوَنَا دونِ سواه ! وأخيراً
نجدها ذاتَ صلةٍ بذاتِ الحديدِ المَمْنُطِ من بعضِ الوجوه ، ونذهبُ إلى
السُّوقِ ذاتِ يومٍ ^(١) ، ونشاهدُ مُسَمَّوذاً يَجْذِبُ بِكِسْرَةٍ خَبِزٍ بَطَّةً من

(١) لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك حينما قرأت نقداً دقيقاً لمسيو فورمه حول هذه القصة

الصغيرة ، فقد قال : « إن هذا المشعوذ الذى يعتز بمنافسة صبي ، ويعظ معلمه ببقار هو فرد من
عالم الإميلين » ، فإكان المتناذر مسيو فورمه ليستطيع أن يفترض أن هذا الفصل الصغير مدبر
وأن المشعوذ كان عارفاً بالدور الذى يمثله ، وذلك لأننى لم أقل ذلك قط كما هو الواقع ، ولكن ما أكثر
ما صرحت بأننى لم أكتب قط لأناس ينتظرون أن أقول كل شيء !

شمعٍ عائمةً في حَوْضِ ماءٍ ، وبعترينا دَهَشٌ ، ولا نَقُولُ ، مع ذلك ،
 إن هذا ساحرٌ ، وذلك لأننا لا نَعْرِفُ ما الساحر ، وما انفكَّتْ نتائجُ
 ما نَجْهَلُ عِلَلَهُ تَقِفُ نَظَرُنا ، وذلك من غير أن نبادر إلى الحكم فيه ،
 ونَظَلُّ فارغى البال مقيمين على جهلنا حتى نَجِدَ الفرصة التي نَخْرُجُ
 بها منه .

ونَعُودُ إلى المنزل ، وتتكلم حَوْلَ بطة السوق ، وَيَعْنُ لنا أن نُقَلِّدَها ،
 ونتناول إبرةً صالحةً مُمَخَّنَظَةً جيداً ، ونشتمل عليها بشمعٍ أبيضٍ وَنَجْعَلُهُ
 على شكل بَطَّةٍ على قَدَرِ الإمكان ، وذلك على أن تَنْفِذَ الإبرةَ جَسْمَهَا
 وأن يكون الرأسُ منها مِنقاراً ، وَنَضَعُ البطةَ على الماء ، ونُذْنِي من المِنقارِ
 حَلَقَةً مفتاح ، وَنُبْصِرُ بسرورٍ ، يَسْهُلُ إدراكُهُ ، اتِّبَاعَ البطة للمِفْتَاحِ
 كاتِّبَاعِ بطةِ السُّوقِ لِكِسْرَةِ الخبز ، وأما ملاحظةُ الاتجاهِ الذي تَقِفُ
 البطةُ عليه فوق الماء عندما تُتْرَكُ ساكنةً فهو ما نَصْنَعُهُ في مرةٍ أُخرى ،
 وأما الآن فلا نريد أن نفعل أكثرَ من ذلك لانهما كنا في موضوعنا
 كلياً .

وفي المساء نَعُودُ إلى السُّوقِ مع خُبْزٍ مُعَدٍّ في جيوبنا ، وَنَعُودُ
 المشعُودُ إلى دَوْرِهِ ، فيقول له عُوَيْلِمِي ، الذي لا يكاد يَمْلِكُ نفسه ،
 إن تمثيل هذا الدور غيرُ صعب ، وإنه يستطيع أن يقوم بمثله ، وَيُكَلِّفُ
 بذلك ، فيُخْرِجُ من جيبه حالاً كِسْرَةَ خُبْزٍ مُشْتَمِلَةً على قطعةٍ من الحديد ،
 وَيَخْفِقُ فؤادَهُ عند دُنُوهِ مِنَ المِنْضدة ، وَتَرْجِفُ يَدُهُ تَقْرِيْباً عند عَرْضِهِ
 كِسْرَةَ الخبز ، وتأتى البطة وتتبعه ، وَيَصْرُخُ الولد وَيَنْطُ فَرَحاً ، وما

كان من تصفيق الحضور وهتافهم أدار رأسه وأطار لُبّه ، ومع ذلك يأتي المشعوذ القانط لتقبيله وتهنئته ولكي يَرْجُوَ منه أن يُشَرِّفه بحضوره في الغد مرةً أخرى ، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه سيَبْدُلُ جُهْدَه في جَمْعِ أناسٍ أكثر من أولئك لِيَهْتَفُوا لبراعته ، وَيَسْمَحُ عُويْلِمِي الطبيعيُّ بأنفه ويريد أن يُثَرِّثَ ، وأمنعه من الكلام حالاً ، وأعود به مشمولاً ثناءً .

والولدُ ، حتى الغدِ ، بعدُ الدقائق بقلبي مُضْحِكٌ ، وهو يدْعُو كلَّ من يُبْلَغُ ، وهو يودُّ لو يكون جميعُ النوعِ البشريِّ شاهدَ تَجْدِدهُ ، وهو ينتظر الساعةَ بَعَاءً ، وهو يَسْبِقُها ، ويُهْرَعُ إلى المُلتَقَى ، ويَجِدُ القاعةَ زاخرةً ، وَيَنْفَرِجُ غَمُّه حينَ يَدْخُلُها ، ولا بُدَّ من تَقَدُّمِ ألعابٍ أُخَرَ ، وَيَتَفَوَّقُ المشعوذُ ويأتي بالمعجائب ، ولا يَرَى الولدُ شيئاً من كلِّ هذا ، وَيَتَمَلَّلُ ، وَيَعْرِقُ ، ولا يكاد يَلْتَفِتُ ، وَيَقْضِي وقته في مَسِّهِ كِسْرَةَ الخبزِ داخلَ جيبه بيدٍ مرتعشةٍ جَزَعاً ، وأخيراً يأتي دورُه ، وَيُقَدِّمُهُ العَلمُ إلى الجُمُهورِ مُخْتَفِياً ، ويقترِبُ على استحياء ، ويُخْرِجُ كِسْرَةَ خبزِه ، وَيَالْتَقِلِبِ أُمُورِ البشرِ من جديد ! لقد صارت البطةُ الطائفةُ بالأسْمِ نفوراً اليومَ ، فهي تُوكَلِي ذَنْبَهَا وتَفِرُّ بدلاً من أن تَقُدِّمَ مِنقَارَها ، وهي تَتَجَنَّبُ كِسْرَةَ الخبزِ واليدَ التي تَعْرِضُها بِمثلِ الجهدِ الذي أبدته في اتِّبَاعِهما سابقاً ، ويحاول ألفَ مرةٍ على غيرِ جَدْوَى ، وَيُسَخَّرُ منه تِبَاعاً ، ويتوجَّعُ الولدُ ويقول إنه خُدِيعٌ ، وإن بطةً أُخَرَ استَبْدَلَتْ بالأولى ، ويدْعُو المشعوذُ إلى اجتذابها .

ويناول المشعوذُ كِسْرَةَ خبزٍ من غير أن يجيب ، وَيُقَدِّمُهَا إلى البطة ،

وَتَتَّبِعَ الْبَطَّةُ كِسْرَةَ الْخُبْزِ مِنْ فَوْرِهَا ، وَتَأْتِي الْيَدَ الَّتِي تَجْتَذِبُهَا ،
وَيَتَنَاوَلُ الْوَلَدُ ذَاتَ الْكِسْرَةِ فَلَا يَنَالُ نَجَاحًا كَمَا فِي الْمَرَّةِ الْمَاضِيَةِ ، وَهُوَ
يَرَى الْبَطَّةَ تَهْرَأُ بِهِ وَتَدُورُ حَوْلَ الْحَوْضِ ، وَأَخِيرًا يَبْتَعِدُ مَرْتَبَكًا تَمَامًا
غَيْرَ مَجْتَرِيٍّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّخَرِيَّاتِ .

وهناك يتناول المشعوذ كِسْرَةَ الْخُبْزِ الَّتِي كَانَ الْوَلَدُ قَدْ أَخْضَرَهَا ،
وَيَسْتَخْدِمُهَا بِتَوْفِيقٍ كَالَّذِي اتَّفَقَ لِكِسْرَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْحَدِيدَةَ مِنْهَا
أَمَامَ جَمِيعِ النَّاسِ ، وَهَذَا هُزُوءٌ آخَرُ عَلَى حَسَابِنَا ، ثُمَّ أَنَّهُ يَجْتَذِبُ الْبَطَّةَ ،
كَمَا فِي السَّابِقِ ، بِهَذِهِ الْخُبْزَةِ الَّتِي أُخْلِيتُ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ ، وَهُوَ يَقْعَلُ
الشَّيْءَ عَيْنَهُ بِكِسْرَةٍ أُخْرَى قَطِيعَتْ أَمَامَ النَّاسِ مِنْ قِبَلِ شَخْصٍ ثَالِثٍ ،
وَهُوَ يَصْنَعُ مِثْلَ هَذَا بِقَفَازِهِ وَمِنْ طَرَفِ إصْبَعِهِ ، وَأَخِيرًا يَنَالُ إِلَى وَسْطِ
الْعُرْفَةِ ، وَيُعْمَلُ ، بِتَبْجِجٍ خَاصٍّ بِمَنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، أَنَّ بَطْنَهُ لَيْسَتْ
أَقْلَ إِطَاعَةً لَصَوْتِهِ مِنْهَا لِحَرَكَةِ يَدِهِ ، وَيُكَلِّمُهَا ، وَنُطِيعُ ، وَيَقُولُ لَهَا أَنْ
تَذْهَبِ إِلَى نَاحِيَةِ الْيَمِينِ فَتَذْهَبِ ، وَيَقُولُ لَهَا أَنْ تَعُودِ فَتَعُودِ ، وَيَأْمُرُهَا بِأَنْ
تَدُورِ فَتَدُورِ ، وَتَتِمُّ الْحَرَكَةُ بِسُرْعَةٍ وَفَقَّ الْأَمْرِ ، وَيَتَضَاعَفُ الْهَتَافُ فَيَكُونُ
خِزْيًا عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقْدَارِ ، وَنَنْسَلُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ بِنَا أَحَدٌ ، وَنَخْتَلِي فِي
غُرْفَتِنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ نَقْصَّ خَبَرَ نَجَاحِنَا عَلَى النَّاسِ كَمَا كُنَّا عَازِمِينَ عَلَيْهِ .

وَيُقَرَّعُ بَابُنَا فِي صَبَاحِ الْغَدِ ، وَأَفْتَحُ ، فَأَجِدُ أَنَّ الْمَشْعُودَ هُوَ الطَّارِقُ ،
وَيَشْكُو بِتَوَاضُعٍ مِنْ سُلُوكِنَا ، وَمَاذَا صَنَعَ نَحْنَا حَتَّى نَرِيدَ الْإِسَاءَةَ إِلَى
سُمْعَةِ أَلْعَابِهِ وَتَحْرِيمَةِ عَيْشِهِ ؟ وَمَا يَكُونُ مِنْ عَجِيبٍ ، إِذَنْ ، فِي صَنْعَةِ
اجْتِنَابِ بَطَّةٍ مِنْ شَعْرِ حَتَّى يُبْتَاعَ هَذَا الشَّرْفُ ضَرًّا بِمَعَاشِ رَجُلٍ

شريف ؟ « صَدَّقُونِي ، يا سادتي ، لو كان عندي نُبُوغٌ آخَرُ لأعيش ما باهَيْتُ بهذا مطلقاً ، وثِقُوا بأن الرجل الذي قضى حياته في ممارسة هذه الصنعة الحقيرة يَعْرِفُهَا أَكْثَرَ مما تَعْرِفُونَ أُنْتُمْ الذين يُعَنِّونَ بها لبضع ساعات ، وإذا كنت لم أَبْدِ لَكُمْ في البُداء أَحْسَنَ ما عندي من حِيلَ فذلك لأنه لا ينبغي أن يبادر بطيشٍ إلى عَرَضِ ما يُعَرَفُ ، وإني أُغْنِي ، دائماً ، بحفظ أَرْوَاعِ الحِيلِ لإظهاره في الوقت المناسب ، ولا يزال يوجد لدى من الأدوار ما أَفْهُ به ، عند حَدِّ ، كُلِّ قِيٍّ قليلِ الفِطنة ، وبعْدُ ، أيها السادة ، تَرَوْنِي قد أَتَيْتُ ، مختاراً ، لأُعلِّمَكم ذلك السِّرَّ الذي حَيَّرَكم كثيراً راجياً ألا تسيثوا استعماله ضراً بي ، وأن تكونوا أَكْثَرَ احترازاً في المستقبل . »

وهناك أَطْلَعْنَا على جهازه ، فرَأَيْنَا ، دَهْشِينَ ، أنه لا يَعْدُو كونه مُفَنِّطِيساً قوياً حَسَنَ الإعداد ، كان يُحَرِّكُه ولدٌ مُخْتَفٍ تحت مِنطَدةٍ من غير أن يُشْعَرَ به .

وَيَطْوِي الرجلُ آلَتَهُ ، وَتُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ إِلَيْهِ هَدِيَّةً بعد الشكر له والاعتذار إليه فَيَرْفُضُهَا ، ويقول : « كَلَّا ، يا سادتي ، لا أكون مَدِيناً لَكُمْ بِشُكْرَانٍ حتى أَقبلَ عطاياكم ، وسَأَدْعُكم مَدِينِينَ لي على الرغم منكم ، وهذا هو انتقامي الوحيد ، واعْلَمُوا وَجُودَ جُودِي في جميع الأحوال ، وأُجُودُ بِحِيلِي من غير أن أُلْقِيَ دروساً عنها . »

وَيَخْرُجُ مُوجَّهاً لوماً إلى من فَوَّره ، وذلك بقوله لي : « أَعْذِرُ هذا الولدَ طَيِّبَ الخاطر ، فهو لم يُذْنِبْ إلا عن جهلٍ ، وأما أنت ، ياسيدي ،

تقد كان يجب أن تعرّف خطأه ، فلم تركته يقترفه ؟ وبما أنك تعيشان معاً ، وبما أنك أكبر منه سنًا ، فإن الواجب يقضى بأن تحسن رعايته وأن تمنحّضه النصّح ، وتمدّد تجربتك دليلاً يجب أن يهتدى به ، فإذا ما كبرُ ولام نفسه على ذنوبه لامتك ، لا ريب ، على عدم تحذيره منها أيام ضيابه^(١) .

وينصرف ، ويترُكنا نحن الاثنين خجليّين جدًّا ، وألوم نفسى على سلوكى سبيل التساهل ، وأعدّ الولدَ بأننى سأضع مصلحته فى المرتبة الأولى لمرة أخرى ، فأخبره بأغاليطه قبل أن يقترب منها ، وذلك لاقتراب الوقت الذى تتغير فيه صلاتنا ، والذى يجب أن تعقب شدة المعلم فيه مجاملة الصديق ، ويجب أن يقع هذا التحول بالتدريج ، ويجب أن يُبصر كلُّ شيء ، وأن يقع ما يُبصر من مدّى بعيد جدًّا .

وفى القَد نعود إلى الشوق لئرى الحيلة التى عرّفنا سيرّها حديثًا ، ونقترب من المشعوذ سُقراطَ حاملين له أعظم احترام ، ولم نكد تجرؤُ على رفع أعيننا إليه حتى نغمّرنا بضروب الإكرام ووضّعتنا فى مكانٍ ممتاز ، فكان لنا بهذا حسٌّ خِزى أيضًا ، ويقوم بحيله كالعادة ، ولكنه يتكلّم بالبطّة ويجاريها طويلاً ناظرًا إلينا فى الغالب بنظراتٍ الفاخِر ، ونعرّف كلَّ

(١) وهل على أن أفرض على القارئ من الغباوة ما لا يشعر معه فى هذا التعميف بخطاب يمليه المعلم حرفياً للدعوة إلى وجهات نظره ؟ وهل يفترض كوفى من الغباوة ما أعطى معه مشعوذاً هذه اللهجة ؟ أراى قد أقمت ، على الأقل ، دليلاً على صاحب نبوغ وضيع يخاطب الناس بما يلائم سألهم ، وكذلك انظروا إلى آخر الفقرة التالية ، ألم تشتمل على قول لكل شخص آخر غير مسيو فورمه ؟

شيء ، ولا ننسُ بينت شفة ، فلو جرؤ تلميذى على فتح فيه لكان ولداً يستحق السحق .

تنطوى دقائق هذا المثال كلها على طائل أكثر مما يلوح ، وما أكثر ما يشتمل عليه الدرس الواحد من دروس ! ويا للعواقب المهيئة التى تجرُّ إليها حركة الزهو الأولى ! فيها أيها العلم الشاب ارقب هذه الحركة الأولى بدقة ، وإذا ما استطعت أن تتمهد بها السبيل الخرى ، أو زوال خطوة^(١) ، فاطمن إلى عدم تكرارها لزمى طويل ، ويا للأهب كما تقول ! وأوافق على هذا ، وذلك كله لتجهيزنا بيوصلة نغنيينا عن دائرة نصف النهار .

وإنا ، بعد أن علمنا أن المغنطيس يؤثر فى الأجسام الأخرى ، لم يبق لدينا ما نبادر إليه غير صنع آلة مشابهة لى رأينا ، وأن نعد منضدة مجوفة وحوضاً مبسوطاً على مستوى المنضدة مملوءاً ماءً مخضاضاً ، وأن نعد بطة حسنة الصنع ، إلخ . ، وننعم النظر حول الحوض غالباً ، فنلاحظ أخيراً أن البطة الساكنة تتبع عين الانجاء دائماً ، وتتبع هذه التجربة ونفحص هذا الانجاء فنجد أنه من الجنوب إلى الشمال ، ولا نحتاج إلى ما هو أكثر من هذا ، فقد وجدت بوصلتنا أو ما يعدها ، وهكذا نلج نطاق الفزياء .

(١) إذن ، يكون هذا الخرى وزوال الخطوة من على ، لا من عمل المشعوذ ، وبما أن مسيو فورمه يريد أن يستل على كتابي ، وأن يطبعه على شكل لا يغير فيه غير نزع اسمي منه ووضع اسمه فى مكانه ، فايكلف نفسه ، على الأقل ، بأن يقرأه ، ولا أقول أن يؤلفه .

وتشتمل الأرض على أقاليم كثيرة ، وتختلف هذه الأقاليم باختلاف درجات الحرارة ، وتختلف الفصول اختلافاً محسوساً كلما اقترب من القطب ، وتنقبض جميع الأجسام بالبرد ، وتنبسط بالحر ، وأكثر ما تقاس به هذه النتيجة في الموائع ، وأكثر ما تكون محسوسة في المشروبات الروحية ، ومن هنا أتى ميزان الحرارة ، والريح تلطم الوجه ، ولذا فإن الهواء جسم سيال ، ويشعر بالهواء وإن لم توجد وسيلة لرؤيته ، وأقلبوا كأساً في الماء تجدوا أنه لا يملؤها ما لم تتركها للهواء تخرجاً ، ولذا يكون الهواء قادراً على المقاومة ، وأغطيوا الكأس أكثر من ذلك في الماء تجدوا الماء يكتسب فضاء من الهواء من غير أن يمتلأ هذا الفضاء تماماً ، ولذا يكون الهواء قادراً على الانقباض إلى حد معين ، وتنط الكرة المملوءة هواء مضغوطاً بأحسن مما تكون مملوءة بأية مادة أخرى ، ولذا يمدد الهواء جسماً مطاطاً ، واستلقوا في الحمام ، وارفعوا ذراعكم أفقياً خارج الماء تشعروا بأنها مُثْقَلَةٌ بأوزان هائلة ، ولذا يكون الهواء جسماً ثقيلاً ، ووازنو بين الهواء والسيالات الأخرى تستطيعوا قياس ثقله ، ومن هنا أتى ميزان الجو والمص والانبوب الهوائى ومفرغة الهواء ، ولو بحثت في قوانين توازن الأجسام وتوازن السوائل لوجدتها قد قامت على تجارب غليظة كهذه ، ولا أرغب في دخول غرفة الفزياء التجريبية لشيء من جميع ذلك ، فلا يروقى جميع جهاز هذه الآلات والأدوات ، فالجوء العلمى قاتل العلم ، وذلك لأن جميع هذه الآلات تُخيف الولد أو لأن صورها تُقاسم ما يجب أن يبديه من انبساط نحو نتائجها وتشتت في هذا الانتباه .

وأريدُ أن نصنع جميع آلاتنا بأنفسنا ، ولا أريد البدء بصنع الآلة قبل التجربة ، ولكنني أريد ، بعد أن تُبصر التجربة مصادفةً مثلاً ، أن نخترع الآلة التي نحقق بها ، وأفضلُ ألا تكون آلاتنا متقنة دقيقةً ، وأن تكون لدينا أفكارُ أكثر وضوحاً عما يجب أن تكون عليه هذه الآلات وعما يجب أن تؤدي إليه من أعمال ، وإني ، كأول درسٍ عن توازن الأجسام والقوى ، لا أبحث عن الموازين ، وإنما أضع عصاً بالعرض على ظهر كرسى ، وأقيسُ بين قسَمي العصا عند التوازن ، وأضيف إلى الأوزان من ناحيةٍ ومن أخرى فأجعلها متساوية تارةً ومتفاوتة تارةً أخرى ، وأجذب العصا وأدفعها كما تقضى به الضرورة ، فأجدُ أخيراً أن التوازن ينشأ عن نسبةٍ متقابلة بين مقدار الأوزان وطول العتَل ، وهكذا يصير عوَيْلي الفيزيوي قادراً على تعديل الموازين قبل أن يراها .

ولا يراءى في أن ما يناله الإنسان من معارفٍ حول الأشياء عن تعلُّم ذاتي يكون أكثر وضوحاً وضماناً من المعارف التي يتلقاها من الآخرين ، وأضيفُ إلى هذا ما يكون من عدم تعويد الإنسان عقله أن يخضع لذي سلطانٍ بدناءة فضلاً عن ظهوره أكثر براعةً في اكتشافه نسباً وربطه أفكاراً واختراعه أجهزةً مما يحدث له ، عند انتحاله جميع هذه الأمور تلقيناً ، من انحطاط ذهنه في البلادة ، شأنُ جسم الإنسان الذي يُلبس ويُحذى ويُخدم دائماً من قبل أجراءه ويُجرى من قبل خيله فيفقد قوة أعضائه وعادتها في آخر الأمر ، وكان بوالو يفاخرُ بأنه علّم راسين نظم الشعر بصعوبة ، فبين كثيرٍ من المناهج الرائعة لتعلم العلوم بأخصر الطرق ترانا محتاجين

كثيراً إلى من يَمْنَحُنَا منهاجاً نَتَعَلَّمُهَا به مع الجُهد .

وأكثرُ ما يُشْعِرُ به من فائدةٍ في هذه الأبحاثِ البطيئة المُتَعَبَةِ هو أن يُحَفِّظَ الجِسْمُ ، في أثناء الدروس النظرية ، نشيطاً ، والأعضاءَ مَرِنَةً ، وأن تَدْرَبَ الأيدي بلا انقطاع على ما ينفع الرجلَ من عملٍ وعادات ، وكَثُرَتِ الآلاتُ التي اخترِعت لتكون دليلاً لنا في تجارِبِنَا وتقوم مقام دقة حواسِنَا فتؤدى إلى إهمال تمرينها ، ويُغْنِي مقياسُ المساحة عن تقدير اتساع الزوايا ، وتعتمد العين ، التي كانت تُقَدِّرُ المَسَافَاتِ بدقة ، على السلسلة التي تَدْرَعُهَا عَوَضاً عنها ، ويُغْنِي القَبَّانُ من الوزن الذي كنت أعْرِفُهُ باليد ، وكلما كانت آلاتُنَا مُتَقَنَةً غَدَّتْ أعضاؤُنَا غليظة خُرْفًا ، وكلما جمعنا آلاتٍ حَوَّلْنَا عُدُنَا لا نَجِدُ منها في أنفسنا شيئاً .

ولكن متى بَدَّلْنَا في صُنْعِ هذه الآلات من الحِدْقِ ما يُعَوِّضُ منها ، ومتى استعملنا في تكوينها من الفِطَانَةِ ما نستغنى معه عنها ، كان هذا غُنْماً بلا غُرْمٍ ، وكان هذا إضافةً فَنِيَّ إلى الطبيعة ، وصِرْنَا أَكْثَرَ دَقَّةً من غيرِ أن نصبح أقلَّ مهارةً ، وإذا ما شَغَلْتُ الولدَ في مَصْنَعٍ ، بدلاً من تَغْرِيبِهِ على الكتب ، عَمِلْتُ يَدَاهُ نفعاً لذهنه ، وأضحى فيلسوفاً مع اعتقاده أنه ليس سوى عامل ، نعم إنه يُوجَدُ لهذا التمرين من المنافع الأخرى ما أَتَكَلَّمُ عنه فيما بعد ، فَيُرَى كيف يُمَكِّنُ أن يُرَقَى من الرياضات الفلسفية إلى وظائف الرجل الحقيقية .

وما قلتُ سابقاً إن المعارف النظرية الصَّرْفَةُ لا تُلَاقِ الأُولَادَ مطلقاً ، حتى مَنْ يَدْنُو من سنِّ المراهقة ، ولكن ، من غير إدخالٍ لهم ضِيقٍ نِطاقِ الفِزْيَاءِ النظرية ، اصْنَعْ ، على الخصوص ، ما يرتبط به بعضُ التجاربِ

فى بعض ، وذلك بشئ من الاستنباط ، وذلك ليستطيعوا بهذا التسلسل أن يَصْعَوْها منتظمةً فى أذهانهم ، وأن يَذْكُرُوها عند الحاجة ، فمن الصعوبة بمكان أن تستقرَّ الأعمالُ ، حتى البراهينُ المنعزلة ، بذاتِهم عند عدم وجود وسيلةٍ تردُّها إليها .

وفى البحث عن سُنَنِ الطبيعة ابدءوا ، دائماً ، بأكثر الحادثات شيوعاً وأشدّها ظهوراً ، وعوّدوا تلميذَكم عدمَ عدِّ هذه الحادثات عللاً ، بل وقائع ، وأتناول حَجراً ، وأزعمُ أننى أَضَعُهُ فى الهواء ، وأفتح يدي ، وَيَسْقُطُ الحجر ، وَأُبْصِرُ إِمِيلَ منتبهاً لِمَا أَفْعَلُ ، وأقول له : لِمَ سَقَطَ هذا الحجر ؟

وأىُّ ولد يَقْصُرُ عن فهم هذا السؤال ؟ لا أحدَ ، ولا إِمِيلَ أيضاً ، وذلك ما لم أَكُنْ قد بذلتُ جهداً كبيراً فى تعليمة عدمَ الجواب عنه ، وسيقول الجميعُ إن الحجرَ يَسْقُطُ لأنه ثقيل ، وما الثقيل ؟ هو الذى يَسْقُطُ ، أَيْسَقُطُ الحجرُ لأنه يَسْقُطُ إِذَنْ ؟ وهنا يتوقَّفُ فيلسوفى الصغيرِ جِدِّياً ، وهذا هو درسه الأول فى الفِزياء النظرية ، وسوالا أَفاده هذا الدرس على هذا الوجه أم لم يُفِده كان هذا الدرس صائباً دائماً .

وكما تقدم الولدُ ذكاءً حَمَلْتَنَا عواملُ مهمةٌ أخرى على كثيرٍ من الحَذَرِ فى اختيار أشاغيله ، وهو إذا ما انتهى إلى معرفة نفسه بما فيه الكفاية لِيَتِمَّثل ما يقوم عليه رفاهه استطاع من قُوَّره أن يَذْرِكَ من الملائق التى تكون على شئ من الاتساع للحكم فيما يلائمه وما لا يلائمه ، وهو يكون حينئذٍ فى حالٍ بِشَعْرٍ معها بالفرق بين الجِدِّ والهَزَلِ فلا يَعُدُّ هذا غيرَ إِرَاحَةٍ

لذلك ، وهناك يُمكن الأمور ذات النفع الحقيقي أن تدخل ضمن دروسه وأن تُلزمه بتطبيق لها أثبت مما يُعبره من الألّهوات البسيطة ، ومن شأن قانون الضرورة الناشئ دائماً أن يُعلّم الإنسان باكراً عمَل ما لا يروقه اجتناباً لسوء يؤذيه أكثر من ذاك ، وهذه هي عادة الحذر ، وعن هذا الحذر الحسن الترتيب أو السّيء التنظيم ينشأ كلُّ حكمة بشرية أو بؤس بشرى .

وكلُّ إنسان يريد أن يكون سعيداً ، ولكنّ كون الإنسان سعيداً يقضى بيد الإنسان أن يعرف ما السعادة ، وتكون سعادة الرجل الفطريّ بسيطةً بساطة حياته ، وهي تقوم على عدم ألمه ، وهي تتألف من الصحة والحرية والضرورة ، وغير هذه سعادة الإنسان الأدبيّ ، ولكن ليست هذه موضوع البحث هنا ، ولا أكرّر كثيراً أنه لا يوجد غير الأشياء الحسية ما يُمكن أن يكثر له الأولاد ، ولا سيما مَنْ لم يُوقظ زهوهم ، ومَنْ لم يُفسدوا قطّ بسمّ الرأى .

وإذا ما أبصر الأولاد احتياجاتهم قبل أن يحشوها نهم هذا على سابق تقدم ذكائهم كثيراً ، فيأخذون في معرفة قيمة الوقت ، وهناك يكون من المهمّ أن يُعوّدوا استخداماته في الأمور المفيدة ، ولكن على أن تكون هذه الفائدة مما يُبصره مَنْ في سنّهم . وأن تكون في متناول مداركهم ، ولا ينبغي أن يُعرّض عليهم حالاً كلُّ ما يرتبط في النظام الأدبيّ وعادة المجتمع ، فمن السخافة أن يطالبوا بملازمة أمورٍ قليل لهم بإيهايم إنها تنطوى على خيرٍ لهم من غير أن يعرفوا ما هذا الخير ، ووكد لهم أنهم ينتفعون بها إذا ما

صاروا كباراً ، وذلك من غير أن تكون لهم الآن أية مصلحة في هذه الفائدة المزعومة التي لا يستطيعون فهمها .

ولا تدعوا الولد يصنع شيئاً على قولٍ يسمعُ ، فلا حسنَ عند الولد غيرُ ما يشعرُ بأنه حسنٌ ، وإذا ما دفعتم الولد ، دائماً ، إلى ما وراء إدراكه حسبتُم أنكم أنتم عملَ بصيرةٍ ، وما الأمرُ كذلك ، وإذا ما جهزتموه ببعض الآلات الفارغة ، التي لن يستعملها مطلقاً على ما يحتمل ، نزعتم منه الإدراك السليم الذي هو أشملُ ما لدى الإنسان ، وعودتموه أن يُقَادَ من قبل غيره دائماً وألا يكون غيرَ آلهِ بيد الآخرين ، وأنتم تودّون أن يكون ذكولاً في صِغره ، وهذا يعني أن يكون ميقاتاً* غافلاً في كِبَره ، وأنتم لا تفتأون تقولون له : « إن جميع ما أطلبُ منك نافعٌ لك ، ولكنك لست في حالٍ تُدركه فيه ، وما يهمني أن تفعلَ هذا أو لا تفعله ؟ وكلُّ ما نضعُ هو في سبيلِ نفسك وحدها » ، وما يصدُرُ عنكم من مثل هذا القول الجليل الذي تُنسِكونه به اليوم لتجعلوه حكماً يُعَدُّون به نجاحَ أقوالٍ يُنسِكُ بها ذاتَ يومٍ مفتونٌ أو نفاثٌ أو ترثارٌ أو مكارٌ ، أو مجنونٌ من كلِّ نوعٍ ، ليوقعه في حبالته أو ليَحْمِلَه على استحالة حماقته .

ومن المهمَّ أن يعرفَ الرجلُ أموراً كثيرة لا يُمكنُ الولدَ أن يدرك فائدتها ، ولكن هل يجبُ ، وهل يُمكنُ ، أن يتعلم الولدُ كلَّ ما يهيمُ الرجلَ أن يعرفه ؟ واسعوا في تعليم الولد كلَّ ما هو صالحٌ له تروا أن هذا يستغرق جميعَ وقته ، ولمَ تريدون أن يَعِكِفَ الولدُ على دروسِ عمرٍ

* الميقات : الذي لا يسمع شيئاً إلا يقن به .

قليل الاطمئنان إلى بلوغه ضراراً بدروس ثلاثه اليوم ؟ وستقولون : « ولكن أيكون من الوقت ما تتعلم فيه ما يجب أن يُعرف عند ما يحل الوقت الذي تستعمله فيه ؟ » ، وأجهل هذا ، ولكن الذي أعرف هو أن من المتعذر تعلّمه قبل الأوان ، وذلك لأن التجربة والشعور هما معلّمانا الحقيقيان ، وما كان الرجلُ ليعرف ما يلائم الرجلَ إلا في الأحوال التي يوجدُ فيها ، ويعرف الولدُ أنه صُنِعَ ليصير رجلاً ، وتعدُّ جميع الأفكار التي يُمكن أن تكون لديه حَوْلَ حال الرجل فُرَصَ تعليمٍ له ، غير أنه يجب أن يبقى جاهلاً جهلاً مطلقاً للأفكار التي تدور حَوْلَ تلك الحال ولا تكون في متناولِهِ ، وليس جميعُ كتابي غيرَ دليلٍ مستمرٍّ على هذا المبدأ في التربية .

ومتى اتهمنا إلى إعطاء تلميذنا فكرةً عن كلمة « مفيد » كانت لدينا وسيلةٌ كبيرة أخرى للسيطرة عليه ، وذلك لأن لهذه الكلمة فعلاً عظيماً فيه ما دام لا يوجدُ لها سوى معنى واحدٍ مناسبٍ لسنّهِ ، وما دام يُبصر فيها بوضوحٍ ما يلائم رفاهيته الحاضرة ، وأما أولادُكم فلا تعمل هذه الكلمة فيهم مطلقاً ، وذلك لأنكم لم تُغنّوا بإعطائهم فكرةً عنها تكون في متناولهم ، ولأنه يُهددُ إلى آخرين ، دائماً ، أن يتداركوا ما يكون مفيداً لهم ، فلا يحتاجون إلى التفكير بأنفسهم في ذلك مطلقاً ، ولا يعرفون ما الفائدة .

وما فائدة ذلك ؟ هذه هي الكلمة المقدسة من الآن فصاعداً ، هذه هي الكلمة المحدّدة بيني وبينه لجميع أفعال حياتنا ، وهذا هو السؤال الذي يتبع (٢٠)

من ناحيتي أتباعاً لامراء فيه جميع الأسئلة فيصالح زاجراً لتلك الأسئلة الكثيرة السخيفة الثميلة التي يضمني بها الأولاد ، بلا مهمل وعلى غير جدوى ، جميع من يحيطون بهم ، وذلك ليمارسوا نحوهم نوعاً من السلطان أكثر من قصدهم أن يفوزوا بفائدة ما ، ولا يسأل إلا كما كان يسأل سقراط ذلك الذي يعلم ، كأنهم درس يلقى عليه ، ألا يرغب في معرفة شيء غير نافع ، فلا يطرح سؤالاً من غير سبب ، وذلك لأنه يعرف أنه سيطلب منه أن يبين سببه قبل أن يظفر بجواب عنه .

وروا أية آلة قوية أضع بين أيديكم لتؤثروا في تلميذكم ، وبما أنه لا يعرف سبب أي شيء فإنكم تستطيعون أن تحمله على السكوت متى أردتم ، وعلى العكس ما أعظم ما تحيدون في معارفكم وتجربتم من نفع في إطلاعه على فائدة جميع ما تقدمون إليه ! وذلك لأنه ، من غير أن تنسبوا إلى الخطأ ، ينطوي وضعكم هذا السؤال له على تعليمه أن يصح لكم عين السؤال بدوره ، ويجب عليكم أن تتوقعوا ، في كل ما تعرضون عليه فيما بعد ، أن يسير على مثالكم فلا يفوته أن يقول لكم : « وما فائدة ذلك ؟ » .

وقد يكون هنا أصعب شرك يجتنبه معلم ، وذلك أن الولد ، عند طرح سؤاله ، إذا لم تحاولوا غير الخروج من المأزق فقدمتم إليه سبباً عنه لا يستطيع أن يذكره ، يرى أنكم تستندون في دليلكم إلى أفكاركم ، لا إلى أفكاره ، فيعتقد أن ما تقولون له صالح لسنكم ، لالسنه ، فيعود غير معتمد عليكم ، وهناك كل الخسران ، ولكن أين المعلم الذي يتفضل

بالوقوف فجأة ويعترف بخطئه أمام تلميذه ؟ إن الجميع يَتَّبِعُ قاعدةً قائلَةً بعدم الاعتراف حتى بالخطأ الذي يقترب فعلاً ، وأما أنا فأخذ قاعدةً قائلَةً بالاعتراف حتى بالخطأ الذي لم أَصْنَعْ ، وذلك عندما أعجزُ عن بَسْطِ أسبابي ضِمْنَ متناوله ، وهكذا ، بما أن سلوكي يقوم على الوضوح في نفسه دائماً فإنه لا يرتاب منه دائماً ، وبهذا أحتفظ بأعظم اعتمادٍ حين أفترض لنفسي خطأً يكتُمون مثله عند صدورهِ عنهم فعلاً .

وأول ما يجب أن يَخْطُرَ ببالكم نُذْرَةٌ عَرَضِيَّةٌ عليكم عليه ما يُلْزَمُ بتعلُّمه ، فهو الذي يجب أن يَرْغَبَ فيه ، وأن يبحث عنه ، وأن يَجِدَهُ ، وعليكم أن تَضَمُّوه ضِمْنَ متناوله ، وأن تَوَلَّدُوا فيه هذه الرغبة بلباقةٍ وأن تُجَهِّزُوهُ بوسائل قضائها ، ومن ثمَّ يجب أن تكون أسئلتكم قليلةً الوقوع ، ولكن مع حُسْن الاختيار ، وبما أنه يكون لديه ما يَطْرَحُ عليكم من الأسئلة أكثر مما تَطْرَحُون عليه بدرجاتٍ فإنكم تكونون أكثر سِتْراً دائماً ، وفي حال تسألونه معها غالباً : « ما فائدة معرفة ما تسأل عنه ؟ » .

ثم بما أن مما يهمُّ قليلاً أن يَعْلَمَ هذا أو ذاك ، على أن يُحْسِنَ تَمَثُّلَ ما يتعلَّم واستعمال ما يتعلَّم ، فإنه يَحْسُنُ عدمُ إعطائه إيضاحاً صالحاً عما تقولون له ، عند ما يُعَوِّزُكم هذا الإيضاح ، ولكن لا تتردّدوا في أن تقولوا له : « ليس لدى جوابٍ حسنٍ أعطيك إياه ، كنتُ على خطأ ، فدعنا نَطْرَحَ الموضوع جانباً » ، وإذا كان درسُكم في غير محله بالحقيقة فلا ضَيْرَ عليكم أن تتركوه تماماً ، وهو إذا لم يكن هكذا لم تَلْبَثُوا أن تَجِدُوا ، مع قليلٍ من العناية ، فرصةً جعلَ فائدته أمراً محسوساً .

ولا أحبُّ الإيضاحَ بالكلامِ مطلقاً ، فلا يُعِيرُهُ الشُّبَّانُ غَيْرَ انتباهٍ قليلٍ ، وهم لا يَحْفَظُونَهُ أبداً ، فالأشياء ! الأشياء ! ولن أُكْرِّرَ بما فيه الكفاية كوننا نَمْنَحُ الكلماتِ قدرةً كبيرةً ، فبِتَرْيِينِنا القائمةَ على الثَّرةِ لا نَصْنَعُ غَيْرَ ثَرْتَارِينَ .

وَبَيْنَا أَدْرُسُ مع تلميذى مجرى الشمس وكيف تُعَيِّنُ الجهاتُ إذْ يقاطعنى سائلاً عن فائدة جميع هذا كما أفترض ، ويا أَرَوْعة ما أريد أن أقول له ! ويا لكثرة الأمور التى أغتنم فرصة تعليمه إياها حين أُجِيبُ عن سؤاله ، ولا سيما عند وجود شهودٍ على حوارنا^(١) ! سأُحَدِّثُهُ عن فائدة الرِّحَلاتِ ومنافع التجارة وما يُنْتِجُ كلُّ إقليمٍ من محاصيلٍ خاصةٍ ، وعن طبائع مختلف الشعوب ، وعن استعمال التقويم ، وعن حساب تعاقب الفصول للزراعة ، وعن فنِّ الملاحة ، وعن طريقة السير فى البحر واتباع الإنسان طريقه فيه تماماً من غير أن يَعْرِفَ أين هو ، وسيتناولُ إيضاحى السياسة والتاريخ الطبيعى وعلم الفلك وأخلاق الأمم حتى الحقوق الدَّوَلِيَّةِ ، وذلك على وجهٍ أعطى تلميذى به فكرةً كبيرةً عن جميع هذه العلوم ورغبةً عظيمة فى تعلُّمِها ، ومتى فَرَّغْتُ من قول كلِّ شىءٍ حُسِبْتُ متحدثاً لم يَفْهَمُ أيةَ فكرةٍ منه ، ويشتدُّ ميله إلى سؤالى عن فائدة تعيين الجهات ، ولكنه لا يَجْرؤُ على هذا خشيةً غصبي ، ويَجِدُّ أن الأفضلَ له أن يتظاهر بفهم ما حِيلَ على الاستماع له ، وهذا هو الوجه الذى تزاوَل به أروعُ تربيَّاتنا .

(١) ما لاحظت غالباً أنه يهدف فى الدروس العلمية التى تلقى على الطلبة إلى استرعاء سماع الحضور من الوجوه أكثر من استرعاء سماع الطلبة ، وإني لمل بيقين بما قلت آنفاً ، فقد جربت ذلك بنفسى .

بَيِّدَ أَنْ إِمِيلَ الَّذِي نَشِئُ تَنْشِئَةً أَكْثَرَ خَشَوْنَةً ، وَالَّذِي نُلَاقِي عَنْاءَ كَبِيرًا فِي تَعْلِيمِهِ فِكْرَةً صَعْبَةً ، لَا يَسْتَمِعُ لَشَيْءٍ مِنْ جَمِيعِ هَذَا ، وَهُوَ يَهْزُبُ عِنْدَ أَوَّلِ كَلِمَةٍ لَا يَفْهَمُهَا مُتَبَخَّرًا حَوْلَ الْغُرْفَةِ تَارِكًا إِيَّايَ أُسْرَبُ فِي الْكَلَامِ وَحْدِي ، وَلِنَبْتَخِثَ عَنْ حَلِّ أَخْشَنَ مِنْ ذَاكَ ، فَلَا قِيَمَةَ لِحِجَازِي الْعِلْمِيِّ عِنْدَهُ .

وَقَدْ كُنَّا نَلَاظِظُ مَوْضِعَ الْغَابَةِ الْوَاقِعَةِ شِمَالِ مُونْمُورَنْسِي عِنْدَ مَا قَاطَعْنِي بِسُؤَالِهِ الْمَزْعُوجِ ، وَهُوَ : « مَا فَائِدَةُ هَذَا ؟ » ، وَأَقُولُ لَهُ : « الْحَقُّ مَعَكَ ، وَلَكِنْ دَعْنَا نُنْكَرُ فِي الْأَمْرِ مَلِيًّا ، فَإِذَا مَا وَجَدْنَاهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَشَيْءٍ لَمْ نَعُدْ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَلْهُوَاتِ الْمَقِيدَةَ لَا تُعَوِّزُنَا » ، وَنَجِدُ شَيْئًا آخَرَ نَفْعَلُهُ مُعْرِضِينَ عَنِ الْجُغْرَافِيَةِ بَقِيَّةَ يَوْمِنَا .

وَفِي صَبَاحِ الْغَدِ اقْتَرَحُ عَلَيْهِ الْقِيَامَ بِزُهْرَةٍ قَبْلَ الْفَطْوَرِ ، وَلَا يَطْلُبُ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ، وَيَبْدُو الْأَوْلَادُ مُسْتَعِدِينَ لِلْعَدُوِّ دَائِمًا ، وَلِهَذَا سَاقَانِ صَالِحَتَانِ ، وَنَضَعُ فِي الْغَابَةِ ، وَنَجُوبُ الْمَرْجِ ، وَنَذِيهُ ، وَلَا نَعْرِفُ أَيْنَ نَحْنُ وَعِنْدَمَا أَرَدْنَا الْعَوْدَ لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَجِدَ طَرِيقَنَا ، وَيَمُرُّ الْوَقْتُ ، وَيُقْبِلُ الْحَرُّ ، وَنَجُوعُ ، وَنُسْرِعُ ، وَنَهْمُ عَلَى وَجْهِنَا عَبَثًا ، وَلَا نَجِدُ فِي كُلِّ مَكَانٍ غَيْرَ الْغَابِ وَالْقَالِعِ وَالسَّهُولِ ، وَلَا نَجِدُ مَعْلَمًا نَهْتَدِي بِهِ ، وَنَزِيدُ حَرًّا وَتَعَبًا وَجُوعًا ، وَلَا نَزِيدُ بِسَيْرِنَا إِلَّا تَبْهَانًا ، وَأَخِيرًا تَجَلَّسُ لِلِاسْتِرَاحَةِ وَالتَّشَاوُرِ ، وَاقْتَرَضَ أَنْ إِمِيلَ نَشِئُ كَأَيِّ وَلَدٍ آخَرَ ، فَلَا يُشِيرُ مُطْلَقًا ، وَيَبْكِي ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّا عِنْدَ بَابِ مُونْمُورَنْسِي الَّتِي يَحْجُبُهَا عَنَّا دَغْلٌ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الدَّغْلَ غَابَةٌ فِي نَظَرِهِ ، وَوُلِدَ فِي مِثْلِ قَامَتِهِ يُدْفَنُ فِي الدَّغْلِ .

وَنَقِضِي بَضْعَ دَقَائِقَ صَامَتِينَ وَأَقُولُ لَهُ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْقَلْقِ : « أَى إِمِيلُ الْعَزِيزُ ، مَا نَصْنَعُ لِلْخُرُوجِ مِنْ هُنَا ؟ » .

إِمِيلُ عَرَفَانَ بَاكِئًا بِكَاءٍ مُرًّا : « لَا أَعْرِفُ شَيْئًا ، فَأَنَا تَعِيبٌ جَائِعٌ عَطْشَانٌ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمِضِيَ أَكْثَرَ مِمَّا صَنَعْتُ » .

جَانْ جَاكْ : « أُنَعْتَقِدُ أَنَّكَ فِي حَالٍ أَحْسَنَ مِمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ ؟ أَوْ تَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ يُغَوِّزِي لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ الْقَطُورَ بِدُمُوعِي ؟ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْبُكَاءِ ، وَالْمَهْمُ أَنْ نَهْتَدِيَ إِلَى السَّبِيلِ ، وَلِنَنْظُرَ إِلَى سَاعَتِكَ ، فَمَا السَّاعَةُ ؟ » .

إِمِيلُ : « حَلَّ وَقْتُ الظَّهْرِ ، وَأَنَا جَائِعٌ » .

جَانْ جَاكْ : « مِنْ سَوْءِ الْحَظِّ أَنَّ الْغَدَاءَ لَا يَأْتِي لِلْبَحْثِ عَنِّي ، وَنَحْنُ فِي مَتْنَصِفِ النَّهَارِ ، وَهَذِهِ هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي لَاحَظْنَا فِيهَا أَمْسَ مَوْضِعَ الْغَابَةِ مِنْ مُونْمُورَنْسِي ، لَوْ كُنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَلَاظِ مَوْضِعَ مُونْمُورَنْسِي مِنَ الْغَابَةِ ! ... » .

إِمِيلُ : « أَجَلْ ، وَلَكِنَّا كُنَّا نَرَى الْغَابَةَ أَمْسَ ، وَمِنْ هُنَا لَا تَرَى لِلدِّينَةِ » .

جَانْ جَاكْ : « الْأَمْرُ هَكَذَا ، لَوْ كُنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجِدَ مَوْقِعَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ نَرَاهَا ! ... » .

إِمِيلُ : « آه ! يَا صَدِيقَ الْعَزِيزِ ! » .

جَانْ جَاكْ : « أَلَمْ تَقُلْ إِنَّ الْغَابَةَ كَانَتْ ... » .

إِمِيلُ : « فِي شِمَالِ مُونْمُورَنْسِي » .

جان جاك : « ومن ثمَّ يجب أن تكون مُؤمَّورَنسِي ... » .

إميل : « في جنوب الغابة » .

جان جاك : « أعندنا وسيلةٌ نَجِدُ بها الشمالَ وقت الظهر ؟ » .

إميل : « نَعَمْ ، باتجاه الظِّلِّ » .

جان جاك : « ولكن الجنوب ؟ » .

إميل : « ما نصنَع ؟ » .

جان جاك : « إن الجنوب هو المقابل للشمال » .

إميل : « هذا صحيحٌ ، وليس علينا غيرُ البحث عن مقابل الظِّلِّ ،

آه ! ها هو ذا الجنوب ! هذا هو الجنوب ! لا رَبِّبَ في أن مُؤمَّورَنسِي واقعةٌ في هذه الجهة » .

جان جاك : « قد تكونُ على حَقِّ ، فَلَنَسْلُكُ هذا الطريقَ الضيقَ

من بين الغابة » .

إميل مُصَفِّقًا مُخْرِجًا صوتَ فَرَحٍ : « آه ! أرى مُؤمَّورَنسِي ! أراها

أمامنا ، هي ظاهرة ، لنذهب للفطور ، لنذهب للغداء ، لنزْكُضْ ، أَجَلْ ،

إن لعلم الفلك فائدةٌ في بعض الأحوال » .

واعلموا أنه إذا لم يَقُلْ هذه الجملة الأخيرة فإنه يُفَكِّرُ فيها ، ولا حَرَجَ ،

وذلك بشرط ألا أكونَ الذي يقولها ، وثِقُوا ، كما هو الواقع ، بأنه لن

يَنسَى درسَ هذا النهارِ مَدَى حياته ، وذلك بدلاً من أن ينساه في الغد

لو كنتُ قد اقتصرْتُ على افتراضه له في غرفته ، فيجب الكلامُ ما أمكنت

الأفعالُ ، وألا يقالَ غيرُ ما يُستطاع من الأعمال .

ولا يَتَوَقَّعُ القارئُ أننى أبلغُ من ازدرائه ما أورد له مثلاً عن كلِّ نوعٍ من الدرس ، ولكن مهما تَكُنْ المسئلةُ فإننى لا أستطيع أن أحتُ المِعلم على قياس برهانه بقابلية التلميذ ، وذلك لأن الخطرَ ، كما قلتُ ، ليس فيما لا يفهم مطلقاً ، بل فيما يعتقد أنه يفهمه .

وما أذكرُ أننى أردتُ منَحَ أحدِ الأولاد مَيْلاً إلى الكيمياء ، وذلك بعد أن أطلعتُه على كثيرٍ من الرواسب المعدنية ، فأوضحتُ له كيف يُصنع المِداد ، وقلتُ له إن سواده ينشأ عن حديدٍ مُجَزَّأٍ تَجَزئةً دقيقةً ، منفصلٍ عن الزاج ، وراسبٍ بسائلٍ قَلْوِيٍّ ، وبينما كنت قائماً بإيضاحى العلمى إِذْ قاطعنى الغادرُ الصغير بسؤالٍ كنتُ قد علمتُه إياه ، وأقعُ فى حيرةٍ كبيرة .

وأفكرُ قليلاً ، وأقرُّ ما أضنع ، فأرسلُ من يأتينى بخميرٍ من قَبْرِ صاحبِ المنزل ، كما أخضرُ خمرًا رخيصةً من الخمار ، وأتناول قارورةً صغيرة من محلول القلي الثابت ، ثم أضع أمانى قدحين من نَوَعِي الخمر هذين ^(١) ، وأقول له ما يأتى :

يُنَشُّ كثيرٌ من الفِلال لإظهاره أحسنَ من حقيقته ، ويخدعُ هذا الغِشُّ العينَ والذوقَ ، ولكنه ضارٌّ ، ويجعلُ الشئ الغشوشَ ، بظايره الجليل ، أسوأ مما كان عليه سابقاً .

وتُنَشُّ المشروباتُ ، ولا سيما الخمرُ ، وذلك لصعوبة اكتشاف الغشِّ ، ولأن الخادعَ يُعطى ربحاً كبيراً .

(١) ينفع كل جهاز صغير يسبق الإيضاح الذى يلقى على الولد في جعل الولد منتبهاً .

وَتَعَشُّ الْخَمْرُ الْمُرَّةَ أَوْ الْخَضِرَاءَ بِالْمُرْدَاسْنَجِ ، وَالْمُرْدَاسْنَجُ مُحَضَّرٌ مِنَ الرَّصَاصِ ، وَالرَّصَاصُ إِذَا رُكِّبَ مَعَ الْحَوَامِضِ اسْفَرَ عَنْ مِلْحٍ حُلْوٍ مُعَدَّلٍ لِحُمُوضَةِ الْخَمْرِ ، وَلَكِنَّهُ سَامٌّ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ ، وَلِذَا فَإِنْ مِنَ الْمَهْمِ أَنْ يُعْرَفَ ، قَبْلَ شُرْبِ الْخَمْرِ الْمُشْتَبَةِ فِيهَا ، هَلْ هِيَ مُرْدَاسْنَجِيَّةٌ أَوْ لَا ، وَهَذَا مَا أَصْنَعُ لَا كَتَشَافَ ذَاكَ .

لَا تَشْتَمِلُ الْخَمْرُ عَلَى رُوحٍ مُلْتَهَبٍ فَقَطْ ، كَمَا أَبْصَرْتُمْ مِنَ الْعَرَقِ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا ، بَلْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْحَامِضِ أَيْضًا ، كَمَا يُمَكِّنْكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا ذَلِكَ مِنَ الْخَلِّ أَوْ الثُّفَلِ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا كَذَلِكَ .

وَالْحَامِضُ عِلَاقَةٌ بِالْمَوَادِّ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَّحِدُ مَعَهَا بِالْإِنْحِلَالِ تَكْوِينًا لِلْمَرْكَبِ كَالصَّدِيدِ الَّذِي لَيْسَ سِوَى حَدِيدٍ مُنَحَلٍّ بِالْحَامِضِ الْمُشْتَمَلِ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ أَوْ الْمَاءُ ، وَكَالزُّنْجَارِ الَّذِي لَيْسَ سِوَى نَحَاسٍ مُنَحَلٍّ بِالْخَلِّ .

غَيْرَ أَنَّهُ يُوجَدُ لَذَاتِ الْحَامِضِ عِلَاقٌ بِالْمَوَادِّ الْقَلْوِيَةِ أَكْثَرُ مِمَّا بِالْمَوَادِّ الْمَدِينَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُ الْحَامِضِ مَحْمُولًا ، بِتَدْخُلِ مِنَ الْأُولَى فِي الْأَمْلَاحِ الْمَرْكَبَةِ الَّتِي حَدَّثْتُمْ عَنْهَا ، عَلَى إِرْخَاءِ الْمَعْدِنِ الْمُتَّحِدِ بِهِ لِيَرْتَبِطَ فِي الْقَلَى .

وَهَنَالِكَ تَرُسُّبُ الْمَادَّةِ الْمَدِينَةِ ، الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الْحَامِضِ الْمُسْكٍ لَهَا مُنَحَلَّةً ، وَتَجْعَلُ الْمَائِعَ كَثِيفًا .

وَلِذَا فَإِنْ إِحْدَى تَيْنِكَ الْخَمْرَيْنِ إِذَا كَانَتْ مُرْدَاسْنَجِيَّةً فَإِنْ حَامِضَةً يُنَمِّكُ الْمُرْدَاسْنَجَ مُنَحَلًّا ، فَإِذَا صَبَبْتَ الْمَائِعَ الْقَلْوِيَّ عَلَيْهَا فَإِنَّ الْحَامِضَ يُحْمَلُ عَلَى إِطْلَاقِ الْمُرْدَاسْنَجِ لِيَتَّحِدَ بِالْقَلَى ، وَبِمَا أَنَّ الرَّصَاصَ يَعُودُ غَيْرَ

منحلّ فإنه يظهر ثانيةً ويكدر المائع ، ثم يزسب في أسفل القدح .
 وإذا لم يوجد رصاص^(١) ، أو أي معدن آخر في الخمر ، فإن القلي يتحد
 اتحاداً هادئاً^(٢) بالحامض ، ويبقيان منحلين ، ولا يحدثان أي رسوب كان .
 ثم أصب من شرابي القلوي في القدحين تابعا ، فأما قدح خمرى
 المنزلية فيبقى راتقا شفافا ، وأما الآخر فيعكر في ثانية ، فإذا ما انقضت ساعة
 ربي الرصاص راسبا رسوبا واضحا في أسفل القدح .

فتلك هي الخمر الطبيعية الصافية التي يصلح شربها كما أقول مكرراً ،
 وهذه هي الخمر المشوشة التي تسم ، ويكتشف هذا بذات المعارف التي
 تسألوني عن فائدتها ، والذي يعرف جيداً كيف يصنع الحبر يعرف الخمر
 للمشوشة أيضاً .

وقد كنت مسروراً بمثالي كثيراً ، ومع ذلك فإني أرى عدم وقفي
 لنظر الولد مطلقاً ، وكان لا بد لي من قليل وقت حتى أشعر بأنني لم آت
 غير حقاقة ، وإني ، من غير بحث في أن من المتعذر على ولد في الثانية
 عشرة من سنيه أن يتتبع إيضاحي ، أرى أن فائدة هذه التجربة لا
 تدخل نطاق ذهنه ، وذلك لأنه ، إذ يذوق الخمرين ، يجدّها صالحتين
 فلا يغير أي فكر من كلمة الفس التي رأيت أنني أوضحتها له جيداً ،

(١) مع أن الخمر التي تباع مفرقة من قبل الخمازين بباريس غير مرد منجية فإن من اندر
 أن تكون خالية من الرصاص ، وذلك لأن مناضدهم مجهزة بهذا المعدن ، ولأن الخمر التي تفيض من الكيل
 تحل قسماً من هذا الرصاص حين مرورها عليه واستقرارها به ، ومن الغريب أن تسمح الشرطة بهذا التجرز
 الواضح الخطر ، بيد أن من الواقع كون المومنين لا يشربون من هذه الخمر فلا يكتفون عرضة لسهها !
 (٢) يكون الحامض النباتي حلو جداً ، وإذا كان هذا حامضاً معدنياً ، وكن أقل تمدداً ،
 فإن الامتزاج لا يقع من غير فوران .

حتى إنه لم يكن للكلمتين الآخرين « الويل والسّم » أى معنى عنده ، فهو قد كان فى مثل حال مؤرخ الطبيب فليپ ، وهذه هى حال جميع الأولاد .

ولا وجودَ عندنا لِمَا بين المعلولات والعلل من صِلاتٍ لا يُبْصِرُ ارتباطها ، كما أنه لا وجودَ عندنا لِمَا ليس لدينا عنه فِكْرٌ من الخير والشرِّ ، كما أنه لا وجودَ عندنا لِمَا لا نُحِسُّ من الاحتياجات مطلقاً ، ومن المُحَال أن نكثر بهذه الأمور لِصُنْعِ أمورٍ ترتبط فيها ، ويُبْصِرُ ابنُ الخامسة عشرة سعادةَ الرجل الحكيم ، ويُبْصِرُ ابنُ الثلاثين جلالَ الفردوس ، ولا يُبْذَلُ غيرُ مجهودٍ قليلٍ لِنيلِهما إذا لم يُتَمَكَّلْ كُلُّ منهما ، وإذا ما وقعَ تَمَثُّلُهما لم يُبْذَلْ غيرُ مجهودٍ قليلٍ أيضاً عندَ عدمِ الرغبةِ فيهما ، وعندَ عدمِ الشعورِ بملاءمتهما لنا ، أَجَلْ ، إن من السهلِ إقناعَ ولدٍ بأن ما يُرَادُ تعليمه إياه نافعٌ ، ولكن إقناعه لا يُعَدُّ شيئاً إذا لم يُعرَفَ كيف يُحْمَلُ على اعتقاده ، فمن العبث أن يَجْعَلْنَا العقلُ الهادى نستحسن أو نستهجن ، وليس غيرُ الوَلَعِ ما يُسَيِّرُنَا ، وكيف نولعُ بمنافعٍ لا وجودَ لها عندنا بَعْدُ ؟

ولا تُطْلِعُوا الولدَ على شيءٍ لا يستطيع أن يراه ، وَبَيْنَمَا تكون البشرية غريبةً عنه تقريباً ، ولا يُمكن رَفْعُهُ إلى حال الإنسانِ ، أنزلوا الإنسانَ إلى حال الولد من أَجْلِهِ ، وَبَيْنَمَا تُفَكِّرُونَ فيما يُمكن أن يكون نافعاً له فى دَوْرٍ آخرٍ من العمر لا تُحَدِّثُوهُ عن أمرٍ غيرِ ما يَرَى الآن فائدته ، ثم لا تقابلوا بينه وبين الأولاد الآخرين مقابلةً قياسيً ، ولا تُحَدِّثُوا منافساتٍ ولا مبارياتٍ ، ولا مسابقاتٍ عَدُوٍّ أيضاً ، وذلك عندما يأخذ فى التعقل ،

فأفضلُ مئة مرةٍ ألاَّ يتعلَّمَ مالا يتعلَّمُ إلَّا عن حسدٍ وزهوٍ ، وإنَّما أَدَوْنُ في كلِّ عامٍ ما يتفقُ له من تقدُّمٍ ، فأقابل بين هذا وما يتمُّ له في العام القادم ، وأقول له : « لقد نَمَوْتَ كثيراً ، وهذا هو الخندقُ الذي وثبتَ عليه والثقلُ الذي حملته ، وهذا هو البعدُ الذي رَمَيْتَ إليه حصاةً والميدانُ الذي قطعته عدواً بنفسٍ واحدٍ ، إلخ . ، ولتَرَ الآن ما أنت صانعٌ » ، وهكذا فإنِّي أُحرِّضُه من غير أن أجعله حاسداً لأحدٍ ، وإذا أراد أن يتفوقَ على أعماله السابقة فليصنع ، فلا أرى ضرراً في منافسته لنفسه .

وأمنُتُ الكتبَ ، والكتبُ لا تُعلِّمُ غيرَ الكلامِ حَوْلَ ما لا يُعلِّمُ ، ويرَوِي أن هِرْمِسَ نَقَشَ أصولَ العلمِ على أعمدةٍ حفظاً لِمَا اكْتَشَفَ من طوفانٍ يَقَعُ ، فلو طَبَعَهَا في رؤوسِ الناسِ لُنَقِلَتْ جيلاً بعدَ جيلٍ ، فالأدمغةُ الحسنةُ الإعدادُ هي أَضْمَنُ ما تُنْقَشُ عليه المعارفُ البشريةُ .

أفلا توجَدُ وسيلةً يُقَرَّبُ بها بين دروسٍ كثيرةٍ مبعثرةٍ في كتبٍ كثيرةٍ ، فتُجمَعُ في موضعٍ مشتركٍ يسهلُ أن تُرى فيه ، ويكونَ من المُتَمِّعِ أن تُتَبَعَ عنده ، ويُمكنَ اتِّخَاذُهَا مُعْرِيةً حتى في ذلك الدور من العُمُرِ ؟ ولو أمكنَ اكتشافُ حالٍ تَبَدُّو فيها جميعُ احتياجاتِ الإنسانِ الطبيعيةِ محسوسةً في ذهنِ الولدِ ، وحيثُ تتقدمُ وسائلُ قضاءِ هذه الاحتياجاتِ متعاقبةً بعينِ السهولةِ ، لَوَجَبَ أن تُعطَى مُخَيِّلَتُهُ أولَ تمرينٍ برسمِ تلكِ الحالِ رسماً حياً ساذجاً .
أيها الفيلسوفُ الهمامُ ، أرى اشتعالَ مُخَيِّلَتِكَ ، لا تُزْعِجْ نَفْسَكَ ، فتلكِ حالٌ عُرِفَتْ سابقاً ، وقد وُصِفَتْ بأحسنٍ كثيراً من وَصْفِكَ إياها بنفسك ، وهذا من غيرِ إجحافٍ بك ، وذلك مع أعظمِ حقيقةٍ وأكثرِ بساطةٍ

على الأقل ، وبما أنه لا بُدَّ لنا من الكتب على الإطلاق فإن لدينا من الكتب ، كما أرى ، ما يزود بأفضل رسالة في التربية الطبيعية ، وسيكون هذا أول كتاب يقرؤه إميل ، وستتألف من هذا الكتاب وحده مكتبته لزمن طويل ، وسيختل مكاناً ممتازاً في كل وقت ، وسيكون المتن الذي لا تكون أحاديثنا حول العلوم الطبيعية غير شَرَحَ له ، وسيُتخذ دليلاً في أثناء تقدمنا نحو حُسن الرأي ، وستروقنا مطالعته دائماً ما ظَلَّ ذوقنا غير فاسد ، وما هذا الكتابُ العجيبُ إذن ؟ أهو أرسطو ؟ أهو بليزني ؟ أهو بوفون ؟ كلاً ، وإنما هو روينسن كروزو .

روينسن كروزو في جزيرته ، هو وحيدٌ محرومٌ مساعدة أمثاله وأدوات جميع الصنائع ، وهو ، مع ذلك ، يتدارك معاشه ويُدبر بقاءه ، حتى إنه ينال شيئاً من الرفاهية ، وهذا أمرٌ نافعٌ في كلِّ دورٍ من العمر ، ويوجد ألف وسيلة لجعله مقبولاً لدى الأولاد ، وإليك كيف نبلغُ الجزيرة الفقيرة التي صَلَحَتْ للقياس في البداية ، وأوافق على أن تلك الحال ليست حال الرجل الاجتماعي ، ومن المحتمل ألا تكون جزيرة إميل ، ولكنها عينُ الحال التي يجب أن نُقدِّر جميع الأحوال الأخرى عليها ، وتُرى أضمنُ وسيلة للترفع عن المُبتَسرات ، وتنظيم الأحكام وفق ما بين الأمور من علاقات حقيقية ، في وَضْع الإنسان نفسه مَوْضِعَ الرجل المنعزل ، وفي حكمه في الأشياء كما يحكمُ هذا الرجلُ المنعزلُ ناظراً إلى فائدتها الخاصة .

وإذا ما أزيل كلُّ حَشْوٍ من هذه القصة وُجد أنها تبدأ بفرق سفينة روينسن بالقرب من جزيرته ، وأنها تنتهي بوصول السفينة التي حضرت لإخراجه

منها ، فيكون هذا كهُوَ ودرساً لإميل معاً ، وذلك في دَوْرٍ عُمُرِهِ الذي هو موضوعنا هنا ، وأريد أن يدور بها رأسه وألّا ينفكَّ يُعْنَى بقصره ومعزّه وزرعهِ ، وأن يتعلَّم مُفَصَّلاً في الأشياء ، لافي الكتب ، جميع ما تجبُ معرفته في مثل هذه الحال ، وأن يتصوَّر أنه رُوْبِنْسُن بنفسه ، وأن يُبَصِّر أنه لايسُ جلوداً وطَرُطُوراً وحاملٌ سيفاً كبيراً ، وكلُّ ما عند رُوْبِنْسُن من جهاز غليظ ، وحائِزٌ مِظَلَّةً قَرِيبَةً منه فلا يكادُ يحتاج إليها ، وأريد أن يشغل باله بما يَتَخَذُ من التدابير إذا ما عُوْزَه هذا الشيء أو ذاك ، وأن يدْرُس سلوكَ بَطْلِهِ ، وأن يَبْحَثَ في هل أَهْمَل شيئاً ، وفي وجود خَيْرٍ من ذاك يَعْمَل ، وأن يُقَيِّد خطأه ، وأن يستفيد منه لكيلا يَقَعَ في حالٍ مماثل ، فلا يَتَطَرَّقُ إِلَيْكُمْ شَكٌّ في عَزَمِهِ على إقامة مثل هذه المؤسَّسة لنفسه ، فهذا قصرٌ في الهواء لِمَنْ هو في عُمُرِهِ السعيد حيث لا يُعرَف من السعادة غيرُ الحرية والحاجيات .

وباللويسيلة التي يُجهِّزُ بها هذا الهَوَسُ رجلاً ماهراً لم يَجِدْها إلا لِسْتَعْمَلَهَا ! يَكُونُ الولدُ الذي يبادِر إلى إقامة مستودَعٍ في جزيرته أشدَّ حماسةً لِلتَعَلُّمِ من حماسة المعلم للتعليم ، فهو يريد أن يَعْرِفَ كلَّ ما هو مفيدٌ ، ولا يُريدُ أن يَعْرِفَ غيرَ هذا ، وأنتم تعودون غيرَ مضطرين إلى إرشاده ، ولا يكون عليكم غيرُ إمساكه ، ولتُسْرِعْ ، إذن ، في إسكانه هذه الجزيرة ما قَصَرَ سعادته عليها ، وذلك لاقتراب اليوم الذي لا يُريد فيه أن يعيش في هذه الجزيرة وحده وإن كان يريد أن يستمرَّ على العيش فيها ، ولأن « الجمعة » التي لا تَمْسُهُ الآن لا تكفيه زمناً طويلاً .

وتؤدى مزاولةُ الفنون الطبيعية ، التي يَكْفِي رجلٌ واحدٌ للقيام بها ،

إلى البحث عن الفنون الصَّناعية التي تحتاج إلى تضافر كثير من الأيدي ،
أَجَلْ ، تُتِمَّكِنُ ممارسةُ الفنون الطبيعية من قِبَلِ مُتَمَرِّزِينَ ، تُتِمَّكِنُ
ممارستها من قِبَلِ متوحشين ، ولكن الفنون الصَّناعية لا يُتِمَّكِنُ أَنْ تَظْهَرَ
في غير المجتمع ، وهي تَجْعَلُ المجتمعَ أمراً ضرورياً ، وَيَكْفِي الإنسانُ نفسه
ما عَرَفَ الاحتياجَ البدنيَّ فقط ، وَيَجْعَلُ استحالةُ الفائضِ توزيعَ العملِ
والتقسيمَ أمراً ضرورياً ، وذلك لأن الرجل الذي يَعْمَلُ وحيداً إذا كان
لا يَكْسِبُ غيرَ رِزْقِهِ فإن مئة رجلٍ يَعْمَلُونَ متفقين يَنالُونَ من الأرزاقِ
ما يَعِيشُ منه مئتا رجل ، وإذا فَإِنَّهُ إذا ما استراحَ فَرِيقٌ من الـآدَمِيِّينَ
وجب تعاونُ ذُرْعَانِ من يَعْمَلُونَ لتلافي بَطَالَةٍ مَنْ لَا يَعْمَلُونَ شيئاً .

ويجب أن يقومَ أعظمُ جُهِدٍ تَبْذُلُونَ على إبعادكم من ذهن تلميذكم
جميعَ مفاهيمِ الصَّلَاتِ الاجتماعية التي لا تَكُونُ ضِمْنَ متناوله ، ولكنْ
إذا ما حَمَلْتُمْ تسلسلُ المعارفِ على إراءته اتِّبَاعَ بعضِ الناسِ لبعضٍ اتِّبَاعاً
مُتَقَابِلاً فَوَجَّهُوا جميعَ انتباهه نحو الصَّنَاعَةِ والفنونِ المِيكانيَّةِ التي تَجْعَلُ
بعضَهم مفيداً لبعضٍ ، وذلك بدلاً من إراءته ذلك الاتِّبَاعَ من الناحيةِ
الأدبية ، وإذا ما أَخَذْتُمُوهُ من مَصْنَعٍ إلى مَصْنَعٍ فدَعُوهُ يُجَرِّبُ كُلَّ عَمَلٍ
يَرَى ، ولا تَدَعُوهُ يتركه من غير أن يَعْرِفَ تماماً سببَ كُلِّ ما يُعْمَلُ
هناك ، أو سببَ كُلِّ ما يَسْتَعِى انتباهه ، وَلِذَا فاعْمَلُوا بأنفسكم ، وأَعْطُوهُ
المثلَ في كُلِّ موضع ، وكونوا تلميذاً في كُلِّ مكانٍ لِتَجْعَلُوا منه أستاذاً ،
واعْمَلُوا أَنَّهُ يَنالُ في ساعةٍ عَمَلٍ من العِلْمِ بأمورٍ أَكْثَرَ مما يَنالُ من إيضاحِ
يَدُومِ نهاراً بأشْئِهِ .

وَيُوجَدُ تَقْدِيرٌ لِلْفَنُونِ عَلَى نِسْبَةٍ مَعَكُوسَةٍ لِفَائِدَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ ، حَتَّى إِنْ هَذَا التَّقْدِيرُ يُقَاسُ بِعَدَمِ نَفْعِهَا مُبَاشَرَةً ، وَهَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ، فَأُفِيدُ الْفَنُونُ هُوَ أَقْلُ الْفَنُونِ رِبْحًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عِدَدَ الْعَمَالِ يَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ احْتِيَاجِ النَّاسِ ، وَلِأَنَّ الْعَمَلَ الْضَرُورِيَّ لِجَمِيعِ النَّاسِ يَبْقَى ثَمَنُهُ فِي حَالٍ يَسْتَطِيعُ الْفَقِيرُ أَنْ يُوَدِّيَهُ مَعَهُ قَسْرًا ، وَعَلَى الْعَكْسِ فَإِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَاجِدِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مَتَفَنِّينَ ، لَا صُنَاعًا ، يَعْمَلُونَ مِنْ أَجْلِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْبَطَّالِينَ فَيَفْرِضُونَ ثَمَنًا مُرَادِيًا * لِرُتَبَاتِهِمْ ، وَبِمَا أَنْ أُجَرَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْفَارِغَةُ أَمْرٌ خِيَالِيٌّ فَإِنْ ثَمَنُهَا يَكُونُ جِزَاءً مِنْ هَذَا الْأَجْرِ فَتُقَدَّرُ بِنِسْبَةِ نَفَاسَتِهَا ، وَلَا يُقَدَّرُهَا الْغَنَى مِنْ حَيْثُ فَائِدَتُهَا ، بَلْ مِنْ حَيْثُ عَدَمُ اسْتَطَاعَةِ الْفَقِيرِ أَنْ يُوَدِّيَ ثَمَنَهَا ، « فَلَا أُرِيدُ أَنْ أُحُوزَ مِنَ الْمَالِ غَيْرَ الَّذِي يُمَكِّنُ الشَّعْبَ أَنْ يَحْسُدَنِي عَلَيْهِ » .

وَمَا يَكُونُ أَمْرٌ تَلَامِيذُكُمْ إِذَا مَا تَرَكَتُمُوهُمْ يَنْتَحِلُونَ هَذَا الْمُبْتَسَرَ الْأَحَقَّ ، وَإِذَا مَا يَسَّرَتْهُمُوهُ بَأَنْفُسِكُمْ ، وَإِذَا مَا رَأَوْكُمْ تَدْخُلُونَ ، مَثَلًا ، حَانُوتَ صَائِفِ بَرَعَايَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا تَدْخُلُونَ بِهَا دُكَانَ قَفَّالٍ ؟ وَأَيُّ حُكْمٍ بِسَاوَرِهِمْ حَوْلَ أَجْرِ الْفَنُونِ الْحَقِيقِيِّ وَحَوْلَ قِيَمَةِ الْأَشْيَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ عِنْدَ مَا يَرَوْنَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ثَمَنَ الْوَهْمِيِّ مَبَايِنًا لِلثَّمَنِ الْمُسْتَخْرَجِ مِنَ النَّفْعِ الْحَقِيقِيِّ وَأَنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا زَادَ تَكْلِيفًا قَلَّ مَا يَسَاوِي ؟ وَمَتَى تَرَكَتُمْ هَذِهِ الْأَفْكَارَ تَدْخُلُ رَأْسَهُمْ فَدَعَوْا مَا بَقِيَ مِنْ تَرْبِيَتِهِمْ ، فَهَمَّ سَيَكُونُونَ كَبْقِيَةِ النَّاسِ عَلَى الرِّغْمِ مِنْكُمْ ، وَتَكُونُونَ قَدْ خَسِرْتُمْ جُهْدَ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ .

وإميلُ ، حينَ يَمِيلُ إلى تأنيثِ جزيرته ، تَكُونُ له طُرُزٌ أخرى في النظر ، ومن شأنِ رُوبِنْسُنَ أن كانَ يُوجِّهُ نظره إلى دُكَّانِ حَدَادٍ أَكْثَرَ من توجيهِهِ إلى تَوَافِهِ سعيد ، فَالْحَدَادُ كانَ يَلُوحُ له رجلاً بالغَ الاحترام ، وسعيدٌ كانَ يَلُوحُ له مُمَخْرِقاً حقيراً .

« خُلِقَ ابْنِي ليعيشَ في العالم ، وهو لن يعيشَ مع العقلاء ، بل مع المجانين ، وَلِذَا يَجِبُ أن يَعْرِفَ جنونَهُم ما داموا يريدون أن يُقَادُوا بالجنون ، أَجَلٌ ، قد تكون معرفةُ الأشياءِ الحقيقيةِ أمراً حسناً ، بَيِّدَ أن معرفة الرجالِ وآرائِهِم أَفْضَلُ من ذلك ، وذلك لأن الإنسانَ في المجتمعِ البشريِّ أعظمُ آلةٍ للإنسان ، فأعقلُ الناسِ هو خَيْرُ مَنْ يَسْتَعْمِلُ هذه الآلةَ ، وما فائدةُ تلقينِ الأولادِ فِكْرَةَ عن نظامِ خياليٍّ مخالفٍ للنظامِ الذي يَجِدُونَهُ قائماً والذي يجبُ أن يُرَتَّبُوا أمورهم على مقتضاه ؟ وَلَيْسَ كُنْ أَوَّلَ ما تُعْطُونَهُم إياه من الدروس أن يكونوا عقلاء ، ثم تُلقونَ عليهم دروساً يَرَوْنَ بها سببَ كونِ الآخرين من المجانين » .

وهذه هي المبادئُ المُمَوِّهَةُ التي يستند إليها حَذَرُ الآباءِ الزائفُ في جَعْلِ أولادِهِم عبيداً لِمَا يُغْدُونَهُم به من مبتسرات ، وَلَعَبّاً لجمهورٍ مجنونٍ يَرَوْنَ أن يجعلوا منه آلةً أهوائِهِم ، وما أَكْثَرَ الأشياءِ التي يجبُ أن نَعْرِفَها قبل أن نَعْرِفَ الإنسانَ ! إن الإنسانَ هو آخرُ ما يَدْرُسُ العاقلُ ، وأنتم تَقْصِدُونَ أن تَجْمَعُوا منه أولَ ما يَدْرُسُ الولدُ ! فابعدوا بتعليمه تقديرَ إحساساتنا قبل أن تُعَلِّمُوهُ إياها ، وهل يُعْرِفُ الجنونُ عند ما يُخْطَأُ في عَدِّهِ عقلاً ؟ وَيَقْضِي كَوْنُ الإنسانِ عاقلاً بفرزٍ من ليس عاقلاً ، وكيف يَعْرِفُ ولدُكم الرجالَ

إذا كان لا يَعْرِفُ أن يَحْكُمَ في آرائهم ولا أن يُمَيِّزَ خطأهم ؟ ومن السَّوءِ أن يُعْرِفَ ما يُفَكِّرُونَ فيه على حين يُجْهَلُ كَوْنُ ما يُفَكِّرُونَ فيه خطأً أو صواباً ، وإِذَا فَلْتَكُنْ الأشياءُ كما هي أَوَّلَ ما تُعَلَّمُونَ ولَدَكم ، ثم تُعَلَّمُونَهُ الوجهَ الذى تَبْدُو به لأعيننا ، وهكذا فإنه سَيَعْرِفُ أن يقابل بين الرأى الشعبىِّ والحقيقة ، وأن يَرْتَقِيَ فوق العوامِّ ، وذلك لأن المبسراتِ لا تُعْرِفُ بعد أن تُعْتَقَ ولا يَقُودُ الرجلُ الشعبَ إذا ما شابهه ، ولكنكم إذا ما أخذتم في تعليمه الرأى العامَّ قبل تعليمه تقديره فأَعْلَمُوا أن هذا يَغْدُو رأيه ولن تقدرُوا على إزالته مهما بَدَلْتُمْ من جُهدٍ ، ومن ثَمَّ أرى أنْ جَعَلَ القَتَى حَصيفاً يستلزم حُسْنَ تكوين أفكاره بدلاً من أن يُنْمَلِيَ عليه أفكارنا .

وأنتم تَرَوْنَ أنى لم أَحَدَّثْ تلميذى عن الرجال حتى الآن ، ولا بَدَّ من أن يكون قد بَلَغَ من الرِّشَادِ ما يُصْنِى معه إلىَّ ، ولم تَكُنْ صِلَاتُهُ بِنَوْعِهِ من الوضوح بَعْدُ ما يستطيع معه أن يَحْكُمَ في الآخرين بنفسه ، ولا يَعْرِفُ موجوداً بشرياً غيرَ نفسه ، حتى إنه بعيدٌ من أن يَعْرِفَ نفسه ، ولكنه إذا كان لا يَحْمِلُ غيرَ آراءِ قليلةٍ عن نفسه فإن هذه الآراءِ القليلةَ التى يَحْمِلُ صائبةٌ على الأقلِّ ، وهو يَجْهَلُ ما مكانُ الآخرين ، غير أنه يَشْعُرُ بمكانه وَيَلْزُمُهُ ، وقد ربطناه بسلاسل الضرورة بدلاً من القوانين الاجتماعية التى لا يستطيع معرفتها ، وهو لا يكاد يكون غيرَ جسمٍ ، فلنُداوِمَ على معاملته كأنه هكذا .

ويجب أن نُقَدِّرَ جميعُ أجسام الطبيعة وجميعُ أعمال الناس من حيث

صِلَاتُهُمَا الْحَسُوسَةُ بِفَائِدَةِ الْإِنْسَانِ وَسَلَامَتِهِ وَبِقَائِهِ وَرِفَاهِهِ ، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَدِيدِ مِنَ الْقِيَمَةِ فِي نَظَرِهِ مَا يَزِيدُ كَثِيرًا عَلَى قِيَمَةِ الذَّهَبِ وَأَنْ يَكُونَ لِلزُّجَاجِ مِنَ الْقِيَمَةِ مَا يَزِيدُ كَثِيرًا عَلَى قِيَمَةِ الْأُمَاسِ ، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يُكْرِمَ الْحَذَاءُ وَالْبِنَاءُ أَكْثَرَ مِنْ إِكْرَامِهِ أَمْثَالُ لَنْبِرُورٍ وَلُبْلَانَ وَجَمِيعِ صُوعَاغٍ أَوْ رَبَّةٍ بِدَرَجَاتٍ ، وَأَنْ يَعُدَّ الْخُلُوعَانِيَّ ، عَلَى الْخُصُوصِ ، رَجُلًا بِالْعَاقِبَةِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَأَنْ يَفْدِيَ أَحَقَرَ فَطَايِرِيَّ فِي شَارِعِ النَّبَارِ بِجَمِيعِ الْجَمْعِ الْعَالَمِيِّ ، وَلَيْسَ الصَّاعَةُ وَالنَّقَّاشُونَ وَالْمُذَهَّبُونَ وَالْمُطَرِّزُونَ فِي نَظَرِهِ غَيْرَ كَسَالَى يَتَلَهَّوْنَ بِالْعَابِ لَا تَنْطَوِي عَلَى فَائِدَةٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ عَنْ هَذَا نَظَرُهُ إِلَى السَّاعَاتِيِّ أَيْضًا ، فَالْوَلَدُ السَّعِيدُ يَتَمَتَّعُ بِالْوَقْتِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لَهُ ، وَهُوَ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَلَا يَعْرِفُ قِيَمَتَهُ ، وَمَا يَكُونُ مِنْ سَكُونِ أَهْوَاءٍ ، يَجْمَلُ تَعَاقِبَ الْأَيَّامِ أَمْرًا مُتَسَاوِيًا لَدَيْهِ دَائِمًا ، يَقُومُ مَقَامَ آلَاءِ لِقِيَاسِهِ عِنْدَ الْضَّرُورَةِ^(١) ، وَإِذَا مَا افْتَرَضَتْ لِإِمِيلٍ سَاعَةً ، كَمَا افْتَرَضَ إِبْكَاءَهُ ، جَعَلَتْ مِنْهُ عَامِيًّا لَيْسَ كَوْنُ نَافِعًا مَذْرُوعًا لِي ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ الصَّحِيحِ أَلَّا يَصْلُحَ وَلَدٌ يَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِينَ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ مِثَالًا لَشَيْءٍ .

وَيُوجَدُ نِظَامٌ لَيْسَ أَقْلٌ طَبِيعَةً ، وَهُوَ أَكْثَرُ صَوَابًا ، تُقَدَّرُ الْفَنُونُ بِهِ وَفَوْقَ الْعَلَائِقِ الْضَّرُورِيَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَهَا ، جَاعِلًا أَكْثَرَهَا اسْتِقْلَالًا فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى ، وَجَاعِلًا فِي الْمَرْتَبَةِ الْآخِرَةِ مَا يَتَّبَعُ مِنْهَا أَكْبَرَ عَدَدٍ مِنْ غَيْرِهَا ، وَبِشَابِهِ السَّابِقِ هَذَا النِّظَامُ الَّذِي يُزَوِّدُ بِاعْتِبَارَاتٍ هَمَّةٍ حَوْلَ

(١) يَفْقَدُ الْوَقْتَ قِيَاسَهُ لَدَيْنَا إِذَا مَا أَرَادَتْ أَهْوَاؤُنَا تَنْظِيمَ مَجْرَاهُ كَمَا تَوَدُّ ، وَسَاعَةُ الْعَاقِلِ فِي تَسَاوِيِ الْمَزَاجِ وَهَدْوَةِ النَّفْسِ ، وَهُوَ مَحَافِظُ عَلَى وَقْتِهِ دَائِمًا ، وَهُوَ يَعْرِفُهُ دَائِمًا .

المجتمع العام ، وهو يَخْضَعُ لذاتِ العكس في تقدير الناس ، وذلك أن استعمال المواد الأولى يَتِمُّ في الحِرَافِ غيرِ ذاتِ الشرف ، وغيرِ ذاتِ الرِّبْح تقريباً ، وأن هذه الموادَ كلما تَقَلَّبَتْ عليها الأيدي زاد أُجْرُ العمل وصار شريفاً ، ولا أبحث في هل من الصوابِ كَوْنُ الصَّنَاعَةِ تكون عَظِيمَةً ونستحقُّ أُجْرًا في الفنون الدقيقة التي تَمْنَحُ آخَرَ شكلٍ لهذه المواد أكثر مما يستحقُّه أولُ عملٍ يُحوِّلُها إلى استعمالِ الناس ، وإنما أقول في كلِّ شيء إن الفنَّ الذي يكون استعماله أكثرَ عموماً وأعظمَ لزوماً هو ، لا رَيْبَ ، ذلك الفنُّ الذي يستحقُّ أكبرَ تقدير ، وإن الفنَّ الذي هو أقلُّ ما يحتاج إلى الفنون الأخرى يستحقُّ تقديرًا أكبر مما تستحقه الفنون التابعة ، وذلك لأنه أكثرُ حريةً وأقربُ إلى الاستقلال ، فهذه هي القواعد الحقيقية في تقدير الفنون والصَّنَاعَةِ ، وأما غيرها فمُرَادِيٌّ تابعٌ للرأى العام .

والزراعةُ هي أولُ الفنون وأكثرُها اعتباراً ، وأضعُ الحِدَادَةَ في المرتبة الثانية ، وأضعُ النِّجَارَةَ في المرتبة الثالثة ، وهَلُمَّ جَرًّا ، وهذا ما يَحْكُمُ به الولدُ ضَبْطًا إذا لم تُغَوِّهِ المُبْتَسِرَاتُ العامَّةُ ، ويا للتأملاتِ المهمة التي يستخرجها إميلُ من رُؤوسِنَ حَوْلَ ذلك ! وَفِيمَ يُفَكِّرُ حين يرى الفنونَ لا تشكامل إلا بانقسامها وبتكثيرِ آلاتِ كُلِّ منها تكثيراً لا حَدَّ له ؟ وسيقول في نفسه : « إن جميع هؤلاء الناس حاذقون بما يُعَدُّون معه من الحَقَمَى ، والناظرُ إليهم يعتقد أنهم يخافون ألا تنفعهم أَذْرُعُهُمْ وأصَابُهُمْ في شيء ما داموا يَخْتَرِعُونَ آلاتٍ تُفْنِيهِمْ عنها ، وتراهم مُعَبِّدِينَ لآلِفٍ فينَّ حتى يزاولوا فناً واحداً ، فكأنه يجب أن تكون لكلِّ عاملٍ مدينةٌ ، وأما أنا

ورفيقي فإننا ننفق ذكاءنا في شطارتنا فنصنع من الآلات ما نستطيع حمله في كل مكان ، وما كان جميع أولئك الذين يُباهون بقراحتهم في باريس ليقدروا على شيء في جزيرتنا ، وهم يكونون تلاميذ لنا فيها بدورهم .
ويا أيها القارئ ، لا تقف هنا عند رؤية التمرين البدني وبراءة يدي تلميذنا ، ولكن انظر أي توجيه نوجه به ذلك الفضول الصبياني ، انظر إلى الحس وروح الاختراع والبصر بالأمور ، انظر أي رأس نكون له ، وهو يريد أن يعرف كل شيء ، وأن يعرف سبب كل شيء ، في كل ما يرى وكل ما يفعل ، وهو يريد ، دائماً ، أن يرجع إلى الأولى بين آلة وآلة ، وهو لن يقول بافتراض شيء ، وهو سيرفض تعلم كل ما يتطلب سابق معرفة غير حائز لها ، وهو إذا ما رأى صنع نابض أراد أن يعرف كيف استخراج الفولاذ من المعدن ، وهو إذا ما رأى جمع قطع صندوق أراد أن يعرف كيف قطعت الشجرة ، وهو إذا ما عمل بنفسه في كل آلة يستخدمها لم يفقه أن يقول : « إذا كنت غير حائز لهذه الآلة فكيف أستطيع صنع مثلها أو كيف أستغني عنها ؟ » .

ومع ذلك فإن من الخطأ الذي يصعب اجتنابه فيما يولع به المعلم من الأشاغل هو أن يفترض للولد عين هذا الذوق دائماً ، وكونوا على حذر ، عند ما يستحوذ لهُ العمل عليكم ، من أن يعتريه سأم فلا يجروا على إظهاره ، فالولد يجب أن يكون بيت القصيد ، ويجب أن تكونوا للولد كلياً ، فتلاحظوه وترقبوه بلا انقطاع ومن غير أن يشعر ، ويجب أن تبصروا جميع مشاعره مقدماً وأن تتلافوا ما لا ينبغي وجوده عنده ،

وأخيراً يجب أن تشغلوه بما لا يحسُّ معه أنه نافع للشيء فقط ، بل أن يكون من عوامل سروره إدراكه نفع ما يصنع أيضاً .

ويقوم مجتمع الفنون على مبادلة الصنعة ، ويقوم مجتمع التجارة على مبادلة السلعة ، ويقوم مجتمع البنوك على مبادلة النقود والسمات ، وتباسك جميع هذه الأفكار ، وقد اتخذت جميع المفاهيم الابتدائية ، وقد طرَحنا أسس جميع هذا منذ الدور الأول من العمر بعون من البستاني روبرت ، والآن لم يبقَ علينا غير تعميم هذه الأفكار وبسطها بأمثلة كثيرة ، وذلك ليحمل الولد على إدراك الأعمال التجارية التي تتخذ بنفسها وتُجملُ أمراً محسوساً بجزئيات التاريخ الطبيعي التي تُعنى بما يُنتج كل بلد على الخصوص ، وبجزئيات الفنون والعلوم التي تُعنى بالملاحة ، ثم بمشكلة النقل على حسب بُعد الأماكن وعلى حسب موقع الأرضين والبحار والأنهار ، إلخ .

ولا يستطيع أيُّ مجتمع أن يوجد من غير مبادلة ، ولا تستطيع أية مبادلة أن توجد من غير قياس مشترك ، ولا يستطيع أيُّ قياس مشترك أن يوجد من غير مساواة ، وهكذا فإن القانون الأول لكلِّ مجتمع يقوم على مساواة عهدية سواء بين الناس أو بين الأشياء .

وتجملُ المساواة العهدية بين الناس ، المختلفة عن المساواة الطبيعية ، أمر الحق الوضعي ، أي الحكومة والقوانين ، ضرورياً ، ويجب أن تكون معارف الولد السياسية واضحة محدودة ، فلا ينبغي أن يعرف شيئاً عن الحكومة على العموم غير ما يناسب حق التملك الذي يوجد لديه فكرة عنه .

وقد أدت المساواة العهدية بين الأشياء إلى اختراع النقد ، وذلك لأن النقد ليس غير حَدٍّ مقابلةً بين قيمة الأشياء من مختلف الأنواع ، وعلى هذا المعنى يكون النقد رابطة المجتمع الحقيقية ، غير أن كلَّ شيء يُمكن أن يكون نقداً ، وقديماً كانت الماشية نقداً ، ولا يزال الصَّدَفُ نقداً عند كثير من الأمم ، وكان الحديد نقداً في إسبارطة ، وكان الجلدُ نقداً في إسوج ، ونحن نتخذ نقدنا من الذهب والفضة .

وبما أن المعادن أسهلُّ نقلاً فقد أُتخذت وسائط جامعة بين جميع المبادلات ، وقد حُوِّلت هذه المعادن إلى نقدٍ توفيراً للكَيْلِ أو الوزن عند كلِّ مبادلة ، وذلك لأن سِمَةَ النقد ليست غيرَ شهادةٍ بأن القطعة الموسومة هكذا تشتمل على هذا الوزن أو ذاك ، والأميرُ وحده هو صاحب الحقِّ في ضَرْبِ النقد ما دام وحده صاحب الحقِّ في الادعاء بكون شهادته نافذةً بين جميع الشعب .

ويُدرِك أغبي الناس فائدةَ هذا الاختراع إذا ما أوضحت له على هذا الوجه ، ومن الصعب أن يقابل مباشرةً بين أشياء مختلفة طبيعةً ، كالجوخ والقمح مثلاً ، ولكنه إذا ما وُجدَ مقياسٌ مشترك ، أى النقد ، سهَّلَ على الصانع والزارع أن يَرُدَّأ قيمة الأشياء التي يريدون مبادلتها إلى هذا المقياس المشترك ، فإذا كان مقدار الجوخ يَعْدِلُ مبلغاً من النقد وكان مقدارُ القمح يَعْدِلُ كذلك عَيْنَ المبلغ من النقد فإن الذي يَحْدُثُ هو أن التاجرَ إذْ يأخذ هذا القمح في مقابل جُوحِهِ يكون قد أتى مبادلةً عادلةً ،

وهكذا فإن الأموال المختلفة الأنواع تصيرُ بالنقد صالحةً للقياس مُمكنًا أن يقابل بينها .

ولا تذهبوا إلى ما هو أبعدُ من هذا فتدخلوا إلى الإيضاح نتائج هذا النظام الأدبية ، ويجب في كلِّ أمرٍ أن يُحسنَ عَرْضُ العادات قبل أن يُبدى سواه الاستمالات ، وإذا كنتم تزعمون أنكم تشرحون للأولاد كيف تؤدَّى الرموزُ إلى إهمال الأشياء ، وكيف نشأ عن النقد جميعُ أوهام الرأي العام ، وكيف يجب أن يكون أغنى البلاد أفقرها في كلِّ شيء ، فإنكم تكونون قد عاملتم هؤلاء الأولاد كرجالٍ عقلاء ، لا كفلاسفةٍ فقط ، وتكونون قد ادَّعيتُم إسماعهم ما لم يدركه غيرُ قليلٍ من الفلاسفة .

وما أكثرَ الأمورِ المُمتعة التي يُمكنُ أن يُحوَّلَ إليها فضول التلميذ على هذا الوجه من غير أن تُتركَ العلائقُ الحقيقية والمادية التي تكون في متناوله ، ومن غير أن يُسمحَ بتسربِ فكرٍ في ذهنه لا يستطيع إدراكه ا ولا يقوم فنُّ المعلم على جعل الولد يستند في مشاهداته إلى دقائق تافهة ، بل على تقريب ذهنه بلا انقطاعٍ من علائقٍ يجب أن يعرفها ذات يومٍ ليحكم حكمًا صائبًا حَوْلَ نظام المجتمع المدنيِّ الصالح أو الطالح ، ويجب أن يكون المعلم قادرًا على التوفيق بين الأحاديث التي يلزمها بها وجوالاتِ الذهن التي حباها بها ، ومثثلةٌ مثلُ هذه لا يُمكنُ تليدًا آخرَ أن يلتفت إليها ستزعجُ إميلَ ستة أشهر .

ونذهب لتناول الغداء في منزل مُوسر ، ونجدُ استعدادَ عيدٍ ، نجدُ كثيرًا من الناس والخدم ، ونجدُ كثيرًا من الأطباق وصحون الأَطعمة اللطيفة

الفاخرة ، وتَنطَوِي عُدَّةُ النعيم والعيد هذه على أمرٍ مُسْكِرٍ لِمَنْ لم يَتَعَوَّدْهَا ،
وَأُبْصِرُ تأثيرَ جميع هذا في تلميذِي القَتِيّ ، وَبَيْنَمَا نُقَدِّمُ الأَطْعَمَةَ ، وَبَيْنَمَا
تَتَعاقَبُ الآنِيَةُ ، وَبَيْنَمَا يَسُودُ المائدةَ أَلْفُ حديثٍ صاحبٍ ، أَذُنُو من أَذُنٍ
تلميذِي وأقول له هَمْسًا : « كَمْ عَدَدُ الأيدي التي تناولت ما تَرَى قبل أن
تَصِلَ إلى هذه المائدة ؟ » ، وما أَكْثَرَ الأفكارَ التي أُثِيرُهَا في دماغه
بهذه الكلمات القليلة ! تَرُولُ غيومَ الهَذْيَانِ حَالًا ، وَيَتَصَوَّرُ وَيَتَأَمَّلُ وَيَحْسُبُ
وَيَضْطَرِبُ بِأَلِهَ ، وَهَاهُو ذا يَتَفَلَسَفُ مَنْزَوِيًّا وَحْدَهُ ، وَهَاهُو ذا يَسْأَلُنِي ،
على حين يَهْذِي الفلاسفةُ وَيَهْذِرُونَ كالأولاد بفعل الخمر أو بفعل الجالساتِ
حولهم ، وَأَمْتَنِعُ عن الجواب ، وَأَصْرِفُهُ إلى وقتٍ آخَرَ ، وَيَفْرُغُ صَبْرُهُ ،
وَيَنْتَشِي الأَكْلَ والشربَ ، وَيَتَحَرَّقُ شَوْقًا إلى وُجُودِهِ خارجَ المائدة ليحادِثُنِي
بِرَاحَةٍ ، وَأَيُّ موضوعٍ يُبْخِرُ فُضُولَهُ ! وَأَيُّ عبارةٍ تُوجِبُ تعليمَهُ !
وما يَكُونُ رأيُهُ ، بِعَقْلِ صحيحٍ لم يَسْطِيعْ أن يُفْسِدَهُ شيءٌ ، في الترف
عندما يَجِدُ أن جميع بقاع العالم تعاونت ، وأن من المحتمل أن تكون عشرون
مليونًا من الأيادي قد عَمِلَتْ زَمَنًا طويلًا ، وأن حياة الأُلُوف من الناس
زَهَقَتْ ، لَتَعْرِضَ عليه من الثياب الفاخرة ظُهُرًا ما يُودِعُ صَوَانَهُ مساءً ؟

وَارْقُبُوا بدقة تلك النتائجَ الخفيةَ التي يستنبطها في فؤاده من جميع
هذه المشاهدات ، وَإِذَا ما رَقَبْتُمُوهُ بِأَقْلٍ مما أَفْتَرَضُ أُمْكَنَ أن يُحَوَّلَ
تَأْمَلَاتِهِ إلى معنى آخَرَ فَيَعُدُّ نَفْسَهُ ذا شَأْنٍ في العالم حين يَرَى تضافرَ كثيرٍ
من الجهود في إعدادِ غَدَائِهِ ، وَإِذَا ما أَحْسَسْتُمْ بهذه البرهنة سَهْلَ عليكم
أن تَحْوِلُوا دون وقوعها أو أن تَمَحُّوا تأثيرَها من فَوْزِكُمْ على الأقل ، وبما

أنه لا يَعْرِفُ حتى الآن أن يَنْتَحِلَ الأمور إِلَّا بِمَتَعَتِهَا المادية فإنه لا يستطيع أن يَحْكُمَ في ملامتها له أو عدم ملامتها له إِلَّا بالعلائق المحسوسة ، وما يكون من مقابلة بين غداء ريفي بسيط مُعَدَّ بالتمرين ومُعلَّل بالجوع والحرية والسرور وولمَّته الفاخرة جِدًّا والبالغة التنظيم يَكْفِي لِإِشْعَارِهِ بأن جميع جهاز المادية لم يُنْعَمَ عليه بأية فائدة حقيقية كانت ، وبأن مَعِدَّتَهُ ، إذ غادرت مائدة القَرَوِيِّ راضية رضاءها عن مائدة الفنى ، لم تَكْسِبَ من هذه ولا تلك ما يستطيع أن يَدْعُوهُ مَالًا له في الحقيقة .

وَلِنَتَمَثَّلَ ما يُمَكِّنُ العلم في مِثْلِ هذه الحال أن يقول له : اذْكُرْ هذين الطعامين جيداً ، وقرّر بنفسك : أيهما أمتعك أكثر من الآخر ، وأيهما أوزنك سروراً أعظم من الآخر ، وأيهما أكلت بشهوة وشربت بلذة وضحكت منه بمرح أشدّ مما اتفق لك بالآخر ، وأيهما دام بلا سأم ، ومن غير احتياج إلى أن يتجدد بسُمُطٍ أخرى ، أطول مما دام الآخر ؟ ومع ذلك فانظر إلى الفرق : إن هذا الخبز الأسمر الذى تجده جيداً ينشأ عن القمح الذى يَحْصُده هذا الفلاح ، وإن خمره الغليظة السوداء ، ولكن مع إرواء واستمراء ، مصنوعة من عِلَّةِ كَرَمِهِ ، وإن بياضاته تأتي من قِنَبِهِ ، وتُنْزَلُ في الشتاء من قِبَلِ امرأته وبناته وخادمتها ، وإن لوازم مائدته لا تُعَدُّ بيدٍ غير يد أسرته ، وإن أقرب رَحَى وسُوقٍ هما حدًا العالم عنده ، فما تَمَتَّعَكَ في الحقيقة ، إذن ، بما تُقَدِّمه الأرضُ البعيدة وأيدي الرجال على المائدة الأخرى ؟ إذا كان كلُّ ذاك لا يَعْرِضُ عليك أطيّبَ طعام ، فما تكون قد كَسَبْتَ من هذا اليُسْر ؟ وما مقدار ما صُنِعَ

منه لك ؟ وُيَسْكِنُ المعلمُ أن يضيفَ إلى ذلك قوله : لو كنتَ ربَّ المنزل
لكان لك أقلُّ نفعٍ في ذلك ، وذلك لأن ما تَبْذُلُ من جهدٍ في عَرْضِ
بهجتك على الآخرين يَنْزِعُ منك هذه البهجة ، فالعناء واقعٌ عليك ،
واللذة لهم .

أَجَلْ ، قد يكون هذا الكلامُ رائعاَ جداً ، ولكن لا قيمةَ له عند
إميل الذي يجاوز متناوله والذي لا تُدْخِلُ عليه تأملاتُ أىِّ كان ، وكلموهُ ،
إِذَنْ ، بما هو أبسطُ من ذلك ، وقولوا له في صباح يومٍ بعد تينك
التجربتين : « أين تَتَقَدَّى اليوم ؟ أَحَوْلَ هذا الجبلِ الفِصَى الذي يُعْطَى
ثلاثةَ أرباعِ المائدة ، وَحَوْلَ أحواضِ الزهر الورقى التى تَنْفَعُ للنَّقْلِ على
المَرَايا ، وبين هؤلاء النِّسْوَةِ ذواتِ الحُللِ الكبيرة اللائى يعاملنك مثلَ دُمِيَّةٍ
متحركة ، فَيُرِدْنَ أن تقولَ ما لا تَعْرِفُ ، أو فى تلك القرية البعيدة من
هنا فرسخين ، عند أولئك الناسِ الطَّيِّبين الذين يستقبلوننا فَرِحِينَ وَيُقَدِّمُونَ
إِلينا قِشْدَةً فاخرة ؟ » ، ولا رَيْبَ فى خيارِ إميل ، وذلك لأنه ليس مِهْذَاراً
ولا مُفْتَرّاً ، ولأنه لا يُطِيقُ القَسْرَ ، ولأن جميعَ الأطعمة المعلَّلة الناعمة
لا تَرُوقه مطلقاً ، ولأنه مستعدٌّ للعدوِّ فى الأرياف دائماً ، ولأنه شديدُ
الرغبة فى الفواكه الجيدة والخضر الصالحة والقِشْدَةِ الحَسَنَةِ والناسِ الطيبين ^(١) ،

(١) يعد ما أفترض من أن ميل تلميذى إلى الأرياف ثمرة طبيعية لتربيته ، ثم بما أنه خال من
ذلك الزهو والهندام الذى يروق النساء كثيراً فإنه أقل من الأولاد الآخرين احتفالاً بالأعياد ، ومن ثم
يكون أقل رضىً عن النساء ، وأقل دلالة فى مجتمعهن الذى لم يبلغ به من العمر ما يشعر معه بفتونه ،
وقد احترزت من تعليمه تقبيل أياديهن وتلقين وأن يبدى نحرهن من الأدب أكثر مما يبدى نحو
الرجال ، وقد اتخذت قاعدة ثابتة قائلة بعدم مطالبته بشئ لا يدخل ضمن نطاق عقله ، فلا يوجد لدى
الولد سبب صالح يعامل به أحد الجُحشيين على خلاف ما يعامل به الآخر .

وبينما نحن سائرون في طريقنا يأتي التأمل من نفسه ، « فأرى هذه الجموع من الناس ، الذين يَعْمَلُونَ لإعداد هذه الولايم الكبيرة ، تَحْسَرُ متاعبها أو أنها لا تُفَكِّرُ في ملاذنا مطلقاً » .

وستكون أمثلي ، الصالحة لولدي واحدٍ ، سيئةً لألفٍ آخرين ، وإذا ما اتَّخَذَ روحها عُرِفَ جيداً كيف تُفَيِّرُ عند الحاجة ، ويتوقف الجياري على درس قريحة كلٍّ واحدٍ ، ويتوقف هذا الدرس على الفُرْص التي تَظْهَرُ بها هذه القريحة ، ولن يُتَصَوَّرَ أننا نستطيع ، في السنين الثلاث أو الأربع التي نَشْمَلُها هنا ، أن نَمْنَحَ الولدَ الموهوب فكرةً عن جميع الفنون والعلوم الطبيعية كافيةً لَتَعْلُمِها ذاتَ يومٍ من تلقاء نفسه ، ولكننا ، إذ نَعْرِضُ أمامه جميعَ الموضوعات التي يهْمُهُ أن يَعْرِفَها ، نَضْمُهُ في حالٍ يَنْمُو بها ميله ونبوغُه ، ويأتي بها أولى الخُطُوات نحو الموضوع الذي تَحْمِلُهُ إليه قريحته ، ونَدُلُّ بها على الطريق التي يجب فَتْحُها لمساعدة الطبيعة .

وللسلسلة المعارف المحدودة ، ولكن الصائبة ، هذه فائدةٌ أخرى ، وهي أن تَبْدُوَ له بروابطها وصلاتها ، وأن تُوضَعَ كُلُّها في أماكنها بتقديرٍ منه ، وأن يُحَالَ فيه دون المُبْتَسِرَاتِ التي يتخذها مُعْظَمُ الناسِ عُدَّةً ما يَتَعَهَّدُونَ من مواهبٍ إقصاء لمن يُغْفِلُونَهَا ، وَمَنْ يَرَى نظامَ الكلِّ جيِّداً يُبْصِرُ المكانَ الذي يجب أن يكون للجزء ، ومن يَرَى الجزءَ جيداً ويعْرِفُه معرفةً أساسيةً يَسْتَطِيعُ أن يكون رجلاً عالماً ، ويكون الأولُ رجلاً حصيفاً ، وأتم تَذَكُّرُونَ أن الحَصَافَةَ هي ما تَقْتَرِحُ اكتسابه أكثر من اكتساب العلم .

ومهما يكن من أمر فإن منهاجى مستقلٌ عن أمثلى ، وهو قائمٌ على قياس قابليات الإنسان بمختلف أدوار عُمره وعلى اختيار الأعمال الملائمة لقابلياته ، وأعتقد أن من السهل وجودَ منهاجٍ آخرَ يلُوح به أنه يُفعلُ ما هو أحسن ، ولكنه إذا ما كان أقلَّ صلاحاً للنوع والسن والجنس فإننى أشكُّ فى أن يتَّفَقَ له ذاتُ النجاح .

ونحن حين بدأنا هذا الدورَ الثانى استفدنا من زيادة قُوانا على احتياجاتنا حملاً لنا خارجَ أنفسنا ، وقد انطلقنا إلى السماوات ، وقد قسنا الأرض ، وقد اقتطفنا سُننَ الطبيعة ، والخلاصةُ أننا طُفْنَا فى الجزيرة بأُسْرِها ، والآن نعود إلى أنفسنا ، ونَدنو من مَسْكِننا دُنُوًّا غيرَ محسوس ، ومن السعادة البالغة ألا نَجِدَه حين نَدْخُلُه قبضةَ عَدُوٍّ يَهْدِدنا ويستعدُّ للاستيلاء عليه !

وما يَبْقَى أن نَعْمَلَه بعد أن أنعمنا النظر فى جميع ما يحيط بنا ؟ يجب أن نُحوِّلَ إلى ما فيه نَفْعنا كلَّ ما نستطيع أن نناله ، وأن ننفع بفضولنا زيادةً فى راحتنا ، وقد ادَّخَرْنَا حتى الآن آلاتٍ من كلِّ نوع ، وذلك من غير أن نَعْرِفَ التى نحتاج إليها ، ومن المحتمل ألا تكون آلاتنا نافعةً لنا مع نفعها للآخرين ، ومن المحتمل أن نحتاج إلى آلات الآخرين بدورنا ، وهكذا فإننا نَجِدُ فائدتنا من هذه المبادلات ، ولكن قيامَ هذه المبادلات يتوقف على معرفة احتياجاتنا المتقابلة ، فيجب أن يَعْرِفَ كلُّ واحدٍ ما عند الآخرين من أشياء نافعةٍ له وما يُمكن أن يُقدَّم إليهم مقابلةً ، ولنَفَرِّضَ وجودَ عشرة رجالٍ تَكُونُ لكلِّ واحدٍ منهم عشرة أنواعٍ من الاحتياجات ،

فيجب على كل واحدٍ أن يُكَيِّبَ على عشرة أنواعٍ من الأعمال قضاءً لما يحتاج إليه ، ولكنه إذا ما نُظِرَ إلى اختلاف القابلية والقرينة وُجِدَ أن الواحدَ منهم يُحَسِّنُ بعضَ هذه الأعمال وأن آخرَ منهم يُحَسِّنُ بعضاً آخرَ منها ، ولو كان كلُّ واحدٍ منهم صالحاً لشيء فصنَّعَ عينَ الأشياءِ لساوءَ خدمته ، وإذا ما أُلْقِيَ شَرَكَةُ من هؤلاء الرجال العشرة فقام كلُّ واحدٍ منهم بالعمل الذي يُحِبُّهُ أَكْثَرَ من غيره نفعاً له وللتسعة الآخرين فإنه يستفيد من مواهب الآخرين كما لو كان وحده حائزاً لها كلها ، وبذلك يُتَقَنُّ عمله بتمرينٍ مستمرٍّ ، وبذلك يَكُونُ العشرة الذين كَمَلَ تجهيزهم على هذا الوجه ذوى فَيْضٍ لآخرين أيضاً ، وهذا هو المبدأ الظاهر لجميع نُظُمنا ، وليس من موضوعي أن أبحث في نتائجها هنا ، فقد صنعتُ هذا في كتابٍ آخر * .

وإذا ما نُظِرَ إلى هذا المبدأ وُجِدَ أن الإنسان الذي يُريدُ عَدَّ نفسه منزلاً لا يُمكنُ إلا أن يكون بانساً لعدم استناده إلى أحدٍ ، ولكفاية نفسه بنفسه ، حتى إنه يَتَعَذَّرُ عليه البقاء ، وذلك لأنه إذ يَجِدُ الأرضَ بأجمعها ملكاً لى ولك ، وليس له غيرُ بَدَنه ، فمن أين ينال ما يحتاج إليه ؟ ونحن ، إذ نَخْرُجُ من حال الطبيعة ، نُنْزِمُ أمثالنا بالخروج منها أيضاً ، فلا أحدٌ يستطيع البقاء فيها على الرغم من الآخرين ، وما يُعَدُّ خروجاً منها حقاً أن يُرَادَ البقاء فيها مع تَعَذُّرِ العيش ، وذلك لأن البقاء قانونُ الطبيعة الأولُ .

وهكذا فإن أفكاراً عن الصّلات الاجتماعية تتكوّن في ذهن الولد بالتدريج ، حتى قبل أن يستطيع أن يكون عضواً عاملاً في المجتمع حقاً ، ويرى إميل أن حيازته آلات استعماله تَقْضِي بأن يكون لديه منها ما هو صالح لاستعمال الآخرين فينال به مبادلة أشياء ضرورية واقعة تحت تصرّفهم ، وبسهل على أن أجعله يشعّر بضرورة هذه المبادلات وأن يكون في حال ينتفع معه بها .

« يجب أن أعيش يا سيدى » ، هذا ما قاله كاتب هجاء بائس لقسيسٍ لأمه على رجس هذه الحرفة ، « لا أرى ضرورةً إليها » ، هذا ما أجاب به ذاك السريءُ بهودة ، فهذا الجواب الرائع من قسٍ بعد جافياً زائفاً إذا ما خرج من فم آخر ، فمن الواجب أن يعيش كلُّ إنسان ، ويكفح لي أنه لا يوجد ردٌّ على هذا البرهان الذى يعطيه كلُّ واحدٍ من القوة الكبيرة أو الصغيرة على حسب ما يكون عنده من إنسانية قليلة أو كثيرة ، وذلك بالنسبة إلى من يستعمله تجاه نفسه ، وبما أن مقت الموت أشدُّ ما تلقى الطبيعة فينا من كراهية فإنه يُسْتَنْتَج من هذا كون الطبيعة تُبَيِّحُ كلَّ شيء لمن ليس لديه وسيلة ممكنة أخرى للعيش ، ومن البعيد عن تلك البساطة الابتدائية ما يتعلمه الإنسان الفاضل من المبادئ حول ازدراء حياته والتضحية بها في سبيل واجبه ، وبالسعادة الشعوب التى يُمكن الإنسان أن يكون صالحاً فيها من غير جهدٍ وعادلاً من غير فضيلة ! وإذا وُجِدَتْ في العالم حالٌ يؤس لا يستطيع كلُّ واحدٍ أن يعيش فيها من غير أن يصنع شراً ، وحيث يكون المواطنون خبيثين عن ضرورة ، فإن

الشَّرير لا يكون الشخص الذي يجب أن يُشَنق ، بل الذي يضطرّه إلى أن يصير هكذا .

وإميلُ ، حين يَعْرِف ما الحياةُ ، يَكُون أولَ ما أُغْنى به هو أن أعلمه حِفْظَهَا ، وحتى الآن لم أَفَرِّقْ ، قَطُّ ، بين الأحوال والمراتب والثَّروات ، وكذلك لن أَفَرِّقَ بينها فيما بَعْدُ مطلقاً ، وذلك لأن الإنسان هُوَ هُوَ في جميع الأحوال ، وبما أن مَعْدَةَ الغنى ليست أكبر من مَعْدَةَ الفقر وليست أصلحَ منها هَضْماً ، وبما أن ذراعى السيد ليستا أطولَ من ذراعى عبده ، وبما أن الكبير ليس أبلغَ طولاً من ابن الشعب ، ثم بما أن الاحتياجات الطبيعية هي في كلِّ مكان ، فإن من الواجب أن تكون وسائلُ قضائها متساويةً في كلِّ مكان ، واجْعَلُوا تربيةَ الإنسان ملائمةً للإنسان ، لا لِمَا ليس منه مطلقاً ، ألا تَرَوْنَ أنكم ، بِعَمَلِكُمْ على تكوينه لحالٍ واحدةٍ حَصراً ، تَجْعَلُونَهُ غيرَ نافعٍ لآيةٍ حالٍ أخرى ، وأنه إذا ما جُعِلَ وَلَوْ عَاقِباً لَمْ تَعْمَلُوا على غير جعله نَفْساً ؟ وأىُّ شَيْءٍ أَدْعَى إلى السُّخْرية من أميرٍ إقطاعيٍّ صار مُعْسِراً فَبَدَا حاملاً في بؤسه مبتسراتِ مَوْلده ؟ وأىُّ شَيْءٍ أَدْعَى إلى الازدراء من غنيٍّ أصبح فقيراً فصار يَذْكُرُ ما حُفَّ بِهِ الفقر من احتقارٍ فأخذ يَشْعُرُ بأنه أضْحَى آخِرَ الناسِ ؟ تكون لأحدهما حِرْقَةُ اللصِّ العامِّ ، وتكون للآخر حِرْقَةُ الخادم المُتَدَلِّل بالقول الجميل : « يجب أن أعيش » .

أنتم تَرَكُونُون إلى نظام المجتمع الحاضر من غير أن يَخْطُرَ ببالكم كَوْنُ هذا النظامِ عُرْضَةً لثَوَرَاتٍ لا مَقَرَّ منها ، وَكَوْنُهُ يَتَعَذَّرُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْصِرُوا ، وَأَنْ تَمْنَعُوا ، ما يُمَكِّنُ أَنْ يَواجِهَ أبنائكم من قِتْنٍ ، ويصيرُ الكبير صغيراً

والموسيرُ فقيراً والأميرُ مأموراً ، وهل ضَرَبَاتُ القَدَرِ من النُّذْرَةِ ما تَحْسَبُونَ معه أنكم في مَأْمِنٍ منها ؟ نحن نَدْنُو من حالِ البُحْرَانِ وَعَصْرِ الثَّوَرَاتِ^(١) ، ومن ذا الذى يستطيع أن يجيب عما تكونونه وقتئذٍ ؟ إن كلَّ ما صَنَعَ الناسُ يستطيع الناسُ أن يَهْدِمُوهُ ، ولا يُوجد من السجاياء التى لا تَمُحُّى غيرُ ما طبعته الطبيعةُ ، ولا تَصْنَعُ الطبيعةُ أمراء ولا أغنياء ولا إقطاعيين كبراء ، وما يَصْنَعُ فى أثناء سقوطه ، إذَنْ ، ذاك الرُّزْبَانُ الذى نَشَأَتْموهُ للعظَمَةِ ؟ وما يَفْعَلُ حين الفقر ذاك المَشَارُ الذى لا يَقْدِرُ أن يعيش بغير الذهب ؟ وما يَفْعَلُ هذا المختالُ الغبى ، الذى جُرِّدَ من كلِّ شَيْءٍ ، فلا يَعْرِفُ أن ينتفع بنفسه مطلقاً ، والذى لا يَصْعُ وجوده إلا فيما هو غريبٌ عنه ؟ طُوبَى لِمَنْ يَعْرِفُ أن يَتْرُكَ ، حينئذٍ ، حالاً تَتْرُكه وأن يَبْقَى رَجُلًا على الرغم من القَدَرِ ! وَاْمْدَحُوا ما شِئتم أن تَمْدَحُوا ذاك المَلِكَ المغلوب الذى يُريدُ أن يُدْفَنَ مُغَاضِبًا تحت أنقاض عرشه . وأما أنا فأزدرىه ، لأننى أرى أنه لا يكون إلا من أَجَلٍ تاجه ، وأنه لا يَعدُّ شيئاً إذا لم يكن ملكاً ، ولكن الذى يَحْسَرُ تاجه ويستغنى عنه يَعدُّ إذ ذاك فوقه ، وذلك أنه يرتقى إلى مرتبة الرجل التى لا تَجِدُ غيرَ القليل من الرجال مَنْ يَعْرِفُون بُلُوغَهَا ، وذلك من مرتبة الملك التى يستطيع نَذْلُ أو خِيثُ أو مجنونٌ أن يَشْفَلَهَا كغيره ، وهناك ينتصر على الطالع ويقتحمه ، ولا يكون مَدِينًا لغير نفسه ، وهو إذا لم يَبْقَ ما يُرى غيرَ نفسه عاد لا يكون غُفْلًا ،

(١) أرى من المستحيل دوام الملكيات الكبرى فى أورية لزمن طويل ، فقد ازدهرت كلها ، ولا بد من أقول كل ما يزدهر ، ولدى من الآراء الخاصة ما يدور حول تطبيق هذا المبدأ العام ، ولكن ليس هنا مكان بيانها ، وهى كلها بادية لكل ذى عينين .

بل صار شيئاً ما ، أَجَلَ ، إِنِّي أَفْضَلُ مِثْلَ مَرَّةٍ مَلِكَ سَرَقُوسَةَ مُعَلِّماً لِلدَّرْسَةِ
فِي كُورِنْثُسَ ، وَمَلِكَ مَقْدُونِيَّةٍ مُوْتَقَّاً فِي رُومَةِ ، عَلَى تَارِكِ النَّعِيسِ الَّذِي
لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَ الْمَلِكِ ، وَعَلَى وَارِثِ الْمَالِكِ الثَّلَاثِ الَّذِي صَارَ الْعُوبَةَ لِمَنْ
يُقَدِّمُ عَلَى شَتَمِ بُوْسِهِ ، هَائِئِذَا عَلَى وَجْهِهِ بَيْنَ بَلَاطٍ وَبَلَاطٍ ، طَالِباً عَوْنًا
فِي كُلِّ مَكَانٍ ، مَلَايَا خِزْيًا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَذَلِكَ عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَةٍ فِي
صُنْعِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ حِرْفَةٍ عَادَتْ خَارِجَةً عَنْ قُدْرَتِهِ .

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الرَّجُلِ أَوِ الْمَوَاطِنِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ مَا يَضَعُ
فِي الْمَجْتَمَعِ غَيْرُ نَفْسِهِ ، وَأَمَّا أَمْوَالُهُ الْآخَرَى لَخَاصَّةٌ بِالْمَجْتَمَعِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُ ،
وَإِذَا مَا كَانَ الرَّجُلُ غَنِيًّا فَهُوَ إِمَّا أَلَّا يَتَمَتَّعَ بِغَنَاهُ وَإِمَّا أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهِ الْجُمْهُورُ
أَيْضًا ، وَفِي الْحَالِ الْأَوَّلِيِّ يَسْرِقُ مِنَ الْآخَرِينَ مَا يَحْرِمُ نَفْسَهُ إِيَّاهُ ، وَفِي
الْحَالِ الثَّانِيَةِ لَا يُعْطِيهِمْ شَيْئًا ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ يَحْضِلُ الدِّينَ الْاجْتِمَاعِيَّ كَامِلًا
مَا دَامَ لَا يُؤَدِّي مِنْ غَيْرِ مَالِهِ ، وَيَخْدُمُ وَالِدِي الْمَجْتَمَعِ إِذْ يَكْسِبُ مَالَهُ ،
وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَهُوَ قَدْ دَفَعَ دَيْنَهُ ، لَا دَيْنَكُمْ ، وَأَنْتُمْ مَدِينُونَ لِلْآخَرِينَ
أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ كُنْتُمْ قَدْ وَلِدْتُمْ بِلَا مَالٍ مَا دَمْتُمْ قَدْ وَلِدْتُمْ مُنْعَمًا عَلَيْكُمْ ،
وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ مُطْلَقًا أَنْ يَكُونَ مَا صَنَعَهُ الْوَاحِدُ لِلْمَجْتَمَعِ مُؤَدِّيًّا لِلدِّينِ
رَجُلٍ آخَرَ نَحْوِ الْمَجْتَمَعِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ إِذَا كَانَ مَدِينًا بِكَامِلِهِ فَإِنَّهُ
لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ غَيْرِ نَفْسِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَبَدًا أَنْ يَتْرَكَ لِابْنِهِ حَقًّا
غَيْرَ نَافِعٍ لِأَمْثَلِهِ ، وَالْوَاقِعُ أَنْكُمْ تَقُولُونَ إِنَّهُ يَصْنَعُ هَذَا ، مَعَ ذَلِكَ ، بِنَقْلِهِ
إِلَيْهِ ثَمَرَاتِهِ الَّتِي هِيَ دَلِيلُ الْعَمَلِ وَقِيَمَتُهُ ، وَمَنْ يَا كُلُّ فِي الْبِطَالَةِ مَا لَمْ
يَكُنْ قَدْ اكْتَسَبَهُ بِنَفْسِهِ يُعَذِّ سَارِقًا لَهُ ، وَلَا يَخْتَلِفُ ذُو الدَّخْلِ الَّذِي تَدْفَعُهُ

إليه الدولة بلا مقابلٍ عن قاطع الطريق الذى يعيش على حساب أبناء السبيل ،
وأما الرجلُ المنعزلُ ، إذ كان خارجَ المجتمع وغيرَ مَدِينٍ لأحدٍ بشيء ، فإنه
يحقُّ له أن يعيش كما يروقه ، ولكن الرجلُ فى المجتمع ، حيث يعيش على
حساب الآخرين بحكم الضرورة ، فإنه مَدِينٌ لهؤلاء بالعمل فى مقابل حفظهم له ،
ولا يُوجَدُ استثناء لهذا ، فالعملُ ، إذن ، واجبٌ لازمٌ للإنسان الاجتماعى ،
ويُحَسَّبُ التقىُّ أو الفقير والقوى أو الضعيفُ ، أى كلُّ بَطَالٍ ، سارقاً .

والحقُّ أن عمل اليد ، بين جميع الأشغال التى يُمكن أن تُزَوَّدَ
بمعايش الإنسان ، هو أكثرُ ما يُدْنِيهِ من حال الطبيعة ، وأن حال الصانع ،
بين جميع الأحوال ، هى أكثرُ ما يكون استقلالاً عن النصيب والناس ،
ولا يُخَضِّعُ الصانع لغير عمله ، وهو حرٌّ ، وهو حرٌّ بمقدار ما يكون الأثَرُ
عبدًا ، وذلك لأن هذا تابعٌ لحقله الذى تَقَعُ غَلَّتُهُ تحت تصرُّف غيره ،
وَيُمْكِنُ العدوُّ أو الأميرُ أو الجارُ القوىُّ أو إحدى القضايا أن يَسْلُبَهُ هذا
الحقلَ ، وَيُمْكِنُ بهذا الحقل أن يُظْلَمَ بألف أسلوب ، ولكنه إذا ما أُريدَ
ظلمُ الصانع فى أىِّ محلٍّ لم تَلَبَّثْ أمتعته أن تُخَزَمَ وينصرف من قوره ،
ومع ذلك فإن الزَّراعةَ أولى حِرَفِ الإنسان ، وهى أفضلُ ما يُزاولُ ،
وأنفعُ ما يمارسُ ، ومن ثَمَّ تُعدُّ أشرفَ ما يتعاطى ، ولا أقول لإميل :
« تَعَلَّمِ الزَّراعةَ » ، فهو يَعْرِفُهَا ، وهو دَرَبٌ بجميع الأعمال الريفية ،
وبهذه الأعمال قد بدأ ، وإليها يَرْجِعُ بلا انقطاع ، ولذا أقول له :
« اخْرُثْ تراثَ أبيك ، ولكنك إذا ما أضعْتَ هذا التراثَ ، أو لم يكن
عندك تراثٌ قط ، فما تَصْنَعُ ؟ تَعَلَّمِ حِرْفَةً » .

حِرْفَةُ لَابْنِي ! ابْنِي صَانِعٌ ! أَوْ تَفَكَّرُ فِي هَذَا أَيُّهَا السَّيِّدُ ؟ تَفَكَّرِي فِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ تَفَكِيرِكَ يَا سَيِّدَتِي ، أَنْتِ الَّتِي تُرِيدُ أَلَّا تَجْعَلَ مِنْهُ رَجُلًا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ كُوزٍ أَوْ مَرْكَبٍ أَوْ أَمِيرٍ ، أَوْ أَقَلٍّ مِنْ شَيْءٍ ذَاتِ يَوْمٍ عَلَى مَا يَحْتَمَلُ ، وَأَمَّا أَنَا فَأُرِيدُ أَنْ أَمْنَحَهُ مَرْتَبَةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْسَرَهَا ، أُرِيدُ أَنْ أَمْنَحَهُ مَرْتَبَةً تُشَرِّفُهُ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ ، أُرِيدُ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَى حَالِ الْإِنْسَانِ ، وَعَلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولِي سَيَكُونُ لَهُ فِي تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ مُسَاوُونَ أَقَلُّ مِنْ يَكُونُونَ لَهُ مِنْكَ .

وَالْحَرْفُ يَقْتُلُ وَالرُّوحُ يُحْيِي ، وَلَئِنْ تُتَعَلَّمَ حِرْفَةٌ لِمَعْرِفَةِ حِرْفَةِ أَقَلِّ أَهْمِيَّةٍ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى الْمُتَبَسِّرَاتِ الَّتِي تَرْدَرِيهَا ، وَلَنْ تُنْزَمُوا بِالْعَمَلِ لَتَعِيشُوا ، وَيَ ! يَا لِلْحَيْفِ ، يَا لِلْحَيْفِ عَلَيْكُمْ ! وَلَكِنْ لَا ضَيْرَ ، لَا تَعْمَلُوا عَنْ ضَرُورَةٍ ، وَاعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَجْدِ ، وَاهْبِطُوا إِلَى حَالِ الصَّانِعِ لَتَكُونُوا فَوْقَ حَالِكُمْ ، وَابْدَأُوا بِأَنْ تَكُونُوا مُسْتَقِلِينَ عَنِ الثَّرَاءِ وَالْأَشْيَاءِ لَتَقَهَّرُواهَا ، وَابْدَأُوا بِالسَّيْطَرَةِ عَلَى الرَّأْيِ الْعَامِّ حَتَّى تُسَيِّطَرُوا بِهِ .

وَإِذَا كُرُوا أَنْتَى لَا أَطَالِبُكُمْ بِبُخُوعٍ مُطْلَقًا ، وَإِنَّمَا أَطَالِبُكُمْ بِحِرْفَةٍ ، بِحِرْفَةٍ حَقِيقِيَّةٍ ، بِفَنٍّ مِيكَانِيٍّ مَخْضٍ ، حَيْثُ تَعْمَلُ الْأَيْدَى أَكْثَرَ مِنْ عَمَلِ الرَّأْسِ ، وَحَيْثُ لَا يُنَالُ الثَّرَاءُ ، بَلْ يُمَكِّنُ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ ، وَقَدْ رَأَيْتُ فِي بَيْوتٍ ، يُسْتَبَعَدُ جِدًّا أَنْ تُلَمَّ بِهَا الْفَاقَةُ ، آباءُ يَتَلَفُّونَ مِنَ الْحَذَرِ مَا يُضَيِّفُونَ مَعَهُ إِلَى عَنَائِهِمْ بِتَعْلِيمِ أَوْلَادِهِمْ عُنَايَةً بِتَزْوِيدِهِمْ بِمَعَارِفَ يَسْتَطِيعُونَ الِاتِّفَاعَ بِهَا لِلْعِيشِ عِنْدَ النَّوَائِبِ ، وَيَعْتَقِدُ هَؤُلَاءِ الْآبَاءُ النَّازِلُونَ إِلَى الْعَوَاقِبِ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ كَثِيرًا ، وَهُمْ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَسَائِلَ الَّتِي يَرَوْنَ

أنهم يُجهِّزون بها أولادهم تتوقف على عَيْنِ الثراء الذي يريدون جعلهم يَعْلَمُونَهُ ، فإذا لم يُوجَدْ صاحبُ هذه المواهب الجميلة في أحوالٍ ملائمةٍ للانتفاع بها هَلَكَ بؤساً كأنه لم يَحْزُ واحدةً منها .

وإذا ما قام الأمرُ على الحِيلِ والدسائسِ تَسَاوَى استعمالُها للبقاء في سَعَةٍ واستعمالُها حين البؤسِ لِلْعَوْدِ إلى الحال الأولى ، وإذا كنتم تتعهدون الفنونَ التي يتوقف نجاحُها على شهرةِ المتفننِ ، وإذا كنتم تَجْعَلُون أنفُسَكم صالحين لِيَحْدَمَ لَا تُنَالُ بغيرِ المحاباةِ ، فما نَفْعُ جميعِ هذا عند ما تَقَرُّ نَفْسُكم من العالمِ حقاً وتزدرون الوسائلَ التي لَا يُمكنُ النجاحُ فيه بغيرها ؟ لقد دَرَسْتُمُ السياسةَ ومصالحَ الأمراءِ ، وهذا حَسَنٌ ، ولكن ما تَصْنَعُون بهذه المعارفِ إذا كنتم لَا تستطيعون الوصولَ إلى الوزراءِ ونساءِ البلاطِ ورؤساءِ الدواوينِ ، وإذا كنتم لَا تَعْرِفُون سِرَّ الوقوعِ موقعَ الرِّضا عندهم ، وإذا كان الجميعُ لَا يَجِدُون المُنَادِيَ فيكم ، فَمَنْ يَلَانِهم ؟ وكونوا بَنَائِينَ أو مَصَوِّرِينَ ، ولكن لَا بُدَّ من التعريفِ بنبوغكم ، أَوْ تَظُنُّون أنكم تَمْرِضُونَ أَثَرَكُمْ في الرَّذَّةِ من غيرِ سابقِ تمهيدٍ ؟ وَى ! ليست هذه وسيلةَ الشروعِ في الموضوعِ ! يجب أن تكونوا من الأكاديميةِ ، حتى إنه يجب أن تكونوا محلَّ رعايَةٍ لنتالوا في زاويةٍ من الجدارِ مكاناً قائماً ، دَعُوا المِسْطَرَّةَ والمِنْقَاشَ جانباً ، وارْكَبُوا عَرَبَةً ، واقْرَعُوا بَاباً بعد بابٍ تنالوا شُهْرَةً ، واعْلَمُوا ، إِذَنْ ، أن لجميعِ هذه الأبوابِ المشهورةِ حُجَّاباً وَحُرَّاساً لَا يَسْمَعُونَ بغيرِ الإشارةِ وتَقَعُ آذَانُهم في أيديهم ، وإذا ما أردتم تدريسَ ما تَعَلَّمْتُمْ وأن تُصَبِّحُوا أساتذةَ جِغرافيةٍ أو رياضياتٍ أو لغاتٍ أو موسيقا أو تصويرٍ

وَجَبَ أَنْ تَجِدُوا طُلَّابًا ، وَمَنْ تَمَّ مَادِحِينَ ، وَرَوَّاءَ أَنْ مِنَ الْمَهْمِ أَنْ
تَكُونُوا مَخَادِعِينَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَكُونُوا مَاهِرِينَ ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ
مَهْنَةً غَيْرَ مَا عِنْدَكُمْ لَمْ تُعَدُّوا غَيْرَ جَاهِلِينَ .

وَانظُرُوا ، إِذَنْ ، مَقْدَارَ مَا عَلَيْهِ جَمِيعُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الرَّائِعَةِ مِنْ قِلَّةٍ
مَتَانَةٍ ، وَمَقْدَارَ لُزُومِ الْوَسَائِلِ الْأُخْرَى لَكُمْ لِتَنْتَفِعُوا بِتِلْكَ ، ثُمَّ مَا تُضَيِّحُونَ
بِهَذَا الْمَبْطُوعِ الْوَانِي ؟ تُنْذِلُكُمْ النِّوَازِلُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْذِبَكُمْ ، وَأَنْتُمْ إِذْ
تَعُدُّونَ أَلْتُوبَةَ الرَّأْيِ الْعَامِّ أَكْثَرَ مِمَّا فِي أَيِّ زَمَنِ فَكَيْفَ تَرْفَعُونَ فَوْقَ
الْمُبْتَسِرَاتِ الَّتِي هِيَ حَكْمُ مُصِيرِكُمْ ؟ وَكَيْفَ تَزِدُّونَ الدَّلَّةَ وَالْفَنَائِصَ الَّتِي
تَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِتَعِيشُوا ؟ كُنْتُمْ تَابِعِينَ لِلتَّرَوَاتِ ، وَالْآنَ تَنْتَبِعُونَ الْأَثَرِيَاءَ ،
وَأَنْتُمْ لَمْ تَصْنَعُوا غَيْرَ زِيَادَةِ عِبُودِيَّتِكُمْ سُوءًا وَإِرْهَاقِهَا بِيُوسِكُمْ ، وَهِيَ أَنْتُمْ
أَوْلَاءُ تَبْذُونُ فَقَرَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونُوا أَحْرَارًا ، وَهَذِهِ هِيَ أَسْوَأُ حَالٍ
يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهَا إِنْسَانٌ .

وَلَكِنْكُمْ إِذَا مَا اسْتَعْنَمْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ وَبِمَا تَعْرِفُونَ مِنْ اسْتِعْمَالِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ ،
بَدَلًا مِنْ أَنْ تَلْجَأُوا ، لِتَعِيشُوا ، إِلَى تِلْكَ الْمَعَارِفِ الْعَالِيَةِ الَّتِي جُعِلَتْ لِتَغْذِيَةِ
الرُّوحِ ، لَا الْبَدَنِ ، زَالَتْ جَمِيعُ الْمَصَاعِبِ ، وَأَصْبَحَتْ جَمِيعُ الْحِيلِ غَيْرَ
مُجْدِيَةٍ ، وَصَارَتْ الْوَسِيلَةُ حَاضِرَةً دَائِمًا وَقْتَ اسْتِعْمَالِهَا ، وَعَادَتْ الْاسْتِقَامَةُ
وَالْفَضِيلَةُ لَا تَكُونَانِ عَاقِلَتَيْنِ لِلْحَيَاةِ ، وَعُدْتُمْ لَا تَحْتَاجُونَ إِلَى النَّذَالَةِ وَالسَّكْدِ
أَمَامَ الْكِبَرَاءِ ، وَلَا إِلَى الْمُرُونَةِ وَالتَّذَلُّلِ أَمَامَ الْخُبَاءِ ، وَلَا إِلَى الْمَجَامِلَةِ
الْخُفْيَةِ تَجَاهَ جَمِيعِ النَّاسِ مِنْ مُقْتَرِضِينَ وَسَارِقِينَ وَمِنْ إِلَيْهِمْ مَنْ تَتَخَذُونَ
نَحْوَهُمْ ذَاتَ الْوَضْعِ عِنْدَمَا لَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَمْسُكُكُمْ رَأْيُ الْآخَرِينَ

مطلقاً ، ولا يكونُ عليكم أن تَتَزَلَّفُوا إلى أحد ، ولا أن تَتَمَلَّقُوا لبلبد ،
ولا أن تستميلوا حاجباً ، ولا أن تَرَشُّوا بغياً أو تاتوا بتبجيلها أمراً إذا ،
وما أكثر الأوغاد الذين يديرون الشؤون العظيمة ! ولا أهمية لذلك
ما دام هذا لا يَمْنَعُكم في حياتكم القائمة أن تكونوا صالحين حائزين
لُحْزَمِكُمْ ، وتَدْخُلُون أولَ دكانٍ للحرفة التي تَعَلَّمْتُمْ ، وتقولون : « أحتاجُ
إلى عملٍ أيها المُعَلِّم » ، ويقول : « هناك مكانك أيها الرفيق ، فاعمل » ،
وَتَكْسِبُونُ غداًكم قبل وقت الغداء ، وإذا كنتم من ذوى النشاط والقناعة
فإنكم تكونون حائزين ، قبل مرور ثمانية أيام ، لِمَا تعيشون به ثمانية أيام ،
وستَحْيُونَ حياةَ حرةً صحيحةً جَدِيَّةً مستقيمةً ، وليس من ضياع الوقت
أن يَقَعَ الكَسْبُ على هذا الوجه .

وأريد أن يتعلم إميلُ حِرْفَةً ، وستقولون : « لتكن حِرْفَةً شريفة على
الأقل » ، وما معنى هذه الكلمة ؟ أليست كل حِرْفَةٍ نافعةً للجُمُهور
شريفة ؟ ولا أريد ، قطعاً ، أن يكون مُطَرِّزاً ولا مُدَهِّباً ولا صَقَّالاً
كالسيد الذى حكى عنه لوك ، ولا أريد أن يكون موسيقياً أو ممثلاً أو
مؤلفاً^(١) ، وإذا عَدَوْتَ هذه المِهَنَ وما ماثلها فليَتَخِذِ المِهْنَةَ التى يُريد ،
فلا أريد أن أضايقه فى خياره ، وأَفْضَلُ أن يكون حَدَّاءً على أن يكون
شاعراً ، وأَفْضَلُ أن يُبَلِّطَ الشوارعَ على أن يَرَسُمَ أزهاراً على الصِنِيِّ ،
ولكن ستقولون : « إن النِّبَّالةَ والجواسيسَ والجلَّادين أناسٌ نافعون » ،

(١) سيقال لى إنك مؤلف ، فأعترف بأننى مؤلف لسوء حظى ، وليست ذنوبى ، التى كثرت
عنها بما فيه الكفاية كما أرى ، سبباً لوجود مثالها لدى الآخرين ، ولا أكتب للاعتذار عن خطيئتي ،
بل لأحول دون تقليد القراء إياها .

فأقول : لا يَتَوَقَّفُ نفعُهم على غير الحكومة ، ولكن دَعْنَا نَمْنِي ، فقد أخطأتُ ، فلا يَكُنِّي اختيارُ حِرْفَةٍ مفيدة ، بل يجب ، أيضاً ، ألا تُنَمِّيَ فيمن يزاولونها صفاتٍ روحيةً كريهةً منافيةً للإنسانية ، وهكذا فإننا ، إذ نَعُودُ إلى الكلمة الأولى ، نَتَّخِذُ حِرْفَةً شريفة ، ولكن لِنَذْكُرْ ، دائماً ، أنه لا شَرَفَ بلا نَفْعٍ مطلقاً .

وظَهَرَ في هذا العصر مؤلفٌ مشهور^(١) مُلِثَ كِتَبُهُ بأعظم الخِطَط مع أبصارٍ صغيرة ، فهذا المؤلفُ قَطَعَ على نفسه عهداً بالآلا تكونَ له زوجةٌ خاصة ، شأنُ جميع قساوسة طائفته ، ولكنه إذ وُجِدَ أكثرَ من سواه تَرُدُّدًا حَوْلَ الزنا فإنه ذهب ، كما يقال ، إلى اتِّخَاذِ خادِماتٍ جَمِيلَاتٍ لِيَتَلَفَى مَعَهُنَّ ، جُهْدَهُ ، ما أتاه من إهانة لنوعه بعهد الطائش ، وقد كان يَعدُّ من واجب المواطن أن يَمْنَحَ الوطنَ مواطنين آخرين ، وأن من الضرائب التي تَوَدَّى إليه في هذا المضمار زيادة طبقة الصَّنَاع ، فإذا ما تَرَعَّرَعَ هؤلاء الأولادُ حملهم جميعاً على تَعَلُّمِ صنعةٍ تَلَامُ مِثْلَهُمْ ، مستثنياً المِهَنَ البَطَّالَةَ التافهة الخاضعةَ للمُوضَعَةِ* كِمِهْنَةِ صُنْعِ الشُّعُورِ المستعارة التي ليست ضرورةً مطلقاً والتي يُمكن أن تكون غير مفيدة يوماً بعد يوم مادامت الطبيعةُ جَادَّةً في الإِنْعَامِ علينا بشَعْرٍ .

وهذه هي الروح التي يجب أن تكون دليلاً لنا في اختيار مهنة إميل ، وإن شئت فقل إن على إميل ، لا علينا ، أن يقوم بهذا الخيار ، وذلك

(١) رئيس دير القديس بطرس .

لأن المبادئ التي أُشيعَ منها أوجبت ادّخاره في نفسه ازدراءً طبيعيًا للأشياء غير المفيدة ، ولأنه لا يَرْضَى بِإِنْفَاقِ وقته في الأعمال التي لا قيمةَ لها ، ولا يَعْرِفُ للأشياء قيمةً غيرَ ما لفائدتها الحقيقية ، فلا بُدَّ له من حرفةٍ يُمكن أن تَنفَعَهُ رُوبِنْسُنُ في جزيرته .

وإذا ما عَرَضْنَا أمام الولد مُنتَجَاتِ الطبيعة والفنِّ ، وأنزَلْنَا فُضُولَهُ ، وَتَبَعْنَا ما يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ، كانت لنا بهذا فائدةُ دراسةِ أذواقه ومشاربه ومُيُولِهِ وَتَبَيُّنِ أَوَّلِ بَرِيقٍ من ذهنه ، عند وجود شيء مُقَرَّرٍ من ذلك فيه ، وَيَقُومُ الخَطَأُ الشائع ، الذي يجب أن تُصَانُوا منه ، على عَزْوِكُمْ إلى تَوَقُّدِ القريحةِ فِعْلَ الحِينِ ، وعلى عَدَّكُمْ من المِثْلِ الواضح نحو هذا الفن أو ذاك روحَ التقليدِ المشتركة بين الإنسان والقِرْدِ والتي تَحْمِلُ كلاً منهما آلياً على الرغبة في صُنْعِ كُلِّ ما يَرَى صنعه من غير أن يَعْرِفَ كثيراً وجهُ الفائدة فيه ، والعالمُ زَاخِرٌ بالصَّنَاعِ ، ولا سيما المتفننون ، الذين ليس لديهم استعدادٌ فطريٌّ للفنِّ الذي يزاولون والذي دُفِعُوا إليه منذ صِبَاهِم قُبِتَ فيه عن عواملٍ أخرى أو غُرِّ به عن غَيْرَةِ ظاهِرةٍ كان من الممكن أن تَحْفِزَهُمْ إلى فنٍّ آخَرَ أيضاً لو كانوا قد رَأَوْا مزاولةَ هذا الفنِّ حالاً ، وهذا يَسْمَعُ طَبَّلاً فيظُنُّ نفسه قائداً ، وذاك يَرَى بِنَاءً فيريد أن يكون مهندساً مِعمَارياً ، وكلُّهُ يُسَاقُ إلى الحرفة التي يشاهد القيامَ بها إذا ما اعتقدوها مُعْتَبَرةً .

وما حَدَّثَ أن عَرَفْتُ خادماً رَأَى معلمه وهو يَرْسُمُ وَيُصَوِّرُ ، فَأَقْنَعَ نفسه بأن يكون مُصَوِّراً ورسّاماً ، وتناولَ القلمَ الرَّصَاصِيَّ منذ الدقيقة التي

اتَّخَذَ فِيهَا هَذَا الْقَرَارَ ، وَلَمْ يَتْرُكْ هَذَا الْقَلَمَ إِلَّا لِيَتَنَاوَلَ رِيشَةَ الرِّسْمِ وَالتَّصْوِيرِ
الَّتِي لَمْ يَتْرُكْهَا مَدَى حَيَاتِهِ ، وَأَخَذَ يَرْسُمُ كُلَّ مَا يَقَعُ نَظَرُهُ عَلَيْهِ غَيْرَ
مُسْتَعِينٍ بِدُرُوسٍ وَلَا قَوَاعِدَ ، وَقَضَى ثَلَاثَ سَنِينَ بِكَامِلِهَا لَاصِقًا بِخَرَابِيشِهِ
الَّتِي لَمْ يَكُنْ لِيُحَرِّكَ عَنْهَا شَيْءٌ غَيْرُ خِدْمَتِهِ ، وَمَا كَانَ لِيَرُدَّهُ عَنْ ذَلِكَ
مَا تَمَّ لَهُ مِنْ تَقَدُّمٍ قَلِيلٍ نَاشِئٍ عَنْ اسْتِعْدَادِهِ الْعَادِيِّ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقْضِي
أَشْهُرَ صَيْفٍ شَدِيدِ الْحَرِّ فِي غُرْفَةٍ انْتِظَارٍ صَغِيرَةٍ مُوْاجِهَةٍ لِلْجَنُوبِ ، فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ
الَّتِي يَخْتَنِقُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَرَّ مِنْهَا ، فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا ، وَإِنْ شِئْتَ
فَقُلْ يَسْمَرُ فِيهَا ، عَلَى كُرْسِيِّ أَمَامِ كُرْئَةٍ ، فَيَرْسُمُ هَذِهِ الْكُرْئَةَ وَيَرْسُمُهَا ثَانِيَةً
وَيَعُودُ إِلَى رِسْمِهَا وَيَسْتَأْنِفُهُ بِلَا انْقِطَاعٍ وَبِعِنَادٍ لَا يُدْفَعُ إِلَى أَنْ رَضِيَ عَنْ
اسْتِدَارَتِهَا ، وَيَحْبُوهُ مَعْلَمُهُ بِعَظْفِهِ ، وَيُرْشِدُهُ مُتَفَنٌّ ، حَتَّى يَبْلُغَ دَرَجَةً يَحْلَعُ
مَعَهَا ثَوْبَ الْخِدْمَةِ وَيَعِيشُ مِنْ رِيشَتِهِ ، وَيَقُومُ الثَّبَاتُ مَقَامَ النَّبُوغِ إِلَى حَدٍّ مَا ،
وَقَدْ انْتَهَى إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، وَلَنْ يَجَاوِزَهُ مَطْلَقًا ، وَيَسْتَحِقُّ جَلْدَ هَذَا
الْخَادِمِ الشَّرِيفِ وَطَمُوحِهِ الثَّنَاءِ ، وَهُوَ سَيَكُونُ ، دَائِمًا ، مَحَلَّ تَقْدِيرٍ
مِنْ أَجْلِ مُثَابَرَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ صُورٍ مِنْ
الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يُخَدِّعْ بِغَيْرَتِهِ قِيَمَتَهُ ذَا نَبُوغٍ حَقِيقِيٍّ ؟
يُوجَدُ فَرْقٌ بَيْنَ الْإِعْجَابِ بِعَمَلٍ وَالْأَهْلِيَّةِ لَهُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَشَاهِدَاتٍ أَدْقَ
مِمَّا يَتَصَوَّرُ لِتَيَقُّنِ النَّبُوغِ الْحَقِيقِيِّ وَالذَّوْقِ الْحَقِيقِيِّ فِي الْوَلَدِ الَّذِي يُبْدِي
رَغْبَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِيَّاتِهِ وَالَّذِي يُفْضَلُ فِي أَمْرِهِ بِالْأَوَّلَى عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ
بَدْرَسِ الْآخَرَى ، وَأَتَمَنَّى وَجُودَ رَجُلٍ مُفْضَالٍ يَضَعُ لَنَا رِسَالَةً عَنْ فَنِّ
رَقَابَةِ الْأَوْلَادِ ، وَعَلَى مَا لِمَعْرِفَةِ هَذَا الْفَنِّ مِنْ أَهْمِيَّةٍ عَظِيمَةٍ تَرَى الْآبَاءَ

والمعلمين لا يزالون جاهلين بمبادئه .

ولكننا هنا نُعَلِّقُ أهميةً كبيرةً على اختيار الحِرْفَةِ على ما يحتمل ، وبما أن الأمر يَدُورُ حَوْلَ العمل اليدويِّ فإن هذا الاختيار ليس ذا بالٍ بالنسبة إلى إميل ، وإميلُ قد أتمَّ إلى الآن أكثرَ من نصفِ تَحْرِجِهِ بالتمرينات التي شَغَلْنَاهُ بها حتى اليومِ الحاضر ، وما تريدون أن يَصْنَعَ ؟ هو مستعدٌّ لكلِّ شيءٍ ، وهو يَعْرِفُ استعمالَ المِزْقَةِ والمِجْرَقَةِ ، وهو يَعْرِفُ استخدامَ المِخْرَطَةِ والمِطْرَقَةِ والمِنْجَرِ والمِبرَدِ ، وهو مُلِمٌّ بِآلاتِ جميعِ الحِرَفِ ، وعاد لا يُبَلِّغُنا إلى غيرِ حيازةِ آلاتٍ تكون من السرعةِ والسهولةِ ما تُعَدِّلُ معه في العَجَلَةِ أَحْسَنَ العمالِ الذينِ يستخدمونها ، وهو ، من هذه الناحيةِ ، ذو مزيةٍ يفوقُ بها الجميعَ ، أى إنه ذو رَشَاقَةٍ في البَدَنِ ومرونةٍ في الأعضاءِ يَتَّخِذُ بهما جميعَ الأوضاعِ بلا مشقةٍ ويطيلُ بهما جميعَ الحركاتِ بلا جُهدٍ ، ثم إن له أعضاءَ صالحةً حَسَنَةَ التدريبِ ، وهو عارفٌ بجميعِ الجهازِ الفنيِّ ، ولا تُعَوِّزُهُ غيرُ العادةِ لِيَسْتَطِيعَ العملَ مثلَ مُعَلِّمٍ ، والعادةُ لا تُنَالُ إِلَّا مع الوقتِ ، وأى الحِرَفِ بَقِيَ عَلَيْنَا أن نختارَ فَنَمْنَحَ من الوقتِ ما يكون معه نشيطاً فيها ؟ وليسَ حَوْلَ غيرِ هذا ما يَدُورُ الأمرُ .

وانتَبِحوُ الرجلَ حِرْفَةً ملائمةً لجنسه ، وامْتَنَحُوا الشابَّ حِرْفَةً ملائمةً لِسِنِّهِ ، فكلُّ مِهْنَةٍ حَضَرِيَّةٍ دَارِيَّةٍ تُخَنِّثُ البَدَنَ وتُوَثِّثُ الجِسْمَ لا تَرَوِّقُهُ ولا تُنَاسِبُهُ ، وما كان الشابُّ لِيَبْتَنِيَ أن يكونَ خِيَّاطاً من تلقاءِ نفسه ، ولا بُدَّ من الفَنِّ لِيُحْمَلَ إلى حِرْفَةِ النساءِ هذه ذاكَ الجنسُ الذي لم يُخْلَقْ

لها^(١) ، وما كان السيفُ والإبرةُ لِيُسْتَعْمَلَا بِأَيْدٍ واحدة ، ولو كنتُ ولياً للأمر ما سَمَحْتُ بِالْخِيَاطَةِ وَحِرَفِ الْإِبْرَةِ لغير النساء ، والعُرْجَانِ الَّذِينَ هُمْ فِي حُكْمِ النِّسَاءِ ، وَإِذَا مَا افْتَرَضَ الْخِصْيَانُ أَنْاسًا لَا غُنْيَةَ عَنْهُمْ وَجَدْتُ الشَّرِيقِينَ مِنَ الْحَاقَّةِ مَا يَصْنَعُونَ مِنْهُمْ عَدَاً ، وَلِمَ لَا يَكْتَفُونَ بِمَنْ صَنَعَتِ الطَّبِيعَةُ ، وَبَتْلِكَ الْجَمْعِ مِنَ الْأَذْمِينَ الضَّعْفَاءِ الَّذِينَ كَثُرَتْ الطَّبِيعَةُ قُلُوبُهُمْ ؟ فَتُوجَدُ مِنْهُمْ بَقِيَّةٌ لِلْحَاجَةِ ، وَقَدْ حَكَمَتِ الطَّبِيعَةُ بِالْحَيَاةِ الْحَضَرِيَّةِ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ ضَعِيفٍ رَقِيقٍ جَبَانٍ ، وَقَدْ خُلِقَ هَذَا الرَّجُلُ لِيَعِيشَ مَعَ النِّسَاءِ أَوْ عَلَى طَرَاظِهِنَّ ، وَدَعُوهُ يَزَاوِلُ إِحْدَى حِرَفِهِنَّ إِذَا أَرَادَ ، وَإِذَا كَانَتْ هُنَاكَ ضَرُورَةٌ إِلَى خِصْيَانٍ حَقِيقِينَ فَلْيُرَدَّ إِلَى حَالِ هَؤُلَاءِ أَوْلَئِكَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَجْلِبُونَ الْعَارَ إِلَى جَنْسِهِمْ بِاتِّخَاذِهِمْ حِرَفًا لَا تُنَاسِبُهُ ، أَلَا إِنْ خِيَارَ هَؤُلَاءِ يُوْذِنُ بِخَطَا الطَّبِيعَةِ ، فَإِذَا مَا أَصْلَحْتُمْ هَذَا الْخَطَأَ عَلَى وَجْهِ مَا لَمْ تَصْنَعُوا غَيْرَ الْخَيْرِ .

وَأَحَرِّمْ عَلَى تَلْمِذِي الْحِرَفَ غَيْرَ الصَّحِيَّةِ ، لَا الْحِرَفَ الشَّاقَّةَ ، وَلَا الْحِرَفَ الْخَطِرَةَ أَيْضًا ، فَهَذِهِ الْحِرَفُ تُمَرِّنُ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ مَعًا ، وَهِيَ صَالِحَةٌ لِلرِّجَالِ وَحْدَهُمْ ، وَلَيْسَ لِلنِّسَاءِ دَعْوَى بِهَا مَطْلَقًا ، وَكَيْفَ لَا يَجْتَلُونَ مِنْ تَطَاوُلِهِمْ عَلَى حِرَفٍ خَاصَّةٍ بِهِنَّ ؟

« قَلِيلٌ عَدَدُ مَنْ يُحَارِبُ مِنَ النِّسَاءِ ، وَقَلِيلٌ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ يَأْكُلُ خَبْزَ الْأَبْطَالِ ، وَأَتْنٌ تَنْزِلُنَ الصُّوفَ ، فَتَيَّحَمُّ عَمَلُكُنَّ أَتَيْنٌ بِهِ فِي السَّلَالِ » ..

(١) كَانَ لَا يَجُودُ خِيَاطُونَ بَيْنَ الْقَدَمَاءِ ، فَقَدْ كَانَتْ ثِيَابُ الرِّجَالِ تَصْنَعُ فِي الْبُيُوتِ مِنْ قَبْلِ النِّسَاءِ .

وفى إيطالية لا تُرى النساء فى الحوانيت مطلقاً ، ولا يُمكن أن يتصوّر ما هو أدعى إلى الغمّ من منظر الشوارع فى هذا البلد لدى مَنْ تعودوا شوارع فرنسا وإنكلترا ، وإبنى ، إذ أرى تُجارَ أزياء يبيعون من السيدات أوشحةً وشبكاتٍ وقِطَآنًا ، وخُصَلَ ريشٍ أو صوفٍ للمُبَعَّاتِ ، أجدُ هذه الزيّيناتِ الناعمة مثيرَةً للضحك فى الأيدى الغليظة التى خلقتُ للنفخ فى الكبر أو للطرق* على السندان** ، فأقول فى نفسى : « يجب على النساء فى هذا البلد أن يقابلنّ السوء بالسوء فيُقمّن دكاكينَ للصقلِ وصُنْع الأسلحة » ، والآن ! ليصنّع كلُّ واحدٍ أسلحةَ جنسه وبيعها ، فلا بُدّ من استعمال هذه الأسلحة لمعرفتها .

ويا أيها الشابُّ ، اطّبع يدَ الرجل على أعمالك ، وتعلّم استعمال الفأس والمِشار بذراعٍ قوية ، وتعلّم نَحْتَ الرافدة*** بزوايا قائمة ، وتعلّم تَسَمُّ أعلى البناء ، ووضع القِمة ، وتثبيتها بالقوائم والدعائم ، ثم نادِ أختك لتأتى وتساعدك فى عملك ، وذلك كما كانت تطلب منك العمل فى غَرَزِها المُشْتَبِك .

وأشعُرُ بأننى أسهبتُ فى بيان ذلك لدى معاصِرى اللُطفاء ، ولكنى أدعُ نفسى تُساقُ بقوة النتائج أحياناً ، وإذا ما اعترى رجلاً ما خَجَلٌ من العمل علانيةً مُجَهَّزاً بِمِنْحَتٍ وَمُنْطَقاً بِوِزْرَةٍ من جِلْدٍ لم أرَ فيه غيرَ

* الكبر : زق ينفخ فيه الحداد .

** السندان : من آلات الحدادين ، وهو ما يطرق عليه ، والكلمة من الدخيل .

*** الرافدة : خشبة السقف التى فوق الجسر ، والعامّة تسميها الوصلة .

عبدٍ للرأى العامِّ مُعَدِّ للحياء من عمل الخير عند الضحك من ذوى الصلاح ،
 ومع ذلك دَعْنَا نُدْعِن لُبُنْسَر الآباء في كلِّ ما لا يُمكن أن بَصُرَ رأى
 الأولاد ، وليس من الضروريَّ أن تُزَاوَلَ جميعُ المِهَن النافعة تَكْرِيمًا لها
 كُلُّها ، وإنما يكفي أَلَّا يُقَدَّرَ الإنسانُ واحدةً منها على أنها دون مستواه ،
 وإذا كان لنا حَقُّ الخِيَارِ بلا إكراهٍ فَلِمَ لا نختار من المِهَن التي هي من
 مرتبةٍ واحدةٍ ما ينطوى على بَهْجَةٍ ونِلاَمةٍ ويدلُّ عليه المَثَلُ ؟ إن
 الأعمالَ المَعْدِنِيَّةَ مفيدةٌ ، وهي أَكْثَرُ الأعمالِ فائدةً ، ومع ذلك فإِنِّي
 لا أجعل من ابنكم بَيْطَارًا ولا قَفَّالًا ولا حَدَّادًا ، ما لم يكن لدى سببٍ
 خاصٍّ يَحْمِلُنِي على ذلك ، وذلك لِأَنِّي لا أُحِبُّ أن أرى له في معمل
 الحديد وجهَ جَبَّارٍ ، وكذلك لن أجعلَ منه بَنَاءَ ولا حَدَّاءَ ، أَجَلْ ،
 يَجِبُ القِيَامُ بجميعِ الحِرَفِ ، ولكنه يَجِبُ على من يستطيع الخِيَارَ أن
 يَنْظُرَ إلى النظافة ، ولا ينطوى هذا على معنى البُنْسَرِ الطَّبِيقِيِّ ، وحواسننا
 هي دليْلُنَا في هذا الأمر ، ثم إِنِّي لا أُحِبُّ المِهَنَ السخيفةَ التي يكون
 العمالُ فيها خالين من الصَّنَاعَةِ ومعدودين آلِيَيْنَ فلا يُحَرِّكون أَيْدِيَهُمْ في
 غير ذات العمل ، كالحَاكَةِ وصانِىِ الجوارب ونَشَارَى الحِجَارَةِ ، وما فائدةُ
 استخدامِ رجالٍ أَذْكياءَ في هذه الحِرَفِ ؟ لا يَمْدُو الأمرُ حَدَّ آلَةٍ تنتهى
 إلى آلَةٍ .

وإِنِّي ، بعد إِنْعامِ النظرِ في جميعِ الحِرَفِ ، أُحِبُّ النِّجَارَةَ أَكْثَرَ من
 سواها ، وهي بلائِمَةٌ لذوق تَلْمِيزِي ، ولا غَرَوَ ، فهي نَظِيفَةٌ مفيدةٌ ، وهي
 تُزَاوَلُ في المنزل ، وهي تَسْكِدُ البَدَنَ ، وهي تستلزمُ في العاملِ مَهَارَةً

وبراعة ، ولا يَخْرُجُ الْهَيْفُ وَالذَّوقُ مِنْ شَكْلِ مَصْنُوعَاتِهَا الَّتِي تُعَيِّنُهُ الْقَائِدَةُ .
وَإِذَا مَا حَدَّثَ اتِّفَاقًا أَنْ تَحْوِلَ تَلْمِيزَكُمْ بِحُزْمٍ نَحْوِ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ
فَإِنِّي لَا أَلُومُكُمْ عَلَى مَنْحِهِ مِنْهُنَّ مِلَائِمَةً لِمُيُولِهِ ، وَذَلِكَ كَأَنْ يَتَعَلَّمَ ، مِثْلًا ،
صُنْعَ آلَاتٍ رِیَاضِيَّةٍ وَنَظَّارَاتٍ وَمَرَاقِبَ ، إلخ .

وَأُرِيدُ أَنْ أَتَعَلَّمَ مَعَ إِمِيلَ حِرْفَتَهُ وَقَتَ تَعْلُمِهِ إِيَّاهَا ، وَذَلِكَ لِاعْتِقَادِي
أَنَّهُ لَا يُجِيدُ تَعَلَّمَ غَيْرِ مَا تَعَلَّمُ مَعًا ، وَلِذَا فَإِنْ كِلَانَا يَأْخُذُ فِي التَّخْرِجِ ،
وَلَا نَقْصِدُ أَنْ نَعَامَلَ مِثْلَ سَيِّدِينَ ، وَلَكِنْ مِثْلَ تَلْمِيزِينَ حَقِيقِينَ جَادِّينَ ،
وَلِمَ لَا نَكُونُ هَكَذَا فِعْلًا ؟ لَقَدْ كَانَ الْقَيْصَرُ بَطْرُسُ نِجَارًا فِي مَصْنَعِ السُّفُنِ
وَطَبَّالًا فِي كِتَابَتِهِ ، أَوْ تَطْطُونُ أَنْ هَذَا الْأَمِيرُ لَا يَعْدِلُكُمْ مَوْلِدًا أَوْ مِنْهُنَّ ؟
تُذَرِّكُونَ أَتَنِي لَا أَقُولُ هَذَا لِإِمِيلَ ، بَلْ لَكُمْ أَيُّهَا كُنْتُمْ .

وَمِنْ دَوَاعِي الْأَسَفِ أَنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ قَضَاءَ جَمِيعِ وَقْتِنَا فِي الْمَصْنَعِ ، فَلَسْنَا
تَلْمِيزِينَ مِنَ الْعَمَالِ ، بَلْ تَلْمِيزِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَيَكُونُ التَّخْرِجُ فِي هَذِهِ
الْحَرْفَةِ الْأَخِيرَةِ أَشَقَّ مِمَّا فِي الْأُخْرَى وَأَطْوَلَ ، وَكَيْفَ نَصْنَعُ إِذَنْ ؟ أَتَتَّخِذُ
مُعَلِّمَ مَنَجَّرٍ سَاعَةً فِي الْيَوْمِ كَمَا يُتَّخَذُ مُعَلِّمُ الرِّقَصِ ؟ كَلَّا ، لَا نَكُونُ
تَلْمِيزِينَ ، بَلْ طَالِبِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّنَا نَطْمَحُ بِبَصْرِنَا أَنْ نَكُونُ نَجَّارِينَ أَكْثَرَ
مِنْ أَنْ نَتَعَلَّمَ النِّجَارَةَ ، وَلِذَلِكَ أَرَى أَنْ نَذْهَبَ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ عَلَى الْأَقْلَ لِقَضَاءِ نَهَارِنَا بِكَامِلِهِ عِنْدَ الْمُعَلِّمِ ، فَتَنْهَضَ حِينَ نَهْوِضُهُ ،
وَنَعْمَلَ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ ، وَنَأْكُلَ عَلَى مَائِدَتِهِ ، وَنَسْتَقْبَلَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ ،
حَتَّى إِذَا مَا كَانَ لَنَا شَرْفُ الْعِشَاءِ مَعَ أُسْرَتِهِ عُذْنَا ، عِنْدَ مَا نُرِيدُ ، إِلَى
فِرَاشِنَا الْخَشِينِ ، وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ الَّذِي تُتَعَلَّمُ بِهِ حِرْفٌ كَثِيرَةٌ مَعًا ، وَهَذَا

هو السبيل الذي يُمارَسُ به عملُ اليد من غير إهمال التَّخْرِجِ الآخر .
ولتَنذَرَّعْ بالبساطة عند عمل الخير ، ودَعْنَا لا نُبْدِي زَهُوًّا حيث
نكافح الزَّهْوَ ، وَمَنْ يَزُهُ بِفَوْزِهِ على المُبْتَسِرَاتِ يَتَضَمَّنْ زَهُوُّهُ
هذا خضوعًا لها ، وَيُرَوِّى أَنْ من عادة آل عثمان القديمة إلزامُ السلطانِ
بالعمل بيديه ، وكلُّ يَعْلَمُ أَنَّ آثارَ اليد السلطانية لا يُمكن أَنْ تكونَ
من غير الروائع ، ولذا فهو يوزَّع هذه الروائع بأبهةٍ بين أكبر الدولة ،
وَيُدْفَعُ ثمنُها وَفَقَ مقامِ الصانع ، وما أرى من شَرٍّ في هذا لا يقوم على
هذا الجَوْرُ المزعوم ، وذلك لأنه ، على العكس ، خيرٌ ، وذلك لأنَّ الأمير ،
إِذْ يُكْرِه الأَكْبَرُ على مقاسمته أسلابَ الشعب ، يكون أقلُّ اضطراباً إلى
سَلْبِ الشعب مباشرةً ، فهذا تخفيفٌ للاستبداد ، ولولاه ما استطاع هذا
الحكمُ الفظيع أن يدوم .

والشَّرُّ الحقيقيُّ في مثل هذه العادة يقوم على إعطاء ذلك الرجل المسكين
فكرةً عن مزيتته ، وهو ، كالملك ميداس ، يَرَى تحويلَ كلِّ ما يَمَسُّ
إلى ذهب ، ولكنه لا يُبْصِرُ أَيْ الأَذَانَ يُنْبِتُ ، وَنُرِيدُ أَنْ نَحْفَظَ لِإِمِيلَ
أذنيه القصيرتين فنصُونَ يديه من تلك الأهلية الغنية ، فلا يَعُودَ عليه عمله
بغير ثمنِ المصنوع ، لا بَثْمِنِ الصانع ، ولا نَطِيقُ أَنْ يُحْكَمَ فيما يَصْنَعُ
من غير أن يقَابِلَ بينه وبين ما يصنعُ أصالحُ العالمين ، وَلْيَقُومْ عمله بالعمل
نفسه ، لا بكونه صادراً عنه ، وَقُولُوا عما هو مصنوعٌ جيداً : « هذا
مصنوعٌ جيداً » ، ولكن لا تضيفوا إلى هذا قولكم : « مَنْ صَنَعَ
هذا ؟ » ، وإذا قال من تلقاء نفسه مفاخرًا مُعْجَبًا بذاته : « إني أنا

الذى صنعه » فقولوا له بفتور : « هو حسنُ الصنع ، ولا يهمني أن تكون أنت قد صنعتَه أو غيرك » .

ويا أيتها الأمُ الصالحة احذري ما يُعدُّ لك من الأكاذيب على الخصوص ، وإذا كان ابنك يَعْلَمُ أشياء كثيرةً فَكُونِي فِي رَيْبٍ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ ، وإذا كان من التَّعَسِّي ما يُنشَأُ معه بياريسَ وكان غنيًّا هَلَكَ ، وستكون لديه جميعُ قرائحِ المتفنين الماهرين ما وُجِدَ فيها ، وهو يَعُودُ غيرَ حائِزٍ شيئًا منها عند ابتعاده عنهم ، والغنى في باريسَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ ، ولا يُوَجَدُ جاهلٌ غيرُ الفقير ، وهذه العاصمةُ زاخرةٌ بالهواة ، ولا سيما الهاوياتُ اللاتي يَقُمْنَ بأشغالهن كما يَخْتَرِعُ مسيو غيومُ ألوانه ، وأَعْرِفْ لهذا استثناءاتٍ ثلاثةً مُسَكَّرَةً بين الرجال ، وقد تَرِيدُ على هذا ، ولكنني لا أَعْرِفُ أَيَّ استثناء بين النساء ، وأَشْكُ في وجود شيء من هذا ، وعلى العموم يُكْتَسَبُ اسمٌ في الفنون كما في الحِلَّةِ فَيَعْدُو الواحدُ متفننًا أو حَكَمًا بين المتفنين كما يَعْدُو دكتوراً في الحقوق وقاضياً .

ولذا فإنه إذا ثَبَتَ ، ذاتَ مرةٍ ، أن من الجميل معرفة حِرْفَةٍ فإن أولادكم لم يَلْبَثُوا أَنْ يَعْرِفُوهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا ، فَيُظْهِرُوا مِثْلَ مَسْنَشَارِي زُورِيخَ ، ولا شيء من هذا العُرفِ والظاهرِ لإميل الذي يَحْفَظُ بالحقيقة دائماً ، ولا تَقُولُوا ما يَعْرِفُ ، ولكن دَعُوهُ يَتَعَلَّمُ صامتاً ، ودَعُوهُ يَصْنَعُ روائعَ دائماً على أَلَّا يُدْعَى معلماً ، ولا تَدَعُوهُ يَظْهَرُ بَلَقِهِ ، بل بفعله ، عاملاً .

وإذا كنتُ قد صنعتُ حتى الآن ما أَفْقَهُ به فإن من الواجب أن يُدْرِكَ كيف أُلْقِي ، بمادةِ تمرينِ البدنِ وعَمَلِ الأيدي ، ذَوْقَ التأملِ

والتفكير في تلميذى إلقاء غير محسوس ، وذلك لأوازن بين كسله الناشئ
عن عدم اكترائه لآراء الرجال ، وسكون أهوانه ، فيجب أن يفعل مثل
فلاح وأن يفكر مثل فيلسوف لكيلا يكون متوانياً توانى الهمجى ،
ويقوم سرّ التربية الأعظم على جعل تمرينات البدن وتمرينات الذهن خادمة
دائماً مثل تراخٍ من أحدهما نحو الآخر .

ولكن حذارٍ أن تعجّلوا المعارف التى تقتضى ذهنًا أكثر نضجًا ،
ولا يبقى إميلُ عاملاً زمنًا طويلًا من غير أن يشعر من تلقاء نفسه بتفاوت
الأحوال الذى لم يلاحظه فى البداية ، وهو يريد أن يدرستنى بدورى
مستنداً إلى المبادئ التى أعطيته إياها والتى هى فى متناولها ، وهو إذ يتلقى
كلّ شيء منى وحدى ، وهو إذ يرى نفسه قريباً جداً من حال الفقراء ،
يريد أن يعرف سبب بُعْدَى منها كثيراً ، وقد يطرح على مثل الأسئلة
الخطرة الآتية بفتة ، وهى : « أنت غنى ، وقد قلت لى هذا ، وهذا الذى
أرى ، والغنى مدينٌ بعمله للمجتمع أيضاً ما دام رجلاً ، ولكن ما تصنعُ
فى سبيل المجتمع إذن ؟ » ، وما يقول عن هذا معلمٌ فاضلٌ ؟ أجهل ذلك ،
وقد يكون من الفسادة ما يحدث معه الولد عن الجهود التى يبذلها من
أجله ، وأما أنا فإن المصنع ينتشلى من المضلة ، فأقول : « هذا سؤالٌ جميلٌ
يا إميلُ العزيز ، وأعدك بالجواب عن نفسى إذا ما استطعت الجواب عن
نفسك بما أنت راضٍ عنه ، ورينما يقع ذلك سأعفى بأن أعطيك وأعطى
الفقراء ما يفيض منى ، وبأن أصنع مائدة أو مقعداً فى كل أسبوعٍ لكيلا
أكون غير نافع تماماً » .

وها نحن أولاء نعود إلى أنفسنا ، وهاهو ذا ولدُكم أَوْشَكَ أَلَّا يَكُونَ
ولداً داخلاً نَفْسَهُ ، وهاهو ذا يَشْمُرُ أَكْثَرَ مِمَّا فِي أَيٍّْ وَقْتٍ بِالضَّرُورَةِ
التي تَرْبِطُهُ بِالأَشْيَاءِ ، وقد مَرَّتاً ذَهَنَهُ وَتَمَيَّزَهُ بَعْدَ أَنْ بَدَأْنَا بِتَمْرِينِ بَدَنِهِ
وَحَوَاسِهِ ، وَأَخِيرًا جَمَعْنَا بَيْنَ عَادَةِ أَعْضَائِهِ وَمِدَارِكِهِ جَاعِلِينَ مِنْهُ مَوْجُودًا
عَامِلًا وَمُفَكِّرًا ، وَعَادَ لَا يَنْبَقِي عَلَيْنَا لِإِكْمَالِ الْإِنْسَانِ غَيْرُ تَكْوِينِ مَوْجُودٍ
مُحِبِّ حَسَّاسٍ ، أَيْ إِتِمَامِ الْعَقْلِ بِالْإِحْسَاسِ ، وَلَكِنْ دَعْنَا ، قَبْلَ الدَّخُولِ
فِي نِظَامِ الْأُمُورِ الْجَدِيدِ هَذَا ، نُلْقِ نَظْرَةً عَلَى النِّظَامِ الَّذِي نَخْرُجُ مِنْهُ لِتَرَى ،
عَلَى أَيْمٍ مَا يُمَكِّنُ ، مَا بَلَّغْنَاهُ مِنْ حَدٍّ .

وَلَمْ يَكُنْ لَدَى تَلْمِذِنَا غَيْرُ إِحْسَاسَاتٍ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ، فَصَارَتْ لَدَيْهِ
أَفْكَارٌ ، وَلَمْ يَكُ قَادِرًا عَلَى غَيْرِ الْإِحْسَاسِ ، فَصَارَ الْآنَ يَحْكُمُ ، وَذَلِكَ
لَأَنَّهُ يَنْشَأُ عَنِ الْمَقَابِلَةِ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْإِحْسَاسَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ ، أَوْ الَّتِي تَقَعُ مَعًا ،
وَمَا يَدُورُ حَوْلَهَا مِنْ رَأْيٍ ضَرْبٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ الْمُخْتَلِطِ أَوْ الْمُرَكَّبِ الَّذِي
أُسْمِيهِ فِكْرًا .

وَالْوَجْهُ الَّذِي تُكَوِّنُ بِهِ الْأَفْكَارُ هُوَ الَّذِي يُنْعِمُ عَلَى الذَّهْنِ الْبَشَرِيِّ
بِطَائِعِ ، وَالذَّهْنُ الَّذِي لَا يُكَوِّنُ أَفْكَارَهُ إِلَّا وَفْقَ الْعِلَاقِ الْحَقِيقِيَّةِ هُوَ
ذَهْنٌ مُتَيْنٌ ، وَالذَّهْنُ الَّذِي يَكْتَفِي بِالْعِلَاقِ الظَّاهِرَةِ هُوَ ذَهْنٌ سَطْحِيٌّ ،
وَالذَّهْنُ الَّذِي يَرَى الْعِلَاقَ كَمَا هِيَ هُوَ ذَهْنٌ سَدِيدٌ ، وَالذَّهْنُ الَّذِي يَسِيءُ
تَقْدِيرَ الْعِلَاقِ هُوَ ذَهْنٌ فَاسِدٌ ، وَالذَّهْنُ الَّذِي يَخْتَلِقُ عِلَاقَ خَيَالِيَّةً
لَا تَمُتُ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَلَا إِلَى الظَّاهِرِ بِصِلَةٍ هُوَ ذَهْنٌ أَحَقُّ ، وَالذَّهْنُ الَّذِي
لَا يَقُومُ بِالْمُقَايَسَةِ مُطْلَقًا هُوَ ذَهْنٌ غَيٌّ ، وَمَا يَكُونُ مِنْ اسْتِعْدَادٍ كَبِيرٍ أَوْ

صغير للمقابلة بين الأفكار ولا اكتشاف العلائق هو الذى يَجْعَلُ الذهنَ كبيراً أو صغيراً فى الناس ، إلخ .

ولست الأفكارُ البسيطة سوى إحساساتٍ مقابلٍ بينها ، ويوجد فى الإحساسات البسيطة وفى الإحساسات المركبة من الأحكام ما أسمىه أفكاراً بسيطةً ، والحكمُ فى الإحساس منفعلٌ مُحضًا ، وهو يُوكِّدُ أنه يُشعرُ بما يُشعرُ به ، والحكمُ فى الإدراك أو الفكر فاعلٌ ، وهو يُوقِّعُ ، ويقابل ويُعيِّنُ ، ما بين العلائق التى لا يُحدِّدها الحسُّ ، وهذا هو كلُّ الفرقِ ، ولكنه فرقٌ كبيرٌ ، ولا تَحْدَعُنَا الطبيعة مطلقاً ، ونحن الذين يُخادعون أنفسهم دائماً .

وما رأيتُ تقديمَ جُبْنَةٍ مُجَمَّدةٍ إلى ولدٍ فى الثامنة من سِنِيهِ ، ويَحْمِلُ المِلْقَةَ إلى فمه من غير أن يَعْرِفَ ما هذا ، وَيَضْرُخُ قائلاً : « آه ! إن هذا يُحْرِقُنِي ! » ، وَيُبْتَلِي بإحساسٍ شديدٍ ، وَحَرُّ النار هو أشدُّ ما يَعْرِفُ ، وَيَظُنُّ ذاك من هذا ، ومع ذلك فإنه يَنخدعُ ، فالبردُ الشديد يَقرُصُه ، ولكنه لا يُحْرِقُه ، وليس هذان الإحساسان متشابهين ، مادام الذين يُبْتَلَوْنَ بهما لا يَخْطِئُونَ بينهما مطلقاً ، وليس الإحساسُ ، إِذَنْ ، هو الذى يَخْدَعُهُ بل الحكمُ الذى يَخْمِلُ عنه .

ومثْلُ هذا حالُ الذى يَرَى لأول مرةٍ مرآةً أو آلةً بَصَرِيَّةً ، أو الذى يَدْخُلُ قُبُوراً عميقاً فى وَسَطِ الشتاء أو الصيف ، أو الذى يَنْمُسُ يَدَهُ الحارةَ جِدًّا أو الباردةَ جِدًّا فى الماء الفاتر ، أو الذى يَدْخُرُجُ كُرَّةً صغيرةً بين إصبعين معقوفتين ، وإذا ما اكتفى بالقول عما يُشعرُ به أو يُحِسُّه فإن حكمه إِذْ يكون

منفعلاً صِرْفًا كان من التَعَذُّر أن يُخَدَعَ ، ولكنه إذا ما حَكَمَ في الأشياء على حَسَبِ الظاهر كان حكمه فاعلاً قَيِّيسٌ ، وَيُقِيمُ بالاستقراء علائقَ لا يَشْعُرُ بها ، وهناك يُخَدَعُ أو يُمَسِّكُن أن يُخَدَعَ ، ولا بُدَّ له من التجربة حتى يُصَحِّحَ الخطأ أو يَحُولَ دون وقوعه .

وأرؤوا تلميذَكم في الليل سُحْبًا تَمُرُّ بينه وبين القمر ، تَرَوُه يعتقد أن القمر هو الذي يَمُرُّ إلى جهةٍ معاكسة وأن السُّحْبَ واقفةٌ ، ويقوم اعتقاده هذا على استقراء خاطفٍ لِمَا يَرَى عادةً من حركة الأشياء الصغيرة وسكونِ الأشياء الكبيرة ولِمَا تَبْدُو السُّحْبَ له أعظمَ من القمر الذي لا يستطيع تقدير بُعْدِهِ ، وهو إذا ما كان في مَرَكَبٍ يَشُقُّ الماءَ ونَظَرَ إلى الساحل من بُعْدٍ قليل وقعَ في الخطأِ العاكس ، واعتقدَ أن الأرضَ تَجْرِي ، وذلك بما أنه لا يُحِسُّ حركته فإنه يَعدُّ المَرَكَبَ والبحرَ أو النهرَ وجَمِيعَ أَقْفِهِ مُكَلَّأً غيرَ متحرك ، ولا يَلُوحُ له الشاطئ الذي يُبْصِرُ جَرِيَه غيرَ جزء من ذلك .

وإذا ما رأى الولدُ للمرة الأولى عصاً مغموراً نصفها في الماء أبصرَ عصاً مكسورةً ، والحِسُّ صحيحٌ ، وهو لا ينفكُ يكون صحيحاً ولو لم نَعْرِفِ السببَ ، وإذا ما سألتهموه ، إِذَنْ ، عما يرى قال : « عصاً مكسورة » ، وهو يقول الصحيح ، وذلك ليقينه بأن لديه إحساساً عن عصاً مكسورة ، ولكنه إذا ما ذهب إلى ما هو أبعدُ من ذلك ، مخدوعاً في حكمه ، فَوَكَّدَ أنه يَرَى عصاً مكسورةً ، تَمَّ وَكَّدَ أن ما يَرَى هو عصاً مكسورةً بالحقيقة ، فإن قوله هذا يكون حينئذٍ فاسداً ، ولمَ هذا ؟ ذلك لأنه يَصِيرُ إِذْ ذاك

فاعلاً ، ولأنه عاد لا يَحْكُمُ عن ملاحظة ، بل عن استقراء ، وذلك بتوكيده ما لا يُحْسَنُ ، أى إن الحكم الذى يتلقاه بحسب يؤيد بحسب آخر .

وبما أن أحكامنا مصدر كل خطأ فينا فإن من الواضح أننا إذا لم نكن محتاجين إلى الحكم لم يكن فينا احتياج إلى التعلم ولم نفع قط في حاله نخذع فيها ، وبدوننا بجهالتنا أكثر سعادة مما نستطيع أن نكونه بمعرفتنا ، ومن ذا الذى يُنكر أن العلماء يعلمون ألف شيء صحيح لا يعرفه الجاهلون مطلقاً ؟ وهل العلماء أقرب إلى الحقيقة لهذا السبب ؟ وعلى العكس تماماً يبتعد العلماء عنها كلما تقدّموا ، وذلك لأن زهو الحكم إذ يتقدّم أكثر من تقدم المعارف عندهم لا تاتى كل حقيقة يتعلمونها إلا مع مئة حكم فاسد ، وكلّ يعلم أن الجمعيات العلمية فى أوربة ليست سوى مدارس عامة للأكاذيب ، ولا ريب فى أن تجميع العلوم ينطوى على خطأ أكثر مما ينطوى عليه قَوْمُ الهُورُون* بأشرهم .

وبما أن الرجال كلما عَرَفُوا خُدَعُوا فإن الجهل هو الوسيلة الوحيدة لاجتناب الخطأ ، وإذا لم تَحْكُمُوا مطلقاً لم تَنخدعوا مطلقاً ، وهذا هو درس الطبيعة كما هو درس العقل ، وإذا عَدَوْتَ ما للأشياء مَعْنًا من علائق مباشرة قليلة جداً محسوسة جداً لم يُساورنا غيرُ عدم أكثر من عميق نحو البقية بحكم الطبيعة ، وما كان الهمجى لئدير رِجله حتى يشاهد أروع الآلات وجميع عجائب الكهرباء ، وكلمة « ما يهمنى ؟ » هى أكثر ما يَألفُ الجاهلُ وأكثر ما يلائمُ الحكيم .

يَبْدُ أَنْ مِنَ الْمَوْسِفِ أَنْ عَادَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَا تَوَاتِينَا ، فَكُلُّ شَيْءٍ
يَهْمُنَا مَا اتَّبَعْنَا كُلَّ شَيْءٍ ، وَنَمْتَدُّ فُضُولَنَا مَعَ احْتِيَاجَاتِنَا بِحَكْمِ الضَّرُورَةِ ،
وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي عَزْوِي كَبِيرَ فُضُولٍ إِلَى الْفِيلَسُوفِ وَعَدَمِ عَزْوِي أَيْ
فُضُولٍ إِلَى الِهْمَجِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ
إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ ، وَلَا سِوَا الْمُعْجَبُونَ .

وَسَيَقَالُ لِي إِنِّي أَخْرُجُ عَنِ الطَّبِيعَةِ ، وَلَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ ، فَالطَّبِيعَةُ تُنْتَخَرُ
وَسَائِلُهَا وَتُنَظَّمُهَا وَفَقَّ الْحَاجَةِ ، لَا وَفَقَّ الرَّأْيِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْاِحْتِيَاجَاتِ
تُخْتَلِفُ بِاِخْتِلَافِ حَالِ النَّاسِ ، وَأَنَّهُ يُوجَدُ اخْتِلَافٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْإِنْسَانِ
الطَّبِيعِيِّ الَّذِي يَعِيشُ فِي حَالِ الطَّبِيعَةِ وَالْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي يَعِيشُ فِي
حَالِ الْمُجْتَمَعِ ، وَلَيْسَ إِمِيلُ هَمَجِيًّا يُقَصِّى إِلَى الصَّحَّارَى ، بَلْ هَمَجِيٌّ جُعِلَ
لِيَقِيمَ بِالْمَدَنِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَجِدُ فِي الْمَدْنِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَأَنْ يَنْتَفِعَ
بَسْكَانِهَا وَأَنْ يَعِيشَ مَعَهُمْ عَلَى الْأَقْلَى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُمْ .

وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْحُكْمِ عَلَى الرِّغْمِ مِنْهُ مَا كَانَ فِي سِوَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الْعَلَانِقِ
الْجَدِيدَةِ ، فَلْنَعْلَمْ كَيْفَ يُحْسِنُ الْحُكْمَ إِذَنْ .

وَأَحْسَنُ أَسْلُوبٍ لَتَعْلَمَ حُسْنَ الْحُكْمِ هُوَ مَا يُفَضِّلُ إِلَى تَبْسِيطِ تَجَارِبِنَا
أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهِ ، وَالَّذِي يَفْنِينَا حَتَّى عَنْ هَذِهِ التَّجَارِبِ مِنْ غَيْرِ وَقُوعٍ فِي
الْخَطَأِ ، وَمِنْ ثَمَّ نَقُولُ إِنَّهُ يَجِبُ ، بَعْدَ تَحْقِيقِ مَا بَيْنَ الْخَوَاسِّ مِنَ عِلَاقِ
فِي زَمَنِ طَوِيلٍ ، أَنْ يُتَعْلَمَ أَيْضًا تَحْقِيقُ عِلَاقِ كُلِّ حَاسَةٍ بِنَفْسِهَا ، وَمِنْ
غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِحَاسَةٍ أُخْرَى ، وَهَنَالِكَ يَفْدُو كُلُّ إِحْسَاسٍ
فِكْرًا لَدَيْنَا ، وَيَكُونُ هَذَا الْفِكْرُ مُطَابِقًا لِلْحَقِيقَةِ دَائِمًا ، وَهَذَا هُوَ نَوْعُ

المعرفة الذى حاولتُ جمعه فى هذا الدور الثالث من حياة الإنسان .
ويتطلب هذا الأسلوبُ فى السير صبراً وحَذراً لا تَجِدُهما فى غير قليل من
المعلمين ، ولا يَتَعَلَّمُ التلميذُ الحُكْمَ بغيرها مطلقاً ، ومن ذلك أن التلميذ
إذا ما خُدِعَ بظاهر العصا المكسورة بأدرئهم ، لإطلاعه على خطئه ، إلى
سَخَبِ العصا خارج الماء ، فَيُزِيلُونَ ضلاله على ما يحتمل ، ولكن ما تُعَلِّمُونَهُ ؟
لا شئ غير ما يتعلمه بنفسه من فَوْزِهِ ، وئى ! ليس هذا ما يَجِبُ أن
يُصَنَعَ ! وأقلُّ من هذا اعتباراً أن تُعَلِّمُوهُ حقيقةً بدلاً من أن تُظَلِّمُوهُ على
ما يجب أن يَتَّخِذَ لاكتشاف الحقيقة دائماً ، ولا ينبغى أن يُزَالَ ضلاله
حالاً لحسن تعليمه ، ولأَتَّخِذُ نفسى مع إميلَ مَثَلاً .

وأولُ ما فى الأمر هو أن الولد الذى يُرَبَّى على الطريقة المعتادة لا يُعَوِّزُهُ
أن يَكُونَ إيجابياً جوابه عن ثانى السؤالين المُفْتَرَضَيْنِ ، فيقول لا رَيْبَ :
« إن هذه عَصاً مكسورة » ، وأشكُّ كثيراً فى أن يَأْتِيَ إميلُ عينَ
الجواب ، وإميلُ لا يبادر إلى الحُكْمِ مطلقاً لِمَا لا يُبْصِرُ من ضرورة
كونه عالماً أو ظهوره بمظهر العالم أبداً ، وإميلُ لا يَخْصِمُ فى غير الجليِّ ،
وإميلُ كثيرُ البعد من أن يَرَى ذلك جلياً فى تلك الدقيقة ، وهو العارف
بمقدار ما تكون عُرْضَةً له من وهمٍ أحكامنا وَفَقَ الظواهر ، إذا كان هذا
فى حقل المناظر .

ثم بما أنه يَعْرِفُ ، عن تَجَرِبَةٍ ، أن أكثر أسئلتى تَقْهَأُ يَنْطَوِى ،
دائماً ، على أمرٍ لا يُبْصِرُهُ فى البُداءِ فإنه لم يتعوَّدْ ، قَطُّ ، أن يَأْتِيَ جواباً
طائشاً ، وهو ، على العكس ، يَحْذَرُ منه وينتبه إليه وَيَفْحَصُهُ بعناية فائقة

قبل أن يجيب عنه ، وما كان ليأتى جواباً لا يَرْضَى عنه بنفسه ، وهو الذى لا يَرْضَى إلا بصعوبة ، ثم إن كلانا لا يَفْتَخِرُ بمعرفة حقيقة الأمور ، بل باجتنب الخطأ ، وترانا نَحْجَلُ من إبدائنا سبباً غير صالح أكثر من حَجَلِنَا عند عدم اكتشافنا هذا السبب على الإطلاق ، وكلمة « لا أعْرِفُ » تَلَامُنَا كثيراً ، ونحن نَبْلُغُ من تكرارها كثيراً ما لا نَجِدُ معه أنها تُكَلِّفُ أيّاً منا شيئاً ، ولكن سواء أأَفَلَتِ ذاك الطَّيْسُ منه أم اجتنبه بكلمة « لا أعْرِفُ » للالعة لنا كان جوابى واحداً ، وهو : « لَنَنْظُرُ ، لَنَدْرُسُ » . وهذه العصا المغمورة نصفها في الماء مُثَبَّتَةٌ عُمُودِيّاً ، وما أكثر ما يجب أن نَأْتِيَ من أفعالٍ ، لَنَعْرِفَ هل هى مكسورةٌ ، قبل أن نَسْحَبَهَا من الماء أو قبل أن نَسَّيَهَا !

(١) إن أول ما نَصْنَعُ هو أننا نَدُورُ حَوْلَ العصا ونَرَى القسم المكسور يدور مثلنا ، وَعَيْنُنَا هى التى تُغَيِّرُهُ إِذْنُ ، وما كانت النِّظَرَاتُ لَتُحَرِّكَ الأجسام .

(٢) ثم نَنْظُرُ عُمُودِيّاً فوق طرف العصا الواقع خارج الماء ، وهناك تعود العصا غيرَ مُعَوَّجَةٍ ، وَيُخَفِّى طرفُ العصا القريبُ من عيننا طرفها الآخرَ بِإِحْكَامٍ^(١) ، فهل قَوِّمَتْ عَيْنُنَا العصا ؟

(٣) ونَحْرُكُ سطحَ الماء ، ونَرَى العصا تَنْثَنِي فى قطع كثيرة ، وتتحرك مُعَوَّجَةً وَتَتَّبِعُ تَمَوُّجَاتِ الماء ، وهل تَكْفِي الحركةُ التى نُوجِبُهَا

(١) وجدت العكس بعد ذلك ، وذلك بتجربة أكثر صحة ، فالانكسار يعمل دائرياً ، وتبدو العصا أضخم بالطرف الذى فى الماء مما بالطرف الآخر ، غير أن هذا لا يغير شيئاً من قوة الدليل ، وليست النتيجة أقل صواباً .

في هذا الماء لكسّر العصا وإلانتها وصهرها على ذلك الوجه ؟

(٤) ونُسِيلُ الماء ونَزَى العصا تستقيم مقداراً فقداراً ، وذلك كلما نقص الماء ، أوليس هذا يُوفِي على الغاية لتنوير الواقع وكشف الانكسار ؟ وليس من الصحيح ، إذن ، أن النظر يَحْدَعُنَا ما دُمْنَا نحتاج إليه وحده في إصلاح الخطأ الذي نَعَزُوهُ إليه .

وإذا ما افترضنا الولد من الغباوة ما لا يَشْعُر معه بنتيجة هذه التجارب فإنه يجب أن تُسْتَدْعَى اللامسة لمساعدة الباصرة هنالك ، ودَعُوا العصا على حالها بدلاً من سَحْبِهَا خارج الماء ، واجْعَلُوا الولد يُمِرُّ يَدَهُ عليها بين طَرَفَيْهَا ، فهو لن يُحِسَّ زَاوِيَةً ، وليست العصا مكسورة إذن .

وستقولون لي إنه لا يوجد هنا أحكامٌ فقط ، بل برهنةٌ شكلية ، وهذا حقٌّ ، ولكن ألا تَرَوْنَ أن الذهن إذا ما بَلَغَ مرحلة الأفكار لم يَنْبَثْ كلُّ حكمٍ أن يَكُونُ برهنةً ؟ إن الشعور بكلِّ إحساس هو قضيةٌ ، هو حكمٌ ، ولذا فإنه إذا ما قُوِيَ بين إحساسٍ وآخر فإنه يُبْرَهَنُ حالاً ، ففنُّ الحكم وفنُّ البرهنة هما هاتماناً .

ولن يتعلَّم إميلُ علمَ انكسارِ النور مطلقاً ، أو إنني أريد أن يتعلمه حول هذه العصا ، وهو لن يُشَرِّحَ الحشراتِ مطلقاً ، وهو لن يَمُدَّ أكلافَ الشمسِ مطلقاً ، وهو لن يَعْرِفَ ما المُجْهِر ولا المِرْقَب ، وسيَسْخَرُ تلاميذُكم العلماء من جهله ، وهم ليسوا على غير حقٍّ في هذا ، وذلك لأنني أريد أن يَخْتَرِعَ الآلاتِ قبل أن يستخدمها ، وأنتم في شكٍّ من كَوْنِ هذا يتمُّ سريعاً .

ذلك هو روحٌ منهاجى فى هذا القسم ، وإذاما أدار الولدُ كُرَّةً صغيرةً بين إصبعين معقوفتين واعتقدَ أنه يشعُرُ بكرتين لم أَسْمَحْ له بأن يَنْظُرَ إلى ذلك قبل أن يَقْنَعَ بأنه لا يُوجَدُ غيرُ كُرَّةٍ هنالك .

وأرى أن هذا الإيضاح يَكْفِي لإظهار ما اتَّفَقَ لذهن الولد من تَقَدُّمٍ إظهاراً جلياً وللدلالة على الطريق التى مُسَلِّكْتُ وصولاً إلى ذلك التقدُّم ، ولكنَّ من المحتمل أن تكونوا قد دُعِرتُم من مقدار الأشياء التى عَرَضَتْها عليه ، وأنتم تَحْشَوْنَ أن أُرْهِقَ ذهنه بهذه المعارف الزاخرة ، والعكسُ هو الواقع ، فأنا أعلمه أن يَحْمِلَهَا أَكْثَرَ من أن يَعْرِفَهَا ، وأنا أدله على طريق العلم السهلة حقاً ، ولكن مع طولٍ بالغ وبُطْءٍ فى السَّير ، وأنا أَحْمِلُهُ على الخُطُواتِ الأولى حتى يَعْرِفَ الدخول ، ولكن لا أَسْمَحُ له بالذهاب بعيداً على الإطلاق .

وهو ، إذ يُلْزَمُ بالتعلُّم لنفسه ، يستعملُ عقله ، لا عقلَ الآخرين ، وذلك لأنه لا ينبغي إعطاء السلطان شيئاً لكليلاً يُعطَى العُرفُ شيئاً ، ويأتينا مُعْظَمَ الأضاليل من الآخرين أَكْثَرَ من صدورهِ عن أنفسنا ، ويجب أن ينشأ عن هذا التمرين المستمرُّ قوَّةٌ فى الذهن مشابهةٌ لما يُعطاه البدنُ بالعمل والتَّعب ، وتَكُونُ الفائدةُ الأخرى فى التقدُّم على نسبة القوَى ، فلا يَحْمِلُ الذهن والبدن غيرَ ما يَقْدِران على حَمْلِهِ ، ومتى حاز الإدراكُ أموراً قبل خَزَنِها فى الذاكرة فإن ما يأخذه منها فيما بعد يكون ماله ، وذلك بدلاً من أن يُعَرَّضَ لأخذ ما ليس له من الذاكرة بإرهاقها على غير علمٍ منه .

وما لدى إميل من معارف قليلة ، غير أن ما عنده من المعارف هو ماله حقاً ، ولا يَعْرِف شيئاً نصف معرفة ، وبين الأمور القليلة التي يَعْرِف ، وَيَعْرِفُ جيداً ، وَيَعُدُّ أكثر ما يَعْرِفُ أهميةً ، هو وجودُ أمورٍ كثيرة يَجْهَلُها وَيُمْكِنُ أَنْ يَعْرِفَهَا ذاتَ يومٍ ، ووجودُ أمورٍ من هذه يَعْرِفُها أناسٌ آخرون ، ولن يَعْرِفَهَا مَدَى حَيَاتِهِ ، ووجودُ أمورٍ أخرى غيرِ محصورة العدد لن يَعْرِفَهَا أَحَدٌ ، وهو حائِزٌ لذهنٍ شامل ، لا بالمعارف ، بل بالقدرة على اكتسابها ، حائِزٌ لذهنٍ عريضٍ لامعٍ مستعدٍّ لكلِّ شيء ، قابلٍ للتعلُّم إذا لم يكن متعلِّماً كما قال مُونْتَيْن ، ويكفي أن يكون عارفاً بـ « ما الفائدة ؟ » حَوْلَ كُلِّ مَا يَصْنَعُ وَبـ « لماذا ؟ » حَوْلَ كُلِّ مَا يَمْتَقِدُ ، وذلك ، كما أقولُ ثانيةً ، أَنْ غَرَضِي ليس منحه علماً ، بل تعليمه اكتسابه عند الحاجة ، بل تقدير قيمته الحقيقية تماماً ، بل جعله يحبُّ الحقيقة أكثر من كلِّ شيء ، أَجَلٌ ، إنَّ التقدُّم بهذا النهج يكون قليلاً ، ولكنه لا يُؤَثِّرُ من الخُطوات ما هو غيرُ مفيدٍ ، ولا نَكُونُ مُكْرَهِينَ على الرجوع إلى الوراء .

وليس لدى إميل غيرُ معارفٍ طبيعيةٍ وفِزْيَوِيَّةٍ صِرْفَةٍ ، وهو لا يَعْرِفُ حتى اسمَ التاريخ ، ولا عِلْمَ الأخلاقِ وما بعد الطبيعة ، وهو يَعْرِفُ علائقَ الإنسان الجوهريَّةَ بالأشياء ، ولكنه لا يَعْرِفُ أيةَ علاقةٍ خُلُقِيَّةٍ بين إنسانٍ وإنسانٍ ، وهو قليلُ المعرفة بتعميم الأفكار وقليلُ إتيانٍ بالمُجرَّدات ، وهو يَرَى صفاتٍ مشتركةً بين بعض الأجسام من غير أن يُبَيِّنَ حَوْلَ هذه الصفات بنفسها ، وهو يَعْرِفُ الاتساعَ المُجرَّدَ مستعِيناً

بالأشكال الهندسية ، وهو يَعْرِفُ الكَمِّيَّةَ المَجْرَدَةَ مستعيناً بالرموز الجَبْرِيَّةَ ، وهذه الأشكالُ والرموزُ هي أركانُ هذه المَجْرَدَاتِ التي تَرَكَنُ إليها حواسُه ، وهو لا يَحَاوِلُ معرفةَ الأشياءِ بطبيعتها مطلقاً ، ولكنه يحاولها بالعلائق التي تهمةً فقط ، وهو لا يُقَدِّرُ ما هو غريبٌ عنه بغير علاقته معه ، ولكن هذا التقديرُ صحيحٌ مُحْكَمٌ ، ولا دَخَلَ للهوى والمُبْتَسِرُ فيه ، وهو أكثرُ ما يُقَدِّرُ الأشياءَ الأعظمَ فائدةً له ، وهو إذ لا يَعدِلُ عن هذا الطريق في التقدير فإنه لا يلتفت إلى المُبْتَسِرِ مطلقاً .

وإميلُ مُجِدِّ قَنُوعٍ صبور رصينٌ مملوءٌ شجاعةً ، وما كان خيالُه ، غيرُ المشتعل قطعاً ، لِيُجَسِّمَ له الأخطارَ مطلقاً ، وهو يتأثرُ بأمراضٍ قليلةٍ عارفاً كيف يَصِيرُ عليها بثبات ، وذلك لأنه لم يَتَعَلَّمْ قطُّ أن يَناهضَ القَدَرَ ، وهو لا يَعْرِفُ جيداً ما الموتُ أيضاً ، ولكن بما أنه تَعَوَّدَ معاناةَ سُنَّةٍ الضرورة بلا مقاومةٍ فإنه يَمُوتُ ، عند وجوب الموت ، بلا أنينٍ ولا انتفاض ، وهذا كلُّ ما تَسَمَّحُ به الطبيعة في تلك الساعة الكريهة لدى الجميع ، وتُعدُّ الحياةَ الحرَّةَ وقلةَ الاكتراث لأُمُورِ البشر أفضلَ طريقةٍ لتَعَلُّمِ الموت .

والخلاصةُ أن إميلَ له من الفضيلةِ كلُّ ما يتعلَّقُ بشخصه ، وهو ، لكي يَحُوِزَ الفضائلَ الاجتماعيةَ أيضاً ، لا يُعَوِّزُهُ غيرُ معرفةِ العلاقاتِ التي تقتضيها ، ولا يُعَوِّزُهُ غيرُ المعارفِ التي تَرَى ذهنَه مستعداً لكلِّ الاستعداد لتَقَبُّلِها .

وهو يَنْظُرُ إلى نفسه غيرَ ملتفتٍ إلى الآخرين ، وهو يَجِدُّ من الحَسَنِ أَلَّا يُفَكِّرَ الآخرون فيه مطلقاً ، وهو لا يَطْلُبُ شيئاً من أحد ، ولا يَرَى

أنه مَدِينٌ بِشَيْءٍ لِأَحَدٍ ، وهو وحيدٌ في المجتمع البشريِّ ، ولا يعتمد على غير نفسه ، وَيَحِقُّ له أن يعتمد على نفسه أَكْثَرَ من سواه ، وذلك لأنه كلُّ ما يُمكنُ الإنسانَ أن يكونه في مِثْلِ سِنِّهِ ، وهو خالٍ من الأضاليل ، أو إنه ليس لديه من هذه غيرُ ما لا مَقَرَّ منه ، وهو خالٍ من العيوب ، أو إنه ليس لديه من هذه غيرُ ما لا يستطيعُ إنسانٌ أن يَتَّقِيَهُ ، وهو ذو جسمٍ سليمٍ وأعضاءٍ رشيقةٍ وذهنٍ صحيحٍ خالٍ من المُبْتَسِرَاتِ وقلبٍ طليقٍ خالٍ من الأهواء ، ولم يَكْدِ المَجْجُبُ ، الذي هو أولُ الأهواءِ وأقربُها إلى الجِيلَةِ ، يُسَاوِرُ فؤادَهُ بَعْدُ ، وهو ، من غير أن يُقْلِقَ راحةَ أَحَدٍ ، قد عاش راضيًا سعيدًا حُرًّا بِمَقْدَارِ ما تَأْذَنُ فيه الطبيعةُ ، أو تَجِدُونِ الولدَ الذي بَلَغَ الخامسةَ عشرةَ من سِنِّهِ على هذا الوضعِ قد أضعَ سِنِّهِ السابقةَ ؟

الجزء الرابع

يا للسرعة التي تمرُّ بها فوق هذه الأرض ! وقد انقضى الربعُ الأول من الحياة قبل أن يُعرَفَ كيف يُستفادُ منها ، وينقضى الربعُ الأخير أيضاً بعد أن ينقطع الاستمتاعُ بها ، وأولُ مافي الأمر هو أننا لا نعرِفُ أن نعيش مطلقاً ، ولَسُرْعَانِ ما نَعُودُ غيرَ قادرين على ذلك ، ونحن نقضى ثلاثة أرباعِ الوقتِ الباقيةَ لنا في النوم والعمل والألم والقَسْر والمتاعب من كلِّ نوع ، والحياةُ قصيرةٌ ، وهي ليست قصيرةً بالوقت القليل الذي تدوم فيه ، بل لِمَا لا يكاد يوجد لنا فيه من بُرٍّ نتمتع بها ، ومن العبث أن يذهب إلى بُعدٍ ما بين ساعة الموت وساعة الميلاد ، فالحياةُ تكون بالغةَ القِصرِ إذا لم يُحسن قضاء هذه الفاصلة .

ونقول إننا نُولَدُ مرتين ، الأولى لنكون ، والأخرى لنَحْيَا ، والأولى للنوع والأخرى للجنس ، ولأريبَ في أن الذين يَعُدُّون المرأةَ إنساناً ناقصاً ليسوا على صواب ، ولكنَّ لهم أن يَنْظُرُوا إلى المماثلة الخارجية ، ولا يوجَدُ في الأولاد من الجنسين حتى سِنُّ البلوغ من الظاهر ما يميزُ بعضهم من بعض فلهم عينُ المُحْيَا وعَيْنُ الوجه وعَيْنُ اللون وعَيْنُ الصوت ، وكلُّ شيءٍ فيهم متساوٍ ، والبناتُ من الأولاد والصبيانُ من الأولاد ، وَيَكْفِي ذاتُ الاسمِ لأناسٍ متشابهين بهذا المقدار ، ويحافظ الذكور ، الذين وَقِفَ نموُّهم الجنسيُّ ، على هذه المشابهة ماداموا أحياء ،

فهم يكونون أولاداً جساماً دائماً ، ولا يَظْهَرُ الإِنَاثُ ، اللأنى لا يَفْقِدُنْ هذه المشابهة مطلقاً ، شيئاً آخر من عِدَّةِ وجوه .

يَبْدُو أَنَّ الإنسان ، على العموم ، لم يُخْلَقْ لِيَبْقَى في الولودية دائماً ، فهو يَخْرُجُ منها في الوقت الذي عَيَّنَتْهُ الطبيعة ، ولدَوْرَ البُخْرَانِ هذا تأثيرٌ طويل على قِصَرِهِ .

ويشابه هذا الانقلابُ الماصفُ هديرَ البحر ، الذي يَسْبِقُ الزَّوْبَةَ من بعيد ، فيُنْجِئُ عن نفسه بهِمَّةَ الأهواء الناشئة ، ويُخْبِرُ الاضطرابُ الأضمُّ بدُنُو الخطر ، وما يكون من تغييرٍ في المزاج ومن كثرة الاحتداد ومن هَيَاجٍ دائمٍ في النفس يَجْعَلُ الولدَ قابِلَ للانقياد تقريباً ، وهو يُصْبِحُ من الصَّمِّ تجاه الصوت الذي يَجْعَلُهُ طائِعاً ، وهو يكون أسداً مصاباً بالحُمَّى ، وهو يُنْكِرُ مُرْشِدَهُ ، ويعودُ راغباً عن أن يُقَادَ .

وتُضَافُ تغييراتٌ محسوسةٌ في الوجه إلى علائمِ خُلُقِيَّةٍ في مزاجٍ يَفْسُدُ ، وتَنْمُو سِيَاهُ ، وتَوَسَّمُ بطابعٍ ، ويسْمُرُ القُطْنُ الحُلُو القليلُ الذي يَنْبُتُ في أسفل خديهِ ويَصْلُبُ ، ويتغيَّرُ صوتهُ ، أو يَفْقِدُ رونقه ، ولا يكون ولدأً ولا رجلاً ، ولا يُمكنُ أن يتكلمَ مثلَ أحدهما ، ويُجِدُ عيناه ، ويُجِدُ عضوا الروح هذان اللذان لم يقولا شيئاً حتى الآن ، لغةً وتعبيراً ، وتُلهِبُهُما نارٌ ناشئة وتَبْقَى لنظراتيهما ، التي تَصِيرُ أكثرَ التماهاً ، قُدْسِيَّةُ السذاجة ، ولكن مع عدم المحافظة على بلادتهما الأولى ، وكان قد شَعَرَ بأنه يُمكنُهُما أن يقولا الشيء الكثير ، وهو يَبْدُو بمعرفة غَضَّهما والاحمرارِ خَجَلًا ، وهو يُصْبِحُ حَسَّاسًا قَبْلَ أن

يَعْرِفُ مَا يُحْسُّ ، وهو يكون مضطرب البال من غير أن يَعْلَمَ السبب ،
وَيُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ هَذَا رُؤْيَاً رُؤْيَاً تَارِكاً لَكُمْ وَقْتاً أَيْضاً ، ولكنْ إِذَا
تَحَوَّلَ هَيْجَانُهُ إِلَى عَدَمِ صَبْرِ بَالِغٍ ، وَإِذَا انْقَلَبَتْ حُمَيَّاهُ إِلَى صَوْلَةٍ ، وَإِذَا مَا
غَضِبَ وَلَانَ بَيْنَ دَقِيقَةٍ وَدَقِيقَةٍ ، وَإِذَا مَا سَكَبَ دُمُوعاً بِلَادَاعٍ ، وَإِذَا مَا
ارْتَفَعَ نَبْضُهُ وَالتَّهَبَتْ عَيْنُهُ بِالْقَرَبِ مِنْ أَشْيَاءٍ تُصْبِحُ عَامِلَ خَطَرٍ لَهُ ، وَإِذَا مَا
أَخَذَ يَرْتَعْشُ مِنْ وَضْعِ امْرَأَةٍ يَدَهَا عَلَى يَدِهِ ، وَإِذَا مَا اضْطَرَبَ أَوْ ارْتَبَعَ
بِالْقَرَبِ مِنْهَا ، فَيَا أَوْلَيْسُ ، يَا أَوْلَيْسُ الْحَكِيمِ ، احْتَرِزْ ، فَقَدْ فُتِحَتْ الْمَنَافِذُ
الَّتِي أَغْلَقْتَهَا بِجُهْدٍ كَبِيرٍ ، وَقَدْ ثَارَتِ الرِّيَّاحُ ، وَلَا تَتْرُكِ السُّكَّانَ*
دَقِيقَةً ، وَإِلَّا هَلَكَ كُلُّ شَيْءٍ .

وهنا الولادةُ الثانيةُ التي تكلمتُ عنها ، وهنا يُولَدُ الإنسانُ للحياة حَقًّا ،
وهنا لَا يَكُونُ غَرِيباً عَنْهُ أَمْرٌ بَشَرِيٌّ ، وَلَمْ تَكُنْ جُهُودُنَا حَتَّى الْآنَ
غَيْرَ أَلْعَابٍ وَلَدٍ ، وَهِيَ لَا تَكْتَسِبُ أَهْمِيَّةً حَقِيقَةً إِلَّا الْآنَ ، وَهَذَا الدَّوْرُ
الَّذِي تَنْتَهِي فِيهِ التَّرْبِيَّاتُ الْعَادِيَّةُ هُوَ عَيْنُ الدَّوْرِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ فِيهِ
تَرْبِيَّتَنَا ، وَلَكِنْ دَعْنَا ، لِحُسْنِ عَرَضِ هَذَا الْبَرْنَامِجِ الْجَدِيدِ ، أَنْ نَعُودَ
فَنَتَنَاوَلَ مِمَّا تَقَدَّمَ حَالَ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ بِذَلِكَ .

أَوَاهُواؤُنَا هِيَ الْوَسَائِلُ الرَّئِيسَةُ لِبَقَائِنَا ، وَلِذَا فَإِنْ مِنَ الْمَحَاوِلَاتِ الْفَارِغَةِ
الْمُضْحَكَةِ أَنْ يُرَادَ الْقَضَاءُ عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ تَقْيِيدٌ لِلطَّبِيعَةِ ، وَذَلِكَ إِصْلَاحٌ لِعَمَلِ
الرَّبِّ ، وَلَوْ قَالَ الرَّبُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقْفِىَ عَلَى الْأَهْوَاءِ الَّتِي مَنَحَهَا إِيَّاهَا
فَإِنَّهُ يَكُونُ مُرِيداً لَذَلِكَ وَغَيْرَ مُرِيدٍ لَهُ ، أَى مَنَاقِضاً لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَحْدُثْ

أن أصدرَ هذا الأمرَ المخالفَ للصواب ، ولم يَكُنْ مثلُ هذا مكتوباً على قلب الإنسان ، وما يُريدُ الرَّبُّ أن يصنعه الإنسانُ لا يُبَلِّغُهُ إياه بواسطة إنسانٍ آخر ، بل يقوله له بنفسه ، وذلك أنه يَكْتُبُهُ في صميمِ فؤاده .
والحقُّ أننى أجدُ الذى يُريدُ مَنَعَ حدوثِ الأهواءِ يكونُ مجنوناً تقريباً كالذى يريدُ سَحْوَهَا ، ولا ريبَ فى أن الذين يعتقدون أن برنامجى كان هكذا حتى الآن يُعَدُّون مُسِيئينَ لهُمى .

ولكن هل من حُسْنِ البرهان أن يُسْتَنْتَج من الأمر القائل بأن من طبيعة الإنسان أن يكون ذا أهواء كَوْنُ جميع ما نُحِسُّ فى أنفسنا وما نَرَى فى غيرنا من الأهواء طبيعياً ؟ أجل ، إن مصدرَها طبيعىٌّ ، غير أنها ضَخِّمَتْ بِألفِ جدولٍ غريب ، وهذا نهْرٌ عظيمٌ يَزِيدُ بلا انقطاع ، فلا تكاد تُوجَدُ فيه بضعُ قطراتٍ من المياه الأولى ، وتُعَدُّ أهواؤنا الطبيعية محدودةً جداً ، وهى وسائلُ لحريتنا ، وهى تَهْدِفُ إلى بقائنا ، وأما جميعُ الأهواء الأخرى التى تَقْهَرُنَا وتُهْلِكُنَا فتأتينا من مصادرٍ أخرى ، ولا تَمْنَحُنَا الطبيعةُ إياها ، بل تَحْوزُها بإضراراً بها .

وحبُّ النفس هو مَنَبْعُ أهوائنا وأصلُ جميعِ الأهواء الأخرى ومَبْدَؤُها ، وهو الوحيدُ الذى يُولَدُ مع الإنسان ولا يَتْرُكُه ما دام حياً ، وهو الهوى الفطرىُّ الغريزىُّ السابقُ لكلِّ ما سِوَاهِ والذى تُعَدُّ جميعُ الأهواء الأخرى ، من جهةٍ ، تغييراً له ، وتُعَدُّ جميعُ الأهواء الأخرى طبيعيةً من هذه الناحية ، إذا ما أُريدَ ذلك ، يَبْدُ أنه يُوجَدُ لِمُعْظَمِ هذه التغيرات عِلَلٌ خارجية ما كانت هذه الأهواء لتَحْدُثَ مطلقاً لولاها ، وهذه التغيراتُ عَنِهَا ضارَةٌ بنا بعيدةٌ

من أن تكون نافعةً لنا ، وهى تُغَيِّرُ أولَ موضوعٍ وتَسِيرُ على خلاف مَبْدئِها ،
وهناك يكون الإنسان خارجَ الطبيعة ، ويناقضُ نفسه .

وَحُبُّ النفسِ حَسَنٌ دَائِماً ، ويلائمُ النظامَ دَائِماً ، وبما أن كُلَّ واحدٍ
مُكَلَّفٌ بحِفْظِ نفسه فإن مجهوداته الأولى وأهمُّها يجب أن تَهْدَفَ إلى هذا الحِفْظِ
بلا انقطاع ، وكيف تَسْهَرُ على هذا الحِفْظِ هكذا إذا لم يَكُنْ لها أعظمُ فائدةٍ
فى ذلك ؟

ولذا يجب أن نُحِبَّ أنفسنا فى سبيل بقائنا ، ويجب أن نُحِبَّ أنفسنا أكثرَ
من أى شىء آخر ، ونُحِبُّ ما يَحْفَظُنَا كنتيجةٍ مباشرةٍ لِعَيْنِ الإحساس ، وكلُّ
ولَدٍ يَتَعَلَّقُ بِمَرْضِعِهِ ، ولا بُدَّ من أن يكون رُؤُوسُ قَد أَحَبَّ الذَّبَّةِ
التي أَرْضَعته ، وأولُ ما يَرى كَوْنُ هذا التَّعَلُّقِ آلياً صِرْفاً ، وكلُّ ما يُيسِّرُ
راحةَ الفردِ يَجْتَذِبُهُ ، وكلُّ ما يَضُرُّهُ يَدْفَعُهُ ، وليس ذاك غيرَ غريزةٍ عَمِيَاءَ ،
والذى يُحوِّلُ هذه الغريزةَ إلى شعورٍ والتَّعَلُّقَ إلى حُبٍّ والكراهةَ إلى حقدٍ
هو القَصْدُ الذى يُبْدَى فى إلحاقِ الضررِ بنا أو جلبِ النِّفْعِ إلينا ، ولا نُولِعُ
بالموجوداتِ الخاليةِ من الحِسِّ فلا تَتَّبِعُ غيرَ ما تَوَجَّهَ به ، بل نُولِعُ بمن
يُنْتَظَرُ منهم خيرٌ أو شرٌّ صادرٌ عن استعدادهم الباطنى ، صادرٌ عن إرادتهم ،
ومن تَرى سيرهم سيراً حُرّاً معاكساً لنا أو موافقاً لنا يُوحُونَ إلينا بمشاعرَ
مشابهةٍ للتي يَظْهَرُونَ لنا ، وَنَبْحَثُ عن الذى يَنْفَعُنَا ، وَنُحِبُّ الذى يُريدُ
أن يَنْفَعَنَا ، وَنُجْتَنِبُ الذى يُؤْذِينَا ، وَنَحْقِدُ على الذى يريدُ أن يُؤْذِينَا .

وأولُ شعورٍ فى الولدِ هو حُبُّه لنفسه ، والشعورُ الثانى فى الولدِ ، وَيُسْتَقْبَلُ
من الأولِ ، هو حُبُّه مَنْ يَدُنُونَهُ منهم ، وذلك لأن الولدَ ، فى حال

الضعف التي يَكُونُ عليها ، لا يَعْرِفُ أحداً بغير ما يتلقاه من عَوْنٍ وعناية ، وليس أولُ ما يُساورُهُ من تَعَلُّقٍ بِمُرُضِعِهِ أو مَرْبِّيتِهِ غيرَ عادةٍ ، وهو يَبْحَثُ عنهما لاحتياجه إليهما ولأنه يكون سعيداً بوجودهما عنده ، ويُعَدُّ هذا عِرْفَاناً أَكْثَرَ من أن يكون عطفاً ، ولا بُدَّ له من وقتٍ طويل حتى يُدْرِكَ أنهما تريدان أن تكونا نافعتين له ، فضلاً عن كونهما نافعتين له ، وهناك يَبْدَأُ حُبَّهُ لهما .

ومن الطبيعيُّ ، إِذَنْ ، مَيْلُ الولدِ إلى حُسْنِ الالتفاتِ ، وذلك لأنه يَرَى أن كلَّ من يَدْنُو منه يَمِيلُ إلى مساعدته ، ولأنه يَتَقَبَّسُ من هذه المشاهدة عادةً شعورٍ ملائمٍ لنوعه ، ولكنه كلما وَسَّعَ نطاقَ صِلانته وحاجاته وتابِعِيَّاتِهِ الفاعلةِ والمنفَعلةِ أَفاقَ حِسِّ عِلاقَتِهِ بالآخرين وأَسْفَرَ عن حِسِّ الواجباتِ والتفضيلاتِ ، وهناك يُصْبِحُ الولدُ مُتَجَبِّراً مُغَيَّراً خادعاً منتقماً ، وهو إذا ما أُحْمِلَ على الطاعة ، وهو إِذْ لا يَرَى فائدةَ ما يُؤْمَرُ به ، فإنه يَغْزُو هذا إلى الهوى وإلى قصدِ تعذيبه ، وَيَتَمَرَّدُ ، وهو إذا ما أُذِنَ له فإنه يُعَدُّ كلَّ مقاومةٍ له عصيانياً ومَيْلاً إلى صَدِّهِ فيخْبِطُ الكرسيَّ أو المائدةَ لعدمِ إطاعته ، وإذا ما قُضِيَتْ احتياجاتنا الحقيقية فَنَسِيَ حُبَّ النفسِ الذي لا يَتَعَلَّقُ بغيرنا ، ولكن الأناية التي تقوم على قياس الإنسان بسواه لا تَقْنَعُ أبداً ، وهي لا يُمكنُ أن تكون هكذا ، وذلك لأن هذا الإحساس ، إِذْ يُفَضِّلُنَا على الآخرين ، يَتَطَلَّبُ أن يُفَضِّلُنَا الآخرون على أنفسهم ، وهذا مُتَعَدِّرٌ ، وذلك هو الوجه الذي تُولَدُ به الأهواءُ العَذْبَةُ الْوَدُودُ من حُبِّ النفسِ ، وذلك هو الوجه الذي تُولَدُ به الأهواءُ النَّزِقَةُ الْحَقُودُ من الأناية ، وهكذا فإن الذي يجعل الإنسان صالحاً جوهرراً هو أن

يكون قليلَ الاحتياجات قليلَ القياس بينه وبين الآخرين ، وإن الذى يَجْمَلُهُ شَرِيْرًا جوهرًا هو أن يكون كثيرَ الاحتياجات كثيرَ الارتباط فى رأى الآخرين ، وعلى هذا المبدأ يَسْهَلُ أن يُرَى كيف يُمكنُ أن تُوجَّهَ جميع أهواء الأولاد والرجال إلى الخير أو الشرِّ ، ومن الصحيح أن يَصْعُبَ عيشُهم صالحين دائماً لعدم استطاعتهم أن يعيشوا وحدهم دائماً ، وتزيد هذه الصعوبة نفسها بعلاقاتهم حَتْمًا ، وبهذا على الخصوص تَجْمَلُ أخطارُ المجتمع لنا الحَذَقَ والانتباه أكثرَ لزوماً لِيُمنَعَ فى قلب الإنسان ماينشأ عن احتياجاته الجديدة من فساد .

ودراسة الإنسان الموافقةُ هى دراسةُ علاقاته ، ويجب أن يَدْرُسَ نفسه بعلاقاته مع الأشياء ما عَرَفَ نفسه بكيانه البدنىِّ ، وهذا عملُ صِباه ، وهو إذا ما أخذ يَشْعُرُ بكيانه الأدبىِّ وَجَبَ أن يَدْرُسَ نفسه بعلاقاته مع الناس ، وهذا هو عملُ حياته بكاملها ، بدءاً بالنقطة التى اتھينا إليها هكذا .

والإنسانُ يَعُودُ غيرَ وحيدٍ حالماً يحتاج إلى صاحبة ، وتُولَدُ جميعُ علاقاته بنوعه وجميعُ عواطفِ نفسه مع تلك ، ولَسُرْعان ما يُثِيرُ هواء الأولُ أهواءه الأخرى .

ومَثَلُ الغريزة غيرُ مُعَيَّنٍ ، وأحدُ الجنسين مُجْتَذَبٌ بالآخر ، وهذه هى حركةُ الطبيعة ، ويكون الاختيار والتفضيلات والعطفُ الشخصىُّ أعمالَ معارفَ ومُبْتَسراتٍ وعادةٍ ، ولا بُدَّ لنا من الوقت والمعارف حتى نكون قادرين على الحبِّ ، فلا يُحِبُّ إلا بعدَ الحُكْمِ ، ولا يُفَضِّلُ إلا بعد

القياس ، وتكون هذه الأحكام من غير أن يُشعرَ بها ، ولكنها ليست أقل من ذلك حقيقة ، ومهما يُحدّثُ عن الحبِّ الحقيقيِّ فإنه يُجَلُّ من قبل الرجال دائماً ، وذلك لأنه وإن كان يُضِلُّنا بفَوَرَاتِهِ ، وإن كان لا يَنزِعُ من القلب الذى يُحسُّه ما فيه من عيوب ممقوتة فضلاً عن إحداثه عيوباً من هذه فيه ، يَفْتَرِضُ ، مع ذلك ، من الصفات ما هو جديرٌ بالاحترام دائماً ، يَفْتَرِضُ من هذه الصفات الكريمة ما لا يُشعرُ به من غيره ، وعن العقل يَصْدُرُ هذا الخيار الذى يعارضُ به العقل ، وقد قيل إن الحبَّ أعمى ، وذلك لأن له عيوناً أفضل من عيوننا ، فهو يرى من العلاقات ما لا نستطيع الشعور به ، وتكون كلُّ امرأةٍ حسنة على السواء عند من ليست لديه فكرة عن الزينة والجمال فتعدُّ أولُ آتيةٍ أكثرهن لطافةً دائماً ، وعلى بُعدٍ ما يَصْدُرُ الحبُّ عن الطبيعة يكون ناظمٌ ميولها ورادعاً لها ، وإذا عدّوت المحبوب لم يعد أحدُ الجنسَيْن عند الآخر شيئاً مذكوراً .

وما يُمنَحُ من تفضيلٍ يُرادُ نيلُه ، فيجب أن يكون الحبُّ متبادلاً ، ويَجِبُ أن يجعلَ الإنسانُ نفسه محبوباً ليُحِبَّ ، ويَجِبُ أن يجعلَ الإنسانُ نفسه محبوباً أكثر من سواه ، أكثر من كلِّ إنسانٍ آخر ، حتى يُفَضَّلَ على غيره ، وذلك فى نظر المحبوب على الأقل ، ومن ثمَّ كانت نظراتُ الإنسان الأولى نحو أمثاله ، ومن ثمَّ كانت المقارناتُ الأولى معهم ، ومن ثمَّ كانت للباراة والمنافسات والحسد ، ومن شأن القلب المملوء شعوراً فيّاضاً أن يودَّ الاندفاع ، وعن حاجة الصاحبة تنشأ حاجةُ الصاحب حالاً ، ومن يَذُقُ حلاوة كونه محبوباً يودُّ لو يكون محبوباً لدى جميع الناس ، وما كان

الجميع ليريد تفضيلات إذا لم يوجد كثير ممن هم غير راضين ، ومع الحب والصدقة تظهر الاختلافات والعداوة والحقد ، وأرى رأى الناس يقيم لنفسه عرشاً ثابتاً من بين هذه الأهواء المختلفة ، وأن الناس البله المعبدين لسلطانهم لا يقيمون كيانتهم الخاصة إلا على أحكام الآخرين .

وانشروا هذه الأفكار تبصروا المصدر الذى يأتى أنايتنا بشكل نعتقد أنه طبيعى لها ، وكيف أن حب النفس يصير ، بعد أن يعدل عن كونه شعوراً مطلقاً ، كبرياء فى النفوس الكبيرة وغروراً فى النفوس الصغيرة ، وكيف أنه يقتدى فى هذين الفريقين على حساب القريب ، وبما أنه لا يوجد لهذا النوع من الأهواء أصل فى قلوب الأولاد مطلقاً فإنه لا ينشأ من تلقاء نفسه ، وإنما نحن وحدنا نحمله إليها ، وما كانت لتأصل إلا بخطئنا ، ولكن الأمر يعود غير هذا فى قلب الشاب حيث تنبت على الرغم منا ومها صنفنا ، ولذا يكون وقت تغيير المنهاج قد حل .

ولنبذ أبيضعة تأملات مهمة حول الوضع الحرج الذى هو موضوع بحث هنا ، وليس الانتقال من دور الصبا إلى دور البلوغ من تحديد الطبيعة له ما لا يختلف فى الأفراد باختلاف الأمزجة والأقاليم ، وكل يعلم ما يشاهد من فروق حول هذه النقطة بين البلاد الحارة والبلاد الباردة ، وكل يرى أن الأمزجة الحامية تكمل بأسرع من الأمزجة الأخرى ، ولكن من الممكن أن يفضل فى العليل ، فيعزى إلى البدنى فى الغالب ما يجب أن يعزى إلى الأدبى ، ويعد هذا من أكثر الأضاليل التى تلازم فلسفة عصرنا شيوعاً ، ويأتى تعليم الطبيعة متأخراً بطيئاً ، وتأتى دروس الناس قبل الأوان دائماً تقريباً ، والحواس فى الحال الأولى

تُذَبِّهُ الخيالَ ، والخيالُ في الحال الثانية يُذَبِّهُ الحواسَّ فيَمْنَحُهَا نشاطاً بَكُوراً لا يُعَوِّزُهُ أَنْ يَهَيِّجَ الأفرادَ وَيُضَعِّفَهُمْ في البُداءِ ، ثُمَّ النوعَ معَ مَرِّ الأيامِ ، وتَدُلُّ المشاهدةُ الأَكْثَرُ عموماً والأعظمُ ثُبُوتاً من تأثير الإقليم على أن البلوغَ وقُدرةَ الجنسِ أَسْرَعُ عندَ الأمِّ المتعلِّمةِ المتعدِّنةِ مما عندَ الأمِّ الجاهلةِ المتبرِّرةِ ^(١) ، ويُوَجَدُ لدى الأولادِ فِطْآنَةٌ عَجِيبَةٌ يُمَيِّزُونَ بِهَا سَيِّئَ العاداتِ من خِلالِ رِداءِ الحِشْمةِ الذي يَسْتَتِرُونَ بِهِ ، وَيُعَدُّ اللسانُ المُصَنَّفَ الذي يُحْمَلَى عَلَيْهِم ، ودروسُ العَقَافِ التي تُتَلَقَّى عَلَيْهِم ، وستارُ الرُّهْدِ الذي يَتَظَاهَرُ بوضعه أمامَ عِيونِهِم ، مِهامِيزُ لِقُضُولِهِم بِذَلِكَ المِقدارِ ، وإذا نُظِرَ إلى الوجهِ الذي يُتَخَذُ وَجِدَ من الجَلْبِ أن ما يَتَظَاهَرُ بِإِخْفائِهِ عَنْهُمْ لا يَكُونُ لغيرِ تَعلِيمِهِمْ إِيَّاهُ ، وهو أَكْثَرُ ما يَفِيدُهُم من الدروسِ بينَ جَمِيعِ ما يُتَلَقَّى عَلَيْهِم .

واستشيروا التجربةَ تُدْرِكُوا مِقدارَ ما يُوَدِّي إِيَّاهُ هَذَا النِّهاجُ الخالِفُ للصوابِ من تعجيلِ لَعْمِ الطَّيْبَةِ وتقويضِ الزَّواجِ ، وهذا هو إحدى العللِ الرِّئيسَةِ التي تُفْسِدُ النِّسْلَ في المَدَنِ ، وبما أَنَّ الشَّبَّانَ يَضُنُّونَ بِأَكْرَأِ فَإِنَّهُمْ

(١) قال ميسير بوفون : « يصل الأولاد الذين تعودوا أغذية وافرة عسارية إلى تلك الحال بأسرع ما يمكن في المدن ولدى الموسرين ، وأما الأولاد في الريف ولدى الفقراء فإنهم يبلغونها متأخرين عن قلة طعام وسوء تغذية ، فلا بد من مرور عامين أو ثلاثة أعوام زيادة على ذلك حتى ينتهوا إلى تلك الحال » ، (التاريخ الطبيعى ، جزء ٤ ، صفحة ٢٣٨) ، وأقبل بالمشاهدة ، لا بالإيضاح ، ما دام سن البلوغ في البلاد التي يتغذى القروى فيها كثيراً ويأكل كثيراً ، كما في القالة ، وفي بعض المناطق الجبلية بإيطاليا أيضاً ، كالفريرول مثلاً ، يتأخر في الحسنين حل السواء أكثر من تأخره في صميم المدن حيث يراد إرواء الزهر فيقتصر في الطعام إلى الغاية غالباً ، وحيث يعمل معظم الناس بالمثل القائل : « ثوب من مخمل وبطن خاو » ، ومن العجيب أن يشاهد في هذه الجبال فتیان كبار أقوىاء ذور أصوات حادة وأذقان بلا لحى وفتیات كبریات نامیات كثيراً بلا حیض ، فيبدو لي أن المصدر الوحيد لهذا الفرق هو أن خيال هؤلاء الناس البسطاء في طبائهم يكون هادئاً ساكناً لزمن طويل فيتأخر في إثارة دهمهم ويجعل مزاجهم أقل نقضاً قبل الأوان .

يَبْقَوْنَ صِغَارًا ضِعْفًا سَيِّئِ التَّكْوِينِ ، فَيَهْرَمُونَ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَنْمُوا ، شَأْنُ الدَّالِيَةِ الَّتِي تُحْمَلُ عَلَى الْإِثْمَارِ رَبِيعًا فَتَذْوِي وَتَمُوتُ قَبْلَ الْخَرِيفِ .
 وَلَا بُدَّ مِنَ الْعَيْشِ بَيْنَ الشُّعُوبِ الْبَسِيطَةِ الْغَلِيطَةِ لِيُعْرِفَ مَدَى الْعُمُرِ الَّذِي يُمَكِّنُ الْجَهْلَ السَّعِيدَ أَنْ يَطِيلَ إِلَيْهِ طَهْرُ الْأَوْلَادِ ، وَمِنَ الْمُنَظَرِ الْمُؤَثِّرَةِ الْمُسْلِيَةِ أَنْ يُرَى الْجِنْسَانِ الْمُوَكَّلَانِ إِلَى سَلَامَةِ أَفْنَدَتِهِمَا يُطِيلَانِ فِي زَهْرَةِ الْعُمُرِ وَالْجَمَالِ الْعَابِ الصَّبَا السَّادِجَةِ وَأَنْ يُبْدِيَا حَتَّى بِالْقَتْمِهَا نَقَاءَ لَهْوِهَا ، وَأَخِيرًا إِذَا مَا تَزَاوَجَ هَذَا الشَّبَابُ اللَّطِيفُ وَتَبَادَلَ الزَّوْجَانِ بَوَاكِيَرَ ذَاتِهِمَا زَادَ كُلُّ مِنْهُمَا عِزًّا لَدَى الْآخَرِ ، وَتَعَدُّوْا كَثْرَةَ الْأَوْلَادِ الْأَصْحَاءِ الْأَقْوِيَاءِ عَرَبُونَ قِرَانٍ لَا يُفْسِدُهُ شَيْءٌ ، وَثَمَرَةَ حِكْمَةٍ سَيْنِيهِمَا الْأُولَى .

وَإِذَا كَانَتْ السَّنُ الَّتِي يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ فِيهَا شَعُورًا بِجَنَسِهِ تَخْتَلِفُ بِفَعْلِ التَّرْبِيَةِ اخْتِلَافَهَا بِفَعْلِ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهُ يَنْشَأُ عَنْ هَذَا إِمْكَانُ تَعْجِيلِ هَذِهِ السَّنِ وَتَأْخِيرِهَا عَلَى حَسَبِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُنْشَأُ بِهَا الْأَوْلَادُ ، وَإِذَا كَانَ الْبَدَنُ يَكْسِبُ أَوْ يَخْسَرُ صَلَابَةً كُلَّمَا عَجَّلَ هَذَا التَّقَدُّمُ أَوْ عَوَّقَ فَإِنَّ الَّذِي يُسْتَنْتَجُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا هُوَ أَنَّهُ كُلَّمَا سَعِيَ فِي تَعْوِيقِهِ نَالَ الْفَتَى بَأْسًا وَقُوَّةً ، وَلَا أَزَالَ أَنْتَكَلِمَ عَنِ النَّتَاجِ الْبَدْنِيَّةِ ، وَسِيرَى عَمَّا قَلِيلَ أَنَّهَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَى ذَلِكَ .

وَأُسْتَخْرَجُ مِنْ تِلْكَ التَّأْمَلَاتِ حَلَّ الْمَسْئَلَةِ الْآتِيَةِ الَّتِي أُثِيرَتْ كَثِيرًا ، وَهِيَ : هَلْ يَلَازِمُ تَنْوِيرُ الْأَوْلَادِ بَاكِرًا حَوْلَ مَوْضُوعَاتِ فُضُولِهِمْ ، أَوْ هَلِ الْأَفْضَلُ أَنْ يُخَادَعُوا بِتَمَوُّيَهَاتِ ذَاتِ حِشْمَةٍ ؟ أَرَى أَلَّا يُؤَوِّيَ هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَذَلِكَ ، أَوَّلًا ، أَنَّ هَذَا الْفُضُولَ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفْسَحَ لَهُ فِي الْجَمَالِ ، وَلِذَا يَجِبُ أَنْ يُصْنَعَ مَا لَا يَكُونُ لَهُمْ مَنَعُهُ هَذَا الْجَمَالُ ، ثَانِيًا ،

ان ما نحن غيرُ ملازمين بحلّه من الأسئلة لا يستلزم مخادعةً من يَطْرَحُهَا ،
والأفضلُ أن يقابلَ بالسكوت من أن يُجَابَ عنها بالكذبِ عليه ، وهو لن
يُدْهَشَ من هذه السُّنَّةِ إذا ما عُنِيَ بإخضاعه لها في الأمور التي يُؤْبَهُ لها ،
وأخيراً ، إذا ما التزمَ جانبُ الجوابِ فليَكُنْ هذا بأقصى البساطة وبلا غُمُوضٍ
ولا ارتباك ولا ابتسام ، فالخطرُ أقلُّ كثيراً في إرواء فضول الولد مما في تحريكه .
ولتَكُنْ أجوبتُكم ، دائماً ، رصينةً قصيرةً حازمةً ، ومن غير أن
يشوبها تردُّدٌ مطلقاً ، وليس من الضروريُّ أن أضيف إلى ذلك وجوبَ
كونها صادقةً ، فلا يُمكنُ تعليمُ الأولاد خطرَ الكذبِ على الناس من
غير أن يُشعَرَ من قِبَلِ الناس بخطرٍ أعظمَ من ذاك في الكذبِ على الأولاد ،
ومن نتائج الأَكْذُوبة الموكَّدة التي يأتيها العلم نحو التلميذ أن يُقضى على
ثمرات التربية إلى الأبد .

وقد يكون الجهلُ المطلقُ حَوْلَ بعض الموضوعات أفضلَ ما يلازمُ
الأولاد ، ولكنْ لِيَتَعَلَّمُوا باكراً ما يستحيلُ كتمُه عنهم دائماً ، وما يَجِبُ
أَلَّا يَسْتَيْقِظَ فضولُهم بأيِّ وجهٍ كان أو أن يُقضى قَبْلَ السَّنِّ التي يكون
خَطِراً فيها ، وَيَتَوَقَّفُ سلوكُكم نحو تلميذكم كثيراً على وَضْعِهِ الخاصِّ وعلى
الاجتماعات التي تحيط به وعلى الأحوال التي يُبَصِّرُ إمكانُ وجودِه فيها ،
إلخ . ، والمهمُّ هنا ألاَّ يُتركَ شيءٌ للمصادفة ، وإذا لم تطمئنوا إلى جَفَلِهِ
يَجْهَلُ الفرقَ بين الجنسين حتى السادسة عشرة من سِنِّيه فاعنوا بأن
يتعلَّمَه قبل العاشر من عُمره .

ولا أحبُّ أن يُتَخَذَ مع الأولاد لسانٌ ممحَّصٌ كثيراً ، ولا أن تُسْتَمَلَّ

موارباتٍ طويلة يُبَصِّرُونَهَا لِكَيْلَا تَطْلُقَ عَلَى الْأَشْيَاءِ أَسْمَاؤَهَا الْحَقِيقَةَ ،
فَلَا خِلَاقَ الصَّالِحَةَ فِي هَذِهِ الْمَوَادِّ بِسَاطَةِ بَالِغَةٍ دَائِمًا ، وَلَكِنْ الْخِيَالَاتِ
الْمَلَوْنَةِ بِالْمُنْكَرِ تَجْعَلُ الْأُذُنَ مُرَهَفَةً فَتُلْزِمُنَا بِتَمْحِصِ تَعَايِيرِنَا بِلَا انْقِطَاعٍ ،
وَلَا حَاصِلَ لِلْأَلْفَاظِ الْغَلِيظَةِ ، فَالْأَفْكَارُ الدَّاعِرَةُ هِيَ مَا يَجِبُ أَنْ يُقْصَى .

وَمَعَ أَنَّ الْحَيَاءَ طَبِيعِيًّا فِي النُّوعِ الْبَشَرِيِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ طَبِيعِيًّا فِي الْأَوْلَادِ ،
وَذَلِكَ أَنَّ الْحَيَاءَ لَا يُوَلَدُ إِلَّا مَقْرُونًا بِمَعْرِفَةِ السَّوِّ ، وَكَيْفَ يَكُونُ لَدَى
الْأَوْلَادِ ، الَّذِينَ لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ ، أَوْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْجُوزَوْهَا ،
ذَلِكَ الْحَسُّ الَّذِي لَيْسَ غَيْرَ نَتِيجَةٍ لَهَا ؟ يَنْطَوِي إِعْطَاؤُهُمْ دُرُوسًا فِي الْحَيَاءِ
وَالْحِشْمَةِ عَلَى تَعْلِيمِهِمْ وَجُودَ أُمُورٍ شَائِنَةٍ فَاحِشَةٍ ، يَنْطَوِي عَلَى تَلْقِينِهِمْ رَغْبَةً
خَفِيَّةً فِي مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ ، وَسَيَعْرِفُونَ هَذَا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، وَمِنْ شَأْنِ
الْشَّرَارَةِ الْأُولَى الَّتِي تَمَسُّ الْخِيَالَ أَنْ تُعْجَلَ اشْتِعَالُ الْحَوَاسِّ لِارْتِيَابِ ،
وَاحْتِرَارِ الْوَجْهِ دَلِيلُ الذَّنْبِ ، وَلَا تَسْتَحْيِ الْبَرَاءَةُ الْحَقِيقِيَّةُ مِنْ شَيْءٍ .

وَلَيْسَ عِنْدَ الْأَوْلَادِ مَا عِنْدَ الرِّجَالِ مِنْ تَوَقَّاتٍ ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّهُمْ
مِثْلُهُمْ عُرْضَةٌ لِلدَّنَسِ الضَّارِّ بِالْحَوَاسِّ فَإِنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ بِفَعْلٍ هَذَا
الْقَسْرِ أَنْ يَتَلَقَّوْا عَيْنَ الدُّرُوسِ فِي الْبَلِيَّةِ ، وَاتَّبَعُوا رُوحَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي
تَضَعُ فِي ذَاتِ الْمَكَانِ أَعْضَاءَ الذَّاتِ الْخَفِيَّةِ وَأَعْضَاءَ الْحَاجَاتِ الْكَرِيهَةِ فَتُوحِي
إِلَيْنَا بَعِينَ الْعَنَائَاتِ فِي مَخْتَلَفِ أَدْوَارِ الْعَمْرِ ، تُوحِي عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ تَارَةً
وَعَنْ تِلْكَ تَارَةً أُخْرَى ، تُوحِي إِلَى الرَّجُلِ عَنْ حَيَاءٍ وَإِلَى الْوَلَدِ عَنْ نِظَافَةٍ .
وَلَا أَجِدُ غَيْرَ وَسِيلَةٍ وَاحِدَةٍ لِحِفْظِ طَهْرِ الْأَوْلَادِ ، وَهِيَ أَنْ يَحْتَرَمَهُمْ
وَيَحْبِسَهُمْ جَمِيعُ مَنْ يَحِيطُونَ بِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا نُقِصَ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا

كلُّ جُهْدٍ يُبْذَلُ إِمْسَاكًا لَمْ ، فلهِم في الابتسامة والنظرة والحركة الخلطفة قولٌ حَوْلَ كُلِّ مَا يَحَاوِلُ إِخْفَاؤَهُ عَنْهُمْ ، وَيَكْفِي لَتَعْلَمُهُمْ إِيَّاهُ أَنْ يُرَى أَنَّهُ يَرَادُ إِخْفَاؤُهُ عَنْهُمْ ، وَبِمَا أَنَّ مَا يَسْتَعْمِلُهُ الْمُهَذَّبُونَ مِنْ جُمْلٍ وَتَعَايِيرٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَفْتَرِضُ مَا يَنْبَغِي وَجُودُهُ بَيْنَ الْأَوْلَادِ مِنْ مَعَارِفٍ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ مَحَلٌّ مَعَهُمْ ، وَلَكِنْ بَسَاطَتُهُمْ إِذَا مَا أُكْرِمَتْ حَقًّا سَهَّلَ عَلَيْنَا أَنْ نَجِدَ فِي مَخَاطِبَتِهِمْ مِنَ الْجُمْلِ مَا يَلَامُهُمْ ، وَنَجِدُ سَدَاجَةً فِي اللَّغَةِ الَّتِي تَلَامُ الْعَفَافَ وَتَرْوِقُهُ ، وَهَذِهِ هِيَ اللَّهْجَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي تَصُدُّ الْوَلَدَ عَنِ الْفُضُولِ الْخَطِرِ ، وَالْوَلَدُ إِذَا مَا كَلَّمَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ بِبَسَاطَةٍ لَمْ يُتْرَكْ لَهُ مَا يَتَصَوَّرُ مَعَهُ بَقَاءُ شَيْءٍ لَمْ يُحَدِّثْ عَنْهُ ، وَإِذَا مَا أُضِيفَتْ إِلَى الْأَلْفَاظِ الْغَلِيظَةِ أَفْكَارٌ غَيْرُ مُسْتَحَبَّةٍ مَلَامَةٌ لَمْ أُطْفِئَتْ شَعْلَةُ خِيَالِهِمِ الْأُولَى ، وَهُوَ لَا يُمْنَعُ مِنَ النُّطْقِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَمِنْ حَيَازَةِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ ، وَلَكِنَّهُ يُلَقِّنُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كِرَاهَةً تَذَكُّرُهَا ، وَمَا أَكْثَرَ الْارْتِبَاكَ الَّذِي يُؤَقِّرُ عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ فَوَادٍ دَائِمًا فَيَقُولُونَ الصَّدَقَ وَيُعْرِبُونَ عَنْهُمْ شَاعِرُونَ بِهِ !

« وَكَيْفَ يُصْنَعُ الْأَوْلَادُ ؟ » ، هَذَا سُؤَالٌ مُخَيَّرٌ يَعْزِضُ لِلْأَوْلَادِ طَبِيعَةً ، وَعَلَى الْجَوَابِ عَنْهُ بِطَلِيشٍ أَوْ بِرِصَانَةٍ يَتَوَقَّفُ ، أحيانًا ، أَمْرُ صَحَّتِهِمْ وَأَمْرُ خُلُقِهِمْ مَدَى حَيَاتِهِمْ ، وَأَقْصَرُ طَرِيقٍ تَتَصَوَّرُهُ الْأُمُّ لِلْخُلَاصِ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَادِعَ ابْنَهَا هُوَ أَنْ تَفْرِضَ السَّكُوتَ عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ هَذَا حَسَنًا إِذَا مَا عُوِّدَ ذَلِكَ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي لَا أَهْمِيَّةَ لَهَا وَلَمْ يَرَ سِرًّا فِي هَذِهِ اللَّهْجَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَلَكِنْ مِنَ النَّادِرِ أَنْ تَقِفَ الْأُمُّ هُنَاكَ ، فَسَقُولُ لَهُ : « هَذَا سِرٌّ بَيْنَ الْمُتَزَوِّجِينَ ، وَلَا يَجُوزُ لِلْأَوْلَادِ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي فَضُولٍ بِهَذَا الْمَقْدَارِ

مطلقاً ، أَجَلٌ ، إن هذه وسيلةٌ حَسَنَةٌ لِّخَلَاصِ الأُمِّ مِنَ الوَرطَةِ ، وَلَكِنْ لَتَعْلَمِ الأُمُّ أَنَّ الولدَ ، إِذْ يُنَخَزُ بِهَذَا الرَّجَرِ ، لَا يَهْدُ لَهُ بَالٌ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ سِرَّ المَتْرُوجِينَ ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَعْرِفَهُ .

وَلَيْسَمَحْ لِي بَأَنْ أَذْكَرَ جَوَابًا مُخَالَفًا تَمَامًا لِمَا سَمِعْتُ عَنْ ذَاتِ السُّؤَالِ ، فَكَانَ لَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِي مَا صَدَّرَ عَنْ امْرَأَةٍ ذَاتِ اتِّضَاعٍ فِي الكَلَامِ وَالْأَوْضَاعِ ، وَلَكِنْ مَعَ مَعْرِفَتِهَا عِنْدَ الضَّرُورَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى خَيْرِ ابْنِهَا وَإِلَى الفَضِيلَةِ فَتُدْوسَ كُلَّ خَوْفٍ زَائِفٍ مِنَ اللُّومِ وَكُلَّ كَلَامٍ فَارِغٍ يَصْدُرُ عَنِ المَاجَنِينَ ، وَلَكِنَّا يَمُضِي زَمَنٌ طَوِيلٌ عَلَى وَقْتِ رَمْيِ الولدِ فِي البَوَلِ حَجَرًا كَانَ قَدْ خَدَشَ إِحْلِيلَهُ ، وَلَكِنْ العَارِضَ زَالَ وَنُسِيَ ، وَبَسْأَلِ الولدِ الطَّائِشِ أُمَّهُ : « كَيْفَ يُصْنَعُ الأولَادُ يَا أُمَّاهُ ؟ » ، وَتَجِيبُ الأُمُّ بِلَا تَرَدُّدٍ : « أَيْ وَلَدِي ! إِنْ النِّسَاءُ يَبْلُغْنَ بِمَشَقَّةٍ قَدْ تُودِي بِحَيَاتِهِنَّ أَحْيَانًا » ، وَدَعَا المَاجَنِينَ يَضْحَكُونَ وَالْأَغْيَاءُ يَفْتَاطُونَ ، وَلَكِنْ دَعَا الحُكَمَاءَ يَبْحَثُونَ لِيَرَوْا هَلْ يَجِدُونَ جَوَابًا أَكْثَرَ صَوَابًا مِنْ هَذَا وَأَعْظَمَ إِيصَالًا إِلَى غَايَاتِهِ .

وَفِي البُدَاءَةِ تُحَوَّلُ فِكْرَةُ الْإِحْتِيَاجِ الطَّبِيعِيِّ الْمَعْرُوفَةِ لَدَى الولدِ فِكْرَةُ الغَمُوضِ فِيهِ ، وَتُغَطَّى أَفْكَارُ الأَلَمِ وَالْمَوْتِ الْلاحِقَةِ تِلْكَ الفِكْرَةِ بِسِتَارٍ مِنَ الغَمِّ يُضَمِّفُ الْخِيَالَ وَيَزْدَعُ الْفُضُولَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَصْرِفُ الذَّهْنَ إِلَى نَتَائِجِ الْوِلَادَةِ ، لَا إِلَى عِلَالِهَا ، وَتَكُونُ آفَاتُ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْأُمُورُ الْكَرِيمَةِ وَأَشْكَالُ الأَلَمِ هِيَ مَا يُبْلِقِي هَذَا الْجَوَابُ نُورًا عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مَا يُوحِي بِهِ مِنْ اِشْتِمَازٍ يَسْمَحُ لِلْوَلَدِ بِأَنْ يَسْأَلَ عَنْهَا ، وَبِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ تَكُونُ لَهُمُ الرِّغَابُ فُرْصَةُ الظُّهُورِ بِالْأَحَادِيثِ الَّتِي تُوجَّهُ هَكَذَا ؟ وَتَرَوْنَ ، مَعَ ذَلِكَ ، كَوْنَ الْحَقِيقَةِ

لم تُحَرِّفْ قَطُّ وأنه لم يُحْتَجَّ قَطُّ إلى مخادعة التلميذ بدلاً من تعليمه .

وأولادكم يَقْرَءُونَ ، وهم ينالون بالقراءة معارفَ ما كانوا لِيَكْسِبُوهَا بلا قراءةٍ مطلقاً ، وهم إذا ما دَرَسُوا اشتعل خيالهم وأزْهِفَ في صَتِّ الغُرْفَةِ ، وهم إذا ما عاشوا بين الناس سَمِعُوا رَطَانَةً غريبة ورأوا أمثلةً تَقِفُ أبصارهم ، وذلك أنه يُبْلَغُ من إقناعهم بأنهم من الرجال ما يَبْحَثُونَ معه حالاً ، في كلِّ شيءٍ يَفْعَلُهُ الرجالُ أمامهم ، كيف يُمَكِّنُ هذا أن يلائمهم ، وذلك أنه يَجِبُ أن تَصْلُحَ أعمالُ الآخرين تَمُودِجاً لهم حينما تَصْلُحُ أحكامُ الآخرين لهم قانوناً ، ومن الخدم الذين يُجْعَلُونَ تابعين لهم ، ومن ثمَّ يُعْنَوْنَ بأن يَرُوقُواهم ، مَنْ يَزْدَلِفُونَ إليهم على حساب الأخلاق الحسنة ، ومن المَرْبِيَّاتِ الضَّوَاحِكِ مَنْ يُحَدِّثُنَّهُمْ ، وهم في الرابعة من سِنِّيهِمْ ، بأمورٍ لا يَجْرُؤُ أَشَدُّ النساءِ مُجَوِّناً أن يُحَدِّثْنَ بها مَنْ هم في الخامسَ عَشَرَ من عُمرهم ، ولَسُرْعَانَ ما يَنْسَيْنَ ما قُلْنَهُ ، ولكنهم لا يَنْسَوْنَ ما سَمِعُوا ، وتُعَدُّ الأحاديثُ الداعرةُ فاجِرَ الأخلاقِ ، والخدامُ الخليثُ يَجْعَلُ الولدَ فاسقاً ، وَيَضْمَنُ سِرَّ أحدهما سِرَّ الآخرِ .

والولدُ الذي يُنْشَأُ وَفَّقَ سِنَّهُ وحيدٌ ، وهو لا يَعْرِفُ غيرَ روابطِ العادة ، فَيُحِبُّ أخته كما يُحِبُّ ساعته ، وَيُحِبُّ صديقه كما يُحِبُّ كَلْبَهُ ، وهو لا يَشْعُرُ بجنسٍ ولا نَوْعٍ ، ويكون الرجلُ والمرأةُ غريبين عنه على السواء ، وهما لا يَقْصَانِ عليه شيئاً مما يَصْنَعَانِ ولا مما يَقُولَانِ ، وهو لا يَرَى ذلك ولا يَسْمَعُهُ ، وهو لا يَنْتَبِهُ إليه مطلقاً ، وهو لا يبالى بكلامهما ولا بأمثلتهما ، فجميعُ هذا لم يُضَنَّعْ من أَجْلِهِ قَطُّ ، وليس ما يُنَحِّهُ بهذا

المنهاج خطأً مصنوعاً ، بل جهل الطبيعة ، ويأتى الوقت الذى نُفَتى فيه عَيْنُ الطبيعة بتنوير تليذها ، وهناك فقط تَجَعُّله فى حالٍ يستفيد معها بلا خَطَرٍ من الدروس التى تُلقِيها عليه ، والمبدأ هو ألا يكون تفصيلُ القواعد من موضوعى ، وتَنَفُّعُ الوسائلُ التى اقْتَرَحُ نظراً إلى الموضوعات الأخرى مثلاً لهذا أيضاً .

وإذا أردتم أن يكون النظام والقانون سائدين للأهواء الناشئة فأطيعوا دَوْرَ نُموِّها ، وذلك ليكون لديها من الوقت ما تَتَسَّقُ معه كلما بَرَزَتْ إلى الوجود ، وهناك لا يكون الإنسان هو الذى يُنظِّمها ، بل الطبيعة نفسها ، ولا يَكُونُ ما أَعْمَنُون به غيرَ تَرْكِها تُنظِّمُ عملها ، وإذا ما كان تليذكم وحيداً لم يَجِبْ عليكم أن تَفْعَلُوا شيئاً ، ولكنَّ كلَّ من يُحِيطُ به يُلْهَبُ خياله ، وَيَجْرُهُ سَيْلُ المُبْتَسِرَاتِ ، ولا بُدَّ من دفعه إلى الجهة المعاكسة إمساكاً له ، ويجب أن يُقَيَّدَ الشعورُ الخيالى وأن يُسَكِّتَ العقلُ رأىَ الناسِ ، والحسَّاسيةُ مصدرُ جميعِ الأهواءِ ، والخيالُ يُعَيِّنُ مَنِيَلَهَا ، وكلُّ مُخلوقٍ شاعرٍ بِصَلَاتِهِ يَجِبُ أن يرتبك عند اختلال هذه الصلات وعند تَصَوُّره ، أو ظَنُّه أنه يَتَصَوَّرُ ، ما هو أكثرُ ملاءمةً لطبيعته ، وأضاليلُ الخيالِ هى التى تُحوِّلُ إلى معائبِ أهواءِ جميعِ المخلوقات المحدودةِ ، حتى الملائكةِ إذا ما كانوا ذوى أهواءِ ، وذلك لأن من الواجب أن يَعْرِفُوا طبيعةَ جميعِ الموجودات ليعْرِفُوا أىَّ الصلات أكثرُ ملاءمةً لهم .

وإليك ، إذنْ ، خلاصةَ الحكمةِ البشرية من حيث استعمالُ الأهواءِ :

(١) الشعور بصلات الإنسان الحقيقية في النوع وفي الفرد .

(٢) تنظيم جميع عواطف النفس وفق هذه الصلات .

ولكن هل الإنسان مسيطرٌ على تنظيم عواطفه وفق هذه الصّلات أو تلك ؟ لا رَيْبَ ، إذا كان سيدَ تنظيم خياله حَوْلَ هذا الموضوع أو ذاك ، أو حَوْلَ مَنَحِهِ هذه العادة أو تلك ، ثم إِنَّا نَكُونُ هنا أَقْلًا أَكْثَرًا لِمَا يَسْتَطِيعُ الإنسانُ أَنْ يَفْعَلَهُ في نفسه مما نَقْدِرُ على فِعْلِهِ في تَلْمِيزِنا باختيار الأحوال التي تَجْعَلُهُ فيها ، وَيَعْنِي عَرْضُ الوسائل الخاصة بالبقاء ضِمْنَ نظام الطبيعة بيانًا كافيًا للوجه الذي يُمَكِّنُ الخروجُ به منه .

ولا يُوْجَدُ أدَبٌ لأفعاله ما بَقِيَتْ حَسَّاسِيَّتُهُ مقصورةً على شخصه ، ومتى أخذتْ تمتدُّ إلى خارج نفسه فازت في البُداءة بالمشاعر وبمبادئ الخير والشرِّ التي تَجْعَلُهُ ، حَقًّا ، إنسانًا وجزءًا مُتِمًّا لنوعه ، فعلى هذه النقطة الأولى يَجِبُ تَثْبِيْتُ ملاحظاتنا في بدء الأمر .

وهذه الملاحظاتُ صعبةٌ من حيث إن إتيانها يتطلبُ طَرَحَ الأمثلة التي تكون تحت عيوننا ، والبحثَ عن الأمثلة التي يَتِمُّ نُمُوها المتعاقبُ وفق نظام الطبيعة .

وما كان الولدُ المُهذَّبُ المُؤدَّبُ المتمدّن ، الذي لا يَنْتَظِرُ غيرَ القدرة على استعمال ما تَلَقَّاه من معارفٍ بَكُورٍ ، لِيُخْدَعَ مطلقًا حَوْلَ الوقت الذي تأتى فيه هذه القدرة بفتةً ، ومن البعيد أن يَنْتَظِرُ هذا الولدُ ذلك الوقتَ ، فهو يُعَجِّلُهُ ، وهو يُثِيرُ دمه قبل الأوان ، وهو يَعْرِفُ ما يَجِبُ

أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعُ رَغَائِبِهِ ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يُحِسَّهَا بِزَمَنِ طَوِيلٍ ، وَلَيْسَتْ
الطَّبِيعَةُ هِيَ الَّتِي تُنَحَرُّ كَهَ ، وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي يُكْرِهُهَا ، وَهِيَ ، إِذْ تَجْعَلُهُ
رَجُلًا ، لَمْ يَبْقَ لَدَيْهَا مَا تُعَلِّمُهُ إِيَّاهُ ، وَهُوَ قَدْ كَانَ بِالْفِكْرِ رَجُلًا قَبْلَ أَنْ
يَكُونَهُ فَعَمَلًا بِزَمَنِ طَوِيلٍ .

وَيَكُونُ سَيْرُ الطَّبِيعَةِ الْحَقِيقِ أَعْظَمَ تَدَرُّجًا وَأَشَدَّ بُطُوءًا ، وَيَشْتَغِلُ
الدَّمُ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، وَتَنْضَجُ النَفُوسُ ، وَيَتَكَوَّنُ الْمَزَاجُ ، وَيُعْنَى الْعَامِلُ
الْعَاقِلُ الَّذِي يُدِيرُ الْمَصْنَعَ بِإِتْقَانٍ جَمِيعِ آلَاتِهِ قَبْلَ اسْتِعْمَالِهَا ، وَيَتَقَدَّمُ الْمُنَى
الْأُولَى هَمٌّ طَوِيلٌ ، وَتُخَادَعُ بِجَهْلِ طَوِيلٍ ، وَيُرْغَبُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْرِفَ
فِيمَ يُرْغَبُ ، وَيَفُورُ الدَّمُ وَيَتَوَّرُّ ، وَيَحَاوِلُ فَيُضِلُّ مِنَ الْحَيَاةِ أَنْ يَمْتَدَّ إِلَى
الْخَارِجِ ، وَتَسْتَحِرُّ الْعَيْنُ وَتُجُوبُ الْخُلُوقَاتِ الْآخَرَى ، وَنَبْدًا بِالْكَثْرَةِ لِمَنْ
يَحِيطُونَ بِنَا ، وَنَأْخُذُ فِي الشُّعُورِ بِأَنَّنَا لَمْ نُخْلَقْ لِنَعِيشْ وَحْدَنَا ، وَهَكَذَا فَإِنْ
النُّوَادِ يَتَفَتَّحُ لِلْعَوَاطِفِ الْإِنْسَانِيَةِ وَيَصْبِحُ أَهْلًا لِلْحُبِّ .

وَالصَّدَاقَةُ ، لَا الْحُبُّ ، هِيَ الشُّعُورُ الْأَوَّلُ فِي الشَّابِّ الَّذِي يُعْنَى
بِتَنْشِئَتِهِ ، وَأَوَّلُ عَمَلٍ لِيُخَيِّلَهُ النَّاشِئُ هُوَ تَعْلِيمُهُ وَجُودَ أَمْثَالٍ لَهُ ، وَالنُّوعُ
يُؤَثِّرُ فِيهِ قَبْلَ الْجِنْسِ ، وَإِلَيْكَ ، إِذَنْ ، فَائِدَةٌ أُخْرَى لِلطَّهْرِ الْمُطَالِ :
وَذَلِكَ أَنْ يَسْتَفَادَ مِنَ الْحَسَّاسِيَةِ النَّاشِئَةِ لَتُلْقَى فِي قَلْبِ الْمَرَاهِقِ بِذُورِ الْإِنْسَانِيَةِ
الْأُولَى ، وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ هِيَ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَاكَ هُوَ زَمَنُ حَيَاتِهِ
الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُكْتَبَ النَّجَاحُ الْحَقِيقِيُّ فِيهِ لَتِلْكَ الْجُهُودِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ دَائِمًا أَنَّ الشَّبَانَ الْفَاسِدِينَ بَاكِرًا ، وَلِلْمُهْمَكِينَ فِي الدَّعَاةِ
وَالنِّسَاءِ ، كَانُوا قَسَاةً جَافِينَ ، وَكَانَ هِيَاجُ الْمَزَاجِ يَجْعَلُهُمْ فَاقِدِي الصَّبْرِ

محبين للانتقام غَضَابًا ، وكان خيالهم المملوء شيئًا واحدًا يَرِفُضُ كلَّ شيء ما خلا هذا الشيء ، وكانوا لا يَعْرِفُونَ رَأْفَةً ولا رَحْمَةً ، وكانوا مستعدين للتضحية بالأب والأمَّ وبجميع الناس في سبيل أقلِّ ملاذِّهم ، وعلى العكس تَرَى الشابَّ الناشئ في بساطةٍ سعيدةٍ محمُولًا بمحركات الطبيعة الأولى نحو رقيقِ الأهواءِ وودودِها ، ويتَحَرَّكُ فؤاده الحَنُونُ عند كُرُوبِ أمثاله ، ويهتزُّ سروراً عند استقبال رفيقه ، وتَعْرِفُ ذراعاه أن تَجِدَا عناقاً رقيقاً ، وتَعْرِفُ عيناه أن تَذْرِفَا دموعَ حَنَانٍ ، وهو يَعْلَمُ أن يَأْسَفَ على إساءته الآخرين بخجله من كَدَرٍ أوجبهُ ، وإذا كانت حرارةُ الدم التي تشتعل تَجْعَلُهُ نشيطاً تَزِقًا غضوباً فإنه يُبْصِرُ بعد حينٍ تَجَلَّى رَقَّةٌ قلبه الطبيعية في حاسة تَوْبَةٍ ، وهو يبكي ويئنُّ عن جَرَحِ أوجبهِ ، وهو يَوَدُّ لو يفتدى بدمه ما سكب من دَمٍ ، ويَهْدَأُ فائره ويتَضَيَّعُ تَجَبُّرُهُ أمام شعوره بِخَطْئِهِ ، وإذا ما أَسَىءَ إليه ، وكان في سَوْرَةٍ حِدَّتِهِ ، سَكَنَ عنه الغضب باعتذارٍ أو بكلمة ، وهو يَعْفُو عن سيئات الآخرين بسلامة القلب التي يُصْلِحُ بها سيئاتِهِ ، وليست المراهقةُ سِنَّ الانتقام ولا سِنَّ الحقد ، بل سِنُّ الرحمة والشفقة والكرَم ، أَجَلٌ ، إنني أدَّعِي ، ولا أخاف أن تُكذِّبَنِي التجربة ، بأن الولد الحَسَنَ المُنِيبَ والذي يحافظ على طُوبَىهِ حتى العشرين من عُمرِهِ يَكُونُ في هذه السَّنِّ أَكْرَمَ الناس وأصلحهم وأشدَّهم حُبًّا إليهم وأقربهم مَوَدَّةً إلى قلوبهم ، ولم تُحَدِّثُوا بمثل هذا قَطَّ ، وهذا الذي أَعْتَقِدُ جيداً ، وهذا ما غَفَلَ عن معرفته فلاسفتكم الذين نَشُّوا على ما في المدارس من فساد .

وَضَعْفُ الْإِنْسَانِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُ أُنَيْسًا ، وَأُبُؤُسُنَا الْمَشْرُوكَةُ هِيَ الَّتِي تَحْمِلُ أَثْقَلَنَا إِلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَوْ لَمْ نَكُنْ أَنْاسًا مَا كُنَّا مَدِينِينَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِشَيْءٍ ، وَكُلُّ عَطْفٍ دَلِيلٌ عَلَى نَقْصَانِنَا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُحْتَاجًا إِلَى الْآخَرِينَ بِشَيْءٍ مَا عَنَّ لَهُ أَنْ يَتَّحِدَ بِهِمْ ، وَهَكَذَا ، فَإِنْ سَعَادَتُنَا الْوَاهِنَةُ تَنْشَأُ عَنْ نَقْصَانِنَا ، وَيَكُونُ الْمَوْجُودُ السَّعِيدُ حَقًّا مَوْجُودًا مُعْتَزِّلًا ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَنْعَمُ بِسَعَادَةٍ مُطْلَقَةٍ ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يَخْطُرُ بِيَالِهِ مَعْنَى هَذَا ؟ وَإِذَا مَا اسْتَطَاعَ الْمَوْجُودُ النَّاَقِصُ أَنْ يَكْفِيَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ فَيَمَّ تَمَتُّعٍ عَلَى مَا تَرَى ؟ هُوَ يَكُونُ وَحِيدًا ، هُوَ يَكُونُ بَائِسًا ، وَمِمَّا لَا أَنْصُورُهُ قُدْرَةُ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ عَلَى حُبِّ شَيْءٍ مَا ، وَلَا أَنْصُورُهُ قُدْرَةُ مَنْ لَا يُحِبُّ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ سَعِيدًا .

وَمَنْ نَمَّ يَكُونُ ارْتِبَاطُنَا فِي أَمْثَالِنَا بِحِسِّ مَلَاذَمٍ أَقْلٍ مِمَّا بِحِسِّ أَحْزَانِهِمْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّنَا نَكُونُ هُنَاكَ أَحْسَنَ تَمْيِيزًا لَوْحَدَةِ طَبِيعَتِنَا وَلِضْمَانَاتِ حُبِّهِمْ لَنَا ، وَإِذَا كَانَتْ أَحْتِيَاجَاتُنَا الْمَشْرُوكَةَ تَوْحَّدُ بَيْنَنَا عَنْ مَصْلَحَةٍ فَإِنْ أُبُؤُسُنَا الْمَشْرُوكَةَ تَوْحَّدَ بَيْنَنَا عَنْ مَحَبَّةٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْظَرَ الرَّجُلِ السَّعِيدِ يُوحِي بِالْحَسَدِ أَكْثَرَ مِمَّا بِالْحُبِّ ، وَأَنَّهُ يُتَّهَمُ ، طَوْعًا ، بِسَلْبِهِ حَقًّا لَيْسَ لَهُ بِجَعْلِهِ نَفْسَهُ سَعِيدًا حَصْرًا ، وَذَلِكَ إِلَى أَنْ أَنْانِيَّتِنَا تَتَأَذَّى إِذْ تُشْعِرُنَا بِأَنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْنَا قَطْعًا ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي لَا يَتَوَجَّعُ لِلنَّعْسِ الَّذِي يَرَى أَلَمَهُ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَرِيدُ إِنْقَادَهُ مِنْ وَبِلَاتِهِ وَلَوْ بِالْتَمَنِي ؟ فَالْخِلَالُ يَصْعَقُنَا فِي مَكَانِ الْبَائِسِ أَكْثَرَ مِنْ وَضْعِهِ إِيَّانَا فِي مَكَانِ الرَّجُلِ السَّعِيدِ ، فَتُشْعِرُ بِأَنَّ إِحْدَى هَاتَيْنِ الْحَالَيْنِ تَمَسُّنَا عَنْ كَثْبٍ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرَى ، وَتَنْطَوِي الشُّفْقَةَ

على حلاوة ، وذلك أننا إذ نَجْعَلُ أنفسنا في مكان الذي يَأْلَمُ نَشْعُرُ ، مع ذلك ، بلَذَّةٍ عدمِ الألمِ مِثْلَهُ ، والحسدُ أَلِيمٌ ، وذلك أن منظر الرجل السعيد إذ يَبْهُدُ من جَهْلِهِ الحاسدَ في مكانه يُورِثُ أسفَ عدمِ كَوْنِهِ إِيَّاهُ ، ويَظْهَرُ أن أحدهما يُعْغِيْنَا مِنَ الآلامِ التي يقاسيها ، وأن الآخرَ يَنْزِعُ مِنَ النَّعَمِ التي يَتَمَتَّعُ بِهَا .

وإذا ما أردتم ، إِذَنْ ، أن تُثِيرُوا في قُودِ الفتي أَوْلَى حركاتِ الحِسِّ الناشئة وتُغْذِّوْهَا ، وأن تُحوِّلُوا سَجِيَّتَهُ نحو الخير والصلاح ، فلا تَبْذُرُوا فِيهِ الكبرياءَ والزَّهْوَ والحسدَ بصورةٍ خادعةٍ عن سعادةِ الناسِ ، ولا تَعْرِضُوا على عينيه في البُداءَةِ أَهْمَةَ البَلَاطَاتِ وَبَذْخَ القصورِ وَجَذْبَ المَجَالِي ، ولا تَطْلُبُوا لَهُ التَّزْهِهَ في الأنديةِ ولا في المجالسِ البرَّاقَةِ ، ولا تُرَوِّهِ ظَاهِرَ المَجْتَمَعِ الكبيرِ إِلَّا بعد أن تَجْعَلُوهُ في حالٍ يستطيع معها أن يُقَدِّرَهُ بنفسه ، ولا يُوْدِي إطلاعهُ على العالمِ قبل أن يَعْرِفَ الرجالَ إلى تكوينه ، بل إلى إفساده ، ولا يَنْطَوِي على تعليمه ، بل على إغوائه .

ومن الطبيعيِّ ألا يكون الناسُ ملوكاً ولا كبراءَ ولا بَطَّانَ ولا أغنياءَ ، فالجميعُ يُوَلِّدُونَ عُرَاةً فقراءَ ، والجميعُ عُرُضَةٌ لأَبْؤُسِ الحياةِ ، ولِلْكَرُوبِ والآلامِ والحاجاتِ والأوجاعِ من كلِّ نَوْعٍ ، وأخيراً يُقْضَى على الجميعِ بالموتِ ، وهذا هو الحقُّ عن الإنسانِ ، وهذا الذي لا يَنْجُو مِنْهُ إنسانٌ ، ومن طبيعةِ الإنسانِ ابْدَهُوا ، إِذَنْ ، بدراسةٍ ما لا يَنْفَصِلُ ، وهذا هو أَفْضَلُ ما تَتَأَلَّفُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْهُ .

والمرهقُ ، في السادسةِ عشرةَ من سِنِّيهِ ، يَعْرِفُ ما الألمُ ، وذلك

لأنه أَلِمَ بنفسه ، ولكنه لا يكادُ يَعْرِفُ أن الخلائقَ الآخرين يَأْلَمُونَ أيضاً ، وليست الرؤية بلا حِسٍّ معرفةً ، والولدُ ، كما قلتُ مئةَ مرةٍ ، إذ لا يَتَصَوَّرُ ما يُحِسُّه الآخرون ، لا يَعْرِفُ غيرَ كُرُوبِ نفسه ، ولكن إذا ما أَشْعَلَ أولُ نُومٍ في حواسِّه نارَ الخيالِ بدأ يُحِسُّ نفسه في أمثاله ، وَيَضْطَرِّبُ من أوصابهم ويَأْلَمُ من آلامهم ، وهناك يَجِبُ أن تَحْمِلَ صورةُ الإنسانية المَكْرُوبَةَ إلى قلبه أولَ ما يُحِسُّ من حَنَانٍ .

وإذا كان من غير السهل أن تلاحظوا تلك الحالَ في أولادكم فمن تَلُمُونَ على ذلك ؟ أنتم تُعَلِّمُونَهُم هَزَّ الإحساسِ باكراً ، وأنتم تُعَلِّمُونَهُم لِقَتَهُ حالاً ، وأنتم إذ تَكَلِّمُونَهُم بذات اللهجة دائماً تَجِدُونَهُم يُحَوِّلُونَ دروسكم ضِدَّكم ، فلا يَتَرُكُونَ لكم أيةَ وسيلةٍ تَمَيِّزُونَ بها وقتَ انقطاعهم عن الكذب من شعورهم بما يقولون ، ولكن لِنَنْظُرْ إلى إميلَ في السَّنِ التي سَقَّتْهُ إليها حيث لا يَشْعُرُ ولا يَكْذِبُ ، فهو لا يَقُولُ لأحدٍ « أُحِبُّكَ جيداً » قَبْلَ أن يَعْرِفَ ما الحُبُّ ، وهو لا يَعْرِفُ أَيُّ هيئةٍ يجب أن يَتَّخِذَ حين دخوله غرفةَ أبيه أو أمه أو معلميهِ المرضي ، وهو لا يُطْلَعُ على فنِّ إظهار حُزْنٍ لا يكون عنده ، وهو لا يُظْهِرُ بكاءً لمَوْتِ أحدٍ ، وذلك لأنه لا يَعْرِفُ ما الموتُ ، وتَرَى ذاتَ عدمِ الإحساسِ الذي في فؤاده بادياً في أوضاعه ، وهو إذ لا يَكْثُرُ لشيءٍ خارجِ نفسه ، كبقية الأولاد ، فإنه لا يَلْتَفِتُ إلى أحدٍ ، وَيَقُومُ كُلُّ ما يَمَيِّزُهُ على رغبته عن الظهور مبالياً بأحدٍ ، وعلى كَوْنِهِ دون الآخرين خِداً .

وبما أن إميلَ قليلُ التفكيرِ حَوْلَ المخلوقات الحسَّاسةِ فإنه لا يَدْرِي

ما الألم ولا الموت إلا متأخراً ، ويأخذ العويل والصراخ في تحريك أحشائه ، ويؤدّي منظر الدم المسفوك إلى تحويل عينيه ، وتورثه تشنّجات الحيوان المُشْرِفِ على الموت ألماً نفسياً ، ما أقول ، قبل أن يَعْرِفَ مصدرَ هذه الحركات الجديدة ، ولو بَقِيَ غيباً جافياً ما عَرَضَتْ له ، ولو كان متعلماً لَعَرَفَ أصلها ، فهو قد أكثر من المقابلة بين الأفكار ما يُحِسُّ معها ، ولكن ليس بما فيه الكفاية حتى يَعْرِفَ ما يُحِسُّ .

وهكذا تولّد الشفقة ، يولّد هذا الشعور النسبي الذي يمس القلب البشريّ وَفَقَ نظام الطبيعة ، ويحبُّ ، ليَصِيرَ الولدُ حسّاساً رؤوفاً ، أن يَعْرِفَ وجودَ أناسٍ مماثلين له يألَمُون كما يألَمُ ويحسُّون ما يُحِسُّ من الآلام ، ووجودَ آخرين يجب أن تكون له فِكْرَةٌ عنهم كأناسٍ يستطيع الشعور بهم أيضاً ، والواقعُ كيف ندعُ أنفسنا تتحرّك بالشفقة إذا لم ننقل خارجَ أنفسنا ونَتَّجِدُ بالحيوان الذي يألَمُ تاركين وجودنا يتناول وجوده ؟ فنحن لا نألَمُ إلّا بِحُكْمِنَا أَنَّهُ يألَمُ ، ونحن نألَمُ ضِمْنَهُ ، لا في أنفسنا ، وهكذا لا يصير أحدٌ حسّاساً إلّا عند تحرّك خياله وأخذه في الانتقال خارجَ نفسه .

وما علينا أن نصنّع ، إذن ، لتحريك تلك الحاسية الناشئة وتغذيتها وتوجيهها أو اتّباعها في ميولها الطبيعية إذا لم يَكُنْ تقديمنا إلى القى أموراً يُمكنُ أن تؤثرَ في قوة فؤاده التوسّعية ، فتمدّده وتبسّطه على موجوداتٍ أخرى وتجمّله خارجَ نفسه ، وإذا لم يَكُنْ إبعادنا منه بعنايةٍ أموراً تُضيِّقه وتجمّعه في مركزٍ واحد وتشدُّ نابضَ الذاتِ البشرية ، وإن شئتَ فقلْ : إثارنا فيه الصلاحَ والإنسانيةَ والرحمةَ وحبَّ الخير وجميعِ الأهواءِ الجذّابةِ

الحُلوة التي تَرُوقُ الناسَ بحكم الطبيعة ، والتي تَحُولُ دون ظهورِ الحسد والطمع والحقد وجميع الأهواء الكريهة الجافية ، أى هذه الأهواء التي تَجْعَلُ الحَسَّاسِيَّةَ سلبيةً فضلاً عن كونها لاغيةً ، وتورِثُ من يُبْتَلَى بها كَرْباً ؟ وأرى أنه يُمكنني تلخيصُ جميع التأملات السابقة في مبدأين أو ثلاثة مبادئ صريحة واضحة يَسْهُلُ إدراكُها .

المبدأ الأول

ليس من مقتضى القلب البشري أن نَضَعَ أنفسنا في مكان مَنْ هم أسعدُ منا ، وإنما تقضى الطبيعة البشرية بأن نَجْعَلَ أنفسنا في محلٍّ مَنْ يَسْتَدْعُونُ رحمتنا .

وإذا ما وُجِدَت استثناءاتٌ لهذا المبدأ كانت في الظاهر أكثرَ مما في الحقيقة . ومن ذلك أننا إذا ما وضعنا أنفسنا في مكان الغنى أو العظيم الذي نَلْزَمُهُ لم نَلْتَحِلْ غيرَ جزءٍ من نعيمه ، ولو كنا صادقين في ملازمته ، وهو يُحِبُّ في مصائبه أحياناً ، ولكنه إذا ما أُبْسِرَ لم يَكُنْ له في أثناء بُسْرِهِ صديقٌ حقيقيٌّ غيرُ مَنْ لم تَعْرِهَ الظواهرُ وَمَنْ يَرِنِي له أكثرَ من أن يَحْسُدَ على الرغم من بُسْرِهِ .

ومما يؤثرُ في النفس ما يكتشف بعض الأحوال من سعادة ، كالخياة الريفية والرَّعائِيَّة مثلاً ، ولا يُسَمُّ الحسدُ ، مطلقاً ، فتُؤَنَ مشاهدة هؤلاء الناس السعداء الصالحين الذين يُلْتَفَتُ إليهم حقاً ، وَلِمَ هذا ؟ ذلك لأن الإنسان يَشْعُرُ بقدرته على الهبوط إلى هذه الحال من الهدوء وسلامة الطَّوِيَّة

وعلى التَّمَتُّعِ بعين السعادة ، وذاك بلاء لا يَمْنَحُ غيرَ أفكارٍ مُسْتَحَبَّةٍ ما دامت إرادة التمتع بها تَكْفِي للقدرة عليه ، ومما تَطِيبُ به النفسُ دائماً أن تَرَى مواردها وأن تُنْعِمَ النظر في مالها الخاص ، حتى عند عدم الرغبة في الانتفاع به .

ومن ثَمَّ تَرَى أن حَمَلَ الفتي على الإنسانية يستلزم إطلاعه عليها من النواحي الكئيبة وجعله يَحْشَاهَا مع البعد من جعله يُعْجَبُ بنصيب الآخرين الباهر ، وهكذا فإن من النتائج الواضحة وجوب شَقِّه طريقاً إلى السعادة غير مُقْتَفٍ آثارَ أحدي .

المبدأ الثاني

لا نَأْلَمُ في الآخرين لغير البلايا التي لا نعتقد إعفاءنا منها ، « وذلك لأنني بَلَوْتُ الشقاء الذي أَعْرِفُ وروده بمساعدة التَّعَسُّاء » .
ولا أَعْرِفُ ما يَمْدِلُ هذا القولَ رَوْعَةً وعمقاً وتأثيراً .

ولِمَ يكون الملوكُ خالين من الرحمة نَحْوَ رعاياهم ؟ ذلك لأنهم لا يَتَوَقَّعون أن يكونوا من الناس ، ولِمَ يكون الأغنياء بالفي القسوة تجاه الفقراء ؟ ذلك لأنهم لا يَخْشَوْنَ أن يُضْهِجُوا من الفقراء ، ولِمَ يكون الأشراف كثيرى الازدراء للعوام ؟ ذلك لأن الشريف لن يكون عامياً ، ولِمَ يكون التُّرْكُ أكثرَ منا رِفْقاً وقَرَى على العموم ؟ ذلك لأن عظمة الأفراد وثرورتهم ، في حكومتهم المَرَادِيَّةِ تماماً ، إذ تكونان زائلتين مُدَبَّذَتَيْنِ دائماً فإنهم

لَا يَعْدُونَ الْخَفْضَ وَالْبُؤْسَ غَرِيبَيْنِ عَنْهُمْ ^(١) مطلقاً ، فَيُمْكِنُ كُلَّ وَاحِدٍ أَنْ يُصْبِحَ فِي الْقَدَمِ مَنْ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ ، فِهَذَا التَّأَمُّلُ الْمَكْرَرُ كَثِيراً فِي الْقِصَصِ الشَّرْقِيَةِ يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ بَرَقَةً لَا تَوْجَدُ فِي أَدْبَانَا الْجَافِّ .

وَلِذَا لَا تَعُودُوا تَلْمِذَ كَمْ أَنْ يَنْظُرَ مِنْ أَعْلَى مَجْدِهِ إِلَى كُرُوبِ التَّعَسَاءِ وَأَعْمَالِ الْبَاسِنِينَ ، وَلَا تَأْمَلُوا تَعْلِيمَهُ أَنْ يَتَوَجَّعَ لَهُمْ إِذَا مَا عَدَّاهُمْ غَرَاءَ عَنْهُ ، وَاجْعَلُوهُ يُدْرِكُ أَنْ مَصِيرَهُ قَدْ يَكُونُ مِثْلَ مَصِيرِ هَؤُلَاءِ الْمَكْرُوبِينَ ، وَأَنْ جَمِيعَ بِلَايَاهُمْ تَحْتَهُ فَيُمْكِنُ أَلْفَ حَادِثَةٍ مَفَاجِئَةٍ مُحْتَمَةٍ أَنْ تَجْعَلَهُ يَفْطِسَ فِيهَا بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ ، وَعَلَمُهُوهُ عَدَمَ الْاعْتِمَادِ عَلَى النَّسَبِ وَعَلَى الصَّحَةِ وَالنَّسَبِ ، وَأَطْلِعُوهُ عَلَى تَقَلُّبَاتِ الطَّالِعِ ، وَاجْعَلُوا لَهُ عَنْ أَمْثَلَةٍ كَثِيرَةِ الْوُقُوعِ دَائِماً حَوْلَ أَنْاسٍ مِنْ أَصْلٍ أَرْفَعَ مِنْ أَصْلِهِ سَقَطُوا فِي حَالٍ تَحْتَ حَالٍ أُولَئِكَ الْمُنْكَوْدَى الْخَطِّ ، وَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِنَا الْآنَ أَنْ نُبَيِّنَ كَوْنَ ذَلِكَ نَتِيجَةً خَطِئاً اقْتَرَفُوهُ أَوْ لَا ، وَإِنَّمَا نَقُولُ : هَلْ يَعْرِفُ مَا الْخَطَأُ ؟ وَلَا تَجُورُوا عَلَى نِظَامِ مَعَارِفِهِ مطلقاً ، وَلَا تُنِيرُوهُ بِغَيْرِ بَصَائِرٍ تَكُونُ فِي مَتَنَاوَلِهِ ، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ بِالْعِلْمِ حَتَّى يَشْعُرَ بِأَنْ فِطْنَةَ الْإِنْسَانِ بِكَامِلِهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْبِيَهُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَنْ آلَامَ الْكُلِّيِّ الْحَادَّةَ لَا تَجْعَلُهُ يَصْرُفُ بِأَسْنَانِهِ قَبْلَ اللَّيْلِ مطلقاً ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا قَبْلَ مَرُورِ شَهْرٍ وَاحِدٍ ، وَأَنْ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَلَّا يُجَدِّفَ تَحْتَ السَّوْطِ ، وَقَبْلَ مَرُورِ عَامٍ ، فِي سَفْنِ الْجَزَائِرِ ، وَمَنْ أَحْصَى مَا يَكُونُ أَلَّا تَقُولُوا لَهُ

(١) يظهر أن هذا يتغير قليلاً في الوقت الحاضر ، فالذي يلوح أن الأحوال تصبح أكثر

ثباتاً وأن الناس يصيرون أكثر قسوة .

جميعَ هذا بِمِثْلِ بُرُودَةِ كِتَابِهِ الدِّينِيِّ ، وَلِيبْصِرَ ، وَلِيُحِسَّ مَصَائِبَ
الْإِنْسَانِ ، وَهُزُّوا خِيَالَهُ ، وَأَلْقُوا الرُّعْبَ فِي هَذَا الْخِيَالِ مِنَ الْأَخْطَارِ الَّتِي
تُحِيطُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى الدَّوَامِ ، وَلَيَرَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَهَاوِي حَوْلَهُ ، وَلَتَصِفُوهَا
لَهُ حَتَّى يَبَادِرَ إِلَى التَّعَلُّقِ بِكُمْ خَشْيَةَ السَّقُوطِ فِيهَا ، وَسَتَقُولُونَ إِنَّا نَجْعَلُهُ
وَجَلًّا جَبَانًا ، وَسَتَرَى فِيمَا بَعْدَ ، وَلَكِنْ لَنَبْدَأُ الْآنَ بِجَعْلِهِ إِنْسَانِيًّا ، وَهَذَا
هُوَ الَّذِي يَهْمُنَا .

المبدأ الثالث

لَا يُقَاسُ مَا نُحِسُّ مِنْ شَفَقَةٍ حَوْلَ بَلَاءِ الْآخِرِينَ بِمَقْدَارِ هَذَا الْبَلَاءِ ،
بَلْ بِالشُّعُورِ الَّذِي نُعِيرُهُ مَنْ يَأْمُنُونَ بِهِ .
لَا لِيَتَوَجَّعَ لَتَعْسٍ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَرَى مِنْ احتِجَاجِهِ إِلَى التَّوَجُّعِ لَهُ ،
وَمَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَاسٍ بِدَنِيَّ بَآلَامِنَا أَضِيقُ حَدًّا مِمَّا يَلُوحُ ، وَلَكِنَّا
تَحْمِلُنَا بِالتَّوَجُّعِ لَهَا حَقًّا بِالذَّاكِرَةِ الَّتِي تَجْمَعُنَا نُحِسُّ دَوَائِهَا ، وَبِالْخِيَالِ الَّذِي
يُمِدُّ مَدَاهَا إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ ، وَهَذَا ، كَمَا أَرَى ، مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْمَعُنَا أَشَدَّ
سُوءَ تَجَاهِ آلَامِ الْحَيَوَانِ مِمَّا تَجَاهِ آلَامِ الْإِنْسَانِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِ
الْحَسَّاسِيَةِ الْمَشْتَرَكَةِ أَنْ تَجْمَعُنَا مُتَحَدِينَ بِالْحَيَوَانِ جَوْهَرًا ، وَمَا كَانَ لِيَتَوَجَّعَ
لِحَصَانِ حُودِيٍّ فِي إِصْطَبْلِهِ مُطْلَقًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُفْتَرَضُ أَنَّهُ يُفَكِّرُ وَهُوَ
يَأْكُلُ عَلْفَهُ فِي الضَّرَبَاتِ الَّتِي تَلْقَاهَا وَفِيمَا يَنْتَظَرُهُ مِنْ تَعَبٍ ، وَكَذَلِكَ
مَا كَانَ لِيَتَوَجَّعَ لَضَائِنِ يُرَى وَهُوَ يَرَعَى ، وَإِنْ كَانَ يُعْرِفُ أَنَّهُ سَيُذْنِجُ
عَمَّا قَلِيلٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُخْشَى فِي أَنَّهُ لَا يُبْصِرُ مُصِيرَهُ ، وَإِذَا مَا تَوَسَّعْنَا

في الأمر وَجَدْنَا ذاتَ القسوة تجاه نصيب الأدميين ، فالأغنياء يَتَعَزَّوْنَ عما يُورِثُونُ الفقراء من أَلَمٍ بافتراضهم هؤلاء الفقراء أغنياء لا يَشْعُرُونَ بذلك ، وعلى العموم أَحْكَمُ بالقيمة التي يَضَعُ كُلُّ واحدٍ في مقابل سعادة أمثاله بالحال التي يَلُوح أنه يَتَمَثَّلُهَا عنهم ، ومن الطبيعي أن نُعَدَّ رخيصةً سعادة مَنْ يُزْدَرَوْنَ ، ولا تَعْجَبُوا ، إِذَنْ ، من حديث السياسيين عن الشعب بازدياد كبير ، ومن كونِ مُعْظَمِ الفلاسفة يُظْهِرُ الإنسانَ خيئاً جِداً .

والشعبُ هو الذي يُولَّفُ النوعَ البشريَّ ، وَمَنْ لَيْسُوا من الشعب هم من القلة ما لا يستحقون معه أن يُحْصَوْا ، والإنسانُ هو هو في جميع المنازل ، وإذا كان الأمر هكذا فإن أكثر الطبقات أناساً هي أكثر ما يستحقُّ الاعتبار ، وتزول جميعُ الفروق أمامَ المفكرِّ ، فهو يَرَى عينَ الأهواء وعينَ المشاعر في الجِلْفِ والرجل المشهور ، وهو لا يَمَيِّزُ فيهما غيرَ لغتهما ، أى غيرَ تَكَلُّفٍ خفيفٍ في لهجتهما ، وإذا ما وُجِدَ اختلافٌ جوهرى يُفَرِّقُ بينهما كان هذا على حساب أكثرهما رِثاءً ، أَجَلْ ، إن الشعبَ يَبْدُو كما هو ، وهو ليس محبوباً ، ولكن لا بُدَّ لمن هم على المؤضّة من التَّنَكُّرِ ، فلو بَدَوْا كما هم لاسْتَقْبَحُوا .

ويقول حكماؤنا بوجود عينِ المقدار من السعادة والكرب في جميع الطبقات ، وهذا المبدأ هو من الشؤم بمقدار ما يتعذَّرُ إثباته ، وذلك لأن الجميع إذا كانوا متساوين سعادةً فما احتياجي إلى إزعاج نفسى من أَجْلِ أىِّ كان ؟ ولْيَبْقَ كُلُّ كما هو عليه ، وَلْيُعَامَلِ العبدُ بسوء ، وَلْيَأَلَمْ العليلُ ، وَلْيَهْلِكِ الضَّعْلُوكُ ، ولا يُوجَدُ ما يَكْسِبُونَ من تغيير حالهم ، وهم يَعُدُّونَ آلامَ الغنى ،

وَيُثَبِّتُونَ بَطْلَانَ مِلَادَهُ الْفَارِغَةَ ، فَيَا لِلْسَّفْسَطَةِ الْغَلِيظَةِ ! إِنْ آلَامَ الْغَنِيِّ لَا تَأْتِيهِ مِنْ حَالِهِ ، وَلَكِنْ مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي يُسَيِّئُ اسْتِعْمَالَهَا ، وَهُوَ إِذَا كَانَ أَكْثَرَ تَعَسًّا مِنَ الْفَقِيرِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَوَجَّعَ مَا دَامَتْ جَمِيعُ آلَامِهِ مِنْ صُنْعِ نَفْسِهِ ، وَمَا دَامَ أَمْرُ سَعَادَتِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ ، غَيْرَ أَنْ أَلَمَ الْبَاسِ يَأْتِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، يَأْتِيهِ مِنْ قَسْوَةِ النَّصِيبِ الشَّدِيدِ الْوِطَاءَةِ عَلَيْهِ ، وَلَا تُوجَدُ عَادَةً قَادِرَةٌ أَنْ تَنْزِعَ مِنْهُ حَسَّ التَّعَبِ الْبَدْنِيِّ وَالضَّنَى وَالْجُوعِ ، وَمَا كَانَتْ سَلَامَةُ الْقَلْبِ وَلَا الْحِكْمَةُ لَتَنْفَعَ فِي نَجَاتِهِ مِنْ بَلَايَا حَالِهِ ، وَمَا رُبُّهُ إِيكْتِيتَ مِنْ عِلْمِهِ مُقَدِّمًا بِأَنْ مَوْلَاهُ سَيَكْسِرُ سَاقَهُ ؟ كَانَ يَسَاوِرُهُ أَلَمُ إِدْرَاكِ الْأَمْرِ قَبْلَ وَقُوعِهِ فَضْلًا عَنْ أَلَمِهِ ، وَمَتَى صَارَ الشَّعْبُ مِنَ الرَّصَانَةِ بِمَقْدَارِ مَا نَفْتَرِضُ لَهُ مِنَ الْبَلَاءَةِ فَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ ؟ وَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ مَا يَصْنَعُ ؟ اذْرُسُوا أَبْنَاءَ هَذِهِ الطَّبَقَةِ تَجِدُوا ، مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْكَلَامِ ، أَنَّهَا ذَاتُ ذَهْنٍ مِثْلِ ذَهْنِكُمْ وَأَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْكُمْ حُسْنَ ذَوْقٍ ، وَأَكْرَمُوا نَوْعَكُمْ إِذَنْ ، وَقَدِّرُوا أَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ مَجْمُوعَةِ شُعُوبٍ جَوْهَرًا ، وَأَنَّهُ إِذَا مَا نُزِعَ مِنْهَا جَمِيعُ الْمُلُوكِ وَالْفَلَاسِفَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يَبْدُونَ ، وَإِنْ الْأُمُورَ لَا تَسِيرُ إِلَى أَسْوَأِ مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَالْخِلَاصَةُ هِيَ أَنْ تُعْلَمُوا تَلِيدَ كَمِ حُبِّ جَمِيعِ النَّاسِ ، حَتَّى الَّذِينَ يَزْدَرُونَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا تَصَرَّفًا لَا يَكُونُ مَعَهُ مَكَانٌ لَهُ فِي أَيَّةِ طَبَقَةٍ كَانَتْ ، وَلَكِنْ مَعَ وَجُودِهِ فِيهَا جَمِيعًا ، وَتَكَلَّمُوا أَمَامَهُ بِرِقَّةٍ عَنِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ، فَالْإِنْسَانُ لَا يَشِينُ الْإِنْسَانَ مَطْلَقًا .

فَهَذِهِ الطَّرِيقُ وَمَا مِثْلُهَا مِنَ الطَّرِيقِ ، الْمَخَالِفَةُ لِلَّتِي شُقَّتْ ، يُسْتَحْسَنُ أَنْ يُنْفَذَ فِي فُؤَادِ الْمَرَاهِقِ لِإِثَارَةِ أَوَّلَى حَرَكَاتِ الطَّبِيعَةِ فِيهِ ، وَإِيمَانُهُ وَمَدَّةُ

إلى نظائره ، وإلى هذا أضيف قولى إن من المهم أن يُخلطَ بهذه الحركات أقل ما يمكن من المصالح الشخصية ، ولا سيما الزَّهْوُ والمنافسةُ وتلك المشاعرُ التى تَحْمِلُنَا على قياس أنفسنا بالآخرين ، وذلك لأن هذه المقاييسَ لا تتم من غير حقدٍ ما على الذين ينازعوننا الأفضليةَ ، ولو من حيث تقديرنا الخاصِّ ، وهنالك لا بُدَّ من التَّعَامِي أو التَّنَمُّرِ ، والخُبْثِ أو البَلَّةِ ، فلنَجْتَمِدَ فى اجتناب هذا التناوب ، وسيقال لى إن هذه الأهواءُ البالغةُ الخطرَ ستُولَدُ عاجلاً أو آجلاً ، ولا أنكر هذا ، فلكلِّ شىء زمانه ومكانه ، وإنما أقول إنه لا ينبغي أن تساعدَ على الظهور .

وهذا هو روح المنهاج الذى يجب قرَضُه ، ولا فائدةَ من الأمثلة والتفاصيل هنا ، وذلك لأنه يَبْدَأُ هنا ما لا يُحصى من تقسيم الأخلاق ، فلا يطابقُ المَثَلُ الذى أورد غير واحدٍ من مئة ألفٍ على ما يحتمل ، وفى تلك السنِّ ، أيضاً ، تَبْدَأُ فى المِلم الماهر وظيفَةُ الرقيب الفيلسوف الذى يَعْرِفُ فنَّ سَبْرِ القلوب بالعمل فى تكوينها ، وَبَيِّنَا لا يُفَكِّرُ الفتى فى التَّنَكُّرُ الذى لم يُدْرِكْهُ بعدُ يُرى فى ملاحظه وعينيه وحركته ما تَلَقَّى من انطباعٍ عن كلِّ موضوعٍ يُعَرِّضُ عليه ، أى إنه يُقْرَأُ على وجهه جميع حركات روحه ، فإذا ما رُصِدَت هذه الحركات انتهت إلى البصر بها ثم إلى توجيهها .

وما يُبْلَاخِظُ على العموم كَوْنُ الدم والجروح والصُّراخِ والأنينِ وجهازِ الأعمالِ المؤلمة وكلِّ ما يَحْمِلُ إلى الحواسِّ موادَّ المِحْنِ أموراً سريعةَ التأثيرِ فى جميع الناس إجمالاً ، وبما أن فكرة الهدم أكثرُ تركيياً فإنها دون ذلك

تأثيراً ، ومن ذلك أن صورة الموت تؤثر تأثيراً متأخراً وأكثر ضعفاً ، وذلك لأنه لا أحد يعرف ما الموتُ عن تجربةٍ ، فلا بدّ من رؤية الجثثِ حتى يُشعرَ بشدائد المحتضرين ، ولكن هذه الصورة إذا ما تَكَوَّنت في ذهننا مرّةً لم يُوجدَ ما هو أفظعُ من هذا النظر في أعيننا ، وذلك بسبب فكرة الهدم الشامل التي تثيرها بواسطة الحواسِّ ، أو لأن الإنسان يَعْلَمُ أن هذه الساعة تأتي جميعَ الناس حتماً فيكونُ بالغَ التأثيرِ من حالٍ يَعْتَقِدُ عجزه عن الإفلات منها .

أجلّ ، إن لهذه الانطباعات المختلفة تحوُّلاتها ودرجاتها التي تتوقفُ على طَبْعِ كلِّ فردٍ وعلى سابقِ عاداته ، غير أنها عامةٌ ولا يُستثنى منها أحدٌ تماماً ، ومنها ما يأتي متأخراً ويكونُ أقلَّ عموماً فيلائمُ النفوسَ الحسَّاسةَ ، وتكون تلك الانطباعاتُ نتيجةَ كُرُوبِ أدبية وآلامٍ باطنية وأحزانٍ وذُبولٍ وغَمٍّ ، ومن الناس من لم يُحَرَِّكوا بغير الصّراخ والبكاء ، وما كان الأنينُ الطويلُ الأصمُّ الصادرُ عن فؤادٍ مُنْقَبِضٍ ضيقاً لِيَنزِعَ منهم تأوُّهاً ، وما كان منظرُ مَوْعُوكٍ ووجهِ شاحبٍ مُرَصَّصٍ وعَيْنٍ مُنْطَفِئَةٍ عاجزةٍ عن البكاء لِيُبْكِيَهُمْ ، فالآلمُ النفسِ ليست شيئاً بالنسبة إليهم ، وهم يَزِنُونَهَا ، ولا تَشْعُرُ نفوسهم بشيء منها ، ولا تنتظروا منهم غيرَ صلابَةٍ لا تنثنى وغيرَ قسوةٍ وغِلْظَةٍ ، ومن الممكن أن يكونوا أَعْفَاءَ منصفين ، لا رُحَمَاءَ كَرَمَاءَ شَفِيقِينَ ، وأقول إن من الممكن أن يكونوا منصفين إذا كان الإنسان قادراً أن يكون منصفاً من غير أن يكون راحماً .

ولكن لا تبادروا إلى الحكم في الفَتَيَانِ وَفَقَ هذه القاعدة ، ولا سيما

الذين نَشُّوْا كما يَنْبَغِي أن يكونوا ، فليس لديهم أيةُ فكرةٍ عن الآلام الأدبية التي لم يُحْمَلُوا على اختبارها مطلقاً ، ولأنهم ، كما أقول مُكْرَّرًا ، لا يستطيعون أن يتَوَجَّعوا لغير ما يَعْرِفون من آلامٍ ، ولأن هذه اللاحساسية الظاهرة التي لا تأتي من غير الجهل لا تَلَبُّثُ أن تتحوَّل إلى رِقَّةٍ عندما يأخذون في الشعور بوجود ألفِ ألمٍ في الحياة البشرية لا يَعْرِفونه ، وأما إميلُ فإذا كان ذا بساطةٍ وسلامةٍ ذوقٍ في صباه فإنني أعتقد أنه سيكون ذا مُهَجَّةٍ وحساسيةٍ في شبابه ، فصدقُ الأحاسيس يتعلق بسداد الأفكار كثيراً .

ولكن لِمَ نَذْكُرُه هنا؟ يُوجَدُ أكثرُ من قارئٍ سيَلُومُنِي ، لا ريب ، على نسيان أحكامي الأولى والسعادة الدائمة التي وَعَدْتُ تليذِي بها ، نساءه ، مُحْتَضِرُونَ ، مناظرُ ألمٍ وبؤس ! أيُّ سعادة ! يا لَتَمَتُّعِ فَوادِي قَتِيٍّ أصبح على باب الحياة ! إن معلمه الحزين الذي أَعَدَّ له تربيةً بالغة الحلاوة لم يُوجِدْهُ لغير الألم ، وإليك ما يقال : وما يهْمُنِي ؟ لقد وَعَدْتُ بأن أجعله سعيداً ، لا أن أجعله سعيداً ظاهراً ، وهل مِنْ ذَنْبِي أن تُخَدَعُوا بالظاهر دائماً فتَعَدُّوه حقيقةً ؟

ولنتاولُ فَتَيَيْنِ أتمَّتا تربيتَهُما الأولى ودَخَلَا العالَمَ من بايين متقابلين على خطٍّ مستقيم ، فصَعِدَ أحدهما فوق الأَلِنِشِيا بَغْتَةً وظَهَرَ في أَسْطَعِ مجْتَمَعٍ ، ويُوَثِّي به إلى البلاط لدى العظماء والأغنياء والحسَّان ، وأفترِضه عَيِّدَ في كل مكان ، ولا أَفْخَصُ فِعْلَ هذا القَبُولِ في عقله ، وإنما أَقْدَرُ مقاومته له ، وتَطِيرُ المَلَأْدُ أمامه ، وتُلْهِيه كلَّ يومٍ أمورٌ جديدة ، وَيَهْمِكُ فيها جميعاً

برغبةٍ تُغَوِّيكُم ، وأتمَّ تَرَوُّنَه مننبهاً مبادراً ذا فُضُول ، وَيَقِفُ نُظْرَكُم دَهْشُهُ
الأول ، وتَعُدُّونَه راضياً ، وإذا ما نظرتُم إلى حاله النفسية اعتقدتُم أنه يَتَمَتَّع ،
وأما أنا فأعتقد أنه يتوجَّع .

وما الشيء الأول الذى يَرَى حيناً يَفْتَحُ عينيه ؟ يَرَى كلَّ نوعٍ من
المتَّع التى كان لا يَعْرِفُ ، والتى لا يكون معظمها فى متناولِه غيرَ هُنيئةٍ
فلا يَلُوح أنها تَظْهَرُ له إِلَّا لِتُورِثَه حَسْرَةٌ على أنه حُرِمَها ، وإذا ما طاف
فى قَصْرِ وجدتُم مع اضطرابِ فُضُولِه أنه يسأل فى نفسه عن السبب فى
كونِ منزله الأبوئى من غير هذا الطَّرَاز ، وتُنَبِّئُكُم جميعُ أسئلته بأنه يقابل
بين نفسه وبين رَبِّ هذا المنزل ، فيكون كلُّ ما يَجِدُ من إِذْلالٍ له بهذه
القارئة مُرْهِقاً لزهوهِ يَأْثارتِه ، وإذا ما لَقِيَ فتى أحسنَ لِبَاساً منه أَبْصَرْتُهُ
يُهِيمُ سِيراً ضِدَّ بُخْلِ والديه ، وإذا كان أحسنَ مِنْ فتى آخرَ بَرَّةٍ أَلِمَ
من مشاهدته هذا الآخرَ يَحْجُبُه بِنَسَبِه أو بذهنه ورأى أن ثَوْبَه المَذْهَبُ
أُخْزِىَ بثوبٍ بسيطٍ من الجُوخ ، وإذا ما تَأَلَّقَ وحدَه فى مجلسٍ فَوَقَفَ
على طرفِ إصبعِ القدم حتى يكونَ أحسنَ ظهوراً فمن ذا الذى لا يستعدُّ
سِيراً لخفضِ ما عليه الفتى الختال من عُجْبٍ فارغٍ ؟ يَتَّحِدُ الجميعُ من قُوْرهم
كما لو كانوا على اتفاق ، ولا يَنْبَثُ ما يُبْلِغُ رجلٌ رصينٌ من نَظَرَاتِ
غَمٍّ ، وما يَنْطِقُ به رجلٌ لاذعٌ من كلماتِ هُزُوءٍ ، أن يَصِلَ إليه ، ولولم
يَزِدْهِ غيرُ رجلٍ واحدٍ لَسَمَّ هذا الازدراء هُتَافَاتِ الآخرين حالاً .
ولنُعْطِه كلَّ شيء ، ولنغمُرَه بكلِّ لَهْوٍ ، ولنُقْضِ عليه بكلِّ فَضْلٍ ،
وليكنَّ حَسَنَ التكوينِ فَيَاضَ الدهن خفيفَ الروح ، ليصيرَ ، إِذَنْ ،

موضع بحث النساء ، ولكنه إذا ما غدا محلّ طَلَبِهِنَّ قَبْلَ أَنْ يُحِبَّهِنَّ جعلته مجنوناً أكثر منه عاشقاً ، أى إنه يكون حسن الطالع من غير أن يتمتع به ، وبما أن مُنَاهُ تكون مسبوقه دائماً ولا يكون لديها من الوقت ما تولد معه فإنه لا يشعرُ في سواء المَلَاذِّ بغير غَمِّ الضيق ، أى إن الجنس الذى خُلِقَ لسعادة جنسه يُورِثُهُ سَأْماً ، حتى إنه يَرَوِي غَلِيلَهُ قبل أن يَعْرِفَهُ ، وهو إذا ما داوم على رؤيته كان هذا عن زَهْوٍ ، فإذا حان الوقت الذى يتعلّق به عن ذَوْقِ حَقِيقَتِهِ لم يَكُنْ وحده الشاب الناصر المحبوب ، ولم يَجِدْ في خليلاته عجائب الوفاء دائماً .

ولا أقول شيئاً عن المناكدات والخيانات والسُّخَّاتِ والتَّوْبَاتِ وما إلى هذه من الأمور التى يَتَعَدَّرُ فَضْلُهَا عن مثل هذه الحياة ، وأَعْرِفُ أن اختبارَ العالم يُوجِبُ نُفُوراً منه ، ولا أنكلم عن غير العموم التى تتصل بالهم الأول .

يا للتضادّ في أمرٍ من حُصَرَ حتى الآن في سَوَاءِ أُنْزَرَتْه وأصدقائه فأبْصَرَ نفسه هدفاً وحيداً لكلِّ رعايةٍ منهم ، فدَخَلَ بفتة في نظامٍ من الأمور لا يُكْتَرِثُ له فيه إلّا قليلاً ، فوجدَ نفسه غارقاً ضمنَ نطاقٍ غريب بعد أن ظلَّ مركزَ نطاقه زمناً طويلاً ! وباللهَمَّهات والمخازى التى يجب أن يقاسمها قبل أن يَخْسَرَ بين أناسٍ من الغرباء ما رَضَعَ بين أهليه من مُبْتَسِرَاتِ حَوْلِ اعتباره ! كان الجميعُ يَخْضَعُ له وليداً فيَهْزَعُ إليه ، فلما أصبح قَتَى وَجَبَ أن يَخْضَعَ لجميع الناس ، أو إنه إذا ما بَقِيَ له شيءٌ قليلٌ من سابق مظاهره فما أفسى الدروس التى يُرَدُّ بها إلى نفسه !

وما كان من عادة نَيْلِه بِسَهولَةٍ ما يَبْتَغِي جَعْلَه كَثِيرَ الرَغَبَاتِ فَادَى إِلَى شعوره بِحِرْمَانٍ دَائِمٍ ، وَيَبْغِي كُلَّ شَيْءٍ يُغْرِيه ، وَيُرِيدُ نَيْلَ كُلِّ ما يَحْوِزُهُ الآخرون ، أَيْ إِنَّه يَطْمَحُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَحْسُدُ كُلَّ وَاحِدٍ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَسِيطِرَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَقْضِمَهُ الزَّهْوُ ، وَتُلْهِبُ قَلْبَه الْفَتَى حَرَارَةُ الشَّهَوَاتِ الْجَامِحَةِ ، وَتُولِّدُ الْغَيْرَةَ وَالْحَقْدَ مَعَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ ، وَتَنْطَلِقُ جَمِيعُ الْأَهْوَاءِ الْمُتَمَهِّمَةِ مَعًا ، فَيَحْمِلُ اضْطِرَامَّهَا بَيْنَ ضَوْضَاءِ الْعَالَمِ ، وَهُوَ يَأْتِي بِهَا فِي كُلِّ مَسَاءٍ ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَنْزِلِهِ غَيْرَ رَاضٍ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْآخَرِينَ ، وَهُوَ يَنَامُ مَمْلُوءًا بِالْفِ خِطَّةٍ فَارِغَةٍ ، مُكَدِّرًا بِالْفِ هَوًى ، وَيُصَوِّرُ لَهُ زَهْوَهُ ، حَتَّى فِي رُؤَااهِ ، مِنْ التَّمَتُّعِ الْوَهْمِيَةِ مَا تُزَعِّجُهُ الرِّغْبَةُ فِيهِ ، مِنْ تِلْكَ التَّمَتُّعِ مَا لَنْ يَحْوِزَهُ مَدَى حَيَاتِهِ ، فَهَا هُوَ ذَا تَلْمِيزُكُمْ ، وَلَنَعُدُّ إِلَى تَلْمِيزِي .

إِذَا كَانَ أَوَّلُ مَنْظَرٍ يَقِفُ نَظَرَهُ أَمْرًا مُفِئًّا فَإِنْ أَوَّلَ عَوْدٍ إِلَى نَفْسِهِ يَكُونُ شَعُورَ لَذَةٍ ، وَهُوَ إِذْ يَرَى مَقْدَارَ مَا هُوَ نَائِجٌ مِنْهُ مِنْ سُوءٍ فَإِنَّهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ أَكْثَرُ سَعَادَةٍ مِمَّا كَانَ يَظُنُّ ، وَهُوَ يَقَاسِمُ أُمَثَالَهُ آلَامَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْقَاسِمَةَ اخْتِيَارِيَّةٌ مُسْتَعْذِبَةٌ ، وَهُوَ يَتَمَتَّعُ بِمَا يَسَاوِرُهُ مِنْ رَحْمَةٍ حَوْلَ وَبَيِّنَاتِهِمْ وَمِنْ السَّعَادَةِ الَّتِي تُغْفِيهِ مِنْهَا ، وَهُوَ يَشْعُرُ فِي هَذِهِ الْحَالِ بِقُوَّةٍ تُطِيلُنَا إِلَى مَا وَرَاءَ أَنْفُسِنَا وَتَجْمَعُنَا نَحْمِلُ إِلَى غَيْرِ مَكَانِنَا مَا يَفِيضُ مِنْ أَثَرٍ يُسْرِنَا ، أَجَلٌ ، لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ كَرْبِ الْآخَرِينَ حَتَّى يُتَوَجَّعَ لَهُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يُشْعَرَ بِهِ ، أَجَلٌ ، إِنَّا مَتَى تَمَّ أَلَمُنَا ، أَوْ خَشِينَا أَنْ نَأْلَمَ ، تَوَجَّعْنَا لِمَنْ يَأْلَمُونَ ، وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ عِنْدَ

أله لا يتَوَجَّعُ لغير نفسه ، والواقعُ أن الجميعَ إذا كان خاضعاً لأبْؤُسِ الحياة ، ولم يَحْبُ الآخرينَ أحدٌ بغير الحَسَّاسية التي لا حاجةَ له بها ، فإنه يَتَبَّعُ ذلك وجوبُ كَوْنِ الرحمة شعوراً كثيراً العُدُوَّة ما دامت الرحمة تُشْهَدُ لنا ، وعدُّ الإنسانِ القاسي ، على العكس ، نَعِيساً دائماً ما دامت حالُ قلبه لا تَدَعُ له أية حَسَّاسيةٍ فَيَاضَةٍ يستطيع أن يُعَيِّرَها من آلامِ الآخرين .

ونحن كثيرو الحكم في أمر السعادة وَفَقَ الظواهر ، ونحن نفترض السعادةَ حيث أقلُّ ما تكون ، ونحن نبحث عنها حيث لا تكون ، وليس السرورُ غيرَ دليلٍ عليها كثير الإيهام ، وليس الإنسانُ المَرِحُ ، في الغالب ، غيرَ مَكْرُوبٍ يحاول التمويه على الآخرين وتعليلَ نفسه ، وليس الضاحكون المتودِّدون المشرِّقون كثيراً في حَلَقَةٍ غيرَ حِرَازٍ كثيرى التأنيب في منازلهم تقريباً ، ويَحْمِلُ خَدْمَتَهُمْ مشقةَ الترويح عن مجتمعاتهم ، ولا يكون الرِّضا الحقيقيُّ سروراً ولا بطراً ، ونحن إذ نفتبط بهذا الإحساس البالغِ العُدُوَّة حين نذوقه نُفَكِّرُ فيه وَتَلَذَّذْ به ونخاف أن يَزُولَ ، والإنسانُ السعيدُ حقاً لا يتكلَّمُ أبداً ولا يضحك مطلقاً ، وإنما يَشُدُّ السعادةَ حَوْلَ فؤاده ، وَتَسْرُ الألعابُ الصَّخَّابة والبشاشةُ الطيَّاشة كلَّ سأمٍ وَنُفُورٍ ، بيدَ أن السَّوداءَ صاحبةَ الشهوة ، وترافقُ الرِّقَّةَ والدموعُ أخلَى المتع ، ويُوجِبُ الفَرَحُ البالغُ دَمْعاً أكثر مما يوجب صُراخاً .

وإذا كانت كثرةُ الألهَوَاتِ وأنواعها تساعدان على السعادة كما تبدوان في البُداءِ ، وإذا كانت نطيةُ الحياة الممهَّدة تبدُو مُمِلَّةً في البُداءِ ، فإنه

عند حُسْنِ النظر في ذلك ، يُرَى ، على العكس ، أن أحلى عاداتِ النفس
تَقُومُ على اعتدالِ النعيم الذي يَدْعُ قَلِيلَ جَبَالٍ للرغبة والنُّفُور ، ويؤدِّي
هَمُّ الرِّغَائِبِ إلى الفُضُولِ والتقلُّب ، ويؤدِّي فراغُ المَتَعِ الصَّخَّابَةِ إلى السَّأَمِ ،
ولا يَسْأَمُ الإنسانُ من حاله مطلقاً إذا لم يَعْرِفْ ما هو أَمْتَعُ منها ، وإذا
نظرتَ إلى جميعِ الناسِ وجدتَ الهَمَجَ أَقْلَهُمْ فُضُولاً وأَقْلَهُمْ سَأَمًا ، وكلُّ
شيءٍ عندهم سِوَا ، وهم لا يَتَمَتَّعونَ بالأشياء ، بل بأنفسهم ، وهم لا يَقْضُونَ
حَيَاتَهُمْ في عملِ أيِّ شيءٍ كان ، وهم لا يَسْأَمُونَ مطلقاً .

وَيَكُونُ رجلُ الدنيا ضِمْنِ قِنَاعِهِ تماماً ، وهو ، إذ لم يَكَدْ يكونَ إياه ،
يُعدُّ غريباً عن نفسه دائماً ، وهو يكونُ غيرَ مرتاحٍ إذا ما أُلْزِمَ بالعودِ إلى
حالهِ ، وما يَكُونُهُ لا يُعدُّ شيئاً ، وما يَبْدُو أَنَّهُ هو يُعدُّ كلَّ شيءٍ عنده .
ولا أَسْتَطِيعُ أن أُمْتَنِعَ عن أن أُرْسِمَ على وجهِ القَتَى الذي تَكَلَّمْتُ
عنه آنفاً ، ما أَقُولُ ، مُجَوِّناً أو دَمَانَةً أو تَكَلُّفاً يَأْتِيُ منه البسطاءُ ويستردُّونه
وعلى وجهِ فتَاى سِيا مُتَمَتَّةٍ بَسِيطَةٍ دَالَّةٍ على الرِّضَا وعلى صفاءِ النفسِ
الحَقِيقِِّ مُوَحِّيةً بالتقديرِ والاطمئنانِ غيرِ مُرْتَقِبَةٍ ، كما يَلُوح ، سوى
تَدَفُّقِ الصداقةِ لِمَنحِها من يَدُونِ منه ، وما يُعْتَقَدُ كَوْنُ السِّيا لِيستَ غيرَ
مُتَوَّجٍ بِسِيطِ الملامحِ رَسْمِهَا الطَّيِّبَةِ ، وأما أنا فأرى أَنَّكَ إذا عَدَوْتَ
هذا النَمُوَّ وَجَدْتَ ملامحَ الوجهِ تَتَكُونُ تَكُونًا غَيْرَ مُحْسوسٍ وَتَتَخِذُ سِياها
بِمُؤَثِّرِ اعتياديٍّ مُسْتَمِرٍّ صادِرٍ عن بعضِ عواطفِ النفسِ ، وَتَنْطَبِيعُ هذه
العواطفِ على الوجهِ ، ولا شيءَ أَصَحُّ من هذا ، وهى إذا ما تَحَوَّلَتْ إلى
عَادَةٍ وَجَبَ أن تتركِ انطباعاتٍ دائِمَةً ، ومن ثَمَّ تَرَى كيفَ أَتَصَوَّرُ أن

السَّيِّئَاتِ عَلَى السَّجِيَّةِ وَأَنَّهُ مُمَكِّنٌ ، أحياناً ، أَن يُخَكِّمَ بِإِحْدَاهَا فِي الأُخْرَى ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ عَنْ تَفْسِيرَاتٍ حَافِلَةٍ بِالْأَسْرَارِ تَقْتَرِضُ مَعَارِفَ لِسَانِ حَازِنِينَ لَهَا .

وَلَيْسَ لَدَى الْوَلَدِ سِوَى عَاطِفَتَيْنِ بَارِزَتَيْنِ ، وَهِيَ الْفَرَحُ وَالْأَلَمُ ، فَهُوَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَبْكِي ، وَلَيْسَتْ الْمَرَاكِلُ الْمُتَوَسِّطَةُ شَيْئاً يَذْكُرُ لَدَيْهِ ، وَهُوَ لَا يَنْفَكُ يَنْتَقِلُ مِنْ إِحْدَى هَاتَيْنِ الْحَرَكَتَيْنِ إِلَى الأُخْرَى ، وَيَحُولُ تَنَاقُصُ هَاتَيْنِ الْحَرَكَتَيْنِ الدَّائِمُ دُونَ وَجُودِ أَى انْطِبَاعٍ ثَابِتٍ عَلَى وَجْهِهِ وَدُونَ اكْتِسَابِهِ سِيَّيَا ، بَيِّنٌ أَنَّهُ فِي السَّنِّ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَكْثَرُ إِحْسَاساً ، فَيَظْهَرُ أَشَدَّ عَطْفًا وَأَدْوَمَ شَعُورًا ، تَبَرُّكُ الانْطِبَاعَاتِ الأعْظَمُ مُخَفِّئًا آثَارًا يَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ الْبَالِغِ مَحْوُهَا ، وَيَنْشَأُ عَنْ حَالِ النَّفْسِ الْمُفْتَادَةِ نِظَامٌ مِنَ الْمَلَامِحِ يَمْتَنِعُ زَوَالُهُ مَعَ الزَّمَنِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ النَّادِرِ أَنْ يُرَى أَنَسٌ يُغَيِّرُونَ سِيَّاهُمْ فِي مُخْتَلَفِ أَدْوَارِ الْعَمْرِ ، فَقَدْ شَاهَدْتُ أَنَسًا كَثِيرِينَ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ فِي كُلِّ حِينٍ أَنَّ مَنْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرْقُبَهُمْ وَأَتَتَّبِعَهُمْ جَيِّدًا كَانُوا يُغَيِّرُونَ أَهْوَاءَهُمُ الْمُعْتَادَةَ أَيْضًا ، وَيَلُوحُ لِي أَنَّ هَذَا الرَّصْدَ الْوَحِيدَ الْمُؤَيَّدَ تَأْيِيدًا تَامًّا قَاطِعٌ ، وَأَنَّ لَهُ مَكَانًا فِي رِسَالَةٍ عَنِ التَّرْبِيَةِ حَيْثُ يَحْسُنُ أَنْ يُتَعَلَّمُ الْحُكْمُ فِي حَرَكَاتِ النَّفْسِ بِالْعَلَامَاتِ الْخَارِجِيَةِ .

وَلَا أَذْهَبُ هَلْ يَكُونُ فَتَاىَ أَقَلِّ جِدَارَةٍ بِالْحُبِّ لَعْدَمِ تَعَلُّمِهِ تَقْلِيدَ الْأَوْضَاعِ الْإِصْطِلَاحِيَةِ وَإِظْهَارِهِ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَا لَيْسَ لَدَيْهِ ، فَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَحْثٍ هُنَا ، وَإِنَّمَا أَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَكُونُ أَكْثَرُ وَدًّا ، وَيَضَعُوبٌ عَلَى أَنِ أَعْتَقِدَ أَنَّ الَّذِي لَا يُحِبُّ سِوَى نَفْسِهِ يَكُونُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّنَكُّرِ مَا يَرُوقُ مَعَهُ

غيره بمقدار ما يَرُوقُ الإنسانُ الذي يَسْتَخْلَصُ من تَعَلُّقه بالآخرين شعوراً بالسعادة جديداً ، ولكنني أعتقد ، من حيث هذا الشعور نفسه ، أنني قلت بما فيه الكفاية ما أُرشدُ معه القارئ الرشيدَ حَوْلَ هذه النقطة دالاً على أنني لم أناقض نفسي .

وأعود إلى منهاجى وأقولُ إِذَنْ : إذا ما اقترب دَوْرُ الخَطَرِ قَدَّمُوا إلى الفتيانِ مناظرَ تُمَسِّكُهُمْ ، لا مناظرَ تُحَرِّكُهُمْ ، وغالطوا خيالَهُم الناشئُ بأمرٍ بعيدٍ من إلهابِ حواسِّهم زاجرةً لنشاطها ، وأبعدوهم من المدنِ العظيمةِ حيثُ يُعَجِّلُ تَبَرُّجُ النساءِ وعدمُ احتشامِهنَّ دروسَ الطبيعةِ وَيَسْبِقَانِها ، وحيثُ يَفْرِضُ كُلُّ شَيْءٍ على عيونِهِم ما لا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفُوهُ مِنَ التَّلَافُظِ إلا حينَ يَقْدِرُونَ على اختيارِها ، وأتوا بِهِم إلى مساكنِهِم الأولى حيثُ تَدَعُ بِسَاطَةِ الأريافِ أهواءَ سِنِّهِمْ تَنُمُو نُموّاً أَقْلَ سرعةً ، أو إذا كانَ مِثْلُهُم إلى الصنائعِ لا يزالُ يَرِيطُهُم بِالْمِضَرِّ فحَوَّلُوا بهذا التَّيْلَ فِيهِمْ دُونَ بِطَالَةِ خَطَرَةٍ ، وَاغْنَوْا باختيارِ مجتمعاتِهِم وأشاعِلِهِم وَمَلَاذِّهِمْ ، ولا تُطْلِعُوهُمْ على غيرِ التِّصَاوِيرِ المؤثِّرةِ مع الاعتدالِ فَتَحَرَّكَهُمْ من غيرِ إغواءٍ وَتَغَدَّى حَاسِيَتِهِمْ من غيرِ إثارةٍ لِحَوَاسِّهِمْ ، وكذلك اَعْلَمُوا أَنَّهُ يُوْجَدُ في كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْفِسْقِ مَا يُحْتَشَى ، وَأَنَّهُ يُوْجَدُ مِنَ الْأَهْوَاءِ الْمُتَطَرِّفَةِ مَا يُوْجِبُ في كُلِّ وَقْتٍ مِنَ السَّوَاءِ مَا لَا يُجْتَنَّبُ ، ولا يُرَادُ أَنْ يُجْعَلَ من تَلْمِذِكُمْ مُمَرِّضٌ أو رَاهِبٌ مُحِبٌّ ، ولا أَنْ تُفَمَّ عَيْنَاهُ بِمَنَاظِرَ مَوْجِبَةٍ لِلآلَامِ وَالْأَوْجَاعِ ، ولا أَنْ يُطَافَ بِهِ بَيْنَ عِلِيلٍ وَعِلِيلٍ وَبَيْنَ مَشَقٍّ وَمَشَقٍّ ، وَبَيْنَ مُحَالٍّ الْإِعْدَامِ وَالسَّجُونِ ، وَإِنَّمَا يُرَادُ إِثَارَةُ حَتَانِهِ ، لا إِقْسَاؤُهُ بِمَنْظَرِ الْآبُوسِ الْبَشْرِيَّةِ ،

فالإِنْسَانُ إِذَا مَا وَاجَهَ عَيْنَ الْمُنَظَرِ زَمَنًا طَوِيلًا عَادَ لَا يَشْعُرُ بِانْطِبَاعَاتِهَا ،
فَالْعَادَةُ تُعَوِّدُ الْإِنْسَانَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَا يُرَى كَثِيرًا يُعَوِّدُ بَعِيدًا مِنْ
الْخَيَالِ ، وَالْخَيَالُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَشْعُرُ بِمَصَائِبِ الْآخِرِينَ ، وَهَكَذَا
فَإِنَّ الْقِسَاوَسَةَ وَالْأَطْبَاءَ يَصِيرُونَ فَاقِدِي الرَّحْمَةِ بِمَا يَتَّفِقُ لَهُمْ مِنْ مَشَاهِدَةِ
الْمَوْتِ وَالْأَلَمِ ، وَلَيَعْرِفَنَّ تَلْمِيزُكُمْ ، إِذَنْ ، مُصِيرَ الْإِنْسَانِ وَأَبْوَسَ أَمَثَالِهِ ،
وَلَكِنْ دَعُوهُ لَا يَشَاهِدُ ذَلِكَ غَالِبًا ، وَمَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ يُحَسِّنُ اخْتِيَارَهُ ،
وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ مَلَأْتُمْ ، يُورِثُهُ رَقَةً وَتَأْمَلًا لِشَهْرِ وَاحِدٍ ، وَلَا يَتَوَقَّفُ رَأْيُهُ
حَوْلَ أَمْرٍ مَا عَلَى مَا يَرَى ، بَلْ عَلَى مَا يَكُونُ لَهُ مِنْ رَدٍّ فِعْلٍ فِيهِ ،
وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ انْطِبَاعٍ مُسْتَمَرٍّ عَنْ شَيْءٍ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذَاتِ الشَّيْءِ أَقْلًا
مِمَّا يَأْتِيهِ مِنْ وَجْهَةِ النِّظَرِ الَّتِي تَحْمِلُهُ عَلَى تَذَكُّرِهِ ، وَهَكَذَا فَإِنَّكُمْ ، إِذْ تُرْتَبِّوْنَ
الْأُمَثَلَ وَالِدُرُوسَ وَالصُّوَرَ ، تُكْمِلُون مِهْمَارَ الْحَوَاسِّ وَتَتَخَادَعُونَ الطَّبِيعَةَ بِاتِّبَاعِ
تَوْجِيهَاتِهَا الْخَاصَّةِ .

وَكُلَّمَا نَالَ مَعَارِفَ اخْتَارُوا مِنَ الْأَفْكَارِ مَا يَلَامُهَا ، وَكَلَّمَا اشْتَغَلَتْ شَهْوَانُنَا
اخْتَارُوا مِنَ التَّصَاوِيرِ مَا هُوَ صَالِحٌ لِرَدِّعِهَا ، وَقَدْ قَصَّ عَلَى مُحَارِبٍ قَدِيمٍ
امْتَارَ بِأَخْلَاقِهِ وَشَجَاعَتِهِ أَنَّ أَبَاهُ ، وَكَانَ رَجُلًا حَصِيْفًا مَعَ الْوَرَعِ الْبَالِغِ ،
أَبْصَرَ مَزَاجَهُ النَّاشِئُ يُسَلِّمُهُ إِلَى النِّسَاءِ فَلَمْ يَدَّخِرْ وَسْعًا فِي زَجْرِهِ ، وَلَكِنَّهُ
عَلَى مَا أَبْدَى مِنْ ضُرُوبِ الْعَنَاءِ شَمَرَ أَخِيرًا بِأَنَّهُ كَادَ يُفْلِتُ مِنْهُ فَقَنَّ لَهُ
أَنْ يَأْتِيَ بِهِ إِلَى مَشَقِّ الْإِفْرَنْجِيِّ ، وَيُدْخِلُهُ مِنْ غَيْرِ سَابِقٍ إِنْذَارٍ قَاعَةً
مَشْتَمَلَةً عَلَى جَمْعٍ مِنْ أَوْلَئِكَ التَّعَسُّاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُكْفَرُونَ ، بِمَدَاوِقِ هَائِلَةٍ ،
عَنِ الْفِسْقِ الَّذِي عَرَّضَهُمْ لَذَلِكَ ، وَيَمْرَضُ الشَّابُّ عِنْدَ هَذَا الْمُنْظَرِ الْفُظَّيْعِ

الذى يُنْعَصُ جميعَ الحواسِّ ، وهناك يقول له أبوه صائلاً : « اذهبْ
أيها الدَّاعِرُ واتَّبِعْ مَيْلَكَ السَّاقِطَ الذى يَسُوقُكَ ، وستكون ، عما قليل ،
سعيداً جداً إذا ما قُبِلَتْ فى هذه القاعة حيث تكون ضحية أشدِّ الآلام فَضْحاً ،
فَتَحْمِلُ أباك على الشُّكْرِ لله عند موتك » .

وكان لهذه الكلماتِ القليلة ، مع النظر الفعَّال الذى وَقَفَ نَظَرُ الشابِّ ،
أثرٌ لم يَزُلْ قَطُّ ، وبما أن مِهْنَتَهُ كانت تُلْزِمُهُ بأن يَقْضِيَ شبابه فى
الحامِيَّاتِ فقد فَضَّلَ أن يَقَاسِيَ جميعَ سُخْرِيَّاتِ رفقائه على تقليدِ فُجُورِهِمْ ،
وقد قال لى : « كنتُ رجلاً ، وكان لى ضَعْفِي ، ولكنى ، وقد بلغتُ
سِنِّي الحاضرة ، لم أَقْدِرْ على رؤيةِ بَنِي قَطُّ من غيرِ نُفُورٍ » ، فيا أيها
المعلم ، كُنْ قليلَ الكلام ، ولكن اخترِ الأمكنة والأزمنة والأشخاص ، ثم
ألقِ دروسك بالأمثلة ، واطمئنْ إلى أثرها .

وليس الوجه الذى يُقْضَى به دَوْرُ الصِّبَا أمراً كبيراً ، وليس السوء الذى
يُنْسَابُ فيه بلا دواء مطلقاً ، وقد يأتى الخيرُ الذى يُصْنَعُ فيه متأخراً ،
وليس الأمرُ هكذا فى الدور الأول من العمر حيث تبدأ حياةُ الإنسان حَقّاً ،
ولا يدوم هذا الدور بما يَكْفِي للقيام بما يجب أن يُصْنَعُ فيه ، ويستلزم
خَطَرُهُ انقباهاً مستمراً ، ولذا فإننى أَصِرُّ على قَنِّ إطالته ، ومن أَرْوَعَ مبادئِ
الثَّقَافَةِ الصالحة أن يُؤَجَّلَ كُلُّ شَيْءٍ ما أمكن ، ودَعُوا التَّقدمَ بِسِرٍّ وثيداً
وطيئاً ، وحولوا دون غُدُوِّ المراهق رجلاً حين لا يَبْقَى له شَيْءٌ يَفْعَلُ لِيَكُونَهُ ،
وبَيْنَمَا يَدَبُّو البدنُ تَنْشَأُ الأرواحُ المُعَدَّةُ لَمَنَحِ الدمِ نشاطاً والأليافُ قوَّةً
وتَنْضَجُ ، وإذا ما حَوَّلْتُمُوهَا إلى مجرِّى آخر ، وسمَّحتم للقوة المُعَدَّةُ لِكَمالِ

شخص بأن تنفع في صنع شخص آخر ، بقي كلاهما في حال ضعف وظلَّ عمل الطبيعة ناقصاً ، وتأثّر أعمالُ الذهن بدورها من هذا التغير ، ولا يكون للذهن الواهن وهنَ البدن غيرُ وظائفٍ ضعيفةٍ واهية ، ولا تصنعُ الأعضاء الغليظة العضليّة شجاعةً ولا نبوغاً ، وأدركُ أن قوةَ الروح لا تلازمُ قوةَ البدن عند ما تكون أعضاء الاتصال بين العنصرين سيئةَ النظام ، ولكنَّهما تستطعن أن تكون حسنةَ النظام فإنها تكون ضعيفةَ التأثير دائماً إذا لم يكن لها من الأصل سوى دمٍ مُستنزفٍ فقيرٍ خالٍ من ذلك الجوهر الذي يُنعم بالقوة والحركة على جميع نوابض الآلة ، ومما يشاهدُ على العموم وجودُ قوة ذهنٍ في الرجال الذين صانوا سنواتهم الأولى من فجورٍ باكرٍ أكثر مما في الرجال الذين بدأ فجورهم حين قدرتهم على تعاطيه ، ولا جرم أن هذا من الأسباب في كون الشعوب ذات الأخلاق تفوقُ الشعوب الخالية من الأخلاق عادةً ، وذلك من حيث سلامةُ الذوق والبسالة ، وتلعمُ هذه الشعوب الأخيرة ، فقط ، ببعض الصفات الرقيقة التي تُسميها حَصافةً ولقانةً وكياسةً ، بيدَ أن وظائفَ العقل والحكمة الكبيرة الكريمة التي تميزُ الإنسان وتمجّدهُ بصالح الأعمال وبالفضائل وبالجهود النافعة حقاً لا تُوجدُ في غير الشعوب الأولى مطلقاً .

ويألمُ المعلمون من كون حرارة ذلك الدور من العمر تجعلُ الشبابَ غيرَ قابلٍ الانقياد ، وهذا ما أراه ، ولكن أليس هذا ذنبهم ؟ أويجهلون أنهم إذا ما تركوا هذه الحرارة تأخذ مجراها بالحواس عاد من المتعذر تحويلها إلى مجرّى آخر ؟ أو تُزيل مواعظُ المتحدلق الطويلة الباردة من ذهن

تلميذه صورةً للملأذ التي تَمَنَّلَهَا ؟ أَوْ تَبْعِدُ من فؤاده الأهواء التي تُعَذِّبُهُ ؟
أَوْ تُطْفِئُ نارَ مزاجِهِ يَعْرِفُ التلميذُ عادته ؟ أَوْ لَا يَثُورُ على الموانع التي
تَعْتَرِضُ في سبيل ما يتصوره من سعادةٍ وحيدة ؟ وما يَرَى في القانون الشديد
الذي يُؤَمِّرُ به من غير أن يُسْتَطَاعَ حَمْلُهُ على سماعه سوى هَوَى رجلٍ
يحاول تعذيبه وحقدٍ هذا الرجل ؟ وهل من الغريب أن يتمرد عليه وأن
يَمُقَّتَهُ بدَوْرِهِ ؟

وَأَتَصَوَّرُ جيداً أن الإنسان إذا كان سهلاً أُمَكَّنَ أن يكون أكثرَ
احتمالاً ، وأن يحافظ على نفوذٍ ظاهر ، ولكنني لا أرى فائدة نفوذٍ لا يحافظُ
عليه معلِّمٌ نحو تلميذه إلا بالهاب الماعيب التي كان عليه أن يزجرها ، شأنُ
السائس الذي يُريدُ تَهْدِئَةَ حصانٍ جامحٍ فيؤثِّبُهُ في هَوَّةٍ .

ومن البعيد أن تكون حرارةُ المراهقِ عائقَ تربيةٍ ، وبهذه الحرارة
تَحْمُ وتَكْمُلُ ، وهي تُمَكِّنُكم من قلب الفتى عند ما يعود لا يكون دونكم
قوةً ، وتُعَدُّ عواطفه الأولى أَعِنَّةً تُوجِّهُون بها جميعَ حركاته ، أى إنه كان
طليقاً فأراه قد اسْتَرْقَّ ، ولم يكن تابعاً لغير نفسه واحتياجاته ما بَقِيَ غيرَ
مُحِبِّ لأحد ، وهو يَنْتَبِعُ عواطفه عند ما يُحِبُّ ، وهكذا تتكوَّن الصَّلَاتُ
الأولى التي تَرْبِطُهُ بنوعه ، وهو إذا ما وَجَّهَتْ حَسَاسِيَّتَهُ الناشئة نحو هذا
الصَّوْبِ فلا تَطْنُوها أنها سَتَسَعُ جميعَ الناس في البُداء وأن كلمة الجنس
البشرى تَنْطَوِي على مَعْنَى لديه ، كلاً ، وإنما أمثاله هم أولُ من تَقْتَصِرُ
عليهم هذه الحَسَاسِيَّةُ ، ولن يكون أمثاله مجهولين ، فهم الذين له معهم
اتصالاتٌ والذين جعلتهم العادةُ عزيزين لديه ، أو لا غُنْيَةَ له عنهم ، والذين

يرى من الواضح أن لهم معه وجوه تفكير وشعور مشتركة ، والذين يراهم
مُعَرَّضِينَ لِمِثْلِ آلامِهِ وَيَشْعُرُونَ بِمِثْلِ الْمَلَأَةِ الَّتِي يَذُوقُ ، وَالَّذِينَ يَمْنَحُهُ مَا بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُمْ مِنْ تَمَثُّلٍ فِي الطَّبِيعَةِ بِالْغَرِ الْجَلَاءِ أَعْظَمَ اسْتِعْدَادٍ لِحُبِّ نَفْسِهِ كَمَا هِيَ
غَايَةُ الْقَوْلِ ، وَلَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى تَعْمِيمِ مَبَادِئِهِ الْفَرْدِيَّةِ فِي قَالِبِ مَبْدَأِ الْإِنْسَانِيَّةِ
الْمَجْرَّدِ وَإِلَى وَصْلِ عَوَاطِفِهِ الْخَاصَّةِ بِالْعَوَاطِفِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَوْحَّدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
نَوْعِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَتَعَهَّدَ مِثْلَهُ بِالرَّعَايَةِ عَلَى أَلْفِ وَجْهِ ، وَبَعْدَ أَنْ يَقُومَ بِكَثِيرٍ
مِنَ التَّأَمُّلَاتِ حَوْلَ مَشَاعِرِهِ الْخَاصَّةِ وَحَوْلَ الْمَشَاعِرِ الَّتِي يُبْصِرُهَا فِي الْآخَرِينَ .
وَمَتَى أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى الْعُطْفِ صَارَ عَارِفًا بِعُطْفِ الْآخَرِينَ ^(١) ، مُنْذَرًا
بِهَذَا إِلَى عِلَامَاتِ هَذَا الْعُطْفِ ، وَهَلْ تَرَوْنَ أَيْ سُلْطَانٍ جَدِيدٍ يَكُونُ لَكُمْ
عَلَيْهِ ؟ مَا أَكْثَرَ الْقِيُودَ الَّتِي وَضَعْتُمُوهَا حَوْلَ قُوَادِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ بِهَذَا !
وَمَا أَكْثَرَ مَا يُحْسِئُ عِنْدَ مَا يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ فَيُبْصِرُ مَا صَنَعْتُمُوهَ لَهُ وَيَقَابِلُ
بَيْنَ نَفْسِهِ وَالْفَتَيَانِ الْآخَرِينَ الْبَالِقِينَ مِثْلَ عُمرِهِ وَيَقَابِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ غَيْرِكُمْ
مِنَ الْعُلَمَاءِ ! وَأَقُولُ « عِنْدَ مَا يَنْظُرُ » ، وَلَكِنْ احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَقُولُوا لَهُ
ذَلِكَ ، فَإِذَا مَا قَلَعْتُمُوهَ لَهُ عَادَ لَا يَرَاهُ ، وَإِذَا مَا طَالَبْتُمُوهَ بِالطَّاعَةِ فِي مُقَابِلِ
مَا حَبَّوْهُمُوهُ بِهِ مِنْ رِعَايَةٍ اعْتَقَدَ مُحَادَعَتَكُمْ لَهُ ، أَيْ إِنَّهُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
بِمَا أَنْكُمْ أَظْهَرْتُمْ رِعَايَتَهُ بَلَا مُقَابِلِ قَصْدْتُمْ تَحْمِيلَهُ دَيْنًا وَرَبَطْتُمْ بِعَقْدِهِ لَمْ
يُزَافِقْ عَلَيْهِ قَطُّ ، وَمِنْ أَلْبَثَ أَنْ تَضِيفُوا إِلَى ذَلِكَ قَوْلَكُمْ إِنْ مَا تَطَالَبُونَهُ

(١) قَدْ يَكُونُ الْعُطْفُ بَلَا عَوَاضٍ ، وَلَيْسَتْ الصَّدَاقَةُ هَكَذَا ، وَذَلِكَ أَنَّ الصَّدَاقَةَ مِبَادِلَةٌ ، عَقْدٌ
كَالْعَقُودِ الْآخَرَى ، وَإِنْ كَانَتْ أَقْدَسُ الْعَقُودِ ، وَلَيْسَ لِكَلِمَةِ الصَّدَاقَةِ غَيْرُ رَابِطَةٍ نَفْسِهَا ، وَيَكُونُ
كُلُّ إِنْسَانٍ غَيْرِ صَدِيقٍ لِمُصَدِّقِهِ مَدَاجِيًا لَا رَيْبَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنَالُ الصَّدَاقَةَ بِإِعْطَائِهَا أَوْ بِإِظْهَارِ
إِعْطَائِهَا .

به هو من أجله ، وأخيراً تطلبون ، تطلبون وفق ما صنعتم بلا اعترافٍ منه ،
وإذا ما أخذ تَعِسُ دِرْهَمًا مع تظاهُرٍ بإعطائه إياه ثم وَجَدَ نفسه مُقَيَّدًا في
سجل الجندية على الرغم منه صَرَخْتُمْ قائلين بِجَوْر هذا ، أَوَلَسْتُمْ أَكْثَرَ جَوْرًا
في مطالبة تلميذكم بمقابلِ رعايةٍ لم يَرْضَ بها قط ؟

ويكون الكُنُودُ أَكْثَرَ نُدُورًا إذا كانت محاسن الربا أَقْلَ ظهوراً ،
وَنُحِبُّ من يَصْنَعُ لنا معروفًا ، وياله من شعورٍ طبيعيٍّ ! وليس الكُنُودُ
موجوداً في قلب الإنسان ، بل المصلحةُ الشخصية ، ويوجد من ناكري
الجميل المدِينين مَنْ هم أَقْلُ من فاعلي الخير النَّفَّيين ، وإذا ما بَعَثُ
هَبَاتِكُمْ منى ساومتُ حَوْلَ الثمن ، ولكنكم إذا ما تظاهرتُم بالإعطاء حتى
تَبَيَّعُوا منى بالثمن الذي تَضَعُونَ فيما بَعْدُ كتم مخادعين ، فالعطاء بلا عِوَضٍ
هو الذي يَجْعَلُهَا غيرَ قَابِلَةٍ للثمن ، ولا يَتَلَقَّى القلبُ قوانينَ من غير نفسه ،
وهو يُطْلَقُ من حيث يُراد تقييده ، وهو يُقَيَّدُ من حيث يُتْرَكُ طليقاً .

وإذا ما أَلْقَى الصَّيَّادُ طُفْعًا في الماء جاء السمكُ وَبَقِيَ حَوْلَهُ بلا حَذَرٍ ،
ولكنه إذا ما تناول الصَّنَّارَةَ المِستَرَّةَ تحت الطَّعْمِ شَعَرَ بِسحب القِصْبَةِ وحاولَ
الفرار ، فهل الصيَّادُ مُحْسِنٌ ؟ وهل السمكُ كَنُودٌ ؟ وهل يَرَى إنسانٌ
نَسِيَّ من قَبْلِ المحسن إليه يَنْتَسِي هذا الحسن ؟ هو ، على العكس ،
يتكلم عنه طَيِّبَ الخاطر دائماً ، وهو لا يُفَكِّرُ فِيهِ من غير تَحَنُّنٍ ، وهو
إذا ما وَجَدَ فرصةً يُطْلِمُهُ فيها ، بخدمةٍ غيرِ منتظرةٍ ، على أنه ذاكرٌ
ما صَنَعَ لَهُ فما أَشدَّ ما يُرْضَى به شُكْرَانَهُ من ارتياحٍ باطنِيٍّ ! وما أعظمَ
ما يُبْلَغُ من فرحٍ عَذْبٍ بما يُوجِبُ لنفسه من ثناء ! ويا للسُّرور الذي

يساوره إذ يقول له : « الآن جاء دَوْرِي ! » ، فهذا هو صوت الطبيعة حقاً ، وما كان الإحسانُ الحقيقيُّ ليَصْنَعَ كَنُوداً مطلقاً .

وإذا كان الشُّكرانُ شعوراً طبيعياً وكنتم لا تَقْضُونَ على فِقله بخطأٍ منكم فثَبِّتُوا بأن تلميذَكم ، إذ يأخُذُ في إدراكِ قيمة ما بذلتم من جهودٍ في سبيله ، يكون متأثراً بها ، وذلك بشرط ألا تكونوا قد وضعتُم ثمنًا لجهودكم بأنفسكم ، وأن يكون لهذه الجهود في فؤاده من النفوذ ما لا يستطيع أحدٌ أن يَقْضِيَ عليه ، ولكن احترزوا ، قبل الاطمئنان جيداً إلى هذا الخير ، أن تَنزِعوه من حسابكم بإبداء شأنكم لديه ، وَيَنْطَوِي افتخارُكم بِخِدْمَتِكُمْ على جعلها أمراً لا يُطِيقُه ، وَيَنْطَوِي نسيانُها على تذكيره بها ، ولا يَدُرُ بحثُ حَوْلَ ما هو مَدِينٌ لكم به ، بل حَوْلَ ما هو مَدِينٌ به نحو نفسه ، وذلك حتى يَحِلَّ وقتُ معاملته مِثْلَ رجلٍ ، ولكن اتزكوا له جميعَ حريته جَمَلاً له طامعاً ، واختفوا حِلاً له على البحث عنكم ، ونشئوا رُوحَه على الشعور النبيل القائل بِعِرْفانِ الجليل مُحَدِّثين إياه عن مصلحته فقط ، ولم أَرِدْ قَطُّ أن يَحْدِثَ عن كَوْنِ الذي يُصْنَعُ هو لمصلحته قَبْلَ أن يكون في وَضْعٍ يُذَرِّكُ ذلك معه ، وما كان ليرى في هذا الكلام غيرَ خضوعكم ، وما كان ليعُدَّكم فيه غيرَ خادمٍ له ، ولكن بما أنه أخذ الآن يَشْعُرُ بِحَقِيقَةِ الحبِّ فإنه يَشْعُرُ أيضاً بِالرَابِطَةِ الحَاوِةِ التي يُمكنُ أن تَصِلَ الإنسانَ بَمَنْ يُحِبُّ ، وعاد لا يَرى في الغيرة التي تَشغُلُكم به بلا انقطاع تَعَلَّقَ عبدٌ ، بل عاطفةَ صديقٍ ، والواقعُ أنه لا يوجد ما هو أكثرُ وَزْناً على القلبِ البشريِّ من صَوْتِ الصداقةِ المعترف بها جيداً ، وذلك

لأنه يُعَرَف أنها لا تكلمنا إلا في سبيل مصلحتنا ، وقد يُمتَقَدُّ أن الصديقَ
مُخْطِئٌ ، ولكننا لا نَذْهَبُ إلى أنه يُخَادِعُنَا ، وقد تقاوم نصائحُه أحيانا ،
ولكن من غير أن تَزْدَرَى مطلقاً .

وأخيراً نَلِجُ داخلَ النظامِ الخُلُقِيِّ ؟ وقد سَبَقَ أن اتَّخَذْنَا خُطْوَةَ
الإنسانِ الثانيةَ ، وإذا لم يَكُنْ مكانَ ذلك هنا فإنتى أحاول أن أُبَيِّنَ
كيف أن حركاتِ القلبِ الأولى تثيرُ أصواتَ الشعورِ الأولى وكيف أنه ينشأ
عن مشاعرِ الحبِّ والحقدِ مبادئُ الخيرِ والشرِّ الأولى ، وسأُبيِّنُ أن العدلَ
والصلاحَ ليسا لفظين مجردين وموجودين خُلُقيين صِرْفَيْن ناشئين عن الإدراكِ
فقط ، بل هما عاطفتان حقيقتان للنفسِ المُتَكَرِّةِ بالعقلِ فليسا سوى تَقَدُّمٍ
مُنَظَّمٍ لعواطفنا الابتدائية ، كما أُثَبِّتُ أنه لا يُمكنُ بالعقلِ المستقلِّ عن الشعورِ
وَضْعُ أَيِّ قانونٍ طبيعيٍّ كان ، وأن كلَّ حَقِّ طبيعيٍّ ليس سوى وهمٍ إذا
لم يَقُمْ على احتياجٍ طبيعيٍّ للقلبِ البشريِّ^(١) ، ولكنني لا أرى أن أَضَعَّ
هنا رسالةً في ما بعد الطبيعة . وفي الأخلاقِ ، ولا مباحثَ من أيِّ نوعٍ

(١) لا تجد للمبدأ القائل بأن تعامل الناس كما تريد أن يعاملوك به أساساً حقيقياً غير
الإحساس والشعور ، وإلا فأين السبب الصريح في المعاملة من حيث أنا كما لو كنت غيري ،
ولا سيما حينما أطمئن خلقياً إلى عدم وجودي في عين الحال ؟ ومن ذا الذي يجيبني عن سؤال القائل إنني
إذا ما اتبعت هذا المبدأ بإخلاص فن يضمن اتباع الآخرين له نحوي بين الإخلاص ؟ إن الخبيث
يستفيد من صلاح المنصف وعدم إنصاف نفسه ، وما يسهل أن يكون جميع الناس صالحين خلا نفسه ،
وليست هذه الصفة رابحة للصالحين مهما قيل عنها ، ولكن إذا ما وجدت نفس توسعية بيني وبين نظيري
فشمرت بأنني فيه كان هذا لكيلا يألم حتى لا أتألم ، وأكثرث له حباً بنفسى ، وترى سبب المبدأ في
ذات الطبيعة التي توحى إلى برغبة في هنامي حيث أشعر بوجودي ، ومن ثم تعلم أنه ليس من الصحيح
كون مبادئ القانون الطبيعي قائمة على العقل وحده ، فلهذه المبادئ أساس أكثر متانة وأعظم ثباتاً ،
ويعمد حب الناس المشتق من حب النفس مبدأ العدل الإنساني ، وتجد خلاصة كل أخلاق في الإنجيل
نتيجة هذا القانون .

كان ، فيكفيني أن أدلّ على نظام مشاعرنا ومعارفنا وتقدمها نظراً إلى نشوئنا ، ومن المُحتمَل أن يُفصّل آخرون ما لم أفعل غير الدلالة عليه هنا .

وبما أن إميل لم ينظر غير نفسه حتى الآن فإن أول نظرة يُلقِيها على أمثاله تَحْمِلُهُ على مقابلة نفسه بهم ، ويقوم أولُ شعورٍ تُثيرُهُ فيه هذه المقابلة على الرغبة في المكان الأول ، وهذه هي النقطة التي يتحول فيها حُبُّ النفس إلى أنانيّة ، وهذه هي النقطة التي تَبْدَأُ منها جميعُ الأهواء بالصدور عن الأنانيّة ، ولكنَّ الحُكْمَ في هل الأهواء التي ستسيطر على طَبْعِهِ تَكُونُ إنسانيةً لَيِّنَةً أو قاسيةً مؤذيةً ، وهل تكون أهواء رَافِقَةٍ ورحمةٍ أو أهواء حَسَدٍ وطمعٍ ، يستلزم معرفة المكان الذي يُحسُّ نفسه فيه بين الناس ، ومعرفة أنواع الموانع التي يعتقد إمكانَ تغلبه عليها ، بلوغاً للمكان الذي يُريد أن يَشْغَلَهُ .

والآن يجب إطلاعه على ما بين الناس من فروقٍ توجيهاً له في هذا البحث بعد أن أُطْلِعَ على الناس من حيث العوارضُ المشتركة بين النوع ، وهنا يأتي قياسُ التفاوت الطبيعيِّ والمدنيِّ وصورةُ النظام الاجتماعيِّ .

ويجبُ أن يُدرَسَ المجتمعُ في الناس ، وأن يُدرَسَ الناسُ في المجتمع ، ومن يَوَدَّ معالجة كلِّ من السياسة والأخلاق على حِدَةٍ لا يَفْقَهُ شيئاً من كلِّ منهما ، والإنسانُ إذا ما اقتصر في البُداء على الصلات الابتدائية أبصر كيف يجب أن يتأثر الناس بها وأى الأهواء يجب أن ينشأ عنها ، أى يرى أن هذه الصلات تَتَّسِعُ وتضيق مقابلةً ووفقاً تقدّم الأهواء ، وتكون قوةُ الدُّرْعَانِ أَقْلٌ من اعتدال القلوب جعلاً للناس مستقلين أحراراً ،

ومن يَرْغَبُ في أشياء قليلة يَكُنْ تابِعاً لأناس قليلين ، ولكن بما أننا نَخْلِطُ دائماً بين ميولنا الفارغة واحتياجاتنا البدنية فإن الذين صَنَعُوا من هذه الأخيرة أُسَسَ المجتمع البشريَّ عَدُّوا المملولاتِ عِلَلاً دائماً ، وحاكُوا في جميع براهينهم ضلالاً حَصِراً .

وتُوجَدُ في حال الطبيعة مساواةٌ فعلية حقيقية لا تَفْتَنُ ، وذلك لأن من الحال في هذه الحال أن يكون الفرقُ الوحيدُ بين إنسانٍ وإنسانٍ من العِظَمِ ما يَجْمَلُ أحدهما تابِعاً للآخر ، وتُوجَدُ في الحال المدنية مساواةٌ في الحقوقِ وهميةٌ فارغةٌ ، وذلك لأن الوسائلَ المُعَدَّةَ لِحِفْظِهَا تُوجِبُ تقويضَها ، ولأن القوةَ العامةَ المضافةَ إلى الأقوى لاضطهاد الضعيف تَقْضِي على نوع التوازن الذي كانت الطبيعة قد وضعتَه بينهما^(١) ، وينشأ عن هذا التناقض الأول جميعُ التناقضات التي تشاهدُ في النظام المدنيُّ بين الظاهر والحقيقة ، وفي كلِّ وقتٍ يُضَحَّى بالجمهور في سبيل عددٍ قليل ، وبالمصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة ، وفي كلِّ وقتٍ تَصْلُحُ كلماتُ العدل والنظام المُوَهَّهَةٌ وسائلَ للقهر وسلاحاً للجور ، ومن ثَمَّ لا تكون الطبقاتُ الممتازة ، التي تزعمُ أنها مفيدةٌ للطبقات الأخرى ، نافعةٌ لغير نفسها على حساب الطبقات الأخرى ، ومن ثَمَّ يجب أن يُخْصَمَ في أمرِ الاعتبار الذي يستحقونه وَفْقَ العدل والعقل ، وبِقِيَّ علينا أن نَرَى هل المقامُ الذي انتحلوه أكثرُ ملامةً لسعادة من يَشْغَلُونَهُ لِيُعْرَفَ أيُّ حكمٍ يجب على كلِّ واحدٍ منا أن يَحْمِلَهُ حَوْلَ

(١) تقوم الروح العامة للقوانين في جميع البلدان على تأكيد القوى ضد الضعيف دائماً ، وعلى

تأييد المالك ضد غير المالك شيئاً ، ولا مفر من هذا الضرر الذي لا استثناء له .

نصيبه الخاص ، والآن إليك البحث الذى يهمنى ، ولكنَّ حُسْنَ القيام به يستلزم البدء بمعرفة القوادِ البشرية .

وإذا ما دار الأمرُ حَوْلَ إطلاَعِ الفَتَيانِ على الإنسانِ ضِمْنَ قِنَاعِهِ لم يَكُنْ هنالك احتياجٌ إلى إطلاَعِهِمْ عليه ، فهم يَرَوْنَهُ كثيراً فى كلِّ وقت ، ولكنَّ بما أن القِنَاعَ ليس عينَ الإنسان ، ولا ينبغى أن يُغَوِّبَهُ طِلَاؤُهُ ، فإنَّ الناسَ إذا ما وُصِفُوا لهم وجب أن يُوصَفُوا كما هم ، وذلك لا لِيُبَغِّضُوا ، بل لِيُرْتَقَى لهم ولثلاثَ مُرَّاتٍ مشابهتُهُمْ ، وعندى أن هذا أَصُوبُ ما يُمكن أن يكون لدى الإنسان من رأى حَوْلَ نوعه .

وعلى هذا فإنَّ من المهمِّ هنا سلوكُ سبيلٍ مخالِفٍ للسبيلِ التى اتَّبَعْنَاهَا حتى الآن ، وأن يُعَلِّمَ الفتى بِتَجَرِبَةِ الآخرين أكثرَ مما بتَجَرِبَتِهِ ، وإذا كان الناسُ يُخَادِعُونَهُ فإنه يَضْفَنُ عليهم ، ولكنه ، وهو مُكْرَمٌ من قِبَلِهِمْ ، إذا ما رآهم يَتَخَادَعُونَ ، تَوَجَّعَ لهم ، قال فيثاغورس : « إنَّ منظرَ العالمِ يشابه منظرَ الألعابِ الأُلَيْيَةِ ، فبعضُ الناسِ يتعاملون ولا يُفَكِّرُونَ فى غير الرِّبْحِ ، وبعضُ آخرُ منهم يَخَاطِرُونَ بأنفسهم سعيًا وراءَ المجد ، وآخرون منهم يَكْتَفُونَ بمشاهدةِ الألعابِ ، وليس هؤلاء أسوأَ الجميع » .

وأودُّ لو يُخْتَارُ للفتى من المجتمعات ما يَحْمِلُهُ على التفكيرِ فى أمرٍ مَنْ يَعِيشُونَ معه ، وأن يُبَلِّغَ من تعليمه حُسْنَ معرفةِ العالمِ ما يُفَكِّرُ معه سواء فى جميعِ ما يُصَنِّعُ فيه ، وَلِيَعْلَمَ أن الإنسانَ صالحٌ طَبِيعَةً وَلِيَشْعُرَ بذلك ، وَلِيَحْكُمَ فى جاره بنفسه ، ولكنَّ لِيُنْصَرَّ كيف أن المجتمعَ يُفْسِدُ الناسَ وَيُضِلُّهُمْ ، وَلِيَجِدْ فى مُبْتَسِرَاتِهِمْ مصدرَ جميعِ عيوبِهِمْ ، وَلِيَحْمَلَ

على احترام كلِّ فرد ، ولكن ليزْدَرِ الجمهورَ ، وَلَيْزَ أن جميع الناس يَلْبَسُونَ عَيْنَ الْقِنَاعِ تقريباً ، ولكن لَيَعْلَمَ أنه يُوجَدُ من الوجوه ما هو أَجْمَلُ من القِنَاعِ الذى يَسْتُرُهَا .

ويجب أن يُعْتَرَفَ بأن لهذا المِنْهَاجِ نقائصه وبأنه ليس سهلاً عند التطبيق ، وذلك لأن الفتى إذا كان يصير راصداً باكراً ، وإذا كنتم تُدَرِّبُونَهُ على تَرْقُبِ أفعالِ الآخرين عن كُتُبٍ ، فإنكم تجعلونه مُفْتَاباً هَاجِياً جازماً سريعَ الحُكْمِ ، وهو يَجِدُ لَذَّةً عميقة في تَحَرُّىِ العواملِ السيئةِ وفى عدم رؤيته ما هو حسنٌ حتى فى الشيء الحسن ، وهو ، على الأقلِّ ، يَعُوْدُ نفسه منظرَ العيبِ ورؤيةَ الأشرارِ بلا نفور كما يَعُوْدُ الإنسانُ نفسه رؤيةَ التعساءِ بلا رافة ، ولُسْرَعَانِ ما يَصْلُحُ الفسادُ العامُّ أن يكون درساً له أَقْلُ من أن يكون معذرةً ، فيقول فى نفسه إذا كان الإنسان هكذا فلا يجب أن يكون خِلافاً لِمَا عليه الإنسان .

ولكن إذا أردتم تعليمه عن مبدأ وإطلاعه ، مع طبيعة القلب البشرى ، على تطبيق العِلَلِ الخارجيةِ التى تُحَوِّلُ مِيُولَنَا إلى عيوب ، وذلك بنقله ، بفتةً هكذا ، من الأشياء الحسية إلى الأشياء الذهنية ، فإنكم تكونون قد استعملتم ما بَعْدَ طبيعة لا يستطيع إدراكه ، فَتَقْعُونَ ثَانِيَةً فى محذورٍ اجْتَنِبَ حتى الآن ، وهو إعطاؤه دروساً تُشَابِه الدروسَ وأن تُقَامَ فى ذهنه تجربةُ العِلْمِ ونفوذُهُ مقامَ تجربته الخاصة وتَقَدُّمِ عقله .

وإني ، لكى أَزِيلَ هذين الماتقين دفعةً واحدةً وأَضَعُ القلبَ البشرى فى متناوله من غير مجازفةٍ يَافِسَادُ قلبه ، أريد أن أُطْلِعَهُ على الناس من بعيدٍ ،

وذلك في أزمنةٍ أخرى وأمكنةٍ أخرى ، وذلك على وجهٍ يستطيع معه أن ينظر إلى المنظر من غير أن يَقْدِرَ على الاشتراك فيه ، وهذا هو وقت التاريخ ، وبالتاريخ سيقراً في الأفئدة من غير دروسٍ في الفلسفة ، وبالتاريخ سيرها ناظراً بسيطاً خالياً من الغرض والهوى ، وذلك مِثْلَ قاضٍ ، لا مِثْلَ شريكٍ لها ، ولا مِثْلَ مُتَبِمٍ إياها .

وَتَقْضِي معرفة الرجال بأن يَرَوْا وهم يَعْمَلُونَ ، والرجالُ في الصالحِ يَسْمَعُونَ وهم يتكلمون ، وفي العالمِ يُظْهِرُونَ أقوالهم ويَحْفَظُونَ أفعالهم ، وأما في التاريخ فيُكْشَفُ الغطاء ويَحْكُمُ فيهم بالأعمال ، حتى إن أقوالهم تُعِينُ على تقديرهم ، وذلك لأنه يَرَى بالمقابلة بين ما يقولون وما يفعلون مَنْ هم وما يريدون أن يَبْدُوا به معاً ، أى إنهم كلما تَنَسَّكَّرُوا عُرِفُوا .

ومن المؤسف أن تكون لهذا البحث محاذيرُهُ من كلِّ نوع ، ومن الصعب انتحالُ وجهةِ نظرٍ واحدةٍ يُمكنُ الإنسان أن يَحْكُمَ بها في أمثاله بإنصافٍ ، ومن أعظمِ عُيوبِ التاريخ أن يُصَوِّرَ الرجالَ بنواحيهم السيئة أكثر مما بنواحيهم الحسنة ، وبما أن التاريخ لا يكون مُمْتِعاً إلا بالثورات والمصائب ، ولا يُحَدِّثُ شيئاً عن الأمة ما نَمَتْ وازدهرت في سكونِ حكومةٍ سَلْمِيَّةٍ ، فإنه لا يَبْدَأُ بالكلام عنها إلا عند عدم قدرتها على كفاية نفسها بنفسها فتَتَدَخَّلُ في شؤون جاراتها أو تَدَّعِ هذه الجاراتِ تَتَدَخَّلُ في شؤونها ، وهكذا فإن التاريخ لا يُشْهِرُها إلا بعد أن تأخذ في الأفول ، وهكذا فإن جميعَ توارِيخنا تَبْدَأُ حيث يجب أن تنتهى ، ولدينا تاريخٌ بالغُ الدقة عن الأمم التي تَنَقَّرِضُ ، والذي يُعَوِّزُنا هو تاريخٌ عن الأمم التي تتكاثر ، وهذه

الأمم هي من السعادة والحكمة مالا يَقْصُ التَّارِيخُ معه عنها شيئاً ، والواقعُ
أننا نرى ، حتى في أيامنا ، كَوْنَ الحكوماتِ التي تُسَّسَ أحسنَ من سواها
هي أقلُّ ما يُحَدِّثُ عنه التَّارِيخُ ، ونحن لا نَعْرِفُ غَيْرَ الشَّرِّ إِذَنْ ، وأما الخَيْرُ
فلا يكاد يُذَكِّرُ ، ولا يُوجَدُ غَيْرُ الأَشْرارِ مَنْ يَشْتَهرون ، وَيُنسَى الصالحون
أَوْ يُسَخَّرُ منهم ، ومن ثَمَّ ترى كيف يَتَجَنَّى التَّارِيخُ ، كما تَتَجَنَّى الفلسفة ،
على النوعِ البشريِّ بلا انقطاع .

وفضلاً عن ذلك فإن من البعيد جداً أن تكون الوقائع الموصوفة في
التاريخ صورةً صادقة عن الوقائع كما حَدَّثَتْ ، أى إنها تُفَيِّرُ شكلها في
رأس المؤرخ ، وَنُصَبُّ في قَالِبِ مصالحه وتكتسب لَوْنٌ مُبْتَسِرَاتِهِ ،
ومن ذا الذي يَعْرِفُ أن يَضَعَ القارئَ وضعاً تاماً في مكان المَسْرَحِ حتى يَرَى
كيف وقعت الواقعة ؟ إن الجهالة والحماة تُنَكِّرَانِ كلَّ شيء ، وما أَكْثَرَ
أوجه الخلافِ التي يُمْكِنُ أن تكتنف الحادثَ التاريخيَّ ، حتى من غير
تحريفٍ له ، بتوسيعٍ أو تضيقٍ للأحوال التي تُنَاطُ به ! إذا ما وَضَعْتُمُ عَيْنَ
الشيء في نواحٍ مختلفة لم يَكْدُ هذا الشيء يَرَى إياه ، ومع ذلك فإنه لم يتغير
شيء غيرُ عَيْنِ الناظرِ ، وهل مما يَشْرَفُ الحقيقة أن تَرَوْوا لى واقعةً حَقِيقَةً
بأن تُبَدِّلُوها لى خلافاً لِمَا حَدَّثَتْ ؟ وما أَكْثَرَ ما قَرَّرْتُ شجرة زُهَاء ، أو
صخرة عن اليمين أو الشمال ، أو سافياً أثارها الريحُ ، مصيرَ معركةٍ من
غير أن يَشْعُرَ أحدٌ بذلك ! وهل يَمْنَعُ هذا المؤرخَ من أن يقول لكم سَبَبَ
الانكسار أو الانتصار مطمئناً كما لو كان في كلِّ مكان ؟ والحقُّ ما أهيمةُ
الوقائعِ عندي إذا ما ظَلَّ السببُ مجهولاً لدى ؟ وأى عِبَرٍ أَسْتَطِيعُ أن أَسْتَخْرِجَ

من حادثٍ أَجْهَلُ علته الحقيقية ؟ أَجَلْ ، إن المؤرخ يُعْطِينِي سبباً واحداً ، غير أنه يُلْفَقُهُ ، وليس النقد الذى تقوم حَوَالَهُ ضَجَّةٌ كبيرة سوى فنٍ للافتراض ، سوى اختيارٍ أَكْثَرَ الأكاذيب مشابهةً للحقيقة .

أَلَمْ تَقْرَءُوا ، قَطُّ ، كليوباترة وكَسَنْدِرَ أو كُتُبًا أخرى من هذا الطراز ؟ إن المؤلف يختار حادثاً معروفاً ، ثم يُوقِفُ بينها وبين وجهات نظره ويزُخْرِفُها بتفاصيل من اختراعه ورجالاتٍ لم يُوجَدُوا قَطُّ وصورٍ خيالية ، ويزَكِّمُ أوهاماً فوق أوهامٍ حتى يَجْعَلَ قراءته لذیذة ، ولا أرى غيرَ فرقٍ قليل بين هذه الروايات وتواريخكم ، ما لم يكن الكاتب الروائى أ كَثَرَ اعتماداً على خياله الخاصِّ مع تَعْبِيدِ المؤرخ نفسه لخيال الآخرين ، وإلى هذا أضيفُ ، إذا ما أُريدَ ، كَوْنُ الكاتب الروائى يَتَخَذُ موضوعاً خُلُقياً صالحاً أو طالحاً لا يَكْتَرِثُ له المؤرخُ مطلقاً .

وسيقال لى إن أمانة التاريخ أَقْلُ إغراء من صدق الطبائع والأخلاق ، وإن من المهمِّ قليلاً كَوْنُ الحوادثِ مَرْوِيَةً بأمانةٍ بشرط أن يُصَوِّرَ القلبُ البشرى تصويراً حسنًا ، وذلك لأنه يضاف إلى ذلك بعد كلِّ شىء : ما أَرَبْنَا إلى الوقائع التى حدثت منذ ألفى سنة ؟ أَجَلْ ، تَجِدُ صواباً فى عَرَضِ الصُّورِ وَفَقَّ الطبيعة ، ولكن إذا لم يكن نَمُودَجُ مُعْظَمِهَا فى غير خيال المؤرخ أَقْلًا يعنى هذا وقوعاً فى المحذور الذى أُريدَ الإفلاتُ منه ، وَرَدًّا إلى حُكْمِ السُّكَّتَابِ ما يُرَادُ نَزْعُهُ من حُكْمِ المَعْلَمِ ؟ إذا كان لا ينبغى لتليذى أن يَرَى غيرَ تصاویرٍ يُمْلِيهَا الهَوَى فَإِنِّى أَفْضَلُ أن تُرَسِّمَ يدي على رَسْمِهَا بيدٍ أخرى ، وذلك لأنها تَكُونُ أَحْسَنَ ملامَةً له على الأقل .

وأسوأ المؤرخين من أجل الفتى هم الذين يُصدِّرون أحكاماً ، الوقائع !
الوقائع ! دَعُوهُ بِحُكْمِ بِنَفْسِهِ ، هكذا يتعلَّمُ معرفة الرجال ، إذا كان حُكْمُ
المؤلف يُرْشِدُهُ بلا انقطاع فإنه لا يَرَى بغير عَيْنِ رجلٍ آخر ، وإذا ما
أَعْوَزَتْهُ هذه العينُ عاد لا يَرَى شيئاً .

وَأَدْعُ التاريخَ الحديثَ جانباً ، لا لأنه لا طابَعَ له ولأن رجالنا
يَتَمَثَلُونَ جميعاً ، بل لأن مؤرخينا الذين لا يهتمُّهم غيرُ اللُّغِ حَضَرًا
لا يُفَكِّرُونَ في غيرِ وَضْعِ صُورٍ مُلَوَّنةٍ جِدًّا ، فلا تُمَثِّلُ شيئاً غالباً^(١) ،
وكان القدماءُ أَقْلَ وضْعاً للصُّور على العموم فكانوا في أحكامهم أَقْلَ
اعتماداً على الذهنِ وأكثرَ استناداً إلى الشعور ، وكذلك لا بُدَّ من
القيام بِخِيَارٍ كبيرٍ يُوْتَى بينهم ، ولا يجوز أن يُتَّخَذَ منهم ، في البُداءِ ،
من هم أَكْثَرُ حَصَافَةً ، بل مَنْ هم أَعْظَمُ بَاطِلَةً ، ولا أودُّ أن أَجْعَلَ
في يدِ الفتى هُولِيْبَ ولا سَالُسْتَ ، وَبَعْدُ نَاسِيتُ كِتَابَ الشَّيْبِ ، ولم
يُصْنَعِ الْفَتَيَانِ لِيَقْفَهُوهُ ، أَيْ إِنْ مِنْ الْوَاجِبِ فِي الْأَعْمَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُعْلَمَ
رُؤْيُةُ رِسُومِ الْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ الْأَوَّلَى قَبْلَ أَنْ يُرَادَ سَبْرُ غَوْرِهِ ، وَإِنْ مِنْ
الوَاجِبِ أَنْ تُحَسَّنَ مَعْرِفَةُ الْقِرَاءَةِ فِي الْوَاقِعِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ فِي الْأَمْثَالِ ، فلا
تَلَأْمُ الْفَلَسَفَةِ فِي شَكْلِ الْأَمْثَالِ غَيْرِ التَّجَرِبَةِ ، ولا يَنْبَغِي لِلشَّبَابِ أَنْ يَقُومَ
بِتَعْمِيمِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَقُومَ تَعْلِيمُهُ وَفَقَّ قَوَاعِدَ خَاصَةٍ .

وعندى أن تُوسِّدِيْدَ مِثَالُ الْمُؤَرِّخِينَ الصَّادِقُ ، فهو يَرْوِي الْوَاقِعَ

(١) انظر إلى دافيلو وغويشيارديني وسترادا وسوليس ومكيافيل ، وإلى دوتو في بعض الأحيان ،

وفرتو وحده تقريباً هو الذي كان يعرف الوصف من غير أن يضع صِراً .

من غير أن يَحْكُمَ فيها برأيه ، ولكنه لا يُهْمِلُ أيًّا من الأحوال الصالحة التي نَحْكُمُ بها في ذلك ، وهو يَصْعُ كُلُّ ما يَقْصُ أمامَ عيني القارىءِ ، وهو يَتَوَارَى بعيداً من أن يقوم بين الحوادث والقراء ، فلا نعتقد أننا نَقْرَأُ ، بل نعتقد أننا نَرَى ، ومن المؤسف أنه يتكلم عن الحرب دائماً ، ولا نَرَى في أخباره غيرَ أقلِّ أمور الدنيا تنقيفاً ، أى المعارك ، وتكاد تكون ذاتُ الحكمة وذاتُ النقيصة تقريباً في « تَقَهَّرُ الآلافِ العشرة » و « تفاسير قيصر » ، وقد يكون هيرودُتُسُ الخالى من الصُّورِ والأمثال ، ولكن مع الانسجام والبساطة وكثرة الجزئيات التي هي أكثرُ ما يُمتنع ويُرْوَقُ ، أصلحُ المؤرخين لو لم تتحوَّل هذه الجزئيات ، في الغالب ، إلى سذاجةٍ صيبانيةٍ خليقةٍ بأن تُفسد ذوقَ الشباب أكثرَ من تكوينه ، وذلك أننا نحتاج إلى قوة تمييزٍ لمطالعتِهِ ، ولا أقول شيئاً عن تَيْطُسَ لِيْقْيُوسَ الذى سيأتى دَوْرُهُ ، والذى هو سياسىٌّ من فُرْسَانِ البیان ، فلا يلائم هذا الدَوْرَ من العُمُرِ .

والتاريخُ ناقصٌ على العموم ، وذلك من حيث كونه لا يُسَجِّلُ غيرَ الوقائع المحسوسة البارزة التي يُمكنُ تعيينُها بالأسماء والأزمنة والمدد ، ولكن عللَ هذه الوقائع البطيئة التدريجية التي لا يُمكنُ تعيينُها مثلَ ذلك تَبَقَّى غيرَ معلومة دائماً ، وفي الغالب يوجد في المعركة ، التي تُكْسَبُ أو تُخْسَرُ ، سببُ ثورةٍ كانت ، حتى قبل هذه المعركة ، قد أصبحت أمراً لا مفرَّ منه ، ولا تَصْنَعُ الحربُ ، مطلقاً ، غيرَ إظهارِ حوادثٍ كانت قد عُيِّنَتْ بعِللٍ أدبيةٍ لا يَعْرِفُها المؤرخون إلا نادراً .

وقد حوّل الروحُ الفلسفيُّ إلى هذه الناحية تأملاتٍ كثيرٍ من كُتّاب هذا العصر ، ولكنني أشكُّ في كونِ الحقيقةِ تَكْسِبُ من عملهم ، فبأن صَوْلَةَ المناهج استحوذت عليهم جميعاً فإنه لا أحدَ يحاول أن يَرى الأمورَ كما هي ، بل كما تُطابقُ مِنْهاجَه .

وإلى جميع هذه التأملاتِ أضيفوا كَوْنُ التاريخ يُرى الأعمالَ أكثرَ من الرجال ، وذلك لأن التاريخ لا يُنسِكُ هؤلاء في غير بعض الأوقات المختارة ضِمْنَ ثيابِ أبهتهم ، والتاريخُ لا يَعْرِضُ غيرَ الرَّجلِ العامِّ الذي رَتَبَ نفسه ليرى ، وهو لا يَتَعَقَّبُه ، مطلقاً ، في بيته ، ولا في حُجْرته ، ولا في أَسْرَتِه ، ولا بين أصدقائه ، وهو لا يُصَوِّرُه إلا حين يُمثِّلُ ، ولباسه ، لا شَخْصَه ، هو الذي يُصَوِّرُ .

وأفْضَلُ مطالعةِ السَّيرِ الخاصةِ للبدء بدراسة القلبِ البشريِّ ، وذلك لأن من العبث أن يُخْفِيَ الرجلُ نفسه ، فالمؤرخُ يَتَعَقَّبُه في كلِّ مكان ، وهو لا يَتْرُكُ له ساعةَ استراحة ، ولا زاويةً يُفْلِتُ فيها من عينه الثاقبة ، وهو كلما ظَنَّ أنه أحسنُ اختفاءً كان الآخرُ أحسنَ اطلاعاً عليه ، قال مُونْتِين : « كلما تَلَهَّى كاتبو السَّيرِ بالمقاصد أكثرَ مما بالوقائع ، وبما يَصْدُرُ عن الباطن أكثرَ مما عن الظاهر ، كانوا مُفَضِّلِينَ لِدَى ، ولِذَا فَإِنْ بَلُوْنَا تَارِكُ رَجُلِي مِنْ كُلِّ وَجْهِ » .

حقاً أن عبقرية الرجال المجتمعين أو عبقرية الأم كثيرة الاختلاف عن عبقرية الرجل وهو منفرد ، وأن من نقص المعرفة بالفؤاد البشريِّ عدمَ دَرَسِهِ بين الجمهور أيضاً ، بَيِّدَ أنه لا يَقِلُّ عن هذا صحةٌ وجُوبُ البدء

بدراسة الرَّجُل للحُكْم في الرجال وأن مَنْ يَعْرِف مُيُولَ كُلِّ فرد معرفةً تامةً يُبْصِر جميع آثارها التي تمازج كيان الأمة .

وهنا ، أيضاً ، يجب أن يُرْجَعَ إلى القدماء للأسباب التي قُلتها سابقاً ، ثم إن جميع الجزئيات المألوفة الوضعية إذ كانت مُبَعَّدَةً من الأسلوب الحديث ، مع كونها صحيحةً بارزةً ، بدّا الرجال من تجميل مؤلفيناهم في سيرهم الخاصة مثل تجميلهم في ميدان العالم ، وعاد الحياه ، الذي ليس أقلَّ صرامةً في المؤلفات مما في الأعمال ، لا يَسْمَحُ بالقول علناً أكثر مما يَسْمَحُ بصنعه جهرًا ، وبما أنه لا يُمكنُ إظهارُ الرجال غير مُمَثِّلِينَ دائماً فإنهم لا يُعرفون في كتبنا أكثر مما في مسارحنا ، وصار من الممكن أن تُكْتَبَ حياةُ الملوك مثلاً مرّةً ، وعاد لا يكون عندنا مثلُ سويتونيوس^(١) .

ويَبْرَعُ بلوتاركُ في هذه الجزئيات التي عُدنا لا نَجْرؤُ على الدخول فيها ، وله كِيَاَسَةٌ منقطعةُ النظير في تصوير أعظم الرجال في أدقِّ الأمور ، وهو من حُسْنِ التوفيق في اختيار رسومه ما تكفي معه ، في الغالب ، كلمةً أو ابتسامةً أو حركةً لإبراز بطله ، ومن ذلك أن أنيبال سَكَنَ رَوْعَ جيشه الخائف وجعله يزحف ضاحكاً إلى المعركة التي سَلَّمتْ إليه إيطالية ، ومن ذلك أن أجيزيلاس ، الراكبَ حِصاناً على عصا ، حَبَّبَ إلى قاهر الملك الأكبر ، ومن ذلك أن قيصر يَجُوبُ قريةً فقيرةً ويُكَلِّمُ أصدقاءه ، قَنِيمٌ ، من حيث

(١) أقدم أحد مؤرخينا دوكلو ، الذي قلد تاسيت في الرسوم الكبرى ، على تقليد سويتونيوس ، وعلى استنساخ كربين أحياناً ، في الرسوم الصغرى ، ومع أن هذا أوجب زيادة قيمة كتابه فقد أدى إلى فقده بيننا .

لا يدري ، على الماكر الذى يقول إنه لا يريد غير مساواة يُونِسِي ، ومن ذلك أن الإسكندر بَلَغَ علاجاً ولم يَنْدِسْ بكلمة فكانت هذه أَجْمَلُ ساعةٍ في حياته ، ومن ذلك أن أَرِسْتِيدَ كتب اسمه على صَدَفٍ مُسَوَّغاً لقبه بهذا ، ومن ذلك أن فيلُوبِيمِينَ ألقى رداءه جانباً وقطعَ خطباً في مَطْبُخٍ مُضَيِّفه ، فهذا هو فنُّ التصوير ، وما كانت السِّمّا لتَبْدُو بالملاحم الكبيرة ، وما كانت السَّحِيَّةُ لتَتَجَلَّى في الأعمال العظيمة ، وإنما التُّرَّهَاتُ هى التى تَكْشِفُ عن الطَّبْعِ ، وتَكُونُ الأمورُ العامة عاديةً كثيراً أو مُعَدَّةً كثيراً ، وعند هذه وحدها تقريباً يَسْمَحُ وَقَارُ العصر لمؤلفينا بأن يَقِفُوا .

ولا جِدَالَ في أن مسيو دُوتُورِينَ من أعظم رجال القرن الأخير ، وقد جُرِئَ على جَعْلِ حياته ممتعةً بالجزئيات التى عَرَفَتْ الناس به وَحَبَبَتْه إليهم ، ولكن ما أَكْثَرَ ما قُضِيَ بِمَحْذَفٍ كثيرٍ منها كان يَجْعَلُهُ معروفاً لدينا وَمُحِبِّباً إلينا زيادةً على ما اتَّفَقَ له ! ولا أُوْرِدُ غيرَ واحدةٍ أَقْتَبِسُهَا من مصدرٍ موثوقٍ به ، ولم يَكُ يَلُوتارك لِيُهْمِلْهَا ، ولكن مع عدم تَسْجِيلِ رَمْسِي لها حتى عند معرفته إياها :

في يومٍ من الصيف شديدِ الحرِّ كان فيكُونُ دُوتُورِينَ عند نافذةِ غرفةِ الانتظار لابساً سُرَّةَ بِيضاءَ وَقَلَنْسُوءَ ، وَيَطْهَرُ أَحَدُ خَدَمِهِ بَفْتَةً ، وَيُخَدِّعُ باللباس ، وَيُظَنُّه أَجيراً في المطبخ معروفاً لديه ، وَيَدْنُو من خلفه على مَهْلٍ ، وَيَضْرِبُهُ ضربةً شديدةً على أَلْيَتِهِ ، ويلتفت الرجلُ المضروبُ إلى ورائه من فَوْزِهِ ، وَيَرَى الخادمُ وهو يرتعش ، وجهَ سيده ، وَيَرْكَعُ والهَمَّ ، ويقول : « مولاي ، لقد اعتقدتُ وجودَ جُورْج » ، ويقول

تُورِينُ وهو يَحْكُ مؤخَّرَه : « لا يجوز الضربُ بهذه الشَّدة ولو كان جُورُجُ هو المضروب » ، وهذا ، إِذَنْ ، هو الذى لا تَجْرُؤوا على قوله أيها الساكنين ! وكونوا إلى الأبد ، إِذَنْ ، بلا فِطْرَةٍ ولا عواطف ، وسَقُوا قُلُوبَكُمْ بالحديد وقسوها به داخلَ حياثكم المَزْدَرَى ، واجعلوا أنفسكم محتقرين بفعل الوقار ، وأما أنت أيها الفتى الصالحُ ، الذى يقرأ هذه القصة والذى يَشْعُرُ شعورَ حَنَانٍ بكلِّ ما تدلُّ عليه من حِلْمٍ حتى فى الحركة الأولى ، فاقْرَأْ أيضاً صَغَارَاتِ هذا الرجل العظيم حين البحث عن أصله واسمه ، واذْكُرْ أن تُورِينَ هذا هو الذى تظاهر فى كلِّ مكانٍ بأنه يَفْسَحُ فى المجال لابن عمه حتى يُرى جيداً أن هذا الولدَ كان رئيسَ بيتِ مالك ، وقابلَ بين هذه المتناقضات وأحبَّ الطبيعة وازْدَرِ المُبْتَسِرَ واعْرِفَ الرجلَ .

وقليلٌ من الناس من يَتَمَثَّلُونَ ما قد يَكُونُ لهذه القراءات المَوْجَهَةٌ على هذا الوجه فى الفتى الخالى الذهن ، وبما أننا نكون مُثْقَلِينَ بكتب صِبَانَا متعودين القراءة من غيرِ تفكيرٍ فإن ما نَقْرَأُ يكون من قلةٍ وَقَفِهِ لنظرنا ما نَعُدُّ معه ما يَفْعَلُونَ أمراً طبيعياً عن سابقِ حَمَلِنَا فى أنفسنا مُبْتَسِرَاتٍ وأهواء تملأُ تاريخَ الرجال وسيرهم ، ولأننا خارجَ الطبيعة فنَحْكُمُ فى الآخرين بأنفسنا ، ولكنْ لِنَتَّصَوَّرَ فتى نُشِئْ وَفَقَ مبادئ ، وَلِنَتَمَثَّلَ إِمِيلَ الذى لم يَكُنْ لجهودِ ثمانى عشرة سنة متواصلة من الغاية غيرُ المحافظة فيه على تمييزِ سليم وقلبِ صبيح ، وَلِنَتَخَيَّلَهُ بعد رَفْعِ السُّتار وهو يُبْلِقِ نَظَرَهُ على مَسْرَحِ العالمِ للمرة الأولى ، أو لِنَتَنَوَّرَهُ وراءَ المَسْرَحِ ناظرًا إلى الممثلين

وهم يتناولون ثيابهم ويلبسونها عَادًا الحِبالَ والبَكَراتِ التي تَخْدَعُ عيونَ الحُضُورِ ، فهو لا يَلْبِثُ أَنْ تَقُوبَ دَهْشَتُهُ الأولى أحاسيسُ حياهِ وازدراءِ نحو نَوْعِهِ ، وبِشْطاطِ غِيْظًا من مشاهدته جميعَ الجنسِ البشريِّ ، هكذا ، أحمقَ بالغًا من الهوانِ ما يقومُ معه بهذه الألعابِ الصَّيَّانيةِ ، ويَحْزَنُ من رُؤْيَتِهِ افتراسَ بعضِ إخوانه لبعضٍ في سبيلِ أحلامٍ وتحوُّلهم إلى ضَواريٍّ لعدمِ معرفتهم الاكتفاء بأن يكونوا آدميين .

والحقُّ أنه إذا ما نُظِرَ إلى قابلياتِ التلميذِ كان ذلك التمرينُ له درسٌ فلسفيٌّ عمليةٌ أفضلَ ، لا رَيْبَ ، وأرعى للسمعِ من جميعِ الدروسِ النظريةِ الفارغةِ التي تُفْسِدُ ذهنَ الفَتَيَّانِ في مدارسنا ، وذلك مهما قَلَّ ما يَأْتِي المَعْلَمُ من فِطْنَةٍ واختيارٍ في مطالعته ومهما قَلَّ ما يُسَلِّكُهُ سبيلَ التأملِ الذي يجبِ استخراجُه منها ، وَيَتَتَبَعُ سِينِيَّاسُ خِطَطَ بِيَرْثُوسِ الخياليةِ فيسألهُ عن الخيرِ الحقيقيِّ الذي ينالُ من فَتَحِ العالمِ ، من هذا الفتحِ الذي لا يستطيعُ أن يتمتعَ به الآنُ من غيرِ كُرُوبٍ كثيرةٍ ، ولا تَرَى في ذلك غيرَ كلمةٍ صالحةٍ عابرةٍ ، وأما إميلُ فسيرى فيها تأمُّلاً بالغَ الحكمةِ كان أولَ من أتاه فلا يَزُولُ من ذهنه أبداً ، وذلك لأن هذا التأملَ لا يَجِدُ في ذهنه أَىَّ مُبْتَسِرٍ معاكسٍ يُمكنُ أن يَمُوقَ انطباعه ، وهو إذا ما وَجَدَ ، بعد قراءةِ سيرةِ هذا الأحمقِ ، أن جميعَ خِطَطِهِ العظيمةِ أَدَّتْ إلى قتلهِ بيدِ امرأةٍ فإنه ، بدلاً من الإعجابِ بهذه البُطُولَةِ المزعومةِ ، ما يرى في جميعِ مفاخرِ هذا الرُّبَّانِ العظيمِ ، وفي جميعِ دسائسِ هذا السياسيِّ العظيمِ ، غيرَ خُطُواتٍ سار بها بحثاً عن تلكِ الآجُرَةِ المشؤومةِ التي خَتَمَتْ حَيَاتَهُ وَقَضَّتْ عَلَى

خِطَطُهُ بِمَوْتِ شَائِنٍ ؟

وَلَمْ يُقْتَلْ جَمِيعُ الْفَاتِحِينَ ، وَلَمْ يُصَبَّ جَمِيعُ الْغَاصِبِينَ بِالْحَبُوطِ فِي مَشَارِعِهِمْ ، وَيَبْدُو كَثِيرٌ مِنْهُمْ سُعْدَاءُ فِي الْأَذْهَانِ الْمُسْرَبَةِ مِنَ الْآرَاءِ الْعَامِيَةِ ، بَيِّنًا أَنَّ الَّذِي لَا يَقِفُ عِنْدَ الظَّوَاهِرِ ، فَلَا يَحْكُمُ فِي سَعَادَةِ النَّاسِ إِلَّا وَفْقَ حَالِ أَفْئِدَتِهِمْ ، يَرَى بَوْمَهُمْ فِي فَوْزِهِمْ ، وَيَرَى رِغَابَهُمْ وَغَوَائِلَهُمْ الْقَاضِمَةَ تَتَسَّعُ وَتَزِيدُ مَعَ طَالِعِهِمْ ، وَيَرَى انْقِطَاعَ نَفْسِهِمْ وَهُمْ يَتَقَدِّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْلُغُوا حَدَّهُمْ مَطْلَقًا ، وَيَرَامُ مِثْلَهُنَّ لِلْمَسَافِرِينَ الْأَغْرَارِ الَّذِينَ يُوَعِّلُونَ فِي جِبَالِ الْأَلْبِ فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ يَجَاوِزُونَهَا عِنْدَ كُلِّ جَبَلٍ ، فَإِذَا مَا بَلَغُوا الذَّرْوَةَ وَجَدُوا ، مَعَ الْقَنُوطِ ، أَعْلَى الْجِبَالِ أُمَامَهُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ أَخْضَعَ أَغْطُسُ مُوَاطِنِيهِ وَقَضَى عَلَى مَنَافِسِيهِ سَيَّطَرَ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ عَامًا عَلَى أَعْظَمِ إِمْبَرَاتُورِيَّةٍ عُرِفَتْ ، وَلَكِنْ هَلْ حَالُ هَذَا السُّلْطَانِ الْوَاسِعِ دُونَ نَظْحِهِ الْجُدْرَانِ وَمُلْكِهِ قَصْرِهِ الْعَظِيمِ صُرَاحًا طَالِبًا مِنْ قَارُوسَ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهِ كِتَابَتِهِ الْمُبَادَّةَ ؟ وَهُوَ ، بَعْدَ أَنْ قَهَرَ جَمِيعَ أَعْدَائِهِ ، مَاذَا كَانَ نَفْعُ انتصاراتِهِ لَهُ عَلَى حِينِ كَانَتْ جَمِيعُ الْمَتَاعِبِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ تَظْهَرُ حَوْلَهُ بِلا انْقِطَاعٍ ، وَعَلَى حِينِ كَانَ أَعَزُّ أَوْصِدْقَائِهِ يَأْتَمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ فَيَبْكِي لِمَا يُبْلَاقِي الْمُقَرَّبُونَ إِلَيْهِ مِنْ خِزْيٍ أَوْ قَتْلِ ؟

أَرَادَ هَذَا التَّمَسُّ أَنْ يَسِيطَرَ عَلَى الْعَالَمِ ، وَهُوَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهَيِّمَ عَلَى مَنْزِلِهِ ! وَمَا الَّذِي نَشَأَ عَنْ هَذَا الْإِهْمَالِ ؟ لَقَدْ أَبْصَرَ هَالِكُ ابْنِ أُخْتِهِ وَابْنِهِ بِالتَّبَنِّيِّ وَصْهِرِهِ فِي مَيِّعَةِ الشَّبَابِ ، وَقَدْ رَأَى اضْطِرَارَّ حَفِيدِهِ إِلَى أَكْلِ حَشَوَةِ فِرَاشِهِ إِطَالَةَ حَيَاتِهِ التَّمَسَّةِ بَضْعَ سَاعَاتٍ ، وَقَدْ غَمَرَتْهُ ابْنَتُهُ وَحَفِيدَتُهُ بِفَضَائِحِهِمَا

فانت إحداهما بؤساً وجوعاً في جزيرة قفرٍ وهلكت الأخرى في السجن
بيدِ نبالٍ ، وأخيراً تحمّله زوجته الخاصة ، وهو بقيةُ أسرته المنكودةِ
الحظّ ، على عدم تركه غيرَ غولٍ ليرثه ، فذاك هو مصيرُ هذا السيد
للعالم الذي مُجّد كثيراً بسبب عزّه وسعاده ، وهل أعتقدُ أن واحداً ممن
يُعجبون به يودُّ نيلهما بهذا الثمن ؟

وقد اتخذتُ الطموحَ مثالاً ، غير أن لعبَ جميع الأهواء البشرية
يُعرضُ مثلَ هذه الدروس على من يُريدُ درسَ التاريخ حتى يَعْرِفَ نفسه
ويكونَ حكيماً على حساب الأموات ، ويَدنو الوقت الذي ستكون سيرة أنطونيوس
فيه لدى الشابِّ مثلَ سيرة أغسطس ، ولن يَعْرِفَ إميلُ أين هو في الأمور
الغريبة التي تَقِفُ نظره في دروسه الجديدة ، ولكنه سيَعْرِفُ أن يُبْعِدَ
مُقَدِّمًا وَهُمْ الأهواء قبل أن تُولّد ، وهو ، إذ يَرى أنها أعمتُ الرجال في
جميع الأزمان فإنه سيكون على علمٍ بالوجه الذي يُمكن أن تُعْمِيَهُ فيه بدَوْرِهِ
إذا ما انقاد إليها^(١) ، وأَعْرِفُ أن هذه الدروسَ غيرُ ملائمةٍ له ، وأن من
المحتمل أن تكون عند الحاجة متأخرةً ناقصةً ، ولكنّ إذ كُروا أننى لم أُرِدْ
استخراجها من هذا البحث ، فقد قَصَدْتُ أمراً آخرَ حين البدء بها ،
ولا رَيْبَ في أن سوء القيام بهذا الأمر يكون خطأً من المعلم .

واذ كُروا أن الأنانية إذا نَمَتْ لم تَلْبَثْ الذاتُ النَّسْبِيَّةُ أن تتحرك
بلا انقطاع فلا يلاحظ الفتي الآخريّن من غير أن يَعُودَ إلى نفسه ويقابلَ

(١) المتبسر هو الذي يثير صولة الأهواء في قلوبنا دائماً ، ولا يولع ، مطلقاً ، من لا يرى
غير ما هو كائن ولا يقدر غير ما يعرف ، ويؤدى خطأ أحكامنا إلى حرارة رغائبنا .

بينها وبينهم ، ولذا فإن من المهم أن تُعرَفَ المرتبةُ التي يَضَعُ نفسه فيها بين أمثاله بعد أن يَدْرُسَهم ، وأرى ، بالأسلوب الذي يُحْمَلُ الشَّبَابُ به على مطالعة التاريخ ، أنهم يَتَحَوَّلُونَ إلى جميع من يُبْصِرُونَ من السَّراة ، فيُسْقَى في أن يُجْعَلَ منهم شيشرون أحياناً وتراجانُ مرةً والإسكندرُ تارةً ، فيدْبُ اليأسُ في أفئدتهم إذا ما عادوا إلى نفوسهم حين يَرَى كلُّ واحدٍ منهم أنه هوَ فقط ، ولهذا المنهاج بعض الفوائد التي لا أنكرها ، ولكن إميل إذا ما حَدَّثَ ذاتَ مرةٍ أن قام بهذه المقارنات ، فأراد أن يكون غيرَ نفسه ، ولو كان الآخرُ سقراطَ أو كاتونَ ، عَدَدْتُني قد حَبِطْتُ في عملي ، ومن يأخذ في جَعْلِ نفسه غريبةً عنه لم يُقَمِّمْ أن يَنْسَى نفسه تماماً .

وليس الفلاسفةُ أحسنَ من يَعْرِفُ الرجالَ ، فالفلاسفةُ لا يَعْرِفُونَهُمْ إِلَّا من خِلالِ مُبْتَسِرَاتِ الفلسفة ، ولا أَعْرِفُ أحداً كالفلاسفةِ ذا مُبْتَسَرٍ ، وللهمجي رأى فينا أصبح من رأى الفيلسوف ، والفيلسوفُ يَشْعُرُ بعيوبه ، ويغتَاط من عيوبنا ، ويقول في نفسه : « كلُّنا خبيثٌ » ، وَيَنْظُرُ الهمجيُّ إلينا من غير أن يَهْتَزَّ ، ويقول : « أنتم من المجانين » ، وحقٌّ له أن يقول هذا ، وذلك لأنه لا أحدَ يَعْمَلُ السيئةَ للسيئة ، وتلميذى هو هذا الهمجيُّ ، وذلك مع الفارق القائل إن إميلَ ، إذ كان أكثرَ تأملاً ومقابلةً بين الأفكارِ واطِّلاعاً على أغاليطنا عن كَشَبٍ ، يَظْهَرُ أكثرَ احترازاً نحو نفسه ، ولا يَحْكُمُ بغير ما يَعْلَمُ .

وأهواؤنا هي التي تُثِيرُنَا على أهواء الآخرين ، ومصلحتنا هي التي تَحْمِلُنَا على مَقْتِ الأشرار ، وهؤلاء إذا لم يَفْعَلُوا بنا سوءاً حَمَلْنَا لهم عَطفاً

أَكْثَرَ مِنْ حَمَلِنَا لَهُمْ حَقْدًا ، وَمَا يَفْعَلُ الْأَشْرَارُ بِنَا مِنْ سُوءٍ يَجْعَلُنَا نَنْتَسِي مَا يَفْعَلُونَ مِنْ سُوءٍ نَحْوِ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَسْهُلُ عَلَيْنَا أَنْ نَصْفَحَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَقْدَارَ تَعْذِيبِ فُؤَادِهِمْ لَمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَنَشْعُرُ بِالذَّنْبِ وَلَا نَرَى الْعِقَابَ ، وَالْمَنَافِعُ ظَاهِرَةٌ وَالْعُقُوبَةُ خَافِيَةٌ ، وَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِشِرَّةِ عِيُوبِهِ لَا يَكُونُ بِهَا أَقْلٌ عَذَابًا مِنْهُ عِنْدَ عَدَمِ نَجَاحِهِ فِيهَا ، وَالْمَوْضُوعُ تَغَيَّرَ ، وَالْهَمُّ هُوَ هُوَ ، وَمِنْ الْعَبَثِ أَنْ يُظْهِرُوا نَصِيحَتَهُمْ ، وَأَنْ يُخْفُوا فُؤَادَهُمْ ، فَسَلُّوْهُمْ يَدْلُ عَلَيْهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَنَا مِثْلُ فُؤَادِهِمْ لِلْإِطْلَاعِ عَلَيْهِ .

وَمَا يُقَاسِمُ مِنْ أَهْوَاءٍ يُقَوِّينَا ، وَمَا يَصْدِمُنَا مِنْ مَصَالِحٍ يُثِيرُنَا ، وَمِنْ التَّنَاقُضِ الَّذِي يَأْتِينَا مِنْهَا أَنْ نَذُمَّ فِي الْآخِرِينَ مَا كُنَّا نَوَدُّ تَقْلِيدَهُ ، وَالكَرَاهَةَ وَالْوَهْمُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَفَرَّ مِنْهَا عِنْدَ إِزْمَانِنَا بِأَنْ نَعَانِي مِنْ قَبْلِ الْآخِرِ سُوءًا نَعْمَلُهُ لَوْ كُنَّا فِي مَكَانِهِ .

وَمَا يَجِبُ أَنْ يُصْنَعَ لِحُسْنِ الْبَصَرِ فِي الرِّجَالِ ؟ كَبِيرُ مَصْلَحَةٍ فِي مَعْرِفَتِهِمْ ، وَعَظِيمُ إِنْصَافٍ لِلْحُكْمِ فِيهِمْ ، وَقَلْبٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ لِيَتِمَّتْ جَمِيعُ أَهْوَاءِ النَّاسِ ، وَعَلَى شَيْءٍ مِنَ السَّكُونِ لَعَدَمِ ابْتِلَائِهَا ، وَإِذَا وَجَدَتْ فِي الْحَيَاةِ سَاعَةً مَلَأَتْهَا لِهَذَا الدَّرْسِ كَانَتْ تِلْكَ الَّتِي اخْتَرَتْهَا لِإِمِيلَ ، وَالرِّجَالُ كَانُوا غُرَبَاءَ عَنْهُ قَبْلَ الْآنِ ، ثُمَّ يَصِيرُ مِنْ أَمْثَلِهِمْ ، وَلَمَّا يَتَلَّى الرَّأْيَ الَّذِي يُبَصِّرُ فَعَلَهُ سُلْطَانًا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَهْزُ فُؤَادَهُ قَطُّ مَا يُحْسُ أَثَرَهُ مِنْ أَهْوَاءٍ ، وَهُوَ إِنْسَانٌ ، وَيَكْتَرِثُ لِإِخْوَانِهِ ، وَهُوَ عَادِلٌ ، وَيَتَحَكَّمُ فِي أَقْرَانِهِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ إِذَا مَا حَكَمَ فِيهِمْ جَيِّدًا لَمْ يُرِدْ أَنْ يَكُونَ فِي

مكان أى واحدٍ منهم مطلقاً ، وذلك بما أن غايةَ جميع ما يَلَاقُون من كُرُوبٍ تقوم على ما ليس عنده من مُبْتَسِرَاتٍ فإن هذه الغاية تَلُوح له فى الهواء ، ويكون كلُّ ما يَرْغَبُ فيه إِمِيلُ فى متناولِهِ ، وَمَنْ يَتَّبِعُ إذا ما كَفَى نَفْسَهُ بنفسه وكان خالياً من المُبْتَسِرَاتِ ؟ وهو ذو ذراعين وصحة^(١) واعتدالٍ واحتياجاتٍ قليلة يُوجَدُ عنده ما يَقْضِيهَا به ، وهو إذْ نُشِيَ تنشئةً حُرَّةً مطلقةً عُدَّتْ العبوديةُ أشدَّ ما يَتَصَوَّرُ من آفاتٍ ، وهو يَرِنِي لهُوْلَاءِ الملوكِ المساكينِ الذين هم عبيدٌ لجميع من يَطِيعُونَهُمْ ، وهو يَرِنِي لهُوْلَاءِ الحكماءِ الزائفينِ القَيْدِينَ بِصِيَتِهِم الزائِفِ ، وهو يَرِنِي لهُوْلَاءِ الأغنياءِ الأغنياءِ الذين هم ضحايا أبهتِهِمْ ، وهو يَرِنِي لَشَهَاوَى التفاخرِ الذين يُسَلِمُونَ حياتَهُمْ كُلَّهَا إلى السَّأَمِ حتى يَظْهَرُوا ذَوَى بَمَلَاذٍ ، وهو يَرِنِي لعدوِّهِ الذى آذاه لِمَا يَرَى من بُؤْسِهِ فى خُبَيْثِهِ ، فيقول فى نفسه : « إن هذا الرجل جَعَلَ مصيره تابِعاً لمصيرى لانتحاله ضرورةَ الإضرارِ بى » .

وإذا ما تَقَدَّمتنا خطوةً أَصَبْنَا الهَدَفَ ، والأنايةُ آلهٌ مفيدةٌ ، ولكنها خَطِرَةٌ ، فهى تَجَرِّحُ اليدَ التى تستعملها ، ومن النادر أن تَفْعَلَ خيراً بلا شَرٍّ ، وإميلُ ، إذْ يَنْظُرُ إلى مرتبته فى النوعِ البشرى ويرى حُسْنَ مَوْضِعِهِ منها ، يُغْوَى بتمجيد عقله عن عَمَلِ عقلِهِم فيَعَزُّو إلى مزيته أمرَ سعادته ، ويقول فى نفسه : « إننى حَكِيمٌ ، والناسُ مجانين » ، وهو إذْ يَرِنِي للناسِ يَزْدَرِيهِمْ ، وهو إذْ يَهَيُّ نَفْسَهُ يَزِيدُ تقديره لنفسه ، وهو إذْ يَشْعُرُ بأنه

(١) اعتقد إمكان إقْداءى على عد الصحة وحسن البنية من المنافع التى اكتسبها بتربيته ، وإن

شئت فقل من هبات الطبيعة التى حفظتها له تربيته .

أَكْثَرُ مِنْهُمْ سَعَادَةً يَمْتَقِدُ أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ لَهَا ، وَهَذَا أَكْثَرُ مَا يُخْشَى مِنْ خَطَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَصْعَبُ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَالَ ، وَهُوَ إِذَا مَا بَقِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَانَ قَلِيلَ الْإِتْفَاعِ مِنْ جَمِيعِ جُهُودِنَا ، فَإِذَا مَا وَجَبَ الْإِخْتِيَارُ فَلَا أَدْرَى هَلْ أَفْضَلُ وَهُمْ الْمُبْتَسِرَاتِ عَلَى وَهُمْ الْخِيَلَاءِ . وَلَا يَنْطَرِقُ الْوَهْمُ إِلَى أَعَاطِمِ الرِّجَالِ حَوْلَ تَقَوُّفِهِمْ ، فَهَمَّ يَرَوْنَهُ وَيُحْسُونَهُ ، وَلَكِنْهُمْ لَا يَقِلُّونَ عَنْ هَذَا تَوَاضَعًا ، وَهُمْ كُلُّمَا حَازُوا عَرَفُوا كُلَّ مَا يُعَوِّزُهُمْ ، وَهُمْ أَقْلُ غُرُورًا بَارْتِقَائِهِمْ فَوْقَنَا مِنْ هَوَانِهِمْ بِمَا يُحْسُونُ مِنْ ضَعْفِهِمْ ، وَهُمْ يَنْبَلُغُونَ ، مِنْ حَيْثُ الْأَمْوَالُ الَّتِي يَمْلِكُ كُنْهَاصُهَا حَصْرًا ، دَرَجَةً مِنَ الصَّوَابِ مَا لَا يُغَرَّوْنَ مَعَهُ بِعَاطِيَةٍ لَمْ يَصْنَعُوهَا ، أَجَلٌ ، قَدْ يَزْهَوُ رَجُلٌ الْخَيْرَ بِفَضِيلَتِهِ لِأَنَّهُ لَهَا ، وَلَكِنْ مِمَّ يَزْهَوُ رَجُلٌ الذَّهْنَ ؟ وَمَاذَا صَنَعَ رَاسِيْنُ لِكَيْلَا يَكُونَ بِرَادُونَ ؟ وَمَاذَا صَنَعَ بَوَالُو لِكَيْلَا يَكُونَ كَوْتَانِ ؟

وَالْأَمْرُ هُنَا شَيْءٌ آخَرُ أَيْضًا ، وَلَنْتَبَقَ ضِمْنِ الْمَسْتَوَى الْعَامِّ دَائِمًا ، وَلَمْ أَفْتَرِضْ فِي تَمْلِيذِي نَبوغًا عَالِيًا وَلَا تَمَيِّزًا وَاهِيًا ، وَإِنَّمَا اخْتَرْتُهُ مِنْ ذَوِي الْأَذْهَانِ الْعَادِيَةِ لِأَنِّي لَمْ أَتَمَكَّنْ أَنْ يَكُونَ لِلتَّرْبِيَةِ مِنْ فِعْلٍ فِي الْإِنْسَانِ ، وَتَكُونُ الشَّوَاذُ كُلُّهَا خَارِجَ التَّوَاعِدِ ، وَإِذَا مَا فَضَّلَ إِمِيلُ ، نَتِيجَةً لِلْجُهُودِ ، طِرَازَ حَيَاتِهِ وَبَصْرَهُ وَشَعُورَهُ عَلَى طِرَازِ الْآخَرِينَ حَقٌّ لَهُ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا مَا ظَنَّ نَفْسَهُ ، لِهَذَا السَّبَبِ ، مِنْ جِيلَةٍ أَرْفَعَ مِنْ جِيلَتِهِمْ وَمِنْ أَصْلٍ أَيْمَنَ مِنْ أَصْلِهِمْ عُدَّ مَخْطُئًا ، أَيْ ضَالًّا ، فَوَجِبَتْ إِزَالَةُ ضَلَالِهِ ، وَإِنْ شَتَّتْ قَلْبَهُ تَلَافَى خَطْئُهُ ، وَذَلِكَ خَشْيَةٌ أَنْ يَمُرَّ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَكُونُ إِصْلَاحُ ذَلِكَ مَعَهُ بَعْدَ الْأَوَانِ .

وإذا عَدَوْتَ الزَّهْوَ لم تَجِدْ جُنُونًا يَتَعَذَّرُ شِفَاءُ رجلٍ غيرِ مجنونٍ منه ،
 وأما الزَّهْوُ فلا يُقَوِّمُهُ غيرُ التجربة لو وُجِدَ له علاجٌ حقٌّ ، والزَّهْوُ يُمكنُ
 أن يُجَالَ دُونَ استفحالهِ عند ظهورهِ على الأقلِّ ، ولذا فلا تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ
 بإقامة البراهين الجليّة حتى تُثْبِتُوا للمراهق أنه إنسانٌ كالآخرين وأنه عُرْضَةٌ
 لعين الضعف ، ودَعُوهُ يُحْسِنُهُ ، أو إنه لن يَعْرِفَهُ مطلقاً ، وهنا ، أيضاً ، حالٌ
 استثنائية لقواعدِ الخاصة ، وهذه هي حالُ عَرَضٍ تليدٍ ، طوعاً ، لجميع
 الحادثات التي يُمكنُ أن تُثْبِتَ له أنه ليس أكثرَ حكمةً منا ، ويُمكنُ
 أن تُكَرَّرَ عِرَاقَةُ المُشْعُوذِ على ألف وجهٍ ، وأتركُ المُصَانِعِينَ يستفيدون
 منه ، وإذا حَدَّثَ أن ساقه بعضُ المتهوِّرين إلى بعضِ الهُوسَاتِ تَرَكَتُهُ
 يُقَابِلُ الخطرَ ، وإذا ما صاوَلَهُ بعضُ المُخَادِعِينَ في اللعبِ تَرَكَتُهُ يُفَشِّ^(١)
 من قِبَلِهِمْ ، أى تركتهم يَدَارُونَهُ وَيُدَاوِرُونَهُ وَيَنْتِفُونَهُ وَيَسْلُبُونَهُ ، وإذا ما
 أَخَذُوا يَسْتَهْزِئُونَ به بعد استنزافهِ شَكَرْتُ لَهُمْ أُمَامَهُ ما تَفَضَّلُوا بِإِقَائِهِ عَلَيْهِ
 من دروسٍ ، والأَشْرَاكُ الوحيدةُ التي أَقْبَاهُ مِنْهَا بَعْنَايَةُ هِيَ أَشْرَاكُ بَنَاتِ الهَوَى ،
 والمُجَامَلَاتُ الوحيدةُ التي أَحَابِيهِ بِهَا هِيَ أَنْ أَقَاسِمَهُ جَمِيعَ أخطارِهِ التي تركته
 يُعَرِّضُ لها وَجَمِيعَ المَخَازِي التي تركته يَتَلَقَّاهَا ، وسأحتملُ كُلَّ شَيْءٍ صامتاً ، ومن

(١) وفضلاً عن ذلك فإن تلميذاً يغوى بهذا الشرك قليلاً ، وهو الذى يحيط به كثير من اللهو ،
 وهو الذى لم يسأم في حياته ، وهو الذى لا يكاد يعرف استعمال النقود ، وبما أن المصلحة والزهو هما
 العاملان اللذان يقاد بهما الأولاد فإن هذين العاملين ذاقان لبنات الهوى وللتغشّة في التغلب عليهم فيما بعد ،
 وإذا ما أثّرتم طبعهم بالجواز والمكافآت ، وإذا ما رأيتم أنه يهتف لهم في العاشرة من سنيهم بالمدرسة من
 أجل عمل عام ، أبصرتم كيف يغرون في العشرين من عمرهم بالتخلّ عن كيسهم في دار قمار أو دار دعارة ،
 ويمكنكم أن تراهنوا دائماً على أن أكثر الأولاد جدّاً في غرفة درسه سيصبح أكبر مقامر وداعر ، والواقع أنه
 لا يكون للوسائل التي لا تستعمل في الصبا مطلقاً ذات المخزور في الشباب ، ولكن لا ينبغي عن الببال أن المبدأ
 الثابت الذى أخذناه هنا هو إظهار أسوأ ما في الأمر ، ومنع العيب هو أول ما أحاول ، ثم أفترض للمعاصنة

غير تَذَمُّرٍ وتَأْنِيْبٍ ، ومن غير أن أقول له كلمةً عن ذلك ، وثَقُوا بأن هذا السلوكَ الحكيمَ إذا ما حَصَلَ بإخلاصٍ فإن ما يَرَى من احتمالي في سبيله يَكُونُ له من الأثرِ البالغِ في قُوَّاده أكثر مما يُعَانِي بنفسه :

ولا أَسْتَطِيعُ أن أَمْنَعُ نفسى من التنبيه هنا إلى المقام الزائف للعالمين الذين يَرَوْنَ استحالة الحكمة فيعاملون تلاميذهم مِثْلَ الأولاد دائماً ، فيمتازون منهم دائماً في كلِّ ما يَحْمِلُونَهُمْ على صنعه ، وهكذا ابتعدوا عن خَفَضِ إقدامهم الناشئ ، ولا تَدَخِرُوا وُسْعاً في رَفْعِ نفوسهم ، واجعلوهم مساوين لكم حتى يصبحوها هكذا ، وإذا لم يستطيعوا الارتقاء إليكم أيضاً فاهبطوا إليهم بلا خجلٍ ولا وَسْوَاسٍ ، واذْكُرُوا أن سعادتكم عادت لا تكون فيكم ، بل في تلميذكم ، وشاطروه أوزاره إصلاحاً لها ، واحتملوا خزيه نحواً له ، واقتدوا بالرومانى الباسل الذى رأى هزيمة جيشه ولم يَقْدِرْ على جَمْعِ شَمْلِهِ فأخذ يَهْرُبُ على رأس جنوده قائلاً صارخاً : « إنهم لا يَفِرُّون ، بل يَتَبِعُونَ قائدهم » ، وهل أُصِيبَ بعارٍ من هذا ؟ كلا ، بل زاد بَجْدَهُ إذ ضَحَى به على هذا الوجه ، ألا إن قوةَ الواجب وجمالَ الفضيلة يَجْذِبَانِ أصواتنا وَيُزِيلَانِ مُبْتَسِرَاتِنَا السخيفةَ على الرغم منا ، فإذا ما صُفِعَتْ حين قياى بواجباتى نحو إميلَ فَإِنِّى أفاخر بهذا فى كلِّ مكانٍ بعيداً من الانتقام لنفسى ، ومما أشكُّ فيه وجودُ رجلٍ فى العالمِ يَبْلُغُ من اللؤم^(١) ما لا يزيد معه احتراماً لى من أَجَلَ ما تقدم .

ولا يَفْنِى هذا أن يَفْتَرِضَ التلميذُ فى مُعَلِّمه معارفَ محدودةً مِثْلَ

(١) أخطأت فى ظنى ، فقد وجدت واحداً ، وهو مسيو فورمه .

معارفه ، ولا سهولة إغواء مثله ، وهذا الرأي صالحٌ لولده لا يعرفُ أن يرى شيئاً ، ولا أن يقيسَ شيئاً ، فيجعلُ جميعَ العالمِ في متناوله ولا يضعُ ثقته في غيرِ مَنْ يعرفون وضعَ أنفسهم في مستواه حقاً ، بيدَ أن فتى في مثلِ سِنِّ إميلَ متصفاً بمثلِ صوابه لا يتلُغ من السُّخفِ ما يقترب معه هذا الخطأ ، ولا يكون من المرغوب فيه ظهوره هكذا ، ويجب أن يكون اعتماده على معلمه من غير هذا النوع ، وذلك أن من الواجب قيامَ هذا الاعتماد على سلطان العقل وعلى فضل المعارف وعلى ما يكون للفتى من فوائد في العلم بها فيشعرُ بنفعها لنفسه ، وقد أقنعتَه التجربةُ الطويلةُ بأنه محبوبٌ من قبلِ رائده ، وبأن هذا المرشدَ رجلٌ حكيمٌ بصيرٌ راغبٌ في سعادته عارفٌ بما يُمكنُ أن يأتية بها ، ويجب أن يعرفَ أن مصلحته الخاصة تقضى بأن من اللائم له أن يستمع إلى نصائحه ، والواقعُ أن المعلمَ إذا ما سمحَ لنفسه بأن تُخدعَ مثلُ التلميذ يكون قد أضاع حقّه في مطالبته بالاحترام وفي إلقاءِ دروس عليه ، وأقلُّ من هذا وجوبُ افتراضِ التلميذ تركَ المعلمَ إياه يقعُ في الأشرارِ قَصْداً ونَصْبِهِ حَبائِلَ لبساطته عمداً ، وما يجبُ أن يُصنعَ ، إذَنْ ، لاجتنابِ هذينِ المحذورين معاً ؟ إن أفضلَ ما في الأمرِ وأقربَ إلى الطبيعة أن يكونَ مثله بسيطاً صادقاً ، وأن يُحذّره من الأخطار التي يُعرّضُ لها ، وأن يدُلّه عليها بوضوحٍ وعلى وجهٍ محسوسٍ ، ولكن من غيرِ مبالغةٍ ولا هَوًى ولا حَذَلَةٍ ، ومن غير أن تُعطوه آراءكم على شكلِ أوامر ، وذلك إلى الحين الذي تصبح فيه هكذا ، وإلى حين الذي تغدو فيه لهجةُ الأمرِ هذه ضروريةً حقاً ، وإذا ما التزم جانبَ العناد بعد هذا ، كما يقعُ

غالبًا ، فلا تقولوا له شيئًا ، ودَعُوهُ يكون طليقًا ، وَاتَّبِعُوهُ ، وَقَلِّدُوهُ ، وَلَيْكُنْ هذا بسلامة قلبٍ وحسنِ طَوِيَّةٍ ، وَاَنْهَمِكُوا وَتَلَهَّوْا مِثْلَهُ مَا أُمْكِنَ هذا ، فإذا ما صارت النتائجُ حَرَجَةً جِدًّا كنتم على استعدادٍ لَوَقْفِهَا ، ومع ذلك فإن الفتي إذا كان شاهدًا على حَذْرِكُمْ وَلَطْفِكُمْ فما أَكْثَرَ مَا يَقِفُ نَظْرَهُ أَحَدُ الأَمْرِينَ وما يَتَأَثَّرُ بِالْآخِرِ ! وَنَعْدُ أَوْزَارَهُ كُلَّهَا رَوَابِطَ يُجَهِّزُكُمْ بِهَا لِرُدْعِهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، وَأَكْثَرُ مَا تَتَجَلَّى بِهِ مَهَارَةُ الْعِلْمِ هُنَا ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ ، هُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْقُرْصِ وَأَنْ يَسُوقَ النَّصَاحَةَ عَلَى وَجْهِ يَعْرِفُ بِهِ مُقَدِّمًا مَتَى يُذْعِنُ الْفَتَى وَمَتَى يَعْنِدُ ، وَذَلِكَ لِيُحَاطَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِدُرُوسٍ مِنَ التَّجَرِبَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْرِضَ لِلْخَطَرِ كَثِيرًا . وَحَذِّرُوهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهَا ، وَهُوَ إِذَا مَا سَقَطَ فِيهَا فَلَا تَلُومُوهُ مَاطَلًا ، وَذَلِكَ لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ هَذَا مِنْ إلهَابِ أَنَانِيَّتِهِ وَإِثَارَتِهَا ، وَمَا كَانَ الدَّرْسُ الَّذِي يُثِيرُ لِيُفِيدَ ، وَلَا أَعْرِفُ مَا هُوَ أَكْثَرُ سَخَافَةٍ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ : « كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكَ هَذَا » ، وَأَحْسَنُ وَسِيلَةٍ تُتَخَذُ لِتَذَكِيرِهِ بِمَا قِيلَ لَهُ أَنْ يُتَظَاهَرَ بِنِسْيَانِهِ ، وَعَلَى الْعَكْسِ إِذَا مَا أَبْصَرْتُمُوهُ خَجَلًا مِنْ عَدَمِ إِطَاعَتِهِ لَكُمْ فَأَزِيلُوا هَذَا الْخِزْيَ بِالْقَوْلِ الطَّيِّبِ ، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِكُمْ ، لَا رَيْبَ ، عِنْدَ مَا يَرَى نِسْيَانَكُمْ نَفْسَكُمْ فِي سَبِيلِهِ ، وَأَنْكُمْ تُسَلُّونَهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَسْحَقُوهُ ، وَلَكِنْكُمْ إِذَا مَا أَضْفَقْتُمْ إِلَى غَمِّهِ تَأْنِيبًا وَعِتَابًا حَقَّدَ عَلَيْكُمْ وَاتَّحَلَ لِنَفْسِهِ دُسْتُورَ عَدَمِ الإِصْفَاءِ إِلَيْكُمْ ، كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُثَبِّتَ لَكُمْ أَنَّهُ لَا يُفَكِّرُ مِثْلَكُمْ فِي أَهْمِيَةِ آرَائِكُمْ .

وَقَدْ يَكُونُ الْوَجْهُ الَّذِي تَأْتُونَ بِهِ تَسْلِيَتَكُمْ إِيَّاهُ دَرْسًا نَافِعًا لَهُ بِتَقْدَارِ

عدم حَذَره منه ، ومتى قُلْتُمُ له ، مثلاً ، إن ألقاً من الناس يقتفون عينَ الخطيئات لم يَكُنْ هذا ما يَنْتَظِر ، وَنُصْلِحُونَه بظهوركم مُتَوَجِّعِينَ له ، وذلك لأن هذا ، عند من يَعْتَقِد أنه أغلى من الآخرين ، اعتذارٌ مُخْزٍ بأن يَتَأَسَّى على مثلهم ، ولأن هذا يَعْنِي تَمَثُّلاً لِكَوْنِ أَكْثَرِ ما يُمَكِّنُ أن يَدَّعِيَه هو أَنهم ليسوا أَفْضَلَ منه .

وزمنُ السيئاتِ هو زمنُ الأمثال ، وإذا ما أُنْبِ المذنبُ تحت قِنَاجِ غريبٍ أَدَّبَ من غير أن يُهان ، وهناك يُدْرِكُ أن المَثَلَ ليس كَذِباً ، وذلك من حيث الحقيقةُ التي يُطَبِّقُها على نفسه ، ولا يُدْرِكُ الولدُ الذي لم يُخْدَعْ قَطُّ بِمَذْجِ شَيْئاً من المَثَلِ الذي بَحَثُ فيه آناً ، بيد أن الطائش الذي خُدِعَ بِمُصَانِعٍ يَتَصَوَّرُ تصوُّراً عَجيباً كَوْنِ الغُرَابِ ليس غيرَ غَيٍّ ، وهكذا فإنه يستنبط مثلاً من حادثٍ ، وما يَنْسَى من تجربةٍ حالاً يُنْقَشُ بِالمَثَلِ في ذهنه ، ولا يُوجَدُ من المَعارِفِ الأدبية ما لا يُمَكِّنُ اكتسابه بتجربة الآخرين أو بتجربة نفسه ، وإذا ما كانت هذه التجربة خَطِرَةً اسْتَنْبَطَتْ عبرتها من القِصَّةِ بدلاً من إتيانها فعلاً ، ومتى كان الاختبارُ غيرَ ذِي بَالٍ كان من الحَسَنِ أن يُعَرِّضَ له الفَتَى ، ثم يُصَاغُ في قَالِبِ أمثالٍ ، وبواسطة الحكاية ، ما عَرَفَ من أحوالٍ خاصة .

ومع ذلك فلا أَقْصِدُ بَسْطَ هذه الأمثال ، ولا التعبيرَ عنها أيضاً ، فلا شَيْءَ فارغٌ ولا سَيِّئُ الفَهْمِ كالناحية الخَلْقِيَّةِ التي يُخْتَمُ بها مُعْظَمُ الأمثال ، وذلك كما لو كانت الناحية الخَلْقِيَّةُ غيرَ مبسوطةٍ في المَثَلِ ، أو كان من غير الواجب بَسْطُها فيه ، وذلك على وجهٍ يَكُونُ به محسوساً لدى القارىء ! ولمَ ،

إِذَنْ ، تُضَافُ هَذِهِ النَّاحِيَةُ الْخُلُقِيَّةُ إِلَى خَاتَمَةِ الْمَثَلِ فَتُنَزَّعُ مِنَ الْقَارِئِ لَذَّةُ
اكتشافه لها بنفسه ؟ يقومُ فَنُ التَّعْلِيمِ عَلَى جَعْلِ التَّلْمِيزِ رَاغِبًا فِي التَّعْلَمِ ،
وَالوَاقِعُ أَنَّهُ لَا يَنْتَبِهُ ، لِرَغْبَتِهِ فِي التَّعْلَمِ ، أَنْ يَبْقَى ذَهْنُهُ مِنَ السَّلْبِيَّةِ فِي
كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَهُ مَا لَا يَصْنَعُ مَعَهُ شَيْئًا غَيْرَ الْإِصْغَاءِ إِلَيْكُمْ ، وَمَا يَجِبُ هُوَ
أَنْ تَتْرَكَ أَنْانِيَّةَ الْمَعْلَمِ ، دَائِمًا ، بَابًا لِلتَّلْمِيزِ ، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : أَذْرِكُ ،
أَبْصِرُ ، أَتَقَدَّمُ ، أَتَعْلَمُ ، وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَجْعَلُ مُمَثِّلَ الْكَيْدِيَّةِ
الْإِيطَالِيَّةِ مُبِلًّا هُوَ مَا يُعْنَى بِهِ مِنْ إِضَاحِهِ لِلْحُضُورِ مَا كَانَ يُسْمَعُ كَثِيرًا ،
وَلَا أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْلَمُ كَذَلِكَ الْمُمَثِّلَ مُطْلَقًا ، وَأَقْلُ مِنْ ذَلِكَ رَغْبَتِي أَنْ
يَكُونَ الْمُؤَلَّفُ مِثْلَهُ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَا تَقُولُ مَفْهُومًا دَائِمًا ، وَلَكِنْ
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَالَ كُلُّ شَيْءٍ دَائِمًا ، فَالَّذِي يَقُولُ كُلُّ شَيْءٍ لَا يَقُولُ غَيْرَ
أَشْيَاءَ قَلِيلَةٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُنْصَتُ لَهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ ، وَمَا مَعْنَى هَذِهِ
الْأَيَّاتِ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي أَضَافُهَا لَافُونَتَيْنِ إِلَى مَثَلِ الضَّفْدَةِ الْمُنتَفِخَةِ ؟ أَيْحَشَى
أَلَّا يُفْهَمَ ؟ أَوْيَحْتَاجُ هَذَا الْمُصَوِّرُ الْعَظِيمُ إِلَى كِتَابَةِ الْأَسْمَاءِ تَحْتَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
يُصَوِّرُهَا ؟ وَيَبْعُدُ مِنْ تَعْمِيمِ نَاحِيَتِهِ الْخُلُقِيَّةِ بِذَلِكَ ، وَهُوَ يَخْصُصُهَا ، وَهُوَ
يَقْصِرُهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ عَلَى الْأَمْثَلَةِ الْوَارِدَةِ ، وَهُوَ يَحُولُ دُونَ تَطْبِيقِهَا عَلَى
أَمْثَلَةٍ أُخْرَى ، وَأَوْدُ قَبْلَ وَضْعِ أَمْثَالِ هَذَا الْمُؤَلَّفِ الْمَنْقُوعِ النَّظِيرِ بَيْنَ
بَدْيِ الْقَتِي أَنْ يُحْدَفَ مِنْهَا جَمِيعُ تِلْكَ النَّتَاجِ الَّتِي احْتَمَلَتْ مُشَقَّةَ إِضَاحِهِ بِهَا
مَا قَالَهُ بِجَلَاءٍ وَعَلَى وَجْهِهِ مُسْتَحْسَنٌ ، وَإِذَا كَانَ تَلْمِيزُكُمْ لَا يُفْهَمُ الْمَثَلُ إِلَّا
بِالْإِضَاحِ فَتَقُولُوا بِأَنَّهُ لَنْ يُفْهَمَهُ حَتَّى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ .

وَمِنَ الْمَهْمِ أَيْضًا أَنْ نُمْنَحَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ نِظَامًا أَكْثَرَ تَعْلِيمًا وَأَعْظَمَ

مطابقةً لتقدم مشاعر الفتى المراهق ومعارفه ، وهل يُتَصَوَّرُ شيءٌ أَقْلُ صَوَابًا من اتِّباع الترتيب العَدَدِيِّ في الكتاب اتباعًا تامًّا مع عدم نظريٍّ إلى الاحتياج أو المناسبة ؟ فالغُرَابُ أَوَّلًا ، ثم الزَّيْرُ^(١) ، ثم الصَّفْدَعَةُ ، ثم البَغْلَانُ ، إلخ . ، وأرى هذين البغلين على قلبي ، وذلك لأنني أذكرُ أنني رأيتُ ولدًا رُبِّيَ للمالية ودُوِّخَ بالوظيفة التي يَشغُلُها ، وقد حُلَّ على قراءة هذا المثل وتعلُّمه وتكراره مئات المرات من غير أن يجدَ أَقْلَ اعتراضٍ على المهنة التي أُعِدَّ لها ، ولم أرَ قطُّ أولادًا يُطَبِّقُونَ ما يَتَعَلَّمُونَ من أمثالٍ تطبيقًا وثيقًا فقط ، بل لم أرَ قطُّ أناسًا يُبَالُونَ بِحَمَلِهِمْ على هذا التطبيق أيضًا ، والتعليمُ الخُلُقِيُّ ذريعةٌ هذا الدرس ، ولكنَّ غَرَضَ الأمِّ والوالدِ الحقيقيَّ لا يقوم على غير شغلِ جماعةٍ به حين تلاوته أمثاله عن ظهر القلب ، وهذا إلى أنه يَنسَاهَا كُلَّهَا في كِبَرِهِ عندما يَعُودُ الأمرُ غيرَ قائمٍ على استظهارها ، بل على الاستفادة منها ، وهذا إلى أن التَّشَقُّفَ بالأمثال لا يَحُصُّ غيرَ الرجال ، وها هو ذا وقتُ بدءِ إميل .

وكذلك بما أنني لا أريد أن أقول كلَّ شيءٍ فإنني أدُلُّ من بعيدٍ على الطُّرُق التي تُبْعَدُ من الطريق الصالحة ، وذلك لِيُعَلِّمَ اجتنابُها ، وأعتقد أنه إذا ما اتَّبَعَ الطريقُ الذي عُنِيَ ابتاعَ تَلْمِيزُكم معرفةَ الرجال ومعرفةَ نفسه بأخصٍ ما يُمكنُ من ثَمَنِ ، وأنكم تُسَكِّنُونَهُ من تأملٍ صُرُوفِ الدهر من غير أن يَحْسُدَ الْمُفَضِّلِينَ عنده على نصيبهم ، راضياً عن نفسه غير ظانٍّ أنه أكثرُ حكمةً من الآخرين ، وقد بدأتم ، أيضاً ، بِجَعْلِهِ مُمَثِّلًا

(١) يجب أن يطبق هنا تصحيح سيوفورمه أيضاً ، فالزير أولاً ، ثم الغراب ، إلخ .

جعلاً له واحداً من الحُضُور ، وَيَجِبُ الإِكَالُ ، وذلك لأن الأشياء تُرَى من أسفل المَسْرَحِ كما تَبْدُو ، وأما من المَسْرَحِ فترى كما هي ، ولا بُدَّ من الجلوس على بُعْدٍ للاشتغال عليها جميعاً ، ولا بُدَّ من الدُّنُوِّ لرؤية الجزئيات ، ولكنْ بآية حجةٍ يتدخلُ الفتى في أمور الدنيا ؟ وما حقُّه في الاطلاع على هذه الأسرار المذلِّمة ؟ إن من مكاييد اللذة ما يُحدِّدُ مصالحَ سِنِّه ، وكذلك فإنه لا يتصرف في غير نفسه ، وهذا كأنه لا يتصرف في شيء ، والإنسانُ أرخصُ السِّلَعِ ، وبين حقوقنا المهمة في التملك تجددُ الحقُّ في الشخص أقلها جميعاً .

وعند ما أرى الفتيان في سنِّ النشاط البالغ يُقَصِّرون على دروسٍ نظريةٍ صِرْفَةٍ ، وأنهم يُقَدِّفون في العالم وفي الأمور دفعةً واحدة ومن غير أقلِّ تجربةٍ ، أجدُ في هذا صَدَمًا للعقل والطبيعة معاً ، وأعودُ لا أدهشُ من قلة مَنْ يَعْرِفون ما بَصَنَعُون ، وبآية ذهنية غريبة نُعَلِّمُ أشياء كثيرةً غير نافعةٍ مع عدم عدِّ قنِّ العمل شيئاً مذكوراً ؟ يُزَعَمُ أننا نُعدُّ للمجتمع ، ونُعلِّمُ كما لو كان على كلِّ واحدٍ منا أن يَقْضِيَ حياته في التفكير وحده داخلَ حُجَيْرَتِهِ ، أو أن يمارِجَ موضوعاتٍ باطلةً مع أخصيائِهِ ، وأنتم تعتقدون أنكم تُعلِّمون أولادكم أمرَ الحياة ، وذلك بتلقينهم شيئاً عن التواء العضل في البدن وصيغاً في الكلام لا معنى لها ، وأنا ، أيضاً ، عَلِمْتُ إِمِيلَ أمرَ الحياة ، وذلك لأنني علَّمته الحياةَ مع نفسه ، وأن يَكْسِبَ عَيْشَهُ فضلاً عن ذلك ، ولكن هذا لا يَكْفِي ، فلا بُدَّ للحياة في العالم من معرفة معاملة الناس ، ولا بُدَّ من معرفة الوسائل التي يؤثرُ بها فيهم ، ولا بُدَّ من تقدير

الفعل وَرَدَّ الفعل للمصلحة الخاصة ضِمْنَ المجتمع المدني ، ومن البَصَرِ في
الحوادث بصراً صائباً فَيَنْدُرُ خَدْعُهُ في مشروعاته ، متخِذاً في كلِّ وقتٍ
أفضلَ وسائلِ النجاحِ على الأقلِّ ، ولا تَسْمَحُ القوانينُ للفتيانِ بالقيامِ
بمصلحتهم الخاصة والتصرفِ في أموالهم الخاصة ، ولكن ما نَفَعُ هذه الاحتياطات
لهم إذا لم يستطيعوا حتى السنِّ المُقَرَّرَةِ اكتسابَ أيةِ تجربةٍ كانت ؟ وما
كانوا لِيَرْتَبِحُوا شيئاً من الانتظار ، وهم يكونون في الخامسة والعشرين من
سِنِّيهم من الجِدَّةِ كما كانوا في الخامسَ عشرَ من عُمرهم ، أَجَلٌ ، يَجِبُ أَنْ يُنَمَّعَ
الفتى الذي يُعْمِيهِ جَهْلُهُ أو تَخَدُّعُهُ أهواؤه من الإضرارِ بنفسه ، ولكنه يُسْمَحُ
للإنسانِ في كلِّ سِنٍّ أَنْ يكونَ محسناً ، ولكنه يُمَكِّنُ في كلِّ سِنٍّ أَنْ يحافظَ
على التعماء الذين لا يحتاجون إلى غيرِ سَنَدٍ ، وذلك تحت إشراف رجلٍ حكيم .
وَيَتَمَسَّكُ المَرَّاضِعُ والأمهاتُ بالأولادِ لِمَا يَبْذُلْنَ لهم من رعاية ،
وَتَحْمِلُ ممارسةُ الفضائلِ الاجتماعية حُبَّ الإنسانية إلى صميمِ الأفتدة ،
وَيُصْبِحُ الإنسانُ صالحاً بفعل الخير ، ولا أَعْرِفُ مَعْرُوفاً أَضْمِنَ من هذا
مطلقاً ، واشْفَلُوا تلميذَكم بالأعمالِ الصالحة التي هي في مُتَنَاوَلِهِ ، وَلَتَكُنْ مصلحةُ
المُعَوِّزِينَ مصلحتَهُ دائماً ، ولا يَقْتَصِرْ على مساعدتهم من ماله ، بل لِيَشْمَلْهُمْ
برعايته ، وَلِيَخْدُمْهُمْ ، وَلِيَحْمِيَهُمْ ، وَلِيَقِفْ شَخْصَهُ ووقته عليهم ، وَلِيَجْعَلْ
من نفسه وكيْلَهُمْ ، فهو لن يقوم في حياته بعملٍ أَنْبَلَ من هذا ، وما
أَكْثَرَ المظلومين الذين لم يُسْمَعْ لهم قَطُّ فَيَفُوزُوا بالعدل عند ما يطلبه لهم بثباتٍ
عظيم تَوَدَّى إليه مزاولةُ الفضيلة ، وعندما يفتح أبوابَ الكُبراء والأغنياء ،
وعندما يَبْلُغُ موطئَ العرش عند الضرورة ، إسماعاً لصوت المَكْرُوبِينَ

المؤصدة دُونَهُمْ جميعُ المقابلات بسبب بُؤْسِهِمْ ، والذين يستحوذ عليهم خوفُ العقاب على مصائبهم التي ابتُلُوا بِهَا فلا يَجْرؤون حتى على التوجُّع منها ! ولكن هل نجعلُ من إميلَ فارساً ذَوَّاراً ، أو بطلاً للمظلومين نصيراً ، أو خيلاً مغواراً ؟ وهل يتدخلُ في الشؤون العامة ، ويجعلُ من نفسه الحكيمَ المدافع عن القوانين لدى الكُبراء والحكَّام والأمير ، ويجعلُ من نفسه المستدعى لدى القضاة والمحامى فى الحاكم ؟ لا أعْرِف شيئاً من جميع هذا ، ولا تُغَيِّرُ كلمتا المُجُون والاستهزاء شيئاً من طبيعة الأمور ، وسيَصْنَعُ كلُّ ما يَعْرِفُ أنه نافع صالح ، ولن يَصْنَعُ ما هو أكثرُ من هذا ، وهو يَعْلَمُ أنه لا نافع ولا صالح له غيرُ ما يلائمُ سِنَّتَهُ ، وهو يَعْلَمُ أن واجبه الأول يكون تجاه نفسه ، وأن على الفتيان أن يحذروا أنفسهم ، وأن يكونوا مُتَحَفِّظِينَ فى سلوكهم ، مُحْتَرِمِينَ لِمَنْ هم أَسْنُّ منهم ، حافظين للسانهم مُنْسَكِينَ عن القول بلا سبب ، متواضعين فى الأمور الخَلِيقَةِ ، ولكن مع إقدامٍ فى صُنْعِ الخير وجُرْأَةٍ فى قول الحقِّ ، وهذا ما كان عليه أولئك الرومان الأماجد الذين كانوا ، قَبْلَ أن يُقْبَلُوا فى المناصب ، يَقْضُونَ شبابَهُمْ فى تعقب الجرمين والدفاع عن الأبرياء من غير أن تكون لهم مصلحةٌ سوى التَّفَقُّهِ حين خدمة العدل والحفاظة على جُسْنِ الأخلاق .

ولا يُجِبُّ إميلُ الضَوْضاءَ ولا الشُّجَارَ بين الناس^(١) ، حتى بين

(١) ولكن ما يكون سلوكه إذا ما شاجره آخر ؟ أجيب عن هذا بقول إنه لن يكون عرضة لشجار ما دام فى وضع لا يعرض معه لشجار ، ولكن يعقب على هذا بأن يسأل : من ذا الذى يكون فى مأمن من صفة أو إهانة تصدر عن فظ أو سكير أو وغد يبدأ بفضح صاحبه حتى يتلذذ بقتله ؟ هذا شيء آخر ، فلا يجوز أن يكون شرف المواطنين ولا حياتهم تحت رحمة فظ أو سكير أو وغد ، ولا يستطيع أحد أن يحفظ نفسه من مثل هذا الحادث كما أنه لا يستطيع أن يحفظها من آجرة ، وتند الصفة أو الإهانة التي تنزل =

الحيوان ، وهو لم يُجَرِّضْ كَلْبَيْنِ عَلَى الْعِرَاقِ قَطُّ ، وهو لم يَحْمِلْ كَلْبًا عَلَى تَعْقِبِ سِنُورٍ قَطُّ ، وهذه النفسُ المسألةُ هي نتيجةُ تربيته التي لم تُثِرْ أَنَانِيَّتَهُ وَلَا زَهْوًا فِيهِ فُخْوَلَتَهُ عَنْ طَلَبِ مَلَادَّةٍ فِي قَهْرِ الْآخَرِينَ وَبُؤْسِهِمْ ، ويؤله منظر الألم ، وهذا شعورٌ طبيعيٌّ ، والذي يَجْعَلُ الْفَتَى يَقْسُو وَيَتَلَذَّذُ بِمَنْظَرِ تَعْذِيبِ كُلِّ ذِي حِسٍّ هُوَ عَذَّةُ نَفْسِهِ مَعْصُومًا مِنْ ذَاتِ الْأَلَامِ بِحِكْمَتِهِ أَوْ بِأَفْضَلِيَّتِهِ عَنْ تَرْدِيدِ زَهْوٍ ، وَمَنْ يَكُنْ وَرَاءَ مَتَاوَلِ الزَّهْوِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ فِي الْعَيْبِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنِ الزَّهْوِ ، وَلِذَا فَإِنْ إِمِيلَ يُحِبُّ السَّلَامَ ، وَيَسْرُهُ خِيَالُ السَّعَادَةِ ، وَهُوَ إِذَا مَا اسْتَطَاعَ الْمُسَاعَدَةَ عَلَى إِحْدَائِهَا كَانَتْ هَذِهِ وَسِيلَةً إِضَافِيَّةً لِمُشَاطَرَةِ النَّاسِ إِيَّاهَا ، وَلَمْ أَفْتَرِضْ أَنَّهُ حِينَ رُؤْيَتِهِ التَّعْسَاءَ لَا يَكُونُ لَدَيْهِ غَيْرُ تِلْكَ الرَّجْعَةِ الْجَدِيدَةِ الْجَافِيَةِ الَّتِي تَكْتَفِي بِالرَّئَاءِ لِكُرُوبِ تَسْتَطِيعِ أَنْ تَشْفِيَ مِنْهَا ، وَمِنْ شَأْنِ خَيْرِهِ الْفَعَالِ أَنْ يَمْنَحَهُ مِنْ فَوْرِهِ مَعَارِفَ مَا كَانَ لِيَنَالَهَا مَطْلَقًا بِقَلْبٍ أَشَدَّ قَسْوَةً ، أَوْ إِنَّهُ يَنَالُهَا مُؤَخَّرًا ، وَهُوَ إِذَا مَا رَأَى خِلَافًا بَيْنَ رَفَقَاتِهِ حَاوَلَ أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَهُمْ ، وَهُوَ إِذَا مَا رَأَى حُرْنَاءَ بَحَثَ عَنْ سَبَبِ كَرْهِهِمْ ، وَهُوَ إِذَا مَا رَأَى رَجُلَيْنِ مُتَبَاغِضَيْنِ أَرَادَ

= ويحتمل من النتائج المدنية التي لا تستطيع أية حكمة أن تمنع وقوعها ، ولا تستطيع أية حكمة أن تنتقم للامتدنى عليه ، ونقص القوانين يجعله في هذا مستقلا إذن ، فهناك يكون وحده حاكما وقاضيا بينه وبين الممتدنى ، ويكون وحده مفسرا ومديرا للقانون الطبيعي ، ويكون من الواجب عليه إقامة العدل ويمكنه أن يقيمه وحده ، ولا يوجد في الأرض حكومية تبلغ من السخافة ما تجاوزه على إقامته لنفسه في مثل هذه الحال ، ولا أقول إنه يجب عليه أن يقاتل ، فهذه حماقة ، وإنما أقول إنه ملزم بإقامة العدل لنفسه وإنه وحده موزع له في ذلك ، ولو كنت ملكا لأعرضت عن المراسيم الكثيرة الفارغة حول المبارزات ولأجبت بأنه لا يكون هناك صفة ولا إهانة في ملكتي مطلقا ، وذلك بوسيلة بالغة البساطة لا تتدخل المحاكم فيها أبدا ، وبهذا يكن من أمر فإن إميل في مثل هذه الحال يعرف ما يجب عليه من عدل لنفسه ، كما يعرف العبرة التي يأتي بها تفعا لسلامة ذرى الشرف ، ولا يتوقف على أثبت الرجال أن يحول دون الإهانة ، وإنما يتوقف عليه أن يحول دون التفاخر طويلا بما كان من إهاتته .

أَنْ يَعْرِفَ عِلَّةَ بُغْضائِهِمْ ، وهو إذا ما رأى مظلوماً يئن من مظالم
ذِي سُلْطَانٍ وَذِي ثَرَاءٍ بَحَثَ عَنْ وَسَائِلَ لِرَفْعِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ ، وما يساوره
من اكْتِرَاثٍ لِجَمِيعِ الْبَائِسِينَ يَجْعَلُهُ يُغْنَى بِالْوَسَائِلِ الَّتِي يُخْتِمُ بِهَا بُؤْسَهُمْ ،
وما نَصْنَعُ لِلانْتِفَاعِ بِهَذِهِ الْقَابِلِيَّاتِ عَلَى وَجْهِ يَلَاثِمِ سِنِّهِ ؟ أَنْ نَنْظِمَ جِهودَهُ
وَمَعَارِفَهُ ، وَأَنْ نَسْتَخْدِمَ غَيْرَتَهُ لَزِيَادَتِهَا .

وَلَا أَتَلَبُّ مِنْ قَوْلِي مُكْرَرًا : اجْعَلُوا جَمِيعَ دُرُوسِ الْفَتَيَّانِ عَمَلِيَّةً أَكْثَرَ
مِنْهَا كَلَامِيَّةً ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّمَ الْأَوْلَادُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهُ مِنْ
التَّجَرِبَةِ ، وَيَا لِسَخَافَةِ خِطَّةٍ فِي تَمَرِينِهِمْ عَلَى الْكَلَامِ مَعَ عَدَمِ وَجُودِ مَوْضُوعٍ يَتَكَلَّمُونَ
عَنْهُ ، وَفِي اعْتِقَادِ جَعْلِهِمْ يَشْعُرُونَ ، وَهُمْ عَلَى مَقَاعِدِ الْمَدْرَسَةِ ، بِقُوَّةِ لِسَانِ الْأَهْوَاءِ
وَبِجَمِيعِ قُوَّةِ فَنِّ الْإِقْنَاعِ ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ وَجُودِ مَصْلُحَةٍ فِي إِقْنَاعِ أَحَدٍ !
أَلَا إِنْ جَمِيعَ قَوَاعِدِ الْبَيَانِ لَا تَبْدُو غَيْرَ هَذَرٍ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ اسْتِخْدَامَهَا تَفْعًا
لَهُ ، وَمَا أَرَبُ التَّلْمِيزِ فِي مَعْرِفَتِهِ كَيْفَ شَجَّعَ أَنْبِيَالُ جُنُودِهِ عَلَى مَجَاوِزَةِ جِبَالِ
الْأَلْبِ ؟ يَقُولُوا بَأَنَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ اتِّبَاهًا إِلَى قَوَاعِدِكُمْ لَوْ قَلَّمْتُ لَهُ ، بَدَلًا مِنْ هَذِهِ
الْخُطْبِ الْفُخْمَةِ ، مَا يَجِبُ أَنْ يَضْنَعَ لِحِمْلِ مَدِيرِهِ عَلَى مَنْحِهِ عَطْلَةً .

وَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَ الْبَيَانَ عَلَى فَتَى نَمَتْ جَمِيعُ أَهْوَائِهِ لَمَرَّضْتُ
عَلَيْهِ بَلَا انْقِطَاعِ أُمُورًا صَالِحَةً لِمَدَارَاةِ أَهْوَائِهِ ، وَلَدَرَّسْتُ مَعَهُ مَا يَجِبُ أَنْ
يَتَّخِذَ مِنْ لِسَانِهِ نَحْوَ الْآخَرِينَ حَمَلًا لَمْ عَلَى اسْتِحْسَانِ رَغَائِبِهِ ، يَبْدُو أَنْ
إِمِيلَ لَيْسَ فِي وَضْعٍ مَلَأْتُمُ لَفْنَ الْبَيَانِ بِهَذَا الْمَقْدَارِ ، فَهُوَ إِذْ قَصِرَ تَقْرِيبًا
عَلَى الْمَادَى الضَّرُورِيِّ فَإِنَّهُ أَقَلُّ احْتِيَاجًا إِلَى الْآخَرِينَ مِنْ احْتِيَاجِ الْآخَرِينَ
إِلَيْهِ ، وَهُوَ إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِ مَا يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ لِنَفْسِهِ فَإِنْ مَا يُرِيدُ إِقْنَاعَهُمْ بِهِ

لا يَمَسُّه عن كَسْبٍ فَيَهْزَهُ إِلَى الغَايَةِ ، ومن ثَمَّ يُرَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ،
على العموم ، ذا لسانٍ بَسِيطٍ قَلِيلِ المَجَازِ ، وذلك لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ
مَقْصُودٍ عَادَةٍ ، وَلِيَكُونَ مَفْهُومًا فَقَطْ ، وهو قَلِيلُ الحِكْمِ والأَمْثَالِ ، وذلك
لأنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ تَعَمِيمَ أَفْكَارِهِ ، وهو قَلِيلُ الصُّورِ ، وذلك لِأَنَّهُ مِنَ النَادِرِ أَنْ
يَكُونَ هَاوِيًا .

ومع ذلك فليس ذلك لِأَنَّهُ فَاتِرُ المَزَاجِ بَارِدٌ تَمَامًا ، فلم تَكُنْ سِنُّهُ ،
ولا أَذْوَاقُهُ ، ولا أَخْلَاقُهُ ، لَتَسَمَحَ بِذلك ، وهو فِي دَوْرٍ مَرَاهِقَتِهِ النَّارِيَّةِ
تَحْمِيلُ الأَرْوَاحِ لِلنُّفْسَةِ ، المُخْتَرِسةُ المَقْطَرَةُ المُكَرَّرَةُ فِي دَمِهِ ، إِلَى قَلْبِهِ
الْفَتِيَّ حَرَارَةً تَلْمَعُ فِي نَظَرَاتِهِ وَتُحْسُّ فِي كَلَامِهِ وَتُبْصِرُ فِي أَعْمَالِهِ ، وَقَدْ
اكتَسَبَ مَنَظِقَهُ نَبَرَةً ، وَصَوْلَةً أحيانًا ، وما يُبْلِغُهُ مِنْ شَعُورٍ نَبِيلٍ يَمْنَحُهُ
القُوَّةَ والرَّفْعَةَ ، وبما أَنَّهُ أَشْرَبَ حُبَّ الإِنْسَانِيَةِ الرَقِيقِ فَإِنَّهُ يُفْضِي حِينَ
يَتَكَلَّمُ بِخَوَاطِرِ قَلْبِهِ ، ولا أَعْرِفُ كَيْفَ هَذَا ، وَلَكِنْ يَوْجَدُ فِي صِدْقِ طَوِيلَتِهِ
مِنَ الفَتُونِ ما هُوَ أَعْظَمُ مما يَوْجَدُ فِي بَلَاغَةِ الآخَرِينَ المَصْنُوعَةِ ، وَإِنْ شئتَ
قُلْ إِنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ البَلِيعُ حَقًّا ما كَانَ عَلَيْهِ فَقَطْ أَنْ يُظْهِرَ ما بَشَعُرُ بِهِ
لِيَنْقُلَهُ إِلَى مَنْ يَسْتَمْعُونَ لَهُ .

وكَلِمَا فَكَّرْتُ فِي ذلكَ وَجَدْتُ ، حِينَ أَضَعُ حُبَّ الخَيْرِ مَوْضِعَ العَمَلِ عَلَى
ذلكَ الوجهِ ، وَحِينَ أَسْتَنْبِطُ مِنْ تَوْفِيقِنَا الحَسَنِ أَوِ السَّيِّئِ تَأْمُلَاتٍ حَوْلَ أَسْبَابِهِ ،
مَعَارِفَ نَافِعَةٍ قَلِيلَةٍ لا يُمَكِّنُ تَعَهُّدُهَا فِي رُوحِ الفَتَى ، وَأَنْ هَذَا الفَتَى
يَكْتَسِبُ ، زِيَادَةً عَلَى ذلكَ ، وَمَعَ ما يُمَكِّنُ اِكْتِسَابُهُ فِي المَدَارِسِ مِنْ مَعْرِفَةٍ
صَحِيحَةٍ ، عِلْمًا أَكْثَرَ أَهْمِيَّةً أَيْضًا ، وهو تَطْبِيقُ هَذَا المُكْتَسَبِ عَلَى أَغْراضِ
(٢٩)

الحياة ، وإذا ما بَلَغَ ذاك القَدَارَ من الاكتراث لأمثاله لم يَكُنْ من الممكن
أَلَّا يَتَمَلَّمْ بِاِكْرًا وَزْنَ أَعْمَالِهِمْ وَأَذْوَاقِهِمْ وَمَلَأْذَمٍ وَتَقْدِيرَهَا وَأَلَّا يَجْعَلَ ،
على العموم ، لِمَنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَسَاعِدَ سَعَادَةَ النَّاسِ أَوْ يَضُرَّهَا قِيَمَةً أَقْوَمَ
مِمَّا يَجْعَلُ لِمَنْ لَا يُيَاوَنُ بِأَحَدٍ فَلَا يَضَعُونَ لِلآخِرِينَ شَيْئًا مطلقاً ، وَيُرَى
الَّذِينَ لَا يُعْنَوْنَ بِغَيْرِ أُمُورِهِمُ الْخَاصَّةِ كَثِيرُ الْوَلَعِ بِالْحُكْمِ فِي الْأَشْيَاءِ حَكَمًا
سَدِيدًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذْ يَعْدُونَ كُلَّ شَيْءٍ مُؤَثِّرًا فِيهِمْ وَحَدِّهِمْ ، وَيُنْظَمُونَ
مَبَادِئَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَفَقَ مَصْلَحَتِهِمُ الْوَحِيدَةَ ، يَمْلَأُونَ نَفْسَهُمْ بِأَلْفِ مُبْتَسِرٍ
مُثِيرٍ لِلشُّخْرِيَّةِ ، وَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مِنْ قَوَرِهِمْ انْقِلَابَ جَمِيعِ الْعَالَمِ فِي كُلِّ
مَا يُصِيبُ أَقْلَ مَنْفَعَةٍ لَهُمْ .

وَلَنَجْعَلَ الْأَثَرَةَ شَامِلَةً لِلآخِرِينَ ، وَلَنُحَوِّلَهَا إِلَى فَضِيلَةٍ ، وَالْفَضِيلَةُ هِيَ
مَا لَا يُوجَدُ فَوَادٍ لَا يَكُونُ جَذْرُهَا فِيهِ ، وَكَلِمَا قَلَّ ارْتِبَاطُ غَرَضِ جِهْدِنَا فِيهَا
مَبَاشَرَةً قَلَّ الْخَوْفُ مِنْ وَهْمِ الْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ ، وَكَلِمَا عُمَمَتْ هَذِهِ الْمَصْلَحَةُ صَارَتْ
مَنْصَفَةً ، وَلَيْسَ حُبُّ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ شَيْئًا غَيْرَ حُبِّ الْعَدْلِ فِيْنَا ، وَإِذَا مَا
أَرَدْنَا أَنْ يُحِبَّ إِمِيلُ الْحَقِيقَةَ ، إِذَنْ ، وَإِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ يَعْرِفَهَا ،
فَلَنُمَسِّكَهُ بَعِيدًا مِنْ نَفْسِهِ دَائِمًا ، وَكَلِمَا وَقَفَ جِهْدُهُ عَلَى سَعَادَةِ الْآخِرِينَ
كَانَتْ هَذِهِ الْجُهُودُ نِيَّةً حَكِيمَةً وَقَلَّ خَدْعُهُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَكِنْ
لَا نَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ أَىَّ تَفْضِيلٍ أَعْمَى قَاسِمٍ ، حَضْرًا ، عَلَى الْحَابَةِ وَسَبْقِ
الْمَيْلِ الْخَالِفِ لِلْعَدْلِ ، وَلِمَ يُؤْذَى فَرْدًا خِدْمَةً لِآخَرٍ ؟ إِنْ مِمَّا يَهْمُهُ قَلِيلًا
أَمْرٌ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ سَعَادَةٍ فِي الْقِسْمَةِ بِشَرْطِ أَنْ يَسَاعِدَ عَلَى أَعْظَمِ
سَعَادَةٍ لِلْجَمِيعِ ، فَهَنَّاكَ مَصْلَحَةُ الْعَاقِلِ الْأَوَّلَى بَعْدَ مَصْلَحَتِهِ الْخَاصَّةِ ، وَذَلِكَ

لأن كلَّ واحدٍ جزء من نوعه ، لا جزء من فردٍ آخر .

وَيَجِبُ ، لِلْحَوَلِ دُونَ تَدَنِّي الرَّحْمَةِ إِلَى ضَعْفٍ ، أَنْ نَعْمَمَ إِذَنْ ،
فَتُنَشَرَ بَيْنَ جَمِيعِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ، وَهَنَالِكَ لَا يُسْتَرْسَلُ فِيهَا إِلَّا بِمَقْدَارِ
اتِّفَاقِهَا مَعَ الْعَدْلِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَدْلَ ، بَيْنَ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ ، هُوَ أَكْثَرُهَا
مُسَاعَدَةً عَلَى النَّفْعِ الْعَامِّ ، وَيَقْضِي الْعَقْلُ وَحُبُّنَا لِنَفْسِنَا أَنْ تَكُونَ رَحْمَتُنَا
لِنَوْعِنَا أَكْثَرَ مِمَّا لِحَارِنَا ، فَمَنْ الْقَسْوَةُ الْكَبِيرَةُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُرَحِّمَ الْأَشْرَارَ .
وَلَكِنْ مِمَّا يَجِبُ تَذَكُّرُهُ هُوَ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الَّتِي أُقْذِفَ بِهَا
تَلْمِيزٌ خَارِجٌ نَفْسَهُ هَكَذَا ذَاتُ صَلَاحٍ مُبَاشِرَةٍ بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ ذَلِكَ
مَا نَشَأَتْ عَنْهَا لَذَّةٌ بَاطِنِيَّةٌ فَضْلًا عَنْ كَوْنِي أَعْمَلُ لِتَعْلِيمِهِ الْخَاصَّ إِذْ أُجْعَلُهُ
مَحْسِنًا نَفْعًا لِلْآخَرِينَ .

وَالْوَسَائِلُ هِيَ أَوَّلُ مَا قَدَّمْتُ ، وَالْآنَ أُرِي نَتِيجَتَهَا ، وَيَا لِلْمَنَظَرِ
الْكَبِيرِ الَّتِي أُرِي انْتِظَامَهَا فِي رَأْسِهِ شَيْئًا فَنِيئًا ! وَيَا لِلْمَشَاعِرِ الرَّفِيعَةِ
الَّتِي تُطْفِئُ فِي قُودِهِ أَصْلَ الْأَهْوَاءِ الْحَقِيرَةِ ! وَيَا لَصَفَاءِ التَّمْيِيزِ وَسَدَادِ الْعَقْلِ
الَّذِينَ أَبْصَرُوا تَكْوِينَهُمَا فِيهِ يَفْعَلُ الْمَيُولُ الْمُهْذَبَةُ وَالتَّجَرِبَةُ الَّتِي تَجْمَعُ آمَالَ
النَّفْسِ الْعَظِيمَةِ ضَمْنَ حَدِّ الْمُمَكِّنَاتِ الضَّيِيقِ ، وَالَّتِي تَجْعَلُ الرَّجُلَ الَّذِي
يَعْلَمُ الْآخَرِينَ يَعْرِفُ أَنْ يَهْيِطَ إِلَى مَسْتَوَاهُمْ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْارْتِقَاءِ إِلَى مَسْتَوَاهُ !
إِنْ مَبَادِي الْعَدْلِ الْحَقِيقِيَّةِ وَنَمَازِجِ الْجَمَالِ الْحَقِيقِيَّةِ وَجَمِيعِ صَلَاتِ النَّاسِ الْأَدْبِيَّةِ
وَجَمِيعِ آرَاءِ النَّاسِ فِي النِّظَامِ تُنْفَسُ ضِمْنَ إِدْرَاكِهِ ، فَيَرَى مَكَانَ كُلِّ شَيْءٍ
وَالسَّبَبَ الَّذِي يُبْعِدُهُ مِنْهُ ، وَيَرَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجِبَ الْخَيْرَ وَمَا يَمْنَعُهُ ،
وَهُوَ مِنْ غَيْرِ شَعُورٍ بِالْأَهْوَاءِ الْبَشَرِيَّةِ يَعْرِفُ مَا يُسْفِرُ عَنْهَا مِنْ أَوْهَامٍ وَعَمَلٍ .

وَأَتَقَدَّمَ مُسَوِّقًا بِقُوَّةِ الْأُمُورِ ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَفْرِضَ نَفْسِي مُتَحَكِّمًا
 فِي أَحْكَامِ الْقُرَاءِ ، وَالْقُرَاءَ مَا انْفَسَكُوا يَرَوْنَنِي فِي بِلْدِ الْأَوْهَامِ مِنْذُ زَمَنِ
 طَوِيلٍ ، وَأَمَّا أَنَا فَمَا فَتَتُّ أَرَاهِمُ فِي بِلْدِ الْمُبْتَسِرَاتِ ، وَمَا فَتَتْتُ ، بِابْتِعَادِي
 عَنِ الْآرَاءِ الْعَامِيَةِ كَثِيرًا ، أَرَاهِمُ مَائِلِينَ فِي ذَهْنِي وَأَذْرُسُهُمْ ، وَأَفَكِّرُ فِيهِمْ ،
 لَا لِأَتَبِعَهُمْ وَلَا لِأَتَجَنَّبَهُمْ ، بَلْ لِأَزِنَهُمْ بِمِيزَانِ الْبِرْهَانِ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ
 يَحْمِلُنِي الْبِرْهَانُ عَلَى الْابْتِعَادِ عَنْ هَذِهِ الْآرَاءِ الْعَامِيَةِ أَعْلَمُ ، عَنْ تَجَرُّبَةٍ ،
 أَنْ قُرَأَنِي لَا يُقَلِّدُونَنِي ، وَأَعْرِفُ أَنَّهُمْ ، إِذَا يُصِرُّونَ عَلَى عَدَمِ تَصَوُّرِهِمْ
 مُمْكِنًا غَيْرَ مَا يَرَوْنَ ، يَمْدُدُونَ الْفَتَى الَّذِي أَصَوَّرَهُ مَوْجُودًا خَيَالِيًّا وَهْمِيًّا
 لِاخْتِلَافِهِ عَنِ يَقَابِلُونِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، وَهُمْ يَنْسَوْنَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَخْتَلِفَ عَنْهُمْ
 مَا دَامَ قَدْ نُسِّيَ عَلَى غَيْرِ مَا نُشُّوا ، وَتَأَثَّرَ بِمَشَاعَرَ مَغَايِرَةٍ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ ،
 وَتَعَلَّمَ عَلَى خِلَافٍ مَا تَعَلَّمُوا ، فَتَسْكُونُ مُشَابَهَتُهُ لِمَا أَدْعَى إِلَى الْحَيَرَةِ مِنْ
 ظُهُورِهِ كَمَا أَفْتَرَضُهُ ، وَهُوَ لَيْسَ إِنْسَانًا الْإِنْسَانِ ، بَلْ إِنْسَانُ الطَّبِيعَةِ ،
 وَلَا مِرَاءَ فِي وَجُوبِ كَوْنِهِ غَرِيبًا فِي أَعْيُنِهِمْ كَثِيرًا .

وَإِنِّي حِينَ بَدَأْتُ هَذَا الْكِتَابَ لَمْ أَفْتَرِضْ شَيْئًا لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أُلَاحِظَهُ
 أَنَا وَالْآخَرُونَ ، وَأَعْنِي بِذَلِكَ وَلَادَةَ الْإِنْسَانِ الَّتِي هِيَ نَقْطَةُ انْطِلَاقِ نَسِيرٍ
 مِنْهَا جَمِيعًا عَلَى السَّوَاءِ ، وَلَكِنَّا كُلُّمَا تَقَدَّمْنَا ابْتَعَدَ بَعْضُنَا عَنْ بَعْضٍ لِمُرَاعَاةِ
 الطَّبِيعَةِ وَلِإِفْسَادِكُمْ إِيَّاهَا ، وَكَانَ تَلْمِيزِي وَهُوَ فِي السَّادِسَةِ مِنْ سِنِيهِ يَخْتَلِفُ
 عَنْ تَلْمِيزِكُمْ قَلِيلًا ، لِمَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ مِنَ الْوَقْتِ مَا تُشَوِّهُونَهُمْ مَعَهُ ،
 وَالْآنَ عَادَ لَا يَوْجَدُ شَيْءًا يَتَشَابَهُونَ بِهِ ، وَمَا يَجِبُ هُوَ أَنْ تُبَدِّيَهُ سَنُ
 الرُّجُولَةِ ، الَّتِي يَدْنُو مِنْهَا ، عَلَى شَكْلِ مُطْلَقِ الْاِخْتِلَافِ عَنْهُمْ مَا لَمْ أَكُنْ قَدْ

أضعتُ جميعَ جهودي ، أجلْ ، قد تكون كميةُ المكتسبِ متساويةً لدى الطرفين ، بيدَ أن الأمورَ المكتسبة لا تتشابه مطلقاً ، ومن دواعي حيرتكم أن تجدوا لدى واحدٍ من المشاعر العالية ما لا يوجدُ لدى الآخرين أقلُّ أصلٍ له ، ولكن اذكروا أيضاً أن هؤلاء صاروا فلاسفةً ولاهوتيين قبل أن يعرف إميلُ ما الفلسفة وقبل أن يسمع قولاً حتى عن الربِّ .

وإذا أنتم وقلم لي : « لا يوجدُ أحدٌ ممن تفتري ضُّ ، ولم يُصنع الفيتيانُ على هذا الوجه مطلقاً ، وعندهم هذا الهوى أو ذاك ، وهم يفعلون هذا أو ذاك » ، كان هذا كإنكاركم إمكانَ وجودِ شجرةٍ كمثرى كبيرةٍ ، وذلك لأنه لا يرى غيرُ أشجارٍ كمثرى قصيرةٍ في حدائقنا .

وأرجو من هؤلاء القضاة المُسرَّعين في اللوم أن يذكروا أن ما يقولون هناك مما أعرفُ كما يعرفون ، وأن من الراجح أن فكرتُ فيه ملياً ، وأنه يَحِقُّ لي ، وليس لي غرضٌ في قرضه ، أن يُنفقوا من الوقت ، على الأقلِّ ، ما يَبْحَثُونَ فيه عمّا أُخدع منه ، وليَبْحَثُوا جيداً في كيان الإنسان ، وليَتَتَبَعُوا مراحلَ نشوءِ القلبِ الأولى في هذا الحال أو ذاك ، ليروا مقدارَ ما يُمكن الفردَ أن يختلف عن الآخر بقوة التربية ، ثم لِيَقَابِلُوا بين منهاجِي في التربية والنتائج التي أعزوها إليه ، وليَقُولُوا وجه الخطأ في بياني ، فهناك لا يكون لدىَّ ما أُجيب عنه .

والذي يَحْتَمِلُنِي أكثرَ تأكيداً لذلك ، وأهلاً للمعذرة عن ذلك ، كما أعتقد ، هو أنني أقلُّ ما يُمكنُ التفاتاً إلى البرهان وأنتى لا أعتد على غير المشاهدة ، وذلك بدلاً من استنادي إلى أيِّ مذهب ، ولا أقم أفكاري

على ما تَخَيَّلْتُ مطلقاً ، بل على ما رأيتُ ، أَجَلٌ ، إننى لم أَقْصُرْ تجارِجِي
ضِمْنَ أسوارِ مدينَةٍ ، كما أننى لم أَقْصُرْها على طبقةٍ واحدةٍ من الناس ،
بَيِّدَ أننى ، بعد أن قابلتُ بين كثيرٍ من الطبقات والشعوب التى أمكننى
أن أراها فى حياةٍ قُضِيَتْ فى ملاحظتها ، حَذَفْتُ ، كأمرٍ مصنوعٍ ، ما هو
من شعبٍ ، لا من آخرٍ ، وما هو من طبقةٍ ، لا من أخرى ، ولم أَعُدَّ ،
على أنه خاصٌّ بالإنسان خصوصاً لا رَيْبَ فيه ، غيرَ ما هو مشتركٌ بين
الجميع فى أىِّ دَوْرٍ من العُمُر كانوا ، ومن أية طبقة كانوا ، وإلى أية
أمةٍ انتسبوا .

والواقعُ أنكم إذا كنتم ، وَفَقَ هذا المِنْهَاجَ ، تَتَعَقَّبُون ، منذ دَوْرٍ
الصبا ، فتى لم يكتسب شكلاً خاصاً مطلقاً ، فيكون أقلَّ ما يُمكن اتِّباعاً
لسلطان الآخرين وآرائهم ، فهل تَرَوْنَ أنه يكون أكثرَ مشابهةً لتلميذى
أو لتلميذكم ؟ فهذه هى المسئلة التى يَلُوح لى وجوبُ حلِّها ليُعْرِفَ هل
أنا على ضلال .

ولا يَسْهَلُ على الإنسان أن يبدأ بالتفكير ، ولكنه إذا ما أَخَذَ يُفَكِّرُ
لم يَنْقَطِعْ عن التفكير مطلقاً ، وَمَنْ يُفَكِّرُ يُفَكِّرُ دائماً ، وعند ما تُمرَّن
قوة الإدراك على التأمل ذاتَ مرةٍ تَعُودُ غيرَ قادرةٍ على البقاء ساكنةً ،
وَيُمْكِنُ أن يُعْتَقَدَ أننى أَفْعَلُ كثيراً أو قليلاً ، وأنه ليس من طبيعة
الإنسان أن يَتَفَتَّحَ سريعاً ، وأننى ، بعد أن أُعْطِيَ من التسهيل ما ليس
لديه ، أُمْسِكُهُ لطويلِ زمنٍ مقيداً ضِمْنَ دائرةٍ من الأفكار يَجِبُ أن
يجاوزها .

/ ولكن اذكروا ، أوّلاً ، أنتى حين أريدُ تكوينَ إنسان الطبيعة ، لا أوْدُ أن أجْعَلَ منه لهذا السبب وحشياً وأن أقْصِيَه إلى وَسْطِ الغاب ، وإنما يَكْفِيَه ، وهو محصورٌ داخلَ عاصفةِ المجتمع ، ألا تَسُوْقُه أهواءُ الناس ولا آراؤهم ، وأن يرى بعينه ويشعرَ بقلبه ، وألا يسيطر عليه سلطانٌ خارجٌ سلطانِ عقله الخاصِّ ، ومن الواضح في هذا الوَضْع أن كثرةَ الأمور التى تَقِفُ نظره ، ووفرةَ المشاعر التى تؤثرُ فيه ، ومختلفَ الوسائل التى تُقْضَى بها حاجاته الحقيقيةُ أشياءَ يَجِبُ أن تُعْطِيَه من الأفكار الكثيرة ما ليس لديه ، أو ما يكتسبه رؤيَداً رؤيَداً ، وقد عَجَلَ تَقَدُّمُ الذهنِ الطبيعيُّ ، ولكنه لم يُقَلِّبْ ، والإنسانُ ، الذى يجب أن يَبْتَقِيَ غِيَّياً فى الغاب ، يَجِبُ أن يَغْدُوَ عاقلاً رصيناً فى المدن إذا ما كان ناظراً بسيطاً فيها ، ولا شىءَ أصْلَحُ لجعل الإنسان حكيماً من الحماقات التى يراها من غير أن يشترك فيها ، حتى إن الذى يَشْتَرِكُ فيها يَتَعَلَّمُ أيضاً بشرطٍ ألاَّ يُخْذَعُ بها ، وألاَّ يَحْمِلَ إليها خطأً مَنْ يأتونها .

واذكروا ، أيضاً ، أننا ، إذ نُقْصِرُ بأهليتنا على الأمور المحسوسة ، لا نكاد نَجِدُ سبيلاً إلى المبادئ الفلسفية المجردة وإلى الأفكار الذهنية الصَّرفة ، ويَجِبُ ، لِبُلُوغِهَا ، أن نتخلص من الجسم الذى ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً ، أو أن نتقدم ، بالتدرج وعلى مَهْلٍ ، من شىء إلى آخر ، أو أن نجاوز الفاصلةَ بسرعةٍ وبوثبةٍ واحدةٍ تقريباً وبخطوةٍ هائلةٍ لا تُسْتَطَاعُ فى دور الصِّبَا ، بخطوةٍ تقتضى القيامَ بِعِدَّةِ درجاتٍ تُصَنِّعُ حتى للرجال قَصْداً ، والفكرُ الجردُ الأول هو أولى هذه الدرجات ، ولكنه يَشُقُّ على كثيرٍ أن أرى كيف يَعمُ للبال صنعُها .

وإن الموجودَ غيرَ المفهوم ، والمحيطَ بكلِّ شيء ، وواهبَ الحركة للعالم ، وصانعَ نظام الكائنات ، لا تُذكرُ الأَبصارُ ، ولا تلمسه الأيدي ، ولا تناله حواسنا ، فالصُّنعُ بادي ، ولكن الصانع خافٍ ، ثم إن معرفة وجوده ليست من الأمور الصغيرة ، ومتى بَلَّغْنَا هذا ، ومتى سألنا : من هو ؟ أين هو ؟ اضطرب ذهننا وتاه ، وعُدْنَا لا نَعْرِفُ فِيمَ نَفَكِّرُ .

وَيُرِيدُ لَوْ أَنَّ يُبْدَأَ بِدِرَاسَةِ الْأَرْوَاحِ ، وَأَنَّ يُنْتَقَلَ بِعَدِّ ذَلِكَ إِلَى دِرَاسَةِ الْأَجْسَامِ ، وَهَذَا هُوَ مِنْهَاجُ الْخِرَافَاتِ وَالْمُبْتَسِرَاتِ وَالضَّلَالِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهَاجَ الْعَقْلِ مُطْلَقًا ، وَلَا مِنْهَاجَ الطَّبِيعَةِ الْمُتَقَنَةِ التَّنْظِيمِ أَيْضًا ، وَهَذَا هُوَ إِغْمَاضُ الْعَيُونِ لَتَعْلَمُ الرَّؤْيَا ، وَلَا بُدَّ مِنْ دِرَاسَةِ الْأَجْسَامِ زَمْنًا طَوِيلًا حَتَّى يُمَكِّنَ تَكْوِينُ فِكْرٍ صَحِيحٍ عَنِ الْأَرْوَاحِ وَيَتَصَوَّرَ أَنَّهَا مُوجُودَةٌ ، وَلَا يَضْلُحُ النِّظَامُ الْمَعَاكِسَ لغير قيام الدَّهْرِيَّةِ .

وَبِمَا أَنَّ حَوَاسِّنَا هِيَ أَوْلَى مَعَارِفِنَا فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ الْمَادِّيَّةَ الْمَحْسُوسَةَ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ لَدَيْنَا فِكْرَةً مُبَاشِرَةً عَنْهَا ، وَلَيْسَ لِكَلِمَةِ « رُوح » أَيُّ مَعْنَى لِمَنْ لَمْ يَتَفَلَسَفْ ، وَلَيْسَ الرُّوحُ غَيْرُ جِسْمٍ لَدَى الْعَوَامِّ وَالْأَوْلَادِ ، أَوْ لَا يَتَصَوَّرُونَ أَرْوَاحًا تَصْبِيحُ وَتَتَكَلَّمُ وَتُحَدِّثُ ضَجِيجًا ؟ وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ سَيُعْتَرَفُ لِي بِأَنَّ هُنَاكَ أَرْوَاحًا لَهَا دُرْعَانٌ وَالسَّنَةُ تُشَابِهُ الْأَبْدَانَ كَثِيرًا ، وَلِذَا تَرَى جَمِيعَ أُمَمِ الْعَالَمِ ، وَمِنْهَا الْيَهُودُ ، قَدْ جَعَلَتْ لَهَا آلِهَةً ذَوَى أَجْسَامٍ ، وَتَرَانَا ، أَيْضًا ، مِنَ الْمُشَبَّهَةِ بِكَلِمَاتِ الرُّوحِ وَالثَّلَاثِ وَالْأَقَانِيمِ ، وَأَعْتَرَفَ بِأَنَّنَا نُعَلِّمُ أَنَّ نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَلَكِنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ الْهَوَاءَ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَيْضًا ، أَى فِي جَوِّنَا عَلَى الْأَقْلَى ، وَلَا تَعْنِي كَلِمَةُ « رُوح » فِي أَصْلِهَا غَيْرَ « نَسْمَةٍ »

و « ربح » ، وإذا ما عوّذتم الناس على قول كلماتٍ من غير أن يدركوها سهّل عليكم بعد ذلك أن تجعلوهم يقولون كلّ ما تريدون .

وَنَحْمِلُنَا حِسُّ تَأْثِيرِنَا فِي الْأَجْسَامِ الْأُخْرَى عَلَى اعْتِقَادِنَا فِي الْبُدْءِ أَنَّهَا حِينَ تَوْثُرُ فِينَا يَكُونُ تَأْثِيرُهَا مُشَابِهاً لِلْوَجْهِ الَّذِي نَوْثُرُ بِهِ فِيهَا ، وَهَكَذَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بَدَأَ بِأَحْيَاءِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي كَانَ يُحْسِ تَأْثِيرَهَا ، وَالْإِنْسَانُ إِذْ شَعَرَ بِأَنَّهُ أَقْلٌ قُوَّةً مِنْ مُعْظَمِ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ ، عَنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِمَحْدُودِ قُدْرَتِهَا ، افْتَرَضَ أَنَّهُ لَانْهَاءِ لِهَذِهِ الْقُدْرَةِ فَجَعَلَ مِنْهَا آلِهَةً حَالِمًا جَعَلَ مِنْهَا أَجْسَامًا ، وَالنَّاسُ فِي الْأَجْيَالِ الْأُولَى إِذْ خَافُوا كُلَّ شَيْءٍ لَمْ يَرَوْا مَوْتًا فِي الطَّبِيعَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ فِكْرَةُ الْمَادَّةِ أَقْلَ بَطْوَءًا فِي تَكْوُنِهَا بَاطِنًا مِنْ فِكْرَةِ الرُّوحِ مَا دَامَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ تَجَرِيدًا بِنَفْسِهِ ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُمْ مَلَأُوا الْكَوْنَ بِآلِهَةٍ ذَوِي إِحْسَاسٍ ، فَكَانَ لِكُلِّ مَنْ النُّجُومِ وَالرِّيَّاحِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالشَّجَرِ وَالْمَدَنِ ، حَتَّى الْبُيُوتِ ، رُوحُهُ وَآلِهَتُهُ وَحَيَاتُهُ ، وَكَانَتْ أَصْنَامُ لَا بَانَ وَمَعْبُودَاتُ الْمُتَوَحِّشِينَ وَأَوْتَانُ الزُّنُوجِ وَجَمِيعُ أَعْمَالِ الطَّبِيعَةِ وَالنَّاسِ أُولَى آلِهَةٍ لِلْأَنَامِ ، وَكَانَ تَعَدُّدُ الْآلِهَةِ أُولَى دِينٍ لَهُمْ ، وَكَانَتْ الْوَثْنِيَّةُ عِبَادَتَهُمُ الْأُولَى ، وَهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْاعْتِرَافَ بِآلِهِ وَاحِدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ عَمَّمُوا أَفْكَارَهُمْ مَقْدَارًا فَقَدَارًا فَأَصْبَحُوا فِي حَالٍ يَرْتَقُونَ بِهِ إِلَى الْعِلَّةِ الْأُولَى وَيَجْمَعُونَ مَعَهُ نِظَامَ الْمَوْجُودَاتِ الشَّامِلِ تَحْتَ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ وَيُطْلِقُونَ مَعْنَى عَلَى كَلِمَةِ « الْجَوْهَرِ » الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْمَجْرَدَاتِ فِي الْأَسَاسِ ، وَلِذَا فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَثْنِيًّا بِحَكْمِ الضَّرُورَةِ ، أَوْ إِنَّهُ مُشَبَّهٌ عَلَى الْأَقْلِ ، وَإِذَا حَدَّثَ أَنْ أَبْصَرَ الْخَيَالُ الرَّبَّ ذَاتَ مَرَّةٍ كَانَ مِنَ النَّادِرِ تَمَثُّلُهُ بِقُوَّةِ الْإِدْرَاكِ ، وَهَذَا هُوَ الْخَطَأُ الَّذِي يُؤْدِي إِلَيْهِ مَذْهَبُ لُوكِ .

فأما وقد انتهيتُ ، ولا أدري كيف ، إلى فكرة الجوهر المجردة يرى ، للتسليم بالجوهر الفرْد ، أنه يجب أن تُفترض له خاصَّياتٌ متناقضةٌ متنافيةٌ تبادلاً كالتصوُّر والحجم القابلِ أحدهما للانقسام والذين ينفى الآخرُ منهما كلَّ قابليَّةٍ للانقسام ، ثمَّ إنَّ مما يُذكرُ كونَ التصوُّر ، وإن شئت فقلَّ الإحساس ، خاصَّيةً أصليَّةً غيرَ قابلةٍ للانفصال عن الجوهر المتعلِّقة به ، وقلَّ مثلَ هذا عن الحجم بالنسبة إلى الجوهر ، ومن ثمَّ يُستنتجُ كَوْنُ الموجوداتِ التي تَفْقِدُ إحدى هذه الخاصَّياتِ تَفْقِدُ الجوهرَ الذي تَتعلَّقُ به ، وَكَوْنُ الموتِ ليس سوى تَفَرُّقِ الجواهر ، وكونُ الموجوداتِ التي تَتَّحِدُ فيها هاتان الخاصَّيتان مؤلَّفةً من جوهرين تَتعلَّقُ بهما هاتان الخاصَّيتان .

والآن اذْكُرُوا ، كما هو الواقع ، أيُّ بُعدٍ لا يزال باقياً بين مبدأ الجوهريِّ ومبدأ الطبيعة الإلهية ، وبين المبدأ غيرِ المُدرَكِ عن عَمَلِ روحنا في بدنتنا ومبدأ عَمَلِ الرَّبِّ في جميع المخلوقات ، وكيف تَتَمَثَّلُ مبادئُ الخَلْقِ والزوالِ والوجودِ في كلِّ مكانٍ والأزليَّةِ والقدرةِ المطلقةِ ومبدأ الصفاتِ الإلهيةِ ، كيف تَتَمَثَّلُ هذه المبادئُ التي ينفردُ أناسٌ قليلون إلى الغايةِ برويتها بالغةِ الإبهامِ والغموضِ كما هي ، والتي لا غُمُوضَ فيها لدى العوامِّ لعدم إدراكهم شيئاً منها ، كيف تَتَمَثَّلُ بجميع ما فيها من قوَّةٍ ، أي بجميع ما فيها من غُمُوضٍ ، لفتينانٍ لا يزالون يُشغَلون بأعمالِ الحواسِّ الأولى ولا يَتَصَوَّرُونَ غيرَ ما يَلْمِسُونَ ؟ ومن التَبَثُّ أن تَكُونَ هُوى اللانهايِّ كُلُّها مفتوحةً حَوْلَنا ، ولا يَعْرِفُ الولدُ أن يَخَافَها مطلقاً ، ولا تستطيع عيناه الضميفتان أن تَسْبُرَا غَوْرَها ، وكلُّ شيءٍ لانهائيٌّ عند الأولاد ، ولا يَعْرِفُ الأولادُ

أَنْ يَضَعُوا حَدُودًا لشيء ، لا لأنهم يَجْعَلُونَ القياسَ طويلاً جِدًّا ، بل لأن إدراكهم قصيرٌ ، حتى إنني لاحظتُ وَضَعَهُمُ اللانهايَّةَ دون الأبعاد التي يَعْرِفُونَ ، وهم يُقَدِّرُونَ المسافةَ الواسعةَ بأرجلهم أكثرَ مما بأعينهم ، ولا تمتدُّ المسافةُ عندهم إلى أبعدَ مما يُمكنهم أَنْ يَرَوْا ، بل لا تمتدُّ إلى أبعدَ مما يُمكنهم أَنْ يَسِيرُوا ، وإذا ما حَدَّثُوا عن قدرة الرَّبِّ قَدَّرُوهُ بالغًا مثلَ قدرةِ أبيهم تقريبًا ، وبما أن معرفتهم في كلِّ أمرٍ تكون عندهم مقياسًا للممكنات فإنهم يَحْكُمُونَ فيما يقال لهم دائمًا بأنه أقلُّ مما يَعْرِفُونَ ، فهذه هي الأحكام الطبيعية التي تَصْدُرُ عن ذهنٍ جَهُولٍ ضعيفٍ ، وقد خَشِيَ أَجَكْسُ أَنْ يَقيسَ بِأَشِيلَ ، وقد دعا جُوبيترَ للقتال عن مَعْرِفَةِ بِأَشِيلَ وعدمِ معرفةِ بيجوبيتر ، وقد كان أحدُ قَرَوِي سويسرة يَظُنُّ أنه أغنى الناس ، فلما أَوْضَحَ له شَأْنُ المَلِكِ سأل مُخْتَلًا : « هل يستطيع المَلِكُ أَنْ يَمْلِكَ مِثْلَ بقرةٍ في الجبل ؟ » .

وَأُبْصِرُ كثرةَ القراء الذين يَحَارُونَ من تَتَبَّعِي الدَّورَ الأولَ من عُمر تلميذِي من غير أن أَحَدَهُم عن الدين ، وقد كان ، ابنًا للخامسة عشرة من سِنِيهِ ، لا يَعْرِفُ هل له رُوحٌ ، ومن المحتمل أنه ، إذا ما بلغ الثامنة عشرة من سِنِيهِ ، لم يَحِلَّ من الوقت ما يتعلَّم معه هذا ، وذلك لأنه إذا ما تَعَلَّمَ بأسرعٍ مما يَجِبُ تَعَرَّضَ لخطر عدم تَعَلُّمِهِ مطلقًا .

ولو كان عليَّ أن أَصوِّرَ الفباوة المِفْمةَ لَصَوَّرْتُ متحذلقًا يُعَلِّمُ الأولادَ كتابَ الدين ، ولو أردت أن أَجْعَلَ الولدَ مجنونًا لَحَمَلْتُهُ على إيضاح ما يقول عند قراءته كتابَ دينه ، وسُيْمَتَرَضُ عليَّ بأن يقال إن أكثر العقائد النصرانية إذ كانت أسرارًا فإن انتظار الدَّورِ الذي تصير فيه نفسُ الإنسان

قادرة على إدراكها يَعْنِي انتظارَ تَحَوُّلِ الولدِ إلى رجلٍ ، أَيْ انتظارَ غُدُوِّ الرجلِ غيرَ موجودٍ ، وأَوَّلُ ما أُجِيبُ به عن هذا وجودُ أسرارٍ يتعذَّرُ على الرجلِ أن يَتَمَثَّلَهَا فضلاً عن اعتقادها ، ولا أرى ما يُكَسِّبُ من تعليم الأولاد إياها غيرُ تدريسهم الكَذِبَ باكراً ، وأقولُ زيادةً على ذلك إن الإقرارَ بالأسرار يَتَقَضَى بِإِدْرَاكِ كَوْنِهَا لا تَدْرِكُ على الأقلِّ ، ولا يَقْدِرُ الأولادُ حتى على ذلك الإدراك ، ففي السَّنِّ التي يكون كلُّ شيءٍ سِرّاً فيها لا تُوجَدُ أسرارٌ حَصْراً .

« يجب أن نؤمن بالله إذا أردنا النجاة » ، فهذه العقيدة التي أُسِيءَ إدراكُها هي أصلُ عدم التسامح السَّفَّاح ، وهي سببُ جميع تلك التعاليم الباطلة التي تُصِيبُ العقلَ البشريَّ بضربة قاضية عن تعويده القناعة بالكلمات ، ولا مِرَاءَ في أنه يجب عدمُ إضاعة ساعةٍ لاستحقاق النجاة الأبدية ، بَيِّدَ أنه يَكْفِي تَكَرُّرُ بعض الألفاظ لَتَنِيلِهَا ، ولا أرى ما يَمْنَعُ من إعمار السماء بالزَّرازير والغِرْبَانِ كما بالأولاد .

وَيَفْتَرِضُ واجبُ الإيمان إمكانَ الإيمان ، وَيُخْطِئُ الفيلسوفُ الذي لا يؤمن ، وذلك لسوء استعماله العقلَ الذي تَعَهَّدَهُ ، ولأنه في حالٍ يُدْرِكُ بها الحقائق التي يَنْبِذُهَا ، ولكن ما يَمْتَقِدُ الولدُ الذي يَدِينُ بالنصرانية ؟ يَمْتَقِدُ ما يُدْرِكُ ، وهو من قلة إدراك ما يُحْمَلُ على قوله ما إذا قُلْتُمْ له العكسَ سَلَّمَ به طَوْعاً أيضاً ، وَيُعَدُّ إيمانُ الأولاد وكثيرٍ من الرجال أمراً جِغَرافِيّاً ، وهل يكافأون على ولادتهم في رُؤْمَةٍ أكثرَ مما في مَكَّةَ ؟ يُقَالُ لأحدهم إن محمداً رسولُ الله فيقول إن محمداً رسولُ الله ، ويقال لآخر إن

محمدًا مآكرً فيقول إن محمدًا مآكرٌ ، وكان كلُّ واحدٍ يُوكِّدُ ما يُوكِّدُ الآخرُ لو غيَّرَ مكانه ، وهل يُمكنُ أن يُسارَ عن مَقْصِدَيْنِ متشابهين إلى الغاية فيُرْسَلَ أحدهما إلى الجنة والآخَرُ إلى النار؟ وإذا قال الولد أومن بالله فليس الله هو الذي يؤمن به ، بل يؤمن ببطرس أو يعقوب الذي يقول له إنه يُوجدُ شيءٌ يُسمَّى الرَّبَّ ، وهو يؤمن به على طريقة أوريبيدس القائل :

« أئى جُوبيتر الذى لا أعْرِفُ منه غيرَ اسمِهِ ^(١) ! » .
ونَذْهَبُ إلى أن كلَّ ولدٍ يَمُوتُ قبلَ سِنِّ العقلِ لا يُحَرِّمُ السَّعادةَ الأبديةَ ، ويعتقد الكاثوليكُ عَيْنَ الشيءِ عن كلِّ ولدٍ عُدَّ وإن لم يَسْمَعْ حديثًا عن الله ، وتُوجدُ ، إذن ، أحوالٌ تُمكنُ النجاةَ بها من غيرِ إيمانٍ بالله ، وتَكُونُ هذه الأحوالُ فى الولودية وفى الجنون حينًا يَعجزُ الروحُ البشرى عن الأفمال اللازمة لمعرفة الله ، ويقوم الخلافُ الذى أراه هنا بينى وبينكم على زعمكم أن الأولاد حائزون هذه القابلية فى السادسة من سنينهم وعلى كونى لا أُمْنَحُهُم إياها حتى فى الخامس عشر من عمرهم ، وسواء على أ كنتُ مخطئًا أم صائبًا ليس الأمرُ هنا مادةَ إيمانٍ ، بل ملاحظةٌ بسيطةٌ حَوْلَ التاريخِ الطبيعى .

ويَتَضَحُّ من عَيْنِ المبدئِ أن الإنسانَ إذا ما بَلَغَ المَشِيبَ من غيرِ إيمانٍ بالله لا يُحَرِّمُ ، لهذا السبب ، تَحَضَّرَ الرَّبُّ فى الحياة الآخرة إذا لم

(١) بلوقارك : رسالة فى الحب ، ترجمة أميو ، وذلك هو الذى تبدأ به مأساة ميثاليوس ، غير أن صيحات أهل أثينة أكرعت أوريبيدس على تفسير ذلك إنبهه .

يَكُنْ عَمَاهُ اخْتِيَارِيًّا ، وأقول إنه ليس اختياريًّا دائماً ، وتوافقون ، من حيث المجازين ، على أن مَرَضًا يَحْرِمُهُمْ خصائصهم الروحانية ، لا خاصية الإنسان ولا الحق في نِعَم خالقهم نتيجةً ، ولِمَ لا نوافق على مثل ذلك ، إذَنْ ، في أمر أولئك الذين فُرِزُوا من كلِّ مجتمع منذ صِبَاهم قَقْصُوا حياة بالغة الهمجية وحرّموا من المعارف ما لا يُكْتَسَب إِلَّا بمعاشرة الناس؟^(١) وذلك لأن من المُحَال الثابت قدرة مثل هذا الهمجى على الارتقاء بتأملاته إلى معرفة الإله الحق ، ويُخَيِّرُنَا العقل بأن الإنسان لا يُجَازَى إِلَّا بسيناته المقصودة ، وأن جهلاً حائقاً كذاك لا يُمَكِّنُ عَدُوَّ جنائيه منه ، ومن ثمَّ يُسْتَنْبِطُ أن كُلَّ إنسانٍ يُحَسَّبُ مؤمناً أمام العدل الأبدى إذا كان لديه من البصائر ما هو ضرورى ، وأنه لا يوجد من الكفار من يُجَازُونَ غير الذين أَقْفَلَتْ قلوبهم دون الحق .

ولنَحْتَرِزْ من أن نُنْسِيْ بالحقيقة مَنْ ليسوا قادرين على إدراكها ، وذلك لِمَا يَنْطَوِي عليه هذا من إقامة الخطأ مقامها ، وأجدرُ أَلَّا تُحَازَ أيةُ فكرةٍ عن الألوهية من أن تُحَازَ عنها أفكارٌ حقيرةٌ وهمية ضارة غير لائقةٍ بها ، وَلَآنَ نُنْكَرُ أَقْلُ سَوْءاً من أن تُهَانَ ، قال بِلوتارك الصالح : « أَفْضَلُ كثيراً أن يُعْتَقَدَ عدمُ ظهورِ بِلوتارك في العالم على أن يقال إن بِلوتارك ظالمٌ حاسدٌ مُغْيَارٌ ، وأن يكون طَلَاباً أكثر من أن يكون فَعَّالاً إذا ما كان جَبَّاراً » .

(١) انظر إلى القسم الأول من رسالة « أصل التفات » حول الحال الطبيعية للروح البشرية وحول

بطء تقدمها .

وأعظمُ سوء في الصُّورِ المُشوَّهةِ عن الألوهية التي تُنقَشُ في ذهن الأولاد هو أنها تَبْقَى فيه هكذا مَدَى حياتهم ، فيعودون لا يَتَصَوَّرُونَ ، إذا ما صاروا رجالاً ، إلهاً آخرَ غيرَ إله الأولاد ، ومما رأيتُ في سويسرة ربةً أُنْزَرةٍ صالحةٌ تَقِيَّةٌ بَلَفَتْ من اعتقادها هذا المبدأ ما لم تُرِدْ معه ، قَطُّ ، أن تُعَلِّمَ ابنها الدِّينَ في الدور الأول من العمر ، وذلك خشيةً أن يَقْنَعَ بهذا التعليم الغليظ فلا يلتفتَ إلى ما هو أحسنُ منه إذا ما بَلَغَ سِنَّ الرشد ، وكان هذا الولدُ لا يَسْمَعُ حديثاً عن الرَّبِّ إِلَّا مع جَمْعِ الحواسِّ والإجلال ، وكان ، إذا ما أراد الكلام عنه بنفسه ، يُفَرِّضُ السكوتَ عليه كموضوعٍ رفيعٍ بالغِ العِظَمِ بالنسبة إليه ، وكان هذا التَّحَفُّظُ يُثِيرُ فُضُولَهُ ، وكانت أَثَرُهُ تَتَطَلَّعُ إلى وقت الإطلاع على هذا السِّرِّ الذي يُخْفَى عنه بكثيرٍ من العناية ، وكان كلما قَلَّ تَحْدِيثُهُ عن الرَّبِّ ، وَقَلَّ سَماعُهُ لنفسه بالحديث عن الرَّبِّ ، كَثُرَ اكْتِراثُهُ له ، فهذا الولدُ كان يَرى الرَّبَّ في كُلِّ مكان ، وكان أَكْثَرُ ما أخافه من أمر هذا السِّرِّ الذي يُلَوِّحُ به على غير رِصانةٍ أن يُلْهَبَ خيالُ الفتى كثيراً فَيُقْلَبَ رأسُهُ وَيُجْعَلَ منه متعصبٌ بدلاً من أن يُجْعَلَ منه مؤمنٌ .

ولكن لا نَخَفُ شيئاً من هذا على إميلَ الذي لا يَلْتَفِتُ إلى كُلِّ ما هو فوق مُتَنَاوَلِهِ ، فَيَسْمَعُ ، مع عدم اكْتِراثٍ عميقٍ ، إلى ما لا يُدْرِك من الأمورِ ، وما أَكْثَرَ الأمورَ التي تَعَوَّدُ إميلُ أن يقول عنها بلا تَفْرِيقٍ : « إن هذا لا يَمْنِينِي » ، فتى أخذ يبالى بهذه المسائل الكبيرة لم يَصْدُرْ هذا عن اقْتِراحٍ يَسْمَعُهُ ، وإِنما يَنْشَأُ عن توجيه معارفه ، التي تَقَدَّمتْ تَقَدِّماً

طبيعياً ، مباحته إلى هذه الناحية .

وقد رأينا أى الطرق التى تَدْنُو بها الروح البشرية المُثَقَّفة من تلك الأسرار ، وأُتِّمَّ طَوْعاً بأنها لا تَنْتَهِى إليها ، بِحُكْم الطبيعة ، فى صميم المجتمع نفسه كما فى سِنِّ أَكْثَرِ تَقَدُّمًا ، ولكن بما أنه يوجد فى المجتمع من الأسباب ما لا يُجْتَنَّب فيُعْجَلُ به تَقَدُّمُ الأهواء فإنه إذا لم يُعْجَلْ تَقَدُّمُ المعارف التى تَنْفَع فى تنظيم هذه الأهواء ، خُرج من نظام الطبيعة حقًا واختَلَّ التوازن ، وإذا لم يُسَيَّطَرَّ على تعديل تقدم كثير السرعة وَجَبَ أن يُفَادَ بذات السرعة أولئك الذين يجب أن يلائموا ، وذلك لكيلا يُقَلِّبَ النظام ، ولكيلا يَنْفَصِلَ عنه من يجب أن يلائمه ، ولئلا يكون الإنسان ، الذى هو كلُّه فى جميع أوقات حياته ، عند هذه المرحلة ببعض أهلياته ، وعند تلك المرحلة بأهلياته الأخرى .

ويا للعقبة التى أرى قيامها هنا ! هذه العقبة التى تَعْظُمُ كلما كانت فى الأشياء أقلَّ منها فى جُبْنٍ من لا يَجْرؤون على اقتحامها ، ولْنَبْدَأْ بِالْإِقْدَامِ على عَرْضِها على الأقلِّ ، ويجب أن يُنْشَأَ الولد على دين أبيه ، وَيُبرَّهَنُ للولد دائماً بَرَهَنَةً حَسَنَةً على أن هذا الدين وحده ، مهما كان ، هو الدين الحقُّ ، وأن جميع الأديان الأخرى ليست غير باطلٍ وهذيان ، وتَتَوَقَّفُ قُوَّةُ البراهين من هذه الناحية ، تَوَقُّفًا مطلقًا ، على البلد الذى تُعْرَضُ فيه ، وَلْيَذْهَبِ التُّرْكِيُّ ، الذى يَجِدُ النصرانية فى الآستانة غايةً فى السخافة ، إلى باريسَ ليرى كيف يُنْظَرُ إلى الإسلام فيها ! فى موضوع الدين ، على الخصوص ، يُكْتَتَبُ النصر للمُبْتَسِرِ ، وأما نحن الذين يريدون خَلْعَ نِيرِهِ

عنا في كل شيء ، وأما نحن الذين لا يريدون مَنَحَ السلطان شيئاً ، وأما نحن الذين لا يودُّون تعلِيمَ إميل شيئاً لا يستطيع أن يتعلَّمه بنفسه في كلِّ بلدٍ ، فملى أى دين نُربِّيه ؟ وإلى أى مذهبٍ نَضُمُ ابن الطبيعة هذا ؟ إن الجواب بسيطٌ إلى الغاية كما يلوح لى ، وهو أننا لن نَضُمَّ إلى هذا أو إلى ذلك ، وإنما نَضُمَّه في حالٍ يختار فيها الدين الذى يسوقه إليه حُسْنُ إعمالِ عقله .

« أسيرُ من بين النيران التى يَسْتَرُّها رماذٌ خادعٌ » .

لا ضيرَ ! قامت الفِيرةُ وحُسْنُ النيةِ عندى مقامَ الحذرِ حتى الآن ، وأرجو ألا تَتْرُكْنِي هذه الضماناتُ عند الضرورة مطلقاً ، ولا تخافوا ، أيها القراء ، صدورَ احترازاَتٍ منى غيرَ لاثقةٍ بصديق الحقيقة ، فلن أنسى شعارى ، ولكننى أَسْمَحُ لنفسى كثيراً بأن أَحْذَرَ من أحكامى ، وأقولُ لكم ما يُفَكِّرُ فيه رجلٌ أفضلُ منى بدلاً من أن أقولَ لكم ما أفكَّرُ فيه بنفسى ، وأضْمَنُ صِدْقَ الوقائع التى أرويهما لكم ، فهى قد حَصَلَتِ للمؤلف الذى أنقلها منه ، وأنكم أن تَرَوْا هل يُمكنُ استنباطُ تأملاتٍ مفيدةٍ منها حَوْلَ الموضوع الحاضر ، ولا أقترحُ عليكم اتخاذَ رأىٍ أو رأى رجلٍ آخرَ قاعدةً ، وها أنا ذا أعْرِضُها عليكم للبحث فيها* :

« منذ ثلاثين سنةً وُجِدَ شابٌ في مدينةٍ إيطالية ، وُجِدَ فيها شابٌ نَفَى من وطنه فكان في أشدِّ درجات الفاقة ، وكان قد وَلِدَ كَلْفَنِيًّا ،

• يقصد المؤلف نفسه فيها ، والكلمة له ، فهو يقص فيها خبر إقامته بتورينوسنة ١٧٢٨ ، ومن يرغب في تشصيل ذلك فليراجع الباب الثانى من « الاعترافات » للمؤلف ، (المترجم) .

ولكنه ، وقد وُجِدَ لاجئاً إلى بلدٍ أجنبيٍّ بلا معاشٍ نتيجةً طَبِشٍ ، غيرَ دينه نَيْلاً للعيش ، وكان يُوجَدُ في هذه المدينة مأوى للمهتدين حديثاً فُقبلَ فيه ، ويُعَلِّمُ الجدَلَ فيُلَقِّنُ شُبُهَاتٍ لم تكن عنده ، ويُعَلِّمُ سُوءاً كان يَجْهَلُهُ ، وذلك أنه يَسْمَعُ عَقَائِدَ جديدةً ، ويرى طبائعَ أكثرَ جِدَّةً أيضاً ، ويراها ، ويكاد يَذْهَبُ ضَيِّقَهَا ، ويريدُ الفِرَارَ ، ويُثَقِّلُ عليه ، وَيَشْكُو ، ويعاقبُ على شَكْوَاهُ ، وَيَقَعُ تحتَ رحمة طُغَاثِهِ ، ويعاملُ معاملةَ المجرمين لأنه لم يَرِدِ الإذعانَ للإجرام ، وَلَيَتَصَوَّرُ حالةَ فَوَادِهِ أولئك الذين يَمُرُّونَ مَبْلَغَ مَا يَثِيرُ بِلَاةِ العنفِ الأولِ وبِلَاةِ الجورِ الأولِ في قَلْبِ فَتَى غيرِ مُجَرَّبٍ ، وتَذَرِفُ عيناه دموعَ الغَيْظِ ، وَيَخْنُقُهُ الحَنَقُ ، وَيَضْرَعُ إلى السماءِ والناسِ ، وَيَأْتِنُ الْعَالَمَ فلا يَنْصِتُ له أحدٌ ، ولا يَرَى غيرَ حَذَمِ أَدْنِيَاءِ خاضعينَ للقُضُوحِ الذي يَهْمِيهِ ، أو شركاءَ في ذاتِ الذَّنْبِ يَسْخَرُونَ من مقاومته فيَحَرِّضُونَهُ على تقليدهم ، وقد كاد يَضِلُّ لو لم يَأْتِ الملجأُ إِكْبِلِيرِيكِيٌّ صالحٌ لبعضِ الشُّوْنِ ، فيَجِدُ وسيلةً لاستشارته سِرّاً ، وكان هذا القسيسُ فقيراً ، وكان محتاجاً إلى جميعِ الناسِ ، ولكن المظْهَرُ كان أشدَّ احتياجاً إليه ، فلم يتردَّدْ في مساعدته على الفِرَارِ مجازفاً بانتحالِ عَدُوٍّ خَطِرٍ لنفسه .

« وَيَنْجُو الشابُّ من المُنْكَرِ لِيَعُودَ إلى الفقرِ ، فيكافِحُ مصيره على غيرِ جَدْوَى ، وذلك مع اعتقاده ، ذاتَ حينٍ ، أنه يَفُوزُ عليه ، وتُنْصَى هُمُومُهُ وحاميه عند أولِ وَمِيزٍ من حُسْنِ الطالعِ ، ولم يَلْبَثْ أنْ عَوَّقَ على هذا الكُنُودِ ، فقد زالت جميعُ آماله ، وذلك أنه ، وإن كان له عَوْنٌ بشبابه ، كانت أفكارُهُ الروائيةُ تُفْسِدُ كُلَّ شَيْءٍ ، وذلك بما أنه ليس لديه

من الاستعداد والحذق ما يكفي لشق طريق سهل ، وبما أنه لا يعرف أن يكون معتدلاً ولا خبيثاً ، فإنه ادعى أموراً كثيرة لم ينل منها شيئاً ، وذلك أنه إذ وقع في ضيقه الأول خالياً من العيش خالياً من المأوى ، وكاد يموت جوعاً فقد ذكر المحسن إليه .

« ويعود إليه ، ويحده ، ويحسن قبوله ، ويذكر منظره الإكليريكي بعمل صالح كان قد صنعه ، وذكرى مثل هذه تسر النفس دائماً ، ومن الطبيعي أن كان هذا الرجل إنسانياً رءوفاً ، فكان يحس آلام الآخرين بالآلامه ، ولم يقس قلبه يسر قط ، والخلاصة أن دروس الحكمة والفضيلة المنورة كانتا قد ثبتتا صلاحه الطبيعي ، ويستقبل الشاب ، ويبحث له عن مأوى ، ويوصى به ، ويقاسمه حاجته الذي لا يكاد يكتفي الاثنين ، ويفعل أكثر من هذا ، وذلك أنه يتفقه ويسليه ويعلمه فتاً صعباً ، يعلمه فن احتمال البؤس بصبر ، فيا أصحاب المبسرات ، أنتظرون وجود جميع هذا من قسيس ، في إيطالية ؟

« وكان هذا الإكليريكي الصالح قساً فقيراً من سافوا ، وكان قد أساء إلى أسقفه عن نزق شباب ، فجاوز الجبال بحثاً عن مورد كان يفوزه في بلده ، ولم يكن خالياً من ذكاء ولا ثقافة ، وهو ، لما كان من محبي الوجبة للالتفات ، وجد من الحماة من جعلوه عند وزير لينشئ ابنه ، ويفضل الفقر على الخضوع ، ولا يعرف كيف يكون سلوكه لدى الكبراء ، فلا يبتقى طويلاً عند ذاك ، وهو ، إذ يتركه ، لا يفقد مكانته مطلقاً ، وهو ، إذ يعيش عيش حكيم يحب نفسه إلى جميع الناس ، ويتعبط بما

لاقى من عَفْوٍ أُسْقِفِهِ ، فينال منه أُبْرَشِيَّةً صغيرة في الجبال لقضاء بقية أيامه فيها ، وكان هذا آخرَ حَدٍّ لطموحه .

« وَيَنْجَذِبُ إِلَى الشَّابِّ اللَّاحِظِ ، وَيَسْأَلُهُ بِاهْتَامٍ ، وَيُبَيِّنُ أَنْ سَوْءَ الطَّالِعِ أَذْبَلَ قَلْبَهُ ، وَأَنَّ الْأَزْدِرَاءَ وَالخَزْيَ ثَلَمًا بِأَسِهِ ، وَأَنَّ زَهْوَهُ تَحَوَّلَ إِلَى حُزْنٍ مُرٍّ فَلَا يَدُلُّهُ ، بَيِّنِي النَّاسَ وَقِسْوَتَهُمْ ، عَلَى غَيْرِ عَيْبِ طَبِيعَةِ النَّاسِ وَوَهْمِ الْفَضِيلَةِ ، وَكَانَ قَدْ رَأَى أَنَّ الدِّينَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ قِنَاعٍ لِلْمَنْفَعَةِ ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَقْدَّسَةَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ سِوَى سِتَارٍ لِلرِّيَاءِ ، وَكَانَ قَدْ رَأَى ، بِدَقَائِقِ الْجَدَلِ الْفَارِغِ ، أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ جُعِلَتَا فِي مَقَابِلِ التَّلَاعِبِ بِالْأَلْفَاظِ ، وَكَانَ قَدْ رَأَى أَنَّ فِكْرَةَ الْأُلُوْهِيَةِ الْعَالِيَةِ الْفِطْرِيَّةِ شَوَّهَتْ بِخَيَالَاتِ النَّاسِ الْجَلَامِحَةَ ، وَهُوَ ، إِذْ وَجَدَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَسْتَلْزِمُ عُدُولًا عَنِ الْعَقْلِ الَّذِي أَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، نَظَرَ بَعَيْنِ الْاِمْتِهَانِ إِلَى أَوْهَامِنَا الْمُضْحَكَةِ وَإِلَى الْأَمْرِ الَّذِي نَطَبَّقُهَا عَلَيْهِ ، وَهُوَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ أَصْلِ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَصَوُّرًا لَهُ ، غَاصَ فِي غِبَاوَتِهِ مَعَ اَزْدِرَاءِ عَمِيقٍ لَجَمِيعٍ مَنْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ عَنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ .

« وَيُودِي نَسِيانُ الدِّينِ إِلَى نَسِيَانِ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِ ، وَكَانَ هَذَا التَّقَدُّمُ نِصْفَ بَعِيدٍ مِنْ فَوَادِ هَذَا الْمَلْحَدِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَيِّئَ النَّتِيجَةِ ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ الْإِلْحَادَ وَالْبُؤْسَ كَانَا يَخْتَفِقَانِ الْفِطْرَةَ بِالتَّدرِيجِ فَانْهَمَا كَانَا يَسْوَقَانِهِ إِلَى الْبَوَارِ عَلَى عَجَلٍ ، وَلَا يُعِدَّانِ لَهُ غَيْرَ طِبَاعٍ وَغَدٍ ، وَأَخْلَاقٍ زَنْدِيقٍ .

« وَلَمْ يَكْمُلِ الشَّرُّ ، الْحَاقِقُ تَقْرِيْبًا ، عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَكَانَ يَوْجَدُ لَدَى الْفَتَى

معارف ، ولم تُهْمَلْ تربيته ، وكان في ذلك العمر السعيد حيث يأخذ الدم الفائر في تدفئة الروح من غير تعبيدها لصَوَلات الحواس ، ولم تَزَلْ نفسه محافظةً على نابضها ، وكان الحياء الطبيعيُّ والخلقُ الهَيُوبُ يقومان مقام الضيق فيطيلان له ذلك الدور الذي تُتَمَسِّكون فيه تلميذكم بِجُهْدٍ كثير ، وما كان من مثالٍ بغِيضٍ عن الفساد البَهْمِيِّ والنُّكْرَ بلا فتونٍ أضعف خياله بدلاً من إنعاشه ، وقد قام النفور مقام الفضيلة في حِفْظِ طهره زمنٍ طويل ، وما كان طهره لِيُذْهِبَ لغير أعْذَبِ إغواء .

« وَأَبْصَرَ الْقَسَّ الْخَطَرَ والوسائلَ ، وما كانت المصاعبُ لَتُخَمِدَ نشاطه ، وَيُرْضِيهِ عمله ، وَيَعِزُّمَ على إنجازهِ ، وَأَنْ يُعِيدَ إلى الفضيلة تلك الضحية التي كان قد انتشلها من الرذيلة ، ويأخذ في تنفيذ خطته متحفظاً ، وتُثِيرُ روعةَ الحافظ شجاعته وتُوَحِّى إليه بالوسائل التي تناسب غَيْرَتَهُ ، ومهما يَكُنْ من حاصلٍ فإنه كان واثقاً بعدم إضاعة وقته ، وَيُكْتَبُ النجاح دائماً لمن لم يُرِدْ غيرَ فعل الخير .

« وَيَبْدَأُ بِكسب ثقة المهتدي حديثاً بعدم سؤاله أجراً على أياديه مطلقاً ، وبعدم ظهوره مرعجاً له مطلقاً ، وبعدم قيامه بمواعظ نحوه مطلقاً ، وبجعل نفسه في مستواه دائماً ، وبتصاغره حتى يساويه ، وكان هذا ، كما يُلَوِّح لي ، منظرأ على شيء من التأثير لما يُرَى به رجلٌ رصين رقيقاً لمحتال ، ولما تُرَى به الفضيلة مُنْصِتَةً لصوت الإباحة حتى تنتصر عليها لا رَيْبَ ، وَيَبْنَى كان الطائشُ يَكْشِفُ له عن سَرَائِرِ الرُّغْنِ وَيَفْتَحُ له قلبه كان الْقَسُّ يستمع له وَيُنَاتِي السَّكِينَةَ إلى فؤاده ، وكان يكثر لكل شيء من غير

استحسان للسوء ، ولم يَكُنْ لِيَصْدُرْ عنه لَوْمٌ مخالفٌ للرَّصانةِ صَدًّا لَهْذَرِه
وَحَصْرًا لَصَدْرِه ، وما وَجَدَ من لَذَّةٍ في الاستماعِ إليه زاده رغبةً في قول
كلِّ شيء ، وهكذا قام باعترافه العامُّ ظانًّا أنه لم يَقُمْ بِأَيِّ اعترافٍ كان .
« وَيَرَى القَسِيسَ من الواضح ، بعد أن دَرَسَ مشاعره وأخلاقه ،
ومن غير جَهْلٍ لِسِنِّه ، أنه نَسِيَ كلَّ ما كان من المِهْمِ أن يَعْرِفَه ،
وأن العارَ الذى ألقاه فيه الطالعُ كان يَخْنُقُ فيه كلَّ شعورٍ حقيقٍ بالخير
والشرِّ ، ويوجد من الانحطاط درجةً تَنَزِعُ الحياةَ من الرُّوح ، ولا يستطيع
صوتُ الباطن أن يُسْمَعَ لدى من لا يُفَكِّرُ في غير الغداء ، ويُريدُ أن
يَصُونَ الفتى المَكْرُوبَ من هذا الموت الأدبى الذى كان قريباً منه كثيراً
فَيَبْدَأُ بإيقاظ حُبِّه لنفسه وتقديره لِنَافِثِهِ ، ويُريه مستقبلاً أكثرَ سعادةً
بحسن استعمال مَوَاهِبِهِ ، ويحيى في فؤاده هِمَّةً كريمةً بما يَقْصُ عليه من
أعمال الآخرين الرائعة ، وهو ، إذ يَجْعَلُهُ مُعْجَبًا بصانعها يَجْمِلُهُ على الرغبة
في صنع ما يماثلها ، وهو ، لكي يَفْصِلَهُ عن حياة البطالة والتشرُّد فَصْلاً
غير محسوس ، يَجْمِلُهُ على الاقتطاف من كتبٍ مختارة ، وهو ، إذ يتظاهر
باحتياجه إلى هذه المقتطفات ، يُغْدِي فيه شعورَ معرفة الجليل الكريم ،
وهو يُتَقَفُّ بهذه الكتب ثقافةً غيرَ مباشرة ، وهو يَنْفِزُهُ إلى تكوين رأي
حَسَنٍ عن نفسه لكيلا يَظُنَّ عدمَ صلاحه لأى خَيْرٍ كان ، ولكيلا يكون
حقيراً في نظره الخاص .

« ومن التُّرَّهَاتِ حادثةٌ تَجْمِلُ على الحكم في براعة هذا الرجل الحسن
الذى رَفَعَ بها فؤادَ تلميذه فوق كلِّ لَوْمٍ رفْعاً غيرَ محسوسٍ ، وذلك من

غير أن يظهر مفكرًا في أمر تعليمه ، وكان هذا الإكليريكي من الصلاح
الذائع والتميز البالغ ما يُفَضَّل معه كثير من الناس أن يجعلوا صدقاتهم
بين يديه على جعلها بين أيدي خوارنة المدن الأغنياء ، ومما حدث ذات
يوم أن أُعْطِيَ نقوداً ليوزَّعها بين الفقراء ، وقد كان الفتى من الدَّناءة
ما طلب معه حصَّةٌ منها بصفته فقيرًا ، ويقول القسُّ : « كَلَّا ، نحن رهبانٌ ،
وأنت منسوبٌ إلى » ، فلا يجوز لي أن أُمسَّ هذه الوديعة نفعاً لي » ، ثم
أعطاه من ماله الخاص مقداراً ما طلب ، فدروسٌ من هذا النوع يَنْذُرُ أن
تَضِيعَ في قَلْبِ الْفِتْيَانِ الَّذِينَ لَمْ يَفْسُدُوا تَمَامًا .

« وَيَتَعَبُّنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ كَشَخْصٍ ثَالِثٍ ، وَالْجُهْدُ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ ، وَذَلِكَ
لَأَنَّكَ تَشْعُرُ ، أَيُّهَا الْمَوَاطِنُ الْعَزِيزُ ، بِأَنَّ هَذَا اللَّاجِئُ التَّيْسُ هُوَ أَنَا ،
وَأُظُنُّنِي مِنَ الْإِبْتِعَادِ عَنْ فُسُوقِ شَبَابِي مَا أُجْرُوُ مَعَهُ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِهِ ،
وَأَنْ أَلِدَ الَّتِي انْتَشَلْتَنِي مِنْهُ تَسْتَحِقُّ تَكْرِيماً عَلَى إِحْسَانِهَا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى
حَسَابِ بَعْضِ الْعِذَارِ .

« وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَقِفُ نَظْرِي هُوَ أَنَّ أَرَى فِي حَيَاةِ مُعَلِّمِي الْفَاضِلِ
فَضِيلَةً بَلَاءَ رِثَاءٍ ، وَرَافَةً بَلَاءَ ضَعْفٍ ، وَكَلَامًا صَادِقًا بَسِيطًا دَائِمًا ، وَسُلُوكًا
مَلَامًا لِهَذَا الْكَلَامِ دَائِمًا ، وَلَمْ أَرَهُ ، قَطُّ ، يَلْتَفِتُ إِلَى أَنَّ الَّذِينَ يَسَاعِدُهُمْ
يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، أَوْ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ غَالِبًا ، أَوْ أَنَّهُمْ يَصُومُونَ فِي الْأَيَّامِ
الْمُقَرَّرَةِ ، فَلَا يَتَنَاولُونَ لَحْمًا ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَفْرِضُ عَلَيْهِمْ شُرُوطًا مِمَّا تَلَّةَ يُمَكِّنُ
أَنْ تَمُوتُوا بِغَيْرِهَا جَوْعًا قَبْلَ أَنْ تَرْجُوا أَيَّ عَوْنٍ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

« وَأَبْتَعِدُ عَنْ عَرْضِي أَمَامَهُ غَيْرَةَ مُهْتَدٍ حَدِيثٍ ، وَأَتَشَجَّعُ بِهَذِهِ

المشاهدات ، ولا أكتف عن شئنا من أوجه تفكيرى ، ولا يؤذيه هذا ،
وما أقول فى نفسى أحياناً إنه يَتَغَاضَى عن عدم اكترائى للدين الذى
اعْتَنَقْتُ لِمَا يَرَى من عدم اكترائى ، أيضاً ، للدين الذى نشأتُ عليه ،
فهو يَعْرِفُ أن استخفافى غيرَ مُوجَّهٍ إلى نِخْلَةٍ معينة ، ولكن ما يكون
تفكيرى حينما كنت أَسْمَعُهُ ، فى بعض الأحيان ، يستحسن عقائدَ مخالفةً
لعقائد الكنيسة الكاثوليكية ، ويُبْدِى قليلَ تقديرٍ لجميع طقوسها ؟ كنت
أذهب إلى أنه بِرُؤْسَتَانِي مُتَنَكِّرٌ لو رأيته أقلَّ إخلاصاً لهذه العادات التى
كان يَبْدُو قليلَ التقدير لها ، ولكننى كنت أعلم أنه يقوم بهذه الواجبات
الدينية فى السِّرِّ والعلاية قِيَامًا دَقِيقًا فلا أدري كيف أَحْكُمُ فى هذه
المتناقضات ، ولكن إذا عَدَوْتَ الخطأ الذى أدى إلى زوال حُطُوتِهِ سابقاً ،
والذى لم يَضْلَحْ كُلُّهُ ، وَجَدْتَ حَيَاتَهُ مِثَالِيَّةً ، وأن أخلاقه لا غُبَارَ عليها ،
وأنه صادقٌ منصفٌ فى كلامه ، وأعيشُ معه على أعظم ما يمكن من صفاء ،
وَأَتَعَلَّمُ أن أحترمه كلَّ يومٍ أَكْثَرَ من قبل ، ويستولى هذا اللطفُ على
فؤادى تماماً ، فأنتظرُ مبالياً كلَّ المبالاةِ وقتَ اِطِّلاَعِي على المبدأ الذى
يُقِيمُ عليه تناسقَ حياةٍ كثيرة الغرابة لحياته .

« ولم يَحِلَّ هذا الوقتُ سريعاً ، فهو قبل أن يَكْشِفَ لِتِلْمِذِهِ أَسْرَارَ
قلبه بَدَلَ جُهْدِهِ فى إنبات بذورِ العقل واللطف التى ألقاها فى روحه ، وكان
أصعبُ ما يُمكن إزالته من نفسى هو نفورى من الناس مع الاختيال ، هو
غِلَظَتِي نحو الأغنياء والسعداء ، كأنَّ غِنَاهُمْ على حسابى ، وكأنَّ سعادتهم
المرعومة قد اغْتَصَبَتْ من سعادتي ، وما يساور الشبابَ من زهوٍ أرعنٍ

يقاوم الهوان لم يُوجب غير زيادة مثلي إلى الخلق ، وبما أن حب الذات الذى كان مُرشدى يحاول إيقاظه فى يَحْمِلُنِي على الخلاء فإنه كان يَجْعَلُ الناس أشدّ لؤماً فى نظرى ولا يُسْفِرُ عن غير إضافة الازدراء إلى الحقد عليهم .

« ولا يكافح هذا الزهو كِفاحاً مباشراً ، وإنما يَمْنَعُ من تَحْوِله إلى قسوة قلب ، ولا يَنْزِعُ منى تقديرى لِنَفْسِي ، وإنما يَجْعَلُهُ أَقْلَ استخفافاً بقربى ، وهو إذْ يُبْعِدُ الظاهر الفارغ دائماً ، وهو إذْ يَدُلُّنِي على ما ينطوى عليه الظاهر من شروء حقيقية ، يُعَلِّمُنِي الرِّثَاءَ لخطيئات أمثالى والرِّقَّةَ لَأَبْوَسِهِمُ والتَّوَجُّعَ لِمَنْ أَكْثَرَ من حسدهم ، وهو إذْ يَهْتِزُّ رَافَةً بالضعف البشرى عن شعور عميق بضعفه الشخصى يَرَى فى كلِّ مكان ضحايا عيوبهم الخاصة وعيوب الآخرين ، وَيَرَى أَنِينَ الفقراء تحت نِيرِ الأغنياء ، وَأَنِينَ الأغنياء تحت نِيرِ المُبْتَسِرَات ، ويقول : « صدّقوا قولى إن الأوهام تزيد شروءنا بدلاً من إخفائها ، وذلك يجعلها قيمة لما ليس له قيمة ، ويجعلنا نحسُّ ألفَ حرمانٍ ما كنا لِنَشْعُرُ به لولاها ، وتقوم راحة النفس على ازدراء كلِّ ما يُمْكِنُ أَنْ يُزْعِجَهَا ، ويُعَدُّ أَحْرَصُ الناس على الحياة أَقْلَهُمْ قدرةً على التمتع بها ، ويُعَدُّ أَطْمَعُ الناس فى السعادة أَكْثَرَهُمْ بؤساً دائماً » .

« وَأَصْرُخُ بمرارة قاتلاً : « وَى ! يالها من صَوَرٍ كثيفة ! إذا ما وَجَبَ رفضُ كلِّ شئ فما فائدة ولادتنا إذن ؟ وإذا ما وَجَبَ ازدراء السعادة نفسها فمن ذا الذى يكون سعيداً ؟ » ، وعن هذا يجيب القسُّ ،

ذاتَ يومٍ ، بلهجةٍ وَقَفْتُ نظري : « هو أنا » ، « أنت سعيدٌ ! أنت سعيدٌ مهما قلَّ عَوْنُ الطالعِ ذلك ومهما بلغتَ من الفقر والنفي والاضطهاد ! وماذا فعلتَ لتكونَ سعيداً ؟ » ، وعن هذا يجيب القسُّ : « أَى بُنَى ، سأقول لك هذا طَوْعاً » .

« وهناك أَخْبَرَنِي أَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يُذِلِّيَ باعترافاته بعد أن تَلَقَّى اعترافاتي ، ويقول لى معانقاً : « سأصُبُّ في صدرك جميعَ مشاعرِ فؤادي ، وستراني كما أَبْذُو لنفسي على الأقلِّ إن لم يَكُنْ كما أنا عليه ، ومتى تَلَقَّيتَ اعترافي الدينيَّ بكامله ، ومتى عَرَفْتَ حالَ نفسي جيداً ، علمتَ السببَ في عَدِّ نفسي سعيداً ، وإذا ما فَكَّرْتُ في الأمرِ مثلى علمتَ كيف تكونَ سعيداً أيضاً ، يَبْدُ أن هذه الاعترافاتِ ليست مسألةَ دقيقةٍ ، فلا بُدَّ من وقتٍ كافٍ لِأُشْرَحَ لك جميعَ ما أَفَكَّرُ فيه حَوْلَ مصيرِ الإنسانِ وحَوْلَ قيمةِ الحياةِ الحقيقيةِ ، ولنعيَّنَ وقتاً ملائماً ومكاناً مناسباً للقيام بهذا الحديثِ بهدوءٍ » .

« وَأَبْدَى مبادرتي إلى سماعه ، ولم يُوَجَّلِ اللقاءَ إلى أبعدَ من صباحِ الغدِ ، وكنا في فصل الصيف ، ونهضَ وقتَ الفجرِ ، ويأتى بى خارجَ المدينة ، إلى تَلٍّ عالٍ يَمُرُّ تحته نهرُ البُو الذي كان يَرى مجراه من بين ضفافهِ الخصيبةِ المُبَلَّلَةِ به ، وكانت سلسلةُ جبالِ الألبِ الواسعةُ تتَوَجَّحُ للمنظرِ ، وكانت أشعةُ الشمسِ الطالعةِ تَمَسُّ السهولَ ، وترسُمُ على الحقولِ ظلالاً طويلةً للأشجارِ والرُّبَى والبيوتِ ونُفَني بألفِ عارضٍ من الضياءِ أروعَ ما يُمكنُ أَنْ تَقَعَ عليه عينُ إنسانٍ مِنَ الصُّورِ ، ولا عَجَبَ إذا قيلَ إن

الطبيعة كانت تَعْرِضُ على أعيننا جميعَ جَلَالِهَا تَزْوِيداً بنصِّ حديثنا ،
فهناك ، بعد إمتاع النظر بتلك الأشياء مع صَمْتٍ حيناً من الزمن ،
حَدَّثَنِي رجل السلام بما يَأْتِي : «

عقيدة الْقِسْيسِ السَّاقُوَاتِيَّ

أَيُّ بُنْيٍّ ، لا تنتظر مني كلاماً علمياً ولا براهينَ بعيدةَ القَوَرِ ،
فلستُ فيلسوفاً كبيراً ، ولستُ أبالي أن أكونَهُ إلا قليلاً ، ولكنَّ عندي
ذوقاً سليماً أحياناً ، وأُحِبُّ الحقيقةَ دائماً ، ولا أودُّ أن أُبرهنَ معك
ولا أن أحاول إقناعَكَ ، ويكفيني أن أعْرِضَ عليك ما أفكرُ فيه ببساطة
فَوَادِي ، وشاورَ قلبَكَ في أثناء حديثي ، وهذا كلُّ ما أطلبُ منك ،
وإذا ما خُدِعْتُ كان هذا عن حسن نية ، وحَسْبِي بهذا ألاَّ يُعَدَّ خِطِيئِي
جنايةً ، وإذا ما خُدِعْتَ أيضاً لم يَنْطَوِ هذا على سوء كبير ، وإذا ما
أُحْسِنْتُ التفكيرَ كان العقلُ مشتركاً بيننا ، وكانت لدينا ذاتُ المصلحة
في الإصغاء إليه ، ولمَ لا تُفَكِّرُ كما أفكرُ ؟

لقد وُلِدْتُ فقيراً وقَرَوِيّاً ، وقد أُعِدِدْتُ بنصيبِي لزراعة الأرض ،
ويرَى من الأجل ، مع ذلك ، أن أتعلمَ كَسْبَ عِيشِي من التَّسْوِسةِ ، ويوجدُ
من الوسائل ما أدرُسُها به ، ولا رَيْبَ في أننا لم نُفَكِّرْ ، أنا وأبواي ،
أن نَطْلُبَ من هذا ما كان صالحاً ولا حقاً ولا نافعاً ، ولكننا فَكَّرْنَا فيما
يَجِبُ أن يُعَلَّمَ لأكونَ قَسّاً ، وأتعلمُ ما أريدُ مني أن أتعلمَ ، وأقول ما أريدُ
منّي أن أقول ، وألْزِمَ نفسي بما أريدُ منّي ، وأنصَبُ قَسّاً ، يَبْدَأُني لم

أَلْبَثُ أَنْ شَعَرْتُ بِأَنْتَى ، حِينَ أَلَزَمْتُ نَفْسِي بِأَلَا أَكُونُ رَجُلًا ، وَعَدْتُ
بَأَكْثَرِ مِمَّا لَا أَسْتَطِيعُ إِنْجَازَهُ .

ويقال لنا إن الشعورَ ولیدُ المَبْتَسِرَاتِ ، ومع ذلك فإننى أعلمُ ، عن
تجربةٍ ، أن الشعورَ يَعْنِدُ فِي اتِّبَاعِ نِظَامِ الطَّبِيعَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَمِيعِ قَوَانِينِ
النَّاسِ ، وَمِنْ الْعَبَثِ أَنْ تُنَمَّعَ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ ، وَيَكُونُ لَوْمْ النَّدَمِ ضَعِيفًا
دَائِمًا حَوْلَ مَا يُبَيِّحُ لَنَا الطَّبِيعَةُ الْحَسَنَةُ التَّنْظِيمَ ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا ضَعْفُ
ذَاكَ اللَّوْمِ حَوْلَ مَا تَأْمُرُ بِهِ الطَّبِيعَةُ ، وَيَا أَيُّهَا الْفَتَى الصَّالِحُ لَمْ تَخَاطَبِ الطَّبِيعَةَ
حَوَاسِكَ بِشَيْءٍ بَعْدُ ، فَعِشْ طَوِيلًا فِي هَذِهِ الْحَالِ مِنَ السَّعَادَةِ حَيْثُ يَكُونُ
صَوْتُهَا صَوْتَ الطُّهْرِ ، وَإِذَا كُرَّ أَنْ سَبَقَكَ لِتَعْلِيمِهَا يَعْنِي إِهَاتَهَا إِهَانَةً أَشَدَّ
مِنْ مَكَاحِفِهَا ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْبَدْءِ بِتَعَلُّمِ الْمَقَاوِمَةِ لِمَعْرِفَةِ الْوَقْتِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ
يُدْعَنُ فِيهِ بِلَا إِجْرَامٍ .

وما فتئتُ منذُ شَبَابِي أَحْتَرِمُ الزَّوْجَ كَأَوَّلِ نِظَامِ الطَّبِيعَةِ وَأَكْثَرِ نُظُمِهَا
قُدْسًا ، وَإِذَا أَنْزَعُ مِنْهُ حَقَّ الْإِذْعَانِ لِسُلْطَانِهِ فَإِنِّي أَعِزُّ عَلَى عَدَمِ اتِّبَاعِهِ مَطْلَقًا ،
وَذَلِكَ لِأَنْتَى ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ ثِقَافَتِي وَدِرَاسَتِي وَمِنْ قَضَائِي حَيَاةً نَمْطِيَّةً
بَسِيطَةً ، حَافِظْتُ فِي ذَهْنِي عَلَى صِفَاءِ صَوْنِي * الْفَطْرَةِ كَامِلًا ، أَيْ إِنْ أَشْأَلَ
النَّاسَ لَمْ تَسْوُدْهَا قَطُّ ، وَإِنْ قَرَيْتُ كَانَ يُقْصِيْنِي عَنِ الْمُغْرِيَّاتِ الَّتِي تُتَمَلِّهَا
سَقْسَطَةُ الْفُسُوقِ .

وهذا العَزَمُ أَوْجَبَ دِمَارِي ، وَذَلِكَ أَنْ احْتَرَمْتُ لِفِرَاشِ الْآخَرِينَ
أَدَّى إِلَى كَشْفِ خَطِيئَتِي ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّكْفِيرِ عَنْ رَلَّتِي ، وَأَوْقَفُ

وَأُحْبِزُ وَأُطْرَدُ، وَأَكُونُ ضَحِيَّةَ وَسَاوِسَى أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أَكُونُ ضَحِيَّةَ دَعَارَتِي،
وَكَانَ لَدَيَّ مَا أُدْرِكُ مَعَهُ مِنَ التَّعْزِيرِ الَّذِي لَازِمُ زَوَالِ حُطُوتِي أَنَّهُ يَجِبُ،
فِي الْغَالِبِ، زِيَادَةُ الْخَطِيئَةِ لِلْإِفْلَاتِ مِنَ الْعُقُوبَةِ .

وَقَلِيلٌ مِنَ التَّجَارِبِ الْمَائِلَةِ يَسُوقُ الذَّهْنَ الَّذِي يَتَأَمَّلُ إِلَى مَدَى بَعِيدٍ،
وَأُبْصِرُ بِمَشَاهِدَاتٍ كَثِيرَةٍ تَدَّاعَى مَا عِنْدِي مِنْ أَفْكَارٍ عَنِ الْعَدْلِ وَالصَّلَاحِ
وَجَمِيعِ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِ فَأُخَسِّرُ كُلَّ يَوْمٍ بَعْضَ مَا تَلَقَيْتُ مِنْ آرَاءِ، وَبِمَا
أَنْ مَا بَقِيَ لَدَيَّ مِنْهَا عَادَ غَيْرَ كَافٍ لِأَصْنَعُ مِنْهُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَفْكَارِ قَادِرَةً
عَلَى الْوُقُوفِ وَحَدِّهَا فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِالتَّدْرِيجِ اسْوَدَادَ وَضُوحِ الْمُبَادِي فِي ذَهْنِي،
ثُمَّ قَصَّرْتُ عَلَى مَرَحَلَةٍ عُدْتُ لَا أَدْرِي مَعَهَا مَا التَّفْكِيرِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى النِّقْطَةِ
الَّتِي انْتَهَيْتُ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ مَعَ الْفَرْقِ الْقَائِلِ إِنْ إِلْحَادِي الَّذِي هُوَ ثَمَرَةٌ تَقْدِيمٍ فِي
السَّنِّ قَدْ تَكُونُ بِمَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ فَيَضْمُبُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ .

وَكُنْتُ فِي حَالٍ مِنَ الشَّكِّ وَالْإِرْتِيَابِ مَا يَطْلُبُهُ دِيكَارْتُ لِلْبَحْثِ عَنِ
الْحَقِيقَةِ، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالُ لَتَدْوِمَ، فَهِيَ تُورِثُ الِهْمَّ وَتُوجِبُ الْقَنَاءَ،
وَمَا كَانَ لَغَيْرِ حُبِّ الْعَيْبِ وَكَسَلِ النَّفْسِ مَا يَدْعُنَا فِيهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ
قَلْبٌ بَلَغَ مِنَ الْفَسَادِ مَا يُسَرُّ مَعَهُ بِذَلِكَ الْوَضْعِ، وَلَا شَيْءٌ أَحْسَنُ حِفْظًا لِعَادَةِ
التَّأَمُّلِ مِنْ رِضَا الْإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا عَنْ نَصِيهِهِ .

وَقَدْ فَكَّرْتُ، إِذَنْ، فِي مَصِيرِ النَّاسِ الْكَثِيرِ الْمُتَمَوِّجِ فَوْقَ بَحْرِ
آرَاءِ الْبَشَرِ بِلَا سُكَّانٍ وَلَا بَوَاصِلَةٍ، هَؤُلَاءِ النَّاسُ الْمُؤَكِّلِينَ إِلَى أَهْوَائِهِمْ
الْعَاصِفَةِ، وَذَلِكَ بِلَا دَلِيلٍ غَيْرِ رُبَّانٍ غَيْرٍ لَا يَعْرِفُ طَرِيقَهُ، وَلَا يَدْرِي
مِنْ أَيْنَ يَأْتِي، وَلَا إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: « أَحِبُّ الْفَضِيلَةَ،

وَأَنْشُدْهَا ، وَلَا أُجِدْهَا ، وَلَا تُطْلَعْ عَلَيْهَا حَتَّى أَسْتَمْسِكَ بِهَا ، وَلِمَ تَسْتَرْ
وَجْهَهَا عَنْ قَلْبِي جَادٍ صُنِيعَ لِبَعْبُدْهَا ؟ » .

وإني ، وإنْ بَلَوتُ أَشَدَّ الْأَلَامِ فِي الْغَالِبِ ، لَمْ أَقْضِ حَيَاةً دَائِمَةً
الكَرْبَ كَمَا قَضَيْتُ فِي أَوْقَاتِ الْقَلَقِ وَالْاضْطِرَابِ تِلْكَ حَيْثُ كُنْتُ ضَالًّا
بَيْنَ شَكٍّ وَشَكٍّ بَلَا انْقِطَاعٍ فَلَمْ أَفُزْ مِنْ تَأْمَلَاتِي الطَوِيلَةِ بِغَيْرِ الْارْتِيَابِ
وَالْإِبْهَامِ وَالتَّنَاقُضَاتِ حَوْلَ سَبَبِ وَجُودِي وَحَوْلَ قَاعِدَةٍ وَاجِبَاتِي .

وَكَيْفَ يُمَكِّنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ مُرْتَابًا عَنْ مَذْهَبٍ وَحَسَنِ نِيَّةٍ ؟
لَا أَسْتَطِيعُ إِدْرَاكَ هَذَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْفَلَسَفَةُ مُوجُودِينَ ، وَإِمَّا أَنْ
يَكُونُوا أَشَقَى النَّاسِ ، وَإِنْ الشَّكُّ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُهْمُّنَا أَنْ نَعْرِفَهَا هُوَ
أَمْرٌ بِالْغُ الشَّدَّةِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ لَا يُمَكِّنُ احْتِمَالَهُ زَمَنًا طَوِيلًا ،
فَالذَّهْنُ يُقَرَّرُ إِحْدَى الطَّرِيقِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ وَعَلَى الرِّغْمِ مِنْ ذَاتِهِ ، وَهُوَ
يُفَضِّلُ أَنْ يُخَدَعَ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِشَيْءٍ .

وَالَّذِي كَانَ يُضَاعِفُ ارْتِبَاكِي هُوَ أَنَّنِي ، إِذْ وُلِدْتُ فِي كَنِيسَةٍ تُقَرَّرُ
كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تُبَيِّحُ أَيَّ شَكٍّ ، كُنْتُ عِنْدَ رَفْضِ نُقْطَةٍ أُحْمَلُ عَلَى
رَفْضِ بَقِيَةِ النَّقَاطِ ، وَأَنْ تَعَذَّرَ التَّسْلِيمَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمَقُولَةِ كَانَ
يَفْصِلُنِي ، أَيْضًا ، عَنِ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ هَكَذَا ، وَكَانَ إِذَا مَا قِيلَ
لِي أَنْ أَعْتَقدَ كُلَّ شَيْءٍ عُدْتُ غَيْرَ عَارِفٍ أَيْنَ أَقِفُ .

وَشَاوَرْتُ الْفَلَسَفَةَ ، وَتَصَفَّحْتُ كُتُبَهُمْ وَدَرَسْتُ مُخْتَلَفَ آرَائِهِمْ ،
فَوَجَدْتُهُمْ كُلَّهُمْ مُشْمَحًا جَازِمِينَ عَقْدِيَّينَ حَتَّى فِي ارْتِبَاهِمُ الزُّعُومِ ، وَوَجَدْتُهُمْ
لَا يَجْهَلُونَ شَيْئًا ، وَلَا يُشَبِّتُونَ شَيْئًا ، وَيَسْخَرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَوَجَدْتُهُمْ

ينتصرون إذا ما هاجموا ، ووجدتهم بلا حَوْلٍ إذا ما دافعوا ، وإذا وَزَنْتُمْ
براهينهم لم تجدوا عندهم منها غير ما هو صالحٌ للهدم ، وإذا عَدَدْتُم الطُرُق
أبصرتم اقتصار كلِّ واحدٍ على طريقه ، وهم لا يتفقون على غير الجدال ،
ولم يكن استماعي لهم وسيلةً خروجي من ارتيابي .

وخيَّلَ إليَّ أنْ نَقْصَ الذهن البشريُّ هو السببُ الأولُ لهذا الاختلاف
العجيب في المشاعر ، وأنَّ العُجْبَ هو سببه الثاني ، وليس لدينا قياسُ هذه
الآلة العظيمة مطلقاً ، ولا نستطيع حسابَ نِسَبِها ، ولا نَعْرِفُ سُنَنَها الأولى
ولا علَّتْها الغائية ، ونحن نَجْهَلُ أنفسنا ، فلا نَعْرِفُ طبيعتنا ولا أصلنا
الفاعلَ ، ونحن لا نكاد نَعْرِفُ هل الإنسانُ مخلوقٌ بسيطٌ أو مركَّبٌ ،
وذلك لأنَّ أسراراً خفيةً مُغلَّقةً تحيط بنا من كلِّ جانب ، وهي فوق
المنطقة الحسَّاسة ، وترانا نعتقد أن لدينا من الذكاء ما نَنفُذُها به مع أنه
ليس لدينا غيرُ الخيال ، وكلُّ شَيْءٍ ، من خلال هذا العالم الخياليِّ ، طريقاً
لنفسه يَظُنُّها صالحةً ، ولا يستطيع أحدٌ أن يَعْرِفَ هل تُوصِلُه طريقه إلى
الغاية ، ومع ذلك فإننا نريد نفوذها ومعرفتها جميعاً ، والأمرُ الوحيد الذي
لا نَعْرِفُه مطلقاً هو جهلنا حَدَّ ما يُمكنُ أن يَعْرِفَ ، ونُفَضِّلُ أن
نَرَكُنَ إلى المصادفة وأن نَعْتَقِدَ ما ليس موجوداً على الاعتراف بأن كلَّ
واحدٍ منا لا يستطيع أن يَرى ما هو ذاك ، وإذا كنا جزءاً صغيراً من
مجموعٍ كبيرٍ نَعْرِبُ عنا حدوده ويَدْعُه صانعه لجدالنا الأحمق فإننا من
البُطْل ما نُريدُ معه أن نُقرِّرَ أمرَ هذا المجموع في حَدِّ ذاته وأن نُقرِّرَ
ما نحن بالنسبة إليه .

ومتى صار الفلاسفة في حالٍ يكتشفون الحقيقةَ معها فن ذا الذي يُعْنَى بأمرها منهم ؟ يَعْرِفُ كُلُّ واحدٍ منهم أن مذهبه ليس أحسنَ أساساً من المذاهب الأخرى ، ولكنه يؤيده لأنه خاصٌّ به ، ولا تَجِدُ واحداً منهم انتهى إلى معرفة الحقيقة والكذب فلا يُفْضِلُ الكذبَ الذي وَجَدَ على الحقيقة التي اكتشفها آخرُ ، وأين الفيلسوفُ الذي لا يخادع الجنسَ البشريَّ مختاراً في سبيل مجده ؟ وأين الفيلسوفُ الذي لا يَهْدِفُ في قرارة قلبه إلى شيء آخر غير الامتياز من سواه ؟ وما يَبْقَى أكثرَ من أن يَعلَوْ العوامُّ وأن يُطَوَّقَ نورَ منافسيه ؟ والمهمُّ هو أن يُفَكَّرَ على غير تفكير الآخرين ، فيكون ملحداً عند المؤمنين ومؤمناً عند الملحدِين .

والثمرة الأولى التي اقتطقتها من هذه التأملات هي أنني تَعَلَّمْتُ قَصْرَ مباحثي على ما كان يَهْمُنِي مباشرةً وأن أُنْذِرَ عَجْلي عميقٍ فيما عدا ذلك ، والأبالي ، حتى مع الشكِّ ، بغير الأمور التي كان يجب أن أَعْرِفَهَا .

وبما أدركتُ أيضاً بُعدُ الفلاسفة من إشاذي من شكوكي غير المجدية ، وأنهم لم يَصْنَعُوا غيرَ زيادة الرِّيب التي تُزْعِجُنِي من غير أن يَحُلُّوا واحدةً منها ، ولِذَا فقد اتَّخَذْتُ دليلاً آخرَ وقلتُ في نفسي : « دَعْنِي أَسْتَنْزِ بِنُورِ الباطن ، فهو أَقْلٌ تضليلاً لي منهم ، أو إن خِطِي يكون خاصاً بي على الأقلِّ ، فأكونُ أَقْلَ فساداً باتباع أوهاى الخاصة مما بانقيادى لأكاذيبهم » .

وَأَعْرِضُ في ذهني مُخْتَلِفَ الآراء التي سَيَّرْتَنِي منذ ولادتي مناوبةً ،

فأرى ، هنالك ، أنها ، وإن لم يُوجدَ بينها واحدٌ بَلَغَ من الوضوح ما يُوجب القناعةَ حالاً ، كانت متفاوتةً احتمالاً فُيَعِيرُهَا قَبُولُ إياها ، أو رَفْضُ إياها ، باطنياً ، أوزاناً مختلفة ، وأستند إلى هذه الملاحظة الأولى فأقابل بين جميع هذه الأفكار المختلفة في سُكون المُبتَسرات فأجدُ أن أولها وأكثرها شيوعاً كان أبسطها وأقربها إلى الصواب ، وأنه كان لا يُعْوزُها لُجْمَعُ جميع الأصوات غيرُ كونِها آخرَ ما يُعْرَضُ ، وَتَمَثَّلُوا جميع فلاسفتكم القدماء والمعاصرين ، وقد استنفدوا في البُداءِ مذاهبهم الغريبة في القوة والحظَّ والقَدَرِ والوجوبِ والذَرَّاتِ والعالمِ الحَيِّ والمادةِ الحيةِ والماديَّةِ من كلِّ نوع ، ثم تَمَثَّلُوا كَلَارَكَ المشهورَ وهو يُبَيِّرُ العالمَ مُغْلِنًا في نهاية الأمر واجبَ الوجودِ وواهبَ الأشياءِ ، فبأى إعجابٍ شامل ، وبأى هُتافٍ إجماعيٍّ ، لا يُقْبَلُ هذا المذهبُ الجديدُ البالغُ العظمةَ والسُّموَّ والكثيرُ الصلاحِ لِرَفْعِ الروحِ وَمَنَحِ الفضيلةَ قاعدةً والبالغُ التأثيرِ والإشراقِ والبساطةِ ، والأقلُّ عَرَضاً ، كما يَكُوحُ لى ، لأُمُورٍ لا تَذَرُكُها النفسُ البشريةُ التي تَحِدُّها محالةٌ في كلِّ مذهبٍ آخر ، وأقولُ في نفسى : « إن الاعتراضاتِ المُعْضِلَةَ شائعةٌ بين الجميع ، وذلك لأن روح الإنسان من الضيقِ ما لا يستطيعُ معه أن يَحُلَّها ، ولذا فإن هذه المُعْضِلَاتِ ليست براهينَ ضدَّ أىِّ مذهبٍ دون غيره ، ولكن يالْلَفرَقِ بين البراهينِ المباشرةِ التي قامت عليها هذه المذاهب ! ألاَّ يَجِبُ تَفْضِيلُ ذاك الذى يُوضِّحُ وحدَه كلَّ شىءٍ عندما لا يَكُونُ له مِثْلُ مُعْضِلَاتِ الأخرى ؟ »

ولذا فإنى ، إذ أُحِلُّ حُبَّ الحقيقةِ فى نفسى كَفلسفَةٍ وحيدة ، وإذ

أَحِلُّ قَاعِدَةٌ وَاضِحَةٌ بَسِيطَةٌ تُفَنِّينِي ، كُنْهَاجٍ وَحِيدٍ ، عَنِ الدَّقَّةِ الْفَارِغَةِ فِي الْبَرَاهِينِ ، فَإِنِّي أَعُودُ مُسْتَعِينًا بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ إِلَى دَرَسِ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَهْمُنِي عَازِمًا عَلَى عَدِّي وَاضِحًا كُلَّ مَا لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَمْنَعُ عَنْهُ مُوَافَقَتِي مِنَ الْمَعَارِفِ ، وَعَلَى عَدِّي حَقِيقًا جَمِيعَ الْمَعَارِفِ الَّتِي يَلُوحُ لِي أَنَّهَا ذَاتُ ارْتِبَاطٍ لَازِمٍ فِي تِلْكَ الْمَعَارِفِ ، وَذَلِكَ مَعَ تَرْكِي جَمِيعَ الْمَعَارِفِ الْآخَرَى ضَمْنَ نَظَائِرٍ مِنَ الْارْتِبَابِ لَا أَرْفِضُهَا وَلَا أَقْبَلُهَا مَعَهُ ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَرْجِعَ نَفْسِي بِإِلْقَاءِ نُورٍ عَلَيْهَا إِذَا كَانَتْ لَا تُؤْدِي إِلَى شَيْءٍ نَافِعٍ فِي مِيدَانِ الْعَمَلِ .

وَلَكِنْ مَنْ أَنَا ؟ وَمَا حَقِّي فِي الْحُكْمِ فِي الْأُمُورِ ؟ وَمَا الَّذِي يُعَيِّنُ أَحْكَامِي ؟ إِذَا كَانَتْ نَتِيجَةُ حَتْمِيَّةٍ لِمَا أَتَلَقَّى مِنْ انْطِبَاعَاتٍ كَانَتْ مِنَ الْعَبَثِ قِيَامِي بِمَثَلِ هَذِهِ التَّحْقِيقَاتِ ، فَهِيَ لَا تَتِمُّ مُطْلَقًا ، أَوْ إِنَّمَا تَتِمُّ بِنَفْسِهَا وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَتَدَخَّلَ فِي تَوْجِيهِهَا ، وَلِذَا فَإِنْ أَوَّلَ مَا يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَ هُوَ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى نَفْسِي لِمَعْرِفَةِ الْآلَةِ الَّتِي أُرِيدُ اتِّخَاذَهَا وَالَّذِي الَّذِي يُمَكِّنُنِي أَنْ أَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي اسْتِعْمَالِهَا .

وَأَنَا مُوْجُودٌ ، وَلَدَيَّْ حَوَاسٌ أَتَأَثَّرُ بِهَا ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْأُولَى الَّتِي تَقِفُ نَظْرِي ، فَالزَّمْتُ بِقَبُولِهَا ، وَهَلْ لَدَيَّْ شَعُورٌ خَاصٌّ بِوُجُودِي فَلَا أَشْعُرُ بِهِ إِلَّا بِإِحْسَاسَاتِي ؟ هَذَا هُوَ شَكِّي الْأَوَّلُ الَّذِي يَتَعَذَّرُ عَلَيَّ حُلُّهُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَذَلِكَ بِمَا أَنِّي أَتَأَثَّرُ دَائِمًا بِالْإِحْسَاسَاتِ مُبَاشَرَةً أَوْ بِفِعْلِ الذَّاكِرَةِ فَكَيْفَ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَعْرِفَ كَوْنََ شَعُورِي بِنَفْسِي أَمْرًا خَارِجًا عَنْ هَذِهِ الْإِحْسَاسَاتِ وَأَنْ مِنَ الْمُمْكِنِ كَوْنََ هَذَا الشَّعُورِ مُسْتَقْلَالًا عَنْ هَذِهِ الْإِحْسَاسَاتِ ؟

وَفِيَّ تَحَدُّثٍ إِحْسَاسَاتِي مَا دَامَتْ تُشْعِرُنِي بِوُجُودِي ، بَيِّدَ أَنْ سَبَبَهَا

غريبٌ عني ما دامت تؤثرُ فيَّ سواءَ أكان لدىَّ أيُّ سببٍ لوجودها أم لا ،
ولمّا لا يتوقّفُ عليَّ أمرُ وجودها أو أمرُ إبطالها ، ولذا فإنّني أرى
بوضوحٍ أن إحساسى الذى فيَّ وسببه أو موضوعه الخارجَ عني ليسا
أمرًا واحدًا .

وهكذا توجدُ موجوداتٌ أخرى فضلًا عن كونى موجودًا ، أى توجدُ
موضوعاتٌ إحساساتى ، حتى إن هذه الموضوعاتِ إذا لم تكن غيرَ أفكارٍ فإن
من الصحيح دائماً كَوْنُ هذه الأفكارِ ليست أنا .

والواقعُ أن كلّ ما أحسّه خارجَ نفسى ويؤثرُ في حواسى أُسميه مادةً ،
كما أُسمّى أجسامًا جميعَ أجزاءِ المادةِ التى أنصوّرها مجتمعةً في موجوداتٍ
فردية ، وهكذا فإن جميعَ مجادلاتِ الخياليين والماديين لا معنى لها فى نظرى ، أى
إن تفريقهم بين ظاهرِ الأجسامِ وحقيقتها أمرٌ وهميٌّ .

ومن ثمّ ترانى قانعًا بوجود العالمِ قناعتي بوجودى ، ثمّ أتأملُ فى
موضوعاتِ إحساساتى ، وبما أننى أجِدُ فى نفسى قابليةَ المقابلةِ بينها فإنى أحسُّ
اتصافى بقوةٍ فاعلةٍ لم أعرفَ حيازتى لها سابقًا .

والشعورُ هو الإحساسُ ، والقياسُ هو الحكمُ ، وليس الإحساسُ
والحكمُ أمرًا واحدًا ، وبالإحساسِ تَظْهَرُ الموضوعاتُ لى منفصلةً منفردةً كما
هى فى الطبيعة ، وبالقياسِ أحركها وأنقلها وأضعُ بعضها فوق بعضٍ لأحكمُ
فى اختلافها وتشابهها ، وفى جميعِ علائقها على العموم ، وعندى أن صفةَ
الوجودِ الفاعلِ أو العاقلِ المميزَةِ هى القدرةُ على مَنَحِ كلمةِ « هو موجودٌ »
معنى ، وأبحثُ ، عَيْنًا ، فى الوجودِ الحسِّ الصَّرفِ عن هذه القدرةِ العاقلةِ

التي تَنْضِدُ ثم تَحْكُمُ ، فلا أَسْتَطِيعُ أن أراها في طبيعته ، وَيَشْعُرُ هذا الموجودُ المنفعلُ بكلِّ موضوعٍ على انفراد ، أو إنه يَشْعُرُ بالموضوع المجموع المؤلف من الاثنين ، ولكن بما أنه ليس لديه من القوة ما يَثْنِي به أحدهما على الآخر فإنه لن يقابل بينهما مطلقاً ، ولن يَحْكُمُ فيهما مطلقاً .

ولا تعني رؤية الشئيين معاً رؤيةَ علاقتهما ، ولا الحكم في اختلافاتهما ، وليس الشعورُ بأشياء كثيرةٍ خارجٍ بعضها عن بعض تعداداً لها ، فمن الممكن أن تكون لدى في ذات الدقيقة فكرةٌ عن عصاً كبيرةٍ وعصاً صغيرةٍ من غير أن يقابل بينهما ومن غير أن يَحْكُمُ في كون إحداها أصغرَ من الأخرى ، كما أن من الممكن أن أرى جميعَ يدي جُمْلَةً من غير عَدِّ لأصابعي ^(١) ، فهذه الأفكارُ القياسيةُ : « أعظمُ ، أصغرُ » ، وهذه الأفكارُ العدّيةُ « واحدٌ ، اثنان ، إلخ . » ليست إحساساتٍ حقاً ، وإن كان ذهني لا يُؤَلِّفُها إلاً بمناسبة إحساساتي .

ويقال لنا إن الموجود الحسَّاس يُمَيِّزُ بعضَ هذه الإحساسات من بعض بما بين هذه الإحساسات نفسها من فروق ، ويحتاج هذا إلى إيضاح ، ومتى كانت الإحساسات مختلفةً مازَ الموجودُ الحسَّاسُ بعضها من بعض بما بينها من فروق ، ومتى كانت متشابهةً مازَ بينها لشعوره بأن بعضها خارجٌ بعض ، وإلاَّ فكيف يُمَازَرُ شيْتان متساويان بإحساسٍ حَدَثَ في آنٍ واحدٍ ؟ لا بدُّ له من أن يَخْلُطَ بين هذين الشئيين بِحُكْمٍ الضرورة واتخاذِه لهما

(١) نتحدثنا رحلات مسيو دولا كوندامين عن شعب لا يعرف تعداداً يزيد على ثلاثة ، ومع ذلك فإن الناس الذين يتألف هذا الشعب منهم ذروا أياد فيرون أصابعهم من غير أن يستطيعوا العد حتى الخمسة .

كأمر واحد ، ولا سببا وفقَ مذهبٍ يُزعمُ فيه أن الإحساساتِ التصويريةَ
للمسافة ليست مساوفاً مطلقاً .

ومتى شعِرَ بإحساسين يُقَابَلُ بينهما فإن انطباعهما يقعُ ، وإن كلَّ
شيءٍ يُحسُّ ، وإنهما يُحسَّان ، بيد أنه لا يُشعرُ بعلاقتهما لهذا السبب ،
وإذا لم يكنِ الحكمُ في هذه العلاقة غيرَ إحساسٍ ، وإذا كان يأتي
من الشيء حصراً ، لم تَخْدَعْنِي أحكامي قط ، وذلك لأنه ليس من
الكذب أن أحسُّ ما أحسُّ .

ولم أُخدعُ ، إذن ، حولَ علاقة تينِكَ العَصَوَيْنِ إذا لم تكونا
متوازيتين على الخصوص ؟ ولم أقولُ ، مثلاً ، إن العصا الصغيرة تعْدِلُ
ثلثَ الكبيرة مع أنها لا تعْدِلُ غيرَ ربعها ؟ ولم لا تكون الصورة التي هي
إحساسٌ مطابقةً لما لها الذي هو موضوعها ؟ ذلك لأنني فاعلٌ حينما أُحكمُ ،
وذلك لأن فِعلَ القياسِ مُختلٌ ، وذلك لأن إدراكي الذي يحكمُ في
العلاقات يَخْلُطُ أغاليطه بحقيقة الإحساسات التي لا تُظهرُ غيرَ الأشياء .

وإلى هذا أضيفوا فكرةً تَقِفُ نظركم إذا ما تأملتُموها كما أوكدُ ،
وذلك أننا إذا ما كنّا منفصلين مُحضاً في استعمال حواسنا لم يكنْ بينها أيُّ
اتصال ، وتَعَدَّر علينا أن نَعْرِفَ أن الجسمَ الذي تَمَسُّ والشيء الذي نَرَى
هُما هما ، وذلك أننا إمّا ألا نُحسُّ شيئاً خارجَ أنفسنا مطلقاً ، وإما أن
يكون لدينا خمسةُ عناصرٍ محسوسةٍ ليس لدينا أية وسيلةٍ لإدراك ذاتيتها .

وليُطلقَ هذا الاسمُ أو ذاك على قدرة رُوحِي التي تُقَرَّبُ وتقَابِلُ بين
إحساساتي ، ولتُدْعَ انتباهاً أو تَبْصُراً أو تأملاً أو كما يُراد ، فإن من

الصحيح دائماً أن تكون في لا في الأشياء ، وأن أكون وحدي الذي يُخَذِّفُهَا وإن كنت لا أُخَذِّفُهَا إِلَّا حِينَمَا أَتَلَقَّى انطباعاً من الأشياء ، ومع أني لستُ مسيطراً على إحساسي أو عدمه فَإِنِّي مُطَلَّقٌ فِي فَحْصِ مَا أَحِسُّ عَلَى قَدَرِ الإمكان .

إِذَنْ ، لستُ موجوداً حِسِّيّاً ومنفعلاً فقط ، بل موجودٌ فاعلٌ عاقلٌ ، ومهما يَكُنْ من قَوْلِ الفلسفة فَإِنِّي أُجْرُؤُ عَلَى ادعاء شرف التفكير ، فَأَعْرِفُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ فِي الْأَشْيَاءَ ، لَا فِي رُوحِي الَّذِي يَحْكُمُ فِيهَا ، وَأَتَى كَمَا قُلْتُ مَا أَضَعُ مِمَّا عِنْدِي فِي الْأَحْكَامِ الَّتِي أُحْمِلُ عَنْهَا زَادَتْ ثِقَتِي بِاقْتِرَابِي مِنَ الْحَقِيقَةِ ، وَهَكَذَا فَإِن قَاعِدَتِي فِي الْإِثْقَادِ لِلشُّعُورِ أَكْثَرَ مِمَّا إِلَى الْعَقْلِ تَأَيَّدَتْ بِالْعَقْلِ نَفْسِهِ .

وَإِذْ أَنْتِي وَاثِقٌ بِنَفْسِي ، كَمَا أَقُولُ ، فَإِنِّي أَبْدَأُ بِالنَّظَرِ إِلَى خَارِجِ نَفْسِي ، وَأَعُدُّنِي ، مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْإِرْتِعَاشِ ، مَطْرُوحاً ضَالِعاً فِي هَذَا الْكَوْنِ الْوَاسِعِ ، غَارِقاً فِي بَحْرِ الْمَوْجُودَاتِ غَيْرَ عَارِفٍ شَيْئاً عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ ، سَوَاءً فِيمَا بَيْنَهَا أَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا ، وَأَذْرُسُهَا وَأَرْقُبُهَا ، وَالْأَمْرُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَعْزِضُ لِي لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا هُوَ نَفْسِي .

وَكُلُّ مَا أَحِسُّ بِالْحَوَاسِّ هُوَ مَادَّةٌ ، وَأَسْتَنْبِطُ خَوَاصَّ الْمَادَّةِ الْجَوْهَرِيَّةِ كُلَّهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْمَحْسُوسَةِ الَّتِي تَجَعِّلُنِي أَشْعُرُ بِهَا وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَنْفَصِلَ عَنْهَا ، وَأَرَى الْمَادَّةَ مُتَحَرِّكَةً تَارَةً سَاكِنَةً ^(١) تَارَةً أُخْرَى ، وَمِنْ

(١) وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ إِنَّ هَذَا السَّكُونُ أَمْرٌ نَسْبِي ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَا نَشَاهِدُ شَيْئاً مَا فِي الْحَرَكَةِ فَإِنَّا نَتَمَثَّلُ بِوُضُوحٍ أَحَدِ الْخَلْدَيْنِ الْمُتَنَاهِيَيْنِ ، وَهُوَ السَّكُونُ ، وَنَحْنُ نَبْلُغُ مِنْ تَمَثُّلِهِ مَا نَبْلُغُ مَعَهُ إِلَى عَدِ السَّكُونِ أَمراً مُطْلَقاً مَعَ أَنَّهُ نَسْبِي ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ كَوْنُ الْحَرَكَةِ مِنْ جَوْهَرِ الْمَادَّةِ إِذَا مَا أُمْكِنَ تَصَوُّرُهَا سَاكِنَةً .

فَمِمَّا اسْتَنْتَجُ أَنْ السَّكُونَ وَالْحَرَكَةَ لَيْسَا أَمْرَيْنِ جَوْهَرِيَيْنِ لَهَا ، وَلَكِنْ
بِمَا أَنَّ الْحَرَكَةَ فَعْلٌ فَإِنَّهَا مَعْلُولَةٌ عَلَيَّ لَيْسَ السَّكُونُ غَيْرَ عَدَمٍ لَهَا ، وَلِذَا
فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُوَثَّرْ شَيْءٌ فِي الْمَادَّةِ فَإِنَّهَا لَا تَتَحَرَّكُ مُطْلَقًا ، وَلِذَا فَإِنَّ السَّكُونَ
وَالْحَرَكَةَ إِذْ يَتَسَاوَيَانِ لَدَى الْمَادَّةِ يُعَدُّ السَّكُونُ حَالًا الْمَادَّةِ الطَّبِيعِيَّ .
وَأُبَصِّرُ فِي الْأَجْسَامِ نَوْعَيْنِ لِلْحَرَكَةِ ، وَهُمَا : الْحَرَكَةُ الْاِكْتِسَائِيَّةُ وَالْحَرَكَةُ
التَّلْقَائِيَّةُ أَوْ الْاِخْتِيَارِيَّةُ ، وَفِي الْأَوَّلَى يَكُونُ السَّبَبُ الْمُحَرِّكُ خَارِجَ الْجِسْمِ
الْمُتَحَرِّكِ ، وَفِي الثَّانِيَةِ يَكُونُ السَّبَبُ الْمُحَرِّكُ ذَاتِيًّا ، وَلَا اسْتَنْتَجَ مِنْ ذَلِكَ
كَوْنُ حَرَكَةِ السَّاعَةِ ، مِثْلًا ، أَمْرًا تَلْقَائِيًّا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ
غَرِيبٌ عَنِ النَّابِضِ مُؤَثِّرٌ فِيهِ فَإِنَّهُ لَا يَمِيلُ إِلَى الْاِعْتِدَالِ وَلَا يَجْتَذِبُ
السَّلْسَلَةَ مُطْلَقًا ، وَلِذَلِكَ السَّبَبُ لَا أَوَاقُ ، كَذَلِكَ ، عَلَى كَوْنِ حَرَكَةِ
السَّوَائِلِ تَلْقَائِيَّةً كَمَا أَنَّنِي لَا أُغْزُو حَرَكَةَ تَلْقَائِيَّةً إِلَى النَّارِ الَّتِي تُوجِبُ
سَائِلِيَّتَهَا ^(١) .

وَتَسْأَلُونَنِي عَنْ كَوْنِ حَرَكَاتِ الْحَيَوَانِ تَلْقَائِيَّةً ، وَأَجِيبُكُمْ بِأَنَّنِي لَا أُغْرِفُ
عَنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَكِنْ الْقِيَاسُ يُؤَيِّدُهُ ، وَتَسْأَلُونَنِي ، أَيْضًا ، كَيْفَ أُغْرِفُ ،
إِذْنًا ، وَجُودَ حَرَكَاتِ تَلْقَائِيَّةٍ ، وَأَجِيبُكُمْ بِأَنَّنِي أُغْرِفُهَا لِأَنَّنِي أَشْعُرُ بِهَا ،
وَأُرِيدُ تَحْرِيكَ ذِرَاعِي وَأَحَرَّ كَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ سَبَبٌ
مُبَاشَرٌ غَيْرُ إِرَادَتِي ، وَمِنَ الْعَبَثِ أَنْ تَرَادَ الْبَرْهَنَةُ تَقْوِيضًا لِهَذَا الشُّعُورِ فِيَّ ،
فَهُوَ أَقْوَى مِنْ كُلِّ دَلِيلٍ ، وَذَلِكَ بِعَدْلٍ أَنْ يُثَبَّتَ لِي كَوْنِي غَيْرَ مُوجُودٍ .

(١) يَعِدُ الْكِيمَاوِيُونَ عُنْصَرَ الْاِلْتِهَابِ ، أَيْ عُنْصَرَ النَّارِ ، أَمْرًا مُتَفَرِّقًا سَاكِنًا رَاقِدًا فِي الْمُرَكَّبَاتِ الَّتِي

هِيَ جُزْءُهَا ، وَذَلِكَ إِلَى أَنْ تَتَلَفَّفَ وَتُجَمِّعَ وَتَحْرَكَ عَلَى غَرِيبَةٍ فَتَحْوِلَهُ إِلَى نَارٍ .

وإذا كان لا يُوجدُ أيُّ تِلْقَائِيَّةٍ في أفعال الناس ، ولا في أيِّ شيءٍ يَحْدُثُ على الأرض ، فإن من أصعب الأمور أن تُتَصَوَّرَ العلةُ الأولى لكلِّ حركة ، وأما أنا فإنني أَشْعُرُ بأنني بلفتُ من اعتقاد كَوْنِ الحال الطبيعية للمادة في سكونٍ ، ومن أنه لا يُوجدُ فيها أيةُ قوةٍ للحركة بنفسها ، ما أَخْكُمُ معه من فَوْرِي ، حين أرى حركةَ الجسم ، بأن هذا الجسم حَيٌّ أو إن هذه الحركة قد انصلت إليه ، ويأبى ذهني كلَّ موافقةٍ على مبدأ المادة غير العضوية المتحركة من تلقاء نفسها ، أو التي تأتي عملاً ما .

ومع ذلك فإن هذا العالمَ المرئيَّ مادةٌ ، ولكنه متفرَّقٌ مَيَّتٌ^(١) لا يُوجدُ في مجموعه ما في أجزاء الجسم الحيّ من اتحادٍ ونظامٍ وشعورٍ مشترك ما دام من الثابت أننا ، نحن الأجزاء ، لا نُحِسُّ في المجموع قطعاً ، وهذا العالمُ نفسه في حركةٍ ، وهو ، في حركاته المنتظمة النمطية الخاضعة لسُنَنٍ ثابتة ، خالٍ من تلك الحرية التي تَبْدُو في حركات الإنسان والحيوان الفريزية ، وليس العالمُ ، إِذَنْ ، حيواناً عظيماً يتحرك من تلقاء نفسه ، وَيُوجدُ لحركاته ، إِذَنْ ، عِلَّةٌ غريبةٌ عنه لا أَدْرِكُها ، غير أن لدى من القناعة الباطنية ما يجعلني أَشْعُرُ بهذه العلة شعوراً لا أرى معه دَوْرَانَ الشمس من غير أن أتصوّر قوةً تَدْفَعُها ، أو من غير أن أعتقد شعوري بيدٍ تُدِيرُ الأرض إذا كانت تَدُور .

وإذا ما وجب القولُ بالسُنَنِ العامة التي لا أَدْرِكُ علاقاتها الجوهرية

(١) بذلت جميع جهودي لأتمثل ذرة حية ، فكان هذا على غير جلوى ، ويظهر لي أن فكرة المادة الشاعرة بلا حواس أمر متناقض لا يدرك ، ولا بد من البدء بإدراك هذه الفكرة لقبولها أو رفضها ، فأعترف بأنني لم أنل هذه السعادة .

بالمادة مطلقاً فما يَكُون مَدَى تَقْدُمِي ؟ بما أن هذه السُّنَنَ ليست موجوداتٍ حقيقةً ، ولا عناصرَ ، فإنه يكون لها ، إذن ، أساسٌ آخرٌ مجهولٌ لدى ، وقد جعلتنا التجربةُ نَعْرِفُ سُنَنَ الحركة ، وهذه السُّنَنُ تُقَيِّنُ المعلولاتِ من غير أن تُطْلِعَ على العِللِ ، وهي لا تَكْفِي لإيضاح نظام العالم ولا لتفسير سَيْرِ الكَوْنِ مطلقاً ، وقد أغلق ديكارتُ السماء والأرضَ بالترد ، ولكنه لم يَسْتَطِع أن يَمْنَحَ هذا التردَ أولَ حركة ، كما أنه لم يُعْمِلْ قوته الدافعةَ عن المركز إلا بدَوْرَةَ مَحْوَرِيَّةٍ ، وقد وَجَدَ نِيوتُنُ قانونَ الجاذبية ، ولكن الجاذبية وحدها لم تَلَبِّثْ أن حَوَّلَتِ العالمَ إلى كتلةٍ جامدة ، وإلى هذا القانونِ يَجِبُ أن تُضَافَ قوةٌ دافعةٌ لَوْصَفِ إِهْلِيلِجِيَّاتِ الأجرام السماوية ، وليُحَدِّثْنَا ديكارتُ عن القانونِ الطبيعيِّ الذي يَدِيرُ دَوْرَاتِهِ ، وليَدُلَّنَا نِيوتُنُ على اليد التي أَلْقَتِ السَّيَّاراتِ على مُمَاسٍّ مَدَارَاتِهَا .

ولست أُولَى عِلَلِ الحركة في المادة مطلقاً ، والمادةُ تَتَلَقَّى الحركةَ وَتَنْقُلُهَا ، ولكنها لا تُحْدِثُهَا ، وكلما لاحظتُ فِعْلَ قُوَى الطبيعة وردَّ فِعْلِهَا ، وبعضها يؤثرُ في بعضٍ ، وجدتُ أنه لا بُدَّ ، بالارتقاء من معلولاتٍ إلى معلولاتٍ ، من الانتهاء إلى إرادةٍ على أنها العلةُ الأولى ، وذلك لأن افتراضَ سلسلةٍ لا نهايةَ لها من العِللِ يَعْنِي عَدَمَ وجودِ لليلة الأولى ، والخلاصةُ أن كلَّ حركةٍ لم تَصْدُرْ عن أخرى لا يُمْكِنُ أن تَأْتِيَ من غير فعلٍ تَلْقَائِيٍّ اختياريٍّ ، ولا تسيرِ الأجسامِ غيرِ الحيةِ بلا حركة ، ولا يوجد فِعْلٌ بلا إرادة ، وهذا هو مَبْدَأُ الأول ، ولذا فإِنِّي أَعْتَقِدُ أن الإرادةَ تُحَرِّكُ الكَوْنَ وتُنْجِي الطبيعةَ ، وهذه هي عقيدتي

الأولى أو مادة اعتقادي الأولى .

وكيف تُسْفِرُ إرادةٌ عن عملٍ فِزْيَوِيٍّ أو جِسْمِيٍّ ؟ لا أعْلَمُ ذلك ، وإنما أشْعُرُ في نفسي بأنها تُحْدِثُهُ ، وأريد أن أفْعَلَ شيئاً فأفْعَلُهُ ، وأريد أن أُحَرِّكَ بَدَنِي فَيَتَحَرَّكُ ، وأما أن يَتَحَرَّكَ جِسْمٌ جامدٌ ساكنٌ من تلقاء نفسه وأن يُحْدِثَ حركةً فأمرٌ لا يُدْرِكُ ولا مَثِيلٌ له ، وأُعْرِفُ الإرادةَ بأفعالها لا بطبيعتها ، وأُعْرِفُ هذه الإرادةَ عِلَّةً مُحَرِّكَةً ، وأما أن تُتَصَوَّرَ المادةُ مولدةً للحركة فيُعْنِي أن تُتَصَوَّرَ بجلاء معلولاً بلا علة ، ويعْنِي هذا ألا تُتَصَوَّرَ شيئاً على الإطلاق .

وليس أكثر إمكاناً لدى أن أنصوِّرَ كيف تُحَرِّكَ إرادتي جِسْمِي من أن أنصوِّرَ كيف تؤثرُ إْحْساساتي في نفسي ، حتى إنني لا أعْرِفُ السببَ في كَوْنِ أحدِ هذين السَّريَّين أهلاً للإيضاح أكثرَ من الآخر ، وأما أنا فتَبَدُّو لي وسيلةَ اتحادِ العنصرين أمراً لا يُدْرِكُ مطلقاً سِوَا علىٍّ أَ كُنْتُ فاعلاً أم منفعلاً ، ومن الغرابة بمكان أن يُمْضَى من تَعَدُّرِ الإدراكِ هذا ليُخْلَطَ بين العنصرين كأنَّ أفعالاً من طبيعةٍ مختلفةٍ ذلك الاختلافَ تَكُونُ أصلحَ للإيضاح ضِمْنِ موضوعٍ واحدٍ مما ضِمْنِ موضوعين .

أَجَلْ ، إن العقيدة التي أَقَرَّرُها غامضةٌ ، غير أنها تُنَلِّي مَعْنَى في نهاية الأمر ، وهي لا تنطوي على شيء يَأْبَاهُ العقل وتَأْبَاهُ الملاحظة ، وهل يقال عن المادية ذاك المقدار ؟ أليس من الواضح أن الحركة إذا كانت أمراً جوهرياً للمادة تَعَدُّرُ انفصالها عنها ، وكانت على ذات الدرجة فيها دائماً ، وكانت بذات المقدار في كلِّ قسمٍ من المادة دائماً ، وكانت غيرَ قابلةٍ للانتقال ،

فلا تقبل الزيادة والنقصان ، حتى إنه لا يمكن تصور المادة في سكون ؟ وإذا ما قيلَ لي إن الحركة ليست أمراً جوهرياً للمادة ، بل ضرورية ، فإنه يُراد خدعى بالفاظٍ يسهل دحضها إذا كانت أكثر معنى نوعاً ما ، وذلك لأن حركة المادة إما أن تأتيتها من المادة نفسها ، وحينئذ تكون أمراً جوهرياً لها ، وإما أن تأتيتها من علّة خارجية ، وحينئذ لا تكون ضرورية للمادة إلاّ بدوام تأثير العلة المحركة فيها ، وبذلك نعود إلى المعضلة الأولى .

وتعدّ الأفكار العامة المجردة مصدرَ أعظم خطأ في الناس ، وما كانت رطانة ما بعد الطبيعة لتكشف أية حقيقة كانت ، وقد ملأت هذه المعجّمة الفلسفة بالسخافات التي يُنجّل منها عند تجريدها من ألفاظها الفخمة ، وقُل لي ، يا صديقي ، إنك إذا ما حدثت عن قوة عمياء منتشرة في جميع الطبيعة فهل يُحمّلُ إلى ذهنك فكرٌ حقيقيٌّ ؟ أجل ، يُعمّدُ أنه يُقالُ شيءٌ بكلمات « القوة العامة ، والحركة الواجبة » ، ولكنه لا يُقالُ شيءٌ مطلقاً ، وليست فكرة الحركة غير فكرة الانتقال من مكانٍ إلى آخر ، ولا توجدُ حركةٌ بلا اتجاهٍ مطلقاً ، وذلك لأن الموجود الفردي لا يستطيع الحركة نحو جميع الجهات دفعةً واحدة ، وإلى أية جهة تتحرك المادة حتماً ؟ وهل جميعُ المادة في الجسم ذو حركةٍ نمطيّةٍ أو تكون لكلِّ ذرةٍ حركتها الخاصة ؟ تذهب الفكرة الأولى إلى وجوب تكوين الكون بأسره كتلةً متينةً لا تتجزأ ، وتذهب الفكرة الثانية إلى وجوب عدم تكوين الكون غير سائلٍ مُفرّقٍ فاقدِ الرباط ، فلا يمكن أن تتحد بذلك ذرتان مطلقاً ، وما يكون اتجاه هذه الحركة المشتركة بين جميع المادة ؟ أتكون على خطٍ مستقيم أم إلى الأعلى أم إلى

الأسفل أم إلى اليمين أم إلى الشمال ؟ وإذا كان لكل ذرة في المادة اتجاهها الخاص فما تكون علل جميع هذه الاتجاهات وجميع هذه الاختلافات ؟ وإذا كانت كل ذرة في المادة لا تصنع غير دورانها حول مركزها الخاص فإنه لا شيء يترك مكانه ولا توجد حركة متحوّلة مطلقاً ، حتى إنه في هذه الحالة يجب أن تتجه هذه الحركة الدورية نحو جهة ما ، ويعني منح المادة حركة بالتجريد قول كلمات لا معنى لها ، ويعني منحها حركة معينة افتراض على معينة لها ، وكلما كثرت القوى الخاصة كان لدى من العلل الجديدة ما أوضحه من غير أن أجده فاعلاً مشتركاً موجهاً لها ، وأجدي بعيداً من إمكان تصويري أي نظام ضمن تزامم العناصر العرصى فلا أستطيع حتى تصوّر اعتراكها ، ويبدو لي اختلاط عناصر الكون أمراً لا يدرك أكثر من تعذر إدراك انسجامه ، وأدرك أن من الممكن ألا يدرك ذهن الإنسان جهاز العالم ، ولكن الإنسان إذا ما أخذ في إيضاحه وجب أن يقول أموراً يفهمها الناس .

وإذا كانت المادة المتحركة تدلني على إرادة فإن المادة المتحركة تدلني على عقل وفق بعض النواميس ، وهذه هي المادة الثانية من عقيدتي ، ويكون العمل والمقارنة والاختيار أفعال كائن فاعل عاقل ، وهذا الكائن موجود إذن ، وأين تروّنه موجوداً ؟ وهذا ما تقولون لي ، إنه ليس في السماوات التي تدور والنجم الذي ينيرنا فقط ، وليس في أنفسنا فقط ، بل ، أيضاً ، في الشاة التي ترعى والطائر الذي يطير والحجر الذي يسقط والورقة التي تذروها الريح . وأقضي في نظام العالم وإن كنت أجهل غايته ، وذلك لأنه يكفي

للحكم في هذا النظام أن أقابل بين الأقسام وأن أدرس سبقتها وعلاقتها وأن ألاحظ توافقتها ، وأجهل سبب وجود العالم ، ولكنني لا أنفك أرى كيف نحول ، ولا يعوزني أن أبصر ذلك التوافق الوثيق الذي تتعاون به الموجودات المؤلف منها تعاوناً متقابلاً ، وأراني مثل الرجل الذي يرى ساعة مفتوحة للمرة الأولى ، ولا يفتأ يعجب بصنعها وإن كان لم يعرف استعمال الآلة ولم ير وجهها قط ، ويقول إنني لا أعلم ما تنفع جميعها ، وإنما أرى أن كل جزء منها قد صنع من أجل الأجزاء الأخرى ، وأعجب بالصانع في تفاصيل صنعه ، وأجدني موقناً بأن جميع هذه الدواليب لا تسير متفقة على هذا الوجه إلا من أجل غاية مشتركة يتعذر على إدراكها .

ولنتقابل بين الغايات الخاصة والوسائل والعلائق المنظمة لكل نوع ، ولنستمع إلى الشعور الباطني ، فأي ذهن صحيح يستطيع أن يرفض شهادته ؟ وأية عيون غير متأثرة بالهتسرات لا يُذنبها نظام الكون المحسوس بعقل عال ؟ وأية سفسطات يجب أن تُركم لإنكار انسجام الموجودات وتعاون كل جزء على حفظ الأجزاء الأخرى ؟ وحدثنوني ما شئتم عن التركيبات والمصادفات ، فما تنفعكم من تخلي على السكون إذا كنتم غير قادرين على إقناعي ؟ وكيف تنزعون مني شعوراً غير إرادي يكذبكم على الرغم مني دائماً ؟ وإذا كانت الأجسام العضوية قد تراكبت عرضاً على ألف وجه قبل اتخاذها أشكالاً ثابتة فتكونت في البداية معدّ بلا أفواه وأرجل بلا رؤوس وأيدي بلا ذراعان وأعضاء ناقصة متنوعة ، وانقرضت عن عدم قدرة على البقاء ، فلم عاد كل واحد من هذه التجارب الناقصة لا يقف نظراً ؟ ولم فرضت

الطبيعةُ في نهاية الأمر سُنَّام تَخَضَعُ لها في البُداء؟ ولا يَنْبَغِي أن أَدْهَشَ ، مطلقاً ، من أمرٍ يَقَعُ إذا كان ممكناً ، ومن التعويض بمقدار التجارب من صعوبة الحادث ، وأوافق على هذا ، ومع ذلك فإنه إذا ما قيلَ لي إن حروفَ المطبعةِ المطروحةَ اتفاقاً أسفرت عن الإِنْشِيدِ كاملةً الترتيب فإنني لا أتنازل أن أقوم بخطوةٍ لتحقيق الكَذْبَةِ ، وسيقال لي : إنك تنسى كثيراً من التجارب ، ولكن ما مقدار التجارب التي يجب أن أَفْتَرِضَ لجعل التركيب أمراً محتملاً ؟ وأما أنا الذي لا يَرَى غيرَ تجربةٍ واحدةٍ فلدَى ما أُرَاهِنُ بما لا حَدٌّ له تجاه واحدٍ على أن حاصلها ليس نتيجةً المصادفة مطلقاً ، وإلى هذا أضيفوا أن التركيبات والاتفاقات لا تَوْدَى إلى غير مُنتَجَاتٍ من طبيعة العناصر المركَّبة ، وأن التَّعْضِيَةَ والحياة لا تَصْدُران عن تجربة ذراتٍ ، وأن الكيماوي إِذْ يُعِدُّ المَرْكَباتِ يَفْعَلُ ما لا يُشْعِرُ بها معه ، ولا يُفَكِّرُ فيها معه ، داخلَ مِذْوَبَةٍ (١) .

وقد قرأتُ نِيُوفِنِّي حائراً مُعَيَّراً تقريباً ، وكيف استطاع هذا الرجلُ أن يَعَزِمَ على وَضْعِ كتابٍ عن عجائب الطبيعة الدالَّةِ على حكمة صانعها ؟ ويكون كتابه ضَخْماً ضَخْماً العالم قبل أن يَسْتَنْفِدَ موضوعه ، وعند ما أردنا الدخول في التفصيلات فانتدنا أعظم العجائب ، أي انسجام الكلِّ

(١) وهل يمتد ، عند عدم البرهان ، كون هذيان الإنسان يبلغ هذه النقطة ؟ وقد زعم أماتوس لوزيثانوس أنه رأى قزباً طوله بوصة محبوساً في زجاجة مصنوعة من قبل يوليوس كاميلوس صنماً كيماوياً ، مثل بروميثيوس ، ويعلم بآرأسلس طريقة صنع هؤلاء الأقزام ويدعى أن الزعافف والتنايل والغيلان والخوريات من أعمال الكيمياء ، والواقع أنني لا أرى بقاء شيء كثير بعد الآن لإثبات إمكان هذه الأمور ، ما لم يقع ادعاء بأن المادة العضوية تقاوم حر النار وبأن من الممكن أن تبقى ذراتها حية في فرن حام .

وتوافقهُ ، ويُعَدُّ تناسُلُ الأجسامِ الحيةِ المضويةِ وخَدَهُ هُوَّةَ الذهنِ البشريِّ
ويَدُلُّ السَّدُّ التَّيْنِيعُ الذي وضعته الطبيعة بين مختلف الأنواع ، لكيلا
تختلطَ ، على نِيَّاتِها بأوضح برهان ، ولم تَكْتَفِ الطبيعة بإقامة النظام ،
بل اتخذت من التدابير الثابتة ما لا يستطيع شئٌ أن يُكَدِّرَهُ .

ولا يُوجَدُ في الكونِ موجودٌ لا يُمَكِّنُ أن يُعَدَّ ، من بعض الوجوه ،
مركزاً مشتركاً بين جميع الموجودات الأخرى ، فتَنْتَظِمُ كُلُّها حَوْلَهُ ، وتَكُونُ
كُلُّها غاياتٍ ووسائلَ مُبَادَلَةٍ ، وَيَضْطَرِبُ الذهنُ وَيَتَّبِعُهُ في هذه العلاقات
التي لا تُحْصَى والتي لا تَضْطَرِبُ واحدةٌ منها ، ولا تَتَّبِعُهُ ، في التَّجْمَعِ ،
وباللافتراضات المُحَالَّةِ لاستنتاج جميع هذا الانسجام من الجهاز الأعلى للمادة
المتحركة عَرَضاً ! ومن العبث أن يَسْتَرُ أولئك المُنْكَرُونَ لوَحْدَةَ المقْصِدِ ،
التي تَتَجَلَّى في علاقات جميع أجزاء هذا المجموع الكبير ، بَلْبَلَتِهِمْ في
التجريدات والتنسيقات والمبادئ العامة والتعابير الرمزية ، ومهما يكن ما يصنعون
فإنه يتعذر على أن أتصور نظاماً للمجودات بالغاً ذلك المقدار من الترتيب
الثابت من غير أن أتصور عقلاً ناظماً له ، ولا أَقْدِرُ أن أعتقد أن المادة
للمفعلة الميتة استطاعت أن تُنْتِجَ موجوداتٍ حيةً شاعرةً ، وأن قَدَرًا أَعْمَى
استطاع أن يُنْتِجَ موجوداتٍ عاقلةً ، وأن الذي لا يُفَكِّرُ مطلقاً استطاع
أن يُنْتِجَ موجوداتٍ تُفَكِّرُ .

ولِذَا فَإِنِّي أعتقد أن العالمَ تسيطر عليه إرادةٌ قادرةٌ حكيمةٌ ، وأُبْصِرُ
هذا ، وإن شئتَ قُلْتُ إِنِّي أَحِسُّ هذا ، ويَهْمُنِي أن أعْرِفَ هذا ، ولكن
هل هذا العالمُ أَرَلِيّ أو مخلوقٌ ؟ وهل يُوجَدُ للأشياء أصلٌ واحدٌ ؟ وهل

يُوجَدُ لها أصلان أو أكثر؟ وما طبيعتها؟ لا أعرف ذلك ، وما اهتمامي بذلك ؟ كلما صارت هذه المعارف مُمتعةً لدى لم أقصُرْ في اكتسابها ، وأعدِلُ ، حتى أنالَ ذلك ، عن الأسئلة اللاغية التي يُمكن أن تُقَضَّ مضاجعي ، والتي لا فائدة منها في سَيْرِي ، والتي هي أعلى من عقلي .

واذْكُرُوا ، دائماً ، أنني لا أعْلَمُ حِسِّي مطلقاً ، بل أعْرِضُهُ ، وسواء أكانت المادة أزليةً أم مخلوقة ، وسواء أكان أصلها منفعلاً أم لا ، يُعَدُّ من الثابت دائماً كَوْنُ الكلِّ واحداً ، وأنه يُنبئُ بعقلٍ فريد ، وذلك لأنني لا أرى شيئاً ليس منتظماً في ذات النظام ، ولا يساعد على ذات الغاية ، أى بقاء الكلِّ في النظام القائم ، واللهُ أَسْمَى هذا الموجودَ المُريدَ القادر ، هذا الموجودَ الفَعَّالَ بنفسه ، هذا الموجودَ ، مهما كان ، الذى يُسَيِّرُ الكَوْنَ وَيُدَبِّرُ جميعَ الأمور ، وأَضُمُّ إلى هذا الاسم مبادئ العقل والقدرة والإرادة مضافةً إلى مبدأ اللطف الذى هو نتيجةٌ لازمةٌ لها ، ولكننى لستُ أحسنَ معرفةً من ذلك للموجود الذى أَسْنِدُها إليه ، فهو خافٍ عن حواسي وإدراكي ، وكلما فَكَّرْتُ فيه زدتُ ارتباكاً ، وأعْرِفُ كلَّ المعرفة أنه موجودٌ ، وأنه موجودٌ بذاته ، وأعْرِفُ أن وجودي تابعٌ لوجوده ، وأن هذه هي ، أيضاً ، حالُ جميعِ الأشياءِ المعروفةِ عندي على الإطلاق ، وأرى اللهَ في أفعاله في كلِّ مكانٍ ، وأشعُرُ به في نفسي ، وأبْصِرُهُ حَوْلِي ، ولكننى عندما أريد أن أنظُرَ إليه بذاته ، وعندما أريد أن أجِدَ مكانه ، وأعْرِفَ من هو وما كُنْه ، يُفْلِتُ مني ، وتَمُودُ نفسي المضطربةُ لا تَرَى شيئاً . وأراني قائماً بعجزى فلا أَبْرَهِنُ حَوْلَ كُنْهِ الله ، ما لم أُحْمَلْ على

ذلك بشعورٍ يساورني عن علاقته بي ، وجميعُ هذه البراهين مجازفةٌ دائماً ، وما كان للعقل أن يُكَيِّبَ عليها إلا مرتجفاً عالماً أنه لم يُخلَقْ ليتعمَّق فيها ، وذلك لأن أكثرَ ما ينطوي على جَنَفٍ في الإله أن يُساء التفكيرُ فيه ، لا ألاَّ يُفَكَّرَ فيه مطلقاً .

وإني أعود إلى نفسي بعد اكتشافي من صفاته ما أنصوّرُ معه وجوده فأبحث عن المرتبة التي أشغُلها في نظام الأمور الذي يسيطر عليه فاستطيع أن أخصه ، ولا جَرَمَ أني أجِدُ نفسي في المرتبة الأولى بنوعى ، وذلك لأننى ، بإرادتى وبوسائل تنفيذها التي في متناولى ، حائِزٌ قوةً أَعْمَلُ بها في جميع الأجسام التي تحيط بي ، انتفاعاً بفعلها أو دفعاً لأثرها كما يروِّقنى ، أعظمَ مما عند أيِّها من حيث تأثيرها فيَّ عن باعثٍ فزيوىٍ فقط على الرغم منى ، وذلك لأننى بذاكنى أكون الوحيدَ الذي يَمْلِكُ رَقَابَةً على الكلِّ ، وأىُّ موجودٍ غيرِ الإنسان يستطيع في هذه الدنيا أن يَرْقُبَ غيره وأن يَقيسَ حركاته مع نتائجها وأن يَحْسِبَها وأن يُدْرِكها قبل وقوعها ، ومن ثمَّ أن يُضَيِّفَ إحساسَ الوجودِ العامِّ إلى إحساس وجوده الفردى ؟ وأىُّ شيءٍ أدعى إلى السُّخْرِيَةِ من التفكير في أن كلَّ شيءٍ قد صُنِعَ من أجْلِ إذا كنتُ الوحيدَ الذى يَعْرِفُ أن يَرُدَّ كلَّ شيءٍ إليه ؟

ومن الصحيح ، إذنْ ، أن يكون الإنسانُ مَلِكَ الأرض التي يَسْكُنُها ، وذلك لأنه لا يَرَوِّضُ جميعَ الحيوانات فقط ، ولأنه لا يتصرف في العناصر ببراءته فقط ، بل لأنه الوحيدُ الذى يَعْرِفُ في الأرض أن يتصرف فيها ، والذي يختصُّ متأملاً ، حتى بالكواكب التي لا يستطيع أن يَدْنُوَ منها ،

وَلَا تُطْلَعُ عَلَى حَيَوَانٍ فِي الْأَرْضِ قَادِرٍ عَلَى اسْتِعْمَالِ النَّارِ عَارِفٍ أَنْ يُعْجَبَ
بِالشَّمْسِ ، ماذا ! أَسْتَطِيعُ أَنْ أَلَا حِظَ لِلْوَجُودَاتِ مَعَ عِلَاقَتِهَا وَأَنْ أُعْرِفَهَا ،
وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْعُرَ بِالنِّظَامِ وَالْجَمَالِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُنْعِمَ النَّظَرَ فِي
الْعَالَمِ وَأَنْ أُرَتِّقَ إِلَى الْيَدِ الَّتِي تُدِيرُهُ ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُحِبَّ الْخَيْرَ وَأُصْنَعَهُ ،
ثُمَّ أَشَبِّهَ نَفْسِي بِالْبَهَائِمِ ! وَيَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْحَقِيرَةُ ، إِنْ فَلسَفْتَكَ الْكَثِيفَةَ هِيَ
الَّتِي تَجْعَلُكَ مُشَابِهَةً لِلْبَهَائِمِ ، أَوْ إِنْ مِنَ الْأَجْدَرِ أَنْ يُقَالَ إِنَّكَ تُرِيدُ أَنْ
تَهْوَى عَيْنًا ، فَذَكَوْكَ يُكَذِّبُ مِبَادَتَكَ وَقَلْبُكَ الْمِنْعَامُ يُكَذِّبُ مَذْهَبَكَ ،
حَتَّى إِنْ سَوَّ اسْتِعْمَالَ أَهْلِيَاتِكَ يُثَبِّتُ فَضْلَكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْكَ .

وَأَمَّا أَنَا الَّذِي لَيْسَ لَدَيْهِ مَذْهَبٌ يُؤَيِّدُهُ ، وَأَمَّا أَنَا ، أَيْ الرَّجُلُ الْبَسِيطُ
الَّذِي لَا يَنْسَاقُ مَعَ أَيِّ رُوحٍ حَزْبِيٍّ ، وَالَّذِي لَا يَبْغِي أَنْ يَتَشَرَّفَ بِرِئَاسَةِ
مَذْهَبٍ ، وَالَّذِي هُوَ رَاضٍ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي وَضَعَهُ فِيهِ اللَّهُ ، فَإِنِّي لَا أَرَى
شَيْئًا بَعْدَ اللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ نَوْعِي ، وَلَوْ كَانَ لِي حَقُّ اخْتِيَارِ مَكَانِي فِي نِظَامِ الْوَجُودَاتِ
فَمَا اخْتَارُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أَكُونَ إِنْسَانًا ؟

وَهَذَا التَّأَمُّلُ أَقْلٌ نَفَحًا لِي مِنْ مَسَّةٍ لِي ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْحَالُ لَيْسَتْ
مِنْ خِيَارِي مُطْلَقًا ، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ مَدِينَةً لِمَزِيدٍ وَوُجُودٍ لَمْ يُوجَدْ بَعْدُ ، وَهَلْ
أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى نَفْسِي مِمْتَازَةً عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَهْنِي نَفْسِي بِشُغْلِ
هَذَا الْقَائِمِ الْكَرِيمِ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَحْمَدَ الْيَدَ الَّتِي وَضَعَتْنِي فِيهِ ؟ وَيَنْشَأُ عَنِ
رُجْعِي بِصَرِيٍّ إِلَى شَعُورِ شُكْرَانٍ فِي فَوَادِي وَإِحْسَاسٍ حَادٍ فِي قَلْبِي لِصَانِعِ
نَوْعِي ، وَيَسْتَوْجِبُ هَذَا الْإِحْسَاسُ وَالشَّعُورُ تَقْدِيمَ وَلَاثِي الْأَوَّلِ إِلَى الرَّبِّ
الْمَنَّانِ ، وَأَعْبُدُ الْقَدِيرَ الْعَلِيَّ ، وَالْإِلَهَ الثَّناءَ عَلَى إِحْسَانِهِ ، وَلَا أَحْتَاجُ إِلَى مَنْ

يُعَلِّمُنِي هذه العبادة ، فقد أُمَلَّتْهَا الطبيعةُ نَفْسُهَا عَلَى ، أَوْ لَيْسَ مِنَ النَّتَاجِ
الطَّبِيعِيَّةِ لِحُبِّ الذَّاتِ أَنْ يُجَجَّلَ ذَاكَ الَّذِي يُجِيرُنَا ، وَأَنْ يُحَبَّ ذَاكَ الَّذِي
يُرِيدُ الْخَيْرَ لَنَا ؟

وَلَكِنِّي إِذَا مَا أَرَدْتُ ، فِيمَا بَعْدُ ، أَنْ أَعْرِفَ مَكَانِي الْفَرْدِيَّ فِي
نَوْعِي فَتَنَظَّرْتُ إِلَى مُخْتَلَفِ الْمَرَاتِبِ وَإِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ يَشْفَلُونَهَا فَمَا أَكُونُ ؟
يَا لَهُ مِنْ مَنْظَرٍ ! أَيْنَ النِّظَامُ الَّذِي كُنْتُ قَدْ شَاهَدْتُهُ ؟ لَا تَعْرِضُ صُورَةَ
الطَّبِيعَةِ عَلَى غَيْرِ الْإِنْجَامِ وَالنَّسَبِ ، وَلَا تَعْرِضُ صُورَةَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ
عَلَى غَيْرِ الْإِضْطِرَابِ وَالْإِرْتِبَاكِ ! وَبَسُودُ الْإِتْفَاقِ بَيْنَ الْعُنَاصِرِ ، وَيَكُونُ
النَّاسُ فِي بِلْبَلَةٍ وَالتَّبَاسُ ! وَالْبَهَائِمُ سَعِيدَةٌ ، وَمَلِكُهَا وَحْدَهُ هُوَ الشَّقِيُّ !
أَيُّهَا الْحِكْمَةُ ، أَيْنَ الْقَوَانِينُ ؟ أَيُّهَا الْعُنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ ، أَهَكَذَا تَسِيطِرِينَ عَلَى
الْعَالَمِ ؟ أَيُّهَا الرَّبُّ الْكَرِيمُ ، أَيْنَ قَدْرَتُكَ ؟ أَرَى الشَّرَّ عَلَى الْأَرْضِ .

أَوْ تَعْتَقِدُ ، يَا صَدِيقِي الْعَزِيزُ ، أَنَّ هَذِهِ التَّأْمَلَاتِ الْكَثِيرَةَ وَهَذِهِ الْمُنَاقَضَاتِ
الظَّاهِرَةَ تَوَلَّفَ فِي نَفْسِي أَسْمَى الْمَبَادِي عَنْ النَفْسِ ، هَذِهِ الْمَبَادِي الَّتِي لَمْ
تُسْفِرْ عَنْهَا مَبَاحِثِي قَطُّ حَتَّى الْآنَ ؟ بَيْنَمَا أَنْعِمُ النَّظَرَ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَرَانِي
مُكْتَشِفًا لِمَبْدَأَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ يُرْتَقَى بِأَحَدِهِمَا إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْحَقَائِقِ الْأَزَلِيَّةِ ، وَإِلَى
حُبِّ الْعَدْلِ وَالْخُلُقِ الْقَوِيمِ ، وَإِلَى مَنَاطِقِ عَالَمِ الْفِكْرِ الَّتِي يُوْدِي تَأْمُلُهَا
إِلَى سَعَادَةِ الْحَكِيمِ ، وَيَرْوِّدُهُ الْآخِرُ إِلَى نَفْسِهِ نُزُولًا ، وَيُخَضِّعُهُ لِسُلْطَانِ
الْحَوَاسِّ وَلِلْأَهْوَاءِ الَّتِي هِيَ وَسَائِلُهَا ، وَيَعَارِضُ بِهَا كُلَّ مَا يُوْحِي إِلَيْهِ
بِالْمَيْلِ الْأَوَّلِ ، وَإِنِّي إِذْ أَشْعُرُ بَأَنِّي مُجْذُوبٌ مُحَارَبٌ بِهَاتَيْنِ الْحَرَكَتَيْنِ
الْمُنَاقَضَتَيْنِ ، أَقُولُ فِي نَفْسِي : كَلَّا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ وَاحِدًا مُطْلَقًا :

فأريدُ ولا أريدُ ، وأشعرُ بأنى عبدٌ وحرٌّ معاً ، وأرى الخيرَ وأحبه
وأصنع الشرَّ ، وأكون فاعلاً عند ما أضغى إلى العقل ، وأكون منفِعاً
عند ما تسوقنى أهوائى ، ويكون شعورى بأننى كنت أستطيع المقاومة
أسوأ غمٍّ يلازمنى حينما أُغلب .

واستمعُ إلى ، أيها الفتى مطمئناً ، فسأندرعُ بحسن النية دائماً ،
وإذا كان الضميرُ من عملِ المُبتسرات كنتُ على خطأ لا ريبَ ، ولم
توجدْ أخلاقٌ قائمةٌ على البرهان مطلقاً ، ولكنْ إذا كان فَوَاقُ الجميعِ
مثيلاً طبيعياً لدى الإنسان ، وإذا كان حسُّ العدل ، مع ذلك ، غريزياً
فى فؤاد الإنسان ، فدع الذين يعملون من الإنسان موجوداً بسيطاً يُزِيلُونَ
هذه التناقضاتِ ، وهنالك أعودُ غيرَ عارفٍ بغير عنصرٍ واحد .

وستلاحظون أننى بكلمةِ « عنصرٍ » أقصدُ ، على العموم ، موجوداً
متصفاً ببعض الصفات الابتدائيةُ مُجرَّدةً من كلِّ تبديلٍ خاصٍ أو تحويلٍ
ثانوى ، وإذا كانت جميعُ الصفات الابتدائية المعروفة لدينا تستطيع أن
تتجمع فى عين الوجود ، إذنْ ، وجبَ عدمُ القول بغير عنصرٍ واحد ،
ولكنْ إذا وُجدَ من الصفات ما يتنافى مبادلةً وُجدَ من العناصر المختلفة
بذاك المقدار ما يُمكن أن ينشأ عن مثل ذلك التناقض ، وستنعمون النظر فى
ذلك ، وأما أنا ، فهما قال لوكُ ، لا أحتاج فى معرفتى المادة إلى غير
كونها اتساعاً وقابليةً للانقسام حتى أطمئنَّ إلى عدم قدرتها على التفكير ،
فإذا ما جاء فيلسوفٌ ليقول لى إن الأشجار تشعُر وإن الصخرَ تفكرُ^(١)

(١) يلوح لى أن الفلسفة الحديثة تعتمد عن القول بأن الصخر تفكر، وأنها ، على العكس ، قد =

كان من العبث رَبِّكَ إِيَّاي ببراهينه الدقيقة ، وذلك أنتى لا يُمكننى أن أرى فيه غيرَ سَفْسَطِي سَيِّئِ النية يُفَضِّلُ أن يَمْنَحَ الحجارة شعوراً على مَنَحِ الإنسان روحاً .

ولنفترض أن أحد الصَّمِّ يُنْكِرُ وجودَ الأصوات لأنها لم تَقَرَّعْ أذنه قطُّ ، وأَضَعُ تحت عينيه آلةَ ذاتِ وَتَرٍ ، وأَجْمَلُها تَرِيٌّ مع الإيقاع بفعل آلةٍ أخرى خافيةٍ عنه ، ويرى الأصمُّ اهتزازَ الوتر ، وأقول له : « إن الصوت هو الذى يَفْعَلُ هذا » ، ويقول مجيباً : « كَلَّا » ، إن الوتر نفسه هو علةُ اهتزازِه ، وإن الاهتزاز على هذا الوجه صفةٌ مشتركة بين جميع الأجسام » ، وأرُدُّ عليه بقولى : « أرِنى هذا الاهتزازَ فى الأجسام الأخرى ، أو علته فى هذا الوتر على الأقل » ، ويقول الأصمُّ مُعَقِّباً : « لا أَقْدِرُ على هذا ،

= اكتشفت عدم تفكير الناس مطلقاً ، وعادت هذه الفلسفة لا تعترف بغير موجودات حساسة فى الطبيعة ، ويقوم كل فرق تجده بين الإنسان والحجر على كون الإنسان موجوداً حساساً ذا أحاسيس وكون الحجر موجوداً حساساً خالياً من الأحاسيس ، ولكن إذا صح أن كل مادة تحس فأين أدرك الوحدة الحسية أو الذات الفردية ؟ أهى فى كل ذرة من المادة أم فى الأجسام المولفة من ذرات ، وهل أضاع هذه الوحدة فى السوائل والمواد ، وفى المركبات والعناصر ؟ ولا يوجد غير أفراد فى الطبيعة كما يقال ! ولكن من هم هؤلاء الأفراد ؟ وهل هذا الحجر فرد أو مجموعة أفراد ؟ وهل هو موجود حساس واحد أو إنه يشتمل على موجودات حساسة بمقدار حب الرمل ؟ وإذا كانت كل ذرة أولية موجوداً حساساً فكيف أتصور هذا الاتصال الوثيق الذى تشعر به كل ذرة ضمن الأخرى ، وذلك بحيث تختلط الذرتان فى واحدة ؟ أجل ، قد تكون الجاذبية ناموساً للطبيعة نجعل سره ، ولكننا ندرك ، على الأقل ، أن الجاذبية ، إذ تؤثر وفق الكتل ، لا تنظوى على ما يناقض الاتساع وقابلية الانقسام ، وهل تتصورون الإحساس على هذا الوجه ؟ إن الأجزاء الحساسة اتساعات ، ولكن الموجود الحساس واحد غير قابل للانقسام ، وهو لا يتجزأ ، وهو كل أو هو عدم ، ولذا فإن الموجود الحساس ليس جسماً ، ولا أعرف كيف يدركه ماديونا ، ولكنه يلوح لى أن ذات المصاعب التى حملتهم على نبذ الفكر يجب أن تحملهم على طرح الإحساس أيضاً ، ولا أرى بمد قيامهم بالخطوة الأولى سبباً لعدم قيامهم بالخطوة الثانية أيضاً ، وما يكلفهم هذا ؟ وكيف يجروون على توكيد إحساسهم ماداموا يرون أنهم لا يفكرون .

ولكن بما أننى لا أتصور كيف يهتز هذا الوتر فلم أوضِّحه بأصواتكم التى لا يوجد لدى أية فكرة عنها؟ إن هذا إيضاحٌ لأمرٍ غامضٍ بعلّةٍ أشدَّ غموضاً ، وعليكم أن تجعلوا لى أصواتكم محسوسةً ، أو إننى أقول إنها غير موجودة . »

وكما أنعمتُ النظر فى الفكر وفى طبيعة روح الإنسان وجدتُ أن برهان الماديين يشابه برهان ذلك الأصمِّ ، والحقُّ أنهم صمُّ تجاه الصوت الباطنى الذى يناديهم بنغمةٍ يَضَعُ إنكارُها ، ولا تُفَكِّرُ الآلةُ مطلقاً ، ولا توجد حركةٌ ولا صورةٌ تُحدِثُ تأملاً ، وفى نفسك شىءٌ يحاول أن يَكْسِرَ الروابط التى تَضَعُهَا ، وليس الفضاء مقياسك ، وليس العالم من الاتساع ما يناسبك ، فمشاعرك ورغائبك وهلمك ، وكبرياتك أيضاً ، مبدأ آخرٌ غيرُ هذا الجسم الضيق الذى تشعُرُ بأنك مقيدٌ فيه .

ولا ترى موجوداً مادياً فاعلاً بنفسه ، وأما أنا ففاعلٌ ، ومن العبث أن تجادلونى فى هذا ، فأنا أحِسُّه ، وهذا الإحساس الذى يخاطبنى أقوى من العقل الذى يجادل فيه ، ولدى جسمٌ تؤثر فيه الأجسام الأخرى ، وهو يؤثر فيها ، ولا رَيْبَ فى هذا العمل المتبادل ، غير أن إرادتى مستقلةٌ عن حواسى ، وأوافق أو أقاوم ، وأُغَلِّبُ أو أُغَلِّبُ ، وأشعُرُ بنفسى تماماً عندما أفعل ما أريدُ أن أفعل ، أو عند ما لا أذعن لغير أهوائى ، ولدى قدرةٌ على الإرادة دائماً ، لا قدرةٌ على التنفيذ ، ومتى أسلمتُ نفسى إلى المُغْرِيات سِرتُ وَفَّقَ دافع الأمور الخارجية ، ومتى لُمتُ نفسى على هذا الضعف لم أستمع لغير إرادتى ، فأنا عبدٌ بمعايى وحرٌّ بمَنَادِمى ، ولا يزول إحساسُ

حريقتي فيَّ إلاَّ بفسادى وعند منعى صوتَ روحى من الارتفاع ضدَّ سلطان
البدن .

ولا أُعْرِفُ الإرادةَ إلاَّ بإحساس إرادتى ولست أحسنَ معرفةً بالإدراك
من ذاك ، وعند ما أُسأل عن العلة التى تُجْبِرُ إرادتى أُسأل بدَوْرِى عن
العلة التى تُجْبِرُ حُكْمى ، وذلك لأن من الواضح كَوْنُ هاتين العلتين
لَيْسَتَا سوى علةٍ واحدةٍ ، وإذا ما فُهِمَ جَيِّدًا أن الإنسان فاعلٌ فى أحكامه
وأن إدراكه ليس سوى القدرة على المقارنة والحُكْم ، رُئِيَ أن زُهوَه ليس
غيرَ قدرةٍ مماثلةٍ أو مشتقةٍ من تلك ، وهو يختار بين الخير والشرِّ وَفْقَ
حكمه فى الصدق والكذب ، وما العلةُ التى تُجْبِرُ إرادته إِذَنْ؟ هى حُكْمُه ،
وما العلةُ التى تُجْبِرُ حُكْمُه؟ هى صفته العاقلة ، هى قدرته على الحكم ، وتقعُ
العلةُ التى تُجْبِرُ فيه ، فإذا عَدَوْتُ هذا عُدْتُ لا أدرك شيئاً .

ولا رَيْبَ فى أننى لست مختاراً فى عدم إرادتى خَيْرِى الخاصِّ ، وفى
أننى لست مختاراً فى إرادة شرِّى ، بيد أن اختيارى يقوم على الأمر القائل
إننى لا أستطيع إرادةَ غيرِ ما يلائمنى ، أو الذى أُقَدِّرُ أنه يلائمنى ، وذلك
من غير أن يُوجَدَ شَيْءٌ غريبٌ عَنى يُجْبِرُنِى ، وهل يُسْتَنْتَجُ من ذلك
كَوْنِى لستُ سيدَ نفسى لأننى لستُ سيداً فى كَوْنِى غيرَ ما أنا عليه ؟

ومبدأ كلِّ فِعْلٍ هو فى إرادة موجودٍ مختار ، ولا يُمكنُ الذهابُ إلى
ما هو أبعدُ من هذا ، وليست كلمةُ الاختيار هى التى لا تَعْنِ شيئاً ، بل
كلمةُ الضرورة ، وَيَعْنِ افتراضُ فعلٍ ما ، أى افتراضُ معلولٍ ما لا يُشْتَقُّ
من أصلٍ فاعلٍ ، وقوعاً ضِمنَ دَوْرِ مُتَسَلِّلٍ ، والأمرُ هو إما ألاَّ يُوجَدَ

دافع أول مطلقاً ، وإما ألا يكون لكل دافع أول أية علة سابقة ، فلا إرادة حقيقية بلا اختيار ، ولذا فإن الإنسان مختار في أفعاله ، والإنسان هكذا يكون حياً بعنصر غير مادي ، وهذه هي مادة إيماني الثالثة ، ويسأل عليكم أن تستنبطوا من هذه الثلاث الأولى جميع الأخرى من غير أن أستمّر على عدّها .

وإذا كان الإنسان فاعلاً مختاراً فإنه يفعل من تلقاء نفسه ولا يدخل جميع ما يصنع ضمن النظام الذي ربّته العناية الإلهية ، ولا يمكن أن يُنسب إليها ، فهي لا تريد الشرّ الذي يفعلهُ الإنسان بإساءته استعمال الاختيار الذي تُعطيه إياه ، ولكنها لا تمنعه من فعله ، وذلك إما لأن صدور هذا الشرّ عن موجود بالغ الضعف أمر لا يؤبه له في نظرها ، وإما لأنها لا تستطيع أن تمنعه من غير أن تفوق اختياره فتأتي شرّاً أعظم من ذاك بحطّ طبيعته ، وهي قد جعلته حرّاً لكيلا يصنع الشرّ ، بل ليصنع الخير عن خيار ، وهي قد وصّته في حال يفعل فيها هذا الخيار باستعماله كثيراً من الخصائص التي أنعمت بها عليه ، ولكنها بلّغت من تحديد قواه ما لا يُكدر النظام العامّ معه سوء استعمال الحرية التي تدّعاها له ، وما يأتيه الإنسان من شرّ فيقع عليه من غير أن يُغيّر شيئاً من نظام العالم ، ومن غير أن يحول دون بقاء النوع البشريّ على الرغم منه ، وينطوي كلّ تدمر من أن الله لا يحول دون فعل الشرّ على تدمر من أنه خلق ذلك النوع من طبيعة رائعة ، ومن أنه وممّ أفعاله بأدبٍ يُشرّفها ، ومن أنه جمل له حقاً في الفضيلة ، ويتجلى أرفع إمتاع في رضا

النفس ، ونحن ، لكي نستحق هذا الرضا ، جُعِلْنَا على الأرض وَجُعِلْنَا بالاختيار ، وأُعِينَا بالأهواء ورُدِّعْنَا بالضمير ، وماذا كانت القدرة الصَّمَدَانِيَّة تَصْنَعُ أَكْثَرَ من ذلك نفعاً لنا ؟ أَمَا كَانَتْ تَجْعَلُ تناقضاً في طبيعتنا فَتَمْنَحَ من هو عاجزٌ عن صُنْعِ الشَّرِّ جَائِزَةً على صُنْعِ الْخَيْرِ ؟ ماذا ! هل كَانَ من الواجب قَصْرُ الْإِنْسَانِ على الْغَرِيزَةِ وَجَعْلُهُ من الْبَهَائِمِ مَنَعاً لَهُ من أَنْ يَكُونَ شَرِّيراً ؟ كَلَّا ، رَبِّ نَفْسِي ، لَنْ أَلُومَكَ ، مطلقاً ، على أَنَّكَ خَلَقْتَهُ على مِثَالِكَ لِيُسَكِّنَنِي أَنْ أَكُونَ حُرّاً صَالِحاً سَعِيداً مِثْلَكَ .

وسواء استعمال مواهبنا هو الذي يَجْعَلُنَا تعساءً أَشْرَاراً ، وَتَصْدُرُ عَنَّا كُرُوبُنَا وَهَوْمُنَا وَآلَمُنَا ، وَلَا جِدَالَ فِي أَنَّ الشَّرَّ اُخْلُقُ فِيهِ مِنْ عَمَلِنَا ، وَفِي أَنَّ مَرْضَا الْبَدَنِ لَا يَكُونُ شَيْئاً لَوْلَا عِيوبُنَا الَّتِي تَجْعَلُنَا عُرْضَةً لَهُ ، أَلَمْ تَجْعَلْنَا الطَّبِيعَةَ شَاعِرِينَ بِاحْتِيَاجَاتِنَا حِرْصاً عَلَى بَقَائِنَا ؟ أَلَيْسَ أَلَمُ الْجِسْمِ دليلاً عَلَى اخْتِلَالِ آلَاتِهِ وَتَنَبُّهٍ إِلَى تَلَاوُفِهِ ؟ وَالْمَوْتُ . . . أَلَا يُسَمُّ الْأَشْرَارُ حَيَاتَهُمْ وَحَيَاتِنَا ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَعِيشَ مُخْلِداً ؟ إِنْ الْمَوْتُ عِلَاجٌ لِلشَّرِّ الَّتِي تَوْجِبُونَهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَالطَّبِيعَةُ لَمْ تُرِدْ أَنْ تَأْمُلُوا دَائِماً ، وَمَا أَقَلَّ الْآلَامِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ الْحَيُّ عُرْضَةً لَهَا فِي الْبَسَاطَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ! وَهُوَ يَعِيشُ بِلا أَمْرَاضٍ تَقْرِيباً كَمَا يَعِيشُ بِلا أَهْوَاءٍ ، وَهُوَ لَا يُبْصِرُ الْمَوْتَ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ ، وَهُوَ إِذَا مَا أَحْسَسَهُ رَغْبَتَهُ فِيهِ أَبْوَسُهُ ، وَلِذَا عَادَ لَا يَكُونُ شَرّاً عِنْدَهُ ، وَإِذَا مَا كُنَّا رَاضِينَ بِالْحَالِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا لَمْ نَرِثْ طَالَمَنَا مطلقاً ، وَلَكِنَّا نَجْلِبُ لَأَنْفُسِنَا أَلَمَ شَرِّ حَقِيقَةٍ فِي سَبِيلِ الْبَحْثِ عَنْ سَعَادَةٍ خَيَالِيَّةٍ ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ اِحْتِمَالَ قَلِيلِ أَلَمٍ وَجِبَ

أَنْ يَتَوَقَّعَ كَثِيرٌ وَجَعَ ، وَمَنْ يُفْسِدُ بُنْيَتَهُ بِحَيَاةٍ دَاعِرَةٍ يُرِدُ إِصْلَاحَهَا
بِعِلَاجَاتٍ ، فَيُضَافُ إِلَى الْمَرَضِ الَّذِي يُحْسُّ مَرَضٌ يُخَشَى ، وَمَا يَقَعُ مِنْ
خَذَرِ الْمَوْتِ يَجْعَلُهُ كَرِيهًا وَيُعَجِّلُهُ ، وَكَلِمَا أُرِيدَ الْفِرَارُ مِنْهُ شُعِرَ بِهِ ،
وَيُصَابُ الْإِنْسَانُ بِالْمَوْتِ عَنْ خَوْفِهِ إِيَّاهُ مَدَى حَيَاتِهِ ، وَذَلِكَ بِمَا يَتَّبِعُهُ بِهِ
ضِدَّ الطَّبِيعَةِ عَنْ شُرُورٍ صَنَعَهَا لِنَفْسِهِ بِإِسَاءَتِهِ إِلَى الطَّبِيعَةِ .

فِيهَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، لَا تَبْحَثْ عَنْ فَاعِلِ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِمَّا بَحِثْتَ ، فَأَنْتَ
ذَلِكَ الْفَاعِلُ ، وَلَا يُوجَدُ شَرٌّ آخَرُ غَيْرَ الَّذِي تَصْنَعُ أَوْ الَّذِي مِنْهُ تَتَوَجَّعُ ،
وَمِنْ نَفْسِكَ يَا بُنَيَّ هَذَا وَذَلِكَ ، وَلَا يُمَكِّنُ الشَّرَّ الْعَامَّ أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ
عَدَمِ النِّظَامِ ، وَأَرَى فِي نِظَامِ الْعَالَمِ انْتِظَامًا لَا يَنْقِضُ نَفْسَهُ مَطْلَقًا ، وَلَا يَكُونُ
الشَّرُّ الْخَاصُّ فِي غَيْرِ شُعُورِ الْمَوْجُودِ الَّذِي يَأْلَمُ ، وَلَمْ يَتَلَقَّ الْإِنْسَانُ هَذَا
الشُّعُورَ مِنَ الطَّبِيعَةِ ، بَلِ الْإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي صَنَعَ لِنَفْسِهِ ، وَلَيْسَ لِلْأَلَمِ غَيْرُ
سُلْطَانٍ قَلِيلٍ عَلَى قَلِيلِ التَّأَمُّلِ فَلَا تَكُونُ لَدَيْهِ ذِكْرَى وَلَا خَذَرٌ ،
وَانْزِعُوا تَقَدُّمَنَا الْمَشْهُومَ ، وَأَزِيلُوا خَطَأَنَا وَعُيُوبَنَا ، وَانْحُوا عَنِ الْإِنْسَانِ ،
يَفْدُ كُلُّ أَمْرٍ خَيْرًا .

وَلَا جَوَرَ حَيْثُ كُلُّ أَمْرٍ خَيْرٌ ، وَلَا انْفِصَالَ لِلْعَدْلِ عَنِ الْجُودِ ،
وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْجُودَ نَتِيجَةُ ضَرُورِيَّةٍ لِقُدْرَةٍ لَا حَدَّ لَهَا وَلِحُبِّ النَّفْسِ الْجَوْهَرِيَّةِ
لِكُلِّ مَوْجُودٍ ذِي إِحْسَاسٍ ، وَمَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَنْسُطُ وَجُودَهُ ،
لِهَذَا السَّبَبِ ، عَلَى وَجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَالْإِنْتِاجِ وَالْبَقَاءِ مِنْ عَمَلِ الْقُدْرَةِ
الدَّائِمِ ، وَلَا يَدُورُ الْأَمْرُ حَوْلَ مَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مَطْلَقًا ، وَلَيْسَ الْإِلَهِ
إِلَهَ الْأَمْوَاتِ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَادِمًا شَرِيرًا مَنْ غَيْرِ أَنْ يَسِيءَ نَفْسَهُ ،

وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرِيدَ غَيْرَ الْخَيْرِ^(١)، وَلِذَا فَإِنْ مِنْ
الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ الْكَائِنُ الَّذِي هُوَ كَامِلُ الْجُودِ ، لِأَنَّهُ كَامِلُ الْقُدْرَةِ ،
كَامِلَ الْعَدْلِ أَيْضًا ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَنَاقِضُ نَفْسَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ حُبَّ النِّظَامِ
الَّذِي يُوْجِبُهُ يُدْعَى جُودًا ، وَلِأَنَّ حُبَّ النِّظَامِ الَّذِي يَحَافِظُ عَلَيْهِ يُدْعَى
عَدْلًا .

وَيَقَالُ لَا يَنْبَغِي لِلرَّبِّ أَنْ يَكُونَ مَدِينًا لِمَخْلُوقَاتِهِ بِشَيْءٍ ، وَأُظَنُّ أَنَّهُ
مَدِينٌ لَهُمْ بِكُلِّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالْوُجُودِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ وَعَدَهُمْ
بِالْخَيْرِ إِذْ مَنَحَهُمْ فِكْرَةً عَنْهُ وَأَشْعَرَهُمْ بِالْاِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ ، وَكَمَا خَلَقَتْ إِلَى نَفْسِي
فَكَّرْتُ وَقَدَّرْتُ وَقَرَأْتُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي رُوحِي وَهِيَ : « كُنْ
عَادِلًا تَكُنْ سَعِيدًا » ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَبْدُو غَيْرَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّظَرِ
إِلَى حَالِ الْأَشْيَاءِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، فَالشَّرَّيرُ يَزْدَهَرُ وَالصَّالِحُ يَظَلُّ مَظْلُومًا ،
وَكَذَلِكَ انْظُرُوا أَيُّ غَيْظٍ يَشْتَعِلُ فِيْنَا عِنْدَ خَيِّبَةِ هَذَا الْإِنْتِظَارِ ! وَيَتَوَّرَّ
الضَّمِيرُ وَيَتَذَمَّرُ مِنْ بَارِئِهِ ، وَيَدْعُوهُ مَرْتَجِفًا قَائِلًا : « لَقَدْ خَدَعْتَنِي ! » .

« خَدَعْتُكَ أَيُّهَا التَّهَوُّرُ ! مِنْ قَالَ لَكَ هَذَا ؟ هَلْ يُحْيِي رُوحُكَ ؟ هَلْ
انْقَطَعَ وَجُودُكَ ؟ أَيُّ بَرُوتُوسٍ ! أَيُّ بُنَيَّ ! لَا تَدْنُسْ حَيَاتَكَ الْكَرِيمَةَ بِإِنهَائِهَا
مُطْلَقًا ، وَلَا تَدْعُ أَمْلَكَ وَمَجْدَكَ مَعَ بَدَنِكَ لِحَقُولِ فِلِيبِّي ، وَلَيْمَ تَقُولُ : « لَيْسَتْ
الْفَضِيلَةُ شَيْئًا » عِنْدَ مَا كِدْتَ تَتَمَتَّعُ بِمَجَازَةِ فَضِيلَتِكَ ؟ تَرَى أَنَّكَ تَمُوتُ !
كَلَّا ، إِنَّكَ تَحْيَا ، وَهَنَالِكَ أَوْ كُنْ قَدْ قَمْتُ بِمَا وَعَدْتُكَ بِهِ . »

(١) كَانَ الْقِسْمَاءُ عَلَى صَوَابٍ كَبِيرٍ عِنْدَمَا كَانُوا يَسْمُونِ الرَّبَّ الْأَعْلَى « الْمَلِ الْأَعْلَى » ، وَلَكِنْهُمْ يَكُونُونَ
عَلَى صَوَابٍ أَدَقٍّ مِنْ ذَلِكَ لَوْ قَالُوا « الْأَعْلَى الْمَلِ » ، مَا دَامَ جُودُهُ يَأْتِي مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَهُوَ جَوَادٌ لِأَنَّهُ عَظِيمٌ .

ويقال عند النظر إلى تَذَمُّرٍ فاقدى الصبر من الناس إن الرَّبَّ مَدِينٌ لَهُم
 بالجائزة قبل استحقاقها وإنه ملزَمٌ بِدَفْعِ بَدَلِ الْفَضِيلَةِ سَلَفًا ، وَئِ ! لِنَكُنْ
 صالحين أَوَّلًا ، ثُمَّ نَكُونُ سَعْدَاءَ ، وَلَا نَطَالِبُ بِالْجَائِزَةِ قَبْلَ الْفَوْزِ ، وَلَا
 بِالْأَجْرَةِ قَبْلَ الْعَمَلِ ، قَالَ بِلُوتَارِكُ : « لَا يَتِمُّ فِي الْمَلَمَبِ تَتَوِيحُ الْفَائِزِينَ فِي
 أَلْعَابِنَا الْمَقْدَسَةِ ، بَلْ يَتِمُّ بَعْدَ أَنْ يَقُومُوا بِمِبَارَاتِهِمْ » .

وإذا كانت الروحُ غَيْرَ مَادِيَةٍ أَمْكَنَ أَنْ تَبْقَى حَيَّةً بَعْدَ الْبَدَنِ ،
 وَهِيَ إِذَا مَا بَقِيَتْ حَيَّةً بَعْدَهُ سُوِّغَتِ الْعَنَاءَةُ الرَّبَّانِيَّةُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَدِيَّ
 دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى لَامَادِيَّةِ الرُّوحِ غَيْرُ فَوْزِ الشَّرِيرِ وَاضْطِهَادِ الصَّالِحِ فِي هَذَا
 الْعَالَمِ لَكُنْفِي هَذَا وَحْدَهُ لِمَنْعِي مِنَ الشَّكِّ فِي ذَلِكَ ، وَتَنَافَرُ كَثِيرُ الْأَذْيِ
 كَهَذَا فِي انْسِجَامِ الْعَالَمِ يَدْفَعُنِي إِلَى مُحَاوَلَةِ حَلِّهِ ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : « لَا يَنْتَهِي
 كُلُّ شَيْءٍ مَعَ الْحَيَاةِ عِنْدَنَا ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَجِدُ مَكَانَهُ بِالْمَوْتِ » ، وَالْحَقُّ أَنَّنِي
 أُحْمَلُ نَفْسِي غَوْلَ السُّؤَالِ عَنْ مَكَانِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ زَوَالِ كُلِّ مَا كَانَ لَدِيهِ
 مِنْ أَمْرِ مُحْسُوسٍ ، وَعَادَ هَذَا السُّؤَالُ لَا يَنْطَوِي عَلَى صَعُوبَةٍ لَدِيَّ مَا اعْتَرَفْتُ
 بِعَنْصَرَيْنِ ، وَمِنَ الْبَسَاطَةِ الْبَالِغَةِ أَلَّا أُدْرِكَ شَيْئًا بِغَيْرِ حَوَاسِّي فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِي
 الْبَدْنِيَّةِ قِيْفُوتِي مَا لَا يَخْضَعُ لَهَا مُطْلَقًا ، فَتِي زَالِ اتِّحَادِ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ أُدْرِكْتُ
 إِمْكَانَ انْحِلَالِ أَحَدِهِمَا وَبَقَاءِ الْآخَرِ ، وَلَيْمَ يُوَدِّى زَوَالُ أَحَدِهِمَا إِلَى زَوَالِ
 الْآخَرِ ؟ وَعَلَى الْعَكْسِ كَانَا فِي حَالِ شِدَّةٍ بِاتِّحَادِهِمَا لِاخْتِلَافِ طَبِيعَتِهِمَا ، فَتِي
 زَالِ هَذَا الْإِتِّحَادِ عَادَا كِلَاهُمَا إِلَى حَالِهِمَا الطَّبِيعِيَّةِ ، أَيْ إِنْ الْعَنْصَرَ الْفَاعِلَ
 الْحَيَّ يَسْتَرُدُّ جَمِيعَ الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا فِي تَحْرِيكِ الْعَنْصَرِ الْمُنْفَعْلِ الْمَيِّتِ ،
 وَاحْتَسَرَّتَاهُ ! إِنَّنِي أَحْسُ كَثِيرًا بِمَعَايِي كَوْنِ الْإِنْسَانِ لَا يَعِيشُ غَيْرَ

نصفِ عيشٍ في أثناء حياته ، وأن حياة الروح لا تبدأ إلا بموت
البدن .

ولكن ما هذه الحياة ؟ وهل الروحُ خالدةٌ بطبيعته ؟ لا يتصور إدراكى
المحدودُ شيئاً غيرَ محدود ، وَيَقْوَتْنِي كُلُّ ما يُدْعَى لا حَدَّ له ، وما أستطيع
أن أنكرَ وأؤكدَ ؟ وأىُّ برهانٍ يُمكنُنِي أن أقيم حَوْلَ ما لا أَقْدِرُ أن
أدركَ ؟ أعتقد أن الروحَ تَبْقَى حَيَّةً بعدَ البدنِ لحفظِ النظامِ ، ومن يَعْرِفُ
أن هذا يَكْفِي لخلودها أبداً ؟ ومهما يكن من أمرٍ فإننى أدركُ كيف يَبْلَى
البدنُ وَيَفْتَنُ بِتَفْرِقِ الأجزاء ، ولكننى لا أستطيع أن أدركَ مثلَ هذا القناء
للموجودِ المفكرِ ، وإنى ، إذ لا أتصورُ كيف يُمكن أن يَمُوتَ ، أفترضُ أنه
لا يموتُ ، وبما أن هذا الافتراضُ يُفَرِّجُ غَمِّى ولا ينطوى على شئٍ مخالفٍ
للسوابِ فَلِمَ أخشى أن أُسَلِّمَ به ؟

وأشعرُ بروحى ، وأعْرِفه بالشعورِ وبالفكرِ ، وأعلمُ أنه موجودٌ من غيرِ
أن أعلمَ ما جوهره ، ولا أَقْدِرُ أن أُبرهنَ حَوْلَ أفكارٍ ليست لى ،
والذى أعْرِفُ جيداً كَوْنُ ذاتى لا تَمْتَدُّ بغيرِ الذاكرةِ ، وأننى لى أكونُ
إِبَّائى فى الحقيقةِ يجبُ أن أذكرُ أننى كُنْتُ ، والواقعُ أننى لا أستطيعُ أن
أذكرُ بَعْدَ مماتى ما كنتُ فى أثناء حياتى ما لم أذكرُ ما كنتُ أَحِسُّ ،
ومن ثَمَّ ما كنتُ أَفْعَلُ ، ولا رَبِّبَ عِندى مُطلقاً فى كَوْنِ هذا الذِّكْرِ
يَكُونُ ، ذاتَ يومٍ ، مدارَ سعادةِ الأبرارِ وعذابِ الأشرارِ ، وَتَجِدُ فى هذه
الدنيا ألفَ هَوَى حارٍ يَسْتَغْرِقُ الشعورَ الباطنىَّ ويخادِعُ وَخَزَ الضميرَ ،
وما تَجْلِبُه ممارسةُ الفضائلِ من هَوَانٍ وَقَدْرٍ حُطْوَةٍ يَحُولُ دونَ الشعورِ بفتونها

كاملةً ، ولكن متى نَجَوْنَا من الأوهام التي يُوجِبُها الجسمُ والحواسُ فينا
فَتَمَتَّعْنَا بتأملِ الكائن الأعلى وبالحقائق الخالدة الذي هو أصلُها ، ومتى
قَرَعَ جمالُ النظامِ جميعَ قُوَى روحنا فَشَغَلْنَا ، فقط ، بالمقابلة بين ما صَنَعْنَا
وما كان يَجِبُ أن نَصْنَعَ ، استردَّ صوتُ الضميرِ قُوَّتَه وسلطانَه هنالك ،
وَمَيَّزَتِ اللذةُ الخالصةُ عن رضا النفسِ والندامةُ الأليمةُ عن تَدَنٍّ ، بمشاعرٍ
لا تَنضُبُ ، ما أعدّه كلُّ واحدٍ لنفسه من مصيرٍ ، ولا تسألني ، يا صديقي
العزیز ، مُطلقاً ، عن وجودِ منابعٍ أخرى للسعادة والآلام ، فهذا أمرٌ أَجْهَلُهُ ،
وإنما أَجِدُ في النابع التي أَتَخَيَّلُ ما يكفي لتسليتي في هذه الحياة ولأَرْجُو
حياةً أخرى ، ولا أَقول ، مُطلقاً ، إن الصالحين سيكافأون ، فما الخَيْرُ
الآخرُ الذي يُمكن أن ينتظره موجودٌ بحَيِّدٍ إن لم يكن وجودُهُ وَفَقَ
طبيعته ؟ بيد أنني أقول إنهم سيكونون سعداء ، وذلك لأن بارئهم ، الذي
هو فاعلُ كلِّ عدلٍ ، إذ خَلَقَهُم ذوى إحساسٍ ، لم يَصْنَعْهم للألم ، وذلك
لأنهم ، إذ لم يسيثوا استعمالَ اختيارهم في الأرض ، لم يَحْمِلُوا مصيرهم بذنبيهم ،
أى إنهم أَلِمُوا في هذه الحياة ، فَبِعَوَضٍ في حياةٍ أخرى إِذَنْ ، وهذا
الشعورُ أَقلُّ استناداً إلى استحقاق الإنسان مما إلى مبدأ الصلاح الذي يَلُوح
لى أنه تَمَدُّرُ انفصاله عن الكُنه الإلهي ، ولا أصنع غير افتراضِ سُنَنِ
النظامِ للملاحَظَةِ ، والله قائمٌ بذاته ^(١) .

وكذلك لا تسألوني عن كَوْنِ الأشرار خالدين في العذاب أبداً ، فأنا

(١) « ليس لنا يارب ، ليس لنا ، لكن لاسمك أعط مجداً من أجل رحمتك ، من أجل أمانتك . »

(المزبور المئة والخامس عشر) .

أَجْهَلُ هَذَا أَيْضًا ، وليس لدىَّ من الفضُولِ الفارغِ ما أَوْضَحُ به هذه المسائلَ غيرَ المُجْدِيَةِ ، وما أَرَبِي في مصير الأشرار ؟ إننى قليلُ الاكتراثِ لِمَا يَصِيرُونَ إليه ، ومع ذلك فإنه يَصُغَبُ علىَّ أن أعتقد أنهم محكومٌ عليهم بعذابٍ لا نهايةَ له ، فإذا كان العدلُ الأعلى يَنْتَقِمُ فإنه يَنْتَقِمُ في هذه الحياة ، وأنهم ، أيها الأقوام . مع ضلالتكم ، وكلاءه له ، وهو يستعمل الشرورَ التى تَأْتُونَ للعقابِ على الجرائمِ التى اجتذبتها ، وذلك أن الأهواءَ المُنْتَقِمَةَ تجازى على مُنْكَرَاتِكُمْ فى أفئدتكم الشَّرِّهَةِ التى أَكَلَهَا الحسدُ والبخلُ والطمعُ ، وفى صميمِ يُسْرِكُمُ الزائفُ ، وهل من حاجةٍ إلى البحثِ عن النارِ فى الحياة الأخرى ؟ فالنارُ هنا فى قلب الأشرار .

ويجب أن تنقطع أهواؤنا وجرائمنا حيث تنتهى احتياجاتنا الزائلة ورغباتنا غير الصائبة ، وأى فُسُوقٍ تكون النفوس النقية مستعدةً له ؟ وهى إذ ليست محتاجةً إلى شيءٍ فَلِمَ تكون شَرِيرَةً ؟ وهى إذ تكون فى مَنْجَى من حواسنا الغليظة فإن سعادتها تكون فى تأمل الموجودات ولا تستطيع أن تريد غير الخير ، وهل يكون خيئًا إلى الأبد مَنْ يَنْقَطِعَ عن الشرِّ ؟ كَلَّا ، وهذا ما أَمِيلُ إلى اعتقاده ، وإن لم أَكَلِّفْ نفسى عناء اتخاذِ قرارٍ فى هذا ، فيا أيها الربُّ الرحيم الكريم ، إننى أَعْبُدُ قضاءك مهما كان ، وإذا كنتَ تجازى الأشرار جزاءً أبدىً فإننى أُلْغِي عَقْلِي الضعيف أمام عدلك ؟ ولكن إذا كان نَدَمُ هؤلاء التعماء يَنْطَفِئُ مع الزمن ، وإذا كانت آلامهم تنتهى ، وإذا كان السلام عَيْنُهُ يَنْتَظِرُنَا كُلَّنَا على السواء ذاتَ يومٍ فَلَكِ مِنِّى الثناء من أَجْلِ هذا ، أو ليس الشَّرِيرُ أَخَا لى ؟ وما أَكْثَرَ

ما أغريتُ بمشابهته ! وليرزُل سوؤه الملازمُ له بخلاصه من شقائه ، وليكنُ سعيداً مثلى ، فلا تؤدي سعادته إلى غير زيادة سعادتي ، وذلك مع استبعاد إثارة غيرتي بذلك .

وهكذا فاتني ، إذ أنظرُ إلى الله في أعماله ، وإذ أبحثُ عنه بصفاته التي يُهمُّني أن أعْرِفَها ، أنتهي إلى توسيعي وزيادتي بالتدريج فكرتي ، الناقصة المحدودة في البُداء ، عن هذا الكائن العظيم ، ولكن إذا كانت هذه الفكرة قد تحولت إلى ما هو أنبلُ وأكبر ، فإنها كذلك أقلُّ تناسباً مع العقل البشري ، وكلما دَنَوْتُ بالروح من الثور الأزليَّ بهَرَنِي سَنَاوهُ وحَيَّرَنِي ، فأضطرُّ إلى ترك جميع المفاهيم الدنيوية التي كانت تساعدني على تصوُّره ، فيعود الربُّ غيرَ جِسْمِي وغيرَ حِسِّي ، ويعود العقلُ الأعلى الذي يهيمن على العالم لا يكون عينَ العالم ، وأُرفعُ ذهني وأتبعه لإدراك كُنْهه على غير جَدْوَى ، ومتى فَسَّكَّرْتُ في أنه هو الذي يُنعمُ بالحياة والفاعلية على العنصر الحيِّ الفعال المسيطر على الأجسام الحية ، ومتى سمعتُ قولاً عن كَوْنِ نفسٍ روحانيةً وعن كَوْنِ الربِّ روحاً ، ساورَنِي غَيْظٌ من تدنِّي الكُنْهَ الإلهيِّ كما لو كان الربُّ وروحي من طبيعة واحدة ، وكما لو كان الربُّ وحده ليس المُطابقُ الفاعلَ الشاعرَ العاقلَ المُريدَ بذاته حقاً فنقتبس منه العقلَ والشعور والفاعلية والإرادة والاختيار والكيان ! ونحن لسنا مُخَيَّرِينَ إلّا لأنه أراد أن نكون هكذا ، وبعْدُ كُنْهه خافياً على أرواحنا خفاءً أرواحنا على أجسامنا ، ولا أعْرِفُ شيئاً عن خلقه المادة والأجسام والأرواح والعالم ، وترَبُّكُنِي فكرةُ الخلق وتجاوزُ مُتناوَلِي ،

وأعتقد أنها بمقدار ما أستطيع تَمَثُّلُهَا ، ولكنني أعرف أنه صَوَّرَ الكونَ وكلَّ موجودٍ وأنه صَنَعَ كلَّ شيءٍ ونَظَّمَ كلَّ شيءٍ ، والله أبدى لارِيبٍ ، ولكن هل يستطيع ذهني أن يستوعب فكرة الأبدية ؟ وَلِمَ أَقْنِعُ نفسي بكلماتٍ لا معنى لها ؟ وكلُّ ما أتصورُ هو أنه كان قبل الأشياء ، وأنه يكون ما بَقِيَتْ ، وأنه يكون بعدها ، أى إذا ما انتهى أمرُها ذاتَ يومٍ ، وليس من الغموض وتَعَذُّرِ الإدراك أن يُنْعِمَ الوجودُ الذي لا أُدْرِكُ بالحياة على الموجودات الأخرى ، ولكنَّ تَحَوُّلَ كلِّ من الوجود والعدم إلى الآخر بنفسهما ينطوى على تناقضٍ جَلِيٍّ ، وهو مُحَالٌ واضح .

واللهُ عاقلٌ ، ولكنَّ كيف يَكُونُهُ ؟ والإنسانُ عاقلٌ عند ما يُبْرهنُ ، ولا يحتاج العقل الأعلى إلى البرهنة ، ولا تُوجَدُ له مقدّماتٌ ولا نتائجٌ ، حتى إنه لا يُوجَدُ له قضيةٌ ، وهو عِيَانِيٌّ مُخَضَّصٌ ، وهو يَرَى على السواء ما هو كائنٌ وما يُمكن أن يكون ، وليست جميعُ الحقائق عنده سوى فكرةٍ واحدة ، كما أن جميع الأمكنة عنده ليست سوى نقطةٍ واحدة ، وكما أن جميع الأزمنة عنده ليست سوى هُنيئةٍ واحدة ، وتَعَمَلُ قدرةُ الإنسان بالوسائل ، وتَعَمَلُ قدرةُ الله بذاتها ، والله يَقْدِرُ لأنه يُريدُ ، وإرادته قدرته ، والله جوادٌ ، ولا شيء أوضح من هذا ، غير أن جُودَ الإنسان قائمٌ على حُبِّ أمثاله ، وجُودَ الله قائمٌ على حُبِّ النظام ، وذلك لأنه يُنسِكُ بالنظام ما هو موجودٌ ، فيَرْبِطُ كلَّ جزءٍ بالكلِّ ، والله عادلٌ ، وأعتقدُ هذا ، وهذا نتيجةُ جُوده ، وظلمُ الناس من عملهم ، لا من عمله ، وليس ما يُدْلي به الفلاسفة من فسادٍ أدبيٍّ ضدَّ العناية الربانية غيرَ دليلٍ على ذلك (٢٢)

العدل في نظري ، بَيِّدَ أن عدل الإنسان يقوم على إعطاء كل ذي حقِّ حَقَّهُ ، وأن عدل الله يقوم على مطالبة كلِّ واحدٍ بأن يُقدِّم حساباً عما أعطاه إياه .

وإذا كنتُ قد وُقِّتُ لاكتشاف ، بالتعاقب ، هذه الصفات ، التي ليس لدى أيةُ فكرةٍ مطلقة عنها ، فذاك باعتمادى على نتائج ضرورية ، وذلك عن حُسْنِ استعمال عقلي ، غير أنني أُوَيِّدُ وجودها من غير أن أدركها ، وليس هذا تأييداً من حيث الأساس ، ومن العبث أن أقول إن الله هو هكذا ، أى إننى شاعرٌ به مختبرٌ له ، وما كنت لأتمثِّل ما هو أفضلُ من هذا في إمكان كَوْنِ الرَّبِّ هكذا .

وحاصلُ القول أننى كلما سَعَيْتُ في تأمل كُنْهِه الذى لا حَدَّ له قلَّ إدراكى له ، ولكنه موجود ، وهذا يكفيني ، وكلما قلَّ إدراكى له كَثُرَتْ عبادتى له ، وأخضعُ وأقول له : « أى رَبِّ كلِّ موجود ، أنا موجودٌ لأنك موجود ، ويعنى تأمُّلكَ دائماً ارتقائى إلى منبعى ، ويكون أفضلُ استعمالٍ لعقلي في تدلُّله كلياً أمامك ، وهذا هو سَلْبُ قلبي وفتونُ ضعفى ، وهذا شعورى بأنى مشمولٌ بعظمتك . »

وإنى بعد أن استنبطتُ الحقائقَ الرئيسةَ التي يهْمُنِي معرفتها ، وذلك من انطباع الأشياء المحسوسة ومن الشعور الباطنى الذى يَحْمِلُنِي على الحُكْمِ فى العِللِ وَفَقِّ براهينى الطبيعية ، بَقِيََ علىَّ أن أبحث عن أىِّ المبادئ التي يَجِبُ أن أستخرج منها سلوكى ، وعن أىِّ القواعد التي يَجِبُ أن ألزِمَ بها نفسى قياماً بِمُقْتَضَى مصيرى فى الأرض وَفَقِّ مَقْصِدِ الذى جعلنى فيها ،

أَجَلٌ ، إتنى باتباعى منهاجى ، دائماً ، لا أستنبط هذه القواعد من مبادئ
 الفلسفة العليا مطلقاً ، وإنما أجدها مسطورةً فى صميم فؤادى من قبل
 الطبيعة بحروفٍ لا تُمَحَى ، وليس علىَّ أن أشاور غيرَ نفسى حول ما أريد
 أن أصنع ، وكلُّ ما أشعرُ بأنه خيرٌ هو خيرٌ ، وكلُّ ما أشعرُ بأنه شرٌّ
 هو شرٌّ ، والضميرُ أفضلُ حلالٍ للمشاكل ، ولا يُصارُ إلى دقائق
 البرهان إلاَّ عند مساومته ، وواجبُ الإنسان نحو نفسه هو أولُ الواجبات ،
 ومع ذلك فما أكثر ما يقول لنا صَوْتُ الباطن إتنا نصنع الشرَّ بصنعنا
 خيرَنا على حساب الآخرين ! ونحن نعتقد أننا نَتَّبِعُ دافعَ الطبيعة ،
 ونحن نقاومه ، ونحن ، إذ نستمع إلى ما تخاطب الطبيعةُ به حواسنا ،
 نَزْدَرِى ما تخاطب به قلوبنا ، فالموجودُ الفاعلُ يُطِيع ، والموجودُ المنفعل
 يَصْطَنِع ، والضميرُ صوت الروح ، والأهواء صوتُ البدن ، وهل من
 العجيب أن يتناقض هذان اللسانان فى الغالب ؟ وهنالك أىُّ اللسانين يجب
 أن يُنصَّتَ له ؟ والعقلُ يُخَادِعُنَا فى الغالب ، ولنا كلُّ الحقِّ فى رَفْضِهِ ،
 ولكن الضمير لا يُخَدِّعُ مطلقاً ، وهو دليلُ الإنسانِ الصادق ، وهو
 بالنسبة إلى النفس كنسبة الغريزة إلى البدن^(١) ، ومن يتَّبِعْهُ يُطِيعُ الطبيعةَ

(١) لا تقول الفلسفة الحديثة ، التى لا تقبل غير ما تفسر ، بالخاصية الغامضة المسماة «غريزة» ،
 التى تسوق الحيوانات نحو الغرض من غير معرفة مكتسبة ، وليست الغريزة عند (كوندريك) الذى هو من
 أحكم فلاسفتنا غير عادة خاصة فى التأمل ، ولكن مع اكتسابها بالتأمل ، ويجب أن يستنتج من الوجهة
 التى يوضح به هذا التقدم كون الأولاد أكثر من الرجال تأملاً ، وهذا قول غريب ، وهو من الغرابة ما لا
 يستحق معه أن يفحص ، ولا أدخل هنا فى هذا الجدل ، وإنما أسأل عن الاسم الذى يجب أن أطلقه على
 ما يبدىه كلبي من نشاط فى مقاومة المناجاة* التى لا يأكلها مطلقاً ، وعلى ما يبدىه من صبر ساعات بكاماهما =

• المناجاة : جمع خلد من غير لفظها ، والخلد نوع من القواضم يعيش تحت الأرض ، وهو ليس له
 عيتان ولا أذنان .

ولا يَحْشَ أَنْ يَصِلَ أَبَدًا ، وهذه النقطة مهمة ، وإني ، إذ أَتَّبَعُ الْمُنْعِمَ عَلَىَّ وَأُبْصِرُ أَنِّي أَقْطَعُ عَنْهُ ، أقول : دَعُونِي أَقِفُ قَلِيلًا لِإِيضَاحِهَا .

وَيَقُومُ كُلُّ أَدَبٍ فِي أَعْمَالِنَا عَلَى الْحُكْمِ الَّذِي نَحْمِلُهُ عَنْهَا ، وإذا كان من الصحيح أَنْ الْخَيْرَ خَيْرٌ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا فِي صَمِيمِ قُلُوبِنَا كَمَا فِي أَعْمَالِنَا ، وَتَكُونُ جَائِزَةُ الْعَدْلِ الْأَوَّلَى فِي شَعُورِنَا بِأَنَّنَا نَقِيمُهُ ، وإذا كان الصَّالِحُ الْخُلُقِيُّ مُطَابِقًا لِلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ سَلِيمَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ إِلَّا بِصَلَاحِهِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ هَكَذَا وَكَانَ الْإِنْسَانُ شَرِيرًا طَبِيعَةً فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنْ هَذَا الْوَضْعِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْسُدَ ، وَلَا يَكُونُ الصَّالِحُ فِيهِ سِوَى عَيْنٍ ضِدِّ الطَّبِيعَةِ ، وَإِذَا مَا صُنِعَ الْإِنْسَانُ لِإِيْذَاءِ أَمْثَالِهِ كَانَ كَالذُّبِّ الَّذِي يَذْبَحُ فَرِيْسَتَهُ وَبَدَا الْإِنْسَانُ الْبَشَرِيُّ حَيَوَانًا فَاسِدًا كَالذُّبِّ الرَّحِيمِ ، وَالْفَضِيلَةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَدْعُ فِينَا وَخَرًّا لِلضَّمِيرِ .

= كَأَنَّمَا لَهَا ، وَعَلَى مَا يَبْدِيهِ مِنْ بَرَاعَةٍ فِي إِسْكَانِهَا وَقَدْفِهَا خَارِجَ أَرْضِهَا عِنْدَ بَرُوزِهَا فِي قَتْلِهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِتَرْكِهَا هُنَاكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْرِيهِ أَحَدٌ عَلَى هَذَا الصَّيْدِ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ أَحَدٍ وَجُودَ مُنَاجِدٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَأَسْأَلُ أَيْضًا ، وَسْأَلِي هَذَا أَكْثَرُ أَهْمِيَّةٍ ، عَنْ السَّبَبِ فِي اسْتِطْلَاقِ هَذَا الْكَلْبِ عَلَى الْأَرْضِ مَعْنَى الْأَرْجَلِ مَتَّخِذًا وَضْعَ ضَارِعٍ مُؤَثِّرِي ، مَتَّخِذًا هَذَا الْوَضْعَ الَّذِي كَانَ يَبْقَى عَلَيْهِ لَوْضَرِيَّتُهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَجْلِبَ عَطْفِي ، مَاذَا ! كَلْبِي الصَّغِيرُ الَّذِي وَلَدَ مِنْذُ وَقْتٍ قَصِيرٍ يَكْتَسِبُ مَبَادِيءَ خَلْقِيَّةٍ ! وَهَلْ كَانَ يَعْرِفُ مَا الرِّحَةُ وَالْكَرْمُ ؟ وَمَا الْبَصَائِرُ الْمَكْتَسِبَةُ الَّتِي كَانَ يَرْجُو أَنْ يَسْكُنِي بِهَا تَارِكًا نَفْسَهُ تَحْتَ تَصَرُّفِي عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؟ إِنَّ جَمِيعَ كِلَابِ الْعَالَمِ يَأْتُونَ ذَاتَ الشَّيْءِ فِي ذَاتِ الْحَالِ دَائِمًا ، وَلَا أَقُولُ شَيْئًا عَمَّا يُمْكِنُ كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَحْقُقَ لِنَفْسِهِ ، وَلِيَتَفَضَّلَ الْفَلَاسِفَةُ ، الَّذِينَ يَرْفُضُونَ الْفَرِيْزَةَ بِأَزْدَرَاءِ ، أَنْ يَوْضُحُوا لَنَا هَذَا الْأَمْرَ بِالْإِحْسَاسَاتِ وَالْمَعَارِفِ الَّتِي يَفْتَرِضُونَ اكْتِسَابَهَا لَهَا ، وَلِيَوْضُحُوا لَنَا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ يَقْنَعُ بِهِ كُلُّ ذِي عَقْلِ ، وَهُنَاكَ لَا يَبْقَى لِي مَا أَقُولُ ، وَهُنَاكَ لَا أَتَكَلَّمُ عَنْ الْفَرِيْزَةِ مُطْلَقًا .

ولنَعُدْ إلى أنفسنا يا صديق الشاب ! ولنَظَرَحْ كُلَّ مصلحةٍ شخصيةٍ جانباً ، ولنَبْحَثْ عن المَدَى الذى تَحْمِلُنَا إِلَيْهِ مُيُولُنَا ، وأَيُّ منظرٍ يَفْتِنُنَا أَكْثَرَ من غيره ، أَمَنظر آلام الآخرين أم منظرُ سعادتهم ؟ وأَيُّ الأمرين أَخْلَى لَنَا أَنْ نَضْمَعَ فَيَتْرُكَ فِينَا أَثْراً أَكْثَرَ لَطَافَةً بَعْدَ فِعْلِهِ ، أَعْمَلُ الْخَيْرِ أَمْ عَمَلُ الشَّرِّ ؟ وما الذى يَغْنِيكُمْ فى مسارحكم ؟ أَتَجِدُونَ لَذَةً بِالْجُرْأَمِ ؟ أَتَسْكُبُونَ دُمُوعاً مِنْ أَجْلِ فاعليها المَأْخُوزِينَ بِهَا ؟ هُمْ يَقُولُونَ : لَا يُوجَدُ فى جَمِيعِ ذَلِكَ مَا تَكْتَرِثُ لَهُ خَارِجَ مَسْرَحِنَا ، وَعَلَى الْعَكْسِ تَجِدُ بِجَلَاوَةِ الصَّدَاقَةِ وَالْإِنْسَانِيَةِ سُلُوكاً فى آلامِنَا ، حَتَّى إِنَّمَا نَكُونُ فى مَلَاذُنَا وَحِيدِينَ بِأَسِنَّينِ كَثِيراً إِذَا لَمْ نَجِدْ مِنْ يَقَاسِمِنَا إِيَّاهَا ، وَإِذَا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ فى قَلْبِ الْإِنْسَانِ فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ ، إِذَنْ ، هَذَا التَّهَلُّلُ مِنْ أَجْلِ أَعْمَالِ الْبَطُولَةِ وَهَذَا الْجَذَلُ حُبّاً لَذَوَى النَفُوسِ الْكَبِيرَةِ ؟ وَمَا عِلَاقَةُ هَذِهِ الْحَمَاسَةِ لِلْفَضِيلَةِ بِمَصْلَحَتِنَا الْخَاصَةِ ؟ وَلِمَ أَفْضَلُ أَنْ أَكُونَ كَاتُونَ الذى يُمَزَّقُ أَحْشَاءُهُ عَلَى أَنْ أَكُونَ قِصَرَ الظَّافِرِ ؟ إِذَا مَا نَزَعْنَا مِنْ قُلُوبِنَا حُبَّ الْجَمَالِ أَزَلْتُمْ كُلَّ فُتُونٍ فى الْحَيَاةِ ، وَإِنْ الذى خَنَقَ سَاقِطُ الْأَهْوَاءِ فى نَفْسِهِ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ اللَّطِيفَةَ ، وَإِنْ الذى حَصَرَ أَفْكَارَهُ فى شَخْصِهِ فَصَارَ لَا يُحِبُّ غَيْرَ نَفْسِهِ ، عَادَ لَا يَكُونُ صَاحِبَ حِمِيَةٍ ، وَعَادَ فَوَادُهُ الْجَامِدُ لَا يَخْفِقُ سُرُوراً ، وَعَادَ لَا يُخْضِلُ عَيْنِيهِ حَنَانُ خُلُوقٍ ، وَعَادَ لَا يَتَمَتَّعُ بِشَيْءٍ ، وَعَادَ التَّعَسُّسُ لَا يُحِسُّ وَلَا يَعِيشُ ، فَهُوَ قَدْ مَاتَ .

ولَكِنْ مِمَّا يَكُنْ عِدْدُ الْأَشْرَارِ فى الْأَرْضِ فَإِنْ مِنَ الْقَلِيلِ أَنْ تَجِدَ
 أَنَساً مِنْ ذَوَى النَفُوسِ الْجِيفِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ لَا تَشْعُرُ ، خَارِجَ مَصْلَحَتِهَا ،

بكلِّ ما هو عادلٌ صالح ، ولا يَرُوقُنَا الجورُ إِلَّا بمقدار ما يفيدُنَا ، فإذا عَدَوْتَ هذا وَجَدْتَنَا نريدُ حمايةَ البرىء ، وإذا ما رُئِيَ فى شارعٍ أو طريقٍ قَسَوَةٌ وظلمٌ لم تَلْبَثْ أَنْ تَتَوَّرَّ حركةُ غضبٍ وسخطٍ فى صميمِ القلبِ حالاً فتَحْمِلُنَا على التزامِ جانبِ الدفاعِ عن المظلومِ ، غيرَ أن واجباً أقوى من ذاك يُمَسِّكُنَا ، وَتَنْزِعُ القوانينَ منا حَقَّ حمايةِ البراءةِ ، وعلى العكس إذا حدث أن وقفَ نظرنا على رَحمةٍ أو كرمٍ فما أَكْثَرَ ما يوحى إلينا من إعجابٍ ومحبةٍ ! ومن ذا الذى لا يقول فى نفسه : « يا ليتنى صنعتُ مثلَ هذا » ؟ ولا ريب فى أن مما نبالى به قليلاً كَوْنُ هذا الرجلِ أو ذاك شَريراً أو عادلاً منذ أَلَى سنة ، ومع ذلك فإن ذاتَ الفَرَضِ يساورنا فى التاريخِ القديمِ كما لو كان جميعُ هذا قد حَدَثَ فى أيامنا ، وما عَمَلُ جرائمِ كاتيلينا فى ؟ أَلَا أَخْشَى أَنْ أَكُونَ ضَحِيَّتَهُ ؟ وَلِمَ أَتَحِلُّ لَهُ ، إِذَنْ ، ذاتَ المَقْتِ كما لو كان معاصراً لى ؟ ونحن لا نُثَبِّضُ الأَشْرَارَ لأنهم يؤذوننا فقط ، بل لأنهم أَشْرَارٌ ، ولا نريدُ أَنْ نَكُونَ سعداءَ فقط ، بل نريدُ سعادةَ الآخرين ، وإذا كانت هذه السعادةُ لا تُكَلِّفُ سعادتنا شيئاً زادَتْها ، والخلاصةُ أَنْ الإنسانَ يَرِيقُ للتعساءِ على الرغمِ منه ، وهو يَأْلَمُ إذا رَأَى يَأْلَمُونَ ، وما كان أَكْثَرَ الناسِ فساداً لَيَفْقِدُوا هذا العطفَ تماماً ، وهذا ما يَجْعَلُهُم يَنَاقِضُونَ أَنفُسَهُمْ ، وَيَكْسُو اللصُّ الذى يَسْلُبُ السَّابِلَةَ الفقيرَ العارى ، ويساعدُ أَشدَّ الناسِ سفكاً للدماءِ من يَرَى سقوطَهُم إغماءً .

وَيُحَدِّثُ عن صوتِ النَّدَمِ الذى يَجَازِي سِرّاً عن الجرائمِ الخفيةِ ، والذى يُظْهِرُهَا غالباً ، واحْشَرَتْاه ! مَنْ منا لا يَسْمَعُ هذا الصوتَ المزعجَ ؟ نحن

تتكلم عن تجرية ، وَرِيدُ خَنَقَ هذا الشعورِ الجائرِ الذى يُورِثُنا المأْ
كبراً ، وَلِنُطِيعَ الطبيعةَ ، وَنَعْلَمَ بِأَيِّ رَفَقٍ تَهْيِئُ ، وَأَيُّ فُتُونٍ يَنْطَوِي
عليه الضميرُ الصالحُ جواباً عن صوتها بعد أن يَسْتَمِعَ إليه ، وَالشَّرِيرُ
يَخَافُ الطبيعةَ وَيَفِرُّ منها ، وهو يُسَرُّ إذا مارَمَى بنفسه خارجَ نفسه ، وهو
يُذِيرُ حَوْلَهُ عيوناً هُلُوعاً ، وهو يبحثُ عن شىءٍ يُبْلِغُهُ ، وَلَوْلا الأَهاجِيُّ
اللاذعةُ وَالسُّخْرِيَةُ الْمُؤْذِيَةُ لكانَ مَكْرُوباً دائماً ، وتقومُ لَذَّةُ الوحيدةِ
على ضَحِكِهِ الساخرِ ، وعلى العكس يكونُ صفاءُ الصالحِ باطنياً ، ولا يكونُ
ضحكه عن خُبْثٍ ، بل عن حُبُورٍ ، وهو يَحْمِلُ مَنَبَعَ هذا الحُبُورِ فى
نفسه ، وهو يكونُ مسروراً وحيداً أو بينَ جَمْعٍ على السواءِ ، وهو لا يَتَقَبَسُ
رِضاهُ مِن يَدُنُونٍ منه ، وهو يُشْرِكُهُمْ فِيهِ .

وَأَلْتَمُوا عِيونَكُمْ على جميعِ أُمِّ العالمِ ، وَتَصَفَّحُوا جميعَ التَّوَارِيخِ ، وَتَجِدُونُ
بينَ كثيرٍ من الأديانِ الجافيةِ ، وبينَ هذا الاختلافِ الغريبِ فى الطَّبائعِ
وَالأَخلاقِ ، عَيْنَ الأفكارِ عن العدلِ وَالصَّلاحِ فى كُلِّ مكانٍ ، وَعَيْنَ
المبادئِ عن الخيرِ وَالشَّرِّ فى كُلِّ مكانٍ ، أَجَلُ ، أوجدتِ الوثنيةُ القديمةُ
آلهَةً قَبَاحاً لو وُجِدُوا فى هذه الدنيا لَعُوقِبُوا مِثْلَ الجرمينِ ، وقد كانوا
لا يَفْرِضُونَ عن السعادةِ العليا منظراً غيرَ فَوَاحِشٍ تُقْتَرَفُ وغيرَ أَهْوَاءٍ تَقَعُ
موقعَ الرِّضا ، بَيِّنَدُ أَنَّ المُنْكَرَ المُسَلَّحَ بِسلطانٍ مُقدَّسٍ كانَ يَنْزِلُ من
مقامه الأبدىِّ على غيرِ جَدْوَى ، فقد كانتِ الغريزةُ الخَلْقِيَّةُ تَطْرُدُهُ من
قُلُوبِ الأَدميينِ ، وبينما كانتِ الشَّعائِرُ تُقَامُ لِدَعَارَاتِ جُوپِيْتَرِ كانَ يُعْجَبُ
بَعَفَافٍ إِكْرِيْنوقراطسُ ، وكانَ العنيفُ لُوكْرِيسُ يَمْبُدُ فَيْئُوسُ ، وكانَ

الرومانى الجرىء يُقدِّم القرابين إلى الخوف ، وكان يَضْرَع إلى الإله الذى بَتَرَ أباه ، ويموت بيد أبيه من غير تَبَرُّمٍ ، وكان أعظمُ الرجال يَخْدُمون أحقرَ الآلهة ، وكان صوتُ الطبيعة المقدسُ ، الذى هو أقوى من صوت الآلهة ، يُخْتَرَمُ فى الأرض قِيَاحُ أنه يُقْصَى الجريمة إلى السماء مع المجرمين .

ولِذَا يُوجَدُ فى أعماق النفوس مبدأ غريزىٌّ عن العدل والفضيلة نَسْتَفِدُّ إليه ، على الرغم من مبادئنا الخاصة ، فى الحُكْم فى أفعالنا وأفعال الآخرين على أنها صالحةٌ أو طالحةٌ ، وهذا المبدأ هو الذى أُطْلِقَ عليه اسم الضمير .

غير أننى أسمع من كلِّ جانب ارتفاعَ صُراخِ الحكماء للزعميين ، وهم يَرَفَعُونَ عقيرتهم قائلين بالإجماع : أغاليطُ الصِّبَا ، مُبْتَسِرَاتُ التربية ! لا يُوجَدُ فى الروح البشرىُّ شىءٌ غيرُ الذى يَدْخُلُ فيه بفعل التجربة ، نحن لا نَحْكُمُ فى شىءٍ إلا عن أفكارٍ مكتسبةٍ ، وهم يَذْهَبُونَ إلى ما هو أبعدُ من هذا فيَجْرُءُونَ على إنكار ذلك الاتفاق الواضح العالم بين جميع الأمم ، وهم يعا كسون ما أجمع عليه الناس من حُكْمٍ منسجمٍ ساطعٍ فيَبْحَثُونَ فى الظَّلام عن بعض الأمثلة المبهمة التى لا يَعْرِفُهَا غيرُهم ، وذلك كأن جميعَ ميول الطبيعة قد زالت بفساد إحدى الأمم ، وكأن النوعَ يعود شيئاً غيرَ مذكور عند وجودِ أناسٍ سَيِّئِي الأخلاق ، ولكن ما فائدة المرتابِ مُوتَبِّين من عَذَابٍ فَرَضَهُ على نفسه لِلْعَثُورِ فى زاويةٍ من العالم على عادةٍ مخالفةٍ لمبادئ العدل ؟ وما فائدته من منحه أكثرَ السَّيَّاحِ محلاً للطَّمن من الثقة ما يَحْبِسُهُ عن أبعدِ الكُتَّابِ صِيَتاً ؟ وهل من شأن بعض العادات الغريبة

المشكوك فيها ، والقائمة على بعض العوامل المحلية التي نجهلها ، أن تهديم الاستقراء العام المستنبط من تسابق جميع الأمم المختلفة في كل شيء عدا ذلك الأمر ؟ فيأْمُونَتَيْنِ ! يَأْمُونَتَيْنِ الذي يَتَّبِعُ بالصدق والحق ، كُنْ مُخْلِصاً أميناً إذا أمكنَ الفيلسوف أن يكون هكذا ، وَحَدَّثَنِي عن وجود بلدي في العالم يكون من الجناية فيه أن يُنَجِّزَ الإنسانُ وعده وأن يكون رحيماً محسناً كريماً وعن وجود بلدي يُزْدَرَى فيه رجلُ الخير وَيُكْرَمُ فيه الغادرُ .

ويقال إن كلَّ واحدٍ لا يساعِدُ على الخير العامِّ إلا في سبيل مصلحته ، ولكن من أين يَأْتِي ، إِذَنْ ، كَوْنُ الصالح يساعِدُ على ذلك ضَرّاً بنفسه ؟ وهل يَذْهَبُ الإنسان إلى الموت في سبيل مصلحته ؟ أَجَلْ ، لا أَحَدَ يَسِيرُ في أمرٍ إِلَّا من أَجْلِ خَيْرٍ نفسه ، ولكن إذا وَجِدَ خَيْرَ خُلُقٍ يجب أن يُحَسِّبَ له حسابٌ فإنه لن يُفَسِّرَ بالمصلحة الخاصة غيرُ أعمال الأشرار ، حتى إنه يُعْتَقَدُ أنه لا يَحَاوِلُ الذهابُ إلى ما هو أبعدُ من ذلك مطلقاً ، وتكون فلسفة ممقوتة تلك التي تَصِيْقُ بالأعمال الصالحة ذَرْعاً ، والتي لا يَتَخَلَّصُ فيها من ورطةٍ إلا بأن تُلَفَّقَ لتلك الأعمال نِيَّاتٌ ساقطة وأسبابٌ من الفضيلة عاطلةٌ ، والتي يُلْزَمُ فيها يَاهَانَةُ سُقْرَاطِ وَسَبُّ رِيغُولُوسِ ، ولَوْ قُبِضَ لمثل هذه المذاهب أن تَنْبَتَ بيننا ما انفكَّ صوتُ الطبيعة وصوت العقل يرتفعان ضدها ، وما تَرَكَ لأحد من أنصارها اعتذاراً بصدور ذلك عن حسن نية .

وليس من مقاصدي أن أدْخُلَ هنا في مجادلاتٍ خاصةٍ بما بعد الطبيعة تتجاوز متناولِي ومتناولِكُم ولا تؤدي إلى شيء من حيث الأساس ، وكنتُ

قد قلتُ لكم إننى لا أريد أن أفلسف معكم ، وإنما أريد أن أساعدكم على مشاورة قلوبكم ، فإذا ما أثبتت جميع الفلاسفة أننى مخطئ ، وإذا ما شترتم أننى على حق ، لم أريد أكثر من هذا .

ولا يتطلب ذلك أكثر من أن تفرقوا بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية ، وذلك لأننا نشعر قبل أن نعرف ، وكما أننا لا نتعلم إرادة خيرنا والفرار من شرنا ، وإنما نتال هذه الإرادة من الطبيعة ، يكون حبنا للصالح ومقتنا للطالح من الأمور الطبيعية كحبنا لأنفسنا ، وليست أعمال الضمير أحكاماً ، بل مشاعر ، ومع إثبات جميع أفكارنا من الخارج تجد الشاعر التى تزنها فى باطننا ، وبهذه المشاعر وحدها نعرف الواقعة أو عدم الواقعة التى بيننا وبين ما يجب احترامه أو اجتنابه من الأشياء .

والوجود عندنا هو الإحساس ، ولا وراء فى أن حساسيتنا أقدم من عقلنا ، وأن لدينا أحاسيس قبل أن تكون لدينا أفكار^(١) ، ومهما تكن علّة وجودنا فإنها دبرّت أمر بقائنا بمنحها إيانا أحاسيس ملائمة لطبيعتنا ، ولا يستطيع أحد أن يُنكر أن هذه غريزة على الأقل ، وإذا نظر إلى هذه الأحاسيس من حيث الفرد وجد أنها عبارة عن حب النفس والخوف من الألم ومقت الموت والرغبة فى الرفاهة ، ولكن إذا كان الإنسان اجتماعياً بطبيعته ، ولا ريب فى هذا ، أو إنه خُلق ليصير هكذا على الأقل ، فإنه

(١) تكون الأفكار أحاسيس ، وتكون الأحاسيس أفكاراً من بعض الوجوه ، ويناسب الاسمان كل إدراك يشغلنا بموضوعه وبنا نحن الذين يتأثرون به ، ولا يوجد غير أمر هذا التأثير ما يعين الاسم الذى يلائمه ، وإذا كان الموضوع أول ما نبال به ، فلا نفكر فى أنفسنا بغير التأمل ، كان هذا فكراً ، وعلى العكس إذا كان الانطباع الذى يتم تلقيه يشير انتباهنا الأول ، فلا نفكر بغير التأمل فى الموضوع الذى يوجهه ، كان هذا إحساساً .

لا يُمكن أن يكون هكذا بغير مشاعر غريزية أخرى مناسبة لنوعه ، وذلك لأنه عند عدم النظر إلى غير احتياجه الجُمَانِيّ ، يُرى أن هذا الاحتياج يوجب تفرُّقَ الناس بدلاً من التقريب بينهم ، والواقعُ أن الدافع الوجدانيّ ينشأ عن النظام الخُلُقِيّ المُؤَلَّف من علاقة الإنسان بنفسه وبأمثاله ، ولا تعني معرفة الخير حُبّه ، أى إن هذه المعرفة ليست غريزيةً في الإنسان ، ولكن ضميره يَحْمِلُهُ على حُبّه عند ما يُعرِّفه عقله إياه ، وهذا الإحساسُ هو الغريزى .

ولذا فلا أعتقد ، يا صديقي ، أن من المتعذر أن يُوَضَّح بنتائج طبيعتنا مبدأ الضمير المباشرُ مستقلاً عن العقل ذاته ، حتى إن هذا لو كان متعذراً لظَهَرَ غيرَ ضرورى ، وذلك أن أولئك الذين يُنْكِرُونَ هذا المبدأ المُسَلَّم به والمعترف به من قِبَل الجنس البشرى لا يُذَيِّتُونَ عدم وجوده مطلقاً ، وإنما يكتفون بالتوكيد ، ونحن إذا ما وَكَّدنا وجوده كنا على أساسٍ أحسن من أساسهم ، وذلك لما لدينا ، زيادةً على التوكيد ، من شهادة الباطن وصوت الضمير الذى يَشْهَدُ لنفسه ، وإذا كان وَمِيزُ الحُكْمِ الأولُ يَبْهَرُنَا وَيَخْلِطُ بين الأمور في نظرنا في البداية ، فَلَنَنْتَظِرُ انفتاحَ عيوننا ثانيةً واشتدادَها ، وهناك لا تَلَبُّثُ أن نرى تلك الأمورَ نفسَها على نور العقل ، وكما أَطْلَعْتَنَا عليها الطبيعة في بدء الأمر ، وإن شئتَ فدَعْنَا نكون أكثرَ بساطةً وأقلَّ بَطْلاً ودَعْنَا نَقْتَصِرُ على المشاعر الأولى التى نَجِدُهَا في أنفسنا مادام البحث يَرُدُّنا إليها دائماً عند ما لا يُضِلُّنَا مطلقاً .

أيها الضميرُ ! أيها الضميرُ ! أيتها الغريزةُ الربّانية والصوتُ الخالد السماوى ، أيها الدليلُ الوطيد لموجودٍ جاهلٍ محدود ، ولكن مع العقل والاختيار ، أى

قاضى الخير والشرَّ المعصوم من الضلال والذى يجعل الإنسان على مثال الرب ، أنت الذى تقوم عليه رَوْعَةُ طبيعته وأدبُ أفعاله ، لولا أنت ما شَعَرْتُ بشيء فى نفسى يَرَفَعُنِي فوق البهائم ، لولا أنت ما شَعَرْتُ بغير امتيازٍ كَثِيبٍ فى الضلال بين خطأٍ وخطأٍ مستعِينًا بِإِدْرَاكِ لا قاعدةَ له وبِعقلٍ لا مبدأ له .

حَمْدًا لِلَّهِ ، ها نحن أولاء قد نَجَوْنَا من جهاز الفلسفة الخفيف ، فستطيع أن نكون رجالاً من غير أن نكون علماء ، وها نحن أولاء قد أُعْفِينَا من قضاء حياتنا فى دراسة الأخلاق ، فَنَمْلِكُ بِأَقْلٍ ثَمَنٍ دَلِيلًا أَكْثَرَ وَثَاقَةً فى هذا التَّيِّهِ الواسع لآراء الإنسان ، ولكن لا يَكْفِينِي أن يكون هذا الدليل موجوداً ، فيجب أن يُعْرَفَ وأن يُتَّبَعَ ، وإذا كان يَخَاطِبُ جميعَ القلوب فَلِمَ لا يُوجَدُ غيرُ أناسٍ قليلين يَستمعون له ، والآن ، إن لسان الطبيعة هو الذى يَخَاطِبُنَا به ، وكلُّ شيء يَسُوقُنَا إلى نسيانه ، وَالضَّمِيرُ وَجِلٌّ يُحِبُّ الانزواء والهدوء ، وَيُفْرِعُهُ الضَّجِيجُ والناس ، وَتُعَدُّ المُبْتَسِرَاتُ التى جُعِلَ صَادِرًا عَنْهَا أَشَدُّ أَعْدَائِهِ ، وَيَفِرُّ أَمَامَهَا أَوْ يَسْكُتُ ، وَيَخْنُقُ صَوْتَهَا الصَّاحِبَ صَوْتَهُ وَيَمْنَعُهُ من أن يَسْمَعَ ، وَيَجْرُؤُ التَّعَصُّبُ على تقليد صوته وَيَمْلِكُ الإِجْرَامَ بِاسْمِهِ ، وَتَحْمَدُ هِمَّتُهُ عن سوء معاملةٍ ، وَيَعُودُ غيرَ مَخَاطِبٍ لَنَا ، وَيَعُودُ غيرَ حَبِيبٍ لَنَا ، وَهُوَ ، بَعْدَ كَثِيرٍ ازْدِرَادٍ لَهُ ، يَصْعَبُ ذِكْرُهُ صَعُوبَةً سَابِقٍ إِبَادِهِ .

وما أَكْثَرَ مَا تَعَبْتُ فى أَثْنَاءِ مباحثى من الفتور الذى كنت أَحْسُ فى نفسى ! وما أَكْثَرَ مَا صَبَّ الكَرْبُ وَالسَّأَمُ سَمُومَهُمَا فى تأملاتى فَيَجْعَلَانِي أَمْرًا لا يُطَاقُ عِنْدِي ! كان قَلْبِي الجَدِيبُ لا يَمْنَحُ حُبَّ الحَقِيقَةِ غيرَ غَيْرَةٍ ذَاوِيَةٍ فَاتِرَةٍ ، فَأَقُولُ فى نفسى : لِمَ أَعَذَّبُ نَفْسِي فى البَحْثِ عما هو غيرُ

موجود ؟ ليس الخير الخُلُقِيُّ سوى وهمٍ ، ولا يُوجَدُ شيءٌ حَسَنٌ سوى ملاذِّ
 الحواسِّ ، وئى ! ما أصعب استردادَ ذوقِ ملاذِّ الروحِ إذا ما قُفِدَ مَرَّةً !
 وأى شيءٌ أصعبُ من تناول الإنسان له عند عدم حيازته إياه سابقاً ! إذا
 وُجِدَ إنسانٌ بَلَغَ من الشقاء ما لا يَذْكُرُ معه أنه صنع في جميع حياته
 ما تَجَمَّله ذكراه راضياً عن نفسه مسروراً بسابق عيشه ، فإن هذا الإنسان
 يكون عاجزاً عن معرفة نفسه مطلقاً ، وهو ، إذ يُعَوِّزُهُ كلُّ شعورٍ بما يلائم
 طبيعته من صلاحٍ ، يَظَلُّ شَرِيرًا قَسْرًا وَيَبْتَقِي شَقِيًّا إلى الأبد ، ولكن
 أنعتقدون أنه يُوجَدُ في العالمِ بأنسِهِ إنسانٌ واحدٌ بَلَغَ من الفساد ما لا يُسَلِّمُ
 معه فؤاده إلى إغواء فعل الخير ؟ إن هذا الإغواء هو من شِدَّةِ الطَّلَاقِ
 وموافقةِ الطبيعة ما يَتَعَذَّرُ معه أن يقاومه دائماً ، ويكفى ما يوجبُه هذا الإغواء
 من لذةٍ مَرَّةً لاستدعائه بلا انقطاع ، ومن المؤسف أن يكون قضاؤه شاقاً في
 البداية ، ويُوجَدُ ألفُ سببٍ لامتناع الإنسان عن اتباع مَيِّلِ فؤاده ، فالحذرُ
 الزائفُ يُخَصِّرُ هذا القلبَ ضمن حدود الذاتية الإنسانية ، ولا بدُّ من بَذْلِ ألفِ جُهدٍ
 في الشجاعة حتى يُجْرَأَ على مجاوزتها ، وما يَحِدُّ الإنسان من لذةٍ في صُنْعِ الخير هو
 جائزةٌ ما صَنَعَ من خير ، ولا ينال الإنسانُ هذه الجائزة إلا بعد استحقاقه لها ،
 ولا شيءٌ أحلى من الفضيلة ، ولكنه يَحِبُّ أن تُجَرَّبَ لتُعرَفَ هكذا ، وإذا ما
 أُريدَ اعتناقها بَدَتْ على ألفِ شكلٍ خفيفٍ في البداية ، كالإلهِ برُوتِه
 الذى وَرَدَ ذكره في الأساطير ، وهى لا تَبْدُو على شكلها الحقيقى في نهاية
 الأمرِ إلَّا لمن لم يَعِفُوا عن اتتحالها مطلقاً .

وإذْ كَلَفْتَنِي ، بلا انقطاعٍ ، مشاعرى الطبيعية التى تكلمتُ في سبيلِ

المصلحة العامة ، وعقلى الذى رَدَّ كلَّ شيءٍ إلى ، تَرَجَّحَتْ فى جميع حياتى بين هذا التناوب الدائم ، صانعاً للشرِّ ومحباً للخير ، ومُضادّاً نفسى لو لم تُنِرْ فؤادى بصائرٌ جديدةٌ ولم تُوطَّد الحقيقةُ ، التى ثَبَّتَتْ آرائى ، سَيرى وجعلتنى مسالماً لنفسى ، ومن العبث أن أريدتُ إقامةُ الفضيلة بالعقل وحده ، وأىُّ أساسٍ متينٍ يُمكن أن تُعْطَى ؟ ويقولون إن الفضيلة هى حُبُّ النظام ، ولكنْ أَيْمَكِنْ إِذَنْ ، أَيْجِبْ إِذَنْ ، أن يَتِمَّ الفَوْزُ لهذا الحبِّ على حُبِّ رفاقتى ؟ دَعُهُمْ يُعْطُونَنى سبباً واضحاً كافياً لهذا التفضيل ، ولو نَظَرْتُ إلى الأساس لوجدتُ أن مبدأهم المزعومَ تلاعبٌ بالكلام ، وذلك لأننى أقول كذلك إن الإثمَ حُبُّ للنظام بمعنى آخر ، ويوجدُ نظامٌ خُلِقَ حيث يوجد عقلٌ وإحساس ، والفرقُ فى أن الصالحَ ينتظم بالنسبة إلى الكلِّ ، وفى أن الشريرَ يَنْتَظِمُ الكلَّ بالنسبة إلى نفسه ، ويجعلُ الشريرُ من نفسه مركزاً لكلِّ شيءٍ ، وَيَقِيسُ ذلك شعاعه وَيَبْنِى ضَمْنَ الدائرة ، وهنالك ينتظم بالنسبة إلى المركز العامِّ الذى هو الرَّبُّ ، وبالنسبة إلى جميع الدوائر ذواتِ المركز الواحد التى هى مخلوقاتُ الرَّبِّ ، ولو كان الرَّبُّ غيرَ موجودٍ لم يوجَدْ غيرُ الشريرِ من يَعْقِلُ ، ولم يكن الصالحُ غيرَ مجنون .

أنى مُبْنَى ! قد تُحِسُّ ذاتَ يومٍ أنى خِلٌّ أَزِيحٌ ، وذلك أنك ، بعد أن تستوعب بطلانَ الآراء البشرية وتذوق مرارة الأهواء ، تجدُ قريباً منك كثيراً ، فى نهاية الأمر ، طريقَ الحكمة ، وثوابَ الأعمال فى هذه الحياة ، ومنبعَ السعادة التى يَنْسْتَمِها ! وذلك أن جميع واجبات القانون الطبيعى التى مُحِيت من قلبى بظلمِ الناس تُرْسَمُ ثانيةً هناك باسم العدل الأزلَى الذى يَفْرِضُها

على والذي يرانى أقوم بها ، وعُذْتُ لا أَشْمُرُ فى نفسى بغير كَوْنى صُنْعَ
الموجودِ العظيم وأداته ، هذا الموجود العظيم الذى يُرِيدُ الخيرَ وَيُفْعَلُهُ ، والذى
يَصْنَعُهُ لى بتضافر عزائى وعزائمه وبحسن استعمال اختياري ، وأَرْضَى بالنظام
الذى يُقِيمُ ، مطمئناً إلى أننى أتمتع بهذا النظام ذات يومٍ مُلَاقِيَاً فيه سعادتي ،
وأى سعادةٍ أُحْلَى من شعور الإنسان بأنه قد انتظم ضمنَ نظامٍ يكون فيه
كلُّ شىءٍ حسناً ؟ وأَحْتَمِلُ الألمَ صابراً إِذْ يُؤَاثِبُنِي ذاكراً أنه عابِراً آتٍ من
جسمٍ غير جسمى ، وإذا صنعتُ عملاً صالحاً لا شاهدَ عليه عَلِمْتُ أنه قد رُئِيَ ،
وأنتى أَسْجَلُ سَتَرِي فى هذه الحياة من أَجْلِ الحياة الأخرى ، وإذا ما
عَانَيْتُ ظِلْماً قُلْتُ فى نفسى : إن السَّكَّانَ العادل المهيمنَ على كلِّ
شئٍ سَمِعُوْضُنِي ، وإن من شأنِ احتياجاتِ جسمى وأُبُوْسِ حياتى أنْ يَجْعَلَ
فكرةَ الموتِ عندي أكثرَ احتمالاً ، وبذلك تكون القيودُ التى تُقَطِّعُ قليلةً
عند ما يجب تَرْكُ كلِّ شئٍ .

وَلِمَ يَخْضَعُ رُوحِي لِحَوَاسِي وَيُقَيِّدُ بهذا الجسم الذى يُعْبِدُهُ وَيُضَاقِقُهُ ؟
لا أَعْرِفُ من ذلك شيئاً ، وهل دخلتُ ضِمْنَ أوامرِ الرَّبِّ ؟ ولكنى
أَسْتَطِيعُ ، من غير تَهَوُّرٍ ، أنْ آتِيَ بافتراضاتٍ متواضعةٍ ، وأقولُ فى نفسى :
إذا كان روح الإنسان قد بَقِيَ طليقاً نقيّاً فأَيَّةُ زَبِيَةٍ تَكُونُ لَهُ فى حُبِّ
النظام الذى يراه قائماً وفى اتباعِ هذا النظام الذى لا تكون له أَيْةُ مصلحةٍ فى
الإخلال به ؟ أَجَلُ ، إنه يكون سعيداً ، ولكن سعادته يُعَوِّزُهَا أعلى
الدرجات ، وهو مجدُّ الفضيلة وحُسنُ الشهادة بنفسه ، وهو لا يَكُونُ
إلا كالملائكة ، ولا مِرَاءً فى أن الإنسان الصالح يَزِيدُ عليهم ،

وإذ يتَّحِدُ الروح في الجسم الفاني بروابط ليست أَقْلُ قوَّةً من كَوْنِهَا غَيْرَ مُدْرَكَةٍ فَإِنَّ العنابة بحفظ هذا الجسم تَحْمِلُ الروح على رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ ، وعلى منحه مصلحةً مُخَالَفةً للنظام العامِّ ، فيستطيع أن يرى وَيُحِبُّ ، وهنالك يتحول حُسْنُ استعمال اختياره إلى استحقاقٍ وَأَجْرٍ ، ويُعِدُّ نفسه لسعادةٍ ثابتةٍ بمكافئته أهواءه الدنيوية وبقائه ضمن إرادته الأولى .

وإذا كانت جميعُ ميولنا الأولى شرعيةً حتى في حال الخفض حيث نحن في هذه الحياة ، وإذا كانت جميعُ عيوبنا تأتينا من أنفسنا ، فَلِمَ نَشْكُو من سيطرتها علينا ؟ وَلِمَ نَلُومُ خالقَ الأشياءِ على الشرور التي نَصْنَعُ ، وعلى الأعداء الذين نُسَلِّحُ ضِدَّ أنفسنا ؟ آه ! دَعْنَا لَا نَفْسِدُ الإنسان مطلقاً ، فهو سيكون صالحاً بلا عناء دائماً ، وهو سيكون سعيداً بلا نَدَمٍ دائماً ، ويكون الجرمون ، الذين يَدَّعَوْنَ أنهم اضْطُرُّوا إلى الجريمة ، أشراراً كاذبين ، وكيف لا يَرَوْنَ ، مطلقاً ، أن الضعف الذي يَشْكُون منه هو من عملهم الخاصِّ ، وأن فسادهم الأول يأتيهم من إرادتهم ، وأنهم إذ أرادوا الإذعانَ لِمِوَلِّهِمْ فَاسْتَرْسَلُوا معها أذعنوا لها على الرغم منهم في آخر الأمر وجعلوها أمراً لا يُقَاوَمُ ؟ أَجَلْ ، عاد لا يَتَوَقَّفُ عليهم ألا يكونوا أشراراً ضعفاء ، بَيِّدَ أنه تَوَقَّفَ عليهم سابقاً ألاَّ يصبحوا هكذا ، وَئِى ! ما أسهلَ بقاءنا قابضين على عِثَانِ أنفسنا وأهوائنا ، حتى في أثناء هذه الحياة ، لو كنا ، حين عدم اكتسابنا لعاداتنا بَعْدُ ، وحين أَخَذَ أَنْفُسَنَا في التَّفَتُّحِ ، قد عَرَفْنَا أن نَشْفَلَهَا بأمورٍ يجب أن نَعْرِفَهَا تَقْدِيراً لِمَا لَا نَعْرِفُ ، ولو كنا قد أردنا ، بإخلاصٍ ، أن نُنَيِّرَ أنفسنا ، لا لِنَلْمَعَ في نظر

الآخرين ، بل لنكون حكماء صالحين وَفَقَ طبيعتنا ، وَلِنَكُونَ سعداء بممارسة واجباتنا ! وَتَبَدُّوْا لنا هذه الدَّرَاسَةُ شاقَّةً مَمْلَّةً ، وذلك لأننا لم نُفَكِّرْ فيها إلَّا بعد أن فَسَدْنَا بالعيب وأَسْلَمْنَا أنفسنا إلى أهوائنا ، ونحن نُقَرِّرُ أحكامنا وتقديرنا قبل أن نَعْرِفَ الخيرَ والشرَّ ، ثم نَرُدُّ كلَّ شيءٍ إلى هذا القياس الفاسد فلا نُعْطِي شيئاً قيمته الصحيحة .

ويأتى دَوْرٌ من العمر يكون القلبُ فيه طليقاً بَعْدُ ، ولكن مع نشاطٍ وقلقٍ وطمعٍ فى سعادةٍ لا يَعْرِفُها ، فيَنشُدُها ، ولكن مع تَقَلُّبٍ ذى فَضُولٍ ، وَتَخَذُّعٍ الحواسِّ ، ويستقرُّ ، أخيراً ، عند منظرها الفارغ فيعتقد أنه وَجَدَهَا حيث لا تُوجَدُ مطلقاً ، وقد لازمتنى هذه الأوهامُ زمناً طويلاً ، ومن دواعى الأسف أن عَرَفْتُها مؤخراً ، ولم أقْدِرْ على تبديدها تماماً ، وهى سَتَبَقَى ما بَقِيَ هذا البدنُ الفانى الذى يُحْدِثُها ، وقد صار من العَبَثِ ، على الأقلِّ ، إغواؤها لى ، فهى لا تَعْرِفُنِى ، وأَعْرِفُ ما تَسْعَى إليه ، وأزدرىها حين اتَّبِعْتُها ، وأرى فيها عائقاً لسعادتى بدلاً من أن أجدَ فيها هدفاً لها ، وأُتَوَقَّعُ إلى الوقت الذى أَتَخَلَّصُ فيه من قيود البدن ، فأكون « أنا » بلا تناقضٍ وغيرَ منقسمٍ إلى قِسْمَيْنِ ، ومن غير احتياجٍ إلى غير نفسى لأكون سعيداً ، وإنى إذ أنتظر ذلك أجدُنِى سعيداً حتى فى هذه الحياة لقلَّةِ التفانى إلى شرورها ، ولأننى أَعُدُّها غريبةً عن وجودى ، ولأنه يتوقف على كلِّ خيرٍ يمكننى استخلاصه منها .

وَأَتَمَرَّنُ على أعلى التأملات رفَعاً لنفسى مُقَدِّماً إلى هذه الحال من السعادة ، من القوة والحرية ، ما أمكن ، وأنأمل فى نظام الكَوْنِ ، (٢٤)

لا لتفسيره بمناهج فارغة ، بل للإعجاب به دائماً ، ولعبادة الصانع الحكيم الذى يُشعرُ بنفسه فيه ، وأخطبه ، وأنعم النظر بما أوتيتُ من قوة فى جوهره الربّانيّ ، وألينُ بِنِعْمِهِ ، وأُحمده وأشكرُ له ما أعطى ، ولكننى لا أدعوه ، وما أسأله ؟ أأطلبُ منه أن يُغيّرَ مجرى الأمور من أجلى ، أى أن يصنّع معجزاتٍ نفعا لى ؟ وإذ يَقضى الواجبُ بأن أحبّ ، عدا ذلك ، جميعَ النظامِ القائمِ بحكمته والثابتِ بقدرته ، فهل أريدُ أن يختلَّ هذا النظامُ من أجلى ؟ كلا ، فهذا الدعاء الجريء يستحقُّ أن يعاقب عليه أكثر من أن يُستجاب ، وكذلك لا ألتمس منه قدرةً على فعل الخير ، ولم أطلبُ منه ما أعطانى ؟ ألم يُنعمْ علىَّ بشعورٍ أحبُّ به الخير ، وب عقلٍ أعرفه به وبخيارٍ اختاره معه ؟ إئتى إذا ما فعلت الشرَّ لم أكُ معذوراً مطلقاً ، فأنا أفضله لأننى أريده ، وذلك لأن طلبى منه تغييرَ إرادتى يعنى طلبى منه ما يطلبُ منى ، وذلك يعنى أن يقوم بعلى وأن أنال أجره ، ويعنى عدمَ رِضاىَ عن حالى عدمَ إرادتى أن أبقى إنساناً ، أى أن أريدَ أمراً آخرَ غيرَ ما هو قائم ، أى أن أريد الاضطرابَ والشرَّ ، أى مصدرَ العدلِ والحقِّ ! أيها الربُّ الرحيم الكريم ! أتوكّلُ عليك ، وأقولُ إن أفضى ما أرجو هو أن يتيمَّ ما تريد ، فإذا ما أضفتُ إرادتى إلى هذا أكونُ قد فعلتُ ما قمتُ ، وأرضى بِجُودِكَ ، وأعتقد أنى أتمتع سلفاً بالسعادة العليا التى هى ثواب ذلك .

والشئ الوحيدُ الذى ألتسمه منه ، عند عدم اعتمادى على نفسى عن حقٍّ ، أو الشئ الوحيدُ الذى أنتظر من عدله على الأصحَّ ، هو أن يُقومَ

خِطِي إِذَا مَا زَلَلْتُ وَإِذَا مَا كَانَ هَذَا الضَّلَالُ خِطْرًا عَلَيَّ ، وَيَقْضِي حُسْنَ
النِّيَّةِ بَالًا أَعْتَقِدَنِي مَعْصُومًا مِنَ الْخَطَا ، وَقَدْ تَكُونُ آرَأَى الَّتِي تَلُوحُ لِي
أَكْثَرُ مَا يَكُونُ صِدْقًا كَاذِبَةً بِهَذَا الْمَقْدَارِ ، وَإِلَّا فَأَيُّ إِنْسَانٍ لَا يَتَمَسَّكُ
بَآرَائِهِ ؟ وَمَا عَدَدُ النَّاسِ الَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَقَدْ يَأْتِينِي الْوَهْمُ
الَّذِي يَخْدَعُنِي مِنْ نَفْسِي ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى شِفَائِي مِنْهُ ، أَجَلٌ ،
لَقَدْ صَنَعْتُ كُلَّ مَا اسْتَطَعْتُ ضَنْعَهُ لِأُصِلَ إِلَى الْحَقِّ ، غَيْرَ أَنَّ مَصْدَرَهُ
بَالِغُ الْارْتِفَاعِ عَنِّي ، وَمَتَى أَعُوَزْتُ فِي الْقُوَى فِي الْإِمْعَانِ بُعْدًا فَا ذَنْبِي ؟ إِنْ
عَلَى الْحَقِّ أَنْ يَذْنُوبُوا مِنِّي .

• • •

لَقَدْ تَكَلَّمْتُ الْقَسَّ الصَّالِحَ بِجَاسَةِ ، وَقَدْ كَانَ هَائِجًا ، وَقَدْ كُنْتُ مِثْلَهُ هَيَّاجًا ،
وَكَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ الرَّبَّ بَانِيًّا أَوْزَفُوسَ وَهُوَ يُرْتَلُّ الْأَنَاشِيدَ الْأُولَى
وَيُعَلِّمُ النَّاسَ عِبَادَةَ الْآلِهَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كُنْتُ أَبْصِرُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ
الْاعْتِرَاضَاتِ يُوَجِّهُهُ إِلَيْهِ ، وَلَمْ أَبْدِ وَاحِدًا مِنْهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
التَّشْوِيشِ مِنْهَا إِلَى الْجِدِّ ، وَلِأَنِّي كُنْتُ أُمِيلُ إِلَى الْاِقْتِنَاعِ ، وَكَانَ كُلُّ
تَقْدِيمٍ فِي الْكَلَامِ وَفَقَى ضَمِيرِهِ لَاحِ ضَمِيرِي مُشْتَبِّهًا إِيَّايَ عَلَى مَا يَكُونُ قَدْ
قَالَ لِي .

وَأَقُولُ لَهُ : « إِنْ مَا عَرَضْتُمْ عَلَيَّ مِنْ مِشَاعَرَ يَلُوحُ لِي أَكْثَرَ جِدَّةً
بِمَا تَعْتَرِفُونَ أَنَّكُمْ تَجْهَلُونَ بِمَا بِنَا تَقُولُونَ إِنَّكُمْ تَعْتَقِدُونَ ، وَفِي ذَلِكَ أَرَى ،
تَقْرِيْبًا ، اعْتِقَادًا بُوْحْدَانِيَّةِ اللَّهِ أَوْ الدِّينِ الطَّبِيعِيِّ ، أَيْ الدِّينِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ النَّصَارَى

يَخْلُطُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِلْحَادِ أَوْ الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ مَذْهَبٌ مُبَايِنٌ لَذَلِكَ رَأْسًا ،
ولكنني في الحال الحاضر من إيماني أَمِيلُ إِلَى الصَّعُودِ أَكْثَرَ مِمَّا إِلَى الْهَبُوطِ
اعْتِنَاقًا لَأَرَائِكُمْ ، وَأَجِدُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَبْقَى حَيْثُ أَنْتُمْ ضَبْطًا مَا لَمْ أَكُنْ
مِثْلَكُمْ حِكْمَةً ، وَأُرِيدُ أَنْ أَشَاوَرَ نَفْسِي حَتَّى يَكُونَ لِي ذَاكَ الْإِخْلَاصُ عَلَى
الْأَقْلُ ، وَالشَّعُورُ الْبَاطِنُ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقُودَنِي إِلَى مِثَالِكُمْ ، وَقَدْ عَلَّمْتُونِي
بَأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَذَكَّرَهُ لَيْسَ عَمَلٌ سَاعَةٍ بَعْدَ أَنْ فَرَضَ السُّكُوتُ عَلَيْهِ زَمَنًا
طَوِيلًا ، وَأَمْضِي بِكَلَامِكُمْ فِي فَوَادِي ، وَلَا بُدَّ لِي مِنْ تَأْمُلِهِ ، وَإِذَا مَا كُنْتُ
مِثْلًا أَنْتُمْ عَلَيْهِ قَنَاعَةً بَعْدَ أَنْ أَشَاوَرَ نَفْسِي جِيدًا كُنْتُمْ آخِرَ رَسُولٍ لِي وَصِرْتُ
مَهْتَدِيًا بِكُمْ حَتَّى الْمَوْتِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فِدَاوَمُوا عَلَى تَعْلِيمِي ، فَلَمْ تَقُولُوا لِي غَيْرَ
نِصْفِ مَا يَجِبُ أَنْ أَعْرِفَ ، فَحَدَّثُوا عَنِ الْوَحْيِ وَالْكِتَابِ الْمَقْدَسَةِ ، وَعَنِ
تِلْكَ الْعَقَائِدِ الْغَامِضَةِ الَّتِي تَهْتُ فِيهَا مِنْذُ صِبَايَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَسْتَطِيعَ إِدْرَاكَهَا
أَوْ اعْتِقَادَهَا ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْتَقَهَا أَوْ أَنْ أُنْذِيهَا .

ويقول معانقًا إِيَّايَ : « أَجَلٌ ، يَا بُنَيَّ ، سَأَقُولُ لَكَ كُلَّ مَا أَفَكَّرْتُ
فِيهِ ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَفْتَحَ لَكَ نِصْفَ قَلْبِي مُطْلَقًا ، وَلَكِنْ مَا تُبْدِي لِي مِنْ
رَغْبَةٍ كَانَ ضَرُورِيًّا لِيَذْفَعَنِي إِلَى عَدَمِ اتِّخَاذِ أَيِّ تَحَفُّظٍ نَحْوِكَ ، وَلَمْ أَقُلْ لَكَ
حَتَّى الْآنَ شَيْئًا لَمْ أَعْتَقِدْ إِمْكَانَ فَائِدَتِهِ لَكَ وَلَمْ أَكُنْ قَانِمًا بِهِ قَلِيلًا ، وَمَا
بَقِيَ عَلَيَّ أَنْ أَقُومَ بِهِ مِنْ بَحْثٍ مُخْتَلَفٍ جِدًّا ، وَلَا أَبْصُرُ فِيهِ غَيْرَ
الْارْتِبَاكِ وَالْعُمُوضِ وَالْإِلْتِبَاسِ ، وَلَا أَحِيلُ إِلَيْهِ غَيْرَ الشَّكِّ وَالْإِرْتِيَابِ ،
وَلَا أَقْدِمُ عَلَيْهِ إِلَّا مُرْتَجِفًا ، وَأَقُولُ لَكَ رِيَسِي أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أَقُولَ لَكَ
أَرَأَيْتَ ، وَلَوْ كَانَتْ آرَاؤُكَ أَكْثَرَ ثَبَاتًا لَتَرَدَّدْتُ فِي عَرْضِ آرَأْيَ عَلَيْكَ ،

ولكنك في الحال التي أنت عليها لك كَسْبٌ في التفكير مثلي^(١) ، ثم لا تَمْنَحْ كلامي غير سلطان البرهان ، فأنا أَجْهَلُ كَوْنِي على خطأ ، ومن الصعب عند الجدال ألاَّ تَتَّخِذَ لهجةً جازمة أحياناً ، ولكن اذْكُرْ أن جميع توكيداتى هنا ليست غير أسبابٍ داعيةٍ إلى الشكِّ ، وابْحَثْ عن الحقيقة بنفسك ، وأما أنا فلا أعدك بغير حسن النية .

« أنتم لا تَرَوْنَ في بياني غير الدين الطبيعيِّ ، ومن الغريب جداً أن يُحْتَاجَ إلى غيره ، وبأية وسيلةٍ أعْرِفُ هذه الحاجة ؟ وبأى شيءٍ أعدُّ مذنباً إذا ما عَبَدْتُ الرَّبَّ على حَسَبِ البصائر التي يُنْعِمُ بها على نَفْسِي وَوَقَفْتُ للمشاعر التي يُوْحِي بها إلى قلبي ؟ وأى صفاء خُلُقِيٍّ ، وأى اعتقادٍ نافع ، يُمَكِّنِي استنباطه من مذهبٍ وضعيٍّ فلا أستطيع أن أستنبطه من حُسْنِ استعمال مواهبى ؟ أروني ما يُمَكِّنُ إضافته ، في سبيل تجرِّد الرَّبِّ ، وفي سبيل خَيْرِ المجتمع ، وفي سبيل مصلحتي الخاصة ، إلى واجبات الناموس الطبيعيِّ ، وأى فضيلةٍ يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا من دينٍ جديد لا تكون نتيجةً لدينى ، فأعظمُ الأفكار عن الرَّبِّ تنشأ عن العقل وحده ، وانظروا إلى منظر الطبيعة ، وأنصتوا لصوت الباطن ، أفَلَمْ يَقُلِ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ لأعيننا ولضميرنا وحُكْمنا ؟ وما يَقُولُ لنا الناسُ زيادةً على ذلك ؟ لا يَصْنَعُ وَحْيُهُمْ غيرَ تنزيل مقام الرَّبِّ بإسباغ أهواء الناس عليه ، وأرى أن العقائد الخاصة تَمَقِّدُ مبادئ الكائن الأعلى بدلاً من إلقاء نُورٍ عليها ، وأرى العقائد الخاصة تَحْطُّهَا بدلاً من أن تَرْفَعَهَا ، وأنها تُضِيفُ متناقضاتٍ

(١) أعتقد أن هذا هو الذى يستطيع القسيس أن يخاطب به الجمهور في الوقت الحاضر .

مُحَالَّةً إِلَى الأسرار الخفية التي لَا يُمَكِّنُ تصوُّرُهَا ، وَأَنَّهُا تَجَعَلُ الْإِنْسَانَ
مُخْتَلًا مُتَعَصِّبًا قَاسِيًا ، وَأَنَّهُا تَحْمِلُ الْحَدِيدَ وَالنَّارَ إِلَى الْأَرْضِ بَدَلًا مِنْ
إِقْرَارِ السَّلَامِ فِيهَا ، وَأَسْأَلُ نَفْسِي عَنْ فَائِدَةِ جَمِيعِ هَذَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَ
كَيْفَ أَجِيبُ ، وَلَا أَرَى فِي ذَلِكَ غَيْرَ جَرَائِمِ النَّاسِ وَبُؤْسِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ .
« وَيَقَالُ لِي إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْوَحْيِ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ كَيْفَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ كَمَا
يُرِيدُ ، وَيُسَاقُ كَدَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ مَا أَقَامَهُ النَّاسُ مِنْ عِبَادَاتٍ
غَرِيبَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، وَلَمْ يُرَ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ نَاشِئٌ عَنْ هَوَى الْوَحْيِ ، فَالشُّعُوبُ ،
مِنْذُ عَنَّا لَهَا أَنْ تَجْعَلَ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ ، جَعَلَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَتَكَلَّمُ وَفَقَّ
ذَوْقَهُ ، وَحَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ مَا يَرِيدُ ، وَلَوْ اسْتَمِيعَ إِلَى مَا قَالَ الرَّبُّ لِقَلْبِ
الْإِنْسَانِ مَا وَجِدَ غَيْرَ دِينٍ وَاحِدٍ عَلَى الْأَرْضِ .

« وَوَجَبَ وَجُودُ عِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأُرِيدُ هَذَا ، وَلَكِنْ هَلْ كَانَ هَذَا
الْأَمْرُ مِنَ الْأَهْمِيَةِ الْبَالِغَةِ ، إِذَنْ ، مَا اقْتَضَى مَعَهُ جَمِيعَ جِهَازِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ
لِإِقَامَتِهِ ؟ وَلَا تَخْلِطُ بَيْنَ الدِّينِ وَطُقُوسِهِ مُطْلَقًا ، فَالْعِبَادَةُ الَّتِي يَطْلُبُهَا الرَّبُّ
هِيَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ ، وَتَكُونُ هَذِهِ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ ، دَائِمًا ، عِنْدَ إِخْلَاصِهَا ، وَمِنْ
الزَّهْوِ الْأَخْبَلِ أَنْ يُتَصَوَّرَ أَنَّ اللَّهَ يُبَالِي كَثِيرًا بِشَكْلِ حُلَّةِ الْقِسَيسِ وَنِظَامِ
الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا وَبِالْحَرَكَاتِ الَّتِي يَأْتِيهَا عِنْدَ الْحَرَابِ وَبِجَمِيعِ رَكَعَاتِهِ ، آه !
انْتَصِبْ ، يَا صَدِيقِي ، تَبَقَّ قَرِيبًا مِنَ الْأَرْضِ دَائِمًا ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْبَدَ
بِالرُّوحِ وَالصِّدْقِ ، وَهَذَا الْوَاجِبُ مُلَاقِئٌ لِجَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَجَمِيعِ الْبُلْدَانِ وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ ،
وَأَمَّا الْعِبَادَةُ الْخَارِجِيَّةُ فَإِذَا مَا وَجِبَ أَنْ تَكُونَ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ لِحُسْنِ النِّظَامِ
كَانَ هَذَا عَمَلٌ مُشْرَطَةٌ مَحْضًا ، وَلَا يَسْتَلْزِمُ هَذَا وَحْيًا مُطْلَقًا .

« ولا أبدأ بجميع هذه الأفكار ، وبما أننى مسوقٌ بمُبْتَسراتِ التربية وبالأنانيةِ الخطِيرةِ التى تَهْدِفُ ، دائماً ، إلى حَمْلِ الإنسانِ فَوْقَ نِطاقه ، وبما أننى لا أستطيعُ رَفَعَ مداركى الضعيفةِ إلى الموجودِ الأعظمِ ، فإننى أُحاولُ خَفَضَهُ إلى حيثُ أنا ، وأقَرِّبُ بينَ العلائقِ البعيدةِ إلى العايةِ التى وَضَعَهَا بينَ طبيعتهِ وطبيعتى ، وأريدُ صلاتِ أكثرَ مباشرةٍ ومعلوماتٍ أكثرَ خصوصيةً ، وبما أنه لا يُرْضِينِى أنْ أَجْعَلَ الرَّبَّ مشابهاً للإنسانِ حتى أكونَ ممتازاً بينَ أمثالى ، فإننى أريدُ معارفَ خارقةً للعادة ، وأريدُ عبادةً خاصةً ، أريدُ إلهاً يخاطبُنِى بما لم يخاطب به الآخرين ، أو بما لم يُذَكِّرْهُ الآخرونَ كما أُذَكِّرُ .

« وإنى إذْ أَعُدُّ النقطَةَ التى انتهيتُ إليها نقطةً مشتركةً يَنْطَلِقُ منها جميعُ المؤمنين وصولاً إلى شكلٍ من الدينِ أكثرَ نوراً لا أُجِدُّ فى عقائدِ الدينِ الطبيعيِّ غيرَ عناصرٍ جميعِ الأديانِ ، وأنظرُ إلى هذا الاختلافِ بينِ النَّحْلِ السائدةِ للأرضِ والتى تَتَّهِمُ كُلَّ واحدةٍ ما سواها بالكذبِ والضلالِ فأسألُ : « أيتها على الحقِّ ؟ » ، وَيُجِيبُ كُلُّ واحدٍ عن هذا بقوله : « نَحِلَّتْى » ، ويقول كُلُّ واحدٍ : « أَفَكَّرُ أنا وجميعُ أتباعى تفكيراً صادقاً ، وأما الآخرونَ فكلُّهم على ضلالٍ » ، وأسألُ : « كيف تَعْرِفونَ أن نَحِلَّتْكم هى التى على الحقِّ ؟ » ، وأجَابُ عن هذا بكلمةٍ : « ذلك لأنَّ الله قال هذا »^(١) ، وأسألُ : « ومن يقول لكم إنَّ الله قال هذا ؟ » ،

(١) قال قيس صالح حكيم : « جميع الناس يقولون إنهم يحافظون عليه ويؤمنون به (و) جميع الناس يستمعون عين الرطانة) على أنه من الله ، لا من الناس ، ولا من أى مخلوق كان . =

ويقال لى : « هو قَسِيْسُنَا الذى يَفْرِفُ ذلك جيداً ، وهو يقول لنا أن نُؤْمِنَ هكذا فنؤمن ، وهو يقول مُوَكَّدًا إن جميع الذين يقولون غيرَ هذا يَكْذِبُونَ ، فلا نَسْتَعِجُ إليهم » .

« ماذا ! وهل أَظُنُّ أن الحقيقة ليست واحدة ؟ وهل يكون ما أراه حقيقةً باطلاً عندهم ؟ وإذا كان منهاجُ الذى يَتَّبِعُ الطريقَ الصالحَ ومنهاجُ الذى يَظِلُّ واحداً فأى مزيةٍ أو أى خطأٍ يكون بجانب الواحد أكثر مما بجانب الآخر ؟ إن خيارها نتيجةُ المصادفة ، وينطوى عَزْوُهَا إليهما على جَوْر ، وهو يعنى مجازاتهما أو مكافأتهما لولادتهما فى هذا البلد أو ذاك ، وتُعَدُّ الجُرْأَةُ على القول بأن الرَّبَّ يَحْكُمُ فِينَا هكذا طَعْنًا فى عدله .

« وجميعُ الأديانِ إما أن تكونَ صالحةً مقبولةً لدى الله ، وإما أن يكونَ اللهُ قد أَمَرَ الناسَ باتِّباعِ واحدٍ منها فيجازى من يُنْكِرُهُ ، باتِّباعِ واحدٍ منها مَنَحَهُ علامتهُ ثابتةٌ واضحةٌ لِيَأْزِجَ بها ويُعَرِّفَ على أنه الحقُّ وحده ، علامتهُ متماثلةٌ فى كلِّ زمانٍ ومكان ، واضحةٌ لدى كلِّ إنسان ، كبيراً كان هذا الإنسانُ أو صغيراً ، عالماً أو جاهلاً ، أوربياً أو هندياً أو إفريقيّاً أو هيجياً ، فإذا ما وُجِدَ على الأرض دينٌ لا يَكُونُ غيرُ العذابِ

= « ولكننى أقول الحق ، والحق أقول بلا مصانعة ولا مواربة ، إنه لا شئ من هذا ، فالأديان تعرف بأيدٍ ووسائل بشرية ، ودليل ذلك أولاً طريقة تلقىها فى العالم من قبل الأفراد سابقاً ولاحقاً ، وذلك أنها وليدة الشعب والبلد والمكان ، وذلك أننا نختنق ونعبد فنكون يهوداً ومسلمين ونصارى قبل أن نعرف أننا آدميون ، وذلك أن الدين ليس أمراً يقع تحت خيارنا وانتخابنا ، وذلك لما يرى من سوء توافق الحياة والطباع مع الدين ، وذلك لما يشاهد من مخالفة الإنسان لأحكام دينه عند أعنف البواعث البشرية » ، شارون ، الحكمة ، باب ، فصل ٥ ، صفحة ٢٥٧ ، طبعة بوردو ، سنة ١٦٠١ .

ومن الواضح أن عقيدة لاهوتى كوندون لا تختلف كثيراً عن عقيدة القسيس السافوانى .

الأبدى خارج نطاقه ، وإذا لم يُوجد في بُقعةٍ ما من العالم غيرُ إنسانٍ واحدٍ لم يُؤمنْ ببرهان هذا الدين عن حُسن نية ، كان إلهُ هذا الدين أظلمَ الطغاة وأشدَّهم قسوةً .

« أَوْ نَبَحْتُ عَنْ الْحَقِيقَةِ بِإِخْلَاصٍ ؟ دَعْنَا لَا نَمْنَحُ حَقَّ النِّسَبِ وَسُلْطَانَ الْآبَاءِ وَالْقِسِيِّينَ شَيْئًا ، وَلَكِنْ لِنَدْعُ إِلَى امْتِحَانِ الضَّمِيرِ وَالْعَقْلِ جَمِيعَ مَا عَلَّمُونَا إِيَّاهُ مِنْذُ صِبَاِنَا ، وَمِنَ الْعَبَثِ قَوْلَهُمْ بِصَوْتٍ عَالٍ : « أَفْهَرُ عَقْلًا » ، فَهَذَا مَبْلَغُ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَهُ مُخَادِعٌ ، وَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ أَسْبَابٍ لَدَيَّْ حَتَّى أَفْهَرَ عَقْلِي .

« وَيَقْتَصِرُ جَمِيعُ عِلْمِ الْإِلَهِاتِ الَّذِي يُمَكِّنُنِي اِكْتِسَابُهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ، بِمُلَاحِظَةِ الْكَوْنِ وَبِحُسْنِ اسْتِعْمَالِ مَوَاهِبِي ، عَلَى مَا أَوْضَحْتُهُ لَكُمْ سَابِقًا ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِلْتِمَاءِ إِلَى وَسَائِلٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ لِمَعْرِفَةِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا تَقُومُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ عَلَى سُلْطَانِ النَّاسِ ، وَذَلِكَ بِمَا أَنَّهُ لَا إِنْسَانَ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ نَوْعٍ فَإِنْ كُلُّ شَيْءٍ يَعْرِفُهُ الْإِنْسَانُ طَبِيعَةً أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعْرِفَهُ أَيْضًا ، وَنُيْكَنُ إِنْسَانًا آخَرَ أَنْ يُخَدَّعَ كَمَا أُخَدَّعُ ، وَمَتَى اعْتَقَدْتُ مَا يَقُولُ لَمْ يَكُنْ هَذَا لِأَنَّهُ قَالَهُ ، بَلْ لِأَنَّهُ أَثْبَتَهُ ، وَلَيْسَتْ شَهَادَةُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ الْأَسَاسُ ، إِذَنْ ، غَيْرَ شَهَادَةِ عَقْلِي ذَاتِهِ ، وَهِيَ لَا تَزِيدُ شَيْئًا عَلَى الْوَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيَّ لِأَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ .

« وَيَا رَسُولَ الْحَقِيقَةِ ، مَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا لِي ، إِذَنْ ، غَيْرَ مَا لَا أَكُونُ قَاضِيَهُ ؟ قَدْ قَالَ اللَّهُ بِذَاتِهِ : اسْتَمْعُوا لَوْحِيهِ ، ذَلِكَ أَمْرٌ آخِرٌ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ! تِلْكَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ حَقًّا ، وَمَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ؟ لَقَدْ كَلَّمَ النَّاسَ ، وَلَمْ لَمْ أَسْمَعْ

من ذلك شيئاً؟ لقد عهدَ إلى أناسٍ آخرين في تبليغ كلامه إليكم، وأذركُم !
يَقُولُ أناسٌ لي ما قال الله ، وأَفْضَلُ أن أَسْمَعَ الله ذاته ، وهذا لا يُكَلِّفُهُ
كثيراً ، وسأكون في مأمنٍ من الإغواء ، وهو يَحْفَظُكُمْ منه بإعلانِ بِنْتِهِ
مُرْسَلِيهِ ، وكيف يَكُونُ هذا ؟ بالمعجزات ، وأين هذه المعجزات ؟ في الكتب ،
وَمَنْ وَضَعَ هذه الكتب ؟ الناسُ ، ومن رأى هذه المعجزات ؟ الناسُ الذين
شَهِدُواها ، ماذا ! شهاداتٌ بشرية دائماً ، أناسٌ يَقْضُونَ على ما رواه أناس
آخرون ! وما أَكْثَرَ من هم بيني وبين الرَّبِّ ! دَعْنَا نَنْظُرَ مع ذلك ،
دَعْنَا نَفْحَصَ ونَقَابِلَ ونُحَقِّقَ ، آه ! إذا ما تَقَضَّلَ الرَّبُّ بِإِعْقَابِي من جميع
هذا العمل أَفْلاً أَعْبُدُهُ بكلِّ فؤادي ؟

« وانظُرْ ، يا صديقي ، أيُّ جِدَالٍ هائلٍ شَغِلْتُ به الآن ، وأيُّ معرفةٍ
واسعةٍ أحتاج إليها لأَرْجِعَ إلى أبعد القرون القديمة ، فأُبْحَثَ في النبوءات
والوحي والوقائع وجميع آثار الدين المروضة في جميع بلاد العالم وأزِنَهَا وأَقَابِلَ
بينها تعييناً للأزمنة والأمكنة والفاعلين والعوامل ! وما أعْظَمَ ما يُعَوِّزُنِي من
إصابة نقدٍ لَأَمَيِّزَ المُسْتَنَدَاتِ الصحيحة من المستندات الزُورَةَ ، ولأَقَابِلَ بين
الاعتراضات والجوابات والترتجات والأصول ، وللحكم في عَدَالَةِ الشهود
وَحُسْنِ بصيرتهم وفي معارفهم ، ولأَعْرِفَ هل حُذِفَ شيءٌ وأُضِيفَ وَحُرِّفَ
وُبَدِّلَ وزُورَ ، ولأَزِيلَ ما يَنْسَبِي من التناقضات ، ولأَحْكُمَ فيما يجب أن
يُعَاكَرَ من أهمية حَوْلَ سكوت الخصوم عن الوقائع الواردة ضِدِّهم ، وللحكم
في هل هذه البراهين كانت معروفةً عندهم ، وهل أقاموا لها من الوزن
ما يَتَنَازَلُونَ معه إلى الجواب عنها ، وهل كانت الكتبُ من الشيوع

ما تَتَّصِلُ معه كُتُبُنَا بها ، وهل نحن من حُسْنِ النية ما نَدْعُ كُتُبَهُمْ معه تَسِيرُ بيننا وما تَتْرُكُ معه أقوى اعتراضاتهم باقيةً كما وَضَعُوهَا ؟

« ومتى قَبِلْتَ جميعُ هذه الوثائقِ على أنها تَقَبَّلُ الجدلَ وجب الانتقالُ إلى أدلةٍ بَعَثَ واضعُها ، فوجبت معرفة نواميس الحُطُوظِ والاحتمالات للحُكْمِ في أية نبوءةٍ يُمكن قيامُها بلا معجزة ، ووجبت معرفة روح اللغات الأصلية لتمييز ما هو نبوءةٌ في هذه اللغات ، وما هو غيرُ شكلٍ خطابي ، ووجبت معرفة أى الأشياءِ في نظام الطبيعة وأى الأمور الأخرى ليس فيها ، فيُحَدِّثُ عن الحدِّ الذى يستطيع رجلٌ ماهرٌ أن يَسْحَرَ به عيونَ البُسطاءِ ويُبَلِّغَ الخيرةَ في نفوسِ المُتَقَفِّينَ ، وَوَجَبَ أن يَبْحَثَ عن نوعِ المعجزةِ وما يَلْزَمُ وجودُه فيها من صِدْقٍ لا لِيُثَبِّتَ فقط ، بل لِيُعَاقِبَ على الشكِّ فيها ، وَوَجَبَ أن يَقابَلَ بين أدلةِ المعجزاتِ الصادقةِ والمعجزاتِ الكاذبةِ فيُفَرِّقَ على قواعدٍ ثابتةٍ للتفريقِ بينها ، ثم لِمَ يَخْتارُ الرَّبُّ ، لإثباتِ كلامه ، وسائلَ تحتاج احتياجاً كبيراً إلى إثبات ، كما لو كان يلاعب سرعةَ التصديقِ فى الناسِ مجتنباً عمداً وسائلَ إقناعهم الحقيقية .

« ولنفترض أن الجلالة الإلهية تفضلت فتنازلت بما فيه الكفاية لتجعل أحدَ الناسِ واسطةَ عزائمها القدسة ، فهل من العقل والعدل أن يطالبَ جميعُ الجنسِ البشرى بتلبية نداء هذا الواعظ من غير أن يُجْعَلَ معروفاً هكذا ؟ وهل من الإنصافِ ألا يُعْطَى من أوراقِ الاعتمادِ غيرُ إشاراتٍ خاصةٍ تَمِّمُ أمامَ قليلٍ من ذوى النفوسِ الغامضة على حين لا تَعْرِفُ بقيةَ

الناس من ذلك غير ما تعلم سماعاً ؟ وإذا ما عدّ من الحقائق في جميع بلاد العالم جميع العجائب التي يقول العوامّ والبسطاء إنهم رأوها كانت كلُّ نحلةٍ صالحةٍ ، ووجدت من العجائب ما يزيد على الحوادث الطبيعية ، وكانت أعظم المعجزات في الأمكنة التي يوجد فيها متعصبون مضطهدون من غير أن توجد فيها معجزات مطلقاً ، ونظام الطبيعة الثابت هو أحسن ما يدل على اليد الحكيمة التي تديره ، فإذا ما وجد شواذ كثيرة لهذا كدت لا أعرف فيما أفكر ، وأما أنا فقد بلغت من شدة الإيمان بالله مالا أؤمن معه بمعجزات كثيرة غير حريّة به .

« وليأت رجلٌ وليقل لنا بهذه اللهجة : أيها الناس ! أخبركم بمشيئة الرب الأعلى ، واعرفوا في ندائي نداء الذي أرسلني ، فأنا أمرُ الشمس بتغيير مجراها ، والنجوم باتخاذ نظام آخر لها ، والجبال بأن تسوي ، والأمواج بأن ترتفع ، والأرض بأن تُغيّر منظرها ، ومن ذا الذي لا يعرف سيّد الطبيعة بهذه المعجزات من قوّته ؟ والطبيعة لا تطيع المخادعين مطلقاً ، وتقع معجزات هؤلاء في المفارق والبراري والحجرات حيث تزوج بضاعتهم لدى عددٍ قليلٍ من الحضور المستعدين لاعتقاد كل شيء ، ومن ذا الذي يجرؤ على بيانه لي مقدار شهود العيان الذين لا بدّ منهم لجعل المعجزة أمراً جديراً بأن يؤمن به ؟ وإذا كانت معجزاتكم التي صنعت لإثبات مذهبكم محتاجة إلى إثبات فما يكون نفعها ؟ لا فرق بين الإتيان بها وعدمه فائدة . »

« وأخيراً تبقى ضرورة القيام بأهم تمحيص في ذاك المذهب ، وذلك

بما أن الذين يقولون إن الرب يأتي بمعجزات في هذه الدنيا يزعمون أن الشيطان يُقلِّدها أحياناً ، فإننا لا نكون قد تقدّمنا أكثر مما في السابق بأحسن ما شوهد من المعجزات ، وذلك بما أن سحرَ فرعون قد أقدموا أمام موسى نفسه على إتيان عين الآيات التي أنهاها بأمر صريح من الرب فلم لا يدعون بعين القدرة في غيابه مع ذات العنوان ؟ وهكذا يجب ، إذن ، إثبات المعجزة بالذهب بعد أن أثبت المذهب بالمعجزة^(١) ، وذلك خشية عدّ عمل الشيطان من عمل الرب ، فما قولكم عن هذا الافتراض فيما يُطلب برهانه وإثباته ؟

« ولو كان هذا المذهب صادراً عن الرب لوجب أن يحمل طابع الألوهية المقدس ، وذلك أنه لا يكتفي أن يوضح لنا مختلط الأفكار التي يزعمها البرهان في ذهننا ، بل يجب ، أيضاً ، أن يفرض هذا المذهب علينا عبادةً وأدباً ومبادئ ملائمة للصفات التي تتمثل بها وحدها كنه

(١) هذا أمر صريح في ألف مكان من الكتاب المقدس ، ومن ذلك قول الفصل الثالث عشر من سفر تشيية الاشتراع إنه إذا أخبر نبي عن آلهة غريبة فأيد كلامه بمعجزات وحدث ما أنبأ به وجب قتل هذا النبي من غير نظر إلى ما وقع ، فاحذر ، إذن ، من قتل الوثنيين للرسل الذين أخبرهم بإله غريب مؤيدين رسالتهم بنبوءات ومعجزات لا يرى أنه كان يمكن أن يعترض عليهم من أجله اعتراضاً شديداً بما لا يمكن أن يوجهوه إلينا حالاً ، وما الذي يصنع في مثل هذه الحال ؟ يصنع أمر واحد ، وهو أن يرجع إلى البرهان مع ترك المعجزات حيث هي ، والأفضل ألا ياجأ إليها ، وهذا من أبسط قواعد الذوق السليم الذي لا يعنى بنفي البيانات التي هي على شيء من الدقة البالغة ، دقائق في النصرانية ! ولكن يسوع المسيح كان مخطئاً ، إذن ، حين وعد البسطاء بملكوت السموات ، ولكنه كان مخطئاً ، إذن ، حين بدأ أروع كلامه بتبشير فقراء الزمن ... لو اقتضى وجود ذهن غزير لفهم مذهبه وتعاليم الإيمان به ، ولو أثبتهم لي أن الخضوع من واجباتي لصارك كل شيء حسناً ، ولكن لإثبات هذا لي يتطلب وضع نفسك على مستوى ، واجعلوا براهينكم مطابقة لقابلية فقير في الزمن ، وإلا عدت لا أعرف فيكم تلميذاً حقيقياً لمعلمكم ، وعاد ما تخبروني به لا يكون مذهبه .

الرَّبِّ ، وإذا كان لا يُعَلِّمُنَا ، إِذَنْ ، غيرَ أمورٍ مستحيلةٍ مُخالفةٍ للصواب ،
 وإذا كان لا يُوحى إلينا بغيرِ مشاعرِ الكراهيةِ لأمثالنا وبغيرِ دُعرٍ لأنفسنا ،
 وإذا كان لا يُصَوِّرُ لنا غيرَ رَبِّ غَضُوبٍ مُغَيَّرٍ مِثْلَكَ مُغْرِضٍ مُبْغِضٍ
 للبشرِ ، رَبِّ للحربِ والمعاركِ متأهَّبٍ للتخريبِ والتدميرِ ، مُحَدِّثٍ ، دائماً ،
 عن العذابِ والنَّكالِ ، مُبَاهٍ بمعاينةِ الأبرياءِ أيضاً ، فإن فؤادى لا يَنْجَذِبُ
 إلى هذا الإلهِ الهائلِ محترزاً من تركِ الدينِ الطبيعيِّ اعتناقاً لذلك المذهبِ ،
 وذلك لأنه لا بُدَّ من الاختيارِ عن ضرورةٍ كما تَرَوْنِ ، وأقول لأتباعه ليس
 إِلَهُكُم إِلَهَنَا ، وليس الذى يَبْدَأُ باختيارِ شعبٍ واحدٍ فقط ، طارداً بقيةَ الجنسِ
 البشرىِّ من حمايته ، أباً عاماً للناسِ ، وليس الذى يُعِدُّ مُعْظَمَ مخلوقاته للعذابِ
 الأبدىِّ ذاكِ الإلهِ الرحيمِ الكريمِ الذى دَلَّنَى عليه عقلى .

« والعقلُ ، من حيث العقائدُ ، يقول لى إنه يجب أن تكون واضحةٌ
 ساطعةٌ تَقِفُ الأبصارَ بجلالِها ، وإذا كان الدينُ الطبيعيُّ ناقصاً فذاك للغُفُوضِ
 الذى يَتَرُكُه فى الحقائقِ الكُبْرَى التى يُعَلِّمُنَا إياها ، فعلى الوحي أن يُعَلِّمُنَا
 هذه الحقائقَ على وجهٍ يُذَكِّرُهَا به ذهنُ الإنسانِ ، وأن يَضَعَهَا فى متناولِهِ ،
 وأن يَجْمَعَهَا فى حالٍ يَتِمَّتْهَا معه حتى يؤمنَ بها ، ويتأيدُ الإيمانُ بالفهمِ
 ويشتدُّ ، ولا يَرَاءُ فى أن أحسنَ الأديانِ أوضحُها ، وأما الدينُ الذى
 يَشْحَنُ ما يَعْطَى به من العبادةِ بالأسرارِ والمتناقضاتِ فإنه يُعَلِّمُنِي الْحَذَرَ
 منه لهذا السببِ ، وليس الإلهُ الذى أُعْبِدُ إِلَهَ الظَّلَامِ ، وهو لم يُنْعِمْ عَلَى
 يادراكِ لِيَمْنَعَنِي من الانتفاعِ بهذا الإدراكِ ، وَيَنْطَوِي كُلُّ قولٍ لى بأن
 أقهرَ عقلى على إهانةِ صانعه ، ولا يَجُورُ ولىُّ الحقِّ على عقلى ، بل يُنِيرُهُ .

« وقد طَرَحْنَا كُلَّ سُلْطَانٍ بَشَرِيٍّ جَانِبًا ، وما كَانَ لِيُؤْمِنَكُنِي أَنْ أَرَى
بغيرِ هَذَا السُّلْطَانِ كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُقْنِعَ إِنْسَانًا آخَرَ بِوَعْظِهِ
بِمَذْهَبٍ مُخَالَفٍ لِلصَّوَابِ ، وَلِنَدَّعِ هَذَيْنِ الْإِنْسَانَيْنِ بِتَخَاصُّمَانِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ،
وَلِنَبْجَحْتَ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَا فِي عُنْفِ اللَّهْجَةِ الْمَعْتَادَةِ لِسَيِّمَاهُمَا .

الْمُلْهَم :

« يُعَلِّمُنَا الْعَقْلُ أَنَّ الْكُلَّ أَعْظَمُ مِنْ جُزْئِهِ ، وَأَمَّا أَنَا فَأُخْبِرُكَ ، بِاسْمِ
الرَّبِّ ، أَنَّ الْجُزْءَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ » .

الْمُبَرِّهِن :

« وَمَنْ أَنْتَ حَتَّى تَجْرُؤَ عَلَى الْقَوْلِ لِي إِنَّ الرَّبَّ يَنَاقِضُ نَفْسَهُ ؟
وَأَيْسَكَ أَفْضَلُ أَنْ أَصَدِّقَ : هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُنِي بِطَرِيقِ الْعَقْلِ كَوْنَ الْحَقَائِقِ
أَزَلِيَّةً ، أَوْ أَنْتَ الَّذِي يُخْبِرُنِي مُسْتَحِيلًا بِاسْمِهِ ؟ » .

الْمُلْهَم :

« صَدَّقَنِي ، وَذَلِكَ لِأَنِّي تَعَلَّمْتُ أَكْثَرَ إِيجَابِيَّةً ، وَسَأْتَبْتُ لَكَ بِمَا
لَا يَتْرَكَ لَلشَّكِّ بَجَالَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أُرْسَلَنِي » .

الْمُبَرِّهِن :

« كَيْفَ ؟ أَنْتَ سَتَبَيَّنْتُ لِي أَنَّ الرَّبَّ أُرْسَلَكَ لِتَشْهَدَ ضِدَّهُ ؟ وَمَنْ أَيْ
جَنْسٍ سَتَكُونُ بَرَاهِينُكَ لِإِقْنَاعِي أَنَّ الرَّبَّ يَخَاطِبُنِي بِفِعْلِكَ أَكْثَرَ مِمَّا بِالْإِدْرَاكِ
الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ ؟ » .

الْمُلْهَم :

« الْإِدْرَاكِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ! يَا لَكَ مِنْ إِنْسَانٍ صَغِيرٍ مَغْرُورٍ ! كَأَنَّكَ

أولُ مُلْحِدٍ يَضِلُّ بعقله الذى أفسدته الخطيئة ! » .

المُبرِّهن :

« أيها القديس ، وكذلك أنت لا تكون أولَ خادعٍ يتخذ انتفاخه دليلاً على رسالته » .

المُلهَم :

« ماذا ! حتى الفلاسفةُ ينطقون بالإهانات ! » .

المُبرِّهن :

« أحياناً ، عند ما يجتَلِ القديسون من أنفسهم قُدُوةً » .

المُلهَم :

« وى ! أنا ، يَحِقُّ لى أن أقول ذلك ، فانا أتكم باسم الربِّ » .

المُبرِّهن :

« الأفضلُ أن تُبرزَ حُجَجَكَ قبل أن تستعمل امتيازاتِكَ » .

المُلهَم :

« إن حُجَجِي صحيحة ، وتَشْهَدُ الأرضُ والسمواتُ لى ، فَاتَّبِعْ براهينى كما أطلبُ منك » .

المُبرِّهن :

« براهينك ! أنت لا تُفَكِّرُ فيها ، أَلَا يَعْنى تعلينى أن عقلى يخادعنى رفضاً لكلِّ ما يقول لى من أجلك ؟ وعلى كلِّ من يريد ردَّ العقل أن يُقنع من غير أن ينتفع به ، وذلك لتفتَرِضُ أنك أقنعتنى بالبرهنة فكيف أعْرِفُ أن عقلى الفاسد بالخطيئة هو الذى يجعلنى أوافقُ على ما تقول لى ؟ ثم أى دليل . وأى برهان

يمكنك استعماله يكون أوضح من الأمر البدهي الذي يجب عليه أن ينقضه ؟
وكذلك إن مما يمكن تصديقه أن يكون القياس المنطقي الحسن أكثر
كذباً من كَوْن الجزء أعظم من الكل » .
المُلهَم :

« يا للفرق ! إن براهيني بلا جواب ، وهي من نظام خارق للطبيعة » .
المُبرهن :

« خارق للطبيعة ! ما معنى هذه الكلمة ؟ لا أدركه » .
المُلهَم :

« تغييرات في نظام الطبيعة ، نبوءات ، معجزات ، عجائب من كل
نوع » .

المُبرهن :

« معجزات ! عجائب ! لم أر قط شيئاً من جميع هذا » .
المُلهَم :

« لقد رآه آخرون نيابةً عنك ، جموعٌ من الشهود . . . شهادة
أقوام . . . » .

المُبرهن :

« هل شهادة الأقوام من النظام الخارق للطبيعة ؟ » .
المُلهَم :

« كلاً ، وإنما تكون أمراً لا مرأى فيه عند ما تكون مُجمَّعاً عليها » .
(٢٥)

المُبرِّهين :

« لا شيء يكون أمراً لا جدال فيه أكثر من مبادئ العقل ،
ولا يُمكن قبول شيء محال بناءً على شهادة آدميين ، ثم لنرَ أدلتك
الطارقة للطبيعة ، وذلك لأن شهادة الجنس البشري ليست من هذه
الأدلة » .

المُلهِّم :

« أيها القلبُ القاسي ، لا تخاطبك النعمة مطلقاً » .

المُبرِّهين :

« ليس هذا ذنبي ، وذلك لأنك ترى أنه لا بدَّ من سابق نئيلٍ
للنعمة حتى يُعرَف طلبُها ، ولذا فابدأ بمخاطبتي بدلاً منها » .

المُلهِّم :

« آه ! هذا ما أصنعُ ، وأنت لا تستمع إليّ ، ولكن ما تقول
عن النبوءات ؟ » .

المُبرِّهين :

« إن أولَ ما أقولُ هو أنتي لم أسمع عن النبوءات أكثر مما
أبصرتُ عن المعجزات ، ثم أقول إنه لا نبيَّ يستطيع أن يكون حجةً
عليّ » .

المُلهِّم :

« أيّ عونَ الشيطان ! لِمَ لا تكون النبوءات حجةً عليك ؟ » .

المُبرهن :

« ذلك لأن اتفاق تلك الحجة لها يستلزم ثلاثة أمورٍ يستحيل توافقها ، وهي أن أكون شاهدَ النبوة ، وأن أكون شاهدَ الحادثة ، وأن يُثبَتَ لي أن هذه الحادثة لا تطابق النبوةَ عَرَضاً ، وذلك أن النبوة ، حتى عند كونها أكثرَ دقةً ووضوحاً وجلاءً من بدهيات الهندسة ، لا يجعلُ هذا الوضوحُ تمامَ النبوة القائمة على المصادفة أمراً مستحيلاً ، فلا يُثبَتُ هذا التمامُ ، لدى وقوعه ، شيئاً لمن تنبأ به حصراً » .

« ورؤا ، إذن ، إلى أيّ شيءٍ تنتهي براهينكم الخارقة للطبيعة المزعومة ومعجزاتكم ونبوءاتكم ، إنها تنتهي إلى اعتقادٍ جميع هذا استناداً إلى إيمان الآخرين ، وإخضاع سلطان الرَّبِّ ، إذ يُخاطب عقلى ، لسلطان الناس ، وإذا أمكن الحقائق الأزلية التى يَتَمَثَّلُها ذهنى أن تُعَانِي عَنَتاً عاد لا يكون لدى أى نوعٍ من اليقين ، حتى إننى ، مع البُعْدِ من الاطمئنان إلى أنكم تخاطبوننى من ناحية الرَّبِّ ، لا أكون مطمئناً إلى وجوده .

« وهذه مشاكل كثيرةٌ يا بُنَيَّ ، وليس هذا كلَّ شيء ، ويوجدُ بين كثيرٍ من مختلف الأديان ، التى تتهاذر وتتهدم مبادلةً ، دينٌ واحدٌ طَيِّبٌ عند وجود مثل هذا الدين ، ولا يكتفى لمعرفة هذا الدين أن يُدرَسَ دينٌ واحدٌ ، بل أن تُدرَسَ جميع الأديان ، ولا يجوز العقابُ بلا سماعٍ في أى موضوعٍ كان^(١) ، فيجبُ أن يقابل بين الاعتراضات والبيّنات ، ويجبُ

(١) ذكر بلوتارك ، فيما ذكر من الأقوال الغريبة ، أن الرواقين كانوا يذهبون ، فى الحكم المتناقض ، إلى أن من غير المفيد سماع الفريقين ، وذلك أنهم كانوا يقولون إن الفريق الأول إما أن يكون قد أثبت قوله ، وإما ألا يكون قد أثبت ، فإذا ما أثبت كان كل شيء قد قيل ويجب الحكم على الخصم ، وإذا لم =

أن يُعَرَفَ ما يعترض به كلُّ واحدٍ على الآخرين ، ويجب أن يُعَرَفَ الجواب ، وكلما ظَهَرَ لنا ثبوتُ رأيٍ وَجَبَ أن نبحث عما يستند إليه كثير من الناس لكيلا يَرَوْهُ كما هو ، ويجب أن يَكُونَ الإنسانُ بسيطاً لِيَتَقَدَّ كفايةً سماعَ علماء فريقه حتى يَكُونَ على بَيِّنَةٍ من براهين الفريق الآخر ، وأين هم علماء اللاهوت الذين يُبَاهُونَ بِخُلُوص النية ؟ وأين هم علماء اللاهوت الذين لا يَبْدُونَ بإضعاف براهين خصومهم رَفَضاً لها ؟ وكلُّ يَسْطَعُ في فريقه ، ولكنَّ الذي يَزْهَوُ بين فريقه ببراهينه يُعَدُّ بالغِ الغباوة بهذه البراهين بين رجال الفريق الآخر ، وإذا أردتم أن تستقصوا في الكتب فما أكثر ما يَجِبُ اكتسابه من علم ! وما أكثر ما يجب تعلُّمه من لغات ! وما أكثر ما يَجِبُ أن يطالع من مكنتات ! وما أوسع ما يجب القيامُ به من قراءة ! ومن يكون دليلاً في الاختيار ؟ إن من الصعب أن يُوجَدَ في بلدٍ أحسنُ كتبِ الفريق العاكس ، وأصعبُ من ذلك وجودُ كتبِ جميع الأفرقاء ، وهي إذا ما وُجِدَتْ رُدَّتْ من فوزها ، ويُعَدُّ الغائب مخطئاً دائماً ، وتمنحو البراهينُ السيئةُ التي تقال مع التوكيد حَسَنَ البراهين تحوُّاً سهلاً مقروناً بالاحتقار ، وهذا إلى أنه لا شيء أكثرُ تضليلاً من الكتب في الغالب ، فلا تُعَبِّرُ هذه الكتب عن آراء مؤلفيها إلا نادراً ، وإذا أردتم أن تحكُموا في المذهب الكاثوليكي

== يشتهر كان على غير حق ووجب رد دعواه ، وأجد أن منهاج جميع الذين يقبلون وسياً دون سواء يشابه كثيراً منهاج هؤلاء الرواقين ، فتي زعم كل خصم أن الحق بجانبه وحده وجب سماع جميع الخصوم تمييز صاحب الحق منهم ، وإلا وقع الظلم .

مستندين إلى كتاب بوسويه وَجَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى خَطَأٍ بَعْدَ أَنْ تَعِيشُوا
 بَيْنَنَا ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْمَذْهَبَ الَّذِي يُجِبُّ بِهِ الْبُرُوتِسْتَانِ لَيْسَ الْمَذْهَبَ
 الَّذِي يُلْقَى عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ ، وَأَنَّ كِتَابَ بُوسُويِه لَا يَشَابِهُ دُرُوسَ الْوَعظِ
 مُطْلَقًا ، وَلَا يَنْتَبِهُ أَنْ يُدْرَسَ الدِّينُ فِي كُتُبِ أَتْبَاعِهِ لِحُسْنِ الْحُكْمِ فِيهِ ،
 وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعِ حَيْثُ يَخْتَلِفُ عَنْ ذَلِكَ كَثِيرًا ،
 وَلِكُلِّ تَقَالِيدُهُ وَشَعُورِهِ وَعَادَاتِهِ وَمُبْتَسِرَاتِهِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا اعْتِقَادُهُ ،
 فَيَجِبُ أَنْ تَضَافَ إِلَى ذَلِكَ لِلْحُكْمِ فِي ذَلِكَ .

« وَمَا أَكْثَرَ الْأُمَمَ الْكَبِيرَى الَّتِي لَا تَطْبَعُ كُتُبًا مُطْلَقًا وَلَا تَقْرَأُ كُتُبَنَا !
 وَكَيْفَ تَحْكُمُ فِي آرَائِنَا ؟ وَكَيْفَ نَحْكُمُ فِي آرَائِنَا ؟ وَنَحْنُ نَضْحَكُ
 مِنْهَا ، وَهِيَ تَزْدَرِينَا ، وَإِذَا كَانَ سَيَّاحُنَا يَسْخَرُونَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تَحْتَاجُ لِرَدِّ
 السَّخَرِيَةِ إِلَى غَيْرِ السِّيَاحَةِ بَيْنَنَا ، وَأَيُّ بِلَادٍ لَا يُوْجَدُ فِيهَا أَنْاسٌ عَقْلَاءُ
 مُخْلِصُونَ صَالِحُونَ مُحِبُّونَ لِلْحَقِيقَةِ فَلَا يَحَاوِلُونَ مَعْرِفَةَ الْحَقِيقَةِ لِيَجْهَرُوا بِهَا ؟
 وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَرَاهَا فِي دِينِهِ وَيَجِدُ أَدْيَانَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى مُخَالَفَةً
 لِلصَّوَابِ ، وَلِذَا فَإِنَّ هَذِهِ الْأَدْيَانَ الْأَجْنِبِيَّةَ لَيْسَتْ مِنَ الْبَطْلَانِ بِمَقْدَارِ
 ظَهُورِهَا لَنَا ، أَوْ إِنْ مَا نَجِدُ فِي أَدْيَانِنَا مِنْ بَرَهَانٍ لَا يُثَبِّتُ شَيْئًا .

« وَلَدِينَا ثَلَاثَةُ أَدْيَانٍ مَهْمَةٌ فِي أَوْرَبَةِ ، فَأَحَدُهَا يَقُولُ بِوَحْيٍ وَاحِدٍ ،
 وَالثَّانِي يَقُولُ بِوَحْيَيْنِ ، وَالثَّلَاثُ يَقُولُ بِثَلَاثَةِ ، وَكُلُّ مِنْهَا يَزْدَرِي الْآخَرَيْنِ
 وَيَلْعَنُهُمَا وَيَتَّهَمُهُمَا بِالْعَمَى وَالْقَسْوَةِ وَالْعِنَادِ وَالْكَذِبِ ، وَأَيُّ إِنْسَانٍ مَنْصُفٍ
 يَجْرُؤُ عَلَى الْحُكْمِ بَيْنَهُمَا إِذَا لَمْ يَزِنْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَدِلَّتْهَا وَبَسْمَعُ بَرَاهِينَهَا ؟
 وَالدِّينُ الَّذِي لَا يَقُولُ بِغَيْرِ وَحْيٍ وَاحِدٍ هُوَ أَقْدَمُهَا ، وَيَلُوحُ أَنَّهُ أَكْثَرُهَا

رُسوخاً ، والدينُ الذي يقول بثلاثة هو أحدثها ، ويلوح أنه أكثرها منطقاً ، وقد يكون الدينُ الذي يقول بوحين ويرفضُ الثالثَ أحسنها ، ولكنه يعارضُ بجميعِ المُبتَسَرَاتِ ، فيبدؤُ خُلُوه من المنطق لكلِّ ذى عينين .

« والكتبُ المقدسة في التنازيل الثلاثة مَسْطُورَةٌ بلغاتٍ لا تَعْرِفُهَا الأممُ التي تَتَّبِعُهَا ، فعاد اليهودُ لا يَفْهَمُونَ العِبرِيَّةَ ، ولا يَفْهَمُ النصارى العِبرِيَّةَ ولا اليونانية ، ولا يفهم التركُ والفرسُ العِريَّةَ مطلقاً ، حتى إن العربَ المعاصرينَ أنفسهم لا يتكلمون بِلُغَةِ مُحَمَّدٍ مطلقاً ، أو ليس من العبادة أن يُعَلِّمَ الناسُ ويَخَاطَبُوا دائماً بِلُغَةٍ لا يَفْقَهُونَهَا مطلقاً ؟ سيقال إن هذه الكتبَ تُترَجِّمُ ، فإِلا من جواب ! فمن ذا الذي يُؤَكِّدُ لى أن هذه الكتبَ تُرْجِمَتِ بإخلاصٍ وأن من الممكن أن تُترَجِّمَ تَرْجَمَةً صحيحة ؟ وإذا كان الرَّبُّ قد تنازل إلى مخاطبة الناس فلم يحتاج إلى تُرْجَمَان ؟

« وما كنتُ لأَتَصَوَّرَ مطلقاً كَوْنَ ما يُلْزَمُ كلُّ إنسانٍ بمعرفته مُحْجُوزاً في كُتُبٍ ، وكونَ الذي لا يَصِلُ إلى هذه الكتبِ ، ولا ينتهى إلى أناسٍ يَفْهَمُونَهَا ، يُعَاقَبُ على جَهْلِ غيرِ اختياري ، كتبٌ دائماً ، يا له من هَوَس ! يَعُدُّ الأوربيون الكتبَ أمراً ضرورياً لأن أوربة مملوءةٌ بالكتبِ ، وذلك من غيرِ تفكيرٍ في أن ثلاثة أرباع العالمِ لم تَرَ كُتُباً قطُّ ، ألم تُكْتَبِ الكتبُ كُلُّهَا من قِبَلِ آدميين ؟ وكيف يحتاج الإنسان إلى كتبٍ ، إذن ، حتى يَعْرِفَ واجباتِهِ ؟ وما الوسائلُ التي كان يَعْرِفُ

بها هذه الواجباتِ قَبْلَ وَضْعِ هذه الكتبِ ؟ إما أن يكون قد تعلمَ واجباته من تلقاء نفسه ، وإما أن يكون قد أُعْزِيَ من تَعَلُّمِها .

« وَيُخْذِثُ الكاثوليكُ عندنا ضَجَّةً كبيرةً حَوْلَ سلطان الكنيسة ، ولكن ما يَكْسِبُونَ من هذا إذا احتاجوا إلى جهازٍ عظيمٍ من البراهين لإقامة هذا السلطان احتياجَ النَّحْلِ الأخرى لإقامة مذهبها رأساً ؟ تَحْكُمُ الكنيسة بأن لها حَقَّ الحُكْمِ ، وهل أثبتَ هذا السلطانُ جيداً ؟ اخرجوا من هذا تَدْخُلُوا جميعَ مجادلاتنا .

« أَوْتَعْرِفُونَ كثيراً من النصارى كابدوا مشقةَ البحثِ بنايةٍ فيما أُوْرِدَ اليهودُ من براهينٍ ضِدِّهم ؟ إذا حَدَّثَ أن بعضهم اطلَّعَ على شيءٍ من ذلك كان ذلك في كتب النصارى ، فيالصلاح الأسلوب في تَعَلُّمِ براهين الخصم ! ولكن كيف العمل ؟ إذا حَدَّثَ أنْ أقْدَمَ بعضهم على نشرِ كتبٍ تَنْتَحِصَنُ اليهوديةَ بيننا جَهْراً عاقبنا المؤلفَ والطابعَ والكُتَيْبِيَّ^(١) على ذلك ، فهذه الضابطةُ ملائمةٌ وطيدةٌ لحيازة الحقِّ دائماً ، ومما تَقَرُّ به العينُ أن يُرْفَضَ من لا يَجْرُءُونَ على الكلام .

« وليس أحسنَ من ذلك ، مطلقاً ، حالُ الذين أُتِيحتَ لهم من بيننا فرصةُ محادثة اليهود ، فهؤلاء التعمساء يَشْعُرُونَ بأنهم تابعون لسلطاننا ، وما يمارَسُ نحوهم من طغيانٍ يَجْعَلُهُم خائفين ، وهم يَعْرِفُونَ مَبْلَغَ عدمِ اكتراث البرِّ

(١) إليك حادثة من ألف حادثة لا تحتاج إلى تفسير ، وذلك أن علماء اللاهوت من الكاثوليك تفسروا في القرن السادس عشر بإحراق جميع كتب اليهود بلا تفريق ، فلما استشير العالم المشهور روكلين في هذا الأمر جلب إلى نفسه أهوالاً كادت تؤدي إلى هلاكه إذ رأى إمكان الاحتفاظ من هذه الكتب بما ليس ضد النصرانية ، وبما يمالج المسائل التي لا تهم الدين .

النصراني للظلم والقسوة ، وما يُقدِّمون على قوله من غير أن يُعرِّضوا أنفسهم
 لتهمة التجديف ؟ وما نحن عليه من الطمع يوحى إلينا بالغيرة ، وما هم عليه
 من التراء يجعلهم مذنبين ، ويبدؤوا أكثرهم علماً وثقافة أكثرهم تحفظاً ،
 وأنتم تحوّلون بعض البائسين عن دينهم ، وأنتم تدفعون إليهم من المال
 ما يفترون في مقابله على ملتهم ، وأنتم تحمّلون على الكلام بعض الساقطين
 الأذنياء الذين يذعنون نفاقاً لكم ، وأنتم تفوزون على جهالتهم ونذالتهم ، وذلك
 على حين يتبسّم علماءهم صامتين من بلاهتكم ، ولكن أنظنون أن من السهل
 أن تُصيّبوا منهم نبلاً في الأماكن التي يشعرون فيها بأنهم في أمان ؟ ومن الجلي
 في السوربون أن نبوءات المسيح ترجع إلى يسوع ، ومن الجلي
 عند ربّائنا أمستردام أن هذه النبوءات لا ترجع إليه مطلقاً ، ولا أظنني
 استمعتُ إلى براهين اليهود الذين لا توجد لهم دولة حرة ، ولا مدارس
 وجامعات ، يستطيعون أن يتكلموا فيها ويناقشوا بلا خطر ، وهناك فقط
 يمكننا أن نعرف ما لديهم أن يقولوا .

« ويدلي الترك بأدلتهم في الآستانه ، ولكن من غير أن نجزو على
 الإدلاء بما لدينا ، فهناك دورنا في التمسك ، وإذا كان الترك يطالبونا
 بأن نحترم محمداً الذي لا تؤمن به مطلقاً ، كما نطالب اليهود بأن يحترموا
 يسوع المسيح الذي لا يؤمنون به أيضاً ، فهل يعدّون مخطئين ؟ وهل الحق
 بجانبنا ، وإلى أيّ مبدأ عادل نستند في حلّ هذه المسئلة ؟

« وليس ثلثاً الجنس البشريّ يهود ولا مسلمين ولا نصارى ، وما أكثر
 ملايين الأدميين الذين لم يسمّوا باسم موسى وعيسى ومحمداً وهم يُنكرون

ذلك ، ومما يُقَرَّرُ كَوْنُ مُبَشِّرِنَا يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ، وهذا ما يقال حالياً ، ولكن هل يَذْهَبُونَ إِلَى أَوَاسِطِ إفريقيا التي لا تزال مجهولةً ، والتي لم يَرُدْها أَىُّ أَوْرَبِيٍّ حَتَّى الْآنَ ؟ وهل يَذْهَبُونَ إِلَى أَوَاسِطِ بِلَادِ التَّنَّزُّ مُتَتَّبِعِينَ عَلَى ظُهُورِ الخيلِ قِبَائِلَ لَا يَدْنُو مِنْهَا أَجْنَبِيٌّ مُطْلَقاً ، قِبَائِلَ لَا تَكَادُ تَعْرِفُ كَاهِنَهَا الْأكْبَرُ فَضْلاً عَنْ سَمَاعِهَا بِاسْمِ الْبَابَا ؟ وهل يَذْهَبُونَ إِلَى قَارَاتِ أَمْرِيكَ الواسعة المشتملة على أقوامٍ بكاملهم لَا يَزَالُونَ يَجْهَلُونَ وجودَ أَمْرِ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ قَدْ وَطِئَتْ عَالَمَهُمْ ؟ وهل يَذْهَبُونَ إِلَى بِلَادِ الْيَابَانَ التي أسفرت دسائسهم عن طردهم منها إِلَى الْأَبَدِ ، والتي لم يُعْرِفْ أسلافهم فيها من قَبْلِ أَجْيَالٍ تَنْشَأُ إِلَّا حَاكَةً مَكَايِدَ أَتَوَا ، حَامِلِينَ غَيْرَةَ ذَاتِ رِثَاءٍ ، لِلْأَسْنِيَاءِ عَلَى الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ بِرَفْقٍ ؟ وهل يَذْهَبُونَ إِلَى دَوَائِرِ الْحَرِيمِ لَدَى أَمْرَاءِ آسِيَةِ لَتَبَشِيرِ أُلُوفِ الْعَبِيدِ الْمَسَاكِينِ بِالْإِنْجِيلِ ؟ وما صَنَعَ نِسَاءُ ذَلِكَ الْقِسْمِ مِنَ الْعَالَمِ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ أَىُّ مُبَشِّرٍ أَنْ يَعِظَهُنَّ بِالْإِيمَانِ ؟ أَوْ يَذْهَبْنَ جَمِيعاً إِلَى جَهَنَّمَ لِمَا كَانَ مِنْ عَزْلِهِنَّ ؟

« وَإِذَا مَا ثَبَتَ تَبْلِيغُ الْإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ فَمَا يَكُونُ كَسْبُ ذَلِكَ ؟ إِنْ مَا يَحْدُثُ عَشِيَّةَ وَصُولِ أَوَّلِ مُبَشِّرٍ إِلَى بِلَدٍ مَوْتِ إِنْسَانٍ فِيهِ لَمْ يَتِمَّ كَسْبُ مَنْ سَمَاعِهِ لَا رَيْبَ ، فَقُولُوا لِي : مَا نَفْعُ بَهَذَا الْإِنْسَانِ الْآنَ ؟ إِذَا لَمْ يُوجَدْ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ غَيْرُ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ لَمْ يُبَشِّرْ يَسُوعَ الْمَسِيحَ كَانَتْ قُوَّةُ الْاعْتِرَاضِ مِنْ حَيْثُ هَذَا الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ كَقُوَّةِ الْاعْتِرَاضِ مِنْ حَيْثُ رُبْعُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ .

« وَإِذَا مَا سَمَعَ الْبَشَرُونَ بِالْإِنْجِيلِ أَنْفُسَهُمْ لِلْأُمِّ الْبَعِيدَةِ فَمَا يَقُولُونَ لَهُمْ مِنْ قَوْلٍ يُمَكِّنُ قَبُولَهُ كَمَا يَجِبُ اسْتِنَاداً إِلَى كَلَامِهِ مِنْهُمْ لَا يَتَطَلَّبُ أَدَقَّ

تحقيق ؟ وأنتم تُذنبُونَنِي بِإِلَهِ وَلَدَ وَمَاتَ مِنْذُ أَلْفِي سَنَةٍ فِي الطَّرَفِ الْآخِرِ
 مِنَ الْعَالَمِ ، فِي مَدِينَةٍ صَغِيرَةٍ مَا لَا أَعْرِفُهَا ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لِي إِنَّهُ سَيُحْكَمُ
 بِالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ عَلَى كُلِّ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَذَا السِّرِّ الْخَفِيِّ ، فَهَذِهِ أُمُورٌ غَرِيبَةٌ
 لَا يَبَادِرُ إِلَى اعْتِقَادِهَا اسْتِنَادًا إِلَى رِوَايَةِ رَجُلٍ لَا أَعْرِفُهُ مطلقًا ! وَلِمَ أَحْدَثَ
 إِلَهُكُمْ ، عَلَى ذَلِكَ الْبُعْدِ مِنِّي ، أُمُورًا أَرَادَ إِزْوَائِي بَأَنَ أَكُونَ عَارِفًا بِهَا ؟
 وَهَلْ مِنَ الْإِجْرَامِ أَنْ أَجْهَلَ مَا يَقَعُ فِي النَّاحِيَةِ الْمَقَابِلَةِ مِنَ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ ؟
 وَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَنَبَّأَ بِوُجُودِ شَعْبٍ غَيْرِيٍّ وَبِمَدِينَةٍ تُدْعَى أُورَشَلِيمَ فِي
 النِّصْفِ الْآخِرِ مِنَ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ ؟ يَمْدُلُ هَذَا إِجْبَارِي عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَقَعُ
 فِي الْقَمَرِ ! تَقُولُونَ إِنَّكُمْ آتَوْنَ لَتَعْلِيمِي إِيَّاهُ ، وَلَكِنْ لِمَ لَمْ تَأْتُوا لَتَعْلِيمِ أَبِي
 إِيَّاهُ ؟ أَوْ لِمَ تَحْكُمُونَ بِالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ عَلَى هَذَا الشَّيْخِ الصَّالِحِ لَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ
 شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ مطلقًا ؟ وَهَلْ يَجِبُ أَنْ يَمَاقِبَ عِقَابًا أَبَدِيًّا مِنْ أَجْلِ كَسَلِكُمْ
 مَعَ أَنَّهُ كَانَ بِالْعَصْلَاحِ كَثِيرَ الْإِحْسَانِ فَلَا يَبْتَخِثُ عَنْ غَيْرِ الْحَقِيقَةِ ؟
 تَذَرُّوْا مُحْسِنَ النِّيَّةِ ، ثُمَّ ضَعُّوْا نَفْسَكُمْ فِي مَكَانِي ، وَرَوِّا : هَلْ أَنَا مُلْزَمٌ ،
 اسْتِنَادًا إِلَى شَهَادَتِكُمْ وَحْدَهَا ، بِأَنَ أَعْتَقِدُ جَمِيعَ مَا تَقُولُونَ لِي مِنْ أُمُورٍ
 لَا تُصَدِّقُ وَبَأَنَ أَوْفَّقُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَظَالِمِ وَبَيْنَ الرَّبِّ الْعَادِلِ الَّذِي
 تُخَيِّرُونَنِي بِهِ ؟ تَفَضَّلُوا بِتَرْكِ أَذْهَبُ لَأُرَى ذَلِكَ الْبَلَدَ الْبَعِيدَ الَّذِي يَقَعُ
 فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعِجَائِبِ لَا عَهْدَ لِهَذَا الْبَلَدِ بِهَا ، وَلَأَعْلَمُ السَّبَبَ فِي كَوْنِ
 أَهْلِ أُورَشَلِيمَ عَامِلُوا الرَّبِّ مِثْلَ قَطَاعِ الطَّرِيقِ ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لِي إِنَّهُمْ لَمْ
 يَعْتَرَفُوا بِأَنَّهُ إِلَهُ ، وَمَا أَصْنَعُ ، إِذَنْ ، أَنَا الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ حَدِيثًا عَنْهُ
 بغيرِ واسطتكم ؟ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لِي إِنَّهُمْ عَوْقِبُوا ، وَمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ ،

واضطهدوا ، وعبدوا ، فلا يستطيع أحدٌ منهم أن يدنو من تلك المدينة ،
أجل ، إنهم استحقوا جميع هذا ، ولكن ما يقول أهلها اليوم عن قتل
إله أسلافهم المتجسد ؟ إنهم يُنكرونه ، إنهم لا يعترفون بالرَّبِّ ربًّا ،
إنهم ليسوا ، إذن ، خيراً من أبناء السكان الأصليين .

« ماذا ! في تلك المدينة نفسها ، حيث مات الربُّ ، لم يعترف
القدماء ولا المعاصرون بهذا الربِّ قطُّ ، ثم يريدون أن أعترف به أنا الذي
ولدت بعده بألني عامٍ وعلى بُعد أُلني فرسخٍ من هناك ! ألا ترون أنه
يحبُّ عليَّ ، قبلَ تصديق هذا الكتاب الذي تُسمونه مقدَّساً والذي لا أفقه
منه شيئاً ، أن أعرف من غيركم متى وُضِعَ ، ومن وُضِعَ ، وكيف
حُفِظَ ، وكيف انتهى إليكم ، وما يقولون عنه في البلاد التي ترفضه ،
وما أسباب رفضهم إياه ، وإن كانوا يعرفون مثلما تعرفون جميع الذي
تلقنوني إياه ؟ أتم تشعرون جيداً بأن الضرورة تقضى بأن أذهب إلى
أوربة وآسية وفلسطين لفحص كلِّ شيء بنفسى ، فمن الحماقة أن أستمع
إليكم قبل ذلك الحين .

« ولا يَبْدُو لى هذا المقالُ معقولاً فقط ، وإنما أذهبُ إلى أن كلَّ
إنسانٍ عاقلٍ مُكَلَّفٌ في مثل هذه الحال بأن يتكلم هكذا وبأن يُقَصِّى
المُبَشِّرَ الذى يريد ، قبل تمحيص الأدلة ، تعليمه وتعميده ، وأذهبُ ، كما
هو الواقع ، إلى أنه لا يوجدُ وحىٌ لا يُوَجِّهُ إليه من الاعتراضات الشديدة
نفسها كما يُوَجِّهُ إلى النصرانية ، ومن ثمَّ يرى أنه إذا كان لا يوجدُ غيرُ
دينٍ حقيقىٍّ واحد ، وأن كلَّ إنسانٍ مُلْزَمٌ باتباعه خلاصاً من الهلاك

الأبدى ، فإنه يجب عليه أن يَقْضَىَ حَيَاتَهُ في دراسة جميع تلك الأديان والتعمق فيها والمقابلة بينها ، وفي جَوْبِ البلاد التي قامت فيها ، ولا أحد مُقْنَى من واجب الإنسان الأول ، ولا يَحَقُّ لأحدٍ أن يعتمد على حُكْم الآخرين ، ويجب على الصانع الذي لا يعيش من غير عمله والحارث الذي لا يَعْرِفُ القراءة والفتاة الغيذاء الهَيُوبِ والعليل الذي لا يكاد يَقْدِرُ على مغادرة فراشه ، يجب على هؤلاء جميعاً ، يجب على هؤلاء بلا استثناء ، أن يَدْرُسُوا وَيُفَكِّرُوا ويجادلوا ويسافروا وَيَطُوفُوا في العالم ، فَيَعُودُوا لا يُوجَدُ من الأمم ما هو مستقرٌّ ثابت ، ولا تُصْبِحُ الأرضُ غيرَ مستورة بالحجيجِ الزاهيين بنفقاتٍ عظيمة والمحتملين متاعبٍ طويلةٍ للتحقيق والمقابلة والبحث فيما يَحْدُثُ من مختلف الأديان ، وهناك قُلٌّ على المِهْنِ والفنون والعلوم الإنسانية وجميع الأشاغيلِ المدنيةِ العَفَاءِ ، وهناك لا يُمكنُ أن يكون من الدراسات غيرُ دراسة الدين ، وهناك يَضُغُّ جِدًّا على الذي يتمتع بأحسنِ صحةٍ ، ويكون خَيْرَ مَنْ يَسْتَعْمَلُ وقته وأفضلَ مَنْ يَسْتَعْمَلُ عقله وَيُعَمِّرُ أَكْثَرَ من غيره ، أن يَعْرِفَ أين هو في مَشْيِهِ ، فيكونُ من دواعي الحَيْرَةِ أن يَعْلَمَ قَبْلَ موته أيُّ الأديان كان يجب أن يعيش عليه .

« وهل تريدون أن تُلْطَفُوا هذا المِنْهَاجَ فتوجبوا قليلَ سلطانٍ للناس ؟ وهناك تَرُدُّونَ إليه كلَّ شيءٍ ، وإذا كان ابنُ النصرانيِّ يَصْنَعُ خيراً حين يَدَّبِعُ دينَ أبيه بلا درسٍ عميقٍ خالٍ من الغرضِ فليَمْ يَصْنَعُ ابنُ التركيِّ سواءً حين يَتَّبِعُ دينَ أبيه أيضاً ؟ أَمْ حَدَّى جميع المتعصبين بأن يجيبوا عن هذا بشيءٍ يَرْضَى عنه الرجل العاقل .

« وَتَنْقُلُ وَطْأَهُ هَذِهِ الْبَرَاهِينُ ، فَيُفَضِّلُ بَعْضُ النَّاسِ جَهْلَ الرَّبِّ جَائِراً يَجَازِي الْأَبْرِيَاءَ مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ اقْتَرَفَهُ أَبُوهُمْ عَلَى الْارْتِدَادِ عَنْ عَقِيدَتِهِمْ الْجَلْفِيَّةِ ، وَيَخْرُجُ آخَرُونَ مِنَ الْوَرُطَةِ بِأَنْ يُرْسِلُوا بِمَعْرُوفٍ مَلَكاً يُعَلِّمُ مِنْ عَاشُوا حَسَنَى الْأَخْلَاقِ مَعَ جَهْلِ مُطَبِّقٍ ، فَيَا لَرَوْعَةِ إِبداعِ هَذَا الْمَلَكِ ! إِنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِتَعْبِيدِنَا لِآلَانِهِمْ ، فَجَعَلُوا الرَّبَّ نَفْسَهُ يَسْتَعْمَلُهَا عَنْ وَجُوبٍ .

« وَانْظُرْ ، يَا بُنَيَّ ، أَيُّ مُحَالٍ يُوَدِّي إِلَيْهِ الزَّهْوُ وَالتَّعَصُّبُ حِينَا يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَى رَأْيِهِ ، وَحِينَا يَظُنُّ أَنَّهُ ذُو حَقٍّ عَلَى بَقِيَّةِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ حَضْراً ، وَأَتَّخِذُ رَبَّ السَّلَامِ ، الَّذِي أَعْبُدُ وَأُبَشِّرُكُمْ بِهِ ، شَاهِداً عَلَى إِخْلَاصِي فِي جَمِيعِ مَبَاحِثِي ، وَلَكِنِّي إِذَا أَرَاهَا كَانَتْ ، وَتَكُونُ دَائِماً ، بِلَا تَوْفِيقٍ ، وَلَكِنِّي إِذَا أَرَانِي أَغْرَقُ فِي بَحْرِ مُحِيطٍ لَا حَدَّ لَهُ ، فَإِنِّي أَرْجِعُ الْقَهْقَرَى وَأَحْضُرُ إِيْمَانِي ضِمْنَ مَبَادِيئِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ قَطُّ أَنْ أَعْتَقِدَ أَنَّ الرَّبَّ أَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ حَائِزاً مِثْلَ ذَلِكَ الْعِلْمِ جَاعِلاً جَهَنَّمَ جِزَاءً مُخَالَفَتِي ، وَلِذَا فَقَدْ أَغْلَقْتُ جَمِيعَ الْكُتُبِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مُفْتَحٍ لِجَمِيعِ الْعِيُونِ ، وَهُوَ كِتَابُ الطَّبِيعَةِ ، فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الرَّفِيعِ أُنْعَلُّ عِبَادَةَ صَانِعِهِ الْإِلَهِيِّ وَالْقِيَامَ بِشَعَائِرِهِ ، وَلَا يُعَذَّرُ أَحَدٌ عَلَى عَدَمِ الْقِرَاءَةِ فِيهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَخَاطِبُ النَّاسَ بِلُغَةٍ تَفْهَمُهَا جَمِيعُ الْأَذْهَانِ ، وَإِذَا مَا وَلِدْتُ فِي جَزِيرَةٍ قَفَرٍ ، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ نَظْرِي قَطُّ عَلَى إِنْسَانٍ آخَرَ غَيْرِي ، وَإِذَا لَمْ أَعْلَمْ قَطُّ مَا حَدَّثَ قَدِيماً فِي زَاوِيَةٍ مَا مِنَ الْعَالَمِ ، وَإِذَا مَا أَعْمَلْتُ عَقْلِي ، وَإِذَا مَا تَعَهَّدْتُ ، وَإِذَا مَا أَحْسَنْتُ اسْتِعْمَالَ الْمَوَاهِبِ الْمُبَاشِرَةِ الَّتِي أَنْعَمَ الرَّبُّ بِهَا عَلَيَّ ، تَعَلَّمْتُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي أَنْ

أَعْرِفَهُ ، وَأَنْ أَحِبَّهُ ، وَأَنْ أَحِبَّ أَعْمَالَهُ ، وَأَنْ أُرِيدَ الْخَيْرَ الَّذِي يَرِيدُ ،
وَأَنْ أَقُومَ بِجَمِيعِ وَاجِبَاتِي فِي الْأَرْضِ نَيْلًا لِرِضَاهُ ، وَمَا يُمَكِّنُ جَمِيعَ عِلْمِ
النَّاسِ أَنْ يُعَلِّمَنِي أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؟

« وَأَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْوَحْيِ فَإِذَا مَا كُنْتُ أَحْسَنَ بَرَهَةً وَأَصْلَحَ مَعْرِفَةً
فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ أَشْعُرَ بِحَقِيقَتِهِ ، وَبِنَفْعِهِ لِمَنْ كُتِبَتْ لَهُمْ سَعَادَةُ قَبُولِهِ ،
وَلَكِنِّي إِذَا مَا أَبْصَرْتُ أَدَلَّةَ مَلَائِكَةٍ لَهُ لَا أَسْتَطِيعُ مَكَافَحَتَهَا فَإِنِّي أَرَى
ضِدَّهُ أَيْضًا عِطْرَاتٍ لَا أَسْتَطِيعُ حَلَّهَا ، وَتُوجَدُ بُرَاهِينُ مُتَبَيَّنَةٌ مُوَافِقَةٌ
وَمُخَالَفَةٌ لَا أَعْرِفُ إِلَى أَيِّهَا أَنْحَازُ فَلَا أَعْتَرِفُ بِهِ وَلَا أَرْفِضُهُ ، وَلَكِنِّ الَّذِي
أَرْفِضُ هُوَ الْإِثْرَامُ بِقَبُولِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْإِثْرَامَ الْمَزْعُومَ مُنَافٍ لِمَدَلِّ
الرَّبِّ ، بَعِيدٌ مِنْ رَفْعِ مَوَانِعِ النِّجَاحِ ، مُكَثِّرٌ لَهَا جَاعِلٌ إِيَّاهَا مَنِعَةً لَدَى
مُعْظَمِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ، وَإِذَا عَدَوْتُ هَذَا وَجَدْتَنِي مُرْتَابًا ارْتِيَابَ تَوْقِيرِ
عِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ ، وَلَيْسَ لَدَيَّ مِنَ الْخِيَلَاءِ مَا أَطْغَنِي مَعَهُ مَعْصُومًا مِنْ
الْخَطَا ، وَقَدْ أُنْكَرْتُ أَنَا سَاءَ آخَرِينَ أَنْ يُقَرَّرُوا مَا يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ غَيْرُ مُقَرَّرٍ ،
فَأَنَا أُبْرِهِنُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِي ، لَا مِنْ أَجْلِهِمْ ، وَلَا أَلُومِهِمْ ، وَلَا أَقْلُدُهُمْ ،
وَقَدْ يَكُونُ حُكْمُهُمْ أَفْضَلَ مِنْ حُكْمِي ، وَلَكِنِّي لَا يَقَعُ الذَّنْبُ عَلَيَّ
فِي عَدَمِ مُوَافَقَةِ حُكْمِي لِحُكْمِهِمْ .

« وَأَعْتَرِفُ لَكُمْ ، أَيْضًا ، بِأَنِّي أُعْجَبُ بِجَلَالِ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَبِأَنَّ
قَدَاسَةَ الْإِنْجِيلِ تَخَاطَبُ فَوَادِي ، وَانْظُرُوا إِلَى كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ مَعَ جَمِيعِ
خَفَامَتِهَا تَرَوْا مَقْدَارَ تَصَاغُرِهَا بِجَانِبِ ذَلِكَ ، أَوَلَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ
أَحَدُ الْكُتُبِ رَفِيعًا بَسِيطًا مَعًا وَأَنْ يَكُونَ مِنْ وَضْعِ النَّاسِ ؟ أَوَلَيْسَ

من الممكن أن يكون ذلك الذى يشتمل على قصته هذا الكتابُ بَشَرًا ؟ وهل تلك اللهجةُ لهجةُ مُتَحَمِّسٍ أو متعصبٍ طَمُوح ؟ يا للرَّفَقِ والنِّقَاءِ فى أخلاقه ! ويا للطلاوة المؤثرة فى تعاليمه ! ويا للسُّمُوِّ فى أمثاله ! ويا للحكمة البالغة فى أقواله ! ويا لثبات الجنان والرقّة والسَّداد فى أجوبته ! ويا لسلطانه على أهوائه ! وأين الرجل ، وأين الحكيم ، الذى يَعْرِفُ أن يَسِيرَ وَيَأْتَمَ ويموت من غير ضَعْفٍ ولا افتخار ؟ عندما وَصَفَ أفلاطونُ رَجُلَهُ الصَّالِحَ الخياليَّ الذى غُمِرَ بكلِّ ما فى الجنابة من عارٍ ، والذى هو هو أهلٌ لكل جائزةٍ عن الفضيلة ، وَصَفَ يَسُوعَ وصفًا دقيقًا ، وقد بَلَغَ وجهُ الشَّبهِ بينهما ما شَعَرَ به جميعُ آباءِ الكنيسة وما يتعذَّرُ على الإنسان أن يُخَدِّعَ معه ، وأىُّ مُبْتَسِرٍ ، وأىُّ عَمَى ، لا يكون حتمًا فى الإقدام على المقارنة بين ابنِ سُفْرُونِسْكا وابنِ مريم ؟ ويا كَبُعدِ ما بينهما ! لقد سَهَّلَ على سُقْرَاطَ أن يحافظ على جلاله حتى النهاية فمات بلا ألمٍ ولا عارٍ ، ولو لم يُشَرِّفْ هذا الموتُ الهَيِّئُ حياته لساورت النفوسَ ظُنُونٌ بأن سقراطَ ليس غيرَ سُوفِسْطَايٍ مع ما كان عليه من عقل ، ويُروى أنه واضعُ علمِ الأخلاق ، وعلمُ الأخلاقِ ما طَبَّقَهُ آخرون قبله ، فهو لم يَصْنَعْ غيرَ قولٍ ما كانوا قد فَعَلُوا ، وهو لم يَصْنَعْ غيرَ صَوِّغِ أمثلتهم فى دروس ، وقد كان أَرِيسْتِيدُ عادلاً قبل أن يُحدِّثَ سقراطُ عن العدل ، وقد مات لِثُونِيدَاسُ فى سبيلِ بلده قبل أن يَجْعَلَ سقراطُ من حُبِّ الوطن واجبًا ، وقد كانت إسپارطة قانعةً قبل أن يُشَيِّخَ سقراطُ على القناعة ، وقد كانت بلاد اليونان زاهرةً بذوى الفضل قبل أن يُعرِّفَ سقراطُ

الفضيلة ، ولكن أين تَلَقَّى يسوعُ عند ذَوِيهِ تلك الأخلاقَ النقيةَ العاليةَ التي أَلْقَى وحدَه دروسَهَا وَمَثَلَهَا^(١) ؟ وَتُسَمِّعُ أَرْفَعُ الحكمةَ نَفْسَهَا في سواءِ التعصبِ الصائلِ وَتَمَجِّدُ بِسَاطَةِ أَقْرَبِ الفضائلِ إلى البطولةِ أَحقرَ الناسِ كُلِّهِمْ ، وَيُمَدُّ مَوْتُ سقراطَ ، وهو يَتَفَلَسَفُ هادئاً بين أصدقائه ، أَلُفَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرْغَبَ فِيهِ ، وَيُمَدُّ مَوْتُ يَسُوعَ ، وهو يَقْضِي أَجَلَهُ في الآلامِ بين الإهانةِ والسُّخْرِيَةِ واللَّعْنَةِ مِنْ قِبَلِ جميعِ الشعبِ ، أَفْطَحَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخْشَى ، وَتَنَاولَ سقراطُ كَأْسَ السُّمِّ شَاكِراً لِمَنْ قَدَّمَهَا إِلَيْهِ وهو يَبْكِي ، ودعا يسوعُ لَجَلَّادِيهِ الضَّوَارِي بَيْنَ نَكَالٍ هَائِلٍ ، أَجَلْنَ ، إِذَا كَانَ نَحِيّاً سقراطَ وَمَمَاتُهُ جَدِيرَيْنِ بِحُكْمِهِمْ فَإِنْ حَيَاةَ يَسُوعَ وَمَوْتَهُ خَلِيقَيْنِ يَالَهُ ، وَهَلْ نَقُولُ إِنْ قِصَّةَ الْإِنْجِيلِ مِنْ صُنْعِ الْخِيَالِ ؟ أَيْ صَدِيقِي ، لَا يَقَعُ الْإِخْتِلَاقُ هَكَذَا ، وَقَدْ كَانَتْ أَعْمَالُ سقراطَ التي لَا يَشْكُ فِيهَا أَحَدٌ أَقَلَّ مِنْ أَعْمَالِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مُشَاهِدَةً مِنْ قِبَلِ النَّاسِ ، وَفِي الْأَسَاسِ يَعْنِي هَذَا تَأْخِيراً لِلْمَشْكَلَةِ مِنْ غَيْرِ هَدْمٍ لَهَا ، وَيَكُونُ اتِّفَاقُ أَنَاسٍ كَثِيرٍ عَلَى إِخْتِلَاقِ ذَلِكَ الْكِتَابِ أَكْثَرَ عَدَمٍ تَصَوُّرٍ مِنْ أَنْ يُزَوِّدَ مَوْضُوعَهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا كَانَ مَوْفُوقِ الْيَهُودِ لِيَقْدِرُوا عَلَى إِيجَادِ مِثْلِ تِلْكَ اللَّهْجَةِ وَلَا ذَلِكَ الْأَدَبِ ، وَيَتَصَفَّ الْإِنْجِيلُ بِصِفَاتٍ بِالْفِعْلِ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَوَقْفٍ النَّظَرِ وَتَعَذُّرِ التَّقْلِيدِ مَا يَكُونُ مَعَهُ مُخْتَلِفُهُ أَدْعَى إِلَى الْعَجَبِ مِنْ بَطْلِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ هَذَا الْإِنْجِيلَ نَفْسَهُ مَجْلُودٌ بِأُمُورٍ لَا تُصَدَّقُ ، بِأُمُورٍ يَرْفُضُهَا الْعَقْلُ فَيَسْتَحِيلُ عَلَى

(١) انظر، في الموعظة التي ألقاها في الجبل، إل المقابلة التي وضعها بنفسه بين أدبه وأدب موسى

(إنجيل متى ، فصل ٥ ، فقرة ٢١ وما بعدها) .

كلّ ذى عقل أن يتصوّرَها وأن يقبلَها ، وما يُفعلُ بين جميع هذه التناقضات ؟ أن يكون الإنسان دائماً معتدلاً مُحْتَرِزاً يا بُنَيَّ ، فيحترم صامتاً ما لا يستطيع رَفْضَه ولا فَهْمَه وأن يتواضع أمام الموجود الأعظم الذى يعرف الحقيقة وحده .

« وذلك هو الشكُّ غيرُ الاختيارى الذى بقيتُ عنده ، بيدَ أن هذا الشكَّ لم يكن شاقاً علىَّ قطُّ ، وذلك لعدم امتداده إلى نقاط العمل الجوهرية ، ولأننى قَصَبْتُ فى أمر المبادئ حَوْلَ جميع واجباتى ، وأَعْبُدُ اللهَ ببساطة قلبى ، ولا أحاول معرفة غير ما يُهمُّ سلوكى ، وأما العقائد التى لا تؤثرُ فى الأعمال ولا فى الأخلاق والتى تُثَقِّلُ بال كثير من الناس فلا أبالى بها مطلقاً ، وأعدُّ جميع الأديان الخاصة نظماً نافعة تَأْمُرُ فى كلّ بلد بطرازٍ تَمُطِّيَّ واحدٍ فى تمجيد الربِّ بعبادة عامة ، ويُمكن أن تكون لها أسبابها فى الإقليم أو الحكومة أو عبقرية القوم أو فى عاملٍ محليٍّ آخرَ يَجْمَعُ أحدها أو لى من الآخر على حسب الأزمنة والأمكنة ، وأعتقد أنها كلّها صالحة إذا ما عُبِدَ اللهُ بها عبادةً لائقةً ، وعبادة القلب هى العبادة الجوهرية ، وما كان الله ليرفض طاعةً منهما كان الشكل الذى تقدّم به إذا ما كانت خالصة ، وإذا ما دُعيت إلى تعبد الكنيسة وفق الدين الذى أُعْلِنُ فإنى أتم فيها ما أُمِرْتُ به من عناية بكلِّ ما يُمكن من إتقان ، ويُوَثِّبُنِي ضميرى إذا ما قَصُرْتُ فى أىِّ شىء من ذلك قصداً ، وقد نلتُ ، كما تعلم ، بحظوة لدُنْ مَسِيو دوميلاريد ، وبعد منع كَنَسِيَّ طويل ، إجازةً باسترداد وظائفى مساعدةً لى على العيش ، وقديماً كنت أقوم بالقدّاس

(٣٦)

برشاقةٍ يُنتَفَعُ بها مع الوقت في الأمور المهمة إذا ما كُرِّرَتْ غالباً ، وما فتئتُ منذ مبادئ الجديدة أقومُ به مع أعظم تكريم ، وقد أُشِيعَتْ من جلال الكائن الأعلى ومن وجوده ومن تَقْصُ الذهن البشري الذي هو قليل الإدراك لِمَا يَتَعَلَّقُ بصانعه ، وإني ، إذ أراني حاملاً له أدعية الناس على شكلٍ مُقَرَّرٍ ، أَتَبِعُ جميعَ الطقوس بعناية ، وأَرْتَلُّ بانتباه ، وأسعى في عدم إهمال أقلِّ كلمةٍ ولا إغفال أيِّ من الشعائر ، ومتى حان وقتُ التقديس جمعتُ حواسي لأقوم به وَفْقَ جميع مراسيم الكنيسة وعظمة التقديس ، فأسعى في إلغاء عقلي أمام العقل الأعلى ، وأقول في نفسي : من أنت حتى تَقْيِسَ القدرة التي لا حَدَّ لها ؟ وَأَنْطِقَ مع الاحترام بكلمات السِّرِّ المُقَدَّس ، وأُعِيرُ عملها كلَّ ما يُمكن منحه من اعتماد ، ومهما يكن من أمرِ هذا السِّرِّ الذي لا يُدْرِك فإني لا أَخْشَى أن أُجَازَى يومَ الحساب على أننى امتهنتُهُ في فزادى .

« وقد شُرِّفْتُ بالكهنوت ، وإن كان ذلك في المرتبة الأخيرة ، فلا أَفْعَلُ شيئاً ، ولا أقول شيئاً ، يُمكن أن يجعلني غيرَ أهلٍ للقيام بواجباته العالية ، وسأعِظُ الناسَ بالفضيلة دائماً ، وسأَحَرِّضُهُمْ على فعل الخير دائماً ، وسأجعل نفسي قُدْوَةً لهم في ذلك ما استطعتُ ، وليس من شأنى أن أجعل الدينَ محبوباً لديهم ، وليس من شأنى أن أَثَبَّتَ إيمانهم في العقائد النافمة حقاً والتي يُلْزَمُ كلُّ إنسانٍ باعتقادها ، ولكن معاذَ الله أن أعِظَهم بعقيدة التعصب الجافية ، ولكن معاذَ الله أن أَحْمِلَهم على ازدراء جارهم ، وأن أقول

للآخرين : سَيُخْصَمُ عَلَيْكُمْ بِالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ ، وَلَا نَجَاةَ خَارِجَ الْكَنِيسَةِ^(١) ، ولو كنتُ في مرتبةٍ أَكْثَرَ امْتِيازاً لَأَمْكَنَ هَذَا التَّحْفِظَ أَنْ يَجْذِبَ إِلَى أُمُورٍ ، ولكنني من صِغَرِ الشَّانِ مَا لَا يُوجَدُ مَعَهُ مَا أَخْشَاهُ كَثِيراً ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ أَسْقُطَ إِلَى أَسْفَلٍ مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ مُطْلَقاً ، وَمَهْمَا يَحْدُثُ فَإِنِّي لَنْ أُجَدِّفَ عَلَى الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ ، وَلَنْ أَفْتَرِيَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُّوسِ .

« وَقَدْ رَغِبْتُ زَمَنًا طَوِيلًا فِي أَنْ أَنْالَ شَرَفَ نَصَبِي خُورِيًّا ، وَلَا أَزَالُ رَاغِبًا فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي عُدْتُ لَا أَمَلُ ذَلِكَ ، وَلَا أَجِدُ ، يَا صَدِيقَ الْعَزِيزِ ، مَا هُوَ أَجْمَلُ مِنْ مَنَصِبِ الْخُورِيِّ ، فَالْخُورِيُّ الصَّالِحُ هُوَ وَكِيلُ الْحِلْمِ كَمَا أَنَّ الْحَاكِمَ الصَّالِحَ وَكِيلُ الْعَدْلِ ، وَلَيْسَ لَدَى الْخُورِيِّ مِنْ شَرِّ يَصْنَعُ ، وَإِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ الْخَيْرَ بِنَفْسِهِ دَائِمًا فَإِنَّ التَّمَاثُلَ لَهُ يَكُونُ فِي مَحَلِّهِ ، وَهُوَ يَفُوزُ بِهِ غَالِبًا مَتَى عَرَفَ أَنْ يُحْتَرَمَ ، آه ! لَوْ كُنْتُ فِي جِبَالِنَا صَاحِبًا تَلَوُّرَنِيَّةً أَخَذِمُ رِجَالَهَا الصَّالِحِينَ لَكُنْتُ سَعِيدًا إِذَنْ ، وَذَلِكَ لِأَنِّي أَكُونُ ، كَمَا يَلُوحُ لِي ، سَبَبَ سَعَادَةِ سَاكِنِيهَا ، أَجَلْ ، إِنِّي لَا أَجْعَلُهُمْ أَغْنِيَاءَ ، وَلَكِنِّي أَشَاطِرُهُمْ فَقَرَمَ ، وَأَنْزِعُ مِنْهُمْ الْعَيْبَ وَالْأَزْدِرَاءَ الَّذِينَ هُمَا أَشَدُّ وَطْأً مِنَ الْعَوَزِ ، وَأُحِبُّ إِلَيْهِمُ الْإِتِّفَاقَ وَالْمَسَاوَاةَ الَّذِينَ يَطْرُدَانِ الْبُؤْسَ غَالِبًا وَيَجْعَلَانِهِ أَمْرًا مُحْتَمَلًا دَائِمًا ، وَمَتَى رَأَوْا أَنِّي لَا أَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، وَأَنِّي أَعِيشُ قَنُوعًا مَعَ ذَلِكَ ، تَعَلَّوْا أَنْ يَتَمَرَّزُوا عَنْ نَصِيهِهِمْ

(١) لَا يَدْخُلُ وَاجِبَ مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ لِدِينِ بَلَدِهِ وَاتِّبَاعِهِ هَذَا الدِّينَ نِطَاقَ الْعَقَائِدِ الْخَالِفَةِ لِحَسَنِ الْأَخْلَاقِ

كَدَمِ التَّسَامُحِ مِثْلًا ، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ الَّتِي تَسْلُحُ بِمَعْضِ النَّاسِ ضِدَّ بَعْضٍ وَيَجْعَلُهُمْ كَالْأَعْدَاءِ لِلْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ، وَكُلَّ تَفْرِيقٍ بَيْنَ التَّسَامُحِ الْمَذْنِيِّ وَالتَّسَامُحِ الْإِلَهِيِّ صَبِيانِي بَاطِلٍ ، فَلَا يُمْكِنُ فَصْلُ أَحَدِ هَذَيْنِ التَّسَامُحَيْنِ عَنِ الْآخَرِ ، وَلَا يُمْكِنُ قَبُولُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ، حَتَّى إِنْ الْمَلَائِكَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشُوا مَسَالِينَ لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَهُمْ أَعْدَاءَ لِلرَّبِّ .

وأن يعيشوا قُنْعًا مِثْلِي ، وأَكُونُ في تعاليمي أَقْلًا ارتباطًا في روح الكنيسة
 مما في روح الإنجيل حيث العقيدة بسيطةٌ والأدبُ رفيعٌ ، وحيث تَقَلُّ
 الطقوسُ الدينية وتَكْثُرُ أعمالُ التقوى ، وأَبْذُلُ جُهْدِي في القيام بما يَجِبُ
 أن يُعْمَلَ قبل أن أَعْلَمَهُمْ إياه ، وذلك لِيَرَوْا جيدًا أنني أَفْكَرُ في جميع
 ما أقول لهم ، ولو وُجِدَ في جوارى أو في خَوَرِ نَيْتِي بِرُوتِستانُ ما مِزْتُهُمْ
 من سكانها مطلقًا ، وذلك في كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِالْبِرِّ النصراني ، وأَحْمِلُهُمْ
 كذلك على التحابِّ وعلى عَدِّ أنفسهم إخوةً وعلى احترام جميع الأديان وعلى
 عَيْشِ كُلِّ واحدٍ منهم مطمئنًا في دينه ، وأرى أن تَرْغِيبَ الواحدِ في ترك
 الدين الذي وَلِدَ فيه ينطوي على ترغيبه في الإساءة ، ومن ثَمَّ في إساءة
 نفسه ، وَلِنَحْفَظُ على النظام العامَّ منتظرين بصائرَ أعظمَ مما اتَّفَقَ ، وَلِنَحْتَرَمَ
 القوانينَ في كُلِّ بلدٍ ، ولا نُكَدِّرُ صَفَوَ العبادة التي تأمُرُ بها ، ولا نَحْمِلُ
 المواطنين على العصيان مطلقًا ، وذلك لأننا لا نَعْلَمُ علمَ اليقين هل من الخير
 لهم أن يتركوا آراءهم مُتَحَوِّلِينَ إلى غيرها ، كما أننا نَعْرِفُ أن من المُحَقَّقِ
 وجودَ شَرٍّ في التمرُّد على القوانين .

« والآن يا صديقي الشابُّ قد سَرَدْتُ لك مجاهرًا عقيدتي كما يَقْرَؤُها
 الرَّبُّ في قلبي ، وأنت أولُ مَنْ صَنَعْتُ له ذلك ، وقد تَكُونُ الوحيدَ
 الذي أَصْنَعُ له ذلك ، وما لا يَجُوزُ مطلقًا ، ما بقي اعتقادٌ حسنٌ بيننا ،
 أن يُعَكَّرَ ذَوو النفوس الهادئة ، وأن يُكَدَّرَ إيمانُ البُسْطاء بِمِشَاكِلِ
 لا يستطيعون حلَّها فَتُفَلِّقُ بِالْهَمِّ من غير أن تُنِيرَهُمْ ، ولكن إذا ما ارْتَبَجَّ
 كُلُّ شَيْءٍ مَرَّةً وَجِبَ حِفْظُ السَّاقِ على حساب الأغصان ، ولا غَرَوْ ،

فإن الضائر المضطربة القلقة ، الخامدة تقريباً ، في الحال التي وجدتُ عليها ضميرك ، تحتاج إلى تقوية وإيقاظ ، ويجب ، لإعادة قيامها على أساس الحقائق الخالدة ، أن يَتِمَّ خَلْعُ الأركان المذبذبة التي لا تزال تَرى الاستمسك بها .

« وأنت في الدَّور الخَطِر من العُمُر حيث تَتَفَتَّحُ الروحُ لليقين ، وحيث يأخذ القلبُ شكله وطابعه ، وحيث يُقَرَّرُ لِمَدَى الحياة سلوكُ سبيل الخير أو سبيل الشرِّ ، ثم يَتَصَلَّبُ العنصرُ وتَعُودُ السَّمَاتُ الجديدة لا تؤثرُ أبداً ، فيا أيها الفَتَى ، تَلَقَّ في نَفْسِكَ ، المَرِنَةَ بَعْدُ ، طابَعِ الحقيقة ، ولو كنتُ أكثرَ ثِقَةً بِنَفْسِي لاتَّخَذْتُ معكَ طَوْرًا اعتقاديًّا حازمًا ، ولكني رجلٌ غافلٌ عُرضَةٌ للخطأ ، وما أستطيع أن أصنع ؟ لقد فتحتُ لك قلبي بلا تحفظ ، وحدَّثْتُكَ عما أراه صحيحاً كما هو ، وأُعرِبتُ لك عن شُكوكي كشكوكٍ ، وأُعرِبتُ لك عن آرائي كآراء ، وَبَيَّنْتُ لك أسبابَ شَكِّي واعتقادي ، والآن عليك أن تَحْكُمَ ، فقد استمهلتنِي ، وكان هذا احترازاً حكيماً جعلني أفكرَ فيكَ ، وابتدأ بوضْعِ ضميرك في حالٍ يُريدُ معها أن يُنَوَّرَ ، وكُنْ مخلصاً نحو نفسك ، وانتَهِجِلْ من آرائِي ما يُقْنِعُكَ واطْرَحِ البقية ، ولم تَبْلُغْ من الفساد بالغَيْبِ بَعْدُ ما تَقَعُ معه في خَطَرِ سوء الاختيار ، وأُفْتَرِحُ أن تتحدثَ في ذلك بيننا ، ولكنْ إذا ما وَقَعَ الجَدَلُ حَيَّ الوطيسُ ومَازِجُ الزهو والعنادُ ذلك ، وعاد حُسْنُ النية لا يكون ، ولا تَجَادِلْ ، يا صديقي ، مطلقاً ، وذلك لأن الإنسان لا يُنِيرُ نفسه ، ولا غيره ، بالجدال ، وأما أنا فلم أعِزْ إِلَّا بعد تفكيرِ سنينَ كثيرةٍ ، وأَقِفُ هناك مستريحَ الضميرِ هادئاً البال ، ولو أردتُ أن

أستأنف البحث في مشاعري ما انتهيتُ إلى حُبِّ الحقيقة أكثر صفاء ،
ويكون ذهني ، الذي غدا أقلَّ نشاطاً ، دون الحال الذي يَعْرِفُهَا فيه ، وأبقى
كما أنا عليه ، وذلك خشية أن يؤدي ذوق التأمل ، إذ يصيرُ هوى عاطلاً ،
إلى فتورى في ممارسة واجباتي ، وخشية الوقوع ثانية في شكى الأول من
غير أن أجِدَ قدرةً على الخروج منه ، وقد مضى أكثر من نصف حياتي ،
وعاد لا يكون لدى غير ما يجبُ من وقتٍ للانتفاع ببقية حياتي ، ولأخو
خطيئتي بفضائي ، وإذا ما خُدِعتُ كان هذا على الرغم مني ، ومن يقرأ
ما في صميم فؤادي يعلم جيداً أنني لا أحبُّ عمى ، والحياة الصالحة هي
الوسيلة الوحيدة التي بقيت لي للخروج من العمى عند العجز عن الخلاص
منه ببصائري الخاصة ، وإذا كان الربُّ قادراً على إخراج أولادٍ لإبراهيم
حتى من الحجارة حقاً لكل إنسانٍ أن يَرْجُو إنارته عند ما يَجْمَلُ نفسه
أهلاً لها .

« وإذا ما ساقتك تأملاتي إلى التفكير كما أفكر ، وإذا كنت
تشاطرنى مشاعري ، وإذا كان كلُّ منا يَجْهَرُ بذات العقيدة ، فإليك
نصيحتي : لا تُعرِّض حياتك ، بعدُ ، لمتنازع البؤس واليأس ، ولا
تَقْضِها ، بعدُ ، في العار تحت رحمة الغرباء ، وامتنع عن أكل خبز
الصدقة الحثير ، وارْجِعْ إلى وطنك ، وعُدْ إلى دين آبائك ، واتَّبِعْ بقلبك
مُخلص ، ولا تَرْتَدَّ عنه أبداً ، فهو بسيطٌ جداً ، وهو مُقدَّسٌ جداً ،
ولا أرى بين أديان الأرض ما هو أنقى منه أدباً ، ولا ما هو لدى العقل
أكثر منه قبولاً ، وأما نفقاتُ السَّفر فلا تُفَكِّرْ فيها ، فستُدبِر ، وكذلك

لا تَخْشَ حياءَ زائفاً من عَوْدِ مُزِرٍ ، فيجب أن يُجْعَلَ من اقتفافِ
ذَنْبٍ ، لا من إصلاحه ، وأنت لا تزال في دَوْرِ من العُمُرِ يُفْقَرُ فيه كلُّ
شئٍ ، ولكن مع العقاب على كلِّ ما يُرْتَكَبُ فيه ، وإذا ما أردتُ أن
تُنْصِتَ لضميرك زال ألفٌ من الموانع الباطلة عند صوته ، وستَشْعُرُ في دور
الشكِّ الذى نحن فيه بأن من الافتراض الذى لا يُعْتَقَرُ أن يُجْهَرَ بدينٍ
آخرَ غيرِ الذى يُولَدُ المرءُ فيه ، وبأن من البهتان ألا يمارس المرءُ
بإخلاصٍ ديناً يُجْهَرُ به ، وهو إذا ما كانت له معذرةٌ كبيرة أمام محكمة
القاضى العَلِيِّ ، أفلا يَمُوتُ هذا القاضى عن سيئةٍ وَلَدَ معها الإنسانُ أَكْثَرَ
من عفوهِ عن سيئةٍ جَرَّؤُ على اختيارها ؟

« واجْمَلْ نَفْسَكَ ، يا بُنَى ، في حالٍ تَبْتَغِي فيها ، دائماً ، وجودَ
ربٍّ واحدٍ ، فلا تَشْكُ فيه أبداً ، ثم مهما يكن من قرارٍ يُمَكِّنُكَ
أن تتخذَ اذْكُرْ. أن واجباتِ الدينِ الحقيقيةِ مستقلةٌ عن تعاليمِ الناسِ ،
وأن القلبَ الصادقَ هو هيكَلُ الرَّبِّ الحَقِيقِ ، وأن محبةَ الله تفضيلاً على
كلِّ شئٍ ، ومحبةَ القريبِ كمحبةِ النفسِ ، هما خلاصةُ الشريعةِ في كلِّ
بلدٍ وَنَحْلَةٍ ، وأنه لا يُوجَدُ دينٌ يُعْنِي من الواجباتِ الأدبيةِ ، وأنه لا يُوجَدُ
غيرُ هذه الواجباتِ ما هو جوهرى حقاً ، وأن العبادةَ الباطنيةَ هى أولى
هذه الواجباتِ ، وأنه لا فضيلةَ حقيقيةً بلا إيمان .

« واجْتَنِبْ أولئك الذين يتذرَّعون بإيضاحِ الطبيعةِ فيبْذُرُون في قلوبِ
الناسِ مذاهبَ مُكَدَّرَةٍ ، يَبْذُرُون مذاهبَ يَمُدُّ شَكْها الظاهرُ إيجابياً
اعتقادياً أَكْثَرَ من لهجةِ خصومهم الجازمةِ ، وهم إذ يَتَمَسَّكُونَ بذريعةِ

قائمة على العطرسة قائله إنهم وحدهم ذوو بصائرٍ وحقٍ وحسنٍ نيةٍ فإنهم يُخضعوننا لأحكامهم القاطعة بصلفٍ ، ويزعمون أنهم يمتحنوننا ، كبادئٍ حقيقيه عن الأشياء ، نظماً لا تفهم أقاموها في خيالهم ، ومع ذلك فإنهم ، إذ يقبلون جميع ما يحترم الناس رأساً على عقب ويُقوّضونه ويدوسونه ، فإنهم يترعون من المكرويين آخر سلوانٍ عن بؤسهم ، ومن الأقوياء والأغنياء زاجر أهوائهم الوحيد ، ويستأصلون من القلوب ندمها على الإجرام وأملها في الفضيلة ، ثم يفاخرون بأنهم محسنون للجنس البشري ، وهم يقولون إن الحقيقة غير ضارّة بالناس مطلقاً ، وأعتقد هذا كما يعتقدون ، وأرى أن هذا دليلٌ كبيرٌ على أن الحقيقة ليست ما يُعلمون^(١) .

(١) يبلغ الفريقان من التناول بكثير من السفطات ما يصعب معه كثيراً معالجة جميع ما يذهبان إليه ، وهيات أن يقيد بعض ذلك كلها ظهر ، ومن أكثر ما اعتاده الفريق المتفلسف أن يقابل بين قوم من الفلاسفة الصالحين كما يفترض وقوم من النصارى الطالحين ، كأن صنع قوم من الفلاسفة الصادقين أسهل من صنع قوم من النصارى الصادقين ! ولا أدري هل يسهل عليك أن تجد بين الأفراد أحد الرجاين أكثر ما يسهل عليك أن تجد الرجل الآخر ، وإنما أعرف جيداً أنه يجب ، عندما تكون الأقوام موضوع بحث ، افتراض وجود من يسيئون استعمال الفلسفة بلا دين ، كما يسمى أهلونا استعمال الدين بلا فلسفة ، وهذا ينطوي على تغيير كبير في حال السؤال .

وقد أجاد بيل في إثباته أن التعصب أشد ضرراً من الإلحاد بمراحل ، وهذا أمر لا جدال فيه ، وإنما الذى لم يتفضل بقوله ، مع أنه ليس أقل حقيقة ، هو أن التعصب ، وإن كان سفاكاً للدماء طاعياً ، هو عظيم قوى مع ذلك ، هو يرفع قلب الإنسان ويحمله على ازدياد الموت ، هو يحرك عجب له ، هو يجب حسن توجيهه لاستخراج أعلى الفضائل منه ، وذلك بدلا مما ينشبه الإلحاد ، والروح الفلسفى المبرهن على المصدم ، في الحياة فيخت النغوس ويحبطها ، ويجمع جميع الأهواء ضمن ذلّة المصلحة الخاصة وفى ذلّة الأناية البشرية ، وهكذا فإنه يقوض ، مع قليل ضوضاء ، دعائم كل مجتمع ، وذلك لأن ما بين المصالح الخاصة من اشتراك هو من الصّالة ما لا يوازن المصالح المتعاقبة .

« ويا أيها الفتى الصالح ، كُنْ مخلصاً صادقاً خالياً من الخيلاء ، واعْرِفْ »

= وإذا كان الإلحاد لا يؤدي إلى سفك دماء الناس فذلك عن عدم اكتراث للخير أكثر مما عن حب للسلام ، كما لو كان الحكيم المزعوم غير مبال بما يقع على أن يبقى مستريحاً في غرفته ، أجل ، إن مبادئه لا تقتل الناس ، ولكنها تحول دون ولادتهم بتقويضها الأخلاق التي توجب تناسلهم ، وبفصلهم عن نوعهم ، وبرد جميع عواطفهم إلى أثره خفية شؤم على الأهلين كشوئها على الفضيلة ، ويشابه عدم الاكتراث الفيلسوف هدوء الدولة في عهد الاستبداد ، وهو سكون الموت ، وهو أكثر تخريباً من الحرب نفسها .

وهكذا فإن التعصب ، وإن كان أكثر شؤماً بنتائجه المباشرة مما يدعى اليوم بالروح الفلسفية ، أقل شؤماً بنتائجه البعيدة ، ثم إن من السهل عرض مبادئ رائدة في الكتب ، ولكن المسئلة تدور حول حسن ملائمتها للمذهب ، وحول صدورها عنه حتماً ، وهذا الذي لم يظهر واضحاً حتى الآن ، وبقي علينا أن نعرف هل الفلسفة ، وهي في سرها وعلى عرشها ، مهيمنة على زهو الإنسان وغرضه وطعمه وأهوائه الحقيقية ، وهل تطبق تلك الإنسانية البالغة العذوبة التي تباهى بها والقلم في اليد :

ولا تستطيع الفلسفة مبدأ أن تصنع أي خير لا يصنع الدين ما هو أروع منه ، ويصنع الدين من الخير ما هو أكثر مما تستطيع الفلسفة صنعه .

والأمر غير ذلك عملاً ، ولكن لا بد من التنحيص ، ولا أحد يتبع دينه في كل أمر عندما يكون له دين واحد ، وهذا صحيح ، وليس لمعظم الناس دين مطلقاً ، ولا يتبعونه ما لديهم مطلقاً ، وهذا صحيح أيضاً ، ولكن يوجد لبعض الناس دين ، ويتبعونه بعض الاتباع على الأقل ، وما لا ريب فيه وجود بواعث للدين تمنع من فعل الشر غالباً ، وتظفر منهم بفضائل وأعمال حميدة ما كانت لتحدث لولا هي .

ولينكر راهب إحدى البوائع ، فما يعقب ذلك غير عد الذي أودعه إياها من المجانين ؟ وإذا كان بسكال هو الذي أنكرها عد هذا دليلاً على أن بسكال من المداحين ، ولكن الراهب ! . . . وهل الذين يتاجرون بالدين عندهم دين إذن ؟ إن جميع الجرائم التي تقع بين الإكليروس ، كما تقع عند غيرهم ، لا تثبت كون الدين غير نافع مطلقاً ، وإنما تثبت كون الذين هم أصحاب دين قليلين .

ولا مراء في أن حكومتنا الحديثة مدينة للنصرانية بسلطانها المتين وقلة ثوراتها ، وقد جعلتها النصرانية أقل سفكاً للدماء ، ويثبت هذا فعلا عند المقابلة بينها وبين الحكومات القديمة ، فالدين ؛ إذ أحسنت معرفته ، أقصى التعصب ومنح الأخلاق النصرانية حلماً كبيراً ، وليس هذا التحول وليد الآداب ، وذلك لأن احترام الإنسانية لم يزد حيث ازدهرت الآداب ، وذلك كما تدل عليه قسوة الأثنيين والمصريين وأباطرة رومة والصينيين ، ويا لأعمال الرحمة التي هي من فعل الإنجيل ! وما أكثر ما يؤدي إليه الإنجيل من إصلاح وتصحيح واعتراف بين الكاثوليك ! وما أكثر ما يؤدي إليه اقتراب أوقات تناول القربان من مصالحت وإعطاء صدقات ! وما أكثر ما جعلت سنة الأبرار لدى العبريين فريق الناصيين أقل طمعا ! وما أكثر =

كيف تكون غافلاً ، أى لا تُخادع نفسك ولا الآخرين ، وإذا كانت مواهبك من الثقافة ما تخاطب معه الناس فلا تُكَلِّمهم إلا وفق ضميرك ومن غير التفاتٍ إلى هُتافهم لك ، ويؤدَّى سواه استعمال المعرفة إلى عدم الاعتقاد ، ويزدري كلُّ عالمٍ رأى العوامَ ، ويريدُ كلُّ عالمٍ أن يكون ذا رأى خاصٍّ ، وتَسْوُقُ الفلسفةُ المتعاطمة إلى التعصب ، واجْتَنِبْ هذه الحدودَ النهائية ،

= ما حالت دونه من يؤس ! إن الإخاء الشرعى يوجد بين جميع القوم فلا يوجد عندهم متسول ، وكذلك لا يوجد متسولون بين الترك حيث لا يحصى ما عندهم من الأوقاف الخيرية ، وهم مضاييق عن مبدأ ديني ، حتى نحرا أعداء دينهم .

وروى شاردان : « أن المسلمين يقولون إن جميع الأجسام بعد الحساب الذى يعقب البعث العام تمر على جسر يسمى الصراط قائم على النار الأبدية ، على جسر يمكن تسميته ، كما يقولون ، بالحساب الثالث والأخير وبالحساب الحقيقى النهائى ، وذلك لأن عليه يفصل الأخيار من الأشرار . . . إلخ » .

ويقول شاردان مواصلاً : « والفرس مفتونون بهذا الجسر كثيراً ، ففى لحقت بالواحد منهم إهانة لا يستطيع غسلها بأية وسيلة كانت وفى أى وقت كان وجد آخر عزاه له بقوله : « حسناً ! والحق القيوم ، إنك ستدفع لى ثمن ذلك مضاعفاً يوم الحساب ، ولن تمر على الصراط قبل أن ترضينى مقدماً ، وسأنتلق فى طرف ثوبك وسأطرح نفسى على ساقيك » ، وقد شاهدت وجهاء كثيرين من كل مهنة يخشون أن يصرخ بهم حين مروهم فوق هذا الجسر المائل على هذا الوجه فيلتمسون العفو من يتوجهون منهم ، وقد لاقيت مثل هذا بنفسى مئة مرة ، وذلك أن أناساً من ذوى المكانة كانوا إذا ما حلوفى مع الإزعاج على القيام بأعمال لا أريدها اقتربوا منى بعد مرور وقت يكتفى لزوال ألمى وقالوا لى : « دع هذا الأمر يكون شريعاً حقاً » ، حتى إن بعضهم قدم إلى هدايا وقام نحوى بخدم ، وذلك لأعفوه عنه معلناً أن عفوى هذا وقع عن رضا ، وما يكون سبب هذا غير الاعتقاد بأن جسر جهنم لا يجاوز قبل أن يدفع أقصى تمويض إلى المظلوم ؟ » ، (جزء ٧ ، صفحة ٥٠) .

وهل أعتقد أن مبدأ هذا الجسر الذى يحسب كثيراً من الآثام لا يمنع وقوعها ؟ وإذا ما نزع من الفرس هذا المبدأ بإقتناعهم أنه لا يوجد صراط ولا ما يماثله حيث ينتقم المظلومين من ظالمهم بعد الموت أفلا يكون من الواضح زوال مخاوف هؤلاء الظالمين بذلك مع خلاص لهم من كل جهد فى تطييب خواطر أولئك التعمساء ؟ ولذا فإن من الضلال أن يقال إن هذا المبدأ ضار ، ولولم يكن صحيحاً .

أجل ، إن قوانينك الخلقية رائعة جداً أيها الفيلسوف ، ولكن تفضل فدلى على مؤيد لها ، وكف

والزَمَ طريقَ الحقيقةِ دائماً ، أو ما يَبْدُو لك هكذا ضِمنَ بساطةِ قلبك ،
وذلك من غير أن تتحول عن ذلك عن زهوٍ أو ضَعْفٍ مطلقاً ، واجهَرُ
بالإيمان بالله أمام الفلاسفة ، واجهَرُ بوعظ المتعصبين بالإنسانية ، ومن المحتمل
أن تَبْقَى وحدك ، ولكنك ستَحْمِلُ في نفسك شاهداً يُفْنِيكَ عن شهود
الناس ، وليس من المهم أن يُحِبُّوك أو يَكْرَهُوك ، وأن يَقْرَءوا ما تكتب
أو يَزِدُّروه ، وقُل الحقَّ وافْعَل الخيرَ ، فالذى يُهْمُ الإنسان هو أن يقوم
بواجباته في العالم ، والإنسارُ إذا ما نَسِيَ نفسه عَمِلَ في سبيل نفسه ،
والمصلحةُ الخاصةُ تَحْدَعُنَا يا بُنَيَّ ، وأملُ الصالح وحده هو الذى لا يَحْدَعُ
مطلقاً » .

• • •

لقد نقلتُ تلك الوثيقة لا كقاعدةٍ عن المشاعر التى يَجِبُ اتباعُها في
موضوع الدين ، بل كمثالٍ عن الموضوع الذى يُمكن البرَهَنَةُ حوله مع
تلميذى لكيلا أبتعدَ عن المنهاج الذى حاولتُ إقامته ، ولا تستطيع بصائرُ
العقل أن تأتى بنا ضِمنَ نظام الطبيعة إلى ما هو أبعدُ من الدين الطبيعى
ما دام لم يُذْعَنُ بشيء لسلطان الناس ولا لُمُبْتَسَرَاتِ البلد الذى يُولَدُ فيه ،
وهذا ما أَقْتَصِرُ عليه مع إميل ، وإذا ما وجب اعتناقه ديناً آخرَ عُدْتُ
غيرَ ذى حقٍّ فى أن أكون دليلاً له فى ذلك ، فعليه وحده أن يختاره .
ونَعْمَلُ متفقين مع الطبيعة ، وَبَيْنَا تُكَوِّنُ الطبيعةُ الرجلَ الطبيعى
نحاولُ تكوينَ الإنسان الأدبى ، بيد أن تقدُّمنا ليس واحداً ، وذلك أن
الجسم أصبح عُضْلِيّاً قوياً على حين لا يزال الروح واهناً ضعيفاً ، ومهما

يَسْتَطِيعُ الْفَنُّ الْبَشَرِيُّ أَنْ يَصْنَعَ فَإِنْ الْمَزَاجُ يَسْبِقُ الْعَقْلَ دَائِمًا ، وَقَدْ بَدَّلْنَا
جَمِيعَ جُهْدِنَا حَتَّى الْآنَ فِي ضَبْطِ أَحَدِهَا وَنَشِيطِ الْآخَرِ وَصَوْلًا إِلَى جَعْلِ
الْإِنْسَانِ وَاحِدًا مَا أُمْكَّنَ ، وَنَحْنُ حِينَ أَنْمِينَا الْجِيلَ ضَبَطْنَا حَسَّاسِيَّتَهُ
الْناشِئَةَ وَنَظَّمْنَاهَا بِتَمَهُّدِنَا الْعَقْلَ ، وَكَانَتْ أُمُورُ الْعَقْلِ تُعَدِّلُ انْطِبَاعَ أُمُورِ
الْإِحْسَاسِ ، وَنَحْنُ إِذْ رَجَعْنَا إِلَى أَصْلِ الْأَشْيَاءِ أَنْقَذْنَاهُ مِنْ سُلْطَانِ الْحَوَاسِّ ،
فَكَانَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يُرْفَعَ مِنَ دَرَاةِ الطَّبِيعَةِ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ صَانِعِهَا .

وَيَا لِلْسَّبُلِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَكُونُ لَنَا عَلَى تَلْمِذِنَا ، وَيَا لِلْوَسَائِلِ الْحَدِيثَةِ
الَّتِي تُخَاطَبُ بِهَا فُؤَادَهُ ، عِنْدَمَا نَنْتَهِي إِلَى هُنَاكَ ! وَهَنَّاكَ فَقَطْ يَجِدُ مَصْلَحَتَهُ
الْحَقِيقِيَّةَ فِي صَلَاحِهِ وَفِي عَمَلِ الْخَيْرِ بَعِيدًا مِنْ أَنْظَارِ النَّاسِ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تُكْرِهَهُ
عَلَيْهِ الْقَوَانِينُ وَفِي كَوْنِهِ بَارًّا بَيْنَ اللَّهِ وَنَفْسِهِ ، وَفِي قِيَامِهِ بِوَاجِبِهِ حَتَّى عَلَى
حِسَابِ حَيَاتِهِ ، وَفِي حَمَلِهِ الْفَضِيلَةَ فِي قَلْبِهِ ، لَيْسَ ، فَقَطْ ، عَنْ حُبِّ النِّظَامِ
الَّذِي يُفَضَّلُ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ حُبَّ نَفْسِهِ دَائِمًا ، بَلْ عَنْ حُبِّ صَانِعِ
وَجُودِهِ ، عَنْ هَذَا الْحُبِّ الَّذِي يَخْتَلِطُ بِحُبِّ النَّفْسِ ذَاكَ ، وَذَلِكَ لِلتَّمَتُّعِ
أَخِيرًا بِالسَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي تَعِدُّهُ بِهَا رَاحَةُ الضَّمِيرِ وَالتَّأْمُلُ فِي ذَلِكَ الْمَوْجُودِ
الْأَعْلَى ، وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الْآخَرَى ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْتَنْفَدَ هَذِهِ الْحَيَاةَ
تَمَامًا ، وَإِذَا عَدَوْتَ ذَاكَ عُدْتُ لَا أَرَى غَيْرَ الْجَوْرِ وَالرِّثَاءِ وَالْكَذِبِ
بَيْنَ النَّاسِ ، وَتَعَلَّمُ الْمَصْلَحَةَ الْخَاصَّةُ الَّتِي تَقُورُ ، عِنْدَ الْمَرَاحَةِ ، عَلَى كُلِّ
مَا سِوَاهَا بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُلْبِسَ الرِّذِيلَةَ قِنَاعَ
الْفَضِيلَةِ ، وَلِيَصْنَعَ مَنْ سِوَايَ مِنَ النَّاسِ مَا فِيهِ خَيْرٌ عَلَى حِسَابِ مَنَفْعَتِهِمْ ،
وَلِيُسَمِّ زِمَامُ كُلِّ أَمْرٍ إِلَى وَحْدَى ، وَلِيَهْلِكَ جَمِيعُ الْغِنْسِ الْبَشَرِيِّ أَلْمَا

وبؤساً عند الاقتضاء حِفْظاً لى من الألم والجوع ساعةً ، فهذا هو اللسانُ
الباطنيُّ عند كلِّ مُلحدٍ يأتي بالبراهين ، أَجَلْ ، إني سأعُدُّ من الكاذبين
أو المجانين ، مادمتُ حيّاً ، كلٌّ من يقول في قلبه « لا يُوجدُ إلهٌ مطلقاً » ،
على حينَ يَجْهَرُ بغير هذا .

ويا أيها القارئُ ، عبثاً أحاول ، فما أشعرُ به جيداً أننا ، أنا وأنت ، لن نرى
إميلَ متصفاً بذات الخصاص ، فانت تَتَمَثَّلُ إميلَ مماثلاً لِفَتِيانِكَ دائماً ، أنت
تتمثله ، على الدوام ، طائشاً أشرّاً قلوباً تائهاً بين حَفَلَةٍ وأخرى ، وبين لَهْوٍ
وآخر ، عاجزاً عن الاستقرار على حالٍ مطلقاً ، وستضحك إذ تراني أجعلُ
متاملاً فيلسوفاً ولاهوتياً حقيقياً من شابٍ أجوجٍ نَزِقٍ غَضُوبٍ هائجٍ في أشدِّ
أدوار الحياة غَلِياناً ، وستقولون إن هذا الحالمَ يَتَّبِعُ وهمه دائماً ، وإنه ،
إذ يعطينا تلميذاً على شاكلته ، لا يُنشئه فقط ، بل يخلقه ويُخرجه من
دماغه ، وإنه إذ يَعْتَقِدُ اتِّبَاعَهُ الطبيعة دائماً ، يبتعد عنها في كلِّ دقيقة ،
وأما أنا فإني ، إذ أقابل بين تلميذى وتلاميذك ، لا أكاد أجِدُ ما يُمكن
أن يكون مشتركاً بينهما ، وإذ نُشِئُ تلميذى على خلاف ما نُشِئُوا فإن
من المعجزة أن يشابههما في بعض الأمور ، وبما أنه قَضَى صباه في مثل
الحرية التي يتخذونها في شبابه فإنه يَبْدَأُ في شبابه باتخاذ القاعدة التي
حُمِّلُوا على الخضوع لها وهم أولادٌ ، وتُصبح هذه القاعدةُ بلاءهم ، ويمعدونها
موضعَ مَقْتٍ لهم ، ولا يَرَوْنَ فيها غيرَ طغيانٍ للسادَةِ مَدِيدٍ ، وَيَظُنُّونَ
أنهم لا يَخْرُجون من دَوْرِ الصبا إلَّا بإلقاء كلِّ نِيرٍ عنهم ^(١) ، وهنالك

(١) لا نجد أحداً ينظر إلى دور الصبا بازدياد كبير كالذين يخرجون منه ، كما أنك لا تجد بلداً =

يَعْوِضُونَ أَنفُسَهُمْ مِنَ الضَّغْطِ الطَّوِيلِ الَّذِي أُمْسِكُوا فِيهِ ، وَذَلِكَ كَالسَّجِينِ الَّذِي يَنْجُو مِنَ الْقَيْدِ قَيْمِدُ أَعْضَاءِهِ وَيُحَرِّكُهَا وَيُنْهِنُهَا .

وعلى العكس يفتخر إميلُ بأن يصير رجلاً وبأن يُخَضِّعَ نَفْسَهُ لِنِيرِ الْعَقْلِ النَّاشِئِ ، وَقَدْ عَادَ بَدَنُهُ الَّذِي تَكُونُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى عَيْنِ الْحَرَكَاتِ ، فَأَخَذَ يَقِفُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ، عَلَى حِينٍ يَحَاوِلُ رَوْحَهُ نِصْفُ النَّامِي أَنْ يَنْهَضَ بِدَوْرِهِ ، وَهَكَذَا لَيْسَتْ سِنَّ الْعَقْلِ لَدَى أَنْاسٍ غَيْرِ سِنَّ الْإِبَاحَةِ ، وَهِيَ تَكُونُ سِنَّ التَّعْقِلِ لَدَى الْآخَرِ .

وَهَلْ تَرِيدُونَ أَنْ تَعْرِفُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَقْرَبُ إِلَى نِظَامِ الطَّبِيعَةِ ؟ انْظُرُوا إِلَى الْفُرُوقِ بَيْنِ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ بَعِيدُونَ مِنْهَا بَعْضَ الْبَعْدِ ، وَلاَحِظُوا الْفَتَيَانَ عِنْدَ الْقَرَوِيِّينَ ، وَرَوْا هَلْ هُمْ بِطُرُونِ كِفَتِيَانِكُمْ ، قَالَ مَسِيو لُوبُو : « يُرَى الْهَمَجُ دَائِمِي النَّشَاطِ فِي دَوْرِ الصَّبَا مُبَاشِرِينَ ، بَلَا انْقِطَاعٍ ، أَلْعَابًا مُخْتَلِفَةً تُحَرِّكُ أَبْدَانَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يَنْبَلُغُونَ سِنَّ الْمَرَاهِقَةِ حَتَّى يَفْدُوا هَادِثِينَ حَالِينَ ، ثُمَّ يَعُودُونَ لَا يَتَعَاطَوْنَ غَيْرَ الْأَلْعَابِ الْجَدِيدَةِ أَوْ الْقَهَارِ^(١) ، وَبِمَا أَنَّ إِمِيلَ قَدْ نَشَأَ بِكُلِّ مَا عِنْدَ فَتَيَانِ الْفَلَاحِينَ وَفَتَيَانِ الْهَمَجِ مِنْ حَرِيَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُغَيَّرَ وَيَقِفَ مِثْلَهُمْ إِذَا مَا كَبِرَ ، وَكُلُّ الْفَرَقِ فِي أَنَّهُ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَسِيرَ مِنْ أَجْلِ اللَّعِبِ وَمِنْ أَجْلِ الْغِذَاءِ حَصْرًا ، تَعَلَّمَ التَّفَكِيرَ فِي أَعْمَالِهِ وَفِي أَلْعَابِهِ ، وَأَمَّا وَقَدْ انْتَهَى إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ إِذَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ مُسْتَعِدًّا كُلَّ الاستعدادِ لِمَا أَدْخَلَهُ إِلَيْهِ ، وَمَا أُعْرِضَ عَلَيْهِ

= تحفظ فيه المراتب مع كثير من التكلف أشد مما في البلاد التي لا يكون التفاوت فيها عظيماً والتي يخشى كل واحد فيها ، دائماً ، أن يختلط بمن هم أدنى منه .

(١) مغامرات مسيولوير ، المحامي لدى البرلمان ، جزء ٢ ، صفحة ٧٠ .

من موضوعات تأملٍ يُبَيِّرُ فَضُولَهُ ، وذلك لِرَوْعة هذه الموضوعات بنفسها ،
ولكاملِ جِدَّتِهَا بالنسبة إليه ، ولأنه في حالٍ يستطيع أن يُدركها معه ، وأما
تلاميذُكم فهم ، على العكس ، إذ كانوا مَلُوبِينَ مُثْقَلِينَ بدروسكم التافهة -
وبعلوم أخلاقكم المطوّلة وبتعاليمكم النصرانية الدائمة فكيف لا يَأْبُون
أن يُعَيِّرُوا ذَهَنَهُم الذى جُعِلَ كَثِيباً من المبادئ الثقيلة التى ما انفكوا
يُرْهَقُونَ بها ومن التأملات خَوْلَ صانع وجودهم الذى جُعِلَ منه عدوٌ مَلَاذُهُمْ ؟
ولم يُوحِ إليهم جميعُ هذا غيرَ النفور والكراهية والسَّام ، وقد صَدَّهم
القَسْرُ عنه ، ولمَ يُكْرَسُونَ أنفسهم له في وقت يأخذون في الاختيار لها ؟
لا بُدَّ من جديدٍ لهم حتى يُمَكِّنَ الوقوعُ عندهم موقعَ الرضا ، وعاد
لا ينبغي أن يُكْرَّرَ لهم ما يقال للأولاد ، والأمرُ هكذا نحو تلميذى الذى
إذا ما صار رجلاً كَلَّمْتُهُ مثلَ رجلٍ ولم أَقُلْ له غيرَ أشياء جديدةٍ ، نحو
تلميذى الذى يجب أن يَجِدَّهَا ملائمةً لذوقه عن كونها تُورِث الآخزين
مَلَالاً .

ومن ثَمَّ ترى كيف أكَسَبْتُهُ وقتاً مضاعفاً بتأخيرى تقدُّم الطبيعة نفعا
للعقل ، ولكن هل أَخَرْتُ هذا التقدُّمَ بالحقيقة ؟ كَلَّا ، وإنما حُلْتُ ،
فَقَطْ ، دون تعجيل الخيال للطبيعة ، ووازنتُ بدروسٍ من طرازٍ آخرِ
دروساً مُعَجَّلَةً يتلقاها الفتيانُ في أماكنٍ أخرى ، وبينما يَجْرُهُ سَيْلُ مناهجنا
القائمة يُجَذَّب إلى الجهة المقابلة بمناهجٍ أخرى ، فيعنى هذا إمساكه في موضعه ،
لا إخراجَه منه .

ثم تَحِينُ ساعة الطبيعة الحقيقية ، ويجب أن تَحِين ، وبما أنه لا بُدَّ

من موت الإنسان وجب أن يتناسل ليبقى النوع وليُحفظ نظامُ العالم ،
ومتى شعرتُم بحلول ساعة الخطر بالعلامم التي تكلمتُ عنها فاترُكموا أسلو بكم
القديمَ إلى الأبد من فوزِكم ، فهو لا يزال مُريدًا لكم ، وهو يعود غير
تليذٍ لكم ، وهو يكون صديقًا لكم ، وهو يكون رجلًا ، فعاملوه هكذا
بعد الآن .

ماذا ! أأتخلى عن سلطانى عند ما أغدو أشدَّ ما أكونُ احتياجًا إليه ؟
وهل يجب أن ألقى حبلَ المراهق على غاربه حينما يصير أقلَّ ما يستطيع
سيرًا وأكثرَ ما يكون إتيانًا لأعظم الانحرافات ؟ وهل أنزلُ عن حقوقى
عند ما يصبح أكثرَ ما يكون اضطرارًا إلى ممارستى لها ؟ حقوقكم ! مَنْ
يقول لكم أن تتنزلوا عنها ؟ تبدأ الآن فى سبيله فقط ، ولم تنالوا منها
شيئًا بغير القوة والحيلة حتى الآن ، وقد كان السلطانُ وقانونُ الواجب
مجهولين لديه ، فكان لا بُدَّ من إخافته أو مخادعته كحلال له على إطاعتكم ،
ولكنكم ترون مقدار القيود التي أحطتمُ بها فزادته ، ويخاطبه العقلُ
والصدقة وعرفانُ الجليل وألفٌ من العواطف بلهجة لا يستطيع أن يُنكرها ،
ولم يجعله العيبُ أصمَّ تجاه صوتها ، ولا يزال يتأثرُ بأهواء الطبيعة فقط ،
ويُسَلِّمُهُ إليكم حُبُّ النفس الذي هو أولها جميعًا ، وتُسَلِّمُهُ العادة إليكم
أيضًا ، وإذا ما نُزع منكم بفورة ساعة فإن الندم يعيده إليكم حالًا ،
والشعورُ الذي يربطه بكم هو الدائمُ وحده ، وأما المشاعرُ الأخرى
فتمضى وتمحى مبادلةً ، ولا تدعوه يفسد مطلقًا ، فسيكون طيعًا دائمًا ،
وهو لا يأخذ فى التمرد إلا بعد أن يكون الفساد قد دبَّ فيه .

وأعترف بأنكم إذا ما جَهِتُمْ رَغَائِبَهُ الناشئةَ فكنتم من الغباوة ما تَعُدُّون معه من الجرائم ما يَتَمَخَّضُ فيه من الاحتياجات الجديدة لم يُصْغَرِ إليكم زمناً طويلاً ، ولكنكم إذا ما تركتم منهاجى عُدَّتْ غيرَ مسؤول عن النتائج نحوم ، واذْكُرُوا ، دائماً ، أنكم وكلاء الطبيعة ، ولن تكونوا عَدُوًّا لها مطلقاً .

ولكن أى قرارٍ يَتَخَذُ ؟ لا يُنْتَظَرُ من إختيار هنا غيرُ استحسانِ مُيُولِهِ أو مكافئتها ، غيرُ كونكم طاغيتها أو مُلَاطِفِينَ له ، ولكلٍّ من الأمرين من النتائج البالغة الخطر ما لا بُدَّ معه من التردد بينهما كثيراً عند الاختيار .

وأولُ وسيلةٍ تَخْطُرُ على البال حلُّ هذه المشكلة هو أن يُزَوَّجَ سريعاً ، ولا جدالَ في أن هذه الطريقة أضمنُ الطرق وأقربها إلى الطبيعة ، ومع ذلك فإننى أشكُّ في كونها أحسنَ الطرق وأكثرها فائدةً ، وسأُبينُ براهينى فيما بعد ، ورَبِّئاً أَصْنَعُ هذا أوافق على زواج الفتيان في سِنِّ البلوغ ، غير أن هذه السِّنَّ تأتى قبل الأوان ، ونحن الذين يُعَجِّلُونَهَا ، فيجب إبطالها حتى سِنِّ الرُّشد .

ولو وَجِبَ أَلَّا يُسْتَمَعَ لغير الميول وأَلَّا يُتَّبَعَ غيرُ العلامِ لَفَضَى الأمرُ سريعاً ، ولكن يُوجَدُ بين حقوق الطبيعة وقوانيننا الاجتماعية من التناقض الكثير ما لا بُدَّ معه من الالتواء والتردد بلا انقطاع للتوفيق بينهما ، ولا بُدَّ من استعمال كثيرٍ من الحِذْق لَمَنَعَ الإنسان الاجتماعى من أن يكون مصنوعاً .

وأستندُ إلى الأسباب المروضة آنفاً فأقْدِرُ أن من الممكن ، بالوسائل التي أُعْطِيتُ وبما مائَلها ، تَمْدِيدَ الدَّوْرِ الذي تُجْهَلُ فيه مُيُولُ الحَواسِّ وَيُحَفَظُ فيه نَقَاؤُهَا حتى العشرين من العمر على الأقل ، وهذا هو من الصحة ما يَبْقَى معه القَتَى الجرمانى مفضوحاً إذا ما أضع طُهرَه قبل هذه السَّن ، ومن الصواب عَزْوُ المؤلفين قوَّةَ البُنْيَةِ لدى الجرمان وكثرة أولادهم إلى عَفَاف هؤلاء القوم في دَوْرِ شبابهم .

حتى إن من الممكن إطالة ذاك الدَّوْرِ كثيراً ، ولا شىء كان أكثر شيوعاً من هذا في فرنسة نفسها منذ قرونٍ قليلة ، ومن بين كثير من الأمثلة المعروفة نذكر مثالَ أبي مُونْتِين الذى لم يكن قوياً حسن البُنْيَةِ أكثر منه مُتَحَسِّباً صادقاً فأقسَم أن يَتَزَوَّج طاهراً في الخامسة والثلاثين من سِنِيهِ بعد خدمةٍ طويلة في حروب إيطاليا ، ومما يُرَى فيما كتب الابنُ أىُّ قوَّةٍ ومَرَحٍ حافظ عليهما الأب بعد مجاوزته الستين من عُمره ، ولا جَرَمَ أن الرأى المماكس يَتَوَقَّفُ على طِبَاعِنَا ومُبْتَسِرَاتِنَا أكثر مما على عِرْفَانِ النوع على العموم .

ولذا فإن من الممكن أن أطرح جانباً مثالَ شبابنا ، فهو لا يُثْبِتُ شيئاً تجاه من لم يُنشَأْ مثله ، وإِنى ، بعد النظر إلى أن الطبيعة لم تَضَعْ حداً يَتَعَدَّرُ تقديمه أو تأخيرَه ، أعتقد أننى أستطيع ، من غير مجاوزةٍ لناموسها ، أن أفترض بقاءَ إميل حتى ذلك الحين ضمن طُهرِه الابتدائى نتيجةً لِمَا بَدَلْتُ من عناية ، وإِنى أُنْصِرُ قُرْبَ نهاية هذا الدور السعيد ، وهو ، إذ يُحَاطُ بأخطارٍ مُطَرِّدةٍ زيادةً ، يَتَفَلَّتُ منى عند أولِ فرصةٍ على الرغم

من جهودى ، ولن يتأخر وقوعُ هذه الفرصة ، وهو سَيَتَّبِعُ غريزةَ
 الحواسِّ العمياءَ ، ويُوجَدُ رِهَانُ ألفٍ فى مقابل واحدٍ على ضياعه ، وقد
 أنعمتُ النظرَ كثيراً فى طبائع الناس لكىلا أرى نفوذَ هذا الدور الأول
 الذى لا يُقَهَّرُ فى بقية حياته ، وهو إذا ما كَتَمْتُ وأظهرتُ أننى لا أرى
 شيئاً تَغَلَّبَ على ضعفى ، وهو إذا ما اعتقد أنه يخادعنى استخفَّ بى
 وصِرْتُ شريكاً فى ضياعه ، وإذا ما حاولتُ رَدَّه كان هذا بعد الأوان ،
 وعاد لا يُصْنِىْ إِيَّائى ، وصار يَعِدُّنِى مُزْمِجاً ممقوتاً ثقيلاً ، فلا يتأخر عن
 التخلص منى ، ولذا عاد لا يكون لىَّ غيرُ سبيلٍ معقول أسلكه ، وهو
 أن أجعله مسؤولاً عن أعماله نحو نفسه ، وأن أحفظه من مبالغتات الخطأ على
 الأقلِّ ، وأن أدله بلا مُوَارَبَةٍ على المخاطر التى تحيط به ، وقد وَقَفْتُ بِجِهَةِ
 حقِّ الآن ، والآن يجب أن أَفِقَّه بالمعارف .

وهذه المعارفُ الجديدةُ مهمةٌ ، ومن الملائمِ تناولُ الأمور من الأعلى ،
 وهذه هى ساعةُ تقديم حساباتى إليه ، فأدله على استعمال وقته ووقتى وأَيِّنْ
 له من هو ومن أنا ، وما فَعَلَ وما أَفْعَلُ ، وما كُلُّ منا مَدِينٌ به
 للآخر ، وجميعَ صلاتِهِ الأدبية ، وجميعَ ما عَقَدَ من الالتزامات ، وجميعَ
 ما عَقَدَ معه ، ومقدارَ ما اتَّفَقَ لمواهبه من التقدم ، وما الطريقُ التى يَقْبَى
 عليه أن يَسْلُكَهَا ، وما سَيَجِدُ فيها من المصاعب ، وما الوسائلُ التى يقتحم
 بها هذه المصاعب ، وما يُمكننى أن أساعده عليه بَعْدُ ، وما يُمكنه أن
 يُعَيِّنَ عليه نفسه بنفسه بعد الآن ، وما عليه من خطرٍ ، وما يحيط به من
 مخاطرَ جديدةٍ ، وجميعَ العوامل المتينة التى يجب أن تَحْمِلَهُ على ملاحظَةِ

نفسه بدقة قبل أن يُصْنَعَ إلى رغائبه الناشئة .

واذْكُرُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِقِيَادَةِ الْمَرَاهِقِ مِنْ اتِّخَاذِكُمْ جَمِيعَ مَا صَنَعْتُمْ لِقِيَادَةِ الْوَلَدِ ، وَلَا تَتَرَدَّدُوا ، مُطْلَقًا ، فِي تَعْلِيمِهِ هَذِهِ الْأَسْرَارَ الْخَطِيرَةَ الَّتِي كَسَمْتُمُوهَا عَنْهُ بِعَنَاءٍ كَبِيرَةٍ زَمَنًا طَوِيلًا ، وَمِنْ الْمَهْمِ أَلَّا يَعْلَمَهَا مِنْ آخَرٍ وَلَا مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ مِنْكُمْ وَحْدَكُمْ ، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ عَدُوَّهُ خَشْيَةَ الْمُبَاغَةِ مَا دَامَ مُلْزَمًا بِالنِّضَالِ فِيمَا بَعْدُ .

وما كَانَ الْفَتَيَانُ الَّذِينَ يُوجَدُونَ عَارِفِينَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْلَمَ كَيْفَ عَرَفُوهَا ، لِيَصْبَحُوا ذَلِكَ بِلا عِقَابٍ ، وَبِمَا أَنَّ هَذَا الْعِرْفَانَ الطَّائِشَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَا عَرَضٍ صَالِحٍ فَإِنَّهُ يُدْنَسُ ، عَلَى الْأَقْلَى ، خِيَالَ مَنْ يَتَلَقَّوْنَهُ وَيُعَدُّهُمْ لِرِذَائِلٍ مِنْ يُتَلَقَّوْنَهُ ، وَلَيْسَ هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ ، فَمَنْ اتَّخَذَ مِنْ يَنْسَابُونَ فِي ذَهْنِ الْوَلَدِ هَكَذَا وَيَنَالُونَ ثِقَتَهُ وَيُبْذُونَ لَهُ مُرَبِّيَّهَ رَجُلًا كَثِيرًا ثَقِيلًا ، وَيَكُونُ اتِّقَاصُهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُفْضَلَةِ فِي أَحَادِيثِهِمُ السَّرِّيَّةِ ، فَإِذَا مَا صَارَ التَّمْلِيزُ فِي هَذَا الْوَضْعِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْزَوِيَ لِمَا يَعُودُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى صُنْعِ مَا هُوَ صَالِحٌ .

وَلَكِنْ لِمَ يَخْتَارُ الْوَلَدُ أَنْجِيَةً خَاصَّةً ؟ ذَلِكَ ، دَائِمًا ، بِسَبَبِ طَفْيَانٍ مِنْ يَقُومُونَ بِرَقَابَتِهِ ، وَلَيْمَ يَتَوَارَى مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا إِلَى الْإِخْتِفَاءِ ؟ وَلَيْمَ يَتَوَجَّعُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ مَا يَتَوَجَّعُ مِنْهُ ؟ إِنْ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الرُّقَبَاءُ أَوَّلَ الْأَنْجِيَةِ ، وَيُرَى مِنَ الْهَمَةِ الَّتِي يَقُولُ لَهَا مَا يُفَكِّرُ فِيهِ اعْتِقَادُهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي نِصْفَ مُفَكَّرٍ فِيهِ حَتَّى يَقُولَهُ لَهَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْوَلَدَ إِذَا لَمْ يَخْشَ مِنْ نَاحِيَتِكُمْ وَعَظْمًا وَلَا تَعْزِيرًا قَالَ لَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ دَائِمًا ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدَ

يَجْرُؤُ عَلَى قَوْلِ شَيْءٍ لَهُ يُخَفِّيه عَنْكُمْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُعَلِّمُ جَيِّدًا أَنَّهُ سَيَقُولُ لَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ .

وَالَّذِي يَجْعَلُنِي أَكْثَرَ اعْتِمَادًا عَلَى مِنْهَاجِي هُوَ أَنَّنِي لَا أَرَى ، بِاتِّبَاعِي مَنَاجِيهَهُ بِمَا يُمْكِنُنِي مِنَ الدِّقَّةِ ، وَضَعًا فِي حَيَاةِ تَلْمِيذِي لَا يَدَعُ لِي صُورَةً مُسْتَحَبَّةً عَنْهُ ، حَتَّى إِنَّنِي لَا أزالُ أُجِدُّهُ عَلَى بَسَاطَتِهِ الْأُولَى فِي حَيَاةِهِ وَهَيْجَانِهِ حِينَ تَسْوِقُهُ صَوَلَاتُ الْمَزَاجِ ، وَحِينَ يَتَمَرَّدُ عَلَى الْيَدِ الَّتِي تَقْفُهُ قَيْدُ تَقْضٍ وَيَأْخُذُ فِي التَّمَلُّصِ مِنِّي ، وَلَيْسَ فَوَادُهُ النَّقْيُ نَقَاءً بَدَنَهُ أَعْلَمُ بِالنَّسْتَرِ مِمَّا بِالْمُنْكَرِ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ التَّعْزِيرُ وَلَا الْإِزْدِرَاءُ نَذْلًا قَطُّ ، وَلَمْ يُعَلِّمَهُ الْخَوْفُ الَّذِي أَنْ يَتَنَكَّرَ مُطْلَقًا ، وَهُوَ يَتَصِفُ بِكُلِّ مَا فِي الطَّهَرِ مِنْ رِصَانَةٍ ، وَهُوَ سَادِجٌ بِلا وَشَوَاسٍ ، وَهُمْ لَمْ يَعْرِفْ بَعْدُ فَائِدَةَ الْخِدَاعِ ، وَلَا يَقَعُ مَيْلٌ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْيَمَ عَلَيْهِ لِسَانُهُ وَعَيْنَاهُ ، وَأَعْرِفُ مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَحَاسِيْسَ بِأَسْرَعٍ مِمَّا يَعْرِفُ غَالِبًا .

وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أَخَافُ مَا دَاوَمَ عَلَى فَتْحِ قَلْبِهِ لِي طَلِيقًا ، وَعَلَى قَوْلِهِ لِي مَا يُحِسُّ مَسْرورًا ، وَلَيْسَ الْخَطَرُ بَعْدُ قَرِيبًا ، وَلَكِنَّهُ إِذَا مَا أَصْبَحَ أَكْثَرَ وَجَلًّا وَتَحَفُّظًا فَأَبْصَرْتُ فِي مُحَادَثَاتِهِ ارْتِبَاكَ الْحَيَاءِ الْأَوَّلِ دَلَّ هَذَا عَلَى نُمُوِّ فِي الْغَرِيزَةِ وَعَلَى أَخْذِ مَبْدَأِ السَّوْءِ يُضَافُ إِلَيْهَا ، فَعَادَ لَا يَكُونُ لَدَيَّْ وَقْتُ أَفْرَطٍ فِيهِ ، فَإِذَا لَمْ أَبَادِرْ إِلَى تَعْلِيمِهِ تَعَلَّمَ مِنْ فَوْزِهِ عَلَى الرِّغْمِ مِنِّي .

وَسَيَرَى أَكْثَرُ مِنْ قَارِيٍّ ، حَتَّى عِنْدَ انْتِحَالِ أَفْكَارِي ، أَنَّ الْمَسْئَلَةَ هُنَا لَا تَعْدُو حَدَّ مُحَادَثَةٍ تَقَعُ مُصَادَفَةً مَعَ الْقَتَى ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ يُسَوَّى

بهذا ، آه ! لا يُهَيِّمَنَّ على قلب الإنسان هكذا ! وما يقال لا يَدُلُّ على شيء إذا لم يُهَيِّأْ وقتُ قَوْلِهِ ، ولا بُدَّ من حَرْثِ الأرض قبل البَذْرِ ، وَيَنْمُو بَذْرُ الْفَضِيلَةِ بِصُعُوبَةٍ ، ولا بُدَّ من أَهْبَاتٍ طَوِيلَةٍ حَتَّى يُجْعَلَ لَهُ جَذْرٌ ، ومن الأمور التي تَجْعَلُ الْمَوَاعِظَ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ عَدَمَ فَائِدَةٍ هُوَ أَنَّهَا تُعَرِّضُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ بِلَا تَمْيِيزٍ وَمِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ وَلَا اخْتِيَارٍ ، وَكَيْفَ يُرَى أَنَّ الْوَعْظَ عَيْنُهُ يَلَامُ كَثِيرًا مِنَ الْمَسْتَمْعِينَ الْكَثِيرِ الْاِخْتِلَافِ اسْتِعْدَادًا وَذَهْنًا وَمَزَاجًا وَسِنًّا وَجِنْسًا وَشَأْنًا وَرَأْيًا ؟ وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَلَّا يُوجَدَ اثْنَانِ يُنَاسِبُهُمَا مَا يُقَالُ لِلْجَمِيعِ ، وَتَكُونُ جَمِيعُ عَوَاطِفُنَا مِنْ قَلَةِ الثَّبَاتِ مَا لَا يَحْتَمِلُ مَعَهُ وَجُودُ سَاعَتَيْنِ فِي حَيَاةِ كُلِّ إِنْسَانٍ يَتَّفِقُ فِيهِمَا لَعِينُ الْكَلَامِ عَيْنُ التَّأثيرِ فِيهِ ، وَرَوَّاهُ هَلْ يَكُونُ الْوَقْتُ الَّذِي تَلْتَهَبُ فِيهِ الْحَوَاسُّ ، فَتَخْبِلُ الْعَقْلَ وَتُنَاكِدُ الْإِرَادَةَ ، هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يُضَيِّعُ فِيهِ إِلَى دُرُوسِ الْحِكْمَةِ الرِّصِينَةَ ، وَلِذَا فَلَا تَخَاطَبُوا الْفِتْيَانَ بِالْعَقْلِ حَتَّى فِي سِنِّ الْعَقْلِ ، مَا لَا لَمْ تَكُونُوا قَدْ هَيَّأْتُمُوهُمْ لِإِدْرَاكِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، وَتَجِدُ مُعْظَمَ الْخُطَبِ قَدْ ذَهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيحِ عَنْ خَطَا الْأَسَاتِيزِ أَكْثَرَ مِمَّا عَنْ خَطَا التَّلَامِيذِ ، أَجَلٌ ، يَقُولُ الْمُتَحَدِّقُ وَالْمَعْلَمُ عَيْنَ الْأُمُورِ تَقْرِيْبًا ، غَيْرَ أَنَّ الْأَوَّلَ يَقُولُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَأَنَّ الثَّانِي لَا يَقُولُهَا إِلَّا عِنْدَ اطْمِئْنَانِهِ إِلَى تَأثيرِهَا .

وإميلُ كالسائر في النومِ التَّائِهَ فِي رُقَادِهِ فَيَمِشِي وَهُوَ وَسْئَانُ عَلَى أَطْرَافِ هُوَّةٍ يَسْقُطُ فِيهَا إِذَا مَا أُوقِظَ بَغْتَةً ، وَهَكَذَا فَإِنْ إِمِيلَ ، وَهُوَ فِي رُقَادِ الْجَهْلِ ، يَتَفَلَّتُ مِنَ الْأَخْطَارِ الَّتِي لَا يَرَاهَا مُطْلَقًا ، فَإِذَا مَا نَبَّهَتْهُ بِرَجْفَةٍ هَلَاكَ ، فَلَنُحَاوِلَ أَنْ نُبْعِدَهُ مِنَ الْهُوَّةِ أَوَّلًا ، ثُمَّ نُنَبِّهَهُ لِنُطْلِقَهُ عَلَيْهَا مِنْ بَعِيدٍ .

وَتَعَدُّ الْمَطَالِمَةَ وَالْعَزْلَةَ وَالْحَيَاةُ الْخَضِرِيَّةَ النَّاعِمَةَ وَمَخَالَطَةُ النِّسَاءِ وَالْعِلْمَانَ
سُبُلًا خَطِرَةً عَلَى مَنْ يَكُونُ فِي مِثْلِ عُمْرِهِ ، فَتَجْعَلُهُ قَرِيبًا مِنَ الْمَلَكَ دَائِمًا ،
وَإِنِّي أَحْوَلُ حَوَاسِهِ بِأُمُورٍ حَسِيَّةٍ أُخْرَى ، وَإِنِّي أَرْسُمُ مَجْرَى آخِرَ لَهْوَاجِهِ
فَأَحْوَلُهَا عَنِ الْمَجْرَى الَّذِي أَخَذَتْ تَسْلُكُهُ ، وَإِنِّي أُمَرِّنُ بَدَنَهُ عَلَى أَشْغَالٍ شَاقَّةٍ
فَأَقِفُ نَشَاطَ الْخِيَالِ الَّذِي يَسُوقُهُ ، وَمَتَى اشْتَغَلْتُ الذُّرْعَانِ اسْتِرَاحَ الْخِيَالِ ،
وَمَتَى تَعَبَ الْبَدَنُ لَمْ يَشْتَمَلِ الْقَلْبُ قَطُّ ، وَيَكُونُ أَسْرَعُ احْتِرَازٍ وَأَسْهَلُ
تَحْفُظٍ فِي نَزْعِهِ مِنَ الْخَطَرِ الْحَلِيِّ ، وَآتَى بِهِ فِي الْبُدَاءَةِ خَارِجَ الْمَدَنِ بَعِيدًا
مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغْوِيَهُ ، يَبِيدُ أَنْ هَذَا لَا يَكْفِي ، فِي أَيْةٍ
بَادِيَةٍ ، وَفِي أَيٍّْ مُلْجَأٍ مُهْجُورٍ ، سَيَتَخَلَّصُ مِنَ الصُّورِ الَّتِي تَتَمَقَّبُهُ ؟ وَلَا
أَعَدُّ قَدْ أَقْصَيْتُ الْأَشْيَاءَ الْخَطِرَةَ إِذَا لَمْ أَقْصِ ذِكْرَهَا أَيْضًا ، وَإِذَا لَمْ أُجِدْ
وَسِيلَةً لِفَصْلِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِذَا لَمْ أَهْنِ عَنْ نَفْسِهِ ، كَانَ مِنَ الْجَدِيرِ
أَنْ يُتْرَكَ حَيْثُ كَانَ .

وَيَعْرِفُ إِمِيلُ صِنَاعَةً ، وَلَكِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لَيْسَتْ وَسِيلَتَنَا هُنَا ، وَهُوَ
يُحِبُّ الزَّرَاعَةَ وَيُذَكِّرُهَا ، وَلَكِنْ الزَّرَاعَةُ لَا تَكْفِينَا ، وَتَصِيرُ الْأَشَاغِيلُ الَّتِي
يَعْرِفُ تَمَطِّيَّةً ، وَهُوَ إِذْ يَتَعَاطَاهَا يُعَدُّ غَيْرَ فَاعِلٍ شَيْئًا ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي
أَمْرِ آخَرَ ، وَيَتَحَرَّكُ الرَّأْسُ وَالذَّرَاعَانِ عَلَى انْفِرَادٍ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَشْغُولَةٍ
جَدِيدَةٍ تُوجِبُ التَّفَانَةَ بِجِدَّتِهَا ، أَشْغُولَةٍ تَسْتَكِدُّهُ وَتَرْوُقُهُ ، وَتَشْغَلُهُ وَتُحَرِّكُهُ ،
أَشْغُولَةٍ يُوَلِّعُ بِهَا وَيَنْقَطِعُ إِلَيْهَا بِكُلِّئَتَيْهِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الصَّيْدَ هُوَ الْأَشْغُولَةُ
الَّتِي يَلُوحُ لِي أَنَّهَا جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ هَذِهِ الشَّرُوطِ ، وَإِذَا كَانَ الصَّيْدُ مُتَمَّةً
سَلِيمَةً مَلَأَمَةً لِلْإِنْسَانِ فَإِنَّ الْآنَ هُوَ دَوْرُ الْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ ، وَعِنْدَ إِمِيلَ كُلِّ

ما يُلْزَمُ للنجاح في الصيد، فهو عُصْلِيٌّ ماهرٌ صابرٌ لا يَتَعَبُ ، ولا شكَّ في أنه سَيَرَّغَبُ في هذه الرياضة ، وهو سَيَضَعُ فيها جميعَ حرارةِ عُمره ، وهو سَيُضِيعُ فيها ، لَزمٍ ما على الأقل ، ما ينشأ عن التَّرفِ من مَيُولٍ خَطِرَةٍ ، وذلك أن الصيدَ يُحَشِّنُ القلبَ والبدنَ ويُعوِّدُ الإنسانَ مَنَظَرَ الدم والقسوة ، وقد جُعِلَ من دِيَانَا عَدُوُّ الحُبِّ ، والرَّمْزُ صحيحٌ جِدًّا ، فَخَدَرُ الحِبِّ لا ينشأ عن غير الراحة الحُلُوَّةِ ، والرياضةُ الضعيفةُ تُخَمِّدُ الأحاسيسَ الناعمةَ ، وفي الغابِ والحقولِ يكونُ العاشقُ والصائدُ من اختلافِ التأثيرِ ما يَحْمِلَانِ معه صُورًا بالغةَ الاختلافِ عن عَيْنِ الأشياءِ ، وذلك أن الظَّلَالَ الوارِفةَ والغاباتِ الظليلةَ والمساكنَ اللينةَ لدى الأولِ ليست لدى الآخرِ غيرَ مَرْتَعٍ للوحوشِ وغيرِ حصونٍ وَمَحَاطٍ للعَجَلِ ، فلا يَسْمَعُ أحدهما فيها غيرَ حَفِيفِ الأشجارِ وتفريدِ الهَزَارِ وصداحِ الأطيارِ ، ولا يَتَمَثَّلُ الآخرُ فيها غيرَ الأبواقِ ونُبَاحِ الكلابِ ، ولا يتصورُ أحدهما فيها غيرَ عُثْقِيٍّ وَخَوْرِيَّاتٍ ، ولا يَتَخَيَّلُ الآخرُ فيها غيرَ رُؤَاضٍ وَخَيْلٍ وَأَسْرَابِ كلابٍ ، وطُوفُوا في الأريافِ مع هذين الصنفين من الناس ، لم تَلْبَثُوا أن تَعْرِفُوا من اختلافِ اللهجةِ أنه لا يوجد للأرضِ منظرٌ مماثلٌ عندها ، وأن أوجهَ الرأى فيهما مختلفةٌ اختلافهما في اختيارِ ملاذِّهما .

وأدركُ كيفَ تَتَجِدُ هذه الأذواقُ ، وأدركُ كيفَ يُوجَدُ من الوقتِ لها جميعاً في آخرِ الأمرِ ، بَيَدَ أن أهواءَ الشبابِ لا تَنقَسِمُ على ذاك الوجهِ ، فإذا منحَمَ الشبابُ أَشْغُولَةً يُحِبُّهَا لم يَلْبَثْ أن يُنْسَى ما سِوَاهَا ، ويَأْنِي تَنَوُّعُ الرغائبِ من تَنَوُّعِ المعارفِ ، وأوَّلَى الرغائبِ التي تُعْرِفُ هي ما يُبْحَثُ

عنه وحده زمنًا طويلًا ، ولا أريد أن ينقضى جميعُ فناءِ إيلَ في قتل الحيوان ، حتى إنني لا أدعى تسويفَ هذا الهوى جُملةً ، وإنما يكفيني أن يكون نافعًا ، بما فيه الكفاية ، لتأجيل هَوَى أشدَّ خطراً كيما أسمعُ إذا ما تكلمتُ عنه بهدوءٍ وكما يكونُ لدىَّ من الوقت ما أصفه فيه من غير أن أُبَيِّره .

وتقع في حياة الإنسان أدوارٌ لا تُنسى أبداً ، ومنها دورُ التعليم الذي أتكلّم عنه والذي لا بدّ من تأثيره في بقية حياته ، ولنحاول أن ننقشه في ذاكرته إذن ، فلا يُمتحى منها مطلقاً ، ومن أغاليط عصرنا استعمالُ العقل عارياً تماماً ، كما لو كان الناس ذهنًا خالصاً ، وإذا ما أُهملت لغة الإشارات التي تخاطب الخيالَ فقدَ أُمضى الألسنة ، ويكون تأثيرُ الكلام ضعيفاً دائماً ، ويخاطب الفؤادُ بالعيون أفضلَ مما بالأذان ، ونحن ، إذ منَحْنَا العقلَ كلَّ شيءٍ ، رَجَعْنَا جميعَ تعاليمنا إلى أقوالٍ ، ولم نشتمل عليها بالأفعال ، وليس العقلُ وحده فعّالاً ، وهو يَرَدُّعُ أحياناً ، وهو يُحرِّكُ نادراً ، وهو لم يأتِ بعظيمٍ مطلقاً ، ومن هَوسَ النفوس الصغيرة أن يُلجَأَ إلى العقل دائماً ، وللنفوس القوية لسانٌ آخرُ ، وبهذا اللسان يَقَعُ الإقناع ، وبه يَسِيرُ الإنسان .

وَأَلَحِظُ في القرون الحديثة أن بعضَ الناس عاد لا يكون ذا سلطانٍ على بعضٍ بغير القوة والمصلحة ، على حين كان القدماء يؤثرون بالإقناع القلبيّ وعواطف النفس أكثرَ من ذلك ، وذلك لأنهم كانوا لا يَهْمِلُونَ لغةَ الإشارات ، وكانت جميعُ العهود تَتِمُّ بِمَرَّاسِيمَ صَوْنًا لها من النقص ،

وكان الآلهة حُكَّامَ الجنس البشريِّ قبل قيام القوة ، وكان الناس يَصْعَوْنَ أمام الآلهة معاهداتهم ومخالفاتهم وَيَقْضُونَ بعقودهم ، وكان وجهُ الأرض كتاباً تُحْفَظُ فيه الوثائق ، وكانت الصَّخْرُ والأشجارُ وأكوامُ الحجارة المُثَبَّتَةُ بهذه العهود والمحترمةُ لدى البرابرة أوراقاً لهذا الكتاب المفتوح أمام جميع الميون بلا انقطاع ، أَجَلٌ ، كانت بئرُ الحِلْفِ وبئرُ الحِمْيِّ الناظر وبَلْوَطَةُ مَمَرِا القديمةُ والكُومَةُ الشاهدة آثاراً غليظةً ، ولكها جليلةٌ عن قَدَاسَةِ العقود ، فما كان لِيَجْرُو أَحَدٌ على انتهاك حرمة هذه الآثار يبيدُ مُدْنَسَةً ، وكان عهدُ الناس أوثقَ بضمان هؤلاء الشهود الصامتين مما بكلِّ صَرَامة القوانين في الوقت الحاضر .

وكان الناسُ في الحكومة يُرْهَبُونَ بِجهازِ السلطان الملكيِّ ، وكانت أشِعْرَةُ الشرف والعرشُ والصَّوْلُجَانُ وَالْحَلَّةُ الأَرْجَوَانِيَّةُ والتاجُ والعِصَابَةُ أشياء مقدسةٌ ، وكانت الإشاراتُ المُكْرَّمَةُ وماتوحى به من احترامٍ تَجَلِّبُ إجلالاً لمن يَزَيِّنُ بها ، فكان إذا ما قال أطيع بلا جُنْدٍ ولا وعيد ، وَالآن يُنْظَاهَرُ بِإِبْطَالِ هذه الرموز^(١) ، فما ينشأ عن هذا الازدراء ؟ وَلِيُزَلْ

(١) حافظ الإكليروس الروماني عليها بمهارة فائقة ، وهذا حلوم بعض الجمهوريات كجمهورية البندقية ، وهكذا فإن حكومة البندقية لا تزال تتمتع بكل محبة وعبادة من قبل الشعب نتيجة لجهاز جلالها القديم وعلى الرغم من سقوط الدولة ، فلا نجد بعد البابا المزين بتاجه ، ملكاً ولا عاهلاً ، ولا أحداً من رجال الدنيا يحترم ، على ما يحتمل ، كما يحترم رئيس جمهورية البندقية العاقل من القوة والسلطان ، ولكن مع جعله مقدساً بأهته ومزيناً بعبقصة امرأة تحت إكليله الدوكي ، ويثير الاحتفال بمركب البندقية المعروف بالبوسانتور ضحك كل مجنون مع أنه يحل البندق يسفك دمه حفظاً لحكومته المستبدة .

جلالُ الملوك من جميع القلوب ، وَلْيَعُدِّ الملوكُ لا يُطَاعُونَ بغير قوة الجنود ، وَلْيَتَمَّ احترامُ الرعايا على الخوف من العقاب ، فهناك لا يكون على الملوك أن يُزْعَجُوا أنفسهم بلبس تاجهم ولا بِحَمَلِ سِمَاتِ مقامهم ، وإنما يحتاجون إلى مئة ألف ذراعٍ دائمة الاستعداد لتنفيذ أوامره ، ومهما يكن من احتمال ظهور هذا أكثر روعةً في أعينهم فإن من السهل أن يُبْصَرَ أنهم لا يَرْجَحُونَ من هذه الصفقة مع الزمن .

ومن العجائب ما اتفق للقدماء بالبلاغة ، ولم تَقَمْ هذه البلاغة على حُسْنِ الكلام المُحْكَمِ النظام فقط ، بل كانت تؤثر تأثيراً بالغاً بالتزام الخطيب جانبَ الإيجاز ، وما كان لِيُعَبَّرَ بالكلمات عن أعظم ما يُمكن تأثيراً ، بل بالإشارات ، وكان لا يُنْطَقُ به ، بل يُدَلُّ عليه ، وما يُعْرَضُ على العيون من شيء يَهْزُ الخيالَ ، ويحركُ الفضولَ ، ويجعلُ الذهنَ منتظراً لِمَا يقال ، وفي الغالب يكون هذا الشيء قد قال كل شيء ، ألم يكن ترازيبولُ وتازكينُ بقطعهما رؤوسَ الخشخاش ، والإسكندرُ بوضعه طابعه على فم نديمه ، وذويجانيسُ بسيره أمام زنون ، قد تكلموا بأفصح من الخطب الطويلة ؟ وأى إسهابٍ في الكلام كان يُمكن أن يُعْرَبَ عن تلك الأفكار بمثل ذلك الأداء ؟ وبينما كان داراً يحارب في سبئية مع جيشه تلقى من ملك السبّ طائراً وضيغداً وفأراً وخسة نبال ، ويسلمُ السفيرُ الهديةَ ويعود من غير أن ينطق بكلمة ، ولو أتى هذا الرجلُ بذلك في أيامنا لعدَّ مجنوناً ، وتفهم هذه الخطبة الهائلة ، ويرجعُ داراً إلى بلده بأقصى ما يُمكن من السرعة ، ولو وضعتم في مكان هذه الرموز كتاباً

لوجدتم أن هذا الكتاب كلما زاد وعيداً قلَّ تخويفاً ، وما كان ليمدَّ غيرَ
حَذَلْقَةٍ يقابلها داراً بالضَّحِك .

وبالاعتناء الرومان بلغة الرموز ! ثيابٌ مختلفة على حسب العُمرُ ووفُق
المقامات ، حُلُلٌ وسُتُرٌ وأردية للأشراف ، وخَوَاشٍ وأهدابٌ ، وكُرَاسٍ
وضُبَّاطٌ وحُزْمٌ وفُؤوس ، وأكاليلُ من ذهبٍ وأعشابٍ وأوراقٍ ،
واستقبالُ غزاةٍ ومواكبُ نصيرٍ ، وكان كلُّ شيءٍ عندهم يَنبُتُ على أبهةٍ
وجاهٍ ومظهرٍ فيؤثِّرُ في قلوبِ المواطنين ، ومما كان يُهمُّ الدولة أن يجتمع
الشعبُ في هذا المكان أكثرَ مما في ذاك ، وأن يشاهدَ الكابيتُولَ أو لا ،
وأن يَتَجَّهَ نحو السَّناتِ أولاً ، وأن يتشاورَ في هذا اليوم أو ذاك تفضيلاً ،
وكان المُتَهَمُونَ ، والمُرَشَّحُونَ أيضاً ، يُغيَّرُونَ ثيابهم ، وكان المجاهدون
لا يفاخرون بمآثرهم ، وإنما كانوا يُظهرون جروحهم ، وأنصَوْرُ أن أحدَ
خطبائنا ، وهو يُريدُ تحريكَ الشعب عند موتِ قيصرٍ ، قد استنفذ جميعَ
مِظَانِ الفنِّ العامِّ لِيَصِفَ جُرُوحَهُ ودَمَهُ وجُثَّتَهُ وصفاً مؤثراً ، وأنصَوْرُ
أنطونيوس وهو لا يقول شيئاً من هذا مع فصاحته مكثفياً بقرصِ الجُمانِ ،
فيا للبلاغة !

غير أن هذا الاستطراد يُخْرِجُنِي من نطاق موضوعي على وجهٍ غير
محسوس كما يَصْنَعُ آخرون كثيرون ، واستطراداتي هي من الكثرة ما لا نطَاقُ
معه بلا أناةٍ وصَبْرٍ ، ولذا فَإِنِّي أعود إلى الصَّدَدِ .

ولا تُبَرِّهِنُوا مع الشباب برهنةً جافَّةً وأَلْبِسُوا البرهانَ بَدَنًا إذا ما أردتم
جعلَه محسوساً ، ودَعُوا لسانَ الدهنِ يَمُرُّ على القلبِ حتى يُفْهَمَ ، وأقول

مُكَرَّرًا إن البراهين الفاترة يُمكن أن تُعَيَّن آراءنا ، لا أفعالنا ، وأن تحمِلنا على التفكير ، لا على العمل ، فالبرهان يكون حَوَّل ما يجب أن يُفَكَّر فيه ، لا حَوَّل ما يجب أن يُعْمَلَ ، وإذا ما صَحَّ هذا من حيث جميعُ الناس فإن من الأجدر أن يَصِحَّ هذا من حيث الفَتَيَانُ الذين لا يزالون مُشْتَمِلِينَ بحواسِّهم فلا يُفَكِّرُونَ إلَّا إذا تَخَيَّلُوا .

وأخترِزُ جيداً ، إذنْ ، حتى بعد الإعدادات التي تكلمتُ عنها ، من الذهاب إلى غرفة إميلَ بفتةٍ كَيمَا أُلْقِيَ عليه قولاً طويلاً عن الموضوع الذي أريد أن أُعَلِّمه إياه ، وأبدأُ بإثارة خياله ، وأختار الزمان والمكان وأكثر الأمور ملاءمةً لِمَا أريدُ من تأثير ، ولذا فإني أدعو جميعَ الطبيعة لتكون شاهدةً على محاوراتنا ، وأشهدُ الكائنَ الأزليَّ والصانعَ للطبيعة على صحة أقوالى ، وأجعلُه حَكَمًا بينى وبين إميل ، وأُعَيِّن المكانَ الذى نحن فيه ، كما أُعَيِّن الصخرَ والغابَ والجبالَ التي تحيط بنا ، لتكون آثاراً تذكاريةً لعهودى وعهوده ، وأضعُ في عينيَّ ولهجتى وحركتى ما أريد إلقاءه فيه من الحماسة والهمة ، وهناك أُكَلِّمه ويُصْنِئى إلىَّ ، وألينُ ويهتِزُّ ، وكلِّما تأثرتُ بقدُّس واجباتى جعلتُ واجباته أكثرَ جلالاً ، وأنعِشُ قوةَ البرهان بالصور والأشكال ، ولن أكون مُسَهِّباً مُطَوِّلاً في المبادئ الباردة مطلقاً ، ولكن غزيراً في المشاعر الزاخرة ، وسيكون عقلى رزيناً حكيماً ، ولكن مع عدم قول قلبى بما فيه الكفاية مطلقاً ، وهناك ، حين أُطَلِّعُه على كلِّ ما صنعتُ من أَجَلِه ، أُطَلِّعُه عليه كأنه صُنِعَ في سبيلى ، وسيُبَصِّرُ في عطافى الرقيق سببَ كلِّ رعايةٍ من قِبَلِى ، ويا للمفاجأة ، ويا للهزْهَزَةَ التي أُورِثَته إياها

بتغيير اللهجة بفتة ! وذلك بدلاً من تضيق رُوحه بمحدثته عن مصلحته دائماً، ومصلحتي هي التي أكلّمه عنها فيما بعد فأزيدُ فيه تأثيراً، فألِهبُ فؤاده الفتيّ بجميع ما أنبتته من مشاعر الألفة والكرم ومعرفة الجليل التي يحلو تَهْدُها، وأُضْمُّه إلى صدرى ساكباً عليه دموع الحنان قائلاً له : « أنت مالى وولدى وصُنْعى ، ومن سعادتك أنتظر سعادتي ، فإذا ما خابت بك آمالي كنت سالباً لعشرين عاماً من عُمرى ، وسببَ شقائى فى أيامِ مَشِيبى » ، فعلى هذا الوجه يُحْمَلُ الفَتَى على الإصغاء فُتُنَقَشُ فى سوداء فؤاده ذكرى ما يقال له .

وقد حاولتُ ، حتى الآن ، إعطاء أمثلةٍ عن الأسلوب الذى يجب أن يتخذه المعلم لتعليم تلميذه فى الأحوال الصعبة ، وقد حاولتُ أن آتِىَ بكثيرٍ منها فى الدّور الحاضر ، ولكننى أَعْدِلُ عنها بعد كثيرٍ من التجارب قائماً بأن اللغة الفرنسية هى من النَّفَاسَةِ البالغة ما لا يُطِيقُ معه فى كتابٍ ، مطلقاً ، سذاجة الدروس الأولى حَوْلَ بعض الموضوعات .

ويقال إن اللغة الفرنسية أظهُرُ اللغات ، وأنا أعتقد أنها أكثرُ اللغات بذاءةً ، وذلك لأن طُهُرَ اللغة ، كما يُلَوِّحُ لى ، لا يقوم على اجتناب التعابير القبيحة بعناية ، بل على عدم وجودها فيها ، والواقعُ أن اجتنابها يستلزم تفكيراً فيها ، ولا يُوجَدُ كالفرنسية لغةً يَصْمُبُ الكلام فيها بصفاء من كلِّ وجهٍ ، وبما أن القارئ يكون ، دائماً ، أكثرَ حِدْقاً فى كشف المعانى البذيئة من المؤلف فى إقصائها فإنه يَتَمَّ من كلِّ شىءٍ وَيَجْفِلُ منه ، وكيف يَتَجَنَّبُ ما يَمُرُّ من آذَانٍ قَدَرَةٍ بذائمها ؟ وعلى العكس ترى للشعب ذى الطباع الحسنة كلماتٍ خاصةً لكلِّ شىء ، وتكون هذه الكلماتُ

نزيهة دائماً لاستعمالها بنزاهة دائماً ، ويتعذر أن تتصور لغة أكثر حشمة من لغة التوراة لقول كل شيء فيها بسذاجة ، ويكفى أن تُترجم عين الأشياء إلى الفرنسية لجعلها فاقدة الحشمة ، وما يجب أن أقوله لإميل لا ينطوى على غير ما هو صالح طاهر يقرع سمعه ، ولكن ظهوره هكذا عند المطالعة يقتضى حيازة قلب نقى مثل قلبه .

حتى إننى أرى أنه يوجد من التأملات حول نقاء الكلام الحقيقية وحول رقة المنكر الزائفة ما يمكن أن يكون له مكان نافع في الحادثات الخلقية التى يسوق إليها هذا الموضوع ، وذلك لأنه حين يتعلم لغة الصلاح يجب أن يتعلم لغة الحشمة أيضاً ، كما أنه يجب أن يعلم السبب فى كون هاتين اللغتين مختلفتين كثيراً ، ومهما يكن من أمر فإننى أذهب إلى أنه بدلاً من التعاليم الفارغة التى تُقرع بها آذان الشباب قبل الأوان ، والتى يسخر الشباب منها عندما يبلغ سن الانتفاع بها ، وإلى أنه إذا ما انتظرت الساعة التى يستمتع فيها وأعدت هذه الساعة ، وإلى أنه إذا ما أطلع على سنن الطبيعة بكل ما فيها من حقيقة ، وإلى أنه إذا ما دل على مؤيد هذه السنن نفسها فى الأضرار المادية والأدبية التى تُصيب المذنبين نتيجة لخالفاتها ، وإلى أنه إذا ما حدث عن سِرِّ النسل الذى يتعذر إدراكه فضمت إلى فكرة المثل ، الذى أنعم به صانع الطبيعة على ذاك الفعل ، فكرة الارتباط الحاجر لما سواه والذى يجعل ذاك الفعل لذيذاً جيداً ، وفكرة واجبات الوفاء والحياء التى تحيط به والتى تُضاعف فتوته بإتمامه غرضه ، وإلى أنه إذا ما وُصف له الزواج على أنه أقدس العقود

وأكثرها حُرْمَةً فَضْلاً عن كونه أحلى المَعَاشِرَاتِ فَقِيلَتْ له بقوةٍ جميعُ الأسبابِ التي تَجْعَلُ هذه المُقَدَّةَ الكثيرةَ القُدُسَ محترمةً عند جميع الناسِ والتي تَعْمُرُ بالثَمَّتِ واللَّعْنَةِ كُلَّ من يَجْرُو على تَدْنِيسِ قَدَاسَتِهَا ، وإلى أنه إذا مارُسِمَتْ له لَوْحَةٌ بارزةٌ صادقةٌ عن قَبَائِحِ الفُسُوقِ وعن حَبَالِهِ الأَرْعَنِ وعن المَيْلِ غيرِ المحسوسِ المؤدَّى إلى جميع الدَّعَارَاتِ بالدَّعْرِ الأولِ والذي يوجب خُسْرانَ من يتعاطاها في نهاية الأمر ، وإلى أنه إذا ما أُطْلِعَ بوضوح ، كما أقول ، على أن الصحة والقوة والشجاعة والفضائل ، حتى الحبِّ ، وجميع منافع الإنسان الحقيقية أمورٌ تتوقف على الرغبة في الطَّهَرِ ، أذهب إلى أنه يُجْعَلُ له ، إذ ذاك ، ذلك الطَّهَرُ المزيَّرُ المَشْهُودُ ، وأنه يَظْهَرُ ذا ذهنٍ منقادٍ لِمَا يُعْطَاهُ من الوسائلِ حِفْظًا لذلك الطَّهَرِ ، وذلك أنه كلما حُفِظَ احْتَرِمَ ، وهو لا يُزْدَرَى إلا بعد ضياعه .

ومن غير الصحيح مطلقاً أن يكون المَيْلُ إلى الشرِّ أمراً لا يُشْهَرُ ، وأن الإنسان لا يكون قادراً على قَهْزِهِ قبل أن يَتَعَوَّدَ الوقوعَ فيه ، ويقول أورليُّوسُ فَيَكْتُمُورُ إن رجالاً كثيراً أفقدهم الحبُّ رَشْدَهُم فاشْتَرَوْا بِحَيَاتِهِمْ لَيْلَةً من ليالى كَلْيُوبَاتِرَةِ مختارين ، وأن هذه التضحية ليست من المُحَالِ على تَمَلِّكِ الهَوَى ، ولكنْ لِنَفْتَرِضْ أن أكثر الناسِ هياجاً وأقلَّهم سيطرةً على شَهَوَاتِهِ يَرَى جِهَازَ العِقَابِ مُوقِنًا بأنه سَيَهْلِكُ به مع النِّكَالِ بعد رُبْعِ ساعة ، فهذا الرجلُ يَصِيرُ أرفعَ من كُلِّ إغواءٍ منذ هذه الدقيقة ، حتى إنه لا يلاقى غيرَ قليلٍ في مقاومته ، وذلك أن ما يلزم ذاك الإغواءَ من خيالٍ كَرِيهِه يَصْرِفُهُ عنه من قُوْرِهِ ، وذلك أنه يعتري ذاك الإغواءَ الذي يُحْمَدُ

دائماً كَلالٌ فلا يماوده ، وهذا هو فتورُ إرادتنا الوحيدُ الذي يُوجبُ جميعَ ضَعْفِنَا ، ونحن من القوة دائماً ما نَصْنَعُ معه ما يُرادُ بقوة ، « فلا شيء يصُعبُ على الإرادة القوية » ، آه ! لو كنا نَرُدُّرى المُنْكَرَ بمقدار ما نُحِبُّ الحياة ، ونحن نَمْتَنِعُ عن اِقْتِرَافِ ذَنْبٍ لذيذ امتناعنا عن تناول سُمِّ قَاتِلٍ في طبقٍ لذيذ .

وكيف لا يُرى أن جميع الدروس التي تُتَلَقَّى على الفتى إذا كانت غير ناجحةٍ فذلك لعدم ملامتها لِسِنِّه ، فيكونُ من المهمِّ في كلِّ دورٍ من أدوار العمر أن يُكسَى العقلُ أشكالاً تَجَعَلُهُ محبوباً ، فخطبوه باتزانٍ عند الاقتضاء ، ولكنَّ لِيَكُنْ ما تقولون له من الجاذبية في كلِّ وقتٍ ما يَحْمِلُهُ على الإنصات لكم ، ولا تكافحوا مُيُولَهُ بِجَفَاءٍ ، ولا تَحْنُقُوا خِيَالَهُ ، وَكُونُوا أدلاءً لهذا الخيال خشيّةً أن يَلِدَ غِيلاً ، وَحَدِّثُوهُ عن الحُبِّ والنساء والمَلَذِّ ، واصنعوا ما يَجِدُ معه في حديثكم فتوناً يَدَارَى به قلبه الفَتَى ، ولا تَدَخِرُوا وَسْماً حتى تُصْبِحُوا نَجِيّاً له ، وليس بغيرِ هذا ما تَعْدُونَ سيِّداً له حقاً ، وهنالك لا تَحْشَوْنَ ، بَعْدُ ، أن تُورِثَهُ أحاديثكم سَأْماً ، فهو سَيَحْمِلُكُمْ على الكلام أكثر مما تريدون .

ولا أشكُ ثانيةً في أنني إذا عَرَفْتُ اتَّخَذَ جميعَ التحفظات الضرورية حولَ هذه المبادئ وخطبتُ إميلَ بكلام ملائمٍ لِمَا يُفْتَرَضُ انتهاؤه إليه بتقدم السنين فإنه يأتي من تلقاء نفسه إلى النقطة التي أودُّ سَوْقَهُ إليها فيصع نفسه تحت ظِلِّ جِهَمَةٍ ويكأْمُنِي بكل ما عليه عُمره من حرارةٍ متأثراً بالأخطار التي يَرَى نفسه محاطاً بها قائلاً : « أَيْ صَدِيقِي وَظَهِيرِي وَمَعْلَمِي ! اسْتَرِدَّ

السلطان الذى تريد أن تتخلى عنه فى الحين الذى يكون أكثر ما يهمنى بقاءه لك ، وأنت لم تحزه حتى الآن بغير ضعفى ، وستحوزه الآن بإرادتى ، وسيكون لدى أقدم ما يمكن ، واحفظنى من جميع الأعداء الذين يحيطون بى ، ولا سيما الذين أحمل معى فيخونونى ، واسهر على من صنعت حتى يبقى جديراً بك ، وأريد إطاعة قوانينك ، وأريد هذا دائماً ، وهذه إرادتى الثابتة ، وإذا ما عصيتك كان هذا على الرغم منى ، واجعلنى طليقاً بوقايتى من أهوائى التى تقصبنى ، وحل دون كونى عبداً لها ، وألزمى بأن أكون سيداً نفسى بعصيانى أهوائى ، لا عقلى .

وإذا ما جَلَبْتُمْ تلميذكم إلى هذه النقطة (ويقعُ الذنبُ عليكم إذا لم يأت إليها) فاحترزوا من الإسراع فى مؤاخذته على الكلمة ، وذلك خشية أن يظهر سلطانكم له جافياً جداً فيرى من حقه أن يتخلص منه متهماً إياكم بأنكم أخذتموه على حين غفلة ، وذلك هو الوقت الذى يكون فيه التحفظ والوقار فى محلّهما ، وسيكون هذا الوضع أكثر ما يمكن تأثيراً فيه إذا ما اتخذتموه نحوه أول مرة .

ولذا فستقولون له : « أنت تلزم نفسك ، أيها الفتى ، إلزاماً خفيفاً بتعهدات شاقة ، ولا بد من معرفتها قبل أن يكون لك حق صوغها ، وأنت لا تعرف بأية صولة تسوق الأهواء أمثالك إلى هوة المنكرات تحت جواذب اللذة ، وأعرف جيداً أنك لست صاحب نفس دينثة ، وأنت لن تنقض عهدك ، ولكن ما أكثر ما يمكن أن يكون من ندمك على إعطائك إياه ! وما أكثر ما ستلعن صديقك الذى يجد أنه مضطرب إلى

كسري قلبك حفظاً لك من الآثام التي تهددك ! وستكون مثل أوليس الذي حرّكه غناه سيرن فصاح بمجدفي قاربه لفك قيوده ، فتريد كسر الأغلال التي تضيقك عن إغواء جاذبية الملاذ لك ، وستزجني بعويلك ، وستلومني على استبدادي حينما أكون أكثر ما يمكن أكثرًا لك مع الرقة ، وسأجلب مقتك إلى نفسي مع عدم تفكيري في غير سعادتك ، ويا إميل ، لن أطيق مطلقاً ألم كوني مكروهاً لديك ، حتى إن سعادتك غالية كثيراً بهذا الثمن ، أولاً ترى ، أيها الفتى العزيز ، أنك إذا ما أكرهت نفسك على إطاعتي أكرهتنى على قيادتك ، وعلى نسيان نفسي وفقاً لها عليك ، وعلى عدم الإنصات لتوجّحك وتذمّرك ، وعلى مكافئة ميولك وميولي بلا انقطاع ؟ وأنت تفرض على نيراً أفسى من نيرك ، فلنزن قوّانا قبل حملهما ، وخذ فرصة للتفكير وأعطني مثلها ، واعلم أن أبطأ ما يوعد هو أصدق ما ينجز .

واعلموا ، أيضاً ، أنكم كلما جعلتم العهد صعباً سهّل تنفيذه ، والمهم في أن يشعر الفتى بأنه يعد كثيراً وبأنكم أكثر منه وعداً ، ومتى حلّ الوقت وأمضى العقد فغيروا اللهجة ، وضعوا من الحلم في سلطانكم ما يعدل الشدة التي أعلنتم ، وقولوا له : « أي صديقي العزيز ، تعوزك التجربة ، ولكنني صنعت ما لا يعوزك العقل معه ، وأنت في حال تبصر بها سلوكي من كل وجه ، ولذا فليس عليك غير الانتظار هادئ البال ، وابدأ بالطاعة دائماً ، ثم اطلب حساباً عن أوامري ، وسأكون مستعداً لتقديمه إليك عندما تكون مستعداً للإصغاء إليّ ، ولن أخشى اتخاذك حكماً بيني وبينك ، وأنت تعد بأن تكون طائعاً ، وأنا أعد بالآلة أستعمل هذه الطاعة إلا

لأجعلك أسعدَ الناس ، واتَّخِذِ النصيبَ الذى تمتعتَ به حتى الآن ضامنًا
لوَعْدِي ، ودُلِّنى على واحدٍ من لِدَاتِكَ قَضَى حَيَاةً حُلُوَّةً مِثْلَ حَيَاتِكَ ،
ولا أُعِدُّكَ بِخَيْرٍ من هذا .

وسَيَكُونُ أولُ ما أُغْنَى به ، بعد إقامة سلطاني ، هو أن أَبْعِدَ ضرورةَ
استعْمالٍ له ، وإن أَدَّخِرَ وُسْعًا بأن أكون محلَّ ثَقْتِهِ بالتدرِجِ وبأن أكون
نَجِيَّ فُؤَادِهِ وحَكَمَ مَلَاذِهِ مقداراً فقِداراً ، وسَأَتَجَنَّبُ مَكْلَافَةَ مُيُولِ سِنِّهِ
مُسْتَطْعِماً بِإِيَّاهَا كَمَا أُسَيِّطِرُ عَلَيْهَا ، وسَأَنْظُرُ إِلَى الْأُمُورِ مِنْ حَيْثُ وَجْهَاتُ
نَظَرِهِ حَتَّى أُوجِّهَهَا ، ولن أبحثَ له عن سَعَادَةٍ بَعِيدَةٍ عَلَى حَسَابِ الْحَاضِرِ ،
ولا أريدُ أن يكونَ سَعِيداً لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مُطْلَقاً ، بل لِيَكُونَ سَعِيداً دَائِماً
إِذَا كَانَ هَذَا مُمْكِناً .

ومن يَوَدَّ تَوْجِيهَ الشَّبَابِ بِحِكْمَةٍ حِفْظًا لَهُ مِنْ أَشْرَاكِ الْأَهْوَاءِ يَحْمِلُهُ
عَلَى مَقْتِ الْغَرَامِ وَيَجْمَلُ لِمَنْ فِي سِنِّهِ جُزْماً مِنَ التَّفَكِيرِ فِيهِ ، كما لو كان
الْغَرَامُ قَدْ صُنِعَ لِلشَّيْبِ ، وما كانتْ جَمِيعُ هَذِهِ الدَّرُوسِ الْخَادِعَةِ الَّتِي يُكْذِّبُهَا
الْقَلْبُ لَتُقْنِعَ مُطْلَقاً ، وَفِي السَّرِّ يَضْحَكُ الشَّابُّ الْمُسَيَّرُ بِغَرِيزَةٍ أَكْثَرَ
صِدْقاً مِنَ الْمَبَادِي الْكَثِيَّةِ الَّتِي يَتَظَاهَرُ بِقَبُولِهَا ، وَلَا يَنْتَظِرُ غَيْرَ السَّاعَةِ الَّتِي
يَنْبِذُهَا فِيهَا ، وَكُلُّ هَذَا مُخَالَفٌ لِلطَّبِيعَةِ ، وَأَبْلُغُ عَيْنَ الْهَدَفِ عَلَى وَجْهِ
أَكْثَرِ ضَمَانًا إِذَا مَا سَلَكَتُ سَبِيلًا مَعَاكِسًا ، وَإِنِ أَخْشَى ، مُطْلَقاً ، أَنْ
أُذَارِيَ فِيهِ مَا هُوَ مُوَلَّعٌ بِهِ مِنْ إِحْسَاسِ حُلُوٍّ ، وَسَأُصَوِّرُهُ لَهُ مِثْلَ سَعَادَةٍ
لِلْحَيَاةِ سَامِيَةٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ هَكَذَا بِالْحَقِيقَةِ ، وَإِنِّي ، إِذَا أُصَوِّرُهُ لَهُ ، أُرِيدُ
أَنْ يَنْهَمِكَ فِيهِ ، وَإِنِّي ، إِذَا أُشْعِرُهُ بِمَا يُضَيِّفُ اتِّحَادَ الْقُلُوبِ مِنْ فُتُونٍ

إلى جواذبِ الهوى ، أوحى إليه بالنفور من الفجور ، فأجعله حكيماً إذ
أجعله عاشقاً .

ويا لِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ ضَيْقِ الذَّهْنِ حَتَّى لَا يُبْصَرَ فِي الْمَيُولِ
النَّاشِئَةِ لِلْفَتَى غَيْرُ عَوَائِقٍ لِدُرُوسِ الْعَقْلِ ! وَأَمَّا أَنَا فَأَرَى فِيهَا وَسِيلَةً صَحِيحَةً
لِجَعْلِهِ مُنْقَاداً لِهَذِهِ الدُّرُوسِ عَيْنَهَا ، وَلَا يُسَيِّطَرُ عَلَى الْأَهْوَاءِ بِغَيْرِ الْأَهْوَاءِ ،
وَيَجِبُ أَنْ يَكْفَحَ اسْتِدَادُ الْأَهْوَاءِ بِسُلْطَانِ الْأَهْوَاءِ ، وَيَجِبُ أَنْ تُسْتَخْرَجَ
الْأَدَوَاتُ الصَّالِحَةُ لِنَتْظِيمِ الطَّبِيعَةِ مِنَ الطَّبِيعَةِ نَفْسَهَا .

وَلَمْ يُصْنَعْ إِمِيلُ لِيَبْقَى وَحِيداً دَائِماً ، وَهُوَ عُضْوٌ فِي الْمَجْتَمَعِ ، فَيَجِبُ
أَنْ يَقُومَ بِوَاجِبَاتِهِ ، وَهُوَ قَدْ صُنِعَ لِيَعِيشَ مَعَ النَّاسِ ، فَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَهُمْ ،
وَهُوَ يَعْرِفُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْعَمُومِ ، فَيَبْقَى عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ الْأَفْرَادَ ، وَهُوَ
يَعْرِفُ مَا يُصْنَعُ فِي الْعَالَمِ ، فَيَبْقَى عَلَيْهِ أَنْ يَرَى كَيْفَ يَعِيشُ النَّاسُ فِيهِ ،
وَقَدْ أَتَى وَقْتُ إِطْلَاعِهِ عَلَى وَجْهِ هَذَا الْمَسْرَحِ الْعَظِيمِ الَّذِي عَرَفَ جَمِيعَ
أَلْبَابِهِ الْخَفِيَّةِ ، وَقَدْ عَادَ لَا يَحْمِلُ إِلَيْهِ مَا يَصْدُرُ عَنْ الْفَتَى الطَّائِشِ مِنْ إِعْجَابٍ
نَخِيفٍ ، بَلْ يَحْمِلُ إِلَيْهِ إِدْرَاكُ ذَهْنٍ مُسْتَقِيمٍ صَائِبٍ ، وَلَا رَيْبَ فِي إِمْكَانِ
مُخَادَعَةِ أَهْوَاءِهِ لَهُ ، وَمَتَى كَانَتْ هَذِهِ الْأَهْوَاءُ لَا تَخْذَعُ مِنْ يَنْقَادُونَ لَهَا ؟
وَلَكِنَّهُ لَا يُخْذَعُ ، مُطْلَقاً ، بِأَهْوَاءِ الْآخَرِينَ عَلَى الْأَقْلَ ، وَهُوَ إِذَا مَا أَبْصَرَ
أَبْصَرَ بِعَيْنِ الْحَكِيمِ ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجَرَّ بِأَمْثَلِهِمْ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ
يُغْوَى بِمُبْتَسِرَاتِهِمْ .

وَكَمَا أَنَّهُ يُوجَدُ عُمَرُ صَالِحٌ لِلدِّرَاسَةِ الْعُلُومِ يُوجَدُ عُمَرُ صَالِحٌ لِإِدْرَاكِ
عُرْفِ الْعَالَمِ ، وَمَنْ يَتَعَلَّمُ هَذَا الْعُرْفَ فِي فَتَاوِهِ الْبَاكِرِ يَدْبِغُهُ مَدَى حَيَاتِهِ

بلا خِيَارٍ ولا تَأْمُلُ ، ومن غير أن يَعْرِفَ جيداً ما يَفْعَلُ مطلقاً ، وإن كان مع الجِدَّارَةِ ، ولكن الذى يتعلمه وَيَرَى أسبابه يَتَّبِعُهُ بتمييزٍ أَكْثَرَ من ذاك ، ومن ثَمَّ يَتَّبِعُهُ بسدادٍ وَكِياسَةٍ أَكْثَرَ من ذاك ، وأعطونى ولداً فى الثانية عشرة من سِنِيهِ غيرَ عارفٍ شيئاً ، فإذا ما بَلَغَ الخامسَ عَشَرَ من عُمرِهِ وَجَبَ عَلَى أن أَعِيده إليكم عالماً بمثل ما عليه الولد الذى عَلَّمْتُمُوهُ منذ الدور الأول من العُمُر ، وذلك مع الفارق القاتل إن معرفة ولدكم لا تكون فى غير ذاكرته ومعرفة ولدى تكون فى تمييزه ، وكذلك أَدْخِلُوا إلى العالمِ فَتَى ابناً للعشرين من عُمرِهِ ، فإذا ما أَحْسِنَ تسييرُهُ كان فى عَامٍ واحدٍ أَكْثَرَ أنْسًا وأَعْظَمَ تَهْذِيباً مع الحِصَافَةِ من ذاك الذى غُذِيَ بِذلك منذ صِبَاهُ ، وذلك لأن الأول إِذْ يَكُون قادراً على الشعور بأسباب جميع الأساليب الخاصة بالعُمُر والحال والجنس ، أى بالأمور التى تتألف منها تلك المادة ، فإنه يستطيع أن يَرُدَّ هذه الأمورَ إلى مبادئٍ وأن يَجْعَلَهَا شاملةً لأحوالٍ غيرِ منتظرة ، وذلك على خلاف الآخر الذى ليس عنده غيرُ رُتِينَةٍ* حَوْلَ كُلِّ قَاعِدَةٍ فيرتبك فورَ خروجه منه .

وَيُنشَأُ جميع الأوانسِ من الفرنسيات فى الأديار حتى يُرَوِّجُنَ ، وهل يُرَى أَنهن يَحِدْنَ ، إِذْ ذاك ، مشقةً فى اتِّخَاذِ تلك الأوضاعِ التى يُبَصِّرُنَهَا بالغةَ الجِدَّةِ ؟ وهل يُتَّهَمُ نساءُ باريسَ بعدمِ اللباقة وبالترُّدِّ وبجهلِ ما اصْطَلَحَ عليه العالمُ لأنهنَّ لم يَتَعَلَّمْنَ منذ صِبَاهُنَّ ؟ يَأْتِى هذا المُبْتَسِرُ من رجالِ العالمِ الذين لا يَعْرِفُونَ شيئاً أَهَمَّ من ذلك العلمِ التافهِ فَيُخَيَّلُ

إليهم ، زوراً ، أن من غير الممكن تحصيله بسرعة .

والحق أنه لا يجوز الانتظار طويلاً ، ومن يقض جميع شبابه بعيداً من العالم الأكبر يحتمل إليه في بقية حياته تردداً واقتساراً وقصداً بلا داع دائماً وأوضاعاً ثقيلة خرقاً ، فيعود غير قادر على التخلص منها بعادة العيش في ذلك العالم ، ولا ينال غير مظهر جديد من السخرية بما يبذل من جهد للخلاص منها ، ولكل نوع من التعليم زمانه الخاص الذي يجب أن يعرف وأخطاره التي يجب أن تجتنب ، وتتجمع الأخطار في هذا الدور من العمر على الخصوص ، ولكنني لا أعرض لها تلميذ من غير احتياطٍ لوقايته منها .

ومتى أصاب منهاجى عين الهدف من جميع الوجوه ، ومتى دفع محذوراً فمتع من وقوع محذور آخر ، حكمت بأنه صالح وبأننى على الحق ، وهذا ما يظهر أنى أبصره في الطريقة التي يوحى إليها هنا ، وإذا أردت أن أكون صارماً جافياً مع تلميذى أضعت ثقته وتوارى عني من فوره ، وإذا أردت أن أكون ياسراً سهلاً أو متفاضياً فما يكون نفعه من وجوده تحت حراستى ؟ لا أكون صانماً غير إجازة لجوره وترويح ضميره على حساب ضميرى ، وإذا ما أدخلته إلى العالم عازماً على تعليمه فقط فإنه يتعلم أكثر مما أريد ، وإذا ما أبعدته عن العالم حتى النهاية فما يكون قد تعلم منى ؟ كل شيء على ما يحتمل ، وذلك خلا أزم فني للإنسان والمواطن ، أى معرفة السلوك مع أمثاله ، وإذا ما وسمت هذه العناية بفائدة بعيدة كثيراً كانت هذه الفائدة هباءً منثوراً ، فالخاضر هو

ما يلتفت إليه ، وإذا ما اقتصرتُ على تزويده بالألهوات فما الخيرُ الذي أكونُ قد صنعتُ له ؟ إنه يَحْنُثُ ولا يتعلمُ مطلقاً .

لا شيء من كلِّ ذلك ، وطريقي تتلافى جميعَ ذلك ، وأقول للفتى : يحتاج فؤادك إلى رفيقة ، فدعنا نذهب للبحث عن التي تلائمك ، ومن المحتمل ألاَّ نجدَها بسهولة ، فالزينةُ الحقةُ نادرةٌ دائماً ، ولكننا لا نستعجل ولا نحيبُ أبداً ، ولا مرء في وجود واحدة من هذا الطراز ، وأنا سنجدُها في آخر الأمر ، أو نجدُ واحدةً قريبةً منها كثيراً على الأقل ، فهذا العزمُ المدالي له أدخلُه إلى العالم ، وما احتياجي إلى قولٍ أكثر من هذا ؟ ألا ترون أني قمتُ بكلِّ شيء ؟

ويمكنكم ، حين أصفُ له الخليفةَ التي أعدها له ، أن تتصوروا هل أستطيعُ إسماعَ نفسي ، وهل أستطيعُ جعلَ الصفاتِ التي يجبُ أن يحبَّ مقبولةً لديه عزيزةً عليه ، وهل أستطيعُ أن أهَيَّ جميعَ مشاعره لما يجبُ أن يَبْحَثَ عنه أو يَفِرَّ منه ، وأعدُّ أخرجَ الناس إذا لم أجعله مؤلفاً مقدّماً من غير أن يَعْرِفَ مَنْ هِيَ ، وليس من المهمَّ أن يكون الشخصُ الذي أصفُ له خيالياً ، فيكفي أن يُنْفَرَهُ ممن يُمكن أن يُنَوِّيه ، ويكفي أن يُبْلِقَ في كلِّ مكانٍ مقارناتٍ تجعله يُفَضِّلُ خياله على الأشخاص الحقيقيين الذين يَقْفُون نظره ، وما الغرام الحقيقيُّ إن لم يكن خيالاً وميناً ووهماً ؟ نَحْبُ الصورةَ التي تُتَخَيَّلُ أكثرَ جدّاً من الشخص الذي تُطَبَّقُ عليه ، وإذا ما نُظِرَ إلى الشخص الذي يُحِبُّ كما هو عليه عاد لا يكون في الدنيا حُبٌّ ، وإذا ما كُفَّ عن الحُبِّ بقي

الشخصُ الذي يُحِبُّ هو عَيْنُهُ كما كان سابقاً ، ولكنه عاد لا يُرَى كما كان يُرَى ، والواقعُ أنني ، إذ أزوّدُ بالشخص الخياليُّ ، أكون مسيطراً على المقارنات مانعاً بسهولةٍ من الوهمِ حَوْلَ الأشخاص الحقيقيين .

ولا أريدُ ، للوصول إلى هذا ، أن يُخَادَعَ الفَتَى بأن يُصَوِّرَ له نموذجٌ من الكمال لا يُمكن أن يوجدَ ، ولكنني أبلغُ من اختيار معائب خليلته ما يلائمه وما يروقه فيَنفَعُ في إصلاح معاييه ، وكذلك لا أريدُ أن يُكْذَبَ عليه مُوَكِّداً زوراً كَوْنِ الشخص الذي يُصَوِّرُ له موجوداً ، ولكن الصورة إذا ما طابت له لم يَلْبَثْ أن يَتَمَنَّى لها أصلاً ، وبَسْهَلٍ قَطَعَ المسافة بين التَمَنَّى والافتراض ، وهذا من عَمَلِ بعض الأوصاف اللبقة التي تُسَبِّغُ على هذا الشخص الخياليِّ مَسْحَةً كبيرة من الحقيقة تحت صفاتٍ أكثر وضوحاً ، وأبعدُ فأذهبُ إلى حَدِّ تسميته ، فأقول ضاحكاً : دعنا ندعُ خليلتك القادمة صُوفِيَّةَ ، وصُوفِيَّةُ اسمٌ مَيِّمُونَ ، ولو كانت التي ستختارُ غيرَ حاملةٍ لهذا الاسم لكانت جديرةً بِجَمَلِهِ على الأقلِّ ، ولِذَا يُمكننا أن نُكْرِمَهَا به سَلَفًا ، ولو كنا ، بعدَ جميع هذه التفاصيل ، قد تَقَلَّتْنَا بأعذارٍ ومن غيرِ تصديقٍ ولا إنكارٍ لتحولت رِيْبُهُ إلى يقين ، ولاعتقد أنه يُنسَجُّ له مِرٌّ حَوْلَ الزوجة التي تُعدُّ له وأنه سيراها متى أتى له ذلك ، وهو إذا ما انتهى إلى هذه النتيجة ذات مرةٍ وأُحْسِنَ اختيارُ الأوصاف التي يجب إطلاعه عليها سَهْلٌ كُلُّ ما بَقِيَ ، فأمكن عَرَضُهُ على العالم بلا خطرٍ تقريباً ، وإنما صُونُوهُ من حَسِّيَّاتِهِ ليطمئنَّ قلبُهُ .

ولكن ، سواءً عليه أَشْخَصَ النموذج الذي استطعتُ أن أُحِبَّهُ إليه

أم لم يُشخصه ، لا يَقِلُّ رِبْطُ هذا التَّمُودَجِ إِيَّاهُ ، عند إِتْقَانِ صُنْعِهِ ، بكلِّ من يُشَابِهُهُ ، ولا يَقِلُّ إِبْعَادُهُ إِيَّاهُ من كُلِّ من لا يُشَابِهُهُ ، كما لو كان شخصاً حقيقياً ، ويا لِلْخَيْرِ في وقاية قلبه من الأخطار التي يُعْرِضُ لها شَخْصُهُ ، وفي زَجْرِ حِسِّيَّاتِهِ بِخِيَالِهِ ، وفي نَزْعِهِ ، على الخصوص ، من هؤلاء الواهبات للتربية اللاتي يُقَدِّمْنَها غالية الثمن ، واللاتي لا يُعَلِّمْنَ الفتى أدباً إلَّا بِخُلْمِهِنَّ منه كُلِّ عِذَارٍ ! ويا لحياة صُوفِيَّةَ البالغ ! فبأى عَيْنٍ تَنْظُرُ إلى ما يُقَدِّمْنَ ؟ ويا لبساطة صُوفِيَّةَ الكثيرة ! فكيف تُحِبُّ ظواهرهنَّ ؟ إنهن بعيدات من أفكارِه وتَرَصُّدَاتِه ، فلا يَكُنْ خَطَرَاتٍ عليه مطلقاً .

وَيَنْبَغُ جَمِيعُ من يتكلمون عن حكومة الأولاد عَيْنَ التُّبَنَسَرَاتِ وَعَيْنَ المبادئ ، وذلك عن سوء رَقَابَةٍ ، وعن سوء تَأْمَلٍ أَيْضاً ، وبالرأى يَبْدَأُ ضَلَالُ الشَّبابِ ، لا بِالْمِزَاجِ ولا بِالْحِسِّيَّاتِ ، ولو بحثُ هنا عن الفَتَيَّانِ الذين يُنْشَأُونَ في الكليات ، وعن الفَتَيَّاتِ اللاتي يُنْشَأْنَ في الأديار ، لأُظْهِرْتُ صَحَّةَ ذلك حتى من ناحيتهم ، وذلك لأن الدروس الأولى التي يتلقاها أولئك وهؤلاء ، وهى الدروسُ الوحيدةُ التي تُثِيرُ ، هى دروسُ المُنْكَرِ ، والقُدُوةِ ، لا الطَّبِيعَةِ ، هى التي تُفْسِدُهُمْ ، ولكن لِنَتْرُكْ لتلاميذ الكليات والأديار أخلاقهم الفاسدة لِنَعْتَذِرِ إِصْلَاحِهِمْ دائماً ، فلا أَتَكَلَّمُ عن غير التربية المنزلية ، وتناولوا فَتَى نُشِئَتْ نَشْئَةً حَسَنَةً في بيت أبيه بالملْحَقَاتِ ، وانْحَثُوا في أمره حين وصوله إلى باريس أو دَعُوهُ يَدْخُلُ المَجْتَمِعَ ، تَحِدُّوهُ مَفْكَراً في أمورٍ صالحة كثيرة ، صاحباً لعزمه سليم

وعقلٍ مستقيم ، وتَرَوْهُ مزدرياً للمُنْكَرِ كارهاً للفُجور ، وتُبْصِرُوا في عينيه دليلَ الطُّهْرِ عند ذكر آية مُومِس ، وأرى أنه لا يُوجَدُ فَتَى يُمَكِّنُ أن يَعِزِمَ على الدخول بمفرده منازلَ هؤلاء الشَّقِيَّاتِ الكَثِيَّةِ ، ولو كان علماً بعادتها شاعراً بالحاجة إليها .

ثم ارجِعُوا البَصَرَ إلى الفَتَى عَيْنِهِ بعد ستة أشهر لتَرَوْا أنكم عُدْتُمْ غيرَ عارفين إياه ، وذلك أَنَّ ما يكون من أحاديثه الجريئة ومبادئه العصرية وأوضاعه الطليقة يَحْمِلُ على عَدِّه إنساناً آخرَ ، وذلك لولا أن فُكاهاته حَوَّلَ بساطته الأولى وما يعتريه من خَجَلٍ حين تذكيره بها تَدُلُّ على أنه هُوَ هُوَ وعلى أنه يَسْتَحِي من نفسه ، وئى ! ما أَكْثَرَ ما تَحَوَّلَ في وقت قليل ! ومن أين يأتى هذا التغير الكبير المفاجئ ؟ يأتى من نشوء المزاج ، أو ما كان يَتَّفِقُ لمزاجه ذاتُ التقدم في المنزل الأبوى ؟ لا رَيْبُ أنه ما كان لِيَتَّخِذَ ذاتَ الصُّبْغَةِ ولا ذاتَ المبادئ ، أَمَلَاذُ الحواسِّ الأولى ؟ إنه إذا ما أُخِذَ ، على العكس ، في تعاطى ذلك اتَّصِفَ بالجزع والهلع ، واجْتَنَبَ النُّورَ والضوضاء ، وتَكُونُ الشَّهَوَاتُ الأولى حافِلةً بالأسرار دائماً ، وَيُتَبَلَّها الحياة وَيَسْتَرُّها ، ولا تَصْنَعُ الخليلَةَ الأولى ماجناً ، بل تَصْنَعُ خجولاً ، ويستغرقُ هذا الوضعُ التامَّ الجِدَّةَ جميعَ الفَتَى فَيَجْمَعُ حواسَّهُ لِيَتَمَتَّعَ به ، فيرتجفُ دائماً خَشْيَةً أن يُضَيَّعَ ، ولو كان صَخَّاباً ما كان شَهْوَانِيّاً ولا ناعماً ، ولا يُعَدُّ مَتَمَتِّعاً ما دام مُتَبَجِّجاً .

وللتفكير وجوهٌ أخرى نشأت هذه الفروقُ عنها وحدَها ، ولا يزال فؤادُه كما هو ، ولكن آراءه تغيرت ، وتَفْسُدُ أحاسيسُه بأبطأ من فساد آرائه ،

وهي تفسد بهذه الآراء في آخر الأمر ، وهناك فقط يكون فاسداً حقاً ، وهو لا يكاد يَدْخُلُ المجتمع حتى يتلقى فيه تربيةً ثانيةً مُبَايِنَةً للأولى ، فيتعلَّم بها ازدياء ما كان يُقدِّرُ ، ويُقدِّر ما كان يزُدِّرِي ، أى إنه يعدُّ دروسَ والديه ومعلميه رطانةً حَذْلَقَةً ، ويعدُّ ما يعطونه به من واجباتٍ علماً ضيائياً في الأخلاق لا معدِّل له عن الاستهانة به بعد أن صار كبيراً ، وهو يعتقد اضطرابه إلى تغيير سلوكه عن شرفٍ فيغدو جريئاً مع النساء بلا رغبةٍ ومزهُواً عن حياةٍ سيِّئٍ ، وهو يهزأ بصالح الطبائع قبل أن يذوقَ فاسدها ، وهو يفاخر بالدَّعَر من غير أن يكون داعراً ، ولن أنسى اعترافَ ضابطٍ شابٍ في الحرس السويسرى كان يَتَبَرَّم كثيراً من لهُو رفقائه الصاحب فلا يَجْرُو على رفض الاشتراك فيه خَشْيَةً استهزائهم به ، وقد قال : « إننى أتمرَّن على هذا كما أتمرَّن على تعاطي التَّبغ مع ما يساورنى من نُفور ، ويأتى الذوق بالعادة ، فلا يجب أن يبقى الإنسان صيياً دائماً » .

وهكذا فإنه يجب صَوْنُ الفَتَى الداخلِ في المجتمع من الزُّهو أكثر من الشهوة ، فالفتى يُذْعِن لميُول الآخرين أكثر من إذعانه لميُول نفسه ، وَيَصْنَعُ حُبُّ النفس فُجَّاراً أكثر مما يَصْنَعُ الغرامُ .

وأسأل بعد بيان ذلك : هل يُوجَدُ في العالم بأجمعه إنسانٌ كتلميذى مُسَلَّحٌ تجاه كلِّ ما يُمكن أن يهاجمَ أخلاقه ومشاعره ومبادئه ، قادرٌ على مقاومة السَّيْل ؟ وذلك تجاه أىِّ إغواء لا يكون مدافعاً ؟ فإذا كانت ميُوله تسوقه إلى الجنس الآخر لم يجد فيه من يَبْحَثُ عنها ، ويُمسِكُهُ فؤاده المهوم ، وإذا كانت حواسه تُحرِّكه وتُحدِّث قلبه فأين يجد ما يَقْضِي به

وَطَرَهَا ؟ يُقْصِصُهُ مَقَّتَهُ لِلزَّيِّ والفجور عن المومسات والمتزوجات على السواء ،
ويبدأ فِسْقُ الشباب مع أيٍّ من هذين الفريقين دائماً ، أَجَلٌ ، قد تكون
الفتاة الصالحة للزواج مَغْنَجًا ، ولكنها لا تكون خالعة العذار ، وهي
لا تذهب إلى إلقاء رأسها على فَتَى يُمَكِّنُ أن يتزوجها إذا ما اعتقد حُسْنَ
سلوكها ، ثم إنها تَجِدُ مَنْ يَقُومُ بِرَقَابَتِهَا ، وكذلك إميلُ لن يُوكَلَّ إلى
نفسه تماماً ، وَسَيَجِدَانِ في الخوف والحياء ، على الأقل ، رقيبين ملازمين
للهيول الأولى ، فلا ينتقلان إلى آخر الدلال بفتة ، ولا يكون ليهما من
الوقت ما يأتياه بالتدريج من غير عَقَبَات ، ولا بُدَّ لسلوكه غير هذا السبيل
من أن يكون قد تَلَقَّى درساً من رفقائه فتعلم منهم أن يَسْخَرَ من زَجَرِ
نفسه وأن يصير ماجناً على غِرَارِهِمْ ، ولكن أيُّ إنسانٍ في العالم يَكُونُ
أَقْلَ من إميلٍ تقليداً ؟ وأيُّ إنسانٍ يكون أَقْلَ تَأَثُّراً بالسُّخْرِيَّةِ من هذا
الذي ليست لديه مُبْتَسِرَاتٌ ولا يستطيع أن يَخْضَعَ لمبتسرات الآخرين ؟ لقد
عَمِلْتُ عشرين عاماً في تسليحه ضدَّ المستهزئين ، وهم يحتاجون إلى أكثر من
يومٍ واحد حتى يُفَرَّ بهم ، وذلك لأنه يرى المَهْزَاةَ في برهان الأغبياء ،
ولأنه لا شيء يَجْعَلُ الإنسانَ غير متأثرٍ بالسُّخْرِيَّةِ سوى وجوده فوق
المُبْتَسَرِ ، وهو يحتاج إلى براهين بدلاً من الفكاهات ، ولا أخشى أن
يَنْزِعَهُ الفِتْيَانُ الجانين مني ما وَقَفَ عند ذلك الحدِّ ، فالضميرُ والحقيقةُ هما
ما أَبْصِرُ بجانبِي ، وإذا ما وَجَبَ تَدَخُّلُ المُبْتَسَرِ في الأمر كان تَعَلُّقُ عشرين
عاماً شيئاً يَذْكَرُ أيضاً ، فلن يُوجَدَ من يُقِنِّعُهُ بأنني أوريثته سائماً بدروسٍ
فارغة ، ومن شأن صوت الصديق الخالص الصادق أن يَمْحُوَ في القلب المستقيم

الحسَّاس كلَّ أثرٍ لأصوات عشرين من الفاوين ، وبما أن الأمر يدورُ ،
 حَصْرًا ، حَوْلَ إطلاعه على مخادعتهم له ، وعلى أنهم ، حينَ يتظاهرون
 بمعاملته مِثْلَ رجلٍ ، يعاملونه مِثْلَ ولدٍ بالحقيقة ، فإننى أُنْظَاهِرُ بالبساطة
 ولكن مع الاتزان والوضوح فى براهينى ، وذلك كَمَا يَشْعُرُ بَأْنِى أَنَا الَّذِى
 يَعْمَلُهُ مِثْلَ رَجُلٍ ، فَأَقُولُ لَهُ : « تَرَى أَن مصلحتك الوحيدة التى هى
 مصلحتى هى التى تُنْجِى عَلَى كَلِمِى ، وَلَا يُمَكِّنُنِى أَن أَضْعَعَ غَيْرَ ذَلِكَ ،
 وَلَكِنْ لَمْ يُرِيدْ هَؤُلَاءِ الْفَتَيَانُ إِقْنَاعَكَ ؟ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ إِغْوَاءَكَ ،
 وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكَ مطلقًا ، وَهُمْ لَا يُبَالُونَ بِكَ مطلقًا ، وَيَقُومُ دَائِعِهِمُ الْوَحِيدُ
 عَلَى غِيظِهِمُ الْخَفِىَّ مِنْ كَوْنِكَ أَفْضَلَ مِنْهُمْ ، فَيُودُّونَ لَوْ يُنْزِلُونَكَ إِلَى مُسْتَوَاهُمْ
 الْخَفِيرِ ، وَهُمْ لَا يَلُومُونَكَ عَلَى خُضُوعِكَ لِلرَّقَابَةِ إِلَّا لِيَسْطَرُوا عَلَيْكَ بِأَنْفُسِهِمْ ،
 وَهَلْ يُمَكِّنُكَ أَن تَعْتَقِدَ وَجُودَ كَسْبِ لِكَ فِي ذَاكَ التَّحْوِيلِ ؟ وَهَلْ بَلَّغُوا
 مِنْ سُمْمِ الدَّرَايَةِ مَا بَلَغَتْ إِذْنُ ؟ وَهَلْ وَلَعُ يَوْمٍ وَاحِدٍ أَقْوَى مِنْ وَلَمِى ؟
 لَا بَدَّ لَهُمْ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِعْطَاءِ وَزْنٍ لِسُلْطَانِهِمْ حَتَّى يُقَامَ وَزْنٌ لِسُخْرِيَتِهِمْ ،
 وَأَيَّةُ تَجْرِبَةٍ انْتَقَبْتَ لَهُمْ رَفْعًا لِمِبَادِهِمْ فَوْقَ مِبَادِنَا ؟ هُمْ لَمْ يَصْنَعُوا غَيْرَ تَقْلِيدِ
 طَائِشِينَ آخَرِينَ ، فَتَرَاهُمْ يَرِيدُونَ أَن يُقَلِّدُوا بِدَوْرِهِمْ ، وَهُمْ يَرِيدُونَ أَن
 يَجْعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ مَبْتَسِرَاتِ آبَائِهِمْ ، فَتَرَاهُمْ يُخَضِّعُونَ أَنْفُسَهُمْ لِمُبْتَسِرَاتِ
 رَفَقَتِهِمْ ، وَلَا أَبْصِرُ مَا يَكْسِبُونَ مِنْ هَذَا مطلقًا ، وَلَسَكُنِ أَبْصِرُ أَنَّهُمْ
 يَخْسِرُونَ بِهِ فَائِدَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ لَا رَيْبَ ، وَهَما : فَائِدَةُ الْمَطْفِ الْأَوْبَى الَّذِى
 يَكُونُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ نَصَائِحَ لَيْنًا صَادِقًا ، وَفَائِدَةُ التَّجْرِبَةِ الَّتِى تَحْمِلُ

على الحكم في الأمور بما هو معروف ، وذلك لأن الآباء كانوا أولاداً ، ولم يكن الأولادُ آباءً .

« ولكن أنظن أنهم مخلصون في مبادئهم الحق على الأقل ؟ ولا هذا أيضاً يا إميل العزيز ، فهم يَخْدَعُونَ أنفسهم ليخدعوك ، وهم ليسوا على اتفاق مع أنفسهم ، ويكذبهم قوادهم دائماً ، ويناقضهم لسانهم غالباً ، ومنهم هذا الذي يُحوّل إلى سُخْرِيَةٍ كل ما هو صالح مع اليأس من تفكير زوجته مثله ، ومنهم ذاك الذي يَبْلُغُ من عدم الاكتراث للأخلاق ما يجعله شاملاً لزوجه القادمة أو إنه يَبْلُغُ من الانغماس في العار ما لا يكثرث معه لسلوك زوجته ، ولكن تقدّم إلى الأمام ، وحدّثه عن أمه ، وانظر هل يوافق أن يعامل ابناً لزانية وامراً سيئة السلوك فيَحْمِلَ اسماً زائفاً لأسرة ويسرق تراث وارث شرعي ؟ أي هل يُطِيقُ أن يعامل مثل نفل ؟ ومن منهم يُريدُ أن يَرُدَّ على ابنته عاراً غمراً به بنت رجل آخر ؟ ولم يُوجدْ واحدٌ منهم لم يَعتدِ حتى على حياتك إذا ما انتحلت معه في ميدان العمل جميع المبادئ التي يَبْذُلُ وسعته في مَنْحِكَ إياها ، وهكذا فإنهم يُبْذَوْنَ تناقضهم فيعلم أن كل واحدٍ منهم يقول ما لا يَعتقد ، وهذه براهين يا إميل العزيز ، ففكر في براهينهم إذا كان عندهم برهان ، ثم قارن بينها وبين براهيني ، ولو أردت أن أستمع بالازدراء والهزوء كما يستعينون لرأيهم يُسلمون أنفسهم إلى السُخْرِيَةِ كما أسلم أو أكثر ، ولكنني لا أخشى الاستقصاء الجِدِّي ، فقوِّز المستهزئين قصير الأجل ، وتَبَقَّى الحقيقة ، ويزول ضحكهم المخالف للصواب . »

ولا تَتَصَوَّرُونَ كيف يُمكن إميل ، البالغ من السنِّ عشر سنين ، أن يكون طائعاً ، ويا للاختلاف في تفكيرنا ! ولا أدرك كيف أمكنه أن يكون طائعاً ابناً للعاشرة من سنِّيه ، وأئى سلطان يَكُون لى عليه فى ذاك العمر ؟ لقد بذلت جهودَ خمسَ عشرة سنةً لوقاية هذا السلطان ، ولم أنشئه فى ذلك الحين ، بل كنت أعدُّه لِيَنشَأ ، والآن بَلَغَ من التنشئة ما يَكْفِي ليكون طائعاً ، وهو يَعْرِف صَوْتَ الصداقة ، وهو يَعْرِف أن يُذعن للعقل ، أَجَلْ ، إننى أترك له مَظْهَر الاستقلال حقاً ، ولكنه لم يكن تابعاً لسلطانى أكثر مما فى الوقت الحاضر ، وذلك لأنه أراد أن يكون هكذا ، وقد بقيتُ مسيطراً على شخصه ما عَجَزْتُ عن السيطرة على إرادته ، فلا أتركه دقيقةً واحدة ، والآن أَكُلُّهُ إلى نفسه أحياناً ، وذلك لأننى أَهْمِينُ عليه دائماً ، وإذا ما تركته عاقته وقلت له بلهجة الواصل : « أَذْفَعُكَ إلى صديق لتكون وديعةً عنده ، وأُسَلِّمَكَ إلى قلبه الكريم ، وهو الذى سِيُجِيبُنِي عنك » .

ولا يَتِمُّ فى ساعةٍ واحدةٍ إفسادُ المشاعر السليمة التى لم يَطْرَأَ عليها أىُّ فسادٍ سابقاً ، وزوالُ المبادئ المشتقة مباشرةً من أنوار العقل الأولى ، وإذا حَدَثَ تغييرٌ فى أثناء غِيَابِى لم يكن على شىء من الطول مطلقاً ، وهو لا يُمكن أن يُكْتَمَ عني بما فيه الكفاية حتى لا أدرك الخطرَ قَبْلَ الشرِّ ولا يكون لدىَّ من الوقت ما أُعالِجه فيه ، وكما أن الفساد لا يَتِمُّ دفعةً واحدةً فإن تَعَلُّمَ المخادعة لا يَتِمُّ دفعةً واحدةً ، وإذا ما وُجِدَ إنسانٌ غيرُ حاذقٍ فى هذه الصَّناعة كان هذا الإنسانُ إميلَ الذى لم

تُتَخَّ له فرصةٌ واحدةٌ في حياته لمزاوتها .

وأعتقدنى بهذه الجهود وما مائلها قد بَلَّغْتُ من ضيائه تجاه الأمور الخطيرة والمبادئ المبتذلة ما أَفْضَلُ أن أراه معه في وسط أكثر مجتمعات باريسَ فساداً على أن أشاهده وحده في غرفته أو في رَوْضَةٍ مُوَكَّلًا إلى هَمِّ عُمُرِهِ ، ومهما يكن من أمرٍ فإن الشابَّ نفسه هو أخطرُ جميع الأعداء الذين يُمكن أن يهاجموه ، وهو الوحيدُ الذى لا يُمكن إقصاؤه ، ومع ذلك فإن هذا العدو لا يكون خطراً إلا بخطأٍ يَصْدُرُ عنا ، وذلك لأن الحواسَّ تستيقظ بالخيال وحده كما قلتُ ذلك ألفَ مرة ، وليست حاجتها حاجةً بدنيةً بحضِرِ المعنى ، وليس من الصحيح أن يكون هذا احتياجاً حقيقياً ، ولو لم يَقِفِ الموضوعُ الداعِرُ نظرنا ، ولو لم يَدْخُلِ الفكرُ الفاجر ذِهْنَنَا ، لم يُشْعِرْ هذا الاحتياجُ المزعومُ بنفسه فينا على ما يحتمل ، ولَبَقِينَا أَطْهَاراً خالين من النَّزَغَاتِ والجهودِ والزيّة ، ولا يُعرَفُ أىُّ فَوْرانٍ أصمَّ يُثِيرُهُ بعضُ الأوضاعِ وبعضُ المناظر في دَمِ الشبابِ من غير أن يَعْرِفَ بنفسه تمييزَ علةٍ هذا الهمُّ الأولُ الذى لا يَسْهُلُ تسكينُهُ والذى لا يَلْبِثُ أن يُبْعَثَ ، وأما أنا فكُلما تأملتُ هذه الأزمَةَ المهمةَ ، وأُنْعَمْتُ النظرَ في عِلَالِها القريبةِ والبعيدة ، قَفِيتُ بأن المُعْتَزِلَ الذى رُبِّى في بَرِّيَّةٍ بلا كُتُبٍ ولا تعليمٍ ولا نِسْوَةٍ يَمُوتُ فيها بَقُولاً مهما يَكُنِ العُمُرُ الذى يَبْلُغُهُ .

ولكن ليس هنا موضوعُ بحثٍ عن وحشيٍّ من هذا الطراز ، وليس من الممكن ، ولا من الملائم أيضاً ، أن يُنْشَأَ دائماً ضمن هذه الجهالة (٢٩)

الشافية، وشرٌّ من هذا على الحكمة أن يكون نصف عارفٍ ، وتنبُّعنا في العزلة ذكرى الأمور التي وقفت نظرنا والأفكار التي اكتسبناها ، وهي تعمُّرها ، على الرغم منا ، بصورٍ أكثرِ إغواءٍ من الأشياء نفسها ، وهي تجعلُ العزلة شؤماً على الذي يحملها إليها بمقدار فائدتها للذي بقي وحيداً فيها دائماً .

ولذا فارتقبوا الشابَّ بدقةٍ ، وهو يستطيع أن يقبى نفسه من البقية ، ولكن يتوقَّفُ عليكم أن تقوه من نفسه ، ولا تتركوه وحده ليلاً ولا نهاراً ، وناموا في غرفته على الأقل ، ولا تدعوه يدخل الفراش إلا تبعاً نكاساً ، فلا يخرج منه إلى حين يفيق ، واحذروا الغريزة عند ما تعودون غير مقتصرين عليها ، وهي تكون صالحة ما سارت وحدها ، وهي تكون محلَّ ارتيابٍ ما اتصلت بمؤسَّساتِ الناس ، ولا يجوز أن يُقضى عليها ، بل يجبُ تنظيمها ، وقد يكون تنظيمها أصعبَ من إزالتها ، ومن الخطر البالغ أن نُعلِّمَ الغريزة تلميذكم مخادعة حواسه ، وأن نُعوِّضَ من فُرصِ قضاء هذه الحواسِّ ، فإذا ما عرَّفَ تلميذكم هذا العوضَ ضاع ، وذلك أنه يكون هائجَ الجسمِ نائرَ الفؤادِ منذ ذلك الحين دائماً ، وأنه يحملُ حتى القبرِ نتائجَ هذه العادة الكثيفة ، هذه العادة التي تُعدُّ أشأمَ ما يمكن أن يعبُدَ لها شابٌ ، ولا ريبَ في أن الأفضل . . . وإذا ما صارت صولاتُ الزاجر الأوججِ أمراً لا يُقهرُ ، يا إميلُ العزيز ، فإني أرثي لك ، ولكنني لا أترددُ ثانيةً ، ولا أتساهل مطلقاً ، في أمرِ التَّمَلُّصِ من غرض الطبيعة ، وإذا ما وجب أن يُخضعَكَ طاغيةٌ فإني

أَسَلَّمَكُ إِلَى هَذَا الَّذِي أَسْتَطِيعُ إِنْثَاذَكَ مِنْهُ ، أَى مَهْمَا يَكُنُّ مِنْ أَمْرِ فَإِنِّى أَنْزِعُكَ مِنَ النَّسَاءِ بِأَسْهَلِ مِنْ أَنْ أَنْزِعَكَ مِنْ نَفْسِكَ .

وَيَنْمُو الْبَدَنُ حَتَّى الْعَشْرِينَ مِنَ السَّنِّ ، وَيَحْتَاجُ الْبَدَنُ إِلَى جَمِيعِ جَوْهَرِهِ ، وَيَكُونُ الْعَفَافُ مِنْ نِظَامِ الطَّبِيعَةِ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ ، وَلَا يُنْقَضُ هَذَا النِّظَامُ عَلَى إِلَّا حَسَابَ بُدْيَانِهِ ، فَإِذَا حَلَّ الْعَشْرُونَ مِنَ الْعُمُرِ أَصْبَحَ الْعَفَافُ وَاجِبًا خُلُقِيًّا ، وَغَدَا مِهْمًا لِتَعْلُمَ ضَبْطِ النَّفْسِ وَبَقَاءِ الْإِنْسَانِ سَيِّدَ شَهَوَاتِهِ ، يَبْدَأُ أَنْ لِلوَاجِبَاتِ الْخُلُقِيَّةِ تَحْوِيلَاتِهَا وَاسْتِثْنَائَاتِهَا وَقَوَاعِدُهَا ، وَإِذَا مَا اقْتَضَى الضَّعْفُ الْبَشَرِيُّ تَنَاوَبًا ، وَصَارَ هَذَا التَّنَاوُبُ أَمْرًا لَا مَفْرَءَ مِنْهُ ، وَجِبَ اخْتِيَارُ أَخْفَى الضَّرَرَيْنِ ، وَمَهْمَا يَكُنُّ مِنْ أَمْرِ فَإِنَّ اقْتِرَافَ وَزِيرِ أَهْوَاؤٍ مِنْ إِيْلَافٍ مُنْكَرٍ .

وَإِذَا كُرُوا أَتَى عُدْتُ لَا أَتَكَلَّمُ عَنْ تَلْمِيزِي هُنَا ، بَلْ عَنْ تَلْمِيزِكُمْ ، وَتُخَضِّعُكُمْ أَهْوَاؤُهُ الَّتِي تَرَكْتُمُوهَا تَتَوَّرُّ ، فَاخْضَعُوا لَهَا ، إِذَنْ ، جَهْرًا وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَفُّوا عَنْهُ قَوَّزَهُ ، وَإِذَا مَا اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تُرَوْهُ إِيَّاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ ظَهَرَ بِهِ أَقْلٌ زَهَوًا مِنْهُ خَجِلًا ، وَظَهَرَ لَكُمْ مِنَ الْحَقِّ مَا تُرْشِدُونَهُ بِهِ فِي أَثْنَاءِ ضَلَالِهِ حَمَلًا لَهُ عَلَى اجْتِنَابِ الْمَصَائِبِ ، وَمِنْ الْمَهْمِ إِلَّا يَصْنَعَ الطَّالِبُ شَيْئًا لَا يَعْرِفُهُ الْمَعْلَمُ وَلَا يَرِيدُهُ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ شَرًّا ، وَأَفْضَلُ مِثْلَهُ مَرَّةً أَنْ يُوَافِقَ الْمَعْلَمُ عَلَى ذَنْبٍ مُمَوَّاهٍ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَخَادِعَهُ تَلْمِيزُهُ وَأَنْ يُقْتَرَفَ الذَّنْبُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَمَنْ يَظُنُّ وَجُوبَ الْإِغْضَاءِ عَنْ أَمْرِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَرَى اضْطِرَّارَهُ إِلَى الْإِغْضَاءِ عَنْ جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَيُؤْدِي أَوَّلُ سُوءِ اسْتِعْمَالٍ يُفَضُّ الْبَصَرُ عَنْهُ إِلَى سُوءِ

استعمال آخر ، ولا تنتهي هذه السلسلة إلى غير انهيار كل نظام وازدراء كل قانون .

وَيُوجَدُ خطأ آخرُ كنت قد ناهضته ، ولكن مع عدم صدوره عن النفوس الصغيرة مطلقاً ، وهو أن يُظَهَرَ بمظهر وقار الحاكم دائماً ، وأن يُرَادَ الدخولُ في ذهن التلميذ مثل رجلٍ كاملٍ ، فهذا المنهاجُ مخالفٌ للصواب ، وكيف لا يَرَوْنَ أنهم يَقَوِّضُونَ سلطانهم من حيث يَوَدُّونَ توطيده ، وأنه لا بُدَّ لهم من وضع أنفسهم في مكان من يخاطَبُونَ لِيُخَمِّلُوا على سماع جميع ما يقولون ، وأنه لا بُدَّ للواحد من أن يكون إنساناً حتى يَعْرِفَ مخاطبة القلب الإنساني؟ لا يؤثرُ جميع هؤلاء الفضلاء ولا يَقْنِعُونَ ، ويقال دائماً : « يَسْهَلُ عليهم أن يناهضوا ما لا يَشْعُرُونَ به من الأهواء » ، فاطْلِعُوا تلميذكم على ضعفكم إذا ما أردتم شفاؤه من ضعفه ، وَلْيَبْصِرْ فيكم عَيْنَ الكفاح الذي يُحِسُّ ، وَلْيَتَعَلَّمْ أن يَقَهَرَ نفسه على غِرَارِكُمْ ، ولا تَدْعُوهُ يقول كما يقول الآخرون : « يُرِيدُ هؤلاء الشَّيْبُ الذين يَغِيظُهُمْ أنهم عادوا لا يكونون شُيْبَانًا ، أن يعاملَ الشبابُ كما لو كانوا شُيْبًا ، فَيَجْعَلُونَ من أهوائنا جُرْماً لا نطفأ أهوائهم » .

وَيَرَوِي مُؤَنِّتِينَ أنه سأل سِنْيُورَ لَانْجِه ذات يومٍ عن عَدَدِ مَاسْكَرٍ بسبب خدمة الملك في أثناء مفاوضاته الألمانية ، وأسألُ معلِّمَ أحد الشباب ، بطَوَعِي ، عن عدد المرات التي دَخَلَ فيها أحدُ المواخير خِدْمَةً لتلميذه ؟ أنا مخطئٌ ، فإذا لم تَنْزِعِ المرة الأولى من الداعر مثيلَ القودِ إليه ، وإذا لم يَرْجِعْ منه تائباً خَجِلاً ، وإذا لم يَسْكُبْ على صدركم سيولاً من

الدموع ، فدَعَوْه من فَوْرِهِ ، فهو ليس سوى عُولٍ ، أو إنكم لستم من غير الأغبياء ، فلن تكونوا نافعين له في شيء مطلقاً ، ولكنْ لَتَتْرُكْ هذه الطرائقَ المتناهية الكثيية الخِطَرَة والتي لا تَمُتْ إلى تربيتنا بصِلَة .

ويا للاحتياطات التي تَتَّخِذُ تجاه شابٍ أصيلٍ قَبْلَ تَعْرِيزِهِ لأوضاع العصر الشائنة ! إن هذه الاحتياطاتِ شاقَّةٌ ، ولكنها ضروريةٌ ، والإِهْمالُ هو الذي يُضِيعُ جميعَ الناشئة من هذه الناحية ، وَيَنْحَطُّ الناسُ بِفُجُورِ الدَّوَرِ الأول من العُمُرِ فيتحولون إلى الحال التي يُروْن عليها اليوم ، وهم إذ يَبْدُون أدنياء نُذَلَاء حتى في معايهم فإنهم لا يكونون من غير أصحاب النفوس الحقيمة ، وذلك لفسادهم باكرًا عن وَهْنٍ في أبدانهم ، فلا يكاد يَبْقَى لهم من الحياة ما يكفي للتحرك ، وتَمُتُّ أفكارُهم الدقيقة على أذهانٍ يُعَوِّزُها الجوهر ، وهم لا يَقْدِرُونَ على الشعور بأمرٍ جليلٍ أو نبيلٍ ، ولا يوجدُ عندهم نشاطٌ ولا بساطةٌ ، وبما أنهم نُذَلَاء في كلِّ شيء ، وبما أنهم أشرارٌ مع الدعاة ، فإنهم ليسوا غيرَ مُبْطِلِينَ خُبَنَاء مُرَائِينَ ، حتى إنه ليس لديهم من الشجاعة ما يكونون معه فُجَّارًا ظاهرين ، وهؤلاء هم الأذلاء الذين يُسْفِرُ عنهم دَعَرُ الشباب ، وإذا ما وُجِدَ بينهم واحدٌ يَعْرِفُ أن يكون معتدلاً وقوراً قادراً أن يَحْفَظَ بينهم فؤادَه ودمَه وأخلاقَه ، وذلك من عَدْوَى القُدُوة ، سَحَقَ جميعَ هؤلاء الحَشَرَاتِ ابناً للثلاثين من عُمره وصار سيدَهم يَحْمَدُ أَقْلًا من الذي يَبْذُلُ لِيُظَلَّ سَيِّدَ نفسه .

ومهما يكن من قلة ما عند إميلٍ من نَسَبٍ وَنَسَبٍ فَإِنَّهُ يَصِيرُ ذَاكَ الإنسانَ الذي يُرِيدُ أن يَكُونَهُ ، غير أنه يَبْلُغُ من ازدرائه لهم ما لا يتنازل

معه أن يستعبدهم ، والآن لَنَنْظُرْ إليه بينهم وهو يَدْخُلُ المجتمعَ ، لا لتكون له الصدارةُ فيه ، بل لِيَعْرِفَهُ وَلِيَجِدَ فيه رَفيقَةً تناسبه .

وستكونُ بُدْءُهُ بَسِيطَةً وبلا تَصْنَعُ معها كانت الطبقة التي وُلِدَ فيها والمجتمعُ الذي أُدْخِلَ إليه ، ومعاذَ الله أن يكون من الشقاء ما يَلْمَعُ معه في ذلك المجتمع ! فليست الصفاتُ التي تؤثرُ عند أول نظرةٍ صفاته ، وهو لم يَحْزُها ولا يُريدُ حيازتها ، وهو قليلُ الالتفاتِ إلى رأى الآخرين في تقدير مُبْتَسِرَاتِهِمْ ، ولا يكثرُ لتقدير الناس إياه ، أو لعدم تقديرهم له ، قَبْلَ أن يَعْرِفُوهُ ، وليس الوجهُ الذي يَظْهَرُ به مُتَضَعًا ولا فارغًا ، بل طَبِيعِيٌّ حَقِيقِيٌّ ، وهو لا يَعْرِفُ الانقباض ولا التَّكْرُّ ، ويكون في وسط الحلقةِ مِثْلَهُ وحيداً وبلا شاهد ، وهل يكون بهذا فَظًّا مُزْدَرِيًّا غَيْرَ مُبَالٍ بأحدٍ؟ والعكسُ هو الواقعُ ، فإذا كان لا يَأْبَهُ وحدَهُ للآخرين فَلِمَ لا يَأْبَهُ لهم ما دام عائشاً بينهم ؟ إنه لا يُفَضِّلُهُمْ على نفسه في أوضاعه ، لأنه لا يُفَضِّلُهُمْ على نفسه في قُوَّاده ، بَيِّدَ أنه لا يُرِيهِمْ عَدَمَ اكْتِرَاثٍ بَعْدُ بعيداً من الشعور به ، وهو إذا كان خالياً من صَيِّغِ الجمالة فإن له عنايةً بالإنسانية ، وهو لا يُحِبُّ أن يَرى إنساناً يَأْلَمُ ، وهو لا يُقَدِّمُ مكانته إلى آخرَ عن رِئاءه ، وإنما يَتَرَكُهُ له بطَوْعِهِ عن لطفٍ ، وذلك إذا ما رآه مُهْمَلًا وَقَدَّرَ أن هذا الإهمالَ يُذِلُّهُ ، وذلك لأنه يَجِدُ غَضَاضَةً في بقائه واقفاً طَوْعاً أَقْلٌ مما يَجِدُ في مشاهدته آخرَ يَبْقَى واقفاً كَرِهًا .

ومع أن إميلَ لا يَفْتَبِرُ الناسَ على العموم فإنه لا يُظْهِرُ لهم ازدراءً مطلقاً ، وذلك لأنه يَتَوَجَّعُ لهم وَيَحْنُ عليهم ، وبما أنه لا يستطيع أن يَمْنَحَهُمْ ذوقَ الخير

الحقيقى فإنه يدع لهم خير الراى الذى يرضيهم ، وذلك خشية أن يجعلهم أكثر شقاء من قبل بنزعه هذا الخير منهم ، ولذا فهو ليس مجذالاً ولا معارضاً ، وليس ملاطفاً ولا مصانعاً ، وهو يبدي رأيه من غير أن يناهض رأى أحد ، وذلك لأنه يحب الحرية فوق كل شيء ، ولأن الصراحة من أروع ما تنطوى عليه الحرية من حقوق .

وهو قليل الكلام ، وذلك لأنه لا يشغل باله بأن يكثر له ، وهو لا يتحدث عن غير الأمور النافعة لهذا السبب ، وإلا فأى شيء يحمّله على الكلام ؟ إن إميل من الاطلاع الكثير ما لا يكون معه ثرثاراً ، ويصدّر الهذر الكبير ، بحكم الضرورة ، عن زعم الذهن الذى سأتكلم عنه فيما بعد ، أو عن القيمة التى تُعطىها الترهات فتكون من السخافة ما نطنّ معه أن الآخرين يعتبرونها مثل اعتبارنا لها ، ولا يكثر من الكلام مطلقاً ذاك الذى يكون عنده من المعرفة ما يكفي لإعطاء كل شيء قيمته الحقيقية ، وذلك لأنه يقدر أن يقدر ما ينبته به إليه وما يمكن أن يوجد فى كلامه من نفع ، وعلى العموم ترى الذين يعرفون قليلاً يتكلمون كثيراً ، وترى الذين يعرفون كثيراً يتكلمون قليلاً ، أجل ، إن من الأمور البسيطة أن يحدّ الجاهل جميع ما يعرف أمراً مهماً فيقول له جميع الناس ، غير أن الرجل المتقف لا يفرض ما يعرف بسهولة ، فلهذه أمور كثيرة يحدث عنها ، ثم يرى أموراً أكثر من تلك تقال بعد ذلك ، فيلتزم جانب الصمت .

ولا يصدّم إميل أوضاع الآخرين ، وهو يلائمها طوعاً بما فيه الكفاية ، لا ليظهر عارفاً بالعادات ، ولا ليظهر مذهباً ، بل خشية أن يماز ، ولثلا

يكون محلّ نظر ، ولا شيء يُريحه أكثر من عدم الانتباه إليه .

وهو ، وإن كان يجهل أوضاع المجتمع جهلاً مطلقاً عند دخوله إياه ، لا يكون وجلاً هلوّعاً لهذا السبب ، وهو إذا كان يتوارى فليس هذا عن ارتباك مطلقاً ، بل لأنه يجب ألا يُرى الإنسان حتى يرى جيداً ، وذلك لأن ما يُفكرُ في أمره لا يُقلِّقه مطلقاً ، ولأنه لا يَعتَريه أدنى فزعٍ من الهُزوء ، وهو ، إذ يَهْدأُ دائماً ويكون معتدلاً ، لا يُزعجُ بالخلجَل ، وهو ، سواه أنظرَ إليه أم لم يُنظر ، يصنع ما يصنع مع ما يمكنه من إتقان ، وبما أن عليه أن يلاحظ الآخرين دائماً فإنه يُدرك أوضاعهم بسهولةٍ تتعذّرُ على عبيد رأى الآخرين ، ولذا يُمكن أن يقال إنه ينتحل عُرفَ المجتمع عن عدم اكتراثٍ له .

ومع ذلك فلا تتحدّوا أنفسكم حَولَ وُضعه ، ولا تقابلوا بين هذا الوُضعِ ووُضعِ مُتَطرِّفيكم ، فهو رَصينٌ غيرُ مُحْتالٍ ، وهو طليقُ الأطوار غيرُ مُزْدَرٍ ، ولا يَخُصُّ طَوْرُ البَطَرِ غيرَ العبيد ، وليس في الاستقلال شيءٌ من التصنع ، ولم أرَ قطُّ إنساناً ذا علوٍّ في النفس يُبْديه في طَوْرِهِ ، وأكثرُ ما يكون هذا التصنعُ خاصّاً بأصحاب النفوس الحفيرة المحتالة التي لا تستطيع أن تُقرَّ بغير ذلك ، ومما قرأتُ في كتابٍ أن أجنبيّاً دَخَلَ على مرَسيلَ الشهيرِ في بهوهِ فسأله هذا عن بلده ، فأجابه الأجنبيُّ عن سؤاله بقوله : « إني إنكليزيٌّ » ، فقال له الراقصُ : « أنت إنكليزيٌّ ! أنت من تلك الجزيرة التي يكون للمواطنين فيها نصيبٌ في الإدارة العامة ،

وَيُعَدُّونَ جزءاً من السلطان ذى السيادة^(١) ! كَلَّا يا سيدى ، إن هذا الجبين المُطَرِّق وهذا النظرَ الوَجِلَ وهذه المِشْيَةَ الحائرة أمورٌ لا تدلنى على غير عبدٍ مُلقَّبٍ بناخب .

ولا أَعْلَمُ هل هذا الحكمُ يدلُّ على معرفة واسعة بالصلة الحقيقية بين خُلُقِ الإنسان وظاهره ، وأما أنا فلم يكن لى شرفُ معلِّمٍ فى الرقص ، فترانى أَرى العكس ، فأقول : « إن هذا الإنكليزى ليس نديماً ، ولم أَسْمَعْ قطُّ أن الندماء ذوو جِبَاهٍ مُطَرِّقَةٍ ومِشْيَةٍ حائرة ، وبما لا يَتَّبَعِى عند الراقص ألا يكون الرجلُ الخَجِلُ فى مجلس العموم » ، ولا مرأى فى أن مسيو مَرْسِيلَ ذاك يُحَسِّبُ مواطنيه ككثيرٍ من الرومان .

ومن يُحِبُّ يُرِذُّ أن يُحِبَّ ، وإميلُ يُحِبُّ الناسَ ، فيُرِيدُ أن يَقَعَ عندهم موقعَ الرِّضَا إِذَنْ ، وأكثرُ من هذا كَوْنُهُ يُرِيدُ أن يَرَوْقَ النساءَ ، وما عليه من عُمرٍ وخُلُقٍ وقَصْدٍ يتضافر على تَفْذِيَةِ هذه الرغبة فيه ، وقد قلتُ أخلاقه لِمَا لها من أثرٍ بالغ ، وعُبادُ النساءِ الحقيقيون هم الذين عندهم خُلُقٌ ، أَجَلٌ ، ليس لديهم ما عند الآخرين من رَطَانَةٍ ساخرةٍ فى المغازلة ، غير أنه يُوجَدُ عندهم من المبادرة ما هو أكثرُ صدقاً وأعظمُ عطفاً ، لصدوره عن القلب ، ويُكِنِّى أن أُمِيرَ بجانب فتاةٍ رجلاً ذا أخلاقٍ وضَبَطِ نفسٍ بين مئة ألف فاجر ، واخْكُمُوا فيما يُمَكِّنُ أن يَكُونَهُ إميلُ صاحباً لمزاجٍ

(١) كأنه لا يوجد مواطنون أعضاء للمدينة لم يكونوا ، هكذا ، جزءاً من السلطان ذى السيادة ! ولكن الفرنسيين ، الذين رأوا من المناسب اغتصاب أسم المواطنين المكرم الممدود من حقوق المدن الغولية ، أفسدوا مبدأه إفساداً جرده من كل معنى ، وبما حدث أن رجلا كتب إلى ترهات كثيرة ضد « إلويز الجديدة » ، فزخرف إمضاءه بلقب « مواطن من بنبرف » ظاناً أنه يقوم بحوى بدعابة رائدة .

تأمَّ الجِدَّةُ مع كثيرٍ من الأسباب للمقاومة ! وأظنُّ أنه سيكون بجانبهن خَجَلًا مرتبكًا أحيانًا ، ولكن هذا الارتباك لا يُورِثُهُنَّ غِيظًا ، ولا يَجِدُّ أَقْلُهُنَّ غُنَاجًا من ذلك غيرَ وسيلةٍ للتمتع بذلك مع زيادته غالبًا ، ثم إن مبادرته تَتَخَذُ من الأشكال ما يختلف مع الأحوال ، فيكون أكثرَ تواضعًا وأعظمَ احترامًا للنساء وأشدَّ نشاطًا ولينًا تجاه البنات الصالحات للزواج ، ولا يَفِيبُ غَرَضُ تَحَرِّيَّاته عن نظره ، ويكون أكبرُ نصيبٍ من انتباهه مُوجَّهًا دائمًا إلى التي تُذَكِّرُهُ بذلك .

ولا أحدَ يَكُونُ أَكْثَرَ انتباهًا إلى جميع الاعتبارات القائمة على نظام الطبيعة ، وعلى حُسْنِ نظام المجتمع أيضًا ، غير أن الأولى تُفَضَّلُ على الأخرى دائمًا ، وهو سيكون أكثرَ احترامًا لمن هو أَسَنُّ منه مما لحاكمٍ من لِدَاتِهِ ، وبما أنه يَكُونُ ، عادةً ، من أصغرِ مَنْ في المجتمعات التي يُوْجَدُ فيها إِذَنْ ، فإنه يكون من أكثرهم تواضعًا دائمًا ، لا عن زَهْوٍ الظهور هكذا ، بل عن شعورٍ طبيعيٍّ قائمٍ على العقل ، ولن يكون عنده ، مطلقًا ، ما لدى الشابِّ المختال من سلوكٍ ماجنٍ ، من سلوكٍ هذا الشابِّ الذي يَنزِعُ إلى تسليية العُشْرَاءِ فيتكلم بصوتٍ أعلى من صوت الحكماء وَيَقْطَعُ كلامَ الشيوخ ، وهو لن يَسْمَحَ من ناحيته ، مطلقًا ، بمثلِ جوابِ السيد الشابِّ إلى لويس الخامس عشر الذي سأله عن أيِّ العَصْرَيْنِ يُفَضَّلُ : عصرِهِ أو العصرِ الحاضرِ ، والجوابُ هو : « لقد قَضَيْتُ شبَابِي ، يا مولاى ، فى احترام الشَّيْب ، فيجب أن أَقْضِيَ مشيبي فى احترام الأولاد » .

وبما أنه ذو نفسٍ لَيِّنَةٍ حَسَّاسَةٍ ، ولكن مع عدم إقامة وزنٍ للرأى العام ، وإن كان يَودُّ أن يَرُوقَ الآخرين ، فإنه قليلُ المبالاة بأن يُعَدَّ من ذوى الاعتبار ، ومن ثمَّ يَكُونُ أَكْثَرَ وُدًّا منه تَأْدُبًا ، ولا تَبْدُو عليه ملامح الانتفاخ مطلقًا ، ويتأثرُ بالملاطفة أكثرَ مما بألف ثناء ، وهو لن يُهِمِّلَ أطواره ولا أوضاعه لهذا السبب ، حتى إنه سَيَمَكِّنُهُ أن يقوم بشيء من التحرى فى أمر زُخْرُفِهِ ، لا لِيُظْهَرَ رَجُلٌ ذَوِي ، بل لِيَجْعَلَ وَجْهَهُ مقبولًا ، وهو لن يَلْزَمَ الإطارَ المَذْهَبَ مطلقًا ، وما كانت سِمَةُ الثَّرَاءِ لَتُلَوِّثَ زِينَهُ أَبَدًا .

وَتَرَى أن جميع هذا لا يَطْلُبُ منى عَرَضًا للتعاليم ، فهو ليس سوى نتيجةٍ لثريته ، وَيُنْسَجُ لنا سِرٌّ كبيرٌ عن عادة المجتمع ، كأنَّ هذه العادة فى دَوْرِ العُمُرِ الذى تَتَخَذُ فيه لا تَتَّخَذُ بِحُكْمِ الطبيعة ، وكأنه لا يَجِبُ أن يُبْحَثَ فى القلبِ الصالح عن قوانينها الأولى ! ويقوم التهذيبُ الحقيقى على إظهار لُطْفٍ للناس ، وهو يُشْمِرُ بنفسه بلا تَعَبٍ عند وجوده ، وَيُضْطَرُّ من يَحْلُو من اللطف إلى تَكَلُّفٍ فى المظاهر .

« وأسوأُ نتيجةٍ للتهذيبِ المصنوع هو تعليمُ فنٍّ ما يُقَلِّدُهُ من فضائل ، وإذا ما أوحَت إلينا التربيةُ بالإنسانية والإحسان نَكُونُ ذوى تهذيب ، أو إننا نَعُودُ غَيْرَ محتاجين إلى التهذيب .

« وإذا لم يكن عندنا من التهذيب ما تَنِمُّ عليه الألفاف فإنه يكون عندنا تهذيبٌ يَنِمُّ على الإنسان الصالح وعلى المواطن ، فلا نحتاج إلى العَوْدِ بالَرَّثَاءِ .

« وَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَالِحًا لِيَرُوقَ ، بدلاً من أَنْ يَكُونَ متصنعاً ، وَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ متساعحاً لِمُدَارَاةِ ضَعْفِ الْآخَرِينَ بدلاً من أَنْ يَكُونَ منافقاً .

« وَلَنْ يَكُونَ مَنْ تَتَّخِذُ نَحْوَهُمْ مِثْلُ هَذِهِ الطَّرِيقِ مُتَكَبِّرِينَ وَلَا فاسدين ، وإنما يكونون شاكرين ، وَيُظْهِرُونَ أَحْسَنَ حَالاً » .

وَيَلُوحُ لِي أَنْ تَرْيِيَّةٌ مَا إِذَا كَانَتْ تُسْفِرُ عَنْ تَهْذِيبٍ مِنْ هَذَا النوعِ الَّذِي يَتَطَلَبُهُ مَسِيو دُوكْلُو بَدَتْ هَذِهِ التَّرْيِيَّةُ تِلْكَ الَّتِي وَضَعْتُ رَسْمَهَا حَتَّى الْآنَ .

ومع ذلك فَإِنِّي أوافق على أَنْ إِمِيلَ لَنْ يَكُونَ ، مطلقاً ، كبقية الناس بهذه المبادئ المختلفة جداً ، وأدعو الله أَنْ يُحْفَظَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا ! ولكنه لَنْ يَكُونَ فِيمَا يَخْتَلِفُ بِهِ عَنِ الْآخَرِينَ مُكَدَّرًا ، وَلَا لِلْهَزْوِ مُسْتَحَقًّا ، وسيكون الاختلاف محسوساً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ شاقًّا ، وَإِنْ شئتُ فَقُلْ إِنَّ إِمِيلَ سَيَكُونُ أَجْنَبِيًّا مَحْبُوبًا ، وَأَوَّلُ مَا يَحْدُثُ أَنْ تُغْفَرَ لَهُ غَرَابَتُهُ بِأَنْ يُقَالَ : « إِنَّهُ سَيَتَخَرَّجُ » ، ثُمَّ يَحْدُثُ فِيمَا بَعْدُ مَا تُتَعَمَّودُ مَعَهُ أَوْضَاعُهُ ، فَيُصَفَّحُ عَنْهُ أَيْضًا حِينَ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُغَيِّرْهَا ، فَيُقَالُ : « إِنَّهُ تَكُونُ هَكَذَا » .

أَجَلْ ، إِنَّهُ لَنْ يُحْتَفَلَ بِهِ مِثْلَ رَجُلٍ مَحْبُوبٍ ، ولكنه سَيُحِبُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْرِفَ السَّبَبُ ، أَجَلْ ، إِنَّهُ لَنْ يَمْدَحَ أَحَدٌ ذَهَنَهُ ، ولكنه سَيَتَّخِذُ حَكَمًا بَيْنَ رِجَالِ الذَّهْنِ عَنْ طَوَعٍ وَاخْتِيَارٍ ، وسيكون واضحَ الذَّهْنِ بِمَحْدُودَةٍ ، وسيكون صادقَ الشُّعُورِ سَلِيمَ الْحُكْمِ ، وبِمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَعْيِ وَرَاءَ جَدِيدٍ

الأفكار مطلقاً فإنه لا يُمكن أن يَعْتَزَّ بذهنه ، وقد أشعرته بأن جميع الأفكار الشافية النافعة للناس حقاً هي أول ما عُرِفَ وبأنه يتألف منها وحدها روابط المجتمع الحقيقية في كل زمن ، وبأنه لا يبقى على ذوى الذهن الطامح سوى الامتياز بالأفكار المؤذية المشؤومة على الجنس البشرى ، وما كان هذا الطراز في إثارة العَجَب ليؤثّر فيه مطلقاً ، وهو يَعْرِفُ أين يَجِدُ سعادة حياته ، ويَمُكِّنُ أن يساعد على سعادة الآخرين ، ولا يمتدُّ نطاقُ معارفه إلى أبعد مما هو نافع ، وتَكُونُ طريقه ضيقةً جيّدةً الحدود ، وهو إذ لم يحاول أن يَخْرُجَ منها فإنه يظلُّ مختلطاً بمن يَنْبَغُونَهَا ، وهو لا يُريدُ أن يَضِلَّ ولا أن يَلْمَعَ ، وإميلُ إنسانٌ مستقيمُ العقل ، ولا يَوَدُّ أن يكون شيئاً آخر ، ومن العبث أن يُرادَ إيذاؤه بهذا اللقب ، فهو سيعتزُّ به دائماً .

ومع أن رغبته في الرّوْقَان لا تدّعه يَكُونُ ، على الإطلاق ، أكثرَ عدمِ اكتراثٍ لرأى الآخرين فإنه لا يَفْتَرُّ من هذا الرأى غيرَ ما يتصل بشخصه مباشرةً ، وذلك من غير أن يبالي بكلِّ تقديرٍ مُرادِيٍّ ليس له قانونٌ سوى الموضة* أو المُبْتَسَرَات ، أَجَلُ ، إنه سيكون لديه زَهُوُ العِزْمِ على إتقان كلِّ ما يَصْنَعُ ، حتى إرادةُ فِعْله بأحسن مما يَفْعَلُ الآخرُ ، فَيَوَدُّ أن يكون الأخفُّ في العدوّ ، والأقوى في المصارعة ، والأمهرُ في الشُّغْل ، والأبرعُ في الألعاب اليدوية ، ولكنه قليلُ البحث عن الفوائد غير الواضحة بنفسها والتي تحتاج إلى تقريرٍ بحُكمِ الآخرين ، ككَوْنِه أذكى من الآخر وأطلقَ منه لساناً وأكثرَ علماً ، إلخ . ، وأقلُّ من ذلك أيضاً

بِحُثِّهِ عَنِ الْفَوَائِدِ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِشَخْصِهِ مَطْلَقًا ، كَأَن يُعَدَّ عَالِي النِّسَبِ وَافِرَ الثَّرَاءِ كَبِيرَ الْاعْتِمَادِ عَظِيمَ الْاعتِبَارِ مُمَوَّهَاً بِالْبَهْرَجِ .

وَبِمَا أَنَّهُ يُحِبُّ النَّاسَ لِأَنَّهُمْ أَمْثَالُهُ فَإِنَّهُ سَيُحِبُّ أَكْثَرَهُمْ مُشَابِهَةً لَهُ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجِدُ بِذَلِكَ مِنْ حُسْنِ شُعُورٍ بِالْمَزَاجِ ، وَبِمَا أَنَّهُ يَحْكُمُ فِي هَذِهِ الْمِثَابَةِ بِتَشَابِهِ الْأَذْوَاقِ فِي الْأُمُورِ الْأَدْبِيَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ حُسْنُ الْخُلُقِ ، فَإِنَّهُ يَسْرُّهُ أَنْ يَقَعَ مَوْقِعَ الرِّضَا ، وَهُوَ لَنْ يَقُولَ فِي نَفْسِهِ ضَبْطًا : أَسْرُّ لَأَنِّي أُسْتَحْسَنُ ، بَلْ أَسْرُّ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ اسْتِحْسَانِ حُسْنِ مَا صَنَعْتُ ، وَأَسْرُّ لِأَنَّ الَّذِينَ يُكْرِمُونِي أَهْلٌ لِلْإِكْرَامِ ، وَمِنْ الْجِيلِ أَنْ يُنَالَ تَقْدِيرَهُمْ مَا كَانَ حُكْمُهُمْ سَلِيًّا .

وَبِمَا أَنَّهُ يَدْرُسُ النَّاسَ بِسُلُوكِهِمْ فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَبِمَا أَنَّهُ دَرَسَ النَّاسَ سَابِقًا بِأَهْوَائِهِمْ فِي التَّارِيخِ ، فَإِنَّهُ سَيُنَاحُ لَهُ مِنَ الْفُرْصِ فِي الْغَالِبِ مَا يَتَأَمَّلُ مَعَهُ فِيمَا يَدَارِي الْفَوَادِ الْبَشْرِيَّةَ أَوْ يَصْدِمُهُ ، وَهِيَ هُوَذَا يَتَفَلَسَفُ حَوْلَ مَبَادِيءِ الذَّوْقِ ، وَهَذَا هُوَ الدَّرْسُ الَّذِي يَلَامُهُ فِي هَذَا الدَّوْرِ .

وَكَلَّمَا أَوْغَلْنَا فِي الْبَحْثِ عَنْ تَعَارِيفِ الذَّوْقِ ضَلَلْنَا ، فَلَيْسَ الذَّوْقُ غَيْرَ قُدْرَةٍ عَلَى الْحُكْمِ فِيمَا يَرُوقُ ، وَمَا لَا يَرُوقُ ، أَكْبَرَ عَدَدٍ مُمْكِنٍ ، وَآخِرُجُوا مِنْ هُنَاكَ تَعَوَّدُوا غَيْرَ عَارِفِينَ مَا الذَّوْقُ ، وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ ذَاكَ وَجُودُ رَجَالِ ذَوْقٍ أَكْثَرُ مِنَ الْآخَرِينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَكْثَرِيَّةَ ، وَإِنْ كَانَتْ تَحْكُمُ حُكْمًا صَحِيحًا فِي كُلِّ أَمْرٍ ، لَا يُوجَدُ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَخْكُمُونَ مِثْلَهَا فِي الْجَمِيعِ ، وَمَعَ أَنَّ تَسَابِقَ أَعْمُ الْأَذْوَاقِ يُسْتَفْرُغُ عَنِ الذَّوْقِ الصَّالِحِ فَإِنَّ رَجَالَ الذَّوْقِ قَلِيلُونَ ، وَذَلِكَ كَقَلَّةِ أَشْخَاصِ جَبِيلَيْنِ ،

وإن كان اجتماعُ أكثرِ الملامح شيوعاً يُسفرُ عن الجمال .

ومما تجب ملاحظته أننا لا نعالجُ هنا ما نُحِبُّ لأنه نافعٌ لنا ، ولا ما نَكْرَهُ لأنه يَضُرُّنا ، فالذوقُ لا يتناول غيرَ أمورٍ خَلِيَّةٍ أو ذاتِ غَرَضٍ في اللهو على الأكثر ، لا أموراً تتعلَّقُ باحتياجاتنا ، أى إن الذوق ليس ضرورياً للحكم في هذه ، فالتشهى يَكْفِي ، وهذا ما يجعل أحكامَ الذوق الصَّرفَةَ بالغةَ الصعوبة ، مراديةً جداً كما يُلَوِّح ، وذلك لأنك إذا عَدَوْتَ الغريزة التي تُعَيِّنُ الذوقَ عُدْتَ لا تَرَى أسبابَ هذه الأحكام ، وكذلك يجب أن يُفَرَّقَ بين قوانينه في الأمور الأدبية وقوانينه في الأمور المادية ، ففي هذه يَظْهَرُ أن إيضاحَ مبادئ الذوق متعذِّرٌ على الإطلاق ، غيرَ أن من المهمَّ أن يلاحظَ وجودَ عنصرٍ أدبيٍّ في كلِّ ما ينطوى على تقليد^(١) ، وهكذا يُفسَّرُ الجمال الذي يكون مادياً ظاهراً ولا يكون كذلك حقيقةً ، وإلى هذا أضيفُ وجودَ قواعدٍ محليةٍ للذوق تجعلُهُ في ألفِ أمرٍ تابعاً للأقاليم والطبائع والحكومة وأمور النظام ، ووجودَ قواعدٍ أخرى تتعلَّقُ بالعمر والجنس والسَّجِيَّة ، فهذا المعنى لا ينبغي أن يجادلَ حَوْلَ الأذواق .

والذوقُ أمرٌ طَبِيعِيٌّ لدى جميعِ الناس ، ولكنه ليس على مقياسٍ واحدٍ عند كلِّ واحدٍ منهم ، وهو لا يَنموُ في الجميع على درجةٍ واحدة ، وهو في الجميع عُرْضةٌ للفساد بِمَلَلٍ مختلفة ، ويتوقف قياسُ ما يُمكنُ أن يكون من الذوق على درجة الإحساس الذي يُتَقَبَّلُ ، ويتوقفُ تعهُدُهُ وشكلُهُ على المجتمعات التي تَمُّ الحياةُ فيها ، وذلك : أولاً لا بدَّ من العيش

(١) أثبت هذا في « رسالة حول أصل اللغات » التي تجدها في مجموعة مؤلفاتي .

في مجتمعات كثيرة للقيام بكثير من المقارنات ، ثانياً لا بُدَّ من وجود مجتمعاتٍ طويٍ وفراغٍ كثيرة ، وذلك لأن القاعدةَ في مجتمعات الأعمال هي المصلحةُ ، لا اللذة ، ثالثاً لا بُدَّ من وجود مجتمعاتٍ لا يكون التفاوت فيها كبيراً جداً ، ويكون استبدادُ الرأي العامِّ فيها معتدلاً ، وتسودُ الشهوةُ فيها أكثر من الزَّهو ، وإلاَّ خنقت الموضةُ الذوقَ ، وصار يُبحثُ عما يميزُ ، لا عما يروقُ .

وفي هذه الحال الأخيرة عاد لا يُعدُّ من الصحيح كَوْنُ الذوقِ الحَسَنِ ذوقاً أكبرِ عدد ، ولِمَ هذا ؟ ذلك لأنَّ الغرضَ يَتَغَيَّرُ ، وهناك يعودُ الجمهورُ غيرَ ذى رأىٍ خاصٍ به ، وهناك يعودُ الجمهورُ غيرَ تابعٍ لغيرِ حُكْمٍ مَنْ يَرَى أَنَّهُمْ أَعْظَمُ بَصِيرَةً مِنْهُ ، فيستحسن ما يستحسنون ، لا ما هو حَسَنٌ ، واجعلوا في كلِّ وقتٍ لكلِّ واحدٍ إحساسه الخاصَّ ، فيصيرُ أكثر ما يروقُ في ذاته أكثرَ جَمْعاً للأصوات دائماً .

والناسُ في أشغالهم لا يَصْنَعُونَ ما هو جميلٌ بغيرِ التقليدِ ، وفي الطبيعة تَكُونُ جميعُ نماذجِ الذوقِ الصحيحةِ ، وكلما ابتعدنا عن المَعْلَمِ بَدَتْ أَلْوَاخُنَا مُشَوَّهَةً ، وهناك نَسْتَنْبِطُ نماذجنا من الأشياءِ التي نُحِبُّ ، فيعودُ جلالُ الخيالِ ، الذي هو عُرْضةُ الهوى والنفوذِ ، لا يكون غيرَ ما يروقُ الذين يَقُودُونَنَا .

والمثقفون والكبراء والأغنياء هم الذين يقودوننا ، وصالحُ هؤلاء أو زهؤهم هو الذى يقودهم ، ويَبْنِي هؤلاء عَرَضَ غِنَاهم وَيَبْنِي الآخرون أن يستفيدوا منه ، فيَبْحَثُونَ عن وسائلَ جديدةٍ للإِنْفَاقِ ، وبهذا يُقِيمُ التَّرَفُّ

الأكبر سلطانه وَيُجَبِّبُ ما هو صعبٌ غالٍ ، وهناك يَبْعُدُ الجمالُ الزعوم من تقليد الطبيعة ، وهو لا يَكُونُ على ما هو عليه إِلَّا بِمخالفتها ، ومن ثمَّ تَرَى كيف أن الترف والذوق الفاسد أمران لا يُمكنُ فصلُ أحدهما عن الآخر ، وَيَكُونُ الذوق فاسداً حيث يكون مُسرِّفاً .

وَيَتَعَاشَرُ الجنسَيْنِ على الخصوص يكتسب الذوقُ شكله ، سواء أكان هذا الذوقُ حسناً أم سيئاً ، والواقعُ أن تَعَهَّدَ الذوق نتيجةً ضرورية لغرض هذا المجتمع ، ولكنْ إذا قُتِرَتْ سهولةُ التمتع حُبَّ الرِّوْاقِ فَسَدَ الذوقُ لا محالة ، وهذا ، كما يَلُوحُ لى ، من أكثر الأسباب المحسوسة في كَوْنِ الذوقِ الحَسَنِ ينشأ عن حُسْنِ الطباع .

واستشيروا ذَوِقَ النساءِ في الأمور المادية التي تنشأ عن حكم الحواس ، واستشيروا ذوقَ الرجالِ في الأمور الأدبية التي تَتَعَلَّقُ بقوة الإدراك ، فتى صار النساءُ كما يَجِبُ أن يَكُنَّ عليه فَاخِرْنَ بما يَقَعُ تحت اختصاصهن وكان حُكْمُهُنَّ حسناً دائماً ، ولكنهن عُدْنَ لا يَعْرِفْنَ شيئاً منذ انتَحَلْنَ صِفَةَ الحَكَمِ في الآداب وأخذنَ يَحْكُمْنَ في الكتب ويَضَعْنَ منها بما أُوتِينَ من قوة ، وَيَكُونُ المؤلِّفون الذين يستشيرون العالماتِ حَوْلَ مؤلفاتهم على ثقةٍ بسوء ما يُشارُ به عليهم ، وَيَكُونُ الظُّرَّاءُ الذين يستشيرونهن حَوْلَ زيتهم لابسين ثياباً تُبَيِّرُ السُّخْرِيَةَ دائماً ، وسُتَّاح لى ، عما قليل ، فرصة الحديث عن مواهب هذا الجنس الحقيقية ، وعن وَجْهِ تَعَهُّدِها ، وعن الأمور التي يجب أن يَنْصَتَ فيها لأحكامهن .

وتلك هي الاعتبارات الأولى التي أضعها كبادئ حين بَرَهَنْتِي مع
(٤٠)

إميلَ حَوْلَ مُسْئَلَةٍ لَيْسَتْ مِمَّا لَا يُبَالَى بِهِ فِي الْحَالِ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، وَفِي
الِاسْتِقْصَاءِ الَّذِي يُشْغَلُ بِهِ ، وَتَجَاهَ مَنْ تَكُونُ مُسْئَلَةٌ لَا يُبَالَى بِهَا ؟
لَا تَكُونُ مَعْرِفَةٌ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا أَوْ مَكْرُوهًا عِنْدَ النَّاسِ أَمْرًا
ضَرُورِيًّا لَدَى مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ ، بَلْ لَدَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا
لَهُمْ أَيْضًا ، حَتَّى إِنْ مِنْ لَهُمْ أَنْ يَرَوْهُمْ حَتَّى يَخْدُمَهُمْ ، وَلَيْسَ مِنَ اللُّغُو
فَنُ الْكِتَابَةِ إِذَا مَا اسْتَعْمِلَ لِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى السَّمَاعِ لِلْحَقِيقَةِ .

وَإِذَا مَا وَجِبَ عَلَى أَنْ أَتَعَهَّدَ ذَوْقَ تَلْمِذِي فَأَخْتَارَ بَيْنَ الْبِلَادِ الَّتِي لَمْ
يُولَدْ فِيهَا هَذَا التَّعَهُّدَ بَعْدُ ، وَالْبِلَادِ الَّتِي فَسَدَ فِيهَا ، فَإِنِّي أَتَّبِعُ نِظَامَ
الرَّجُوعِ إِلَى الْوَرَاءِ ، وَأَبْدَأُ بِطَوَافِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ وَأَنْتَهَى بِالْأُولَى ،
وَأَسْتَنِدُ فِي هَذَا الْاِخْتِيَارِ إِلَى أَنَّ الذَّوْقَ يَفْسُدُ بَرَقَّةً مُتَنَاهِيَةً تَجْعَلُ بَعْضَ
الْأُمُورِ مِنَ الْحَسَّاسِيَّةِ مَا لَا يُذَكِّرُهُ الْفَلَاظُ مِنَ النَّاسِ ، وَتَسُوقُ هَذِهِ الرَّقَّةُ
إِلَى رُوحِ الْجَدَلِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا رُقِقَتْ كَثُرَتْ فَتَجْعَلُ هَذِهِ الرَّقَّةُ
قُوَّةَ الْحِسِّ أَكْثَرَ لَطَافَةً وَأَقْلَى تَنَاسُفًا ، وَهَنَالِكَ يَتَكَوَّنُ مِنَ الْأَذْوَاقِ مَا هُوَ
بَعْدَ الرُّؤُوسِ ، وَيَتَسَّعُ نِطَاقُ الْجَدَلِ حَوْلَ الْأَفْضَالِيَّةِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالْمَعَارِفِ ،
وَهَكَذَا يُعَلِّمُ التَّفَكِيرَ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ بِالْمُلَاحَظَاتِ الدَّقِيقَةِ غَيْرُ أَنْاسٍ
كَثِيرٍ الْاِخْتِلَاطُ بِالْمَجْتَمَعِ لَوْ قَفَّ هَذِهِ الْمُلَاحَظَاتِ نَظَرْنَا بَعْدَ غَيْرِهَا ، وَلِأَنَّ
مَنْ كَانَ تَعَوُّدُهُمْ لِلْمَجْتَمَعَاتِ الْكَثِيرَةِ الْعَدَدِ قَلِيلًا يَسْتَفِيدُونَ انْتِبَاهَهُمْ هُنَالِكَ
حَوْلَ أَعْظَمِ الرُّسُومِ ، وَمَنْ الْمُحْتَمَلُ أَنَّكَ لَا تَجِدُ فِي الدُّنْيَا مَكَانًا مُتَمَدِّينًا
يَكُونُ الذَّوْقُ الْعَامُّ فِيهِ أَكْثَرَ فَسَادًا مِمَّا بِيَارِيسَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الذَّوْقَ
الْحَسَنَ يُتَعَهَّدُ فِي هَذِهِ الْعَاصِمَةِ ، وَلَا يَظْهَرُ فِي أَوْرَبَةِ غَيْرِ كُتُبٍ مُقَدَّرَةٍ

قليلة لا يكون مؤلفوها قد تخرَّجوا في باريس ، ومن يروا أن يكتبوا بمطالعة الكتب التي توضع فيها يُخدَّعوا ، فحديث المؤلفين يُتعلَّم أكثر مما في كتبهم ، وليس المؤلفون أنفسهم أكثر من يُتعلَّم منهم ، وروح المجتمعات هو الذي يُبنى الرأس المُفكِّر ويَحِيلُ البصرَ إلى أبعد ما يُمكن أن يمتدَّ ، وإذا كان لديكم شيء من توقُّدِ الذهن فاقضوا سنةً بباريس حيث لا تلبثون أن تكونوا كلَّ ما يُمكنكم أن تكونوا ، أولاً تكونون شيئاً مطلقاً .

ويمكن أن يُتعلَّم التفكير في الأماكن التي يسودها الذوقُ الفاسد ، ولكن لا يجوز أن يُفكِّرَ مثلَ تفكير هؤلاء الذين لديهم هذا الذوقُ الفاسد ، ومن الصعوبة ألاَّ يحدث هذا بعد البقاء معهم زمناً طويلاً ، ويجب أن تُكتمل آلة الحكم بجهودهم ، وذلك باجتناِب استعمالها مثلهم ، وأحتزُّ من صقل حكم إميل حتى درجة تشويبه ، ومتى كان لديه من الحسِّ الرقيق ما يُحسُّ به مختلف أذواق الناس ويقارنُ بينها فإنني آتي به ليوطِّد ذوقه حول الأمور البسيطة .

وأبعدُ في السيرِ فأحفظُ له ذوقاً سليماً خالصاً ، وأغتنمُ فرصةَ هَرَج الطيشِ فأنفِخه بأحاديثٍ نافعةٍ موجهةٍ لها دائماً حول أمورٍ تروقه ، جاعلاً لها ، مع الجهد ، مدارَ تسليَةٍ له بمقدار ما هي مُمتعةٌ ، وهذا دورُ المطالعة والكتب المقبولة ، وهذا دورُ تعليمه تحليل الكلام وجعله شاعراً بكلِّ ما في البلاغة والإلقاء من جمال ، وليس من المهمِّ تعلُّم اللغات لذاتها ، وليست مزاوتها من الأهمية بالمقدار الذي يُظنُّ ، بيدَ أن دراسة اللغات تؤدي إلى دراسة النحو العامِّ ، ويجبُ تعلُّم

اللاتينية لحسن معرفة الفرنسية ، ويجب تعلم هذه وتلك والمقابلة بينهما لإدراك قواعد فن الكلام .

ويوجد ، فضلاً عن ذلك ، بساطة في الذوق تذهب إلى القلب ، ولا توجد في غير كتب القدماء ، وسيجدها إميل في البلاغة والشعر وكل نوع من الآداب زاخرة بأمور زاهدة في الحكم كما في التاريخ ، وعلى العكس يقول مؤلفونا قليلاً وينطقون كثيراً ، وليس إعطاؤنا حكمهم ، بلا انقطاع ، مثل قانون وسيلة تكوين حكمنا ، ويشعر الفرق بين ذوقين بنفسه في جميع الآثار ، حتى على القبور ، وترى آثارنا مستورة بالمدايح ، ولا يُقرأ على آثار القدماء سوى الأفعال .

« قِفْ أيها المسافر ، فطل هو الذي تدوس » .

وإذا ما وجدت القبرية على أثر قديم ظننت أنها حديثة أول وهلة ، وذلك لأنه لا شيء أكثر شيوعاً من الأبطال بيننا ، غير أن الأبطال نادرون عند القدماء ، فالقدماء كانوا يقولون ما صنع الرجل ليكون بطلاً بدلاً من أن يقولوا إنه كان بطلاً ، وقابلوا بين قبرية هذا البطل وقبرية المخلص سَرْدَانَابَالِ القائلة :

« أَقَمْتُ طَرَسُوسَ وأنكيالة في يوم واحد ، والآن أنا ميتة » .

فأئ القبريتين أكثر قولاً على رأيكم ؟ ليس أسلوبنا الرخاوى مع بهرجة صالحاً لغير نفخ أرقام ، وكان القدماء يُظهرون الرجال كما هم ، فيرى أنهم رجال حقاً ، وقد بجّل إكزيثوفون ذكرى بعض المجاهدين الذين قتلوا غدراً في أثناء ارتداد الآلاف العشرة ، فقال : « إنهم قتلوا

مُبرِّئين من العيب في الحرب والمَوَدَّة ، وهذا كلُّ ما قال ، ولكن رَوَا في هذا الثناء المَوْجَز البسيط مقدارَ ما كان في المؤلِّف من قلبِ عامر ، والويلُ لمن لم يَجِدْ هذا فاتناً !

وَوُجِدَت الكلماتُ الآتية منقوشةً على رُخامٍ في الترمُويل ، وهى :
« اذْهَبْ ، أيها المارُّ ، وأخبرِ إسْبارطة بأننا قُتِلْنَا هنا طائعين لقوانينها المقدَّسة » .

ومن الواضح أن هذا ليس من تأليف أكاديمية الخطوط .
وأكون مخطئاً إذا كان تلميذى ، الذى لا يُقيم غيرَ قليلِ وزنٍ للكلام ، لا يُعِيرُ انتباهه الأول من هذه الفروق فلا تؤثرُ في اختيار قراءاته ، وهو سينساق مع فصاحة دِيمُوسْتِنِ الرَّجُولِيَةِ فيقول : « هذا خطيب » ، ولكنه إذا ما قرأ شيشرون قال : « هذا محامٍ » .

وعلى العموم سيتذوَّق إميلُ كتبَ القدماء أ كثرَ من تذوِّقه كُتُبُنَا ، وبما أن القدماء هم الأولون فإنهم أقربُ إلى الطبيعة وإن عبقريتهم أ كثرُ بروزاً ، ومهما يكن من قولٍ لأموتَ ورئيسِ الديرِ تِرَّاسونَ لا تَرَى تقدماً حقيقياً في عقل النوع البشرى ، وذلك لأن ما يُكسَبُ من ناحيةٍ يُخسَرُ من ناحيةٍ أخرى ، ولأن جميع الأذهان تنطلق من ذات النقطة دائماً ، ولأن الوقت ، الذى يُستَعْمَلُ لمعرفة ما فَكَّرَ فيه الآخرون ، إذ يُضَيِّعُ على تَعَلُّمِ التفكير الذاتى ، فإنها تنالُ معارفَ كثيرةً وقلةً نشاطٍ في الذهن ، وتشابه أذهاننا ذُرْعاننا التى تَدْرَبُ على صُنْعِ كلِّ شَيْءٍ بالآلات ، والتى لا تَصْنَعُ كلَّ شَيْءٍ بنفسها ، وكان فُونْتِنيلُ يقول إن هذا النزاعَ بين القدماء

وللمعاصرين يُرَدُّ إلى معرفتنا هل الأشجارُ في الماضي كانت أكبرَ منها في الوقت الحاضر ، فلو كانت الزراعة قد تَغَيَّرَتْ ماعدً هذا السؤال من الوقاحة .

وإني ، بعد أن سِرْتُ بِإِمِيلَ إلى منابع الآداب الصافية ، أَطْلَعُهُ ، أيضاً ، على مجارى الأحواض في المصنِّفين المعاصرين ، وذلك من جرائد وترجاتٍ ومعاجمٍ ، فِيلْقِي نَظْرَةً على جميع هذا ، ثم يَتَرَكْهُ لكيلا يَعُودَ إليه مطلقاً ، وأنشِئْهُ تَرْنُوزَةَ الأكاديميات تسليّةً له ، وأدله على أن كلَّ واحدٍ ممن تتألف منهم أفضلُ بمفرده منه عُضْواً في الهيئة ، وهناك يستنبط بنفسه نتيجةً فائدةٍ جميع هذه المؤسسات الجميلة .

وَأَتَى به إلى المسارح لدراسة الذوق ، لا الأخلاق ، وذلك لأن الذوق هناك يَتَجَلَّى لمن يَعْرِفُون أن يتأملوا ، وأقول له : دَعْ تعاليم الأخلاق جانباً ، فلا ينبغي تَعَلُّمُهَا هنا ، ولم يُصْنَعِ الْمَسْرَحُ للحقيقة ، بل صُنِعَ لمدارة الناس وتسليتهم ، ولا تَجِدُ مدرسةً يُتَعَلَّمُ فيها جيداً فَنُّ رَوْقَانِ الناس واستهواء القلب البشريِّ كما يُتَعَلَّمُ هناك ، وتؤدَّى دراسة التمثيل إلى دراسة الشعر ، ولكلٍّ من الدراستين عينُ الفَرَضِ تماماً ، وإذا كان لديه بضيضٌ من الذوق في الشعر فبأى لغةٍ سِيُكَبُّ على لغات الشعراء : اليونانية واللاتينية والإيطالية ! وستكون له هذه الدِّراساتُ الهَوَاتِ بلا قَسْرِ ، ولا تكون أقلَّ نَفْعاً من هذا ، وستكون لذينةً له في سِنِّه وأحوالٍ يُعْنَى الفؤادُ البشريُّ فيها ، مع كثيرِ قُتُونٍ ، بجميع أنواع الجمال التي أُبْدِعَتْ للتأثير فيه ، وَتَمَثَّلُوا إِمِيلَ من ناحية ، وَتَمَثَّلُوا

طائشاً من المدرسة وهو يَقْرَأُ الإِنْثِيدَ أو تَيْبُولَ أو وَلِيمَةَ أَفْلَاطُون ،
فيا لِلْفَرْقِ ! وما أَكْثَرَ ما يُهَيِّزُ به فؤاد إميل بما لا يُؤَثِّرُ به في الآخرا !
ويا أيها النقي العزيز ! قِفْ ، اقْطَعْ قِراءَتَكَ ، أراك هائجاً كثيراً ، أريد
أن تَرْوِقَكَ لغةُ الغرام ، لا أن تُصَلِّكَ ، وَكُنْ إنساناً حساساً ، ولكن
كُنْ إنساناً حكيماً ، فإذا لم تكن غيرَ واحدٍ من الاثنين كُنْتَ عَدَمًا ، ومع
ذلك فإن من المهمِّ قليلاً أن يَتَوَقَّعَ ، أو لا يَتَوَقَّعَ ، في اللغات الميتة وفي
الآداب والشعر ، ولا ضَيْرَ عليه إذا كان لا يَعْرِفُ من ذلك شيئاً ، فلا
تقوم تربيته على مثل هذه اللطائف مطلقاً .

وَيَقُومُ غَرَضِي الرِّئاسُ ، إِذْ أَعْلَمُهُ أن يُحِسَّ الْجَمَالَ وَيُحِبَّهُ ، على
تَرْكِيزِ عواطفه وأذواقه ، وعلى عدم فساد شهواته الطبيعية ، وعلى عدم بَحْثِهِ
في ثَرائِهِ ، ذاتَ يوم ، عن وسائل سعادته التي يجب أن يَجِدَها أَكْثَرَ
قُرْبًا إِلَيْهِ ، وقد قَلْتُ في مكانٍ آخَرَ إن الذَّوقَ لم يكن غيرَ فنِّ الخبير
في الأمور الصغيرة ، وهذا صحيحٌ جدًّا ، ولكن بما أن لذة العيش تتوقفُ
على نسيجٍ من الأمور الصغيرة فإن مِثْلَ هذه الجهود لا تكون شيئاً صغيراً ،
ونحن بها نتعلَّمُ القيامَ بما يكون في مُتَنَاوِلنا من صالح ، وذلك ضِمْنَ
ما يُمكن أن يكون لها في نظرنا من حَقِيقَةٍ كُلِّيَّةٍ ، وهنا لا أَقْصِدُ
صالحاتِ الخُلُقِ التي تتعلق بِحُسْنِ تَصَرُّفِ النفس ، وإنما أَقْصِدُ ، فقط ،
ما هو من الحِسِّيَّةِ والشهوة الحقيقية بِمَعزِلٍ عن المُبْتَسِراتِ والرأى العام .
وليؤدِّنْ لي ، لِحُسْنِ تفصيل رأْيي ، أن أدَعِ ، لوقتٍ قصيرٍ ، إميلَ
الذي عاد قلبه النقي السليمُ لا يَصْلُحُ قاعدةً لأحد ، وأن أبحث في نفسِي

عن مثالٍ أَكْثَرَ بُرُوزاً. وَأَقْرَبَ إِلَى طِبَائِعِ الْقَارِي .
 وَيُوجَدُ مِنَ الْمِهْنِ مَا يَلُوحُ تَبْدِيلُهُ لِلطَّبِيعَةِ وَتَغْيِيرُهُ لِلرِّجَالِ الَّذِينَ يَقُومُونَ
 بِهَا ، وَيَصِيرُ الْجَبَانُ شَجَاعاً بِدُخُولِهِ فِي كَتِيبَةِ نَبَرَةٍ ، وَلَيْسَ فِي الْجَيْشِ
 وَحْدَهُ مَا تُكْتَسَبُ الْعَصَبِيَّةُ ، وَلَيْسَ فِي الْخَيْرِ وَحْدَهُ مَا يُشْعَرُ بِنَتَائِجِهَا دَائِماً ،
 وَقَدْ أَبْصَرْتُ مَذْعُوراً مِثْلَهُ مَرَّةٍ أَنِّي لَوْ كُنْتُ مِنَ الشَّقَاءِ الْيَوْمَ مَا أَقُومُ
 مَعَهُ بِمِثْلِ تِلْكَ الْخِدْمَةِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ لَفَدَّوْتُ فِي الْغَدِّ تَقْرِيباً حَتَّى طَاغِيَةً
 سَارِقاً لَيْتَ الْمَالِ هَادِماً لِلشَّعْبِ ضَارّاً بِالْأَمِيرِ عَدُوّاً مُحْتَرِفاً لِلْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْصَافِ
 وَلَأَنْوَاعِ الْفَضِيلَةِ .

وَكَذَلِكَ لَوْ كُنْتُ غَنِيًّا لَفَعَلْتُ كُلَّ مَا يَجِبُ لِأَصِيرِهِ ، وَلِذَا فَإِنِّي
 أَكُونُ عَانِيًّا نَذْلاً ، حَسَّاساً سَرِيعَ الْإِنْفِعَالِ فِي سَبِيلِ نَفْسِي ، فَاقْدَرِ الرَّحْمَةَ
 قَاسِيَ الْقَلْبِ تَجَاهَ جَمِيعِ النَّاسِ ، رَقِيباً مُزْدَرِجاً لِبُؤْسِ الْأَرَاذِلِ ، وَذَلِكَ لِأَنِّي
 لَا أَجِدُ اسْماً غَيْرَ هَذَا أُطْلِقُهُ عَلَى الْمُفْسِرِينَ لِلْإِنْسَاءِ كَوْنِي مِنْ طَبَقَتِهِمْ فِيمَا
 مَضَى ، وَأَخِيراً سَاجِئِلٌ مِنْ ثَرَاتِي وَسِيلَةً لِمَلَاذِي الَّتِي سَأُعْنِي بِهَا حَصْراً ،
 سَائِراً حَتَّى ذَلِكَ عَلَى غِرَارٍ غَيْرِي .

وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ اخْتِلَافِي عَنْهُمْ كُلَّ الْإِخْتِلَافِ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ
 أَنِّي سَأَكُونُ حَسِيًّا شَهْوَانِيًّا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ أَكُونُ غَطْرِيساً مَغْرُوراً ، وَأَنِّي
 سَأَكُونُ مِنْهُمْ كَأَنَّ فِي تَرَفِّ الْعَيْشِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي تَرَفِّ الْفَخْرِ ، حَتَّى إِنِّي
 سَأَسْتَحْيِ بَعْضَ الْحَيَاءِ مِنْ عَرَضِ ثَرَاتِي كَثِيراً ، مُتَمَثِّلاً دَائِماً أَنِّي أَبْصِرُ
 الْحَسُودَ ، إِذْ أَسْحَقُهُ بِيَذْخِي ، يَقُولُ لِجِيرَانِهِ هَمْساً : « هَذَا خَيْثُ يُحْشَى
 كَثِيراً أَلَّا يُعْرَفَ هَكَذَا » .

وسأبحث ، بين هذا الإسراف في الأطايب التي تَغْمُرُ الأرضَ ، عن أكثر ما يكون مقبولا عندى وأفضل ما أستطيع تَمَتُّكُهُ ، ولذا سيكون شراء الفراغ والحرية أول ما يَنْفَعُنِي به ثَرَانِي ، وإليهما أضيفُ الصحةَ إذا كان لها مَنَمْنٌ ، ولكن بما أنها لا تُشْتَرَى بغير الاعتدال ، وبما أنه لا تُوجَدُ لذَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ في الحياة غيرُ الصحة ، فإنني أكون معتدلاً في الحِسِّيَّة .

وسأبقى بجانب الطبيعة دائماً ما أمكن ، وذلك مصانعةً للحواس التي نلتها منها ، واثقاً بأنها كلما وَضَعْتَ نصيباً منها في مُتَمَعِي وَجَدْتَ نصيباً من الحقيقة في هذه المُتَمَعِ ، وسأخذ الطبيعة تَمُودَجاً دائماً عند اختيار الأمور القائمة على التقليد ، وسأفَضُّ الطبيعةَ في شَهَوَاتِي وسأستشير الطبيعةَ في أذواق دائماً ، وسأريد من الأطعمة دائماً أحسن ما يُعَدُّ وأقل ما يَمُرُّ من الأيدي وصولاً إلى موائدنا ، وسأحولُ دون مخادعاتِ الفِشِّ ، وسأذهب للملاقة اللذة ، ولن يَفْتَنِي رَئِيسُ الخَدَمِ من نَهَمِي الطائش الغليظ ، ولن يَبِيعَنِي ، مطلقاً ، سُماً يَثْقَلُهُ ذَهَباً على أنه سَمَكٌ ، ولن تكون مائدتي مستورةً ، مطلقاً ، بأجهزة من الأقدار والجِيفِ آتِيَةٍ من بعيد ، وسأنفقُ مَشَقَّتِي قضاءً لحسيتي ، ما دامت هذه المشقةُ ، إذ ذاك ، لذَّةً بنفسها تَزِيدُ على ما يَنْتَظَرُ ، وإذا أردتُ أَكَلَ طَعَامٍ يُؤَثِّرُ به من أقصى الدنيا ذَهَبْتُ ، مِثْلَ أَيْدِسْيُوسَ ، للبحث عنه هنالك مُفَضَّلاً هذا على جَلْبِهِ من هنالك ، وذلك لأنه يُعْمِزُ أُخَرَ الأطعمة من التعليل ، دائماً ، ما لا يُجَلِّبُ معها ، وما لا يستطيع أيُّ طامِ أن يَمْتَنَحَهَا إِيَّاهُ ، فهو الإقليم هو الذي أنتجها .

ولذاتِ السببِ لن أَقَلِّدَ أولئك الذين لا يكونون في حالٍ حسنٍ إلا حيث لا يكونون مطلقاً ، فيَجْتَلُونَ بعضَ الفصول مناقضاً لبعض دائماً ، ويعملون الأقاليمَ مناقضةً للفصول ، والذين يَبَحْثُونَ عن الشتاء في الصيف ، وعن الصيف في الشتاء ، فيذهبون إلى إيطالية طلباً للبرد وإلى الشمال طلباً للحر ، غيرَ مُفَكِّرِينَ في أنهم حين يَرَوْنَ الفِرَارَ من شِدَّةِ الفصول يَجِدُونَ هذه الشدةَ في الأماكن التي لم يُتَعَلَّمْ اتقاؤها فيها قط ، وسأبقى حيث أنا ، أو إنني أسلكُ السبيلَ المعاكس ، أى إنني أرغبُ في استخلاصى من الفصل كلِّ ما فيه من لذة ، ومن الإقليم كلِّ ما فيه من خصائص ، وسيكون لدى من تنوعَ اللذاتِ والعادات ما لا يتشابه مطلقاً ، مع وجوده في الطبيعة دائماً ، فأذهبُ لقضاء الصيف في نابُلْ ولقضاء الشتاء في بَطْرُسْبُرْغ ، فأستنشِقُ تارةً نسيماً لطيفاً وأنا نصفُ مُضْطَجِعٍ في مَغَارَاتِ تَارَنْتِ الرطبية ، وأتمتعُ تارةً بنورِ قصرٍ من جَدِّ وأنا ضيقُ النفسِ تعبٌ من الطافِ المَرَقَص .

وأريدُ في أدواتِ مائدتي وزينةِ منزلي أن أَقَلِّدَ تنوعَ الفصول بزخارفِ بالغَةِ البساطة ، فأستخلصُ من كلِّ فصلٍ جميعَ مُتَعِهِ غيرَ سابقٍ لِمَتَعِ الفصل الذي يَنْدَبُهُ ، وهكذا توجَدُ مشقةٌ ، لا ذوقٌ ، في إقلاقِ نظامِ الطبيعة ، وفي انزعاجِ مُنتَجَاتِ غيرِ إراديةٍ تُنَمُّ بها كَرَهَا ضِيقُ لَعْنَتِهَا فلا تستطيع هذه المنتجاتُ تَغْذِيَةَ المَعِدَةِ ولا مصانعةَ الخلقِ عن عدمِ وجودِ خاصيةٍ لها ولا طعم ، ولا شيءَ أَتفه من البواكير ، وليس بغيرِ نفقاتٍ كبيرةٍ ما يستطيع الغنى الفلافى بياريس ، مع أفرانه ومدفاته ،

أن يُخَضَّرَ إلى مائدته في جميع السنة خُضْراً سيئاً وفواكه رديئة ، وإذا كنتُ حائزاً كَرَرًا أيامَ الجَلِيدِ وشمَّامًا غَنَبِيًّا في وَسَطِ الشتاءِ فبأيةِ لَذَّةٍ أَذُوقُهُمَا عندما يكونَ حَلَقِي غيرَ محتاجٍ إلى تَطْرِيبَةٍ ولا إلى تَرْطِيبٍ ؟ وهل تَطِيبُ لي الكِسْتَنَاءُ الثقيلة أيامَ الحرِّ الشديدِ ؟ وهل أَفْضَلُهَا خَارِجَةً من المَوْقِدِ على الكِشْمِشِ والثُّوتِ الفِرَنْجِيِّ والفواكه المَبْرَدَةِ التي تُتَقَدَّمُ إلىَّ فوقَ الأرضِ من غيرِ جُهْدٍ كبيرٍ ؟ يَنْطَوِي سَتْرُ الإنسانِ لمَوْقِدِهِ في شهرِ ينايرِ بنباتاتٍ مُتَصَنَّعةٍ وأزهارٍ مُصَنَّفَةٍ خاليةٍ من الرائحةِ على عَطَلٍ من زينةِ الربيعِ أَكْثَرَ مما تَنْطَوِي على تزيينِ للشتاءِ ، أَيْ إِنَّهُ يَنْطَوِي على حِرْمانِ الإنسانِ لَذَّةَ الذهابِ إلى الغابِ للبحثِ عن البَنْفَسَجَةِ الأولى وتَرْصُدِ البَزْعَمِ الأولِ ، والمُتَكَاثِفِ في نَشْوَةٍ من البهجة بالكلمة : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ لَمْ تُتَرَكُوا ، فلا تزال الطبيعةُ حَيَّةً » .

وسيكونَ عندي قليلٌ من الأَجْرَاءِ لأُخْدَمَ جيداً ، وهذا ما كانَ قد قِيلَ ، وهذا ما يَصْلُحُ قولُهُ أيضاً ، وينالُ ابنُ الطبقةِ الوسطى من أَجِيرِهِ الوحيدِ خِدْمَةً حَقِيقَةً أَكْثَرَ مما ينالُ الدُّوكُ بعشرةٍ من السادةِ يحيطونَ به ، ومما فَكَّرْتُ فِيهِ مِثْلَ مَرَّةٍ أَنِّي ، حينَ وجودي حَوْلَ المائدةِ والقَدَحِ بِجَانِبِي ، أَشْرَبُ عندما أُرِيدُ بَدَلًا من وجودي حَوْلَ مائدةٍ كبيرةٍ فيرتفعُ عشرونَ صوتًا لإحضارِ الشرابِ قبلَ أنِ أَسْتَطِيعَ إطفاءَ عطشي ، فَكُلُّ ما يُصْنَعُ من أَجْلِ الآخِرِينَ يُصْنَعُ سَيِّئًا كما يَتَّخَذُ ، وَلِذَا فلا أُرْسِلُ أَحَدًا إلى الباعةِ ، بل أَذْهَبُ بِنَفْسِي ، وذلكَ خَشْيَةً أَنِ يَتَّفِقَ خَدَمِي مع الباعةِ قبلَ أَنِ يَتَّفِقُوا معي ، وذلكَ لأَطمِئِنُّ ، أَيضًا ، إلى الاختيارِ وأُذْفَعُ

أقلّ ما يُمكن من الثمن ، وأذهبُ للقيامِ برياضةٍ لذينة. ولأشاهدَ بعضَ
 الشهادة ما يقعُ خارجَ منزلي ، وهذا يُسَلِّي ، وهذا يُهْدِبُ أحياناً ، وأخيراً
 أذهبُ للنزهة ، وهذا شيءٌ يُذَكِّرُ دائماً ، ويبدأُ السَّأمُ بالحياة الحضرية
 كثيراً ، ومتى كثُرَتِ النزهةُ قلَّ المللُ ، ويُعَدُّ البَوَّابُ والخدم من أسوأ
 التراجمة ، فلا أريدُ ، مطلقاً ، أن يكون هؤلاء الناسُ بيني وبين بقية
 الناس دائماً ، كما أنتى لا أريد أن أسيرَ دائماً مع قَرْقَمَة عَرَبِيَّةٍ كما لو كنتُ
 أخافُ أن يُقْتَرَبَ مني ، وتكون خَيْلُ من يَنْتَفِعُ بساقيه مستعدةً دائماً ،
 فإذا ما تَعَبْتُ أو مَرَضْتُ عَرَفَ هذا قبل غيره ، وهو لا يَحْشَى أن يُضْطَرَّ
 إلى التزام منزله متعللاً بهذه الذريعة إذا ما أراد حُوزِيَهُ أن يتنزّه ، وما كان
 ألفُ عائقٍ في الطريق ليستنفد صبره ، فلا يبقى في مكانه حينما يريد أن
 يُفِذَّ في السَّير ، وأخيراً إذا كان لا يُوجَدُ من يَنْفَعُنَا جيداً كما نَنْفَعُ
 أنفسنا وَجَبَ علينا ألا نتلصقَ من الآخرين خِدمًا غير مالا نستطيع إنجازَه
 بأنفسنا ، ولو كنا أقوى من الإسكندر وأغنى من قارون .

ولا أودُّ أن أكونَ صاحبَ قصرٍ للإقامة ، وذلك لأننى لن أَسْكُنَ
 غيرَ غرفةٍ واحدة من هذا القصر ، وكلُّ غرفةٍ مشتركةٍ ليست لأحدٍ ،
 وتكونُ غرفةُ كلِّ واحدٍ من خَدَمِي غريبةً عني كغرفة جارى ، ومع أن
 الشرقيين كثيرو الشهوة فإنهم بَسِطُوا السَّكَنَ والأثاث ، وهم يَعُدُّونَ
 الحياةَ سَفَرًا ومنزلهم فُنْدُقًا ، ومن القليل أن يتناول هذا السببُ أغنياءنا
 الذين يَقْصِدُونَ العيشَ مُخَلَّدِينَ ، ولكن سيكون لدى سببٍ آخرٍ يؤدِّي
 إلى عين النتيجة ، فيلوح لى أن إقامتى بمكانٍ واحدٍ مع تلك الأبهة يَفْنِي

إقصائي عن جميع الأماكن الأخرى ، وحُبِّي في قصرى هكذا ، والعالم قصرٌ جميلٌ بما فيه الكفاية ، أوليس كلُّ شيءٍ للفنى إذا ما أراد التمتع ؟ وشعارُ الفنى هو « وطنك حيث تكون بخير » ، وآلهة البيت عنده هي الأمكنة التي يَقدِرُ المال فيها على كلِّ شيء ، ويَكُونُ بلدُه كلَّ مكانٍ يُمكن انتقالُ خزينته إليه ، شأنُ فليپ الذى كان يَعدُّ من أملاكه كلَّ حصنٍ يُمكن أن يَدْخله بَعْلٌ مُحَمَّلٌ مالاً ، ولمَ ذهابُ الإنسان ، إذن ، ليَحْصِرَ نفسهِ ضمنَ جُدرانٍ وأبوابٍ فلا يَخْرُجُ منها أبداً ؟ وإذا ما طَرَدنى وبلاءٌ أو حربٌ أو تَمَرُّدٌ من مكانٍ ذهبتُ إلى آخرٍ وَوَجَدْتُ وصولَ فُنْدُقٍ إليه قَبْلِي ، ولمَ أُعْنَى بإقامة منزلٍ لنفسي وقد أُقيمت لى منازلُ فى جميع العالم ؟ ولمَ أُعِدُّ لنفسي ، وأنا الذى يستعجل الحياة كثيراً ، مُتَعَاً من بعيدٍ مع أنه يُمكننى أن أجِدَها حيث أنا اليوم ، وما كان الإنسان ليستطيع أن يَجْعَلَ لنفسه مصيراً مقبولاً إذا ما عارضَ نفسه بلا انقطاع ، وهكذا كان أيبذقليس يَلومُ الأغرِيَجَنْتِيِّينَ على تكديسهم المَلَاذِّ كأنه لم يَبْقَ لهم غيرُ يومٍ يَعيشُونَ فيه وعلى البناء كأنهم لا يَمُوتُونَ أبداً .

نُفْسٌ ما فائدتى من منزلٍ بالغِ الاتساع ما قَلَّ عندى من يَعمُرُه وما كان أقلُّ من ذلك ما يَمْلأُه ؟ سيكون أثنائى بسيطاً بساطة أذواقى ، ولن يكون عندى رِواقٌ لَمَرَضِ الصور ولا مكتبةٌ ، ولا سيما عند ولعى بالمطالعة ومعرفتى بالآلواح ، لِعَلِمِي هنالك أن مجموعاتٍ كهذه لا تكون كاملةً مطلقاً ، ولأن نَقْصَ ما يُعَوِّزُها يُوْثِرُ غَمًّا أَكْثَرَ من عدم حياتها ، وبهذا يُسْفِرُ اليُسْرُ عن عُسرٍ ، ولا تَجِدُ صانعَ مجموعاتٍ لم يَشْعُرْ بهذا ، وإذا كنتَ

خيراً فلا ينبغي لك أن تضع مجموعةً مطلقاً ، ولا ينبغي لك أن تطلع الآخرين على مكتبك إذا كنت تعرف الانتفاع به لنفسك .

وليس القمار الهوة الرجل الغني مطلقاً ، والقمار وسيلة البطال ، وتمنحني ملاذ من الأعمال ما لا تترك لي معه وقتاً أسىه شغله بذلك المقدار ، وإذا كنت معتزلاً فقيراً لم أَلْعَب قط ما لم يكن هذا لعب الشرّنج ، وهذا يوفى على الغاية ، وإذا كنت غنياً كان لعبي أقل من ذلك أيضاً ، وكان لعبي صغيراً جداً ، وذلك لئلا أرى أحداً مستاءً مطلقاً ، ولكيلا أكون ساخطاً ، وبما أن فائدة اللعب يعوزها الباعث في البشر فإنها لا تتحول إلى غيظ ، مطلقاً ، في غير نفس سيئة الوضع ، وما يستطيع الرجل الغني أن ينال من فوائد في اللعب يكون محسوساً لديه ، دائماً ، أقل مما في الخسارة ، وبما أن من شأن شكل الألعاب المعتدلة ، التي يتمتع بفائدتها مع الزمن ، أن توجب خسراً أكثر من أن تورث كسباً على العموم فإن من غير الممكن ، عند حسن الانتباه ، أن يولع كثيراً بالهوة تقع جميع أخطارها عليه ، ويمكن الذي يغذى زهوه بمفضلات الطالع أن يبحث عنها في أكثر الأمور تأثيراً ، ولا تنبئ هذه المفضلات في أصغر الألعاب أقل مما في أكبرها ، ولا يتناول ذوق القمار ، الذي هو ثمرة البخل والملل ، غير النفوس الفارغة والقلوب الخالية ، ويُلوح لي أنني أكون من الشعور والمعارف الكافية ما أستغنى به عن مثل هذه التكلفة ، ومن النادر أن يسرّ المفكرون بالقمار الذي يعطل عادة التفكير ، أو يحوّلها إلى تدابير جديّة ، وكذلك فإن

إحدى المنافع التي نشأت عن تذوق العلوم ، ورُبَّمَا كانت المنفعة الوحيدة ، هي أن تُضَعِفَ بعضَ الضعفِ ذلكَ الولعَ الدَّائِسَ ، والناسُ يُفَضِّلُونَ كَشْفَ فائدةِ اللعبِ على تعاطيه ، وسأُكَلِّفُهُ بينَ اللاعبين ، وسيكونُ سرورى بأن أَسْخَرَ منهم إذ أراهم يُخْسِرُونَ أعظمَ مما يَكَسِبُ أموالهم منهم .

وسأكون على نَمَطٍ واحدٍ في حياتي الخاصة وفي معاشرتي للناس ، وسأريد أن يَضَعَ نصيبى يُسْرًا في كلِّ مكانٍ ، وألَّا يُشْعِرَ بتفاوتٍ مطلقًا ، ويُعَدُّ بَرِيقُ الزينةِ الخادعُ ثِقِيلًا من أَلْفِ ناحيةٍ ، وأودُّ ، للاحتفاظِ بينَ الناسِ بكلِّ ما يُمَكِّنُ من الحرية ، أن أكونَ من المَظْهَرِ ما أبْذُو به في مكاني عند جميع الطبقات . فلا أَمَازُ في أية واحدة منها ، فأستطيعُ أن أختلط ، من غير تَصَنُّعٍ أو تَغَيُّرٍ في شخصي ، بالجمهور في الحانة أو بالطبقة العليا في البَالَةِ رَوَّيَالٍ ، ومن ثَمَّ أَجْعَلُ في متناولى دائماً مَلَاذَّ جميع الطبقاتِ لِمَا أكونُ أَكْثَرَ سيطرةً على سلوكي ، ويقال إنه يُوجَدُ من النساءِ من يُوصِدُنَ أبوابهن دون أكام القُمُصَّانِ الطَّرَزَةِ فلا يستقبلن أحداً من غير مُحَرَّماتٍ ، وإِذَا فَإِنِّي أَذهب لقضاء يومى في مكانٍ آخر ، ولكن إذا كان هؤلاء النِّسْوَةُ من الفَتَيَاتِ الغَوَايى أمكننى أن أَلْبَسَ في بعض الأحيان من المُخَرَّماتِ ما أَقْضِي معه هنالك ليلةً على الأكثر .

وستَقُومُ العلاقةُ الوحيدةُ في مُصَاحباتى على تبادل العواطف وتوافق الأخلاق ، وسأُلزِمُهَا مِثْلَ رجلٍ ، لا مثل غنىٍ ، ولن أُطِيقَ تسميمَ فتونها بالمنفعة مطلقًا ، وإذا كان يُسْرِى قد تَرَكَ لى شيئًا من الإنسانية فَإِنِّي أَوْسَعُ مَدَى خِدْمَى وإِحسانى إلى بعيد ، ولكننى أريد أن يَكُونَ

حولى مُجْتَمَعٌ لا بِلَاطٌ ، وأصدقاء لا مُحْتَمُونَ ، ولن أكون حامياً لضيوفى مطلقاً ، بل قارِياً ، وسيترك الاستقلالُ والمساواةُ لصِلَاتِي كُلِّ سلامةٍ رِئَيةٍ وحُسْنِ التَّفَاتِ ، وستَكُونُ المِسرَّةُ والصداقةُ وحدَهما قانوناً حيث لا يكون للواجب ولا للمنفعة مكانٌ .

ولا يُشْتَرَى الصديقُ ولا الخليفةُ ، أَجَلٌ ، إن من السهل حيازة نساء بالمال ، بيد أن المال وسيلةٌ عدم كَوْنِ الواحد عاشقاً لأية واحدةٍ منهن ، ومع أن يَبِيعَ الغرامُ أمرٌ مُسْتَبْعَدٌ فإن المالَ يَقْتُلُهُ لا نَحَالَةً ، ومن يَدْفَعُ مالاً لا يُحِبُّ لِمَنْ طَوِيلٌ بسببِ دَفْعِهِ ولو كان أُخْرَى الناسَ بِالْحُبِّ ، وذلك أنه لا يَلْبَثُ أن يَدْفَعَ من أَجْلِ آخر ، وإن شئتَ قُلْ إنه سَيَدْفَعُ إلى هذا الآخرِ من ماله ، فتَكُونُ المرأةُ الطامعةُ الخائنةُ الخبيثة في هذه العلاقة المضاعفةِ التي نُسِجَتْ من المنفعة والدَّعَاةِ والخاليةِ من الحُبِّ والشَّرَفِ واللذة الحقيقية ، تَكُونُ هذه المرأةُ التي تعامل من قِبَلِ النَّذْلِ المدفوعِ إليه مالٌ كما تعامل الغبيُّ الدافعُ إليها مالاً بريئةَ الذمة نحو الاثنين على هذا الوجه ، ومن أَحَلَّى الأمور أن يكون الإنسانُ نَدِيَّ الكَفِّ تجاه من يجبُ إذا لم يُوَدَّ هذا إلى مساومة ، ولا أعْرِفُ غيرَ وسيلةٍ واحدة يَرْوِي الرجلُ بها هذا المَيْلَ مع خليلته من غير أن يُسَمَّ الحُبُّ ، وهى أن يُعْطِيا كُلُّ شَيْءٍ ، ثم أن تَقُومَ بأمور عيشه ، وقد بَقِيَ أن يُعْرِفَ أين تكون المرأةُ التي يَخْلُو اتخاذُ هذه الطريقة معها من هَوَس .

ومن قال : « إن لا ييسَ مُلِكِي من غير أن أكون مُلِكاً لها » كان قوله هذا خالياً من المعنى ، فليست الحيازةُ غيرُ المتبادلة شيئاً مذكوراً ، وذلك

فضلاً عن كونها حيازة جنسٍ ، لا حيازة فردٍ ، ولكن إذا كان أدبُ الحبِّ غيرَ موجودٍ فَلِمَ يُثارُ ضجيجٌ حَوْلَ الباقي ؟ لا شيءٌ أسهلُّ من أن يُوجدَ ، ويَكُونُ البَعَالُ أقربَ إلى السعادة من صاحب الملايين من هذه الناحية .

وى ! لو أُمكِنَ التوسُّعُ في متناقضاتِ الفُسُوقِ بما يكفي لَوُجِدَ ، عند بلوغه غَرَضَهُ ، كثيرُ البُعْدِ من حسابه ! ولِمَ هذا الجشعُ الوحشِيُّ في إفساد الطُّهرِ ، وفي جعلِ ضحيةٍ من الشابِّ الذى تَجِبُ وقايتهُ ، وفي هذه الخطوة الأولى التى تَجْرُ ، لا محالةً ، إلى هُوَّةٍ من البؤسِ لا يُخْرِجُ منها إلاَّ بالموت ؟ غِلْظَةٌ وغرورٌ وغباوةٌ وعَوَايَةُ ، ولا شيءٌ أكثرُ من هذا ، حتى إن هذه اللذة ليست من الطبيعة ، وإنما هى من الرأى الدارج ، من هذا الرأى الذى هو أسفلُ ما يَكُونُ لقيامه على ازدياءِ النَّفْسِ ، ومَنْ يَشْعُرُ بأنه آخرُ الناسِ يَحْسُ مِقَارَتَهُ بغيره ، وَيَرْغَبُ أن يَكُونُ الأولَ ليكونَ أَقْلٌ مَقْتاً عند الآخرين ، ورَوَّاهل يَكُونُ أكثرُ الناسِ طمعاً في هذا المَشْهَى الخيالىِّ من الشبان اللُّطَفَاء الذين هم أهلٌ لأن يَقَعُوا موقعَ الرِّضَا فيُعْذَرُوا كثيراً إذا ما بَدَّوْا مُسْتَعْصِينَ ، كَلَّاءَ ، فلا يَحْسَى الذى يَكُونُ وسيماً صاحباً لمزيةٍ وعواطفِ اختبارِ خليلته إلا قليلاً ، فهو يقول لها مطمئناً : « لستُ أبالى أن تَعْرِفِى المِلَادَ ، فقَوادى يُخْبِرُنِى عنكِ بأنكِ لم تَعْرِفِىها قَطُّ » .

ولكنْ إليك شيخاً أُسطورياً من شيوخ الغاب نَهَكَهُ الفُجُورُ وخَلَا من الفُتُونِ والملاطفة والاعتبار ومن أنواع الحياء وصار عيًّا غيرَ جديرٍ بأن يَرْوَقَ

أية امرأة تعاشر أهل الحب فيرى هذا الشيخ أن يعوض من هذا بفتاة طاهرة ، فيجعل المبادرة تسبق التجربة ويحرك حواسها للمرة الأولى ، ويقوم آخر أمل له على تسلي الحظوة بالطرفة ، أجل إن هذا ينطوى على الباعث الخفي لذلك الهوى ، ولكنه مخطئ ، فما يأتي من رجس ليس أقل صدوراً عن الطبيعة من الميول التي يريد تهيجها ، وهو مخطئ أيضاً في أمله ، فالطبيعة عنها تُعنى بادعاء حقوقها ، وذلك أن كل فتاة تباع نفسها هي غير بكرٍ منذ زمن ، وذلك أنها إذ تكون قد وهبت نفسها عن خيار تكون قد أنت ما يخشى من مقارنة ، ولذا فإنه يشتري لذة خيالية ، يشتري لذة ليست أقل إثارة للفت .

وأما أنا فتوجد نقطة لا أغير عندها مطلقاً مهما بلغت من الفنى ، وإذا لم يبق عندى خلق ولا فضيلة بقي عندى شيء من الذوق والشعور والرفقة على الأقل ، وهذا يقينى من زلل إلفاق ثروتى على الأوهام واستنفاد كبرى وحياتى خلاً لأولاد على الاستهزاء بى وعلى خيائى ، ولو كنت قتي لبحثت عن ملاذ الشباب ، وإنى ، إذ أطلبها بكل ما تنطوى عليه من شهوة ، لا أبحث عنها كرجل غنى ، ولو بقيت كما أنا عليه الآن لكان الأمر شيئاً آخر ، أى لاقتصرت على ملاذ سنى بحكمة ، فأنخذ الأذواق التى أستطيع أن أمتع بها وأخفق التى عادت لا تورثنى غير النعم ، ولن أعرض لحيتى الرمادية لازدراء الفتيات مطلقاً ، ولن أطيق ، مطلقاً ، أن أرى ملاطفاتى المستكرهة التى تخلع منهن القلب ، وأن أعدهن لمن ، على حسابى ، أدعى الأحاديث إلى الهزء ، وأن أتمثلن وهن يصفن ملاذ

القرود الأشمط ، كأنهن ينتقمن لأنفسهن من اصطبارهن عليه ، وإذا ما حوّلت عاداتي التي أسيء كفاحها سابق ميولي إلى احتياجات قضيت هذه الاحتياجات على ما يحتمل ، ولكن مع خجل من نفسي ، وأميز الهوى من الاحتياج ، وأتوافق ما أمكنتني ، وأقتصر على ما اتفق لي ، فأعود غير مبالي بضعفي ، ولا أريد أن يكون لي غير شاهد واحد على ذلك خاصة ، وللحياة البشرية ملاذ أخرى إذا ما أغوزتها تلك ، وإذا ما سعيننا ، عبثاً ، وراء ما يفر منها حرماننا ما بقي لنا منها ، فلنغير أذواقنا مع السنين ، ولا نحاول تبديل سين بسين أكثر من محاولتنا وضع فصل موضع الفصول الأخرى ، وهكذا يجب أن نكون على ما نحن عليه في جميع الأوقات وألا نكافح الطبيعة ، فذل هذه الجهود تُبلى الحياة وتحول دون انتفاعنا بها .

ولا يسأم الجمهور مطلقاً ، فحياته فاعلة ، وألهواته نادرة وإن لم تكن منوعة ، وما يقضي من أيام تعب كثيرة يذيقه بضعة أيام عيد مع النعيم ، وما يكون من تناوب بين الأشغال الطويلة والعطل القصيرة يقوم مقام التعليل في ملاذ طبخته ، ويعد السأم من أعظم المصائب التي يُصاب بها الأغنياء ، ويضنيهم السأم في سواء كثير من الألهوات التي تنظم بنفقات باهظة ، ويضنيهم السأم بين كثير من الناس الذين يتسابقون إلى الوقوع عندهم موقع الرضا ، فيقتلهم ، وهم يقضون حياتهم في الفرار منه وفي الإصابة به ، وهم يرهقون بأثقاله التي لا تطاق ، ويفترس النساء ، اللاتي عدن لا يعرفن أكثراتاً ولا لهواً ، باسم الأبخرة السوداءوية على الخصوص ، ويتحول

السَّأْمُ لدى النساءِ إلى مَرَضٍ هائلٍ يَنْزِعُ عُنُقَهُنَّ ثم حَيَاتَهُنَّ أحياناً ،
وأما أنا فلا أَعْرِفُ مصيراً أُنْظَعُ من مصيرِ الحسناءِ بياريسَ ، مصيرِ هذه
الحسناءِ التي يُولَعُ بها قَتَى لطيفٌ قَتَعْدُو هذا القَتَى مِثْلَ امرأةٍ في البِطَالَةِ
ويبتعدُ عن رُجُولته تماماً فيحتل ، عن زهوٍ بأن يكون ذا نصيبٍ حسنٍ ،
أسوأ ما يَمُرُّ على مخلوقٍ من عُبُوسٍ أُسْكَلَحِ الأيامُ .

وتشتمل اللَّيَاقَاتُ والمُوضَاتُ ، وما يُشْتَقُّ من الترفِ وحُسْنِ الوَضْعِ
من عاداتٍ ، على مجرى الحياةِ في أَعْبَسِ ما يكون من اطِّرادٍ ، وتُعَدُّ اللذةُ
التي يُرَادُ عَرَضُهَا على أعين الآخرين ضائعةً لدى جميع الناسِ ، فنحن
لا نتمتع بها ، ولا نَجْعَلُ الآخرين يتمتعون بها^(١) ، ويكون السُّخْرَةُ* ،
الذي يَحْفَافُهُ الرَّأْيُ العامُّ في كلِّ أمرٍ ، بجانب الرَّأْيِ العامِّ دائماً لِيَجُورَ
عليه ويمجازه ، ولا يكون الإنسانُ سُّخْرَةً بغير أشكالٍ مُعَيَّنَةٍ ، ومن يَعْرِفُ
تنويعَ أوضاعِهِ وملاذِهِ يَمْنَحُ اليومَ تأثيرَ الغدِ ، أَجَلٌ ، إنه يُسْتَرَدَّلُ في
نفوسِ الناسِ ، ولكنه يَتَمَتَّعُ ، وذلك لأنه وَقَفَ على كلِّ ساعةٍ وكلِّ
أمرٍ ، وذلك هو طَوْرِي الثابت ، وفي كلِّ وضعٍ لا أبالي بأيِّ وَضْعٍ آخَرَ
كان ، وسأَتَّخِذُ كلَّ يومٍ على حِدَةٍ مستقلاً عن الأمسِ والقَدِ ، وبما أني

(١) انتحلت اثنتان من السيداتِ المصرياتِ دستوراً لهما بالألا تذهبا إلى الفراش قبل الساعة الخامسة صباحاً للدلالة على أنهما التهما كثيراً ، ويقضى خدمهما أشد أوقات الشتاء في الشارع انتظاراً لهما ملاقين كل شدة لائقاء الجسود ، وما حدث ذات ليلة ، وإن شئت فقل ذات صباح ، أن وقع دخول المنزل الذي قضتا فيه لهما كبيراً فتركنا الساعات تمر من غير حساب ، فوجدتا ، وحدهما ، نائمتين على مقعدين ذوي مساند .

أكون من الشعب ومع الشعب فإنني أكون ريفيًا في الحقول ، فإذا ما تكلمت عن الزراعة لم يهزأ الفلاح بي ، ولن أذهب لبناء مدينة لي في الأرياف ولو ضُغ قَصْرٌ كالتويلري أمام منزلي في الإقليم ، وسيكون لي على مُنَحْدَرٍ تَلٍّ لطيفٍ ظليلٍ منزلٌ حَقْلِيٌّ صغيرٌ أبيضٌ مع مصاريع خضري ، ومع أن الفمَاءُ* يَكُونُ أَحْسَنَ ما يُمكن في كلِّ فصلٍ فإنني أُفْضِلُ تفضيلاً بهيئاً أن يكون الغطاء من القرميد ، لا من الأرْدُوَازِ الكئيب ، وذلك لِمَا لِلقِرْمِيدِ ، الذي تُغَطِّي به منازلُ بلدي ، من منظرٍ أظهِرَ وأبهرَ من الفمَاءِ ، ولِمَا يَذْكُرُنِي القِرْمِيدُ بشيء من دَوْرِ شبابي السعيد ، وستكون لي ساحةٌ كَفَنَاءٍ للدَّوَاجِنِ ، وسيكون لي إصْطَبِلٌ كَمَرَّاحٍ للبقر ، نَيْلاً للألبان التي أُحِبُّ كثيراً ، وسأكون صاحباً لِمَبْقَلَةٍ ، وصاحباً لحديقة مشابهة للتي سأتكلم عنها فيما بعد ، وستكون الفواكه تحت تصرف المتزهين فلا تُعَدُّ ولا تُقْتَطَفُ من قِبَلِ بستانٍ ، وما يَشُوبُ كَرَمِي من ضَنْ لا يَمْرُضُ على العيون ، مطلقاً ، صُفُوفَ أشجارِ الفواكهِ الرَّائِمَةِ المُسْنَدَةِ إلى الحيطان والتي لا يكاد يَجْرُؤُ أَحَدٌ على مَسِّها ، والواقعُ أن هذا التبذيرَ الضئيلَ يكون غالباً قليلاً ، وذلك لاختيار مأوئِي في إقليمٍ بعيدٍ يَرى فيه قليلٌ مالٍ وكثيرٌ غِلَالٍ وَيَسُوده الوَفَرُ والفَقْرُ .

وهناك أَجْمَعُ حَوْلِي عُصْبَةٌ مختارةٌ أكثرَ منها وافرةٌ ، أَجْمَعُ عُصْبَةً مؤَلَّفَةً من أصدقاء محبين للتسرية عارفين بها ، ومن نساء يَسْتَطِيعُنَ مغادرةَ مقاعدهن ذاتِ المَسَانِدِ ، وتعاطيَ الألعابِ الريفية ، وتناولِ الصَّنَائِقِ

* الفمَاءُ : ما فوق سقف البيت من التراب وغيره .

والدَّبَقِ وَمِشْطِ جَامِعِي الْقَشَاشِ وَسَلَّةِ فَاظِنِي الْعِنَبِ أحياناً بدلاً من المَكُوكِ وورق اللعب ، وهناك تُنسى مظاهرُ المَدُنِ كُلِّهَا ، فنَصِيرُ قَرَوِينِ فِي القرية وَنَجِدُ أَنْفُسَنَا مُوكَلِّينَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ مَخْتَلَفِ الْأُلُهوَاتِ الَّتِي لَا تَحْبُونَا فِي كُلِّ مَسَاءٍ بِغَيْرِ هَمٍّ الْاِخْتِيَارِ لِلْعَدِّ ، وَيَجْعَلُ لَنَا التَّمْرِينَ وَالْحَيَاةَ الْفَعَّالَةَ مَعِدَّةً جَدِيدَةً وَأَذْوِاقًا جَدِيدَةً ، وَتَكُونُ جَمِيعُ وَجَبَاتِنَا وَلَائِمَةً حَيْثُ يَرُوقُ الْوَفْرُ أَكْثَرَ مِنَ اللَّطَافَةِ ، وَيَكُونُ الْجَذَلُ وَالْأَشْغَالُ الرَّيفِيَّةُ وَالْأَلْمَابُ التَّحْرِجَةُ طَهَاةَ الْعَالَمِ الْأَوَّلِينَ ، وَتَكُونُ الْأَطْعَمَةُ الْفَاخِرَةُ مُثِيرَةً لِلْسَّخَرِيَّةِ عِنْدَ مَنْ يَكْدُونُ مِنْذُ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَلَا يَكُونُ لَطَاعِمَانَا نِظَامٌ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ نَفَاسَةٌ ، وَتَكُونُ غُرْفَةُ طَعَامِنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَتَكُونُ فِي الْحَدِيقَةِ أَوْ فِي السَّفِينَةِ أَوْ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، كَمَا تَكُونُ أحياناً فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ بِالْقَرَبِ مِنْ يَنْبُوعٍ وَعَلَى الْكَلَأِ الْأَخْضَرِ الرَطِيبِ وَتَحْتَ بَاقَاتِ الْحَوَرِ وَشَجَرِ الْبُنْدُقِ ، وَيَحْمِلُ مَوَكِبٌ طَوِيلٌ مِنَ الْمَدْعُوِّينَ التَّحْرِيحِينَ أُهْبَةً الْوَلِيَّةِ مَعَ الْغِنَاءِ ، وَيَتَّخِذُ الْعُشْبُ مَائِدَةً وَمَقْعَدًا ، وَتُسْتَعْمَلُ أَطْرَافُ الْحَوْضِ مَقْصَفًا ، وَيَتَدَلَّى نَقْلُنَا مِنَ الشَّجَرِ ، وَتُقَدَّمُ الْأَطْعَمَةُ بِلا نِظَامٍ وَتُغْنِي شَهْوَةَ الطَّعَامِ عَنِ الْجَمَالَاتِ ، وَيُفَضَّلُ كُلُّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ عَلَى غَيْرِهِ جَهْرًا فَيَجِدُ مِنَ الْحَسَنِ أَنْ يَسِيرَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى غِرَارِهِ فَيُفَضَّلُ نَفْسَهُ عَلَيْهِ بِدَوْرِهِ ، فَعِنَ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الْقَلِيلَةِ الْمُعْتَدِلَةِ يَنْشَأُ ، بِلا غِلْظَةٍ وَلَا رِثَاءٍ وَلَا قَسْرٍ ، اخْتِلَافٌ ضَاحِكٌ أَكْثَرُ فُتُونًا مِنَ الْجَمَالَةِ مِثْلَ مَرَّةٍ وَأَصْلَحُ مِنْهَا لِتَأْلِيفِ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ ، وَلَا تَرَى هُنَاكَ خَادِمًا مُزَعِّجًا يَرْقُبُ كَلَامَنَا ، وَيَنْقُدُ أَوْضَاعَنَا مُخَافَتًا ، وَيَعُدُّ لَقَمَنَا بِعَيْنٍ تَنِيْءُ عَلَى الشَّرِّهِ وَيَتَلَهَّى بِمَحْمِلِنَا عَلَى

انتظار الشراب ، ويتذمر من طول الغداء ، وسنكون خدَم أنفسنا لنكون سادة أنفسنا ، وسيُخدَم كلُّ واحدٍ من قِبَل الجميع ، ويمضي الوقت من غير أن يُعَدَّ ، وتكون الوليمة راحةً ، وتدوم ما دام حرُّ النهار ، وإذا ما مرَّ قريباً منا فلاحٌ ما عائدٌ إلى العمل حاملاً آلاته على كتفه سرَّبتُ عن فؤاده بكلام طيبٍ وبقدحٍ أو قدحين من الخمر الفاخرة ، أى بأشياء تجعله يصيرُ على بؤسه مسروراً ، وستكون لى مَسَرَّةٌ ، أيضاً ، بأن أحسَّ اهتزازَ فؤادى وأن أقولَ فى نفسى سِرّاً : « وأنا رجلٌ أيضاً » .

وإذا حَدَثَ أن أوجب احتفالٌ حقلى اجتماعَ أهل الناحية كنتُ مع عُصبتى فى المَقَدِّمة ، وإذا ما احتفلَ بزواجٍ فى جوارنا ، يُبارِكها الربُّ أكثرَ مما يبارِك زواجَ المُدُن ، عُرِفَ أننى أحبُّ الفرح ودُعيتُ ، فأُحِلُّ إلى هؤلاء القوم الصالحين بعضَ الهدايا البسيطةِ مِنّاهم ، التى تساعد على الفرح فأجدُ فى مقابلها من المحاسن ما لا يُقدَّر بثمنٍ ، أجدُ من المحاسن التى تَقِلُّ معرفةُ أمثالى لها ، أى أجدُ الصراحةَ والسرورَ الحقيقى ، وأتناول عَشائى فى طرف مائدتهم الطويلة مسروراً ، وأشارك فى ترديد إحدى الأغانى الريفية ، وأرقصُ فى نِزْهِمٍ* أطيبَ خاطراً مما أصنعُ لو كنتُ فى مَرَقَصٍ الأُبرّا .

وسيقال لى : « إن كلَّ شىءٍ يسير سيراً حسناً حتى الآن ، ولكن ما أمرُ الصيد ؟ وهل على الإنسان أن يتعاطاه فى الأرياف ؟ » ، وأسمعُ ، وقد كنتُ لا أريد غيرَ مَزْرعة ، وقد كنتُ مخطئاً ، وأفترضُ نفسى غنياً ،

ولا بُدَّ لى ، إِذَنْ ، مِنْ مَلَاذٍ حَصْرًا ، مِنْ مَلَاذٍ مُدْمَرَةٍ ، وَهَذَا أَمْرٌ آخِرُ
تَمَامًا ، وَلَا بُدَّ لى مِنْ أَرْضَيْنِ وَمِنْ غَابَاتٍ وَمِنْ حَرَسٍ وَإِجَارَاتٍ وَمِنْ
حَقُوقٍ إِقْطَاعِيَةٍ ، وَمِنْ لُبَانٍ وَمَاءٍ مُقَدَّسٍ .

حَسَنٌ جِدًّا ، وَلَكِنْ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأَرْضِ مُجَاوِرُونَ حَرِيصُونَ عَلَى
حَقُوقِهِمْ رَاغِبُونَ فِي اغْتِصَابِ حَقُوقِ الْآخَرِينَ ، وَسَيَتَشَاغِرُ خُفْرَاؤُنَا ، وَرُبَّمَا
السَّادَةُ ، وَإِلَيْكَ مَنَازَعَاتٍ وَمَخَاصِمَاتٍ وَأَحْقَادًا ، وَقَضَايَا عَلَى الْأَقْلِّ ، وَلَيْسَ
هَذَا مُسْتَحَبًّا كَثِيرًا ، وَلَيْسَ مِمَّا يَسُرُّ الْمُسْتَأْجِرِينَ مَنِ أَنْ يَرَوْا أَرَانِي كَادِحَةً
فِي بُرْهَمٍ ، وَأَنْ يَرَوْا خَنَازِيرِي جَادَّةً فِي فُؤْهِمْ ، وَبِمَا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ
لَا يَجْرُؤُ عَلَى قَتْلِ عَدُوِّهِ الَّذِي يَقْضَى عَلَى عَمَلِهِ فَإِنَّهُ يَرِيدُ طَرْدَهُ مِنْ حَقْلِهِ ،
فَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَقْضُوا النَّهَارَ فِي زِرَاعَةِ أَرْضِهِمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّيْلِ فِي
حِرَاسَتِهَا ، وَسَتَكُونُ عِنْدَهُمْ كِلَابُ حِرَاسَةٍ وَطُبُولٌ وَأَبَوَاقٌ وَأَجْرَاسٌ ، وَهُمْ
بِهَذَا الضَّجِيجِ يَزْعَجُونَنِي فِي نَوْمِي ، وَأَفَكَّرُ فِي بُؤْسِ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ عَلَى
الرَّغْمِ مِنِّي ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْنَعُ نَفْسِي مِنْ لَوْمَتِهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ شُرِّفْتُ
بَأَنْ أَكُونَ أَمِيرًا مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِيَّ مَطْلَقًا ، وَأَمَّا أَنَا الْحَدِيثُ النِّعْمَةُ
الْحَدِيثُ الْغَنَى فَلَا أَزَالُ أَحْمِلُ قَلْبًا عَامِيًّا نَوْعًا مَا .

وَلَيْسَ هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ ، فَكَثْرَةُ الصَّيْدِ تُغْرِى الصَّائِدِينَ ،
وَسَيَكُونُ لَدَيَّ ، عَمَّا قَرِيبَ ، صَائِدُونَ فِي أَرْضِي الْآخَرِينَ بِلَا إِذْنٍ لِلْعِتَابِ ،
وَسَاحْتِاجُ إِلَى سَجُونٍ وَسَجَّانِينَ وَقَوَّاسِينَ وَمَحْكُومٍ عَلَيْهِمُ بِالشَّاقَةِ ،
وَيُلَوِّحُ لِي جَمِيعُ هَذَا قَاسِيًا ، وَسَيَأْنِي نِسَاءُ هَؤُلَاءِ التَّعْسَاءِ لِحِصَارِ بَابِي
وِإِزْعَاجِي بِصُرَاخِهِنَّ ، فَيَجِبُ أَنْ يُطْرَدْنَ أَوْ أَنْ يَهَنَّ ، وَسَيَأْنِي الْمَسَاكِينُ

الذين لا يصطادون في أرض الآخرين بدون إذنٍ ، والذين تَرُودُ طريقتي حَصَادِهِمْ ، لَشَكْوَى من ناحيتهم ، فيجَازِي بعضهم لقتلهم الطريدة ، ويفتقر الآخرون لأنهم تَرَفَّقُوا بها ، ويا له من تناوب كئيب ! ولن أرى من كلِّ ناحية غيرَ أمورٍ بؤسٍ ، ولن أسمع سوى الحسرات ، ويَظْهَرُ لى أن هذا يُكَدِّرُ كثيرًا لذة ذبح جماعات الحَجَل والأرانب تحت الأرجل ، تقريبًا ، بلا انزعاج .

وإذا أردتم أن تَكُونُ اللَّادُ خاليةً من الألم فلا تحتكروها ، وكلما تركتموها شائعةً بين الناس دُقَّتْموها خالصةً دائمًا ، ولا أَصْنَعُ مطلقًا ، إِذَنْ ، كلَّ ما قلتُ ، ولكنى ، من غيرِ تغييرٍ للأذواق ، أتَبِعُ ما أفترضه منها أقلَّ نفقةً ، وسأقيم منزلى فى بلدٍ يكون الصيد فيه مباحًا لجميع الناس وحيث أستطيع أن أتلهى بلا عائق ، أَجَلْ ، ستكون الطرائدُ أَكْثَرُ نُدْرَةً ، ولكنه سيكون هنالك أعظم حِذْقٍ فى البحث عنها ، وأكبرُ لذةٍ فى نَيْلِها ، وأذْكَرُ دَقَاتِ قلب والذى عند طَيْرَانِ أولِ حَجَلٍ ، ومقدارَ ماساوره من فَرَحٍ حين وَجَدَ الأرنب الذى طلبه فى نهاره كله ، نَعَمْ ، إننى أَصْرَحُ بأنه عاد وحده مساءً مع كلبه حاملًا بندقيته وقذائفه وجِرَابَه وصيده الصغيرَ مَهْوُوكًا تَعَبًا ومُزَقًّا بالعَوْسَجِ وراضيًا عن يومه أَكْثَرُ من جميع صَيَّادِيكم المعتادين الذين لا يَفْعَلُونَ ، وهم راكبون خيلًا أصيلةً ومُتَبِعُونَ بعشرين بندقيةً مُعَدَّةً ، غيرَ تناولِ البندقية بعد البندقية مُطْلِقِينَ القذائف ، فيَقْتُلُونَ ما حولهم بلا فَنٍّ ولا فُخْرٍ ، وبلا ممارسة تقريبًا ، ولذا فلا تكون اللذة أقلَّ حدوثًا ، ويزول المحذور عند عدم وجود أرضٍ تُحْرَسُ وعدمِ

وجود صائدٍ في أرض غيره يجازى ، وعدم وجودٍ بالنسبةِ يؤذى ، وهذا سببٌ قوى في التفضيل ، ومهما تفعلوا فإنكم لا تستطيعون أن تؤذوا إلى الأبد أناساً من غير أن تُقانونوا اضطراباً ، وما يُصبُّ من لعنات الشعب يجعلُ الطريدةَ مرةً عاجلاً أو آجلاً .

وقُلْ ، فضلاً عما تقدم ، إن احتكار الذات يقتل الذات ، وتقوم الألهوات الحقيقية على مشاطرة الشعب إياها ، ومن يُردُّ حيازةَ لذاتٍ لنفسه وحدها يعدُّ غيرَ حائزٍ لها ، وإذا كانت الجدر التي أُقيمُ حول حديقتي تجعلُ لي من هذه الحديقة حسباً كثيراً فإنني لا أكون قد صنعتُ غيرَ نزعي من نفسي لذةَ النزهة بنفقات كبيرة ، ولذا تراني مضطراً إلى البحث عنها في مكان بعيد ، ويُفسدُ شيطانُ التملك كلَّ ما يمسُّه ، ويريد الفنى أن يكون سيِّداً في كلِّ مكان ، وهو لا يجدُ نفسه على خيرٍ إلَّا حيث لا يكون سيِّداً ، وهو يضطُرُّ إلى الفرار من نفسه دائماً ، ولذا فإنني أصنعُ في غِنَاي ما أصنعُ في فقرى ، والآن إذ أكون أكثرَ غِنًى بمال الآخرين مما بمالي فإنني أقبضُ على كلِّ ما يلائنى في جوارى ، ولا يوجدُ غازٍ أكثرَ منى عزماً ، حتى إنني أغتصبُ من الأمراء أنفسهم ، فأستولى على جميع الأراضين المكشوفة التي ترؤفنى بلا تفريق ، وأطلقُ أسماءَ عليها ، وأجعلُ من إحداها حديقتي وأجعلُ من الأخرى شُرْفتي ، وأكون صاحباً لهذه وتلك ، فأتنزّه هناك بلا عِقاب ، وأعود إلى هناك غالباً حفظاً لتصرفي ، وأتنفعُ بالأرض ما أردتُ بقوة السيّر فيها ، ولن أقنعَ نفسي بأن صاحبَ الاسمى للأرض التي أنتحلُّها ينتفعُ بالمال الذي يناله منها أكثرَ

من انتفاعى بها ، وليس من المهم أن أعاظَ بخنادقٍ وسياجاتٍ ، فسأخذُ حديقتي على كَتِفِيَّ ، وأضعُها في مكانٍ آخرَ ، فليست الأمانةُ قليلةً في الجِوار ، وسيَمضي وقتٌ طويلٌ على سَلْبِي لجيراني قبل أن يُعَوِّزَنِي المَلْجَأُ . وهذه محاولةٌ للذوق الصحيح في اختيار العُطَلِ المستَحَبَّةِ ، وهذه هي روح المَرَحِ ، وكلُّ ما عداها وهمٌ وخيالٌ وزَهْوٌ حماقةٌ ، ومن يبتعدُ عن هذه القواعدِ يأْكُلُ ذَهَبَهُ على دِمْنَةٍ مهما كان غِنَاهُ ، ولا يَعْرِفُ قيمةَ الحياةِ مطلقاً .

ومما يَرُدُّ به علىَّ ، لا رَيْبَ ، كَوْنُ هذه الأَلْهُوَاتِ في تناول جميع الناسِ ، وأنه ليس من الضروري أن يكون الإنسانُ غنياً ليتمتع بها ، وهذا ما أردتُ الوصولَ إليه ضبطاً ، فالإنسانُ يَفُوزُ باللذة إذا ما أرادَ حيازَتَهَا ، وسَبَقُ الرأي وحده هو الذي يَجْعَلُ كلَّ شيءٍ صعباً ، وهو الذي يَطْرُدُ السعادةَ أمامنا ، وكَوْنُ الإنسانِ سعيداً أسهلُّ مئةَ مرةٍ من ظهوره هكذا ، وذلك أنه لا حاجةَ لرجل الذوق ، واللذةِ حقاً ، بالغنى ، فيكفيه أن يكون حُرّاً سيداً لنفسه ، وَمَنْ يَتَمَتَّعُ بالصحةِ ولا يُعَوِّزُهُ الحاجيُّ يَعُدُّ على شيءٍ من الغنى إذا ما نَزَعَ من قلبه زادَ سَبَقِ الرأي ، وهذا هو كَفَافُ هُوراسِ الميمونِ ، فيا أصحابَ صناديقِ المالِ ، ابْحَثُوا عن توظيفٍ آخرَ لثروتكم إِذَنْ ، فَالْثَرَاءُ لا يَصْلُحُ لشيءٍ في حَقْلِ اللذةِ ، ولن يَعْرِفَ إميلُ جميعَ هذا أحسنَ مما أعْرِفُ ، ولكن بما أنه ذو قلبٍ أكثرَ صفاءً وسلامةً فإنه يكون أحسنَ شعوراً بذلك ، ولا تؤدي جميعُ ملاحظاته في العالم إلى غير تأكيد ذلك .

وبينا نقضي وقتنا هكذا نَبَحْتُ عن صُوفِيَّةٍ دائماً ، وذلك من غير أن نَجِدَها مطلقاً ، ومن المهمِّ كَوْنُهَا لم تُوجَدَ بسرعة ، وقد طلبناها في مكانٍ كنتُ واثقاً بأنها لم تكن فيه ^(١) .

وأخيراً يُلِحُّ الوقتُ ، وقد حَلَّ وقتُ البحثِ عنها بجِدِّ ، وذلك خشيةً أن يَتَّخِذَ إميلُ امرأةً أخرى بدلاً منها فلا يَعْرِفَ خطأه إلا بعد الأوان ، فَوَدَّاعاً ، إِذَنْ ، يا باريسُ ، هذه المدينةُ المشهورةُ ، هذه المدينةُ ذاتَ الضوضاءِ والدُّخَانِ والوَحَلِ حيثُ عادَ النساءُ لا يُؤْمِنَنَّ بالشرفِ وبالرجلِ الصالحِ ، وَدَّاعاً يا باريسُ ، فنحن نَبَحْتُ عن الحُبِّ والسعادةِ والعفافِ ، ولن نكونَ بعيدين منك بما فيه الكفايةُ مطلقاً .

(١) ومن يجد المرأة الفاضلة ؟ هي بعيدة ، فإذا ما أتت من أقصى الدنيا كانت موضع تقدير .

الجزء الخامس

ها نحن أولاء قد وصلنا إلى الفصل الأخير من الفتاء، ولكننا لم نبلغ الخاتمة بعد .

وليس من الحسن أن يكون الرجل وحيداً، وإميل رجلٌ، وكنا قد وعدناه برفيقة، فيجب إعطاؤه إياها، وهذه الرفيقة هي صُوفية، وأين مأواها؟ وأين نجدُها؟ يجبُ أن نُعرَف لتُوجَد، ولنُعرَف من هي أولاً، ثم نكون أحسنَ حكماً في الأماكن التي تسكنُ، ولا يكون عملنا قد انتهى بالعثور عليها، وقد قال لوك : « بما أن فتانا الماجد أوشك أن يتزوج فقد أتى وقت تركه بجانب خليلته »، فهذه الكلمات يُسمُّ كتابه، وأما أنا الذي لم يكن لي شرفُ تنشئة ماجدٍ فإنتى أحترزُ من اتباع لوك في ذلك .

صُوفِيَّةٌ أَوْ الْمَرَأَةُ

يجب أن تكون صُوفية امرأةً كما أن إميل رجلٌ، أى يجب أن تكون حائزةً جميع ما يلائم بُنية نوعها وجنسها للقيام بدورها في النظام المادى والأدبى، ولنبدأ، إذن، بفحص ما بين جنسنا وجنسها من تشابه واختلاف . وإذا عدّدت كل ما لا يتعلّق بالجنس وجدت المرأة رجلاً، فلها عينُ الأعضاء وعينُ الاحتياجات وعينُ الخصائص، فالآلة أُلقت على ذات الطراز، وقطعُها هي هي، وعملُ إحداها هو عملُ الأخرى، وتشابهُ الهيئة، ومهما

يكن الوجه الذى تَنْظُرُ به إليها فإنها لا تختلف فيما بينها إلا بمقدار .

وترى للمرأة والرجل فى كلِّ ما يتعلق بالجنس علاقاتٍ فى كلِّ مكان واختلافاتٍ فى كلِّ مكان ، وتنشأ صعوبة المقابلة بينهما عن تعييننا فى بُدْيَةِ كلِّ منهما ما هو خاصٌّ بالجنس وما هو غيرُ خاصٍّ به ، ويدُلُّ علمُ التشریح المقارن ، حتى المشاهدة وحدها تدلُّ ، على وجود فروقٍ عامة بينهما تَظْهَرُ غيرَ خاصةٍ بالجنس مطلقاً ، وهى خاصةٌ به مع ذلك ، ولكن بصِلاتٍ لا تَدْخُلُ ضِمْنَ نِطاقِ انتباهنا ، ونحن لا نَعْرِفُ المدى الذى يُمَكِّنُ أن تمتدَّ إليه هذه الصِّلات ، والأمرُ الوحيد الذى تَعَلَّمُهُ عِلْمُ اليقين هو أن كلَّ ما هو مشتركٌ بينهما هو من النوع ، وأن كلَّ ما هو مختلفٌ بينهما هو من الجنس ، ونرى ، بعد النظر إلى وَجْهَةِ النظر المزدوجة هذه ، أنه يُوجَدُ بينهما من المطابقات والاختلافات ما يكون من عجائب الطبيعة معه أن تستطيع صُنْعَ موجودين بالِغَي التشابه بتكوينهما مختلفين بهذا المقدار .

ولا بدُّ من تأثير هذه العلاقات والاختلافات فى الأخلاق ، وهذه النتيجة واضحةٌ موافقةٌ للتجربة ، وهى تدلُّ على بطلِ الجدالات حَوْلَ تَفْضِيلِ أحد الجنسين أو المساواة بينهما ، وذلك كما لو كان كلُّ من الجنسين يَسِيرُ نحو غايات الطبيعة وفقَّ مصيره الخاصِّ فلا يكون أكثرَ كمالاً فى هذا إلا إذا كان أكثرَ مشابهةً للآخر ! وهما يتساويان فيما هو مشتركٌ بينهما ، وهما لا يقارن بينهما فيما يختلفان فيه ، ولا ينبغى للمرأة الكاملة والرجل الكامل أن يتشابها روحاً أكثرَ من أن يتشابها وجهاً ، ولا يَقْبَلُ الكمالُ زيادةً ولا نقصاناً فى ذلك . وكلُّ من الجنسين يساعِدُ ، باقترانهما ، على الغرض المشترك متساوياً ،

ولكن ليس على طراز واحد، وَيَنْشَأُ عن هذا التنوع أولُ اختلافٍ يُمكن تعيينه في العلائق الأدبية بين الجنسين ، فيجب أن يكون أحدهما فاعلاً قوياً وأن يكون الآخرُ منفعلاً ضعيفاً ، ويجب أن يُريدَ أحدهما وَيَقْدِرَ بحكم الضرورة ، وَيَكْفِي أن يقاوم الآخرُ قليلاً .

وَيُسْفِرُ تقريرُ هذا المبدأ عن كون المرأة خُلِقَتْ لَتَرْوُقَ الرجلَ، وإذا ما وَجَبَ أن يَرْوِقَهَا الرجلُ بدَوْرِهِ فذاك عن ضرورةٍ أقلَّ مباشرةً، فزِيَةُ الرجل في قدرته ، وهو يَرْوُقُ لأنه قوىٌ فقط ، أَجَلٌ ، ليس هنا قانونُ الحُبِّ ، وأوافقُ على هذا ، وإنما هذا قانونُ الطبيعة السابقُ للحُبِّ نفسه . وإذا كانت المرأة قد خُلِقَتْ لَتَقَعَ مَوْقِعَ الرضا وتَخَضَعَ فإنه يجب عليها أن تصير مقبولةً عند الرجل بدلاً من إغضابه، فقوةُ المرأة في فتونها، وبهذا الفتون يجبُ أن تَحْمِلَهُ على أن يَجِدَ قُوَّتَهُ وأن يستعملها ، وَأَضْمَنُ فَنِّ في إنعاش هذه القوة هو جعلها ضروريةً بالمقاومة ، وهناك تقترن الأنانية بالرغبة ويفوز أحدهما بالنصر الذي يُبْنِيهِ الآخرُ إياه ، ومن ثمَّ يُولَدُ الهجومُ والدفاعُ وَجُرْأَةُ أحد الجنسين وحشمةُ الآخر ، ثم الحياة والجللُ اللذان تُسَلِّحُ الطبيعةُ بهما الضعيفَ لإخضاع القوى .

ومن يستطيع أن يتصور أن الطبيعة فرَضَتْ ذات السُلْفِ لهذا الجنس وذاك الجنس ، وأن الأول الذي يَشْعُرُ بالرغبة يجب أن يَكُونَ أولَ من يُبْدِيها أيضاً ؟ ويا للفساد الغريب في الحكم ! وبما أن للمشروع تسامُحٌ بالغة الاختلاف لدى الجنسين فهل من الطبيعي أن يكون عندهما عينُ الجُرْأَةِ في الإقدام عليه ؟ وكيف لا يُرى ، يُمَثِّلُ ذلك التفاوت العظيم في الحِصَّةِ

المشتركة ، كَوْنُ الاحتياطيِّ إذا كان لا يَفْرِضُ على أحدهما ما تَفْرِضُ الطبيعةُ على الآخر من الاعتدال فإنه لا يَلْبَثُ أن ينشأ عن هذا ، في الحال ، فسادُ الاثنين فيَهْلِكُ. النوعُ البشريُّ بالوسائل التي قامت لحفظه ؟ وإذا وُجِدَ ، مع السهولة التي يُشِيرُ النساءُ بها حواسَّ الرجال ويُوَقِّظُنَ في قلوبهم بقايا مزاجٍ خامدٍ تقريباً ، إقليمٌ نَفسٌ في الأرض تُدْخِلُ الفلسفةُ إليه تلك العادة ، ولا سيما في البلاد الحارة حيث يُولَدُ إناثٌ أكثرُ من الذكور ويَجْرُنَ عليهم ، فإنهم يذهبون ضحايا لهنَّ في آخر الأمر ، ويَرَوْنَ أنفسهنَّ مَقُودِينَ إلى الموت من غير أن يَقْدِرُوا على رَدِّه مطلقاً .

وإذا لم يُوَجَدْ عند إناث الحيوان عينُ الحياء فما ينشأ عن ذلك ؟ وهل يكون عندها ، كما عند النساء ، من الرغائب التي لا حَدَّ لها فيَكُونُ هذا الحياء زاجراً لها ؟ لا تأتيها الرغبةُ إلَّا مع الحاجة ، فإذا ما قُضِيَتْ هذه الحاجةُ انتهت الرغبة ، وعادت لا تَرُدُّ الذَكَرَ عن تَكَلُّفٍ^(١) ، بل عَن جِدِّ ، بل تَصْنَعُ عكسَ ما كانت تَصْنَعُ بنتُ أغسطس ، فتَعُودُ لا تَتَقَبَّلُ مسافرين بعد أن يكون للركب شِحْنَتُهُ ، وتكون أوقاتُ أطافها قصيرةً ، فلا تَلْبَثُ أن تَنْقَضِيَ ، فالغريزةُ تَسُوقُها والغريزةُ تَقْفُها ، وأين تكون تَكْمِلَةُ هذه الغريزةِ السلية في النساء إذا ما نزعتم الحياءَ منهن ؟ يَعْنِي انتظارُ عدمِ اكترائهنَّ للرجال بعدُ انتظارَ عدمِ صلاحهنَّ لشيءٍ بعدُ .

وقد أراد الكائن الأعلى أن يُكْرِّمَ النوعَ البشريَّ بإنعامه على الإنسان

(١) كنت قد لاحظت أن مائعات التصنع والدلال أمر شائع بين جميع الإناث تقريباً، حتى بين الحيوان، حتى حين كونهن أكثر استعداداً لتسليم أنفسهن ، ويدل إنكار هذا على عدم ملاحظة أسلوبهن .

بِمَيُولٍ لَا حَدَّ لَهَا ، كَمَا أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ ، فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ ، بِقَانُونٍ نَاطِقٍ لَهَا ، حَتَّى يَكُونَ طَلِيقًا مُسَيِّطَرًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَهُوَ إِذْ يُسَلِّمُهُ إِلَى أَهْوَاءِ مَتَطَرِفَةٍ يَضِيفُ الْعَقْلَ إِلَى هَذِهِ الْأَهْوَاءِ حَتَّى يَهَيِّمَنَّ عَلَيْهَا ، وَهُوَ إِذْ يُسَلِّمُ الْمَرْأَةَ إِلَى رَغَائِبَ لَا حَدَّ لَهَا يَضِيفُ الْحَيَاءَ إِلَى هَذِهِ الرِّغَائِبِ حَتَّى يَرُدَّعَهَا ، وَهُوَ ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ يُضِيفُ ، أَيْضًا ، مَكَاافَةً حَاضِرَةً إِلَى حُسْنِ اسْتِعْمَالِ الْقَابِلِيَّاتِ ، أَيْ يُضِيفُ الذُّوقَ الَّذِي يُنَالُ مِنْ صَالِحِ الْأُمُورِ عِنْدَ اتِّخَاذِهَا قَاعِدَةً لِلْأَعْمَالِ ، وَهَذَا يَسَاوِي غَرِيزَةَ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا يَلُوحُ لِي .

وَسِوَالَهُ أَقَامَتِ الْأَتَى الرَّجُلَ شَهَوَاتِهِ أَمْ لَا ، وَسِوَالَهُ أَرَعِيبَتْ فِي قَضَائِهَا أَمْ لَمْ تَرَعِبْ ، تَدْفَعُهُ وَتَدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا دَائِمًا ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِذَاتِ الْقُوَّةِ دَائِمًا ، وَلَا بِذَاتِ الْفَوْزِ نَتِيجَةً ، وَيَجِبُ لِقَوْزِ الْمَاهِجِ أَنْ يَأْذَنَ الْمَاهِجُ فِيهِ أَوْ أَنْ يَشِيرَ بِهِ ، وَمَا أَكْثَرَ الْوَسَائِلَ اللَّيْقَةَ الَّتِي يُتَذَرَّعُ بِهَا لِحَمْلِ الصَّائِلِ عَلَى اسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِ ! وَمَا كَانَ أَكْثَرُ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ حَرِيَّةً وَحَلَاوَةً لِيَقْبَلَ عَنْفًا حَقِيقِيًّا مُطْلَقًا ، فَالطَّبِيعَةُ وَالْعَقْلُ يَأْيَانُ ذَلِكَ ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الطَّبِيعَةَ زَوَّدَتْ الْأَضْعَفَ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ لِلْمَقَاوِمَةِ إِذَا مَا أَرَادَهَا ، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِكَوْنِ الْعَنْفِ الْحَقِيقِيِّ أَفْطَحَ جَمِيعَ الْأَفْعَالِ فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ مَخَالَفٌ لِمَقْصِدِهِ ، وَذَلِكَ لِكَوْنِ الرَّجُلِ يَشْهَرُ ، هَكَذَا ، حَرْبًا عَلَى رَفِيقَتِهِ وَيُجِيزُ لَهَا الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهَا وَحَرِيَّتِهَا حَتَّى عَلَى حَسَابِ حَيَاةِ الْمُعْتَدِي ، وَلِكَوْنِ الْمَرْأَةِ وَحْدَهَا حَكَمًا فِي الْحَالِ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا ، فَلَا يَكُونُ لِلْوَلَدِ أَبٌ ، مُطْلَقًا ، إِذَا مَا اسْتَطَاعَ كُلُّ رَجُلٍ اغْتِصَابَ حَقْوِهِ .

وبكونه تابعاً للأضعف حقيقةً ، وليس هذا عن انتحالٍ لعادة الغزل التافهة ، ولا عن كرم الحامى الزاهى ، ولكن عن قانون الطبيعة الثابت الذى يَمْنَحُ المرأةَ سهولةً فى تحريك الشهوات أكثر من منحها الرجلَ سهولةَ قضائها ، فتَجَبَّلُ هذا ، مع ما عنده من ذلك ، تابعاً لرغبتها وتكرهه ، بدوِّره ، على طلب رضاها نيتاً لموافقتها على تركه يَكُونُ الأقوى ، وهناك يَكُونُ أحلى ما عند الرجل فى فوزه شكُّه فى كَوْنِ الضعف هو الذى يُدْعِنُ للقوة أو فى كَوْنِ الإرادةِ هى التى تخضع ، ويقوم مَكْرُ المرأةِ العادى على ترك هذا الشكِّ مائلاً بينه وبينها ، ويلتزم ذِهنُ النساءِ فى هذا بُنيتين ملاممةً تامةً ، فيَقِيْمَنَّ مجدهنَّ على ضَعْفِهِنَّ بهيداتٍ من الخَجَلِ منه ، وذلك أن عضلاتهن المرنة تكون بلا مقاومة ، وذلك أنهن يُبْدِينَ عجزهنَّ عن رَفْعِ أخفِّ الأثقالِ فيَسْتَحِينَ من أن يَكُنَّ قوياتٍ ، ولمَ هذا ؟ لا يكون هذا من أجل ظهورهن ناعماتٍ ، بل عن احترازٍ أكثر مهارةً ، وذلك أنهن يُزَوِّدْنَ أنفسهن بالمعاذير من بعيد وبحق كونهن ضعيفاتٍ عند الضرورة .

وما اكتسبناه بمَعَايِينَا من تجاربٍ غَيْرِ قديمِ الأفكارِ بيننا كثيراً حَوَّلَ هذه النقطة ، وعاد لا يُحَدِّثُ ، مطلقاً ، عن الاغتصابات منذ قَلَّتْ ضرورتُها ، ومُنْذُ عاد الرجالُ لا يؤمنون بها مطلقاً^(١) ، وذلك بدلاً من شُيُوعِها البالغِ

(١) من الممكن أن يوجد تفاوت عظيم فى السن والقوة ما يقع معه غصب حقيقى ، ولكن بما أنى أعالج هنا حال الجنسين النسبى وفق نظام الطبيعة فإننى أنظر إليهما من حيث العلاقة المشتركة التى يتألف منها ذلك الحال .

في العالمين اليوناني واليهودي القديمين ومن كون هذه الآراء نفسها ضمن بساطة الطبيعة فاستطاعت تجربة الفُجُور وحدها أن تستأصلها ، وإذا كان يُذكرُ في أيامنا قليلٌ من أعمال الفُصْب لم ينشأ هذا ، لا رَيْبَ ، عن كون الرجال أكثرَ اعتدالاً ، بل نشأ عن كونهم أقلَّ سرعةَ تصديقٍ ، وعن كَوْنِ مِثْلِ ذلك العويل ، الذي أقنع الشعوبَ البسيطةَ فيما مضى ، لا يُثيرُ غيرَ ضحك المستهزئين في أيامنا ، فصار التزامُ جانب الصمت أكثرَ فائدةً ، ويوجدُ في سِفْرِ تَنْذِيَةِ الاِشْتِرَاعِ حُكْمٌ قائلٌ بمعاقبة الفتاة المُعْصُوبَةِ مع غاويها إذا ما اقْتَرَفَتِ الخطيئةَ في المدينة ، فإذا اجْتَرَحَ الذنبُ في البرِّيَّةِ أو في الأماكن البعيدة عُوقِبَ الرجلُ وحده ، وذلك لقول الشريعة : « إن الفتاة تكون قد صرّخت في البرية فلم تَجِدْ من يسمُها » ، فهذا التفسيرُ الكثيرُ التساهل كان يُعَلِّمُ الفتياتِ ألاَّ يَدْعُنَ أنفسهن يَبَاغَتَنَ في الأماكن المطروقة .

وتأثيرُ هذه الاختلافات في الآراء حَوْلَ الطَّبَاعِ أمرٌ محسوسٌ ، ويُعدُّ الغَزْلُ الحديثُ نتيجةً لها ، وإذا كان الرجال يَجِدُونَ اتِّبَاعَ ملاذِّهم لإرادة الجنس اللطيف بأكثر مما لم يتصوروا فقد قَهَرُوا هذه الإرادةَ بمَلَاظِمَاتٍ عَوَضَهم هذا الجنسُ منها خيرَ تعويض .

ورَوَّاهُ كيف أن البدنيَّ يَسُوقُنَا إلى الأدبيِّ سَوَقًا غيرَ محسوسٍ ، وكيف أنه ينشأ عن اقتران الجنسَيْنِ الغليظِ أحلى قوانين الحبِّ بالتدرج ، ولا يقوم سلطان النساء على إرادة الرجال مطلقاً ، بل لأن الطبيعة أرادت هكذا ، وكان هذا السلطان للنساء قبل ظهورهن حائزاتٍ له ، وهِرْ كُولُ نفسه هو الذي

اعتقد اغتصابه لبناتِ تِسْطِيُوسَ الحُسينِ ، فاضطّرَّ إلى النَزَلِ بالقُرْبِ من أنفَالٍ ، ولم يَكُنْ شَمَشُونُ الجَبَّارُ بالغَ القوةِ أمامَ دَلِيلَةٍ ، فهذا السلطانُ خاصٌّ بالنساءِ ، ولا يُمكنُ نَزْعُهُ مِنْهُنَّ حتى عندَ ما يُسْتَنَ استعماله ، ولو أمْكَنَ فَقَدْهُنَّ له لكانَ هذا الفِقْدانُ قد وَقَعَ منذَ زمنٍ طويلٍ .

ولا يُوجَدُ أيُّ تماثُلٍ بينَ الرجلِ والمرأةِ من حيثِ الجنسُ ، وليس الذَّكَرُ ذَكَرًا إلا في بعضِ الأحوالِ ، والمرأةُ امرأةٌ مَدَى حياتِها ، أو مَدَى فتائِها على الأقلِّ ، وكلُّ شيءٍ يُذَكِّرُها بِجِنْسِها بلا انقطاعٍ ، ولا بُدَّ لها من بُنيةٍ ثلاثِمِ وظائفِها حتى تُحْسِنَ القيامَ بهذهِ الوظائفِ ، ولا بُدَّ لها من المَدَاراةِ في أثناءِ حَمْلِها ، ولا بُدَّ لها من السكونِ في نِفاستها ، ولا بُدَّ لها من حياةٍ منزليةٍ ناعمةٍ لإرضاعِ أولادِها ، ولا بُدَّ لها ، لثَرِيَةِ أولادِها ، من الصبرِ والرَّقِّقِ وما لا يُحْمِدُهُ شيءٌ من الغيرةِ والعطفِ ، وهى تَصْلُحُ أن تكونَ أداةً وَصَلٍ بينهم وبينِ أيهم ، وهى وحدَها تُحِبُّهُمْ إليه ، وهى وحدَها تُوحِي إليه من الثقةِ ما يَدْعُوهم معه أولادَه ، وبِالاحتِياجِ إلى اللطفِ والعنايةِ حتى يَشُدَّ جميعَ الأُسرةِ بِرابطةِ الاتحادِ وأخيرًا لا يَنْبَغِي أن يُعَدَّ جميعُ هذا من الفضائلِ ، بَلْ من الميولِ التى لولاها لانطفأَ النوعُ البشرى من قُوَّره .

وما يُلْزَمُ بهِ الجنسانِ من واجباتٍ ليس واحدًا ، ولا يُمكنُ أن يكونَ واحدًا ، بالنسبةِ إلى كلِّ واحدٍ مِنْهُما ، وإذا ما أَلِمَّتِ المرأةُ من التفاوتِ غيرِ المادلِ الذى يَجْعَلُهُ الرجلُ فى ذلكَ كانتَ مَخطِئَةً ، فليسَ هذا التفاوتُ نظامًا بشريًّا مطلقًا ، أو إن هذا التفاوتَ ليس ، على الأقلِّ ، من عملِ المُبتَسَرِّ مطلقًا ،

بل من عمل العقل ، وذلك أن الطبيعة جعلت من الجنس الذى حملته الأولاد وديعةً مسؤولاً لدى الجنس الآخر ، ولأمراء فى أنه لا يجوزُ لشخصٍ أن ينقضَ عهده ، فيُعَدُّ كلُّ زوجٍ خائنٍ يحرمُ امرأته ثمنَ واجباتِ جنسها الصارمة ظالماً غليظاً ، ولكن المرأة الخائنة تَضَعُ ما هو أعظم ، فهى تحلُّ الأسرَةَ وتَقَطِّعُ جميعَ الزوايا الطبيعية ، وهى حين تُفطى الرجلَ أولاداً ليسواله تكون قد خانتها وخانتهم ، وذلك بإضافتها الغدرَ إلى عدم الوفاء ، ومن العسير على أن أرى أى اختلالٍ وذنبٍ لا يلزمُ ذلك ، فإذا وُجِدَ فى العالمِ حالٌ هائلٌ كان هذا حالَ أبٍ نَعِيسٍ لا يَشُقُّ بامرأته فلا يَمُرُّ على السَّيْرِ مع أحلى مشاعرِ فؤاده ، حالَ أبٍ يَشْكُ حين يُقْبَلُ ولده فى ثقيله ولدَ غيره ، فى تقبيل رَهْنِ شَيْنِهِ الذى هو سالبُ تراثِ أولاده الحقيقيين ، وما تَكُونُ الأسرَةُ حينئذٍ إذا لم تكن جمعيةً من الأعداء الخَفِيِّين الذين تُسَلِّحُ امرأةٌ مذنبَةٌ بعضهم ضِدَّ بعضٍ مع حَمْلِهِم على الظهور بمظهر المتحابين ؟

وليس من المهمِّ ، إذنْ ، أن تكون المرأة وَفِيَّةً فقط ، بل يَجِبُ أن يُقْضَى بأنها هكذا من قِبَلِ زوجها وأقربائها وجميعِ الناس ، ومن المهمِّ أن تكون مُحْتَشِمَةً مُنْهَبَةً مُتَبَصِّرَةً ، وأن تُقَدِّمَ إلى أعين الآخرين ، كما تُقَدِّمُ إلى ضميرها الخالص ، شهادةً على فضيلتها ، وأخيراً إذا كان من المهمِّ أن يُحِبَّ الأبُ أولاده فإن من المهمِّ أن يُقَدَّرَ أمُّهم ، وهذه هى الأسباب التى تَضَعُ الظاهرَ فى عِدَادِ واجباتِ النساء ولا تَجْعَلُ الشَّرَفَ والصِّيتَ أقلَّ لُزُوماً من العفاف ، ومن هذه المبادئ يُشْتَقُّ ، مع الفَرْقِ الخُلُقِيِّ بين الجنسين ، عاملٌ واجبٌ ولياقةٌ يَفْرِضُ على النساء ، خاصةً ، أدقَّ

انقباه في سلوكهن وأوضاعهن ورزاتهن ، ويُعدّ الادعاء الغامض بأن الجنسين متساويان وبأن واجباتهما واحدة تيهًا في الكلام الفارغ ، ولا ينطوى هذا الكلام على شيء مادام لا يجيب عن ذلك .

أليس من وجوه البرهنة المتينة أن تُقدّم استثناءاتٌ جوابًا عن سُئِ عامّةٍ ثابتةٍ الأساس ؟ تقولون لا يضعُ النساءُ أولادًا دائمًا ! كلا ، وإنما يقوم عملهنّ الخاصُّ على وضع ذلك ، ماذا ! تملّكون وجودَ نحو مئة مدينةٍ كبيرةٍ في العالم يقضى النساءُ فيها حياةَ تحلّلٍ فلا يضعنَ غيرَ أولادٍ قليلين قزغُمون أن حال النساء يقضى بوضع أولادٍ قليلين ! وما تُصبحُ مدُنُكم إذا كانت الأريافُ البعيدة التي يقضى النساءُ فيها حياةً أكثرَ بساطةً وعفافيًا لا تُعوّضُ من عُقمِ السيدات ؟ وما أكثرُ الأقاليم التي تُعدّ فيها هذه المرأةُ أو تلك قليلةَ النسل إذا لم تضعْ غيرَ أربعةِ أولادٍ أو خمسةِ أولادٍ^(١) ! وأخيرًا ما أهمية وضع هذه المرأة أو تلك قليلِ أولادٍ ؟ وهل حالُ المرأة أقلُّ من كونها أمًّا ؟ أليس على الطبيعة والطبائع أن تعالجا هذه الحال بسُننٍ عامة ؟

وإذا ما وُجِدَ بين أدوار الحبل ما يُفترَضُ من القواصل الطويلة فهل تُغيّرُ المرأة طرَازَ الحياة هكذا بفتةٍ ومناوبةٍ بلا مجازفةٍ ولا خطرٍ ؟ وهل تكونُ اليومَ مُرضعًا وغداً محاربةً ؟ وهل تُغيّرُ مزاجها وأذواقها كما تُغيّرُ الحُرَباءُ ألوانها ؟ وهل تنتقل فجأةً من ظلٍّ منزلها وواجباتها البيتية إلى

(١) ولولا ذلك لباد النوع بحكم الضرورة ، ويقضى بقاء النوع بأن يعرض من كل شيء ، فتضع كل امرأة أربعة أولاد تقريباً ، وذلك لأن نحو نصف الأولاد يموتون قبل أن يمكن وضع آخرين ، فلا بد من بقاء اثنين من الأولاد لتسهيل الأب والام ، فانظروا هل تزودكم المدن بأولئك الأهلين .

تقلباتِ الهواءِ وأعمالِ الحربِ ومتاعبِها وأخطارها ؟ وهل تكون هَلَوُعا^(١) تارةً وباسلةً تارةً أخرى ؟ وهل تكون لطيفةً أحياناً وعُصْبِيَّةً أحياناً أخرى ؟ وإذا كان يَشُقُّ على من يُنشَأون في باريسَ احتمالَ حياةِ الجنديَّةِ فهل يحتملُها النساءُ اللاتي لم يواجهنَ الشمسَ ، ولا يَكْدُنَ يَسِرْنَ ، بعدَ خمسينَ عامَ تَرْفٍ ؟ وهل يَتَخَذْنَ هذه المهنةَ في عُمرٍ يَتَرُكُها الرجالُ فيه ؟

وأوافقُ على وجودِ بلادٍ تَلِدُ النساءُ فيها بلا عناءٍ تقريباً ، ويُرَضِعْنَ أولادهنَّ فيها بلا جهدٍ تقريباً ، ولكن الرجالَ في هذه البلادِ نفسِها يَمَشُّونَ نِصْفَ عِراةٍ في كُلِّ وقتٍ ، وَيَصْرَعُونَ الضواري ، وَيَحْمِلُونَ قارباً كأنه جِرَابٌ ، ويقومون بضروبِ الصيدِ على مسافةِ سبعةِ فرسَخٍ أو ثمانيةِ فرسَخٍ ، وينامون في العراءِ ، وَيَحْتَمِلُونَ ما لا يُمكنُ تصديقه من المتاعبِ ، ويقضونَ عِدَّةَ أيامٍ من غيرِ أن يأكلوا ، وإذا ما صار النساءُ عُصْبِيَّاتٍ صار الرجالُ أكثرَ منهنَّ بأساً ، وإذا ما أصبح الرجالُ مُتَرْقِنَ أصبح النساءُ أعظمَ منهم تَرْفاً ، وإذا ما تَغَيَّرَ الفريقانِ على السواءِ بَقِيَ الفرقُ كما هو .

وأفلاطونُ في جُهوريته يَمْنَحُ النساءَ ما يَمْنَحُ الرجالَ من تمريناتِ رياضيةٍ ، وأعتقدُ هذا جيداً ، وبما أنه نَزَعَ الأَسَرَ الخِصَّةَ من حكومته ، وبما أنه عاد لا يَعْرِفُ ما يَصْنَعُ بالنساءِ فقد رأى أنه مُضْطَرٌّ إلى جعلهنَّ رجالاً ، وقد نَظَّمَ هذا الداهيةَ الأغرَّ كُلَّ شَيْءٍ ، وأبصرَ كُلَّ شَيْءٍ ،

(١) ثم إن وجل النساءِ غريزةً طبيعياً تجاه ما يلاقين من خطرٍ مضاعفٍ في أثناءِ حملهن .

وقد استعدّ لاعتراضٍ لم يفكر أحدٌ في توجيهه إليه على ما يحتمل ، ولكنه أساء حلّ الاعتراض الذى يُوجّه إليه ، ولا أتكلّم ، مُطلقاً ، عن شركة الزوجات المزعومة التى يُدّعى ما وُجّهَ إليها من تأنيبٍ مُكرّرٍ أن الذين أتوه لم يقرءوا كتابه قطّ ، وإنما أتكلّم عن ذلك العبث المدنى الذى يخلط فى كلِّ مكانٍ بين الجنسين فى ذات الخدم والأعمال والذى لا يُمكن أن يُعوّزه توليدُ ما لا يُطاق من سوء الاستعمال ، وإنما أتكلّم عن هذم أحلى مشاعر الطبيعة التى يَضْحَى بها فى سبيل شعورٍ مصنوع لا يُمكن أن يدوم بدونها ، وذلك كما لو كان من غير الواجب وجودُ سبيلٍ طبيعى لتكوين روابطٍ عهدٍ ! وذلك كما لو كان حُبُّ الإنسان لأقربائه شيئاً آخر غير البدأ الواجب نحو الدولة ! وذلك كما لو كان القلبُ لا يرتبط فى الوطن الأكبر بالوطن الأصغر ، أى الأسرة ! وذلك كما لو كان الابنُ الصالح والزوجُ الصالح والأبُ الصالح لا يُكوّنون المواطنَ الصالح !

وإذا ثبتَ مرّةً أنه ليس للرجل والمرأة عينُ الأخلاق والمزاج ، وأنه لا ينبغي أن يكونَ لهما عينُ الأخلاق والمزاج ، تبسّع ذلك كونه لا يجوز أن تكون لهما عينُ التربية ، وإذا ما اتبعنا مناحى الطبيعة وجب أن يسيرا متعاونين ، ولكن ليس من الواجب عليهما أن يَقُوما بذات الأمور ، أجلّ ، إن غاية الأعمال مشتركة ، ولكن الأعمال مختلفة ، ومن ثمّ تختلف الميول التى توجههما ، وإنى بعد أن سَعَيْتُ فى تكوين الرجل الطبيعى وَجَبَ أن نَرى ، أيضاً ، كيف يَجِبُ أن تُكوّن المرأة التى تناسب هذا الرجل .

وإذا أردتم أن تكونوا حَسَنِي التوجيه دائماً فَاتَّبِعُوا مَنَاحِي الطَّيْبَةِ دائماً ، وَجِبْ احْتِرَامُ كُلِّ مَا يَمَيِّزُ الْجِنْسَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ صُنْعِ الطَّيْبَةِ ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ ، بَلَا انْقِطَاعٍ ، إِنَّهُ يُوجَدُ لِلنِّسَاءِ مِنْ هَذِهِ النِّقَاصِ أَوْ تِلْكَ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا ، فَزَهْوُكُمْ يَخْذَعُكُمْ ، فَاجْتَبِدُوا مِنْ هَذِهِ النِّقَاصِ يُعَدُّ مَزَايَا لَهَا ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَسِيرُ سِيراً أَقْلَ صِلَاحاً إِذَا عَطِلْنَ مِنْ تِلْكَ النِّقَاصِ ، وَحُولُوا دُونَ انْخِطَاطِ تِلْكَ النِّقَاصِ ، وَلَكِنْ احْتَرِزُوا مِنَ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا .

وَلَا يَكْفُ النِّسَاءُ ، مِنْ نَاحِيَتَيْنِ ، عَنْ الصَّرَاحِ قَائِلَاتٍ إِنَّا نُنَشِّئُهُنَّ لِيَكُنَّ مَغْرُورَاتٍ غَنِيَّاتٍ ، وَإِنَّا نُنْهِيَهُنَّ ، دَائِماً ، بِصِبْغَاتٍ حَتَّى يَسْهَلَ عَلَيْنَا أَنْ نَبْقَى سَادَةً لَهَا ، وَهِنَّ يَلْمِنُنَّ عَلَى نِقَاصٍ نُلُومُهُنَّ عَلَيْهَا ، فَيَا لَلْحَقِيقَةِ ! فَتَى صَارَ الرِّجَالُ يَتَدَخَّلُونَ فِي تَرْبِيَةِ الْبَنَاتِ ؟ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ الْأُمَهَاتِ مِنْ تَنْشِئَتَيْنِ كَمَا يَرْوِفُهُنَّ ؟ لَيْسَتْ لَهَا كَلِيَاتٌ مُطْلَقاً ، فَيَا لَلْبَلَاءِ الْعَظِيمِ ! وَى ! لَوْ سَمِعَ الرَّبُّ بِالْأَلَّاءِ يَكُونُ لِلصَّبِيَانِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَنَشَأُوا عَلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ وَأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ ، وَهَلْ تُكْرَهُ بَنَاتُكُمْ عَلَى قَضَاءِ أَوْقَاتِهِنَّ فِي تَوَافِهِ الْأُمُورِ ؟ وَهَلْ يُحْمَلْنَ ، مُكْرَهَاتٍ ، عَلَى قَضَاءِ نِصْفِ حَيَاتِهِنَّ فِي أُمُورِ زَيْتَتَيْنِ سِيراً عَلَى غِرَارِكُمْ ؟ وَمَنْ يَمْتَنِعُكُمْ مِنْ تَعْلِيمِهِنَّ أَوْ مِنْ حَمَلِهِنَّ عَلَى التَّعَلُّمِ كَمَا تَشَاءُونَ ؟ وَهَلْ يَقَعُ الذَّنْبُ عَلَيْنَا إِذَا مَا طِبْنَ لَنَا عَنْ حُسْنِ فِيهِنَّ ، وَإِذَا مَا أَغْوَيْنَا بَفَنَاجُونٍ ، وَإِذَا كَانَ الْفَنُّ الَّذِي يَتَعَلَّمُهُ مِنْكُمْ يَجْتَذِبُنَا وَيَفْتِنُنَا ، وَإِذَا كُنَّا نُحِبُّ أَنْ نَرَاهُنَّ رَائِعَاتِ الْهِنْدَامِ ، وَإِذَا كُنَّا نَدْعُوهُنَّ بِشَحْذَنْ عَلَى مَهْلٍ مَا يُخْضِعُنَا لَهُ مِنَ السَّلَاحِ ؟ وَى !

أذهبوا إلى تنشئتهن كالرجال ، والرجالُ يوافقون على ذلك طمَّي الخاطر ،
وهنَّ كلما أَرَدْنَ مشابهة الرجال قَلَّتْ سيطرتُهنَّ عليهم ، وهناك يصير
الرجال سادةً حقاً .

أجلْ ، إن جميع خصائص الجنسين المشتركة ليست مقسومةً بينهما
على السواء ، ولكنها إذا ما نُظِرَ إليها في مجموعها وُجِدَ أن كلَّ واحدٍ
من الجنسين يعتاض من الآخر ، والمرأةُ أكثرُ قيمةً كمرأةٍ وأقلُّ قيمةً
كرجلٍ ، وهي تُفَضَّلُ حيث تُروَّجُ حقوقُها ، وهي تَبْقَى دوننا حيث تريد
اغتصابَ حقوقنا ، ولا يُمكن ردُّ هذه الحقيقة العامة بغير استثناءات ،
أى بغير أسلوبٍ في البرهنة ثابتٍ يأتى به ذوو الأنس من أنصار الجنس
اللطيف .

ولذا فإن من الواضح أن تَعَهَّدَ صفات الرجل في المرأة وإهمالَ ما هو
خاصٌّ بهن يَنْطَوِي على الإضرار بهن ، وَيَبْلُغُ ذواتُ السكر من رؤية
ذلك جيداً ما لا يُخَدَعْنَ معه بذلك ، وهنَّ حين يُجَاهِذْنَ في اغتصاب
منافعنا لا يَتَرُكْنَ منافعهن ، ولكن بما أنهن لا يستطعن تدير أمر هذه
وتلك جيداً لتباينهما فإنه ينشأ عن ذلك بقاؤهن دون مستواهن من غير
ارتقاء إلى مستوانا ، وخُسْرانُهن نصفَ قيمتهن ، وأتَّبِعِي نصيحتي ، أيتها الأمُّ
العاقلة ، فلا تَجْعَلِي من ابنتك رجلاً صالحاً ، لِمَا يَنْطَوِي عليه هذا من
تكذيبٍ للطبيعة ، واصْنَعِي منها امرأةً سالحةً ، وثِقِي بأن هذا أفضلُ
لنا ولها .

وهل يُسْتَدَلُّ من ذلك وجوبُ تنشئتها جاهلةً لكلِّ شيءٍ ، مقصورةً

على الواجبات المنزلية وحدها ؟ وهل يَصْنَعُ الرجلُ خادمتَه من رفيقته ؟ وهل يَحْرِمُ نفسه نحوها من أعظم فُتُونٍ فى المجتمع ؟ وهل يَمْنَعُها من الشعور بشيء ومن معرفة أى شيء إمساناً فى استعبادها ؟ وهل يَجْعَلُ منها تمثلاً متحركاً ؟ كلا ، لا ريب ، فليس هذا ما تَقُولُ الطبيعةُ التى منحت النساء روحاً كثيرة الرقة بالغة اللطافة ، والطبيعةُ ، على العكس ، تريد أن يُفَكَّرْنَ وَيَحْكُمْنَ وَيُحِبَّنَ وَيَعْرِفْنَ وَيَتَمَهَّدْنَ ذهنهن كما يَتَمَهَّدن صورتهن ، وهذه هى الأسلحة التى أنعمت الطبيعةُ بها عليهن لتقوم مقام القوة التى تُعَوِّزُهُنَّ ولتوجيه قُوَّتِنَا ، ويجب عليهن أن يَتَعَلَّمْنَ أموراً كثيرة ، على أن تكون معرفة هذه الأمور ملائمةً لهن .

وسواء على أنظرتُ إلى غَرَضِ الجنس الخاصِّ ، أم لاحظتُ مُبُولَه ، أم عَدَدَتُ واجباته ، وَجَدْتُ كُلَّ شيء يتضافر تضافراً متساوياً على دَلَالَتِي إلى شكل التربية التى تلائمه ، أَجَلْ ، إن كَلاً من المرأة والرجل خُلِقَ فى سبيل الآخر ، غير أن اتباع أحدهما للآخر ليس متساوياً ، فالرجالُ تابعون للنساء برغائبهن ، والنساءُ تابعاتٌ للرجال برغائبهن واحتياجاتهن ، ونحن نعيش بدونهن أكثر من عيشهن بدوننا ، وذلك أنه يجب ، لحيازتهن الحاجى ولوجودهن فى حالهن ، أن نُعْطِيَهُنَّ إياه ، وأن نريدَ إعطاءهن إياه ، وأن نُقَدِّرَ استحقاقهن له ، وهن تابعاتٌ لمشاعرنا ولما نَجْعَلُ من ثَمَنِ لمزيتهن ولما يكون عندنا من فكرٍ عن فتوتهن وفضائلهن ، حتى إن من مقتضيات قانون الطبيعة أن يكون النساء تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن ومن أجل أولادهن ، فلا يَكْفِي أن يَكُنَّ أهلاً للتقدير ،

بل يجب أن يَكُنَّ مُقَدَّرَاتٍ ، ولا يَكْفَى أن يَكُنَّ جَمِيلَاتٍ ، بل يجب أن يَرْفُقْنَ ، ولا يَكْفَى أن يَكُنَّ حَكِيمَاتٍ ، بل يجب أن يُعْرَفْنَ هَكَذَا ، وليست سَعَادَتُهُنَّ فِي سُلُوكِهِنَّ ، وَلَكِنْ فِي سُمْعَتِهِنَّ ، وليس من الممكن استطاعةُ التي توافق على عَدَّهَا شَائِئَةً أَنْ تَكُونَ شَرِيفَةً مُطْلَقًا ، ولا يتوقف أمرُ الرجل الذي يَعْمَلُ صَالِحًا على غير نفسه ، ويستطيع الرجل أن يقتحم الحُكْمَ العامَّ ، ولكنَّ المرأةَ إذا مَا عَمِلَتْ صَالِحًا لا تكون قد قامت بغير نصف عملها ، فَمَا يَدُورُ حَوْلَهَا مِنْ فِكْرٍ لَا يَكُونُ عِنْدَهَا أَقْلٌ أَهْمِيَّةٌ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ حَقِيقَةٌ ، ومن ثَمَّ يُرَى أن نظام تَرْبِيَتِهَا يجب أن يكون ، من هذه الناحية ، مَخَالِفًا لنظام تَرْبِيَتِنَا ، أَيْ إِنْ رَأَى النَّاسُ قَبْرًا لِلْفَضِيلَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ ، وَيَكُونُ عَرْشُهُ بَيْنَ النِّسَاءِ .

وتتوقف بُنْيَةُ الأولاد على حُسْنِ بُنْيَةِ الأمهات في بدء الأمر ، ويتوقف أولُ تَرْبِيَةِ الرِّجَالِ على عَنَایَةِ النِّسَاءِ ، وتتوقف على النِّسَاءِ ، كَذَلِكَ ، طِبَاعُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ وَأَذْوَابُهُمْ وَرَغَائِبُهُمْ ، وسَعَادَتُهُمْ أَيْضًا ، وَهَكَذَا فَإِنْ كُلَّ تَرْبِيَةِ النِّسَاءِ يجب أن تُرَسَّمَ نَظْرًا إِلَى الرِّجَالِ ، وتقوم واجباتُ النِّسَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ على وَقُوعِهِنَّ مَوْقِعَ الرِّضَا لِدِيهِمْ وَعَلَى فَائِدَتِهِنَّ لَهُمْ وَعَلَى تَحْيِيْبِ أَنْفُسِهِنَّ لَهُمْ وَعَلَى تَمْجِيدِهِنَّ مِنْ قِبَلِهِمْ وَعَلَى تَنْشِئَتِهِنَّ لَهُمْ فَتِيَانًا وَعَنَایَتِهِنَّ بِهِمْ كِبَارًا وَعَلَى نَصِيحَتِهِمْ وَتَسْلِيَتِهِمْ وَجَعْلِ الْحَيَاةِ مَقْبُولَةً حُلُوةً عِنْدَهُمْ ، وَهَذَا مَا يَجِبُ تَعْلِيمُهُنَّ إِيَّاهُ مِنْذُ صِبَاهُنَّ ، وَيُتَتَّعَدُ عَنِ الْغَايَةِ مَا ابْتَعَدَ عَنْ هَذَا الْمَبْدَأِ ، فَلَا يَكُونُ لِجَمِيعِ التَّعَالِيمِ الَّتِي تُتَلَقَّى عَلَيْهِنَّ نَفْعٌ لِسَعَادَتِهِنَّ وَسَعَادَتِنَا .

ولكن كل امرأة ، وإن كانت تُريدُ أن ترُوقَ الرجالَ ، وكان لزَاماً عليها أن تريد ذلك ، يُوجدُ فرقٌ كبيرٌ بين رَوَقَانِهَا رَجُلَ الفضلِ ، والانسِ حقاً ، وإرادَتِهَا أن ترُوقَ صفارَ اللطفاءِ الذين يَشِينُونَ جَنَسَهُم والجنسَ الذى يُقَلِّدُونَهُ ، وما كانت الطبيعةُ ، ولا العقلُ ، ليستطيعا حَمْلَ المرأةِ على أن تُحِبَّ في الرجالِ من يشابهها ، وكذلك لا ينبغي للمرأة أن تتحل أوضاعَ الرجال فتحاول حملهم على حُبِّها .

ولذا فإن النساء إذا ما تَرَكَنَ احتشامَ جنسهنَّ ووقارَهُ واتخذنَ أوضاعَ هؤلاء الطائشين ابتَعَدْنَ عن اتباعِ ما يُسَرِّنُ لَهُ وَعَدَلْنَ عنه ، وحرَمْنَ أنفسهنَّ ما يَرَيْنَ أَنهنَّ اغتصبته من حقوق ، وهنَّ يَقْلَنَ : « لو كنا غيرَ هذا ما وَقَعْنَا موقعَ الرضا عند الرجال مطلقاً » ، وهنَّ يَكْذِبْنَ ، فلا بُدَّ من جنون المرأةِ حتى تُحِبَّ المجانين ، وتَدُلُّ الرغْبَةَ فى اجتذاب أولئك الناس على ذوقِ التى تَوَطَّنَ نَفْسَهَا على ذلك ، وإذا وُجِدَ من الرجال من هم غيرُ طائشين مطلقاً بادرتْ إلى جَعْلِهِم طائشين ، ويكون طيُشُهُم من صُنْهِمَا أَكْثَرَ من أن يكون طيُشُهَا من صُنْهِم ، وإذا كانت المرأةُ تحبُّ الرجال الصادقين وتريدُ أن ترُوقَهُم اتَّخَذَتْ من الوسائل ما يلائمُ غَرَضَهَا ، وتكون المرأةُ ذاتَ دَلَالٍ عن وَضْعٍ ، ولكن الدَّلالَ يتغير شكلاً وموضوعاً وَفَقَ مقاصدها ، فلنُنظِّمَ هذه المقاصدَ وَفَقَ أغراض الطبيعة ، وهناك تنال المرأةُ ما يلائمها من التربية .

وصُغَرِيَّاتُ البناتِ يُحِبُّنَ الزينةَ منذ ولادتهن تقريباً ، وهنَّ لا يَرْضَيْنَ أن يَكُنَّ حِسَانًا ، وإنما يُرَدْنَ أن يُرَيْنَ هكذا ، ويُرى من خلال ملامحن

أن هذا الالتفاتَ يَشْفَلُ بِالْهَنِّ مِنْذُ الْبُدَاءَةِ ، وَهَنْ لا يَكْدُنَ يَكُنَّ فِي حَالٍ يُدْرِكُنْ بِهَا مَا يُقَالُ لَهُنْ حَتَّى يُسَيِّطَرَ عَلَيْهِنَّ بِمَا يُفَكِّرُ فِيهِ حَوَاهِنَ ، وَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْخِفَّةِ مَا تَعْرِضُونَ مَعَهُ ذَاتَ الْبَاعْثِ عَلَى الصِّيَانِ لَمْ تَجِدُوا لَهُ ذَاتَ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَهَمَّ إِذَا مَا كَانُوا ذَوِي اسْتِقْلَالٍ وَكَانَ لَهُمْ لَعِبُهُمْ قَلَّتْ مَبَالَاهُمْ ، إِلَى الْغَايَةِ ، بِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي أَمْرِهِمْ ، وَلَيْسَ بِغَيْرِ فِعْلٍ الْوَقْتُ وَالْجُهْدُ مَا يُجْعَلُونَ خَاضِعِينَ لِحُكْمِ عَيْنِ الْقَانُونِ .

ومهما تكن الجهة التي يأتي منها هذا الدرسُ الأولُ إلى البنات فإنه يُعَدُّ صَالِحًا جِدًّا ، وَبِمَا أَنَّ الْبَدْنَ يَسْبِقُ الذَّهْنَ وَلِدَةً فَإِنْ تَمَرَّنَ الْبَدَنُ هُوَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ، وَهَذَا النِّظَامُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ ، غَيْرَ أَنَّ غَرَضَ هَذَا التَّمَرُّنِ مُخْتَلَفٌ ، فَهُوَ يَكُونُ نُمُوَّ الْقُوَى فِي جِنْسٍ ، وَهُوَ يَكُونُ نُمُوَّ الْمُحَاسِنِ فِي الْجِنْسِ الْآخَرِ ، وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتُ أَوْ تَلِكُ فِي هَذَا الْجِنْسِ أَوْ ذَاكَ حَصْرًا ، وَإِنَّمَا تَكُونَ عَلَى نِسْبَةٍ مَعَكُوسَةٍ ، وَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ قُوَّةٍ كَافِيَةٍ فِي النِّسَاءِ حَتَّى يَأْتِيَنَّ جَمِيعَ مَا يَأْتِيَنَّ بِلَطَافَةٍ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَهَارَةٍ فِي الرِّجَالِ حَتَّى يَأْتُوا جَمِيعَ مَا يَأْتُونَ بِسَهُولَةٍ .

وَيَبْدَأُ نَحْنُ الرِّجَالُ بِإِفْرَاطِ النِّسَاءِ فِي التَّخَنُّثِ ، وَلَا يَنْبَغِي لِلنِّسَاءِ أَنْ يَكُنَّ قَوِيَّاتٍ كَالرِّجَالِ ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ ، وَذَلِكَ لِكَيْ يَكُونَ مَنْ يَصْنَعُ مِنَ الرِّجَالِ أَقْوِيَاءَ أَيْضًا ، وَبِهَذَا تَكُونُ الْأَدْيَارُ ، حَيْثُ يَتَنَاولُ الطَّالِبَاتُ الدَّخْلِيَّاتِ طَعَامًا غَلِيظًا ، وَلَكِنْ مَعَ كَثِيرٍ نَزَرِهِ وَمَسَابَقَاتٍ وَأَلْعَابٍ فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ وَفِي الْحَدَاقِ ، أَفْضَلَ مِنَ الْبَيْتِ الْأَبْوَى حَيْثُ تَتَنَاولُ الْبَنَاتُ غِذَاءً نَاعِمًا ، وَتُدَارَى أَوْ تُعْزَرُ دَائِمًا ، وَحَيْثُ تَجْلِسُ عَلَى مَرَأَى

من أمِّها في غرفة محكمة الإغلاق ، فلا تَجْرُؤُ على النهوض والمشي ولا على الكلام والهَمْس ، ولا تتمتع بساعة من الحرية ، فلا تَلْعَب ولا تَتَب ولا تَرْكُض ولا تَصْرُخ ، وتَلْزَمُ نَزَقَ سِنِّها الطَّيِّعِ ، فإِما رَخَاءَ خَطَرٍ وإِما جَفَاءَ طائشٍ ، ولا شَيْءَ وَفَقَ العقل ، وهذا هو الوجهُ الذي يَقْوِضُ به بَدَنُ الشباب وقلْبُهُ .

وكانت بنات إسپارطة يَتَدَرَّبْنَ ، كالْفِتَيانِ ، على الألعاب العسكرية ، لا لِيَذْهَبْنَ إلى الحرب ، بل لِيَحْمِلْنَ ، ذات يومٍ ، أولاداً قادرين على احتمال مشاقِّها ، وليس هذا هو الذي أَسْتَحْسَنُ ، فلا يَقْضَى مَنَحُ الدولة جنوداً أن تَحْمِلَ الأمهاتُ بنادقَ وَيَقْمُنَ بِتَمْرِينِ على الطريقةِ البرُوسيةِ ، وإِنما أَجْدُ أن التريية اليونانية كانت ، على العموم ، كثيرة البراعة من هذه الناحية ، فكانت الفتياتُ يَظْهَرْنَ عَلَناً في الغالب ، ولكن مع تَجَمُّعٍ فيما بينهن وعدم اختلاطٍ بِالْفِتَيانِ ، وما كُنْتَ تَرَى عيداً تقريباً ، ولا قُرْباناً ، ولا احتفالاً ، لا تُرَى فيه أفواجٌ من بنات وُجُوهُ المواطنين ، وهنَّ مُتَوَّجاتٌ بِالزُّهورِ مُرْتَلاتٌ لِلأناشيدِ مُؤَلَّفاتٌ أَجْوَاقاً للرقصِ حاملاتٌ سِلَلاً وآنيةً وَتَقْدِماتٍ وعَارِضاتٌ على حواسِّ الأغارقة الفاسدة منظرًا ساحرًا صالحًا لموازنة ما للرياضة البدنية النابية من أثرٍ سيِّئٍ ، ومهما يكن من عملٍ لهذه العادة في قلوب الرجال فقد كانت نافعةً ، دائماً ، في مَنَحِ الجُنْسِ بُنيةً حَسَنَةً في شبابهِه بتمريناتٍ مُسْتَحْبَّةٍ معتدلةٍ صحيحةٍ ، وفي شَحْذِ ذوقهِ وتكوينهِ برغبةٍ مستمرة في الوقوع موقع الرِّضا ، وذلك من غير مجازفةٍ بالأخلاق .

وكان هؤلاء الفتياتُ إذا ما تزَوَّجْنَ عُدْنَ لا يُرَيْنَ بين الناسِ
وصِرْنَ مَقْصُورَاتٍ في بيوتهن قاصراتٍ جميعَ جهودهن على تدبير منازلهن
والعناية بِأسَرِهِنَّ ، وهذا هو طرازُ الحياة الذي تأمر الطبيعةُ والعقل به
الجنسَ ، ثم إن هؤلاء الأمهاتِ كُنَّ يَضَعْنَ أصحَّ رجالِ العالمِ وأقوامهم
وأحسنهم تقويماً ، وعلى ما كان يتمتع به بعض الجُرُور من سُمتَةٍ سيئة فإن
من الثابت أن جميع الأمم ، ومنها الرومانُ أيضاً ، لم تَشْمَلْ ما اشتملت عليه
بلادُ اليونان في الزمن القديم من النساء الجامعات بين الحكمة والأُنس ،
وبين الأخلاق والجمال .

وما يُعرَف أن اتساع الثياب ، الذي لا يُضَاقِقُ الجسمَ مُطلقاً ، كان
يساعد كثيراً على تَرْكِهِ لِبَدَنِ الجنسين تلك النَّسَبَ الرائعة في تماثلهما فلا
تزال تَضُلُح أن تكونَ نمُودَجاً في الفن بعد أن انقطعت الطبيعةُ المُشوَّهةُ
عن تقديمه بيننا ، ولم يَكُنْ لأولئك عهدٌ بشيء من جميع هذه العوائق
القوطية وهذه الكثرة في الرُّبُط التي تَضَغُطُّ أعضاؤنا من كلِّ ناحية ، وكان
نساؤهم يَجْهَلْنَ استعمالَ هذه القوالبِ الحَوِيَّةِ التي يُنْكَرُ نساؤنا بها قلماتهن
أكثرَ من الدلالة عليها ، ولا أستطيع أن أتصوّرَ أن هذا السوء في الاستعمال ،
الذي أُنْعِنَ فيه بِانكسرةٍ إلى حَدٍّ لا يَتَصَوَّر ، لا يُؤدِّي إلى انحطاط
النوع في آخر الأمر ، فأذهبُ إلى أن القُتُون الذي يُهَدَفُ إليه بهذا نَيْمٍ
على ذوقٍ فاسد ، فليس من المستحسن أن تُرَى المرأةُ مَقْطُوعَةً إلى قسمين
كالزُّنْبُور ، لِمَا ينطوى عليه هذا من إيذاء النظر وإيلام الخيال ، فإِذِ قَدَّ
الْقَدَّ نَسَبُها وقياسُها ككلِّ شيء آخر ، فإذا وقعت مجاوزةُ ذلك ظَهَرَ

العيب، حتى إن هذا العيبَ يَقِفُ النظر في العُرى ، فَلَيْمَ يَكُونُ جَمالاً
تحت الثياب !

ولا أُجْرُوْهُ على اعتصار الأسباب التي يُصِرُّ النساءُ بها على الادِّراع
هكذا ، فيَظْهَرُ صدره هابط و بطنٌ ضَخْمٌ ، إلخ . ، وأوافق على أن هذا
يُسْتَكْرَه في التي تكون في العشرين من سِنِها ، ولكن هذا يعود غيرَ
مؤذٍ للنظر فيمن تكون في الثلاثين ، وبما أنه يجب ، في كلِّ وقت ،
أن نَكُونَ ، على الرغم منا ، في حالِ تَرُوقٍ معه الطبيعة ، وألَّا تُخَدِّعَ عينُ
الرجل في ذلك مطلقاً ، فإن هذه العيوب تكون أقلَّ إغاظَةً في كلِّ سِنٍ
من اتِّحالِ تَصَنُّعاتِ ابنةٍ صغيرةٍ اتِّحالاً أخرقَ في الأربعين من العُمُر .

وَبَعْدُ من الذوق الفاسد كلُّ ما يضايق الطبيعة وَيَضَعُظُها ، وَيَصْدُقُ
هذا في أزيان البدن كما يَصْدُقُ في أزيان الذهن ، ويجب أن تأتي الحياةُ
والصحة والعقل والراحةُ في المرتبة الأولى ، ولا تكون المَلَّاحَةُ بلا راحةٍ
مطلقاً ، وليست الرقة ذُبُولاً ، فلا يَقْضِي الرَّوْقَانِ بأن يكون الإنسانُ
عليلاً ، أَجَلٌ ، تُشَارُ الرَّافَةُ عند التألم ، غير أن اللذة والرغبة تَنَشُدَانِ
صحةً ناضرة .

وللأولاد من الجنسين أَلْهُوَاتٌ مشتركة كثيرة ، وهذا الذي يجب أن
يكون ، أَوَّلًا يكون لهم عين اللّهُوَ إذا ما كَبُرُوا ؟ وكذلك يُوجَدُ لهم من
الأذواق الخاصة ما يُمَيِّزُ بَعْضَهُم من بعض ، فالبنون يَنَشُدُونِ الحركةَ
والضوضاء والطبولَ والدُّوَامَ والمَرَكَبَاتِ الصغيرة ، والبناتُ يَفْضَلْنَ على
ذلك ما يُجْتَمِعُ النظرُ وَيَنْفَعُ الزينة ، كالمرايا والحُلِيِّ والشُّرْطِ ولا سيما

اللَّعْبُ ، واللَّعْبَةُ هِيَ الْأَلْهُوَةُ الْخَاصَّةُ بِهَذَا الْجِنْسِ ، وَهَذَا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى مِيلِهَا إِلَى مَا قُدِّرَتْ لَهُ ، وَفِي الْحِلْيَةِ تَجَلَّى طَبِيعَةُ فَنِّ الرَّوَّاقَانِ ، وَهَذَا كُلُّ مَا يَسْتَطِيعُ الْأَوْلَادُ تَعَهُدَهُ مِنْ هَذَا الْفَنِّ .

وَتَرَوْنَ ابْنَةً صَغِيرَةً تَقْضِي نَهَارَهَا حَوْلَ لُعْبَتِهَا ، فَلَا تَنْفَكُ تُغَيِّرُ ثِيَابَهَا ، فَتُلْبِسُهَا وَتُعَرِّيْهَا مِثْلَ مَرَّةٍ ، وَلَا تَقْنَأُ تَقَوْمُ بِتَرْتِيبَاتٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الزُّخْرُفِ حَسَنَةِ الْمَطَابَقَةِ أَوْ سَيِّئَةِ الْمَوَاقِفَةِ ، مِنْ غَيْرِ مَا ضَرَرٍ ، أَجَلٌ ، يُعَوِّزُ الْأَصَابِعَ مَهَارَةً ، وَلَمَّا يُكَوِّنِ الذَّوْقُ ، وَلَكِنْ مَعَ تَجَلَّى الْمِيلِ ، وَيَمْضِي الْوَقْتُ وَهِيَ مِنْهَمَكَةٌ بِذَلِكَ الْعَمَلِ الدَّائِمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَشْعُرَ بِمُرُورِهِ ، وَتَمُرُّ السَّاعَاتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَشْعُرَ بِمُضِيِّهَا ، حَتَّى إِذَا تَنَسَّى وَجَبَاتِهَا ، فَهِيَ أَكْثَرُ شَوْقًا إِلَى الزَّيْنَةِ مِمَّا إِلَى الطَّعَامِ ، وَلَكِنْكُمْ سَتَقُولُونَ إِنَّهَا تَزَيِّنُ لُعْبَتِهَا لَا شَخْصَهَا ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهَا تَرَى لُعْبَتَهَا ، وَلَا تَرَى نَفْسَهَا ، وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ صُنْعَ شَيْءٍ لِنَفْسِهَا ، وَهِيَ لَمْ تَتَكَوَّنْ ، وَهِيَ لَيْسَتْ ذَاتَ قَرِيحَةٍ أَوْ قُوَّةٍ ، وَهِيَ لَيْسَتْ شَيْئًا بَعْدُ ، وَهِيَ مَنْصَرَفَةٌ إِلَى لُعْبَتِهَا دَائِمًا وَاضِعَةً جَمِيعَ دَلَالِهَا فِيهَا ، وَلَنْ تَبْقَى هَكَذَا ، فَهِيَ تَنْتَظِرُ الزَّمْنَ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ لُعْبَتَهَا بِنَفْسِهَا .

وَذَلِكَ ، إِذَنْ ، أَوَّلُ مَيْلٍ مُقَرَّرٍ جَيِّدٌ ، فَمَا عَلَيْكُمْ غَيْرُ تَتَبُّعِ هَذَا الْمِيلِ وَتَنْظِيمِهِ ، وَلَا مِرَاءَ فِي أَنَّ الْبِنْتَ الصَّغِيرَةَ تَوَدُّ مِنْ صِمِّ فَوَادِهَا أَنْ تَزُخَرْفَ لُعْبَتَهَا وَأَنْ تَقَوْمَ عَقْدَ كَمِّهَا وَمِنْدِيلَ عُنُقِهَا وَتَعَارِيحَ ثَوْبِهَا وَتَخَارِيمَ رَدَائِهَا ، وَهِيَ تُجْهَلُ فِي جَمِيعِ هَذَا مِنْ اتِّبَاعِ ذَوْقِ الْآخَرِينَ اتِّبَاعًا وَثِيقًا مَا يَكُونُ مِنَ الْخَيْرِ مَعَهُ أَنْ تَعْتَمِدَ فِيهِ عَلَى حِذْقِهَا ، وَهَكَذَا يَأْتِي الْبَاعِثُ

للدروس الأولى التي تُنلقى عليها ، وليست هذه جهوداً تُسكِّفُ بها ، بل
الطافُ تُحِبِّيَ بها ، والواقعُ أن جميع البنات الصغار يَتَمَلَّهْنَ القراءةَ
والكتابةَ على مَضَضٍ تقريباً ، ولكن استعمال الإبرة هو ما يتعلَّمَنَّهُ عن
رضاً دائماً ، وهن يتصورن مقدِّماً أن يَكُنَّ كِبرياتٍ فيروُنَ مع اللذة
إمكانَ انتفاعهن بهذه الأهليات للتَّجَمُّل ذاتِ يوم .

وَيُسَهِّلُ اتِّبَاعُ هذه الطريقِ الأولى المفتوحة ، فالخِياطةُ والتطريزُ
والتخريمُ أمورٌ تأتي من نفسها ، وليس وشىُ الفرش وثيقُ القُربِ من
رضاهن ، والنَّجَّادةُ كثيرةُ البُعدِ منهن ، فالأثاثُ أمرٌ غيرُ تابعٍ للشخص ،
وإنما يتعلَّقُ بآراءِ أخرى ، ويمدُّ وشىُ الفرش ألهوةَ النساء ، ولا يساور
البناتِ الصغيراتِ كبيرُ رغبةٍ فيه مطلقاً .

ويمتدُّ هذا التقدم الاختياريُّ بسهولةٍ حتى الرَّسْمِ ، وذلك لأن هذا
الفنَّ ليس غريباً عن فنِّ اللُّبْسِ الأنيق ، ولكنني لا أريد شغلَهنَّ بالمناظر ،
وأقلُّ من هذا شغلي لهن بالهيئة ، وتَكْفِيهِنَّ أوراقُ الشجر والفواكهُ ووشىُ
الفرش وكلُّ ما يُمكن أن يكون نافعاً لَمَنَحِ الأزيان نطقاً جميلاً ، ولجَعْلِ
البناتِ قاضيةً في أمر التطريزِ عندما لا تَجِدُ نموذجاً يُعْجِبُها ، وإذا كان
يُهِمُّ الرجالَ ، على العموم ، أن يَقْصِرُوا دراساتهم على معارفٍ نافعةٍ لهم فإن
هذا يُهِمُّ النساءَ أكثرَ مما يُهِمُّهُنَّ ، وذلك لأن حياة النساء ، وإن كانت أقلَّ
مَشَقَّةً ، وكانت ، أو وَجَبَ أن تَكُونُ ، أكثرَ مُثابرةً على القيام بواجباتهن ،
وأكثرَ تَقَطُّعاً بمختلف الواجبات ، لا تَسْمَحُ لهن بأن يَتَجَرَّدْنَ ، عن
خِيَارٍ ، لأَيِّ من أعمال النبوغ الأخرى ضراً بواجباتهن .

ومهما يكن من قول الساخرين فإن صواب كلا الجنسين واحد، وتكون البنات أطوع من الصبيان على العموم، ويجب، مع ذلك، أن يتخذ نحوهن سلطان أكثر مما يتخذ نحو الصبيان كما أُبين ذلك عما قليل، ولكن لا يُسَنَّبَطُ من هذا وجوب مطالبتهم بشيء لا يستطعن رؤية فائدته، ويقوم فنُّ الأمهات على إراءتهن ذلك في كل ما يأمرهن به، وتتجلى سهولة هذا في كون الذكاء لدى البنات أبكر نضجاً مما عند الصبيان، ولا تبعد هذه القاعدة من جنسهن، كما أنها لا تبعد من جنسنا، فقط، جميع الدراسات الفارغة التي لا تؤدي إلى شيء صالح والتي لا تجعل أكثر قبولاً، حتى لدى الآخرين، ما وضعه هؤلاء الآخرون، بل تبعد أيضاً جميع الدروس التي لا تناسب فائدتها السن والتي لا يمكن الولد أن يبصر نفعها في غير عمرٍ متقدم، وإذا كنت لا أريد ضغطَ الغلام كيما يتعلم القراءة فإن من الأولى ألا أريد حمل الفتيات على القراءة قبل جعلهن يشعرن بفائدتها جيداً، ويرى من الأسلوب الذي يُطلَعَن به عادة على هذه الفائدة أننا نتبع فكرنا الخاص أكثر من اتباع فكرهن، ومع ذلك فما أرب البنت أن تعرف القراءة والكتابة باكراً؟ وهل يكون لها على عجل منزل تُدبر شؤونه؟ لا يوجد غير قليل من هؤلاء من لا يكترن إساءة استعمال هذه المعرفة المشؤومة، وجميع هؤلاء من كثرة الفضول ما لا يتعلمن معه ذلك من غير إكراههن عليه، وذلك عند ما يكون لديهن فراغ وفرصة لذلك، وقد يجب تعلمهن الحساب قبل كل شيء، وذلك لأنك لا ترى كالحساب شيئاً يكون ذا نفع ظاهر في كل حين ويتطلب طويلاً ممارسة

وَيَدْعُ مجالاً كبيراً للخطأ ، وإذا كانت البنت الصغيرة لا تنال كَرَزَ عَصْرُونيتها* إلا بعمليةٍ حسابيةٍ أجبتكم بأنها لا تَلْبَثُ أن تتعلم الحساب .

وقد عَرَفْتُ فتاةً تعلمت الكتابةَ قبل أن تتعلم القراءة ، وقد بدأت هذه الفتاة تَعَلِّمَ الكتابةَ بالإبرة قبل تعلُّمها الكتابةَ بالقلم ، وهي لم تَرُدْ من جميع الكتابة أن تَرْسُمَ غيرَ حرفِ O ، وكانت ترسم حرفَ O بلا انقطاعٍ على أشكالٍ متداخلةٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ ومن كلِّ طُولٍ ومع تنكيسٍ ، ومن المؤسف أن رأت نفسها في المرآة ذات يومٍ وهي مشغولةٌ بهذا التمرين المفيد فوجدت أنها تكون بهذا الوضع المضغوط سيئةَ الظرافة ، كما لو كانت مِنِيرَةً أخرى ، فألقت القلمَ جانباً وعادت لا تريد رَسْمَ حرفِ O ، وكان أخوها لا يُحِبُّ الكتابةَ أكثرَ مما يُحِبُّ ، ولكن الذي كان يَفِيطُهُ هو الضَّيِّقُ ، لا المنظرُ الذي يَكْتَسِبُهُ بالضَّيِّقُ ، وَيَتَّخِذُ تَدِيرُ آخرُ لَرَدِّها إلى الكتابة ، فبما أن البنت الصغيرة كانت رقيقةً غَرِيْرَةً لم تَقْبَلْ قَطُّ أن تَلْبَسَ أخواتها ثيابها فكان يُعَلِّمُ على هذه الثياب ، فصار يُرَغِّبُ عن وَضْعِ علامةٍ عليها ، فَوَجَبَ أن تُعَلِّمَ البنتُ عليها بنفسها ، وأما بقيةُ الأمرِ فَيُمْكِنُ تَصَوُّره .

وَسَوَّغُوا ما تَفَرِّضُونَ على صِغار البنات من جهود ، ولكن اِفْرَضُوا هذه الجهودَ عليهن دائماً ، فالقَرَاغُ والعُقُوقُ كلاهما أخطرُ ما يكون من النقائص على البنات ، وهما أقلُّ ما يُشْفَى منه إذا ما تَعَوَّدَتْهُمَا ، وَيَقْضَى الواجبُ على البنات بأن يَكُنَّ حَذِرَاتٍ مجتهدات ، وليس هذا كلَّ ما في الأمر ، فيجب

أَنْ يَضَاقَنَ بَاكِرًا ، وَإِذَا كَانَ هَذَا الْبَلَاءُ مَلَاذِمًا لَهَا فَهُوَ غَيْرُ مُفَصَّلٍ عَنْ
جَنَسِنَ ، وَهِيَ لَا يَتَخَلَّصُنَّ مِنْهُ إِلَّا لِكَايِدُنْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ بِدَرَجَاتٍ ،
وَهِيَ يَقْضِيْنَ أَعْمَارَهُنَّ مُسْتَعْبِدَاتٍ لِأَدْوَمِ ضَيْقٍ وَأَشَدِّ عُسْرِ ، أَى ضَيْقٍ
الْيَاقَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُعَوِّدْنَ الْاِقْتِسَارَ فِي الْبُدَاءَةِ لِكَيْلَا يُكَلِّفَهُنَّ شَيْئًا مُطْلَقًا ،
كَأَنَّ يَجِبُ أَنْ يُعَوِّدْنَ قَمَعَ جَمِيعِ أَهْوَاهُنَّ كَيْمَا يُخَضِّعْنَ لِعِزَائِمِ الْآخِرِينَ ،
وَإِذَا أَرَدْنَ الْعَمَلَ دَائِمًا وَجَبَ حَمْلُهُنَّ عَلَى عَدَمِ عَمَلِ شَيْءٍ أَحْيَانًا ، وَيُعَدُّ
الْإِسْرَافُ وَالطَّيْشُ وَالتَّقَلُّبُ نَقَائِصَ تُولَدُ بِسَهْوَةٍ مِنْ مَيُولِهِنَّ الْفَاسِدَةِ الْأُولَى
وَالَّتِي تُتَّبَعُ دَائِمًا ، وَعَلَّامُوهُنَّ قَهَرَ أَنْفُسِهِنَّ عَلَى الْخُصُوصِ مَنَعًا لِهَذِهِ
الْمَسَاوِي ، وَتَقُومُ حَيَاةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ فِي مَرَاكِزِنَا الْحَقِّ عَلَى جِهَادٍ مُسْتَمِرٍّ
ضِدَّ نَفْسِهَا ، وَمِنْ الْإِنْصَافِ أَنْ يُقَاسَمَ هَذَا الْجِنْسُ أَلَمَ الشُّرُورِ الَّتِي
أُورَثْنَا بِهَا .

وَحُولُوا دُونَ سَامِ الْبَنَاتِ فِي أَثْنَاءِ أَشَاغِيلِهِنَّ وَدُونَ شَفَفِهِنَّ فِي أَلْهُوَاتِهِنَّ ،
وَذَلِكَ كَمَا يَقَعُ ، دَائِمًا ، فِي التَّرَبِّياتِ الْعَامِيَةِ حَيْثُ يُوضَعُ جَمِيعُ السَّامِ فِي
نَاحِيَةٍ وَيُوضَعُ كُلُّ لَهْوٍ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى كَمَا قَالَ فِينِيلُونُ ، وَإِذَا مَا اتَّبَعَتْ
الْقَوَاعِدُ السَّابِقَةُ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ لِلأَوَّلِ مِنْ هَذَيْنِ الْحَذُورَيْنِ مَكَانٌ إِلَّا عِنْدَ
عَدَمِ وَقُوعِ مَنْ يَحِيطُ بِالْبَنَاتِ مَوْقِعَ الرِّضَا لَدَى هَؤُلَاءِ الْبَنَاتِ ، فَالْبَنْتُ
الصَّغِيرَةُ الَّتِي تُحِبُّ أُمَّهَا أَوْ صَدِيقَتَهَا تَعْمَلُ نَهَارَهَا كُلَّهُ بِجَانِبِهَا مِنْ غَيْرِ سَامٍ ،
وَالْهَذَرُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُعَوِّضُهَا مِنْ جَمِيعِ ضَيْقِهَا ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ
لَا تَطِيقُ مِنْ تَسَيُّطِرُ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا تَجَزَّعُ مِنْ كُلِّ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنُهَا ، وَمِنْ
الصَّعْبِ جِدًّا أَنْ يَحْمَسَ ذَاتَ يَوْمٍ وَضِعُ الْبَنَاتِ اللَّاتِي لَا تَسْرُهُنَّ حَبَّةُ

أُمهاتهن أكثر مما تَسُرُّهن صحبةُ أىِّ شخصٍ آخر في العالم ، ولكنَّ
يَجِبُ ، للحُكْم في مشاعرهن الحقيقية ، أن يُدرَسْنَ ، لأنَّ يُعْتَمَدَ على
ما يَقُلْنَ ، وذلك لأنهن مصانِعَاتُ مُدَاجِيَاتٍ يَعْرِفْنَ التَّنَكُّرَ بِاِكْرَأَ ،
وكذلك لا يَنْبَغِي أن يُؤْمَرْنَ بِمَحَبَةِ أُمهاتهن ، فَأُلْهَبُ لا يَصْدُرُ عن
واجبٍ مطلقاً ، ولا يَنْفَعُ الْقَسْرُ هُنَا ، وَيَحْمِلُ الْوَلَعُ وَالرَّعَايَةُ وَالْعَادَةُ
على حُبِّ البنتِ لَأُمِّهَا إِذَا لم تَفْعَلِ الْأُمُّ مَا يَجْلِبُ إِلَيْهَا حَقْدَ البنتِ ،
حتى إن الضَّيْقَ الَّذِي تُنْسِكُ الْأُمُّ بِهِ ابْنَتَهَا ، وَالَّذِي تُحَسِّنُ إِدَارَتَهُ ،
يَزِيدُ ذَلِكَ الْوَلَعَ بَدَلًا مِنْ إِضْعَافِهِ ، وذلك لأنَّ الْخُضُوعَ إِذَا كَانَ أَمْرًا
طَبِيعِيًّا لَدَى النِّسَاءِ فَإِنَّ الْبَنَاتِ يَشْعُرْنَ بِأَنَّهُنَّ خُلِقْنَ لِلطَّاعَةِ .

وهنَّ ، لذاتِ السَّبَبِ الْقَائِلِ بِأَن لَدِيهِنَّ ، أَوْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدِيهِنَّ ،
قَلِيلُ حُرِيَّةٍ ، يَعْمَلْنَ بِأَقْصَى مَا يُتْرَكُ لَهُنَّ مِنْهَا ، وَهِنَّ ، إِذَا كُنَّ
مُتَنَاهِيَاتٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، يَتَجَرَّذَنَّ لِأَلْعَابِهِنَّ بِحُمَيَّا أَشَدَّ مِنْ مُحَيَّا الصَّبِيَّانِ ،
وهذا هو الْحَذُورُ الثَّانِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ عَنْهُ ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحُمَيَّا
مَشُوبَةً بِالْإِعْتِدَالِ ، وذلك لأنها علةٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَعَائِبِ الْخَاصَةِ بِالنِّسَاءِ ،
وَمِنْهَا هَوَى الْوَلَعِ الَّذِي تَنْتَقِلُ بِهِ الْمَرْأَةُ الْيَوْمَ إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ الْغَرَضِ الَّذِي
لَا تُبْصِرُهُ غَدًا ، وَكَذَلِكَ تَقَلُّبُ الْمَيُولِ هُوَ مِنَ الشُّؤْمِ عَلَيْهِنَ كِبَافِرَاطُونِ ،
وَيَأْتِيهِنَّ هَذَا وَذَاكَ مِنْ ذَاتِ الْمَصْدَرِ ، وَلَا تَنْزِعُوا مِنْهُنَّ الْجَذَلَ وَالضَّحْكَ
وَالصَّخْبَ وَالْأَلْعَابَ الْمَرِحَةَ ، وَلَكِنْ حُولُوا دُونَ شَبَعِهِنَّ مِنْ أَحَدِهَا طَلَبًا
لَاخِرَ ، وَلَا تَدْعُوهُنَّ فِي حَيَاتِهِنَّ دَقِيقَةً بِلا رَادِعٍ ، وَعَوِّدُوهُنَّ قَطْعَ أَلْعَابِهِنَّ
وَالْعَوْدَ إِلَى أَشْغَالِهِنَّ بِلا تَدَمَّرَ ، وَهنا تكفي الْعَادَةُ وَحْدَهَا ، فَالْعَادَةُ

لا تَقْعَلْ غَيْرَ مُسَاعَدَةِ الطَّبِيعَةِ .

وينشأ عن هذا القَسْرِ المعتاد انقيادُ يحتاج إليه النساء مَدَى حياتهن ما فتئن يَخْضَعْنَ لرجلٍ أو لأحكام الرجال فلا يُسَمَحُ لهنَّ أن يَكُنَّ فوق هذه الأحكام ، واللطفُ أَوَّلُ صفاتِ المرأةِ وأهمُّها ، والمرأةُ إِذْ خُلِقَتْ لإطاعة مخلوقٍ كالرجل ناقصٍ أيضاً ، مُقَمَّرٌ بالمعائب غالباً ، مملوء بالشوائب دائماً ، وجب أن تتعلَّم باكراً أن تُصَيِّرَ حتى على الجور وأن تحتل خطأ الزوج من غير أن تشتكى ، وليس عليها أن تكون لطيفةً من أجله ، بل من أجل نفسها ، ولا تؤدى شراسةُ النساء وعنادهنَّ إلى غير زيادة آلام النساء وسوء معاملتهن من قِبَل الأزواج ، والأزواجُ يَشْعُرُونَ بأنه لا ينبغي لهن أن يَفْلِتَنَّهُم بهذه الأسلحة ، ولم يَصْنَعُوهُنَّ الرَّبُّ فائزاتٍ مُقْنِعَاتٍ ، قَطْ ، لِيَكُنَّ شَكِيسَاتٍ ، ولم يَصْنَعُوهُنَّ الرَّبُّ ضَعِيفَاتٍ ، قَطْ ، لِيَكُنَّ مُتَجَبَّرَاتٍ ، ولم يُنْعِمِ الرَّبُّ عليهن ، قَطْ ، بصوتٍ بالغِ العذوبة لَيَنْطِقْنَ بالشتائم ، ولم يَجْعَلِ الرَّبُّ لهن تلك الملامح الدقيقة لِيُشَوِّهَنَهَا بالغضب ، وهنَّ إِذَا مَا سَخِطْنَ نَسِينَ أَنْفُسَهُنَّ ، أَجَلْ ، إن الحقَّ بجانبهنَّ في شَكْوَاهن غالباً ، ولكنهن يكنَّ مخطئاتٍ إِذَا مَا وَبَّخْنَ ، فكلُّ مُلْزَمٍ بالحفاظة على لهجة جنسه ، فإذا كان الزوجُ كثيرَ الرقة أمكنه جعلُ المرأةِ قليلةَ الحياء ، ولكن لطفَ المرأةِ يَرُدُّهُ ويتغلبُ عليه عاجلاً أو آجلاً ما لم يكن غولاً .

وَلِيَكُنَّ البناتُ طائعاتٍ دائماً ، ولكن لا ينبغي أن تكون الأمهاتُ متصلباتٍ دائماً ، ولا يجوزُ جعلُ البنت نَعْسَةً جَعْلًا لما طائعةً ، ولا يجوزُ

خَبَلُهَا جَعَلًا لَهَا مُخْتَشِمَةً ، وعلى العكس لا يَفِيظُنِي أَنْ يُسَمِّحَ لَهَا فِي الْحَيْنِ
بعد الحين باستعمال شيء من الشَّطَارَةِ ، لا لاجتناب الجزاء على عصيانها ،
بل لإعفائها من الطاعة ، ولا يُقَصِّدُ جَعْلُ خُضُوعِهَا شَأْنًا ، فَيَكْفِي حَمْلُهَا
على الشعور به ، وتُعَدُّ الحيلة من مواهب الجنس الطبيعية ، وبما أني قانعٌ
بأن جميع الميُولِ صالحةٌ مستقيمةٌ بذاتها فإني أرى تعهدَ الحيلة كالْمِيُولِ
الأخرى ، والمهمُّ في مَنَعِ سوء استعمالها .

وأختكم في صحة هذه الملاحظة إلى كلِّ ناظرٍ حَسَنِ النِّيَّةِ ، ولا أريدُ
أَنْ يُفَجَّصَ النِّسَاءُ أَنْفُسَهُنَّ حَوْلَ ذَلِكَ مطلقاً ، فَيُمْكِنُ نَظْمُنَا المَرْجِعَةَ أَنْ
تَحْمِلَهُنَّ عَلَى شَحَذِ أَذْهَانَهُنَّ ، وَإِنَّمَا أريدُ فَحْصَ البَنَاتِ ، وَإِنَّمَا أريدُ
فَحْصَ صِغَارِ البَنَاتِ اللَّاتِي وَلِذَنْ حَدِيثًا كَمَا أودُّ أَنْ أَقُولَ ، فَيَقَابِلُ بَيْنَهُنَّ
وَبَيْنَ صِغَارِ البَنِينَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ لِدَاتِهِنَّ ، فَإِذَا لَمْ يَبْدُ هَوْلًا ثَقَلَاءَ طَائِشِينَ
أَغْبِيَاءَ بِجَانِبِهِنَّ كُنْتُ مُخْطِئًا لَا مِرَاءَ ، وَلَيْسُمَخَّ لِي بِإِيرَادِ مِثَالٍ وَاحِدٍ عَنْ
السَّادِجَةِ الصَّبِيَانَةِ .

إِنْ مِنَ الشَّائِعِ كَثِيرًا مَنَعَ الْأَوْلَادَ مِنْ طَلَبِ شَيْءٍ حَوْلَ الْمَائِدَةِ ، وَذَلِكَ
لأنه لَا يُعْتَقَدُ ، مطلقاً ، مَا هُوَ أَحْسَنُ لِلنَّجَاحِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ مِنْ إِرْهَاقِ
هَذِهِ التَّرِيَةِ بِأَحْكَامٍ غَيْرِ مُجْدِيَةٍ ، وَذَلِكَ كَمَا لَوْ كَانَتْ الْقِطْعَةُ مِنْ هَذَا أَوْ
ذَلِكَ قَدْ مُنِحَتْ أَوْ رُفِضَتْ ^(١) حَالًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَوْدَى ، بَلَا انْقِطَاعٍ ،
إِلَى مَوْتِ الْوَلَدِ الْمُسْكِينِ بَطْمَعٍ شَحَذَ بِالْأَمَلِ ، وَكُلُّ يَعْلَمُ شَطَارَةَ الصَّبِيِّ

(١) يصير الولد مزعجاً إذا وجد نفعه في أن يكون هكذا ، ولكنه لن يطلب الشيء عينه مرتين إذا
لم يتنفس الجواب الأول على الإطلاق .

الخاضع لهذا النظام والذي يُنسى حَوْلَ المائدة قِيَعْنُ له أن يَطْلُبَ مِلْحًا ، إلخ . ، ولا أَقُولُ إنه كان من الممكن توبيخه عند طلبه مِلْحًا مباشرةً وعند طلبه لِحًا تعريضاً ، فقد كان الإهمال من القسوة ما لا يمكنني أن أعتقد معه عِقَابَه عندما خالف النظام جهراً وقال بلا مواربة إنه جائع ، ولكن إليك ما وَقَعَ أُمَامِي من أمرِ ابنته في السادسة من سِنِهَا كانت في وضعٍ أَصْعَبَ من ذلك بدرجات ، وذلك أنها ، فضلاً عن كونها حُظِرَ عليها حُظْراً شديداً أن تطلب شيئاً مباشرة أو تعريضاً ، لم تكن لتستحقَّ العفو عن عصيانها ما دامت قد أكلت من جميع الأطباق عَدَا واحداً نُسِيَ إعطاؤها شيئاً منه مع شدة رغبتها فيه .

والواقعُ أنها أرادت تلافِي ذلك الإغفال من غير أن تُثَمِّمَ بمصيانٍ ، فألقت نظرةً على جميع الأطباق مشيرةً إليها بإصبعها قائلةً بصوتٍ عالٍ : « لقد أكلتُ من هذا ، وقد أكلتُ من ذاك » ، بَيِّدَ أنها تَحَطَّطُ الطبقَ الذي لم تأكل منه من غير أن تقول كلمةً ، ولكن على وجهٍ يُبَيِّرُ انتباهَ بعضهم فيسألها : « ألم تأكلي من هذا ؟ » ، فتجيب هذه النَّهْيةَ الصغيرةَ مُطْرِقةً قائلةً بلُطْفٍ : « وَيْ ! كَلَّا » ، ولا أَضِيفُ شيئاً ، وقابلوا بين هذا التدييرِ الذي هو حيلةُ بنتٍ وذلك التدييرِ الذي هو حيلةُ صبيٍّ .

وما هو كائنٌ حسنٌ ، ولا يُوجَدُ قانونٌ عامٌّ سيِّئٌ ، وتعدُّ هذه الشَّطْرَةُ الخاصةُ التي حَيَّيَ بها الجنسُ النَّسْويُّ تعويضاً عادلاً من القوة التي تُعَوِّزُهُ ، ولولا هذا ما كانت المرأةُ رفيقةَ الرجل ، ولولا هذا لكانت

أمةً له ، والمرأة بهذه الأفضلية في الموهبة تظل مساوية له وتسيطر عليه بإطاعتها إياه ، وكل شيء مضاف للمرأة ، ولها ما يعاكسها في نقائصنا وفي حياتها وضعفها ، ولا يوجد ما يقول لها غير حذقها وجهالها ، أو ليس من الصواب أن تتعهد هذا وذلك ؟ بيد أن الجمال ليس عامًّا ، وهو يزول بألف عارضٍ ، وهو يتلاشى مع السنين ، والعادة تقضى على تأثيره ، واللقانة وحدها هي وسيلة الجنس النسوي الحقيقية ، لا تلك اللقانة الحمقاء التي تعارُ قيمةً كبيرة في العالم من غير أن يكون لها أقلُّ نفعٍ في جعل الحياة سعيدةً ، بل اللقانة الملائمة لخالها ، واللباقة في الانتفاع بجالنا والتغلب على منافعنا الخاصة ، ولا يُعرف مقدار ما لنا من فائدة في حذق النساء هذا ، ولا مقدار ما يُضيف من فتونٍ إلى مجتمع الجنسين ، ولا مقدار نفعه في قهر نزق الأولاد ، ولا مقدار ما يردع من أزواج غلاظ ، ولا مقدار ما يحفظ من راحة في المنزل الذي يسوده الشقاق لولا ذلك ، وأعرف أن النساء الماكرات الخبيثات بسن استعمال ذلك ، ولكن ما الشيء الذي لا يساه استعمله بالعيب ؟ فلا تقص ، مطلقًا ، على وسائل السعادة لأن الخبيثاء يستعملونها للأذى أحيانًا .

ويمكنُ الإشراقُ بالحلي ، ولكن لا يُراقُ بغير الشخص ، ولسنا أزياننا مطلقًا ، وفي الغالب تعطل أزياننا بقوة ما تبتغى ، وفي الغالب تكون الأزيان التي توجب ملاحظة من يحملها أقل ما يلاحظ ، وتكون تربية الفتيات عندنا على عكس ذلك تمامًا ، فهن يوعذن بأزيان مكافأة ، وتُحبَّب إليهن الحلي المنشودة ، ويُقال للواحدة منهن

عندما تَزِينُ كثيراً : « يا لها من جميلة ! » ، مع أن العكس هو ما يجب أن يقال لمن فيَسْمَعُنْ أنه لا يُقَصِّدُ بكثرة الزينة غيرُ سِتْرِ النقائص ، وأن فَوْزَ الجَمالِ الحَقِيقِيِّ هو بإشراقه بنفسه ، ويُعَدُّ حُبُّ المَوْضَآت من فساد الذوق ، فالوجوه لا تتغير بها ، وبما أن الوجهَ يَبْقَى كما هو فإن ما يُبْلِغُه مرةً يُبْلِغُه دائماً .

ومتى أَبْصَرْتُ الفتاةَ تَمِيسُ في حِلْيَتِها صَرَفْتُ هَمِّي إلى وَجْهِها الذى نَكَّرَ على هذا النحوِ وإلى ما يُمَكِّنُ الناسَ أن يُفَكِّرُوا فى أمرها ، فأقول : « إن جميع هذه الزخارف تُزِينُها كثيراً ، فيا لِلْخَسَاةِ ! أو تَظُنُّونَ إمكانَ اصْطِبَارِها على ما هو أبسطُ ؟ وهل هى من الجَمالِ ما يُمَكِّنُها أن تستغنىَ معه عن هذا أو ذاك ؟ » ، ومن المحتمل أن تكون إذ ذاك أولَ مَنْ يَرْجُو نَزْعَ هذه الزينة عنها ، فيُخَكِّمُ فى أمرها وهى فى هذه الحال ، ويرى هل يُوجَدُ محلٌّ للإعجاب بها ، ولن أَثْنِىَ عليها ، مُطْلَقاً ، ما لم تَكُنْ بسيطةً اللَّبَسِ إلى أبعد حدٍّ ، وهى إذا لم تَعُدَّ الحِلْيَةَ غيرَ مُتَنِّةٍ لألطفِ الشخص وغيرِ اعترافٍ ضَمْنِيٍّ باحتياجها إلى مساعدةٍ أتروق لم تَزُهْ بزِينِها قَطُّ واعتراها صغارٌ منه ، وهى إذا ما اِزْيَنْتْ بأكثر من المألوف وسمعتَ مَنْ يَقُولُ : « يا لها من جميلة ! » احمرَّ وجهُها غيظاً .

ومع ذلك فإنه يُوجَدُ من الهيئات ما يحتاج إلى حِلْيَةٍ ، ولكنه لا يُوجَدُ منها ما يحتاج إلى حُلْيٍ ثَمِينَةٍ مطلقاً ، فالحُلْيُ المؤديةُ إلى الإفلاس هى من خِيَلِ الطبقة ، لا من مقتضيات الشخص ، وهى مَنُوطَةٌ بِالْمُبْتَسَرِ حَصْراً ، أَجَلٌ ، إن الدلال الحَقِيقِيَّ مرغوبٌ فيه أحياناً ، ولكنه ليس مُحْتَالاً مطلقاً ،

وقد كان جُونُونُ أُنْهَى مِنْ فِينُوسَ لباساً ، وقد قال أَيْبِلُ لمصوِّرٍ ردىءٍ كان قد صَوَّرَ هِيلَانَةَ زَاخِرَةً بالجواهر : « إِنَّكَ لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَجْعَلَهَا جَمِيلَةً ، فَجَعَلْتَهَا غَنِيَّةً » ، ومما لاحظتُ ، أيضاً ، أن أَخْمَ الحُلِيِّ يَنْبَغُ عَلَى نِسَاءِ شُومٍ فِي الغالب ، فلا يُعْرَفُ غُرُورٌ أُخْرَقُ مِنْ ذَاكَ ، وَأَعْطُوا فَتَاةَ ذَاتِ ذُوقٍ ، وَذَاتِ اَزْدِرَاءٍ لِلْمُوضَةِ ، أَوْشَحَةً وَشُفُوفًا وَمَوْصِلِيًا وَأَزْهَارًا بِلا الْمَاسِ وَبِلا باقاتٍ مِنْ حَرِيرٍ وَمُخْرَمَاتٍ^(١) ، تَرَوْهَا صَانِعَةً لَزِينَةً تَجْعَلُهَا أَكْثَرَ قُتُونًا مِثْلَ مَرَّةٍ مِمَّا يَجْعَلُهَا جَمِيعُ نَسَائِجٍ لَادُوشَابِ المُنَالَقَةِ .

وبما أن الحَسَنَ حَسَنٌ دَائِمًا ، وبما أنه يجب أن يَكُونَ أَحْسَنَ مَا يُمَكِّنُ دَائِمًا ، فإن النساء اللاتي يَعْرِفْنَ مِنْ هُنَّ بِالْأَزْيَانِ يَخْتَرْنَ مَا حَسَنَ وَيَتَمَسَّكْنَ بِهِ ، وَلَا يُغَيِّرْنَ شَيْئًا مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَهِنَّ يَكُنَّ أَقْلًا اشْتِغَالًا بِهِ مِنَ اللّاتِي لَا يَعْرِفْنَ أَيْنَ يَثْبُتْنَ ، وَتَقْتَضِي الرِّغْبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي الحُلِيِّ قَلِيلَ تَبَرُّجٍ ، وَمِنْ النّادِرِ أَنْ يَتَبَرَّجَ الْأَوَانِسُ تَبَرُّجًا بَهِيًا ، فَهِنَّ يَقْتُلْنَ نَهَارَهُنَّ بِالشُّغْلِ والدُّرُوسِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ إِذَا عَدَوْتَ الحُمْرَةَ وَجَدْتَهُنَّ كَالسَيِّدَاتِ عَنَاءَةً بِاللِّبَاسِ وَأَحْسَنَ مِنْهُنَّ ذُوقًا فِيهِ غَالِبًا ، وَلَيْسَ سِوَهُ اسْتِعْمَالِ الزَّيْنَةِ كَمَا يُفَكِّرُ فِيهِ ، فَهُوَ يَنْشَأُ عَنِ السَّأَمِ أَكْثَرَ مِمَّا عَنِ الزَّهْوِ ، وَلَا تَجْهَلُ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَقْضِي سِتًّا سَاعَاتٍ فِي زَيْنَتِهَا أَنَّهَا تَفْرُغُ مِنْهَا بِحَالٍ أَحْسَنَ مِنْ حَالِ الَّتِي تَقْضِي فِيهَا نِصْفَ سَاعَةٍ فَقَطْ ، وَلَكِنْ هَذَا يَنْطَوِي عَلَى تَخَلُّصٍ مِنَ الْوَقْتِ الطَّوِيلِ الْقَاتِلِ ، فَالْأَوَّلَى لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَلَهَّى مِنْ

(١) يزرى النساء ، اللاتي يكن من بياض الجلد ما يستغنين معه عن المخمرات ، بغيرهن إذا لم يلبسها ، ويكاد يكون النساء الشوه وحدهن من يأتين بالموضات التي يخضع لها الحسان عن غباوة .

أن يَتَبَرَّمَ بكلِّ شيء ، وما يُصْنَعُ بالحياة فيما بين الظُّهر والساعة التاسعة لولا الزينة ؟ وإذا ما جَمَعَت نساء حَوْلَهَا تَلَمَّتْ بِإِفْرَاقِ صِبْرهن ، وهذا شيء يُذَكِّرُ ، وهى بهذا تَجْتَنِبُ مواجهةَ زوجها الذى لا تراه فى غير ذلك الوقت ، وهذا أكبرُ من ذلك كثيراً ، ثم يأتى التجار وباعةُ الثَّخَفِ وصِغارُ السادة وصِغارُ المؤلِّفين والأشعار والأغاني والرسائل ، ولولا التَّبَرُّجُ ما جُمِعَ جميعُ هؤلاء مطلقاً ، وتقوم فائدةُ هذا الوحيدةُ الحقيقيةُ على كونه ذريعةً للباهة بأكثر مما بالادِّثار ، ومن المحتمل ألا تكون هذه الفائدةُ كبيرةً كما يُظَنُّ ، ولا يَكْسِبُ النساءُ من ذلك بمقدار ما يَظُنُّنَّ ، وأنعموا بتربية المرأة على النساء بلا وسواسٍ ، واجعلوا منهن مُحَبَّاتٍ لجنسهن ذواتِ حياة عارفاتٍ بالسَّهَرِ على تدبيرِ منازلهن والعناية ببيوتهن ، فهذا يتوارى التَّبَرُّجُ الأكبر من تلقاء نفسه ، ولا يَلْبَسُنَّ عن غيرِ أفضلِ ذوق .

وأولُ شيء يراه الفَتَيَاتُ إذا ما كَبُرْنَ هو أن جميعَ هذه المَلَاحاتِ الخارجِية لا تكونُ كافيةً لهن ما لم يكنَّ حائزاتٍ لطائفَ ذاتيةٍ ، أَجَلٌ ، لا يُمكنُ انتحالُ الجمالِ مطلقاً ، ولا يَسْتَطِيعُنَّ نَيْلَ الدَّلَالِ عاجلاً ، غيرَ أنهنَّ قادراتٌ أن يُحَاوِلْنَ ، منذ البُداءِ ، منحَ حركاتهن حالاً مقبولاً ، ومنحَ أصواتهن نبرةً مُدَارِيَةً وإنشاءهن طَوَراً لأنفسهن ، وسيرهن مع خفةٍ ، واتخاذهن أوضاعاً لطيفةً ، واختيارهن نافعاً لهن فى كلِّ مكانٍ ، ويمتدُّ الصوتُ ويتقوَّى ويَكُونُ ذا رنينٍ ، وتَنَمُّو الذُّرْعَانِ ، وَيَثْبُتُ الحَطْوُ ، وَيُبْصَرُ وجودُ فَنٍّ يُوجِّهُ الأَنْظَارَ إلى الشخصِ مهما كان زِيَّ الرِّداءِ الذى يُرْتَدَّى ، وهناك يعودُ الأمرُ غيرَ مُتَوَقِّفٍ على الإبرة والصَّنَاعَةِ ،

فقد أخذت تَبْدُو مواهبُ جديدةٌ كان قد شُعِرَ بفائدتها .

أُعرِفُ أن المعلمين الأشداء يريدون ألا يُعَلِّمَ الفَتَيَاتُ غِنَاءً ولا رَقْصاً ولا فنّاً من الفنون اللطيفة ، وَيَلُوحَ لى هذا مُضْحِكاً ، ومن يَوَدُّون أن يتعلمها إِذْنُ ؟ أَيْتَعَلَّمُ البنون ؟ وَمَنْ مِنَ الرجال أو النساء ينال هذه المواهب تفضيلاً ؟ يُجِيبُونَ عن هذا بقولهم : لا أحد من هؤلاء ولا من أولئك ، فالأغاني الدنيوية من الجرائم والرقص من صُنْعِ الشيطان ، ولا يجوز أن تَتَلَهَّى البنتُ بغير عملها وصلاتها ، وهذه هي الأَلْهُوَاتُ الغريبة لولدٍ في العاشرة من سِنِيهِ ! وأما أنا فأخشى كثيراً ألا يَقْضَى هؤلاء القَدِيسَاتُ الصغيرات ، اللاتي مُحِبَّاتٌ على قضاء صِبَاهِنَ في الصلاة إلى الرَّبِّ ، شبابهن في أمرٍ آخر ، وألا يَقُوْضَ أنفسهن أزواجهن من الوقت الذي أضعفنه بناتٍ ، وأرى من الواجب أن يُراعَى ما يناسبُ السَّنَّ كما يُراعَى ما يناسبُ الجنسَ ، وأنه لا ينبغي أن يَقْضَى البنتُ حياةَ كَحْيَةٍ جَدِّتِهَا ، وأنه يجب أن تكون نشيطةً مازحةً لَعُوباً فَتَقْضَى وترْقُصَ ما راقها الغِنَاءُ والرقصُ وتَذُوقَ جميعَ ملاذِّ جنسها الطاهرة ، فليسرعانَ ما يَحِينُ زمنُ الرِّزَانَةِ واتخاذِ وضعٍ يكون أكثرَ رِصَانَةً .

ولكن هل ضرورةُ هذا التحوُّلِ حقيقةٌ بذاتها ؟ أليس من الممكن ألا تكون ثمرةُ مُبَسَّرَاتِنَا ؟ لقد أَقْضَى عن الزواج كلُّ ما يَجْعَلُهُ مستحيّاً لدى الرجال نظراً إلى تعبيد النساء الصالحات لكُتَيْبِ الواجبات ، وهل يَجِبُ أن يُعْجَبَ من كَوْنِ الصمتِ القاتم الذي يَسُودُ منازلهم يَطْرُدُهُم منها ، أو من كَوْنِهِمْ يُفْتَنُّونَ قليلاً بانتحال حالٍ مُسْتَكْرَهَةٍ كثيراً ؟ إن النصرانية

بمجاورتها الحدّ في جميع الواجبات تجعل هذه الواجبات فارغة غير عملية ، وإن النصرانية بحظرها الفناء والرقص وجميع ألّهوات العالم على النساء تجعل النساء عابساتٍ مُعزّراتٍ لا يُطَقَنَ في بيوتهن ، ولا تجدُ ديناً يُجعلُ الزواجُ فيه خاضعاً لواجباتٍ شديدةٍ جداً كهذا الدين ، ولا تجدُ ديناً يُستَخَفُّ فيه بمثل هذا المقد المقدس كما يُستَخَفُّ به في هذا الدين ، وقد صُنِعَ ما يَمْنَعُ النساءَ من أن يكنَّ أنيساتٍ بمقدار ما صُنِعَ لجعلِ الأزواجِ أخلياءٍ غيرِ مكترئين ، ولا يَذْبَغِي أن يَقَعَ هذا ، وهذا ما أذكره جيداً ، ولكنني أقول إنه لا بدّ من وقوع هذا مادام النصارى من الناس نتيجةً ، وإنما أريدُ أن تتعمّدَ الإنكليزيةُ بعنايةٍ فائقةٍ ما يَطِيبُ من المواهب لترُوقَ الزوجَ الذى سيكونُ لها كما تتعهدها الألبانيةُ من أجلِ دائرةِ الحريمِ في أصبّهان ، ويقال إن الأزواج لا يُبالون بجميع هذه المواهب ، وهذا ما أذهبُ إليه حقاً ، وذلك أن هذه المواهبَ بعيدةٌ من الوقوعِ عندهم موقعَ الرضا فلا تَنفَعُ أن تكون غيرَ طعمٍ لاجتذابِ شَبَّانٍ خالعى العذار إلى منازلهم التى يَشِينُونَهَا ، ولكنْ أترَوْنَ أن المرأةَ اللطيفةَ الحكيمةَ المُزَيَّنَةَ بمثل هذه المواهب ، والواقفةَ لهذه المواهب على تسليّةِ زوجها ، لا تزيدُ في سعادةِ حياته ، وأنها لا تَمْنَعُهُ ، إذا ما خَرَجَ من مكتبته منهوكَ الرأسِ ، من البحثِ عن التسليّةِ خارجَ منزله ؟ ألم يَرَ أحدٌ أُسرّاً سعيدةً مجتمعةً على هذا الوجهِ قِيَعَرَفُ كُلِّ واحدٍ أن يساعدَ من قبله على الألّهوات المشتركة ؟ وليَقُلْ هل الثقةُ والدّالةُ الللازمتان لذلك ، وهل نقاوةُ المَلَادِّ وعذوبتها اللتان تُذَاقان هنالك ، أمورٌ لا تُغْنِي عما يلازم المَلَادِّ العامة من صَخَبٍ بالغٍ ؟

وقد أُمِّنَ في ردِّ المواهب المستحبة إلى فنونٍ ، وقد أُمِّنَ في تميمها ،
وقد جُعِلَ كلُّ شيءٍ مبادئ وقواعد ، وقد أُورِثَ الشبابُ سَأْمًا شديدًا
في كلِّ ما لا ينبغي أن يكون له غيرُ كهوٍ وألعابٍ مَرَحَةٍ ، ولا أتصورُ
أمرًا أدعى إلى السُّخْرية من مشاهدة معلمٍ للرقصِ أو الغناء شائبٍ يقابل
عابسًا شابًا لا يَطْلُبُ غيرَ الضحكِ وَيَتَّخِذُ لتعليمه علمه الطائشَ لهجةً
أكثرَ حَذَقَةً وأعظمَ تحكُّمًا مما يَتَّخِذُ لو كان يُعَلِّمُهُم أصولَ دينهم ،
وهل فنُّ الغناء ، مثلاً ، تابعٌ للموسيقا المسطورة ؟ أو لا يُمكنُ جعلُ
الصوتِ لَيِّنًا مستقيمًا وتعلُّمُ الغناء بالدوق ، حتى بالمصاحبة ، من غير أن
تُعرَفَ نُوتةٌ* واحدة ؟ وهل يلائمُ نوعُ الغناء الواحد جميعَ الأصوات ؟
وهل يناسبُ عينُ المنهاجِ جميعَ النفوس ؟ ولن أُخَمِّلَ على القول بأن
عينَ الأوضاعِ وعينَ الخطوات وعينَ الحركات وعينَ الإشارات وعينَ
الرقصات التي تُوافِقُ صغيرةً سمراءَ نشيطةً جَذَابَةً تُوافِقُ شقراءَ طويلةً
حسناء ذاتَ عَينين ذابلتين ، ولذا فإذا ما رأيتُ معلمًا يُلقِي على الالنتين
ذاتَ الدروس تمامًا قلتُ : « إن هذا الرجل يَتَّبِعُ رُتِينَهُ ، ولكنه
لا يَفْقَهُ شيئًا من فنّه » .

ويُسألُ : هل يجب أن يكون للبنات معلِّمون أو معلَّات ؟ لا أدري ،
وإنما أريدُ ألاَّ يَحْتَجْنَ إلى هؤلاء أو أولئك ، وإنما أريدُ أن يتعلَّمنَ
بحريّةٍ ما يَمِلْنَ كثيرًا إلى تعلُّمِهِ ، وإنما أريدُ ألاَّ يُرَى طوافُ كثيرٍ
من المُهرِّجين المُتَبَرِّجين في مُدُننا طَوَافًا غيرَ منقطع ، ويَضْمَبُ على أن

أعتقد أن ضرر معاشرته هؤلاء الناس على الفتيات لا يكون أعظم من نفع دروسهم لهن ، وأن رطابتهن ولهجتهم ومظاهرهم لا تمنح طالباتهن أول ذوق للترهات المهمة ليهن كثيرا فلا يلبثن أن يسرن على مثلهن جاعلات منها شغلن الوحيد .

وفي الفنون التي لا تهدف إلى غير اللهو يصلح كل أن يكون معلما لهن ، ومن ذلك أبوهن وأمهن وأخوهن وأختهن وصديقاتهن ومرضاتهن ، ولا سيما ذوقهن الخاص ، ولا يجوز ، مطلقا ، أن يعرض إلقاء دروس عليهن ، فالواجب يقضى بأن يكنّ اللائي يطلبن ذلك ، ولا يجوز ، مطلقا ، أن يؤتى عمل يمدد مكافأة ، ففي هذه الأنواع من الدروس على الخصوص يكون النجاح الأول في إرادة النجاح ، ومع ذلك فإنه إذا كان لا بد من الدروس المنتظمة فإني لا أقرر ، مطلقا ، أي الجنسين يجب أن يُعطىها ، ولا أدري هل يجوز أن يأخذ معلم للرقص طالبة فتاة من يدها الناعمة البيضاء وأن يحملها على تسمير تنويرتها* ورفع عينيها وبسط ذراعيها وإبراز صدرها المختلج ، وإنما أعلم أنه لا يوجد في العالم من يستطيع إغوائى بأن أكون ذاك المعلم .

ويتكئون الذوق بالحذق والتمناقب ، وبالذوق يتفتق ذهن تفتقا غير محسوس لمبادئ الجمال من كل نوع ، ثم لمبادئ الأخلاق التي ترجع إليها ، وقد يكون هذا من الأسباب في كون حس اللطف والحياء ينساب إلى البنات أبكر مما إلى البنين ، وذلك لأن الذهاب إلى أن هذا الحس

الباكر من عمل المربيّات ينطوى على جهلٍ بأسلوب دروسهن وبسيرة
الذهن البشرى ، وتحتل موهبة الكلام مكان الصدارة فى فنّ الرّوقان ،
وبهذه الموهبة وحدها يمكن أن يضاف فتونٌ جديد إلى مَنْ تُكلّ
العادة حوائهم ، ولا يُنعشُ الذهنُ البدنَ فقط ، بل يُجدّده من بعض
الوجوه ، وهو يُحيي المَحْيَا ويُحوّله ، وهو بالكلام الذى يُوحى به يجعلُ
الانتباه المُستَكْدَّ سَنَدًا لِعَيْنِ المصلحةِ حَوْلَ عَيْنِ الغايةِ لِمَنْ طویل ،
ولجميع هذه الأسباب ، على ما أعتقد ، ينال البنات بسرعةٍ شيئًا من الهذر
المستعذب ، ويضعن نبراتٍ فى أحاديثهن ، حتى قبل أن يشعرن بها
وقبل أن يلهو الناس بالاستماع لها بعد قليل ، حتى قبل أن يستطعن
إدراكها ، والناس يرقبن الساعة الأولى لهذا الإدراك نفوذًا إلى أول
شعورٍ على هذا الوجه .

ولسانُ النساءِ لَيِّنٌ ، فمن أبكر نُطقًا من الرجال وأسهلُ كلامًا
وألطفُ قولًا ، وهنَّ يُتَهَمَنَ ، أيضًا ، بأنهنَّ أكثرُ منهم حديثًا ،
وهذا ما يجب أن يكون ، وسأحوّل هذا اللومَ إلى ثناء أيضًا ، وذلك أن
للفم والعينين عندهنّ نفسَ الفعل وذاتَ السبب ، والرجلُ يقول ما يعلمُ ،
والمرأة تقول ما يروقُ ، والرجلُ يحتاج إلى معرفةٍ ليتكلم ، والمرأة تحتاج
إلى ذوقٍ لتتكلم ، والرجلُ يجب أن تكون لديه أمورٌ مفيدة كغرضٍ
رئيس ، والمرأة يجب أن تكون لديها أمورٌ لطيفة كغرضٍ رئيس ، ولا
يجب أن يكون بين كلامهما من أوجه الشبه غيرُ الصّدق .

ولذا لا يجبُ أن يلجَمَ هذرُ البناتِ ، كما يلجَمُ هذرُ البنين ، بهذا

السؤال الشديد ، وهو : « ما فائدة هذا ؟ » ، بهذا السؤال الآخر الذى لا يسهل الجواب عنه ، وهو : « ما الأثر الذى سيؤدى إليه هذا ؟ » ، وفى ذاك الدور الأول من العمر ، حين يعجزون عن تمييز الخير من الشر ، لا يمكن قاضيات أحد ، فيجب أن يلزم من أنفسهن بدستور قاض بالآ لا يقلن غير ما يكون مستحبا عند من يخاطبن ، والذى يجعل استعمال هذه القاعدة أكثر صعوبة هو بقاؤها تابعة للأولى دائما ، أى عدم الكذب مطلقا .

وهناك أجد مصاعب كثيرة أخرى أيضا ، غير أنها خاصة بدور من العمر أكثر تقدما ، وأما الآن فلا يقتضى كون الفتيات صادقات غير كونهن هكذا بلا غلظة ، وبما أن هذه الغلظة غير ملائمة لهن عن طبيعة فإن من السهل أن تعلمهن التربية اجتنابها ، والأحظ فى معاشرتنا الناس على العموم أن أدب الرجال يكون مسعفا وأدب النساء يكون ملطفا ، وليس هذا الفرق وضعيا ، بل طبيعى ، فالرجل يلوح أنه أكثر محاولة لخدمكم ، والمرأة تلوح أنها أكثر محاولة لتروكم ، ومن ثم يكون أدب النساء أقل زيوفا من أدبنا مهما قيل عن أخلاقهن ، وذلك أن ذاك الأدب لا يوجب غير توسيع غريزتهن الأولى ، ولكن متى تظاهر الرجل بأنه يفضل مصلحتى على مصلحته الخاصة لم يخامرني شك فى أنه أتى أكلوبة مما حاول تمويهها ، ولذا فإن كون النساء ذوات أدب لا يكلفهن شيئا ، كما أنه لا يكلف البنات شيئا ، من حيث النتيجة ، تعلمهن أن يصرن ذوات أدب ، ويأتى الدرس الأول من الطبيعة ، ولا يصنع الفن غير اتباعها وغير تعيين الشكل الذى يبدو به الأدب وفق عاداتنا ، وأما أدب النساء

فما بينهن فأمر آخر تماماً ، فهنَّ يَبْلُغْنَ من جَعَلِهِنَّ له ظاهراً من القَهْرِ وفاتراً من الالتفات ما لا يُعْنِينَ معه بإخفاء ضَيِّقِهِنَّ إِذَا تَضَايَقْنَ مبادلةً ، وهنَّ يَلْحَنَ من الإخلاص حتى في كَذِبِهِنَّ ما لا يَحَاوِلْنَ معه تنكِره ، ومع ذلك فإنَّ الفتيات يأتين من الصَّدَاقَاتِ أحياناً ما يَنْطَوِي على أبلغ صدقٍ ، وَيَقُومُ المَرْحُ في سِنِّهنَّ مقامَ حُسْنِ الوضعِ ، وهنَّ إِذْ كُنَّ راضياتٍ عن أنفسهنَّ فإنَّهنَّ يَكُنَّ راضياتٍ عن جميع الناس ، ومن الثابت أيضاً أنهنَّ يَتَلَاثَمْنَ عن طِيْمَةٍ وَيَتَمَانَقْنَ بأعظم لطفٍ أمام الرجال مُخْتَلَاتٍ بِشَحْذِهِنَّ الحِرْصَ بلا عِقَابٍ ، وذلك بصورة الألفاظ التي يَعْرِفْنَ إثارةَ غَيْرَتِهِمْ نحوها .

وإذا كان من غير الجائز أن يُسَمَّحَ للبنين بأن يُورِدُوا أسئلةً مخالفةً للرِّصانة فإن من الأجدر أن تُحْظَرَ على الفتيات اللاتي يكون لفضولهنَّ عند قضائه وسوء إقصائه نتيجةٌ أخرى ، وذلك نظراً إلى بَصَرِهِنَّ الثاقب في تَبَيُّنِ ما يُكْتَمُ عنهنَّ من أسرارٍ وحِذْقِهِنَّ في كَشْفِ هذه الأسرار ، ولكنني ، من غير إباحةٍ لأُسْئَلَتِهِنَّ أريد أن يُكْتَرَّ من وَضْعِ أسئلةٍ لهنَّ ، فَيُعْنَى بِحَمَلِهِنَّ على الكلام ، ويُثَرَّنَ تدريباً لهنَّ على الكلام بسهولةٍ وجعلاً لهنَّ سريعاتٍ في الجواب وحلاً لَعُقْدَةِ ذِهْنِهِنَّ ولسانِهِنَّ ، ولكن بشرط السَّلامة ، وتُسْفَرُ هذه الأحاديثُ الحَوْلَةُ إلى مَرَحٍ دائماً ، ولكن مع مداراةٍ بمهارةٍ وحُسْنِ توجيهٍ ، عن لَهْوٍ فائقٍ في تلك السنِّ ، فَيُمْكِنُ أن تَحْمِلَ في أفئدةٍ هؤلاء الفتيات البريئة أولَ ما يَتَلَقَّيْنَ في حياتهنَّ من دروسٍ في الأخلاق وأنفع ما يُمَكِّنُ من هذه الدروس ، وذلك بتعليمهنَّ ، عن جَذْبٍ من اللذةِ والزهو ، أيُّ الصفاتِ يَمْنَحُ الرجالُ تقديرَهم بالحقيقة ، وأيُّ

الأمر يقوم عليها مجدُ المرأة الصالحة وسعادتها .

ومما يذكرك جيداً أن الذكور من الأولاد إذا كانوا عاجزين عن تكوين فكرة حقيقية حول الدين فمن الأخرى أن تكون عينُ الفكرة فوق متناول البنات ، ولذات العلة أريدُ أن أُسرع في مخاطبة هؤلاء عن الدين ، وذلك لأنه إذا ما رُئي انتظارُ بلوغهن الحالَ التي يناقِشنَ فيها نقاشاً أصولياً حول هذه المسائل العميقة وَقَعَ خَطَرُ عدم مكالمتهنَّ بعد ذلك في أمر الدين مطلقاً ، ويُعدُّ عقلُ النساء عقلاً عملياً يَجِدْنَ به ، مع المهارة ، وسائل الوصول إلى الغرض المطلوب ، ولكن مع عدم انتهائهن به إلى كشف هذا الغرض ، وتعدُّ صلةُ الجنسِين الاجتماعيةُ أمراً عجيباً ، وينشأ عن هذه الشركة شخصٌ معنويٌّ تَكُونُ المرأةُ عينه ويَكُونُ الرجلُ ذراعَه ، ولكن المرأة ، باتِّباع كلِّ من الجنسِين للآخر ، تتعلَّمُ من الرجل ما يَجِبُ أن تَرى ، كما يتعلم الرجلُ من المرأة ما يَجِبُ أن يَعْمَل ، وإذا كانت المرأةُ تستطيع ، كما يستطيع الرجلُ ، أن تَطْلِعَ على المبادئ ، وإذا كان الرجلُ يستطيع ، كما تستطيع ، أن يَنْفُذَ في الجزئيات ، فإنهما يعيشان في شقاق دائم ولا تستطيع شركتهما أن تَبْقَى ، ولكن كلاً منهما يَهْدِفُ إلى الغرض المشترك بفعل ما يكون بينهما من انسجام ، ولا يُعرَفُ أيُّ منهما يكون أكثرَ تقديمًا من الآخر ، فكلُّ منهما يَتَّبِعُ دافعَ الآخر ، وكلُّ منهما يُطِيعُ ، وكلاهما سيدٌ .

وبما أن المرأة خاضعةٌ في سلوكها للرأى العامِّ فإنها خاضعةٌ في مُعْتَقَدِهَا للسلطان ، ويجب أن تَكُونُ كلُّ بنتٍ على دينِ أمِّها ، ويجب أن

تكون كلُّ امرأةٍ على دين زوجها ، وإذا كان هذا الدين على خطأ فإن الطاعة التي تخضعُ بها الأمُّ والأسرةُ لأمر الطبيعة تتمحو ذنبُ الخطأ لدى الربِّ ، وإذا يعجزُ البناتُ عن القضاء في أمر أنفسهن فإنه يجب عليهن أن يتلقين حكم الآباء والأزواج كما يتلقين حكم الكنيسة .

وبما أن النساء لا يستطعن أن يستنيطن بأفسهن قاعدة إيمانهن فإنهن لا يستطعن أن يمنحنه حدود اليقين والعقل ، ولكن بما أنهن يدعن أنفسهن تساق بألف دافعٍ أجنبيٍّ فإنهن يكنَّ من ناحية الحقِّ هذه أو تلك على الدوام ، وبما أنهن متطرِّفاتٌ دائماً فإنهن يكن فاسقاتٍ أو قتياتٍ ، ولا يُرينَ جامعاتٍ بين الحكمة والورع مطلقاً ، ولا يكون منبعُ السوء في طبع جنسهن المفرط فقط ، بل ، أيضاً ، في سلطان طبعنا السيئ التنظيم أيضاً ، ومن شأن فسقِ الطبائع أن يزدرى الدين ، ومن شأن رُعبِ التوبة أن يكون الدين طاغياً ، وهكذا ترى كيف يكون الإفراط والتفريط فيه .

وبما أن على السلطان أن يُعينَ دينَ النساء فإن المهمَّ هو في عرض ما يُعتقدُ عليهن بجلاء أكثر مما في شرح ما يُعتقدن ، وذلك لأن ما تُحِبُّ به الأفكارُ النامضة من إيمانٍ هو أولُ مصدرٍ للتعصب ، ولأن الإيمان الذي يُطلبُ من أجلِ أمورٍ مستحيلةٍ يؤدِّي إلى الجنون أو الكفر ، ولا أدري أيُّ الأمرين أكثر ما تؤدى إليه كتب أصول الدين عندنا : الإلحاد أو التعصب ، وإنما أعرفُ أنها تُفسِّرُ عن هذا أو ذاك بحكم الضرورة .

وأولُ ما يجب عليكم في تعليم الفتياتِ الدينَ ألاَّ تجعلوا منه موضعَ

غَمٍّ وَضَيْقٍ مُطْلَقًا ، وَأَلَّا تَجْعَلُوا مِنْهُ شُغْلًا وَلَا وَاجِبًا مُطْلَقًا ، وَمَنْ نَحْمَ لَا تُعَلِّمُوهُمْ عَلَى ظَهْرِ الْقَلْبِ شَيْئًا خَاصًّا بِهِ ، حَتَّى الصَّلَاةِ ، وَاكْتَفُوا بِالْقِيَامِ بِصَلَوَاتِكُمْ أَمَامَهُنَّ قِيَامًا مُنْتَظَمًا ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ عَلَى حُضُورِهَا ، وَاجْعَلُوا صَلَوَاتِكُمْ قَصِيرَةً كَمَا عَلَّمَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ ، وَقَوْمُوا بِهَا مَعَ مَا يَنْسَبُهَا مِنْ بَجْعِ الْحَوَاسِّ وَالْإِجْلَالِ ، وَاذْكُرُوا أَنَّنَا عِنْدَ مَا نَسْأَلُ الْكَائِنَ الْأَعْلَى أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى مَا نَقُولُ يَجْدُرُ أَنْ نُنْعِمَ النَّظَرَ فِيهَا نَقْصِدُ أَنْ نَقُولَ .

وَمَعْرِفَةُ الْفَتَيَاتِ لِدِينِهِنَّ مِنْ فَوْرِهِنَّ أَقْلُ أَهْمِيَّةٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ جَيِّدًا ، وَمَنْ تَحَبَّبَتْهُ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَإِذَا مَا جَمَلْتُمْ الدِّينَ عِبْنًا عَلَيْهِنَّ ، وَإِذَا مَا وَصَفْتُمُ الرَّبَّ بِأَنَّهُ سَاخِطٌ عَلَيْهِنَّ ، وَإِذَا مَا قَرَضْتُمْ أَلْفَ وَاجِبٍ شَاقٍّ بِاسْمِهِ عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَيْنَ قِيَامَكُمْ بِهَذِهِ الْوَاجِبَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، فَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَفْكِيرُهُنَّ غَيْرَ مَعْرِفَتِهِنَّ أَنَّ كِتَابَ أَصُولِهِ وَالصَّلَاةَ لِلرَّبِّ مِنْ وَاجِبَاتِ صُغَرِيَّاتِ الْبَنَاتِ مَعَ رَجَائِهِنَّ أَنْ يَكْبُرْنَ حَتَّى يُفَقِينَ مِثْلَكُمْ مِنْ جَمِيعِ هَذَا الْعَنَاءِ ؟ فَالْقُدُوءَةُ ! الْقُدُوءَةُ ! وَبَغَيْرِ الْقُدُوءَةِ لَا يُكْتَبُ نَجَاحٌ لَشَيْءٍ لَدَى الْأَوْلَادِ .

وَمَتَى شَرَحْتُمْ لِهِنَّ قَوَاعِدَ الدِّينِ فَاجْعَلُوا هَذَا فِي شَكْلِ تَعْلِيمٍ مُبَاشِرٍ ، لَا عَلَى شَكْلِ أَسْئَلَةٍ وَأَجُوبَةٍ ، وَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِنَّ ، مُطْلَقًا ، أَنْ يَقُومَ جَوَابُهُنَّ عَلَى غَيْرِ مَا يُفَكَّرْنَ فِيهِ ، لَا عَلَى مَا أُمِّلِي عَلَيْهِنَّ ، وَجَمِيعُ أَجُوبَةِ كِتَابِ قَوَاعِدِ الدِّينِ عَلَى طَرِيقِ مَعَاكِسٍ ، فَالطَّالِبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُ الْمَعْلَمَ ، حَتَّى إِنْ هَذِهِ الْأَجُوبَةُ أَكَاذِيبُ فِي قَمَرِ الْأَوْلَادِ مَا دَامُوا

يُوضِحُونَ مَا لَا يَمَقِلُونَ مطلقاً ، وما داموا يُوَكِّدُونَ مَا يَعْجِزُونَ عَنْ اعتقاده ، وبين أذكي الرجال دُلُّونِي عَلَى مَا لَا يَكْذِبُونَ حِينَ تِلَاوَةِ كِتَابِ دِينِهِمْ .

وَأَوَّلُ سُؤَالٍ أَرَى فِي كِتَابِ دِينِنَا هُوَ : « مِنْ خَلْقِكُمْ وَجَعَلَكُمْ فِي الْعَالَمِ ؟ » ، فَمَنْ هَذَا السُّؤَالُ تَجِيبُ الْبِنْتُ بِمَا تَرَدُّدٍ بِقَوْلِهَا : « إِنَّهُ الرَّبُّ » مع اعتقادها أَنَّهُ أَثْمًا ، وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَرَى هُنَاكَ هُوَ أَنَّهَا أَتَتْ عَنْ سُؤَالٍ لَا تُذَكِّرُهُ مطلقاً بِجَوَابٍ لَا تُذَكِّرُهُ مطلقاً .

وَأَوْدُ لَوْ يَعْرِفُ رَجُلٌ سَيْرَ ذَهْنِ الْأَوْلَادِ فَيَضَعُ لَهُمْ كِتَابًا عَنْ أَصُولِ الدِّينِ ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْكِتَابُ أَنْفَعُ مَا كُتِبَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا يَقِلُّ عَنْ هَذَا مَا يَحْبُو هَذَا الْكِتَابُ مُؤَلَّفَهُ مِنْ فَخْرٍ ، وَمَا لَا مِرَاءَ فِيهِ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ إِذَا مَا ظَهَرَ صَالِحًا لَمْ يَشَابِهْ كُتُبَنَا الدِّينِيَّةَ مطلقاً .

وَكِتَابٌ فِي الدِّينِ كَهَذَا لَنْ يَكُونَ صَالِحًا إِلَّا إِذَا أُسْفَرَ عَنْ إِتْيَانِ الْوَلَدِ عِنْدَ مَا يُسْأَلُ أَجْوَبَةً مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ وَمِنْ غَيْرِ سَابِقٍ تَعَلَّمَ ، وَهَذَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْوَلَدَ يَكُونُ ، أحيانًا ، فِي وَضْعٍ يَسْأَلُ مَعَهُ عَنْ أَشْيَاءَ بِدَوْرِهِ ، وَإِنِّي ، لَكِي أَنْحِلَ عَلَى إِدْرَاكِ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ ، أَضْطَرُّ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ النَّمَاذِجِ ، وَأَشْعُرُ بِمَا يُؤَوِّزُنِي لِزَمَنِ هَذَا النَّمُودِجِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي سَأَحَاوِلُ إِعْطَاءَ فِكْرَةٍ طَفِيفَةٍ عَنْ ذَلِكَ .

وَلِذَا فَإِنِّي أَتَمَثَّلُ ، لِتَنَاوُلِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ مِنْ كِتَابِنَا الدِّينِيِّ ، بَدْءَ ذَلِكَ كَمَا يَأْتِي تَقْرِيْبًا :

الْمُرَبِّيَّةُ : أَتَذْكُرِينَ الزَّمْنَ الَّذِي كَانَتْ أُمُّكَ ابْنَةً فِيهِ ؟

الصغيرة : كَلَّا يَا مُرَبِّيَّتِي .

المرية : وَلِمَ كَلَّا ، مع أنك ذاتُ ذاكرةٍ جيدة ؟

الصغيرة : ذلك لأنني لم أَكُنْ في الدنيا .

المرية : إِذَنْ ، لم تَكُونِي حَيَّةً دائماً ؟

الصغيرة : كَلَّا .

المرية : أَتَعِيشِينَ إِلَى الأَبَدِ ؟

الصغيرة : نَعَمْ .

المرية : هل أنتِ بُنْيَّةٌ أو شائبة ؟

الصغيرة : أَنَا بُنْيَّةٌ .

المرية : وهل جَدُّتُكَ بُنْيَّةٌ أو شائبة ؟

الصغيرة : شائبة .

المرية : وهل كانتِ بُنْيَّةٌ ؟

الصغيرة : أَجَلٌ .

المرية : وَلِمَ عَادَتْ لَا تَكُونِ بُنْيَّةً ؟

الصغيرة : ذلك لأنها شَابَتْ .

المرية : وهل تَشَبَّهَتْ بِمِثْلِهَا ؟

الصغيرة : لَا أَعْلَمُ^(١) .

المرية : وَأَيْنَ ثِيَابُكَ فِي العامِ المَاضِي ؟

(١) إذا ما وضعت في كل محل كلمة « لا أعلم » كان جواب الصغيرة على وجه آخر ، فيجب الاحتراز من جوابها وجعلها توضحه بمناية .

- الصغيرة : لقد فُتِّتْ .
 المريية : ولِمَ فُتِّتْ ؟
 الصغيرة : ذلك لأنها ضاقت على كثيرًا .
 المريية : ولِمَ ضاقت عليك ؟
 الصغيرة : لأنني كَبُرْتُ .
 المريية : وهل تَكْبُرِينَ أكثر مما أنتِ عليه ؟
 الصغيرة : وئى ! أَعَمْ .
 المريية : وما يصير كُبُرَيَاتُ البنات ؟
 الصغيرة : يَصِرْنَ نساءً .
 المريية : وما يصير النساء ؟
 الصغيرة : يَصِرْنَ أمهاتٍ .
 المريية : وما يَصِيرُ الأمهاتُ ؟
 الصغيرة : يَصِرْنَ شائباتٍ .
 المريية : ستصيرين شائبةً إِذَنْ ؟
 الصغيرة : متى صِرْتُ أُمًّا .
 المريية : وما يصير الشائبات ؟
 الصغيرة : لا أَعْلَمُ .
 المريية : وماذا صار جَدُّكَ ؟
 الصغيرة : مات ^(١) .

(١) ستقول الصغيرة هذا لأنها سمته، ولكنه يجب أن يحقق هل توجد لديها فكرة صحيحة عن =

المريية : وَلِمَ مَاتَ ؟

الصغيرة : لِأَنَّهُ كَانَ شَائِبًا .

المريية : وَمَا يَصِيرُ الشَّائِبَاتُ إِذْنَ ؟

الصغيرة : يَمُتْنَ .

المريية : وَأَنْتِ مَتَى صِرْتِ شَائِبَةً ...

الصغيرة مقطعةً : وَئِى ! لَا أُرِيدُ أَنْ أَمُوتَ يَا مُرَبِّتِي .

المريية : أَيْ ابْنَتِي ، لَا يُرِيدُ أَحَدٌ أَنْ يَمُوتَ ، وَجَمِيعُ النَّاسِ

يَمُوتُونَ .

الصغيرة : كَيْفَ ! وَهَلْ تَمُوتُ وَالِدَتِي أَيْضًا !

المريية : كَجَمِيعِ النَّاسِ ، فَالنِّسَاءُ يَشْبَنَ كَالرِّجَالِ ، وَيُودَى الشَّيْبُ

إِلَى الْمَوْتِ .

الصغيرة : وَمَا يُفَعَّلُ لِتَأْخِيرِ دَوْرِ الشَّيْبِ ؟

المريية : الْحَيَاةُ بِحِكْمَةٍ فِي دَوْرِ الصَّبَا .

الصغيرة : سَأَكُونُ حَكِيمَةً يَا مَرِيَّتِي .

المريية : هَنِيئًا لَكَ ، وَلَكِنْ أَتَعْتَقِدِينَ أَنَّكَ تَعِيشِينَ إِلَى الْأَبَدِ ؟

الصغيرة : مَتَى شَبْتُ كَثِيرًا ، مَتَى شَبْتُ كَثِيرًا ...

المريية : حَسَنًا .

الصغيرة : وَالْخُلَاصَةُ أَنَّكَ تَقُولِينَ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْمَوْتِ عِنْدَ الشَّيْبِ .

= الموت ، وذلك لأن هذه الفكرة ليست من البساطة ومن متناول الأولاد بالمقدار الذى يظن ، ومن الممكن أن يرى فى قصيدة أبيل الصغيرة مثال عن الوجه الذى يملكون به أمره ، ويوحى هذا الأثر الفاتن ببساطة حلوة يغذى بها فى محادثة الأولاد .

المریبة : سَتَمُوتِينَ ذَاتَ یَوْمٍ إِذَنْ ؟

الصغيرة : یا خَسِرَتْنِی ! أَجَلٌ .

المریبة : ومن عاش قَبْلَكَ ؟

الصغيرة : أبی وأُمی .

المریبة : ومن كان یعیش قبلهما ؟

الصغيرة : أبوها وأُمها .

المریبة : ومن یَعِیشُ بعدك ؟

الصغيرة : أولادی .

المریبة : ومن یعیش بعدهم ؟

الصغيرة : أولادهم ، إلخ .

وإذا ما سَلَكَتْ هذه السبیلُ دَلَّ الاستقراء الواضحُ على أن للجنس البشريَّ بُدْاءَةً ونهايةً كما لجميع الأشياء ، أى أبٌ وأُمٌّ لم یَكُنْ لهما أبٌ ولا أُمٌّ ، وأولادٌ لن یَكُونْ لهم أولادٌ مطلقاً^(١) .

ولیس بغيرِ سلسلةٍ طويلةٍ من مثل هذه الأسئلة ما یَهَيِّئُ معه السؤال الأول من كتاب الدين بما فيه الكفاية ، ولكن ما أوسع الوُثُوبَ من هنالك حتى الجوابِ الثاني الذى يُعرِّف به الكُنْهُ الإلهیُّ كما أقْصِدُ أن أقول ! ومتى تُمَلَأُ هذه الفاصلة ؟ والربُّ روحٌ ! وما الروح ؟ وهل أَرَكْبُ الولدَ هذا المركبَ من إبهامٍ ما بعد الطبيعة الذى يلاقى الرجالُ كثيراً من

(١) لا يمكن تطبيق فكرة الخلود على الأجيال البشرية تطبيقاً موافقاً للعقل ، فكل سلسلة عددية

يقع ردها إلى فعل تكون مناقضة لهذه الفكرة .

المشقة للخروج منه ؟ ولا تطالبُ البنتُ الصغيرةُ بحلِّ هذه المسائل ، ومن الكثير أن تَضَعَهَا ، وهى إذا ما وَضَعَهَا أجبتُ عنها ببساطة : « أنتِ تسألين عن الرَّبِّ ، فليس من السهل قولُ هذا ، فلا يُمكن أن يُسمعَ الرَّبُّ ولا أن يُرى ولا أن يُلمَسَ ، وهو لا يُعرَفُ بغير أعماله ، وانتظري معرفةَ ما صَنَعَ حتى تعرِّفى من هو » .

وإذا كانت جميع عقائدنا من ذات الحقيقة فإن جميعها ليس من ذات الأهمية ، وليس مما يُبَالِي به جلالُ الرَّبِّ أن نعرِّفه فى كلِّ أمرٍ ، ولكن مما يُهمُّ المجتمعَ البشرىَّ وكلَّ عضوٍ من أعضائه أن يَعْرِفَ كلُّ إنسانٍ ما تَفَرِّضُهُ عليه سُنَّةُ الرَّبِّ من الواجبات نحو نفسه وجاره وأن يقوم بهذه الواجبات ، وهذا ما يجب أن يُعَلِّمَهُ كلُّ منا للآخر دائماً ، وهذا ما يُلْزِمُ الآباء والأُمهاتُ بتعليمه لأولادهم ، وسواء أكانت العذراء أُمًّا لخالتها وأنها وَلَدَتِ الرَّبَّ أم إنه إنسانٌ تَسَرَّبَ فيه الرَّبُّ فقط ، وسواء أكان كُنْهُ الأب والابن واحداً أم متشابهاً ، وسواء أصدرت الروح عن أحد الاثنين الذين هما أم عن الاثنين معاً ، لا أرى أن تقرير هذه المسائل ، الجوهرية ظاهراً ، أهمُّ للنوع البشرىَّ من معرفةِ أىِّ من أيام القمر يجب أن يُحْتَفَلُ فيه بعيد الفصح ، ومن وجوب ، أو عدم وجوب ، التسبيح والصوم والانقطاع عن أكل اللحم والدَّهْن واستعمال اللاتينية أو الفرنسية فى الكنيسة وتزيين الجدران بالصور وإقامة القدَّاس وسماعه وعدم الاختصاص بامرأةٍ مطلقاً ، ولْيَفَكِّرْ كلُّ واحدٍ فى ذلك كما يَرُوقه ، وأجْهَلُ ما يُمكن أن يكون للآخرين من مصلحةٍ فى ذلك ، وأما أنا فلا أبالى بذلك مطلقاً ، وإنما الذى أبالى به أنا وجميعُ أمثالى هو

أَنْ يَعْرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ وَجُودَ حَاكِمٍ فِي مَصِيرِ النَّاسِ فَنَعُدُّ كُلُّنَا أَوْلَادًا لَهُ
فَيَأْمُرُنَا بِأَنْ نَكُونَ أَبْرَارًا وَبِأَنْ نَتَحَابَّ ، وَبِأَنْ نَكُونَ رُحَمَاءَ مُحْسِنِينَ ،
وَبِأَنْ نُؤْفَى بِمُحَمَّدٍ نَحْوَ جَمِيعِ الْعَالَمِ ، حَتَّى نَحْوِ أَعْدَائِنَا وَأَعْدَائِهِ ، وَأَنْ
نَعْرِفَ أَنَّ سَعَادَةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الظَّاهِرَةِ لَيْسَتْ شَيْئًا يُذَكَّرُ ، وَأَنَّهُ يَوْجَدُ
بَعْدَهَا حَيَاةٌ أُخْرَى يَكْفِي فِي هَذَا الْكَائِنِ الْأَعْلَى فِيهَا الْأَبْرَارَ وَيُذَيِّنُ
الْأَشْرَارَ ، فَهَذِهِ الْعَقَائِدُ وَمَا مِثْلُهَا هِيَ الَّتِي يُهَيِّمُ تَعْلِيمُهَا لِلشَّيْبَةِ وَإِقْنَاعُ
جَمِيعِ الْمَوَاطِنِينَ بِهَا ، وَلَا رَيْبَ فِي اسْتِحْقَاقِ مَنْ يَنَاهِضُهَا لِلْعِقَابِ ، لِمَا يَكُونُ
بِهَذَا مُحِلًّا بِالنِّظَامِ عَدُوًّا لِلْمَجْتَمَعِ ، وَمَنْ يُجَاوِزُ هَذِهِ الْعَقَائِدَ وَيُرِدُّ إِخْضَاعَنَا
لِآرَائِهِ الْخَاصَةِ بِحِلِّ إِلَى ذَاتِ النِّقْطَةِ مِنْ طَرِيقٍ مَعَ كَسَةٍ ، وَهُوَ يُعَكِّرُ
السَّلَامَ مِنْ حَيْثُ إِقَامَتُهُ النَّظَامَ عَلَى نَمَطِهِ ، وَهُوَ يَنْتَصِبُ تُرْجَمَانًا لِلْأُلُوْهِيَةِ
عَنْ زَهْوٍ مُفَاقِرٍ ، وَهُوَ بِاسْمِهَا يَطَالِبُ النَّاسَ بِضُرُوبِ الطَّاعَةِ وَالْإِجْلَالِ ،
وَهُوَ يَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَهًا مَا اسْتَطَاعَ إِلَى هَذَا سَبِيلًا ، وَهَذَا الْآدَمِيُّ هُوَ
مَنْ يَجِبُ أَنْ يُجَازَى كَمُذْنَسٍ لِلْقُدْسِيَّاتِ إِذَا لَمْ يُعَاقَبْ كَمْتَعَصِبٍ .

وَلِذَا فَاذْبُدُوا جَمِيعَ تِلْكَ الْعَقَائِدِ الْحَافِلَةِ بِالْأَسْرَارِ ، وَالَّتِي نَعُدُّهَا أَلْفَاظًا
بِلَا أَفْكَارٍ ، اذْبُدُوا جَمِيعَ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَقُومُ دِرَاسَتُهَا بِالطَّلَلِ
مَقَامَ الْفَضَائِلِ لَدَى مَنْ يَزَاوِلُهَا وَالَّتِي تَنْفَعُ لَجَعْلِهِمْ مُجَانِينَ أَكْثَرَ مِنْ
جَعْلِهِمْ صَالِحِينَ ، وَأَمْسِكُوا أَوْلَادَكُمْ ، دَائِمًا ، ضِمْنَ دَائِرَةِ وَثِيقَةٍ مِنَ الْعَقَائِدِ
الَّتِي تَتَّصِلُ بِالْأَخْلَاقِ ، وَأَفْنِعُوهُمْ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ تَنْفَعُ مَعْرِفَتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُعَلِّمُنَا
صُنْعَ الْخَيْرِ ، وَلَا تَجْعَلُوا مِنْ بَنَاتِكُمْ ، مُطْلَقًا ، لَاهُوتِيَّاتٍ وَلَا مُبَرِّهِنَاتٍ ،
وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ مِنْ أُمُورِ السَّمَاءِ شَيْئًا غَيْرَ مَا يَنْفَعُ لِلْحِكْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَعَوِّدُوهُنَّ
(٤٥)

الشعور بأنهن تحت عيني الرب دائماً ، وجعل الله شاهداً على أفعالهن وأفكارهن وفضائلهن وملاذهن ، وعمل الخير بلا فخر لأن الله يحب هذا ، واحتمال الأذى بلا تذمر لأن الله سيعوضهن من هذا ، ثم أن يكن في جميع أيام حياتهن ما تقرأ به أعينهن حين الثول بين يديه ، فهذا هو الدين الصحيح ، وهذا هو الدين الوحيد الذي لا مكان فيه لسوء الاستعمال والإلحاد والتعصب ، ودعوا بعضهم يبشرون بدين أنمي منه ما شاءوا ، وأما أنا فلا أعترف بدين غير هذا مطلقاً .

ومع ذلك يحسن أن يلاحظ أنه ، حتى العمر الذي يستنير فيه العقل والذي يحمل الشعور الناشئ فيه ضمير الإنسان على الكلام ، يكون ما هو خير أو شر لدى الفتيات هو ما يُقرّر من محيطهن من الناس أنه هكذا ، فما يؤمرن به هو خير ، وما يُنهين عنه هو شر ، ولا يطالبن بمعرفة ما هو أكثر من هذا ، ومن ثم يرى ما يكون من أهمية ، تكون عندهن أعظم مما عند الصبيان ، في اختيار الأشخاص الذين يجوز أن يعاشروهن وأن يمارسوا سلطاناً عليهن ، ثم يأتي الوقت الذي يبدآن فيه بالحكم في الأمور بأنفسهن ، وهناك محل الزمن الذي يُغيّر فيه منهاج تربيتهم .

ومن المحتمل أن أفضت في الكلام عن ذلك حتى الآن ، وإلام ترد النساء إذا لم نجعل لهن دستوراً غير المبتسرات العامة ؟ ولا تخفض إلى هذه النقطة ذلك الجنس الذي يحكم فينا ، والذي يشرفنا إذا لم نذله ، ويوجد لجميع النوع البشري قاعدة أقدم من الرأي العام ، ويجب أن ترد جميع المناحي الأخرى إلى هذا الوجه الذي لا ينثنى ، ويعد هذا الوجه

حَكَمًا حَتَّى فِي الْمُبْتَسِرِ ، وَلَا يَكُونُ لِتَقْدِيرِ النَّاسِ سُلْطَانٌ عَلَيْنَا إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا يُوَافِقُ هَذَا التَّقْدِيرَ ذَلِكَ الْمَوْجِبُ .

وَالشُّعُورُ الْبَاطِنُ هُوَ تِلْكَ الْقَاعِدَةُ ، وَلَا أُكْرَرُ ، مُطْلَقًا ، مَا قِيلَ عَنْهُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَيَكْفِينِي أَنْ أُلَاحِظَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْقَاعِدَتَيْنِ إِذَا لَمْ تَسَاعِدَا عَلَى تَرْبِيَةِ النِّسَاءِ كَانَتَا هَذِهِ التَّرْبِيَةُ نَاقِصَةً ، فَمَا كَانَ الشُّعُورُ بِغَيْرِ الرَّأْيِ الْعَامِّ لِيُنْعِمَ عَلَيْهِنَ ، مُطْلَقًا ، بِلَطَافَةِ الرُّوحِ الَّتِي تُجَمِّلُ جَمِيلَ الطَّبَاعِ بِإِجْلَالِ النَّاسِ ، وَمَا كَانَ الرَّأْيُ الْعَامُّ بِغَيْرِ الشُّعُورِ لِيُسْفِرَ عَنْ غَيْرِ نِسَاءٍ فَاسَدَاتِ خَبِيثَاتٍ يَضَعْنَ الظَّاهِرَ مَوْضَعَ الْفَضِيلَةِ .

وَلِذَا فَإِنَّ مِنَ الْمَهْمِ عِنْدَهُنَّ تَعَهُدَ مَوْهِبَةٍ تَصْلُحُ حَكَمًا بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ فَلَا تَدْعُ الشُّعُورَ بِضِلٍّ مُطْلَقًا مُقَوِّمَةً أَضَالِيلَ الْمُبْتَسِرَاتِ ، وَهَذِهِ الْمَوْهِبَةُ هِيَ الْعَقْلُ ، وَلَكِنْ مَا أَكْثَرَ الْمَسَائِلَ الَّتِي تُثِيرُهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ! وَهَلْ يَسْتَطِيعُ النِّسَاءُ أَنْ يَأْتِيْنَ بِبُرْهَانٍ مَتِينٍ ؟ وَهَلْ مِنَ الْمَهْمِ أَنْ يَتَعَهُدْنَ ؟ وَهَلْ يَتَعَهُدْنَ بِتَوْفِيقٍ ؟ وَهَلْ هَذَا التَّعَهُدُ نَافِعٌ لِلْوُضَائِفِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِنَ ؟ وَهَلْ هُوَ مُوَافِقٌ لِلْبَسَاطَةِ الَّتِي تَلَاُئِمُّهُنَ ؟

وَمِنْ شَأْنٍ مُخْتَلِفٍ الْأَسَالِيبِ الَّتِي تَوَاجَهُ بِهَا هَذِهِ الْمَسَائِلُ وَتُحَلُّ أَنْ يُذْهَبَ إِلَى الْحَدِّثِينَ الْمُتَنَاهِيْنَ الْمُتَنَاقِضِينَ فَيَقْصُرَ بَعْضُهُمُ الْمَرْأَةَ عَلَى الْخَطِيطِ وَالْفَزْلِ فِي مَنْزِلِهَا مَعَ خَادِمَاتِهَا فَلَا يَجْعَلُونَهَا مِنْهَا بِهَذَا غَيْرَ خَادِمَةِ السَّيِّدِ الْأُولَى ، وَلَا يَرْضَى الْآخَرُونَ بِضَمَانِ حَقُوقِهَا فَيَجْعَلُونَهَا تَقْتَسِبُ حَقُوقَنَا ، وَإِلَّا فَمَا يَكُونُ تَرْكُهَا فَوْقَنَا فِي الصِّفَاتِ الْخَاصَةِ بِجِنْسِهَا ، وَجَعْلُهَا مُسَاوِيَةً لَنَا فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ الْآخَرَى ، غَيْرَ نَقْلِ الصَّدَارَةِ ، الَّتِي تُنْعِمُ الطَّبِيعَةُ بِهَا

على الزوج ، إلى المرأة ؟

وليس العقلُ الذى يَسُوقُ الرجلَ إلى معرفة واجباته كثيرَ التعميد ، ويكون العقلُ الذى يَسُوقُ المرأةَ إلى معرفة واجباتها أكثرَ بساطةً أيضاً ، ويكون الانقيادُ والإخلاصُ الملزِمَةُ بهما نحو زوجها ، ويكون اللطْفُ والرعايةُ الملزِمَةُ بهما نحو أولادها ، نتائجُ تَبْلُغُ من ملاءمة الطبيعة ومن التأثير بحالها ما لا تستطيع معه ، بلا سوء نيةٍ ، أن تَرَفُضَ موافقتها على الشعور الباطنى الذى يُوَجِّهُها ، ولا أن تُنْكِرَ الواجبَ ضَمَنَ مِثْلِها الذى لم يَفْسُدْ بَعْدُ . ولا أَعْدِلُ ، من غير تمييزٍ ، اقتصارَ المرأةَ على أشغال جنسها فقط ، وأن تُتْرَكَ ضَمَنَ جَهْلٍ عميقٍ بغير هذه الأشغال ، ولكن هذا يتطلب طباعاً عامةً كثيرةَ البساطةِ كثيرةَ السلامة أو طرازَ حياةٍ كثيرَ الاعتزال ، وتَكُونُ هذه المرأةُ فى المدن الكبيرة ، وبين الرجال الفاسدين ، سهلةَ الإغواء ، ويكون طُهرُها تابِعاً للأحوال فى الغالب ، ولا بُدَّ لها من ابتلاء فى عصر الفلسفة الحاضر فيجب أن تَعْرِفَ مُقَدِّمًا ما يُمَكِّنُ أن يقال لها وما يُمَكِّنُ أن يَدُورَ فى خَلَدِها حَوْلَ ما يقال لها .

وهى ، إذ كانت خاضعةً لِحُكْمِ الرجال فضلاً عن ذلك ، وجب أن تستحقَّ تقديرَهم ، ولا سيما تقديرُ زوجها ، ومن الواجب ألاَّ تقتصرَ على تحبيب نفسها إلى زوجها ، بل يجب أن تَجْعَلَهُ يستحسن سلوكها ، ويجب أن تُسَوِّغَ أمام الناس ما أنت من اختيار ، وأن تَعْمِلَ على إكرام الزوج بالإكرام الذى تُحِبُّ به المرأة ، ولكن كيف تُقَوِّمُ بجميع هذا إذا كانت تَجْهَلُ نَظْمَنَا وإذا كانت لا تَعْرِفُ شيئاً عن عاداتنا وآدابنا وإذا كانت

لا نَعْرِفُ مصدرَ أحكامنا البشرية ولا نَعْرِفُ الأهواء التي تَقْضِي بها ؟
وبما أنها تابعةٌ لضميرها وآراء الآخرين معاً فإن من الواجب أن تتعلم كيف
تقارن بين هاتين القاعدتين وأن تُوفِّقَ بينهما وألاً تُرَجِّحَ الأولى إلاَّ عند
اختلافهما ، وهي تَصِيرُ قاضيةَ قضائها ، فتقرِّرُ متى يجب أن تُدَّعِنَ لهم ومتى
يجب رَفْضُهم ، وهي تَزِينُهم قبل رَفْضِهم أو قبولهم ، وهي تتعلم بلوغَ منبعهم
وتحذيرهم وجعلهم ملائمين ، وهي تُعْنِي بآلا تَجْذِبُ اللومَ إلى نفسها إذا ما
تَمَحَّحَ لها واجبها باجتنابه ، ولا شئ من جميع هذا يُمكن أن يتمَّ جيداً
من غير تنقيف ذهنها وعقلها .

وأعودُ إلى المبدأ دائماً ، فهو يُزَوِّدني بكلِّ جميع مشاكلي ، وأدْرُسُ
ما هو كائن ، وأُبْحَثُ عن علته ، ثم أُجِدُّ أن ما هو كائنٌ هو حَسَنٌ ،
وأَدْخُلُ البيوتَ المفتوحة التي يَقُومُ رَبُّها ورَبَّتُها معاً بِحُسْنِ استقبال الناس ،
وقد نال كلُّ منهما عينَ التربية ، ويتصفُ كلُّ منهما بأدبٍ متساوٍ ، وكلُّ
منهما مُجَهَّزٌ بِذَوْقٍ وذَهِينٍ على السواء ، ويُساوِرُ كلاً منهما عَيْنُ الرغبة في
حُسْنِ استقبال الناس وفي تشجيع كلِّ منهم راضياً عنهما ، ولا يَأُلُ الزَّوجُ
جُهداً في التفاته إلى كلِّ واحدٍ ذاهباً آيأً طائفاً محتملاً أَلْفَ عناء قاصداً
أن يَكُونَ انتباهاً خالصاً ، وتَظَلُّ الزوجةُ في مكانها ، وتلتفُّ حَوْلَها
حَلَقَةٌ صغيرة فيلُوح أنها تَحْجُبُ عنها بقيةَ المجلس ، ومع ذلك فإنه لا يَغِيبُ
عنها شئٌ ، ولا يُخْرِجُ أحداً لم تكن قد حادثته ، وهي لم تُهْمِلْ شيئاً
يُمْكِنُ أن يُتَمَسَّحَ كلُّ واحدٍ ، وهي لم تَقُلْ لأحدٍ شيئاً غير مُسْتَحَبٍّ
لديه ، ولم يُفْعَلْ أصغرُ مَنْ في المجلس أكثرَ من إغفالِ الأول فيه ، وقد

أَعِدَّتِ المائدةُ ، وقد جَلَسَ كُلُّ واحدٍ في مكانه ، وذلك أن الزوج المطلع على المتواقفين من الحضور وَضَعَهُمْ وَفَقَّ ما يَعْرِفُ ، وأن المرأة التي لم تَعْرِفْ شيئاً من ذلك لم تُخَادَعْ بذلك ، فهي كانت قد قرأت في العيون والأطوار جميع المواقفات فَوَجَدَتْ كُلَّ واحدٍ جالساً كما كان يَوَدُّ ، ولا أقول ، مطلقاً ، إنه لم يُنْسَ أحدٌ من قِبل الخَدَمِ ، وكان يُمكنُ ربَّ المنزل ألا يَنْسَى أحداً حين طوافه حَوْلَ الجميع ، ولكن المرأة تُبْصِرُ ما يُنْظَرُ إليه برغبة فتقدِّمُ إليكم منه ، وبينما تُحَدِّثُ المرأةُ جَارَهَا تلاحظُ آخرَ المائدة فتَمِيزُ مَنْ لا يأكلُ مطلقاً لأنه غيرُ جائع من الذي لا يَجْرُو على تناول شيء أو طلب شيء عن خَرَقٍ أو حياء ، وإذا ما تُرِكَتِ المائدةُ اعتقدَ كُلُّ واحدٍ أنها لم تُفَكَّرْ في غيره ، ورأى الجميع أنه لم يكن عندها من الوقت ما طَعِمَتْ فيه قطعةً واحدة مع أنها أكلت أكثر من كُلِّ واحدٍ في الحقيقة .

ومتى انصَرَفَ الضيوفُ حَدَّثَ عما وَقَعَ ، وَيَرْوِي الزوجُ ما قِيلَ له وما قالوا وما تَمَّ بينه وبين من حادِثهم ، وإذا لم تَكُنْ المرأةُ أَصْدَقَ حديثاً في ذلك دائماً فإنها بالمقابلة قد أَبْصَرَتْ ما قِيلَ هَمْساً في الطَّارِفِ من البَهْوِ فتَعْرِفُ ما فَكَّرَ فيه هذا أو ذاك كما تَعْرِفُ معنى هذا القول أو مَغْزَى تلك الإشارة ، ولم تَكْذُبْ تَقَعُ حركةُ ذاتُ دلالةٍ لم تَكُنْ مستعدةً لتفسيرها وَفَقَّ الحقيقة تقريباً .

ومن شأن مرونة الذهن ، التي تَجَمَّلُ المرأةُ العصريةُ بارعَةً في فنِّ القِرَى ، أن تَجَمَّلُ المِفْناجَ بارعَةً في فنِّ الإلهاء كثيرٍ من العُشَّاقِ ، حتى إن الفِناجَ يقتضى بصيرةً أدقَّ مما يقتضيه الأدبُ ، وذلك لأن المرأة المَهْدَّبة تكون

على شيء من حُسْنِ الصَّنْعِ دائماً إذا ما كانت ذات أدبٍ واحدٍ نحوَ جميعِ الناسِ ، وأما المِفْتَاحُ فإنها لا تَلْبَثُ أن تَخْمَرَ سُلْطَانَهَا بِمِثْلِ هذه النمطية الخرقاءَ فَيَنْفَضُّ جَمِيعُ عُشَّاقِهَا من حَوْلِهَا عن قَصْدِهَا إِرْضَاءَهُمْ على السواءِ ، وفي المَجْتَمَعِ لا تَتْرُكُ الأَوْضَاعُ التي تُتَّخَذُ نحوَ جميعِ الناسِ قَوْلًا لِقَائِلٍ ، وفي المَجْتَمَعِ لا يُنْظَرُ إلى التفضيلاتِ عن كَسْبٍ بشرطِ حُسْنِ المعاملةِ ، ولكنَّ الحِلَابَةَ في الحُبِّ تُعَدُّ إِهَانَةً إذا لم تكن حَصْراً ، ويُفَضَّلُ الرجلُ الحَسَّاسُ مئةَ مرةٍ أن يُؤْذَى وحده على أن يَلَاظِفَ مع الآخرين جميعاً ، ويكون شرُّ ما يُصَابُ به هو ألاَّ يُمَازَرَ مطلقاً ، ولذا فإن من الواجب على المرأةِ الراغبةِ في الاحتفاظِ بكثيرٍ من العُشَّاقِ أن تُنْجِعَ كُلَّ واحدٍ منهم بأنها تُفَضِّلُهُ ، وأن يَقَعَ إِقْنَاعُهَا هذا على أعين الآخرين ، فيَقْنَعَ كُلُّ واحدٍ من هؤلاء بأنه المُفَضَّلُ .

وإذا أردتم أن تَرَوْا رجلاً حائراً فضعوه بين امرأتين تكون بينه وبين كلٍّ منهما علاقاتٌ سِرِّيَّةٌ ، ثم لاحظوا أيَّ وجهٍ يلبد يكون له هنالك ، وضعوا في مثل ذات الحال امرأةً بين رجلين لترَوْا أن العِبْرَةَ لا تكون أكثرَ نُدْرَةً لا رَيْبَ ، وذلك أنكم تَقْضُونَ العَجَبَ من البراعةِ التي تخادع بها الاثنين وتَجْعَلُ كُلَّاً منهما يَضْحَكُ من الآخر ، والواقعُ أن هذه المرأة إذا كانت تُظْهِرُ لهما ذات الثقة ، وتَحْبُوهُمَا بذات الزُّلْفَى ، فكيف يُخْذَعَانِ بها طَرَفَةً عينٍ ؟ وإذا كانت تعاملهما معاملةً متساويةً أفلا تَدُلُّ على وجودِ نَفْسٍ الحقوقِ لهما عليها ؟ وى ! إنها أكثرُ حَذَرًا من هذا ! إنها بعيدةٌ من معاملتهما على وجهٍ واحدٍ ، إنها تتظاهر بجعلِ تفاوتٍ بينهما ، إنها تَبْلُغُ

من الجدِّق ما يفتقد معه الذى تُدَارِيه أن مداراتها ناشئة عن حُوقٍ منها ،
وما يعتقد معه الذى تُسِيء إليه أن إساءتها هذه واقعةٌ على الرغم منها ،
وهكذا فإن كلَّ واحدٍ راضٍ بنصيبه معتقداً أنها تشغل بالها به مع أنها
لا تُفَكِّرُ فى غير نفسها بالحقيقة .

والدِّلالُ ، من حيث الرغبة العامة فى الرِّوْقَان ، يُوحى بوسائل ماثلة ،
والأهواء لا تُوجِبُ غير الاستنكاف إذا لم تُدَارَ بحكمة ، وهى إذا ما وُرِّعَتْ
ببراعةٍ أشفرت عن سلاسل وثيقةٍ من العبيد .

« فالمرأة تتخذ جميع الحيل حتى تنال بأشراكها عاشقاً جديداً ، وهى
لا تحافظ على ذات الوجه نحو الجميع ولا فى كلِّ حين ، ولكنها تُغيِّرُ وُضْعَهَا
ومنظرها على حَسَبِ الأوقات » .

وما سَنَدُ هذا الفنِّ إذا لم يَقُمْ على ملاحظاتٍ دقيقةٍ دائمةٍ تُبَصِّرُ بها
فى كلِّ ثانيةٍ ما يدور فى خَلَدِ الرجال وتُعَدُّها عند كلِّ حركةٍ خفيةٍ
تُدْرِكها لحملٍ ما يجب من قوةٍ لِعَوَقِ هذه الحركة أو تعجيلها ؟ وهل يُتَعَلَّمُ
هذا الفنُّ إذن ؟ كلاً ، وإنما يُولَدُ مع النساء ، وجميعُ النساءِ حائزاتٌ له ،
ولم يحزهُ الرجال بهذا المقدار قطُّ ، وهذا من خصائص الجنس النسوىِّ
البارزة ، فحُضُورُ الذهن والبصرُ النافذ والملاحظاتُ الدقيقةُ أمورٌ نَعُدُّ عِلْمَ
النساء ، ويقومُ نُبوُغُ النساءِ على البراعة فى الانتفاع بهذا العِلْمِ .

وهذا ما هو كائنٌ ، وقد رأينا السببَ فى كَيْنُونَةِ هذا ، ويقال لنا
إن النساءِ زانقاتٌ ، وهنَّ يَصِرْنَ زانقاتٍ ، والشرطةُ ، لا الرِّؤُوفُ ، هى
موهبتُن الخاصة ، وليس النساءُ زانقاتٍ فى مُيُولِ جنسهنَّ الحقيقية ولو

كَذِبْنَ ، وَلِمَ تَسْتَشِيرُونَ فَمَ النِّسَاءَ ، وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ ؟ وَإِنَّمَا اسْتَشِيرُوا عَيُونَهُنَّ وَسَخَنَتَهُنَّ وَتَنَفَّسَهُنَّ وَهَلَعَهُنَّ وَمَقَاوِمَتَهُنَّ النَّاعَةَ ، وَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي أَنْعَمَتْ بِهِ الطَّبِيعَةُ عَلَيْهِنَّ لِيُجِيبَكُم ، أَجَلٌ ، إِنْ الْفَمَ يَقُولُ : « كَلَّا » ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقُولَ ، وَلَكِنَّ النَّبْرَةَ الَّتِي تُضِيفُهَا إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَيْسَتْ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ دَائِمًا ، وَهَذِهِ النَّبْرَةُ هِيَ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الْكَذِبَ مُطْلَقًا ، أَوَّلَيْسَ لَدَى الْمَرْأَةِ عَيْنٌ أَحْتِيَاجَاتِ الرَّجُلِ ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَيْنُ الْحَقِّ فِي إِبْدَائِهَا ؟ يَكُونُ نَصِيحُهَا جَائِرًا جِدًّا لَوْ كَانَتْ عَاطِلَةً ، حَتَّى فِي الرِّغَابِ الْمُحَلَّلَةِ ، مِنْ لِسَانٍ يَمْدُلُ الَّذِي لَا تَجْرُؤُ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ ، وَهَلْ يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَهَا خِيَاوَهَا شَقِيَّةً ؟ أَوَلَا تَحْتَاجُ إِلَى فَنٍّ تَطْلُعُ بِهِ عَلَى مُيُولِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكْشِفَهَا ؟ وَيَا لِحَاجَتِهَا إِلَى بَرَاعَةٍ تُخْفِي بِهَا مَا تَتَلَطَّى شَوْقًا إِلَى الْمَوَاقِفَةِ عَلَيْهِ ! وَمَا أَكْثَرَ مَا يَهْمُهَا أَنْ تَعْرِفَ مَسَّ فَوَادِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَظْهَرَ أَنَّهَا تُفَكِّرُ فِيهِ ! وَيَا لَلْكَلامِ الَّذِي تَنْطَوِي عَلَيْهِ تَفَاحُهُ غَلَاتِهِ وَفِرَارِهَا الْأَخْرَقَ ! وَمَا كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ ؟ وَهَلْ تَذْهَبُ لِتَقُولَ لِلرَّاعِي الَّذِي يَتَعَقَّبُهَا بَيْنَ الصَّفَافِ إِنَّهَا لَمْ تَهْرُبْ إِلَّا لِاجْتِنَابِهِ ؟ وَلَوْ قَالَتْ هَذَا لَكَذَبَتْ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَعُودُ ، هُنَاكَ ، غَيْرَ مُجْتَذِبَةٍ لَهُ ، وَكَلِمَا كَانَتْ الْمَرْأَةُ مُحْتَشِمَةً وَجِبَ أَنْ تَكُونَ حَازِقَةً حَتَّى مَعَ زَوْجِهَا ، نَعَمْ ، إِنِّي أَذْهَبُ إِلَى أَنَّهَا إِذَا وَضَعَتْ الدَّلَالَ ضَمْنَ حَدُودِهِ كَانَتْ صَادِقَةً خَجَلِي فَجْعَلْ مِنْ هَذَا نَامُوسٌ فِي الْحَيَاءِ .

وَقَدْ أَجَادَ أَحَدُ خُصُومِي فِي ادْعَائِهِ أَنْ الْفَضِيلَةَ وَاحِدَةٌ ، فَلَا تَجُزَأُ لِقَبُولِ قِسْمٍ وَنَبْذِ الْقِسْمِ الْآخَرِ ، وَهِيَ إِذَا مَا أُحِبَّتْ أُحِبَّتْ كَامِلَةً ، وَيُمْنَعُ

القلبُ إذا ما أمكن ، وَيُجْبَسُ الفَمُ ، دائماً ، دون المشاعرِ التي لا ينبغي أن تكون مطلقاً ، وليست الحقيقةُ الأدبيةُ ما هو كائنٌ ، بل ما هو حسنٌ ، ولا ينبغي أن يكون ما هو سيئٌ مطلقاً ، كما لا ينبغي أن يُعْتَرَفَ به ، ولا سيما إذا كان هذا الاعترافُ يَجْعَلُ له من الأثر الذي لا يكون لولا وقوعه ، وإذا ما أُغْرِيتُ بالسَّريَّةِ فَأُغْرِيتُ آخرَ أن يكون شريكي باعترافي له بذلك أفلا ينطوى تصرّحي له بِإِغْرَائِي على إذعانٍ لذلك الإغراء ؟ ولم يقولون إن الحياءَ يَجْعَلُ النساءَ زانقاتٍ ؟ وهل يكون اللائى يَفْقِدُنَهُ أكثرَ من غيرهن أصدقَ من هؤلاء ؟ كلاً ، وإنما يكنَّ أكثرَ زُيُوفاً منهن ألفَ مرة ، ولا يُبْلَغُ هذا الحدُّ من فساد الأخلاق بغير المعايير التي تُحَفِّظُ كُلُّهَا والتي لا تَسُودُ بغير الدسائس والكذب^(١) ، وعلى العكس يكون اللائى لا يَزَلْنَ ذواتِ حياءٍ ، واللائى لا يُفَاخِرْنَ بِخَطِيئَتِهِنَّ مطلقاً ، واللاوائى يَعْرِفْنَ كَتَمَ رَغَائِبِهِنَّ حتى عن الذين يوحون بها إليهن ، ومن لا يُنَزَّعُ منهن الاعترافُ إِلَّا بأعظمِ عناءٍ ، أكثرَ النساءِ صدقاً وإخلاصاً وثباتاً في جميع عهودهن ، وأكثرَ مَنْ يُمَكِّنُ أن يُرُكَّنَ إلى عهودهن على العموم . ولا أَعْرِفُ غيرَ الآنسةِ دُونِسْكو من أمكن إيرادها استثناءً معروفاً

(١) أعرف أن النساء اللائى التزمين سلوكاً معيناً علانية يزعمن أن جهرن هذا أثبت لشارهن ، وهن يحلفن إنهن حائزات لجميع الفضائل عدا واحدة ، ولكننى أعرف جيداً ، أيضاً ، أنهن لم يقمن بهذا غير الأغبياء ، وإذا زال أعظم زاجر لجنسهن فما الذى يبق رادعاً لهن ؟ وما الشرف الذى يقام له وزن عندهن بعد أن تنزلن عن شرفهن الخاص ؟ لم يبق عندهن أى سبب لضبط النفس بعد أن خضعن لأهوائهن ، « فالمرأة إذا ما فقدت حياءها لم يبق عندها شيء تمنه » ، وهل عرف أى مؤلف قلب الإنسان فى الجنسين أحسن مما عرف هذا المؤلف ؟

لهذه الملاحظات ، ومع ذلك فقد عُدَّتْ الأنسةُ دُونَكُلُو نادرةَ زمانها ، ويُرَوَّى أنها حافظت على فضائل جنسنا عن ازدراء لفضائل جنسها ، فِيمَتْنِي على إخلاصها واستقامتها وضمن عِشْرَتِها ووفائها في الصداقة ، ثم أُتِمَّتْ صورةُ مجدها بأن تَحَوَّلَتْ إلى رجل ، حَبَّذا ، ولكنني ما كنت لأريد أن يكون هذا الرجل صديقاً لي أكثر من أن يكون خليةً لي على ما يتمتع به من شهرة واسعة .

وليس جميعُ هذا خارجاً عن الموضوع كما يَلُوح ، وأَبْصِرُ أين تَمِيلُ مبادئُ الفلسفة الحديثة بتحويلها حياة الجنس النَّسْوى وزيُوفَه المزعومَ إلى سُخْرِيَّة ، وأَبْصِرُ أن أثْبَتَ أثرَ لهذه الفلسفة هو أن يُنْزَعَ من نساء عصرنا ما بَقِيَ لهن من شرفٍ قليل .

وأَعْتَقِدُ ، بعد النظر إلى هذه الاعتبارات ، إمكانَ تعيين نوع الثقافة اللامُ لذهن النساء وما يُمَكِّنُ أن تُوجَّهَ إليه تأملاتهن من موضوعاتٍ منذ فَتَاتِهِنَّ .

ومعرفةُ واجباتِ جنسهنَّ أسهلُّ من إنجازها كما قُلْتُ فيما تقدم ، وأوَّلُ شيءٍ يجب أن يتعلَّمَنَّهُ هو حُبُّهُنَّ لهذه الواجبات نظراً إلى فوائدها ، وهذه هي الوسيلةُ الوحيدة لجعلها سهلةً ، ولكلِّ حالٍ ، ولكلِّ سِنٍ ، واجباتُها ، ونحن لا نَلْبِثُ أن نَعْرِفَ واجباتنا إذا ما أحبينها ، فأَكْرَمُوا حالكنَّ كأمراء ، ومهما يَكُنِ المكانُ الذي يَضَعُكُنَّ فيه الرَّبُّ فَإِنَّكُنَّ تَكُنَّ نساءً خيرٍ دائماً ، واللهمَّ أن تَكُنَّ كما صنعتكن الطبيعة ، وليس النساء غيرَ كثيراتٍ الاستعداد لِيَكُنَّ كما يريد الرجال .

وليس مِنْ نابضِ النساءِ بِمَحْنِهِنَّ عن الحقائق المجردة والنظرية ، وعن المبادئ والأوليات في العلوم ، وعن كلِّ ما يميلُ إلى تعميمِ الأفكار ، وإنما يجب أن تُردَّ دراسَاتهن إلى العمل ، فعليهِنَّ أن يَقُنَّ بتطبيق ما وَجَدَهُ الرجلُ من مبادئ ، وهنَّ يأتين بالملاحظات التي تَسُوق الرجلَ إلى إقامة المبادئ ، ويجب أن تَهْدِفَ جميعُ تأملاتِ النساءِ ، في كلِّ ما لا يتعلَّقُ بواجباتهن مباشرةً ، إلى دراسة الرجال والمعارف اللطيفة التي ليس لها موضوعٌ غيرُ الذوق ، وذلك لأن آثارَ العبقرية تُجاوِزُ متناولهن ، ولأنه ليس لديهن من الإصابة والانتباه ما يُوقِّنُ معه في العلوم الصحيحة ، وأما من حيث المعارفُ الفِزْيَوِيَّةُ فالجنسُ الذي هو أكثرُ فَعَالِيَّةً وإقداماً وبَصَرًا بالأُمُور ، والذي هو أكثرُ قوَّةً وممارسةً لهذه القوة ، هو الذي يَحْكُمُ في العلاقات بين الموجودات الحسَّاسة وسُنَنِ الطبيعة ، والمرأةُ ، وهي الضعيفةُ التي لا تَرَى شيئاً في الخارج ، تُقدِّرُ الدوافعَ التي تستطيع أن تتصرف فيها تَلَاْفِيًا لضعفها ، وهذه العواملُ هي أهواء الرجل ، ويُعدُّ جهازُها أقوى من جهازنا ، ويَهْزُ الفؤادَ البشريَّ ما يشتمل عليه من عَتَلٍ لجهازها الذي هو أقوى من جهازنا ، ويجب أن يَكُونُ لديها من الفن ما يَجْعَلُنَا نُريدُ منه كلَّ ما لا يستطيع جنسُها أن يَصْنَعَ بنفسه مع كونه ضروريًا له مستجبًا عنده ، ولذا يجب أن تَدْرُسَ ذهنَ الرجل درسًا أساسيًا لا ذهنَ الرجلِ على العموم مجرَّدًا ، أى أن تَدْرُسَ ذهنَ الرجال الذين يحيطون بها ، أى ذهنَ الرجال الذين أُخْضِعَتْ لهم سواء أبالقانون أم بالرأى العام ، وبما يَجِبُ أن نَعْرِفَ كيف تَنْفُذُ مشاعرهم من خِلالِ أقوالهم وأفعالهم ونظراتهم

وحركاتهم ، وما يجب أن تحبّوهم بأقوالها وأفعالها ونظراتها وحركاتها ما يرونها من المشاعر من غير أن تظهر قاصدة ذلك ، أجل ، إن الرجال يتفلسفون حول القلب البشري خيراً مما تصنع ، ولكنها خير منهم قراءة في القلب البشري ، ومن ثمّ يلزم النساء أن يحذرن الأدب التجريبي ويلزمن أن تزودن إلى نظام ، فالنساء أكثر أرباباً والرجال أكثر عبقرية ، والمرأة تلاحظ الرجل يتعقل ، وينشأ عن هذا التعاون أنسطع ما يكون من نورٍ وأكمل ما يكون من علمٍ يُمكنُ الذهن البشري أن يكتسب بنفسه ، أى أثبت معرفة ينالها الإنسان عن نفسه وعن غيره وتكون في متناول نوعنا ، ومن ثمّ ترى كيف يستطيع الفن أن يميل بلا انقطاع إلى إكمال الآلة التي منحتها الطبيعة .

والعالم كتابُ النساء ، ويقعُ الذنبُ عليهن إذا ما أسانَ قراءته ، أو إذا أعماهن بعضُ الأهواء ، ومع ذلك فإن أمّ الأسرة الحقيقية بعيدة من أن تكون امرأةً دنيأً فلا تكون في منزلها أقلّ اعتباراً من الراهبة في ديرها ، ولذا يجب أن يصنع للفتيات اللاتي يصلحن للزواج كما يصنع ، أو كما يجب أن يصنع ، للاتي يوضعن في الأديار ، أى أن يطلعن على الملاذ التي يهجرن قبل تركهن هنالك بعدلن عنها ، وذلك خشية أن تؤدّي صورة هذه الملاذ الزائفة التي يجهذهن إلى إغواء قلوبهن وتكدير صفو عزتهن ذات يوم ، وفي فرنسا يعيش البنات في الأديار ويتمتع النساء بالدنيا ، والعكس هو ما كان عند القدماء ، فقد كان لدى البنات ، كما قلت ، ألعابٌ كثيرة وأعيادٌ عامة ، وقد كان النساء يعشن

معزلاتٍ ، وقد كانت هذه العادة أقربَ إلى الصواب وأكثرَ حفظاً للأخلاق ، ويُباح للبنات الصالحات للزواج ضَرْبٌ من الدلال ، ويُعدُّ لهوهنَّ شغلَهنَّ الأكبرَ ، وللنساء أشاغلُ أخرى في بيوتهن ، فقد عُدْنَ لا يَبْحَثْنَ عن أزواج ، ولكنهن لا ينتفعن بهذا الإصلاح ، ومن المؤسف أنهن لا يُعَيَّنَنَّ ضَرْبَ الفناء ، ويا أيتها الأمهات ، اجْعَلْنَ من بناتكن رفيقاتٍ لكن على الأقلِّ ، وامنحوهنَّ حِسًّا صادقاً وروحاً صالحاً ، ثم لا تكتسوا عنهن شيئاً يُمكنُ أن تقعَ عليه عينٌ طاهرة ، ويُمكنُ أن يُعرضَ على العيون السليمة بلا خطرٍ كلُّ ما يَقِينُ الشبيبة الغافلة عند النظر السيئِ إليه من مراقصَ وولائمَ وألعابٍ ، ومَسَارِحَ أيضاً ، فهنَّ كلما شاهدن هذه اللطائف الصاخبة زَهَدْنَ فيها .

وَأَسْمَعُ الضجيجَ الذى يرتفع ضدى ، وأيةُ بنتٍ تقاوم هذا المثال الخطير ؟ لم يَكْدَنْ يَرَيْنَ العالمَ حتى تَدُورَ رؤوسهن جميعاً ، فلا تريد أية واحدةٍ منهن تزكّه ، أَجَلْ ، يُمكنُ هذا ، ولكن هل أعددتُموهنَّ لمشاهدته من غير اهتزازٍ قبل عَرْضِ هذه الصورة الخداعة عليهن ؟ وهل أنبأتموهنَّ جيداً بما يَعْرِضُ من موضوعات ؟ وهل أحسنتم تصويرها لهنَّ كما هي ؟ وهل سلحتُموهنَّ ضِدَّ أوهام الفُرُور ؟ وهل حَمَلْتُمُ إلى قلوبهنَّ الفَتِيَّةَ من ذَوْقِ المَلَادِّ الحقيقية ما لا يُوْجَدُ فى هذا الهرج والمرج مطلقاً ؟ وماذا اتخذتم من الاحتياطات والتدابير لوقايتهنَّ من الذوق الفاسد الذى يُضِلُّهنَّ ؟ لقد غَدَّيْتُمُ أذهانهنَّ بالمُبْتَسرات العامة بدلاً من إقامة العوائق دونها ، وقد حَمَلْتُموهنَّ ، مقدِّماً ، على حُبِّ جميع ما يَحْدِنُ من لَهْوٍ طائشٍ ،

وَأَنْتُمْ تَجْعَلُونَهُنَّ يُخَيِّبُنَ هَذَا اللَّهُوَ ، أَيْضًا ، بِمَلَاظِمَتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَمِنْ الْفَتَيَاتِ مَنْ إِذَا دَخَلَ الْعَالَمَ لَمْ يَجِدَنَّ مُرَبِّيَّاتٍ لَهَا غَيْرَ أُمَهَاتِهِنَّ اللَّاتِي يَكُنُّ أَكْثَرُ حَاقِقَةٍ مِنْهُنَّ فِي الْعَالَمِ ، وَاللَّاتِي لَا يَسْتَطِيعْنَ إِرَاءَتَهُنَّ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ مَا يَرَيْنَ ، وَبِمَا أَنَّ مِثَالَ الْأُمِّ أَقْوَى مِنَ الْعَقْلِ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ يُسَوِّغُ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي عَيُونِ بَنَاتِهَا ، وَلَا غَرَوْ ، فَسُلْطَانُ الْأُمِّ فِي نَظَرِ الْبِنْتِ مَعْذِرَةٌ لَا تُرَدُّ ، وَعِنْدَ مَا أُرِدْتُ إِدْخَالَ الْأُمِّ بِنْتَهَا إِلَى الْعَالَمِ افْتَرَضْتُ إِرَاءَتَهُ لَهَا كَمَا هُوَ .

وَيَبْدَأُ الشَّرُّ قَبْلَ الْأَوَانِ أَيْضًا ، فَالْأَدْيَارُ مَدَارِسُ حَقِيقَةٍ لِلْفُتُوحِ ، لَا ذَاكَ الْفُتُوحِ الْحَلَالِ الَّذِي تَكَلَّمْتُ عَنْهُ ، بَلِ الْفُتُوحِ الَّذِي يُسْفِرُ عَنْ جَمِيعِ انْحِرَافَاتِ النِّسَاءِ وَيُؤَدِّي إِلَى أَكْثَرِ الشَّابَّاتِ هَوَسًا ، وَمَتَى خَرَجَ فَتَيَاتُ النِّسَاءِ مِنْ هُنَاكَ لِلدَّخُولِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الصَّاحِبَةِ كَانَ أَوَّلَ مَا يَشْعُرْنَ بِهِ كَوْنُهُنَّ فِي مَنْزِلِهِنَّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُنَّ نُشْنَنَ لِيَعِشْنَ بِهِ ، وَهَلْ يُعْجَبُ مِنْ مَلَامَتِهِ لَهَا ؟ وَلَا أَتَقَدَّمُ ، مُطْلَقًا ، بِمَا كُنْتُ قَدْ قُلْتُ ، وَذَلِكَ خَشْيَةٌ اتَّحَالُ مُبْتَسِرٍ عَلَى أَنَّهُ مَشَاهِدَةٌ ، وَلَكِنْ الَّذِي يَلُوحُ لِي أَنَّهُ يُوجَدُ فِي الْبُلْدَانِ الْبُرُوسْتَانِيَّةِ ، عَلَى الْعُمُومِ ، أَسْرًا أَكْثَرُ عَطْفًا وَزَوْجَاتٍ أَكْثَرُ جِدَارَةً وَأُمَهَاتٍ أَكْثَرُ حَنَانًا مِمَّا فِي الْبُلْدَانِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا لَمْ يُشَكَّ فِي كَوْنِ هَذَا صَادِرًا قِسْمًا عَنْ تَرْبِيَةِ الْأَدْيَارِ .

وَتَقْضَى مَحَبَّةُ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْهَادِئَةِ بِأَنَّ تَكُونُ مَعْرُوفَةً وَبِأَنَّ تَذَاقَ حَلَاوَتِهَا مِنْذُ الطِّفْلِ ، وَلَيْسَ فِي غَيْرِ الْمَنْزِلِ الْأَبْوَى مَا تَتَذَوَّقُ مِنْزِلَنَا الْخَاصَّ ، وَمَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَمْ تُنَشَّأْ أَثْمًا قَطُّ لِتُحِبَّ تَنْشِئَةَ أَوْلَادِهَا

مطلقاً ، ومن دواعي الأسف أنه عاد لا يوجد في المدن الكبيرة تربية خاصة ، وذلك أن المجتمع فيها بالغ من الشُّمول والاختلاط ما لا يَبْقَى معه مكانٌ للعزلة ، حتى إن الإنسان فيها يَشْعُرُ في منزله بأنه بين الناس ، وعاد لا يُوجَدُ ما يُعَدُّ أُسْرَةً بفعل العيش مع جميع الناس ، ولا يكاد الإنسان يَعْرِفُ والدَيْهِ ، أى إنه يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا كما يَنْظُرُ إِلَى الغرباء ، وتزول بساطة الطَّبَاعِ المنزلية مع الدَّالَّةِ الحُلُوةِ التي تُوَجِّبُ فُتُونَهَا ، وهكذا يُرَضَّعُ مع اللبن ذَوْقُ ملاذِّ العصر وما يُرَى أنه يَسُودُ العصرَ من مبادئ .

وَيُلْزَمُ البنات بِمَحْصَرٍ ظاهرٍ لِيَجِدْنَ مِنَ البُلَهِ من يَتَزَوَّجُونَهُنَّ استناداً إلى وَضْعِهِنَّ ، ولكن ادرسوا أمرَ هؤلاء الفَتَيَاتِ ساعةً من الزمن تَرَوْنَ أَنَّهُنَّ يُخَفِّينَ تحت ظاهرٍ من الخضر إخفاءً رديئاً ما يَلْتَهُمَنَّ من هَوًى ، ومما كان يُقْرَأُ في عيونهن رغبةٌ حارةٌ في تقليد أُمهاتهن ، وليس الزوجُ هو ما يَشْتَهِيَنَّهُ ، بل تَحْمَلُ الزَّوْجَ ، وما الحاجةُ إلى الزَّوْجِ مع وجود كثيرٍ من السُّبُلِ للاستغناء عنه ؟ ولكنه يُحْتَاجُ إلى زوجٍ لَسَرِ هذه السُّبُلِ ^(١) ، فالحياءُ في وجوههن ، والخلاعةُ في صميم قلوبهن ، ويُعَدُّ هذا الحياءُ للصنوع دليلاً عليها ، وهنَّ لا يتظاهرنَ به إلا للخلاص منه سريعاً ، وأطلبُ عنوَكْنَ يا نساءَ باريسَ ولندنَ ، فلا يَخْلُو مكانٌ من مُعْجِزَاتٍ ، وأما أنا فلا أَعْرِفُ منها شيئاً مطلقاً ، وإذا ما وُجِدَتْ يَنكُنُ واحدةٌ ذاتُ نفسٍ نَفِيقَةٍ حقاً فَإِنِّى لا أَفْقَهُ شيئاً من طرائقهن .

(١) كان سبيل الإنسان في شبابه أحد الأمور الأربعة التي لم يستطع الحكيم أن يدرَكها ، وأما الأمر الخامس فهو وقاحة المرأة الزانية ، « كذلك طريق المرأة الفاسقة تأكل وتمسح فاما وتقول ما عملت إنما » ، (سفر الأمثال ٣٠ : ٢٠) .

وَتَسْلِمُ جَمِيعُ هَذِهِ التَّرْبِيَّاتِ الْمُنَوَّعَةِ ، عَلَى السَّوَاءِ ، فَتَيَاتِ الْبَنَاتِ إِلَى تَذَوُّقِ مَلَأْدُ الْمَجْتَمَعِ وَإِلَى الْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا تَلْبِثُ أَنْ تَنْشَأَ عَنْ هَذَا الذَّوْقِ ، وَيَبْدَأُ الْفَسَادُ مَعَ الْحَيَاةِ فِي الْمَدْنِ الْكَبِيرَةِ ، وَيَبْدَأُ مَعَ الْعَقْلِ فِي الْمَدْنِ الصَّغِيرَةِ ، وَمِنْ فَتَيَاتِ الْأَقَالِمِ مَنْ يَتَعَلَّمَنَّ اِزْدِرَاءَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ طِبَاعُهُنَّ مِنْ بَسَاطَةِ مَبَارَكَةِ فَيَّادِرُنَ إِلَى قَصْدِ بَارِيسَ لِيَقَاسِمَنَّ فَتَيَاتِنَا فَسَادَهُنَّ ، وَبِمَا أَنَّ الْمَعَايِبَ الْمَزُوقَةَ بِاسْمِ الْمَنَاقِبِ الرَّائِعِ هَدَفُ رِحْلَتِهِنَّ الْوَحِيدُ ، وَبِمَا أَنَّهُ يَعْتَرِيهِنَّ عِنْدَ وَصُولِهِنَّ خَجَلٌ مِنْ اِبْتِمَادِهِنَّ عَنْ تَحَلُّلِ نِسَاءِ الْعَاصِمَةِ الْثَبِيلِ ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَلْبِثُنَّ أَنْ يَصِرْنَ جَدِيرَاتٍ بِهِذِهِ الْعَاصِمَةِ أَيْضًا ، وَأَيْنَ يَبْدَأُ السَّوْءُ عَلَى رَأْيِكُمْ ؟ أَيْدَأُ فِي الْأَمَكْنَةِ الَّتِي يُرْسَمُ فِيهَا أُمٌّ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يُنْجَزُ فِيهَا ؟

وَلَا أُرِيدُ أَنْ تَأْتِيَ الْأُمُّ الرِّصِينَةَ بِابْتِهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ إِلَى بَارِيسَ لَتُطْلِمَهَا عَلَى تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْبَالِغَةِ الْفَسَادِ لَمِيرِهَا ، وَإِنَّمَا أَقُولُ إِنْ هَذَا إِذَا وَقَعَ فَإِنَّ هَذِهِ الْبِنْتَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ سَيِّئَةَ التَّنْشِئَةِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمَنَاطِرُ قَلِيلَةً اِلْخَطَرِ عَلَيْهَا ، وَإِذَا مَا وَجِدَ ذَوْقٌ لِلْأُمُورِ الصَّالِحَةِ وَشَعُورٌ بِهَا وَحُبٌّ لَهَا لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْجَذْبِ بِمَقْدَارِ مَا تَوَثَّرُ فِيمَنْ يَدْعُونَ أَنْفُسَهُمْ يُفْتَتِنُونَ بِهَا ، وَمِمَّا يَلَاخِظُ فِي بَارِيسَ أَنَّ أُولَئِكَ الْفَتَيَاتِ الرَّغْنِ اللَّاتِي يُبَادِرُنَ إِلَى اِتِّحَالِ طَابَعِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَيَسِرْنَ مَعَ مُوَضَّعَاتِهَا لِسِتَةِ أَشْهُرٍ يَشْخَرْنَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِنَّ ، وَلَكِنْ مِنْ ذَا الَّذِي يَلَاخِظُ أَنَّ أُولَئِكَ اللَّاتِي يَنْفِرْنَ مِنْ ذَلِكَ الضَّجِيجِ فَيَتَحَوَّلْنَ عَنْهُ إِلَى إِقْلِيمِهِنَّ رَاضِيَاتٍ عَنْ نَصِيهِنَّ بَعْدَ مُقَابَلَتِهِ بِالَّذِي يَفَارُ مِنْهُ الْأَخْرِيَّاتُ ؟ وَمَا أَكْثَرَ مَنْ رَأَيْتُ مِنْ فَتَيَاتٍ

النساء اللاتي أتى بهنّ إلى العاصمة أزواجٌ قاصدون الاستقرارَ بها مع عزمٍ فيحوّلنّهم عن ذلك بأنفسهنّ وتُفادِرُ بعزمٍ أكثر من الذي قُصِدَتْ به مع القول العاطفيّ عَشِيَّةَ الرحيل : « وئى ! لنَعُدْ إلى كوُخنا حيث نَقْضِي حياةً أسعدَ من التي تُقْضَى في القصور هنا ! » ، ولا أعلمُ عددَ من بَقِيَ من الصالحات اللاتي لم يَرْكَعْنَ أمام الصنم قَطُّ فيزدَرِين عبادته المخالفة للصواب ، ولا يوجد صاحباتٌ غيرُ الحُلق ، وأما النساء العاقلات فلا تَسْمَعُ لهن صوتاً مطلقاً .

وإذا ما حافظ كثيرٌ على حُكْمٍ في الأمور راسخٍ على الرغم من الفساد العامّ والمُبْتَسِرَاتِ الشاملة وتربية البنات السيئة فما يَحْدُثُ إذا ما غُدِّيَ ذاك الحُكْمُ بمعارف مناسبة ، وإن شئتَ قُلْ إذا لم يُفَسَدَ بمعارف داعة ؟ وذلك لأن كلَّ شيء يقوم على حفظ المشاعر الطبيعية أو تجديدها ، ولا يَقْضِي هذا بأن يُسَأَمَ الفَتَيَاتُ ، مطلقاً ، بمواعظكم الطويلة ، ولا أن تَبِيعُوا منهن أخلاقياتكم الجافية ، فالأخلاقياتُ تَنْطَوِي على مَوْتٍ لكلِّ تربيةٍ صالحةٍ لدى الجنسين ، ولا تَكُونُ الدروس الكثيبةُ صالحةً لغير إثارة الحقد على مَنْ يُلقونها وعلى كلِّ ما يقولونه ، ولا يُقْصَدُ ، عند مخاطبة الفَتَيَاتِ ، تخويفهن من واجباتهن ، وَتَثْقِيلُ التَّيْرِ الذي فرضته الطبيعةُ عليهن ، وَكُونُوا عند عَرَضِ هذه الواجبات عليهن مُدَقِّقِينَ هَيَّيْنِ ، ولا تَدْعُوهُنَّ يَرِيْنِ أَنْفُسَهُن محزوناتٍ عند قيامهن بها ، فلا كَدَرَ ولا غُبُوسَ مطلقاً ، وكلُّ ما يجب أن يَدْخُلَ في القلب يجب أن يَخْرُجَ منه ، ويجب أن يكون كتابهن الخُلُقِيُّ مختصراً واضحاً مثل كتابهن الدينيّ ، ولكن

لا ينبغي أن يكون وزيناً ، وأطلعوهنَّ ، في الواجبات عيِّنها ، على مصدر
لهوهم وأساس حقوقهن ، وهل من الشاقَّ أن يُحِبَّ الإنسانُ حتى يُحِبَّ ،
وأن يَظْهَرَ أنيساً ليكون سعيداً ، وأن يصير جليلاً ليُطَاعَ ، وأن يُكْرِمَ نفسه
ليُكْرِمَ ، ويا لروعةِ هذه الحقوق ! ويا لكونها أهلاً للاحترام ! ويا لكونها
عزيزةً على قلب الرجل إذا ما عَرَفَتِ المرأةُ أن تنفع بها ! ويجب ألاَّ
تُنْتَظَرَ السُّنُونُ ولا الشَّيْبُ للتمتع بها ، فسلطانُ المرأةِ يَبْدَأُ مع فضائلها ،
ولا تكاد جواذِبُها تَنُمُو حتى تَسُوْدَ بدمائِها جاعلةً تواضعها باهراً ، وأىُّ
رجلٍ فَظٍّ غليظٍ لا يُبْلِنُ خِيَلَاءَهُ ولا يَتَّخِذُ مِنَ الأَوْضَاعِ أَدْعَاها إلى
الانتباه بجانب فتاةٍ في السادسة عشرة من سِنِّها محبوبةٍ حكيمةٍ صَمُوتٍ
قليلةِ الكلام ذاتِ احتشامٍ في أوضاعها وصلاحٍ في أحاديثها فلا يُنْسِيها
حُسْنُها جنسها وفتاءها ، فتَقِفُ بِحِيَاثِهَا النَّظَرَ وَتَجْلِبُ إِلَى نَفْسِهَا مَا تَحْمِلُ
إلى جميع الناس من إكرام .

ومع أن تلك الدلائلَ خارجيةٌ فإنَّها ليست خاليةً من المعنى مطلقاً ،
وهي ليست قائمةً على جَذْبِ الحواسِّ وحدها مطلقاً ، وهي تنشأ عن هذا
الشعور الباطنيِّ الذي يَسَاوِرُنَا جميعاً والقائلِ إن النساء قاضياتُ طبيعيات
في مقدرة الرجال ، ومن ذا الذي يُريدُ أن يكون مُزْدَرًى من قِبَلِ
النساء ؟ لا أحدَ في العالم ، حتى الذي عاد راغباً عن حُبِّه لهن ، وهل
تَفْتَقِدُونَ أني لا أكثرُ لأحكامهنَّ مع أني أخطبهنَّ بمقتضى قاسيةٍ
جِدًّا ؟ كلاً ، فأصواتهنَّ أَعَزُّ علىَّ من أصواتكم أيها القراء الذين هم أكثرُ
منهنَّ نِسْويَّةً ، فإذا كنتُ أزدري أخلاقهن فأنى لا أزال أريدُ إكرامَ

عَذْلِهِنَّ ، وَإِذَا كُنْتُ مُلْزِمًا لهنَّ يَا كَرَامِي فَلَا أَبَالِي بِكَرْهِهِنَّ لِي
إِلَّا قَلِيلًا .

وما أعظمَ الأمورَ التي تُصَنِّعَ بهذا النابض إذا ما عُرِفَ استعماله !
وَوَيْلٌ للعَصْرِ الذي يَفْقِدُ النساءُ فيه نفوذَهُنَّ فلا يَكُونُ لأحكامِهِنَّ عملٌ
في الرجال ! وهذه هي آخرُ درجةٍ من الانحطاط ، وقد أكرمت النساءُ جميعُ
الشعوب التي كانت على شيء من الأخلاق ، وانظروا إلى إسبارة ، وانظروا
إلى الجرمان ، وانظروا إلى رومة ، إلى رومة التي كانت مَقَرَّ المجدِ والفضيلة ،
لَتَرَوْا ما كان لهن عند هذه الأمم من مقام ، وفي رومة كان النساءُ يُشَدَّنَ
بمفاخر أكبر القواد ، وكنَّ يَبْكِينَ آبَاءَ الوطنِ جَهْرًا ، وكانت تُدَوِّرُهُنَّ
أو حِداداتِهِنَّ الموقوفةُ عليهم أعظمَ ما في الجمهوريّة من حُكْمٍ احتفاليّ ،
وكانت جميع الثورات الكبيرة تَصْدُرُ عن النساء ، ومن ذلك أن نالت رومةُ
الحريةَ بفضل امرأة ، وأن نال العوامُ القنصليةَ بفضل امرأة ، وأن انتهى
استبداد الحكم العشرة بفضل امرأة ، وأن أنقذَ النساءُ رومةَ المحاصرةَ من
يَدِ طَلِيلٍ ، ويا أيها الفرنسيون من ذوى الشهامة ماذا كنتم تقولون عند ما
تَرَوْنَ مرورَ هذا المَوْكَبِ المثيرِ للضحك كثيرًا في أعينكم الساخرة ؟ كنتم
تقابِلُونَهُ بَصَرَخاتِ الهزوء ، ويا لاختلافنا في النظر إلى عين الأشياء ! ومن
المحتمل أن يكون الحقُّ بجانبى وجانبكم ، وأنَّثُوا هذا المَوْكَبَ من جِسَانِ
الفرنسيات تَمِجْدُونِي لَا أَعْرِفُ ما هو أكثرُ حِشْمَةٍ منه ، ولكنكم إذا
ما أَلْقَيْتُمُوهُ من رومانيات كانت لكم كلُّكم عيونُ الفولسك وقلبُ
كُورْيُولان .

وأقول أكثر من ذلك وأذهب إلى أن الفضيلة ليست أقلّ ملائمةً
للحبّ من حقوق الطبيعة الأخرى ، وأن سلطان الخليلات ليس أقلّ ربحاً
بها من ربح سلطان الزوجات والأمهات ، ولا يُوجدُ حبٌّ حقيقىٌ بلا هيامٍ ،
ولا يُوجدُ هيامٌ بلا موضوعٍ كمالٍ ، حقيقياً كان هذا الموضوعُ أو وهمياً ،
ولكن مع وجوده فى الخيال دائماً ، ولم يَلْتَمِمْ حَوْلَ عِشَاقٍ لا يُبَالُونَ
بهذا الكمال ولا يَرَوْنَ فيمن يُحِبُّونَ غيرَ موضوعٍ لذّةٍ للحواس ؟ كلاً ،
لا تَضْطَرِّمُ النفسُ ، ولا تَسْتَسْلِمُ ، على هذا الوجه إلى هِياجٍ سَيِّئٍ يُوجِبُ
هذيانَ العاشقين وفُتُونَ هَواهم ، ولا شَيْءَ غَيْرُ وَهمٍ فى الغرامِ كما أُعْتَرِفُ ،
ولكن الحقيقى هو ما يَنْعُشُنَا بِمِشَاعِرَ حَوْلَ الجِمالِ الصَّحيحِ فَيَحْمِلُنَا على
حُبِّهِ ، وليس هذا الجِمالُ فى الشَّيْءِ الَّذِى يُحِبُّ مطلقاً ، وإنما هو من عَمَلِ
تصوّرنا ، وَى ! وما الأمر ؟ وهل نحن أقلُّ تَضْحِيَةً بِجميعِ هذه المِشَاعِرِ المُنْحَطَةِ
فى سبيلِ ذاك النَّمُودَجِ الخيالى ؟ وهل قَلْبُنَا أَقلُّ تَقَبُّلاً للفضائل التى تُعْزَى
إلى من يُحِبُّ ؟ وهل نحن بذلك أقلُّ انفصالاً عن الذاتية البشرية ؟ وأين
هو العاشقُ الحقيقى الذى لا يَسْتَعِدُّ للتضحية بنفسه فى سبيلِ خليلته ؟ وأين
هو الهوى الشَّهْوانى الغليظُ فى الرجل الذى يَطْلُبُ الموت ؟ وإذا كُنَّا
نَسْتَهْزِئُ بِأمرائِ البَلَّاطِ القدماءِ فَلأنهم يَعْرِفُونَ الحُبَّ ولأننا لا نَعْرِفُ غَيْرَ
الفُجُورِ ، وعند ما أخذتُ هذه المبادئ الروائية تصير مهزىءً كان هذا التحولُ
وليدَ سَيِّئِ الأخلاقِ أكثرَ من أن يكون من عملِ العقل .

ومهما يَكُنُ العَصْرُ فإنَّ العلاقاتِ الطَّبِيعِيَّةَ لا تتغيرُ مطلقاً ، وَيَبْقَى
ما يَنْشَأُ عنها من خيرٍ أو شرٍّ كما هو ، ولا تُغَيِّرُ المُبْتَسِرَاتُ منها غَيْرَ

الظاهر مستترةً تحت اسم فارغ للعقل ، ومن أعظم الأمور وأجلها دائماً أن يسيطر الإنسان على نفسه ولو خضوعاً لآراء وهمية ، وستُخاطب بواعثُ الشرف ، دائماً ، قلب كل امرأةٍ حَوْلَ ما تَطْلُبُ من حُكْمٍ في سعادة الحياة ضِمنَ حالها ، ويجب أن يَكُون الطُّهُرُ ، على الخصوص ، فضيلةً لذينةً تَتَجَمَّلُ بها المرأةُ الحسناء التي تكون على شيء من سُمُو النفس ، وبينما تَرَى جميعَ الأرض عند قدميها تَفُوزُ بنفسها وبكل شيء ، وهي تُقِيمُ في قلبها الخاصِّ عَرِشاً يَأْتِي الجميعُ لتكريمه ، وما يَكُون من مشاعرٍ ناعمةٍ أو غَيْرِيٍّ ، ولكن مع توقيرٍ للجنسين ، وما يكون من تقديرٍ عامٍّ وخاصٍّ ، يُسَلِّفُها معاركٍ لأَوْقَاتٍ ضَرِيَّةٍ ، أَجَلٌ ، إن الحرمان أمرٌ عابر ، غير أن ثمنه دائم ، وأيةُ مُتَمَعَةٍ تَتَّفَقُ للنفس الكريمة التي يُضَافُ زَهْوُ الفضيلة إلى جمالها ! واجعلوا منها بَطَلَةً رَوَايَةً لَتَذُوق من اللذات ما هو أطيبُ مما نالت لَآيِسُ وكليوباترة ، وعندما يَعُودُ جمالها غيرَ موجود يَبْقَى لها مجدُها ونُعْمَاهَا ، وهي تَعْرِفُ أن تتمتع بالماضي وخذها .

وكما كانت الواجبات شاقّةً عظيمةً وَجَبَ أن تكون الأسبابُ التي تَقُومُ عليها واضحةً قويةً ، ويوجد من الكلام الوَرَع ما يدور حَوْلَ أكثرِ الموضوعاتِ جِدِّيَّةً فَيَقْرَعُ آذَان الشبيهة من غير أن يُوَدِّى إلى إقناع ، ومن هذا الكلام غيرِ المتناسب مع أفكارها ، والذي لا تقيم له في السِّرِّ وزناً ، تُولِّدُ سهولةً انقيادها لِمُيُولِها ، وذلك عن عدم وجود أسبابٍ لمقاومتها ناشئةٍ عن الأمور نفسها ، أَجَلٌ ، إن البنت التي نَشَتَتْ تَنْشِئَةً حَكِيمَةً تَقِيَّةً تكون مُجَهَّزَةً بِأَسْلِحَةٍ لمقاومة الشّهوات ، بَيِّدَ أن البنت التي يَفْذَى

قَلْبُهَا حَصْرًا ، وَإِنْ شئتَ قَلَّ أَذْنُهَا ، بِرِطَانَةِ التَّقْوَى تَذْهَبُ ، لَا مَحَالَةَ ،
 فَرِيسَةً أَوَّلِ غَاوٍ مَاهِرٍ يَتَصَدَّى لَهَا ، وَلَا تَزْدِرِي الْفِتَاةُ الْحَسَنَاءُ بِدَنِّهَا ،
 وَلَا تَأْسَفُ ، صَادِقَةً ، عَلَى الذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي حَمَلَهَا جَمَالُهَا عَلَى اقْتِرَافِهَا ،
 وَلَا تَبْكِي أَمَامَ الرَّبِّ مُخْلِصَةً عَنْ كَوْنِهَا مَوْضِعَ اشْتِهَاءٍ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ
 تَقْنَعَ فِي نَفْسِهَا بِأَنْ أَحْلَى حَسَنٍ قَلْبِي هُوَ مِنْ صُنْعِ الشَّيْطَانِ ، وَأَعْطَوْهَا
 أَسْبَابًا أُخْرَى فِي الدَّخْلِ وَمِنْ أَجْلِ نَفْسِهَا ، وَذَلِكَ لَعْدَمِ تَأْثِيرِ تِلْكَ ، وَأَسْوَأُ مِنْ
 ذَلِكَ ، أَيْضًا ، أَنْ يُوضَعَ تَنَاقُضٌ فِي أَفْكَارِهَا كَمَا يُصْنَعُ غَالِبًا ، وَأَنْ يُجْعَلَ مَحَلٌّ
 لِجَلَالٍ مِثْلِ هَيْكَلِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ، بِدَنِّهَا الَّذِي أَزْدَرَتْ كَثِيرًا بَعْدَ أَنْ أُذِلَّ
 بِإِرْذَالِهِ ، وَتَكُونُ الْأَفْكَارُ الْبَالِغَةُ السُّمُوءُ وَالْوَضِيعَةُ جِدًّا نَاقِصَةً عَلَى السَّوَاءِ
 وَلَا يُمَكِّنُهَا أَنْ تَتَشَارَكَ ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَقْلِ يَكُونُ فِي مُتَنَاوَلِ الْجِنْسِ النَّسْوِيِّ
 وَسِتِّهِ ، وَلَا يَكُونُ لاعتبارات الواجب قُوَّةٌ مَا لَمْ تُضَفْ إِلَيْهَا بَوَاعِثُ تَحْمِلُنَا
 عَلَى الْقِيَامِ بِهِ .

« فَالَّتِي لَا تَقْتَرِفُ ذَنْبًا إِلَّا لِأَنَّهَا مُنِعَتْ مِنْهُ نَعْدُ »

« سَاقِطَةٌ فِي الذَّنْبِ »

وَلَا يُظَنُّ أَنْ أُؤْفِدَ هُوَ الَّذِي يُصْدِرُ حُكْمًا بِالْقَا هَذِهِ الشَّدَّةُ .
 وَلَئِنْ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَوْحُوا بِحُبِّ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ إِلَى الْفَتَيَاتِ فَلَا
 تَقُولُوا لَهُنَّ : « كُنَّ حَسَنَاتِ السُّلُوكِ » ، وَإِنَّمَا اجْعَلُوا مِنْ مَصْلَحَتِهِنَّ الْكَبِيرَةِ
 أَنْ يَكُنَّ حَسَنَاتِ السُّلُوكِ ، وَاجْعَلُوهُنَّ يَشْعُرْنَ بِقِيَمَةِ حُسْنِ السُّلُوكِ ،
 وَحِينَئِذٍ تُحِبُّبُونَهُ إِلَيْهِنَّ ، وَلَا يَكْفِي أَنْ يُطْلَعْنَ عَلَى هَذِهِ الْمَصْلَحَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ،
 وَإِنَّمَا أَظْهِرُوهَا لَهُنَّ فِي السَّاعَةِ الْحَاضِرَةِ ، وَذَلِكَ فِي صَلَاتِ عُمْرِهِنَّ وَفِي

أَخْلَاقَ عَشَاقِهِمْ ، وَصَفُوا لَهُنَّ رَجُلَ الْخَيْرِ وَرَجُلَ الْفَضْلِ ، وَعَلَّمُوهُنَّ أَنْ
يَعْرِفْنَهُ وَيُحِبِّبْنَهُ ، وَأَنْ يُحِبِّبْنَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِهِنَّ ، وَأَثْبِتُوا لَهُنَّ أَنَّ هَذَا
الرَّجُلَ وَحْدَهُ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُنَّ سَعِيدَاتٍ ، صَدِيقَاتٍ كُنَّ أَوْ زَوَاجَاتٍ أَوْ
خَلِيلَاتٍ ، وَاجْتَبُوا الْفَضِيلَةَ بِالْعَقْلِ ، وَاجْعَلُوهُنَّ يَشْمُرْنَ بِأَنْ سُلْطَانَ جَنْسِهِنَّ
وَجَمِيعَ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مَنَافِعَ أُمُورٍ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى حَسَنِ سُلُوكِهِ هَذَا
الْجَنْسِ وَأَخْلَاقِهِ فَقَطْ ، بَلْ تَتَوَقَّفُ عَلَى حَسَنِ سُلُوكِ الرِّجَالِ وَأَخْلَاقِهِمْ أَيْضًا ،
وَبِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُنَّ غَيْرُ سَبِيلٍ قَلِيلٍ عَلَى النُّفُوسِ الْحَقِيرَةِ السَّاقِطَةِ ، وَبِأَنَّ الْعَاشِقَ
لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِخِدْمَةِ خَلِيلَتِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِخِدْمَةِ
الْفَضِيلَةِ ، وَهَنَالِكَ يَقُولُوا بِأَنَّكُمْ إِذَا مَا قُتِمَ بَوَصْفِ أَخْلَاقِ زَمَانِنَا أَوْ حَتِّمَ إِلَيْهِنَّ
بِنُفُورٍ صَادِقٍ مِنْهَا ، وَإِذَا مَا أَرَيْتُمُوهُنَّ مَنْ هُمْ عَلَى الْمَوْضِعِ جَعَلْتُمُوهُنَّ
يَزْدَرِيَنَّهُمْ ، وَلَمْ تَوَدُّوا إِلَى غَيْرِ ابْتِعَادِهِنَّ عَنْ مِبَادِئِهِمْ وَكُرْهِهِمْ لِإِحْسَاسَاتِهِمْ
وَاحْتِقَارِهِمْ لِمَغَازِلَاتِهِمْ ، وَبَذَرْتُمْ فِيهِمْ طُمُوحًا أَكْثَرَ نُبْلًا ، أَيْ طُمُوحَ السَّيْطَرَةِ
عَلَى النُّفُوسِ الْكَبِيرَةِ الْقَوِيَّةِ ، أَيْ طُمُوحَ نِسَاءِ إِسْبَارِطَةِ الَّذِي كَانَ قَائِمًا
عَلَى قِيَادَةِ الرِّجَالِ ، وَمِنْ عَمَلِ الْمَرْأَةِ الْخَالِقَةِ الْعِذَارِ الْمُتَهَكِّمَةِ الْأَرَاغَةَ الَّتِي
لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْتَذِبَ عَشَاقَهَا إِلَّا بِالْفُنَّاجِ ، وَلَا تَحْتَفِظُ بِهِمْ إِلَّا بِالْأَلْفَافِ ، أَنْ
تَحْمِلَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ كَمَا يُحْمَلُ الْأَجْرَاءُ عَلَى الْأُمُورِ الْخَسِيسَةِ الْمَعْتَادَةِ ، وَأَمَّا
فِي الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ الرَّصِينَةِ فَلَا سُلْطَانَ لَهَا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ اللَّطِيفَةَ
الْعَاقِلَةَ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تُنْزِمُ ذَوِيهَا بِاحْتِرَامِهَا ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ الرَّزَانَ
وَذَاتَ الْحَيَاءِ ، أَيْ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَدْعُمُ الْحُبَّ بِالْإِكْرَامِ ، تُرْسِلُهُمْ بِإِشَارَةٍ

منها إلى أقاصى الدنيا وإلى الحرب وإلى المجد وإلى الموت حيث تُريد^(١) ،
فهذا السلطانُ رائعٌ ، وهو يستحقُّ أن يُشترى .

وهذه هى الروحُ التى نُسِّتَ عليها صُوفيةٌ ، وذلك بعنايةٍ أكثرَ مما
بمَشَقَّةٍ ، وباتِّباعِ ذوقها أكثرَ مما بِحَضْرِهِ ، والآن لننقلُ كلمةً حَوْلَ شخصها
وَفَقَّ ما وَصَفَتْها به لإميل ووفَّقَ ما يَتَمَثَّلُ إميلُ بنفسه الزوجة التى يُمكنُ
أن تَجْعَلَه سعيِّداً .

ولا أُكرِّرُ كثيراً تَرَكي النادرين جانباً ، فليس إميلُ منهم ، وكذلك
صُوفيةٌ ليست منهم ، وإميلُ رجلٌ ، وصُوفيةٌ امرأةٌ ، وعلى هذا يَقُومُ
فخرُهما ، وفى زماننا الذى يَخْتَلطُ فيه الجنسَانِ يُعَدُّ من المعجزات ، تقريباً ،
أن يُلزَمَ الواحدُ جنسَه .

وصُوفيةٌ حسنةُ الولدِ ذاتُ موهبةٍ طبيعيةٍ ، ولها قلبٌ حَسَّاسٌ جداً ،
وهذه الحساسيةُ المتناهية تُنْعِمُ عليها ، أحياناً ، بنشاطٍ فى الخيالِ يَضْعُبُ
تَعْدِيلَه ، ولها ذهنٌ ناقبٌ أكثرُ منه صائباً ، ولها مزاجٌ لَيِّنٌ مع تَقَلُّبٍ ،
ولها وجهٌ معتادٌ ، ولكنه مستَحَبٌّ ، ولها سِيمَا تَنِمُّ على روحٍ ولا تَكْذِبُ ،

(١) روى برانتوم أن فتاة فى عهد فرنسوا الأول كان لها عاشقٌ ثرثارٌ ففرضت عليه صمتاً مطلقاً
لا حد له ، فلزمه بإخلاص مدة عامين كاملين ، فظن أنه أبكم عن مرض ، وفى ذلك الحين كان الغرام
يتم فى جوهر الكتمان فلم يعرف أحد أن تلك الفتاة خلياته ، وما حدث فى أحد المجالس ذات يوم أن
تجمعت بأنها تشفيه من فوره فلم تقل له غير كلمة « تكلم » ، ألا يوجد شيء بطل عظيم فى ذلك الحب ؟
وماذا كانت فلسفة فيثاغورس تصنع أكثر من هذا مع ما هى عليه من فخامة ؟ أما كان الخيال يذهب إلى
رب ينم على إنسان بعضو الكلام ؟ وأية امرأة تستطيع اليوم أن تعتمد على مثل هذا الصمت يوماً واحداً
مهما دفعت من ثمن تقدر عليه ؟

وهي يُمكن أن تقابل بلا اكتراث ، ولكنها لا تُترك بلا اهتزاز ،
ويُوجدُ مَنْ هُنَّ ذواتُ صفاتٍ تُعوزُها ، ويُوجدُ مَنْ هُنَّ ذواتُ صفاتٍ
كصفاتها على أوسعِ مقياسٍ ، ولكنك لا تجِدُ واحدةً منهن ذاتَ صفاتٍ
أحسنَ توافقاً من صفاتها في تأليفِ طَبيعٍ سعيدٍ ، حتى إنها تستطيع
الانتفاع من عيوبها ، فلو كانت أكثرَ كمالاً لظَهَرَتْ أَقْلٌ وقوعاً
موقعَ الرضا ..

وليست صُوفيةً جميلةً ، ولكن الرجال يَنسَوْنَ الحِسانَ بجانبها ،
ولا يَرْضَى الحِسانُ عن أنفسهن إذا ما كُنَّ بالقُربِ منها ، وهي لا تكاد
تكون مليحةً عند أول نظرة ، ولكنها بزْدانِ كلما نُظِرَ إليها ، وهي تَرْجَحُ
حيث يَخْسَرُ غيرها ، وهي لا تَخْسَرُ ما تَرْجَحُ ، أَجَلٌ ، يُمكن أن
تكون إحدى النساء أَجَلَ منها عيناً ، وأحسنَ منها فماً ، وأروعَ منها
وجهاً ، ولكنك لا تَرى من هي أَفْضَلُ منها قامَةً ، وألطفُ منها لوناً ،
وأبيضُ منها يداً ، وأصغرُ منها رِجلاً ، وأعذبُ منها نظرةً ، وأفعلُ منها
مُحِبًّا ، وهي تَقِفُ النظر من غير أن تَبْهَرُ ، وهي تَقِفُ من غير أن
يُعْرِفَ السبب .

ومُحِبُّ صُوفيةً الزينةَ ، وهي تَعْرِفُ أن تَرْجَحُ ، ولا تَعْرِفُ أَثَمًا
لنفسها ماشطةً غيرها ، ولديها ذُوقٌ كبيرٌ في حُسنِ اللباسِ ، ولكنها
وتكره الثيابَ الفاخرةَ ، وأنت تُبْصِرُ في ثوبها بساطةً مع الأناقة دائماً ،
وهي لا تَرْغَبُ في الساطعِ ، بل تَرْغَبُ في اللائقِ ، وهي تَجْهَلُ أَى
الألوان يكون على الموضة ، ولكنها تَعْرِفُ الألوان التي تلائمها بما يُشِيرُ

العجب ، ولا تَجِدُ فتاةً تُلوح لابسةً مع قليلٍ تَصْنَعُ ومُزينةً مع كثيرٍ تَكْلِفُ ، ولا تستعملُ قطعةً مصادفةً ، ومع ذلك لا تُبَصِّرُ في أيٍّ من ذلك تَعْمَلًا ، وتكون زينتها كثيرة البساطة ظاهراً كثيرة الظرافة حقيقةً ، وهي لا تَعْرِضُ محاسنها مطلقاً ، وهي تُخْفِيها ، ولكنها ، إذ تُخْفِيها ، تَعْرِفُ أن تَحْمِلَ على تَصَوُّرها ، ويقال عندما تُرَى : « هذه فتاة متواضعة عاقلة » ، ولكنكم إذا ما بَقِيتُمْ بجانبها جالت عيُونكم وأفدتكم في جميع شخصها من غير أن تستطيعوا فَضْلُها عنها ، فيقال إن هذه الزينة البسيطة بهذا المقدار لم تَوْضَعْ في محلِّها إلا لتُنَزَّعَ منه قطعةٌ بعد الأخرى بالخيال .

ولصُوفية مواهبٌ طبيعيةٌ ، وهي تَشْعُرُ بها ، ولم تُهْمِلْها ، ولكن بما أنه لم يُتَخَذْ لها بَدَلٌ كثيرٌ حَذَقَ في تثقيف هذه المواهب فقد اكتفت بتمرين صوتها الجليل على الغناء مع الإحكام والذوق ، وتمرين رجلها الخفيفتين على المشي برشاقة وسهولة ولطافة ، كما مرَّرت نفسها على الجمالة في جميع الأوضاع بلا عُسْرٍ ولا جفاء ، ثم إنه لم يَكُنْ لها معلمٌ للغناء غير أبيها ، ولم تكن لها معلمةٌ للرقص غير أمِّها ، وقد تَلَقَّتْ من أُرْغُفِيَّ جارٍ لها دروسَ مسابقةٍ في العزف على البيان فأكَبَتْ عليها وحدها زمناً طويلاً ، وكان أولَ ما فَكَّرَتْ فيه إظهارُ يدها بتفوقٍ على تلك المفاتيح السود ، ثم وَجَدَتْ أن صوتَ البيانِ الحادَّ الجافَّ يَجْعَلُ رَنِينَ الصوت أكثرَ حلاوةً ، ثم صارت بالتدريج عارفةً بالإيقاع ، وأخيراً أخذت ، بعد أن كَبُرَتْ ، تَشْعُرُ بِقُوَّةِ الأداء وتُحِبُّ الموسيقى لنفسها ، ولكن

هذا ذوقٌ أكثر من أن يكون نبوغاً ، وهي لا تعرف أن تقرأ لحنًا على النوتة مطلقاً .

وأحسن ما تعرفُ صُوفيةٌ وما عُلِّمَتْه بأعظم عنايةٍ هو أشغالُ جنسها ، حتى التي لا تخطر ببالكم مطلقاً ، كتفصيل ثيابها وخطِّها . ، ولا يوجدُ شغلٌ بالإبرة لا تعرفه ولا تأتيه بلذّةٍ ، غير أن التخريم هو الشغلُ الذي تفضّله على سواه ، وذلك لأنه لا يوجدُ كالتخريم شغلٌ يَمْنَحُ وضْعاً أعظمَ لطافةً وتزاوله الأصابعُ بظرافةٍ وخِفّةٍ ، وكذلك تعاطت جميعُ أمور المنزل مُفَصَّلاً ، وهي تعرف الطهوَ وخدمةَ الشفرةَ ، وهي تعرف أثمانَ الموادِّ الغذائية وخواصّها ، وهي تعلمُ قِيَدَ الحسابات جيداً ، وهي تصلحُ أن تكونَ رئيسةَ خدامٍ لأمّها ، وهي إذ كَوُنَتْ لتكونَ أمّ أسرةٍ ذاتِ يومٍ ، وهي إذ تتعلّمُ إدارةَ منزل أبيها ، تتعلّمُ إدارةَ منزلها ، وهي تستطيع أن تقومَ بوظائف الخدم فتفعلُ هذا طَوْعاً ، وما كنتم لتعرفوا أن تحسِنوا الأمرَ بشيءٍ لا يُمكنكم أن تُنفّذوه بأنفسكم ، وهذا هو السببُ في شغلِ أمّها إياها على هذا الوجه ، وما كانت صُوفيةٌ لتُبتعدَ في الموضوع بهذا المقدار ، فواجبُها الأول هو واجبُ البنت ، وهذا الواجبُ وحده هو الذي ترى أن تقومَ به في الوقت الحاضر ، وكلُّ ما تنظرُ إليه هو أن تتخدّمَ أمّها وأن تُخَفِّفَ عنها بعضَ أعمالها ، ومع ذلك فإن من الواقع أنها لا تقومُ بجميع هذه الأعمال بلذّةٍ متساوية ، ومن ذلك مثلاً أنها لا تحبُّ الطهوَ مع أنها نهمةٌ ، وذلك لما تنطوى عليه جزئياته من عواملٍ نفورها ، فما كانت لتجدَ فيه نظافةً كافيةً ، وهي فوقَ ذلك ذاتُ لطافةٍ متناهية ، فلما أفرطت

في هذه اللطافة تَحَوَّلَتْ إلى إحدى نقائصها ، وهى تَفَضُّلُ أن تأكل النارُ جميعَ الغدَاء على تلويث كُمِّها ، وهى لم تَرْغَبْ ، قَطُّ ، فى تَفَقُّدِ الحديقة لذاتِ السبب ، فالترابُ يَلُوح لها أنه قَدِرٌ ، وهى إذا ما رأت الزُّبُلَ خَيَّلَ إليها أنها تَشَمُّ رائحته .

وهذه النقيصةُ نتيجةُ دروس أمِّها ، وعندها أن النظافة من أول واجبات المرأة ، هذا الواجبُ الخاصُّ اللازمُ المفروضُ من قِبَلِ الطبيعة ، ولا يُوجَدُ فى العالمِ شَيْءٌ أدعى إلى الاشتىزاز من امرأةٍ قَدِرَةٍ ، ولا يَكُونُ الزوجُ الذى يشمُّ منها مخطئاً مطلقاً ، والأمُّ قد أكثرتْ من وَعَظِ ابنتها بهذا الواجب منذ طفولتها ، وهى قد استازمت كثيرَ نظافةٍ لنفسها وثيابها وغرفِها وشغلها وزينتها ، فتحوَّلت هذه العناية إلى عادة وصارت تستوعب قسماً كبيراً من وقتها مع السيطرة على القسم الآخر ، فلا يأتى إتقانُ ما هى مكلفَةٌ بصنعه فى غير المرتبة الثانية من جهودها ، وأما المرتبة الأولى فهى وَقَفَتْ على صنعه نظيفاً .

ومع ذلك فإن جميع هذا لم يَنَحِطْ إلى تَصَنُّعٍ فارغ ، ولا إلى نعيم ، فلا محلَّ هناك لدقائق الترف ، وما كان ليدخلُ منزلها غيرُ الماء الزُّلال ، وما كانت لتَعْرِفَ عِطْراً غيرَ شَذَا الأزهار ، وما كان زوجها ليَشَمَّ ما هو أحرى من نَكْهَتِها* ، ثم إن ما يُعْبِرُهُ المَظْهَر من عناية لا يُنْسِيها أنها مدينةٌ بحياتها وزمانها لعواملٍ أكثرَ نُبْلاً ، فهى تَجْهَلُ أو تزدري هذا الإفراط فى نظافة البدن التى تُدَنِّسُ الرُّوحَ ، فصُوفِيَةٌ أَكْثَرُ من نظيفة ، هى طاهرة .

* النكهة : رائحة الفم .

وقلتُ إن صُوفية نَهْمَةً ، ومن الطبيعيُّ أن كانت نَهْمَةً ، يَبْدُ أنها صارت قَنُوعًا عن عادةٍ ، والآن هي قَنُوعٌ عن فضيلةٍ ، ولا يُوْجَدُ من البنات ، كما يُوْجَدُ من البنين ، مَنْ يُمَكِّنُ أن يُسَيِّطِرَ عليهنَّ بالنَّهْمِ إلى حَدٍّ ما ، وليس هذا الميلُ بلا عواقبَ في الجنسِ النِّسْوَ مطلقاً ، فمن الخطرِ الكبير أن يُتْرَكَ وشأنه ، وكانت صُوفيةُ الصغيرة في طفولتها ، إذا ما دخلت غرفةَ أمِّها وحدها ، لا تَرْجِعُ منها فارغةً دائماً ، فهي لم تكن أَمِينَةً عند كلِّ امتحانٍ حَوْلَ أقراصِ الشُّكْرِ والمُلَبَّسات ، وقد فاجأتها أمُّها وعزَّرتها وعاقبتها وصَوِّمَتْها ، وأخيراً وَفَّقَتْ أمُّها لإقْناعها بأن المُلَبَّسَ يُفْسِدُ الأسنانَ وبأن النَّهْمَ يُضَخِّمُ القَوَامَ ، وهكذا أصلحت صُوفيةُ نَفْسِها ، فلما كَبُرَتْ انتَحَلَتْ من الأذواقِ ما حَوَّلَها عن تلكِ الحَسِّيَّةِ الوضعيةِ ، والقلبُ إذا ما انتعش عند النساءِ كما عند الرجالِ عاد النَّهْمُ لا يكون قِيَصَةً مَسْبُطَةً ، وقد حافظت صُوفيةٌ على الذوقِ الخاصِّ بِجنسِها ، فهي تُحِبُّ الألبانَ والحلَاوَى ، وهي تَحِبُّ المَعْجُونَاتِ والمَأْدُومَاتِ ، ولكن مع مَبِيلٍ قليلٍ إلى اللحمِ ، وهي لم تَذُقْ ، قطُّ ، خمرًا ولا مُسْكِرًا مُقَطَّرًا ، وهي ، فضلاً عن ذلك ، معتدلةٌ كُلُّ الاعتدالِ في طعامها ، ولا غَرَوَ ، فجنسُها أَقْلٌ كَذْحًا من جنسِنا ، ولِذا فهو أَقْلٌ من هذا احتياجًا إلى تجديدِ النشاطِ ، وهي في كلِّ شيءٍ تُحِبُّ ما هو طيبٌ وتَعْرِفُ أن تَذُوقَهُ ، وهي تَعْرِفُ ، أيضاً ، أن تكفي بما هو غيرُ جيدٍ ، وذلك من غير أن يَصُغُبَ عليها هذا الحرمانُ .

وصُوفيةٌ مقبولةُ الذهنِ من غير تَأَلُّقٍ ، وصُوفيةٌ قويةُ الذهنِ من غير عَمَقٍ ، وصُوفيةٌ ذاتُ ذهنٍ لا يُحَدِّثُ عنه مطلقاً لِمَا لا تَبْدُو أكبرُ مما

هى عليه أو أصغر، ولها من الذهن ما تَرُوقُ به من يُكَلِّمُونَهَا دائماً وإن لم يكن من التجميل ما يطابق الفكرَ الذى يساورنا حَوْلَ تهذيب ذهن النساء ، وذلك لأن ذهنها لم يُكَوَّنْ بالقراءة قطّ ، بل كَوَّنَ بأحاديث أبيها وأُمِّها وبتأملاتها الخاصة وما تَمَّ لها من ملاحظاتٍ فيمن رأت من أناسٍ قليلين ، ومن الطبيعى أن ظهرت صوفية ذات مَرَحٍ ، حتى إنها كانت لَعُوباً فى طفولتها ، غير أن أُمَّها عُنِيَتْ بِرَجزِ مناحيها الطائشة بالتدرّج ، وذلك خشية أن يقع سريعاً من التغير المفاجئ ما تَطَّلِعُ به على الوقت الذى تكون فيه مُبْتَغَاةً ، ولِذَا فقد صارت متواضعةً متحفظة حتى قبل أن تبلغ ذلك ، والآن حَلَّ ذلك الوقت فصار أسهلَ عليها أن تحافظ على الوَضع الذى اتخذته من انتحاله مع عدم بيان السبب فى هذا التحول ، ومن الأمور المستحبة أن تُرَى فى بعض الأحيان عاكفةً ، ببقية من العادة ، على نشاط الطفولة ، ثم أن تعود إلى نفسها بغتةً فَتَبْدُو صامتةً مُطْرِقةً مُحَمَّرَةً ، ولا عَجَبَ ، فلا بُدَّ فى الدَّور الفاصل بين العُمُرَيْن من تَسَرُّبِ شَيْءٍ منهما فيه .

وصوفية من فَرَطِ الإحساس ما لا تحافظ معه على اعتدالٍ كامل فى المِزَاج ، ولكنها من فَرَطِ اللطف ما لا يكون هذا الإحساسُ معه كثيرَ الإزعاج للآخرين ، وهى لا تُؤَلِّمُ غيرَ نفسها بذلك ، وإذا ما وُجِّهَتْ إليها كلمةٌ لاذعة لم تُظهِر استياءها ، ولكن قلبها ينتفخ ، فتحاول أن تُفْلِتَ لتذهبَ وتَبْكى ، وإذا ما ناداها أبوها أو أُمُّها بكلمةٍ واحدة وهى تبكى أنتِ من فُورِها لاعبةً ضاحكةً مُكَفِّكةً دموعها بلباقةٍ محاولةً كَتَمَ زَفَرَاتِهَا .

ثم إنها غير خالية من النزوة ، فإذا ما نُخِزَتْ مِرْاجًا تَمَرَّدَتْ وَنَسِيَتْ
نَفْسَهَا ، ولكن إذا ما تَرَكَتُمْ لها وقتًا تَعُودُ فيه إلى نفسها عُدَّتْ لها
فضيلةٌ تقريباً بالوجه الذي تَمَحَّوْهُ فيه خطأها ، وإذا ما عُوقِبَتْ بَدَتْ طائفةً
خاضعةً وظَهَرَ أن حياءها يَصْدُرُ عن ذنبها أكثر مما عن عقابها ، وإذا لم
تُقَلَّ لها كلمة لم يُعَوِّزْها أن تَمَحَّوَهُ بنفسها ، ولكن بإخلاصٍ كبيرٍ ولطفٍ
كثيرٍ يتعذر معها أن يَتْرُكَ ذلك أثراً للضعيفة ، وهي تُقَبَّلُ الأرضَ أمام
أحقَرِ خادِمٍ ، وذلك من غير أن يوجب هذا الاتضاعُ أقلَّ ألمٍ فيها ، وهي
إذا ما عُفِيَ عنها نَمَّ فَرَحُها واعتباطها على مقدار الجِئَلِ الذي أُزِيحَ عن
فؤادها ، والخالصة أنها تحتل خطأ الآخرين صابرةً ، وأنها تُصْلِحُ خطأها
مسرورةً ، وهذا هو طَبْعُ جنسها الجميل قبل أن تُفْسِدَهُ ، وقد صُنِعَتْ
المرأةُ لتُدْعَنَ للرجل ، ولتَحْتَمَلَ حتى جَوْرُهُ ، ولن تُحَوَّلُوا فَتَيَاتِكُمْ إلى
النقطة عينها ، فالشعورُ الباطنيُّ يرتفع وَيُثَوِّرُ ضِدَّ الجَوْرِ ، ولم تصنعن
الطبيعةُ للتسامح فيه .

« فذاك هو الغضب المشووم الناشئ »

« عن ابن سبيلهِ الشَّرِس » .

ولصوفية دينٌ ، ولكنه دينٌ معقولٌ بسيطٌ مع عقائدٍ قليلةٍ وعباداتٍ
أقلَّ منها ، أو إنها لا تَعْرِفُ من الشمائر الجوهريّة غير الأدبيّ ، فهي
تَقِفُ جميعَ حياتها على عبادة الرَّبِّ بصُنْعٍ خيّرٍ ، وقد عَوَّدَها أبواها أن
تُبْدِيَ خضوعَ احترامٍ في جميع المعارف التي حَبَّوْها بها حَوْلَ هذا الموضوع
إذ يقولان لها : « يا بُنَيَّةُ ، إن هذه المعارف لا تناسبُ سِنَّكَ ، وسيعلمُكَ

زَوْجُكَ إِيَّاهَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ » ، ثُمَّ إِنِّهِنَّ ، بَدَلًا مِنَ الْإِسْهَابِ فِي الْكَلَامِ
عَنِ التَّقْوَى ، يَكْتَفِيَانِ بِوَعْظِهَا عَلَى مِثَالِهَا ، وَهَذَا الْمِثَالُ مَنْقُوشٌ عَلَى فَوَادِهَا .
وَتُحِبُّ صُوفِيَةَ الْفَضِيلَةِ ، وَصَارَ هَذَا الْحُبُّ هَوَاهَا الْمُهَيِّمَ ، وَهِيَ تُحِبُّ
الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَا هُوَ جَيِّلٌ كَالْفَضِيلَةِ ، وَهِيَ تَحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهُ
تُؤَدِّي إِلَى مَجْدِ الْمَرْأَةِ ، وَلِأَنَّ الْمَرْأَةَ الْفَاضِلَةَ تَبْدُو لَهَا كَالْمَلَائِكَةِ تَقْرِيْبًا ، وَهِيَ
تُحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهُ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِلْسَّعَادَةِ الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ تُحِبُّ الْفَضِيلَةَ
لِأَنَّهُ لَا تَرَى غَيْرَ الْبُؤْسِ وَالْإِهْمَالِ وَالشَّقَاءِ وَالْعَارِ وَالْخِزْيِ فِي حَيَاةِ
الْمَرْأَةِ غَيْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، ثُمَّ إِنِّهَا تُحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّ الْفَضِيلَةَ عَزِيزَةٌ عَلَى أَيْهَا
الْجَلِيلِ وَأَمَّا الْخَنُورُ الْوَقُورُ ، وَلَا يَكْتَفِي هَذَانِ الْوَالِدَانِ بِأَنْ يَكُونَا سَعِيدَيْنِ
بِفَضِيلَتِهِمَا الْخَاصَةِ ، بَلْ يُرِيدَانِ أَنْ يَسْعَدَا بِفَضِيلَتِهَا أَيْضًا ، وَهِيَ تُبْصِرُ
سَعَادَتَهَا الْأُولَى فِي رَجَائِهَا أَنْ تَجْعَلَهُمَا سَعِيدَيْنِ ، وَتُوَحِّيَ جَمِيعُ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ
إِلَيْهَا بِجَمَاسَةٍ تَرْتَفِعُ بِهَا رُوحًا وَتُعَبِّدُ بِهَا جَمِيعَ مَيُولِهَا الصَّغِيرَةِ لِهَوَى نَبِيلٍ
جَدًّا ، وَتَسْكُونُ صُوفِيَّةً طَاهِرَةً صَالِحَةً حَتَّى النَّفْسُ الْأَخِيرُ مِنْ حَيَاتِهَا ، وَقَدْ
أَقْسَمَتْ عَلَى هَذَا فِي صَمِيمِ فَوَادِهَا ، وَهِيَ قَدْ أَقْسَمَتْ عَلَى ذَلِكَ فِي وَقْتٍ
كَانَتْ تُذَكِّرُ فِيهِ كُلَّ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ الْبِرُّ مِنْ قِيَمَةٍ ، وَهِيَ قَدْ
أَقْسَمَتْ عَلَى ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَتْ تَحْنَتُ فِيهِ لَوْ كَانَتْ حَوَاشِهَا قَدْ كَوَّنَتْ
لِتَسِيطَرِ عَلَيْهَا .

وَلَمْ تَسْعُدْ صُوفِيَّةٌ بِأَنْ تَكُونَ فَاتِنَةً فَرَنْسِيَّةً ، فَاتِرَةً عَنْ مَزَاجٍ ، مِغْنَانًا
عَنْ زَهْوٍ ، رَاغِبَةً أَنْ تُشْرِقَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَرُوقَ ، بَاحِثَةً عَنِ اللَّهِ
لَا عَنْ السَّرُورِ ، وَتُضْنِيهَا ضَرُورَةُ الْحَبِّ الْوَحِيدَةِ ، وَتَشْفُلُهَا وَتُقْلِقُهَا بِالْهَوَى
(٤٧)

في الأعياد ، وقد قَدَّت مَرَحَهَا السابق ، وعادت الألعاب المَرِحَة لا تَلَامُهَا ،
وهي تَبَحْثُ عن العُزْلَة بدلاً من أن تَحْشَاهَا ، وفي العزلة تُفَكِّرُ فيمن
يجب أن يَجْعَلَهَا حُلْوَةً ، وَيُزْعِجُهَا جميع الأخلياء ، وتحتاج إلى عاشق ،
لا إلى بِطَانَة ، وتُفَضِّلُ أن تَرُوقَ رجلاً كريماً واحداً ، وأن تَقَعَ موقعَ
الرِّضَا عنده دائماً ، على أن تنال استحسان مجتمعٍ يدوم يوماً . ثم يَتَحَوَّلُ
إلى سخريةٍ في الغد .

وَيَتَكَوَّنُ الحُكْمُ في النساءِ بِأَسْرَعٍ مما في الرجال ، وبما أن النساء
يَكُنَّ في وَضْعِ المدافع منذ طفولتهن تقريباً ، وبما أنهن يَكُنَّ مُنْقَلَاتٍ
بوديمةٍ يَصْعُبُ حِفْظُهَا ، فإن الخيرَ والشرَّ يكونان معروفين عندهن بِأَسْرَعٍ مما
عند الرجال بحُكْمِ الضرورة ، وكذلك صُوفِيَّةٌ ، الناضجةُ باكراً في كلِّ
شيءٍ نتيجةً لمزاجها ، ذاتُ حُكْمٍ أَسْرَعٍ تَكُونُ مما عند البنات اللاتي
هُنَّ في مِثْلِ عُمْرِهَا ، ولا شيءَ خارقٍ للعادة في هذا ، فالْبُلُوغُ في الوقت
نفسه لا يكون على وَتيرةٍ واحدةٍ في كلِّ مكان .

وتَعْرِفُ صُوفِيَّةٌ واجباتِ الجنسَيْنِ وحقوقَهُمَا ، وتَعْرِفُ نقائصَ الرجالِ
ومعائبَ النساءِ ، وتَعْرِفُ أيضاً ما تباين من الفضائل والصفات ، وقد
طَبَعَتْهُمَا جميعاً في صميم قلبها ، ولا يُمَكِّنُ تكوينُ فكرٍ عن المرأة الصالحة أرفعَ
من الذي تَمَثَّلَتْ عنها ، وما كانت هذه الفكرة تُزْعِجُهَا مطلقاً ، ولكنها تُفَكِّرُ
بارتياحٍ أَكْثَرَ من ذاك في الرجل الصالح ، في الرجل الفاضل ، فتَحْسِبُ
أنها كَوْنَتْ لهذا الرجل الذي تَلِيْقُ به فتستطيعُ أن تُعَيِّدَ إليه السعادةَ التي
تناهاها منه ، وهي تَشْعُرُ بأنها ستَعْرِفُهُ جيداً ، فالأمرُ يتوقف على لُفْيَانِهَا إِيَّاه .

ومن الطبيعي أن يكون النساء قاضيات في مزية الرجال كما يكون الرجال قضاة في مزية النساء ، وتعد هذه من حقوقهما المتبادلة ، ولا يجهل هذا أي من الفريقين ، وتعرف صوفية هذه الحقوق وتمارسها ، ولكن مع ما يلائم فتاءها وتجربتها ووضعها من التواضع ، وهي لا تتحكم في غير الأمور التي تكون في متناولها ، وهي لا تتحكم فيها إلا عند ما ينفع هذا في تنوير بعض المبادئ المفيدة ، وهي لا تتكلم عن الغائبين إلا بحذر كبير ، ولا سيما النساء إذا ما كن غائبات ، وهي ترى أن الذي يجعلهن مقتربات هاجيات هو الحديث عن جنسهن ، فإذا ما اقتصرن على الكلام عن جنسنا لم يكن غير منصفات ، ولذا فإن صوفية تقتصر على هذا ، وأما النساء فإنها لا تتكلم عنهن ، مطلقاً ، إلا لقول عنهن ما تعرف من خير ، وهذا إكرام يجب عليها أن تقوم به نحو جنسها على ما تعتقد ، وأما اللاتي لا تعرف خيراً تقوله عنهن فلا تحدث عنهن بشيء ، وهذا يكفي .

وصوفية قليلة المعرفة بالناس ، ولكنها ذات مروءة وانتباه ، وتظهر لطفاً في كل ما تصنع ، وما فطرت عليه من طبع مبارك أنفع لها من كثير شطارة ، وهي ذات أدب خاص بها غير تابع للصنيع ، وغير مسخر للموضات فلا يتغير بتغيرها ، وغير صانع شيئاً عن عادة ، بل صادر عن رغبة صادقة في الوقوع موقع الرضا فيروق فعلاً ، وهي لا تعرف الجاملات المبتدلة مطلقاً ، ولا تبتكر من الجاملات ما ينطوى على كبير تكلف ، وهي لا تقول إنها مدينة لفضل ، أو ذاك يشرّفها كثيراً ، أو

لا يُتَعَبُ ذلكَ نفسَه ، إلخ . ، وأقلُّ من هذا أيضاً أن يَخْطُرَ ببالها
 انتحالُ جُلِّ لِنفسها ، وهى تُجِيبُ عن انبئاهِ أو أدبٍ معتادٍ بِجَنَوى
 الرأسِ أو بكلمة « شُكْراً » البسيطة ، وذلك مع العلم بأن نُطقَها بهذه
 الكلمة يُجْزِئُ عن غيرها ، وإذا ما أُسْدِيَ إليها بِخدمةٍ دَعَتْ قلبَها
 يتكلم ، وليس كلامُ الفؤاد ضرباً من المجاملات ، وهى لم تُطَقْ ، مطلقاً ،
 أن تُعَبِّدَها العاداتُ الفرنسيةُ لِنِيرِ المظاهر ، كأن تَمُدَّ يدها ، عند مرورها
 بين غرفةٍ وأخرى ، إلى ذراع شيخٍ فى الستين من عُمره مُساعِدةً له ،
 وإذا ما عَرَضَ مِغْنَاجٌ مُعَطَّرٌ عليها القيامَ بهذه الخدمة النابية تركت الذراعَ
 المُتَكَرِّمة على السُّلَّمِ وطارت إلى الغرفة بوثبتين قائلَةً إنها ليست عَرَجاء ،
 والواقعُ أنها ، وإن لم تكن طويلةً ، لم تَرُغِبْ فى الأعقابِ العاليةِ قَطْ ،
 فهى من صِغَرِ الرَّجُلَيْنِ ما تستغنى معه عنها .

ولا تلتزمُ جانبَ الصمتِ وقُومُ بالاحترام نحو السيدات فقط ، بل
 تفعل ذلك نحو الرجال المتزوجين أيضاً ، أو نحو من يَكْبُرُونَهَا فى السنِّ
 كثيراً ، وهى لا تَقْبَلُ ، مطلقاً ، مكاناً فوقهم إلا عن طاعةٍ ، ثم لا تَلْبِثُ
 أن تتخذ مقعداً لها تحتهم عند ما يُمكنُها ذلك ، فهى تَعْلَمُ أن حقوقَ
 السِّنِّ فوق حقوقَ الجنس ، وذلك لِمَا يُفْتَرَضُ من ملازمة الحكمة
 للمَشِيبِ ، والحكمةُ هى ما يجب أن يُكْرَمَ قبل كلِّ شئ .

والأمرُ غيرُ ذلك تجاه الشباب ، فهى تَسْتَلْزِمُ وضعاً مختلفاً عن ذاك نِثْلاً
 لاحترامهم ، وهى تناله من غير أن تُغَيِّرَ ما يناسبها من تواضع ، وإذا ما كانوا
 متواضعين متحفظين أمكنها أن تتخذ نحوهم ما يقتضيه الفتاه من دالَّةٍ

مستحبة ، وقامت أحاديثهم البريئة على المزاح ، ولكن مع الاحتشام ، وإذا ما التزموا جانب الجدِّ وَدَّتْ أَنْ يَكُونُوا نَافِعِينَ ، وإذا ما أَسْفُؤُوا لم تَلَبَّثْ أَنْ تُسَكِّتَهُمْ ، وذلك لأنَّ أخصَّ ما تزدريه هو رطانةُ المغاللة المِهِينَةُ كثيراً لجنسها ، وهي تَعْلَمُ جيداً أنَّ الرجل الذي تَبَحَّثُ عنه خالٍ من هذه الرطانة ، فلا تحتل ، عن اختيارٍ ، أن يَصْدُرَ عن آخر ما لا يناسبُ الرجلَ المطبوعةَ أخلاقه في صميم فؤادها ، وما عندها من رأى عالٍ عن حقوق جنسها ، وما يُسْفِرُ عن صفاء مشاعرها من زهوٍ في النفس وما تُحِمُّهُ من فضيلةٍ في نفسها فيَجْعَلُهَا محترمةً في نظرها الخاصِّ ، أمورٌ تَحْمِلُهَا على الإصغاء ، مع الغيظ ، إلى الأحاديث التافهةِ الحلاوة التي يُزَعَمُ أنها تُسَلِّيها ، أَجَلْ ، إنها لا تَتَلَقَّأها بغيظٍ ظاهر ، ولكن بهتافٍ ساخرٍ يُفْجِمُ ، أو بفتور غيرٍ منتظر ، ولو بَرَزَ لها رجلٌ جميلٌ مِثْلُ فَيْبُوسٍ فَأَظْهَرَ لها ظرافته وأبدى لها من المَلَاحة ما مَدَحَ معه جمالها وألطفها نَيْلاً لَشَرَفِ الوقوع عندها موقعَ الرضا لَوَجَدَ فيها فتاةً تُسَكِّتُهُ بقولها المؤدَّب له : « أَخْشَى كثيراً ، يا سيدي ، أن أكون عارفةً بهذه الأمور أكثر مما تَعْرِفُ ، فإذا لم يَكُنْ لدينا ما هو أَمْتَعُ من هذا الكلام فإِنِّي أَظُنُّ أننا نستطيع أن نَضَعَ حدًّا لهذا الحديث » ، وليس إِرْفَاقُ هذه الكلمات باحترامٍ كبيرٍ ثم الابتعادُ عنه عشرين خطوةً غيرَ عملٍ ثانيةٍ ، واسألوا فَاتِنِي النساءَ لديكم هل من السهل أن يَدَاوِمَ على الهَذَرِ مع نَفْسٍ غيرِ هَيِّنَةٍ كَتلك .

ومع ذلك فإن ذلك لا يَفْنِي أنها لا تُحِبُّ أن تُمدَحَ مطلقاً ، وإنما

تُرِيدُ الإِخْلَاصَ فِي الْمَدْحِ فَيُمْكِنُهَا أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ الْمَدْحَ مُؤْمَنٌ بِمَا يَقُولُ لَهَا مِنْ خَيْرٍ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَقَدْ يَلَاطِفُ الْوَلَاءُ الْقَائِمُ عَلَى التَّقْدِيرِ فَوَادَهَا الْأَبَى ، وَلَكِنْ كُلُّ غَزَلٍ خَادِعٌ يَقَابِلُ بِالرَّفْضِ دَائِمًا ، فَلَمْ تُكَوِّنْ صُوفِيَةً لِمَ تَمَارِسَ مُوَاهِبَ حَقِيرَةً كَمُوَاهِبِ الْبَهْلَوَانِ .

وَمَا كَانَتْ صُوفِيَةً لِتُعَامَلَ مِنْ قِبَلِ وَالِدَيْهَا كَمَا يُعَامَلُ الْأَوْلَادُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّضَنُّجِ فِي الْحُكْمِ وَذَلِكَ التَّكْوِينِ الْخَلِيقِ ، مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، بَفَتْةٍ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ عُمرِهَا مَعَ أَنَّهَا فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ سِنِّيهَا ، وَهِيَ لَا يَكَادَانِ يُبَصِّرَانِ فِيهَا أَوَّلَ هَوْمِ الشَّبَابِ حَتَّى يُبَادِرَا إِلَى تَلَاْفِيهَا فَيَخَاطِبَاهَا بِكَلَامٍ لَيْنٍ رَصِينٍ ، وَالْكَلَامُ اللَّيْنُ الرَّصِينُ مِمَّا يَلَامُ سَنَّا وَطَبَعَهَا ، وَإِذَا كَانَ طَبَعُهَا كَمَا أَنْصَوْرُ فَلَمْ لَا يَخَاطِبُهَا أَبُوهَا كَمَا يَأْتِي تَقْرِيْبًا :

« أَيُّ صُوفِيَةٍ ، لَقَدْ كَبُرَتْ كَمَا تَرَى ، وَتَسْتَصْبِحِينَ امْرَأَةً عَمَّا قَلِيلٍ ، وَنُرِيدُ أَنْ تَكُونِي سَعِيدَةً ، وَنُرِيدُ هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِنَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ سَعَادَتَنَا تَتَوَقَّفُ عَلَى سَعَادَتِكَ ، وَتَقُومُ سَعَادَةُ الْبِنْتِ الصَّالِحَةِ عَلَى صُنْعِ سَعَادَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وَلِذَا فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَكُّيرِ فِي تَرْوِيحِكَ ، وَيَجِبُ أَنْ يُفَكَّرَ فِي ذَلِكَ بَاكِرًا ، فَعَلَى الزَّوْجِ أَنْ يَتَوَقَّفَ مَصِيرُ الْحَيَاةِ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا وَقْتُ كَبِيرٍ لِلتَّفَكُّيرِ فِي أَمْرِهِ .

« وَلَا شَيْءٌ أَصْعَبُ مِنْ اخْتِيَارِ الزَّوْجِ الصَّالِحِ ، إِنْ لَمْ تَكُنِ الصَّعُوبَةُ فِي اخْتِيَارِ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، أَيُّ صُوفِيَةٍ ، سَتَكُونِينَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ النَّادِرَةَ ، وَتَكُونِينَ تَاجَ حَيَاتِنَا وَسَعَادَةِ أَيْمَانِنَا الْآفِلَةِ ، وَلَكِنْ مِمَّا تَكُنُ الْمَرْيَةُ الَّتِي تَتَّصِفِينَ بِهَا فَإِنَّهُ لَا يُعَوِّزُ الْأَرْضَ رَجَالٌ يَكُونُونَ أَعْظَمَ مَزِيَّةٍ مِنْكَ ،

ولا يُوجدُ في الأرض رجلٌ لا يُشرفه أن يفوزَ بك ، وفي الأرض رجالٌ تفوزين بشرفٍ منهم أكثر مما يفوزون ، ويدور الأمرُ حولَ لُقيانِ رجلٍ بلاءُكَ ، وأن يُعرفَ ، وأن يُعرفَ بك .

« ويتوقفُ أعظمُ سعادةٍ في الزواج على كثيرٍ من المواقفات التي يُمدُّ من الحماقة أن يُرادَ جمعُها كلها ، وأول ما يجبُ هو أن يُضَمَّنَ أهمُّها ، فإذا ما وُجدَت الأخرى بينها كان هذا خيراً ، وإذا لم تُوجدْ استغنى عنها ، أجلٌ ، إن السعادةَ الكاملةَ غيرُ موجودةٍ في العالم ، ولكن أعظم المصائب ، وهي التي يُمكنُ اجتنابُها دائماً ، أن يكون الإنسان شقياً بخطأٍ منه .

« ومن المواقفات ما هو طبيعيٌّ ، ومنها ما هو وُضْعِيٌّ ، ومنها ما هو تابعٌ للرأى العامِّ وحدَه ، فأما النوعان الأخيران فالأبوان قاضيان فيهما ، وأما النوع الأول فالأولادُ قضاةٌ فيه ، ويُستندُ إلى المواقفات الوضعية وإلى المواقفات التابعة للرأى العام ، حصراً ، في الزوجات التي تتمُّ بسلطان الآباء ، والأحوالُ والأموالُ ، لا الأشخاصُ ، هي التي تُزوِّجُ هنا ، غير أن جميعَ هذا يُمكنُ أن يتغيَّرَ ، والأشخاصُ وحدَهم هم الذين يَبْقَوْنَ دائماً ، والأشخاصُ يكونون حيث هم في كلِّ مكان ، وليس بغير الصَّلَات الشخصية ما يُمكنُ أن يكون الزواجُ سعيداً أو سيئاً ، وذلك على الرغم من الثراء .

« وكانت أُمك حَسِيَّةً ، وكنتُ غنياً ، وهذان العاملان وحدَهما هما اللذان سَحَلَا والدَيَّ كُلَّيْنا على جَمْعِ ما بيننا ، وقد أضعتُ أموالى ، وقد أضاعت اسمُها ، وما فائدتها اليومَ من كونها قد وُلِدَت آنسةً بعد أن

نُسِيتَ من قِبَلِ أُسْرَتِهَا ؟ لَقَدْ أَسْلَمْنَا اتِّحَادُنَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي جَمِيعِ مَصَائِبِنَا ،
وَكُنْ مِنْ تَوَافِقِ أَذْوَاقِنَا أَنْ اخْتَرْنَا هَذِهِ الْعَزْلَةَ ، فَنَعِيشُ فِيهَا سَعْدَاءَ مَعَ الْفَقْرِ ،
وَكُلُّ مَنْ كُلُّ شَيْءٍ فِي نَظَرِ الْآخِرِ ، وَصُوفِيَّةٌ هِيَ كَنْزُنَا الْمَشْتَرَكُ بَيْنَنَا ،
وَنَشْكُرُ لِلَّهِ إِعْظَمَهُ عَلَيْنَا بِهَا وَزَعَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهَا ، وَانْظُرِي
يَا بُنَيَّتِي إِلَى أَيْنَ سَاقَتْنَا الْعَنَاءُ الرَّبَّانِيَّةُ ، فَقَدْ زَالَتِ الْمَوَافَقَاتُ الَّتِي جَعَلْتَنَا
تَزُوجَ ، وَلَسْنَا سَعِيدَيْنِ بِغَيْرِ الْمَوَافَقَاتِ الَّتِي لَمْ يُؤْبَهُ لَهَا .

« وَيَجِبُ عَلَى الزَّوْجَيْنِ أَنْ يَخْتَارَ كُلُّهُمَا الْآخَرَ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ
مِثْلُهُمَا التَّجَادُلَ أَوَّلَ رَابِطَةٍ بَيْنَهُمَا ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَيْنُهُمَا وَقُلُوبُهُمَا
أَدْلَاءَ هَا الْأُولَى ، وَذَلِكَ بِمَا أَنْ وَاجِبُهُمَا الْأَوَّلُ ، بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَا ، هُوَ أَنْ
يَتَحَابَّا ، وَبِمَا أَنْ الْحُبَّ أَوْ عَدَمَ الْحُبِّ أَمْرٌ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْنَا مطلقاً ، فَإِنْ
هَذَا يَسْتَلْزِمُ وَاجِباً آخَرَ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ ، وَهُوَ أَنْ يُبْدَأَ بِالتَّحَابِّ قَبْلَ
الْإِقْتِرَانِ ، وَهَذَا هُوَ حَقُّ الطَّبِيعَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ شَيْءٌ أَنْ يَنْقُضَهُ ، وَقَدْ
عَنِىَ الَّذِينَ ضَاقُوا هَذَا الْحَقَّ ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْقَوَانِينِ الْمَدْنِيَّةِ ، بِالنِّظَامِ الظَّاهِرِ
أَكْثَرَ مِمَّا بِسَعَادَةِ الزَّوْجِ وَطِبَاعِ الْمَوَاطِنِينَ ، وَمِنْ تَمَّ تَرَيْنَ ، يَا صُوفِيَّةُ ،
أَنْتَا لَا نَعْظُكَ بِأَدَبٍ صَغْبٍ ، وَهَذَا الْأَدَبُ لَا يَهْدِفُ إِلَى غَيْرِ جَعْلِ أَمْرِكَ
بِيَدِكَ تَارِكِينَ لَكَ أَمْرَ اخْتِيَارِ زَوْجِكَ بِنَفْسِكَ .

« وَإِنَّا ، بَعْدَ أَنْ حَدَّثْنَاكَ عَنِ الْأَسْبَابِ فِي تَرْكِنَا لِكَ كُلِّ الْحَرِيَّةِ ،
يُعَدُّ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ تُحَدِّثْكَ ، أَيْضاً ، عَمَّا لَدَيْكَ مِنْ أَسْبَابٍ فِي اسْتِمَالِ
هَذِهِ الْحَرِيَّةِ بِحِكْمَةٍ ، فَيَا بُنَيَّتِي ، أَنْتَ صَالِحَةٌ رَشِيدَةٌ ، وَعِنْدَكَ إِنْصَافٌ
وَتَقْوَى ، وَلَدَيْكَ مِنَ الْمَوَاهِبِ مَا يَنْسَبُ لِلنِّسَاءِ الصَّالِحَاتِ ، وَلَسْتَ خَالِيَةً

من الألفاف ، ولكنك فقيرة ، وأنت حائزة لأكثر المحاسن أهلاً للتقدير ، ويعوزك أكثر ما يُقدَّرُ منها ، ولا تبتغي ، إذن ، غير ما تقدِّرين على نيله ، ونظمي طموحك وفق رأى الرجال ، لا على حسب أحكامك وأحكامنا ، وإذا ما دار الأمر حول تساوى المزاي فإنتى لا أدرى علام يجب أن أجعل آمالك قاصرة ، ولكن حذار أن ترفعيها إلى ما فوق نصيبك مطلقاً ، ولا تنسى أنه من المرتبة الدنيا ، ومع أن الرجل الخليق بك لا يعدُّ هذا التفاوت عائقاً فإنه لا يجوز لك أن تصنعي ، إذ ذاك ، ما لا يصنع ، فعلى صوفية أن تسير على غرار أمها ، وأن تدخل أسرة تفاخر بها ، وأنت لم ترى يُسرنا قط ، وأنت قد ولدت في دؤرٍ عُسرنا فقط ، وأنت قد جعلت فقرنا حلواً لدينا ، وأنت تقاسميننا إياه بلا عناء ، وثقي بي ، يا صوفية ، ولا تطلبي أموالاً نحمدُ الله على أنه أنقذنا منها ، فنحن لم ندق طعم السعادة إلا بعد أن خسرنا الثراء .

« أنت من كثرة اللطف ما ترؤفين معه كلَّ إنسان ، وليس يؤسك من الحال ما ينقبضُ معه صدرُ الرجل الصالح منك ، وستخطبين ، وقد تقع خطبتك من قبل أناس لا ترغبُ فيهم ، وهم إذا ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم أمكنك أن تُقدِّريهم بقيمتهم ، فما كان مظهرهم ليخدعك زماناً طويلاً ، ولكن مهما يكن من صلاح حكمك ومن حسن معرفتك بالميزية فإن التجربة تعوزك ولا تعرفين مدى قدرة الرجال على التناكر ، ومن ذلك أن الماكر الماهر يستطيع أن يدرُس أذواقك لإغوائك وأن يُظهر أمامك ما ليس فيه من الفضائل مطلقاً ، فيكون سبب ضياعك ، يا صوفية ،

قبل أن تعرفي ، ولا تعرفين خطأك إلا للبكاء ، وأشدُّ الأشرار خطراً ،
وهو الذي لا يستطيع العقلُ اتقاءه ، هو شَرُّكُ الحواسِّ ، وإذا كنتِ من
الشقاء ما تقعين فيه لم تبصري غيرَ الأحلام والأوهام ، فسُحَرُ عينك
وسَيَخْتَلُ حُكْمُكَ ، وسيُفْسِدُ عَزْمُكَ ، حتى إن خطأك سيكون عزيزاً
عليكِ ، وعند ما يتأخَّرُ لك بعد ذلك أن تربيهِ لا يروِّقُك أن تتروكيه ،
فيا بُدِّي ، أَسَلِّمُكِ إلى عقل صوفية ، ولا أَسَلِّمُكِ إلى مِثْلِ قلبها مطلقاً ،
وابتقي قاضيةً نَفْسِكَ ما دُمْتَ رابطةً الجأشِ ، فإذا ما أَحْبَبْتَ فأعیدی إلى
أَمِّكَ أمرَ العناية بك .

« واقترحي عليكِ وَضَعَ اتفاقٍ يُبَيِّنُ لكِ تَقْدِيرَنَا وَبُعِيدُ النظامِ
الطبيعيِّ بيننا ، ومن مُفْتَضَى الماده أن يختار الأبوان زوجَ البنت وألا
يستشيراها إلا شُكْلاً ، وسنَضَعُ غيرَ هذا بيننا ، فستختارين وسنُسْتَشَارُ ،
فأرسي حَقَّكَ في ذلك ، يا صوفية ، بحريةٍ وحكمة ، فيجب أن يكون
اختيارُ الزوج الذي يلائمكِ من حَقِّكَ ، لا من حَقِّنا ، ولكنَّ من حَقِّنا
أن نَحْكُمَ في كونك قد خُدِعتِ في المواقفات ، وفي كونك تأتين أمراً
غيرَ ما تريدن من غير أن تعرفي ذلك ، ولا يَدْخُلُ الأصلُ والمالُ والقام
والرأى العامُّ في بواعثنا مطلقاً ، واتَّخِذِي لك رجلاً صالحاً يروِّقُك شخصه
وتلائمك أخلاقه ، وليَكُنْ بعد ذلك من شاء ، فسَرَضِي به صهراً لنا ،
وسيكون ذا رزقٍ كافٍ دائماً إذا ما كان ذا ذراعين وأخلاقٍ وكان مُحِبّاً
لأُسْرَتِهِ ، وسيكون ذا مقامٍ مَرْمُوقٍ دائماً إذا ما شَرَّفَهُ بالفضيلة ، وما يُهْمُّنا

إذا ما لامنا جميعُ العالم ؟ فنحن لا نشدُ موافقةَ الناس ، ونحن نكتفى
بسماعتك . »

ويا أيها القراء ، إننى أجهل أى أثرٍ يكون لمثل هذا الكلام فى البنات
اللاتى يُنشأن على طريقتكم ، وأما صوفية فُيُنمِكُها ألا تُجيبَ عنه بالأقوال ،
فما تتصف به من حياء وريقةٍ يَمْنَعُها من التعبير عما فى نفسها بسهولة ،
ولكننى مطمئنٌ إلى أنه سَيَبْقَى منقوشاً فى قلبها ما دامت حيةً ، وإذا كان
من الممكن أن يُفْتَدَ على حُكمٍ بشرىٍ فهو الحُكمُ الذى تَكُونُ به أهلاً
للتقدير أبويها .

ولنأتِ بأسوأ احتمالٍ فنفترضَ لها مزاجاً أجوجاً يَجْعَلُ الانتظارَ الطويل
شاقاً عليها ، فأقول إن حُكمها ومعارفها وذوقها ولطفها ، ولا سيما مشاعرُها
التي غُدِّي بها فؤادها فى صباها ، أمورٌ تعارضُ فورانَ حواسها بِثَقَلٍ
يكفيها لقهْر هذه الحواسِّ أو مقاومتها زمناً طويلاً على الأقلِّ ، وهى تُفَضِّلُ
أن تَمُوتَ شهيدةً حالِها على أن تُخْزِنَ أبويها بتزوّج رجلٍ خالٍ من الفضل
وتعريض نفسها لشقاء زواجٍ غيرِ مُوفِّقٍ ، حتى إن الحرية التى فازت بها لم
تُوجِبْ غيرَ عُلُوِّ جديدٍ فى النفس وغيرَ جعلها أصعبَ مِرَاساً فى اختيار
مولاها ، وهى ، على ما فيها من مزاجٍ الإيطاليِّ وحساسيةِ الإنكليزيةِ ،
حائرةٌ لزَهْوِ الإسبانيةِ التى إذا ما بَحَثَتْ حتى عن عاشقٍ لم يَسْهَلْ عليها
أن تَجِدَ من تُقَدِّرُ أنه كَفٌّ لها .

وليس كلُّ واحدٍ قادراً أن يُذَرِكَ أى نابضٍ يُمكنُ حُبَّ الأمور
الصالحة أن يُورث النفسَ إياه ، وأى قوةٍ يُمكنُ الواحدُ أن يَجِدَها فى

نفسه إذا ما أراد أن يكون فاضلاً بإخلاص ، ومن الناس من تَبَدُّو لهم كلُّ عظمةٍ وهما ، ومن لا يَعْرِفون ، بعقلهم السافل المنحط ، ما يُمكن أن يَكُون ، حتى لَجُنُونِ الفضيلة ، من تأثيرٍ في أهواء البشر ، ولا يجوز أن يخاطب هؤلاء الناسُ بغير الأمثلة ، ويقعُّ اللومُ عليهم إذا ما أصرُّوا على إنكارِها ، وإذا قلتُ لهم إن صُوفية ليست إنساناً خيالياً ، وإن اسمها وحده هو من اختراعى ، وإن تربيتها وطباعها وأخلاقها ، وهيتها أيضاً ، قد وُجِدَتْ حقاً ، وإن ذكرها لا تزال تُسِيلُ عِبَرَاتٍ كُلِّ أُنْزَعَةٍ صالحة ، لم يُصدِّقوا شيئاً من هذا لا رَيْبَ ، ولكن لِمَ لا أُجازفُ فَاثِمٌ بلا التواء قصة فتاة كثيرة الشَّبهِ بصُوفية فيمكن أن تكون هذه القصةُ قصتها من غير أن يحارَ منها أحدٌ ؟ وليس من المهم أن يُعتقد أن القصة واقعية أو لا ، ولْيَقُلْ ، إذا أُريدَ ، إنى أقصُّ أوهاماً ، فلا يُبْهِمُ هذا ، وإنما الذى يُبْهِمُ هو أن أشرحَ منهاجى فأبْلَغَ غاياتى دائماً .

إن الفتاة التى حَمَلَتْ صُوفيةً مزاجها حائزةٌ لجميع المواقفات التى يُمكن أن تَجْعَلَهَا أهلاً لهذا الاسم فَاثِرُكِ لها ، وإن أباه وأُمُّها رأيا ، بعد الحديث الذى رَوَيْتُهُ آنفاً ، أن طالبي الزواج لا يأتون لِعَرْضِ أنفسهم فى الكُوخ الذى يقمان به ، فأرسلها إلى المِصْرِ لَتَقْضَى فيه شتاءً عند خالَةٍ لها أطلعَها سراً على سبب الرِّحْلة ، وذلك لأن صُوفيةً المختالة كانت تَحْمِلُ فى قَرَارَةِ قلبها من الزَّهْوِ الكريم ما تَعْرِفُ معه أن تَضْطِطَ نَفْسُهَا ، ولأنها ، مهما يَكُنْ من احتياجها إلى زوجٍ ، تَفْضَلُ الموتَ على الذهاب للبحث عنه .

وقد عَمِلَتْ خالَتُها بوجهاتٍ نظر أبويها فقَدَّمَتْها فى البيوت ، وأتَتْ بها

إلى المجتمعات ، وأحضرتها إلى الولائم والأعياد ، وعرفتها بالناس ، وإن شئت فقل عرفت بها الناس ، وذلك مع كون صوفية قليلة المبالاة بهذه القرعات ، ومع ذلك فقد لوحظ أن صوفية لم تجتنب من يبدون متواضعين ذوى احتشام من وسماء الشبان ، حتى إن احترازها ينطوى على فن في اجتذابهم مشابه للدلال ، ولكنها ارتدت عنهم بعد أن حادثتهم مرتين أو ثلاث مرات ، وذلك أنها لم تلبث أن اتخذت وضعا أكثر تواضعا وأدبا أكثر دفعا بدلا من ظاهر السلطان الذى يتقبل الجملات كما يلوح ، وذلك أنها كانت دائماً الانتباه إلى نفسها فعادت لا تدع لهم فرصة تقديم أية خدمة لها ، وهذا يعنى أنها لم ترد أن تكون خلية لهم .

وما كانت القلوب الحساسة لتحب الملاحى الصاخبة ولا السعادة الباطلة الماحلة عند أناس لا يحسون شيئا معتقدين أن تمتع الإنسان بحياته قائم على خوارها ، وبما أن صوفية لم تجد ضالتها مطلقا ، وبما أنها يئست من لقبائها ، فقد سئمت من الضر ، وقد كانت تحب أبويها حب حنان فلم تجد ما يعوضها منهما ، ولم يظهر لها شيء تنساها به ، فعادت لتلحق بهما قبل الوقت المعين لرجوعها بمن طويل .

وهى لم تكذ تعود إلى واجباتها فى منزل والديها حتى رأت أنها غيرت مزاجها مع المحافظة على سلوكها ، وذلك أنها بدت ذات ذهول ومَلَلٍ وغَمٍّ ووهم فتتوارى لتبكي ، وقد ظن في البداية أنها تحب وأنها خجلى من ذلك ، فكلماها فى ذلك فردته عنها محتجة بأنها لم تر رجلا أمكنه أن يمس فؤادها ، وصوفية لا تكذب مطلقا .

ومع ذلك فإن الذُّبُول كان يزيد بلا انقطاع ، وأخذتْ صحتها تفسد ،
 فعزمتْ أمها ، التي ساورها الهم من هذا التحول ، على معرفة العلة ،
 فخلتْ إليها ، واتخذتْ نحوها لهجةً مؤثِّرة وأظهرت لها من الألفاظ التي
 لا تُردُّ ما لا يصدُر عن غير عاطفة الأم ، قالت لها أمها : « بُنَيَّتِي ،
 لقد حملتْكِ في بطني ، ولا أنأأُ أحملك في فؤادي ، فأفضي بأسرار قلبك
 إلى ضمير أمك ، وما هذه الأسرار التي لا تقدر الأم أن تعرفها ، ومن
 ذا الذي يتوجَّع لكروبك ، ومن ذا الذي يقاسمك إياها ، ومن ذا الذي
 يريد أن يكشفها عنك ، إن لم يكن والدك ووالدتك ؟ آه أيا بُنَيَّتِي ،
 أتودِّين أن أموت بسبب ألك من غير أن أعرفه ؟ » .

لم تكلم البنتُ هُمومها عن أمها ، ولم تطلبْ ما هو أحسن من أن
 تكون أمها مفرجةً لِفُتمها محلاً لأسرارها ، غير أن الحياء كان يمنعهما من
 الكلام ، وما هي عليه من حِشمةٍ كان لا يجدُ لساناً لوَصِفَ حالٍ غير
 خليقي بها كالهيجان الذي يُبَلِّلُ حواسها على الرغم من جميع جهودها ،
 وأخيراً اتخذتْ أمها من حياتها نفسه دليلاً فانزعجت منها هذه الاعترافاتِ
 الفاضحة ، ولم تحزنها أمها بتعزيزٍ جائر ، بل أسلتها وتوجَّعتْ لها وبكتْ
 عليها ، وهي من الحكمة البالغة ما لا تجعلُ لها معه جريمةً من سوء قسا
 عليها بسبب عفافها وحده ، ولكن لِمَ احتملها ، بلا ضرورةٍ ، سوءاً سهلاً
 دواؤه شرعياً علاجه ؟ ولم لا تستعين بحريةٍ كانت قد مُنحتْها ؟ ولم لا
 تقبلُ زوجاً ؟ ولم لا تختارُ بئلاً ؟ ألا تعلم أن مصيرها يتوقف عليها
 وحدها وأنه مهما يكن من اختيارها يُوافقُ عليه ما دام هذا الاختيارُ

لا يَقَعُ على غيرِ صالحٍ ؟ لقد أُرْسِلَتْ إلى المِضر ، ولم تَرِدِ البقاء فيه مطلقاً ، وقد قُدِّمَ إليها كثيرٌ من طالبي الزواج فرفضتهم جميعاً ، وما تَذَنُّظِر إِذْنُ ؟ وما تُرِيدُ ؟ يا له من تناقضٍ غامض !

وكان الجوابُ بسيطاً ، فلم يَدُرِ الأمرُ على غيرِ إغاثَةِ للشباب ، ولا يَلْبَثُ الاختيارُ أن يَقَعَ ، ولكن لا يَسْهَلُ اختيارُ سيدٍ لِمَدَى الحياة ، وبما أنه لا يُمكن فَضْلُ أحدِ الاختيارين عن الآخر فإنه لا بُدَّ من الانتظار ، ولا بُدَّ من ضياعِ الشباب ، في الغالب ، قَبْلَ لُقْيَانِ الرجل الذي يُرَادُ قضاءُ الحياة معه ، وكان هذا حالَ صُوفِيَةِ التي كانت محتاجةً إلى عاشقٍ على أن يكون زوجاً لها ، ومن الصَّعب أن تَجِدَ قلباً كما تريد ، سواء أكان قلبَ زوجٍ أم قلبَ عاشقٍ ، ولم يَقُمْ ما بينها وبين أولئك الشبان النُصْرَاء من موافقةٍ على غير السنِّ ، وأما المواقفاتُ الأخرى فتُعَوِّزُهُم دائماً ، وما كانوا عليه من ذهنيٍّ سطحيٍّ ، ومن خِيَلَاء ورطانيةٍ ، ومن طِبَاحٍ بلا نظام ، ومن تقليدٍ طائشٍ ، كان يُورِثُها نفوراً منهم ، وكانت تبحث عن رجلٍ فلا تَجِدُ غيرَ قَرْدَقَةٍ ، وكانت تَبْحَثُ عن روحٍ فلا تَجِدُ منه شيئاً .

قالت لأُمِّها : « يا لَشَقَائِي ! إنني محتاجةٌ إلى الحُبِّ ، ولا أَرَى أحداً يَرُوقُنِي ، وَيَرْفُضُ فَوَادِي كُلَّ من يَخاطِبُ حواسِّي ، ولا أَجِدُ واحداً لا يُبِيرُ رَغائِبِي ، ولا أَبْصِرُ واحداً لا يَرْدَعُ مَيُولِي ، ولا يُكْتَبُ بقاءَ لَذَوْقٍ بلا احترام ، آه ! ليس هنالك من هو أهلٌ لابنتك صُوفِيَةِ ! إن مِثَالَهَا الفاتنَ منقوشٌ في صميمِ فَوَادِها ، وهي لا تستطيع حُبَّ غيره ،

وهي لا تستطيع أن تجعل سعيداً سواء ، وهي لا تستطيع أن تكون سعيدة مع غيره ، وهي تفضل أن تضي وتناضل بلا انقطاع ، وأن تموت شقية حرة ، على أن تكون يائسة بجانب رجل لا يحب فتجعله شقياً أيضاً ، وأفضل لها أن تهلك من أن تبقى لتألم .

ووقفت هذه العرايات نظراً الأم فوجدتها من الشدود البالغ ما لم يخامرها معه شك في وجود سيرة في الأمر ، ولم تكن صوفية متصنعة ولا مثيرة للسخرية ، وكيف أمكن هذه الرقة المتناهية أن توافقها ، وهي التي لم تتعلم منذ طفولتها غير الاكتفاء بأناس كان عليها أن تعيش معهم وأن تقوم نحوهم بمقتضى الفضيلة ؟ إن هذا المثال للرجل المحبوب الذي فتن به كثيراً ، والذي تردّد اسمه في جميع أحاديثها غالباً ، قد جعل أمها تظن أن لهذا الهوى أساساً آخر لا تزال جاهلة له وأن صوفية لم تقل كل شيء ، ولم تحاول هذه الشقية المثقلة بكربها الخفي غير الكلام بثقة تامة ، وتليح أظها ، وتردد ، ثم تدعن ، وتخرج من غير أن تقول كلمة ، وتعود بعد هنيئة حاملة كتاباً بيدها ، وتقول : « اشفقني على ابنتك الشقية ، فلا دواء لكربها ، ولا يمكن أن تكف عن البكاء ، وأنت تريد من معرفة العلة ، حسناً ، ها هي ذي » ، قالت هذه الكلمة وطرحت الكتاب على المنضدة ، وتناول الأم الكتاب وتفتحه ، فإذا هو « مغامرات تيلك » ، ولم تدرك شيئاً من هذا اللغز في البداية ، وتدور أسئلة مبهمة وأجوبة غامضة فترى الأم في آخر الأمر ، مع دهش يمكن تصوّره ، أن ابنتها منافسة لأوكاريس .

وكانت صُوفية تُحِبُّ تِلْكَ ، وكانت تحبُّ بهوى لم يستطع شيء أن يشفيها منه ، ولَمَّا عَلِمَ أبوها وأُمُّها هُيَامَهَا ضَحِكَا منه ورأيا أن يرُدَّاهَا عنه بالعقل ، وقد كانا على خطأ في ذلك ، فلم يَكُنْ العقلُ كُلُّهُ بجانبهما ، فقد كان لصُوفية عقلها أيضاً ، وكانت تُعرِفُ أن تنتفع به ، وما أكثرَ ما حَمَلَتْهُمَا على السكوت بتوجيهها إليهما براهينهما الخاصة ، وبإثباتها لهما أنهما أساسُ العلةِ لِمَا كان من عدم إعدادِها إياها لرجلٍ من رجالِ عَصْرِهَا ، وأن الضرورة كانت تَقْضِي بأن تمتنق أَوْجُهَ تفكيرِ زوجها أو أن تَمْنَحَهُ أَوْجُهَ تفكيرِها ، وأنهما جَعَلَا الوسيلةَ الأولى أمراً متعذراً عليها بالأسلوب الذي نَشَأَا عليه فَتَبَحَّتْ عن الوسيلةِ الأخرى تماماً ، وقد قالت : « أعطيتاني رجلاً مُشَبَّهًا من مبادئ ، أو رجلاً أَسْتَطِيعُ تعليمَه إياها ، حتى أَتَزَوَّجَ ، ولكن لِمَ تَوُتَّيَانِي حتى ذلك الحين ؟ اِرْحَمَانِي ، فَأَنَا شَقِيَّةٌ ، لا حَقِيقَةٌ ، وهل القلبُ تابعٌ للإرادة ؟ أَلَمْ يَقُلْ والدي ذلك بنفسه ؟ وهل يَقَعُ الذَّنْبُ علىَّ إذا كنتُ أَحِبُّ مَنْ هو غيرُ مَيَسُورٍ ؟ ولستُ تَخَيِّلِيَّةٌ ، فلا أريدُ أميراً مطلقاً ، ولا أَبْحَثُ عن تِلْكَ مطلقاً ، وأَعْلَمُ أنه ليس إلَّا وَهْمًا ، وإنما أَنَشُدُ له شبيهاً ، وَلِمَ يَتَعَذَّرُ وجودُ هذا الرجل ما دمتُ موجودةً ، أنا التي تَشَعَّرُ بقلبٍ يشابه قلبه كثيراً ؟ كَلَّا ، لا ينبغي أن نَشِينِ البشرية هكذا ، ولا يَجُوزُ أن نَذْهَبَ إلى أن الرجلَ الفاضلَ المحبوبَ ليس إلَّا وَهْمًا ، إنه موجودٌ ، إنه حَيٌّ ، وقد يَكُونُ باحثًا عني ، فهو يَبْحَثُ عن نَفْسِي تُعرِفُ أن تُحِبَّ ، ولكن من هو ؟ وأين هو ؟ أَجْهَلُ ذلك ، ولا غَرْو ، فهو ليس ممن رأيتُ ، وليس واحداً ممن أرى ، أمَّا ! لِمَ جَعَلْتِ الفضيلةَ

مُحِبَّةٌ إِلَى كَثِيرٍ ؟ إِذَا كُنْتُ عَاجِزَةً عَنْ حُبِّ غَيْرِهَا فَالذَّنْبُ يَقَعُ عَلَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَقَعُ عَلَيَّ » .

وَهَلْ أَسُوقُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الشَّجِيَّةَ حَتَّى آخِرِهَا ؟ وَهَلْ أَذْكَرُ الْمُنَاقَشَاتِ الطَوِيلَةَ الَّتِي سَبَقَتْهَا ؟ وَهَلْ أَعْرِضُ أُمًّا هَلُوعًا تُفَيِّرُ بَصْرَامَةَ أَلْفَافِهَا الْأُولَى ؟ وَهَلْ أَدُلُّ عَلَى أَبِي غَضُوبٍ نَسِيَ عَهْدَهُ الْأُولَى مَعَامِلًا أَفْضَلَ الْبَنَاتِ مِثْلَ مَجْنُونَةٍ ؟ نَحْمُ هَلْ أَصِفُ الشَّقِيَّةَ الَّتِي صَارَتْ أَكْثَرَ ارْتِبَاطًا فِي وَهْمِهَا بِفِعْلِ الْإِضْطِهَادِ الَّذِي آلَمَهَا مَاشِيَةً إِلَى الْمَوْتِ مَشْيًا وَثِيدًا ، وَنَازِلَةً إِلَى الْقَبْرِ حِينَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُجَرِّئُ إِلَى الْهَيْكَلِ ؟ كَلَّا ، إِنِّي أَتَعَمَّدُ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ ، فَلَا أَسْتَحَاجُ إِلَى الْمَغَالَاةِ حَتَّى أُبَيِّنَ بِمِثَالٍ بَارِزٍ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ ، عَلَى مَا يَلُوحُ لِي ، أَنَّ حَرَارَةَ الصَّلَاحِ وَالْجَمَالَ عَادَتْ لَا تَكُونُ أَكْثَرَ غَرَابَةً عَنِ النِّسَاءِ مِمَّا عَنِ الرِّجَالِ ، وَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ ، بِتَوْجِيهِ مِنَ الطَّبِيعَةِ ، مَا لَا يُسْتَطَاعُ نِيلُهُ مِنَّا وَمِنْهُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ التُّبْتَسُّرَاتِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنِ طِبَائِعِ الْعَصْرِ .

وَأَوْقِفْ هُنَا لِيَسْأَلَ مِنِّي عَنْ كَوْنِ الطَّبِيعَةِ هِيَ الَّتِي تَقَرِّضُ عَلَيْنَا أَنْ نَعَانِيَ كَثِيرًا مِنَ الْمَتَاعِبِ لَزَجْرِ الرِّغَائِبِ الْجَامِحَةِ ، فَأَجِيبْ بِالنَّصْرِ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ إِنَّ الطَّبِيعَةَ ، أَيْضًا ، لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي تُعْطِينَا كَثِيرًا مِنَ الرِّغَائِبِ الْجَامِحَةِ مُطْلَقًا ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنَ الطَّبِيعَةِ مُخَالَفٌ لَهَا ، وَقَدْ أُثْبِتُ هَذَا أَلْفَ مَرَّةٍ .

وَلَنَرُدَّ صُوفِيَّةً إِلَى إِمِيلَ ، وَلَنَبْعَثْ هَذِهِ الْابْنَةَ الْمَحْبُوبَةَ لِنُوحِيَ إِلَيْهَا بِخَيَالٍ أَقْلٍ شَدِيدَةٍ وَبِنَصِيبٍ أَكْثَرَ سَعَادَةً ، وَقَدْ أَرَدْتُ وَصْفَ امْرَأَةٍ

مألوفة ، وقد بَلَّغْتُ عقلها من حيث رَفَعُ روحها ، فضَلَّلتُ ، فدَعَا نَعُودَ إلى خُطَايَا ، فليس لدى صُوفِيَّةٍ غَيْرُ طَبِيعٍ صَالِحٍ في رُوحٍ مَعْرُوفٍ ، وكلُّ ما لديها أَكْثَرُ مما عند النساءِ الأُخَرَ هو أثرُ تَرْبِيَّتِهَا .

• • •

لقد نَوَيْتُ في هذا الكتاب أن أقول كلَّ ما يُمكنُ عَمَلُهُ تَارِكاً لكلِّ واحدٍ اختيَارَ ما هو في متناولِهِ في الأمور التي استطعتُ أن أقول عنها خيراً ، وقد رأيتُ منذ البُداة أن أَكُونُ قَرِينَةَ إِمِيلَ وَأَن أُنْشِئُ كَلَاماً مِنْهَا لِلآخِرِ مَعَ الْآخِرِ ، وَلَكِنِّي ، حِينَ فَكَّرْتُ في ذَلِكَ ، وَجَدْتُ أَن جَمِيعَ هَذِهِ التَّدَايِيرِ الَّتِي تُتَخَذُ قَبْلَ الْأَوَانِ عَادِمَةُ الْفِطْنَةِ وَأَن مِمَّا يَخَالِفُ الصَّوَابَ إِعْدَادَ وَلَدَيْنِ لِلإِقْتِرَانِ قَبْلَ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُمْكِنِ مَعْرِفَةُ مِلَامَةِ هَذَا الزَّوْجِ لِنِظَامِ الطَّبِيعَةِ أَوْ لَا ، وَهَلْ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَصَاحِبَاتِ مَا يَنْسَبُ تَكْوِينِ هَذَا الزَّوْجِ أَوْ لَا ، وَلَا يَجُوزُ أَن يُحْلَظَ بَيْنَ مَا هُوَ مِلَامٌ لِلْحَالِ الْوَحْشِيَّةِ وَمَا هُوَ مِلَامٌ لِلْحَالِ الْمَدْنِيَّةِ ، فَفِي الْحَالِ الْأَوَّلِيِّ يَلَاثُمُ جَمِيعُ النِّسَاءِ جَمِيعَ الرِّجَالِ ، وَذَلِكَ لِمَا لَا يَزَالُ يَكُونُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ طَوْرِ ابْتِدَائِيٍّ مُشْتَرَكٍ فَقَطْ ، وَفِي الْحَالِ الثَّانِيَةِ ، حَيْثُ يَنْمُو كُلُّ طَبِيعٍ بِالنَّظْمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَحَيْثُ يَنَالُ كُلُّ ذَهْنٍ طَوْرَهُ الْخَاصَّ الْمَعِيْنَ بِتَعَاوُنِ الطَّبِيعِيِّ وَالتَّرْبِيَةِ تَعَاوُنًا حَسَنَ التَّرْتِيبِ أَوْ سَيِّئَ التَّنْظِيمِ ، لَا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَحْدَهَا ، عَادَ لَا يُمكنُ جَمْعُ مَا بَيْنَهُمَا قَبْلَ تَقْدِيمِ كُلِّ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ لِيُرَى هَلْ يَتَوَافَقَانِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ أَوْ أَنَّهُمَا يَلْتَزِمَانِ اخْتِيَارًا يَتَضَمَّنُ مُنَظَّمُ هَذِهِ الْمَوَاقِفَاتِ .

والسوء في أن الحياة الاجتماعية ، إذ تُنمى الطبّاع ، تميز بين الطبقات ، وأن كلاً من الفريقين إذ لا يشابه الآخر مطلقاً يُخلط بين الطبّاع كلاً فرّق بين الطبقات ، وهذا هو مصدرُ الزواجات غير المتجانسة ومصدرُ جميع ما ينشأ عنها من ارتباكات ، ومن ثمّ يرى ، كنتيجة جليّة ، أنه كلما ابتعد عن المساواة فسدت الشاعر ، وأنه كلما زادت المسافة بين الكبراء والصغراء قترت العلاقة الزوجية ، وأنه كلما وجد أغنياء وفقراء قلّ وجود الآباء والزواجات ، وقد عاد لا يكون للسادة والعبيد أسرة ، فلا يرى كلٌّ منهما غير طبقته .

وإذا أردتم أن تحوّلوا دون سوء الاستعمال وأن تنتهوا إلى زواجات موفقة فاقضوا على المبتسرات وانسوا النظم البشرية وشاوروا الطبيعة ، ولا تجتمعوا بالزواج بين أناس لا يتوافقون إلاّ وفق شرطٍ معلوم ، فإذا تغير هذا الشرط عادوا لا يتوافقون ، وإنما زواجوا بين أناس يتوافقون في أيّ وضع يكونون فيه وفي أي بلد يقيمون به ومن أية طبقة يمكن أن يكونوا ، ولا أقول بعدم الاكتراث للمصاحبات التقليدية في الزواج ، وإنما أقول إن تأثير المصاحبات للملائمة للطبيعة هو من عظم الأهمية ما يُقرّر وحده مصير الحياة وإنه يوجد من توافق الأذواق والشارب والشاعر والطبّاع ما يجب أن يحفز الأب العاقل ، ولو كان أميراً أو مليكاً ، إلى تزويج ابنه ، من غير ترددٍ ، بابنة تجتمع بها جميع المواقفات ولو كانت هذه البنت قد ولدت في أسرة قبيحة ، ولو كانت ابنة جلد ، أجل ، إنني أذهب إلى أن جميع ما لا يتصوّر من المصائب لو صبّ على زوجين

حَسَنِي الاقتران لوجدا ييكأهما معاً من السعادة ما لا يحوزانه بجميع أموال الأرض المُسَمَّمة باختلاف القلوب .

ولذا فإنني انتظرتُ معرفةَ الزوجة التي تلائم إميلَ بدلاً من إعدادها له منذ الطفولة ، والطبيعة ، لا أنا ، هي التي قامت بهذا الإعداد ، ويقوم عملي على لقاء هذا الاختيار الذي أتاه ، وأقول عملي ، لا تَعَلَّ الأب ، وذلك لأنه ، بتفويضه إلى أمر ولده ، يَكُون قد نَزَلَ لي عن مكانه ، فأقام حَتَّى مقام حَقَّة ، فأنا أبو إميلَ الحقيقي ، وأنا الذي جعله رجلاً ، وقد كُنْتُ أَرَفِضُ تَنَشِئَتَهُ لو لم أَغْدُ مَسِيطِراً على أمر تزويجه وَفَقَّ خياره ، أى خيارى ، ولا أَجِدُ غيرَ لَذَّةِ صُنْعِي رجلاً سعيداً ما يُمَكِّن أن يُعَدَّ أجراً على عملي .

ولكن لا تَظُنُّوا ، كذلك ، أنني قَصَدْتُ ، كَيْباً أَجِدُ زوجةً لإميل ، أن أُلْقِيَ عليه واجب البحث عنها ، وليس هذا البحثُ المصنوعُ غيرَ ذريعةٍ لجملة عارفاً بالنساء حتى يَشْعُرَ بقيمة التي تلائمه ، أَجَلْ ، إن صوفية وَجِدْتُ منذ زمن طويل ، ومن المحتمل أن يكون إميلُ قد رآها ، ولكنه لن يَعْرِفَهَا قبل الوقت المناسب .

ومع أن تساوى الأحوال غيرُ ضرورىٍ للزواج فإن هذه المساواة إذا ما ضُمَّتْ إلى المواقفات الأخرى مَنَحَتْهَا قيمةً جديدةً ، وهى ، وإن لم تَدْخُلْ في الميزان مع أية مَواقفةٍ أخرى ، تُمِيلُهُ عند تساوى الجميع .

والرجلُ ، مالم يَكُنْ مِلِكاً ، لا يستطيع أن يَبْحَثَ عن المرأة في جميع الطبقات ، وذلك لأن ما ليس عنده من مُبْتَسِرَاتٍ يَجِدُهُ عند الآخرين ،

ومن المحتمل أن يَجِدَ البنتَ التي تَلَامُهُ ، فلا يَنَالُهَا لتلك العلة ، ولِذَا يُوجَدُ لِلْحَذَرِ مبادئٌ يجب أن تُحَدِّدَ بها مباحثُ الأبِ الحصيف ، ولا يَنَبْغِي لهذا الأب أن يُرِيدَ مَنَحَ تلميذه زواجًا فَوْقَ طبقته مطلقًا ، فهذا أمرٌ لا يَدْخُلُ ضِمْنَ نطاقِ قدرته ، وهو إذا ما استطاعه لا يَنَبْغِي له أن يريدَه أيضًا ، وإِلَّا فما أهميةُ الطبقةِ لدى الشابِّ ، ولا سيما شابِّي ؟ ومع ذلك فإنه إذا ما صَعِدَ عَرَضَ نفسه لألف بلاءٍ حقيقيٍّ يَشْمُرُ به مَدَى حياته ، حتى إنني أقول إنه لا يَنَبْغِي له أن يُرِيدَ الموازنةَ بين أمورٍ مختلفةٍ طَبِيعَةً كَالشَّرَفِ والثَّرَاءِ مثلاً ، وذلك لأن كلاً منهما يَنْتَقِصُ قيمةَ الآخرِ بما لا يَقْبَلُ تعديلاً ، فضلاً عن أنه لا يُتَقَقُّ على تقدير شامل ، والخالصةُ أن ما يَمْنَحُ كُلُّ منهما رَأْسَمَالَهُ من تفضيلٍ يُعِدُّ شَقَاقًا بين الأُسْرَتَيْنِ ، وبين الزوجين غالباً .

ثم إن هنالك اختلافَ اعتبارٍ في نظامِ الزواج من حيث اقترانُ الرجلِ بمن فوقه أو بمن تحته ، فأما الحالُ الأولى فمخالفةٌ للعقلِ تمامًا ، وأما الحالُ الثانيةُ فأكثرُ ملامَةً له ، وبما أن الأُسْرَةَ لا تَرْتَبِطُ في المجتمع إلا برئيسها فإن مقامَ هذا الرئيس هو الناظمُ لمقامها بأُسْرِهِ ، فإذا ما اقترن من مرتبةٍ دون مرتبته فإنه لا يَهْبِطُ مطلقًا ، وإنما يَرْفَعُ زوجَه ، وعلى العكس إذا ما تزَوَّجَ امرأةً تَعْلُوهُ مرتبةً فإنه يَخْفِضُها من غير أن يَرْفَعُها ، وهكذا فإنه يوجد في الحالِ الأولى خيرٌ بلا شَرٍّ ، ويوجدُ في الحالِ الثانيةِ شَرٌّ بلا خير ، وفضلاً عن ذلك فإن من نظامِ الطبيعة أن تُطِيعَ المرأةُ الرجلَ ، ولِذَا فإنه إذا ما أخذها من طبقةٍ دون طبقته تَوَافَقَ النظامُ الطبيعيُّ والنظامُ

المدني وسار كل شيء على ما يُرام ، وعكسُ هذا ما يَقَعُ إذا ما اقترن الرجلُ بِنَ هـى من طبقة تَعْلُوهُ ، وذلك أنه يكون بين أمرين : بين حَقِّ له مُتَقَلِّصٍ أو سُكْرَانٍ منه ناقص ، وبين جُحُودٍ منه أو ازدراء له ، وهنالك تَدَعى المرأةُ السلطانَ فَتَغْدُو طاغيةً رئيسها ، وهنالك يكون سيدُها ، الذى صار عبداً ، أدعى الناس إلى السُّخْرية وأكثَرهم بؤساً ، وهذا هو حال المقرَّبين التَّعَسَاء الذين يُكْرِمهم ملوكُ آسية ويؤذونهم فى زواجهم ، والذين لا يَجْرُؤون عند النوم مع نساءهم أن يَدْخلوا السَّرِيرَ إِلَّا من رِجْلِهِ .

وَأَتَوَقَّعُ أن يَتَهَمَنى كثيرٌ من القُرَّاء بأننى أناقضُ نفسى هنا حين يَذْكُرُون أننى أَحْبَبُ المرأةَ بِمَوْهَبَةٍ طَبِيعِيَّةٍ تُسَيِّطِرُ بها على الرجل ، ومع ذلك فهم مَخْطُئُونَ ، فَيُوجَدُ فرقٌ كبيرٌ بين الادعاء بِحَقِّ الأمر والسيطرة على من يأمر ، وذلك أن سلطانَ المرأةِ سلطانُ رِفْقٍ وَحِذْقٍ وملاطفة ، وأن أوامر المرأةِ مُلَامَسَاتٌ وأن تهديداتها عِبَرَاتٌ ، وعلى المرأة أن تَحْكُمَ فى المنزل كما يَحْكُمُ الوزير فى الدولة ، وذلك بأن تُحْمَلَ على صُنْعِ ما تريد ، ومن الثابت فى هذه الناحية أن أحسنَ تدبيرٍ منزلى هو ما يكون للمرأة فيه أعظمُ سلطان ، ولكنها إذا ما أُنْكَرَتْ صوتَ الرئيس وأرادت غَضَبَ حقوقه وانتحالَ القيادة لنفسها لم يَنْشَأْ عن هذا الاختلال غيرُ الشقاء والعار والسَّنْكَار .

وقد بَقِيَ أمرُ اختياره ممن هن مساوياتُ له أو ممن هن دُونَهُ ، وَأَظُنُّ أنه لا يَزَالُ يُوجَدُ من القُيُودِ ما يَجِبُ أن يُوْتَى حَوْلَ هؤلاء الأخيرات ، وذلك لأن من الصعب أن تُوجَدَ فى الطبقة الدنيا زوجةٌ قادرةٌ على جعل

الرجل الصالح سعيداً ، وليس سببُ هذا كَوْنُ العيبِ في الطبقات الدنيا أكثرَ مما في الطبقات العليا ، بل لأنه يساور هذه الطبقة قليلُ فكرٍ حَوْلَ ما هو صالحٌ جميلٌ ولأن جَوْرَ الطبقاتِ الأخرى أدَّى إلى عَدِّ الطبقة الدنيا ما هي عليه من عُيوبٍ عَدْلًا .

ومن الطبيعيُّ أَلَّا يُفَكِّرَ الرجلُ مطلقاً ، فالتفكيرُ فنٌّ يتعلَّمُه الجميعُ الفنون الأخرى ، وهو فنٌّ يتعلَّمُه بأصعبَ مما يتعلَّمُ الفنون الأخرى ، ولا أعْرِفُ للجنسين غيرَ طبقتين مختلفتين : فأما إحداها فتولِّدُ من أناسٍ مفكرِّين ، وأما الأخرى فتولِّدُ من أناسٍ لا يُفَكِّرون مطلقاً ، وينشأ هذا الاختلافُ عن التربية حَضْرًا تقريباً ، ولا ينبغي للرجل من أُولَى هاتين الطبقتين أن يُصَاهِرَ في الأخرى مطلقاً ، وذلك لأن أكبرَ فُتُونٍ في المجتمع يُعَوِّزُ مجتمعه إذا ما قُصِرَ بزواجه على التفكير وحده ، ولا يكون عند مَنْ يَقْضُونَ الحياةَ بأكملها قضاءً تاماً في العمل من أجل العيشة فكرةً أخرى غيرَ فكرةِ عملهم أو مصلحتهم فيكوح أن ذهنهم مستقرٌّ بطرفِ ذُرْعَانِهِمْ ، وليس هذا الجهلُ بضائرِ صلاحِهِمْ وأخلاقِهِمْ ، حتى إنه يكون نافماً لهما غالباً ، ومما يَقَعُ في الغالب أن نكتفى بواجباتنا عند تَأَمُّلِنَا فيها فنَضَعُ مَوْضِعَ الأشياءِ رطانةً في نهاية الأمر ، والشعورُ أكثرُ ما أَلْقَى الفلاسفةُ عليه نوراً ، ولا نحتاج إلى الاطلاع على « واجبات » شَيْشِرُون حتى نكون أهلَ خيرٍ ، وقد تكون أصلحُ نساءِ العالمِ أقلُّ الناسِ عِلْماً بمعنى الصلاح ، ولكن ليس أقلُّ من هذا حقيقةً كونُ الذهنِ المُتَقَفِّ وحده يَجْعَلُ المعاشرةَ أمراً مستحباً ، ومن الأمورِ للمؤسفة أن يُضْطَرَّ ربُّ الأُمَةِ الذي يُسَرُّ في منزله

أَنْ يَنْطَوِي عَلَى نَفْسِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مُذْرَكًا مِنْ قَبْلِ أَحَدٍ فِيهِ .

ثُمَّ كَيْفَ تُرَبِّي الْمَرْأَةَ الَّتِي لَمْ تَتَعَوَّدِ التَّفَكِيرَ ، قَطُّ ، أَوْلَادَهَا ؟ وَكَيْفَ تُمَيِّزُ مَا يَلَامُهُمْ ؟ وَكَيْفَ تُعَدِّمُ لِلْفَضَائِلِ الَّتِي لَا تَعْرِفُهَا وَلِلزَايَا الَّتِي لَا بِسَاوَرِهَا أَيْ فِكْرٍ عَنْهَا ؟ لَنْ تَعْرِفَ غَيْرَ مَدَارَاتِهِمْ أَوْ تَهْدِيدِهِمْ ، وَغَيْرَ جَعْلِهِمْ سُفْهَاءَ أَوْ جُبْنَاءَ ، وَسَتَجْعَلُ مِنْهُمْ قِرْدَةً مُتَصَنِّعِينَ أَوْ فَجْرَةً طَائِشِينَ ، لَا أَوْلَادًا أَذْكَاءَ أَوْ مَحْبُوبِينَ .

وَلَدَا لَا يَلَامُ الرَّجُلَ الَّذِي تَلَقَّى تَرْبِيَةً أَنْ يَخْتَارَ زَوْجَةً لَمْ تَنْلُهَا مَطْلَقًا ، وَمِنْ ثَمَّ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْ طَبَقَةٍ لَا يُمَكِّنُ تَلَقُّيَهَا فِيهَا ، وَلَكِنِّي أَفْضَلُ مَثَلًا مَرَّةً فَتَاةً بَسِيطَةً ذَاتَ تَنْشِئَةٍ خَشِنَةٍ عَلَى فَتَاةٍ عَالِمَةٍ أُرْبِيَةٍ تَأْتِي لَتُقِيمَ فِي مَنْزِلِ مَحْكَمَةِ آدَابٍ تَحْتَ رِئَاسَتِهَا ، فَالْمَرْأَةُ الْأُرْبِيَةُ تَكُونُ آفَةً زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا وَأَصْدِقَائِهَا وَخَدَائِهَا وَجَمِيعِ النَّاسِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوغٍ رَفِيعٍ يُوْدِي إِلَى اسْتِهَاتِهَا بِوَاجِبَاتِ الْمَرْأَةِ فَتَحَاوِلُ أَنْ تَنْتَحِلَ ، دَائِمًا ، طَوْرَ الرَّجُلِ عَلَى غِرَارِ الْآنَسَةِ دَوْلَنكُلُو ، وَهِيَ فِي خَارِجِ مَنْزِلِهَا تَكُونُ مَثِيرَةً لِلشُّخْرِيَةِ دَائِمًا ، عُرْضَةً لِلنَّقْدِ بِإِنْصَافٍ ، شَأْنُ الرَّجُلِ الَّذِي يُبْلَاقُ ذَلِكَ عِنْدَ مَا يَهْجُرُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ أَهْلًا لِلْحَالِ الَّتِي يُرِيدُ اخْتِازَهَا ، وَمَا كَانَ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ مِنْ ذَوَاتِ النُّبُوغِ الْكَبِيرِ لِيَمُوتْنَ عَلَى غَيْرِ الْأَغْيِيَاءِ ، وَنَعْرِفُ ، دَائِمًا ، مَنْ هُوَ الْمُتَفَنُّنُ أَوْ الصَّدِيقُ الَّذِي يُمَسِّكُ الْقَلَمَ أَوْ الرِّيشَةَ حِينَمَا يَشْتَغِلُنَ ، وَنَعْرِفُ مِنْ هُوَ رَجُلُ الْأَدَبِ الْكَثُومُ الَّذِي يُبْلِي عَلَيْهِنَ آيَاتِهِنَّ ، فَجَمِيعُ هَذَا الْخِلْدَاعِ غَيْرُ جَدِيرٍ بِالْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ ، وَمَتَى

كانت المرأة ذات نبوغ صادق أدى ادعاؤها إلى إزْدَالِها ، وَيَقُومُ شَرْفُها على كَوْنِها مجهولةً ، وَيَقُومُ تَجْدُّها على تقدير زوجها ، ويقوم سرورُها على سعادة أسرتها ، فيا أيها القراء ، إننى أحتكم إليكم ، فأجيبوا عن سؤالى الآتى بإخلاص ، وهو : أى الأمرين يُوحى إليكم بأحسن رأي عن المرأة إذا ما دَخَلْتُمُ غَرَفَتَها ، وأى الأمرين يَحْمِلُكم على مقابلتها بأكبر احترامٍ : أن تَرَوْها قائمةً بأعمال جنسها وبتدبير أمور منزلها محاطةً بثياب أولادها ، أو أن تَجِدُوها تكتب أشعاراً عن زينتها محاطةً بأنواع الكَرَارِيس وبرقاع صغيرة من جميع الألوان ؟ إن كل بنتٍ أديبة تَبْقَى بنتاً مَدَى حياتها إذا لم يُوجَدْ على الأرض غيرُ العقلاء من الرجال .

« تَسْأَلِينَ ، يا غَلا ، عن السبب فى »

« عدم زواجى بك ، فأنت »

« مدققة فى اللغة كثيراً . »

ويأتى باعثُ الوجه بعد تلك البواث ، وهو أول ما يَقِفُ النظر ، وهو آخر ما يجب أن يَكُون ، ولكن مع عدم الذهاب إلى عَدَّة شَيْئاً غير مذكورٍ ، ويلوح لى فى الزواج أن اجتنابَ الجمالِ الباهر أفضلُ من نِشْدانِهِ ، فالجمالُ يُبْتَدَلُ سريعاً بالحياة ، فإذا ما مَرَّتْ ستَةُ أسابيع عاد لا يَعدُّ شَيْئاً عند الحائز ، ولكنَّ أخطاره تدوم بدوامه ، وَيَكُونُ زوجُ الحسناء أشقى الرجال ما لم تَكُنْ هذه الحسناء من الملائكة ، وهى إذا ما كانت من الملائكة فكيف تحوّلُ دون إحاطتها بالأعداء بلا انقطاع ؟ وإذا لم يَورثْ أقصى البَشع نفوراً فإننى أَفضِّلُهُ على أقصى الجمال ، وذلك لأن هذا

وذاك إذ يَكُونان في حُكْمِ العَدَمِ لدى الزوج بعد زمنٍ قليل فإن الجمال يصير عُمراً والبَشَع يصير بُسْراً ، ولكن البَشَع الذي يُوَدَّى إلى النفور هو أعظمُ المصائب ، ومن البعيد أن يزُول هذا الحُسُّ ، وهو يَزِيدُ بلا انقطاع ، وَيَتَحَوَّلُ إلى بَقْضاء ، وَيَكُونُ مِثْلُ هذا الزواج جَحِيماً ، فالموتُ خيرٌ من القران في مثل هذه الحال .

واطلُبُوا الاعتدالَ في كلِّ حال ، ولا تَسْتَنَشُوا منه حتى الجمال ، والوجهُ الوَضِيءُ المقبولُ الذي لا يُوحى بالغرام ، بل يُوحى بحُسْنِ الالتفات ، هو ما يجب أن يُفَصَّلَ ، فلا خَطَرُ منه على الزوج ، وَيَتَحَوَّلُ خَيْرُهُ إلى نَفْعِ الزوجين ، ولا تَبْلَى الألفاظ كما يَبْلَى الجمال ، وهي ذاتُ حياة ، وهي تتجدَّدُ بلا انقطاع ، وإذا ما مَضَى عشرون عاماً على الزواج راقَتْ المرأةُ الصالحةُ زوجها بألفاظها كما راقته في اليوم الأول من قِرانها .

وهذه هي التأملاتُ التي جعلتني أُعْزِمُ على اختيار صُوفية ، وهي إذ كانت تلميذة الطبيعة كاميلَ فقد كَوَّنَتْ له أكثرَ من أية واحدةٍ أخرى ، وهي ستكون امرأةَ الرجل ، وهي مساويةٌ له مولداً ومزيةً ، وهي أقلُّ منه نصيباً ، وهي لا تَقْتَنِ أولَ وَهْلَةٍ ، وهي تَقَعُ موقعَ الرِّضا كلَّ يومٍ أكثرَ من قبل ، ولا يُوَثِّرُ فُتُونُها الأَكْبَرُ إلَّا بالتدرُّج ، ولا يَظْهَرُ هذا الفُتُونُ إلَّا عند الاجتماعِ القائمِ على الصداقة ، وسيشعرُ زوجها بهذا أكثرَ من جميع الناس ، وليست تربيتهَا ساطعةً ولا مُهْمَلَةً ، ولها ذوقٌ بلا دَرَسٍ ، ومواهبٌ بلا فَنٍّ ، وحُكْمٌ بلا معارف ، وذهنُها خالٍ من العِلْمِ ، ولكنه هُذَّبَ ليتعلَّم ، وهذه هي أرضُ أُعِدَّتْ جيداً فلا تَنْتَظِرُ غيرَ الحَبِّ لِتُغِلَّ ،

وهي لم تقرأ غير كتاب بَرِيم ، وكتاب تِلْمَاك الذى وَقَعَ في يدها مصادفةً ، ولكن هل يكون لدى البنت التى تُولَعُ بِتِلْمَاك قلبٌ بلا إحساس وذهنٌ بلا رِقَّة ؟ فيا لِلْجَهْلِ المحبوب ! طُوبَى لِمَنْ قَدَّرَ له أن يُعَلِّمَهَا ! ان تكون مُعَلِّمَةً زوجها مطلقاً ، بل تلميذه ، وهي ستنتحلُّ أذواقه بدلاً من إخضاعه لأذواقها ، وهي ستكون عنده أفضل مما لو كانت عالمةً ، وسيطِيبُ له أن يُعَلِّمَهَا كلَّ شيء ، وأخيراً حان وقت تعارفهما ، فلنقرب بينهما .

ونعادرُ باريسَ جزأنا غارقين في الأوهام ، فليس مكان إلهذر هذا مركزاً لنا ، ويُلْقِي إميلُ نظرةً ازدراءً على هذه المدينة العظيمة ويقول غاضباً : « يا للوقت الذى أضعناه في البحث على غير جدوى ! وكى ! ليست هنالك زوجةٌ فؤادى ، أى صديقى ، أنت كنت تعرفُ باريسَ ، ولكن لا قيمةَ لوقتي عندك مطلقاً ، ولست بالذى يَأْلَمُ لالامى » ، وأحْدَقُ إليه ، وأقول له بصوتٍ ثابت : « أتعني ما تقول يا إميل ؟ » ، وهنالك يعانقني من فؤره خجلاً وَيَضُمُّنِي إلى صدره بلا جواب ، وهذا هو جوابه في كلِّ وقتٍ إذا كان مخطئاً .

والآن نجوبُ الحقولَ كالفرسان الحقيقيين التأهين ، لا كالذين يَنْشُدُونَ المغامراتِ ، وقد هَرَبْنَا منها بمغادرتنا باريسَ ، ولكننا في تجوَّابنا نَسِيرُ سِيراً غيرَ متساوٍ على غرار الفرسان التأهين ، فنُسْرِعُ تارةً ونُبْطِئُ تارةً أخرى ، وإنه ، لِمَا كان من اتِّبَاعِ عادتي ، اكْتَسَبَ روحها أخيراً ، فلا أَتَصَوَّرُ قارئاً عارفاً بمثلها يَقْتَرِضُ نومنا على كرسىٍ فاخرٍ في عَرَبَةٍ بريديٍّ مُحْكَمَةٍ

الإغلاق ، فلا تَرَى شيئاً أو تلاحظُ شيئاً ، ولا نَشْعُرُ بالفاصلة بين الذهاب والوُصُول خاسرين في سرعة سفرنا ما نقصد من الوقت .

ويقول الناسُ إن الحياةَ قصيرةٌ ، وأراهم لا يألون جهداً في جعلها قصيرةً ، وذلك أنهم ، إذ كانوا لا يَعْرِفُونَ كيف يَسْتَعْمِلُونَهَا فإنهم يتوجَّهُونَ من سرعة الوقت ، والوقتُ ما أرى مروره ببطء كما يريدون ، وذلك بما أنهم مُشْبِعُونَ ، دائماً ، من الغَرَض الذي يميلون إليه فإنهم يُبَصِّرُونَ ، قَسراً ، ما يَفْصِلُهُم عنه من قَترَةٍ ، فَيَنْظُرُ أَحَدُهُم إلى الغد ، وَيَنْظُرُ آخَرُ إلى الشهر القادم ، وينظر ثالثٌ إلى ما بعد عشرِ سنين ، ولا يريد أحدٌ منهم أن يعيش اليومَ ، ولا يَرْضَى أحدٌ منهم بالساعة الحاضرة ، وكلُّ منهم يَجِدُهَا تَمْتَضِي ببطيئةٍ جِدّاً ، وهم يكذبون حينما يقولون إن الوقتَ يَمُرُّ مُسرَّعاً جِدّاً ، وإنما هم يُفَضِّلُونَ ابتياعَ سلطةٍ تمجّله مختارين ، وإنما هم يستخدمون ثرائهم ، مختارين ، إِفْناءَ لحياتهم كلّها ، ومن المحتمل أنك لا تَجِدُ واحداً لا يَؤُدُّ أن يُحوِّلَ سِنِيهِ إلى ساعاتٍ قليلةٍ جِدّاً لو كان قادراً أن يَتَخَلَّصَ ، بطَوَعِهِ ، من الساعات المُرَهقة له ، ومن الساعات التي تَقْصِلُهُ عن الساعة المُنشودة ، ومن الناس مَنْ يَقْضِي نصفَ حياته في الذهاب من باريسَ إلى فِرْسائِ ، ومن فِرْسائِ إلى باريسَ ، ومن المِصْرَ إلى الأرياف ، ومن الأرياف إلى المِصْرِ ، ومن حَتَّى إلى آخر ، فكان يَضِيقُ بساعاته ذرعاً لو لم يكن عنده سِرٌّ إِفْثاقها على هذا الوجه ، وذلك بابتعاده عن أعماله عمدًا حتى يَمُودَ باحثًا عنها ، وهو يَظُنُّ أنه يَكْسِبُ الوقتَ الذي يُنْفِقُ في ذلك فلا يَعْرِفُ ما يَصْنَعُ لولا ذلك ، أو

إنه ، على العكس ، يَطُوف للطواف ، ويأتي بعربة البريد ، لا لسببٍ غير الرجوع إلى حيث كان ، فيا أيها الناس ، ألا تَكْفُون عن الافتراء على الطبيعة ؟ ولم تَأْلَمُون من كَوْن الحياة قصيرة لأنها ليست كما تريدون ؟ إذا ما عَرَف أَحَدُكُمْ أن يُلْزَم رَغَائِبُهُ بالاعتدال ، لكيلا يتمنى انقضاء الوقت مطلقاً ، فإنه لا يَمُدُّ الوقت قصيراً مطلقاً ، فَتَكُونُ الحياةُ وَالتَّمَتُّعُ أمراً واحداً عنده ، فلو مات شاباً لم يَمُتْ إِلَّا بعد شُبَّعٍ من الأيام .

ولو لم يَكُنْ لمنهاجى غيرُ تلك المنفعة لوجب تفضيله على كلِّ منهاجٍ آخر ، ولم أَشْئِ إميلَ للرغبة ، ولا للانتظار ، قَطُّ ، بل للتَّمَتُّع ، وهو إذا ما أَجَلَ رَغَائِبَهُ إلى ما بعد الساعة الحاضرة لم يَكُنْ هذا ، قَطُّ ، مع وجود حرارة صائلة فيه كَيْفَا يُزَعَّجُ بِبُطْءِ الوقت ، فهو لن يتمتع بَمَلَأَةِ الرغبة فقط ، بل يتمتع ، أيضاً ، بلذة الذهاب إلى القَرَضِ الذى يَرْغَب فيه ، وهو من اعتدال الأهواء ما يعيش معه فى اليوم الذى يكون فيه أكثر من اليوم الذى سيكون فيه .

ولذا فإننا لا نَسِيحُ مِثْلَ سُعَاةٍ ، بَلْ مِثْلَ رُؤَادٍ ، ولا نُفَكِّرُ فى الحَدِيثِ فقط ، بل نُفَكِّرُ فى الفاصلة بينهما أيضاً ، حتى إن الرِّحْلَةَ نَفْسَهَا لَذَّةٌ عِنْدَنَا ، ونحن لا نقوم بالرِّحْلَةِ جالسين جلوسَ الحزين ومثلَ السجين فى قَفَصٍ صغيرٍ مُحْكَمِ الإغلاق ، ولا نَسِيحُ فى مِثْلِ تَرَفِ النساءِ وراحتهن مطلقاً ، ونحن لا نَحْرِمُ أنفسنا الهواءَ الطَّلِقَ ، ولا منظرَ الأشياءِ التى تحيط بنا ، ولا فرصةَ تَأْمُلِهَا كما يَطِيبُ لَنَا ، وما كان إميلُ لِيَدْخُلَ عَرَبَةً ، ولا أن يسافر بها ، ولو كان مستعجلاً ، ولكنْ أَيْ شَيْءٍ يَسْتَعِجِلُ إميلُ ؟ إنه يَسْتَعِجِلُ

شيئاً واحداً ، وهو التمتع بالحياة ، وهل أضيفُ إلى هذا صنعَ الخير ما استطاع إليه سبيلاً ؟ كلاً ، وذلك لأن هذا تَتَمَعُ بالحياة أيضاً .

ولا أتصورُ غيرَ نَمَطٍ واحدٍ للسياحةِ اللطيفِ من ركوبِ الخيل ، وهو السَّيرُ على الأقدام ، وذلك أننا نساfer متى نريد ، وأننا نَقِفُ كما نشاء ، وأننا نَبْدُلُ من العناء ما هو قليلٌ أو كثيرٌ مثلاً نهوى ، وأننا نشاهدُ جميعَ البلد ، ونلتفتُ يُمْنَى وَيُسْرَى ، وأننا نَفْحَصُ كلَّ شيءٍ يَحُلُو لَنَا ، وأننا نَقِفُ عند جميعِ وجهاتِ النظر ، وإذا ما رأيتُ نهراً سِرْتُ وإياه ، وإذا ما رأيتُ غابةً كثيفةً مَشَيْتُ تحت ظلِّها ، وإذا ما أبصرتُ مَعَارَةَ زَرْتِهَا ، وإذا ما أبصرتُ مَقْلَعاً بِحَثٍ عن الجمادات ، وفي كلِّ مكانٍ أَبْقَى حيث يَرُوقُنِي ، ثم أنصرف حيناً يَغْتَرِبُنِي سَأْمٌ ، ولا أكونُ تابعاً لِحَصْنٍ ولا لِحُوْذِيٍّ ، ولا أُضْطَرُّ إلى اختيارِ الطُّرُقِ المَعْبَدَةِ ولا السُّبُلِ السهلة ، وأمرُّ من كلِّ مكانٍ يُمكنُ الإنسانَ أن يَمُرَّ منه ، وبما أنني لستُ تابعاً لأحدٍ غيرِ نفسي فإنني أتمتعُ بكلِّ ما يُمكنُ الإنسانَ أن يتمتع به من حرية ، وإذا ما وَقَفْتَنِي رداءهُ الجَوِّ وسئمتُ رَكِبْتُ خَيْلاً ، وإذا ما تَعَبْتُ . . . ولكنَّ إميل لا يَتَعَبُ مطلقاً ، فهو عُصْلِيٌّ ، وَلِمَ يَتَعَبُ ؟ فهو لا يُضْطَظُّ مطلقاً ، وهو إذا ما وَقَفَ فكيف يَسَامُ ؟ فهو يَحْمِلُ في كلِّ مكانٍ ما يَتَلَهَّى به ، وهو يَقْصِدُ معلماً ويشغل ، فيمرُّ ذراعيه ليريحَ رجله .

والسَّفرُ سِيراً على الأقدام هو مِثْلُ سَفَرِ تَالِيسَ وأفلاطون وفيثاغورس ، ومن الصعب على أن أدرك أن الفيلسوف يُمكنُ أن يُزِمَعَ السَّفرَ على

وجه آخر ، فيسلب نفسه درسَ ثَرَوَاتٍ يَدُوسُهَا تحت قدميه وتقرضها الأرض على عينيه ، ومن ذا الذى لا يُحِبُّ الزراعةَ بعضَ الحبِّ فلا يُريدُ الاطلاعَ على المنتجات الخاصة بإقليم الأماكن التى يجاوزها وطريقة زراعتها ؟ ومن ذا الذى يَكُونُ على شىء من الليل إلى التاريخ الطبيعى فيُمكن أن يَمُرَّ على أرضٍ من غير أن يَدْرُسَهَا ، وعلى صخرةٍ من غير أن يَكْسِرَ شيئاً من أطرافها ، وعلى جبالٍ من غير أن يَفْحَصَ نباتها ، وعلى حصباءٍ من غير أن يبحث عن مُسْتَحَنَاتٍ بينها ؟ وَيَدْرُسُ فلاسفة الأرزقة عندكم التاريخ الطبيعى فى غُرَفٍ للمطالعة ، ولديهم نماذجٌ صغيرةٌ ، وهم يَعْرِفُونَ الأسماء ، وليس عندهم أىُّ فكرٍ عن الطبيعة ، غير أن غرفة إميل للمطالعة أغنى من غُرَفِ الملوك ، فهى الأرضُ بأسرها ، وكلُّ شىءٍ فيها فى مكانه ، وقد عُنِيَ العالمُ الطبيعىُّ بترتيب جميع ذلك وَفَّقَ نظامَ متين رائع ، وما كان دُوَيْنَتُونُ ليصنعَ خيراً من ذلك .

وما أكثرَ ما يُجْمَعُ من مَلَاذٍ مُنَوَّعةٍ بهذا النَمَطِ المستحبِّ من السياحة ! فالزَّاجُ يتهج ، دَعِ الصَّحَّةَ التى تَتَقَوَّى ، ومن شاهدتُ ، دائماً ، أولئك الذين يسافرون فى عَرَبَاتٍ جميلةٍ مُرِيحةٍ فيَبْدُونَ حَالِيينَ أو مُكْتَثِيينَ أو مُهْمَمِيينَ أو مُتَوَجَّعينَ ، ومن شاهدتُ أولئك الذين يسافرون ماشينَ فيَبْدُونَ ، دائماً ، نُشطاءً فَرِحِينَ راضِينَ بكلِّ شىء ، وما أكثرَ ما يَطْرَبُ القلبُ عند الاقتراب من البيت ! وما أكثرَ ما تَظْهَرُ الوَجْبَةُ الغليظةُ لذيذةٌ ! ويا للذةِ التى تكون عند الاستقرار حَوْلَ المائدة ! ويا للنومِ المستطاب فى سريرٍ ردىء ! إذا لم يُرْغَبْ فى غير الوصول أُنْكَرُ القَدْوُ بَعَرَبَةٍ بريدٍ ،

وإذا ما أريدت الرحلة وجب السَّيرُ مشياً .

وإذا لم تُنسَ صُوفيةٌ قبلَ قَطْعِنَا خَسِينِ فَرَسَخًا على الوجه الذى أتصور
وَجَبَ أن أكون فاقدةً اللَّبَاقَةِ أو أن يكون إميلُ قليلَ الفُضُولِ ، وذلك
لأن من الصعب ، مع تلك المعارف الابتدائية الكثيرة ، ألا يحاول نيلَ
معارفٍ أكثرَ مما اكتسب ، والإنسانُ لا يكون ذا فُضُولٍ إلاَّ بنسبة
ما تَعَلَّمَ ، ولدى إميلَ من العِرْفَانِ الكافى ما يُريد معه أن يتعلَّم .

ومع ذلك فإن الشئ يَسُوقُ إلى شئٍ آخر ، ونحن نتقدم دائماً ، وقد
جعلتُ لِحَوَّلَتِنَا الأولى حدًّا بعيداً ، والذريعةُ سهلةٌ ، فلما غادرنا باريسَ
وجبَ البحثُ عن امرأةٍ فى مكانٍ قاصٍ .

وقد ضلَلْنَا طريقَنَا بعد بضعة أيامٍ قضيناها ، زيادةً على العادة ، بين
الأودية والجبال حيث لا يُرى أىُّ طريقٍ كان ، ولا ضَيْرٌ ، فكلُّ طريقٍ
صالحٌ بشرط الوصول ، ولكن لا بُدَّ من بُلُوغِ مكانٍ ما عند وقوع
الجوع ، ومن حُسْنِ الحِظِّ أن وجدنا فلاحاً أتى بنا إلى كُوخه ، فأكلنا
بشهوةٍ كبيرة ما قدَّم من غَدَاءٍ هزيلٍ ، وقد قال لنا إذ رأنا كثيراً التعب
والجوع : « لو ساقكم الرَّبُّ الكريم إلى الناحية الأخرى من التلِّ لَقُبِلْتُمْ
بأحسن مما قُبِلْتُمْ هنا ... وَلَوْ جَدْتُمْ منزلاً مُرِيحاً ... وأنا سأكون كثيراً
الإحسان ... كثيراً اللطف ... أَجَلْ ، إنهم ليسوا أطيبَ منى جَنَانًا ،
ولكنهم أكثرُ منى غِنًى ، وإن قيلَ إنهم كانوا فى الماضى أفضلَ حالاً ...
وهم لم يفتقروا والحمدُ لله ، وجميعُ البلدِ يَعْلَمُ ما يَقَى لهم » .

سَمِعَ إميلُ هذه الكلمة التى تَصُدُّرُ عن الصالحين فانشَرَحَ صدره ،

وقد قال وهو يَنْظُرُ إِلَى : « لِنَذْهَبْ ، يا صديق ، إلى ذلك المنزل الذي يُبَارِكُ لأصحابه جميعُ الجوار ، فَيَسْرُتُنِي كَثِيرًا أَنْ نَرَاهُمْ ، وقد يَسْرُونَ بَأَنْ يَرَوْنَا ، وإني لَوَاتِقٌ بِأَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ قَبُولَنَا ، وَسَيَلَامُونَنَا كَمَا نَلَامُهُمْ » .

وَنَذْهَبُ بعد أن نُدَلَّ عَلَى الطريق جيداً ، وَنَضِلُّ فِي الغاب ، فقد فاجأنا مطرٌ غزيرٌ ونحن سائرِينَ ، وَيَعُوقُنَا المَطَرُ من غير أن يَقِفْنَا ، وأخيراً نَجِدُ سَبِيلَنَا ، وَنَصِلُ مَسَاءً إِلَى المنزل المَعِينِ لَنَا ، ولهذا المنزل ، الوحيدِ مع البساطة ، بعضُ النظر في الضيعة التي تحيط به ، وَنُقَدِّمُ أَنْفُسَنَا ، وَنَطْلُبُ الضِّيَافَةَ ، وَنَكَلِّفُ بِمَكَالَمَةِ صاحب المنزل ، وَيَسْأَلُنَا بِأَدَبٍ ، وَنُخْبِرُهُ بِسَبَبِ سُلُوكِنَا الطريقَ الأطولَ من غير أن نُبَيِّنَ لَهُ غَرَضَ رِحْلَتِنَا ، وَكَانَ قد احتفظ من سابق يُسْرِهِ بِسهولة معرفته لحال الناس من خِلَالِ أَوْضَاعِهِمْ ، وَلَا عَجَبَ ، فَإِنْ من النادر أن يُخَدِّعَ بِهَا من عاش معاشرًا للناس في مجتمعاتهم ، فَكَانَ لَنَا بِجَوَازِ السفر ذاك ما أُسْفَرَ عَنْ قَبُولِنَا .

وَنُدَلَّ عَلَى غُرْفَةٍ صغيرة جدًا ، وَلَكِنهَا نَظِيفَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَتَوْقَدُ النَّارُ ، وَنَجِدُ فِيهَا بَيَاضَاتٍ وَثِيَابًا وَكُلَّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيَقُولُ إِمِيلُ دَهْشًا : « مَاذَا ! يَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَنَا ! حَقًّا كَانَ الْفَلَاحُ عَلَى حَقٍّ ! يَا لِلانْتَبَاهِ ! يَا لِلصَّلَاحِ ! يَا لِلحَذَرِ ! حَتَّى نَحْوِ الْغُرَبَاءِ ! أَرَأَيْتَ فِي زَمَنِ أُوْمِيرُسَ » ، وَأَقُولُ لَهُ : « يَسْرُتُنِي شعوركُ بِجميعِ هذا ، وَلَكِنْ لَا تَعْجَبْ مِنْهُ ، فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْدُرُ فِيهِ الْغُرَبَاءُ يُحْسِنُ قَبُولَهُمْ ، وَلَا شَيْءٌ يَجْعَلُ الرَّجُلَ أَكْثَرَ قِرْرَى مِنْ عَدَمِ الْاِحْتِيَاجِ إِلَى قِرَاهِ غَالِبًا ، فَكَثْرَةُ الضُّيُوفِ

هي التي تَقْضِي على القِرَى ، فالناسُ في زمن أواميرس كانوا لا يسافرون مطلقاً ، وهم إذا ما سافروا تُقْبَلُوا قبولاً حسناً في كلِّ مكان ، وقد نكون وحدنا كلٌّ من رُئىٰ هنا من المسافرين في العام كله » ، ويقول إميلُ : « لا ضَيْرَ ، إن من دواعي الثناء أن يُسْتَفَنى عن الضيوف وأن يُحَسِّن قبولهم دائماً . »

وُجِفَتْ أنفسنا وَنُقِومَ ثيابنا ، ونذهب للقاء ربِّ البيت ، ويُقدِّمنا إلى زوجته ، وتستقبلنا بأدبٍ ودَعَةٍ ، وتوجِّه نظراتها إلى إميل ، ومن النادر أن تَرى أمَّ في مثل حالها دخولَ شابٍ بيتها من غير أن يفتَرِها همٌّ أو فضولٌ على الأقلِّ .

وَيُجَلُّ تقديمُ العشاءِ إكراماً لنا ، ونَدْخُلُ غرفةَ الطعام ، ونَرى خمسةَ كراسٍ مُعدَّة ، وَتَجْلِسُ ، وَيَبْقَى أَحَدُ المقاعد خالياً ، وَتَدْخُلُ فتاةٌ ، وَتَحْنُو رأسها احتراماً ، وَتَجْلِسُ جلوسَ حَياءٍ من غير أن تتكلم ، ويكون إميلُ مُفَكِّراً في جُوعه أو في أجوبته فيسَلِّمُ عليها ويتكلَّمُ ويأكل ، ولا يزال غَرَضُ رِحْلَتِهِ الرئيسُ بعيداً من ذهنه بُعداً يَعْتَقِدُ معه أنه ناء عن المقصود ، ويدور الحديث حولَ تَبْهَانِ المسافرين ، ويقول ربُّ المنزل لإميلَ : « يَلُوحُ لى ، أيها السيد ، أنك فتى لطيفٌ عاقل ، ويذكركُنى وصولك ، أنت ومعلِّمك ، إلى هنا تَعَيْنِ مُبَلِّغِينَ بِتِلْمَاكَ والمرشِدِ في جزيرة كَلِيسُو » ، وَيُجِيبُ إميلُ بقوله : « حقاً أننا نَجِدُ هنا قِرَى كَلِيسُو » ، وَيُضِيفُ مُرْشِدُهُ إلى هذا قوله : « وَفَتُونَ أو كَارِيس » ، بَيِّنَ أن إميلَ يَعْرِفُ الأوديسة ، ولم يقرأ تِلْمَاكَ قطُّ ، فلا يَعْلَمُ شيئاً عن

أو كَارِيس ، وأما الفتاة فقد احمرَّ وجهها حتى العيين ، وتفضَّ طرفها على الطَّبَق ، ولا تكاد تتنفس ، وتلاحظُ أنها ارتبأ كَمَا ، وتوعِزُ إلى الأب بإشارة ، فيغيِّر الحديث ، وهو إذ يتكلَّم عن عزَّله يأخذُ في الحديث من حيث لا يشعر ، حوَّل الحوادث التي أدَّتْ إلى التبرامه إياها ، وحوَّل ما كان من مصائب حياته ، وما كان من ثبات زوجته ، وما وَجَد من سُلوَانٍ في قرانها ، وما يجِدَان من حياةٍ حُلُوَةٍ هادئةٍ في عزلتها ، وذلك من غير أن يَقُولَ كلمةً عن الفتاة ، وتتألفُ من جميع هذا قصةً لطيفة مؤثرة لا تُسَمَّعُ من غير اهتمام ، ويهتَرُ إميلُ ويرقُّ وينقطع عن الطعام لِيَسْتَمَعَ ، ثم لما تَكَلَّمَ ذلك الذي هو أصلحُ الرجال مُغْتَبِطاً عن حُبِّ أفضل النساء ساورَ الفتى المسافرَ وَجْدٌ فأمسك بإحدى يدي الزوج وصافها وتناول بيده الأخرى يدَ الزوجة ومال إليها هائِجاً مُبَلِّلاً إياها بدموعه ، ويؤثِّرُ الشابُّ في الجميع يهياجه السادج ، وتكون البنتُ أكثرَ من تأثَّر بهذا الدليل على قلبه الطيب فتظنُّ أنها تشاهدُ تِلْكَ حَزِيناً على مصائب فيلوكتيت ، وتنظرُ إليه خُلُوسَةً لتفحصَ وجهه جيِّداً فلا تجدُ شيئاً يُكذِّبُ المقارنة ، وتتمُّ طلاقة وجهه على الحرية بلا عُنْجُومَةٍ ، وتتمُّ أوضاعه على النشاط بلا طَيْش ، وتجعَلُ حسَّاسيته نظراته أكثرَ غَدُوبَةً ، وتجعَلُ سِيَمَاهُ أكثرَ تأثيراً ، وتكاد الفتاة تَمزُجُ دمعها بدمعه حيناً رآته باكية ، ويُمسِكُها حياءً خَفِيٍّ مع وجود عُذْرٍ رائعٍ لها إذا ما بَكَتْ ، وقد لامتْ نفسها على سَكَبِ عِبَرَاتٍ كادت تُفِلَّتْ من عينيها كما لو كان دَرَفُها شَوْماً على آلهَا .

وَتُبَصِّرُ أَهْلَهَا ، التي ما فتئت تَرْقُبُهَا منذ البداية ، كَرَبِّهَا ، فَتُنْقِذُهَا مِنْهُ بِإِرسالها للقيام بأمرٍ ، وَتَمُرُّ دَقِيقَةً فَتَعُودُ الْفَتَاةُ ، وَلَكِنْ مَعَ سُوءِ شِفَاءِ ظَهَرٍ مَعَهُ اضْطِرَابُهَا لِجَمِيعِ الْأَعْيُنِ ، وَتَقُولُ لَهَا أَهْلُهَا بِرَفْقٍ : « أَيْ صُوفِيَّةٌ ، اضْبِطِّي نَفْسَكَ ، وَكُفِّي عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى مَصَائِبِ أَبِيكَ ، وَلَا تَكُونِي أَكْثَرَ تَأَثُّراً مِنْهُمَا حَوْلَ بَلَايَاهَا وَأَنْتِ الَّتِي تُسَلِّمُهُمَا عَنْهَا » .

وَيَا لَيْتَكُمْ رَأَيْتُمْ ارْتِمَاشَ إِمِيلَ عِنْدَ ذِكْرِ اسْمِ صُوفِيَّةٍ ، فَقَدْ قَرَعَ سَمْعَهُ هَذَا الْاسْمُ الْعَزِيزُ كَثِيراً ، وَانْتَبَهَ مَرْتَجِفاً ، وَأَلْقَى نَظْرَةً وَلَعَمَ عَلَى تِلْكَ الَّتِي تَجَرُّوْا عَلَى حَمْلِهِ ، صُوفِيَّةٌ ! وَاهَا لَصُوفِيَّةٌ ! أَنْتِ الَّتِي يَنْشُدُهَا فَوَادِي ؟ أَنْتِ الَّتِي يُحِبُّهَا قَلْبِي ؟ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا وَيَتَأَمَّلُهَا مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْهَلَعِ وَالْحَذَرِ ، وَلَا يَرَى الْوَجْهَ الَّذِي رَسَمَهُ لِنَفْسِهِ تَمَامًا ، وَلَا يَدْرِي هَلِ الَّذِي يَرَى يُشَابِهُهُ كَثِيراً أَوْ قَلِيلاً ، وَهُوَ يَدْرُسُ جَمِيعَ مَلاحِمِهَا وَيَرْقُبُ كُلَّ حَرَكَةٍ وَإِشَارَةٍ مِنْهَا ، فَيَجِدُ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَلْفَ تَفْسِيرٍ غَامِضٍ ، وَيُودُّ أَنْ يَهَبَ نِصْفَ حَيَاتِهِ لَوْ تَنَطَّقُ بِكَلِمَةٍ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى جَزْوَاعِمِاضٍ مُضْطَرَبًا ، وَتُلْقِي عَيْنَاهُ عَلَى مِثَّةِ سَوَالٍ وَمِثَّةِ عِتَابٍ مَعًا ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِي عِنْدَ كُلِّ نَظْرَةٍ : « أَرَشِدْنِي فَلَا يَزَالُ يُوجَدُ وَقْتُ ، فَإِذَا مَا أَدْعُنُ فَوَادِي وَزَلَّ فَلَا شِفَاءَ لِي مِنْهُ مَطْلَقًا » .

وَإِمِيلُ أَقْلٌ مَنْ فِي الْعَالَمِ قُدْرَةٌ عَلَى التَّنَكُّرِ ، وَكَيْفَ يَتَنَكَّرُ وَقَدْ اعْتَرَاهُ أَعْظَمُ اضْطِرَابٍ فِي حَيَاتِهِ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَظَائِرٍ يَفْحَصُونَهُ فَيَكُونُ أَكْثَرُهُمْ تَشَاغُلًا عَنْهُ أَكْثَرَهُمْ انْتِبَاهًا إِلَيْهِ بِالْحَقِيقَةِ ؟ وَمَا كَانَ ارْتِبَاكُهُ لِيَخْفَى عَلَى عَيْنَيْ صُوفِيَّةٍ النَّفَّاذَتَيْنِ مَطْلَقًا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ عَيْنِيهِ تَخْشَعَانِهَا بِأَنَّهَا هِيَ

المقصودة ، وهى تُبَصِّرُ أن هذا الهَلَع ليس من الحُبِّ ، ولكن ما أُمِيَّةُ ذلك ؟ فهو يَشْفَلُ بالله بها ، وهذا يَكْفِي ، ومن شقاؤها الشديد أن يَصْرِفَ هَمَّهُ إليها بلا عِقَاب .

وللأُمِّهَاتِ عيونُ كِبَانِهِنَّ فضلاً عن التجربة ، وتبتسم أُمُّ صُوفِيَةٍ لنجاح خِطَطِهَا ، وهى تقرأ ما يَدُورُ فى خَلَدِ الشَّابِّينَ ، وهى تُبَصِّرُ أن الوقتَ حَلَّ لثبات فَوَادِ تِلْمَازِكَ الجَدِيدِ ، فتَحْمِلُ ابْنَتَهَا على الكلام ، وتُجِيبُ ابْنَتَهَا ، مع دَعَتِهَا الفِطْرِيَّةِ ، بِصَوْتِ يَنِيمُ على الحياءِ فيكون له أبلغُ الأثر ، وَيَسْتَسْلِمُ إِمِيلُ عند أولِ رَنَّةٍ لهذا الصوتِ ، فهذه هى صُوفِيَّةٌ ، ولا يَشُكُّ فى هذا ، ولو كان الأمرُ غيرَ هذا لجاء إنكارُهُ متأخراً جداً .

وهناك يتدفقُ فُتُونُ هذه البنتِ الساحرةِ إلى فَوَادِهِ كَالسَّيْلِ ، وهناك يأخذ فى ابتلاع السُّمِّ الذى تُسَكِّرُهُ به على جَرَعاتٍ طويلة ، وعادَ لا يَتَكَلَّمُ ، وعادَ لا يُجِيبُ ، وصارَ لا يَرَى غيرَ صُوفِيَّةٍ ، وصارَ لا يَسْمَعُ غيرَ صُوفِيَّةٍ ، فإذا ما نَطَقَتْ بكلمةٍ فَتَحَ فاهُ ، وإذا ما كَسَرَتْ من طَرَفِهَا غَضًّا من طَرَفِهِ ، وإذا ما أَبْصَرَهَا تَتَأَوَّهُ تَأَوَّهَ ، فيُظْهَرُ أن رُوحَ صُوفِيَّةٍ هو الذى يُحَرِّكُهُ ، وبِالْتَفَافِ رُوحِهَا فى أَوْيَاقَاتِ ! وَالْآنَ أَتَى دَوْرُ إِمِيلَ فى الارتعاشِ ، لا دَوْرُهَا ، وَالْآنَ وَدَاعًا أَيْهَا الحَرِيَّةِ والسَّذَاجَةِ وسلامةُ القلبِ ، وقد عادَ لا يَنْظُرُ إلى من حَوَّلَهُ عن اضطرابٍ وارتباكٍ وَجَزَعٍ ، وخَشْيَةٍ أن يَرَى أنه يُنْظَرُ إليه ، وَيَسْتَجِى أن يُنْفَذَ إلى سريره فيَوَدُّ لو يَخْفَى على جميعِ الناسِ حتى يَشَبَّعَ من تَأَمُّلِهَا بِأَحْكامٍ بعيداً من العيونِ ،

وعكسُ هذا حالُ صُوفيةِ التي اطمأنتْ إلى وَجَلِ إميلَ فأبصرتْ نَفَرَهَا
وَسُرَّتْ بِهِ .

« هـى لا تُبْذِيه ، وإنْ كانت تُسَرُّ بِهِ »

« فى فؤادها » .

أَجَلٌ ، إنها لم تُغَيِّرْ سِيماها ، بيد أن فؤادها ، مع هذا الوَضْعِ المتواضع
وخَفَضِ طَرَفِها ، يَحْقِيقُ قَرَحًا فيُخْبِرُها بأن تِلْمَاكَ قد وُجِدَ .
وإذا ما تناولتُ هنا قصةَ هواها العُذْرَى الساذِجِ البسيطِ إلى الغايةِ
عُدَّتْ هذه التفصيلاتُ من التَّرَهَّاتِ على غيرِ حَقٍّ ، وذلك أنه لا يُنْظَرُ
بما فيه الكفاية إلى ما يجب أن يكون لأول اتصالٍ بين الرجل والمرأة من
تأثيرٍ فى مجرى حياةِ كُلِّ منهما ، ولا يُرى أنه يَكُونُ للانطباعِ الأولِ
القوى ، كانطباعِ الحُبِّ أو الميلِ الذى يقوم مقامُ الحُبِّ ، من التأثيرِ
الطويل ما لا يُبْصَرُ معه تسلسلهُ بمرورِ السنينِ مطلقًا ، ولكنه لا يَنْقَطِعُ عن
العملِ حتى الموتِ ، ويُعْرَضُ علينا فى كتبِ التربيةِ حَشْوٌ كبيرٌ غيرُ مُجْدٍ ،
وقائِمٌ على الخذلقةِ ، حَوْلَ واجباتِ الأولادِ الوهميةِ ، فلا تُدْكَرُ لنا كلمةٌ
فيها عن أهمِّ أقسامِ التربيةِ وأصعبها ، أى عن أُرْزَمةِ الانتقالِ من دَوْرِ
الوُلُوديةِ إلى دَوْرِ الرُّجولةِ ، وإذا كنتُ قد استطعتُ أن أجْعَلَ موضوعاتى
مفيدةً فذلك لتوسُّعِى فى هذا القسمِ الأساسى الذى أَهْمَلَهُ الآخرون ، ولأنتى
لم أرتدَّ عن عملى بالدقائق الزائفة ولا بمصاعبِ التعبيرِ ، وإذا كنتُ قد
قلتُ ما يَجِبُ أن يُصَنَعَ فإننى قلتُ ما وَجَبَ علىَّ أن أقول ، ولا يَهْمُنِى
أن أكتب روايةً إلا قليلًا ، وتُعدُّ روايةُ الطبيعةِ البشريةِ رائعةً ، وهل

يَقَعُ الذَّنْبُ عَلَى إِذَا لَمْ تُوجَدْ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ ؟ وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ
هَذِهِ قِصَّةَ نَوْعِي ، وَأَنْتُمْ إِذْ تُفْسِدُونَ هَذَا النُّوعَ تَجْمَعُونَ مِنْ كِتَابِي رَوَايَةً .
وَيُوجَدُ بَاعْثٌ آخَرُ يُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ هُنَا لَا يَدُورُ
حَوْلَ فَتَى أُسْلِمَ مِنْذُ دَوْرِ الطُّفُولَةِ إِلَى الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ وَالْحَسَدِ وَالزَّهْوِ
وَجَمِيعِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ وَسَائِلَ لِلتَّرِيَّاتِ الشَّائِعَةِ ، وَإِنَّمَا يَدُورُ
حَوْلَ فَتَى يَسَاوِرُهُ هُنَا أَوَّلُ حُبٍّ فَضَلًّا عَنْ أَوَّلِ هَوًى مِنْ كُلِّ نَوْعٍ ،
وَيَتَوَقَّفُ آخَرُ طَوْرٍ يَكْتَسِبُهُ طَبْعُهُ عَلَى هَذَا الْهَوًى الْوَحِيدِ الَّذِي سَيَشْعُرُ بِهِ
شَعُورًا قَوِيًّا مَا دَامَ حَيًّا عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، وَسَتَنَالُ طُرُزُ تَفْكِيرِهِ وَمَشَاعِرُهُ
وَأَذَوَاقُهُ ، الرَّاسِخَةُ بِهِوًى دَائِمٍ ، ثَبَاتًا لَا يَدَعُ لَهَا مَجَالًا تَفْسُدُ فِيهِ .

وَيُذَرِّكُ أَنَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَعْقِبُ مِثْلَ تِلْكَ السَّهْرَةِ لَا تُقْضَى كُلُّهَا فِي النَّوْمِ
مِنْ قَبْلِي وَقَبْلَ إِمِيلَ ، وَهَلْ يُوْجِبُ تَوَافُقُ الْأَسْمِ وَحْدَهُ مِثْلَ ذَلِكَ التَّأْثِيرِ
فِي رَجُلٍ عَاقِلٍ ؟ أَلَا يُوْجَدُ غَيْرُ صُوفِيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْعَالَمِ ؟ وَهَلْ يَتَشَابَهُ
جَمِيعُهُنَّ رُوحًا وَاسْمًا ؟ وَهَلْ كُلُّ صُوفِيَةٍ يَرَاهَا هِيَ صُوفِيَّتُهُ ؟ وَهَلْ بَلَغَ
مِنْ الْجَنُونِ مَا يُوَلِّعُ مَعَهُ بِمَجْهُولَةٍ لَمْ يُكَلِّمَهَا قَطُّ ؟ اِنْتَظِرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ وَافْحَصْ
وَلَا حِظْ ، حَتَّى إِنَّكَ لَا تَعْرِفُ مَنْ هُوَ مُضَيِّفُكَ ، وَمَنْ يَسْمَعُكَ يَظُنُّ أَنَّكَ
فِي مَنْزِلِكَ .

وَلَيْسَ هَذَا وَقْتُ الدَّرُوسِ ، وَلَمْ تُوضَعْ هَذِهِ الدَّرُوسُ لِتَسْمَعَ ، وَهِيَ
لَا تَصْنَعُ غَيْرَ إِثَارَتِهَا لَدَى الْفَتَى رَغْبَةً جَدِيدَةً فِي صُوفِيَةٍ تَسْوِيغًا لِمِيلِهِ إِلَيْهَا ،
وَلَمْ يُوَدِّ هَذَا التَّوَافُقَ فِي الْأَسْمَاءِ وَهَذَا اللَّقَاءِ الَّذِي يَعْتَقِدُ وَقْعَهُ اتِّفَاقًا ، حَتَّى
تَحْفَظِي ، إِلَى غَيْرِ تَحْرِيكِ حُمَيَّاهُ ، وَقَدْ بَدَتْ صُوفِيَةٌ لَهُ مِنْ جِدَارَتِهَا

بالتقدير البالغ ما شعرَ معه باستطاعته أن يُحبِّبها إلى .

وفي الصباح ساورني شكٌّ في محاولة إميل أن يجعل نفسه زاهياً بثياب رِخلته الرديئة ، ولم يُعَوِّزْهُ الأمرُ ، ولكنني ضَحِكْتُ من اكتفائه بثياب المنزل ، وأُنقِذُ في أفكاره ، وأقرأ فيها مسروراً محاولته القيامَ بمبادلاتٍ حين إعدادهِ وسائلَ للإعادة ، وإقامته ضرباً من الرسالة يجعل له حقاً في الردِّ والعودِ إلى هنالك .

وقد انتظرتُ أن أجِدَ صُوفيةً أحسنَ لباساً من ناحيتها أيضاً ، فكنت مخطئاً في ذلك ، وذلك أن الدَّلالَ المبتذلَ صالحٌ لمن يُرِدُنَ الوقوعَ موقعَ الرِّضا ، وأما دلالُ الحبِّ الحقيقيِّ فأكثرُ دِقَّةً ، وهو ذو مزاعمٍ كثيرةٍ أخرى ، وبدتُ صُوفيةً أبسطَ ثياباً مما كانت عليه عِشِّيَّةٌ ، حتى إنها ظَهَرَتْ أَكْثَرَ تهاوُّناً مع نظافةٍ بالغةٍ دائماً ، ولا أرى دلالاً في هذا التهاون إلا لأنني أرى فيه تظاهراً ، أَجَلُ ، إن صُوفيةً تَعْرِفُ جَيِّداً أن الإفراط في الزينة يَنْطَوِي على تصريحٍ ، ولكنها لا تَعْرِفُ أن التهاون بالزينة يَنْطَوِي على تصريحٍ آخر ، وهي تدُلُّ على أنه لا يُكْتَفَى في الرَّوْقَانِ بحُسْنِ الثياب ، بل يُوقَعُ بالشخصِ مَوْقِعَ الرِّضا ، والآن ما أَرَبُ العاشقِ بثيابها إذا ما رأى أنها تُفَكِّرُ فيه ؟ وتطمئنُ صُوفيةٌ إلى سلطانها على إميلَ فلا تَقْتَصِرُ على وَقْفِ عينيه بفتونها إذا لم يَبْحَثُ فَوادُه عن هذا الفتون ، وقد عادت لا تكفي بأن يَلْحَظَ هذا الفتون ، وإنما تريد أن يَفْتَرِضَه ، أو لم يُبْصِرْ منه ما فيه الكفاية حتى يُضْطَرَّ إلى التَّنَبُّؤِ بالبقية ؟

ويُظَنُّ أن صُوفيةً وأُخًى لم تَبْقِيا صامتين في أثناء حديثنا في تلك الليلة ،

فهناك اعترافاتٌ قد نُزِعَتْ وأوامرٌ قد صَدَرَتْ ، وفي الغد يُحَسِّنُ إعدادُ
الاجتماع ، ومنذ اثنتي عشرة ساعةً لم يجتمع الفتَيَان ، ولم يُكَلِّم أحدهما
الآخرَ بكلمةٍ حتى الآن ، وكان قد رُئِيَ توافقهما ، وليس تقابلهما مألوفًا ،
فهو مشوبٌ بالحياء والارتباك ، ولا يَنْطِقَان مطلقًا ، ويظهرُ أن عَيْنَي
كلٍّ منهما مُجَانِبَتَيْنِ لِعَيْنَي الآخر ، حتى إن هذا دليلٌ على التفاهم ،
أَجَلٌ ، ذاك تَجَانِبٌ ، ولكن مع اتفاق ، ويشعرُان بحاجةٍ إلى السكتان
قَبْلَ قولهما كلمةً ، ولَمَّا انصرفنا طَلَبْنَا أن يُؤْذَنَ لنا في العودَ بأنفسنا لإعادة
ما نأخذُ معنا ، ويَطْلُبُ إميلُ هذا الإذنَ من الأب والأمِّ بفمه ، على حين
كانت عيناه الجزُوعانِ مُوجَّهَتَيْنِ إلى الفتاة طالبتين منها بالخاص ، ولا تَنْطِقُ
صوفية بكلمة ، ولا تأتِي بإشارةٍ ، ولا تَظْهَرُ أنها ترى شيئًا أو تَسْمَعُ
قَوْلًا ، ولكنها تَحْمَرُّ خجلًا ، وهذا الحياء جوابٌ أوضحُ من جواب
الأبوين .

ويُسَمِّحُ لنا بالرجوع من غير أن نُدْعَى إلى البقاء ، وهذا سلوكٌ ملائمٌ ،
فإذا أُذِنَ للمسافرين الذين دَهَمَهُم الظلامُ في المَبَاتِ فإن من غير اللائق أن ينام
عاشقٌ في بيت خليلته .

ولم نَكْذُ نفادِرُ هذا المنزلَ العزيز حتى رأى إميلُ أن يُقِيمَ بِالْجَوَارِ ،
ويلوَحُ له أن أقربَ منزلٍ بعيدٍ جدًّا ، فودَّ لو يَنَامُ في خَنْدَقِ القصر ،
فأقولُ له عاطفًا : « أيها الفتى الطائش ! ماذا ! هل أَعْمَاكَ الهَوَى ؟ أراك
لا تراعى اللياقةَ والعقل ! يا لك من تَعِيس ! تعتقد أنك تحبُّ ثم تُريدُ
فَضَحَ خليلتك ! ما يُقالُ عنها إذا عُلِمَ أن فَتًى خَرَجَ من منزلها ونام في

جوارها ؟ أنت تقول إنك تُحبُّها ! فهل تُريدُ القضاء على سُمعتها إذن ؟
 أهذا تَمَنُّ القِرَى الذى حَبَّانا به والداها ؟ أَتُلْحِقُ عاراً بتلك التى تَنْتَظِرُ
 سعادتك منها ؟ » ، وَيُجِيبُ بحِجَابٍ قَائِلاً : « وَالآن ! ما أَهْمِيهِ هَذِهِ
 النَّاسُ وَرِيَّيِهِمُ الْجَانَّةُ ؟ أَلَمْ تُعَلِّمْنِي أَلَّا أُقِيمَ لذلِكَ وَزَنًا ؟ وَمَنْ يَعْرِفُ
 أَكْثَرَ مِنِّي مَقْدَارَ ما أَجِلُّ صُوفِيَّةٍ وما أُريدُ لها من إِكْرَامٍ ؟ لَنْ يَكُونُ
 وَلَعَى بِها عاراً ، بَلْ يُوجِبُ لها افْتِخاراً ، وسيكونُ جَدِيراً بِها ، وَإِذا ما قامَ
 فَوادى وَجْهَدى فى كُلِّ مَكَانٍ بما تَسْتَحِقُّ من تَبْجِيلٍ فَبأى شَيْءٍ أَكونُ
 قَدْ أَهَنْتُها ؟ » ، وَأَرُدُّ على إِمِيلَ مَعانِقاً : « أَيْ إِمِيلَ العَزِيزِ ، أَنْتَ
 تَتَعَلَّلُ بِالْأَمْرِ مِنْ حَيْثُ وَجْهَةٌ نَظَرُكَ ، فَتَعَلَّمْ تَقْلِيلَ الْأَمْرِ مِنْ أَجْلِها ،
 وَلَا تَقَرِّنْ شَرَفَ أَحَدِ الْجَنَسِينَ بِشَرَفِ الْجَنَسِ الْآخَرِ مُطْلَقاً ، فَكُلٌّ مِنْهُما
 مَبَادِئُ تَخْتَلِفُ عَنِ مَبَادِئِ الْآخَرِ كُلِّ الْاِخْتِلَافِ ، وَهَذِهِ الْمَبَادِئُ مُتَبَيِّنَةٌ
 صَائِبَةٌ عَلَى السَّوَاءِ لاشْتِقَاقِها مِنَ الطَّبِيعَةِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَمَا عِنْدَكَ مِنْ
 فَضِيلَةٍ تَحْمِلُكَ عَلَى اِزْدِرَاءِ كَلَامِ النَّاسِ يُلْزِمُكَ بِاحْتِرَامِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْ
 أَجْلِ خَلِيلَتِكَ ، فَإِذَا كَانَ شَرَفُكَ قَائِماً فِيكَ وَحْدَكَ فَإِنْ شَرَفُها يَتَعَلَّقُ
 بِالْآخَرِينَ ، فإِهْأَلْ هَذَا الشَّرَفَ يَنْطَوِي عَلَى إِهَانَةٍ لَشَرَفِكَ أَيْضاً ، وَلَيْسَ سِوَى
 امْتِهَانٍ مِنْكَ لِمَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْكَ أَلَّا تَصْنَعَ ما هِيَ أَهْلُهُ مِنْ الْاِحْتِرَامِ .
 وَهَنَالِكَ فَصَّلْتُ لَهُ أَسْبَابَ هَذِهِ الْفُرُوقِ فَأَشْعَرْتُهُ بِما يَكُونُ مِنْ بَغْيٍ
 فِي عَدَمِ الْاِكْتِرَافِ لَهَا ، وَمَنْ قَالَ لَهُ إِنَّهُ سَيَكُونُ زَوْجاً لَصُوفِيَّةٍ ، وَهِيَ
 الَّتِي يَجْهَلُ مِشاعِرَها ، وَهِيَ الَّتِي قَدْ يَكُونُ قَلْبُها وَأَبْواها مُرْتَبِطَيْنِ بِعُهودٍ
 سَابِقَةٍ ، وَهِيَ الَّتِي قَدْ لَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَها مِنَ الْمَوَاقِفَاتِ ما يُمَكِّنُ أَنْ

يَجْعَلُ قِرَانَهُمَا سَعِيداً ؟ وهل يَجْهَلُ أن كلَّ عارٍ يُصِيبُ البنتَ دَنَسٌ لا يُمَحِّى ، وأنه لا يَزُولُ حتى يتزوجها الذى أوجب هذا العارَ لها ؟ والآن ! مَنْ هو الرجلُ الحَسَّاسُ الذى يُريدُ أن يَفْقِدَ من يُحِبُّ ؟ وأى رجلٍ صالحٍ يُريدُ أن يوجبَ إلى الأبدَ بكاءً شَقِيَّةً تَنَسَّ وقوعها موقعَ الرِّضا لديه ؟

وَيَحْشَى الفَتَى ما أَطْلَعَتْهُ عَلَيْهِ من النتائجِ ، وبما أنه يَلْزِمُ أَقْصَى حَدِّ لأفكاره دائماً فإنه يُبْصِرُ أنه لا يزال غير بعيد من منزل صوفية بما فيه الكفاية فيضاعف خطوَه إمعاناً فى الفِرار ، وَيَنْظُرُ حَوْلَنَا لَبْرَى هل يَسْمَعُنَا أَحَدٌ ، ولا غَرْوٌ ، فهو يُضْحَى بِسَعادته أَلْفَ مَرَّةٍ فى سبيلِ شرفٍ مِنْ يُحِبُّ ، وهو يُفَضِّلُ إلّا يراها ثانيةً مَدَى حياته على أن يُكَدِّرَ صَفْوَهَا مَرَّةً واحدةً ، وهذه هى الثَّمَرَةُ الأولى للعناية التى حَبَوْتُهُ بها منذ صباه كما أَجْعَلُ له قلباً يَعْرِفُ أن يُحِبُّ .

وَلِذَا فَإِنَّ الأَمْرَ يَدُورُ حَوْلَ وجود ملجأٍ بعيدٍ على إلّا يكونَ كثيرَ البُعدِ ، وَتَبْتَثُ وَتَسْتَعْلَمُ ، وَتَعْلَمُ وجودَ مدينةٍ بعيدةٍ فرسخين ، ونحاول أن نَجِدَ لنا مَسْكناً فيها ، مُفَضِّلِينَ إِيَّاهُ على مَسْكَنِ فى القُرَى إلّا كثيرَ قُرْباً حيث تكون إقامتنا محلَّ شُبْهَةٍ ، وأخيراً يَصِلُ إلى هناك عاشقٌ جديدٌ مملوءٌ حُبّاً وأملًا وسروراً ، ومشاعرَ طيبةٍ على الخصوص ، ومن ثمَّ تَرى كيف وَجَّهَتْ بالتدريج هواه الناشئَ نحوَ ما هو صالح شريفٌ ، وكيف أَعَدَدَتْ جَمِيعَ مَبْوَلِهِ لسلوك ذاتِ القصدِ .

وَأَدْنُو من آخرِ عملٍ ، وَأَبْصِرُ ذلكَ من بعيدٍ ، وقد ذُلِّلَتْ جَمِيعُ

المصاعب الكبيرة ، وقد اقْتَحَمَتْ جميعُ العقباتِ العظيمة ، ولم يَبْقَ لدى من المشاقِّ ما أُسْوَى غيرُ عدمِ إفسادِ صنْعى بإسراعى في إنجازهِ ، ولنَنْظُرُ إلى ما تَنْطَوِي عليه حياةُ الإنسانِ من قَلَقَلَةٍ فَجَجَتْنَبَ ، على الخصوص ، ذاكَ الحَذَرُ الزائفَ القاتِلَ بأنْ يُضَحَّى بالحاضرِ في سبيلِ المستقبلِ ، وذلكَ لِمَا يَفْنَى هذا ، غالباً ، من التضحية بما هو كائنٌ في سبيلِ ما لا يَكُونُ مطلقاً ، ولنَجْعَلَ الإنسانَ سعيداً في جميعِ أدوارِ عُمرِهِ ، وذلكَ خشيةً أنْ يموتَ قبلَ أنْ يَنالها مع كلِّ ما يُبْذَلُ من جهودٍ ، والواقعُ أنه إذا وُجِدَ وقتٌ يُتَمَتَّعُ فيه بالحياةِ فذاك ، لا رَيْبَ ، هو دَوْرُ الشبابِ حيثَ تكونُ قُوَى الروحِ والبَدَنِ أعظَمَ نشاطاً فيها ، وحيثُ يُبْصِرُ الإنسانُ ، في وسطِ سَبَاقِهِ ، من بعيدٍ ، ما يُشْعِرُهُ بِقَصَرِها من حَدِّينَ ، وإذا ما خُدِعَ الشبابُ الغافلُ لم يَنشأَ هذا عن كونه يُرِيدُ أنْ يَتَمَتَّعَ ، بل عن كونه يَبْتَغِي عن التمتعِ حيثَ لا يَكُونُ مطلقاً ، وهو ، إذْ يُعِدُّ نفسه لمستقبلٍ بائسٍ ، لم يَعْرِفْ حتى الاستمتاعَ بالساعةِ الحاضرةِ .

واحْسُبُوا إميلَ ، بعدَ إتمامِهِ العشرينَ من عُمرِهِ ، حَسَنَ التَّنْشِئَةِ ، حَسَنَ التَّكْوِينِ روحاً وبَدَناً ، قوياً سليماً نشيطاً رَشِيقاً عَصْلِيّاً ، مملوئاً إحساساً وعقلاً وصلاًحاً وإنسانيَّةً ، صاحبَ أخلاقٍ وذوقٍ ، محباً للجمالِ ، فاعلاً للخيرِ ، خالياً من الأهواءِ الجالحةِ ، بريئاً من زَيْرِ المُبْتَسِرِ ، ولكن مع خُضُوعٍ لسلطانِ العقلِ ، مجيئاً لداعى الصداقةِ ، حائزاً لجميعِ المواهبِ النافعةِ ولكنَّ كثيرٍ من المواهبِ المُسْتَحْبَةِ ، قليلَ المبالاةِ بالثَّرَوَاتِ ، معتمداً في عيشِهِ على ذِراعِيهِ ، غيرَ خائفٍ أنْ يُعَوِّزَهُ الخبزُ مهما حَدَثَ ، والآلَنَ تَرَاهُ

نَشْوَانِ بَهْوَى نَاشِيْ ، فَيَتَفَتَّحُ قَوَادُهُ لِأَوَّلَى نِيرَانِ الْغَرَامِ ، وَتَصْنَعُ لَهُ
أَوْهَامُهُ الْحُلُوَّةَ عَالِمًا جَدِيدًا مِنَ النِّعَمِ وَالِاسْتِمْتَاعِ ، وَيُحِبُّ بُفْيَةً مُبْتَغَاةً ،
وَهِيَ تُبْتَغَى بِأَخْلَاقِهَا أَكْثَرَ مِمَّا بِشَخْصِهَا ، وَهُوَ يَأْمُلُ وَيَنْتَظِرُ مَا يُحْسِ
اسْتِحْقَاقَهُ لَهُ مِنْ ثَوَابٍ .

وَمِنْ تَوَاصُلِ الْقُلُوبِ وَتَسَابِقِ الْمَشَاعِرِ الصَّالِحَةِ تَأَلَّفَ مِيلُهُمَا الْأَوَّلُ ، وَهَذَا
الْمِيلُ هُوَ مَا يَجِبُ أَنْ يَظَلَّ بَاقِيًا ، وَيَسْتَسَلِّمُ هَذَا الْمِيلُ مَطْمَئِنًا ، وَحَقِيًّا
أَيْضًا ، إِلَى هَذَيْنِ بَالِغٍ ، وَذَلِكَ بِلَا وَجَلٍ وَأَسْفٍ وَنَدَمٍ ، وَبِلَا هَلَعٍ آخَرَ
غَيْرِ الَّذِي لَا يَنْفَصِلُ حِسُّ السَّعَادَةِ عَنْهُ ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُفُوزَ بِهِ هُنَاكَ ؟
انْظُرُوا وَاسْتَعْمَلُوا وَتَصَوَّرُوا كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَعْدُ ، وَكُلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ
يُمْنَحَ زِيَادَةً عَلَى مَا لَدَيْهِ ، وَهُوَ يَجْمَعُ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُنَالَ
مَعًا ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا شَيْءٌ إِلَّا عَلَى حِسَابِ شَيْءٍ آخَرَ ، وَهُوَ
سَعِيدٌ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ ، وَهَلْ أُخْتَصِرُ الْآنَ نَصِيحًا بِالْبَالِغِ الْحَلَاوَةِ ؟
وَهَلْ أَكْثَرُ صَفْوَةِ شَهْوَةِ الْبَالِغَةِ النَّقَاءُ ؟ آه ! إِنْ كُلَّ قِيَمَةٍ لِلْحَيَاةِ قَائِمَةٌ ضِمْنَ
مَا يَذُوقُ مِنْ سَعَادَةٍ ، وَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعِيدَ إِلَيْهِ فِي مُقَابِلِ مَا أَكُونُ قَدْ
تَرَعْتُ مِنْهُ ؟ حَتَّى إِنِّي لَوْ أَطْفَخْتُ سَعَادَةً لَعُدِدْتُ بِذَلِكَ مُقَوِّضًا أَعْظَمَ
فُتُونٍ عِنْدَهُ ، وَهَذِهِ السَّعَادَةُ الْعُلْيَا هِيَ أَخْلَى مِثْلَةِ مَرَّةٍ بَأَن تُؤْمَلَ مِمَّا بَأَن
تُنَالَ ، وَهِيَ يُتَمَتَّعُ بِهَا عِنْدَ مَا تُنْتَظَرُ بِأَفْضَلٍ مِنْ أَنْ تُذَاقَ ، وَيَا إِمِيلُ
الصَّالِحَ ، أَحِبَّ وَكُنْ مَحْبُوبًا ! وَتَمَتَّعْ زَمَنًا طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ تَحُوزَ ، وَتَمَتَّعْ
بِالْغَرَامِ وَالطَّهَرِ مَعًا ، وَاجْعَلْ جَنَّتَكَ فِي الْأَرْضِ مُنْتَظَرًا الْجَنَّةَ الْآخَرَى ،
وَلَنْ أُخْتَصِرَ هَذَا الدَّوْرَ السَّعِيدَ مِنْ حَيَاتِكَ مُطْلَقًا ، وَسَأَغْرِزُ لَكَ مِنْهُ فُتُونًا ،

وسأطيلُ مداه ما أمكنني ذلك ، واهأ ! يجبُ أن ينتهي ، وأن ينتهي في وقت قصير ، ولكنني سأبذل من الجهد ما ينبغي معه قائماً في ذاكرتك على الأقل ، فلا تندمُ على ذوقك إياه مطلقاً .

ولم ينسَ إميلُ أن لدينا ما نعيدُ ، فإذا ما أُعيدَ تناولنا خيلاً وانطلقنا عدواً ، وإميلُ في هذه المرة يريد الوصول ، ومتى فُتِحَ القواد للهوى انفتح لسأم الحياة ، وإذا لم أضيقُ وقتي لم يقضِ حياته هكذا .

ومن المؤسف أن يكون الطريقُ مشتبكاً والبلدُ صعباً ، فنضِلُ ، ويكون أولَ من يُدرك ذلك ، ولا يجزع ولا يتوجع ، وإنما يصرف جميع انتباهه في لُقيان الطريق ، ويجول طويلاً قبلَ أن يعرف أين هو ، وذلك مع ضبطٍ للنفس دائمٍ ، أجل ، إن هذا أمرٌ لا يستحقُ الذكرَ عندهم ، ولكنه أمرٌ مهمٌ عندي ، أنا الذي يعرف مقدارَ اهتمامه عن طمعٍ ، وأبصرُ ثمرةَ الجهود التي بذلتُ منذ صباه لجعله يحتملُ ضرباتِ الضرورة .

وأخيراً نصِلُ ، ويكون استقبالنا أكثرَ بساطةً ولطفاً مما في المرة الأولى ، وذلك لأننا عُدِدنا من المعارف ، وبُسِّمَ كلُّ من إميلَ وصوفية على الآخر مع شيء من الارتباك ، ومن غير أن يتحادثا ، وما يتحادثان عنه أمامنا ؟ لا يحتاج الحديث الذي يرغبان فيه إلى شهود ، وننتزعه في الحديقة ، وقد أفرز من هذه الحديقة قسمٌ للخضر حسنُ التنظيم ، وتشتمل هذه الحديقة على روضةٍ مستورة بأشجارٍ كبيرة رائعةٍ مثمرة من كلِّ نوع ، وتقطعُ هذه الروضة جداولُ جميلةٌ من جهاتٍ مختلفة ، ولهذه الروضة حواشٍ زاخرة بالزهور ، ويقول صارخاً إميلُ الذي استحوذ عليه أوميرس وكان هائج

النفس دائماً: « يا لحسن المكان ! يُحَيَّلُ إلى أنى أرى جَنَّةَ أَلْسِينُوس » ،
وُحْرِيْدُ البنت أن تَعْلَمَ من هو أَلْسِينُوس ، ونسأل الأم ، وأقول : « كان
أَلْسِينُوسُ ملكَ كورَسِيرَ الذى وَصَفَ أُوْمِيرُسُ حديقته وانتقدها رجالُ
الذوق لكثرة بساطتها وقلة زينتها ^(١) ، وكان لأَلْسِينُوسَ هذا ابنةً لطيفةً تَلَقَّى
غَرِيبٌ قَرِى من أيها ، فرأت في منامها ، قَبْلَ ذلك بليلة ، أنها ستزوّج
عما قليل » ، وَتُبَهَّتْ صُوفِيَّةُ ، وَيَحْمَرُّ وجهها ، وَتَكْسِرُ من طَرْفها ، وَتَعْضُ
بَنَاقَها ، وَيَبْدُو من اضطرابها ما لا يُتَصَوَّر ، وَيَرُوقُ الأب أن يَزِيدَ
ارتباكها ، فيتناول الحديث ويقول إن الأميرة الفتاة كانت تذهب إلى النهر
لَتَغْسِلَ البَيَاضاتِ بنفسها ، ويداوم على الحديث بقوله : « أَوْ تَظَنُّونَ أنها
كانت تَزْدْرِى مَسَّ الحَرِّقِ القَدْرَةِ قائلَة إن رائحة الصراصير تنتشر منها ؟ » ،
وَتَنْتَسِ صُوفِيَّةُ ، التى تُوجَّهُ إليها الطعنة ، حياءها الطبيعي وتعتذر بحماسة ،
وَيَعْرِفُ أبوها جيداً أنه لا يُوجَدُ غيرها من يَغْسِلُ البَيَاضاتِ الصغيرة إذا ما

(١) « إذا ما خرجتم من القصر أبصرتُم حديقة واسعة مؤلفة من أربعة أفندة ، مسيجة من جهاتها
الأربع ، مغروسة فيها أشجار كبيرة مزهرة ، فتنفتح كثرى وتفاساً ورمناً وفواكه أخرى من أطيب الأنواع ،
كما أنها تشتمل على أشجارتين ذات ثمر حلو ، وعلى أشجار زيتون ناضرة ، وما كانت هذه الأشجار الرائعة
لتبقى بلا ثمر في جميع السنة ، وفي الشتاء والصيف يوجب ما يأتي من الغرب من النسيم اللطيف ترفيع الأشجار
ونفضج الثمار ما ، ويرى ذبول الكثرى والتفاح والتين مع الجفاف على الأشجار ، ويرى ذبول المناقيد على
النوال ، ولا تفتأ الكرمة التى لا تنفد تحمل عنباً جديداً ، ويترك بعض العنب على الجرن لينضج ويتحول
إلى زبيب تحت الشمس على حين يقتطف آخر منه ويترك على الكرمة ما لا يزال في دور الازدهار أو ما لا يزال
حصراً أو ما يأخذ في الاسوداد ، ويرى في أحد الطرفين مربان مزروعان جيداً مستوران بأزهار في جميع
السنة مزينان ببركتين يوزع ماء إحداها في جميع الحديقة ، ويساق ماء الأخرى ، بعد أن يقطع القصر ،
إلى بناء قائم في المصر ليسق المواطنين » .

فذلك هو وصف حديقة ألسينوس الملكية في الجزء السابع من الأوديسة ، حيث لا ترى عرش ولا تماثيل
ولا شلالات ولا خيام من أزهار ، وإن كان هذا لا يروق ذلك الشائب الحالم بأوميرس وأمرأ عصره .

تُرك لها القيامُ بذلك^(١) ، وأنها تقومُ بأعظمَ من هذا إذا ما أُمِرتُ به ، وكانت ، في أثناء هذا الكلام تنظرُ إلى من طرفٍ خفيٍّ مع قلقٍ لم أستطع أن أمنعَ معه نفسى من الضحك قارئاً في فؤادها البسيط ضروبَ الذعر الذى يحملُها على الكلام ، وكان من القسوة ما يزيدُ معه هذا الطيشَ بأن يسألها سائراً عن سبب حديثها عن نفسها ، وعن وجود علاقة بينها وبين ابنَةِ أَلَسِينُوس ، ويعتريها خجلٌ وارتجافٌ فلا تجزؤُ بعدَ ذلك على النطق بكلمة ، ولا على النظر إلى أحد ، فيا أيتها الفتاة الفاتنة ! ليس هذا وقتَ التَنَكُّر ، فقد أظهرتِ نفسك على الرغم منك .

ولم يلبث هذا المنظر الصغير أن نُسِيَ أو ظهرَ أنه نُسِيَ ، ومن حُسْنِ حَظٍّ صُوفِيَةٍ أن إميلَ وحده هو الذى لم ينسَ إلى ما وَقَعَ ، وتَدُومُ التَّزْهَة ، وقد شَقَّ على الفَتَيْنِ ، اللذين كانا بجانبنا فى البَدْءِ ، أن يُنْظَرَا نَفْسَهُمَا وَفَقَّ بَطْءَ سِيرِنَا ، فهما يسبقاننا من حيث لا يَشْعُرَان ، ويتدانيان ويتقاربان فى آخر الأمر ، ونراهما على شئ من البُعْدِ أماناً ، ونظهُرُ صُوفِيَةٍ مُنْتَبِهَةٍ رَزِينَةٍ ، ويتكلم إميلُ مع نشاطٍ فى الحركات ، ويلوح أن الحديث لا يُورِثُهُمَا مَلالاً ، ونَعُودُ بعد ساعة تامة ، ونناديهما ، ويأتيان ، ولكن مع بَطْءِ بَدْوَرِهَا ، ويرى أنهما يقضيان وقتاً مُمتعاً ، وأخيراً يَنْقَطِعُ حديثُهُمَا بَقْتَةً قبل أن يَكُونُ سَماعُهُ فى مُتَنَاولِنَا ، ويضائعان الخَطْوَ لِيَلْحَظَا بِنَا ، ويدنو إميلُ منا طليقَ الوجه لطيفَ المُحَيَّا ، وتَلَمَّعَ عيناه سروراً ، ومع

(١) أعترف بالجميل لأم صوفية التى لم تصنع ما تفسد به فى الصابون يدا صوفية الجميلتان اللتان

سيقبلهما إميل كثيراً .

ذلك فإنه يُدِيرُهما نحو أمِّ صُوفِيَّة مع شيء من الجَزَع ليرى كيف يكون قَبُولُها له ، ولا تَظْهَرُ صُوفِيَّة في مثل تلك الطَّلَاقَة ، وهى ، إذ تَدْنُو ، تَلُوح مُرْتَبِكَةٌ بظهورها مُخْتَلِيةً بَقِيَّةً ، وهى التى حَدَثَ كثيرًا أن وُجِدَتْ مع آخَرِينَ في مِثْلِ هذه الحال من غير أن ترتبك ، ومن غير أن تُرَى في وَضْعٍ سَيِّئٍ مطلقًا ، وتَسِيرُ عَدَوًّا إلى أمِّها ، وتقول ، وهى تَلَهَثُ قليلًا ، بعضَ أَلْفَاظٍ لا تَدُلُّ على كِبَرِ شيء ، وذلك كما لو كانت تَدُلُّ على وجودها هناك منذ وقتٍ غير قصير .

ويَظْهَرُ من طَلَاقَةِ مُحَيَّا هَذَيْنِ الْفَتَيَيْنِ اللَّطِيفَيْنِ أن هذا الحديثَ أَلْقَى رَحْمَلًا ثَقِيلًا عن قَلْبَيْهِمَا الْفَتَيَيْنِ ، وليس أَقْلٌ من هذا تَحْفَظُ كُلِّيهما نحو الآخر ، غير أن تَحْفَظُهما أَقْلُ ارتباكًا ، وقد عاد هذا التحفظ لا يَصْدُرُ عن غير احترام إميل وحياء صُوفِيَّة وعن صلاح الاثنين ، أَجَلْ ، إن إميلَ يَجْزُو أن يُوجَّهَ إليها بعضَ الكَلِمَاتِ ، وإنها تَجْزُو على الجواب أحيانًا ، يَبْدُو أنها لا تَفْتَحُ فَمَها لِلْجواب من غير أن تَنظُرَ إلى أمِّها ، وأَكْثَرُ ما يُشْعَرُ به من تَغْيِيرٍ فِيها ، كما يَلُوحُ ، هو شعورُها نحوى ، وهى تُنْظَرُ لى أعظم احترام ، وهى تَنظُرُ إلىَّ باهتمام ، وهى تُكَلِّمُنِي بِمَوَدَّةٍ ، وهى تَبْذُلُ جُهْدَها لِلوُقُوعِ مَنِ مَوْجِعِ الرِّضَا ، وأرى أنها تُكْرِمُنِي عن تقديرٍ منها وأنها ليست ممن لا يبالى بِنَيْلِ تَقْدِيرِي ، وأدْرِكُ أن إميلَ حَدَّثَها عَنِّي ، فَيُمْكِنُ أن يقال إنهما تَأَمَّرَا على الْقَوْزِ بى ، ومع ذلك فليس الأمرُ كَذَلِكَ ، فليست صُوفِيَّة نَفْسُها ممن يُنَالُ بِسُرْعَةٍ ، ومن المحتمل أن يكون إميلُ محتاجًا إلى زُلْفَايَ عِنْدَها أَكْثَرُ من زُلْفَاها عِنْدِي ، وإِذَا لَهَا من اثنين فائتين ! ...

إنى أتمتع بجائزة عنائى حينما أبصرُ أن ما لدى صديقى الشاب من فؤادٍ حَسَّاسٍ قد أدخلنى كثيراً إلى أول حديثٍ بينه وبين خليلته ، فلى بصدافته كلُّ مكافأة .

وَتَسَكَّرُ زيارتنا ، وبصير ما يدور بين الفتيين من أحاديثٍ أكثر وقوعاً ، وَيَبْلُغُ إميلُ من تَمَلُّ الحُبِّ ما يعتقد معه أنه يَلْمِسُ سعادته ، ومع ذلك فإنه لا يَطْفُرُ باعترافٍ صريحٍ من صُوفية ، فهى تُضغى إليه ولا تقول له شيئاً ، وَيَعْرِفُ إميلُ جميعَ حياتها ، ولذلك فإنه لا يَدْهَشُ من صحتها إلا قليلاً ، وهو يَشْتَرُ بأنه ليس سيئ الوَضْعِ عندها ، وهو يَعْرِفُ أن الآباء هم الذين يُزَوِّجون الأولاد ، وهو يَقْتَرِضُ أن صُوفية تنتظر أمراً من والديها ، فيَطْلُبُ منها أن تَسْمَحَ له بأن يَلْتَمِسَها ، فلا تُعَارِضُ فى هذا ، ويخاطبني إميلُ فى الموضوع ، وأتكلَّمُ باسمه ، حتى حين حضوره ، ويا لَدَهْشِهِ إذْ عَلِمَ أن أمرَ صُوفيةَ بيدها وأنه ليس عليها إلا أن تُرِيدَهُ حتى تَجْمَعَلَهُ سعيداً ! ويأخذ فى عدم إدراك شيء من سلوكها ، وَتَنْقُصُ ثِقَتَهُ وَيُدْعَرُ ، وَيُبْصِرُ أنه أقلُّ تقدُّماً مما كان يَنْتَظِرُ ، وهنالكَ يَسْتَعْمَلُ الغرامُ الأرقُّ لفتته الأعظمَ تأثيراً حتى تَلِينُ صُوفية .

ولم يَصْنَعْ إميلُ لِيَتَنَبَّأَ بما يضرُّه ، وهو إذا لم يُخَبَّرْ به لم يَعْرِفْهُ فى جميع أيامه ، وَصُوفيةُ فخورٌ كثيراً بأن تُنَبِّئَهُ إياه ، وما يَعُوقُها من مصاعبٍ تُعْذُّها غيرها عاملَ استعجالٍ ، وهى لم تَنْسَ دروسَ والديها ، وهى تَعَلَّمُ أنها فقيرةٌ وأن إميلَ غنىٌّ ، وما أكثرَ احتياجه إلى جعلها تُقدِّرُهُ ! وأيةُ مزيةٍ لا بُدَّ له منها حتى يَمُحُوَ هذا التفاوت ! ولكن كيف تَحْظُرُ بباله

هذه العوائق ؟ وهل يَعْرِفُ إميلُ أنه غنيٌّ ؟ وهل يَتَنَازَلُ فَيَسْتَعْلِمَ عنها ؟
 حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى الثَّرَاءِ مُطْلَقًا ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ يَكُونُ
 مُحْسِنًا بِلاَ غِنَى ، وَهُوَ يَسْتَخْرِجُ الْخَيْرَ الَّذِي يَصْنَعُ مِنْ قَلْبِهِ لَا مِنْ جَيْبِهِ ،
 وَهُوَ يَبْذُلُ لِلْبَائِسِينَ وَقْتَهُ وَجُوهَدَهُ وَعَوَاطِفَهُ وَنَفْسَهُ ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يَجْرُؤُ فِي
 تَقْدِيرِ حُسْنِيَّاتِهِ عَلَى حَسَابِ الْمَالِ الَّذِي أَنْفَقَهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ .

وبما أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ وَجْهًا لِلْوَمِّ عَلَى بَلَوِهِ فَإِنَّهُ يَعْزُوهَا إِلَى خَطَأٍ مِنْهُ ،
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ يَجْرُؤُ عَلَى اتِّهَامِ مَوْضِعِ عِبَادَتِهِ بِالشَّدُودِ ؟ وَيَزِيدُ خِزْيُ
 حُبِّ الذَّاتِ حَسْرَاتِ الْغَرَامِ لِلْمَصْرُوفِ بِغِلْظَةٍ ، وَعَادَ لَا يَدْنُو مِنْ صُوفِيَةٍ
 بِذَلِكَ الْاعْتِمَادِ الْمُسْتَحَبِّ لِقَلْبٍ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ جَدِيرٌ بِهِ ، وَيَكُونُ جَزُوعًا مَرْتَجِفًا
 أَمَامَهَا ، وَعَادَ لَا يَأْمُلُ أَنْ يَلْمِسَهَا بِالرِّقَّةِ ، وَإِنَّمَا يَحَاوِلُ أَنْ يُبَلِّغَهَا بِالِاسْتِعْطَافِ ،
 وَيَفْقِدُ صَبْرَهُ أحيانًا ، فَيَكَادُ يُفَاضِبُ ، وَيَلُوحُ أَنْ صُوفِيَةٍ تَشْعُرُ بِمَا يَسَاوِرُهُ
 مِنْ أَحَاسِيسٍ فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَهَذِهِ النِّظَرَةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُكْنُّ غَضَبَهُ
 وَتُلْقِي فِيهِ الرُّغْبَ ، فَيَكُونُ خَاضِعًا أَكْثَرَ مِنْ قَبْلِ .

وَيُكَدِّرُ صَفْوَهُ بِهَذِهِ الْمَقَاوِمَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعِنَادِ وَبِهَذَا السَّكُوتِ الَّذِي
 لَا يُقْوَى عَلَيْهِ ، فَيَفْتَحُ قَلْبَهُ لَصَدِيقِهِ ، وَيُودِعُ صَدِيقَهُ آلاَمَ فُؤَادِهِ الْمَكْلُومِ
 كَرْبًا ، وَيَضْرَعُ إِلَيْهِ أَنْ يُعِينَهُ وَأَنْ يَنْصَحَهُ ، وَيَا لَهُ مِنْ سِرٍّ خَفِيٍّ !
 « هِيَ تَكْتَرِثُ لِنَصِيبِي ، وَلَا يُمَكِّنُنِي الشُّكُّ فِي هَذَا ، وَمَنْ الْبَعِيدُ أَنْ
 تَبْتَعِدَ عَنِّي ، وَيَرْوُقَهَا أَنْ تَكُونَ مَعِي ، وَتُبْدِي سُرُورَهَا عِنْدَ وَصُولِي ،
 وَتُظْهِرَ أَسْفَهَا عِنْدَ انْصِرَافِي ، وَتَتَلَقَّ عِنَابِي بِلُطْفٍ ، وَيَلُوحُ أَنْ خِدْمِي تَقَعُ
 مِنْهَا مَوْقِعَ الْقَبُولِ ، وَتَتَفَضَّلُ فَتَخْبُونِي بَآرَاءَ ، حَتَّى إِذَا تُضْدِرُ إِلَيَّ أَوَامِرَ

في بعض الأحيان ، ومع ذلك فإنها تَرُدُّ التماسي ورجائي ، وإذا ما جرؤْتُ
على الكلام حَوْلِ القِرآنِ ألزمتني بالسكوت قسراً ، وإذا ما أضفتُ
كلمةً تركتني قوَّراً ، وبأى حَقٍّ عجيبٍ تُريدُ أن أكون لها من غير أن
تُريدَ إسماعى كلمةً عن كونها لى ؟ تَكَلَّمْ واخْمِلْها على الكلام ، أنت
الذى تُجِلِّه وتُجِبُّه ولا تَجْرُؤُ على إسكاته ، واخْدُم صديقك ، وأكْمِلْ عمَلَك
ولا تَجْعَلْ جهودك شؤماً على تلميذك ، آه ! إنك إذا لم تُتِمَّ سعادته كان
ما اكتسبَ منك سببَ شقائه .

وأَكَلَمْ صُوفِيَّةً ، وأنزِعُ منها مع قليلٍ جهدٍ سِراً كنتُ أعْرِفُهُ
قَبْلَ أن تقولهُ لى ، وأُصْعَبُ من هذا نَيْلٍ منها إذناً فى إطلاعِ إميلَ
عليه ، وأفُوزُ به أخيراً وأُعمَلُ وَفْقَ مقتضاه ، ويُلقِيه هذا الإيضاحُ فى
دَهْشٍ لا يُمكن أن يُشْفَى منه ، وهو لا يُدْرِك شيئاً من هذه الدِّقَّة ، وهو
لا يتصور ما قد يكون للدنانير ، قليلةً كانت أو كثيرةً ، من عملٍ فى
الْخُلُقِ والمزِيَّة ، ولَمَّا أسمعته بما يكون لها من فِعْلٍ فى مُبْتَسِرَاتِ الناسِ
أخذ يضحك ، وقد تَهَلَّلَ وجهه سروراً فأراد أن يذهب من قُورِهِ لِيَمَزَّقَ
كلَّ شَيْءٍ وَيَزِمِيَّ كلَّ شَيْءٍ وَيَعْدِلَ عن كلِّ شَيْءٍ نَيْلاً لشرفِ الفقرِ مثْلَ
صوفيةٍ وكَيْفَا يَمُودُ ليكونَ زوجَها .

وأَقِفُهُ ، وأقولُ له ضاحكاً بدَوْرِى من اندفاعه : « ماذا ! ألا
يَنْضَجُ هذا الرأسُ النَّسِيءُ مطلقاً ؟ ألا تتعلَّمُ التَّمَقُّلَ ، مطلقاً ، بعد أن
تَفَلَسَّفْتَ فى جميع حياتك ؟ وكيف لا تَرَى أنك ، باتباعك خِطَّتِكَ السَّخِيفَةِ ،
تكون قد زِدْتَ حَالَك سوءاً وجَعَلْتَ صُوفِيَّةً شُمُوساً ؟ ومن المفيد بعضَ

الفائدة أن يكون عندك من المال أكثر مما عندها ، ومن العظيم جداً أن تُضَحَّىَ بجميعه من أجلها ، وإذا كانت من الزهو ما لا تُطِيقُ معه أن تكون مدينةً لك بإحسانٍ قليل فكيف تَحْتَمِلُ أن تكون مدينةً لك بفضلٍ كبير ؟ وإذا كانت لا تُطِيقُ إمكانَ تعيير الزوج إياها بأنه أغناها فهل تَحْتَمِلُ إمكانَ تعييره إياها بأنه افتقر في سبيلها ؟ وبأيها التَّعَسُّ ! اخترز من أن يُلَوِّحَ لها أنك تُفَكِّرُ في هذه الخِطَّةِ ، وعلى العكس كُنْ مُقْتَصِداً يَفِظُ جُباً لها ، وذلك خشية أن تَهْمَكَ بأنك تريد نيلها بالحيلة ، وبأنك تُضَحَّى طَوْعاً بما سَتَبْدُرُهُ إهالاً .

« وهل تعتقد أن الأموال الكبيرة تُخَفِّفُها حقيقةً ، وأن معارضاتها تنشأ عن الثروات ضَبْطاً ؟ كلاً ، يا إميلُ العزيز ، إن لمعارضاتها سبباً أكثر قوةً وأعظم شِدَّةً بالآثر الذي توجبه هذه الثرواتُ في نفس صاحبها ، وهي تَعْرِفُ أن جميع منافع الثراء مُفَضَّلَةٌ على كلِّ شيء عند من هم حائزون لها ، وجميعُ الأغنياء يَبْعُدُونَ الذهب قبل المَزيَّة ، وإذا ما وُضِعَ المال بجانب الخِدم وَجَدُوا ، دائماً ، أن الخِدم لا تُؤَوِّي في المال حَقَّهُ مطلقاً ، وَظَنُوا أن مَنْ قَضَوْا حياتهم في خِدمتهم آكلين خبزهم مدينون لهم بالبقية ، ولذا فما عليك أن تَفْعَلَ ، يا إميلُ ، لتسكين مخاوفها ؟ دَعَهَا تَعْرِفُكَ جيداً ، وليس هذا عملَ يومٍ واحد ، وأثبت لها أن في كُنُوز روحك الكريم ما يوازن ثراء كان من سوء حَظِّكَ نَيْلُكَ إياها ، وتَغَلَّبْ على مقاومتها بالثبات ومع الزمن ، واجعلها تَنْسَى ثَرَاءَكَ بمشاعرك الجليلة النبيلة ، وأحبِّها ، واخْدُمها ، وقم بخدمة والديها المحترمين ، وأقيم لها الدليل على أن

هذه العناية ليست نتيجة هوى سعي عابر ، بل هي مبادئ لا تطمس منقوشة في صميم فؤادك ، وبجل ما يهيئه الثراء من مزية تبجيلاً لا تقا ، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لمسألة المزية التي تُعزّها .

ويذكر مقدار الفرح الذي يوجبه هذا الكلام في القتي ، ومقدار ما يورثه إياه من ثقة وأمل ، ومقدار ما يستبشر به فؤاده الشريف فيما يصنع ليتقع موقع القبول عند صوفية ، أو فيما يصنع من تلقاء نفسه عند عدم وجود صوفية ، أو عندما لا يكون عاشقاً لها ، ومهما يكن من قلة إدراك لخلقته فن ذا الذي لا يتصور سلوكه في مثل هذه الحال ؟

وها أنا ذا ، إذن ، نجي قتي الصالحين وواسطة جبهما ! ويا له من صنع رائع يقوم به المرء ! وقد بلغ هذا العمل من الجلال ما لم أصنع معه في حياتي شيئاً رفيعاً في عيني نفسي بهذا المقدار وجعلني راضياً عن نفسي بهذا المقدار ، ومع ذلك فإن لهذا العمل ملاذ ، وذلك أنني لم أقبل في المنزل قبولاً سيئاً ، وأنه أُرْكَنَ إلى في إمسك العاشقين ضمن النظام ، فلم يظهر إميل ذلواً ظهوره في هذه المرة مرتجفاً دائماً من إمكان عدم وقوعه موقع الرضا ، وقد غمرتني الفتاة بصدقة صادقة لا أتناول غير حصتي منها ، وهكذا فإنها تعوض نفسها تعويضاً غير مباشر من شدة تخيف بها إميل ، وهي تقوم له في شخصي بألف ودٍ رقيق مفضلة الموت على إبدائه له بنفسه ، وهو يعرف أنني لا أريد الإضرار بمصالحه فيسره أن أكون على وئام معها ، وله سلوان ، عند رفضها ذراعه في أثناء التزّهة ، بأن يقوم هذا الرفض على ترجيحها ذراعي ، وهو

يَبْتَعِدُ من غير أن يتذمّر مصالحاً إياي قائلاً لي مخافتاً بالصوت والعين :
 « تَسْكَلَمُ من أخلي يا صديقي » ، وهو يَتَبَعُنَا بعينه مع الاهتمام ، وهو
 يحاول أن يقرأ مشاعرنا على وَجْهنا وأن يُفَسِّرَ كلامنا بحركاتنا ، وهو
 يَعْرِفُ أنه لا شيء فيما يَدُور بيننا من حديثٍ خارجٍ عن نطاق الاكتراث
 له ، ويا صُوفِيَةِ العزِيزَةِ ، ما أَكْثَرَ ما يَكُونُ فؤادُك المخلصُ مرتاحاً
 عند ما يُمَكِّنُكَ أن تحدثي مُرْشِدَ تِلْمَأك من غير أن يَسْمَعَكَ تِلْمَأك !
 ويا لسلامة الطُورِيَّةِ التي تَدْعِينَهُ يقرأ بها في هذا القلبِ الحَنُونِ جميعَ ما يَدُورُ
 فيه ! ويا لِلذَّةِ التي تُطْلِعِينَهُ بها على ما تَحْمِلِينَ من إعزازٍ جامعٍ لتلميذه !
 ويا للإخلاصِ المؤثِّرِ الذي تَدْعِينَهُ يَنْفِذُ به أحلى المِشاعِرِ ! ويا لَتَكَلُّفِ
 الغضبِ في صَرَفِ اللُّجُوجِ عند ما يَحْمِلُهُ عَدَمُ الصبرِ على قَطْعِ حديثك !
 ويا لَتَكَلُّفِ الأسفِ الفاتِنِ الذي تَلُومِينَهُ به على عَدَمِ الرِّصَانَةِ عندما يجيء
 لمنك من قَوْلِ الخيرِ عنه وسماعه عنه مستخرجةً من أجوبتي دائماً سبباً
 جديداً لِحُبِّهِ !

وهكذا فإن إميل بَلَغَ مرحلةَ أَذِنَ له فيها أن يتخذ وضعَ العاشقِ
 المعروف فصار يتمتع بجميع حقوقه فيتكلم ويُلْعِجُ ويلتمس ويُلْحِفُ . وصار
 لا يبالي أن يخاطب بشدةٍ وأن يعامل بسوءٍ على أن يسمع ، وأخيراً
 يَحْفَظِي ، ولكن مع صعوبةٍ ، بأن تَفْضَلَ صُوفِيَةِ ، من ناحيتها ، فتَنَحَلُ
 سلطانَ الخطيئةِ جَهراً ، فتُمَلِّي عليه ما يجب أن يَفْعَلَ ، وتأمِره بدلاً من أن
 تَرْجُو منه ، وتَقْبَلْ بدلاً من الشُّكْرِ ، وتُنظِّمَ عددَ الزياراتِ وأوقاتها ،
 وتمنعه من الحجى حتى اليومِ القلاني ومن البقاء بعد الساعةِ القلانية ، ولم

يُضَنَعُ جَمِيعُ هَذَا عَنْ كَهْوٍ ، بَلْ عَنْ جِدِّ بَالِغٍ ، وَهِيَ إِذَا كَانَتْ قَدْ قَبِلَتْ
هَذِهِ الْحَقُوقَ بِصُعُوبَةٍ فَإِنَّهَا تُبْدِي مِنَ التَّدْقِيقِ فِي اسْتِمَالِهَا مَا يَجْعَلُ إِمِيلَ
الْمُسْكِينَ يَأْسَفُ ، فِي الْغَالِبِ ، عَلَى مَنَحِهَا إِيَّاهَا ، وَلَكِنَّا مَهْمَا تَأْمُرُ
لَا يَتَأَخَّرُ عَنِ الْإِمْتِثَالِ ، وَمِمَّا يَحْدُثُ ، غَالِبًا ، أَنَّهُ إِذَا مَا ذَهَبَ عَنِ إِطَاعَةِ
نَظَرٍ إِلَى بَعِينِينَ طَافِحَتَيْنِ سُرُورًا قَائِلَتَيْنِ لِي : « إِنِّهَا مَلَكَتْنِي كَمَا تَرَى » ،
وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ صُوفِيَةَ الْمُخْتَالَةَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ، وَتَبْتَسِمُ سِرًّا مِنْ
زَهْوٍ عِبْدَهَا .

أَعِيرَانِي ، يَا أَلْبَانُ وَيَا رَفَائِيلُ ، رِيَشَةَ اللَّذَّةِ ! وَعَلَّمَ قَلَمِي الْغَلِيظَ ،
يَا مِلْتُونُ السَّمَاوِيَّ ، مَلَاذَّ الْحُبِّ وَالْعَفَافِ ! وَلَكِنْ كَلَّا ، أَخْفُوا فَنُونََكُمْ
الْكَاذِبَةَ أَمَامَ حَقِيقَةِ الطَّبِيعَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَكُونُوا ذَوِي قُلُوبٍ حَسَّاسَةِ وَنُفُوسٍ
شَرِيفَةٍ ، ثُمَّ دَعُوا خِيَالَكُمْ يَجُولُ بِلا قَسْرِ حَوْلَ هَيَامِ الْعَاشِقِينَ الشَّابِّينَ
الَّذِينَ يُسَلِّمَانِ نَفْسَهُمَا عَلَى أَعْيُنِ وَالِدَيْهِمَا وَمُرْشِدَيْهِمَا ، وَمَنْ غَيْرُ كَذَرٍ ،
إِلَى الْوَهْمِ الْقَذْبِ الَّذِي يَفْتَتُهُمَا ، وَهِيَ إِذْ يَتَقَدَّمَانِ ، فِي نَشْوَةِ الرِّغَابِ ،
إِلَى الْغَايَةِ عَلَى مَهَلٍ بِشَبَّكَانِ بِالْأَزْهَارِ وَالْأَكَالِيلِ تِلْكَ الرَّابِطَةَ السَّعِيدَةَ الَّتِي
يَجِبُ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَهُمَا حَتَّى الْقَبْرِ ، وَهَنَالِكَ صُورٌ سَاحِرَةٌ تُسَكِّرُنِي ، وَأُجْمَعُهَا
بِلا تَرْتِيبٍ وَلَا نِظَامٍ ، وَمَا تُوجِبُهُ مِنْ هَذَيَانٍ فِيَّ يَحُولُ دُونَ رِبْطِ بَعْضِهَا
بِبَعْضٍ ، وَئِىْ ! مِنْ ذَا الَّذِي يَكُونُ ذَا قَلْبٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضَعُ فِي
نَفْسِهِ لَوْحَةً لَطِيفَةً لِمُخْتَلَفِ الْأَوْضَاعِ الَّتِي يَتَخَذُهَا الْأَبُ وَالْأُمُّ وَالْبَنْتُ وَالْمَرْبِيُّ
وَالْتَلْمِيزُ ، وَلِتَعَاوُنِ هَؤُلَاءِ عَلَى قِرَآنِ أَكْثَرِ الْأَزْوَاجِ قُتُونًا فِيمَكِنِ الْحُبُّ
وَالْفَضِيلَةُ أَنْ يُسْفِرَا عَنْ سَعَادَتِهِمَا ؟

والآن ، حين صار إميلُ يبادر إلى الوقوع موقعَ القبول في الحقيقة ، أخذَ يشعرُ بقيمة الواهب اللطيفة التي حُبِّي بها ، وتحبُّ صُوفيةُ الفناء فيُفَنِّي معها ، ويفعل أكثر من هذا ، أي يعلمُها للموسيقا ، وهي نشيطةٌ رشيقة فتحبُّ الوئوب ، وهو يَرَقُصُ معها ، ويحوِّل وتبائها إلى خطأ ، ويسيرُ بها نحو الإيقان ، وهذه الدروس فاتنةٌ وينعشُها المَرَحُ اللُّعُوبُ الذي يُلَطِّفُ حُرْمَةَ الحُبِّ القائمة على الحياء ، ويباح للعاشق أن يُعْطِيَ هذه الدروسَ مع اللذة ، ومن المباح أن يكون العاشق أستاذَ خطيبته .

ويوجدُ بيانٌ قديمٌ مختلٌ تماماً ، ويُضْلِحُه إميلُ ويَهَيِّئُه ، وإميلُ صانعٌ ومصنِّحٌ للآلات الموسيقية كما أنه نجارٌ ، ويقومُ مَبْدُوءُهُ الدائم على تعلُّم الاستغناء عن عَوْنِ الآخرين في كلِّ ما يستطيع عمله بنفسه ، ويقعُ المنزل في موضع رائع ، فيرُسمُ له عدة صُورٍ فتَضَعُ صُوفِيَةٌ يَدَهَا عليها أحياناً وتُزَيِّنُ بها غرفةَ أبيها ، وليست أطرُ هذه الصور مزخرفةً مطلقاً ، وهي غيرُ محتاجة إلى الزخرفة ، وهي تتكامل إذ تَرَى إميلَ يرُسمُ فتَقْلِدُه ، وهي تُنَقِّفُ جميعَ مواهبها على مثال إميل ، ويُزَيِّنُ فُتُونُهَا جميعَ ما تصنع ، ويدُكُرُ أبوها وأُمُّها سابقَ يُسْرِها حينما يشاهدان حَوَلَمَا ثانيةً إشراقَ الفنون الجميلة التي تُنْعِمُ وحدَها على الثراء بقيمة ، وقد بَجَلَّ الحُبُّ جميعَ منزلها ، والحُبُّ وحدَه هو الذي أوجب ، بلا نفقة ولا مشقة ، تَجَلَّى ذاتِ الملاذِّ التي كانا لا يَجْمَعَانِها فيه سابقاً إلا بالمال والمَلال .

ويحبُّ العاشقُ إحاطةَ الكمالِ بصاحبه فيريدُ إضافةَ زخارفٍ جديدةٍ إليها بلا انقطاع ، شأنُ الوثني الذي يُزَوِّقُ من الذخائر ما يُقدَّرُ

أنه موضعُ عبادته ويُجَمَّلُ فوق المذبح الإله الذي يَعْبُدُ ، والصاحبةُ لا تحتاج إلى شيء من ذلك لتَرْوِقَهُ ، وإنما هو يحتاج إلى تزيينها ، وهذا إكرامٌ جديدٌ يَرَى أنه يقوم به نحوها ، وهذا اهتمامٌ جديدٌ يَنْفَحُ به لذةَ مشاهدتها ، ويُلَوِّحُ أنه لا شيء جميل يكون في موضعه إذا لم يُزَيَّنْ الجمالَ الأُنْمَى ، ومن المناظر المؤثرة المضحكة معاً أن يُرَى إميلُ وهو يبادرُ إلى تعليم صُوفيةٍ جميعَ ما يَعْلَمُ ، وذلك من غير أن يَنْظُرَ هل يلائم ذوقها ما يُريدُ تعليمها إياه ، أو هل هذا الأمرُ يناسبها ، وهو يُحَدِّثُها عن كلِّ شيء ، وهو يُوضِّحُ لها كلَّ شيءٍ بنشاطٍ صبيانيٍّ ، وهو يَظُنُّ أن عليه أن يَتَكَلَّمَ ، فَتَفْقَهُ ما يقول من فَوْزِها ، وهو يَتَمَثَّلُ مقدِّماً ما يَتَّفِقُ له من لذةٍ في البرهنة والتَّفَلُّسِ معها ، وهو يَعُدُّ من الأمور غيرِ المُجْدِيَةِ كلَّ شيءٍ حَصَلَهُ فلا يستطيع عَرْضَهُ على عينيها مطاقاً ، ويَحْمَرُّ وجهه خجلاً تقريباً من معرفته شيئاً لا تَعْرِفُهُ .

وها هو ذا ، إذَنْ ، يُلْقِي عليها درساً في الفلسفة والفيزياء والرياضيات والتاريخ ، وكلَّ شيءٍ آخرَ ، وتُراعيه صُوفيةٌ في غَيْرَتِهِ طَيِّبَةٌ الخاطر ، وتحاول الاستفادة منه ، وما أَكْثَرَ ما يَطِيبُ لإميل أن تَسْمَحَ له بأن يُلقِيَ دروسه عليها وهو جاثٍ أمامها ! فهو يَمْتَقِدُ أن السماواتِ قد فُتِحَتْ أبوابُها ، ومع ذلك فإن هذا الوضعَ الذي هو أَكْثَرُ مضايقةٍ للتلميذ مما للمعلم ليس أَكْثَرَ ما يناسبُ التعليمَ ، وذلك لأنه لا يُعْرِفُ حينئذٍ ما يَصْنَعُ أحدها بعينه اجتناباً للعينين الآخرين اللتين تَتَمَقَّبَانِها ، فإذا ما تلاقَتِ العيونُ لم يَسِرِ الدرسُ سيراً حسناً .

أَجَلٌ ، إن فنَّ التفكير ليس غريباً عن النساء ، بَيِّنَدَ أنه لا ينبغي لمن أن يصنَعْنَ غيرَ لَمَسِ العلوم العقلية لَمَساً خفيفاً ، وَتَفْهَمُ صُوفِيَةً كُلَّ شَيْءٍ ، ولا تَحْفَظُ كَبِيرَ شَيْءٍ ، وَأَعْظَمُ ما يَكُونُ تَقْدُّمُها في علوم الأخلاق وأُمُورِ الذوق ، وأما الفيزياء فلا تَحْفَظُ منها غيرَ قليلٍ من النواميس العامة ونظام الكون ، ومما يَحْدُثُ في أَثناءِ نُزْهِمِها ، أحياناً ، أن يتأملَ مَجَانِبَ الطبيعة فيَجْروُ فَوادِها البرية على الارتقاء إلى صانِعِها ، فهما لا يَحْشَيَانِ حُضُورَهُ ، وهما يَبْوَحَّانِ بأسرارِ قلبِهما أَمَامَهُ .

ماذا ! عاشقان في زهرة العُمُرِ يَبْهَتَانِ في الدين على انفراد ، وَيَقْضِيَانِ وَقْتَهُما في الكلام حَوْلَ كتابِهما في الدين ! وما فائدة الحَظِّ مما هو عالٍ ؟ أَجَلٌ ، لا رَيْبَ ، إِنْهُما يتكلمان حَوْلَهُ حين سُبْحِهما في الخيال الذي يَفْتَتِيهُما ، فَيَرَيَانِ أَنَّهُما كاملان ، ويتحابَّانِ ، ويتحدَّثانِ بِحماسةٍ فيما يَحْمَلُ لِلْعَاقِبَةِ قِيَمَةً ، وما يَبْذُلَانِ في سَبِيلِهِ من تَضَحِيَّاتٍ يَحْمِلُهُ عَزِيزاً عليهما ، وهما في أَثناءِ الهِجَاكِ الذي يَجِبُ أن يَتَغَلَّبَا عليه يَسْكُبَانِ في بعض الأحيان من الدموع ما هو أَصْفَى من نَدَى السماء ، فَتَكُونُ هذه العَبَرَاتُ الحُلُوةُ فِتْنَةً لِحَيَاتِهِما ، وذلك أَنَّهُما يَكُونَانِ في أَعْظَمِ ما تُبْتَلَى بِهِ نَفْسٌ بَشَرِيَّةٍ من هَذَيَانٍ ساحرٍ ، وَيَزِيدُ حِرْمَانُهُما نَفْسُهُ في سَعَادَتِهِما وَيُشْرِفُ تَضَحِيَّتُهُما في أَعْيُنِهِما ، أَجَلٌ ، إِنْهُما سَيَعْرِفَانِ مَلَأَةً كَمَا ذَاتَ يَوْمٍ أَيُّهُما النَّاسُ ، أَيُّهُما الأَبْدَانُ بِلا رُوحٍ ، فَيَأْسِفَانِ مَدَى حَيَاتِهِما على الأوقات المباركة التي امْتَنَعَا فِيهَا عن التمتع بهذه المَلَأَةِ ! ومع ما هو واقعٌ بَيْنَهُما من اتفاقٍ رَائعٍ فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَهُما في الحين بعد الحين خِلافٌ ، ونِزاعٌ أَيْضاً ، فَلَيْسَتْ الصَّاحِبَةُ بِلا جَاحٍ ، وَلَيْسَ العَاشِقُ

بلا حِدَّة ، غير أن هذه العواصف الصغيرة تَمُكُّ بسرعةٍ ولا تؤدي إلى غير تثبيت الاتحاد ، حتى إن التجربة عَلَّمَت إميلَ ألاَّ يَخْشَاهَا ، فالإصلاحُ في كلِّ وقتٍ أنفعُ له من شقاقٍ يَخْشَرُ به ، وما كان للخلاف الأول من نتائج جَمَلَه ينتظر نتيجةً مماثلةً من جميع الخلافات ، أَجَلٌ ، إنه مخطئٌ في هذا ، ولكنه ، حتى عند عدم نيَّله فائدةً ظاهرةً كنتك دائماً ، يكون له كَسْبٌ دائمٌ بما يَرى من توكيد صُوفية لاهتمامها بحُبِّه ، ويُرادُّ أن تُعرَف هذه الفائدة ، وهذا ما أقوم به مختاراً ما دام هذا المثال يُنَبِّحُ لى فرصةٍ عَرَضَ مبدأٌ مفيدٌ جداً وفرصةٌ مكافئةٌ مبدأٍ كثيرِ الشؤم .

وإميلُ يُحِبُّ ، ولذا فهو ليس مغامراً ، وأحسنُ من هذا تمثلاً أن يُدْرِكَ أن صُوفية الأَمرة ليست بالفتاة التي تَمُنُّ عليه بألفاظٍ ، وبما أن للحكمة حَدَّها في كلِّ شيءٍ فإن صُوفية تُنسَبُ إلى الشَّدَّة أكثر مما إلى المُساهلة ، حتى إن أباهَا يَخْشَى ، في بعض الأحيان ، أن يتحوَّل زهوُّها المتناهى إلى كبرياء ، وما كان إميلُ في أكثر الخلوات خفاءً ليلتمس من الألفاظ حتى أخفَّها ، ولا لِيُظْهَرَ بِمُظْهِرِ الرَّاغِب في ذلك أيضاً ، وهى إذا ما تَفَضَّلَتْ في أثناء النَّزهة بأن تَجْعَلَ ذراعها تحت ذراعه لم يَنِمَّ هذا على تغييرٍ في الحقوق ، فلا يكاد ، أحياناً ، يَضْغَطُ بذراعها صدره تَلَهُّفاً ، ومع ذلك فإنه يَخَاطِرُ بِمَدِّ حَصْرِ طَوِيلٍ فَيَقْبَلُ ثوبها خَفِيَّةً ، وما أكثر ما يكون سعيداً إذا ما مَنَّتْ عليه بعدم التفاتها إلى ذلك ، وإذا حَدَّثَتْ ذاتَ مرةٍ ، أن أراد انتحالَ ذاتِ الحرية بشيءٍ من التملانية عَنْهَا لَهَا أن تَجِدَهُ شيئاً جِداً ، وَيُصِرُّ ، وَتَفْضُبُ ، وَيُمْلِي الغضبُ عليها بعضَ الألفاظ

اللاذعة ، ولا يحتملها إميلُ بلا جواب ، فتَمُرُّ بقيةُ النهار مُنْفَصَّةً ، ثم يفترقان مستاءين .

وتفتلُ صوفية على مَنيلها ، وأُمُّها نَجِيَّةٌ لها ، وكيف تكتم عنها كَرَبَهَا ؟ وهذا أولُ شقاقٍ وقعَ بينهما ، وشقاقٌ ساعةٍ أَمْرٌ جَلَلٌ ! وتندم على ما صَدَرَ عنها من خطأ ، وتأذنُ أُمُّها لها في إصلاحه ، ويأمرُها أبوها بإصلاح ذاتِ التَّيْنِ .

وفي الغد يَعُودُ إميلُ هَلُوعًا قبل الساعة المعتادة ، وتكون صوفيةُ في تَخْدَعِ أُمِّها ، ويكونُ أبوها في هذه الغرفةِ أيضًا ، ويدخلُ إميلُ محترِمًا ، ولكن مكتئبًا ، ولم يكد الأبُ والأُمُّ يُسَلِّمان عليه حتى عادت صوفية وهي تُقَدِّمُ إليه يَدَها وتساله عن صحته ، ومن الجَلِيٍّ أن هذه اليدَ الجميلة لم تَمُدَّ هكذا إلا لتُقبِلَ ، ويتناولُها ولا يُقبِّلُها ، وتستردُّها صوفية ، التي كانت على شيء من الخجل ، بأقصى ما يُمكنُها من اللطف ، وما كان إميلُ لِيَتَمَسَّ بسهولة ولا لِيَهْدَأَ بسرعة . وإميلُ هو الذي لم يُنشَأْ وَفَقَ أطوار النساء ، وإميلُ هو الذي لا يَعْرِفُ وَجْهَ الحُسْنِ في اتباع الإنسان هواه ، ويراها أبوها مرتبكةً فَيُتِمُّ ارتباطَها بسُخْرِيَّاتٍ ، ولا تَعْرِفُ الفتاةُ المسكينة المضطربة الخجلُ ما تَفْعَلُ فتكاد تبكي ، وهي كُلَّمَا ضَبَطَتْ نَفْسَهَا انتفخ قلبُها ، وأخيرًا تُفْلِتُ منها دَمعةٌ على الرغم منها ، وَيُصِرُّ إميلُ هذه القَبْرَةَ فيبادر إلى صُوفية رَاكِمًا ويتناول يَدَها ويقبِّلُها غيرَ مرةٍ تقبيلًا مؤثّرًا ، ويقول الأب ضاحكًا : « حَقًّا أنك رجلٌ طيبٌ جدًّا ، ولو كنتُ في مكانك لكنتُ أَقْلٌ تساحًا تجاه جميع هذه الحماقات ولعاقبتُ الفَمَ الذي أهانني » ،

وَيَجْتَرِيْ إِمِيلُ بِهِذِهِ الْكَلِمَةُ فَيُدِيرُ عَيْنًا ضَارِعَةً إِلَى الْأُمِّ ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ يُبَيِّنُ
إِشَارَةَ مُوَافَقَةٍ مِنْهَا ، فَيَدْنُو مُرْتَجِفًا مِنْ وَجْهِ صُوفِيَةٍ الَّتِي تُدِيرُ رَأْسَهَا إِنْقَاذًا
لِقَمِّهَا فَتَغْرِضُ خَدًّا وَرَدِيًّا ، وَلَا يَكْتَفِيْ عَادَمُ الْفُطْنَةِ بِهَذَا ، فَالْمُقَاوِمَةُ ضَعِيفَةٌ ،
وَأَيَّةُ قُبْلَةٍ تَكُونُ لَوْ لَمْ تُؤْخَذْ عَلَى مَرَأَى مِنْ أُمِّهَا ! وَيَا صُوفِيَةُ الشَّدِيدَةِ ،
احْتَرِزِيْ ، فَسَيَطْلُبُ ثَوْبُكَ لِيُقَبَّلَ غَالِبًا عَلَى أَنْ تَرَفِضِيْ ذَلِكَ أَحْيَانًا .

وَيَخْرُجُ الْأَبُ لِبَعْضِ الشُّؤْنِ ، وَتُرْسِلُ الْأُمُّ صُوفِيَةً لِبَعْضِ الْمَعَاذِيرِ ،
ثُمَّ تُوجِّهُ الْكَلَامَ إِلَى إِمِيلَ وَقَوْلُهَا جَادَّةٌ :

« أَظُنُّ أَنَّ شَابًّا حَسَنَ الْمَوْلِدِ حَسَنَ الْمَنْشَأِ مِثْلَكَ ، أَيُّهَا السَّيِّدُ ، فَيَكُونُ
صَاحِبًا لِمُشَاعَرَةٍ وَأَخْلَاقٍ ، لَا يَقَابِلُ بِهَيْتِكَ السُّتْرَ أُسْرَةً حَبَّتَهُ بِصَدَاقَتِهَا ،
وَلَسْتُ شَرِيسَةً مُفْرِطَةً فِي الْإِحْتِرَاسِ ، وَأَعْرِفُ جَمِيعَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَمُرَّ عَلَى
الشَّبَابِ اللَّعُوبِ ، وَمَا اصْطَبَّرْتُ عَلَيْهِ أُمَامِي يُثَبِّتُ لَكَ ذَلِكَ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ ،
وَشَاوَرْتُ صَدِيقَكَ فِي وَاجِبَاتِكَ ، فَهُوَ سَيُخْبِرُكَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ اللَّعِبِ الَّذِي يُبْدِيحُهُ
حُضُورُ الْأَبِ وَالْأُمِّ وَالْحَرِيَّةِ الَّتِي تُتَّخَذُ فِي غِيَابِهِمَا مَعَ إِسَاءَةِ اسْتِعْمَالِ لِقَائِهِمَا
وَتَحْوِيلِهِ إِلَى حَبَائِلَ مَا لَيْسَ غَيْرَ طَهْرٍ فِي حَضْرَتِهِمَا مِنَ الْأَلْطَافِ عَيْنِهَا ،
وَهُوَ سَيُخْبِرُكَ ، أَيُّهَا السَّيِّدُ ، بِأَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَابْنَتِي مَعَكَ غَيْرُ كَوْنِهَا لَمْ
تَرَ مِنْذُ الْمَرَّةِ الْأُولَى مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تَعَانِيَهُ مُطْلَقًا ، وَهُوَ سَيُخْبِرُكَ بِأَنَّ كُلَّ
مَا يُعَدُّ مِنَ الْأَلْطَافِ هُوَ مِنَ الْأَلْطَافِ وَبِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِرَجُلِ الشَّرَفِ أَنْ
يَسِيءَ اسْتِعْمَالَ بَسَاطَةِ فِتْنَةٍ فَيَغْتَصِبَ سِرًّا عَيْنَ الْحَرِيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُهَا أَنْ
تَعَانِيَهَا أُمَامَ جَمِيعِ النَّاسِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُعْرِفُ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْمَعَ بِهِ
الْبَيَاقَةُ جَهْرًا ، وَلَكِنَّهُ يُجْهَلُ أَيْنَ يَقِفُ فِي ظِلِّ الْخَفَاءِ ذَاكَ الَّذِي يَكُونُ

وحدَه قاضياً في أهوائه .

تركنا هذه الأمَّ الحكيمة بعد قيامها بهذا اللوم الصائب الموجَّه إلى أكثر مما إلى تلميذى ، وتدَّعنى مُعْجَباً بفظنتها النادرة التى كُتِبَتْ بها لَمْ فَمِ ابنتها أمامها أمراً لا يؤوبه له فتدَّعُرُ من الإقدام على تقبيل ثوب هذه البنت على انفراد ، وإنى حين أنعمُ النظر فى سخافة مبادئنا التى تُضَحَّى ، دائماً ، بالصالح الحقيقى باسم الحشمة أدرك السبب فى أن اللسان يكون عفيفاً بنسبة ما تكون الأفئدة أكثر فساداً ، وفى أن الأوضاع تكون صحيحة بنسبة ما يكون أصحابها أكثر عدم استقامة .

وإنى حين أنفدُ ، فى هذه النُزرة ، فؤادَ إميلَ حَوْلَ الواجبات التى كان يجب أن أُتَمِلَّهَا عليه يَرِدُ خاطرى فِكْرُ جَدِيدٍ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَكْثَرُ ما يكون تشریفاً لصُوفِيَّة ، فأَحْتَرِزُ ، مع ذلك ، من إطلاع عاشقها عليه ، وذلك أن من الواضح أن ذاك الزهو المزعوم الذى تَلَامُ عليه ليس غير احتياطٍ بالغِ الحِكمة لوقاية نفسها من نفسها ، فهى إذْ كانت من الشقاء ما تَشْعُرُ معه بمزاجها الملتهب ذُعِرَتْ من الشرارة الأولى فَصَرَقَتْهَا عنها بما أُوتِيَتْ من قوة ، وهى ليست شديدةً عن زهوٍ ، بل عن تواضع ، وهى تتخذ من السلطان على إميلَ عن خشيةٍ عدم اتِّخاذه نحو نفسها ، وهى تنفع بسلطانٍ لمقاومة الآخر ، ولو كانت أكثر اعتماداً على نفسها لَظَهَرَتْ أَقْلٌ زَهُواً ، وأية فتاة فى العالم تكون أكثر دَمَانَةً وأعظمَ لُطْفًا إِذَا مَا عَدَوَتْ هذه الناحية ؟ وَمَنْ يكون أكثر احتمالاً للإهانة ؟ وَمَنْ يكون أكثر فِرْعَاً من إهانة غيره ؟ وَإِذَا عَدَوَتْ الفُضِيلَةَ فَمَنْ يكون أَقْلٌ زَعَمًا ؟ ثُمَّ إِنَّهَا

لا تزهو بفضيلتها ، وهى إذا مازَهَتْ لم يَكُنْ هذا إلا لحفظ فضيلتها ، ولو كانت تستطيع أن تستسلم إلى مثيلها بلا خطرٍ للآلِفتِ حتى عاشقها ، ولكن أمَّ الرِّزانَ لا تبوح بهذه الجزئيات حتى إلى أيها ، فلا ينبغي للرجال أن يعرفوا كلَّ شيء .

وقد صارت صوفيةٌ البعيدةُ حتى من الظهور بمظهر الفخور بنصره ، أكثرَ أنساً وأقلَّ تطلُّباً تجاه جميع العالم ، وذلك مع استثناء ذلك الذى أوجب هذا التحول على ما يحتمل ، وعاد حسُّ الاستقلال لا ينفخُ فؤادها النبيل ، فهى تنال ، مع التواضع ، نصراً يُكَلِّفُها حريتها ، وأصبحت أقلَّ طلاقةً فى الهيئة وأكثرَ حياةً فى اللهجة منذ عادت لا تسمع كلمة « العاشق » من غير أن يحمرَّ وجهها خجلاً ، بيدَ أن الرِّضا يظهرُ من خلال ضيقها ، وليس هذا الخجلُ نفسه شعوراً مُكَدِّراً ، وأكثرُ ما يكون الفارقُ فى سلوكها تجلياً هو عند اجتماعها بالطائرين من الشُّبان ، فهى إذ عادت لا تحشام زال كثيرٌ من سابق تحفظها المتناهى نحوهم ، وهى إذ قطعتْ فى أمر اختيارها ظهرت مؤنسةٌ للأخلاء من غير تردُّد ، وهى إذ غدت أقلَّ تشدُّداً حول مزيتهن منذ عادت لا تبالى بهم وجدتهم ، دائماً ، على شيء من اللطف لدى أناسٍ لا يعدُّون عندها شيئاً غير مذكور مطلقاً .

وإذا كان الحبُّ الحقيقى يحتمل الدلالَ ظننتُ أننى أرى آثاراً له فى الوجه الذى تتصرف فيه صوفية مع أولئك فى حُضرة عاشقها ، فيقال إنها لم تكْتَفِ بالهوى الحارِّ الذى تُلْهِبُهُ فيه بمزيجٍ لذيذٍ من الحِشمة والملاطفة فصار لا يؤسِفُها أن تزيد هذا الهوى سعيماً بقليلٍ من الهمِّ ، ويقال إنها ،

حين تَسُرُّ ضيوفها من الشبان عمداً ، تَقْصِدُ أَنْ تُعْذِبَ إِمِيلَ بِالطَّافِ دُعَايَةٍ لَا تُبَيِّحُ لِنَفْسِهَا أَنْ تَصْنَعَهَا مَعَهُ ، يَبْدُو أَنَّ صُوفِيَّةَ هِيَ مِنَ الْإِنْتِبَاهِ وَالصَّلَاحِ وَالْحَصَافَةِ مَا لَا تُعْذِّبُهُ مَعَهُ حَقِيقَةُ ، فَالْحُبِّ وَالشَّرَفِ يَقُومَانِ مَقَامَ الْفُطْنَةِ فِي تَلْطِيفِ ذَلِكَ الْمُغْرَى الْخَطِرِ ، وَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّ تَذَعْرَهُ وَتُسْكِنُ رَوْعَهُ ، تَمَامًا ، عِنْدَ الْإِقْتِضَاءِ ، وَهِيَ إِذَا مَا أَوْرَثَتْهُ عَمَّا أَحْيَانًا لَمْ تُورِثْهُ حُزْنًا مُطْلَقًا ، وَلْتَنْفِرْ لَهَا ذَلِكَ الِهْمُّ الَّذِي تَلْقِيهِ فِي ذَلِكَ الَّذِي مُجِبٌّ مَعَ خَوْفِهَا إِلَّا يَكُونُ مُرْتَبَطًا فِيهَا ارْتِبَاطًا كَافِيًا .

ولكن ما يكون تأثير هذه الحيلة الصغيرة في إميل ؟ ألا تأكله الفِئْرَةُ أم لا ؟ يَجِبُ دَرَسُ هَذَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْإِسْطِرَاقَاتِ تَدْخُلُ فِي مَادَّةِ كِتَابِي أَيْضًا ، وَتُبْعِدُنِي مِنْ مَوْضُوعِي قَلِيلًا .

لَقَدْ بَيَّنْتُ سَابِقًا كَيْفَ يَحْدُ هَوَى الْفِئْرَةِ إِلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ سَبِيلَهُ فِي الْأُمُورِ التَّائِبَةِ لِلرَّأْيِ الْعَامِّ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ غَيْرُ هَذَا فِي الْغَرَامِ ، فَهَنَالِكَ تَكُونُ الْفِئْرَةُ مِنْ قُرْبِهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ مَا يَضْعُبُ مَعَهُ أَنْ يُعْتَقَدَ عَدَمُ صُدُورِهَا عَنْهَا ، وَيَلُوحُ أَنَّ مِثَالِ الْحَيَوَانَاتِ ، الَّتِي بَلَغَتْ الْفِئْرَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا دَرَجَةَ الْجَنُونِ ، يُؤَيِّدُ هَذَا الْإِحْسَاسَ تَأْيِيدًا لَا يُرَدُّ ، وَهَلْ رَأَى النَّاسُ هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُ الدِّيُوكَ تَمْزِيقَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ؟ وَهَلْ ذَاكَ الرَّأْيُ هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُ الثَّيْرَانَ الْإِسْطِرَاقَ حَتَّى الْمَوْتَ ؟

وَلَا جِدَالَ فِي أَنَّ مَا يَسَاوِرُنَا مِنْ نَفَورٍ حَوْلَ كُلِّ مَا يُكَدِّرُ مَلَذَّنَا وَيَقَاوِمُهَا دَافِعٌ طَبِيعِيٌّ ، وَقُلُّ مِثْلَ هَذَا ، إِلَى حَدٍّ مَا ، عَنْ الرِّغْبَةِ فِي فِي حَيَاظِنَا مَا يَرُوقُنَا حَيَاظَةً مُطْلَقَةً ، وَلَكِنْ هَذِهِ الرِّغْبَةُ إِذَا مَا أَصْبَحَتْ

هَوَى ، فتحولت إلى صَوْلَةٍ أو إلى خيالٍ جافِلٍ ذى اكتئاب اسمه « الغَيْرَةُ »
تَغْيِيرُ الأَمْرِ ، فأمكّن أن يكون ذلك الهوى طبيعياً أو لا يكون ، فلا بُدَّ
من التمييز .

وكنتُ قد عالجْتُ فى رسالتى عن « التفاوت » مثالَ الحيوانات ،
والآن أنعمِ النظر فى هذا المثال مُجَدِّداً فَيُظْهِرُ لى أنه من المتانة ما أُجْرُوْ معه
على ردِّ القراء إليه ، وإنما أُضِيفُ إلى الإيضاحات التى قُتِمَتْ بها فى ذلك
الكتاب كَوْنُ الغَيْرَةِ التى تُصْدِرُ عن الطبيعة كثيرةَ الاتِّباعِ لقوةِ الجنس ،
وأن هذه القوة إذا كانت ، أو بَدَتْ ، لا حَدَّ لها طَفَحَ كَيْلُهَا ، وذلك
لأن الذكر إذ يَزِنُ ، إذ ذاك ، حقوقَه بأوطاره فإنه لا يُطِيقُ ، مطلقاً ،
أن يَرى ذكراً آخرَ منافساً مزججاً له ، وبما أن الإناث فى هذه الأنواع
تُطِيعُ أولَ مُقْبِلٍ فإنها لا تكون تابعةً للذكور إلَّا بحقِّ الفتح وتكون سبباً
لياً لا يَنْتَهى من صِراخِ بينهم .

والأثنى ، على العكس ، إذ كانت فى الأنواع التى يفتن الواحدُ فيها
بواحدةٍ ، وحيث السَّفَادُ يُسْفِرُ عن ضَرْبٍ من الرابطة الأدبية ، أى يُسْفِرُ
عن ضَرْبٍ من الزواج ، خاصَّةً بالذِّكْرِ الذى وَهَبَتْ نَفْسَهَا له عن اختيارٍ
منها ، فإنها تَمْنَعُ نفسها من أىِّ ذكْرٍ آخرَ على العموم ، وإذ أن للذكر ضماناً
لوفائها بهذا الحبِّ عن ترجيحٍ فإن هذا الذكر يكون أقلَّ غَمًّا بمنظر
الذكور الآخرين ، ويعيش معهم عيشاً أكثرَ سلاماً ، والذكر فى هذه
الأنواع يشترك فى رعاية الصَّغار ، وَيَلُوحُ ، بسُنَنِ الطبيعة التى لا تُلَاحَظُ
من غير تَحَنُّنٍ ، أن الأثنى تُظهِرُ للأب حُبًّا كالذى تُظهِرُ لأولادها .

والواقع أننا إذا نظرنا إلى النوع البشرى في بساطته الابتدائية سهل علينا أن نرى ، بقدرة الذكر المحدودة وباعتدال رغائبه ، أنه أعد من قبل الطبيعة للاكتفاء بأثني واحدة ، وهذا ما تؤيده المساواة العددية بين أفراد الجنسين ، في أقالمنا على الأقل ، هذه المساواة التي لا محل لها ، غالباً ، في الأنواع التي تكون قوة الذكور فيها من القدرة العظيمة ما يجمع الواحد منهم معها بين إناث كثير ، ومع أن الرجل لا يَرْخُم كالحمام ، وليست له ثدي للإرضاع ، فإنه يُعَدُّ من ذوات الأربع من هذه الناحية ، ويَظَلُّ الأولاد من الرَّخْف والضعف لزمنٍ طويل ما يَصُغَبُ عليهم وعلى أمهم أن يَسْتَفْنُوا معه عن عطف الأب وعن رعايته التي هي نتيجة هذا العطف .

وتتسابق جميع المشاهدات ، إذن ، في إثباتها أن صَوْلَةَ الْفَيْرَةِ في ذكور بعض الحيوانات لا تَدُلُّ على شيء في الإنسان ، حتى إن استثناء الأقاليم الجنوبية القائلة بتعدد الزوجات لا يُعَدُّ إلا مؤيِّداً للمبدأ ما دام احترازُ الأزواج الاستبدادى لا ينشأ عن غير كثرة النساء ، وما دام شعور الرجل بضعفه الخاصَّ يَحْمِلُهُ على الاستعانة بالقهر تَخَلُّصاً من سُنَنِ الطَّبِيعَةِ .

وَتَجِدُ الْفَيْرَةَ بَيْنَا ، حيث تَكُونُ هذه السَّنَنُ نفسها أقلَّ تَجَنُّباً من هذه الناحية ، ولكن مع كونها أكثرَ تَجَنُّباً من الناحية الأخرى ، وذلك على وجهٍ أدعى إلى اللَّقَّتْ ، عواملها في أهواء المجتمع أكثرُ مما في الفريضة الابتدائية ، ويكون العاشقُ في مُعْظَمِ روابط الدلال أكثرَ مقتاً لِمَنَافِيسِهِ من حُبِّهِ لصاحبه ، وهو إذا كان يَخْشَى ألاَّ يَسْتَمَعَ إليه وحده فذاك لأنه نتيجةُ حبِّ النفس الذى بَيَّنْتُ أصله ، ولأن الزهو أكثرُ من

الحبُّ إثارةٌ له ، وذلك فضلاً عن كَوْنِ نَظْمِنَا السخيفة قد جعلت النساء من المداجاة^(١) ، وقد بلغت من إشعال شهواتهن ، ما لا يكاد الواحدُ يعتمد معه على أكثرِ مَوَدَّاتِهِنَّ ثبوتاً ، فعُدُن لا يستطعن الإشارة إلى التفضيلات التي تُتْلَقُ السَّكِينَةُ في القلب تجاه الخوف من المنافسين .

وأما الحبُّ الحقيقيُّ فأمرٌ آخر ، وقد بَيَّنْتُ في الكتاب المذكور آنفاً أن هذا الإحساس ليس من الطبيعة بالمقدار الذي يَظُنُّ الناسُ ، فيوجدُ فرقٌ كبيرٌ بين العادةِ المستحبةِ التي يُحِبُّ بها الرجلُ رفيقته ، والحرارةِ الجالحةِ التي تُسْكِرُهُ بجواذبِ وهميةٍ حَوْلَ شيءٍ يَعُودُ لا يراه كما هو ، ولا يختلف عن الزَّهْوِ هذا الهوى الذي لا يَتَنَسَّمُ غيرَ استثناءاتٍ وتفضيلاتٍ إلا بكونِ الزَّهْوِ ، الذي يَطْلُبُ كلَّ شيءٍ ولا يَحْبُو بشيءٍ ، جائراً دائماً ، وذلك بدلاً من الحبِّ الذي يُعْطَى بمقدار ما يَطْلُبُ فيَكُونُ بذاته إحساساً مملوفاً إنصافاً ، وذلك فضلاً عن أن الحبَّ كلما كان طُلُوباً كان ميقاناً* ، ومن شأن الوهم الذي يُوجبه أن يجعل إقناعه سهلاً ، وإذا كان الحبُّ هَؤُوعاً فإن الاعتبارَ يكون مؤتمناً ، وما كان الحبُّ بلا اعتبارٍ ليوجدَ في قلبٍ شريفٍ ، وذلك لأنه لا أحدٌ يُحِبُّ فيمن يُحِبُّ غيرَ الصفاتِ التي يقيم لها وزناً .

ويمكننا ، بعد إيضاح جميع ما تقدم ، أن نُبَيِّنَ واثنين نوعَ الغيرةِ

(١) يخالف نوع المداجاة الذي أقصد هنا ذلك النوع الذي يلاهمهم والذي يأتيهم من الطبيعة ، فأحدهما يقوم على إخفاء ما عندهم من مشاعر ، ويقوم الآخر على إظهار ما ليس عندهم منها ، ويقضى جميع نساء المجتمع حياتهن في الافتخار المزعوم بإحساسهن ، مع أنهن لا يحبن غير أنفسهن في الحقيقة .
• الميقان : الذي لا يسمع شيئاً إلا أيقن به .

التي يَقْدِرُ عليها إميلُ ، وذلك بما أن جُرْثومة هذا الهوى تكاد تكون في قلب الإنسان فإن التربية هي التي تُعَيِّنُ شكله حَصْرًا ، ولن يكون إميلُ العاشقُ الغيورُ غصوبًا جَفُولًا ظَنُونًا ، ولكنه سيكون رقيقًا حَسَّاسًا هَيُوبًا ، وهو سيكون جَزُوعًا أَكْثَرَ منه مَفِيطًا ، وهو سَيُعْنَى بنَيْلِ خليلته أَكْثَرَ مما بهتديد مُنافسه ، وهو سَيُفْضِيه إذا ما استطاع كما يُفْضِي المانع ، وذلك من غير أن يُبْغِضَهُ كما يُبْغِضُ العدوُّ ، وهو إذا ما أَبْغَضَهُ فلن يكون هذا لأنه أَبْدَى من الجُرْأَةِ ما يَنَازِعُه به فَوَادًا يَدَّعِيه ، بل لخطرٍ حَقِيقٍ يَحْمِلُهُ عليه فيؤدى إلى ضياعه له ، ولا يَكُونُ من الحماقة ما يَثُورُ به عُجْبُهُ العُشُوفُ من جُرْأَةٍ على منافسته ، وبما أنه يُذَرِّكُ أن حَقَّ الأفضلية قائمٌ على الزية وحدها وأن العِزَّ في القَوَازِ فإنه سيضاعِفُ جِهوده ليكون محبوبًا ، ومن المحتمل أن يُكْتَبَ له النجاح ، وستَعْلَمُ صُوفِيَةُ الكريمة ، حين تُثِيرُ دُغْرَه ، أن تَسَوَّى هذا الدُّغْرَ وأن تُعَوِّضَه منه ، ولا يَلْبَثُ المنافسون الذين لم يَأْلَمُوا إِلَّا لِيَنْبَتَلَوْه أن يَرُدُّوا .

ولكن إلى أين أَسَاقُ من حيث لا أدري ؟ وئى ، إميلُ ! ماذا أصبحت ؟ وهل يُمَكِّنُنِي أن أعْرِفَ فيك تلميذى ؟ ما أَكْثَرَ ما أَرَاكَ قد سَقَطْتَ من مرتبتك ! وأين هذا الشابُّ الذى كَوَّنَ تَكْوِينًا خَشِنًا جَدًّا ، والذى كان لا يُبَالِي بِمَكَارِهِ الفصول ، والذى كان يُسَلِّمُ بدنه لأَشَدِّ الأَعْمَالِ ويُسَلِّمُ روحَه لقوانين الحكمة فقط ، والذى كانت المُبْتَسِرَاتُ والأَهْوَاهُ لا تَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، والذى كان لا يُحِبُّ سِوَى الفَضِيلَةِ ولا يُذْنَعُ لغير العقل فلا يَأْبَهُ لِمَا لا يَأْتِي منه ؟ وَالْآنَ قد أُثْرِفُ بِالْفَرَاغِ فَيَرْضَى أَنْ

يُسيطر عليه النساء ، وتقوم أشاغيله على لهوهن فتكون عزائمهن دساتير له ،
وتظهر فتاة حَكَمًا في مصيره ، ويَزْحَفُ وينحني أمامها ، ويَبْدُو إميل الرزينُ
ألعوبةً ولدي !

وهكذا تتحوّلُ مناظرُ الحياة ، فلكلِّ عُمرٍ نوابضه التي تُحرِّكُه ،
ولكنَّ الرجلَ هوَ هوَ دائماً ، والرجلُ إذا كان في العاشرة من سِنِّهِ
سَيَقَ بالخُلوى ، وإذا كان في العشرين سَيَقَ بخليّةٍ ، وإذا كان في الثلاثين
سَيَقَ بالذات ، وإذا كان في الأربعين سَيَقَ بالطُموح ، وإذا كان في الخمسين
سَيَقَ بالطَّمع ، فتتبيّن في طلب الحكمة حَصراً ؟ طُوبَى لمن يُسَاق إليها
على الرغم منه ! وليكن المرشِدُ من أى قبيلٍ كان على أن يسوقه إلى الغاية ،
وقد أدّى الأبطالُ والحكّامُ أنفسهم هذه الجزية إلى الضّعف البشريِّ ،
وليس من أدّرت أصابعهم مَبَارِمَ أَقَلٍّ من هؤلاء عظمةً لهذا السبب .

وإذا أردتم أن تَبْسُطُوا على الحياة كلّها عَمَلَ تربيةٍ مُوقَّعةٍ فأطيلوا في
دَوْرِ الشبابِ عاداتِ دَوْرِ الصِّبَا الصّالحة ، ومتى كان تلميذُكم ما يَجِبُ
أن يَكُونَ فافعلُوا ما يَكُونُ عَيْنَهُ في جميع الأوقات ، وهذا هو آخر ما يَبْقَى
عليكم أن تُكْمِلُوا به صُنْعَكُمْ ، ولهذا فإنه يكون من المهمِّ ، على الخصوص ،
تركُ مُرَبِّ للشَّبَّانِ ، وذلك لأنه يُخَشَى بعضَ الشَّيْءِ أَلَّا يَعْرِفُوا القيامَ
بالحُبِّ بغيره ، وَيَتَطَرَّقُ الخِطَأُ إلى المُرَبِّينَ ، ولا سيما الآباءَ ، مِنْ ظَنِّهِمْ
أن طرازاً للحياة يَجْمَعُ طرازاً آخرَ لها أمراً متعذراً ، فتتبيّن كِبَرُ الولدِ وَجِبَ
أن يُعَدَلَ عن كلِّ ما كان يُصَنَعُ له في صِغَرِهِ ، وإذا كان هذا صحيحاً فما
نَفْعُ العنايةِ بدور الصِّبَا ما دام يزول بزواله ما يُصَنَعُ من صالحه وطالحه ، وما

دامت تُتَخَذُ طُرُزٌ للتفكير أخرى باتخاذ طُرُزٍ للحياة مختلفةٍ عن تلك كلِّ الاختلاف ؟

وكما أنه لا يَحُلُّ الذَّاكِرَةُ غيرُ الأمراضِ الكبيرةِ فإنه لا يوجد غيرُ الأهواءِ الكبيرةِ ما يَحُلُّ الأخلاقَ ، ومع أن أذواقنا وميولنا تتغير فإن هذا التغير ، الذى يكون مفاجئاً أحياناً ، يُلطَّفُ بالعادات ، ويجب على المتفنن الماهر أن يَجْعَلَ الانتقالاتِ فى تعاقب ميولنا أمراً لا يُشْعُرُ به ، كما يُتَدَرَّجُ فى الألوان تَدَرُّجاً صالحاً ، فيَخْلُطُ بين الأصباغ ويمزج بعضها ببعض ، وأن يَبْسُطَ كثيراً منها على أثره لكيلا يَنفصلُ أىُّ منها ، وقد أيدَّت التجربةُ هذه القاعدةَ ، فمن يجاوزون حَدَّ الاعتدالِ يُفَيِّرُونَ فى كلِّ يوم عواطفهم وأذواقهم ومشاعرهم ، فلا شىء ثابتٌ عندهم غيرَ عادةِ التغيرِ ، وأما الرجل المتزنُ فيعودُ إلى عاداته السابقة دائماً ولا يَفْقِدُ ، حتى فى مَشِيئِهِ ، ذَوْقَ المَلَادِّ التى كان يُحِبُّها وهو صَبِيٌّ .

وإذا ما صنعتم ، عند الانتقالِ إلى دَوْرٍ جديدٍ من العُمُر ، ما لا يَزِدْرِي الشَّبَانُ معه دَوْرَ العُمُرِ السابقِ مطلقاً وما لا يتركُون معه سابقَ العاداتِ عند إيلانهم عاداتٍ جديدةً ، وما يُحِبُّونَ معه فِعْلَ الخيرِ دائماً غيرَ ناظرين إلى الوقت الذى بدأوا فيه ، فهناك ، فقط ، تُنْفِذُونَ عَمَلَكُمْ وتطمثون إليهم حتى آخرِ أيامهم ، وذلك لأن أكثرَ ما يُخَشَى من ثورةٍ هو ثورةُ العُمُرِ الذى تَرَقُّبُونَهُ الآن ، وبما أنه يَؤَسَفُ عليه دائماً فإن من الصعب أن يُقَصَّى على الأذواقِ التى يُوْتَى بها إليه من دَوْرِ الصَّبَا ، ولكنها لا تَعُودُ إذا ما قُطِعَتْ .

وليس من العادات الحقيقية معظم العادات التي تَظُنُّونَ أنكم تُلقَنُونُ الأولادَ والشُّبَّانَ إياها ، وذلك لأنهم ، إذ لم يَتَلَقَّوْها إلا كُرْهًا ، ولأنهم إذ يَتَّبِعُونَهَا على الرغم منهم ، لا ينتظرون غيرَ فرصةٍ التخلُّص منها ، فلا يُفَتِّنُوا ذوق البقاء في السجن عن فِعلِ الإقامة به ، فالمادةُ هنالك تزيدُ النفورَ بدلاً من تَقْصِيهِ ، وليس هذا حالُ إميلَ الذي لم يَصْنَعْ شيئاً في صِبَاهِ إلا طَوْعاً وبلَدَةً ، فلما صار رجلاً دأب على عَيْنِ الفِعلِ ، ولم يَعْمَلْ غيرَ إضافة سلطان العادة إلى ألطاف الحرية ، وقد بَلَغَ من احتياجه إلى الحياة الفعالة وإلى عمل الذراعين وإلى التمرين والحركة ما لا يَتْرُكُ معه هذه الأمورَ من غير أن يَأْلَمَ ، وَيَنْطَوِي إلزامه من فَوْزِهِ بحياةٍ ناعمةٍ حَضَرِيَّةٍ على سَجْنِهِ وتقييده وإلقائه في حالٍ من الشَّدَّةِ والقَهَرِ ، ولا رَيْبَ عندي في فسادِ يُصَابُ به مِزَاجاً وصحةٌ على السواء ، وهو إذا ما كاد يكون قادراً على التنفس هيناً في غُرْفَةٍ مُقْفَلَةٍ تماماً احتاج إلى الهواء الطَّلِقِ وإلى الحركة والعناء ، حتى إنه إذا ما كان راکعاً أمام صُوفِيَّةٍ لم يَسْتَطِعْ أن يَمْتَنِعَ نَفْسَهُ من إلقاء نظرةٍ إلى الحقول في الحين بعد الحين مع رغبةٍ في أن يَجُوبَهَا معها ، ومع ذلك فإنه يَبْقَى حينما يَجِبُ البقاء ، ولكن مع غَمٍّ واضطراب ، وَيُلَوِّحُ أنه يَنْتَقِضُ بِقَصْدِ التَّمَلُّصِ ، وهو يَبْقَى لأنه مُوثَّقٌ بالقيود ، وَسَوْفَ يَقُولُونَ : « إِذَنْ » ، هذه احتياجاتٌ قد أخَضَعَتْهَا ، وهذه عُبُودِيَّاتٌ قد حَبَّوَتْهَا بها ، وجميعُ هذا صحيحٌ ، وإنما جعلته خاضعاً لحال الرُّجولة .

أَجَلْ ، إن إميلَ يَحِبُّ صُوفِيَّةً ، ولكن ما الْفُتُونُ الأول الذي

رَبَطَهُ بِهَا ؟ الحُنُوُّ والفضيلة وحبُّ الأمور الصالحة ، وهو إذا أَحَبَّ هذا الحُبَّ في صاحبه فهل يَفْقِدُهُ في نفسه ؟ وما التَّمَنُّ الذي تَضَعُ صُوفِيَةٌ لِنَفْسِهَا بِدَوْرِهَا ؟ إنها تَضَعُ جَمِيعَ المشاعر التي تُسَاوِرُ قَلْبَ عاشقِهَا من تقدير الأمور الصالحة والقناعة والبساطة والخُلُوِّ من الغَرَضِ وازدراء البَذَخِ والثراء ، وكانت هذه الفضائل موجودةً في إميلَ قَبْلَ أن يَفْرِضَها الحبُّ عليه ، وَفِيمَ يَكُونُ إميلُ قد تَنَيَّرَ في الحقيقة ؟ لَدَيْهِ أسبابٌ جديدةٌ يَكُونُ بها إياه ، وهذه هي النقطة الوحيدة التي يَخْتَلِفُ بها عما كان عليه .

ولا أنصوَرُ استطاعةً أَحَدٍ حين يقرأ هذا الكتاب بشيء من الدقة أن يعتقد أن جميع الأحوال التي تكتنف الوضع الذي يَكُونُ عليه قد تَجَمَّعَتْ حَوْلَهُ مصادفةً على ذاك الوجه ، وهل من المصادفة أن توجد هذه الفتاة التي تَرُوقه في صميم مكانٍ منعزلٍ ناءٍ مع تقديم المدن كثيراً من البنات اللطيفات ؟ وهل لَقِيَهَا مصادفةً ؟ وهل تَوَافَقَا مصادفةً ؟ وهل من المصادفة ألاَّ يستطيعا الإقامة بَعَيْنِ المكان ؟ وهل من المصادفة ألاَّ يَجِدَ ملجأً إلا في مكان بعيد منها ؟ وهل من المصادفة ألاَّ يَرَاهَا إلا نادراً وأن يَضْطَرَّ إلى اشتراء نِعْمَةٍ رُوِيَتهَا ، أحياناً ، بمتاعبٍ كبيرةٍ ؟ أأنتم تقولون إنه يَتَخَنَّنُ ، وهو على العكس يَتَخَشَّنُ ، ويجب ، كذلك ، أن يكون من الاشتداد كما نَشَأَتْهُ حتى يقاومَ المشاقَّ التي تَحْمِلُهُ صُوفِيَةٌ على احتمالها .

هو يَسْكُنُ منزلاً بعيداً فرسخين منها ، وهذه المسافة هي كَبِيرُ الحَدَّادِ ، وبهذه المسافة أُسْقِيَ سهامَ الحُبِّ ، ولو كان كلٌّ منهما جاراً للآخر ،

أو لو كان قادراً على الذهاب لرؤيتها جالساً على فراشٍ وثيرٍ داخلَ عربةٍ فاخرةٍ لأحبّها حبّاً مُريحاً ، أى لأحبّها على الطريقة الباريسية ، وهل كان ليأنذر يطلب الموت من أجل هيدرو لو لم يفصله البحرُ عنها ؟ فيا أيها القارئ ، اكفني مؤونة الكلام ، فإذا كنت قد كوّنت لإدراكي اتبعت ، بما فيه الكفاية ، مبادئ كما فصلت .

وكُنّا في المرات الأولى التي ذهبنّا فيها لرؤية صوفية قد ركبنا خيّلاً للسير بسرعة ، ونجدُ هذه الوسيلة ملائمةً ، ونداوم على رُكوب الخيل حتى المرة الخامسة ، وكنا ننتظر ، ونشاهدُ أناساً في الطريق على مسافة نصف فرسخٍ من البيت ، ويلاحظُ إميلُ ، ويحققُ قلبه ، ويدنو ، ويعرف صوفية ، ويتّرجلُ بسرعة ، وينطلقُ ، ويطيّر ، ويصلُ إلى الأسرة المحبوبة ، ويحبُّ إميلُ جياد الخيل ، ويكونُ جواده رشيماً ، ويشعرُ بأنه طليق ويهربُ عدواً من خلال الحقول ، وأتبعه وأبلغه بعبءه وأعيدّه ، ومن المؤسف أن صوفية تخافُ الخيلَ ، فلا أجرؤُ على الاقتراب منها ، ولا يُبصرُ إميلُ شيئاً ، ولكن صوفية تُسرُّ إليه في أذنه بما ترك لصديقه من مشقة ، ويسرعُ إميلُ خجلاً ويتسلَّمُ الخيلَ ، ويفترقُ عنا ويكونُ أولَ من يذهبُ للخلاص من مطايانا ، وهو إذ ترك صوفية وراءه على هذا الوجه عاد لا يجدُ الحصانَ مركباً مُريحاً ، ويعودُ لاحقاً ، ويلاقينا في منتصف الطريق .

وفي الرحلة الآتية يعودُ إميلُ راغباً عن الخيل ، وأقول له : « لماذا ؟ ليس علينا إلا أن نأخذَ خادماً للالتفات إليها » ، ويقول : « آه ! أو نرهبُ »

الأسرة الكريمة مصروفًا على هذا الوجه ؟ وأنت ترى جيدًا أنها تريدُ
إطعامَ الجميع من خَيْلٍ وآدميين ، وأرُدُّ عليه بقولِي : « أَجَلٌ ، إن
عندهم نُبْلَ قِرَى الفقراء ، أَجَلٌ ، إن الأغنياء ، البخلاء في أبهتهم ،
لا يؤوون غيرَ الأصدقاء ، ولكن الفقراء يؤوون ، أيضًا ، خيلَ الأصدقاء » ،
ويقول : « لِنَسِرْ على الأقدام ، ألا تُقَدِّمُ على هذا أنت الذى يقاسمُ
مَسَارَّ ابنِ الْمُتَعَبَةِ طَيِّبَ الخاطر ؟ » ، وأقولُ مُعَقِّبًا من قَوْرِي :
« أَذْهَبُ عن رِضَا ، وكذلك الحُبُّ لا يُريدُ ، كما يُلَوِّح لِي ، أن يَقَعَ
مع كثيرٍ من الضوضاء . »

ونَدَنُو فَنَجِدُ الأمَّ والبنتَ أبعدَ مما كانتا عليه في المرة الأولى ، وقد
أَتَيْنَا كالسهم ، وَيَكُونُ إميلُ غارقًا في عرقه ، وَتَفْضُلُ يَدُ عَزِيزَةٍ بِإِمْرَارٍ
مِنْدِيلٍ على خَدَّيْهِ ، فَسَتُوجِدُ خَيْلٌ كَثِيرٌ في العالمِ قبل أن نُفَوِّى بالانتفاع
بها بعد الآن .

ومع ذلك فإن من القسوة ألا نستطيع قضاء السهرة معًا ، فقد أخذَ
الصيفُ يَنْقُضِي ، وقد أخذتِ النَّهْرُ تَنْقُصُ ، ومهما يُمَكِّنُنَا من قولٍ فإنه
لا يُسْتَحُ لنا بالرجوع من هناك ليلاً مطلقًا ، وإذا لم نَفِذْ منذ الصباح وَجَبَ
العودُ حين وصولنا تقريبًا ، وأخيرًا بَعِنُ للأمِّ ، عن تَوَجُّعٍ لنا وَقَلَقٍ
من أَجْلِنَا ، أنه ، وإن كان من غير اللائق أن نُقِيمَ بالمنزل ، يُمَكِّنُ أن
يُوجَدَ لنا مَسْكَنٌ في القرية كَمَا نَنَامُ فيه أحيانًا ، وَيُصَفِّقُ إميلُ عند
سماع هذه الكلمة وَيَطْرَبُ ، وَتَقَبَّلَ صوفية أنها أكثر من المعتاد
لهذه الوسيلة التي وَجَدَتْهَا .

وَيَقُومُ لطفُ الصداقةِ ودَلُّ الطُّهرِ وَيَتُبَتَّانِ بَيْننا مَقْداراً مُقْداراً ، وأجىءُ
 عادةً مع صديقى فى الأيامِ التى تُعَيِّنُ من قَبْلِ صُوفِيَةٍ أو أَهْبا ، وأدَعُهُ
 يَذْهَبُ وحده أحياناً ، والاعتمادُ يَرْفَعُ الرُّوحَ ، وعاد لا ينبغى أن يعامل
 الرجلُ مِثْلَ وَلَدٍ ، وما أَكُونُ قد أَنْجَزْتُ حتى الآنَ إذا كان تَلْمِيزى
 لا يستحقُّ ! كرايى ؟ وما يَحْدُثُ أن أذهب من غير أن يَكُونُ معى ،
 وهناك يَغْتَمُّ ولا يَتَذَمَّرُ ، وما فائدته من التذمُّرِ ؟ ثم إنه يَعْرِفُ جيداً
 أننى لا أَصْنَعُ ما يُؤْذِي مِصْلَحَتَهُ ، واعْلَمْ أَنَّهُ لا جَوْرَ بَعِوْقنا سِوَا عَلينا
 أَذهَبنا معاً أم على انفراد ، وكلُّ منا فُخْرٌ بالوصولِ فى حالٍ يُرِثى لها ،
 ومن دِواعى الأَسَفِ أن تَحْرِمنا صُوفِيَةُ هذا الشرفِ ، فهى تَمْنَعُنا من الحِجَى
 إذا كان الجَوْرُ رديئاً ، وهذه هى الفُرْصَةُ الوحيدة التى تَتمردُ فيها على القواعدِ
 التى أُمِلَّها عليها سِراً .

وما وَقَعَ ذاتَ يومٍ أن ذهب وحده وأننى لم أنتظر رجوعه إلا فى
 الغد ، فأراه يَعُودُ فى ذاتِ المساء ، وأقولُ له معانقاً : « ماذا ! أراك
 تَرْجِعُ إلى صديقك ! » ، ولكنه ، بدلاً من أن يُجِيبَ عن ملاطفتى ،
 قال لى مع قليلٍ مزاحٍ : « لا تَظُنِّ أنى أَعُودُ بهذه السرعةِ مِختاراً ، بل
 أَعُودُ على الرِّغْمِ منى ، فقد أرادت أن أجىء ، وإنى أجبُ من أَجْلِها ،
 لا من أَجْلِكَ » ، وأتأثَّرُ من هذه السَّذاجةِ ، وأُعاثِقُه ثانيةً قائلاً له :
 « أيتها النفسُ الصَّدُوقُ ، أيُّها الصديقُ الخَلِصُ ، لا تَكْتُمُ عَنى شيئاً
 يَتَمَلَّقُ بى ، إذا كنتَ قد أَتَيْتَ من أَجْلِها فإنك تقول هذا من أَجْلِى ،
 أَجَلٌ ، إن رجوعك من عملها ، ولكنَّ صِراحتَكَ من عَملى ، لحافظ على

هذه السَّريرة الجديرة بالنفوس الطيبة إلى الأبد ، أَجَلٌ ، يُمكن أن يُترك للأخلاء أن يُفَكِّروا كما يشاءون ، ولكنَّ من الإِجرام أن يُطَاقَ جعلُ الصديقِ لنا مزيةً عن شيء لم نصنِّعه من أجله .

وأحترزُ من تنزيل قيمة هذا الاعتراف في نظره بأن وَجَدْتُ فيه غراماً أكثرَ من أن أُجِدَّ كَرَمًا ، وبأن أقول له إنه يريد أن يُجَرِّد نفسه من شرف هذه العودة أَقلَّ من أن يُحِبُّ به صُوفية ، ولكنه يَكشِفُ لى عن سريره من حيث لا يَدْرِي ببيانه أنه إذا ما جاء على مَهْلٍ وبخطأ ضيقة حالمًا بحبِّه لم يكن غيرَ عاشقٍ لصوفية ، ولكنه إذا ما وَصَلَ بخطأ واسعة تَزِفًا مع هَمِّه كان صديقاً لمرشده .

وتَرَوْنِ هذه التداير أن فتاى بعيدُ من قضاء حياته بجانب صُوفية ومن رؤيتها بمقدار ما يُريد ، وكلُّ ما يُسَمِّحُ له به هو أن يَقُومَ بِرَحَلَةٍ أو رَحِلَتَيْنِ إليها في الأسبوع الواحد ، وفي الغالب تَدُومُ زيارته نصفَ نهارٍ ، ومن النادر أن تَمْتَدَّ إلى الغد ، وَيَقْضِي وقته في رجائه أن يراها أو في تهنته نفسه بأنه رآها أكثرَ مما في رؤيتها فعلاً ، حتى إنه في الوقت الذى يُخَصَّصُ لرحلاته يَقْضِي من الزمن في ذهابه وإيابه أكثرَ مما يَقْضِي بجانبها ، والواقعُ أن لهوَه الصحيح الطاهر اللذيذ ، ولكن مع كونه حقيقياً أَقلَّ منه خيالياً ، يُبَيِّرُ حُبَّهُ أكثرَ من أن يُخَنِّثَ قلبه .

ولا يَكُونُ في الأيام التى لا يراها فيها مُتَعَطِّلاً ولا مُتَحَضِّراً مطلقاً ، بل يكون إميلَ أيضاً ، أى إنه لا يكون مُتَحَوِّلاً قطعاً ، فهو يُحِبُّ الأريافَ المجاورة غالباً ، فَيَتَتَبَعُ التاريخَ الطبيعى ، فيلاحظُ الأرضين

وَيَفْحَصُهَا وَيَفْحَصُ مَحْصُولَاتِهَا وَزَرَاعَتَهَا ، وَهُوَ يَقَارِنُ بَيْنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَرَى
وَالْأَعْمَالِ الَّتِي يَعْرِفُ ، وَهُوَ يَبْنَحُ عَنْ أَسْبَابِ الْفُرُوقِ ، فَتَقِي أَبْصَرَ أَسَالِيبَ
أُخْرَى أَفْضَلَ مِنَ الَّتِي فِي الْمَكَانِ أَطْلَعَ الزُّرَّاعَ عَلَيْهَا ، وَإِذَا اقْتَرَحَ شَكْلًا
أَصْلَحَ لِلخِرَاثِ حَمَلَ عَلَى صُنْعٍ مَا يَلْأَمُ رَشْمَهُ ، وَإِذَا وَجَدَ مَقْلَعًا مِنْ
سَجِيلٍ * عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَسْتَعْمَلُونَهُ فِي الْبَلَدِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُبَاشِرُ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ ،
فِيذْهَشُونَ كُلَّهُمْ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ آلاَتِهِمْ بِأَسْهَلِ مَا يَفْعَلُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَمَنْ شَقَّ أَتْلَامًا
أَعْقَ مِنْ أَتْلَامِهِمْ وَأَضْيَقَ وَأَكْثَرَ اسْتِقَامَةً ، وَمَنْ إَلْقَانَهُ الْبَذَرَ إِلْقَاءً أَكْثَرَ
تَسَاوِيًا ، وَمَنْ تَوَجَّهَ التُّرْبَةَ الْمُنْقُولَةَ بِلِصْقٍ حَاطِطٍ عَلَى شَكْلِ مُسْحَدٍ لِلزَّرْعِ
تَوَجَّهًا أَكْثَرَ لِقَانَةً ، وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ مِنْ كَوْنِهِ كَثِيرَ الْحَدِيثِ فِي أَمْرِ
الزَّرَاعَةِ ، فَهَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ يَعْرِفُهَا حَقِيقَةً ، وَالْخِلَاصَةُ أَنَّهُ يُوسِّعُ مَدَى هِمَّتِهِ
وَجُهِودِهِ فِي كُلِّ مَا تَأْتِي فَائِدَتُهُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى وَتَكُونُ عَامَةً ، حَتَّى إِنَّهُ
لَا يَقْتَصِرُ عَلَى ذَلِكَ ، فَهُوَ يَزُورُ بَيْوتَ الْفَلَاحِينَ وَيَقِفُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَلَى
شُؤْنِ أَسْرِهِمْ وَعَدَدِ أَوْلَادِهِمْ ، وَعَلَى مَقْدَارِ أَرْضِيهِمْ وَطَبِيعَةِ مَحْصُولِهِمْ ،
وَعَلَى أَسْوَاقِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ ، وَعَلَى أَعْبَائِهِمْ وَدِيُونِهِمْ ، إِيخَ ، وَهُوَ يُعْطَى نَقْدًا
قَلِيلًا عَارِفًا سَوَاءً اسْتَعْمَالَهُ عَادَةً ، وَلَكِنَّهُ يُدِيرُ أَمْرَ اسْتِعْمَالِهِ بِنَفْسِهِ جَاعِلًا إِيَّاهُ
نَافِعًا لَهُمْ مَعَ وَجُودِ نَقْدِهِ لَدَيْهِمْ ، وَهُوَ يُزَوِّدُهُمْ بِمُتَالٍ ، وَهُوَ ، فِي الْغَالِبِ ،
يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ أَجُورُهُمُ الْيَوْمِيَّةَ عَنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ، فَيَحْمِلُ الْوَاحِدَ
مِنْهُمْ عَلَى إِقَامَةِ كُوْخِهِ نِصْفَ الْهَابِطِ أَوْ عَلَى سَقْفِهِ ، وَيَحْمِلُ آخَرَ عَلَى إِحْيَاءِ أَرْضِهِ
الْمَهْجُورَةِ عَنْ فَقْرٍ ، وَيُقَدِّمُ إِلَى آخَرَ بَقْرَةً أَوْ فَرَسًا أَوْ مَاشِيَةً بَدَلًا مِمَّا قَدَّ ،

وإذا أوشك جاران أن يتقاضيا توجه إليهما وأصلح بينهما ، وإذا مريض فلاحٌ حَلَّ على معالجته ، أو داواه بنفسه^(١) ، وإذا ظلم جارٌ قوى جارَه الضعيف حمَاه وأوصى به ، وإذا ما تحبَّ شابان ساعداً على الاقتران ، وإذا ما فقدت أمٌ ولدها العزيز زارها وعزَّاهَا ولم يخرج من عندها بُعْدَ دخوله ، وهو لا يزدرى المعوزين مطلقاً ، وهو لا يُسرِعُ في ترك البائسين مطلقاً ، وهو يتناول طعامه ، في الغالب ، عند مَنْ يساعِدُ من الفلاحين ، وهو يَقْبَلُ كذلك دعوة مَنْ ليسوا محتاجين إليه ، وهو ، إذ يصيرُ مُحْسِنًا إلى بعضهم وصديقاً لآخرين ، لا يَنفَكُ يَكُونُ مساوياً لهم ، والخلاصةُ أنه يَصْنَعُ الخيرَ بشخصه كما يَصْنَعُهُ بِماله .

وما يَحْدُثُ ، أحياناً ، أن يُوجَّهَ جَوْلَاتِهِ نحو البيت السعيد ، فَيُمْكِنُهُ أن يَرْجُوَ مشاهدةَ صُوفِيَةٍ خَفِيَّةٍ وأن يراها من غير أن تراه ، يَبْدُ أن إميلَ لا يَنْحَرِفُ في سلوكه ، وهو لا يَعْرِفُ المواربة ولا يُريدُها ، وهو يَتَّصِفُ بتلك اللطافة السائغة التي تُدَارِي حُبَّ الذات وتُغْذِيهِ بِحُسْنِ الشعور ، وهو يَتَّقِيْدُ بِمَحْدُودِ الإقامة تَقِيْدًا وثيقاً ، وهو لا يَدْنُو دُنُوًّا كافيًا لِيُظْفَرَ مصادفةً بما يَرْغَبُ في نَيْلِهِ من صُوفِيَةٍ نَفْسِهَا ، وهو ، عَوَضًا من ذلك ، يَجُولُ في الجِوَارِ طَيِّبِ الخاطر باحثاً عن آثار خُطَا صاحبته رَاقًا لِمَا تُتْلَاقُ

(١) لا تعنى مداواة الفلاح المريض إعطائه مسهلاً ، أو تقديم عقاقير إليه ، أو إرسال طبيب إليه ، وليس هذا ما يحتاج إليه هؤلاء المساكين في أثناء مرضهم ، وإنما يحتاجون إلى غذاء أحسن مما عندهم وأوفر ، والصوم غير ما تصنعون عند ما تصابون بالحمى ، ولكن فلاحكم ، إذا ما أصيبوا بالحمى ، أعطوهم لحماً وخمراً ، فجميع أمراضهم تنشأ عن البؤس والفسق ، ويكون خير شراب لهم في قبوكم ، ويكون جزاءكم صيدليهم الوحيد .

من مَسَاقٍ والجَوَلَاتِ الَّتِي تَفَضَّلْتَ فقامت بها لجمالته ، وهو يَذْهَبُ عَشِيَّةَ
 الأيامِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَرَاهَا فِيهَا إِلَى مَزْرَعَةٍ مجاورةٍ لِيُوصِيَ بِوَجْهَةٍ خَفِيفَةٍ
 للغد ، وَتَسِيرُ النَّزْهَةُ إِلَى تِلْكَ النّاحِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشْعَرَ بِذَلِكَ ، وَيُدْخَلُ
 هُنَاكَ كَمَا لَوْ وَقَعَ هَذَا مُصَادِفَةً ، وَتُوجَدُ فَوَاكِهُ وَحَلَوَى وَقِشْدَةٌ ، وَنَحِبٌ
 صُوفِيَةٌ الْأَطْعَمَةُ اللَّذِيذَةُ فَلَا تَكُونُ غَيْرَ مَكْتَرَّةٍ لِهَذِهِ الْاِتِّفَاتَاتِ ، فَتَبْهَجُ بِمَا
 كَانَ مِنْ اسْتِعْدَادِنَا ، وَأَنَالَ نَصِيبِي مِنَ الْمَجَامِلَةِ وَإِنْ لَمْ أَشْتَرِكْ فِي الْجُهْدِ الَّذِي
 اسْتَوْجِبَهَا ، وَهَذَا أَسْلُوبٌ تَتَّخِذُهُ فَنَاءً صَغِيرَةً لِكَيْلَا تَجِدَ حَرَجًا فِي الشُّكْرِ ،
 وَأَنَا كُلُّ ، أَنَا وَالْأَبْ ، مِنَ الْحَلَوَى وَنَشْرَبُ مِنَ الْحَمْرِ ، وَلَكِنْ إِمِيلُ مِنْ حِصَّةِ
 النِّسَاءِ ، فَيَتَرَقَّبُ لِيَسْتَرْقَ طَبَقًا مِنَ الْقِشْدَةِ الَّتِي غُمِسَتْ فِيهَا مِلْمَقَةٌ صُوفِيَةٌ .
 وَتَسُوقُنِي الْحَلَوَى إِلَى الْكَلَامِ عَنْ مُبَارَيَاتِ إِمِيلِ السَّابِقَةِ ، وَيُرَادُ أَنْ
 يُعْرَفَ مَا هَذِهِ الْمُبَارَيَاتِ ، وَأَوْضَحُهَا ، وَيَضْحَكُونَ ، وَيُسْأَلُ عَنْ كَوْنِهِ
 لَا يَزَالُ قَادِرًا عَلَى الْمَدْوِ ، وَيُجِيبُ بِقَوْلِهِ : « أَحْسَنُ مِمَّا فِي أَيِّ وَقْتٍ
 كَانَ ، وَمَا يَنْغِظُنِي كَثِيرًا أَنْ أَنْسَاهُ » ، وَيَرْغَبُ أَحَدُ الْأَصْحَابِ أَنْ يَرَاهُ ،
 وَلَا يَجْزُو عَلَى قَوْلِ هَذَا ، وَيَأْخُذُ آخَرُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنْ يَقْتَرِحَ هَذَا ، وَيَقْبَلُ ،
 وَيُجْمَعُ لَهُ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْحِوَارِ ، وَتُعْرَضُ جَائِزَةٌ ، وَتُوضَعُ قِطْعَةٌ
 مِنَ الْحَلَوَى عَلَى الْمَدْفِ كَمَا كُنَّا نَصْنَعُ فِي الْأَلْعَابِ السَّابِقَةِ ، وَيَسْتَعِدُّ كُلُّ
 وَاحِدٍ ، وَيُعْطَى أَبُو صُوفِيَّةَ الْإِشَارَةَ بِتَصْفِيْقِهِ ، وَيُسَاقِي إِمِيلُ الرِّشِيقُ الرِّيحُ
 وَيَبْلُغُ الْمَدْفَ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ الثَّلَاثَةُ الْغِلَازَ فِي الْإِنْطِلَاقِ ، وَيَتَنَاوَلُ إِمِيلُ
 الْجَائِزَةَ مِنْ يَدِ صُوفِيَّةَ ، وَلَا تَكُونُ أَقْلٌ كَرَمًا مِنْ إِنْكَاسٍ فَتَقْدَمُ هَدَايَا
 إِلَى جَمِيعِ الْمَغْلُوبِينَ .

وفي أثناء سناء هذا الفوز تجرؤ صوفية على تحدّي الفائز فتذبحّ بأنها تستطيع العدوّ جيّداً مثله ، ولا يرفض خوض الوغى معها مطلقاً ، وبينما هي تستعدّ للقيام بهذا الأمر الصّعب فتشمرّ ثوبها من الناحيتين ، وتكونُ أحرص على إظهار ساقٍ دقيقةٍ لإميلٍ مما على قهّره في هذه المبارزة ، فنظر هل تنورُها* قصيرةٌ بما فيه الكفاية ، ويُسرّ إلى الأمّ بكلمة ، فتبتسم وتبدي إشارة استحسان ، وهناك يضعُ نفسه بجانب منافسته ، ولم تكّد الإشارة تُعطى حتى يرى انطلاقها كالمصنور .

ولم يخلق النساء للعدوّ ، وهنّ إذا ما هرّبنَ فلكي يدركنَ ، وليس العدوّ هو الشيء الوحيد الذي لا يُتفَنّه ، ولكنه الشيء الوحيد الذي يقمنَ به مع عدم لباقة ، وذلك أن مرّاقهنّ ، إذ تكون مُلصقةً بيديهنّ نحو الخلف ، تمنّحنَ وضعاً موجياً للضحك ، وأن كُوبهنّ المالية التي يقمنَ عليها تُظهرهن كالجراد الذي يحاول العدوّ من غير أن يثب .

ولا يتصوّر إميلُ أن صوفيةً تعدّو خيراً من النساء ، فلا يتنازل أن يخرج من مكانه ، وهو يراها تنطلق مُتبسّماً ساخراً ، ولكن صوفية خفيفةٌ وتلبس كعُبين وطيبين ، وهي لا تحتاج إلى حيلةٍ حتى تظهر ذات رِجلٍ صغيرة ، وهي تبلغُ من سرعة العدوّ ما لم يكنُ لديه غيرُ ما يحتاج إليه من الوقت لإدراكِ أتلنتة الجديدة التي يُبصرُها بعيدةً كثيراً منه ، وينطلقُ بدوّره ، إذن ، مشابهاً للنسر الذي ينقضُّ على فريسته ، ويتعقبها ويطاردها ، وأخيراً يدركها ضيّقة النفس ، ويضعُ ذراعَه

السرى حَوْلاً بَرَفِيٍّ وَزَمَمُهَا كَرِيشَةً وَيَضُمُّ هَذَا الْحِجْلَ اللَّطِيفَ إِلَى فَوَادِهِ ، وَيَتِمُّ الْعَدْوُ هَكَذَا ، وَيَجْعَلُهَا أَوَّلَ مَنْ يَمَسُّ الْهَدَفَ ، ثُمَّ يَهْتِفُ قَائِلاً : « الْفَوْزُ لَصُوفِيَةِ ! » ، وَيَرْكِعُ عَلَى رَكْبَةٍ وَاحِدَةٍ أَمَامَهَا وَيُعْتَرِفُ بِأَنَّهُ الْمَغْلُوبُ .

وَتُضَافُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْغَالِ الْمُخْتَلِفَةِ أَشْغُولَةُ الْحِرْفَةِ الَّتِي تَعْمَلْنَاهَا ، فَإِذَا مَا عَدَوْتَ يَوْمًا وَاحِدًا فِي الْأُسْبُوعِ عَلَى الْأَقْلَِّ مَعَ جَمِيعِ الْأَيَّامِ الَّتِي لَا يَسْمَحُ لَنَا الْجَوُّ الرَّدِي ، بَأَن نَسْعَى فِي الْحَقُولِ فَإِنَّا نَذْهَبُ ، أَنَا وَإِمِيلُ ، لِلْعَمَلِ عِنْدَ مُعَلِّمٍ ، وَنَحْنُ لَا نَسْتَغِيلُ شُكْلًا كَمَا يَشْتَغِلُ مَنْ يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحِرْفَةَ ، وَلَكِنَّا نَسْتَغِيلُ جِدِّيًّا مِثْلَ عَمَّالٍ حَقِيقِينَ ، وَيَأْتِي أَبُو صُوفِيَةِ لِيرَانَا فَيَجِدُنَا جَادِّينَ فِي الْعَمَلِ ، فَلَا يُغَوِّزُهُ أَنْ يَرَوِيَ لِرُوحَتِهِ وَابْنَتِهِ مَا رَأَى رِوَايَةَ الْمُعْجَبِ ، وَهُوَ يَقُولُ لَهَا : « اذْهَبَا وَانْظُرَا هَذَا الشَّابَّ فِي الْمَصْنَعِ لَتَرَيَا هَلْ يَزْدَرِي حَالِ الْفَقِيرِ ! » ، وَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ مَا تَسْمَعُ بِهِ صُوفِيَةُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَعَ الْارْتِيَاكِ ! وَيَتَكَلَّمُونَ فِي الْمَوْضُوعِ ثَانِيَةً ، وَتَزَادُ مِبَاغَتُهُ فِي أَثْنَاءِ عَمَلِهِ ، وَأَسْأَلُ مِنْ غَيْرِ وَجُودٍ غَرَضٍ خَاصٍّ ظَاهِرًا ، وَتَتَشَبَّثُ الْأُمُّ وَالْبَنْتُ فِي أَمْرِ يَوْمٍ مِنْ أَيْمَانَا ، وَيَزْكَبَانِ عَرَبَةً ، وَيَأْتِيَانِ إِلَى الْمِصْرِ فِي ذَاتِ النَّهَارِ .

وَتَدْخُلُ صُوفِيَةُ الْمَصْنَعَ فَتَشَاهِدُ فِي الطَّرَفِ الْآخِرِ شَابًّا لَا بَسًا سُرَّةً ، مُهْمِلًا تَسْرِجُ شَعْرَهُ ، بِالْعَا مِنْ الْجِدِّ فِي عَمَلِهِ مَا لَمْ يُنْصِرْهَا مَعَهُ قَطُّ ، وَتَقِفُ ، وَتَأْتِي بِإِشَارَةٍ لِأُمِّهَا ، وَيَكُونُ إِمِيلُ حَامِلًا لِزِمِيلًا بِيَدِهِ وَمِطْرَقَةً بِالْيَدِ الْآخَرِ ، فَيَتِمُّ فَرَضَ خَشْبَةٍ ، ثُمَّ يَنْشُرُ لَوْحًا وَيَضَعُ قِطْعَةً مِنْهُ

تحت الِإِلْزَمَةِ لَصَقْلِهَا ، وَلَا يُبَيِّرُ هَذَا الْمَنْظَرُ ضَحِكَ صُوفِيَةٍ مُطْلَقًا ، بَلْ يُوَثِّرُ فِيهَا ، وَيَسْتَوْجِبُ احْتِرَامَهَا ، فَيَا أَيْتَهَا الْمَرْأَةَ ، أَكْرِمِي زَوْجَكَ ، فَهُوَ يَعْمَلُ مِنْ أَجْلِكَ وَيَكْسِبُ خَبْرَكَ وَيُطْعِمُكَ ، وَهَذَا هُوَ الرَّجُلُ .

وَبَيْنَمَا كَانَتَا تُتْلَا حِظَانَهُ بِدَقَّةٍ أَبْصِرُهَا ، فَأَجْرُ إِمِيلَ مِنْ كَمِّهِ ، وَبِلْتَفَتِهِ ، وَبِرَاهِمَا ، وَيَطْرَحُ الْآلَاتِ جَانِبًا ، وَيَطِيرُ إِلَيْهَا هَاتِفًا مَسْرورًا ، وَيُقْعِدُهَا بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى فَرْحِهِ الْأَوَّلِ ، وَيَسْتَأْنِفُ عَمَلَهُ ، وَلَكِنْ صُوفِيَةٌ لَا تَصْبِرُ عَلَى الْبَقَاءِ جَالِسَةً ، فَتَنْهَضُ بِرَشَاقَةٍ وَتَجُوبُ الْمَعْلَمَ وَتَفْتَحُ الْآلَاتِ ، وَتَمَسُّ الْأَوَاحَ الْمَصْقُولَةَ ، وَتَلْمُ نُشَارَةً مِنَ الْأَرْضِ ، وَتَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا وَقَوْلِ إِنِّهَا تُحِبُّ هَذِهِ الْحَرْفَةَ لِأَنَّهَا نَظِيفَةٌ ، حَتَّى إِنْ هَذِهِ اللَّعُوبُ تَحَاوُلَ تَقْلِيدَ إِمِيلَ ، فَتَدْفَعُ مِنْحَتًا عَلَى اللَّوْجِ ، وَيَزَلُّ الْمِنْحَتُ وَلَا يَقْرِضُ مُطْلَقًا ، وَيَلُوحُ لِي أَنَّ الْحُبَّ نَفْسَهُ يُحَلِّقُ فَوْقَنَا وَيُصَقِّقُ بِجَنَاحِهِ ، وَيَلُوحُ لِي أَنِّي أَسْمَعُهُ يَهْتِفُ ابْتِهَاجًا قَائِلًا : « أَخِذْ ثَارُ هِرْكَوْل ! » .

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْأُمَّ تَسْأَلُ الْمَعْلَمَ : « مَا أَجْرُهُ هَذَيْنِ الْعَامِلَيْنِ يَا مُعَلِّمٌ ؟ » — « أَدْفَعُ إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا عَشْرِينَ دَانِقًا عَنْ كُلِّ يَوْمٍ ، يَا سَيِّدِي ، فَضْلًا عَنْ طَعَامِهِمَا ، وَلَكِنْ هَذَا الشَّابُّ يَكْسِبُ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْخُذُ بِدَرَجَاتٍ لَوْ أَرَادَ ، فَهُوَ أَحْسَنُ عَامِلٍ فِي الْبَلَدِ » ، وَقَوْلُ الْأُمِّ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْنَا بِمَحْتَنٍ : « عَشْرُونَ دَانِقًا فِي الْيَوْمِ وَتُطْعِمُهُمَا ! » ، وَيَرُدُّ الْمَعْلَمُ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ : « أَجَلْ ، إِنْ الْأَمْرَ هَكَذَا يَا سَيِّدِي » ، وَتَهَرَّعَ إِلَى إِمِيلَ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَتَعَانَقَهُ وَتَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهَا وَهِيَ تُفَيِّضُ عَلَيْهِ مِنْ

دمعها ، فلا تستطيع أن تقول له شيئاً آخرَ غيرَ تكرارِها كثيراً كلمة :
« ابني ! ابني ! » .

وتقول الأمُّ لبتها بعد قضائهما بعضَ الوقت في الحديث معنا ، ولكن
من غير أن تَقْطَعَا عملنا : « لِنَنْصَرِفْ من هنا ، فقد تأخرنا ، ولا يَجُوزُ
أن نَحْمِلَ الأبَّ على انتظارنا ، نِم تَدْنُو من إميل ، وتَضْرِبْهُ ضربةً خفيفةً
على خَدِّه وهي تقول له : « حسناً ! أيها العامل الصالح ، ألا تَرَعَبُ
في الحجى معنا ؟ » ، وَيُجِيبُهَا بلهجة المَلْهُوف : « إِنِّي مُتَقَبِّلٌ لِعَمَلٍ ،
فاسألِي المعلم » ، وَيُسْأَلُ المعلمُ عن إمكان تَفْضُّله بالاستغناء عنا ، فيُجِيبُ
بأنه لا يستطيع ذلك ، وقد قال : « يُوْجَدُ عملٌ مُسْتَعَجَلٌ يجب أن أُنْجِزَه
بعد يومين ، وقد اعتمدت على هذين السيدين فَرَفَضْتُ عَمَّالاً عَرَضُوا
أَنْقَسَهُمْ ، فإذا أَعَوَزَنِي هذان العاملان لم أَدْرِ أين أجدُ من يقوم مقامهما ،
ولم أَسْتَطِعْ تسليمَ العمل في اليوم الموعد » ، ولم تُجِبِ الأمُّ بشيء ،
وتنتظر قولاً من إميل ، وَيَخْفِضُ إميل رأسه وَيَسْكُتُ ، وتقول له مع
بعض الحيرة من هذا الصمت : « أليس عندك ما تقول لهذا ؟ » ، وَيَنْظُرُ
إميلُ نَظْرَ حَنَانٍ إلى ابنتها ، ولا يَنْطِقُ بغير كلمة : « يجب أن أبقى كما
تَرَيْنَ » ، وهناك تَنْصَرِفُ السيدتان ، وَيُسَيِّمُهُمَا إميلُ حتى الباب ،
وَيُنْتَبِهُمَا بعينيه ما استطاع ، ويتأوّه ، ويعود إلى العمل من غير أن يَنْبِسَ
بكلمة .

وتألم الأمُّ فَتَحَدَّثَتْ ابنتها في الطريق عن غرابة هذا الأسلوب ، وتقول :
« ماذا ! أكان من الصعب كثيراً إقناعُ المعلم فلا يُضْطَرُّ إلى البقاء ؟ أفلا

يَجِدُ هذا القَتَى المِثْلَافُ ، الذى يُنْفِقُ المالَ بلا ضرورةٍ ، ما يَسْتَعْمِلُ منه فى الأحوالِ للنَّاسِبةِ ؟ » ، وتَجِيبُ صُوفِيَةٌ بِقَوْلِها : « أُمَّاه ! مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَعْتَمِدَ إِمِيلُ عَلَى المالِ وَأَنْ يَلْتَمَتَعَ بِهِ فَيَنْقُضَ عَهْدًا شَخْصِيًّا وَيُخْلِفَ قَوْلَهُ بِلا عِقَابٍ وَيَحْمِلَ آخَرَ عَلَى نَقْضِهِ ! أَجَلْ » ، إِنِّى أَعْرِفُ أَنَّهُ يَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَمُوسَ الْعِلْمَ مِنْ ضَرَرٍ طَافِيفٍ يَنْشَأُ عَنْ غِيَابِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَعْبُدُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ لِلثَّرَاءِ فَيَتَعَوَّدُ وَضْعَهُ فِي مَكَانٍ وَاجِبَاتِهِ وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُعْفَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَادَفَعَ مَالًا ، يُوجَدُ لِإِمِيلٍ أَسَالِيبُ أُخْرَى فِي التَّفَكِيرِ فَأَرْجُو أَلَّا أَكُونَ سَبَبَ تَغْيِيرِهِ لَهَا ، أَوْ تَطْنِينَ أَنْ بَقَاءَهُ لَا يُكَافئهُ شَيْئًا ؟ أُمَّاه ، لَا تَرْكَبِ مَثَنَ الْخَطَا ، فَهُوَ قَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِي ، وَقَدْ أَبْصَرْتُ ذَلِكَ فِي نَاضِرَتِهِ . »

وَلَا يَعْْنِي ذَلِكَ كَوْنَ صُوفِيَّةٍ مُتَسَاهِلَةٍ فِي دَلَائِلِ الْحُبِّ الْحَقِيقَةِ ، فَعَلَى الْعَكْسِ تَجِدُ صُوفِيَّةً مُتَجَبِّرَةً طُلُوبًا ، فَتُفْضَلُ أَلَّا تُحِبَّ عَلَى أَنْ تُحِبَّ بِاعْتِدَالٍ ، وَهِيَ تَتَصَفَّ بِزَهْوٍ اللَّزِيَّةِ النَّبِيلِ الشَّاعِرِ بِنَفْسِهِ وَالْمُقَدَّرِ لِذَاتِهِ وَالَّذِى يُرِيدُ أَنْ يُكْرِمَ كَمَا يُكْرِمُ نَفْسَهُ ، وَهِيَ تَزْدَرِي قَلْبًا لَا يَعْرِفُ قِيَمَةَ قَلْبِهَا وَلَا يُحِبُّهَا مِنْ أَجْلِ فَضَائِلِهَا حُبًّا يَعْدِلُ فُتُونَهَا أَوْ يَزِيدُ ، قَلْبًا لَا يُفْضَلُ عَلَيْهَا وَاجِبُهُ الْخَاصُّ ، قَلْبًا لَا يُفْضَلُهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ ، وَهِيَ لَا تَرْغَبُ ، مُطْلَقًا ، فِي عَاشِقٍ لَا يَعْرِفُ سُلْطَانًا غَيْرَ سُلْطَانِهَا ، وَهِيَ تَرِيدُ أَنْ تَهَيِّمَ عَلَى رَجُلٍ لَمْ يُفْسِدْ بِهَا قَطُّ ، فَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ ازْدَرَتْ سِيرَتِهِ أَصْحَابَ أُولَئِكَ بَعْدَ إِذْ لَاحَظَتْ لَهَا فَوَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ وَحْدَهُ لِعَدَمِ اسْتَطَاعَتِهَا أَنْ تُغَيِّرَهُ .

وَلَكِنَّكَ إِذَا عَدَوْتَ هَذَا الْحَقَّ الْمَصُونَ الْمُقَدَّسَ وَجَدْتَ صُوفِيَّةً غَيْرًا

على جميع حقوقها ، فهي تَرْقُبُ ، مع التدقيق ، مقدارَ احترام إميل لهذه الحقوق ، ومقدارَ ما يَبْذُلُ من همّةٍ في تنفيذ رغائبها ، ومقدارَ حِدْقِهِ في حَزْرِهِ لهذه الرغائب ، ومقدارَ انتباهه إلى الوصول في الدقيقة المقرّرة ، فهي لا تريد أن يتأخّر أو يتقدّم ، وإنما تريد أن يكون مُدَقَّقًا ، إهالُ صُوفِيَةٍ ! هذا لا يَقَعُ مرتين ، وكلُّ شَكٍّ جائرٍ يساورها يَقْضَى على كلِّ شيء ، ولكن صُوفِيَةً مُنْصِفَةً ، ولكن صُوفِيَةً تَعْرِفُ كيف تُصْلِحُ خطأها .

وَنُنْتَظِرُ ذاتَ مساء ، فقد تَلَقَّى إميلُ الأَمْرَ ، ويُوَقِّتِي لاستقبالنا ، ولا نَصِلُ مطلقًا ، وماذا حَدَثَ لنا ؟ وأَيُّ بِلَايَةٍ أَصَبْنَا بها ؟ لا أَحَدَ من ناحيتنا ، وَيُقْضَى المساء في انتظارنا ، وَتَظُنُّ صُوفِيَةُ الْمَسْكِينَةِ أَننا مِتْنَا ، وَيَعْتَرِيهَا حُزْنٌ شَدِيدٌ ، وَيَضِيقُ صَدْرُهَا ، وَتُخَيِّ ليلتها بالبكاء ، وَيُرْسَلُ في المساء رَسُولٌ للبحث عنا ، وَلِيَأْتِيَ في صباح الغد بخبرٍ عنا ، وَيَعُودُ الرسول مع آخرَ من قَبَلْنَا لِيُبَلِّغَ اعتذارنا ويقولَ إِننا في حالٍ جَيِّدَةٍ ، وَيَمْضِي وقت قصير فنَظْهَرَ بأنفسنا ، وهناك يَتَغَيَّرُ النظر ، فَتُكْفِفُ صُوفِيَةُ دُمُوعُهَا ، وهي إِذَا ما سَكَبَتْ منها كان ذلك عن غضب ، فلم يكن فؤادها الْمُخْتَالِ لِنال شيئًا من اطمئنانه إلى حياتنا ، فإميلُ حَيٌّ ، وقد أوجبَ انتظاره على غير جدوى .

ونَصِلُ ، فترِيدُ أن تُقْفَلَ عليها الباب ، وَيُرَادُ أن تَبْقَى ، فَتَبْقَى ، ولكنها إِذْ تنقاد من فَوْرِهَا تُظْهِرُ من الهدوء والرِّضا ما يُمَوِّهُ على الآخرين ، ويَأْتِي الأبُ أماننا ، ويقول لنا : « لقد أَقْلَقْتُمَا بِالْأَصْدِقَائِكُمَا ، ويوجد هنا مَنْ

لا يَسْهُلُ عليهم أن يَفْعُوا عنكما ، وتقول صُوفِيَةٌ بأعذبِ ما يُمكنُها من تَبَسُّمٍ : « مَنْ هُم ، إذن ، يا أباي ؟ » ، ويحيب الأبُ بقوله : « وما يُهَيْئُكَ ، على ألاَّ تكوني منهم ؟ » ، فلا تَرُدُّ صُوفِيَّةً على هذا ، ونطرقُ على شُغلها ، ونستقبلُنا الأمُّ بِرُودَةٍ وتَكَلُّفٍ ، ويرتبك إميلُ فلا يَجْزُوْهُ على الدُّنُوْ من صُوفِيَّةٍ ، فتكون أولهما كلامًا فتسأله عن صحته ، وتدعوه إلى الجلوس ، وتُظهِرُ من التَّنَكُّرِ ما يُجَدِّعُ معه بذاك القُتُورِ هذا الشابُّ للسكين الذي لا يزال غيرَ مُدْرِكٍ للغة الأهواء العنيفة ، فيوشِكُ أن يَفْضَبَ .

وأريدُ أن أزيل الفِشاوة عنه فأبادر إلى يَدِ صُوفِيَّةٍ وأودُّ أن أرفعها إلى شَفَتَيَّ كما أفعل أحيانًا ، فتَسَحَّبُها من قُوْرها مع كلمة « سَيِّدِي » التي كان نُطْقُها بها من الغرابة ما كَشَفَتْها معه هذه الحركةُ غيرُ الإرادية لَعَيْنَيَّ إميلَ حالًا .

وتُبْصِرُ صُوفِيَّةٌ أنها كَشَفَتْ سِرَّها قِيْلُ ضَبَطُها لنفسها ، وتتحولُ رباطةُ جأشها الظاهرةُ إلى ازدراء تَهْكِيْمِيٍّ ، وتُحْيِبُ عن كلِّ ما يقال لها بكلماتٍ ذاتِ مَقْطَعٍ واحدٍ تَنْطَلِقُ بها بتزودٍ وتردُّدٍ كأنها تَخَافُ أن يَنْبَغَ كلامُها على غيظها كثيرًا ، ويَظْهَرُ إميلُ نصفَ ميتٍ دُغْرًا وَيَنْظُرُ إليها متألِّمًا ، ويحاول أن يَحْمِلَها على إلقاء نَظَرَاتٍ عليه فَتَلْتَقِيْ أعينُها فيقرأ في عينيها مشاعرَها الحقيقية ، وتكون صُوفِيَّةٌ أَكْثَرَ غَيْظًا من اعتداده بنفسه فتَلْتَقِيْ عليه نظرةٌ تَنْزِعُ منه كلَّ رغبةٍ في القُوْزِ بنظرةٍ أخرى منها ، ويُلْجِمُ إميلُ ويرتجفُ ، وعاد لا يَجْزُوْهُ ، لُحْسَنَ حَظِّه ، على مخاطبتها ولا على النظر إليها ، وذلك لأنها ما كانت لتَصْفَحَ عنه ولو لم يَكُنْ مَذْنِبًا ، ولو استطاع أن يَحْتَمِلَ غضبَها .

وأرى أن دَوْرِي قد أتى ، وأن وقت الإيضاح قد حلّ ، فأعودُ إلى صُوفِيّة ، وأتناولُ يَدَهَا ثَانِيَةً ، ولا تَخْطِفُهَا ، وإن كانت مستعدةً للظهور سيئةَ الحال ، وأقول لها بَرْقَةً : « نحن نُعَسَا ، يا صُوفِيّة العزیزة ، ولكنك عاقلةٌ عادلةٌ ، فسوف لا تَحْكُمِينَ في أمرنا من غير أن تَسْمَعِينَ ، فاستِمْعِي إلينا » ، ولا تُجِيبُ بكلمة ، وأقول ما يأتي :

« لقد انطلقنا أمس في الساعة الرابعة ، وقد أُشِيرَ علينا بأن نَصِلَ في الساعة السابعة ، ونحن نخطّط لأنفسنا بوقتٍ أطولٍ مما نحتاج إليه كيما نستريحُ عندما نَدْنُو من هنا ، ونَقْطَعُ ثلاثةَ أرباع الطريق ، فتَقَرَّعَ أَسْمَاعُنَا نِيَّاحَاتٌ مؤلّةٌ صادرةٌ عن مَضِيقٍ بجانب التَّلِّ بعيدٍ بعضَ البعد منا ، ونُزْهِرُ إلى مكان الصُّرَاخ ، فنَجِدُ فَلَاحًا نَعْسًا راجعًا من المِضْرَ مجتَرعًا بعضَ الخمر على حصانه فَسَقَطَ منه سقوطًا شديدًا كَسِرَ منه ساقه ، ونَصِيحُ ونَطْلُبُ المَوْنَ ، ولا نَجِدُ مَنْ يُجِيبُ ، ونحاول وضعَ الجريحِ على حصانه فلا نستطيعُ صنعَ ذلك ، فهذا التَّمَسُّ يمانى من الآلام أعظمها هَوْلًا عند أقلِّ حركة ، ونُزْمِعُ على رَبْطِ الحِصَانِ في مكانٍ منحرفٍ من الغابة ، ثم نَجْمَلُ من أذرعنا مَحْمِلًا ، ونَضَعُ الجريحَ عليه ، ونَحْمِلُهُ بأعظم ما يُمكن من الرِّفْقِ عاملين بإشارته في الطريق التي يجب السَّيرُ عليها لبلوغ منزله ، وتكون المسافةُ طويلةً ، ونُنْزِمُ بالاستراحة مراتٍ كثيرةً ، وأخيرًا نَصِلُ منهوكين نَعْبًا ، وكان من دَهْشِنَا اللَّرَّ أن كنا نَعْرِفُ البيتَ وأن كان هذا البائسُ الذي قَتَلْنَاهُ بِجَهْدٍ عَظِيمٍ هو عينَ الرجل الذي تَقَبَّلَنَا بقبولٍ ودادٍ يومَ وصولنا الأول ، هنا ، وما كان يساورنا من كَدَرٍ جميعًا حال دون تعارفنا حتى تلك الساعة .

« ولم يكن عنده غير طفلين ، وكانت زوجته قريبةً من منحه طفلاً ثالثاً ، وبلغ ما عاتته من التأثير حين رأت وصوله ما شعرت معه بأوجاع حادة ووضعت بعد ساعات قليلة ، وما يصنع في هذه الحال في كوخ بعيد حيث لا يُرجى أى عون ؟ عزم إميل على أخذ الحصان الذى تركناه في الغابة فيركبه ويمدو بأقصى ما يمكن من السرعة لإحضار جراح من المضر ، ويعطى الجراح الحصان ، وبما أنه لم يستطع أن يجد مُمرضةً على عجل فقد عاد سائراً على قدميه مع خادم بعد أن أرسل إليكم ساعياً ، وبينما كنت مرتبكاً ، كما يمكن أن يُلوح لكم ، بين رجل مكسور الساق وامرأة في دور الطلق كنت أعد في البيت كل ما كان يمكنني أن أبصره ضرورياً لمساعدة الاثنين .

« ولن أقصّل البقية مطلقاً ، فهي ليست موضع بحث ، وقد حلت الساعةُ الثانية بعد منتصف الليل قبل أن تُتاح لكل منا ، نحن الاثنين ، دقيقة راحة ، والخلاصة أننا عدنا إلى ماوانا القريب من هنا قبل طلوع الشمس ، فانتظرنا فيه ساعة انتباهكم من النوم كيما نُخبركم بما حدث لنا .

وَأُسْكُتُ من غير إضافة شيء ، ولكن إميل يدنو من صاحبه قبل أن يتكلم أحده ، ويرفعُ صوته ويقول لها برصانة لم أتوقعها : « أى صوفية ، أنت حكمت في مصيرى الذى تفرفين جيداً ، أجل ، إنك قادرة أن تحكى على بالوت ألما ، ولكن لا تأمل أن تحملينى على نسيان حقوق الإنسانية ، فهذه الحقوق أقدس من حقوقك ، وإن أنزل عنها من أجلك . »

سَمِعَتْ صُوفِيَّةُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، فَهَضَّتْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَجِيبَ ، وَوَضَعَتْ ذِرَاعَهَا حَوْلَ عُنُقِهِ ، وَطَبَعَتْ قُبْلَةً عَلَى خَدِّهِ ، ثُمَّ مَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَهَا بِلُطْفٍ مُنْقَطِعِ النَّظِيرِ ، وَقَالَتْ لَهُ : « أَيُّ إِمِيلَ ، تَنَاوَلْ هَذِهِ الْيَدَ ، فَهِيَ لَكَ ، وَكُنْ ، مَتَى شِئْتَ ، زَوْجِي أَوْ مُعَلِّمِي ، فَسَأُحَاوِلُ أَنْ أَكُونَ أَهْلًا لِهَذَا الشَّرَفِ » .

وَلَمْ تَكْذُ صُوفِيَّةٌ تُقْبَلُهُ حَتَّى صَفَّقَ أَبُوهَا الْمُسْرُورُ هَاتِفًا : « مَرَّةً أُخْرَى ، مَرَّةً أُخْرَى » ، وَلَمْ تَلْبَثْ صُوفِيَّةٌ أَنْ قَبَّلَتْ خَدَّهُ الْآخَرَ مَرَّتَيْنِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْجَالٍ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْشَبْ أَنْ اعْتَرَاهَا وَجَلٌّ فِي ذَاتِ اللَّحْظَةِ تَقْرِيْبًا فَالْتَجَأَتْ إِلَى ذِرَاعِي أُمِّهَا وَأَخْفَتْ وَجْهَهَا الْمَلْتَهَبَ خَجَلًا فِي صَدْرِ أُمِّهَا .

وَلَنْ أَصِفَ سُرُورَنَا الشَّامِلَ مُطْلَقًا ، فَجَمِيعُ النَّاسِ يَشْعُرُونَ بِهِ ، وَتَنَاوَلُ الْغَدَاءَ فَتَطْلُبُ صُوفِيَّةٌ أَنْ يُزَارَ ذَانِكَ الْمَرِيضَانِ الْفَقِيرَانِ ، وَتَرْغَبُ صُوفِيَّةٌ فِي ذَاكَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَيُذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ ، وَيُشَاهَدَانِ عَلَى فِرَاشَيْنِ مُفَصَّلَيْنِ ، وَكَانَ إِمِيلُ قَدْ جَلَبَ فِرَاشًا لَهَا ، وَيُرَى حَوْلَهَا أَنَاسٌ لَتَسْلِيَتِهِمَا ، وَإِمِيلُ هُوَ الَّذِي قَامَ لَهَا بِهِذَا ، وَلَكِنَّهُمَا ، مَعَ ذَلِكَ ، يَأْمَانُ بِهِ مِنْ سُوءِ وَضَعِهِمَا أَكْثَرَ مِنْ حَالِهِمَا ، وَتَنَاوَلُ صُوفِيَّةٌ وَزْرَةً مِنَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ ، وَتُرْتَبُّهَا عَلَى فِرَاشِهَا ، ثُمَّ تَصْنَعُ مِثْلَ ذَلِكَ لِلزَّوْجِ ، وَتَعْرِفُ أَنْ تَبْحَثَ بِيَدِهَا اللَّطِيفَةِ الْخَفِيفَةِ عَنْ كُلِّ مَا يُؤْلِمُهَا ، وَأَنْ تَجْعَلَ أَعْضَاءَهَا الْمَتَأَلِّمَةَ فِي وَضْعٍ أَكْثَرَ إِرَاحَةً ، وَسَبَقَ أَنْ شَعَرَا بِسُكُونٍ فِي الْوَجَعِ عِنْدَ دُنُوِّهَا ، فَكَانَهَا تَنْتَبِهُ بِكُلِّ مَا يُؤْلِمُهَا ، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ الْبَالِغَةُ

الرَّقَّةَ لَتَرْتَدَّ أَمَامَ الْقَدَّارَةِ وَلَا أَمَامَ الرَّائِحَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهِيَ تَعْرِفُ كَيْفَ تُزِيلُ هَذِهِ وَتُكَفِّرُ تِلْكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَمِنْ غَيْرِ إِزْعَاجٍ لِلْمُرِيضِينَ ، وَتَعُودُ هَذِهِ الْفَتَاةُ الَّتِي تُرَى ذَاتَ حَيَاءٍ دَائِمًا ، وَمُزْدَرِيَّةً أحيانًا ، وَالَّتِي لَمْ تَمَسَّ بِطَرْفٍ إِصْبَعَهَا فَرَّاشَ رَجُلٍ ، وَتُغَيِّرُ بَيَاضَاتِ الْجُرَيْجِ بِلَا تَرَدُّدٍ ، وَتَجْعَلُهُ فِي وَضْعٍ مُرِيحٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ وَقْتًا طَوِيلًا ، وَحِمِيَّةُ الْإِحْسَانِ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاءِ ، وَمَا تَفْعَلُ تَصْنَعُهُ بِخَفَةِ وَهَارَةٍ يُحْسُّ بِهَا مَكُونُ وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهَا مَسَّتْهُ ، وَيَتَّفِقُ الزَّوْجُ وَالزَّوْجَةُ عَلَى شُكْرِهَا لِلْفَتَاةِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَخْذُلُهُمَا وَتَتَوَجَّعُ لَهَا وَتُفَرِّجُ الْغَمَّ عَنْهُمَا ، وَهِيَ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُرْسِلُهُمُ اللَّهُ ، وَلَا تَعْجَبْ ، فَلَهَا وَجْهٌ مَلَكٌ وَلَطْفُهُ وَرِقَّةٌ وَدَعَّةٌ ، وَيَكُونُ لِهَذَا أَبْلَغُ الْأَثَرِ فِي نَفْسِ إِمِيلَ فَيَتَأَمَّلُهَا صَامِتًا ، فَيَا أَيُّهَا الرَّجُلُ أَحِبَّ قَرِينَتَكَ ، فَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ إِيَّاهَا لِتَفْرِجَ كَرْبَكَ فِي آلَمِكَ ، وَكَشَفَ هَمَّكَ فِي أَوْصَابِكَ ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَاةُ .

وَيُعَمِّدُ الْمَوْلُودُ حَدِيثًا ، وَبَيْنَمَا كَانَ الْعَاشِقَانِ يُقَدِّمَانِهِ إِلَى جُرْنِ الْعِمَادِ كَانَا يَتَوَقَّانِ مِنْ صَمِيمٍ فَوَادِهَا إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي يُرْزَقَانِ فِيهِ وَلَدًا فَيُعَمِّدُ ، وَكَانَا يَتَوَقَّانِ إِلَى الْيَوْمِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ ، وَكَانَا يَشْعُرَانِ بِاقْتِرَابِهِ ، وَقَدْ زَالَتْ جَمِيعُ وَسَاوِسِ صُوفِيَةٍ ، وَلَكِنْ وَسَاوِسِي أَتَتْ ، فَهِيَ لَيْسَا ، بَعْدُ ، حَيْثُ يُفَكِّرَانِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ دَوْرِهِ .

مَرَّةً ، ذَاتَ مَرَّةٍ ، يَوْمَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ، فَدَخَلَتْ غُرْفَةَ إِمِيلَ حَامِلًا كِتَابًا بِيَدَيْهِ وَسَأَلَتْهُ مُحَدِّثًا إِلَيْهِ : « مَا تَصْنَعُ إِذَا مَا أَخْبَرَكَ أَحَدُ النَّاسِ أَنَّ صُوفِيَةً مَاتَتْ ؟ » ، وَبَصِيحُ وَيَضْرِبُ يَدًا

يَبْدِ ، وَيَنْظُرُ إِلَى بَعِينِينَ حَائِزَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْبَسَ بِكَلِمَةٍ ،
وَأَدَاوَمَ عَلَى قَوْلِي هَادِئًا : « أَجِبْ إِذْنٌ » ، وَبِساوَرِهِ غَضَبٌ
وَيَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ إِذْ يَرَانِي رَابِطَ الْجَأَشِ هَادِئًا ، وَيَتَّخِذُ مِنَ الْوَضْعِ
مَا يَنْبَغِي عَلَى الْوَعِيدِ تَقْرِيْبًا ، وَيَقُولُ : « مَا أَصْنَعُ ؟ . . . لَا أَدْرِي ،
وَإِنَّمَا الَّذِي أَعْرِفُ هُوَ أَنِّي لَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى الَّذِي يَنْقُلُ إِلَى هَذَا
الْخَبَرِ مَا دُمْتُ حَيًّا » ، وَأَقُولُ لَهُ مُتَبَسِّمًا : « قَرِّ عَيْنًا ، فَصُوفِيَةِ حَيَّةٍ ،
وَتَتَمَتَّعُ بِصَحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، وَهِيَ تُفَكِّرُ فِيكَ ، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَنَا فِي هَذَا الْمَسَاءِ ،
وَلَكِنْ لِنَقْمُ بِجَوْلَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَنَسْتَكَلِّمُ » .

وَمَا يَشْغَلُ بَالَهُ مِنْ هَوًى عَادٍ لَا يَسْمَحُ لَهُ ، كَمَا فِي الْمَاضِي ، بِمَحَادِثٍ
قَائِمَةٍ عَلَى الْعَقْلِ الْخَالِصِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِمَالَتِهِ بِهَذَا الْهَوَى نَفْسِهِ إِلَى اتِّبَاعِهِ
لِلدَّرُوسَى ، وَهَذَا مَا فَعَلْتُ بِهَذَا الْمَدْخَلِ الْهَائِلِ ، فَأَنَا الْآنَ مُطْمَئِنٌّ إِلَى أَنَّهُ
سَيَسْتَمِعُ لِي .

« لَا بُدَّ مِنَ السَّعَادَةِ يَا إِمِيلُ الْعَزِيزُ ، فَالسَّعَادَةُ غَايَةُ كُلِّ مَوْجُودٍ
حَسَّاسٍ ، وَهِيَ الرِّغْبَةُ الْأُولَى الَّتِي طَبَعَتْهَا الطَّبِيعَةُ فِينَا وَالَّتِي لَا تَفَارِقُنَا
مَطْلَقًا ، وَكُلُّ يَطْلُبُهَا ، وَلَا أَحَدَ يَجِدُهَا ، وَكُلُّ يُفْنِي حَيَاتَهُ فِي الْبَحْثِ
عَنْهَا فَيَمُوتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا ، وَيَا صَدِيقِي الشَّابَّ ، هَلْ كُنْتُ
أَعْرِفُ مَا أَلْزَمْتُ نَفْسِي بِهِ عِنْدَ مَا تَنَاوَلْتُكَ بَيْنَ ذِرَاعِيَّ عِنْدَ وَلَادَتِكَ
وَأَشْهَدُكَ الرَّبَّ الْعَلِيَّ عَلَى الْعَهْدِ الَّذِي أَقْدَمْتُ عَلَى عَقْدِهِ ، فَوَقَفْتُ أَيَّامِي
عَلَى سَعَادَةِ أَيَّامِكَ ؟ كَلَّا ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَعْرِفُ أَنِّي إِذَا مَا جَعَلْتُكَ سَعِيدًا
أَطْمَأْنَنْتُ إِلَى سَعَادَةِ نَفْسِي ، فَكُنْتُ إِذَا مَا قَتُّ بِهَذَا الْبَحْثِ الْمَفِيدِ فِي

سبيلك جعلته مشتركاً بيني وبينك .

« وتقوم الحكمة على البطالة ما دُمنا نجهل ما يجب أن نصنع ، وهذا أكثر ما يحتاج إليه الإنسان من المبادئ ، وهذا أقل ما يعرف أتباعه ، ويعني البحث عن السعادة من غير أن يعرف أين هي تعريض الإنسان نفسه للفرار منها ، يعني تعريض الإنسان نفسه لأخطار كثيرة مختلفة بمقدار ما يوجد من طرق يضل عنها ، ولكن ليس من شأن جميع الناس أن يستطيع عدم السير مطلقاً ، ففي غم من سورة النعم يساورنا فُضل أن نخدع أنفسنا في نشدانه على عدم عمل شيء للبحث عنه ، ونحن إذا ما خرجنا مرة من الموضع الذي نستطيع أن نعرفه فيه عدنا غير قادرين على العود إليه .

« وقد حاولت اجتناب عين الخطأ عن عين الجمل ، وإني ، إذ أخذت على عاتقي أن أعنى بك ، عزمت ألا أقوم بخطوة غير مجدية كما عزمت أن أحول دون اتخاذك مثل هذه الخطوة ، فالتزمت سبيل الطبيعة التي لا تبدل لها والتي كنت أتبعها من غير أن تخاطر بيالي .

« وكن شاهدي وحامي ، فلن أرفضك مطلقاً ، فلم يضح بأعوامك الأولى في سبيل جميع الأعوام التي يجب أن تتبعها ، وقد تمت بجميع المواهب التي أنعمت بها الطبيعة عليك ، وما أخضعتك له الطبيعة من شروير فقد استطعت أن أقيك منه ، ولم تشعر بغير الشروير التي تستطيع أن تقويك على سواها ، ولم نعان قط ، من الشروير ما عانيت إلا لاجتناب ما هو أعظم منها ، وأنت لم تعرف الحق ولا العبودية ، وقد بقيت ، وأنت الحر القانع ، عادلاً صالحاً ، وذلك لأن الألم والعيب

أمران ملازمٌ أحدهما للآخر، ولا يصيرُ الإنسانُ شَريراً إلا إذا كان شقيّاً،
وَلَسْتَ تَظُنُّ أَنَّ صَبَاكَ أَنْ تَطُولَ حَتَّى أَوَاخِرَ أَيَّامِكَ ! وَلَا أَخْشَى ، مَطْلَقاً ،
أَنْ يَذْكَرَ قَلْبُكَ الطَّيِّبُ هَذَا الصَّبَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبَارِكَ لِلْيَدِ الَّتِي رَبَّتَهُ .

« ولما بلغتَ سِنَّ الرِّشْدِ صُنْتُكَ مِنْ مُبْتَسِرَاتِ النَّاسِ ، وَلَمَّا صَارَ
فَوَادُكَ حَسَاساً حَفِظْتُكَ مِنْ سُلْطَانِ الْأَهْوَاءِ ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ إِطَالَةَ هَذَا
السَّكُونِ الْبَاطِنِ إِلَى آخِرِ حَيَاتِكَ لَوَضَعْتُ عَمَلِي فِي مَأْمِنٍ ، وَلُحِزْتُ مِنْ
السَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ أَنْ يَحْوَزَهُ ، وَلَكِنِّي نَعَسْتُ رُوحَكَ
فِي مِيَاهِ سِتْيِكْسِ يَا إِمِيلُ الْعَزِيزِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجْعَلَهَا مَعْصُومَةً مِنْ
الْجُرُوحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْهَضُ عَدُوٌّ جَدِيدٌ لَمْ تَتَعَلَّمْ أَنْ تَقْهَرَهُ
بَعْدُ ، وَلَمْ أَقْدِرْ أَنْ أُصُونَكَ مِنْهُ ، وَهَذَا الْعَدُوُّ هُوَ نَفْسُكَ ، وَقَدْ تَرَكْتُكَ
الطَّبِيعَةَ وَالنَّصِيبَ ، فَيُمْكِنُكَ أَنْ تَحْتَمِلَ الْبُؤْسَ وَأَنْ تَصِيرَ عَلَى آلَامِ الْبَدَنِ ،
وَأَمَّا آلَامُ النَّفْسِ فَقَدْ كَانَتْ مَجْهُولَةً لَدَيْكَ ، وَأَنْتَ لَمْ تَكُ تَابِعاً لَشَيْءٍ غَيْرِ
الْحَالِ الْبَشَرِيِّ ، وَالْآنَ تَذْبَعُ جَمِيعَ مَا جَعَلْتَ لِنَفْسِكَ مِنْ رَوَابِطٍ ، فَأَنْتَ
إِذْ تَعْلَمُ الرِّغْبَةَ جَعَلْتَ نَفْسَكَ عَبْدًا لِرَغَائِبِكَ ، وَأَنْتَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَغَيَّرَ
فِيكَ شَيْءٌ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يُبَيِّنَكَ شَيْءٌ ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّ وَجُودَكَ شَيْءٌ ،
مَا أَكْثَرَ الْآلَامَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَمَا أَكْثَرَ الْمَضَارَّ الَّتِي
يُمْكِنُ أَنْ تَشْعُرَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مَرِيضًا ! وَمَا أَكْثَرَ الْوَنَاتِ الَّتِي
يُمْكِنُ أَنْ تُعَانِيَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَمُوتَ ! أَجَلٌ ، يُمَكِّنُ أَنْ يُوقِعَكَ فِي الْقَنُوطِ
كَذِبٌ أَوْ خَطَأٌ أَوْ شَكٌّ .

« وَقَدْ رَأَيْتَ فِي الْمَسْرَحِ أَبْطَالًا يَقَاسُونَ آلَامًا مَتْنَاهِيَةً ، فَتُدَوِّي دَارُ

التمثيل بصَرَخاتهم الجافية ، وَيَنْتَحِبُونَ كالنساء ، وَيَبْكُونَ كالأولاد ،
فَيَسْتَوْجِبُونَ هُتَافَاتِ الحُضُور ، وَاذْكُرْ مَا تُورِثُهُ إِيَّاكَ مِنَ الفَضَائِحِ هَذِهِ
النِّيَاحَاتُ وَالصَّرَخَاتُ وَالْأَنَاتُ فِي رِجَالٍ لَا يُنْتَظَرُ مِنْهُمْ غَيْرُ الرِّصَانَةِ
وَالجَلَدِ ، وَقُولُ سَاخِطًا : « إِنْ هَذِهِ أَمْثَلُهُ تُلَقَى عَلَيْنَا لِاتِّبَاعِهَا ، وَهَذِهِ
نَمَازِجُ تُفَرِّضُ عَلَيْنَا لِلاتِّقْدَاءِ بِهَا ، وَهَلْ يُخَشَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ صَغِيرًا
شَقِيًّا ضَعِيفًا بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ إِذَا لَمْ يُكْرَمْ ضَعْفُهُ بِمُظَاهَرَةٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ زَائِفَةٍ ؟ » ،
فِيَا صَدِيقَ الشَّابِّ ، كُنْ أَكْثَرَ تَسَاحُجًا نَحْوَ الْمَسْرَحِ بَعْدَ الْآنَ ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ
أَحَدَ أَبْطَالِهِ .

« وَتَعْرِفُ أَنْ تَأْلَمَ وَأَنْ تَمُوتَ ، وَتَعْرِفُ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى سُنَّةِ الْوُجُوبِ
فِي الْأَمْرَاضِ الْبَدْنِيَّةِ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تُفَرِّضْ قَوَائِينَ عَلَى شَهَوَاتِ قَلْبِكَ بَعْدُ ،
فَمَنْ عَوَاطِفُنَا ، لَا عَنْ احتِياجَاتِنَا ، يَنْشَأُ اضْطِرَابُ حَيَاتِنَا ، وَمَدَى رَغَائِبِنَا
وَاسِعٌ ، وَلَا نَعُدُّ قُوَّتُنَا شَيْئًا مَذْكُورًا تَقْرِيبيًا ، وَيَنْتَبِعُ الرَّجُلُ بِرَغَائِبِهِ أَلْفَ
شَيْءٍ ، وَلَا يَنْتَبِعُ شَيْئًا بِنَفْسِهِ ، حَتَّى حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ ، وَكَلَّا زَادَ الرَّجُلُ
ارْتِبَاطَاتِهِ زَادَ آلَامُهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ عَابِرٌ ، وَكُلُّ مَا يُحِبُّ يُفْلِتُ
مِنَّا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، وَنَحْنُ نَتَصَرَّفُ فِي الْأَمْرِ كَمَا لَوْ جَبَّ أَنْ يَدُومَ إِلَى
الْأَبَدِ ، وَيَا لِلذُّغْرِ الَّذِي حَدَثَ عِنْدَ الظَّنِّ بِأَنْ صُوفِيَّةٌ مَاتَتْ ! أَوْ تَذَهَبُ ،
إِذَنْ ، إِلَى أَنَّهَا سَتَعِيشُ أَبَدًا ؟ أَلَا يَمُوتُ إِنْسَانٌ فِي مِثْلِ سِنِهَا ؟ لَا بَدَّ
مِنْ مَوْتِهَا يَا وَلَدِي ، وَقَدْ تَمُوتُ قَبْلَكَ ، وَمَنْ يَعْرِفُ أَنَّهَا حَيَّةٌ الْآنَ ؟
إِنَّ الطَّبِيعَةَ لَمْ تُخَضِّعْ لِعِدَّةٍ مَوْتَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَنْتَ تُخَضِّعُ نَفْسَكَ لِمَوْتَةٍ ثَانِيَةٍ ،
وَهَكَذَا تَضَعُ نَفْسَكَ فِي حَالٍ تَمُوتُ بِهَا مَرَّتَيْنِ .

« وهكذا أراك ، إذ تَخَضُّعُ لأهوائك الجامحة ، محلاً للتوحيح ! جرّمان دائمٌ ، خُسْرانٌ دائمٌ ، همٌّ دائمٌ ، حتى إنك لا تتمتعُ بما يُتْرَكُ لك ، وما يساورك من خَوْفِكَ أن تَخْسِرَ كلَّ شيءٍ يَمْنَعُكَ من حيازةِ أيِّ شيءٍ ، ولن تستطيع قضاء أهوائك لرغبتك في عدم اتّباع شيءٍ غير أهوائك ، وأنت تَطْلُبُ الراحةَ ، والراحة ستَفِرُّ منك دائماً ، وستكون بانساً ، وستصير شَريراً ، وكيف يُمَكِّنُكَ ألا تكون هكذا وأهوائك الجامحة هي التي تسيطر عليك ؟ وإذا كنتَ لا تستطيع احتمالَ الحرمانِ غير الإرادى فكيف يُمَكِّنُكَ أن تُلْزِمَ نَفْسَكَ بحرمانٍ إرادى ؟ وكيف يُمَكِّنُكَ أن تُضْحَى بالئيل في سبيل الواجب فتقاومَ قُوادِكَ لتُضْغِي إلى عقلك ؟ أنت تقول إنك لا تُريدُ أن تَرى من يُخْبِرُكَ بموتِ صاحبك فكيف ترى مَنْ يُريدُ نَزْعاً منك حَيَّةً فيَجْرُوْهُ على قوله لك : « هي ميتةٌ نظراً إليك ، فالفضيلةُ تَفْصِلُكَ عنها ؟ » ، وإذا كان لا بُدَّ من العيش مع صُوفيةٍ مهما وقع فلا أهيةَ في كونها متزوجةً أو غيرَ متزوجةٍ ، وفي كونها طليقةً أو غيرَ طليقةٍ ، وفي كونها تُحِبُّكَ أو تَكْرَهُكَ ، وفي إعطائك إياها أو رَفْضِ ذلك ، فأنت تريدُها ، ولا بُدَّ من حيازتها بأيِّ ثمنٍ كان ، فأخبرني ، إذن ، عن الجريمة التي تَقِفُ رجلاً لا سلطانَ لغير أمانى قلبه عليه ، فلا يستطيع أن يقاوم شيئاً يرغب فيه .

« ويا بُنَيَّ ، لا سعادةَ بلا شجاعةٍ ، ولا فضيلةَ بلا كفاحٍ ، وتأتى كلمة الفضيلة « vertu » من كلمة القوة « force » ، والقوةُ أساسُ كلِّ فضيلةٍ ، ولا تَخْصُ الفضيلةُ غيرَ مخلوقٍ ضعيفٍ بطبيعته قويٍّ بإرادته ، وعلى هذا

وحده تقوم مزية الرجل العادل ، ومع أننا ندعو الربّ صالحاً فإننا لا ندعوه فاضلاً ، وذلك لأنه لا يحتاج إلى جهودٍ لصنع الخير ، وقد انتظرتُ بلوغك من الحال ما تفهمنى معه حتى أفسّر لك هذه الكلمة التى أتهرّكتُ حرمتها كثيراً ، ولا كبيرَ احتياجٍ إلى معرفة الفضيلة إذا كانت ممارستها لا تُكلف شيئاً ، ويأتى هذا الاحتياجُ عند تذبُّه الأهواء ، وقد أتاك منذ حين .

« وإنى حين نشأتك بكلِّ مافى الطبيعة من بساطة وقيمتك الميوب التى تجعل الواجبات شاقّة بدلاً من أن أوصيك بالواجبات الشاقة ، وجعلتُ الكذب أقلَّ مقبلاً لديك من أن يكون غير مفيد ، وكنتُ أقلَّ تعلماً لك بأن تردّ لكلِّ ذى حقٍّ حقه من عدم اكتراثك لحقك ، وصنعتُ منك صالحاً أكثر من أن أجعل منك فاضلاً ، ولكنّ الذى ليس غير صالح لا يتنقّى صالحاً إلا ببقاء رغبته فى أن يكون هكذا ، ويتعظّم الصلاحُ ويُرْوَل بصدمة من الأهواء البشرية ، فالرجل الذى لا يكون غير صالح ليس صالحاً إلا من أجل نفسه .

« ومن الرجل الفاضلُ إذن ؟ هو الرجل الذى يعرف أن يتقهر عواطفه ، وذلك لأنه يتّبع عقله وضميره إذ ذاك ، فيقوم بواجباته ، ويلتزم نظاماً لا يستطيع شىء أن يُبعده منه ، ولم تكن ، حتى الآن ، حُرّاً إلا فى الظاهر ، ولم يكن عندك غيرُ حرية مؤقتة كحرية العبد الذى لم يؤمّر بشىء ، والآن كن حُرّاً حقيقياً ، وتعلم أن تكون سيد نفسك ، ومُرّ فؤادك ، تكن فاضلاً يا إميل .

« وَإِلَيْكَ ، إِذَنْ ، تَدَرَّبًا آخَرَ أَمَامَكَ ، وهذا التدرُّبُ أَصْعَبُ مِنَ الأولِ ، وذلك لَأَنَّ الطَّبِيعَةَ تُنْقِذُنَا مِنَ الشَّرِّ الَّتِي تَقْرِضُهَا عَلَيْنَا أَوْ تَعْلَمُنَا أَحْتِمَالَهَا ، وَلَكِنهَا لَا تَقُولُ لَنَا شَيْئًا عَمَّا يَأْتِينَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، فَهِيَ تَكِلُنَا إِلَى أَنْفُسِنَا ، وَهِيَ تَتَرَكُنَا ضَحَايَا لِأَهْوَائِنَا ، وَهِيَ تَدْعُنَا نَرْزَحُ تَحْتَ آلَمِنَا الْبَاطِلَةِ ، فَنُبْأِى بِدُمُوعٍ يَجِبُ أَنْ تَحْمَرَّ وَجُوهُنَا مِنْهَا خَجَلًا .

« وَأَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ هَذَا الْهَوَى لَيْسَ جُرْمًا ، فَهُوَ نَقِيٌّ نَقَاءَ النَفُوسِ الَّتِي تُحِبُّهُ ، وَالشَّرَفُ يُكُونُهُ وَالطَّهَرُ يُغْدِيهِ ، وَيَأْيِهَا الْعَاشِقَانِ السَّعِيدَانِ ! لَا يُسْفِرُ فُتُونُ الْفَضِيلَةِ عَنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ فِي فُتُونِ الْحُبِّ ، وَلَيْسَ الْقِرَانُ الْمُبَارَكُ الَّذِي يَنْتَظِرُكَ أَقْلٌ مَكَافَأَةٌ لَكُمْ عَلَى حِكْمَتِكُمَا مِمَّا عَلَى ارْتِبَاطِكُمَا ، وَلَكِنْ قُلْ لِي ، أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُخْلِصُ ، هَلْ أَنْتَ أَقْلٌ خُضُوعًا لِسُلْطَانِ هَذَا الْهَوَى الْخَالِصِ ؟ وَهَلْ أَنْتَ أَقْلٌ مِنْ يَكُونُ عَبْدًا لَهُ ؟ وَهَلْ تَحْنَقُهُ مِنْذُ الْغَدِ إِذَا مَا عَادَ فِي الْغَدِ لَا يَكُونُ بَرِيئًا ؟ وَالْآنَ هُوَ وَقْتُ تَجَرُّبَةِ قَوَاكِ ، فَإِذَا مَا وَجَبَ اسْتِمَالُهَا كَانَ الْوَقْتُ قَدْ مَضَى ، وَيَجِبُ وَقْعُ هَذِهِ التَّجَارِبِ الْخَطِرَةِ بَعِيدَةً مِنَ الْخَطَرِ ، فَمَا كَانَ لِيُمرَّنَ عَلَى الْقِتَالِ أَمَامَ الْعَدُوِّ مُطْلَقًا ، وَإِنَّمَا يُسْتَعَدُّ لَهُ قَبْلَ الْحَرْبِ ، فَتُخَاضُ الْمَرْكَةُ بَعْدَ إِعْدَادِ كُلِّ شَيْءٍ .

« وَمِنَ الْخَطَرِ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْأَهْوَاءِ الْمُبَاحَةِ وَالْأَهْوَاءِ الْمَحْظُورَةِ ، تَعَاظِيًا لِلأَوَّلَى وَامْتِنَاعًا عَنِ الْآخَرَى ، فَجَمِيعُ الْأَهْوَاءِ حَسَنَةٌ إِذَا مَا بَقِينَا مُسَيِّطَرِينَ عَلَيْهَا ، وَجَمِيعُ الْأَهْوَاءِ سَيِّئَةٌ إِذَا مَا تَرَكْنَاهَا تَسَيِّطِرُ عَلَيْنَا ، وَيَقُومُ مَا حَرَّمَتْهُ الطَّبِيعَةُ عَلَى تَوْسِيعِ مَدَى صِلَاتِنَا إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ قَوَانَا ،

ويقوم ما حرّمه العقل على الرغبة فيما لا تقدّر على تئيله ويقوم ما حرّمه الضمير على ترك أنفسنا نُغلب بالإغواء ، لا على إغوائها ، ولا يتوقّف علينا أن نكون ذوى أهواء أو لا نكون ، وإنما يتوقف علينا أن نسيطر عليها ، وجميعُ المشاعر التي نهيمن عليها شرعية ، وجميعُ المشاعر التي تهيمن علينا إجرامية ، ولا يكون الرجلُ الذي يُحبُّ امرأةً غيره مذنباً إذا ما جعل هذا الهوى المؤسفَ خاضعاً لقانون الواجب ، وهو يكون مذنباً إذا ما أحبَّ امرأته الخاصة فيضجّي بكلِّ شيء في سبيل حبّها .

« ولا تَنْتَظِرْ منى مبادئ طويلة عن الأخلاق ، وليس لدى غيرُ مبدأ واحدٍ ألقيه عليك شاملٍ لجميع المبادئ الأخرى ، وهو : كن رجلاً ورُدِّ قلبك إلى حدود رُجولتك ، فاذرُ من هذه الحدودَ واغْرِفْها ، ومهما تَكُنْ هذه الحدودُ ضيقةً فإننا لا نكون نَعساء ما أحطنا أنفسنا بها ، ونحن لا نَشَقَى إلّا إذا أردنا مجاوزتها ، ونحن نجاوِزُها إذا ما وَصَفْنَا برغائبنا المخالفة للصواب غيرَ الممكن في مرتبة الممكنات ، ونحن نجاوِزُها ، إذا ما نسينا رُجولتنا ، لنَضْمَعَ رُجولاتٍ وهمةً فنزَلَقَ منها إلى رُجولتنا دائماً ، ويكونُ المتاعُ الذي يؤثرُ فينا ضياعه وحده هو ما نعتقد أنه حقٌّ لنا ، وما يكونُ من تَعَذُّرٍ تئيله تعذراً جليلاً يَصْرِفُ الذهنَ عنه ، وما كانت الرغائبُ بلا أملٍ لتَوَلِّمَ مطلقاً ، وما كان الصُّغْلوكُ لِيَأْلَمَ من رغبته في أن يكون مَلِكاً ، ويُرِيدُ المَلِكُ أن يكون إلهاً عند ما يعتقد أنه عاد لا يكون رجلاً .

« وأوهامُ الزَّهْوِ هي مصدرُ أعظمِ ضرورتنا ، ولكن إنعامَ النظر في

بؤس الناس يَجْمَلُ الحَكِيمَ معتدلاً دائماً ، فَيَلْزَمَ مكانَهُ ولا يحاول أن يَخْرُجَ منه مطلقاً ، وهو لا يستعمل قُوَّاه على غير جَدْوَى حتى يتمتع بما لا يستطيع حِفْظُهُ ، وهو إذا ما استعملها كلها ليتصرف تصرفاً حسناً في كلِّ ما يَمْلِكُ كان ، في الحقيقة ، بالغَ القوة بالغَ الغنى بنسبة ما يكون أقلَّ رغبةً منا ، وهل أكوّن لنفسي ، وأنا الموجودُ الهالكُ الفاني ، سلاسلَ أبديةٍ فوق هذه الأرض حيث يتغيّر كلُّ شيءٍ وينقضي كلُّ شيءٍ وسأزول غداً ؟ وئى اميل ! وئى بُنَيَّ ! ما يَبْقَى لى من نفسى إذا ما خَسِرْتُكَ ؟ ومع ذلك فإنه يجب أن أعْرِفَ افتقارك ، وذلك لأنه من يَعلَمُ متى تُنْزَعُ منى ؟

« وإذا كنتَ تُريدُ أن تعيش سعيداً حكيماً ، إذن ، فلا تَرَبِّطْ قِوَادَكَ بغير الجمال الذى لا يزول أبداً ، ولتحدّدْ رغائبك بوضْعِكَ ، ولتَسْبِقْ واجباتك ميولك ، واجعلْ دُستورَ الضرورةِ شاملاً للأمور الأدبية ، وتعلّمْ افتقاد ما يُمكن أن يُنْزَعَ منك ، وتعلّمْ تَرْكَ كلِّ شيءٍ عند ما تأمرُك الفضيلةُ بذلك ، وتعلّمْ وَضْعَ نفسك فوق الحوادث فتفصلَ عنها قِوَادَكَ قبلَ أن تُمزِّقه ، وتعلّمْ أن تكون جسوراً في الضراء لكيلا تكونَ بائساً أبداً ، وتعلّمْ أن تكونَ ثابتاً في واجبك لكيلا تكونَ مجرماً أبداً ، وهناك تكون سعيداً على الرغم من الثراء وحكيماً على الرغم من الأهواء ، وهناك تَجِدُ حتى في حيازة الأموال السريعة الزوال لذةً لا يستطيع شيءٌ أن يُكدِّرَها ، فتصرفْ في هذه الأموال من غير أن تتصرف فيك ، وتَشْعُرْ بأن الرجل الذى تَفَلَّتَ منه كلُّ شيءٍ لا يَتَمَتَّعُ بغير ما يَعْرِفُ أن يُضَيِّعَ ، أَجَلٌ ، لن يساورَكَ وهمٌ في المَلاذِّ الخيالية مطلقاً ، أَجَلٌ ، لا تُصَابُ بِالْأَمْرِ تنشأ عنها مطلقاً ،

وَسَتَزِيحُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْمِبَادِلَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَلَامَ مَنْشُرَةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، وَلِأَنَّ تِلْكَ التَّلَازُّمَ نَادِرَةٌ بَاطِلَةٌ ، وَأَنْتَ ، إِذْ تَقَهَّرُ كَثِيرًا مِنَ الْأَرَاءِ الْخَادِعَةِ ، تَقَهَّرُ الرَّأْيَ الَّذِي يُعْطَى الْحَيَاةَ قِيَمَةً عَظِيمَةً ، وَتَسْتَقْضِي حَيَاتَكَ بِلا كَدَرٍ وَتَسْتَخْتِمُهَا بِلا ذُعْرِ ، وَتَسْتَفَارِقُهَا كَمَا تَفَارِقُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَتَوَلِّ الْهَوْلُ عَلَى الْآخَرِينَ حِينَ يُفَكِّرُونَ فِي انْقِطَاعِهِمْ عَنِ الْوُجُودِ بِتَرْكِهِمُ الْحَيَاةَ ، وَلَكِنَّكَ إِذْ تَعْلَمُ أَنَّ الْحَيَاةَ عَدَمٌ تَقْتَعِدُ أَنَّكَ بَادِيٌ لَهَا ، فَالْمَوْتُ خَاتِمَةُ الْحَيَاةِ الْخَلِيقَةِ وَفَاتِحَةُ الْحَيَاةِ الطَّيْبَةِ .

وَيَسْتَسْمِعُ إِمِيلُ إِلَى بَانْتَبَاهٍ مَمْرُوجٍ بِجَزَعٍ ، فَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ لِهَذِهِ الدِّيَابِاجَةِ نَتِيجَةٌ مَشْوُومَةٌ ، وَهُوَ يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ ، حِينَ يَبَانِي لَهُ ضَرُورَةُ مِمَارَسَةِ قُوَّةِ الرُّوحِ ، بِأَنِّي أُرِيدُ إِخْضَاعَهُ لِهَذَا النِّظَامِ الْقَاسِيِ ، وَمِثْلُهُ فِي هَذَا كَمَثَلِ الْجَرِيحِ الَّذِي يَرْتَجِفُ عِنْدَ مَا يُبْصَرُ اقْتِرَابَ الْجِرَاحِيِّ فَيَسْبِقُ إِلَى ظَنِّهِ شَعُورُهُ بِالْيَدِ الْمَوْجِعَةِ عَلَى جُرْحِهِ ، وَلَكِنْ مَعَ السَّلَامَةِ ، لِأَنَّهَا تَحُولُ دُونَ فُسَادِهِ .

وَيَبْدُو حَائِرًا مُضْطَرَبًا مُسْتَعْجَلًا مَعْرِفَةَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أُرِيدُ أَنْ آتِيَ بِهِ إِلَيْهِ ، فَيَسْأَلُنِي بَدَلًا مِنَ الْجَوَابِ ، وَلَكِنْ مَعَ الْخَوْفِ ، « وَمَا يَجِبُ أَنْ أَصْنَعُ ؟ » ، هَذَا مَا يَقُولُهُ مَرْتَجِفًا تَقْرِيْبًا ، وَمَنْ غَيْرُ أَنْ يَجْزُو عَلَى رَفْعِ عَيْنَيْهِ ، وَأُجِيبُ بِصَوْتِ رَصِينٍ : « إِنْ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَصْنَعَ هُوَ أَنْ تَتْرَكَ صُوفِيَّةً » ، وَيَضْرُخُ مَعَ الْهِيَاجِ قَائِلًا : « مَا تَقُولُ ؟ أَتُرْكُ صُوفِيَّةً ! أَتُرْكُهَا ! أَخَذَعُهَا ! أَكُونُ خَائِنًا ! أَكُونُ مُدَاجِيًا ! أَكُونُ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ ! ... » ، وَأَتَنَاوَلُ الْكَلَامَ قَاطِعًا قَوْلَهُ : « مَاذَا ! أَسْنِي يَخَافُ إِمِيلُ أَنْ أَعْلِمَهُ اسْتِحْقَاقَهُ لِمِثْلِ هَذِهِ

الثُّمُوت ؟ » ، ويدأوم على كلامه بعين الصَّوْلَةِ : « كَلَّا ، لا منك ولا من غيرك ، ويمكنني أن أحفظَ عمَلَك على الرغم منك ، ويمكنني ألا أستحقَّ تلك النعوت » .

وكنتُ منتظراً هذا الاندفاعَ الأول ، وأدعُهُ يَمُرُّ من غير أن أثور ، ولو لم يكن عندى اعتدالٌ أوصيه به لكان عندى لطفٌ أعْظَمُهُ به ! ويعْرِفُنِي إميلُ كثيراً فلا يعتقد إمكانَ مطالبتَه بشيء يكون سيئاً ، وهو يَعْرِفُ جيداً أنه يصْنَعُ سوءاً إذا ما تَرَكَ صُوفِيَةَ ضِمْنِ المعنى الذى يُطْلِقُهُ على هذه الكلمة ، والخلاصة أنه ينتظر مني إيضاحاً ، وهنالك أستأنفُ كلامي :

« أَوْ تَظُنُّ ، يا إميلُ العزيز ، وجودَ رجلٍ من أىِّ حالٍ كان يستطيع أن يكون أكثرَ سعادةً منك منذ ثلاثة أشهر ؟ إذا كنتَ تَظُنُّ هذا فأزِلْ ضلالك ، فقد استنفدتَ سعادةَ الحياة قبل أن تذوقَ مَلَأَذَهَا ، ولا يوجدُ شيءٌ يزِيدُ على ما اختبرتَ ، وسعادةُ الحواسِّ عابرةٌ ، وبها تخسرُ حالَ الفؤادِ المعتادةً دائماً ، وقد تمتعتَ بالأملِ أكثرَ مما ستمتعُ به في الحقيقة ، وما يُزِيئُهُ الخيالُ من المرغوب فيه يَتَرُكُهُ بالحياة ، وإذا عَدَوْتَ الموجودَ بذاته وحده لم يوجدَ جميلٌ سوى غيرِ الموجود ، وإذا ما أمسَكَ دوامُ هذه الحال في كلِّ وقتٍ وجدتَ السعادةَ العُلْيَا ، ولكنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ بالإنسانِ يُسْعِرُ بمصيره إلى الزوال ، وكلُّ شيءٍ في حياة الإنسانِ عابرٌ له نهاية ، ومتى دامت الحالُ التى تَجَمُّعُنَا سعداءِ دواماً متصلاً نَزَعَتْ عادةُ التمتعِ بها ذوقَها ، وإذا لم يَتَغَيَّرْ شيءٌ في الخارجِ تَغَيَّرَ القلبُ ، فالعادةُ تتركنا أو نحن نتركها .

« وفي أثناء هذيانك كان يَمُرُّ الوقتُ الذي لم تَلْتَفِتْ إليه ، وقد انتهى الصيفُ ، والشتاءُ يَدْنُو ، حتى إننا إذا ما استطعنا أن نداوم على جَوْلَاتِنَا في فَضْلِ بالغِ القسوة كالشتاء لم نَطُقْ على الإطلاق ، ولا بُدَّ من تغيير طراز الحياة على الرغم منا ، فلا يُمكن دوامُ هذا الطراز ، وأُبْصِرُ في عينيك الجزوعين أن هذا المانع لا يَمُوقُك مطلقاً ، فما كان من اعتراف صُوفية ومن رغائبك الخاصة يُوحى إليك بوسيلةٍ مَهْنَةٍ لاقاء الثلج والعدول عن السفر في سبيل رؤيتها ، ولا رَيْبَ في سهولة هذه الوسيلة ، ولكن الربيع إذا جاء ذابَ الثلجُ وبَقِيَ الزواجُ ، ولا بُدَّ من التفكير في أمره من أَجْلِ جميع الفصول .

« وترِيدُ أن تَتَزَوَّج صُوفية ولَمَّا تَمَضِ خمسةُ أشهر على معرفتك إياها ! وترِيدُ أن تتزوجها لأنها تُعْجِبُكَ ، لا لأنها تَلْأَمُكَ ، كأن الحبَّ لا يُخْذَع حَوْلَ الملامات مطلقاً ، فلا يَتَبَاغَضُ في آخر الأمر مَنْ يَبْذُمُونَ بِالتَّحَابِّ ! أَجَلْ ، إننى أعلم أنها فاضلة ، ولكن أَيْكُنِي هذا ؟ وهل يَكُنِي أن يكون بعض الناس من الصالحين حتى يتوافقوا ؟ وطبعها ، لا فضلها ، هو الذى أضعه موضعَ الشكِّ ، وهل تظهر المرأةُ طبعها في يوم واحد ؟ وهل تَعْرِف مقدارَ ما يَجِبُ أن تَبْدُو به من الأوضاع حتى يُعْرِفَ مزاجها معرفةً أساسية ؟ وهل حُبُّ أربعة أشهرٍ ضمانٌ كافٍ لبقية الحياة ؟ قد يَجْعَلُكَ غِيَابُ شهرين تنساها ، وقد يَنْتَظِرُ غَيْرُكَ غِيَابَكَ قَيْمُحُوك من قلبها ، وقد تَجِدُهَا عند عودتك خَلِيَّةً بِمقدار ما وجدتَها حَنُوناً حتى الآن ، ولا يتوقَّفُ أمرُ المشاعر على المبادئ ، فقد تَبَقَّى صالحةٌ جيِّداً مع زوال حُبِّها إياك ، وأمِيلُ

إلى اعتقاد ثباتها ووفائها ، ولكن من يكفلك ومن يكفلها مع عدم اختباركما مطلقاً ؟ وهل تؤجل هذا الاختبار حتى يفوت وقته ؟ وهل تنتظر لتعارفكما تعارفاً صادقاً حتى الحين الذي يتعذر فيه افتراقكما ؟

« لم تبلغ صوفية الثامنة عشرة من سنيها ، وأنت لم تكذ تجاوز الثاني والعشرين من عمرك ، وهذه السن هي سن الغرام ، لا سن الزواج ، ويا لرب الأسرة ، ويا لأمتها ! وى ! انتظراً مجاوزة دور الولودية على الأقل حتى تعرفا تربية الأولاد ، وهل تعرف عدد الفتيات اللاتي احتملن متاعب الحبل قبل الأوان فأضعفت هذه المتاعب بُنيتهن وقوّضت صحتهن وقصّرت حياتهن ؟ وهل تعرف عدد الأولاد الذين بقوا ضعفاء واهين لعدم تغذيتهم في جسم مكوّن تكويناً كافياً ؟ ومتى نما الولد والأم معاً ، وقسمت المادة اللازمة لنمو كل منهما ، فلم ينل هذا ولا ذاك ما قدرته له الطبيعة ، فكيف يمكن ألا يتأذى بهذا ؟ ولا يمدو الأمر حدّ كوني سيئ المعرفة بإميل أو حدّ كونه سيفضّل حيازة امرأة وأولاد أقوياء بعد حين على إشباع هلمه ضرراً بحياته وصحته .

« ولنتكلم عنك ، فإذا كنت ترنو إلى حال الزوج والأب فهل أنعمت النظر في واجباته ؟ متى أصبحت ربّاً لأسرة صرت عضواً في الدولة ؟ وما معنى عضو في الدولة ؟ أتعرف ذلك ؟ لقد درّست واجباتك كرجل ، ولكن أتعرف واجبات المواطن ؟ وهل تعرف ما الحكومة والقوانين والوطن ؟ وهل تعرف ثمن السماح لك بالحياة ، وفي سبيل من يجب أن تموت ؟ أنت تظن أنك تعلمت كل شيء ، ولا تزال غير

عارفٍ شيئاً ، وتَعَلَّمَ معرفةَ النظامِ المَدَنِيِّ والمكانِ الذي يَلْأَمُكَ فيه قبلَ اتِّخَاذِكَ هذا المكانَ .

« ويجب أن تترك صُوفِيَّةَ يا إميلُ ، ولا أقول أن تتخلَّى عنها ، فإذا كنتَ قادراً على ذلك كانت سعيدةً جداً بعدم الزواج بك الآن ، ويجب أن تتركها لتعودَ جديراً بها ، ولا تكن من الاغترار ما تَظُنُّ معه أنك تستحقُّها ، وى ! ما أكثر ما بَقِيَ عليك أن تَصْنَعَ ! فَتَعَالَ وقُمْ بهذا العملِ النبيلِ ، وتَعَالَ واصْبِرْ على الغيابِ ، وتَعَالَ واكْسِبْ ثَمَنَ الوفاءِ ، فإذا ما رَجَعْتَ أَثْبَتْنَاكَ أن تُكْرِمَ نَفْسَكَ بشيءٍ لَئِيهَا وأن تَطْلُبَ يَدَهَا طَلَبَ مَكافأةٍ لا لُطْفٍ » .

ولا يذعنُ القَتَى ، وهو يقاومُ ويناضِلُ ، وَلَمَّا يُمرَّنْ على مكافئةِ نفسه ، وَلَمَّا يُعوِّدْ أن يَرْغَبَ في شيءٍ وأن يُريدَ شيئاً آخرَ ، وَلِمَ يَرْفُضُ سعادةً تنتظره ؟ أَلَا يَعْنِي تأخيرُ قبولِ اليدِ التي قُدِّمَتْ إليه ازدياءُ لهذه اليدِ ؟ وما الضرورةُ إلى الابتعاد عنها لِيَتَعَلَّمَ ما يَجِبُ أن يَعْرِفَ ؟ وإذا كان هذا ضرورياً فَلِمَ لا يُتْرَكُ له عَهْدُهُ المَوْكَدُ لَعَوْدِهِ بِالْعُرَى الوُثْقَى التي لا انفصامَ لها ؟ وَلَيْسَ كُنْ زوجاً لها وهو يَكُونُ مستعداً لاتباعِ ، وَلِيَقْتَرَنَا ، وهو يتركها بلا وَجَلٍ ... وأقولُ له : « يا للتناقضِ في تزويجها وتركها يا إميلُ العزيز ! إن من الجميلِ أن يَقْدِرَ العاشقُ على العيشِ من غيرِ خليلته ، وأما الزوجُ فلا يَجُوزُ له أن يَتْرَكَ زوجته بلا ضرورةٍ مطلقاً ، وأرى لِشِفَاءِ وساوسِكَ أن تكونَ مُهْلِكٌ غيرَ إراديةٍ فَنَسْتَطِيعُ أن نقولَ لصُوفِيَّةٍ إنك تتركها على الرغمِ منك ، حَسَنًا ! كُنْ

راضياً ، وأعرف لك معلماً آخر ما دمت لا تطيعُ العقل ، وأنت لم تنسَ العهدَ الذي قطعته لي ، ولا بدُّ من ترك صُوفية يا إميلُ ، وهذا ما أريد .
سمِعَ هذه الكلمة ، فخَفَضَ رأسه وسَكَتَ وَسَبَحَ في الخيالِ دقيقةً ،
ثم قال لي وهو يَنْظُرُ إليَّ مطمئناً : « ومتى يَجِبُ أن نَرْحَلَ ؟ » ،
وأقول : « في مدة أسبوعٍ ، ولا بدُّ من إعداد صُوفية لهذا الرَّحيل ،
فالنساء أكثرُ ضعفاً ، ولا بدُّ من مداراتهن ، وبما أن هذا الغيابَ ليس
واجباً عليها كما هو علينا فإنه يُباح لها أن تحتله بشجاعة قليلة » .

ولم أبلغ من الإغواء بالتطويل حتى فصّلي عن فتَيَانِي يوميةً معاشقهم ،
ولكنني ما قَتِيتُ منذ زمنٍ طويلٍ أغرُّ بمساحة القراء ، فَلَأَلْتَزِمَ جانبَ
الاختصار حتى أنتهي من القصة مرةً ، وهل يَجْرُؤُ إميلُ أن يُبْدِيَ
لصاحبتَه ما أبداه لصديقه من يقين ؟ أما أنا فأذهبُ إلى هذا ، فمن حقيقة
حُبِّه نفسها ما يجب أن يستنبط هذا اليقين ، وهو يَكُونُ أكثرَ ارتباكاً
أمامها لو كان أقلَّ اكتراناً لترُكها ، وذلك أنه يترُكها مذنباً ما ربَكَ هذا
الدَّوْرُ الفَوادِ الصالح دائماً ، يَبْدُ أن التضحية كلما كَلَفَتْه كثيراً باهى بها أمام
تلك التي جعلتها له أمراً شاقاً ، وهو لا يَخْشَى أن تُخْطِئَ في فهم الباعث
الحافِزِ له على عَزْمِهِ ، فيلُوح أنه يقول لها عند كلِّ نظرةٍ : « أي صُوفية !
اقرئي في فَوادِي ، وكوني وُفِيَّةً لي ، فليس عاشقك بلا فضيلة » .

وتحاول صُوفيةُ الأنوفُ ، من ناحيتها ، أن تحتل ، مع الوقار ، ما وُجِّهَ
إليها من ضربةٍ غيرٍ منتظرة ، وتبذلُ جُهدَها أن تبدُو غيرَ متأثرةٍ بها ،
ولكن بما أنه لم يَكُنْ لها ، كما كان لإميل ، شرفُ المبارزة والفوز فإنها

لم تطق الصدمة ، فتبكي وتنثني على الرغم منها ، وما يُخامرُها من خشية نسيانها يزيدُ ألمَ الفراق ، وليس أمام عاشقها ما تبكي ، وليس له ما تبدي مخاوفها ، وهي تُفصل أن تختنق على أن تدع أنه تفلت منها أمامه ، وإنما أنا الذي يتلقى شكواها ويرى دموعها ، وإنما أنا الذي تظهرُ اتخذاه نجياً لها ، ومن خصائص النساء أن يكنَّ حاذقاتٍ فيعرفن أن يتنكرن ، فكلما كانت تتدبر من استبدادى خفية كانت تُغنى بمدارتي ، ولا عجب ، فهي تشمر بأني قابض على مصيرها .

وأُسليها ، وأُسكن روعها ، وأجعلُ نفسي مسؤولاً عن عاشقها ، وإن شئت فقل عن زوجها ، فلتحفظ له عينَ الوفاء الذي سيَحمله لها ، وسيكون لها في عامين ، وسيكون زوجاً لها في عامين كما أقسم ، وهي تحمِلُ لي من التقدير ما يكفي لاعتقادها أنني لا أريدُ مخادعتها ، وأنا ضامنٌ لكلٍ منهما نحو الآخر ، وما عندهما من فزادٍ وفضيلة ، وما عندي من نزاهة ، وما عند والديها من ثقة ، أمورٌ تُلقى الطمأنينةَ فيها ، ولكن ما نفعُ العقل أمام الضعف ؟ فهما يفتقان كأنه قدرٌ على كلٍ منهما ألا يرى الآخر أبداً .

وهناك تذكرة صوفية حشرات أو كارييس وتظن أنها في مكانها ، ولا نُثر أمر هذه الماشق الخيالية في أثناء الغياب مطلقاً ، وأقول ذات يوم لصوفية : « أي صوفية ، تبادلِ الكتب أنت وإميل ، فأعطيه كتاب « تيماك » كيما يتعلم كيف يشابهه ، وليعطيك كتاب « الناظر » الذي تحب قراءته ، وادري فيهِ واجبات النساء الصالحات ، واذكري أن هذه الواجبات ستكون واجباتك في عامين » ، ويرى هذا التبادل الاثنين ويُنعِمُ عليهما

بالثقة ، وأخيراً يَحِلُّ اليومُ الكئيبُ ، فيَجِبُ الافتراق .

وحين الوداع بما نَقَى أبو صُوفِيَةِ الوَقُورُ الذي اتفقتُ معه على كلِّ شيءٍ ،
ثم يَخْتَلِي بِي ويقول لى هذه الكلماتِ بصوتٍ رصينٍ مع لهجةٍ مُوكَّدة :
« لقد صنعتُ كلَّ شيءٍ يُرْضِيكَ ، وقد عَرَفْتُ أَنَّي أَعْمِلُ رجلاً شريفاً ،
ولم يَبْقَ عندي غيرُ كلمةٍ أقولها لك ، وهى : ذَكْرٌ تَليْذِكُ بأنه وَقَعَ عَقْدَ
الزواجِ على فمِ ابنتى . »

ويا لَلْفَرَقِ فى هيئةِ العاشقين ! فأما إميلُ الصائلُ المشتعلُ الهائجُ
المضطربُ فينبِكي بصوتٍ عالٍ وَيَسْكُبُ سيولاً من الدموعِ على أَيْدِي الأبِ والأمِ
والبنتِ ويمانقُ مُنتَجِباً جميعَ من فى البيتِ ، وَيُكْرِّرُ ذاتَ الأمورِ ألفَ
مرةٍ بشيءٍ من الاختلالِ يُوجِبُ الضحكَ فى كلِّ مناسبةٍ أخرى ، وأما
صُوفِيَةُ العَبُوسُ الْمُتَقَنَّةُ الكائِيَةُ العَيْنِ الْقَائِمَةُ النَاضِرَةُ فَتَبْقَى سَاكِنَةً وَلَا
تَنْبِسُ بكلمةٍ وَلَا تَنْبِكي مطلقاً وَلَا تَرى أحداً حتى إميلَ ، ومن العبثِ
أَنْ يَتَنَاوَلَ يَدِيهَا وَأَنْ يَمَانِقَهَا ، قَدْ بَقِيَتْ فَاقِدَةً الْحَرَكَةَ غَيْرَ مُتَأَثِّرَةٍ بِدُمُوعِهِ
وَمَلَامَسَاتِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُ ، وَلَا غَرَوْ . فهو فى نظرها قد ذَهَبَ ، وما أَكْثَرَ
ما يكونُ هذا المنظرُ أعظمَ تَأْثِيراً من عَوِيلِ عاشقها المزعجِ وَحَسْرَاتِهِ الصاخبةِ !
وهو يراه ، وهو يَشْعُرُ به ، وهو محزونٌ منه ، وَأَجْرُهُ بِمَشَقَّةٍ ، ولو تَرَكَتهُ
دقيقةً أخرى ما رَضِيَ الانصرافَ ، وقد سَرَّنى أَنْ حَمَلَ معه هذه الصورةَ
الحزينةَ ، فَإِنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَنْتَسِى ما يَجِبُ عَلَيْهِ بِحُجُوبِ صُوفِيَةِ ذَكَرَهَا
كما شاهدها حين انصرافه فَوَجِبَ أَنْ يكونَ أَخْبَلَ الْفُؤَادِ إِذَا لم أَسْتَطِعْ
رَدَّهُ إِلَيْهَا .

السَّيَّاحَات

يُسْأَلُ هل من الحَسَنِ أَنْ يَسِيحَ الشُّبَّانُ ، وَيُجَادَلَ حَوْلَ هَذَا كَثِيرًا ،
ولو اقْتَرِحَ أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ غَيْرَ هَذَا فَسُئِلَ هل من الحَسَنِ أَنْ يَسِيحَ
الرجال لكان الجِدَالُ حَوْلَ هَذَا أَقْلًا مما حَوْلَ ذَلِكَ .

فَسُوهُ استعمالِ الكتبِ يَقْتُلُ العِلْمَ ، وذلك أَنَّ الناسَ ، إِذْ يَعْتَقِدُونَ
معرفةً ما يقرءون ، يمتدِّدون أَنَّهُمْ فِي غِنًى عَنِ تَعَلُّمِهِ ، وَلَا يَنْفَعُ كَثِيرٌ مِنْ
القراءة لغير صنْعِ جاهِلينَ مُعْجَبِينَ بِأَنفُسِهِمْ ، وَلَوْ نُظِرَ إِلَى جَمِيعِ عَصُورِ
الأدبِ مَا وُجِدَ عَصْرٌ يُطَالَعُ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا يُطَالَعُ فِي هَذَا العَصْرِ ،
وَمَا وُجِدَ عَصْرٌ يُسْتَفْرَضُ فِيهِ ذَلِكَ عَنْ قَلِيلِ عِلْمٍ كَمَا فِي هَذَا العَصْرِ ، وَلَا تَجِدُ
فِي جَمِيعِ أَوْرَبَةِ بِلَدًا تُطَبِّعُ فِيهِ كِتَابٌ فِي التَّارِيخِ وَالرَّحَلَاتِ كَمَا يُطَبِّعُ فِي
فَرَنْسَةٍ ، وَلَا تَجِدُ ، مَعَ ذَلِكَ ، بِلَدًا أَقْلًا مِنْ فَرَنْسَةٍ مَعْرِفَةً بِعَقْرِيةِ الأُمَمِ
الأُخْرَى وَطِبَائِعِهَا ، وَكَثِيرٌ مِنَ الكُتُبِ مَا يَحْمِلُنَا عَلَى إِهْمَالِ كِتَابِ العَالَمِ ،
أَوْ إِنَّا إِذَا مَا قَرَأْنَاهُ اسْتَمْسَكْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِصَحِيفَتِهِ ، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهُ
« أَيْمَنُكُنِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ فَارْسِيًّا ؟ » بِمُجْهُولَةٍ لَدِيَّ لَا نَصْرَفُ ذَهْنِي ،
عِنْدَ سَمَاعِهَا ، إِلَى صُدُورِهَا عَنِ الْبِلَدِ الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ الْبِلَدَانِ خُضُوعًا
لِلْمُبْتَسَّرَاتِ الْقَوْمِيَّةِ وَعَنْ أَكْثَرِ الْجَنَسِينَ نَشْرًا لَهَا .

وَيُظَنُّ الْبَارِيسِيُّ أَنَّهُ يَعْرِفُ النَّاسَ مَعَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ نَفْسِهِ ، وَهُوَ
يَعُدُّ فِي مَدِينَتِهِ ، الزَّاخِرَةَ بِالْأَجَانِبِ دَائِمًا ، كُلَّ أَجْنَبِيٍّ حَادِثًا حَيًّا لَا مِثِيلَ
لَهُ فِي الْعَالَمِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَى بُرْجُوزِيَّةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْكُبْرَى عَنْ

كُتِبَ ، ولا بُدَّ من العيش معهم ، لِيُرَى كيف يُمكن الواحد أن يكون غنياً بمقدار ما هو ذكيٌّ ، ووجهُ الغرابة في الأمر هو أن كلَّ واحدٍ منهم قرأ عشرَ مراتٍ على ما يحتمل وصفاً للبلد الذي يُشيرُ الواحدُ من سُكَّانه عَجَبَهُ . ومن الأمور الشاقة كثيراً كشفُ مُبْتَسِرَاتِ المؤلفين ومُبْتَسِرَاتِنَا معاً للوصول إلى الحقيقة ، وقد قضيتُ حياتي في مطالعة كُتُبِ السياحة فلم أجدْ اثنين منها ، قطُّ ، قد أعطاني عينَ الفكرة عن عينِ الشعب ، وإني ، حين قابلتُ بين القليل الذي استطعتُ ملاحظته بما كنتُ قد قرأتُ ، انتهيتُ إلى تركِ الشَّيَاحِ هنالك أسفاً على الوقت الذي أنفقتُ في التعلُّم من كتبهم ، معتقداً أنه يجب أن يُرى الشيء ، لا أن يُقرأ ، في الأمور القائمة على الملاحظة من كلِّ نوع ، ويكونُ هذا صحيحاً في مثل هذه الحال حين يكون جميع الشَّيَاحِ مخلصين فلا يَروون غيرَ ما يَروون أو ما يعتقدون ولا يُنكروُن الحقيقة بما تَتَخَذُ في عيونهم من ألوان زائفة ، وما يكون ذلك إذا ما وَجَبَ تمييزُ الحقيقة من خلال أكاذيبهم وسوء نيتهم !

ولَتَنَرُكْ ، إذنْ ، وسيلةَ الكتبِ التي يُباهى بها عندكم لِمَنْ كُوتُوا للاكتفاء بها ، فهي صالحةٌ ، صلاحَ فنِّ رِيْمُون لُول ، لتعلُّمِ الهذَرِ حَوْلَ ما لا يُعرفُ مطلقاً ، وهي صالحةٌ لتعليمِ الأفلَاطُونيين البالغين من العُمُر خمسةَ عشرَ عاماً أن يَتَفَلَسَفُوا في الأندية ولإطلاعِ الناس على عادات مصرَ والهندِ وَفُقَ ما قرَّره بُول لُوقَا أو تافرَنييه .

ومن المبادئ المُسَلَّم بها عندى أن من لم يَرِ غيرَ أُمَّةٍ لا يَعرِفُ سِوَى مَنْ عاش معهم بدلاً من أن يَعرِفَ الرجال ، وإليك ، إذنْ ، وجهاً آخرَ

لَوْضَعُ عَيْنِ المسئلة عن السياحات ، وهى : أَيْكْفَى الرجلَ الحسنَ التَّنَشُّطَ أَلَا يَعْرِفُ
غَيْرَ مواطنيه ، أم إن من المهمَّ أن يَعْرِفَ الناسَ على العموم ؟ عاد لا يكون
هنا شكٌّ ولا جدال ، وروا مقدارَ ما يتوقَّف حلُّ المسئلة الصعبة ، أحياناً ،
على الوجه الذى تُوَضَّعُ به .

ولكنْ أَيْجِبُ أنْ يُطَافَ فى جميع الأرض لدراسة الناس ؟ وهل يَجِبُ
الذهابُ إلى اليابان لملاحظة الأوربيين ؟ وهل من الواجب معرفة جميع الأفراد
لمعرفة النوع ؟ كَلَّا ، وإنما يوجد من الناس مَنْ يتشابهون كثيراً فلا ضرورة
لدرسهم على انفراد ، ومن رأى عشرة فرنسيين فكأنما رأى الفرنسيين جميعاً ،
ومع أنه لا يُمَكِّنُ أن يقال عن الإنكليز وبعض الأمم الأخرى ما يقال
عن أولئك فإن من الثابت أن لكلِّ أمةٍ سَجِيَّتَها الخاصة بها المُمَيِّزَةُ لها
والتي تُسْتَنْبِطُ بالاستقراء القائم على ملاحظة كثيرٍ من أفرادها ، لا على فردٍ
واحدٍ منها ، وَمَنْ يقارنُ بين عشر أُمَمٍ يَعْرِفُ الرجال ، كما أن الذى يَرى
عشرة فرنسيين يَعْرِفُ الفرنسيين .

ولا يَكْفَى الطَّوْفُ فى البلدان للوقوف عليها ، وإنما يجب أن يَعْرِفَ
كيف تكون السياحة ، وتستلزم للملاحظة وجودَ عيونٍ وتوجيهَ هذه العيون
نحو الموضوع الذى تُرادُّ معرفته ، ويوجدُ كثيرٌ من الناس من تَعَلَّمَهُم
الرَّحَلَاتُ أَقْلٌ ممن تَعَلَّمَهُم الكتب ، وذلك لأنهم يَجْهَلُونَ فنَّ التفكير ،
ولأن ذهنهم يُوجَّهُ فى المطالعة من قِبَلِ اللُّؤْلُفِ على الأقلِّ ، ولأنهم
لا يَعْرِفُونَ أن يَرَوْا فى الرَّحَلَاتِ شيئاً بأنفسهم ، ويوجدُ آخرون لا يتعلَّمُونَ
شيئاً لأنهم لا يريدون أن يتعلَّمُوا ، وَيَبْلُغُ موضوعهم من الاختلاف عن

ذلك ما لا يَقِفُ نظرهم معه مطلقاً ، ومن المصادفة العظيمة إذا ما رَأَوْا
تماماً ما لا يبالون برؤيته مطلقاً ، والفرنسيُّ ، بين جميع أمم الأرض ، هو
أكثرُ مَنْ يَسِيحُ ، ولكن بما أنه طافحٌ بعبادته فإنه يَخْلُطُ بين جميع
ما لا يشابهها ، ويوجدُ فرنسيون في جميع زوايا العالم ، ولا يُوجدُ بلدٌ مشتملٌ
على أناس قاموا بسياحات كمن تشتمل عليهم فرنسا ، ومع ذلك فإنك
لا ترى بين جميع أمم أوربة كالفرنسيين من تَقِلُّ معرفتهم للأمم على الرغم
من كونهم أكثر الأمم مشاهدةً لها .

والإنكليزيُّ يَسِيحُ أيضاً ، ولكن على طرازٍ آخر ، فوَجِبَ أن تَكُون
هاتان الأمتان متناقضتين في كلِّ شيء ، فأشرافُ الإنكليز يَسِيحُونَ ،
وأشرافُ الفرنسيين لا يسيحون مطلقاً ، وأهلُ فرنسا يَسِيحُونَ ، وأهلُ
إنكلترة لا يسيحون مطلقاً ، وللإنكليز فخرٌ بهذا الاختلاف كما يَظْهَرُ لى ،
والفُحْمُ تقريباً هو ما يَهْدَفُ إليه الفرنسيون في سياحاتهم دائماً ، ولكن
الإنكليز لا يَبْتَغُونَ الثراء لدى الأمم الأخرى مطلقاً ، ما لم يكن هذا عن
تجارةٍ ومع امتلاء يدٍ ، فهم إذا ما ساحوا كان هذا لإتفاق ما لهم ، لا ليعيشوا
بجيلةٍ ، وهم من الزَّهْوِ ما لا يَتَمَسَّكُونَ معه خارجَ بلادهم ، ومن شأنِ
هذا أن يكون تعلمُهم لدى الأجنبيِّ أفضلَ مما يَتَّفِقُ للفرنسيين الذين يَدُور
في رؤوسهم غَرَضٌ آخرٌ ، ومع ذلك فإن للإنكليز مَبْتَسِرَاتِهِم القومية ،
حتى إن لديهم منها أكثر مما لدى أىِّ إنسانٍ كان ، غير أن هذه
المبْتَسِرَاتِ قائِمةٌ على الهوى أكثر مما على الجهد ، وللإنكليزيِّ مَبْتَسِرَاتُ
الكِبْرِيَاءِ والفرنسيِّ مَبْتَسِرَاتُ الخِيَلَاءِ .

وبما أن أقلّ الأمم ثقافةً أكثرها حكمةً على العموم فإن أقلّها سياحةً أفضلها سياحةً ، وذلك بما أنها أقلُّ منا تقدُّماً في المباحث التافهة وأقلُّ اشتغالاً بأمور فضولنا الفارغ فإنها توجّه جميع انتباهها إلى ما هو مفيدٌ حقاً ، ولا أعرف غيرَ الإسبان من يسيحون على هذا الطراز ، فبينما يُهرعُ الفرنسيُّ إلى مُتَنفَى البلد ، وبينما يَحْضُلُ الإنكليزيُّ على نُسخٍ عن العاديّات ، وبينما يَحْمِلُ الألمانيُّ أَلْبُومَهُ* لدى جميع العلماء ، يَدْرُسُ الإسبانيُّ صامتاً الحكومةَ والطبائعَ والضابطةَ ، والإسبانيُّ هو الوحيدُ بين الأربعة من إذا عاد نَقَلَ ما شاهدَ بعضَ الملاحظات المفيدة لبلده .

وكان القدماء قليلي السياحة قليلي المطالعة قليلي التأليف ، ومع ذلك فإنه يُرَى فيما بَقِيَ لنا منهم أنهم كانوا يلاحظون بعضهم بعضاً ملاحظةً أفضلَ من ملاحظتنا مُعاصرينا ، وإنا ، من غير رجوعٍ إلى تأليف أوميرس ، هذا الشاعرَ الوحيدَ الذي يَنْقُلُنَا إلى البلاد التي بَصَفَهَا ، لا نستطيع أن نَحْبِسَ عن هيرودّس شرفَ تصويره الطبائع في تاريخه ، ومع أن هذا كان بطريق الخَبَرِ أكثرَ مما يأنعام النظر فإنه أفضلُ مما يَصْنَعُ مؤرخونا الذين يَشْحَنُونَ كُتُبَهُم بالرسوم والحروف ، وقد وصف تاسيتُ جِرْمَانَ زمنه بما لم يَصِفْ به كاتبُ المَمانَ الوقتِ الحاضر ، ولا مرءاء في أن الذين يُكَبِّونَ على التاريخ القديم يَعرِفون الأغارقةَ والقرطاجيين والرومان والغوليين والفرس معرفةً أحسنَ من معرفة أئمةٍ في الوقت الحاضر لجاراتها .

وبما يَجِبُ أن يُعترفَ به أيضاً أن أخلاقَ الأمم الأصليةَ تَرُولُ يوماً

بعد يوم ، فيصيرُ إدراكُها أكثرَ صعوبةً ، وكلما امتزجت العروقُ واختلطت
الأمُّ رُئى بالتدريج زوالُ هذه الفروق القومية التي كانت تَقِفُ النظرَ أولَ
وهلةٍ فيما مضى ، وكانت كلُّ أمةٍ في الماضي أكثرَ اقتصاراً على نفسها ،
فقد كانت الأمُّ أقلَّ اتصالاً وأسفاراً ومصالحَ مشتركةً أو متباينةً وأقلَّ
صلاتٍ سياسيةً وعلائقَ مدنيةً ، وقد كانت أقلَّ علماً بهذه القرَعات
الملَكية التي تُسمَّى مفاوضاتٍ ، وكان لا يُوجدُ سفراءُ عاديون أو مُقيمون
دائمون ، وكان كبارُ المَلّاحين نادرين ، وكانت التجارةُ القاصيةُ قليلةً ، وما
كان من هذه التجارة القليلة يُقوم به الأميرُ نفسه ، فيستَخدم فيها أناساً
من الأجانب أو أناساً أدلةً لا تأثيرَ لهم في الآخرين ولا يكونون للأمِّ
جامعين ، وما بين أوربة وآسية من صِلاتٍ في الوقت الحاضر أكثرُ مئةً
مرةً مما كان بين إسبانية وبلادِ النُؤل ، وكانت أوربةُ وحدها أكثرَ
تفرُّقاً من جميع الأرض في أيامنا .

وبإلى ذلك أضيفوا أن الأمِّ القديمة ، إذ كانت تعدُّ نفسها في الغالب
سُكَّاناً أصليين لبلادها الخاصة ، كانت تشغلُ هذه البلادَ منذ زمنٍ طويلٍ
نحوًا لذكرى القرون البعيدة التي فيها استقرَّ أجدادُها بها ، وترَكَّا للإقليم
من الوقت ما يجعلُ فيها انطباعاتٍ دائمةً ، وذلك بدلاً من كون مهاجرات
البرابرة الحديثة قد مرَّجتْ كلَّ شيءٍ وخلطتْ كلَّ شيءٍ بيننا بعد غزوات
الرومان ، وعاد فرنسيو اليوم لا يكونون ذوى أجسام طويلة شترٍ بيض
كما في الماضي ، وعاد الأغارقة لا يكونون أولئك الآدميين الحسان الذين
صنَعُوا ليصلَحُوا نماذجَ للفنِّ ، وقد غيَّرتْ وجوهُ الرومانِ أنفسهم طابعها

كما غَيَّرُوا طِبَاعَهُمْ ، وَيَفْقِدُ الْفُرْسُ ، الَّذِينَ يَرْجِعُ أَصْلُهُمْ إِلَى بِلَادِ التَّتَرِ ، كُلَّ يَوْمٍ ، شَيْئًا مِنْ شِنَاعَتِهِمْ الْأُولَى بِاخْتِلَاطِ الدَّمِ الشَّرْكَسِيِّ ، وَعَادَ الْأُورَبِيُّونَ لَا يَكُونُونَ غُولِيِّينَ وَلَا جِرْمَانًا وَلَا إِبِيرِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأَلُتُوبُورِجِ ، وَإِنَّمَا هُمْ مِنَ الشَّيْتِ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا تَحْوُلًا مِنْ حَيْثُ الْوَجْهُ وَالْأَخْلَاقُ .

وهذا هو السبب في كَوْنِ الْفُرُوقِ الْقَدِيمَةِ بَيْنَ الْعُرُوقِ ، وَفِي كَوْنِ خِصَائِصِ الْهَوَاءِ وَالْأَرْضِ ، كَانَتْ تَمَيِّزُ أَقْوَى تَمَيِّزٍ بَيْنَ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ فِي الْأَمْرِجَةِ وَالْوَجْهِ وَالطَّبَائِعِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَظْهَرَ هَذَا فِي أَيَّامِنَا الَّتِي لَا يَدْعُ فِيهَا تَقَلُّبُ الْأُمُورِ فِي أَوْرَبَةٍ لِأَيِّ دَائِعٍ طَبِيعِيٍّ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَطْبَعُ فِيهِ طَابَعُهُ ، وَالَّتِي عَادَتْ فِيهَا الْغَابَاتُ الْمُخْتَبِطَةُ وَالْمُسْتَنْقَعَاتُ الْمُجَفَّفَةُ وَالْأَرْضُ الْمَرْزُوعَةُ عَلَى تَمَطٍّ وَاحِدٍ ، مَعَ سُوءِ فَلَاحَةٍ ، لَا تَدْعُ ، حَتَّى فِي الظَّهْرِ الطَبِيعِيِّ ، عَيْنَ الْفَرْقِ بَيْنَ أَرْضٍ وَأَرْضٍ ، وَبَيْنَ بَلَدٍ وَبَلَدٍ .

وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ ، إِذَا مَا نُظِرَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ التَّأَمُّلَاتِ ، يُتَوَرَّعُ بَعْضُ الشَّيْءِ عَنْ تَحْوِيلِ هِيرُودُتُسَ وَكَيْتِيرِيَّاسَ وَيَلِيسِيَّ إِلَى مَهْزَاةٍ لَأَنَّهُمْ عَرَضُوا سُكَّانَ مُخْتَلَفِ الْبِلَادِ بِأَوْصَافٍ أَصْلِيَةٍ وَفُرُوقٍ بَارِزَةٍ عُدْنَا لَا تَجِدُهَا فِيهِمْ ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى عَيْنِ الْآدَمِيِّينَ لِتُعْرَفَ فِيهِمْ عَيْنُ الْوَجْهِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَدَمِ تَعْيِيرِ شَيْءٍ لَمْ حَتَّى يَكُونُوا قَدْ بَقُوا عَيْنَ النَّاسِ ، وَإِذَا مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَنْظُرَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ كَانُوا فَهَلْ مِنَ الْمُسْكَنِ أَنْ نَشْكَّ فِي أَنَّا نَجِدُ فُرُوقًا بَيْنَ قَرْنٍ وَقَرْنٍ أَعْظَمَ مِمَّا نَجِدُ الْيَوْمَ بَيْنَ أُمَّةٍ وَآخَرَى ؟

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَفَدُّو فِيهِ هَذِهِ الْمُلَاحَظَاتُ أَكْثَرَ صَعُوبَةً يَتِمُّ أَمْرُهَا

تماماً أكثر إهمالاً وأعظم سوءاً ، وهذا سبب آخر لقلة نجاح مباحثنا في التاريخ الطبيعي للجنس البشري ، وتتوقف المعارف التي تُكتسب من السياحات على الغرض الذي أوجب هذه السياحات ، فإذا كان هذا الغرض نظاماً فلسفياً لم ير السائح غير ما يريد أن يرى ، وإذا كان هذا الغرض مصلحة استغرقت جميع انتباهه من يُكبِّون عليها ، ومن شأن التجارة والفنون التي تمرّج الأمم وتخلط بينها أن تحوّل دون دراسة بعضها لبعض ، فإذا عرفت هذه الأمم كيف ينتفع بعضها من بعض فما زيادة المعرفة التي تحتاج إليها ؟

ومما ينفَع الإنسان أن يعرف جميع الأماكن التي يُمكن أن يعيش فيها حتى يختار ، فيما بعد ، أيها يستطيع أن يعيش فيه بأكثر ما يكون سهولةً ، وإذا كان كل واحدٍ يكفي نفسه بكده لم يهيمه غير معرفة اتساع البلد الذي يُمكن أن يُغذّيه ، وأما الهمجي الذي لا يحتاج إلى أحد ولا ينشوّف إلى شيء في الدنيا فإنه لا يعرف ، ولا يحاول أن يعرف ، بلاداً أخرى غير بلده ، وهو إذا ما اضطرّ إلى التوسّع ليعيش تجنّب الأماكن العامرة بالناس وتعمّق البهائم ولم يحتج إلى غيرها ليفتدي ، وأما نحن الذين يحتاجون إلى الحياة المدنية والذين عادوا لا يستغنون عن افتراس الناس فإن من مصلحة كل واحدٍ منا أن تتردّد إلى البلاد التي يوجد فيها من الآدميين أكثر ما يُفترس ، ولذا فإن الجميع يتقاطرون إلى رومة وباريس ولندن ، وفي العواصم دائماً ، يُباع الدم البشري بأخص ما يكون ثمناً ، وهكذا فإنه لا يُعرف غير الأمم الكبرى ، والأمم الكبرى تتشابه كلها .

ويقال إن عندنا من العلماء من يسيحون لينتفعوا ، وهذا خطأ ، فالعلماء يسيحون عن منفعة كالآخرين ، وعاد الأفلاطونون والفيثاغورون لا يوجدون ، أو إنهم إذا وجدوا كانوا منا بعيدين ، ولا يسيح علماءنا إلا بأمر من البلاط ، وهم يرسلون على عجل وتدفع إليهم نفقات سفرهم ، ويؤدّون إليهم مال حتى يروا هذا الشيء أو ذاك الشيء الذى ليس موضوعاً خلقياً ، وهم يقضون جميع وقتهم فى هذا الأمر الوحيد ، وهم من الصلاح البالغ ما لا يسرقون معه ما يعطونه ، وإذا حدث فى بلد ما أن ساح أناس من محبى الاطلاع على نفقتهم الخاصة كان هذا لتعليم الناس ، لا لدراساتهم مطلقاً ، وليس العلم هو ما يحتاجون إليه ، بل الافتخار ، وكيف يتعلمون فى سياحاتهم أن يلقوا نير المبتسر عنهم ؟ والمبتسر هو الذى يقومون بسياحاتهم من أجله .

ويوجد فرق بين السياحة من أجل مشاهدة البلد الأجنبى ومشاهدة الأمم الأجنبية ، فالأمر الأول هو ما يقوم به ذوو الفضول دائماً ، ولا يكون الأمر الثانى عندهم إلا ثانوياً ، وعكس هذا ما يجب أن يكون لمن يريد أن يتفلسف ، والولد يلاحظ الأشياء منتظراً وقت قدرته على ملاحظة الناس ، ويجب أن يبدأ الرجل بملاحظة أمثاله ، ثم يلاحظ الأشياء إذا ما سمح له الوقت بذلك .

ومن سوء البرهنة ، إذن ، أن يستنتج كون السياحات غير مفيدة لأننا نرى السياحة ، ولكنه إذا سلم بفائدة السياحات فهل يعنى هذا ملاءمتها لجميع الناس ؟ كلا ، وإنما تلائم عدداً قليلاً جداً من الناس ،

وإنما تلائم الرجال الذين يكونون من قوة النفس ما لا يُفَوِّنُ معه إذا سَمِعُوا دروسَ الخطأ ، وما لا يُجَذَّبُونَ معه لمشال العيب إذا ما رَأَوْهُ ، والسياحاتُ تَدْفَعُ الجِبِلَّ إلى مِثْلِهِ وتُكْمِلُ جَعَلَ الرجلَ صالحاً أو طالحاً ، وَمَنْ يَرْجِعُ من الطَّوْفِ في العالمِ يَكُنْ عندَ عَوْدَتِهِ ما يَكُونُهُ مَدَى حياته ، أى إنه يَرْجِعُ من الطوافِ أشراراً أكثرَ من الصالحين ، وذلك لأن من يقومون بالسياحة يكونون عند انطلاقتهم أكثرَ ميلاً إلى الشرِّ مما إلى الخير ، وَمَنْ يَكُنْ من الشبان سيئُ التَّشْتِةِ سيئُ السلوكِ فإنه يَقْتَبِسُ في سياحاته جميعَ عيوبِ الأمِّ التي يَعاشرُها ، ولا يَقْتَبِسُ واحدةً من الفضائلِ التي تمازجُ هذه العيوبَ ، ولكنَّ مَنْ هم سَعْدَاءُ مَوْلِدًا ، وَمَنْ أَحْسَنَ بالتربيةِ تَهْدُ جِبِلَّتَهُمُ الصَّالِحَةَ ، فَيَسِيحُونَ بقصدِ التَّنَقُّفِ حقاً ، يَعُودُونَ كُلُّهُمْ أَكْثَرَ صلاحاً وأعظمَ مما كانوا عليه عند بدءِ سفرهم ، فهكذا سَيَسِيحُ إميلُ ، وهكذا كان قد ساحَ ذلك الشابُّ الجديرُ بأفضلِ القرون ، فَأُعْجِبَتْ أُرْبَةُ الدَّهْشَةِ بمزيمته ، ذلك الشابُّ الذي مات في مِيعَةِ شبابه من أجلِ بلده ، ولكن مع استحقاقه أن يَعيشَ ، ذلك الشابُّ الذي كان قبرُهُ ، المَزِينُ بفضائله وحدها ، ينتظرُ يداً أجنبيةً تَكْرِمُهُ بِنَثْرِ أزهارٍ عليه .

ويجب أن يكون لكلِّ ما يُفْعَلُ بالعقلِ قواعدهُ ، وإذا ما عُدَّتِ الرِّحلاتُ قِسْماً من التربيةِ وَجَبَ أن تكونَ لها قواعدها ، والسياسةُ للسياسةِ تَعْنِي تَسَكُّماً وَتَشَرُّداً ، وكذلك السياسةُ للتعلُّمِ تنطوي على أمرٍ غامضٍ جداً ، ولا تُعَدُّ السياسةُ الخاليةُ من الغايةِ شيئاً مذكوراً ، وكنت أودُّ مَنَحَ التَّيِّ غَرَضاً خاصاً في التعلُّمِ ، وهذا الغرضُ إذا ما أَحْسِنَ اختيارُهُ قَرَّرَ طبيعةَ

التعلُّمُ أيضاً ، وهذه تكلّةٌ للمنهاج الذي حاولتُ مزاولةً دائماً .
والواقعُ أنه بقيَ له أن يَنْظُرَ إلى أمره من حيث علاقتهُ بمواطنيه بعد
أن نظَرَ إليه من حيث علاقتهُ الماديةُ بالموجودات الأخرى ، ومن حيث
علاقتهُ الأدبيةُ بالناس الآخرين ، ولذا فإنه يجبُ أن يبدأ بدراسة طبيعة
الحكومة على العموم ، وبدراسة مختلف أشكال الحكومة ، ثم بدراسة الحكومة
الخاصة التي وَلِدَ في كنفِها وذلك ليعْرِفَ هل يلائمه العيشُ تحت ظلِّها ،
وذلك لأن كلَّ إنسانٍ إذا ما بلغَ سنَّ الرُّشدِ وصار سيدَ نفسه أصبحَ ،
وَفَقْ حَقٍّ لا يستطيعُ شيءٌ أن يُبْلِغِيه ، سيداً أيضاً في المدوّل عن التقد الذي
يَرْتَبِطُ به في المجتمع بتركه البلدَ المُسْتَقَرَّ به ، وليس بغير إقامته ببلده بعد
سِنٍّ رشده ما يُعدُّ مؤيِّداً تأييداً ضَمْنِيّاً للعهد الذي اتخذهُ أجداده ، وهو
يَكْتَسِبُ حَقَّ النزولِ عن وطنه كما يَتَنَزَّلُ عن ميراث أبيه ، ثم بما
أن مكان المَوْلادِ هِبَةٌ من الطبيعة فإنه إذا ما تَخَلَّى عنه يكون قد تَخَلَّى عن
أمرٍ خاصٍّ به ، وإذا ما نُظِرَ إلى الأمر من حيث الحقُّ الوثيقُ وَجِدَ أن
كلَّ إنسانٍ يَظُلُّ خُراً على مسؤوليته في أيِّ مكانٍ وَلِدَ فيه ، وذلك
ما لم يَخْضَعْ مختاراً للقوانين نَبِيلاً لِحَقِّ حمايتها إياه .

ولذا فإنني أقولُ له مَثَلًا : « لقد عِشْتَ تحت إدارتي حتى الآن ،
وقد كنتَ عاجزاً عن تدير أمركَ بنفسك ، بيدَ أنك تَدْنُو من العمر الذي
تَبْرُكُ لك القوانينُ فيه حَقَّ التصرف في مالك فتجعلُك وليَّ أمركَ ،
وتُوشِكُ أن تَجِدَ نَفْسَكَ وحيداً في المجتمع تابِعاً لكلِّ شيءٍ حتى لنفسك ،
وترغبُ في الزواج ، وهذه الرغبةُ جديرةٌ بالثناء ، وهي من واجبات الرجل

ولكن لا بدّ لك ، قبل أن تتزوَّج ، من أن تعرّف أى رجل تريد أن تكون ، وكيف تقضى حياتك ، وما التدابير التى تريد اتخاذها لضمان عيشك وعيش أسرّتك ، وذلك لأنه ، وإن كان لا ينبغي لنا أن نجعل من هذا الأمر همنا الرئيس ، يجب أن نُفكّر فيه مرة واحدة ، وهل تريد أن تكون تابعاَ لأناسٍ تزدريهم ؟ وهل تريد توطيد ثروتك وثبيت وضعك بصِلاتٍ مدنية تجعلك تحت تصرف الآخرين بلا انقطاع ، فيَحْمِلُوكَ على أن تكون مَكَّاراً اجتناباً للماكرين ؟ .

وفوق ذلك فإننى سأبيّن له جميع الوسائل الممكنة لاستغلال ماله سواء أفى التجارة أم فى التكاليف أم فى المالىة كما أننى سأبيّن له أنه لا يوجد فى هذه الأمور ما لا ينطوى على خطرٍ يناله ، وما لا يضعه فى حالٍ تابعٍ غير ثابت ، وما لا يُنظّم به طباعه ومشاعره وسلوكه على غرار الآخرين ومُبْتَسِرَاتِهِمْ .

وسأقول له : « تُوجَدُ وسيلةٌ أخرى لاستعمال وقته وشخصه ، وهى أن يَلْتَحِقَ بالجيش ، أى أن يُوَجِّرَ نفسه بأجرٍ زهيد ليذهب فيقتل أناساً لم يصيبونا بأذى قط ، وهذه الحِرْفَةُ اعتبارٌ كبيرٌ بين الناس ، والناسُ يقيمون وزناً عجيبيّاً لمن لا يصلحون لغير هذا ، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الحِرْفَةُ تجعلك مُضْطَرّاً كلَّ الاضطرار إلى الوسائل الأخرى بدلاً من إعفائك منها ، وذلك لأنه يَدْخُلُ ضمن شرف هذه الحِرْفَةِ بَوَارُ من يَحْبِسُونَ أَنْفُسَهُمْ عليها ، أَجَلٌ ، إن البَوَارَ لا يُصِيبُهُمْ فيها جميعاً ، فمن المَوْضَةِ أن يُفْتَتَى فيها على وجهٍ غير محسوس كما فى الحِرْفَةِ الأخرى ، ولكننى أشكُّ فى

أتى ، إذا ما أَوْضَحْتُ لك السُّبُلَ التى يتخذها مَنْ يَنْجَحُونَ فيها ،
أَجْعَلُكَ مُوَلِّعًا بِتَقْلِيدِهِمْ .

« وَسَتَعْلَمُ ، كذلك ، أن الأمر فى هذه الحِرْفَةِ نَفْسُهَا عاد لا يَقُومُ
على الشَّجَاعَةِ ولا على القِيَمَةِ ، ما لم يكن هذا لدى النساء على ما يَحْتَمِلُ ،
وعلى العكس يُرَى أن الأَنْذَلَ والأسْفَلَ والأَذْلَ هو أَكْثَرُ مَنْ يُكْرَمُ
دائمًا ، فإذا ما عَنَّ لك أن تَسْلُكَ سَبِيلَ الصَّلاحِ والجِدِّ فى حِرْفَتِكَ
ازْدُرِيَتْ وَهِنَتْ وطُرِدَتْ على ما يَحْتَمِلُ ، أو ذهبتَ نَجْمَةً المحاباةِ فاغْتَصَبَ
زَمَلَاؤُكَ مَكَانَكَ وَحَمَلَتْ على القيام بِخِدْمَتِكَ فى الخِنادقِ على حين يقومون
بِخِدْمَتِهِمْ فى تَزْيِينِ أَنْفُسِهِمْ » .

ومن الشُّكُوكِ فيه أن تكونَ جميعُ هذه الخِدْمِ مِلَامَةً لِدَوَقِ إِمِيلَ ،
وسيقول لى : « ماذا ! أَنْسَيْتُ الْعَابَ صِبَاى ؟ وهل فَقَدْتُ ذِرَاعى ؟
وهل نَفِدَتْ قُوَّتى ؟ وهل عُدْتُ لا أَعْرِفُ الْعَمَلَ ؟ وما يُهْمِّشْنِي من
جميعِ خِدْمِكَ الجَمِيلَةِ وجميعِ مُبْتَسِرَاتِ النَّاسِ ؟ لا أَعْرِفُ مَجْدًا غَيْرَ كَوْنِي
مُحْسِنًا مُنْصَفًا ، ولا أَعْرِفُ سَعَادَةً غَيْرَ الْعَيْشِ مُسْتَقْلًا مع مَنْ أَحِبُّ كَأَسْبَابِ
كُلِّ يَوْمٍ صِحَّةً وَشَهْوَةً طَعَامٍ من عَمَلِي ، وما كانتَ جميعُ الهمومِ التى
تَكَلِّمُنِي عنها لَتَوَثَّرَ فىَّ مُطْلَقًا ، ولا أَرْغَبُ من الخَيْرِ فى غَيْرِ مَرْزَعَةٍ صَغِيرَةٍ
فى زَاوِيَةٍ من الدُّنْيَا ، وسَأَبْذُلُ جَهْدِي كُلَّهُ فى اسْتِغْلَالِهَا ، وسَأَعِيشُ بِبَلَاهِمٍ ،
وَأُعْطِيَنِي صُوفِيَةٌ وَحَقْلِي أَكُ غَنِيًّا » .

« — أَجَلْ ، يا صَدِيقِي ، يَكْفِي لِسَعَادَةِ الرَّجُلِ الْحَكِيمِ أن تكونَ له امْرَأَةٌ
وَحَقْلٌ ، بَيِّدَ أن هذه الكُنُوزَ غَيْرُ مَالُوفَةٍ ، كما تَظُنُّ ، مع أنها مُعْتَدَلَةٌ ،

وأندرُ الكنوزِ هو ما وجدتَ ، فلتكلمْ عن الآخر .

« حقلٌ لك يا إميلُ العزيز ! ففي أيِّ مكانٍ ستختارُهُ ؟ وهل تستطيع أن تقول في أية زاويةٍ من الأرض : « إني هنا سيدٌ نفسي وسيدُ هذه الأرض الخاصة بي » ؟ إتنا تعرِّفُ الأماكنَ التي يسهلُ على الرجل أن يصير غنياً فيها ، ولكن من يعرفُ المكانَ الذي يُستغنى فيه عن الفنى ؟ ومن يعرفُ المكانَ الذي يُمكنُ أن تُقضى فيه حياةٌ مستقلة طليقة من غير احتياجٍ إلى إيذاء أحدٍ ومن غير أن يُخشى تلقى أذى من أحد ؟ وهل تظنُّ أن من السهل كشفَ البلادِ الذي يُسمحُ للرجل فيه دائماً أن يكون صالحاً ؟ وإذا وُجدتْ وسيلةٌ شرعيةٌ مضمونة للعيش بلا مكرٍ ولا خصامٍ ولا خضوعٍ فإن هذا يعني ، كما أرى ، عيشاً بكداً اليد ، وذلك بزراعة الإنسان أرضه الخاصة ، ولكن أين الدولة التي يُمكنُ أن يقالَ فيها : « إن الأرضَ التي أطأها خاصةٌ بي » ؟ وتثبتُ ، قبل اختيار هذه الأرض المباركة ، في أنك تجدُ فيها السلامَ الذي تَشُدُّ ، واختَرِزُ من وجود حكومةٍ جافية ودينٍ جائرٍ وأخلاقٍ فاسدة تُنفِصُ عليك عَيْشَكَ في مكانك ، واجعلْ نفسك في حِرْزٍ من ضرائبٍ لا حَدَّ لها تلتهمُ ثمرَةَ أتعابك ، ومن قضايا لا نهايةَ لها تَسْتَفِدُّ رأسَ مالك ، واضنَعْ ، حين تقضى حياةً صالحةً ، ما لا تَنزَلُفُ معه إلى المدراءِ ومساعدِهِم ، وإلى القضاة والقساوسة والجيران الأقوياء ، وإلى أصناف الخبثاء ، الذين يستعدُّون ، دائماً ، لإيذائك إذا ما أهملتهم ، وضَعْ نفسك ، على الخصوص ، في مأمنٍ من جَنَفِ الكبراء والأغنياء ، ولا يَغِبْ عن بالك إمكانُ مجاورة أَرْضِيهِم

في كلِّ مكانٍ لكَرَمِ نَابُوتَ ، وإذا قَضَى سَوْءَ حَظِّكَ بأنَّ يَشْتَرِيَ ،
 أو يَبْنِيَ ، رجلٌ في الحُوْزَةِ بيتًا بالقرب من كوخك فهلْ تَجِيبُ بأنه لنْ يَجِدَ
 وسيلةً يَتَذَرَعُ بها للاستِلاءِ على تُرَاثِكَ لِيُثْرِيَ ، أو أنك لنْ تراه يَبْلُغُ جميعَ
 مواردك توسيعاً لطريق عامة ؟ وإذا كان لك من الاعتبار ما تَحْتَزُّ به
 من جميع هذه المحاذير أَمَكَنَّكَ أَنْ تَحْفَظَ أَرْزَاقَكَ لِمَا عَادَ حِفْظُهَا لَا يُكَلِّفُكَ
 شيئاً ، فكلُّ من الثراء والاعتبار يعتمد على الآخر تبادُلاً ، وَيَكُونُ ثَمَاسُكُ
 كلِّ منهما من غير الآخر سِئناً .

« وأنا أَكْثَرُ مِنْكَ تَجَرِبَةً يَا إِمِيلُ العَزِيزُ ، وأنا أَحْسَنُ مِنْكَ بَصْراً
 بصعوبة مشروعتك ، ومع ذلك فإن مشروعتك رَائعٌ ، ومع ذلك فإن مشروعتك
 صَالِحٌ ، وهو يَجْعَلُكَ سَعِيداً بِالْحَقِيقَةِ ، فَلْنَبْذُلْ جُهْدَنَا فِي تَفْهِيمِهِ ، وَإِنَّمَا يَوْجَدُ
 لَدَيْ أَقْتِرَاحٍ أَذْكَرُهُ لَكَ ، وهو أَنْ نَخْصَّصَ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ انْتَحَلْنَاهَا حَتَّى
 رَجُوعِكَ لِاخْتِيَارِ مَلْجَأٍ فِي أَوْرَبَةِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ فِيهِ سَعِيداً مَعَ أُسْرَتِكَ
 أَمِيناً مِنْ جَمِيعِ الْأَخْطَارِ الَّتِي حَدَّثْتُكَ عَنْهَا ، وَإِذَا مَا وُقِّفْنَا وَجَدَتْ السَّعَادَةُ
 الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَنْشُدُهَا أَنَاسٌ كَثِيرُونَ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى الْوَقْتِ
 الَّذِي بَذَلْتَ فِي هَذَا السَّبِيلِ ، وَإِذَا لَمْ نُوفِّقْ شُفِيتَ مِنْ وَهْمٍ ، وَأَسْلَيْتَ
 نَفْسَكَ عَنْ مَصِيبَةٍ لَا مَنَاصَ مِنْهَا ، وَخَضَعْتَ لِسُلْطَانِ الضَّرُورَةِ » .

وَلَا أَدْرِي هَلْ يَرَى جَمِيعُ قُرَّائِي أَيْنَ يَسُوقُنَا هَذَا الْبَحْثُ الْمُقْتَرَحُ
 هَكَذَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي أَعْرِفُ جَيِّداً هُوَ أَنَّ إِمِيلَ إِذَا كَانَ لَا يَمُودُ مِنْ
 رِخْلَاتِهِ ، الَّتِي بَدِثَتْ وَأَدِثَتْ لِهَذَا الْفَرَضِ ، مُطَّلِعاً عَلَى جَمِيعِ أُمُورِ الْحُكُومَةِ
 وَالطَّبَائِعِ الْعَامَةِ وَعَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ مَبَادِي الدَّوْلَةِ ، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ مُجَرِّداً مِنْ

الذكاء وأن أكون مُجَرِّداً من قوة التمييز .

ولمّا يُولَدِ الفِقهُ السِّياسِيُّ ، وقد يُفْتَرَضُ أنه لن يُولَدَ مطلقاً ، وليس غِرُوسِيُوسُ ، الذى هو أستاذُ جميع علمائنا فى هذا الفِرْع ، غيرَ ولدٍ ، والأفْطَحُ من هذا أن يكون ولداً سيئ النية ، وعندما أَسْمَعَ رَفَعَ غِرُوسِيُوسَ إلى الأَوْجِ الأعلى وَغَمَرَ هُوَ بِزَ بِاللَّعْنَاتِ أَبْصَرُ مَقْدَارَ قِرَاءَةِ ذَوِى الأَبْأَبِ لَهَا وإِدْرَاكِهم إِيَّاهَا ، والواقعُ أن مبادئَها متشابهة تماماً ، وهما لا يختلفان فى غير التعابير ، وهما يختلفان فى المِنْهَاجِ أيضاً ، فَهُوَ يُزَيِّعُ يَتَمَدَّدُ عَلَى المَعَالِطَاتِ وَغِرُوسِيُوسُ يَعْتَمِدُ عَلَى الشُّعْرَاءِ ، وَإِذَا عَدَوْتَ هَذَا وَجَدْتَ هَذَيْنِ المَوْلُفَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ فى كُلِّ شَيْءٍ .

وَمُونْتِسْكيُو العَصْرِيُّ الشَّهِيرُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِى اسْتَطَاعَ وَضَعَ هَذَا العِلْمَ العَظِيمَ غَيْرِ النَافِعِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُرَاعِ مَبَادِئَ الفِقهِ السِّياسِيِّ ، وَإِنَّمَا اكْتَفَى بِمَعَالِجَةِ الفِقهِ الوَضْعِيِّ لِلْحُكُومَاتِ القَائِمَةِ ، وَلَا شَيْءَ فى العَالَمِ أَشَدَّ اخْتِلَافاً مِنْ هَاتَيْنِ الدِّرَاسَتَيْنِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الَّذِى يَرِيدُ أَنْ يُصْدِرَ حُكْماً صَحِيحاً فى الحُكُومَاتِ القَائِمَةِ مُلْزَمٌ بِجَمْعِ مَا بَيْنَ الدِّرَاسَتَيْنِ ، إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْحُكْمِ فِيهَا هُوَ كَأَنَّ ، وَكُلُّ الصَّعُوبَةِ فى إِقْلَاءِ نُورٍ فى هَذِهِ المَوْضُوعَاتِ المَهْمَةِ هُوَ فى جَعْلِ الفِرْدِ يَنَاقِشُ فِيهَا فَيُجِيبُ عَنْ هَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ ، وَهَما : مَا يَهْمُنُنِي ؟ وَمَا اسْتَطِيعَ أَنْ أَصْنَعَ ؟ وَقَدْ وَضَعْنَا إِمِيلَ فى حَالٍ يُجِيبُ مَعَهُ عَنِ السُّؤَالَيْنِ .

وَتَأْتِى الصَّعُوبَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مُبْتَسِّرَاتِ الوُلُودِيَّةِ ، وَمِنْ المَبَادِئِ الَّتِى

غَدَّينا بها ، ولا سيما محاباة المؤلفين الذين ، إذ يُحَدِّثُونَ دائماً عن الحقيقة التي لا يُبَالُونَ بها مطلقاً ، لا يُفَكِّرُونَ في غير مصلحتهم التي لا يتكلمون عنها مطلقاً ، والواقع أن الشعب لا يَمْنَحُ كراسي ولا وظائف ولا أماكن في الأكاديمية ، فليُخْصَمَ في الوجه الذي يجب أن تقوم عليه حقوقه من قِبَل أولئك الناس ! وأما أنا فقد صنعتُ ما تَكُونُ به هذه الصعوبة أمراً لا يُعْتَدُّ به لدى إميل ، وإميل لم يَكْذِبْ عِرْفُ ما الحكومة ، والشئ الوحيد الذي يُهِمُّهُ هو أن يَجِدَ أفضل الحكومات ، وليس هدفه أن يَضَعَ كتباً ، وهو إذا ما وُضِعَ منها فلن يكون هذا لِيَتَزَلَّفَ إلى السلطات ، بل لِيُوطَّدَ حقوق الإنسانية .

وَبَقِيََتْ صعوبةٌ ثالثةٌ ، فهذه الصعوبةُ مُمَوَّهَةٌ أَكْثَرُ منها متينةٌ ، ولا أَرُغِبُ في حلِّها ، ولا في تقديمها ، وإنما أَكْتَفَى بِأَلَّا تُرْهِبَ غَيْرَتِي واثقاً ، في المباحث التي هي من هذا النوع ، بأن المواهب الكبيرة أقلُّ لزوماً من حُبِّ للعدل صادقٍ ومن إجلالٍ للحقيقة ، ولِذَا فَإِنَّ أمور الحكومة إذا ما أمكن أن تعالج الآن أو لم يُمكن فذاك حَظُّنَا .

ولا بُدَّ من وَضْعِ قواعدٍ للملاحظة قبل أن نلاحظ ، ولا بُدَّ من وَضْعِ مقياسٍ يُرْجَعُ إليه فيما يُتَّخَذُ من قياسات ، ومبادئنا في الفقه السياسي هي هذا المقياس ، وقياساتنا هي القوانين السياسية لكلِّ بلد .

وستكون أصولنا واضحةً بسيطةً مقتبسةً من طبيعة الأشياء مباشرةً ، وستتخذ شكلَ المسائل المجادل فيها بينما فلا نُحَوِّلُها إلى مبادئٍ إلاَّ بعد حلِّها حَلًّا كافياً .

ومن ذلك أننا إذ نَرْجِعُ في بدء الأمر إلى الحال الطبيعية نَبْهَثُ في هل يُولَدُ الناسُ عبيداً أو أحراراً ، مُشْتَرِكِينَ أو مُسْتَقْلِينَ ، وهل يَتَّحِدُونَ طوعاً أو كَرْهاً ، وهل نستطيع القوةُ الأصليةُ التي تَجْمَعُهُمْ تكوينَ حَقٍّ دائمٍ تُلْزِمُهُمْ به ، حتى عند غَلَبِها من قِبَلِ قوةٍ أخرى كالتى أَخْضَعَ لها الملكُ نِمْرودَ الأممِ الأخرى على ما يُروى ، فَقَوَّضَتْ تلكَ ، ففَدَتْ جَائِرَةً أو غاصبةً ، وصار لا يُوجَدُ ملوكٌ شرعيون غيرُ أبناءِ نِمْرودَ أو من انتقلتْ إليهم حقوقُهُ ، أو هل تُلْزِمُ القوةُ التي عَقَبَتْ القوةَ الأصليةَ بعد انقطاعِ هذه والقضاءِ على إلزامها ، فلا يُجْبَرُ على إطاعتها إلا كَرْهاً ، ويُحِلُّ منها عند إمكانِ مقاومتها ، أى إن هذا الحقَّ لا يضيف شيئاً إلى القوةِ كما يُلَوِّحُ ، ولا يكون غيرَ تلاعبٍ في الألفاظ .

وسنبحث في هل يَأْتِي كُلُّ مَرَضٍ من الرَّبِّ ، فيكونُ من الإِجرامِ دعوةُ الطبيبِ .

وكذلك سنبحث في هل من مُقْتَضَى الضميرِ تسليمُ كِسِينَا إلى قاطعِ طريقٍ يطلبه منا حتى عند استطاعتنا أن نُخْفِيَهُ عنه ، وذلك لأن الفردَ* الذى يَحْمِلُ ينطوى على سلطانٍ أيضاً .

وهل كلمةُ السلطانِ هذه تعْنِي ، في هذه المناسبةِ ، شيئاً آخرَ غيرَ السلطانِ الشرعى ، فيكون هذا السلطانُ خاضعاً للقوانينِ التى يَسْتَمِدُّ منها وجودَهُ ؟ ولنفتَرِضَ نَبْذَ حَقِّ القوةِ هذا جانباً واستحالَ حَقُّ الطبيعةِ أو السلطانِ الأبوى كبدأً للمجتمعاتِ ، فحينئذٍ نَبْهَثُ عن مقياسِ هذا السلطانِ ،

وعن كيفية قيامه في الطبيعة ، وعن وجود سببٍ له غير فائدةِ الولد وضعفه
وما يحمل الأب من حُبٍّ طبيعيٍّ له ، فإذا ما زال ضعفُ الولد ونَضَجَ
عقله أفلا يكون وحده قاضياً طبيعياً فيما يلائم بقاءه ومن ثمَّ ألا يكون
سيد نفسه مستقلاً عن أيِّ إنسانٍ آخر ، حتى عن أبيه ؟ وذلك لأن من
الثابت أن الابن يُحِبُّ نفسه أكثر من حُبِّ الأب لابنه .

وإذا مات الأب أفيلزَمُ الأولادُ بإطاعة كبيرهم أو بإطاعة آخر
لا يَحُولُ لهم حُبُّ الأب الطبيعي ؟ وإذا ما كان الأمرُ بين سُلالةٍ وأخرى
أفيوجدُ رئيسٌ واحدٌ دائماً ؟ وهل يُبَحَثُ في مثل هذه الحال عن الوجه
الذي يُمكن أن يُقسَمَ به السلطانُ ، وعن الوجه الذي يَكُونُ به في العالمِ
أكثرُ من رئيسٍ للسيطرة على النوع البشري ؟

ولنفترض أن الأقوامَ تَكُونُوا باختيارهم ، فهناك نَمِيزُ بين الحقِّ
والواقع ، فسأل قائلين إنهم إذا كانوا قد خضعوا على هذا الوجه لإخوتهم
أو أعمامهم أو أقربائهم طَوْعاً لا كَرْهاً أفلا يَدْخُلُ هذا النوع من المجتمع
نطاقَ الجماعة القائمة على الحرية والاختيار .

ثم ننتقل إلى حَقِّ الرِّقِّ فَنَبَحَثُ في هل يستطيع الإنسان أن يَبِيعَ
نفسه من آخر بلا قيدٍ ولا تَحَفُظٍ ولا أيَّ نوعٍ من الشروط ، أي هل
يستطيع أن يَتَزَلَّ عن شخصه وحياته وعقله وذاتيته وكلِّ خُلُقِيَّةٍ في أفعاله ،
والخلاصة أن ينقطع عن الوجود قبل موته على الرغم من الطبيعة التي تَقْرِضُ
عليه أمرَ حِفْظِ نفسه حالاً ، وعلى الرغم من ضميره وعقله اللذين يُلزِمَانِهِ
بما يجب أن يَصْنَعَ وبما يَجِبُ أن يَمْتَنِعَ عنه .

وإذا ما وُجِدَ تَحَقُّظٌ أَوْ قَيْدٌ فِي سَنَدِ الرَّقِّ فَإِنَّا نناقشُ في هل هذا السند لا يُضْبَحُ إِذْ ذَاكَ عَقْدًا حَقِيقِيًّا لَا يَكُونُ فِيهِ لِكُلِّ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ مَوْلىً مُشْتَرَكٌ^(١) بهذه الصفة فيبقيان قاضِيَّ نفسيهما الْخَاصَّينِ مِنْ حَيْثُ شَرُوطُ الْعَقْدِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ كُلُّ مِنْهُمَا حُرًّا فِي هَذَا الْإِتِّفَاقِ قَادِرًا عَلَى نَقْضِ الْعَقْدِ عِنْدَمَا يَقْدَرُ أَنَّهُ ضَارٌّ بِهِ .

وإذا كان العبد لا يستطيع أن يبيع نفسه من مولاه بلا تَحَقُّظٍ فكيف تستطيع الأمة أن تبيع نفسها من رئيسها بلا تحفظ ؟ وإذا كان العبد يَبْقَى قَاضِيًّا فِي أَمْرِ مَرَاعَاةِ مَوْلَاهُ لِلْعَقْدِ فَكَيْفَ لَا يَبْقَى الشَّعْبُ قَاضِيًّا فِي أَمْرِ مَرَاعَاةِ رَئِيسِهِ لِلْعَقْدِ ؟

ونحن ، إِذْ نَجِدُ أَنْفُسَنَا مُلْزَمِينَ بِالْعَوْدِ إِلَى الْوَرَاءِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ نَظَرِينَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْجَمَاعِيَّةِ لِكَلِمَةِ الْأُمَّةِ ، نَبْحَثُ ، لِإِقَامَةِ الْأُمَّةِ ، فِي هَلْ يَجِبُ وَجُودُ عَقْدٍ ضَمْنِيٍّ عَلَى الْأَقْلِّ سَابِقٍ لِذِي نَفْتَرِضُهُ . وما دامت الْأُمَّةُ أُمَّةً قَبْلَ أَنْ تَنْتَخِبَ لَهَا مُلْكًا فَمَا الَّذِي جَعَلَهَا أُمَّةً إِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَقْدُ الْاجْتِمَاعِيُّ ؟ وَلِذَا فَإِنَّ الْعَقْدَ الْاجْتِمَاعِيَّ أَسَاسُ كُلِّ مُجْتَمَعٍ مَدْنِيٍّ ، فَبِطَبِيعَةِ هَذَا الْعَقْدِ يَجِبُ أَنْ يُبْحَثَ عَنْ طَبِيعَةِ الْمَجْتَمَعِ الَّذِي يُوَلِّفُهُ .

وسنبحث في فَحْوَى هَذَا الْعَقْدِ وَنَرَى هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِالصِّيْغَةِ الْآتِيَةِ ، وَهِيَ : « إِنْ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنَّا يَصْعُقُ بِالِاشْتِرَاكِ أَمْوَالَهُ

(١) إِذَا مَا كَانَ لَهَا مِثْلُ هَذَا الْمَوْلَى الْمُشْتَرَكِ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَوْلَى غَيْرَ السَّيِّدِ ، وَهَنَالِكَ لَا يَكُونُ حَقُّ الرِّقِّ الْقَائِمُ عَلَى حَقِّ السَّيَادَةِ أَصْلًا لَهُ .

وشخصه وحياته وجميع قوّته تحت الإدارة العليا للإرادة العامة فنقبَلُ ،
كهَيْئَةٍ ، كلَّ عَضْوٍ جزءاً من المجموع لا يَتَجَزَّأُ .

وإنّا بعد افتراض هذا سنلاحِظُ ، لتعيين العباراتِ التي نحتاج إليها ،
أن عقد الاجتماع هذا يُوجِبُ هَيْئَةً أَدْبِيَّةً جَمَاعِيَّةً مُؤَلَّفَةً من أَعْضَاءٍ بِمَقْدَارِ
ما في المجلس من أصوات ، وذلك بدلاً من ملاحظة الشخصية الخاصة
لكلِّ متعاقد ، وعلى العموم يَتَّخِذُ هذا الشخصُ العامُ اسمَ « الهَيْئَةِ
السياسية » التي يُطْلَقُ أَعْضَاؤُهَا عليها اسمَ « الدولة » إذا كانت منفصلةً ،
واسمَ « السيد » إذا كانت فاعلةً ، واسمَ « السلطة » إذا ما قُورِنَتْ
بنظيراتها ، وأما الأَعْضَاءُ أَنْفُسُهُمْ فَإِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ اسمَ « الأُمَّة » جَمْعاً ،
واسمَ « مواطنين » أفراداً ، كأَعْضَاءِ « الوطن » أو شركاء في السلطان
ذِي السيادة ، واسمَ « رعايا » كخاضعين للسلطان عَيْنِهِ .

وسنلاحِظُ أن عقد الاجتماع هذا ينطوى على عهدٍ متقابل بين الجمهور
والأفراد ، فَيَكُونُ كلُّ فردٍ متعاقدٍ مع نفسه على هذا الوجه ملزماً بصلةٍ
مضاعفةٍ ، أَى كعضوٍ للسيد نحو الأفراد ، وكعضوٍ للدولة نحو السيد .
وسنلاحِظُ ، أيضاً ، أن كلَّ واحدٍ إِذْ لا يكون ملزماً بغير التعهدات
التي هو طَرَفٌ فِيهَا فَإِنَّ التَّشَاوُرَ العامَّ الَّذِي يُلْزِمُ جَمِيعَ الرعايا نحو السيد ،
بسبب الصَّلَتَيْنِ المختلفتين اللَّتَيْنِ يُنْظَرُ بِهِمَا إِلَى كلِّ واحدٍ مِنْهُمَا ، لا يُمكنُ
أن يُلْزِمَ الدَّوْلَةَ نحو نفسها ، ومن ثَمَّ يَرَى أَنَّهُ لا يُوجَدُ ، ولا يُمكنُ
أن يُوجَدَ ، قانونٌ أساسيٌّ آخَرُ غَيْرُ الميثاق الاجتماعيِّ وحده ، وهذا لا يَفْنِي
أن الهَيْئَةَ السياسية لا تستطيع ، من بعض الوجوه ، أن تُلْزِمَ نَفْسَهَا نحو

غيرها ، فهي تصيرُ نحو الأجنبيِّ كائنًا بسيطًا ، تصيرُ فرداً .
وبما أنه لا يوجدُ للطرفين المتعاقدين ، أى للجُمهورِ وكلِّ فردٍ ، أى
رئيس مشتركٍ قادرٍ على الحُكم فى خصوماتهما فإننا سنبحث فى هل يَبْقَى
كلٌّ من الفريقين خُرّاً فى نقضِ العقد متى شاء ، أى أن يعدل عنه من
ناحيته إذا ما عدّه ضاراً به .

وتنويراً لهذه المسئلة نلاحظ ، وفق الميثاق الاجتماعى ، أن السيد إذ
لا يستطيع أن يَسِيرَ إلا بعزائمٍ مشتركةٍ عامة فإنه لا ينبغي أن يكون
لأفعاله غيرُ أغراضٍ عامةٍ مشتركةٍ ، فَيَنْشَأُ عن هذا كَوْنُ الفرد لا يُمكن
أن يُضَرَّ مباشرةً من قِبل السيد ما لم يُضَرَّ الجميعُ ، ولا يُمكنُ هذا أن
يَكُونُ ما دام هذا يَعْنِي إصابةَ الواحد نفسه بأذى ، وهكذا فإن العقدَ
الاجتماعى لا يحتاج إلى ضامنٍ آخرَ غيرِ السلطة العامة ، وذلك لأن الضرر
لا يُمكن أن يَصْدُرَ عن غير الأفراد ، وهناك لا يَكُونُ الأفراد مُعَقَّونَ
من عَهْدِهِمْ ، بل يَمَاقِبُونَ على نقضه .

وسنَجْتَهِدُ ، لتقرير جميع المسائل المشابهة ، فى ذِكْرِنَا ، دائماً ، أن الميثاقَ
الاجتماعى ذو طبيعة خاصةٍ قاصرةٍ عليه وحده ، وذلك من حيث كَوْنُ
الأمة لا تُعَاقِدُ غيرَ نفسها ، أى أن الأمةَ كهيئةٍ صاحبةٍ للسيادة تعاقِدُ
الأفراد كرعايا ، وعلى هذا الشرط يَقُومُ كيانُ الجهاز السياسى وَسَيْرُهُ ، وهذا
الشرط وحده يَجْعَلُ التعهداتِ شرعيةً معقولةً خاليةً من الخطر ، ولولا
هذا لكانت التعهداتُ خُرْقاً جائزاً عُرْضةً لأعظم ما يكون من سوء
الاستعمال .

وبما أن الأفراد لا يَخَضَعُونَ لغير السيد ، وبما أن السلطانَ صاحبَ السيادة ليس سوى الإرادة العامة ، فإننا سنرى كيف أن كلَّ إنسانٍ ، إذ يَخَضَعُ للسيد ، لا يَخَضَعُ لغير نفسه ، وكيف نكون في الميثاق الاجتماعي أكثرَ حُرِّيَّةً منا في الحال الطبيعية .

وإنا ، بعد أن قابلنا بين الحرية الطبيعية والحرية المدنية من حيث الأفراد ، سنقابل ، من حيث الأموال ، بين حقِّ التملك وحقِّ السيادة ، أى بين الملك الخاصِّ والملك العامِّ ، وإذا كان السلطانُ ذو السيادة قائماً على حقِّ التملك فإن هذا الحقَّ يجب أن يكون أعظمَ ما يُحْتَرَم من قِبَل ذاك السلطان ، وهو يَبْقَى مَصُوناً مُقَدَّساً ما بَقِيَ حقُّ فردٍ خاصٍّ ، وهو إذا ما عُدَّ من قَوَرِهِ مشتركاً بين جميع المواطنين خَضَعَ للإرادة العامة ، وهذه الإرادة هى التى تستطيع أن تُبْطِلَه ، وهكذا فإنه لا يُوجَدُ للسيد أى حقٍّ فى مَسِّ مال الفرد ولا مال كثيرٍ من الأفراد ، ولكنه يستطيع أن يستولى على مال الجميع استيلاءً شرعياً ، وذلك كما وقع بإسبَارطة فى زمن ليكُورغ ، مع أن إلغاء الديون من قِبَل سُولُون عُدَّ عملاً غيرَ شرعى .

وبما أنه لا شىء يُكْرِه الرعايا غيرُ الإرادة العامة فإننا سَنَبْحَثُ عن كيفية تَجَلِّ هذه الإرادة ، وعن العلامات التى يُطْمَأُنُّ إلى معرفتها بها ، وعن معنى القانون ، وعن صفاته الحقيقية ، وهذا الموضوعُ تامُّ الجِدَّة ، ولا يزال القانون يتطلب تعريفاً .

وإذا ما اعتبرت الأمةُ واحداً أو أكثرَ من أعضائها على انفرادٍ انقسمت

من فوزها ، وتكوّنت بين الكلّ وجزئه صلةٌ تَجَعَلُ منها موجودين منفصلين ، فيكون الجزء أحدَ الموجودين ، ويكون الكلّ بعد طرح هذا الجزء منه ثانیَ الموجودين ، ولكن الكلّ بعد طرح جزء منه لا يَكُونُ كُلاً ، ويعود لا يُوْجَدُ كلٌّ ، إذَنْ ، ما بقيت هذه النسبة ، بل يُوْجَدُ قسماً متفاوتان .

وعلى العكس إذا ما وضعت الأمة كلها قانوناً لجميع الأمة فإنها لا تعتبر غير نفسها ، وإذا ما تكوّنت علاقةٌ كانت علاقةَ الموضوع كله من وجهة نظري بالموضوع كله من وجهة نظري أخرى ، وذلك من غير تقسيم للكلّ قطعاً ، وهناك يَكُونُ الموضوع الذي يُوْضَعُ له قانونٌ عاماً ، وتكوّن الإرادة التي تَضَعُ القانونَ عامةً أيضاً ، وسنرى هل يُوْجَدُ نوعٌ قراري آخرُ يُمكن أن يَحْمِلَ اسمَ القانون .

وإذا كان السيد لا يستطيع أن يتكلم إلا بالقوانين ، وإذا كان القانون لا يُمكن أن يكون له غيرُ موضوعٍ عامٍّ شاملٍ لجميع أعضاء الدولة على السواء فإن هذا يَعْنِي عدمَ وجودِ سلطةٍ للسيد يَضَعُ بها قانوناً حَوْلَ موضوعٍ خاصٍّ ، وبما أن من المهمّ لبقاء الدولة ، مع ذلك ، تقريرَ أمورٍ خاصةٍ فإننا سنرى كيف يُمكن صنعُ هذا .

ولا يُمكنُ أن تكون أعمالُ السيد غيرَ أعمالِ الإرادة العامة ، غيرَ قوانينٍ ، ولا بُدَّ بعد ذلك من أعمالِ البتِّ أو أعمالِ القوة أو الحكومة تنفيذاً لهذه القوانين نفسها ، وعلى العكس لا يُمكن أن يكون لهذه الأعمال غيرُ موضوعاتٍ خاصةٍ ، وهكذا فإن الرسوم الذي يَصْدُرُ عن السيد لا تتخاب

رئيس يكون قانوناً ، وإن المرسوم الذى يُنتخبُ به هذا الرئيسُ تنفيذاً للقانون ليس سوى مرسومٍ حكومى .

وهذه ، إذن ، صلةٌ ثالثةٌ تُعدُّ بها الأمةُ المجتمعَةَ حاكمةً أو مُنفذةً للقانون الذى وضعته صاحبةُ السيادة^(١) .

وسنبحث فى إمكان تجرُّد الأمة من حقِّها فى السيادةِ مُؤلِّيةً به رجالاً أو أكثر ، وذلك بما أن عملَ الانتخاب ليس قانوناً ، وبما أن الأمة بهذا العمل ليست سيِّداً بعينه ، فإنه لا يُرى ، مطلقاً ، كيف تستطيع الأمة ، إذ ذاك ، أن تنقلَ حقاً ليس لها .

وبما أن كُنَّةَ السيادةِ يقوم على الإرادة العامة فإنه لا يُرى كيف يُمكن أن يُوقنَ بأن الإرادة الخاصة تكون على اتفاقٍ مع الإرادة العامة دائماً ، ومن الجدير وجوبُ افتراضِ كَوْنِ الأمرِ على العكس غالباً ، وذلك لأن المصلحة الخاصة تَميلُ إلى الامتيازات دائماً ، وأن المصلحة العامة تَميلُ إلى المساواة ، ومتى كان هذا الاتفاق ممكناً كفى ألا يكون ضرورياً ممتنع الزوال لكيلا ينشأ عنه الحقُّ ذو السيادة .

وسنبحث فى هل رؤساء الأمة ، الذين يُختارُونَ تحت أى اسمٍ كان ، يُمكنُهم ، من غيرِ نقضٍ للميثاق الاجتماعى ، أن يكونوا شيئاً آخرَ غيرَ ضُبَّاطٍ لدى الأمة التى تأمرهم بتنفيذ القوانين ، وفى هل هؤلاء الرؤساء غيرُ

(١) استخلصت هذه المسائل والقضايا من كتاب « العقد الاجتماعى » الذى استخلص بدوره من كتاب أضخم منه كنت قد أقدمت عليه من غير تقديرٍ لمقدورى فكرته منذ زمن طويل ، وسينشر على حدة ذلك الكتاب المستخلص من هذا فُلُخصته هنا .

ملزَمين بتقديم حسابٍ إليها عن إدارتهم وغيرُ خاضعين للقوانين المُفَوَّض إليهم أن يحافظوا عليها .

وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تبيع حقَّها الأعلى فهل تستطيع أن تُودِعَه لوقتٍ معيّن؟ وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تَجْعَلَ لنفسها مَوْلىً فهل تستطيع أن تَجْعَلَ لنفسها ممثلين؟ فهذه المسئلة مهمةٌ وتستحقُّ النقاش .
وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تكون ذاتَ سيّدٍ ولا ممثلين فإننا سنبحث عن كيفية قيامها بقوانينها ، وعن وجوبِ وجودِ قوانينٍ كثيرةٍ لها أو لا ، وعن وجوبِ تغيير هذه القوانين غالباً أو لا ، وعن أنه يَسْهُلُ على الأمة الكبيرة أن تكون مشرعةً لنفسها بنفسها أو لا .

وسنبحث في هل الرومان أمةٌ كبيرة .

وسنبحث في هل من الصالح وجودُ أمٍ عظيمة .

ويَظْهَرُ من الاعتبارات السابقة أنه يُوجَدُ في الدولة هيئةٌ متوسطةٌ بين الرعايا والسيد ، وأن هذه الهيئةَ المتوسطةَ المؤلفة من عضوٍ واحدٍ أو أكثرٍ مُفَوَّضٌ إليها أمرُ القيام بالإدارة العامة وتنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية المدنية والسياسية .

ويُسَمَّى أعضاء هذه الهيئة وُلاةً أو ملوكًا ، أى حُكَماءً ، وتُسَمَّى الهيئة بأسرها أميراً عند النظر إلى الذين تتألفُ منهم ، وتُسَمَّى حكومةً عند النظر إلى عملها .

وإذا نَظَرْنَا إلى عمل الهيئة بأسرها وهي تَعْمَلُ في نفسها ، أى إلى نسبة الكلِّ إلى الكلِّ ، أو السيد إلى الدولة ، أمكننا أن نقارن هذه النسبة

بطرفي النسبة المتصلة التي تكون الحكومة وسطها الجامع ، ويتلقى الحاكم من السيد ما يُلقى على الأمة من الأوامر ، وهو ، إذ يُعَوَّضُ تماماً ، يكون حاصله أو سلطانه على ذات المستوى لحاصل المواطنين أو سلطانهم ، هؤلاء المواطنين الذين هم رعايا من ناحية وسادة من ناحية أخرى ، وما كان ليُمكنَ إفسادُ أيِّ طرفٍ من الأطراف الثلاثة من غير أن يُقضى على النسبة حالاً ، وإذا أراد السيد أن يحكم ، وإذا أراد الأمير أن يصع قوانين ، وإذا رَفَضَ التابع أن يُطيع ، عَقَبَ الاختلالُ النظامَ وسقطت الدولة المنحلة في الاستبداد أو وقعت في الفوضى .

ولنفرض أن الدولة مؤلفة من عشرة آلاف مواطن ، فلا يُمكنُ اعتبارُ السيد إلا جماعياً أو هيئةً ، ولكن لكلِّ واحدٍ كتابير وجوداً فردياً مستقلاً ، وهكذا فإن نسبة السيد إلى التابع كنسبة الآلاف العشرة إلى الواحد ، أي إنه لا يكون لكلِّ عضوٍ في الدولة من النصيب غيرُ جزء من عشرة آلاف من السلطان ذي السيادة ، وإن كان خاضعاً لكلِّ ، وإذا كانت الأمة مؤلفة من مئة ألف إنسان لم يتغيرَ وضعُ الرعايا ، واستمرَّ كلُّ واحدٍ على حِجْلٍ عِيبِ القوانين ، مع أن صوته ، الذي نُزِّلَ إلى واحد من مئة ألفٍ ، صار له من النفوذ عند وضع القوانين أقلُّ مما كان له عشرَ مرات ، وهكذا فإن التابع إذ يبقى واحداً دائماً تزيد نسبة السيد بنسبة زيادة عدد المواطنين ، وينشأ عن هذا أن الدولة كلما كَبُرَتْ قَلَّتْ الحرية .

والواقعُ أنه كلما قلَّ تعلقُ الإرادات الخاصة بالإرادة العامة ، أي تعلقُ

الطبائع بالقوانين زادت قوة الرّدْع ، وتَرَى من ناحية أخرى أن اتساع الدولة ، إذْ يوجب في أمناء السلطة العامة زيادةً مَبْلٍ إلى الشهوات وزيادةً في وسائل سوء الاستعمال ، فإنه كلما كان لدى الحكومة من القوة ما تردع به الأمة وجب أن يكون لدى السيد بدوْرُه من القوة ما يَرْدَعُ به الحكومة .

وَيَرَى من هذه الصلة المضاعفة أن النسبة الدائمة بين السيد والأمير والأمة ليست فكرةً مُرَادِيَةً مطلقاً ، بل نتيجةً لطبيعة الدولة ، وَيَرَى ، أيضاً ، أن الأمة ، التي هي أحد الأطراف ، إذْ كانت ثابتةً ، فإن النسبة المضاعفة كلما زادت أو نَقَصَتْ زادت النسبة البسيطة أو نَقَصَتْ بدوْرِها ، وهذا لا يُمكن أن يَقَعَ من غير أن يتغير الطرفُ المتوسط في كلِّ مرة ، ومن ثَمَّ يُمكننا أن نَسْتَخْرِجَ النتيجةَ القائلةَ إنه لا يُوجَدُ نظامٌ للحكومة وحيدٌ مُطلقٌ ، وإنما يجب أن يكون موجوداً من الحكومات المختلفة طبيعةً بمقدار ما يُوجَدُ من الدول المختلفة اتساعاً .

وإذا كانت الأمةُ كلما كَثُرَ عددها قَلَّ تَعَلُّقُ الطبائع بالقوانين فإنَّ ما نَبَحْتُ فيه هو هل يمكننا ، بقياسٍ على شيء من الوضوح ، أن نقول إن الحكم كلما كَثُرَ عددهم زادت الحكومةُ ضَعْفًا .

ولإلقاء نورٍ على هذا المبدأ تَمَيِّزُ في شخص كلِّ حاكم ثلاثَ إراداتٍ مختلفةٍ اختلافًا جوهرياً ، وذلك : أوَّلاً ، إرادةُ الفردِ الخاصةُ التي لا تَهْدَفُ إلى غير مصلحته الخاصة ، ثانياً ، إرادةُ الحكم المشتركةُ التي تَهْدَفُ إلى مصلحة الأمير ، هذه الإرادةُ التي يُمكن أن تُدْعَى إرادةَ الهيئة ، فتكون عامةً نظراً إلى الحكومة ، وخاصةً نظراً إلى الدولة التي تُعَدُّ الحكومةُ

جزءاً منها ، ثالثاً ، إرادة الأمة ، أو الإرادة ذاتُ السيادة ، فهذه الإرادةُ تكونُ عامةً بالنسبة إلى الدولة التي تُعَدُّ الكلُّ ، وبالنسبة إلى الحكومة التي تُعَدُّ جزءاً من الكلِّ ، وفي الاشتراع الكامل يجب أن تكون الإرادة الخاصة صِفراً تقريباً ، وأن تكون إرادةُ الهيئة الخاصةُ بالحكومة تابعةً جداً ، وأن تكونُ الإرادةُ العامةُ ذاتُ السيادةُ قاعدةً كل إرادةٍ من حيثُ النتيجةُ ، وعلى العكس تكونُ هذه الإراداتُ المختلفة ، وَفَقَ النظام الطبيعيُّ ، أكثرَ فِعْلاً كلما تَرَكَزَتْ ، فتكونُ الإرادةُ العامةُ أكثرَ ضعفاً دائماً ، وتكونُ المرتبةُ الثانيةُ لإرادة الهيئة ، وتكونُ الإرادةُ الخاصةُ مُفَضَّلَةً على الجميع ، وبذلك يَكُونُ الفردُ أولَ من يَأْتِي ، ثم يَأْتِي الحاكمُ ، ثم يَأْتِي المواطنُ ، أى يُرَى تَدْرُجٌ معاكسٌ ، تَوّاً ، لِمَا يَفْتَضِيهِ النظامُ الاجتماعيُّ .

وَلِنَفْتَرِضْ ، بعد وَضْعِ ذلك ، أن الحكومة غَدَتْ قَبْضَةً رجلٍ واحدٍ ، فهذا تكونُ الإرادةُ الخاصةُ وإرادةُ الهيئة قد اتحدتا اتحاداً تاماً ، وبذا تكونُ هذه الإرادةُ في أقصى ما يُمكن شِدَّةً ، والواقعُ أن استعمال القوة إذ يتوقف على هذه الدرجة من الشِدَّةِ ، وأن قوةَ الحكومة المطلقة إذ تكون قوةَ الأمة دائماً فلا تتغير مطلقاً ، فإنه يَنْجُمُ عن هذا كَوْنُ أكثر الحكومات فَعَالِيَةً هي حكومة الفرد .

وعلى العكس ، إذا ما وَحَدْنَا بين الحكومة والسلطة العليا فجعلنا السيدَ أميراً وجعلنا المواطنين حكاماً فهناك لا يَكُونُ لإرادة الهيئة ، الممزوجةُ بالإرادة العامة مزجاً تاماً ، فَعَالِيَةً أكثرُ مما لهذه ، وتَدْعُ الإرادةُ الخاصةُ في كمال قوتها ، وهكذا فإن الحكومة ، صاحبةَ لذات القوة المطلقة دائماً ،

تكون في الحد الأدنى من فعاليتها .

ولا جدال في هذه القواعد ، ويوجد من الاعتبارات الأخرى ما يؤيدها ، ومن ذلك أن الحكم يكونون أكثر فعالية في هيئتهم من المواطن في هيئته ، فيكون للإرادة الخاصة من النفوذ أكثره في ذلك ، وذلك لأن كل حاكم يكون مفوضاً إليه دائماً تقريباً ببعض الوظائف الخاصة في الحكومة ، وذلك بدلاً من كل مواطن يخلو من أية وظيفة من وظائف السيادة إذا ما أخذ على انفراد ، ثم إن الدولة كلما اتسعت زادت قوتها الحقيقية ، وإن كانت هذه القوة لا تزيد تبعاً لانساعها ، ولكن الدولة إذا ما بقيت على ما هي عليه وزاد عدد الحكم على غير طائل لم تنل الحكومة من وراء ذلك قوة حقيقية أعظم من تلك ، وذلك لأنها مستودعة لقوة الدولة التي نفترض تساويها دائماً ، وهكذا فإن فعالية الحكومة تنقص من غير أن تمكن زيادة قوتها .

وإنا ، بعد أن وجدنا أن الحكومة ترتخي بنسبة زيادة الحكم ، وأن الأمة كلما زادت عدداً وجب أن تزيد قوة الحكومة الزاجرة ، ننتهى إلى أن علاقة الحكم بالحكومة يجب أن تكون على عكس علاقة الرعايا بالسيد ، أي أن الدولة كلما اتسعت وجب أن تضيق الحكومة ، فينقص عدد الرؤساء تبعاً لزيادة الأمة .

وإنا ، لكي نعين فيما بعد هذا النوع في الأشكال بأسماء أكثر ضبطاً ، سنلاحظ في أول الأمر أن السيد يستطيع أن يفوض وديعة الحكومة إلى الأمة أو إلى أعظم قسم من الأمة ، فيكون من المواطنين الحكم من هم

أكثر من المواطنين الخاصين ، فعلى شكل الحكومة هذا يُطلق اسمُ الديمقراطية .

أو إن السيد يستطيع أن يُضَيِّقَ نطاقَ الحكومة فيَجْعَلَهُ قبضةً عددٍ أقلّ من ذلك فيكون من المواطنين الخاصين من هم أكثر من الحكام ، فعلى شكل الحكومة هذا يُطلق اسمُ الأريستوقراطية .

وأخيراً يستطيع السيد أن يَجْمَعَ جميعَ الحكومة في يد حاكم واحد ، وهذا الشكلُ الثالث هو الأكثرُ شيوعاً ، وهو يُسمَّى الملكية أو الحكومة الملكية .

وسنلاحظ أن جميع هذه الأشكال ، أو الشكلين الأولين على الأقل ، تَحْتَمِلُ الزيادة والنقصان ، وأن لها من اتساع المدى ما هو كافٍ أيضاً ، وذلك لأن من الممكن أن تشمل الديمقراطية على جميع الأمة أو أن تَنْقَبِضَ حتى النصف ، ولأن من الممكن أن تَنْقَبِضَ الأريستوقراطية بدورها من نصف الأمة حتى أصغرِ الأعداد انقباضاً غيرَ مُحَدَّدٍ ، حتى إن الملكية تَقْبَلُ التقسيمَ أحياناً ، سواء أْبَيَّنَ الأب والابن أم بين الأخوين أم على وجهٍ آخر ، وكان يوجد مَلِكٌ في إسبارة دائماً ، وقد شوهد في الإمبراطورية الرومانية من بَلَغَ عددهم حتى الثمانية معاً ، وذلك من غير أن يقال إن الإمبراطورية قُسِّمَتْ ، وتُوجَدُ نقطةٌ يَخْتَلطُ فيها كلُّ شكلٍ للحكومة بالشكل الذي يليه ، فتَقْبَلُ الدولة ، تحت الأشكال الثلاثة التَّوَعِيَّةُ ، من الأشكال بمقدار ما في الدولة من مواطنين بالحقيقة .

وليس ذلك كلُّ ما في الأمر ، فبما أن كلَّ واحدةٍ من هذه الحكومات

تستطيع من بعض الوجوه أن تنقسم إلى أقسام مختلفة يُدَارُ قسمٌ منها على وجهٍ ويُدارُ قسمٌ آخرُ منها على وجهٍ آخرَ فإنه يُمكن أن ينشأ عن هذه الأشكال الثلاثة المختلطة عددٌ وافرٌ من الأشكال المركبة التي يُمكن كل واحدٍ منها أن يُكثَّرَ بجميع الأشكال البسيطة .

وقد وقع في كل وقت جدالٌ كثيرٌ حولَ أفضل شكلٍ للحكومة ، وذلك من غير نظرٍ إلى أن كل شكلٍ هو أفضلُ الأشكال في بعض الأحوال ، وأن أسوأها يكون في أحوالٍ أخرى ، وأما نحن فنرى ، على العموم ، أن عدد الحكام^(١) في مختلف الدول إذا ما وَجَبَ أن يكون على العكس من عدد المواطنين فإن الحكومة الديمقراطية تلائم الدول الصغيرة ، وإن الحكومة الأريستوقراطية تلائم الدول المتوسطة ، وإن الحكومة الملكية تلائم الدول الكبيرة .

فبِإِتيان هذه المباحث ننتهي إلى معرفة واجبات المواطنين وحقوقهم ، ومعرفة إمكان فضل هذه عن تلك ، ومعرفة الوطن وما يَقُوم عليه ضَبْطًا ، وكيف يُمكن كل واحدٍ أن يَعْرِف هل له وطنٌ أو لا .

وإنا ، بعد النظر ، على هذا الوجه ، إلى كل نوعٍ من المجتمع المدني بنفسه ، سنقابل بينها للملاحظة ما بينها من صلات ، فنرى بعضها كبيراً والأخرى صغيرةً ، ونرى بعضها قوياً والأخرى ضعيفةً ، فتتَهاجُم وتتَشاءم وتتَهادم ، موجبةً بهذا الفعل وردَّه الدائمين من بؤسٍ كثيرٍ من

(١) اذكروا أنني أقصد الكلام هنا عن الحكام الأعلين أوردساء الأمة ، مادام الحكام الآخرون نائبين عنهم في هذا القسم أو ذاك .

الناس والقضاء على حياتهم ما هو أعظم مما لوحاظوا على حربتهم ، وسنبحث في هل صُنِعَ شيء كثيرٌ أو قليلٌ في النظام الاجتماعى ، وفي هل يبقى الأفراد الخاضعون للقوانين والآدميين ، على حين تحتفظ المجتمعاتُ فيما بينها بالاستقلال الطبيعى ، عُرْضَةً لشرور الدولتين من غير أن يَفُوزُوا بمنافعهما ، وفي هل يكون عدمُ وجود أى مجتمع مدنى في العالم مطلقاً أفضل من عدم وجود مجتمعات كثيرة فيه ، أوليست هذه الدولة المركبة التى تشترك فى الاثنين ولا تَضْمَنُ هذه وتلك « لاتدع مجالاً لإعداد العُدَّة لزمان الحرب ولا لأمن زمن السلم » ؟ أوليست هذه الجمعية الجزئية الناقصة هى التى تؤدى إلى الطغيان والحرب ؟ أوليس الطغيانُ والحرب أعظم آفات الإنسانية ؟ وأخيراً سندرس نوع الأدوية التى بُحِثَ عنها لمعالجة تلك الأضرار ، وذلك بالتعاهد والاتحاد فتدعُ كل دولة سيدةً داخلاً وتسلّطها خارجاً دفعا لكل مُعْتَدٍ ظالم ، وسنبحث عن الوجه الذى يُمكن أن تُقَامَ به جمعية اتحادية صالحة ، والذى يُمكن أن تدوم به ، وعن المدى الذى يُمكن أن يُوَسَّعَ به حق الاتحاد من غير أن يؤذى حق السيادة .

وكان رئيسُ دير القديس بطرس قد اقترح تأليفَ جمعيةٍ شاملةٍ لجميع دول أوربة كيما تحفظُ بينها سُلماً دائماً ، وهل هذه الجمعيةُ عمليةٌ ؟ وإذا ما افترض قيامُ هذه الجمعية فهل يُقدَّرُ لها البقاء ^(١) ؟ إن هذه المباحث تسوقنا ، تَوّاً ، إلى جميع مسائل الفقه العام التى يُمكن أن تُنِيرَ مسائلَ الفقه السياسى .

(١) تم ، بعد كتابى هذا ، عرض الأسباب الموافقة فى خلاصة هذا المشروع ، وتجد الأسباب المخالفة ، أو الأسباب التى بدت لى متينة ، فى مجموعة كبرى ، وذلك عقب هذه الخلاصة .

وأخيراً سَنَضَعُ المبادئَ الصحيحةَ لِفَقْهِ الحربِ ، وسَنَدْرُسُ السببَ في كونِ غِرُوسْيُوسٍ وغيرِهِ لم يُقَدِّمُوا سوى مبادئٍ فاسدةٍ عنها .

ولن يَذْهَبْنِي ، في وَسَطِ جميعِ براهيننا ، أن يَقُولَ لي مقاطعاً فَتَاىَ ذُو النُوقِ السليمِ : « يُجَنَّبُ إِلَى الإنسانِ أنْنا نقيمُ بناءنا من الخشبِ ، لا من الناسِ ، مادامنا نَصِفُ قِطْعَنَا على خَطِّ مستقيمٍ وَفْقَ القاعدةِ ! » ، وأقولُ له : « هذا صحيحٌ يا صديقي ، ولكن اذْكُرْ أن الفِقهَ لا ينحنى أمامَ أهواءِ الناسِ ، وعلينا تتوقفُ إقامةُ مبادئِ الفقهِ السياسىِّ الحقيقيةِ ، والآنِ ، وقد وُضِعَتْ أُسُسُنَا ، تَعَالَ لِنَبْحَثَ فيما أقامَ الناسُ فوقها ، وهنالك تَرَى أموراً غُرّاً ! » .

وهنالك حَمَلْتُهُ على قراءةِ « تِلْمَاكَ » وعلى سلوكِ طريقه ، ونبحثُ عن سَالِنَتَةِ السعيدَةِ وإيدُومِينِهِ الصالحِ الذى جعلته المصائبَ حَكِيماً ، وَبَيْنَا نحنُ سائرينَ لاقِينَا كثيراً من طرازِ بَرُوتِيزيلاس ، ولم نَلَقِ أَحداً من نوعِ فيلوكلِيس ، وكذلك لم نَمُكِّنْ ملاقاتَهُ مَلِكِ الدُونِيانِ : أذْراستُ ، ولكنْ لِنَتَرُكَ القراءَ يَتَمَثَّلُونَ رِخالاتِنَا أو يَقُومُونَ بها في مكاننا و « تِلْمَاكَ » في يدهم ، ولا نُوحِ إليهم ، مطلقاً ، بتطبيقاتِ مُخْزِنَةِ يَتَجَنَّبُها المُولَفُ نفسه أو يَأْتِيها على الرغمِ منه .

ثم بما أن إميلَ ليس مِلْكَاً ، وبما أتى لستُ إِلْهاً ، فإننا لن نُقَلِّقَ بَالِنَا ، مطلقاً ، في تقليدِ تِلْمَاكَ ، والمرشدِ ، في الخبرِ الذى كانا يقومان به نحو الناسِ ، ولا أحدَ أحسنُ منا عِلْماً في البقاءِ حيث هو ، ولا أحدَ أقلُّ منا رغبةً في الخروجِ من مكانه ، ومما نَعْرِفُ أن عَيْنَ

العملِ قد عِيَنَ للجميع ، فمن يُحِبُّ خَيْرَ الجميع من صميم فؤاده وَيَصْنَعُهُ بما أُوتِيَ من قوة يكونُ قد قام بذلك العمل ، ومما نَعْرِفُ أن تِلْمَاكَ والمرشَدَ هما من الأوهام ، ولا يَسِيحُ إميلُ مِثْلَ رجلٍ بَطَّالٍ ، وهو يَفْعَلُ من الخير أكثر مما لو كان أميراً ، ولو كنا مِلِكِينَ ما كنا أَكْثَرَ حُبًّا للإحسان ، ولو كنا مِلِكِينَ ومحسنين لَأَتَيْنَا ، من حيث لا نَدْرِي ، أَلْفَ شَرٍّ حَقِيقِيٍّ في مقابل خيرٍ ظاهريٍّ نَظُنُّ أننا نَفْعَلُهُ ، ولو كنا مِلِكِينَ وحكيمن لكان أولُ خيرٍ نَرْغَبُ في صنعه نحو أنفسنا ونحو الآخرين هو أن نَتَنَزَّلَ عن المَلَكِيَّةِ وأن نَعُودَ إلى ما نحن عليه الآن .

وقد قلتُ كُلَّ ما يَجْعَلُ السَّيَاحَاتِ غيرَ مُجْدِيَةٍ للجميع الناس ، والذي يَجْعَلُهَا أَقْلَ جَدْوَى للشباب هو الوجهُ الذي يُحْمَلُ به على القيام بها ، فَالْمُرَبُّونَ يَكُونُونَ أَكْثَرَ حُبًّا لِلنَّهْوِ أَنفُسَهُمْ مما لتثقيف الشباب فيَجْلِبُونَهُ من مدينةٍ إلى أخرى ، ومن قصرٍ إلى آخر ، ومن نطاقٍ إلى آخر ، وهم ، إذا ما كانوا علماء أو أدباء ، جَمَعُوهُ يَقْضِي وقته في الطواف بين المكتبات وفي زيارة الخِبراء بالعاديَّات وفي فَحْصِ قديم الآثار واستنساخ قديم الكتابات ، وهم ، في كُلِّ بلدٍ ، يُعْمَنُونَ بعصرٍ آخر ، وذلك كما لو كانوا يُعْمَنُونَ ببلدٍ آخر ، فإذا ما جابوا أوربة بنفقاتٍ عظيمةٍ وَتَجَرَّدُوا لِلتَّرَهَّاتِ أو أَسْلَمُوا أَنفُسَهُمْ إلى السَّأَمِ عادوا من غير أن يَكُونُوا قد رَأَوْا شيئاً يُمَكِّنُ أن يَنْفَعَهُمْ أو من غير أن يكونوا قد تَعَلَّمُوا شيئاً يُمَكِّنُ أن يفيدهم .

وتشابه جميعُ المواضع ، وفيها تختلط جميعُ الأمم ، وفيها تَمْتَزَجُ جميعُ

الطَّبَّاع ، وليس إليها ما يجب أن يُذهب لدراسة الأمم ، وليست باريسُ
ولندنُ غيرَ عَيْنِ المدينة في نظري ، أَجَلْ ، إن لسكانهما مُبْتَسِرَاتٍ
مختلفةً ، ولكن لا يُوجَدُ عند إحداها من المُبْتَسِرَاتِ ما هو أَوَّلُ مما
عند الأخرى ، وجميعُ مبادئها العملية هي هي ، ويُعرَفُ أيُّ نوعٍ
من الآدميين يَجْتَمِعُ في البَلَّاطات ، ويُعرَفُ أيُّ نوعٍ من الطَّبَّاع
يُسْفِرُ في كلِّ مكانٍ عن ازدحام الأمة وتفاوت الثَّرَوَات ، وإذا ما
حُدِّثُ عن مدينةٍ مؤلَّفةٍ من مئتي ألف نفس عَرَفْتُ مُقَدِّمًا كيف يعيش
الناس فيها ، وما لا أعْرِفُ فيها من أمورٍ لا يستحقُّ أن أذهب لأتعلمه
هناك .

وإلى الأقاليم القاصية ، حيث يُوجَدُ قليلُ حركةٍ وتجارة ، وحيث
تَقِلُّ سياحةُ الأجانب ، وحيث يَقِلُّ انتقالُ الأهليين ، وحيث يَقِلُّ تبديلُ
السَّكان لثروتهم ووضعهم ، يَجِبُ أن يُذهب لدراسة عبقرية الأمة وأخلاقها ،
وألقوا نظرةً إلى العاصمة حين تَمُرُّون ، ولكن اذهبوا للبحث عن البلد في
مكانٍ بعيد ، فالفرنسيون هم في تَوْرِينٍ ، لا في باريس ، ويَكُونُ الإنكليزُ
في مِرْسِي أكثرَ مما في لندن ، ويكون الإسبان في جَلِّيْقِيَّة أكثرَ مما في
مدريد ، وفي هذه الأماكن النائية تَمَّازُ الأمة وتَبْدُو خالصةً كما هي ،
وفيها خيرٌ ما يُشعرُ بأثر الحكومة السيئ أو الرديء ، وذلك كما تستطيعُ
أن تَقْبِسَ القومَ قياساً أكثرَ دقةً بنصف قطرٍ أكثرَ طولاً .

وقد عَرِضَتْ علائقُ الطبائع بالحكومة في كتاب « روح الشرائع »
عرضاً بَلَغَ من الإجادة ما لا يُمْكِنُني أن أرى معه أَفْضَلَ من الالتجاء

إلى هذا السُّفر لدراسة تلك العلاقات ، ولكن يُوجَدُ ، على العموم ، قاعدتان سهلتان بسيطتان للحُكم في صلاح الحكومات النسبي ، والأهلون هم إحدى هاتين القاعدتين ، فالدولة تَمِيلُ إلى خرابها في كلِّ بلدٍ يُفْقِرُ ، ولا مِرَاء في أن البلد الذي يزيد سكانه أكثر من غيره يَكُونُ أَفْضَلَ البلاد حكومة^(١) ، ولو كان أَقْرَها .

ولكن يجب لهذا أن يَكُونُ هؤلاء الأهلون نتيجةً طبيعية للحكومة والطَّبَاع ، وذلك لأن هذا إذا ما تَمَّ بمستعمراتٍ أو بِسُّبُلٍ أُخْرَى عارضةٍ أو عابرةٍ دَلَّ الدواء على الدَّاء ، ولَمَّا جاء أَغْطُسُ بقوانين لمكافحة العزوبة نَمَتْ هذه القوانين على أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد أخذت في الزوال ، ويجبُ أن يكون صلاح الحكومة حافزاً للمواطنين إلى الزواج ، لا أن يكون القانونُ مُكْرِهاً إِيَّاهُ عليه ، ولا تُكَلِّفُ أَنْفُسَنَا بالبحث فيما يُصْنَعُ بالقوة ، وذلك لأن القانون الذي يكافح النظامَ يَتَمَلَّصُ منه وَيَعْدُو فَارِغاً ، وإنما نَبْحَثُ فيما يَتِمُّ بفعل الأخلاق ومَثَلِ الحكومة الطبيعي ، فهذه الوسائلُ وحدَها هي ذات الأثر المستمر ، وتقوم سياسة الرئيس الصالح لدير القديس بطرس على البحث الدائم عن دواء قليلٍ لكلِّ داء خاص ، وذلك بدلاً من الرجوع إلى المنبع الجامع ليرى أنه لا يُمكن الشفاء من هذه الأدواء إلا دفعةً واحدة ، ولا يَقُومُ الأمرُ على معالجة كلِّ قرحةٍ تظهر على جسم المريض على انفراد ، بل على تصفية مجموع الدم الذي يُحْدِثُ القُرُوحَاتِ جميعاً ، ويقال إنه يُوجَدُ جوائزٌ للزراعة في إنكلترة ، فلا أطلب

(١) لا أعرف غير الصين بلداً يشذ عن هذه القاعدة .

دليلاً أعظم من هذا لِيُثْبِتَ عندى أن الزراعة لن تزدهر فى إنكلترة زماناً طويلاً .

وفى الأهلين أيضاً تَتَجَلَّى العَلَامَةُ الثانيةُ لصالح الحكومة والقوانين النسبى ، ولكن على وجهٍ آخر ، أى ان هذه الأمانة تُسْتَخْرَجُ من توزيعهم ، لا من عددهم ، وقد تتساوى الدولتان اتساعاً وسكاناً ، ولكن مع تفاوتهما قوةً ، وَتَكُونُ أقوى هاتين الدولتين دائماً هى التى يكون أهلوها منتشرين انتشاراً متساوياً على أَرْضِهَا ، والدولةُ التى لا تشتمل منهما على مُدُنٍ كبيرةٍ كثيرةٍ ، ومن يَمَّ تكون أقلهما ازدهاراً ، تَقْهَرُ الأخرى دائماً ، والمُدُنُ الكبيرةُ هى التى تَسْتَنْزِفُ الدولة وتُوجِبُ ضعفها ، وما تُنتِجُهُ من ثَرَاءٍ فهو ثَرَاءٌ ظاهرٌ خادعٌ ، وهو كثيرٌ نقدٍ وقليلٌ خيرٍ ، ويقال إن مدينة باريس تُعَدُّ ولايةً قِيَمَةً لدى ملك فرنسا ، ولكننى أعتقد أنها تُكَلِّفُهُ عِدَّةَ ولاياتٍ ، وذلك أن الولاياتِ تُغَدِّى باريسَ من وجوه كثيرة وأن مُعْظَمَ دخلها يَصُبُّ فى هذه المدينة ويبقى فيها من غير أن يعود على الأمة أو على الشعب مطلقاً . ومما لا جِدَالَ فيه عصر فى الحاسبين هذا أنه لا يُوجَدُ واحدٌ يُبَصِّرُ أن فرنسا تكون أكثر قوةً إذا ما دُمِرَت باريسُ تدميراً ، ولا يقتصر الأمرُ على كَوْنِ الأمة السَّيْئَةِ التوزيع غير نافعةٍ للدولة ، بل هو أدعى إلى الخراب من الإفقار ، وذلك من حيث أن الإفقار لا يُسْفِرُ عن غير إنتاجٍ صفرٍ وأن الاستهلاكَ غير المُرتَّبِ يُسْفِرُ عن إنتاجٍ سلبيٍّ ، ومتى سمعتُ فرنسياً وإنكليزياً فخورين بعظمة عاصمتيهما فيتجادلان حول أَيْتَهما أكثرُ سكاناً كان هذا فى نظرى مساوياً لتَجَادُلِهما

جَوَلَ أَىّ الشعبين له شرفُ كَوْنِهِ أَكْثَرُهَا سَوْءَ حَكُومَةٍ .

وَأَدْرُسُوا الأُمَّةَ خَارِجَ مَدْنِهَا ، فَلَنْ تَعْرِفُوهَا بغيرِ هذا الوجه ،
وَلَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ أَنْ يُرَى شَكْلُ الحَكُومَةِ الظَّاهِرُ الْمَرْبُوعُ بِجِهَازِ الإِدَارَةِ
وَبَرَطَانَةِ المَدِيرِينَ إِذَا لَمْ تُدْرَسْ طَبِيعَتُهُ بِالأَثَرِ الَّذِي يُحْدِثُهُ فِي الأُمَّةِ وَفِي
جَمِيعِ دَرَجَاتِ الإِدَارَةِ ، وَفِي الأَسَاسِ إِذْ يُوجَدُ فَرْقُ الشَّكْلِ مَقْسُومًا بَيْنَ
جَمِيعِ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ ، فَإِنْ هَذَا الفَرْقُ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِاكتِنَافِهَا جَمِيعًا ، وَفِي
بَلَدٍ مَا يُؤْخَذُ فِي الشُّعُورِ بِرُوحِ الوِزَارَةِ بِدَسَائِسِ وَكَلَانِهَا ، وَفِي بَلَدٍ آخَرَ
يُجِبُّ أَنْ تَطْلُمُوا عَلَى اتِّخَابِ أَعْضَاءِ الْبَرْلَمَانِ لِلْحُكْمِ فِي هَلٍ مِنْ الصَّحِيحِ
كَوْنُ الأُمَّةِ حُرَّةً ، وَفِي بَلَدٍ ثَالِثٍ ، أَيًّا كَانَ ، يَتَعَذَّرُ عَلَى مَنْ لَمْ يَرَ
غَيْرَ مَدْنِهَا أَنْ يَطْلِمَعَ عَلَى الحَكُومَةِ لِمَا لَا يَكُونُ الرُّوحُ وَاحِدًا فِي المَدَنِ
وَالْأَرْيَافِ مُطْلَقًا ، وَالْحَقُّ أَنَّ الأَرْيَافَ هِيَ الَّتِي تُوجَدُ الْبَلَدُ وَأَنَّ أَهْلَ
الأَرْيَافِ هُمُ الَّذِينَ يُوجِدُونَ الأُمَّةَ .

وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ لِلأُمَمِ فِي أَقَالِيمِهَا الْقَاصِيَةِ وَفِي بَسَاطَةِ مَوَاهِبِهَا
الأَصْلِيَةِ مَنَحُ مَلاحِظَةٍ عَامَةٍ كَثِيرَةٍ لِلْمَلَامَةِ لِمَا أُكْتُبَ كَثِيرَةُ السُّؤَالِ
لِقَلْبِ الْإِنْسَانِ ، وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ الأُمَمِ إِذَا مَا لُوحِظَتْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ظَهَرَتْ
أَجْدَرُ بِالمَلاحِظَةِ ، وَكَلِمَا دَنَتْ الأُمَمُ مِنَ الطَّبِيعَةِ سَادَ الصَّلَاحُ أَخْلَاقَهَا ،
وَلَيْسَ بِغَيْرِ الْإِحْتِبَاسِ فِي المَدَنِ ، وَلَيْسَ بِغَيْرِ التَّغْيِيرِ بِفَعْلِ الثَّقَافَةِ ، مَا تَفْسُدُ
الأُمَمُ ، وَمَا تُحَوَّلُ بَعْضُ النِّقَاصِ ، الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ غِلْظَةٍ مِنْهَا ضَرَرًا ،
إِلَى مَعَايِبَ مُسْتَعْذِبَةٍ مُؤْذِيَةٍ .

وَيَنْشَأُ عَنْ هَذِهِ المَلاحِظَةِ نَفْعٌ جَدِيدٌ فِي طَرَاظِ السِّيَاحَةِ الَّتِي اقْتَرَحَ ،

وذلك من حيث إن الشَّبَّان الذين هم قليلو الإقامة في المدن الكبيرة، حيث يَسُودُ فسادٌ هائلٌ ، أقلُّ إصابةً بهذا الفساد ، فيحفظون بين الرجال الذين هم أكثرُ بساطةً ، وفي المجتمعات الأقلَّ عددًا ، حُكْمًا أعظمَ صوابًا وذوقًا أرفعَ سدادًا وأخلاقيًا أشدَّ صلاحًا ، ومع ذلك فإنه لا يُوجَدُ في هذه المدَوَى ما يُخَشَى منه على إميل الذي لديه كلُّ ما يُلْزَمُ لوقايته منها، وأعتمدُ، بين جميع الاحتياطات التي اتخذتها في هذا السبيل ، اعتمادًا بالغًا على الحبِّ الذي يَحْمِلُ في فؤاده .

ولا يُعرَفُ ما يُمكنُ أن يَكُونَ للحبِّ من فعلٍ في مُيُولِ الشَّبَّابِ ، وذلك لأنَّ القائمين بتربيتهم ، إذ لا يَعْرِفُونَهُ خَيْرًا منهم ، يُجَوِّلونهم عنه ، ومع ذلك فإنه لا بُدَّ للشَّابِّ من أن يُحِبَّ أو أن يكون داعرًا ، ومن السهل أن يُخَدَّعَ بالظواهر ، أَجَلْ ، قد يُذَكِّرُ لى ألفُ شابٍّ يقال إنهم يَقْضُونَ حياةَ طُهرٍ كبير بلا غرام ، ولكن لِيُذَكِّرَ رجلٌ نامَ ، لِيُذَكِّرَ لى رجلٌ صادقٌ ، يقول إنه قَضَى شبابه على هذا الوجه حقيقةً ، والواقعُ أنه لا يُطَلَّبُ غير الظاهر في جميع الفضائل وجميع الواجبات ، وأما أنا فلا أطلبُ غيرَ الحقيقة ، وأَكُونُ قد خُدِعْتُ إذا كان يوجَدُ من الوسائل غيرُ التي أقَدِّمُ لبلوغ ذلك .

ولستُ صاحبًا لفكرةٍ جَعَلَ إميلَ عاشقًا قَبْلَ تَحْلِيهِ على السياحة ، وإليك الحادث الذي أوحى إلىَّ بها :

كنتُ أقوم في البندقية بزيارة مُرَبِّ لَفَتَّى إنكليزِيَّ ، وكان هذا في فصل الشتاء ، وكنا حَوْلَ النار ، ويتناول المرَبِّي رسائله من البريد ،

وَيُلْقِي نَظْرَةً عَلَيْهَا ، ثُمَّ يَتَلَوُ إِحْدَاهَا عَلَى تَلْمِيذِهِ بِصَوْتٍ عَالٍ ، وَقَدْ كَانَتْ
بِاللُّغَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ الَّتِي لَا أَفْهَمُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فِي أَثْنَاءِ التَّلَاوَةِ
أَنَّ الْفَتَى يُمَزِّقُ كُمَيْهِ الْجَمِيلَيْنِ مِنْ أَطْرَافِهِمَا وَيُلْقِي فِي النَّارِ قِطْعَةً بَعْدَ الْآخَرِ
بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ تَوَدِّعٍ لِكَيْلَا يَشْعُرَ أَحَدٌ بِذَلِكَ ، وَيَعْتَرِينِي دَهْشٌ
مِنْ هَذَا الْهَوَسِ ، وَأَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ ، وَأُظَنُّ أَنِّي أَرَى اضْطِرَابَهُ ، بَيِّنَةً
أَنَّ الْعَلَامَاتِ الْخَارِجِيَّةَ لِلْأَهْوَاءِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُتَشَابِهَةً لَدَى جَمِيعِ النَّاسِ ،
ذَاتُ فُرُوقٍ قَوْمِيَّةٍ يَسْهُلُ أَنْ يُخْدَعَ بِهَا ، وَلِلْأُمِّ عَلَى الْوَجْهِ مِنْ مُخْتَلَفِ
اللُّغَاتِ مَا يَبْدِلُ الَّتِي فِي الْأَفْوَاهِ ، وَأَنْتَظِرُ خَتَامَ التَّلَاوَةِ ، فَأُطْلِعُ الرَّبِّيَّ
عَلَى مِغْصَى تَلْمِيذِهِ الْعَارِيَيْنِ الَّذِينَ كَانَ يُخْفِيهِمَا بِأَقْصَى مَا يُمَكِّنُهُ ، وَأَقُولُ
لَهُ : « أَتُمَكِّنُنِي أَنْ أَعْرِفَ مَا يَعْنِي هَذَا ؟ » .

وَيُبْصِرُ الرَّبِّيَّ مَا وَقَعَ فَيَأْخُذُ فِي الضَّحْكِ ، وَيَعَانِقُ تَلْمِيذَهُ عِنَاقَ رِضًا ،
وَيُوضِحُ لِي مَا أَرْغَبُ فِيهِ بَعْدَ نَيْلِ مُوَافَقَتِهِ .

وَيَقُولُ لِي : « إِنَّ الْكُتُبَيْنِ اللَّذَيْنِ مَرَّقَهُمَا مِسْتَرْجُونٌ هُمَا هَدِيَّتَانِ
قَدَّمْتُهُمَا إِلَيْهِ سَيِّدَةٌ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ مِسْتَرْ
جُونَ خَاطَبٌ فِي بَلَدِهِ لِفَتَاةٍ يُحِبُّهَا حُبًّا جَدًّا ، وَهِيَ جَدِيدَةٌ بِهَذَا الْحُبِّ
كَثِيرًا ، وَهَذَا الْكِتَابُ مِنْ أُمِّ صَاحِبَتِهِ ، وَسَأَتَرْجِمُ إِلَيْكَ الْعِبَارَةَ الَّتِي أَوْجِبَتْ
مَا شَاهَدْتَ مِنْ تَمْزِيقٍ :

« لَا تَتْرُكْ لُوْسِي كُمِي لُورْد جُون مَطْلَقًا ، وَأَمْسِي أَنْتِ مِسنِ بِي
رُولْدَام لِقَضَاءِ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ عِنْدَهَا ، فَأَرَادَتْ ، مَعَ الْإِصْرَارِ ، أَنْ تَقُومَ
بِشُغْلِهَا ، وَإِنِّي ، إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ لُوْسِي نَهَضَتْ الْيَوْمَ مُبَكَّرَةً زِيَادَةً عَلَى

العادة ، أرذتُ أن أرى ما تصنع ، فوجدتها جادةً في نقض جميع ما عملته من بَيِّ أمس ، فهي لا تريدُ أن ترى في هديتها أية نقطةٍ من صنع غيرها .

وقد خرج جونُ بعد دقيقة ليتناول كُمينَ آخرين ، فقلت لمربيِّه : « لديك تلميذٌ ذو طبعٍ رائع ، ولكن قل لي : « أليس كتابُ أمِّ من لوسي عملَ ترتيبٍ مطلقاً ؟ أليست هذه وسيلةٌ اتخذتها ضدَّ صاحبة الكمين ؟ » ، ويقول لي : « كلاً ، فالأمرُ حقيقى ، ولا أسلكُ سبيل الحيل في أعمالي ، وتقوم جهودى على البساطة والهمة ، وقد بارك الله لي في عملى . »

ولم أنسَ حادثَ هذا الفتى قط ، وليس من شأنه ألا يترك أثراً في رأسِ حليمٍ مثلى .

وقد حان وقتُ الختام ، فلنأتِ بلورد جون إلى من لوسي ، أى بإميل إلى صوفية ، وهو يأتيها بقلبٍ ليس أقلَّ رقةً مما كان عليه قبل سفره ، وهو يأتيها بذهنٍ أكثرَ وضوحاً ، وهو يأتي ببلده مزوداً بفائدةٍ معرفته الحكومات من ناحية معايها والأمم من ناحية جميع فضائلها ، حتى إننى عُنيْتُ في كلِّ أمةٍ بأن يرتبط في رجالٍ من أصحاب المزايا بمهّدٍ من القرى على طريقة القدماء ، ولن يفيظنى أن يتعمّد هذه المعارف بتبادل الرسائل ، وإذا عدّوت ما يمكنُ أن يكون من فائدةٍ ومن مُتعةٍ دائمةٍ في المراسلات بالبلدان البعيدة وجَدْتُ هذا من الاحتياط الجميل تجاه سلطان المبتسرات القومية التي تسيطر علينا عاجلاً أو آجلاً بهجومها علينا مدى

الحياة ، ولا شيء أصلح لنزع هذا السلطان منها من معاشرة ذوى الرشاد الخالين من الغرض والذين هم موضعُ إجلالنا ، والذين هم ، إذ عَطَلُوا من مُبْتَسِرَاتِنَا ، يَكَاْفِحُونَ هذه بِمُبْتَسِرَاتِهِمْ فَيُعْطُونَنَا من الوسائل ما نعارض معه هذه بتلك بلا انقطاع واقين أنفسنا منها كلها على هذا الوجه ، ولا يُعَدُّ أمراً واحداً مطلقاً أن يعاشر الأجانب في بلدنا أو في بلدكم ، وذلك أنهم في الحال الأولى يَقُومُونَ في البلد الذي يُقِيمُونَ به بِصَرْبٍ من المجاملة يُخَفُّونَ معه رأيهم عنه ، أو أنه يَحْمِلُهُمْ على إبدائهم نحوه من الرأى ما يكون ملائماً له ماداموا فيه ، فإذا ما عادوا إلى بلدكم رَجَعُوا عنه ولم يَبْدُوا غيرَ عادلين ، وما يَسُرُّني كثيراً أن يكون الأجنبيُّ الذي أَسْتَشِيرُ قد زار بلدى ، ولكننى لن أَسْأَلَهُ رأيه عنه إلا في بلده .

وقد فَرَّغَ صَبْرُ إِمِيلَ بعد قضاء نحوِ عامين في جَوْبِ بعض الدول الكبيرة بأوربة ، وكثيرٍ من دولها الصغيرة ، وبعد تَعَلُّمِ اثنتين أو ثلاثٍ من لغاتها المهمة ، وبعد مشاهدة ما يستوقف النظر فيها حقاً ، سؤالا فى التاريخ الطبيعى أم فى الحكومة أم فى الفنون أم فى الرجال ، فَأَخْبَرَنِي بِأَن الأَجَلَ قد حان ، وهنالك أقول له : « حَسَنًا ! يا صديقى ، إِنَّكَ تَذْكُرُ الغَايَةَ الرئيسة من رِخْلَاتِنَا ، فقد رأيتَ ، وقد لاحظتَ ، فما نتيجةُ ملاحظاتِكَ ؟ وما الذى أنت عازمٌ عليه ؟ » ، إمّا أن أَكُونَ قد خُدِغْتُ بِمِنْهَاجِي ، وإمّا أن يكون جوابُهُ كما يأتى تقريباً :

« وَعَلَامَ أَغْزِمُ ؟ لقد عَزَمْتُ على أن أَظْلَمَ كما كَوْنْتَنِي ، وعلى عدم إضافتى ، بطوعى ، أىَّ قيدٍ آخرٍ غيرِ الذى تُحْمِلُنِي إياه الطبيعة والقوانين ، وكلما

دَرَسْتُ عَلَ النَّاسِ فِي نَظْمِهِمْ أَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ أَنْفُسَهُمْ عَيْدًا مِنْ
 حَيْثُ يَرْغَبُونَ أَنْ يَكُونُوا مُسْتَقِلِينَ ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَعْمَلُونَ حَرِيَّتَهُمْ نَفْسَهَا فِي جُهُودِهِمْ
 الْفَارِغَةِ تَوَطِيدًا لَهَا ، وَهُمْ يَقُومُونَ بِأَلْفِ كَلَفٍ لِكَيْلَا يُذْغَبُوا لَسِيلِ الْأُمُورِ ،
 وَهُمْ إِذَا مَا أَرَادُوا أَنْ يَتَقَدَّمُوا خُطْوَةً بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ، وَاعْتَزَّاهُمْ دَهْشٌ
 مِنْ تَعَلُّقِهِمْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيُلَوِّحُ لِي أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَصْنَعَ شَيْئًا لَنَكُونَ
 أَحْرَارًا ، وَإِنَّمَا يَكْفِي الْأَنْزِيدَ الْإِنْقِطَاعَ عَنْ أَنْ نَكُونَ أَحْرَارًا ، وَأَنْتَ الَّذِي
 جَعَلَنِي ، يَا مَعْلَى ، حُرًّا بِتَعْلِيمِي الْخُضُوعَ لِلضَّرُورَةِ ، وَدَعَا تَأْتِي مَتَى تَرِيدُ ،
 وَسَأَتَذَبَّعُهَا بِلَا إِكْرَاهٍ ، وَبِمَا أَنْتَ لَا أَرِيدُ مَنَاهِضَتَهَا فَإِنِّي لَا أَتَشَبَّثُ بِشَيْءٍ
 يُمْسِكُنِي ، وَقَدْ حَاوَلْتُ فِي سِيَاحَاتِنَا أَنْ أَجِدَ فِي الْأَرْضِ زَاوِيَةً أَوْ كُونُ فِيهَا
 مَالِكًا لِنَفْسِي عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَكِنْ مَا الْمَكَانُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ
 اتِّخَاذَهُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ ؟ وَقَدْ بَحِثْتُ كَثِيرًا فَوَجَدْتُ
 أَنْ بُقِيتِي نَفْسَهَا مُتَنَاقِضَةً ، وَذَلِكَ أَنَّنِي إِذَا مَا قَضَيْتُ بَالًا أَتَعَلَّقَ بِأَيِّ شَيْءٍ
 آخَرَ تَعَلَّقْتُ ، عَلَى الْأَقْلَى ، بِالْأَرْضِ الَّتِي أُسْتَقَرُّ بِهَا ، وَتَسْتَمَلِّقُ حَيَاتِي بِهِذِهِ الْأَرْضِ
 كَتَمَلِّقُ الْحَوْرِيَّاتِ بِأَشْجَارِهِنَّ ، وَإِنِّي ، إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ السُّلْطَةَ وَالْحَرِيَّةَ كِلْتَانِ
 مُتَنَاقِضَتَانِ ، لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ صَاحِبَ كُوخٍ إِلَّا بَعْدُورِي عَنْ كَوْنِي مَالِكَ نَفْسِي .
 « أَمَانِي ؟ هَذِهِ هِيَ : أَرْضٌ مُتَوَسِّطَةٌ الْإِتْسَاعِ » .

« وَأَذْكَرُ أَنَّ أَمْوَالِي كَانَتْ سَبَبَ اسْتِقْصَائِنَا ، وَقَدْ أَقْتَدْتُ دَلِيلًا بِالْغَى
 الْقُوَّةَ عَلَى أَنْتَى لَا أُسْتَطِيعُ الْإِحْتِفَاطَ بِثَرَوَتِي وَحَرِيَّتِي مَعًا ، وَلَكِنْكَ عِنْدَمَا
 أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ حُرًّا خَالِيًا مِنَ الْإِحْتِيَاجَاتِ مَعًا أَرَدْتُ أَمْرَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ ،
 وَذَلِكَ لِأَنَّنِي مَا كُنْتُ لِأُسْتَطِيعَ الْخُلَاصَ مِنْ اتِّبَاعِ النَّاسِ إِلَّا بِاتِّبَاعِي الطَّبِيعَةِ ،

وما أضنعُ ، إذَنْ ، بالثروة التي تَرَكها لي والدي ؟ سأبدأ بعدم اتِّباعي لها مطلقاً ، وسأزخِي جميعَ الروابط التي تَرْبُطُنِي بها ، وهي إذا تَرَكْتُ لي بَقِيَّتْ لي ، وهي إذا ما حُرِمْتُها لم أُجِرْ نفسي وراءها ، ولن أَقْلِقَ بالي في إمساكها مطلقاً ، ولكنني سأبقى ثابتاً حيث أنا ، وسأكون حُرّاً سواء أ كنتُ غنياً أم فقيراً ، ولن أكون ذلك في هذا البلد أو تلك البُقعة فقط ، بل أكونه في جميع الأرض ، وترى جميعَ قيود المُبَسَّر قد كَسِرَتْ بالنسبة إليّ ، ولا أعْرِفُ غيرَ قيود الضرورة ، وقد تعلمتُ حَمَلها منذ ولادتي ، وسأَحْمِلُها حتى مماتي ، وذلك لأني رجلٌ ، ولِمَ لا أُحْمِلُ هذه القيودَ كرجلٍ حُرٍّ ما دمتُ أُحْمِلُها وأنا عبدٌ مضافةً إلى قيود العبودية ؟

« وما أهميةُ مُقامي في الأرض في نظري ؟ وما أهميةُ المكان الذي أكون فيه ؟ أكون في منزل إخوتي حيث يُوجدُ آدميون ، وأكون في منزلي حيث لا يوجد آدميون ، ولدي مالٌ للعيش ، وسأعيش ، ما استطعتُ أن أبقي مستقلاًّ مُوسِراً ، فإذا كان مالي يُعَبِّدُنِي فَإِنِّي أنزُكه بلا عناء ، فلدي ذراعان للعمل ، وسأعيش ، وإذا ما أعوزتني الذراعان عِشْتُ ما غَدَّيتُ ، وسأموت إذا ما هُجِرْتُ ، وسأموت أيضاً وإن لم أُهَجَرْ ، وذلك لأن الموت ليس عِقَاباً على الفقر ، بل هو قانونٌ للطبيعة ، وأتحدَّى الموتَ في أيِّ وقتٍ يأتي ، وهو لن يُبَاغِتَنِي وأنا أُعِدُّهُ عُدْداً للحياة ، وهو لن يَحُولَ دُون ما كان من حياتي .

« ذاك ما أنا عاجزٌ عليه يا أَبْتِ ، ولو كنتُ خالياً من الأهواء لكنت في رُجُولتي مستقلاًّ مثل الإله نفسه ، وذلك من حيث أنتي لا أريد أن أكون

غيرَ ما أنا عليه فلا أكافحُ المصيرَ مطلقاً ، وليس لدى غيرِ قيدٍ واحدٍ على الأقل ، وهو الوحيدُ الذي سأَحْمِلُهُ دائماً ، وهو الذي أستطيع أن أباهيَ به ، فتمالَ ، إذنَ ، وأُعْطِنِي صُوفِيَّةً ، فأنا حرٌّ .

« — أَيْ إميلُ العزيزُ ، حَقّاً أَنَّهُ يَسُرُّنِي سَمَاعِي مِنْ قِمِكَ كَلَامَ رَجُلٍ ، وَأَنْ أَتَبَصَّرَ مَشَاعَرَ فِي قَوَادِكَ ، وَلَيْسَ هَذَا التَّجَرُّدُ مِنَ الْهَوَى الْمُتَنَاهَى مِمَّا لَا يَرُوقُنِي صَدُورُهُ عَنِ هُوٍ فِي عُمُرِكَ ، وَهُوَ سَيَقِلُّ مَتَى صِرْتَ ذَا وَلَدٍ ، وَهَنَالِكَ تَكُونُ ، صَبْطاً ، مَا يَكُونُهُ رَبُّ الْأُسْرَةِ الصَّالِحُ وَالرَّجُلُ الْحَكِيمُ ، وَكُنْتُ أَغْرِفُ مَا تَكُونُ النَتِيجَةُ قَبْلَ رِحْلَاتِكَ ، وَكُنْتُ أَغْرِفُ ، عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى نُظْمِنَا عَنْ كَسْبٍ ، أَنَّكَ تَكُونُ بَعِيداً مِنْ أَنْ تُعَيِّرُهَا اعْتِمَاداً لَا تَسْتَحِقُّهَا ، وَمِنَ الْعَبَثِ أَنْ نَطْمَحَ إِلَى الْحَرِيَّةِ تَحْتَ ظِلِّ الْقَوَانِينِ ، آَلَقَوَانِينِ ؟ أَيْنَ هِيَ ، وَأَيْنَ تَكُونُ مُحْتَرَمَةً ؟ لَمْ تَرْتَحِمْ هَذَا الْأَسْمَ فِي أَيٍّْ مَكَانٍ كَانَ غَيْرَ سِيَادَةِ الْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَأَهْوَاءِ النَّاسِ ، وَلَكِنْ قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ وَالنِّظَامِ الْأَبَدِيَّةِ مَوْجُودَةٌ ، وَهِيَ تَقُومُ مَقَامَ الْقَانُونِ الْوَضْعِيِّ لَدَى الْحَكِيمِ ، وَهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي صَمِيمِ قَوَادِهِ بِالْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُعَبِّدَ نَفْسَهُ لَهَا كَمَا يَكُونُ حُرّاً وَلَا يُوجَدُ عَبْدٌ غَيْرُ الَّذِي يَصْنَعُ الشَّرَّ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْعَلُهُ عَلَى الرِّغْمِ مِنْهُ دَائِماً ، وَلَيْسَتْ الْحَرِيَّةُ فِي أَيٍّْ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الْحُكُومَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي قَوَادِ الرِّجَالِ الْحُرِّ ، وَهُوَ يَحْمِلُهَا مَعَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَالرَّجُلُ النَّذْلُ يَحْمِلُ الْعُبُودِيَّةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَحَدُهُمَا يَكُونُ عَبْدًا فِي جَنيفٍ ، وَيَكُونُ الْآخَرُ حُرّاً بِبَارِيسَ .

» وَإِذَا مَا حَدَّثْتُكَ عَنْ وَاجِبَاتِ الْمَوَاطِنِ سَأَلْتَنِي ، عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، عَنْ

مكان الوطن وظننت أنك ترُبُّكُنِي ، ومع ذلك فإنك تتخذ نفسك
يا إميلُ العزيز ، وذلك لأنه يوجدُ بلدٌ على الأقلٍّ لمن ليس له وطنٌ ، وفي
كلِّ وقتٍ توجدُ حكومةٌ مع أشباحٍ للقوانين عاش تحت ظلِّها بهدوء ،
وهل من المهمُّ ألا يكون العقدُ الاجتماعيُّ قد رُوِيَ إذا ما سمَّته المصلحة
الخاصة كما كان على الإرادة العامة أن تصنع ، وإذا ما صانته الصَّولةُ العامة
من الصَّولات الخاصة ، وإذا كان الشرُّ الذي أبصر وقوعه قد حبَّبَ إليه
ما كان حسناً ، وإذا كانت نُظُمُنَا نفسُها قد أطلعتْهُ على أوزارها الخاصة
فجعلته يُبغِضُ هذه الأوزار ؟ أيُّ إميلُ ! أين رجلُ الخيرِ غيرُ المدين لبلده
بشيء ؟ ومهما يكنُ من أمر هذا البلد فإنه مدينٌ له بأتم شيءٍ للإنسان ،
مدينٌ له بمكارم أعماله وبحبِّ الفضيلة ، أجلُّ ، إنه إذا ما وُلِدَ في وَسَطِ
غايةٍ عاش أكثرَ سعادةً وأعظمَ حريةً ، ولكنه إذ لا يكون لديه شيءٌ
يكافئه تبعاً لميوله فإنه يكون صالحاً بلا فضيلة ، وإنه لا يكون فاضلاً مطلقاً ،
وأما الآن فإنه يعرفُ أن يكون فاضلاً على الرغم من أهوائه ، وما يكونُ
من ظاهر النظام وحده يحمله على معرفة ذلك وحبه ، ويكونُ الخيرُ العامُّ ،
الذي لا يصلحُ أن يكون غيرَ ذريعةٍ لدى الآخرين ، باعثاً حقيقياً عنده ،
فهو يتعلَّمُ مقاومةَ نفسه وقهرَها والتضحية بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة
العامة ، وليس من الصحيح أنه لا يستفيد شيئاً من القوانين ، فالقوانينُ
تُنعمُ عليه بشجاعةٍ يكون بها عادلاً حتى بين الأشرار ، وليس من الصحيح
أنها لم تجعلهُ حُرّاً ، فهي قد علَّمته أن يسيطر على نفسه .

« ولذا لا تقلْ : ما أهمية المكان الذي أكون فيه ؟ فما يُهمُّك أن

تَكُونُ حَيْثُ تَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِجَمِيعِ وَاجِبَاتِكَ ، وَمِنْ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ أَنْ تُحِبَّ مَسْقِطَ رَأْسِكَ ، وَقَدْ حَمَاكَ مَوَاطِنُكَ صَغِيرًا فَيَجِبُ أَنْ تُحِبَّهُمْ كَبِيرًا ، وَيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعِيشَ بَيْنَهُمْ ، أَوْ ، عَلَى الْأَقْلَى ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ نَافِعًا لَهُمْ فِيهِ مَا أَضَرَّكَ ، وَفِي الْمَكَانِ الَّذِي يَعْرِفُونَ أَنْ يَجِدُوكَ فِيهِ إِذَا مَا احتاجوا إِلَيْكَ ، وَتُوجَدُ أَحْوَالُ كَثِيرَةٌ يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَكْثَرُ نَفْعًا لِمَوَاطِنِهِ خَارِجَ وَطَنِهِ مِمَّا لَوْ كَانَ يَعِيشُ فِي سَوَانِهِ ، وَهَنَالِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَلَّا يُبَلِّغَ غَيْرَ دَاعِيَ غَيْرَتِهِ وَأَنْ يَصْبِرَ عَلَى غُرْبَتِهِ بِلَا تَذَمُّرٍ ، فَهَذَا الْاِغْتِرَابُ مِنْ جَهْلَةٍ وَاجِبَاتِهِ ، وَأَنْتَ ، يَا إِمِيلُ الصَّالِحُ ، الَّذِي لَا شَيْءَ يَقْرِضُ عَلَيْهِ هَذِهِ التَّضَحِيَّاتِ الْاَلْمِيَّةَ ، وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَحِلْ وَظِيفَةَ قَوْلِ الْحَقِيقَةِ لِلنَّاسِ ، اذْهَبْ وَعِشْ بَيْنَهُمْ وَتَعَمَّدْ صَدَاقَتَهُمْ بِصَحْبَةٍ كَلِيَّةٍ ، وَكُنْ مُحْسِنًا إِلَيْهِمْ وَقُدُورَةً لَهُمْ ، فَيُنَالُكَ يَكُونُ نَافِعًا لَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِ كَتَبِنَا ، وَسَيَكُونُ الْمَعْرُوفُ الَّذِي يَرَوْنَكَ صَانِعًا إِيَّاهُ أَعْظَمَ تَأْثِيرًا فِيهِمْ مِنْ جَمِيعِ كَلَامِنَا الْفَارِغِ .

« وَلَا أُحَرِّضُكَ عَلَى الزَّهَابِ لِلْعَيْشِ فِي الْمَدَنِ الْكَبِيرَةِ ، وَعَلَى الْعَكْسِ فَإِنْ مِنَ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الصَّالِحِينَ أَنْ يُلْقَوْهَا عَلَى الْآخَرِينَ هُوَ مِثَالُ الْحَيَاةِ الْأَبْوِيَةِ الْحَقْلِيَّةِ ، أَيْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْأَدْوَلَى الَّتِي هِيَ أَهْدَى مَا يَكُونُ لَدَى صَاحِبِ الْقَلْبِ غَيْرِ الْفَاسِدِ وَأَقْرَبُ إِلَى الطَّبِيعَةِ وَأَحْلَى ، وَطُوبَى ، يَا صَدِيقِي الْفَتَى ، لِلْبَلَدِ الَّذِي لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الزَّهَابِ لِلْبَحْثِ عَنِ السَّلَامِ فِي الصَّحَرَاءِ ! وَلَكِنْ أَيْنَ هَذَا الْبَلَدُ ؟ بَلَى ، لَا يُرْضِي الرَّجُلُ الْحَسَنُ مَثَلَهُ بَيْنَ الْمَدَنِ حَيْثُ لَا يَجِدُ ، تَقْرِيْبًا ، مَا يَمَارِسُ مِنْ أَجْلِ هِمَّتِهِ إِلَّا

الأراجين والمالكين ، وما يجِدُ السكّالَى ، الذين يأتونها للبحث عن الثراء ، من حُسْنِ قبولٍ لا يُسْفِرُ عن غير اجتياح البلد الذى يجب إعمارُه ثانيةً على حساب المُدُن كما يَقْضِي الحقُّ ، وبعْدُ جميعُ من يَنْزَوُونَ من المجتمع الأكبر نافعين لأنهم يعتزلونه تمامًا ، وما دامت جميعُ عيوبه تأتيه من كثرة عدده ، وما يَجْعَلُهُم نافعين أيضًا استطاعتهم أن يَجْلِبُوا إلى الأماكن المُفْرِة ما هو خاصٌ بحالهم الأولى من الحياة والحِرْث والحُبِّ ، وأحينٌ حينَ بَعْنٍ لى مقدارُ ما يَسْتَطِيع إميلُ وصُوفية أن يَنْفُسُوا من الحَسَنَات حَوَلَهَا فى أثناء عزلتها ، ومقدارُ ما يَقْدِرَان على إنعاشه من الرِّيف ويُحْيِيَان من همة القَرَوِيِّ الشَّقِيِّ الخالدة ، ويُنْخِلُ إلىَّ أننى أرى الشعب يتكاثر وأن الحقول تُعَمَّر ، وأن الأرض تَلْبَسُ حِلِيَّةً جديدةً ، وأن الجهورَ والوفورَ يُحَوِّلَان الأشغال إلى أعياد ، وأن البرَكاتِ وهتافاتِ الفَرَحِ تتصاعد بين الألعاب الحقلية وحَوَلِ الزوجين المحبوبين اللذين أعادا إليها الحياة ، وبعْدُ العصرِ الذهبى من الأوهام ، وهذا يَكُون ، دائماً ، عند من هو ذو قلبٍ وذوقٍ فاسدين ، حتى إنه ليس من الصحيح أن يؤسَفَ عليه ما دامت هذه الحَسَرَاتُ لا طائلَ فيها دائماً ، وما يجب أن يُصَنَعَ لبعث هذا العصر إذَنْ ؟ أمرٌ واحدٌ متعذّرٌ ، وهو أن يُحَبَّ .

« وكان قد لاح لى بَمَثُ حَوَلِ مَنْزِلِ صُوفِيَّة ، وليس عليك إلا أن تُكْمِلَ ممّا بدأ أبواها الوقُورَان ، ولكن ، يا إميلُ العزيز ، لا تَدَعِ الحياةَ البالغةَ الدَّعةَ تَحْمِلُكَ على كَرَاهِيَةِ الواجباتِ الشاقة إذا ما فُرِضَتْ عليك ، واذْكَرْ أن الرومان كانوا ينتقلون من المِحْرَاثِ إلى القنصلية ، وإذا ما دعاكَ

الأميرُ أو الدولة إلى خدمة الوطن فأترك كلَّ شيءٍ واذهبُ لتقومَ بوظيفةِ الوطنيِّ المَحيِدةِ في المركز الذي يُعَيِّنُ لك ، وإذا كانت هذه الوظيفةُ ثَقِيلَةً عليك فإنه يُوجدُ وسيلةٌ شريفةٌ أَمِينَةٌ لِلتَّخَلُّصِ منها ، وذلك أن تقومَ بها بإخلاصٍ كافٍ حتى لا تُتْرَكَ على عاتقك زمناً طويلاً ، ثم لا تَفْرَغَ من عُسْرِ مثل هذا العبءِ ، فليستَ بالذي يُطَلَّبُ لخدمة الدولة ما وُجِدَ رجالٌ من أهل هذا العصر .

ولمَ لا أبيعُ لِنَفْسِي وصفَ رُجُوعِ إميلَ إلى صُوفيةٍ وخاتمةَ مَعَاشِقِهما ، وإن شئتُ فقلْ بدءَ غرامِهما الزَّوَاجِيِّ الذي يَجْمَعُ بينهما ! هذا الغرامُ القائمُ على الإكرام الذي يَدُومُ مَدَى الحياة ، وعلى الفضائل التي لا تُنْجَحَى مع الجلال ، وعلى توافق الأخلاق الذي يَجْعَلُ الصَّحبةَ مُحِبَّةً والذي يُطِيلُ في المشيبِ فَتُونَ الوِصالِ الأول ، ولكن جميع هذه التفاصيل قد تَرُوقُ من غير أن تكونَ نافعةً وقد أَبْجَتْ لِنَفْسِي ، حتى الآن ، أمر القيام بتفاصيل مُسْتَحْبَّةٍ كالتي اعتقدتُ فائدتها ، وهل أتُركُ هذه القاعدةَ عند ختامِ عملي ؟ كَلَّا ، وإني أشعرُ بِمَلالٍ اعترى قلبي ، وإني ، وأنا البالغُ من الضَّعْفِ ما لا أَقُومُ معه بأعمالٍ تقتضي نفساً طويلاً ، كُنتُ أتُركُ هذا العملَ لو كان أقلَّ تَقَدُّماً ، وإذا كان من غير الجائز تركُ هذا العملِ ناقصاً فإن وقتَ الفراغِ منه قد أتى .

وأخيراً أَبْصِرُ أكثرَ أيامِ إميلِ سِخْراً وأكثرَ أيامي سعادةً ، وَأَبْصِرُ تمامَ جهودِي ، وأبدأ بذواقِ ثَمَرَتِها ، وَيَتَّحِدُ الزوجانِ الكريمانِ بَقِيدٍ لا انفصامَ له ، وَيَلْفِظُ فهُمَا ، ويؤيدُ فؤادُهما ، وعوداً لن تكونَ باطلاً

مطلقاً ، فهما عَرُوسان ، وَيَعُودان من المَعْبَد ، وَيُسَيِّران ، ولا يَعْرِفان أين
 هما وأين يَذْهَبان ، ولا ما يُصْنَعُ حَوْلَهُما ، وهما لا يَنْتَبِهان مطلقاً ، وهما
 لا يُجِيبان بغير كلمات غامضة ، وعادت أعينهما الحائرة لا تَرَى شيئاً ،
 ويا للذهيان ! ويا للضعف البشري ! إن حِسَّ السعادة يَسْحَقُ الإنسان ،
 وليس الإنسانُ من القوة ما يحتمله معه .

وقليلٌ من الناس من يَعْرِفون اتخاذَ لهجةٍ ملاءمةٍ مع الزوجين يومَ
 قِرآنهما ، وَيُلَوِّحُ لى أن من غير المناسب على السواء ما يَكُونُ عليه بعضهم
 من احتشامٍ عابس وما يصدر عن الآخرين من لَفْوِ الكلام ، وأفضَلُ أن
 يُتْرَكَ القَوادانِ الفَتَيَّانِ عاكفين على نَفْسِهما ، وأن يستسلا إلى اضطرابٍ
 لا يَخْلُو من فُتُونٍ ، على أن يُنَمَّنَ في شَفَلِهما عنه بأن يُرَبَّكَ باحتشامٍ
 زائفٍ مُغَيَّرٍ لهما ، أو بأن يُلَبَّكَ بدُعائياتٍ لاذعةٍ تُزَعِّجُهما في مثل ذلك
 اليوم ، وإن كانت تَرُوقُهما في وقت آخر .

وأبْصِرِ الفَتَيَّينِ في ذُبُولِهما العَذْبِ الذى يضطربان به فلا يَسْمَعانِ ما
 يُوجَّهُ إليهما من كلام ، وأما أنا ، الذى يُريدُ أن يُتَمَتَّعَ بالحياة كُلَّ
 يوم ، فهل أَدَعُ يوماً عزيزاً كذاكَ يَضِيعُ عليهما ؟ كَلَّا ، وإنما أُريدُ
 أن يَذُوقاه وأن يَتَنَعَّمَا فيه ، وأن يَتَمَتَّعَا بملأذِهِ ، وأنزِعُهما من الجَمْعِ
 غيرِ الرِّصينِ المُتَعَبِ لهما ، وآتِ بهما للنَّزْهَةِ في مكانٍ منحرفٍ وأرُدُّهما
 إلى نَفْسِهما بالحديثِ عنهما ، وليست أذناهما ما أريدُ أن أخاطبَ ، بل
 قَوادِهما ، ولا أَجْهَلُ الموضوعِ الوحيدِ الذى يُمَكِّنُ أن يَشْفَلَ بالهما في
 ذلك اليوم .

وَأَمْسِكْ يَدَ كُلِّ مَنِهَا وَأَقُولُ : « أَيْ وَلَدِيَّ ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْذُ ثَلَاثِ سَنِينَ ظُهُورَ هَذِهِ الشُّعْلَةِ الْمُضْطَرِمَّةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَى سِرِّ سَعَادَتِكَ الْيَوْمَ ، وَهِيَ مَا فَتَتْ تَزِيدُ بِلَا انْقِطَاعٍ ، وَأُبْصِرُ فِي أَعْيُنِكَ أَنَّهَا فِي آخِرِ دَرَجَاتِ حَدِّهَا ، وَعَادَ لَا يُمَكِّنُ غَيْرُ وَهْنِهَا » ، أَوَّلَا تَرَوْنَ ، أَيُّهَا الْقَرَاءُ ، هَيَّجَانِ إِمِيلَ وَهِيَامَتِهِ وَأَيْمَانِهِ ، وَمَظْهَرَ الْإِزْدِرَاءِ الَّذِي اسْتَخْلَصَتْ صُوفِيَّةٌ بِهِ يَدَهَا مِنْ يَدِي ، وَالتَّصَرُّيحاتِ النَّاعِمَةِ الَّتِي كَانَا يَتَبَادَلَانِهَا بِأَعْيُنِهِمَا دَلَالَةً عَلَى عِبَادَةِ كُلِّ مَنِهَا لِلْآخِرِ حَتَّى النَّفْسِ الْآخِرِ ؟ وَأَتَغَاضَى عَنْهُمَا ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى الْكَلَامِ فَأَقُولُ :

« مَا أَكْثَرَ مَا أَبْصَرْتُ أَنَّهُ إِذَا مَا أَمَكُنْتُ إِطَالَةَ سَعَادَةِ الْحُبِّ فِي الزَّوْجِ مُلِكْتُ الْجَنَّةَ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي لَمْ يُرَ حَتَّى الْآنَ ، وَاسْكَنْ الْأَمْرَ إِذَا لَمْ يَتَعَذَّرْ تَمَامًا كُنَّا جَدِيرِينَ بِأَنْ تَكُونَا قُدُورَةً لَمْ تَتَلَقَّيَاهَا مِنْ أَحَدٍ وَلَمْ يَسْتَطِعْ غَيْرُ أَزْوَاجٍ قَلِيلِينَ أَنْ يُقْلِدُوهَا ، وَهَلْ تَرِيدَانِ ، يَا وَلَدِيَّ ، أَنْ أُحَدِّثَكُمَا عَنْ وَسِيلَةٍ أُمَثِّلُهَا فِي هَذَا السَّبِيلِ مَعْتَقِدًا أَنَّهَا مُمْكِنَةٌ وَحَدَّاهَا ؟ » .

وَيَتَبَادَلَانِ النَّظَرَاتِ مُتَبَسِّمِينَ وَيَسْخَرَانِ مِنْ بَسَاطَتِي ، وَيَشْكُرُ لِي إِمِيلُ إِرْشَادِي بِجَلَاءِ قَائِلًا إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ صُوفِيَّةَ تَكُنُّ لِي أَكْثَرَ مِنْ هَذَا مَكْنَفِيًّا بِمَا قَالَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَتُؤَافِقُ صُوفِيَّةَ عَلَى هَذَا وَتَبْدُو مَطْمَئِنَةً ، وَمَعَ ذَلِكَ فَاتَنِي أَمِيرٌ مِنْ خِلَالِ وَضْعِهَا السَّاخِرِ شَيْئًا مِنَ الْفُضُولِ ، وَأُنْعِمُ النَّظَرَ فِي إِمِيلَ فَأَجِدُهُ يَلْتَمِسُ فُتُورَ زَوْجِهِ بَعِينِهِ الْمَلْتَهَبَتَيْنِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ فَضُولُهُ ، وَمَا كَانَتْ أَقْوَالِي لِتُثِيرَ انْتِبَاهَهُ ، وَأَتَبَسَّمُ بِدَوْرِي قَائِلًا

في نفسى : « سَأَعْلَمُ من قَوْرِي كيف أَجْعَلُكَ مُنْتَهِيًا لِي » .
وما بين هذه الحركات الخفية من فَرْقٍ غيرِ محسوسٍ تقريبًا يَنِمُّ على
الفارق بين الجنسين المخالف لما هو سائدٌ من مُبْتَسِرَاتٍ ، وذلك أن الرجالَ
أَقْلُ ثَبَاتًا من النساء على العموم فَتَقْتَرُ هَتْمُهُنَّ بِأَسْرَعٍ مِنْهُنَّ في حَقْلِ الحبِّ
المبارك ، وَتُبْصِرُ المرأةُ عَدَمَ ثَبَاتِ الرجل من بعيد فَتَجْزَعُ ^(١) من هذا ،
وهذا ما يَجْعَلُهَا أَشَدَّ غَيْرَةً أَيْضًا ، وهو إذا مَا أَخَذَ يَفْتَرُ واضْطُرَّتْ ، لِحِفْظِهِ ،
إلى بَذْلِ جميع الجهود ، التى كانت تَقُومُ بها لالْوَقُوعِ عنده موقع الرِّضَا ،
بِكَيْتٍ وَتَدَلَّاتٍ بِذَوْرَهَا ، ولكن مع نُذْرَةِ النجاح ، أَجَلٌ ، إن الأَفْئِدَةَ
تُكْسَبُ بالمودَّة والجهد ، ولكنها لا تُسْتَرَدُّ بهما مطلقًا ، وأَعُودُ إلى إرشادى
حَوْلَ فُتُورِ الغرام فى القِرَّانِ .

وأعود إلى الكلام فأقول : « والأمرُ بسيطٌ سهلٌ » ، وذلك أن يستمرَّ
الزَّوجان على كَوْنِهِمَا عاشقين .

ويقول إميلُ ضاحكًا سِرًّا : « إِنَّا لَنَ نَجِدُ فى ذلك عُسْرًا » .
« — قد يَكُونُ أَعْسَرَ مما تتصور أنت الذى يتكلم ، فأرجو أن تَتْرَكَ
لِي من الوقت ما أَوْضِحُ فيه ما أَرَى .
« إن العُرَى التى يُرَادُ شَدُّهَا كَثِيرًا تَنْفِصُ ، وهذا ما يَحْدُثُ لِعُقْدَةٍ

(١) يكون النساء فى فرسة أول من ينفصل ، وذلك لأنهن إذا كن أقل مزاجًا ولم يرغبن فى غير
التكريم فإِنَّهن لا يبدین غیر قليل مبالاة بالزوج الذى يعدل عن إكرامهن ، وأما فى البلادان الأخرى فيكون
الزوج أول من ينفصل ، وذلك لأن النساء الوفيات ، ولكن مع عدم رصانة ، يزعمنهم برغائهن فيورثهم
نفورًا منهن ، أجل ، إن من الممكن أن يكون لهذه الحقائق العامة كثير من الاستثناءات ، ولكنى أعتقد
الآن أنها من الحقائق العامة .

النكاح التي يُرَادُ مَنَحُهَا من القوة أكثر مما يَنْبَغِي ، والوفاء الذي يَفْرِضُهُ النكاح على الزوجين هو أقدسُ من جميع الواجبات ، ولكنه يَمْنَحُ كَلًّا منهما سلطاناً كبيراً ، ولا يَتَسَاوَقُ الْقَسْرُ والغرام ، ولا يُوصَى بِاللَّذَّةِ ، ولا تُخْجَلِي ، يا صُوفِيَّةُ ، ولا تُفَكِّرِي في الفِرَارِ ، ومعاذَ اللَّهِ أن أريدَ الإساءةَ إلى حيائك ! ولكنَّ الأمرَ خاصٌّ بمصيرك ، ففي موضوعِ بالغِ الأهميةِ احتَمَلِي حديثاً بين الأب والزوج لا تَحْتَمِلِينَه في موضعٍ آخر .

« وليست الحيازةُ كإخضاعِ يُرَوَى الغليل ، ويُحَفَظُ للفتاة التي تُخْطَبِي من الحبِّ ما هو أطولُ من الذي تُحِبِّي به الزوجة ، وكيف يُمَكِّنُ أن يُجْعَلَ واجبٌ من أنْفَمِ الألطافِ وحقٌّ من أحلى آياتِ الغرامِ ؟ إن تبادل الرغبة هو الذي يَصْنَعُ الحقَّ ، ولا تَعْرِفُ الطبيعةُ حقاً آخرَ مطلقاً ، أَجَلُ ! يستطيع القانونُ تضيقُ هذا الحقَّ ، ولكنه لا يَقْدِرُ أن يُوسِّعَ مداه ، وبإِخْلَاقٍ الشهوةِ بنفسها ! وهل تَنَالُ بالضنكِ الكثيبَ من القوةِ ما لا تستطيعُ تَنِيلُهُ بجَوَازِهَا الخاصةِ ؟ كَلَّا ، يا وَلَدَيَّ ، إن القلوبَ تتحدُ بالزواجِ ، ولكن الأبدانَ لا تَعْبُدُ مطلقاً ، وكلُّ منكما مُلْزَمٌ بالوفاءِ نحو الآخرِ ، لا بالمسايرةِ ، ولا يُمَكِّنُ كَلًّا من الاثنينِ إلا أن يَكُونَ للآخرِ ، ولكن لا يَنْبَغِي أن يكونَ أيُّ من الاثنينِ للآخرِ إلا إِذَا رَاقَهُ .

« وإذا كنتِ ، يا إميلُ العزيز ، تُرِيدُ أن تكونَ عاشقاً لزوجتكِ حقّاً وَجِبَ أن تكونَ خليةً لك ولنفسها دائماً ، وَكُنْ عاشقاً سعيداً ، ولكنْ مُكْرِماً ، وفزْ بالغرامِ كُلَّهُ من غيرِ أن تَطْلُبَ شيئاً من الواجبِ ، ولا تَجْعَلَ من أَقَلِّ الحُطُوتِ حقوقاً لك مطلقاً ، وإنما دَعَمَها تكونُ أُلُفّاً ،

وَأَعْرِفُ أَنَّ الْحَيَاءَ يَحْتَرِزُ مِنَ الاعْتِرَافَاتِ الصَّرِيحَةِ وَيَقْضِي بِأَنْ يُقَهَّرَ ،
وَلَكِنْ هَلِ الْمَاشِقُ ، مَعَ الرَّقَّةِ وَالْغَرَامِ الْحَقِيقِيِّ ، يُخَدِّعُ حَوْلَ الْبُفْيَةِ الْخَفِيَّةِ ؟
وَهَلِ يَجْهَلُ عِنْدَ مُوَافَقَةِ الْقَلْبِ وَالْعَيْنَيْنِ مَا يُظْهِرُ الْقَمُ مِنْ رَفْضٍ ؟ وَدَعْ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْاِثْنَيْنِ مَالِكًا لِشَخْصِهِ وَمَلَامَاتِهِ فَيَحِقُّ لَهُ أَلَّا يَمُنَّ بِهِمَا عَلَى
الْآخَرِ إِلَّا حِينَ يُرِيدُ ، وَاذْكُرْ فِي الزَّوْجِ ، دَائِمًا ، أَنَّ اللَّذَّةَ لَا تَكُونُ
شَرْعِيَّةً إِلَّا عِنْدَ تَبَادُلِ الرِّغْبَةِ ، وَلَا تَخَافَا ، يَا وَلَدِي ، أَنَّ تَفْصِيلَ هَذِهِ السُّنَّةِ
أَحَدًا كَمَا عَنِ الْآخَرِ ، بَلْ هِيَ ، عَلَى الْعَكْسِ ، تَجْمَلُ كَلًّا مِنْكَ أَكْثَرَ
انْتِبَاهًا كَمَا يَرُوقُ الْآخَرُ ، وَتَحُولُ دُونَ الْكِطَلَةِ ، وَلَيَقْتَصِرُ كُلُّ مِنْكَ
عَلَى الْآخَرِ ، فَالطَّبِيعَةُ وَالْحُبُّ يُقَرِّبَانِ بَيْنَكَ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ .

تَشِيرُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ وَمَا مِثْلُهَا غَضَبَ إِمِيلَ فَيَصِيحُ مُعْتَرِضًا ، وَيَعْتَرِي
صُوفِيَّةَ حَيَاءٍ فَتَضَعُ مِرْوَحَتَهَا عَلَى عَيْنَيْهَا وَلَا تَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ ، وَقَدْ لَا يَكُونُ
أَكْثَرُ الْاِثْنَيْنِ سَخَطًا أَكْثَرَهَا شَكَايَةً ، وَأَصِرُّ بِهَا رَحْمَةً ، وَأَجْهَلُ إِمِيلَ
يَحْمَرُّ خَجَلًا مِنْ قِلَّةِ لَطَافَتِهِ ، وَأَضْمَنُ أَنَّ تَقَبُّلَ صُوفِيَّةَ الْبَحْثِ مِنْ نَاحِيَتِهَا ،
وَأَخْصُهَا عَلَى الْكَلَامِ ، وَمَا يُشَكُّ فِيهِ أَنْ تَجْزُوْا عَلَى تَكْذِيبِي ، وَبِشَاوِرِ إِمِيلَ
الْمُشْغُولِ الْبَالِ عَيْنِي زَوْجَتَهُ الْفَتَاةَ ، وَيَرَاهَا ، مِنْ خِلَالِ ارْتِبَا كُهُمَا ، مَمْلُوءَتَيْنِ
كَدَّرًا شَهْوَانِيًّا مُطْمَئِنًّا إِيَّاهُ حَوْلَ خَطَرِ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهَا ، وَيُلْقِي نَفْسَهُ عَلَى رَجْلَيْهَا ،
وَيُقَبِّلُ الْيَدَ الَّتِي تَمُدُّهَا إِلَيْهِ هَاجِمًا مُقْسِمًا أَنَّهُ يَتَنَزَّلُ عَنْ كُلِّ حَقٍّ عَلَيْهَا
خِلَا الْوَفَاءِ الْمَوْعُودِ ، وَيَقُولُ لَهَا : « أَيُّ زَوْجَتِي الْعَزِيزَةِ ، كُونِي حَكَمًا
فِي مَلَاذِي كَمَا أَنَّكَ حَكَمٌ فِي أَيْامِي وَمَصِيرِي ، وَلَوْ قَضَتْ قَسَوَتُكَ بِتَكْلِيفِي
الْحَيَاةَ لَسَلَّمْتُ إِلَيْكَ أَعَزَّ حَقُوقِي ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مَدِينًا لِلْمَلَاظِفَتِكَ ،

وإنما أريد نَيْلَ كلِّ شيء من فؤادك .
ويا إميلُ الصالح ، قَرَّ عَيْنًا ، فَصُوفِيَّةٌ من الكَرَمِ البالغِ ما لا تَدْعُكَ
تَمُوتُ معه ضَحِيَّةَ كَرَمِكَ .

وفي المساء ، عندما أوشكتُ أن أترُكهما ، قلتُ لهما بأقصى ما يُمكنني
من لُحْجَةٍ رصينة : « لِيَذْكُرْ كُلُّ مَنْكَا أَنَّهُ طَلِيقٌ وَأَنَّهُ لَا مَحْلَ لِلْبَحْثِ فِي
وَأَجِبَاتِ الْأَزْوَاجِ الْآلَنِ ، وَصَدَّقَانِي أَنَّهُ لَا إِكْرَامَ كَاذِبٌ ، فَيَا إِمِيلُ ، أَتُرِيدُ
الْجُحَى مَعِيَ ؟ فَصُوفِيَّةٌ تَأْذِنُ فِي هَذَا » ، وَيَكَادُ إِمِيلُ يُضْرِبُنِي غَضَبًا ،
« وَأَنْتِ ، يَا صُوفِيَّةُ ، مَا تَقُولِينَ ؟ هَلْ آخِذُهُ ؟ » ، وَتَقُولُ الْكَاذِبَةُ ، وَقَدْ
أَحْمَرَّ وَجْهَهَا خَجَلًا : « نَعَمْ » ، فَهَذَا الْكَذِبُ الْمَذْبُوبُ الْفَاتِنُ أَفْضَلُ
مِنَ الْحَقِيقَةِ !

وفي اليوم التالي . . . تَعُودُ صُورَةُ السَّعَادَةِ لَا تُجَاوِزُ الرِّجَالَ ، فَمَا كَانَ
فَسَادُ الْعَيْبِ أَقْلَ إِفْسَادًا لِدَوَقِهِمْ مِمَّا لِقُلُوبِهِمْ ، وَهُمْ يَعُودُونَ لَا يَشْعُرُونَ بِمَا
هُوَ مُؤَثِّرٌ وَلَا يَرَوْنَ مَا هُوَ سَارٌّ ، وَأَتَمُّ أَثَرِهَا الَّذِينَ لَا يَتَمَثَّلُونَ ، لِتَصْوِيرِ
الشَّهْوَةِ ، غَيْرَ عَاشِقِينَ سَعِيدِينَ غَارِقِينَ فِي سَوَاءِ الْمَلَادِّ تَكُونُ أَلْوَا حُكْمِ
نَاقِصَةً ! فَلَا يَكُونُ لَدَيْكُمْ مِنْهَا غَيْرُ أَغْلَظِ النِّصْفَيْنِ ، وَأَمَّا أَذْبُ جَوَاذِبِ
اللَّذَّةِ فَلَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مُطْلَقًا ، وَمَنْ مِنْكُمْ لَمْ يَرَ ، قَطُّ ، زَوْجِينَ شَابَّيْنِ
جَمَعَ بَيْنَهُمَا أَسْعَدُ طَالِعٍ فَخَرَجَا مِنَ الْحِجَلَةِ* حَامِلَيْنِ فِي نَظَرَاتِهِمَا الذَّابِلَةَ
الطَّاهِرَةَ نَشْوَةَ الْمَلَادِّ الْعَذْبَةِ الَّتِي تَمْتَعُ بِهَا وَضْمَانُ الْعَفَافِ وَالْيَتِيمَيْنِ الْفَاتِنِ
بَأَن يَفْضِيَا بَقِيَّةَ أَيَّامِهِمَا مَعًا ؟ فَهِيَ هُوَذَا أُسْحَرُ مَا يُسَكِّنُ أَن يُقَدَّمَ إِلَى

* الْحِجَلَةُ : سِتْرُ الْمَرْءِ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ .

قلب الرجل ، وها هو ذا لَوْحُ الشهوة الحقيقيُّ ، ولقد رأيتُموه مئةَ مرةٍ من غير أن تُعرِّفوه ، وقد عادت قلوبكم القاسية لا تكون قد صُنِعَتْ لِجِبَّةٍ ، وَتَقْضَى صُوفِيَّةُ السعيدةِ الوديمةِ نهارَها بين ذراعى أُمِّها الحنون ، وهذه استراحةٌ حُلوةٌ تنالُها بعد أن قضت الليلةَ بين ذراعى زوجها .

وفي اليوم الثالث أَبْصِرُ تَفَيُّراً في المنظر ، وذلك أن إميل يُريدُ إظهارَ شيءٍ من الاستياء ، ولكنني أَلْحِظُ من خِلَالِ هذا التظاهر نشاطاً رقيقاً ، حتى إِذْغَاناً كثيراً ، لا أَتَوَقَّعُ منه ما يُغْنِي ، وأما صُوفِيَّةُ فهي أعظمُ مَرَحاً مما كانت عليه عَشِيَّةً ، وأَرَى في عَيْنِهَا التَّمَاعَ ظاهراً مُرضِياً ، وهي تَبْدُو مع إميلَ فاتنةً ، وهي تُبْدِي له من الدَّلَالِ ، تقريباً ، ما يعودُ منه غيرَ غاضبٍ . ولا تكاد هذه التحولاتُ تكون ظاهرةً ، ولكنها لا تَفُوتُنِي ، وهي تَشْفَلُ بَالِي ، وأَسْأَلُ إميلَ على انفرادٍ ، فأَعْلَمُ أنه ، على ما أَبْدَى من لَهْفٍ كبيرٍ ، ومع كلِّ ما أَظْهَرَ من إلهافٍ كثيرٍ ، لم يُسَمِّحْ له بأن يشاطرَ صُوفِيَّةَ فَرَاشِهَا في الليلةِ الماضيةِ ، فقد بادرت هذه المُتَسَكِّبَةُ إلى استعمالِ حقها ، وَيُصَارُ إلى التفسيرِ ، وَيَأْلَمُ إميلُ أَلماً مُراً ، وَتَضَحُّكُ صُوفِيَّةُ ، ولكنها ، إِذْ تُبْصِرُ ، على أثر ذلك ، أن إميلَ يوشِكُ أن يَجْرَدَ ، تُلقِي عليه نظرةً مملوءةً لطافةً وغراماً ، ولا تَنْطِقُ ، وهي تصاغني ، ولكنْ بِلَهْجَةٍ تَنْفُذُ في الفؤادِ ، بغيرِ كلمةٍ ، « كَنُود ! » ، ويكونُ إميلُ من الغبارةِ ما لا يَذْرِكُها معه ، وأما أَنَا فاذْرِكُ ، وَأُبْعِدُ إميلَ ، وَأَتَنَاوَلُ صُوفِيَّةَ بِدَوْرِهَا على انفرادٍ . وأقولُ لها : « أَبْصِرُ سَبَبَ هذه النَّزْوَةِ ، ولا أَحَدٌ يَكُونُ أَكْثَرَ لطافةً ، ولا أَحَدٌ يستعملُ هذه اللطافةَ بما هو أَكْثَرُ سوءاً ، فيا صُوفِيَّةُ

العزيزة ، قرّى عينًا ، فهذا رجلٌ أعطيتكِ إياه ، ولا تخافى أن تعامله هكذا ، وقد اقتطفتِ بواكيرَ شبابه ، وهو لم يجذُ بشبابه على أحدٍ ، وهو سيحتفظ به من أجلكِ زمنًا طويلاً .

« ويجبُ ، يا بُنتي العزيزة ، أن أوضحَ لك ما أبديتُ من آراءٍ في أثناء الحديث الذى دار بيننا منذ ثلاثة أيام ، ومن المحتمل ألا تكوفى قد أبصرتِ فيه غيرَ وسيلةٍ داريتُ بها ملاذًا كما إدامةً لها ، أى صُوفية ! كان لذلك الحديث من الأغراض ما هو أكثرُ جدارةً بجهودى ، فإميلُ إذ صار زوجًا لك أصبحَ قوَّامًا عليكِ ، فعليكِ أن تطيعيه ، وهذه هى مَشيئةُ الطبيعة ، ومتى شابهتِ المرأةُ صُوفيةً كان من الصالح ، مع ذلك ، أن يُقَادَ بها ، وهذه هى سنة الطبيعة أيضًا ، وقد جعلتُكِ حَكَمًا فى أمر مَلَاذِهِ كَيْمَا يكونُ لكِ من السلطان على فؤاده ما يُعَدِلُ السلطانَ الذى مَنَحَهُ جنسُهُ إياه على شخصكِ ، أجلُ ، سيُكَلِّفُكِ هذا حِرْمَانَاتٍ شاقَّةً ، ولكنك ستسيطرين عليه إذا عَرَفْتِ أن تسيطرى على نفسك ، وما وَقَعَ يدلُّنى على أن هذا الحِذْقَ البالغَ الصعوبةَ ليس فوقَ قوَّةِ جَنَانِكِ ، وستسيطرين بالحبِّ زمنًا طويلاً إذا ما جعلتِ أطفالكِ نادرةً ثمينةً وإذا ما عَرَفْتِ حسنَ استثمارِها ، وإذا أردتِ أن تَرَى زوجك عند قدميكِ بلا انقطاع فاجْعَلِي بينه وبين شخصكِ بعضَ المسافةِ دائماً ، ولكن لَتَكُنْ شِدَّتُكَ نتيجةً اعتدالٍ لا نتيجةً نزوةٍ ، وليَجِدْكِ فطونًا ، لا جَوحًا ، واحترزى حين مداراته لِحُبِّهِ أن يرتاب من حُبِّكِ ، وغالى بِنَفْسِكَ فى أطفالكِ ، وأُكْرِمِي نَفْسَكَ عند منعكِ حُطُواتك ، وليُجِلَّ عَفَافَ زَوْجِهِ غيرَ متوجِّعٍ من فُتُورِها .

« وهكذا يَمْنَحُكَ ثِقَتَهُ يَا بُنَيَّتِي ، وَبُصْنِي إِلَى آرَائِكَ ، وَيَسْتَشِيرُكَ فِي شُؤْنِهِ ، وَلَا يَقْطَعُ أَمْرًا قَبْلَ أَنْ يَذَاكِرَكَ فِيهِ ، وَهَكَذَا يُسَكِّنُكَ أَنْ تَدْعِيَهُ إِلَى سَبِيلِ الْحِكْمَةِ إِذَا مَا ضَلَّ ، وَأَنْ تَرُدِّيَهُ إِلَى هَذِهِ السَّبِيلِ بِالْإِقْنَاعِ اللَّيِّنِ ، وَأَنْ تُحِبِّي نَفْسَكَ لِتَكُونِي نَافِعَةً ، وَأَنْ تَكُوْذِي بِالذَّلَالِ مِنْ أَجْلِ الْفَضِيلَةِ ، وَأَنْ تَعُوْذِي بِالْغَرَامِ مِنْ أَجْلِ الْعَقْلِ .

« وَلَا تَقْنِي ، مَعَ جَمِيعِ هَذَا ، أَنْ هَذَا الْحَذَقَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِمَقَاصِدِكَ دَائِمًا ، فَهَمَا يُمَكِّنُ اتِّخَاذَهُ مِنْ اجْتِنَاطٍ فَإِنْ التَّمَتَّعَ يُوهِنُ الْمَلَاذَّ ، وَالْحُبَّ قَبْلَ غَيْرِهِ ، وَلَكِنْ الْحُبُّ إِذَا مَا دَامَ زَمَنًا طَوِيلًا مَلَأَتْ فِرَاقَهُ عَادَةُ حُلُوءٍ وَعَقَبَتْ جَازِيَةُ الثَّقَةِ فَائِزَ الْهَوَى ، وَيَتَأَلَّفُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، بَيْنَ مَنْ أَنْعَمُوا عَلَيْهِمُ بِالْوُجُودِ ، رَابِطَةٌ لَا تَقِلُّ حِلَاوَةً عَنِ الْحُبِّ نَفْسَهُ ، وَهِيَ تَكُونُ أَقْوَى مِنْهُ غَالِبًا ، وَمَتَى عُدْتَ غَيْرَ خَلِيلَةٍ لِإِمِيلَ غَدَوْتَ امْرَأَتَهُ وَصَدِيقَتَهُ وَكُنْتَ أُمًّا لِأَوْلَادِهِ ، وَهَنَالِكَ أَقْبَى بَيْنَكُمَا أَعْظَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الْفُتَى بَدَلًا مِنَ الْإِحْتِرَازِ الْأَوَّلِ ، فَلَا سَرِيرَ مُنْفَصِلٍ ، وَلَا امْتِنَاعَ وَلَا نِزَوَاتٍ ، وَابْنَانِي مِنْ كَوْنِكَ نِصْفًا لَهُ مَا لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْنَى عَنْكَ مُطْلَقًا ، فَإِذَا مَا تَرَكَّكَ شَعَرَ بِأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاجْعَلِي سِخْرَ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَةِ يُهَيِّمُنَ عَلَى بَيْتِكُمَا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتَهُ يَهَيِّمُنَ عَلَى بَيْتِ أَيْيِكَ ، فَكُلُّ رَجُلٍ يَطِيبُ لَهُ أَنْ يُقِيمَ بِمَنْزِلِهِ يُحِبُّ امْرَأَتَهُ ، وَإِذَا كُرِيَ أَنْ زَوْجَكَ إِذَا مَا عَاشَ سَعِيدًا فِي بَيْتِهِ كُنْتَ زَوْجَةً سَعِيدَةً .

« وَأَمَّا الْآنَ فَلَا تَكُونِي كَثِيرَةَ الْقِسْوَةِ عَلَى عَاشِقِكَ ، فَقَدْ يَسْتَحِقُّ أَعْظَمَ مَلَاطِفَةٍ ، وَمَا يَسِيءُ إِلَيْهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَخَافِكَ ، وَلَا تَبَالُغِي فِي

مدارة صحته على حساب سعادته ، وتمتعي بسعادتك ، ولا ينبغي لك انتظار نُفُورٍ ولا رفضٍ رغبةٍ ، بل مغالاةٌ بحظواتك .

ثم أجمعهما وأقول لزوجها الشاب أمامها : « لا بدّ من احتمال النّير الذي يُفرض ، واضنّع ما تستحقّ معه أن يكون خفيف الوطأة عليك ، وضخّ في سبيل الألفاف على الخصوص ، ولا يبدّد لك أنك تكون أكثرَ حُظوةً إذا ما أبديتَ استياءك » ، ولا يضعّب إقرارُ السلام ، وكلّ يسهل عليه أن يرتاب من الأحوال ، وتُنصّي المعاهدة بقُبلة ، ثم أقول لتلميذى : « أى إميل العزيز ، يحتاج كلُّ إنسانٍ في حياته إلى مستشارٍ ودليل ، ولم آلُ جهداً ، حتى الآن ، في القيام بهذا الواجب نحوك ، وهنا ينتهى عملى الطويل ويبدأ عملٌ غيرى ، واليوم أنخلى عن السلطان الذى عهدت به إلىّ ، وها هى ذى مُرَبَّيتك من الآن فصاعداً » .

ويستكنّ الهذيان الأول مقداراً فقذاراً ، ويدعهما يذوقان فتونَ حالهما الجديدة بسلام ، ويا للعاشقين السعدين ! ويا للزوجين الفاضلين ! تقضى الإشادة بفضائلهما ، ويقضى وصفُ سعادتهما ، وضعّ تاريخٍ عن حياتهما ، وما أكثرَ ما خفق قلبى عند ما أبصرُ تنويجَ أثرى بهما ! وما أكثرَ ما جمعتُ يديهما فى يدى شاكرًا للربّ مُتَنَفِّسًا الصُّعْدَاءَ بحرارة ! وما أكثرَ ما طبعْتُ من قُبَلاتٍ على تينكَ اليدين المتصافيتين ! وما أكثرَ ما بلّلتُ دموعُ فرحهما يدى ! ويرقان بدورهما حينما يقاسمانى هيمانى ، دَعُ والديهما الجليلين اللذين يتمتعان بشبابهما مرةً أخرى فى صورةٍ ولديهما ، ومن ثمّ يستأنفان الحياةَ فيهما ، وإن شئتَ فقلّ إنهما يعرفان قيمة الحياة للرة

الأولى ، فيلْعَنَانُ ثَرَاهَا الأول الذى حال دون تمتعهما ، وهما فى مثل ذلك الدَّوْر من العُمُر ، بنصيبٍ بالغِ ذاك المقدارَ من الفُتُون ، وإذا بما وُجِدَتْ فى الأرض سعادةٌ وجب البحثُ عنها فى المأوى الذى نعيش فيه .

وَنَمَضَى بضعةً أشهرٍ فَيَدْخُلُ إميلُ غُرفتي ذاتَ صباحٍ ويقول لى وهو يعانقنى : « هَيَّيْ وَلَدَكَ يا معلمى ، فهو يأْمَلُ أن يتال شَرَفٌ كَوْنِهِ أَبًا عما قليل ، آه ! يا لَلْجُهود التى تُفَرِّضُ على نشاطنا ! ويا لَلْكَثْرَةَ ما نحتاج إليك ! ومعاذ الله أن أترك لك تربيةَ الابن بعد أن قُفِّمْتَ بتربية الأب ، ومعاذ الله أن يَقُومَ غيرى بواجبِ مقدسٍ عَذِبَ كَذَاكَ ، ولو قُضِيَ بَأَن اختارَ له مثلما اختيرَ لى ! ولكن دُمُ معلِّمًا لَشُبَّانِ المعلمين ، وانصَحْنَا وَسَيَطِرْ عَلَيْنَا تَجِدُنَا طائعين ، وسأحتاج إليك ما دمتُ حيًّا ، والآن ، حين تَبْدَأُ واجباتى مِثْلَ رجلٍ أحتاج إليك أكثرَ مما فى أىِّ زمنٍ كان ، أَجَلْ ، لقد قُفِّمْتَ بواجباتك ، فوجَّهْنى حتى أُسِيرَ على غرارك ، واسترِّحْ ، فقد حَلَّ الوقت » .

الفهرس

صفحة	
٥	مقدمة المترجم
١٧	مقدمة المؤلف
٢٥	الجزء الأول
١٠١	الجزء الثاني
٢٧٥	الجزء الثالث
٣٦٧	الجزء الرابع
٦٥٣	الجزء الخامس

تصويب

ص	س	صواب	ص	س	صواب	ص	س	صواب
٢٣٣	١٨	جيداً	٤٠٧	١٥	المؤيد	٥٦٨	٥٤	، ينزعون
٢٤٠	٨	ويوههن	٤٢٩	٢	لا تجرون	٥٨٢	١٣	ما لم
٢٥٨	١١	موضوعي	٤٣٩	١٩	الحين	٧٣٠	١٨	تكره
٢٦٧	١٨	عظيماً	٤٤٧	١٥	وتحتل	٨٨٣	١٤	فيه في عصر الحاسين

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

